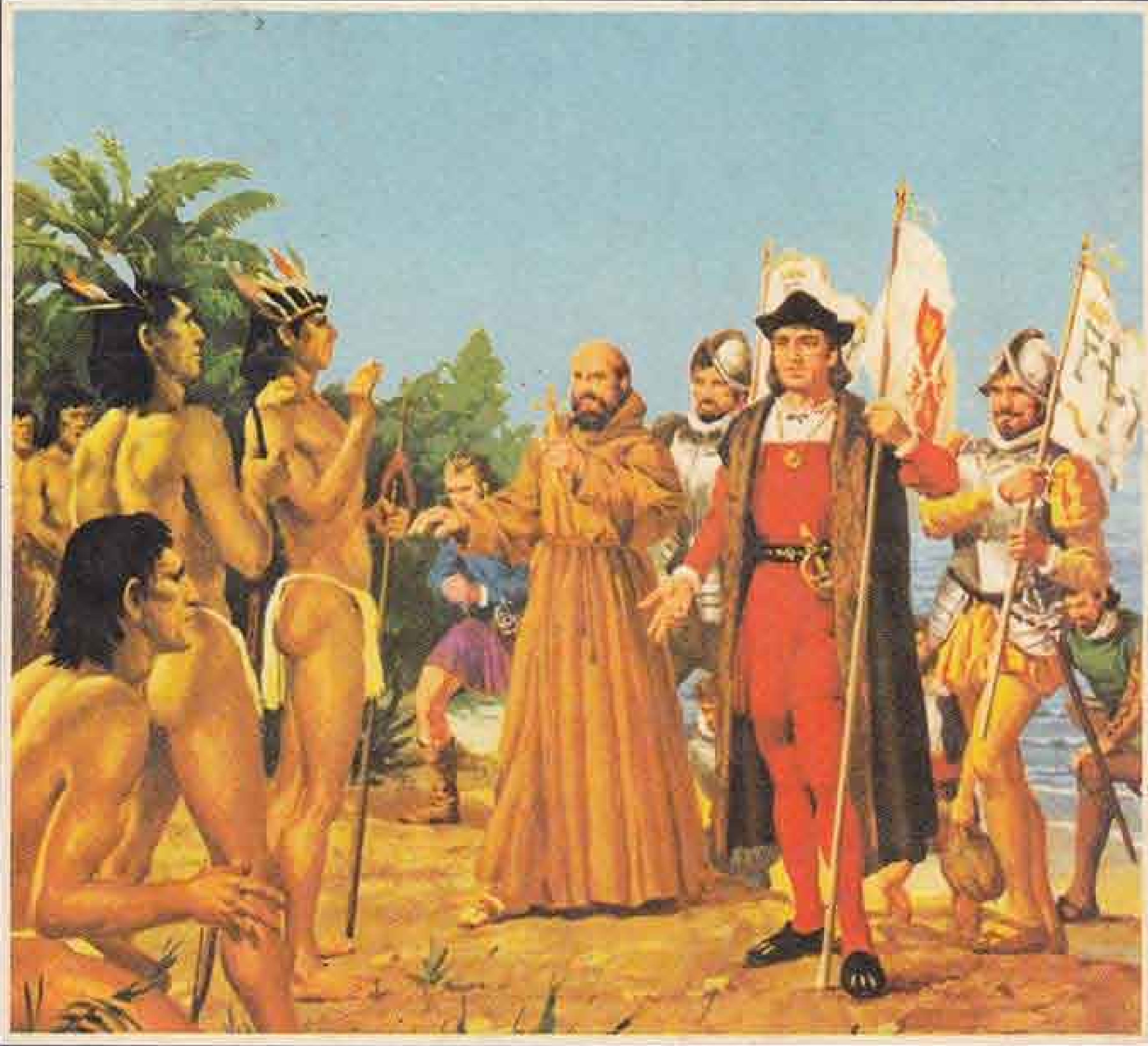
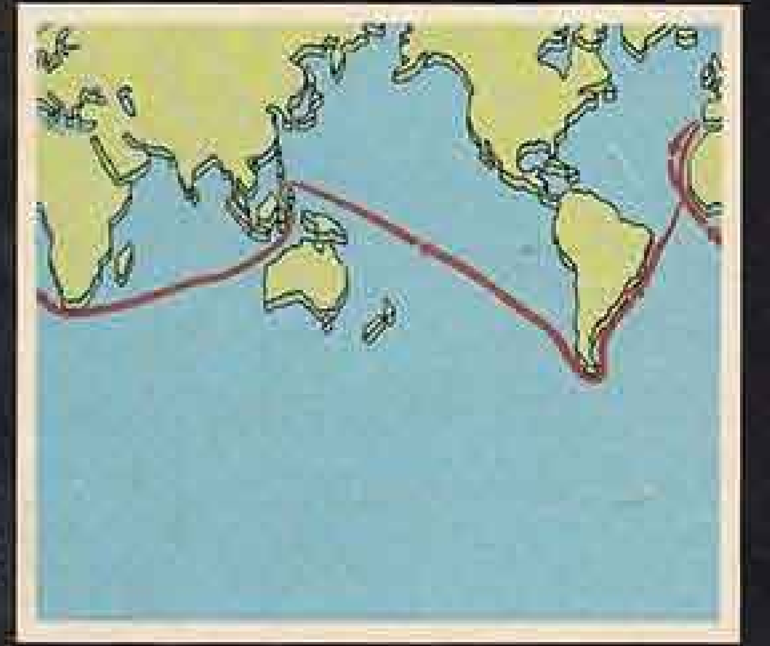
بَهْجَة المَعرِفَة

موسوعة علميّة مصوّرة









المجموعة الثانية

٤

مسيرة الحضارة

مجلد ثان

بسم الله الرحمن الرحيم

بهجة المعرفة
موسوعة علميّة مصوّرة

مسيرة الحضارة

مجلد ثان

المجموعة الثانية

٤





Derived from the Joy of Knowledge «TM» Services

The Publishers declare that an important part of the illustrations was derived from the I. V. R. Artwork Bank © 1974

هيئة تحرير الموسوعة :

إشراف : الصادق النيهوم
رئيس قسم التحرير : الدكتور كريم عزقول
المدير الفني : فاروق البقيلي

ساهم في إعداد هذا المجلد :

ترجمة :

الدكتور ماجد فخري
- دكتور بالفلسفة من جامعة أدنبره .
- استاذ الفلسفة العربية والغربيّة في جامعة لندن وجامعة جورجتاون بواشنطن سابقا .
- استاذ الفلسفة في الجامعة الامريكية في بيروت .
- رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت سابقا .

دراسات خاصّة :

الدكتور عبد الكريم رافق
- دكتور في التاريخ من جامعة لندن .
- استاذ التاريخ العربي في كلية الآداب بجامعة دمشق (رئيس قسم التاريخ سابقا) .

الدكتور قسطنطين زريق
- دكتور في التاريخ من جامعة برنستون .
- رئيس الجامعة السورية (جامعة دمشق) ١٩٤٩ - ١٩٥٢ .
- رئيس بالوكالة للجامعة الامريكية في بيروت . ١٩٥٤ - ١٩٥٧ .
- استاذ ممتاز للتاريخ في الجامعة الامريكية في بيروت .

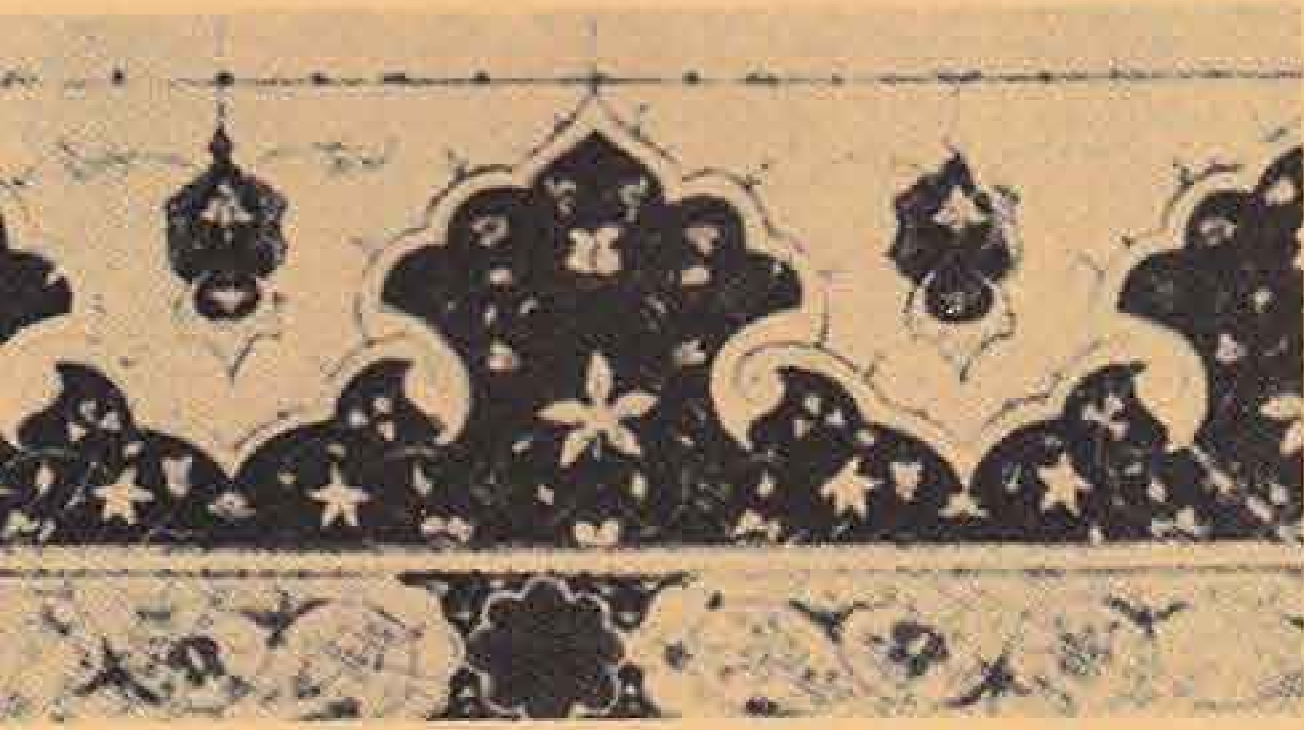
الدكتور نقولا زياده
- دكتور في التاريخ من جامعة لندن .
- استاذ التاريخ العربي في الجامعة الامريكية في بيروت ، ١٩٤٩ - ١٩٧٣ .
- استاذ شرف ، قسم التاريخ ، في الجامعة الامريكية في بيروت .
- استاذ زائر بجامعة هارفارد (١٩٥٧ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٢ - ١٩٦٣)
- استاذ زائر - الجامعة الاردنية بعمان (١٩٧٦ - ١٩٧٨) وفي جامعة الكويت وجامعة عليكرة الاسلامية بالهند .

الدكتور عبد الكريم غرايبه
- دكتور في التاريخ من جامعة لندن .
- استاذ التاريخ العربي في جامعة دمشق ، ١٩٥٧ - ١٩٦٢ .
- استاذ التاريخ العربي الحديث في الجامعة الاردنية بعمّان .
- عميد كليّة الآداب في الجامعة الاردنية سابقا .

الدكتور محمد مخزوم
- دكتور في التاريخ من جامعة غرينوبل .
- استاذ مساعد - قسم التاريخ - كليّة الآداب ، في الجامعة اللبنانية .

مراجعة :
الدكتور شاكر مصطفى

التنفيذ الفني : أوصاف البقيلي



فهرس

هذه الموسوعة ٨
خطة التحرير ١٤

آسيا وأوروبا حتى ١٥٥٠

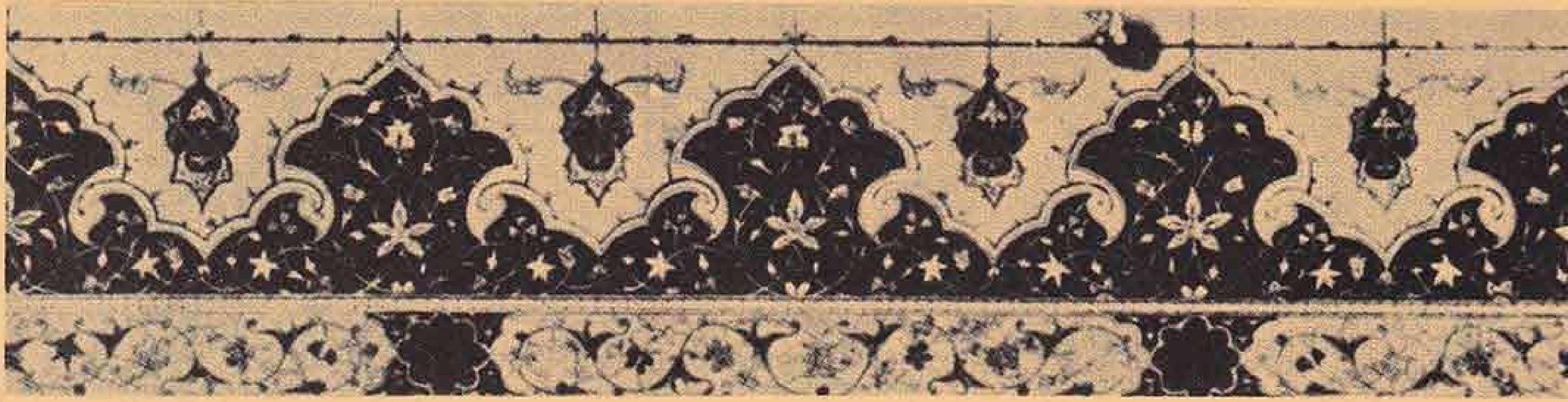
البلاد الاسلامية وزوال الخلافة العباسية ٢٠
الشرق الاسلامي في العصر المغولي (١) الأحوال السياسية ٢٤
الشرق الاسلامي في العصر المغولي (٢) الآداب والفنون .. ٢٨
ظهور المماليك في المشرق العربي ٣٢
الدولة المملوكية ٣٦
الاقتصاد والثقافة في عصر المماليك ٤٠
الفنون في العصر المملوكي ٤٤
الأندلس والمغرب بين القرنين
١١ و ١٦ (١) السياسة ٤٨
الأندلس والمغرب بين القرنين
١١ و ١٦ (٢) الثقافة والفنون ٥٢
الصين الى ١٣٦٨ .... ٥٦
الفن الصيني الى ١٣٦٨ .... ٦٠
الفن الياباني ٦٤
الامبراطورية البيزنطية ٦٨
الفن البيزنطي ٧٢
هيمنة الكنيسة في الغرب ٧٦
الحركة الفكرية في أوروبا في القرن الثالث عشر ٨٠
نشوء الأمة الفرنسية ٨٤
الأدب والدراما في العصور الوسطى ٨٨
المجتمع الأوروبي ١٢٥٠ ـ ١٤٥٠ .... ٩٢
نشأة البرلمان ٩٦
حرب المئة سنة ١٠٠
الفن القوطي وتطوره ١٠٤

الامبراطوريات

ظهور الدولة العثمانية الى ١٦٠٠ .... ١٠٨
توسع الامبراطورية العثمانية ١١٢
تنظيم الدولة العثمانية ١١٦
الامبراطورية العثمانية والخصوم الجدد ١٢٠
الامبراطورية العثمانية ودور التقهقر ١٢٤
العمارة والفنون في العهد العثماني ١٢٨
اوروبا تتعرف الى العالم ١٣٢
امبراطوريات المغول الآسيوية ١٣٦
امبراطوريات جنوب شرق آسيا ١٤٠
انتشار الاسلام في آسيا ١٤٤
الامبراطوريات الافريقية والاسلام ١٤٨
شرق افريقيا والاسلام ١٥٢
امريكا الوسطى الى ١٥٢١ .... ١٥٦
كولومبيا والبيرو الى ١٥٣٤ .... ١٦٠
عصر الاستكشاف الجغرافي ١٦٤
الأمريكتان: الاحتلال والاستيطان ١٦٨
نموّ المصارف ١٧٢
الحياة السياسية في أوروبا ١٤٥٠ ـ ١٦٠٠ .... ١٧٦

من عصر النهضة الى عصر التنوّر

عصر النهضة: الاتجاه الانساني ١٨٠
الموسيقى في عصر النهضة ١٨٤
الفن الفلورنسي ١٨٨
النهضة الفلاندرية ١٩٢
الفن الايطالي ١٤٥٠ ـ ١٤٩٠ .... ١٩٦
فلورنسا وروما: النهضة في أوجها ٢٠٠
النهضة في أوجها في شمال ايطاليا ٢٠٤
النهضة في المانيا وهولندا ٢٠٨
النهضة في فرنسا ٢١٢
المدرسة التصنعيّة في الفن ٢١٦
حركة الاصلاح الديني ٢٢٠
الاصلاح الديني في انكلترا ٢٢٤
حركة الاصلاح الديني المقابلة ٢٢٨
اليصابات والأرمادا ٢٣٢
الاستكشاف والتجارة الانجليزيّان في القرن السادس عشر . ٢٣٦



الأدب الانجليزي في عصر النهضة ٢٤٠
شكسبير والمسرح الأليصاباتي ٢٤٤
الثورة الانجليزية ٢٤٨
أوروبا ١٥٠٠ ـ ١٧٠٠ .... ٢٥٢
العلم والتقنيات ١٥٠٠ ـ ١٧٠٠ .... ٢٥٦
فن الباروك : الأسلوب والمحتوى ٢٦٠
فن الباروك : الرعاية والتطوّر ٢٦٤
الرسم الهولندي في عصره الذهبي ٢٦٨
عصر لويس الرابع عشر ٢٧٢
الأدب الفرنسي الكلاسيكي ٢٧٦
نشأة الأوبرا ٢٨٠
روسيا في العصور الوسطى ٢٨٤
ظهور روسيا الحديثة ٢٨٨
الاستبداد المتنوّر ٢٩٢

البلاد العربية ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠

البلاد العربية ١٥٠٠ ـ ١٧٠٠ (١) ٢٩٦
البلاد العربية ١٥٠٠ ـ ١٧٠٠ (٢) ٣٠٠
البلاد العربية في القرن الثامن عشر ٣٠٤
مصر وبلاد الشام في القرن الثامن عشر ٣٠٨
العراق والجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ٣١٢
المغرب العربي : الايالات العثمانية الى حوالى ١٨٠٠ ... ٣١٦
المغرب الاقصى الى حوالى ١٨٠٠ .... ٣٢٠
اقتصاديات المشرق العربي الى حوالى ١٨٠٠ (١) ٣٢٤
اقتصاديات المشرق العربي الى حوالى ١٨٠٠ (٢) ٣٢٨
اقتصاديات المغرب العربي (١)
حتى مطالع القرن ١٨ .... ٣٣٢
اقتصاديات المغرب العربي (٢)
في القرن الثامن عشر ٣٣٦
الحياة الفكرية العربية في القرن ١٨ (١)
المنطلقات ٣٤٠
الحياة الفكرية العربية في القرن ١٨ (٢)
رجال العلم والفكر ٣٤٤

من عصر التنوّر الى عهد الثورات

أوروبا : الاقتصاد والمجتمع ١٧٠٠ ـ ١٨٠٠ .... ٣٤٨
الثورة الزراعية ٣٥٢
عصر التنوّر ٣٥٦
الاستكشاف العلمي ١٧٥٠ ـ ١٨٥٠ .... ٣٦٠
الأدب الأوروبي في القرن الثامن عشر ٣٦٤
الروكوكو ٣٦٨
اوائل الباليه ٣٧٢
موسيقى الباروك والموسيقى الكلاسيكية ٣٧٦
الكلاسيكية الجديدة ٣٨٠
الاقتصاد الدولي ١٧٠٠ ـ ١٨٠٠ .... ٣٨٤
السياسة البريطانية الاستعمارية
في القرن الثامن عشر ٣٨٨
الهند من عهد المغول الى ١٨٠٠ .... ٣٩٢
الفن الهندي في العصر المغولي ٣٩٦
الصين من ١٣٦٨ الى حوالى ١٨٠٠ .... ٤٠٠
اليابان ١١٨٥ ـ ١٨٦٨ .... ٤٠٤
افريقية السوداء ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠ .... ٤٠٨
الفن الافريقي ٤١٢

الثورات وأسس العالم المعاصر

الاستيطان في أمريكا الشمالية
والثورة الأمريكية ٤١٦
بدايات الثورة الصناعية ٤٢٠
أصول الرومنطيقية ٤٢٤
الثورة الفرنسية ٤٢٨
أوروبا النابوليونية ٤٣٢
نابوليون في المشرق ٤٣٦
نلسون وولنجتون ٤٤٠
الفن الرومنطيقي : الرسم ٤٤٤
مؤتمر ڤيينا ٤٤٨

هـذه الموسوعـة

لأول مرة في لغتنا العربية .

لأول مرة في تاريخنا بأسره ، تصدر عندنا موسوعة مصورة ومعدة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي .

لم يكن بوسعنا أن نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا العربية ، ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في اكثر لغـات العالم تقدماً . وقد انفقنا بعض الوقت ونحن نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم « الحل الوسـط » ، لكن البحث نفسه لم يعلِّمنا شيئاً سوى أنه ليس ثمة حل وسط لأداء أي عمل جدي .

وذهبنا الى القمة .

اتصلنـا بدور النشر شرقـاً وغربـاً ، وفحصنـا اعمالهم بكل ما في حوزتنا من رغبـة في التـدقيق ، واخترنا أفضل ـ واحدث ـ عمل بينها ، ثم اندفعنا نفاوض على حقوق نشره في ملحمة مرهقة ، وغريبة بعض الشيء عن عالـم منتجـي الموسوعـات في الغرب . فلـم نكن نفـاوض على الثمـن ، بل على حقنا في تنقيح المادة ، وكان ذلك الطلب يدهشهم ـ احياناً ـ أكثر مما نتمنى .

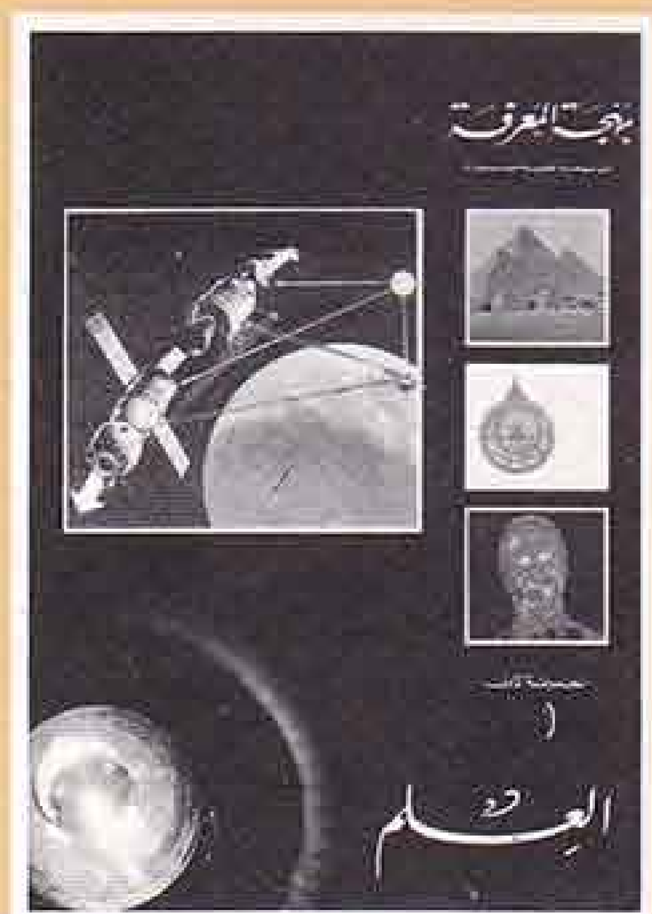
بالتدريج تعلمنا أن نشرح لهم موقفنا . بالتدريج بدأنا نقنعهم بأننا لا نريد أن ننقل عملهم الى اللغة العربية ، بل نريد ان نعدَّ لانفسنا موسوعة عربية تخصنا ، وتعكس روحنا وبيئتنا وذوقنا ، وترى الاشياء من وجهة نظرنا ، اذا كان لا بد أن تراها من وجهة نظر أمة ما .

وتقبَّلوا فكرتنا في دار ميتشل بيزلي ذات الدور الرائد في ابتكار الموسوعات المصورة ، وانفتح الباب الذي ظل مغلقاً طوال تاريخنا القديم والحديث على حد سواء ، وبدأنا بالعمل لتقديم اول انتاج موسوعي متكامل في لغتنا العربية ، بعد ان تقررت خطة التنفيذ خلال جلسة شبه عائلية بين ثلاثة من المسئولين عن التنفيذ .

في تلك الجلسة تقرر اولا اننا سنواجه مشكلة صعبة في نقل المصطلحات الى حد قد يدعونا احياناً الى استعمال الكلمة اللاتينية حرفياً . وبالنسبة لهذه النقطة ، كان الحل الوحيد لدينا هو أن نوكل الترجمة الى اساتذة جامعيين في المادة نفسها ، وليس فقط الى مجرد مترجمين ، في محاولة حافلة بالتوقعات لحمل الخبير العربي على مواجهة مشاكل لغته المعاصرة ، واشراكه في مسئولية البحث عن الكلمة الأفضل والاكثر قرباً الى روح ثقافتنا وشخصيتنا .

ابعد من ذلك لم يكن بوسعنا ـ ولم يكن من حقنا أصلاً ـ أن نمضي شبراً واحداً . فنحن لا نتصدى لكتابة لغة جديدة للعرب ، بل لتسجيل معلومات جديدة في لغتهم ، وهي اقصى مهمة تستطيع أية موسوعة أن تؤديها .

في تلك الجلسة تقرر أيضاً أن الترجمة على أي حال ليست هي وحدها كل المشكلة . فمنهج التحرير نفسه في تغطية مواد الموسوعة الانجليزية منهج لا يلبي جميع احتياجاتنا . أنه يهيىء لنا مادة علمية ممتازة العرض والتنسيق في مجلدات « الكون » و « الأرض » و « الحياة » ، لكن اهتماماته في مجلدات اخرى مثل « الانسان والمجتمع » ، و « مسيرة



من مواضيع المجلد :
- النظرية الذرية
- الحرارة والضوء والصورة
- الكهرباء
- الكيمياء . . .

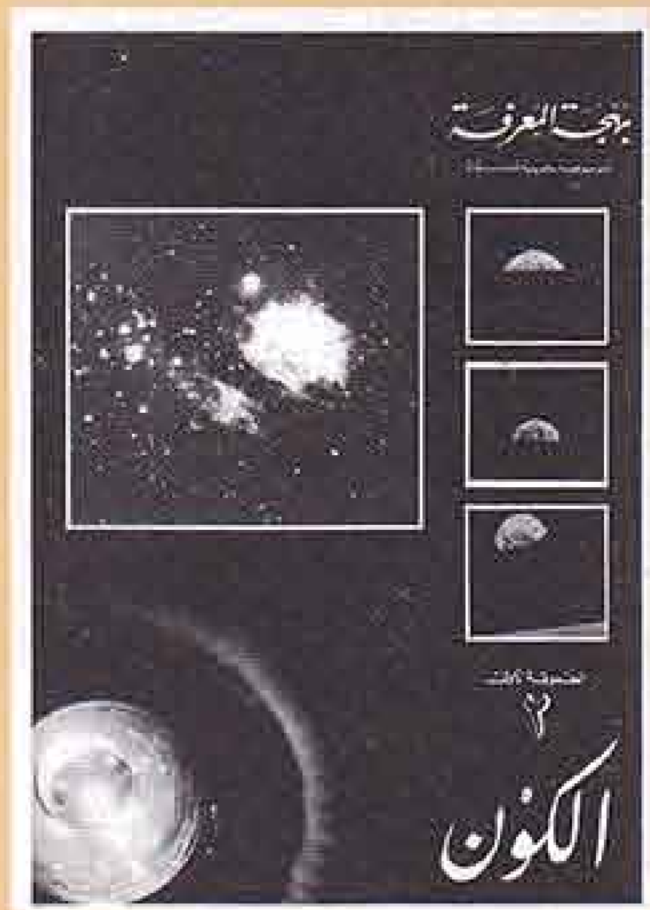
الحضارة » ، لا تغطي كثيراً مما يهمنا نحن في الدرجة الأولى .

بالنسبة لهذه النقطة كان الحل لدينا هو أن نعيد اخراج الموسوعة بأسرها في مجموعتين : -

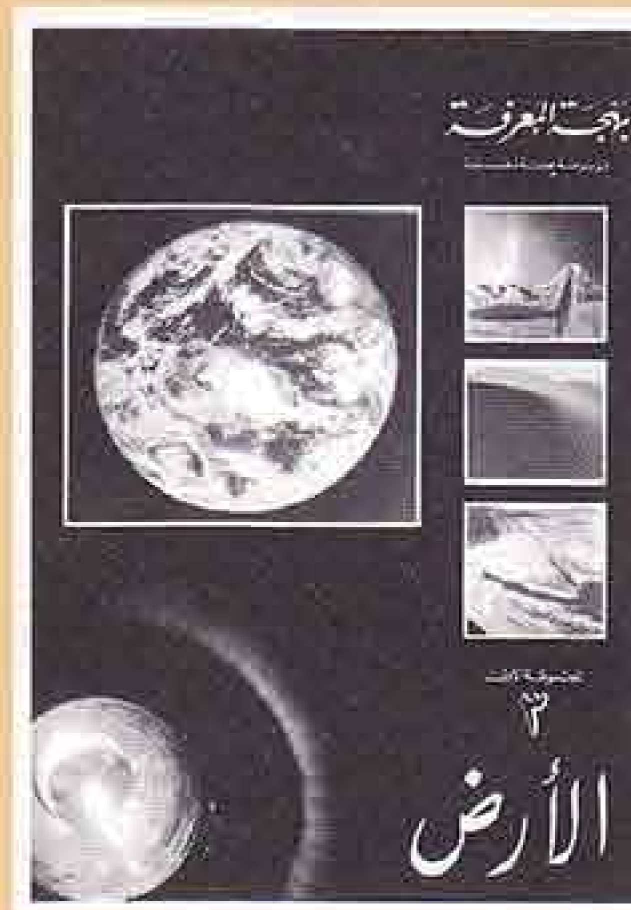
المجموعة الأولى موجهة لتغطية ميادين العلوم الطبيعية المعاصرة في المجلدات الخمسة التالية :

١) العلم
٢) الكون
٣) الأرض
٤) الحياة
٥) الاداة والآلة

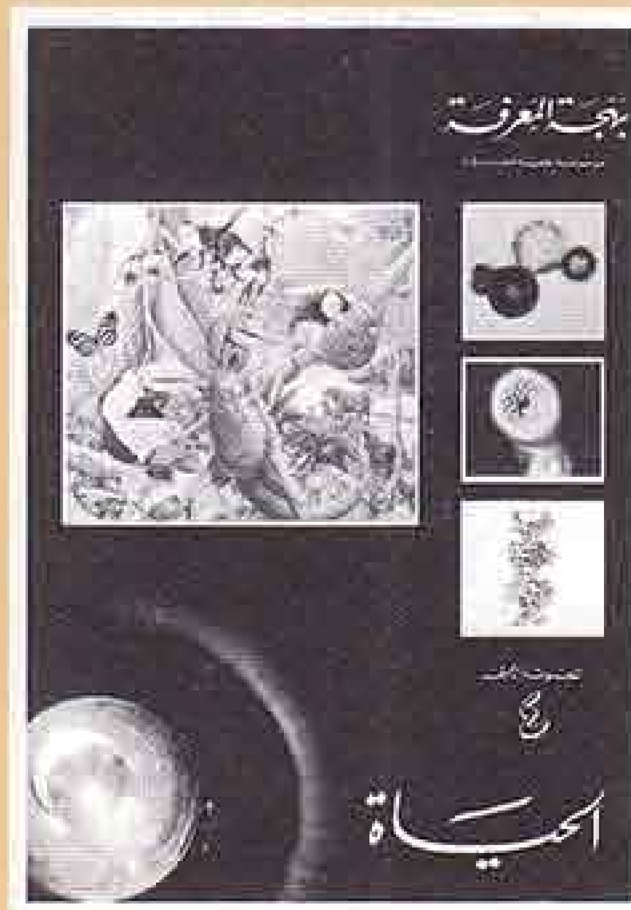
وصفة هذه المجموعة انها تتعامل مع حقائق علمية مجردة . ودورنا فيها هو اننا



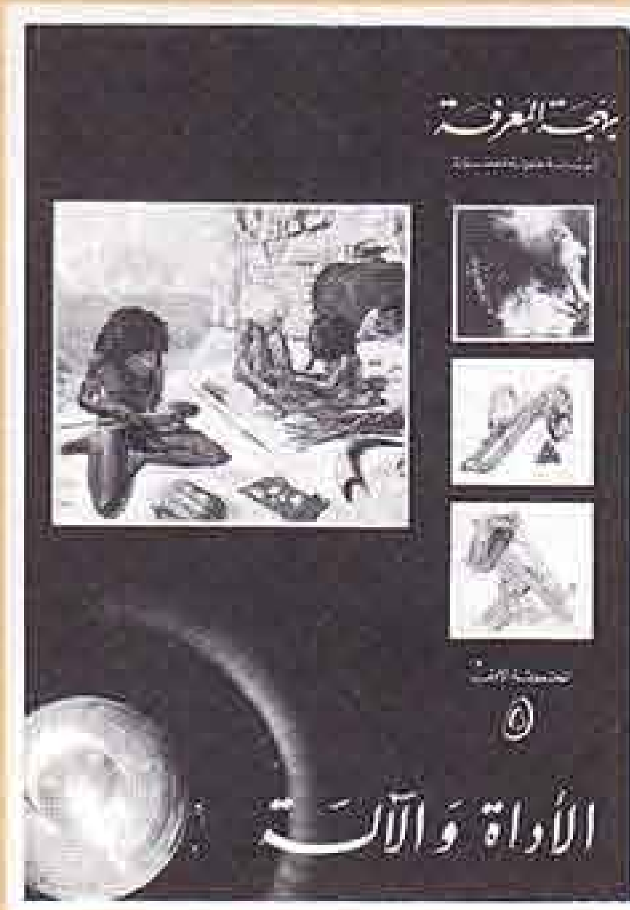
- علوم الفضاء
- المجموعة الشمسية
- النجوم وخرائط النجوم
- الانسان والفضاء . . .



- تركيب الارض
- البحار والمحيطات
- المناخ والطقس
- مصادر الغذاء والطاقة . . .



- كيف بدأت الحياة ؟
- النبات
- الحشرات والسمك
- الطيور والثدييات . . .



- وسائل النقل
- الاسلحة
- الهندسة
- الصناعات الكيميائية . . .

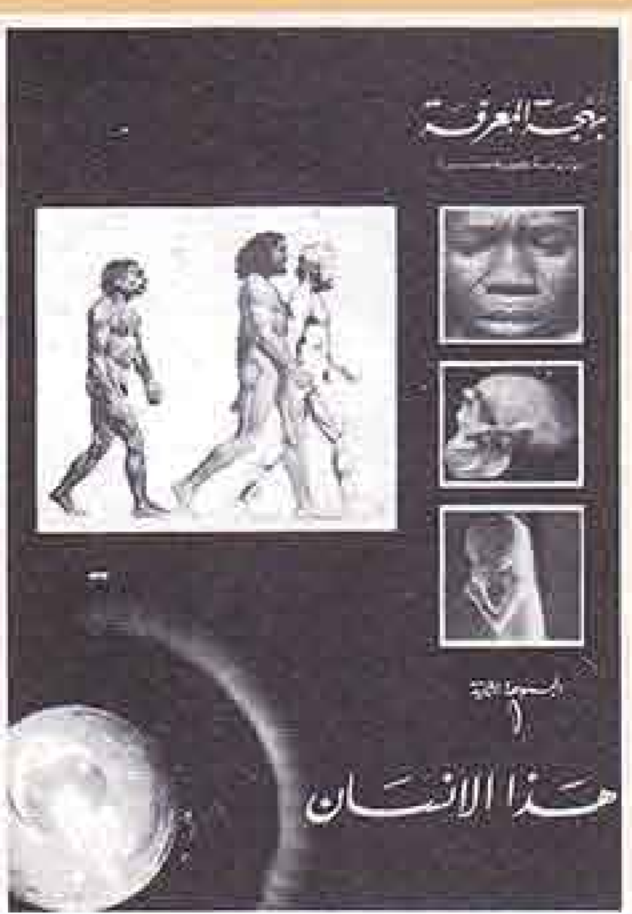
نقلنا جميع معلوماتها بأمانة ودقة . وما نتوقعه منها هو أن تسد الثغرة الهائلة - والشديدة الوضوح - في مكتبتنا العربية في ما يخص حقل المعرفة المصورة بالذات .

المجموعة الثانية موجهة لتغطية ميادين العلوم الانسانية في خمسة مجلدات اخرى هي :

١) هذا الانسان
٢) الانسان والمجتمع
٣) مسيرة الحضارة مجلد أول
٤) مسيرة الحضارة مجلد ثان
٥) مسيرة الحضارة مجلد ثالث

وصفة هذه المجموعة أن خطة تحريرها بحكم طبيعة العلوم الانسانية نفسها خطة لا يمكن اداؤها من جانبين مختلفين في وقت واحد . فمنهج المحرر الاوربي هو أن ينظر الى ميادين العلوم الانسانية في أوربا ، ويركز بحوث النص على قضايا المجتمع والتاريخ فيها ، مقابل أن يكتفي بتغطية شبه عامة لمعظم ما يقع خارج هذا الاطار . ومشكلتنا نحن في الطرف الاخر أن هذا المنهج يلزمنا بتفاصيل لا نحتاج اليها عن اوربا ، ويحرمنا معلومات اساسية نحتاج اليها اكثر عن مجتمعنا وتاريخنا وطبيعة قضايانا التي نتعامل معها . وكأن الأمر كله بالنسبة لنا مجرد دعوة للاختيار بين أن ننقل المجموعة الى اللغة العربية وبين ان نعدّ لانفسنا مجموعة عربية تخصنا .

هذه المرة لم تكن مشكلتنا ان نجد حلاً ، بل أن نتفق على اتخاذ قرار . وقد اعترانا التردد ، وارتفعت اصواتنا بعض الشيء ، ونحن نعدد لانفسنا انواع المصاعب والاحتمالات ، لكن ذلك فيما يبدو مجرد

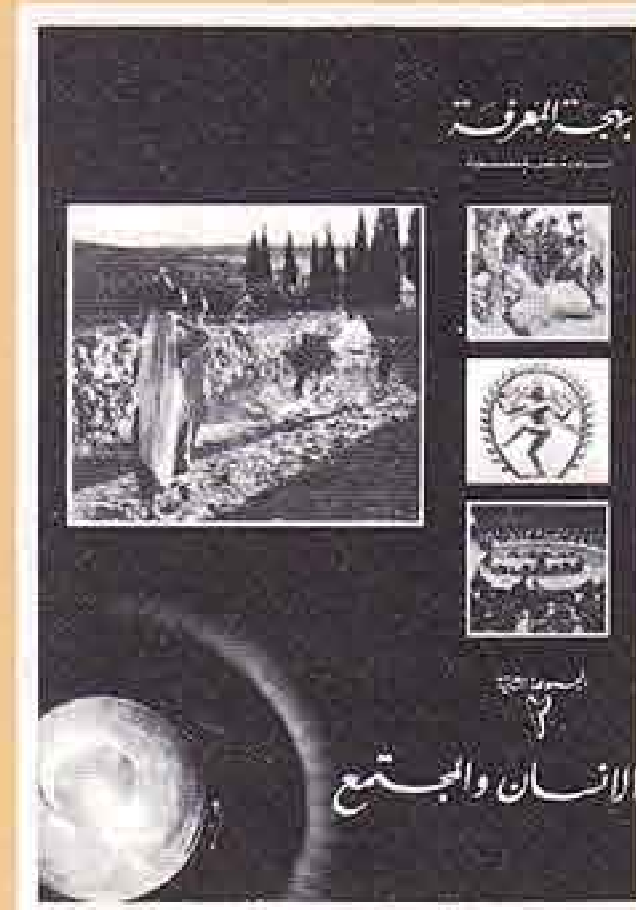


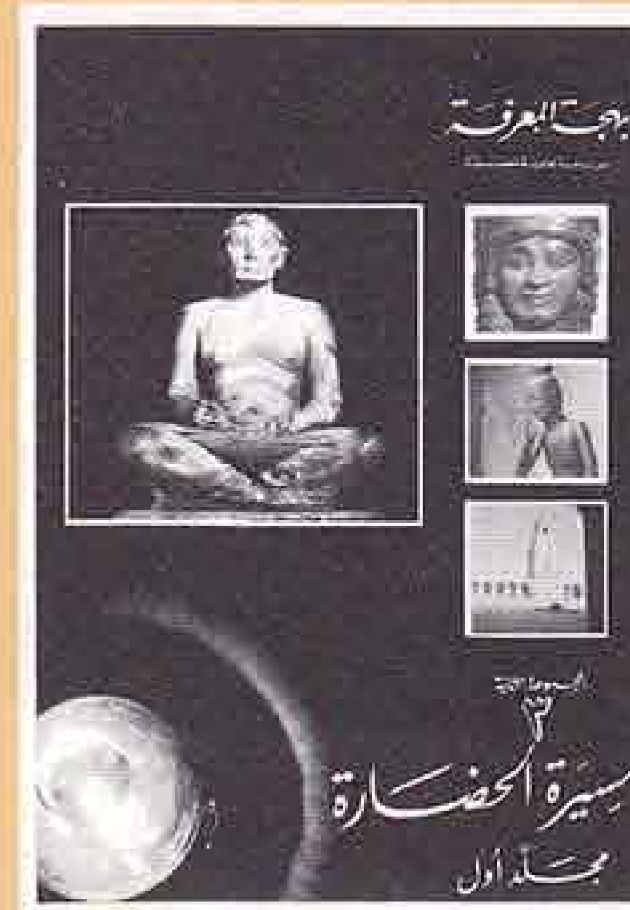
من مواضيع المجلد :
- قصة التطور
- كيف يعمل جسدك وينمو ؟
- الصحة والمرض
- مراحل العمر المختلفة . . .

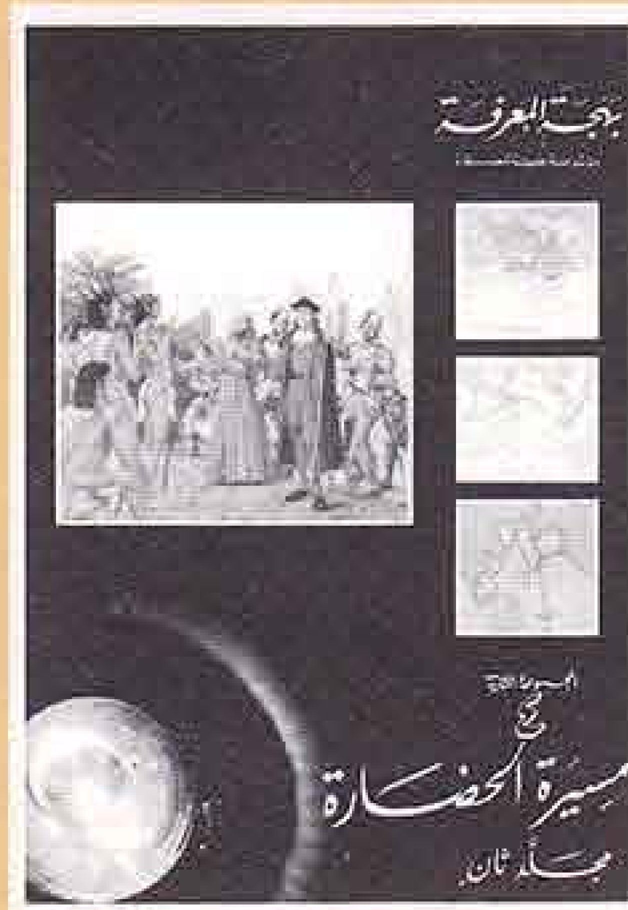
جزء متوقع من أية جلسة مخصصة لاتخاذ قرارات صعبة . فقد انتهى الأمر بيننا بالاتفاق على أي حال ، واتفقنا جميعاً على اختيار الطريق الأطول والأكثر تعقيداً .

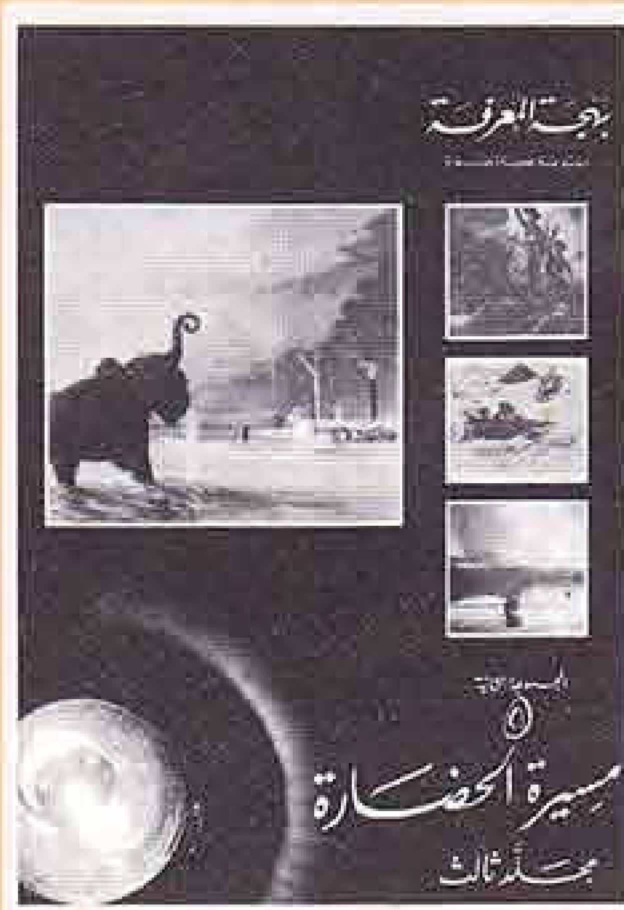
رأينا أن نعيد توزيع النص . أن نتدخل لتنقيح المادة . أن نحذف . أن نضيف . ورأينا أن ذلك يعني في الواقع اننا سنعدُ كثيراً من فصول هذه المجموعة بأنفسنا ، مما يتطلب بدوره أن نلتزم أيضاً بالمستوى الرفيع - والمبتكر - لاخراج النص في نسخته الاصلية . فماذا فعلنا ؟ قمنا بتقسيم مواد المجموعة الثانية الى ثلاثة اقسام :

القسم الأول : دراسة علمية منفصلة من مجلدين ، احدهما يضم معظم المعلومات المتوفرة الآن عن الانسان وتطوره ، ووظائف اعضائه وتشريح









- عن الموت والحياة
- الانسان والدين
- السياسة
- القانون . . .

- نشأة المجتمعات
- امبراطوريات العالم القديم
- ظهور الاسلام
- المغول في بغداد . . .

- اوربا في القرن الرابع عشر
- اكتشاف امريكا
- العثمانيون
- مطلع عصر الاستعمار . . .

- استعمار العالم العربي
- الحرب العالمية الاولى
- حركات التحرير في العالم العربي
- الحرب العالمية الثانية . . .

جسده وصفاته ، ومشاكله العقلية العامة . والآخر يتعرض لموقع الانسان في المجتمع ، والتركيبات الجماعية المعروفة في العالم ، وقضايا الشخصية والنمو العقلي . وفي هذا المجلد كان دورنا أن نساند معظم الدراسات الاصلية التي تركزت بحوثها على مجتمعات اخرى بدراسات جديدة عن مجتمعنا العربي ونوع قضاياه ذات الطابع المختلف . وقد بلغت حصيلة اضافاتنا مائة صفحة تقريباً مخصصة كلها لتحديد ابعاد الصورة الأخرى التي تسود مجتمعاتنا في العالم العربي .

القسم الثاني : دراسة تاريخية من مجلدين يعرضان قصة الحضارة منذ عصور ما قبل التاريخ الى نهاية العصور الحديثة . وفي هذا القسم تجاوزت اضافاتنا حدود المائة صفحة ، ووقع علينا عبء اعداد الفصول الخاصة بتاريخ الاسلام والعرب بالذات لتغطية النقص الظاهر في اصل الموسوعة .

القسم الثالث : دراسة للتاريخ المعاصر من مجلد واحد ، يتبعه في وقت لاحق اطلس تاريخي للوطن العربي . ومنذ بداية هذا القسم كنا قد افترقنا كثيراً عن النص الاجنبي ، وكنا نعرف على وجه اليقين اننا هذه المرة لا بد أن نعد معظم المادة بأنفسنا .

فماذا فعلنا ؟

سؤال بديهي حقاً ، لكن اجابته الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة وحدها او هذا الكتاب كله . انها تقع في عشرة مجلدات ، تضم اربعة الاف صفحة تقريباً ، وأكثر من عشرة آلاف صورة ، وجهد خمسمائة محرر ورسام طوال أربع سنوات كاملة .

الصادق النيهوم

خطـة التحـريـر

كلمة موسوعة في اللغات الاوربية تعني تقريبا ما تعنيه كلمة « حلقة الدرس » في لغتنا . انها تجميع للمعارف طبقا لخطة اخراج خاصة من شأنها ان تضع حصيلة ضخمة من المعلومات بين يدي القارىء المتخصص والقارىء العادي على حد سواء .

ثمة خطتان لتحرير الموسوعات :

الاولى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب التجميع حسب الحروف الابجدية ، وتعمل على تقسيم معلوماتها في خانات ترتبط بنوع الحرف وليس بطبيعة الموضوع . مشكلة هذه الخطة انها قائمة على تفكيك الوحدة الى فقرات مبتورة او مكررة ، مما يجعل الموسوعة نفسها مجرد قاموس مطول ، قد يرضي حاجة قارىء يبحث عن اجابة معينة لسؤال معين ، مثل « من هو قلب الاسد ؟ » ، او « متى عاش صلاح الدين ؟ » ، لكنه لا يسد حاجة من ينشد المعرفة الحقيقية بظروف هذين الرجلين وظروف العصر الذي شهد لقاءهما .

الخطة الاخرى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب تجميع المعلومات حسب وحدة الموضوع ، بحيث تقدم عرضا شاملا له ، بغض النظر عن حروفه الابجدية . فالقارىء هنا لا يتلقى معلومات متفرقة عن قلب الاسد او صلاح الدين تحت حروف ابجدية متباعدة ، بل يشاهد حياتهما بمجملها وعصرهما بكامله ، ويتعرف على الظروف والاحداث التي احاطت بهما ، في عرض واحد مفصل تحت عنوان « الحروب الصليبية » .

ان هذه الخطة ، بكل ما تقتضيه من المحرر من مراعاة الشمول والدقة ، هي التي رأيناها جديرة بتحرير موسوعة كبرى مثل « بهجة المعرفة » .

بهجة المعرفة ؟ نعم ، فهذا الاسم بالذات ليس مجرد اختيار عابر من جانبنا ، بل هو المنهج ذاته المتبع في اعداد مواد الموسوعة وفي توزيعها ايضا .

لم نكترث للفكرة القائلة بان المعرفة التي تكتسب بيسر لا بد ان تكون معرفة سطحية أو غير نافعة . الواقع ان مثل هذا الزعم ليس خياليا وبعيدا عن مفهوم التربية فحسب ، بل انه مفسد ، اذ من شأنه ان يسد كل طريق ممكن الى المعرفة . لقد تعمدنا ان نتجاهله ، وصممنا على ان نمضي في الاتجاه الاخر ، عازمين على تأكيد ايماننا بان المعرفة في حد ذاتها هي اول لذات الحياة واكثرها اثارة للبهجة .

استعملنا الرسوم . استعملنا الجداول واللوحات والخرائط . اتجهنا لتطوير طريقة

عرض المادة بحيث يسقط الضوء على كل موضوع من ثلاث زوايا مختلفة في وقت واحد : زاوية النص العام الذي يتولى مهمة شرح الموضوع وتحديد اطاره ؛ زاوية الصور التي تواكب فقرات النص بمثابة شروح او وثائق ؛ زاوية التعليق على الصور ، وهو نص آخر قائم بذاته ، لإضافة مزيد من المعلومات الى النص العام او شرح تفاصيله .

هذا المنهج في تغطية جميع وحدات الموضوع من عدة زوايا في وقت واحد هو الذي قاد المشرفين على اخراج الموسوعة في اللغة الانجليزية الى ابتكار نظامهم البارع ـ والمفيد ـ لتجميع كل موضوع على حدة في قطاع واحد من صفحتين .

نظام القطاع : اصطلاح « القطاع » يمثل هنا الوحدة الاساسية لجميع المجلدات ، وهو صفحتان في الاصل الاجنبي ، واربع صفحات في النسخة العربية ، نظراً لاختلاف حجم المجلد من جهة ، وصغر انماط الحرف اللاتيني من جهة اخرى .

كل قطاع يضم نصاً رئيسياً يقع في ٧٥٠ كلمة تقريبا على امتداد النصف العلوي من الصفحات الاربع ، تضاف اليه الصور والرسوم الملونة التي تغطي مع شروحها اكثر من نصف المساحة . وقد اخترنا للشروح اصغر نمط متاح للحرف العربي ، لكي نفسح مجالاً كافياً لحشد مزيد من التفاصيل ، دون ان تصبح القراءة صعبة او مرهقة .

نقل القطاع من اصله الاجنبي الى النسخة العربية تم بنجاح ، رغم الاختلاف الظاهر بين حجم المجلد في كلتا الموسوعتين . لقد التزمنا اصلا ، في القطاعات التي قررنا نقلها بحذافيرها الى اللغة العربية ، بنشر جميع الصور في احجامها الاصلية وجميع النصوص والشروح التي يضمها القطاع على اربع صفحات بدلاً من اثنتين .

لمن « بهجة المعرفة » ؟ في الدرجة الاولى نحن نتوجه الى القارىء المدرب الذي تلقى تعليماً منظماً يعادل ـ على الاقل ـ مرحلة التعليم الاعدادي . فقراءة موضوعات الموسوعة من دون المام بأوليات المعرفة قد لا تكون امراً مشوقاً . فيما عدا ذلك ، نعتبر « بهجة المعرفة » « حلقة درس » حقيقية مفتوحة فعلاً لجميع الاعمار .

لقد ضمنّاها ثلاثة مصادر للمعرفة ، تمثل مستويات المعارف المختلفة : مصدراً يعالج معلومات اساسية قد يحتاج اليها كل قارىء ، مثل المواد الخاصة بوظائف الجسم

وتربية الطفل وامور الصحة والمرض ؛ ومصدراً يعالج معلومات مفيدة وممتعة معا ، من شأنها ان تشد انتباه كل قارىء بين الاعدادي وبين الجامعة ، لأنها تهيىء له مرجعا علميا موثوقا به لجميع المعارف التي يتلقاها طوال سنوات دراسته ، مثل المواد الخاصة بالتاريخ والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلك ؛ ثم مصدراً ثالثاً يعالج معلومات متخصصة لا يحتاج القارىء الى مطالعتها فقط ، بل الى مراجعتها ايضا بين حين وآخر ، بحثاً عن الحل او المشورة ، مثل المواد الخاصة باستعمال الالات او موضوعات غذاء الطفل ورعاية الحامل .

كيف تقرأ ؟ نظام القطاع مصمم خاصة لتحويل الموسوعة الى مكتبة امام كل قارىء لا يرتبط بمنهج بحث معين . انه يستطيع ان يقرأ كل كتاب على حدة ـ او حتى كل قطاع على حدة ـ ويستطيع ان يضمن لنفسه فيضاً زاخراً من المعلومات النافعة دون ان يخسر شيئاً من متعة التشويق والتباين . لكن نظام القطاع قد يقدم خدمة اكبر للقارىء المدرب الذي يستعمل الموسوعة طبقا لمناهج محددة في البحث .

فهذا القارىء ، سواء كان طالبا او باحثا متخصصا ، تمده الموسوعة بمرجع قريب وسهل التداول ، يكفيه مشقة البحث الطويل بين المصادر ، ويكفيه في الدرجة الاولى مشقة تجميع المصادر نفسها . كل ما يحتاج اليه هنا هو ان يراجع في « اقرأ ايضاً » ارقام صفحات القطاعات المترابطة في كل مجلد على حدة ، لكي يكتشف بنفسه ان كل قطاع يعمل تلقائياً بمثابة خلية واحدة في جسم واحد ، وان كل قطاع يقود الى الآخر في نسيج متواصل النمو والتشابك مثل المعرفة الحية نفسها .

كيف تبحث ؟ الخطوة الاولى ان تحدد لنفسك المجلد الذي يتعامل مع موضوعك . فما يخص الانسان مثلا تبحث عنه في « هذا الانسان » ، وما يخص الفضاء تبحث عنه في مجلد « الكون » . ومجلدات الموسوعة مقسمة عمدا الى مجموعتين لتسهيل هذه المهمة بالذات .

الخطوة الثانية ان ترجع ، في « هذا الانسان » مثلا ، الى الصفحة الثامنة عشرة ، حيث تجد خارطة مفصلة للكتاب ، تحدد لك اين تجد موضوعك ، وموقعه من المادة بأسرها . فاذا كنت تبحث عن امر يتعلق بالجهاز الهضمي مثلاً ، فسوف ترشدك الخارطة الى القسم الثاني المخصص للجسم البشري في بنيته وفي وظائفه . بعد ذلك ، كل ما تحتاج اليه هو ان تلقي نظره على فهرس المحتويات لكي تعرف الصفحة التي تحتوي على موضوعك .

الدكتور كريم عزقول

نظام القطاع

النص الرئيسي هو عرض لموضوع قائم بذاته ، من ٧٥٠ كلمة تقريباً ، يملأ الجزء الأعلى من صفحات القطاع الاربع .

الرسوم والصور هي رسوم وصور ومخططات ولوحات وجداول وخرائط تضفي طابعاً حسياً على تفاصيل الموضوع وتجسّده ماثلا امام عينيك .



نموذج للقطاع بمختلف عناصره المتآزرة لجعل موضوع في المعرفة الشاملة العامة متكاملاً ومشوّقاً وحيّاً .



الهوامش هي كلمات ـ عناوين لاجزاء الرسوم والصور او ارقام تدلك الى شروحها في التعليقات .

التعليقات هي شروح للرسوم والصور تستخرج معانيها وتوضح دقائقها وتزودك بمعلومات تفصيلية اضافية عن الموضوع .

خطـة الكتاب

آسيا وأوروبا حتى ١٥٥٠ (٢٠ ـ ١٠٤)

الامبراطوريات (١٠٨ ـ ١٧٦)

عصر النهضة (١٨٠ ـ ٢٤٤)

الفنون والآداب والعلوم

الاصلاح الديني

الاصلاح الديني المعاكس

عصر لويس الرابع عشر (٢٤٨ ـ ٢٩٢)

العالم العربي في القرنين ١٦ و ١٧ (٢٩٦ ـ ٣٤٤)

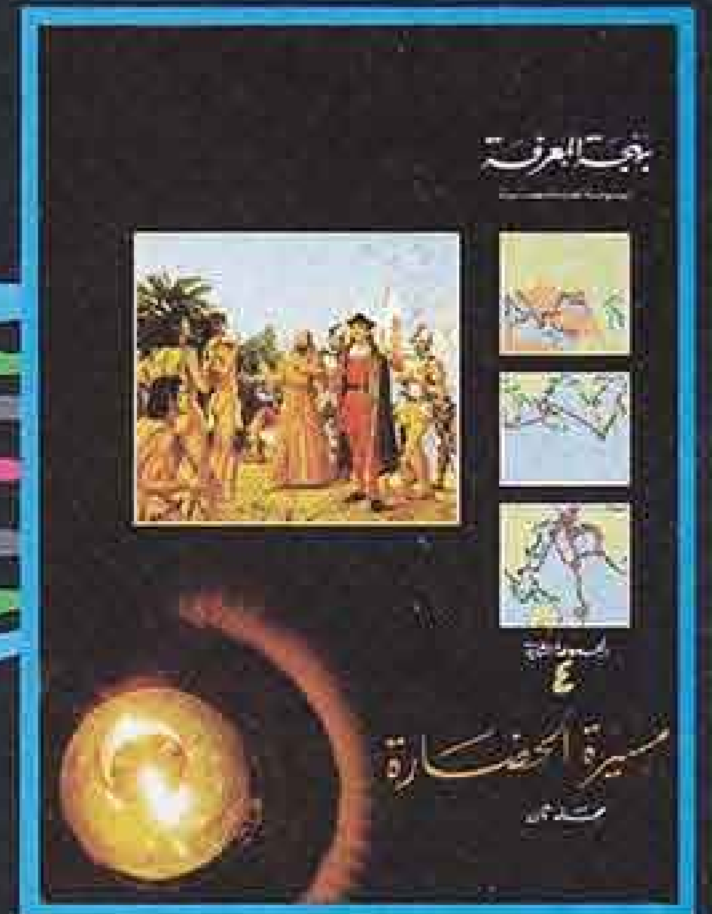
الاوضاع السياسية

الاقتصاد

الحركة الفكرية

عصر التنوّر (٣٤٨ ـ ٤١٢)

الثورات وأسس العالم المعاصر (٤١٦ ـ ٤٤٨)



العالم الاسلامي قبل زوال الخلافة

العالم العربي بعد سقوط بغداد

الشرق الأقصى وأوروبا

الامبراطورية العثمانية

امبراطوريات آسيا وافريقيا

امبراطوريات أمريكا الأولى

الكلاسيكية

العلم والتقنيات

الثورة الانجليزية

ظهور روسيا الحديثة

التحرر الفكري

الفنون الجديدة

الاقتصاد الاوروبي وبدايات الاستعمار

الثورة الامريكية

الثورة الفرنسية

نابوليون ومؤتمر ڤيينا

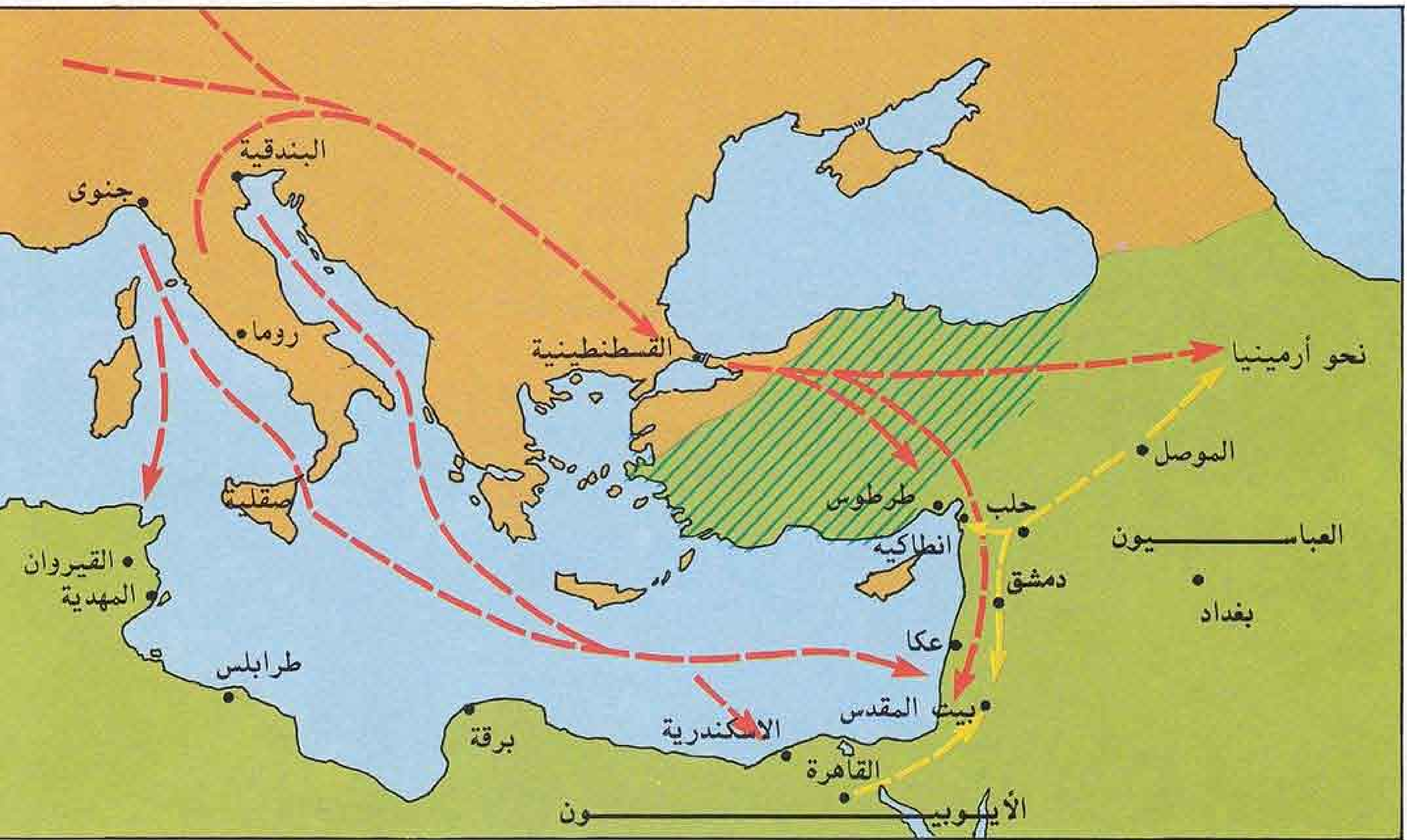
البلاد الاسلامية وزوال الخلافة العباسية

كان سقوط بغداد وخلافتها العباسية بيد المغول سنة ١٢٥٨، وسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين سنة ١٤٥٣ من أبرز أحداث التاريخ. وقد زالت بهما أهم دولتين ملأتا العصور الوسطى في الشرق والغرب. ومع ان التاريخ تيار متصل من الاحداث الانسانية تصنعه وتسيره قوى وعوامل اجتماعية - اقتصادية وسياسية وفكرية متشابكة، فان هذين الحدثين كانت لهما آثارهما البعيدة فيه.

سقوط الخلافة العباسية

دولة الخلافة العباسية، في القرن الأخير من عمرها (ما بين اواسط القرن ١٢ م / ٦ هـ وأواسط القرن ١٣ م / ٧ هـ) لم تكن تجاوز

١



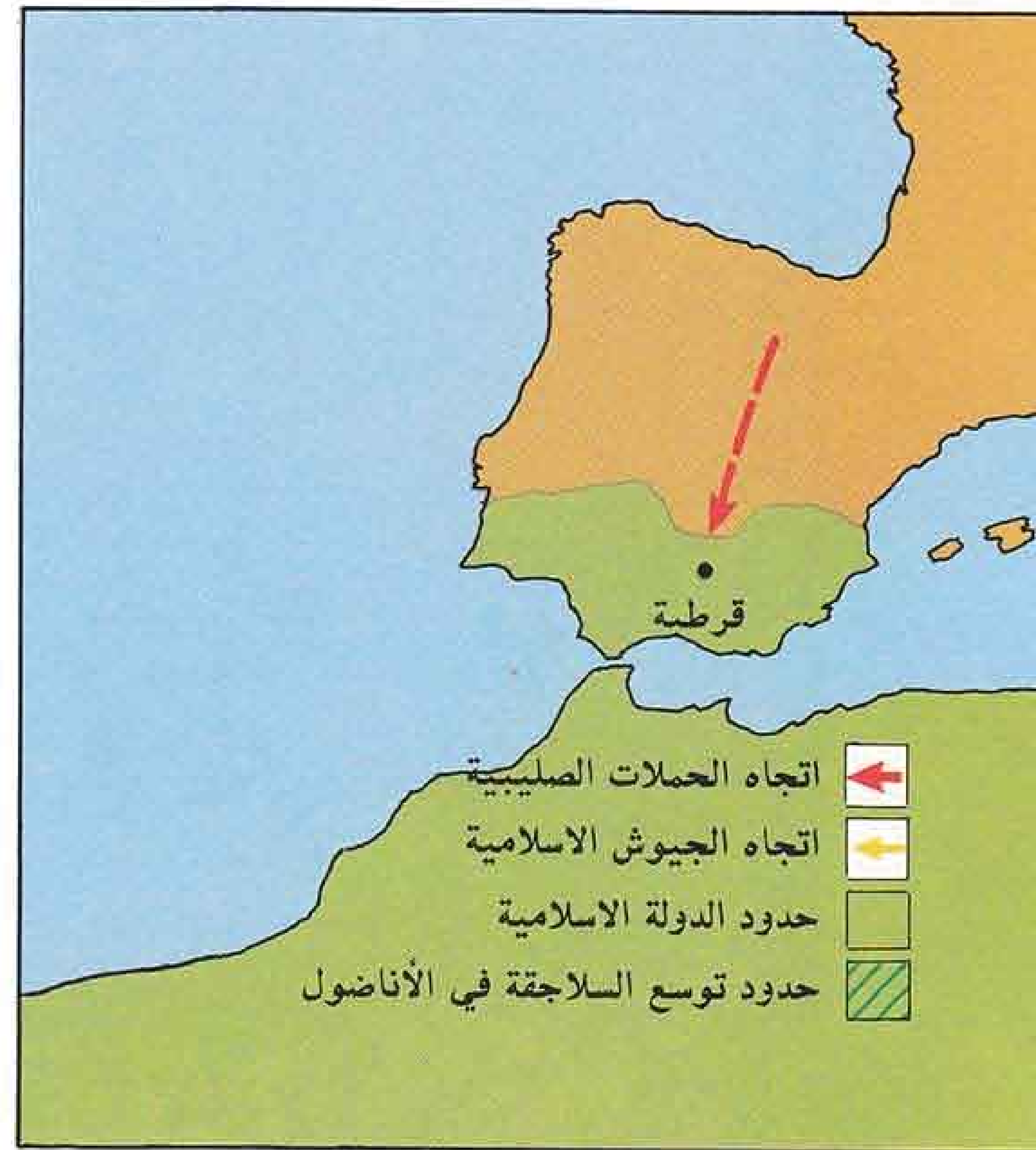
(١) - عانت الحضارة العربية الاسلامية، على مدى القرون ١١، ١٢، ١٣ سلسلة متصلة رهيبة من النكبات والمحن. اثارتها ضدها موجات بشرية ماحقة، متخلفة الحضارة، هاجمتها من الشرق البعيد، ومن الغرب على السواء. لقد ضربها السلاجقة أولا من الشرق أكثر من نصف قرن (القرن ١١) ثم غزاها الصليبيون أواسط هذا القرن نفسه في الاندلس وصقلية ثم في الشام مدة قرن كامل قبل أن ينضم اليهم ايضا الغزو المغولي الهمجي من الشرق آخر القرن ١٢. ويستمر الغزوان كالكماشة الخانقة حتى أواخر القرن الثالث عشر وما بعده. قاوم المغرب الاسلامي في الحرب الصليبية الاسبانية ودافع عن الاندلس اكثر من قرن ونصف القرن. وقاوم المشرق الاسلامي الصليبيات الفرنجية قرابة تسعين سنة، حتى استطاع صلاح الدين اقتلاع قسم منهم (بعد معركة حطين سنة ١١٨٧) واسترداد القدس. ثم تصدى للهجوم المغولي ستين سنة أخرى حتى رده سنة ١٢٦٠. ثم تحول الى الصليبيين الباقين في الشام فطرد آخرهم من عكا سنة ١٢٩١. ثم عاد وصد المغول مرة أخرى سنة ١٣٠٠. وقد برهنت الجماعة الاسلامية على تمتعها بقدر كبير من المقاومة الصلبة، ومن الحيوية الحضارية ومن

رقعة صغيرة من الارض تمتد في وسط العراق وجنوبه ، ولو ان اسم الخلافة العباسية كان يجمع الشرق الاسلامي كله .

وكانت سواحل الشام قد احتلت، منذ اواخر القرن الحادي عشر، من جانب الفرنجة الصليبيين الذين اقاموا فيه الامارات. وبعد أن حققت القوى الاسلامية ضدهم نصر حطين سنة ١١٨٧ ، حاول الخليفة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠ ـ ١٢٢٥) أن يعيد الانتعاش الى الخلافة فتبنى نظام الفتوة. وضغط على امراء الأطراف لكي يدخلوا فيه، لعله يقوي من سلطته المركزية. ولكنه قبل ان ينجح فوجىء بظهور الخطر المغولي الزاحف من وراء المشرق التركستاني، يقوده جنكيز خان (١٢٠٦ ـ ١٢٢٧) ويكتسح ايران ...

الصليبيون والمغول

بينما كانت بلاد الشام ومصر تكافح




٢

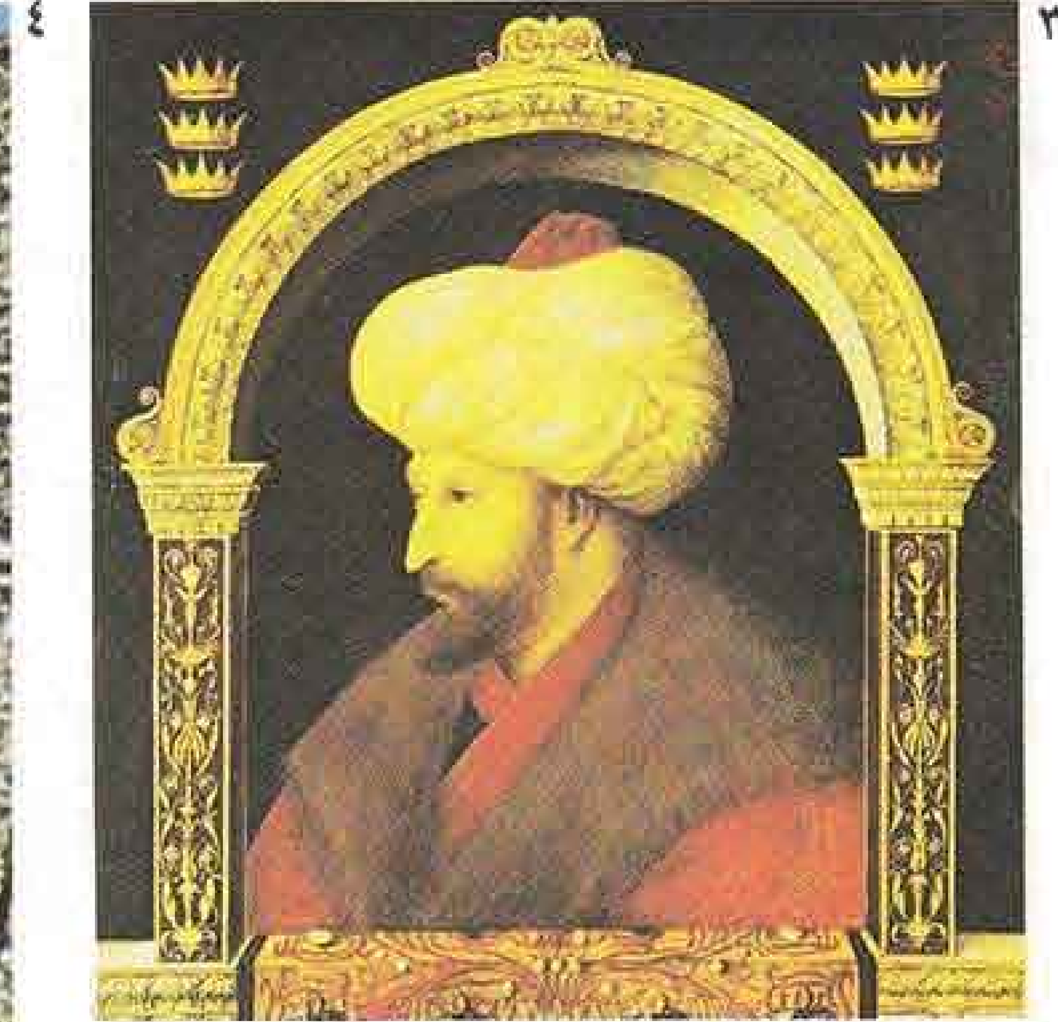
القدرات الدفاعية ، حين استطاعت ان تجتاز هذه النكبات العنيفة الطويلة ، وأن تستبقي الحضارة حية . الا أنها دفعت ثمنا غاليا جدا لذلك من خراب المدن وملايين الجثث وتبديد القوى وأهم من ذلك كله من قدرة الابداع أيضا .

(٢) ـ قدر عدد الحملة الصليبية الزاحفة على بيت المقدس بأكثر من ٤٠ الفا فيما لم يتعد أفراد الحامية الفاطمية المدافعة عنها الالف جندي . استمر الحصار خمسة أسابيع حتى تمكن الفرنجة من اقامة قلعة خشبية تجاه السور الشمالي ومن مدّ جسر الى قمة السور . فتدفق المهاجمون منه الى داخل المدينة . ومما سجله التاريخ بخجل ان اولئك الاوروبيين قد أقدموا على امر لم يكن يعهده المشرق الاسلامي المتسامح مع الاديان الأخرى . فقد قتلوا جميع أهالي المدينة من المسلمين (سبعين ألفا) . كتب أحد رجال الحملة : « كان النظر يقع على أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطوابق والساحات العامة » . كما قال ايضا انه حينما توجه لزيارة باحة المسجد الأقصى : « أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته » .

القوى الصليبية المتوالية (الحملات ٥ ، ٦ ، ٧) وتعاني من هجمات المغول المتزايدة في العنف والتدمير والتوغل. كانت الاندلس تعاني بدورها من الهجمات الصليبية التي أخذت منذ اواخر القرن الحادي عشر م / ٥ هـ تحتل مدنها من طليطلة حتى اشبيلية وتلغي امارات ملوك الطوائف فيها . وقد تدخل المرابطون الذين كانوا قد ظهروا في تلك الفترة ، في المغرب، وأوقفوا هذا الزحف الصليبي لفترة من الفترات . ثم تلاهم الموحدون الذين حلوا محلهم في المغرب ، وفي حماية الاندلس . الا انهم اضطروا لتركه ، بينما كانت القوى النورماندية قد احتلت صقلية وكررت الهجوم على تونس (١) .

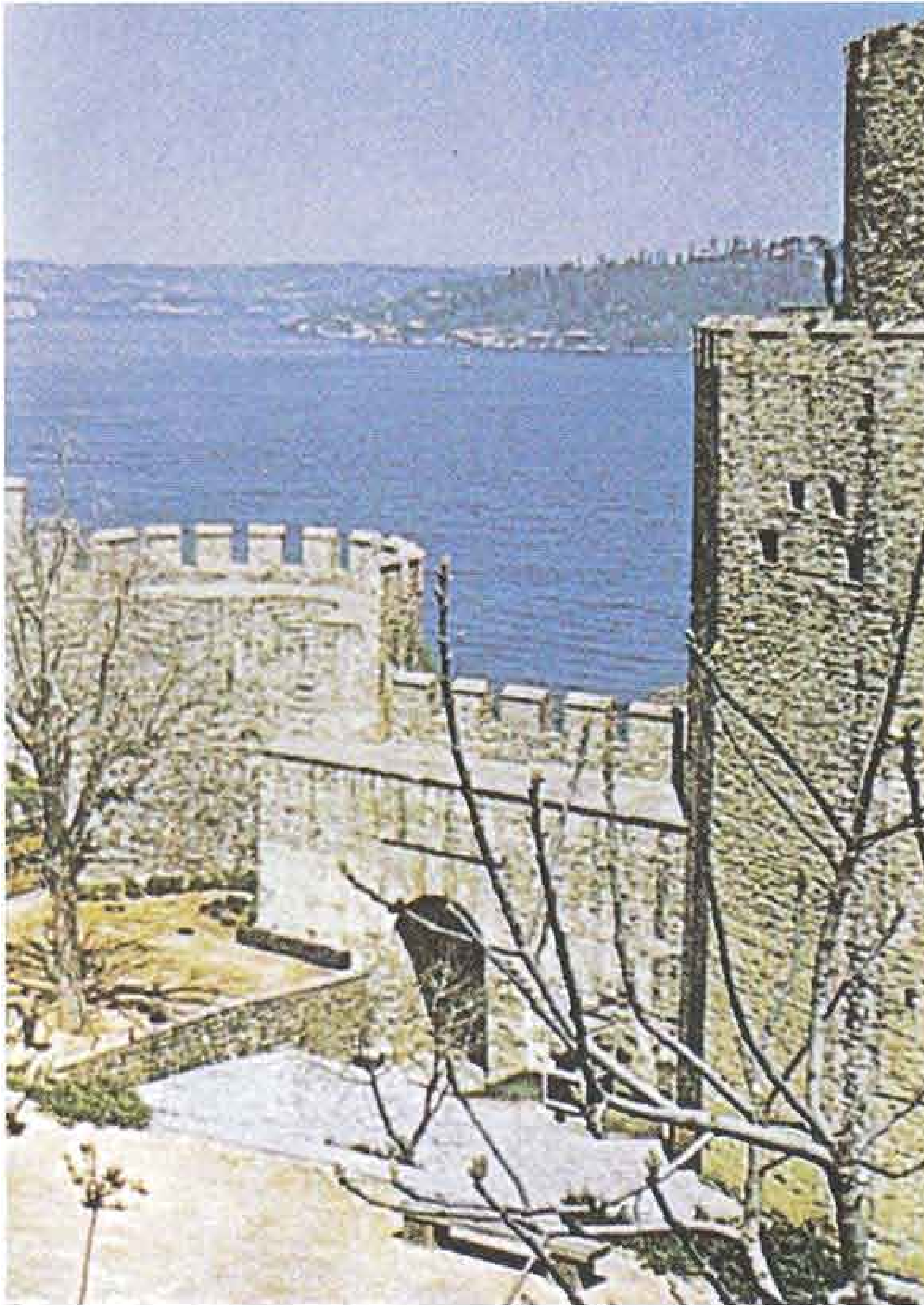
هكذا كان العالم الاسلامي كله في اواسط القرن ١٣ م / ٧ هـ في حالة دفاع كامل عن النفس، سواء في مشارقه او اواسطه او مغاربه . وفي تلك الغمرة ساق المغول

٣



(٣) ـ محمد الثاني الذي لقب بالفاتح لأنه فتح القسطنطينية فانهى بذلك أيام الامبراطورية البيزنطية كما انه قام بفتوحات واسعة أخرى في قلب اوروبا . ولد في ادرنة ١٤٣٠ وخلف أباه مراد الثاني ١٤٥١ ودخل القسطنطينية ١٤٥٣ وجعل منها عاصمته ثم استولى على بلاد الصرب ١٤٥٦ ـ ١٤٥٨ وعلى بعض ممتلكات البندقية وجنوى في البلقان وعلى شبه جزيرة القرم وتوفي ١٤٨١ عندما كان يخطط لمهاجمة ممتلكات نابولي .

٤



(٤) ـ قبل سقوط القسطنطينية كانت الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت الى حدود العاصمة مع جوارها المباشر الذي كان يشمل قرية دعيت فيما بعد روملي حصار، لأن محمد الثاني، رغم احتجاج الامبراطور بنى فيها قصرا حوله بعدئذ الى قلعة لمهاجمة القسطنطينية . تميَّز تصميم هذه القلعة التي راقب السلطان بناءها بنفسه بانه كان يمثل اربعة أحرف ضخمة منها يتألف أسم محمد .

جموعهم ضد بغداد فدمروها. والغوا الخلافة العباسية فيها (١٢٥٨ م). ثم احتلوا بلاد الشام، بينما كانت قوى مغولية أخرى تهاجم الصين وشرق اوروبا. وقد استطاع المماليك في مصر ايقاف هذا الزحف سنة ١٢٦٠.

بعد الغاء الخلافة العباسية كانت صورة العالم الاسلامي السياسية على الشكل الآتي:

أ - الشرق الاسلامي من العراق حتى تركستان والهند تحت الحكم المغولي.

ب - العالم العربي المشرقي سيطرت عليه القوى العسكرية المملوكية. وكان ثمة في الاناضول دولة لسلاجقة الروم.

جـ - المغرب كله حتى اطراف طرابلس كان في أيدي الموحدين. وكان في الأندلس دولة صغيرة اسلامية لبني الأحمر في غرناطة.

ميزات العصر

ان العصر الذي امتد ما بين سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ وسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ لم يغير شيئا كثيرا في هذه الصورة السياسية العامة ولكنه تميز بعدد من الميزات:

١ - اختلطت العناصر العربية بغيرها ضمن قوى المجتمع الاسلامي التي كان بعضها من الترك وبعض من الفرس والبربر. وتكون من الجميع مجتمع اسلامي خليط العناصر توحده العقيدة الدينية الشاملة ويتكلم معظمه اللغة العربية.

٢ - تمزقت الوحدة السياسية التي كانت تشمل العالم الاسلامي باسم الخلافة. وتشكلت مجموعة من الوحدات الاسلامية السياسية التي لا تدين بالولاء الا لقوتها الخاصة.

٣ - تقسمت البلاد الاسلامية رغم وحدة العقيدة الاسلامية الى ثلاث مجموعات ثقافية لغوية. فان النهضة التي عرفتها اللغة الفارسية في العهد السلجوقي انتهت في الايام المغولية بازاحة اللغة العربية نهائيا من ايران كلها، وحصرها في المجال الديني وعودة الفارسية لتصبح لغة العمل والسياسة والأدب. وسادت اللغة التركية في ما وراء النهر كما نشأت في الأناضول، تدريجيا، مجموعة لغوية تركية هي نواة تركيا الحالية. وأما المناطق الباقية فقد سادت فيها اللغة العربية وان ظلت البربرية لغة المنزل في بعض بقاع المغرب.

٤ - ساد المذهب السني في العالم الاسلامي الا ان المذهب الشيعي (الاثني عشري خاصة) كسب بالتدريج المنطقة الايرانية خلال هذه الفترة ثم اصبح مذهب الدولة الرسمي زمن الصفويين.

٥ - اتجه الفكر الديني الاسلامي عامة، ونتيجة لتكاثر النوائب والكوارث، نحو التصوف. وظهرت في القرنين ١٤ و ١٥ خاصة أعداد كثيرة من الفرق الصوفية. كان لبعضها دور واسع في نشر الاسلام في افريقيا واقاصي آسيا.

٦ - وأخيرا نمت طرق التجارة العالمية عبر المشرق الاسلامي، في هذه الفترة، لازدياد تهافت الغرب على بضائع الشرق التجارية مما سمح للمنطقة بالغنى واقامة الكثير من الاوابد الهامة. وأثار ذلك في الوقت نفسه طمع الغرب في الوصول المباشر لبضائع الشرق.

على ان العالم الاسلامي ظل رغم كل هذه التنوعات يشكل عالما واحدا من خلال وحدة الدين والثقافة والنظم.

الشرق الاسلامي في العصر المغولي(١) الأحوال السياسية

بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ ، أخذت مناطق ايران وتركستان والهند الاسلامية طوابعها المميزة ، نتيجة لعدد من العوامل والأحداث .

تركستان (ما وراء النهر) في أقصى الشمال الشرقي من العالم الاسلامي كانت الباب الذي تسربت منه أولا ، ثم تدفقت أكثر من مرة ، جميع العناصر التركية ثم المغولية الى بلاد الاسلام ، وخاصة بعد الغزو السلجوقي خلال القرن ١١ م .

ايران بين القرنين ١٢ - ١٣

انحسر سلطان السلاجقة السياسي عن الشام ثم العراق في اواسط القرن ١٢ م .

١



٢

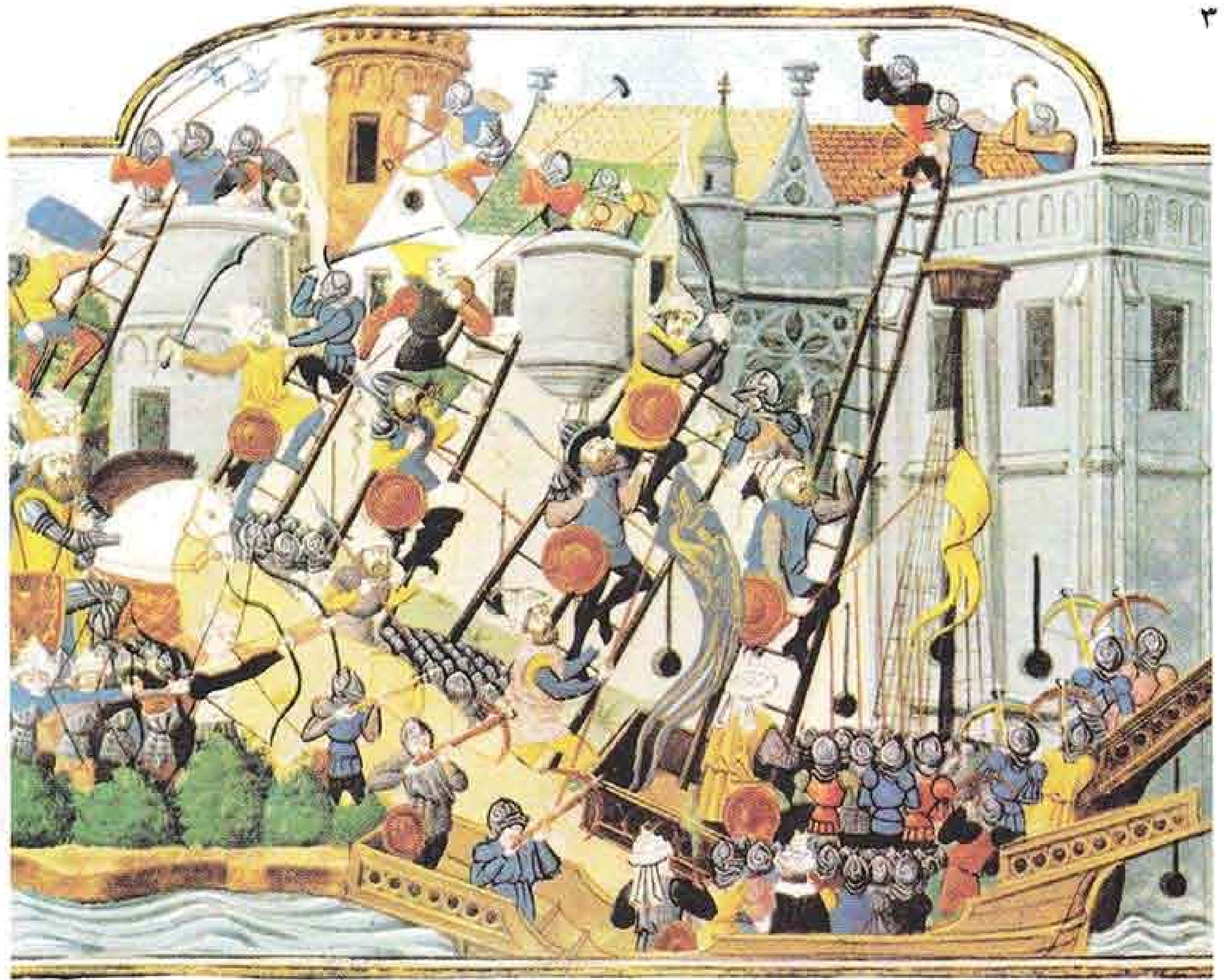


(١) - كانت مملكة الخوارزميين في ايران هي السد الذي يحمي من الطوفان فلما انهارت أمام الزحف المغولي

وقتل جلال الدين خوارزمشاه سنة ١٢٣١ تقرر مصير العراق . وأما خليفة بغداد الاخير المستعصم بالله فكان سيء الحظ لأنه دفع ثمن ضعف اسلافه وعصره ودولته . ومنذ بدأ الاحتكاك بينه وبين المغول سنة ٦٣٣ أخذ يستنجد بدول الاطراف فلم يقدموا له سوى أتفه الامدادات . كان كل أمير يدخر قواته لنفسه وكان المستعصم نفسه بخيلا لا ينفق على الجيش مقتنعا بأن مقامه الديني يكفي لحمايته . وقد وجدوا لديه بركة ملأى بالذهب. ويقولون ان هولاكو عنفه قبل قتله لأنه لم يستخدم هذا الذهب في اعداد القوى لعدوه . وكان سقوط بغداد محتوما لا بسبب قوة المغول الساحقة فحسب ولكن لأن المنازعات الطائفية ، واللصوصية ، مع الفيضانات واهمال نظام الري وخصومة الوزير ابن العلقمي مع قائد الجيش كانت تدمر قوى بغداد التي ظلت قرونا رمزا للحضارة الاسلامية فلما سقطت تحولت تلالا من الخرائب والجثث .. قرابة نصف مليون جثة كان في دروبها . وأما الخليفة فقيل انه قتل دوسا بالأرجل !

وبقيت مجموعة محدودة منهم في الأناضول ، وأسست دولة سلاجقة الروم . لكن أثرهم السياسي بقي واضحا في ايران التي اتخذوها مقرا لسلطانهم وسلالاتهم ، حتى أواخر القرن ١٢ ، حين لم يبق منهم سوى مجموعة من الاتابكيات ، في غرب ايران وجنوبها . أما باقي البلاد فكانت تقوم فيها : دولة الغوريين (من حوض السند الى افغانستان) ودولة شاهات خوارزم (في خراسان وما وراء النهر وسجستان) . في مطالع القرن الثالث عشر اصبحت ايران تابعة بالفتح والاخضاع لشاهات خوارزم ، الذين أدت قوتهم الى قيام العلاقات السيئة بينهم وبين الامارات الايوبية والخلافة العباسية الممتدة على حدودهم الغربية . وقد انصرفوا الى هذه العلاقات العدائية لدرجة منافسة الخليفة العباسي ، فلم يتنبهوا الى الخطر المغولي الذي كان يطرق حدودهم الشرقية . وحين تنبهوا له لم يقدروه

٣



(٢) ـ المغُل أو المغول : أسم دولتين : أ ـ في آسيا الوسطى ، امبراطورية أسسها جنكيز خان ووزعها بين ابنائه ، وتعرف سلالته بالمغُل العظماء . ب ـ في الهند (١٥٢٦ ـ ١٨٥٨) ، امبراطورية اسسها بابر وهو من أحفاد تيمورلنك وعرفت بمغُل الهند . أنجبت هذه الامبراطورية ١٩ امبراطورا اشتهر منهم الستة الأول ، بابر ، همايون ، اكبر ، جهانكير ، شاهجهان ، اورنك زيب . وكان آخرهم بهادر شاه الثاني الذي عزله الانجليز عام ١٨٥٨ . لكن امبراطورية جنكيز خان كانت الاوسع . فقد امتدت حدودها من بكين حتى نهر الفولغا شاملة ايضا تركستان والفرس وافغانستان .

(٣) ـ أخذ محمد الثاني يفكر بفتح القسطنطينية منذ عودته الى العرش عام ١٤٥١ . ثم راح يمهد السبيل الى ذلك دبلوماسيا اولا بعقد معاهدات مع هنجاريا والبندقية لضمان حيادهما ، ثم عسكريا ، فصرف معظم العام ١٤٥٢ لاقامة قلعة « روملي حصار » التي كان يراقب بناءها بنفسه على الساحل الاوروبي من البوسفور والتي جاءت تكمّل قلعة « انضولي حصار » التي كان قد اقامها قبلا على الساحل الآسيوي من البوسفور . ثم أنشأ اسطولا من ٣٢ قادسا ، وأمر صانع الاسلحة المجري اوربان بان يصب له مدافع يكون عيارها أكبر مما كان معروفا في ذلك الحين حتى في أوروبا . وأخيرا في ٧ ابريل ١٤٥٣ اعطى السلطان الأمر بمحاصرة المدينة . فأخذت المدافع الثقيلة تنصب على الأسوار من جميع الجهات . لكن عندما تبينت صعوبة اختراق حاجز القرن الذهبي على السفن ، نقلت هذه السفن بكاملها من على هضبة عن طريق البر الى المياه ما وراء ذلك الحاجز . واخيرا عندما نجحت المدافع في فتح ثغرة في الأسوار ، تولى السلطان بنفسه ادارة عملية الهجوم من هذه الثغرة على المدينة ، حتى دخلها الجيش بكامله في ٢٩ مايو ١٥٤٣ .

حق قدره مما اوقعهم في الكارثة .

الهجوم المغولي

كانت بوادي منغوليا قد بلغ بها التكاثر البشري حد الفيضان واتيح لها التوحد ، تحت زعامة جنكيز خان (١٢٠٦ ـ ١٢٢٧) الذي ساق الجحافل المحاربة المدمرة باتجاه الصين جنوبا ، وباتجاه تركستان واوروبا الشرقية غربا . دخلت هذه القوى بلاد ما وراء النهر بكثافة هائلة وتدمير أرعب الشرق الاسلامي كله . وكانت دولة شاهات خوارزم ، بعد الترك (الخطا) ، أول ضحايا الزحف المغولي . ولم ينفع في وقفهم ذلك النضال المرير الذي قاده الشاه علاء الدين محمد ، ثم ابنه جلال الدين (٤) من بعده . فقد انتهى الاثنان نهاية مأسوية سنة ١٢٢٠ وسنة ١٢٣١ وانتهت بذلك الدولة الخوارزمية مع معظم مدنها .

٤



(٤) ـ كان جلال الدين منكوبرتي آخر شاهات خوارزم وهم أسرة من الحكام كان مؤسسها محمد بن أنشتكين من أتباع السلاجقة ثم استقل عنهم واتخذ لقب خوارزمشاه وقدر لبلاده بسبب موقعها الجغرافي ان تكون اول ضحايا النكبة المغولية . فحين توجه جنكيز خان بجموعه الجرارة « كأنها النمل او الثعابين » (على حد قول جلال الدين) ظل والده علاء الدين محمد يدافع خمس سنوات (١٢١٥ ـ ١٢٢٠) وهو يشهد محو بلاده وأهلها واحدة واحدة حتى انتهى الى الموت قهرا وهو هارب في بعض جزر بحر قزوين بعد ان شد سيفه على وسط ابنه جلال الدين . وكان هذا الابن فارسا من نوع خاص مغامر ممتلىء بالحيوية والجرأة وقد خاصم وحارب الايوبيين والخليفة العباسي وسلاجقة الروم والاسماعيلية وهي القوى الاسلامية التي كان يمكن ان يتحالف معها ضد المغول فاضطر ان يقف وحيدا على الجبهة الاسلامية الشرقية . ووقف كالسد عشر سنوات وسيرته القلقة المملوءة بالحروب والهرب والمآسي انتهت بمصرعه في بعض جبال الأكراد سنة ١٢٣١ ولكنها جعلت منه اسطورة المقاومة ورفعته الى مرتبة ابطال الاسلام .

٥



(٥) ـ كان هولاكو حفيد جنكيز خان . ولكنه لم يكن خان (قآن) المغول فالملك كان لأخيه منكو قآن الذي عهد اليه بمتابعة التوغل في البلاد الاسلامية واخضاعها ورسم له الخطة لكي يسير « حتى أقاصي مصر » .. ولم يكن الاثنان يقدران انه سيأتي من اسرتهما ونسلهما من يحمل راية الاسلام . فقد كان المغول على الديانة الشامانية ويعبدون مجموعة من آلهة الظواهر الطبيعية وكان بينهم من يدين بالبوذية ايضا كما تسربت الى بعض منهم المسيحية النسطورية . ولكن ما ان استقر المغول في ما وراء النهر وايران والعراق حتى بدأوا التأثر بالجو الاسلامي . ولم يكن قد مضى على سقوط بغداد سوى سنوات حتى دخل بركة خان (صاحب الشمال من بحر الخزر) في الاسلام ثم اسلم حفيد هولاكو أحمد تكودار الايلخاني (١٢٨٢ ـ ١٢٨٤) صاحب بغداد وايران ثم جاء غازان محمود الحفيد الآخر (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) فأسلم مع جيشه وجعل الاسلام الدين الرسمي .

استأنف المغول (٢) زحفهم ، بعد توقف قليل ، نحو أراضي الخلافة العباسية في العراق ، بقيادة هولاكو حفيد جنكيز (٥) ، ولم يكن من الصعب عليهم التغلب على المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقتله ، وتدمير عاصمته بغداد بعد مذبحة مروعة (١) .

ثم اكتسحت جموع هولاكو الشام واحتلته من حلب حتى غزة . وكانت تريد ان تكمل طريقها الى مصر ، الا ان القوى المملوكية خرجت لها ، وهزمتها هزيمة فادحة ، في معركة عين جالوت (قرب بيسان في فلسطين) سنة ١٢٦٠ وردتها الى العراق .

لم تكن هذه أول هزيمة قاسية يمنى بها المغول فقط ، ولكنها كانت أيضا من المعارك الحاسمة والانقلابية في التاريخ . سجلت نهاية المد المغولي المهاجم . وحددت مصائر الشرق الاسلامي كله . فصارت البلاد من العراق والى اقصى الشرق ، بيد المغول . بينما بقي الشام ومصر والحجاز في أيدي المماليك الذين اقاموا فيها دولة لهم . وانقلبت البنية السياسية والاجتماعية - الاقتصادية والثقافية لهذا الشرق كله ، اذ انقسمت قسمين : قسم ايراني مغولي وقسم عربي متوسطي .

المغول في العراق وايران

حكم أحفاد هولاكو العراق وايران باسم الدولة الايلخانية ، (نسبة الى اللقب الذي حمله هولاكو) حوالى تسعين سنة (١٢٥٦ - ١٣٤٤) وليس بين هؤلاء الأحفاد من يستحق الاشارة سوى محمود غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤) ، الذي اعتنق ، بعد البوذية ، الاسلام وجعل دولته اسلامية . وزين عاصمته تبريز بالأبنية . وحاول احتلال الشام ووصل دمشق سنة ١٣٠٠ ولكن المماليك ردوه .

منذ سنة ١٣٣٦ انشأ حسن بزرك (الكبير) الدولة الجلايرية ، في العراق . فاستمرت قرابة قرن (حتى سنة ١٤٣٢) متخذة بغداد عاصمة لها . كما قامت بعد ذلك دولة قره قوينلو التركمانية (في شمال غرب ايران) بين سنتي ١٣٨٠ - ١٤٦٨ فحكمت العراق فترة من الزمن . أما ايران ، فقد تعرضت لهجمة مغولية جديدة قادها تيمور الأعرج (لنك) (١٣٧٠ - ١٤٠٥) الذي أسس امبراطورية عاصمتها سمرقند . امتدت بالفتح والتدمير ما بين مشارف موسكو ، ونهر الغانج ، وشرقي الأناضول . كان تيمور مسلما ، لكنه هاجم القوى الاسلامية : العثمانية والمملوكية ودمر الشام سنة ١٤٠٣ قبل أن يعود الى عاصمته . وكان في الطريق الى الصين ليغزوها حين توفي (١٤٠٥) .

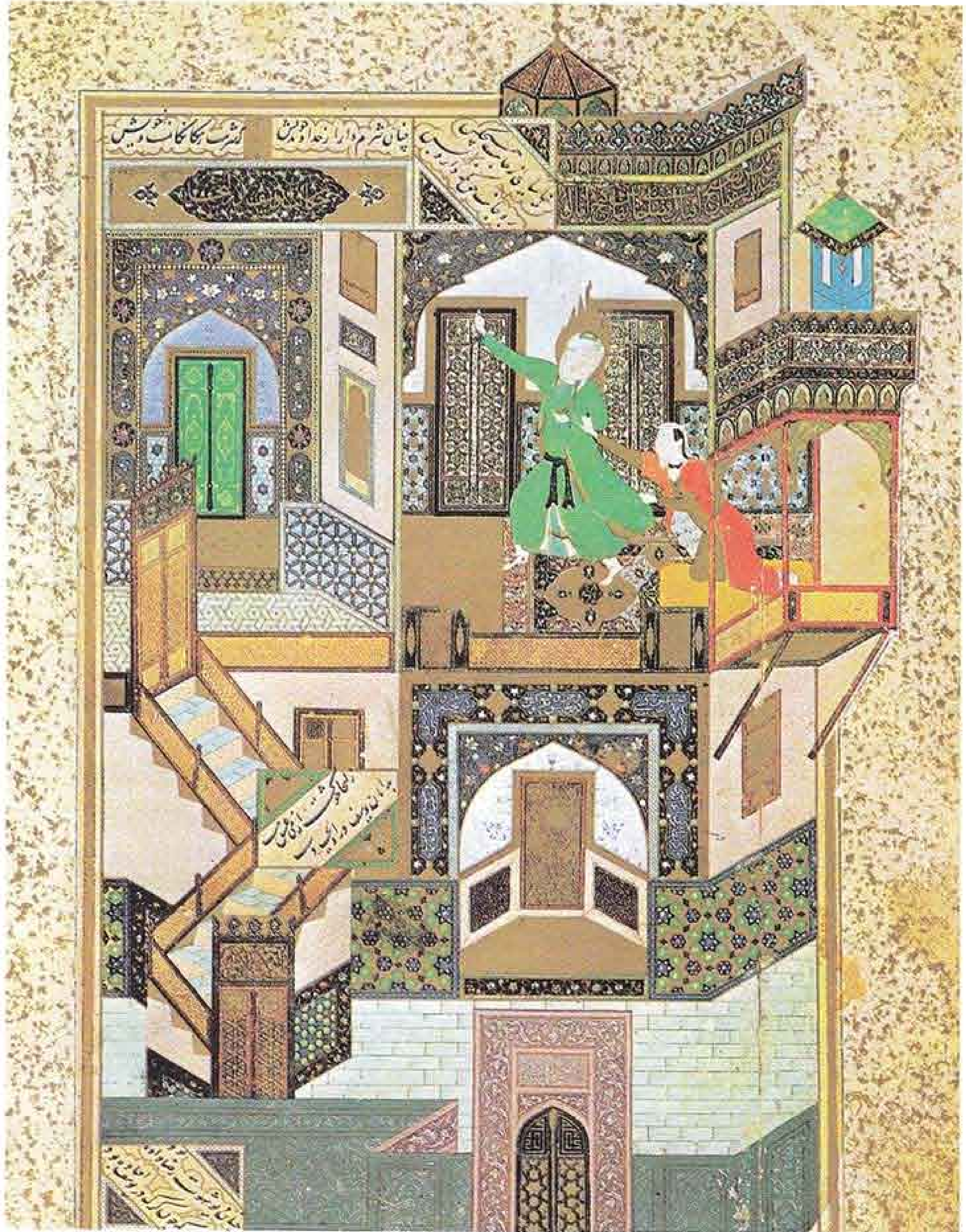
حكم أحفاد تيمور ايران ، حتى مطالع القرن السادس عشر ولكن القوى القبلية في شمالها الغربي كانت تنازعهم السلطة . في أواخر القرن ١٥ ظهرت في أردبيل (بأذربيجان) دولة صغيرة وضع نواتها الشيخ الصوفي اسحق صفي الدين (توفي سنة ١٣٣٤) . وهو عربي شيعي . فما لبثت ان اصبحت تسيطر ، في عهد احد احفاده (اسماعيل) ، على غربي ايران وخراسان . توج اسماعيل نفسه سنة ١٥٠٢ شاها على بلاد فارس مؤسسا بذلك الأسرة الصفوية ثم توفي شابا (٣٨ سنة ١٥٢٤) لكن السلالة ظلت تحكم ايران حتى سنة ١٧٣٦ وكانت مطلع تاريخها الحديث .

الشرق الاسلامي في العصر المغولي(٢)
الآداب والفنون

لم يكن للسيطرة التركية السلجوقية على ما وراء النهر وايران من تأثير سلبي على تطورهما الحضاري ان لم تسهم في زيادة تميز هذه البقاع وتأكيد شخصيتها الخاصة بدعم اللغتين الفارسية والتركية واحياء النظم القديمة في الحكم والمجتمع . ولما كان السلاجقة مسلمين سنيين ومتشددين فان الحياة الفكرية الاسلامية قد تدعمت في عهودهم كما كثرت الأبنية الدينية وبخاصة مع انتشار المدارس « النظامية » التي أنشئت حتى قبل عهد الوزير نظام الملك (الذي اغتاله الاسماعيلية سنة ١٠٩٢) لدعم الفكر السني .

وبالرغم من ان هذه البقاع قد تعرضت

١



٢

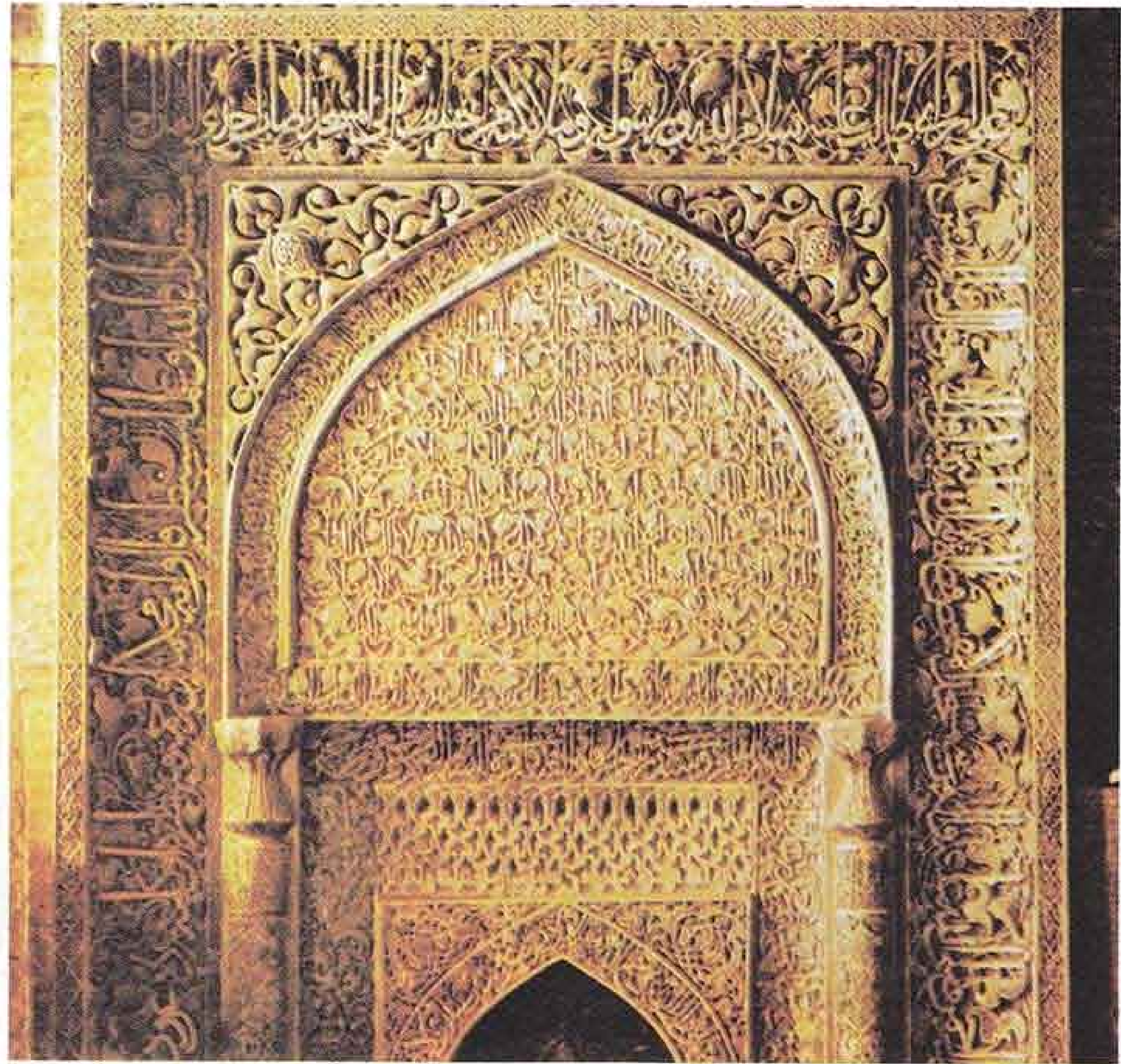


(١) ـ المنطلقات الأولى للفن الفارسي في الرسم كانت تحت تأثير مدرسة بغداد (القرن ١٢) من جهة وتأثير المدارس الصينية (القادمة مع السلاجقة والمغول) من جهة أخرى . من نماذج هذين المنبعين ظهر

للدمار الواسع وبخاصة في مراكزها الحضارية الكبرى في موجة جنكيز (بين سنتي ١٢١٩ ـ ١٢٢٣) الا ان ذلك لم يؤد الى دمارها الحضاري لأنها سرعان ما استأنفت نشاطاتها وبخاصة مع اندماج المغول السريع في البنية الحضارية الاسلامية للبلاد بدلا من نشر الطابع المغولي فيها .

وهكذا لم يسجل العصر المغولي الممتد حتى ظهور الصفويين (في مطالع القرن السادس عشر) انقطاعا عن الماضي ولكنه شهد نشاطات أدبية وعمرانية وفنية وفكرية واسعة ساهمت الى حد كبير في تأكيد شخصيتي المنطقتين الايرانية والتركية وتميزها ضمن الاطار الاسلامي الواسع . كما أسهم في ذلك الحاجزان اللغوي والسياسي اللذان أبعدا هذه البقاع عن باقي العالم الاسلامي بعض البعد ، وزادا في تطورهما الذاتي . ولقد مثل الحكام ، وهم في الأصل

٣



الأسلوب المسمى بالفارسي المغولي الذي انتشر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . كانت الرسوم ، في الغالب ، تخدم الموقف الديني الصوفي ، والوجوه الانسانية أجمل ما تكون دلالة على الجمال الالهي . وقد تغير ذلك أواخر القرن ١٥ مع ظهور المصور بهزاد الذي يعتبر رأس المدرسة الفارسية في التصوير . انه مع تلاميذه ومنمنماتهم ، قد حرروا الرسم في ايران من الاسلوب التيموري السابق ؛ حرروه من الارتباط بالخط . وجعلوا الشخوص أكثر حركية ، وتناسب الاعضاء أكثر واقعية ، والوجوه اكثر تعبيرا .

---

(٢) ـ عرفت صناعة الخزف تطورا كبيرا في الري وكاشان منذ القرن العاشر . وفي القرن الثاني عشر توصل الايرانيون الى تقنية تسمح بتلوين الخزف عدة الوان (مينائي) بعرضه للنار اكثر من مرة . وكانت التزيينات تتراوح بين العناصر النباتية والصور الانسانية . هذا الدورق هو من النماذج الجميلة لهذا الفن الصناعي . وقد صنع في جرجان بين القرن ١٢ و ١٣.

---

(٣) ـ المحراب جزء أساسي من بناء الجامع ، ومركز الاهتمام فيه . ولذلك كانت المحارب الاسلامية على الدوام قطعا فنية رائعة ، تفنن المعماريون في زخرفتها الفنية التي تحوي دوما بعض الآيات القرآنية . المحارب الايرانية في جملتها ، كانت تعتمد الزخرفة بالقاشاني الأزرق والملون . تميز بعضها مثل محراب مسجدي جمعة في اصفهان (الصورة) الذي بناه أوليجيتو سنة ١٣١٠ بانه من النماذج الفردية للنقش البارز ، المعتمد على عناصر سلجوقية وفاطمية ، والكتابة بالنسخ مع التزيين ، وكتابة الشهادتين بالكوفي المشتبك بالآرابسك الهندسي فوق المحراب .

من البداة الغرباء ، دور المتحمسين للاسلام ولرعاية العلماء والادباء والفنانين . وانعكس ذلك بوضوح في ما عرفته عواصمهم في تبريز ومراغة وسلطانية وشيراز وسمرقند وغيرها من التألق والبهاء العمراني والازدهار الأدبي والفني .

الشعر والأدب والفلك

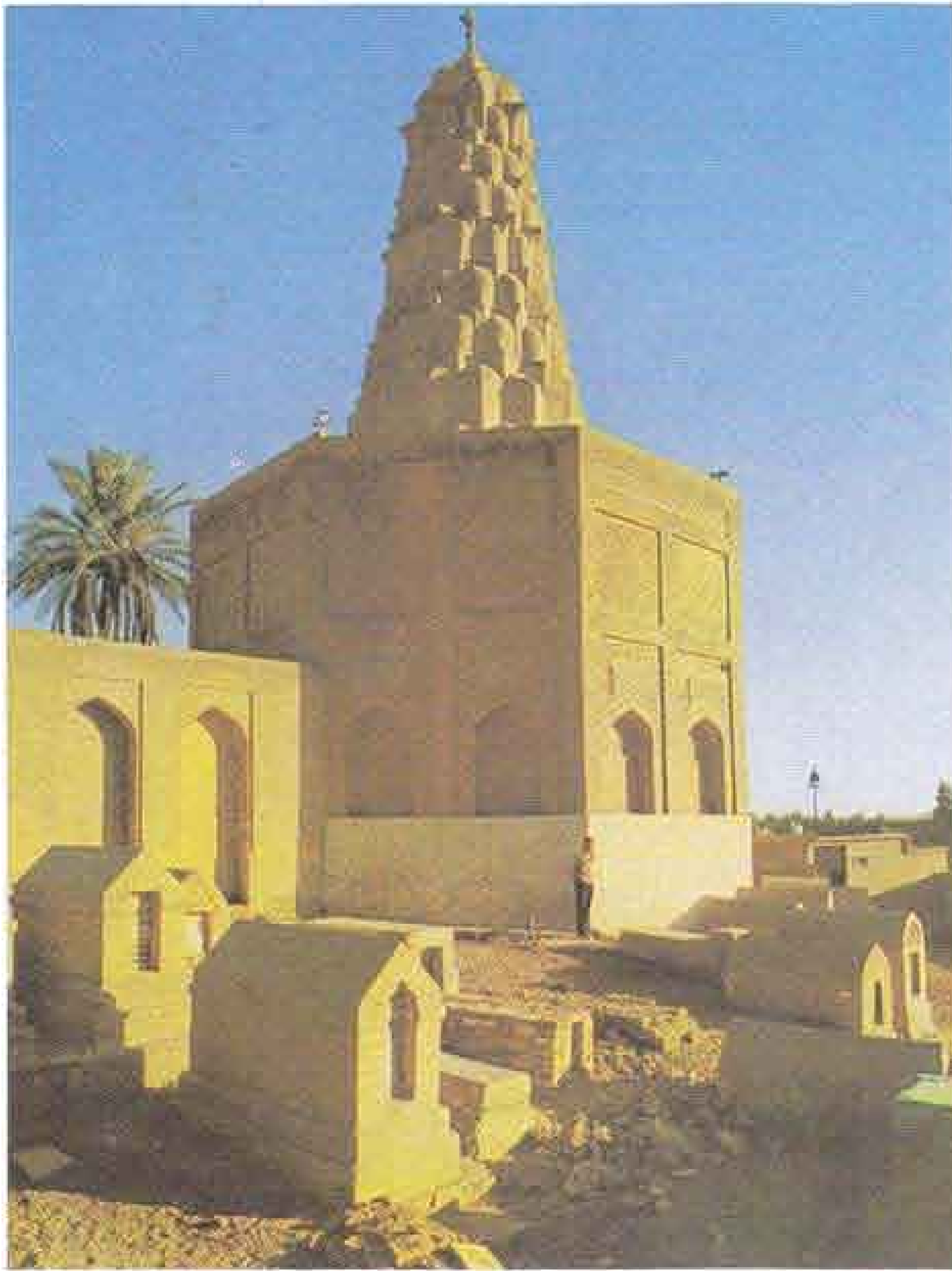
ظهر في هذه الفترة المغولية في ايران أربعة من كبار الشعراء في تاريخ الأدب الفارسي هم :

فريد الدين العطار (الذي قتل في غارات المغول على نيسابور سنة ١٢٢٩) وجلال الدين الرومي (ولد في بلخ ١٢٠٧ - ١٢٧٣) والاثنان من أعظم شعراء التصوف في الاسلام . ثم سعدي الشيرازي ثالث الثلاثة الكبار وأخيرا الشاعر حافظ الشيرازي (توفي سنة ١٣٨٩) أشهر شعراء الفرس الغنائيين .

٤ أ



ب



(٤) - قد يكون من غرائب الاقدار ان اسرة الايلخانيين ، التي جلب مؤسسها الدمار والخراب الى اجزاء العالم الاسلامي التي اجتاحها ، كانت هي التي شجعت العلوم والفنون وناصرتها اشد المناصرة . فهولاكو (١٢١٧ - ١٢٦٥) نفسه هو الذي استقدم اليه الفلكي الشهير ناصر الدين الطوسي وبنى له مرصد مراغة العظيم . وخلفاؤه هم الذين جعلوا عهدهم عهد ازدهار للفن المعماري . فالى جانب المساجد الضخمة والفخمة التي اشادوها او رمّموها او وسّعوها كجامع تبريز العظيم وجامع اصفهان الرائع وجامع يزد الجميل . شجعوا اقامة الاضرحة وبالغوا في تنويع اشكالها وزخرفتها . وقد فسحت تلك الاضرحة مجالا واسعا للمعماريين فتفتقت عبقريتهم الفنية عن اكثر التصاميم تنوعا واختلافا واغزرها زخرفة ، كما يدل على ذلك رسم (ب) الممثل لضريح زبيدة المثمن الاضلاع في بغـداد الذي تميز بقبّته العجيبة الناطحة للسحاب ، هذه القبة التي تظهر فيها الى الخارج على شكل معكوس تجاويف المقرنصات المزينة لها من الداخل ، والرسم (أ) الممثل لضريح حمد الله المستوفي في قزوين الذي يتميز بقاعة مربعة تتحول صعدا الى شكل مثمن الاضلاع ينتهي اخيرا بشكل مخروطي تقوم قاعدته على صف مستدير من المقرنصـات الدقيقـة التفاصيل .

وازدهر التاريخ على ايدي الامراء وكبار الموظفين من أمثال عطا ملك الجويني (سنة ١٢٨٢) ورشيد الدين (١٣١٨) وخواندمير (١٢٠٣) وعلى ايدي بعض العلماء مثل حمد الله المستوفي (حوالى ١٣٥٠) .

وعرفت ايران وما وراء النهر نشاطا علميا في الفلك خاصة وقد تجلى ذلك في اعمال نصير الدين الطوسي (١٢٧٤) وفي مرصد مراغة ومؤلفات قطب الدين الشيرازي (المتوفي في تبريز سنة ١٣١١) وفي رعاية الامير المغولي أولجيتو (١٣٠٤ - ١٣١٧) لهذا العلم ، والسلطان أولغ بك (١٣٩٣ - ١٤٤٩) حفيد تيمور الذي بنى مرصد سمرقند وعمل هو نفسه فيه مع مجموعة من علماء الفلك منهم غياث الدين جمشيد الكاشي (١٤٢٤) .

وظهرت في مجال الفنون نماذج ومبتكرات صارت فنونا فارسية اسلامية سواء في العمارة والتصوير والقاشاني والسجاد .

فالأبنية التي بناها الحكام المغول وان كانت استمرارا للتقاليد السلجوقية السابقة الا انها تميزت ببواباتها الكبيرة الرائعة ونسبها الشاهقة وقبابها وزخارفها الكثيفة التي يدخل فيها القاشاني . ومن أجمل الأبنية الأثرية الباقية ضريحان الأول في بلدة سلطانية بأذربيجان بني سنة ١١٠٩ ليضم رفاة الامير المغولي أولجيتو والثاني في سمرقند لتيمورلنك ويسمى (غور الأمير) (٣) (أقيم سنة ١٤٠٥) بقبته الزرقاء الضخمة المزدوجة . وأما المساجد التي بنيت فكثيرة جدا ومن أهمها مسجد الجمعة في أصفهان (بني سنة ١٣١٠) (٣) والجامع الكبير في يزد (امتد بناؤه بين سنة ١٣٧٥ - ١٤٤٢) والجامع الأزرق في تبريز (بني سنة ١٤٦٨) ، وقد زينت كلها كما زينت الابنية الأخرى من المدارس والقصور بالمقرنصات وبالقاشاني اللامع والزخارف الهندسية والنباتية والكتابية .

الخزف والسجاد والتصوير

تطور صنع الخزف ذي البريق المعدني أو الملون (٢) واستعمل بنجاح في كسوة عدد كبير من الأبنية في القرون ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وكانت مراكزه في الشمال الغربي من ايران (الري ، سلطان اباد ، قاشان ، صاوه) كما ازدهرت في الوقت نفسه صناعة السجاد وتوطدت تقاليدها التي اشتهرت بها ايران .

ولعل من أبرز التطورات الفنية في ايران ، في هذه الفترة ، انتشار فن التصوير . ونجد منذ بداية القرن ١٣ كتبا علمية وادبية مزينة بالمنمنمات والصور التي تشرح النص (١) . وفي المكتبات والمتاحف العالمية اليوم عدد كبير من الكتب المصورة في هذا العهد مثل : مقامات الحريري ، كليلة ودمنة وكلستان ، ومنطق الطير ، وتاريخ تيمور والشاهنامة وبعض الكتب الطبية . ويبدو أن هذا التصوير بدأ في بغداد التي تشكل فيها في النصف الأول من القرن الثالث عشر ما يسمى في تاريخ الفنون بمدرسة بغداد. ولكن الغزو المغولي نقل هذه المدرسة الى ايران وأدخل عليها بعض التأثيرات الصينية وبخاصة في صور الحيوانات والطبيعة . لكن هذه التأثيرات ضعفت في القرن الرابع عشر وبخاصة في تبريز وشيراز . ثم أصبحت هراة في عهد التيموريين مقر مدرسة خاصة بها في فن المنمنمات قامت على اعمال وعلى تلاميذ فنان بارز اسمه بهزاد (هراة ١٤٤٠ - تبريز ١٥٣٤) دشن العصر الذهبي للتصوير الفارسي .

ظهور المماليك في المشرق العربي

كانت القرون ١١ ، ١٢ ، ١٣ من التاريخ الاسلامي كلها قرون حروب دفاعية متصلة . كما كانت قرون نكبات متكررة ومدمرة . وقد التقى فيها الجندي الاسلامي ، سواء في المشرق او المغرب ، مع الجندي الصليبي الغربي من جهة ، ومع العسكري المغولي من جهة أخرى . نتيجة لذلك زرعت هذه الارض بالقلاع والأسوار . واستنفدت قوى المنطقة . ولعل من أهم النتائج ايضا أن حملة السلاح ، سواء من المغول ، او من المماليك ، او المتصوفة (المرابطين) ، أو المتشددين في الدين (الموحدين) ، هم الذي أضحوا حكام العالم الاسلامي ، عدة قرون ، متحالفين في ذلك مع الطبقات الدينية (٤) .

١



(١) ـ قلعة الحصن (حصن الأكراد) قلعة صليبية ، في وسط الشام ، كانت تتبع امارة طرابلس . تنازلت عنها سنة ١١٤٢ للمنظمة العسكرية الصليبية المسماة بالاسبتارية . وهم رهبان محاربون حولوا الحصن الى قلعة حصينة ذات سورين . استطاعت المقاومة ثلاثين سنة ، حتى فتحها الظاهر بيبرس سنة ١٢٧١ . بناؤها ما يزال اليوم مصونا بكامله .

(٢) ـ كان المحيط الهندي ، حتى العصر الحديث ، بحرا عربيا وللعرب فيه مهاراتهم الواسعة . استغل البرتغاليون ، آخر القرن ١٥ ، خبرة العرب وآلاتهم في الرصد وخرائطهم الدقيقة (كما فعل فاسكو دي جاما مع الملاح العربي الشهير ابن ماجد) فوصلوا الى الهند وحولوا تجارتها الى طريق رأس الرجاء الصالح وكان ذلك من أسباب انهيار الدولة المملوكية .

٢



كانت نقطة الصدام ، بين تلك القوى الثلاث (المغولية والصليبية والاسلامية) ، هي منطقة المشرق العربي . وقد بلغ هذا اللقاء الدموي ذروة الخطر في اواسط القرن ١٣ حين هاجمت الحملة الصليبية السابعة مصر (١٢٤٨ ـ ١٢٥٠) ثم وصل الزحف المغولي الى العراق والشام (١٢٥٨ ـ ١٢٦٠) . كان الذي رد هاتين القوتين الغازيتين هي القوة المملوكية ، التي قفزت بهذا الشكل الى المسرح السياسي للمنطقة العربية المشرقية . وتولت قيادتها ، قرابة ثلاثة قرون .

والمماليك ، في الأصل ، أرقاء (٥) من أجناس مختلفة . ويؤخذ أكثرهم صغارا من أسواق الرقيق . وقليل منهم كان من الأسرى . ويربى الصغار على الاسلام ، والفروسية العسكرية . وقد بدأت عادة استعمال المماليك ، في الجيش ، منذ عهد الرشيد وأولاده (مطالع القرن التاسع) . وانتشرت

١٣



ب

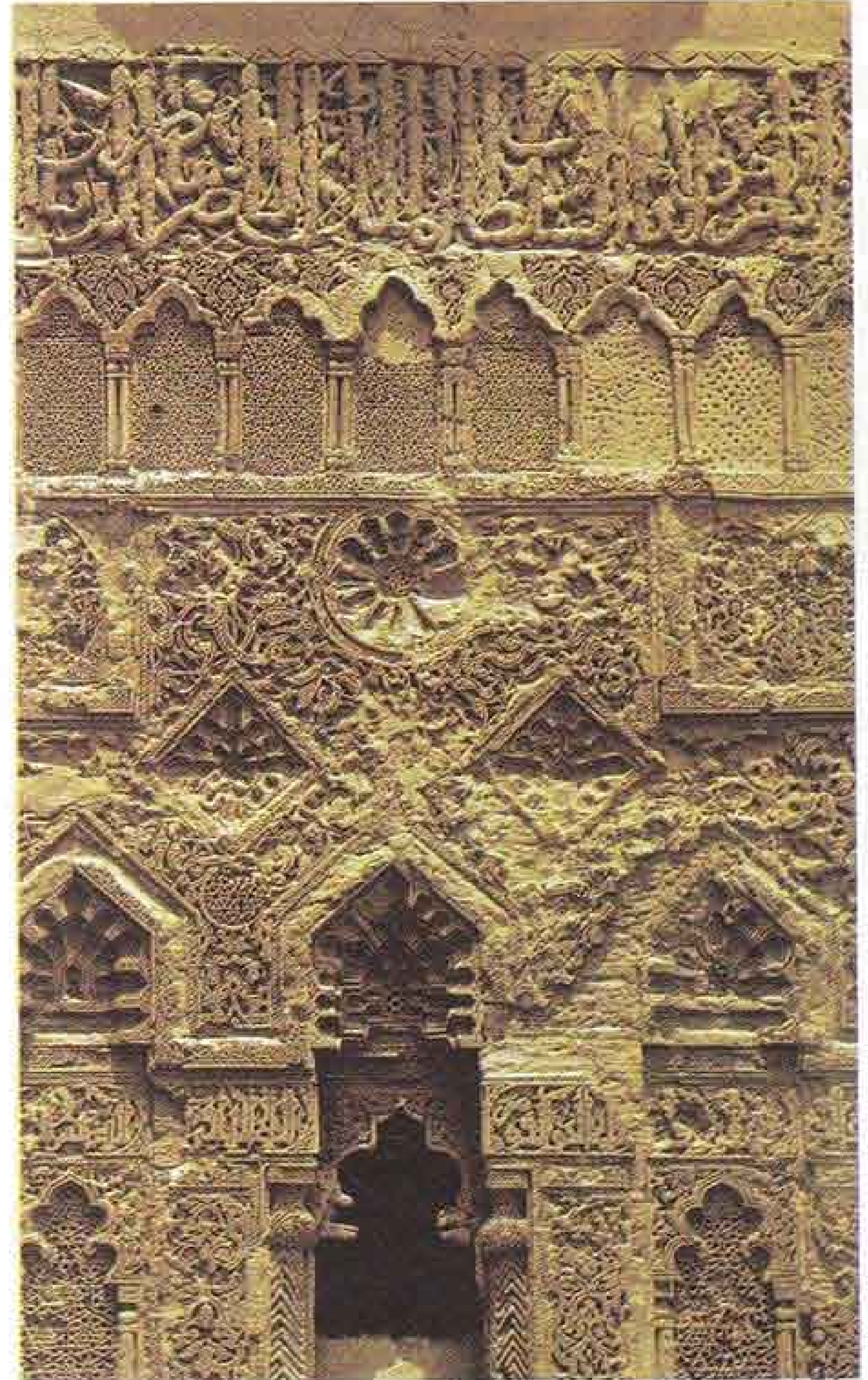


(٣) ـ استمر المماليك ، على سنة الخلفاء من قبل ، في اقامة دائرة في البلاط السلطاني باسم (دار الطراز) تصنع فيها الألبسة الرسمية للسلطان ، و « الخلع » التي يخلعها على كبار رجال الدولة ، عند تقليدهم المناصب ، والكسوة الرسمية للكعبة . كانت مصر مشهورة قبل العهد المملوكي بالكتان ونسيجه في تنيس ودمياط ثم تحولت ايام المماليك الى الحرير وزخرفته بخيوط الذهب وتحولت المراكز الى الاسكندرية ودمنهور . من مرحلة الانتقال ، هذه القطعة من الطراز السلطاني (ب) المصنوعة في مصر الأيوبية في القرن الثاني عشر والمحفوظة في متحف الفنون ببرلين وهي من الكتان الموشى بالحرير ، بزخارف هندسية وكتابات كوفية . أثر الطراز ، في شكله وتزييناته ، على الملابس الملكية المعاصرة له في الغرب كرداء تتويج الملك روجر الثاني (أ) ملك صقلية المحفوظ في فيينا ، صنع سنة ١١٣٣ في الدار الملكية في بالرمو (صقلية) على طريقة الفن الفاطمي والأيوبي .

بعدهم لدى الفاطميين والسلاجقة . وبرز من هؤلاء الأرقاء كثيرون في التاريخ الاسلامي . غير ان الأيوبيين (١١٧١ - ١٢٥٠) تحت ضغط الحروب المتصلة ، زادوا من استخدامهم . وبخاصة الملك الصالح أيوب (المتوفى سنة ١٢٤٩) ، الذي اغتنم مماليكه فرصة موته ، والانتصار العظيم في دمياط على الفرنجة (الحملة ٧) ، فقتلوا ابنه توران شاه ، وسيطروا على مصر . فلما سحق المغول الامارات الايوبية ، في الشام سنة ١٢٦٠ ، ثم انهزموا في عين جالوت ، كان ذلك فرصة المماليك للاستيلاء ايضا على الارث الأيوبي فيها ، رغم محاولة بعض الايوبيين المقاومة .

ولم يكن المماليك سلالة حكم بالمعنى المعروف . ولكن صراع القوى وتوازنها بينهم ، وهم أمراء الجيش ، أوجد لديهم نظاما غريبا كانت فيه السلطة تنتقل - مع بعض الاستثناءات - الى الأقوى من مماليك السلطان

٤



(٤) - « المدرسة » في العهد المملوكي كانت تزود جهاز الدولة الاداري بالموظفين ، والحياة الثقافية بالعلماء من قضاة وخطباء وائمة . لذا كانت أوقافها كثيرة . كما كانت أبنيتها ، كمدرسة الملك الناصر (الصورة) التي بنيت سنة ١٢٩٦ تكشف بزخرفها الفني مقدار الاهتمام الرسمي بهذه المؤسسة .

٥



(٥) - كان المماليك يجلبون الى مصر من ذوي الأعمار الصغيرة لتربيتهم ، وبأعداد كبيرة لتغذية الجيش ، وكانوا من أجناس مختلفة . ويذكرون انه كان يدخل مصر سنويا ٢٠٠٠ مملوك . واذا بالغ الملك الصالح ايوب في اقتنائهم فقد بالغ سلاطين المماليك انفسهم بعد ذلك في شرائهم ايضا . وقد بلغ عدد مماليك الناصر محمد بن قلاوون ٢٤ الف مملوك ولكن هذه المبالغة تراجعت فيما بعد فكان مماليك السلطان في القرن ١٥ يتراوحون بين ٤ - ٦ آلاف . كما كثر فيهم « الجلبان » او الأجلاب وهم الذين بيعوا وهم كبار في السن ولم يعرفوا التربية المملوكية التقليدية وقد كان لذلك أثره في وقوع الكثير من الفتن والاضطرابات في هذه الطبقة العسكرية الحاكمة في فتراتها الأخيرة .

السابق ، رغم تنصيب ولد السلطان المتوفى بشكل مؤقت .

شعر المماليك مبكرين أنهم متعدون على الحكم ، ولا شرعية تسندهم ، وبخاصة بعد سقوط الخلافة العباسية ، في بغداد سنة ١٢٥٨ . لذلك أسرع الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) باستقبال أحد الأمراء العباسيين ، في القاهرة سنة ١٢٦١ ، ونصبه خليفة . جعل مقره القلعة وأخذ منه التقليد بالحكم والسلطنة (٣) . لم يكن لسلسلة خلفاء القاهرة أي سلطة . ولم تكن الشرعية الشكلية التي منحوها للمماليك بذات معنى ، لولا ان أيدها هؤلاء بثلاثة أعمال هامة :

١ - اعادة توحيد مصر والشام والحجاز

كان تمزق السلطة السلجوقية في الشام ، وانقطاع مصر الفاطمية ، من أهم الاسباب في نجاح الحملات الصليبية الاولى . لهذا كان أول هموم من نهضوا لمقاومة الفرنجة توحيد هذين البلدين . حين تم ذلك ، نجح صلاح الدين في استرداد القدس وفلسطين . لكن خلفاءه تقاسموا مملكته . كان هذا التمزق ، أهم الاسباب في سحق المغول لهم وللشام . وحين وقفت القوة المملوكية في مصر للمغول سحقت بقايا الأيوبيين وظل الجيش المملوكي يربط البلدين ، قرابة ثلاثة قرون . أضاف المماليك ، الى كل ذلك ، احتضان الحجاز ، ودعم سمعتهم بحكم الحرمين الشريفين . وبابقاء برقة بأيديهم ، بوصفها امتدادا عربيا يحمي السلطنة . .

٢ - طرد الصليبيين من الشام

تقبل الناس المماليك لانتصارهم على الحملة السابعة ، في دمياط سنة ١٢٤٩ . ثم جعل هؤلاء تصفية القوى الصليبية في الشام من همومهم الدينية والسياسية - العسكرية معا . استطاع الظاهر بيبرس ان يحقق اولا الاستيلاء على عدد من مواقعهم منها انطاكية سنة ١٢٦٨ ، ثم جاء السلطان قلاوون فاسترد منهم عددا آخر ، ثم سقط معقلهم الاخير عكا سنة ١٢٩١ على يد ابنه الأشرف خليل . وترحل الصليبيون جميعا الى قبرص (٢) ، حيث تابعوا حملاتهم من جديد .

٣ - طرد المغول

لم ينقطع المغول الايلخانيون عن الهجوم على الشام ، بعد هزيمة عين جالوت . وقد اضطر الظاهر ثم قلاوون ثم الأشرف للوقوف في وجههم . وحين تنصر أبغا بن هولاكو (المتوفى ١٢٨٢) ، اتخذ هجومه المتكرر على شمال الشام الطابع المغولي - الصليبي ، في وقت معا . ولكنه كان يهزم ، واستمر الهجوم في عهد أخلافه . ولم ينفع اسلام غازان في ايقاف الحملة ، لأنه جهز قوة كبرى توغل بها حتى دمشق ، وبيت المقدس سنة ١٣٠٠ ، ثم استطاع الناصر محمد ان يهزمه سنة ١٣٠٢ . وخمدت اطماع المغول بعد ذلك . ثم لم يلبثوا ان مالوا الى السلام .

وهكذا ، بعد أن أقام المماليك سلطانهم على دحر الصليبيين والمغول ، عادوا بعد أربعين سنة فوطدوا هذا السلطان بطرد الأولين ثم الآخرين ، وكان هذا بجانب اقامتهم لدولة اسلامية كبيرة موحدة وتوسعهم في تجارة البر والبحر (١) هي الأعمال التي سمحت لنظامهم السياسي العسكري الغريب أن يضمن لنفسه الاستمرار المديد .

الدولة المملوكية

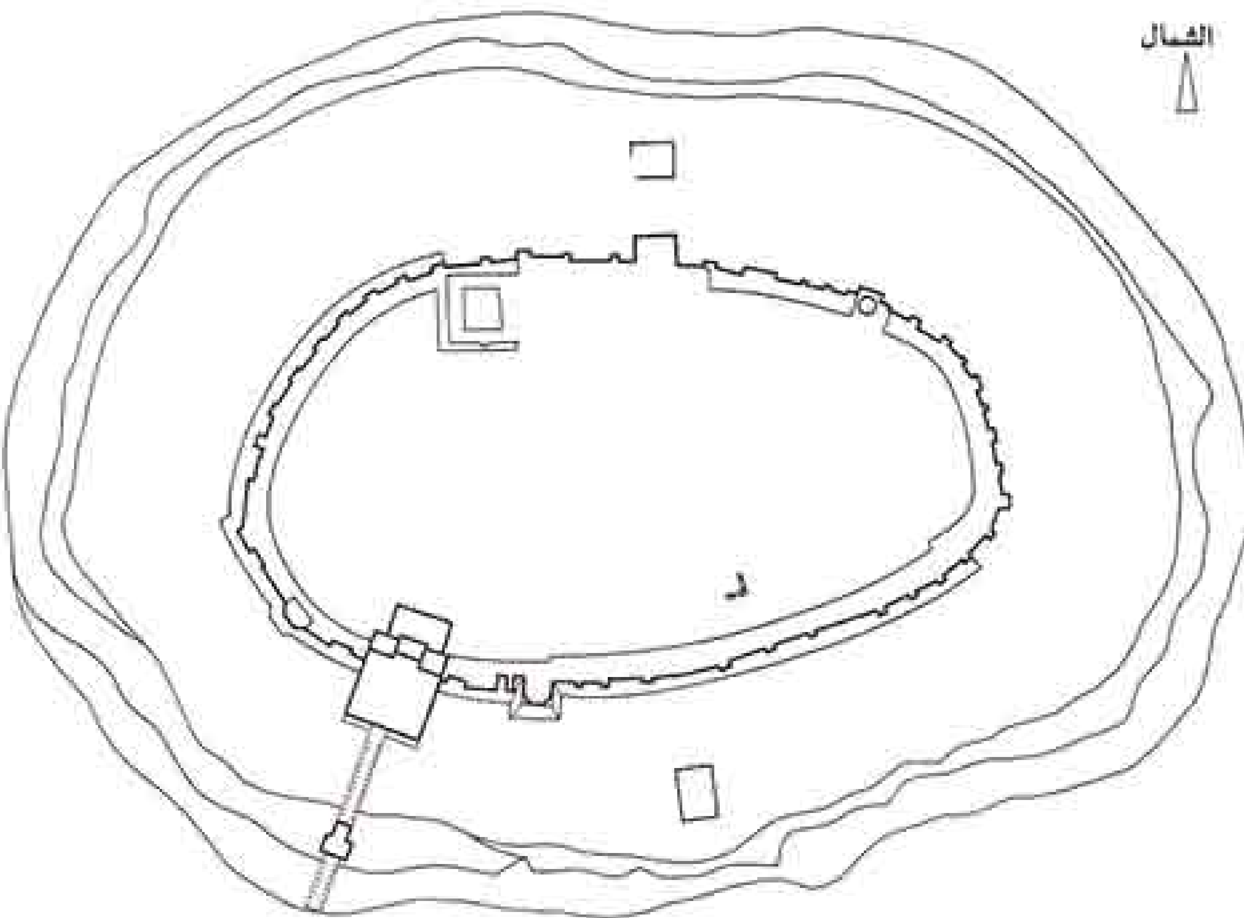
استمرت الدولة المملوكية مسيطرة على مصائر الشرق العربي قرابة ثلاثة قرون (١٢٥٠ - ١٥١٧). توالى خلالها خمسون سلطانا لم يكونوا سلالة ملكية ولم يكن بينهم من رابطة - باستثناء بيت قلاوون - سوى رابطة استرقاق بعضهم لبعض . ويقسم هؤلاء السلاطين عند المؤرخين الى قسمين :

١ - المماليك البحرية

وهم السلاطين الاوائل الذين حكموا من سنة ١٢٥٠ حتى سنة ١٣٨٢ وعددهم ٢٥ سلطانا حكموا ١٢٦ سنة وكان أولهم امرأة (هي شجرة الدر زوجة الصالح أيوب). ومعظمهم من الاتراك . ورغم الميل الشديد الى اقرار مبدأ

أ ١





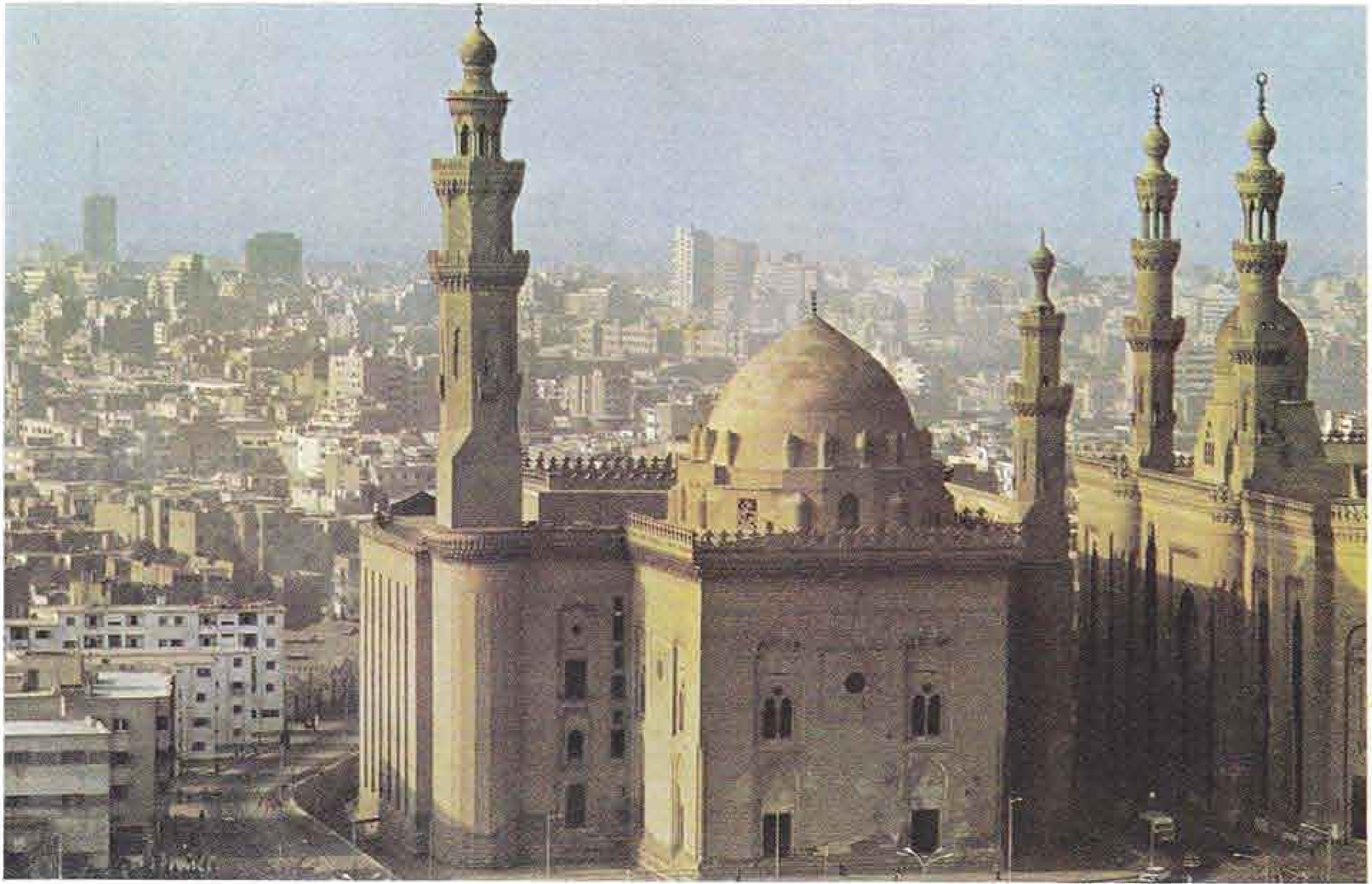
(١) - تقدمت الفنون الحربية الاسلامية تقدما واسعا في القرون التي شهدت الغزوات الصليبية والمغولية وامتلأت مدن العالم الاسلامي ومواقعه الاستراتيجية بالقلاع والحصون والاسوار . كما جددت المواقع الدفاعية القديمة . قلعة حلب التي تعتبر من أكمل القلاع الباقية من ذلك العصر . بناؤها يقوم فوق تل (ب) يسيطر على المدينة بارتفاع خمسين مترا وقد حفر حول التل خندق ونصب سلم حجري معلق على سلسلة أقواس يصل ما بين مدخلها على مستوى المدينة ومدخل القلعة الأساسي . معظم البناء الحالي (أ) يعود الى عهد الملك الظاهر غازي الأيوبي . وقد انتهى سنة ١٢٠٩

الوراثة في هذه الفترة ومجيء ١٤ سلطانا من بيت السلطان قلاوون فقد فشل المبدأ . وعلى أي حال فان اربعة فقط من مجموع السلاطين البحرية حكموا ٨٤ سنة . وكان الناصر محمد بن قلاوون اطولهم عهدا (٤٣ سنة) وعددهم ٢١ ومنهم من حكم أشهرا معدودة وبعضهم ولّي السلطة مرتين او ثلاث مرات (كالناصر محمد ١٢٩٣ - ١٣٤٠) . وأبرز المماليك البحرية ، بعد الظاهر قلاوون ، هو الناصر . هذا الذي استطاع في سلطنته الثالثة احكام قبضته على الحكم وانشأ العديد من العمائر الضخمة وشجع الفنون (٢) .

٢ - المماليك البرجية (الجراكسة)

وهم المماليك الأخيرون من السلطان برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٨) حتى طومان باي الأخير (١٥١٦ - ١٥١٧) وجميعهم كانوا من الجركس (عدا اثنين من اصل يوناني) وهم

٢



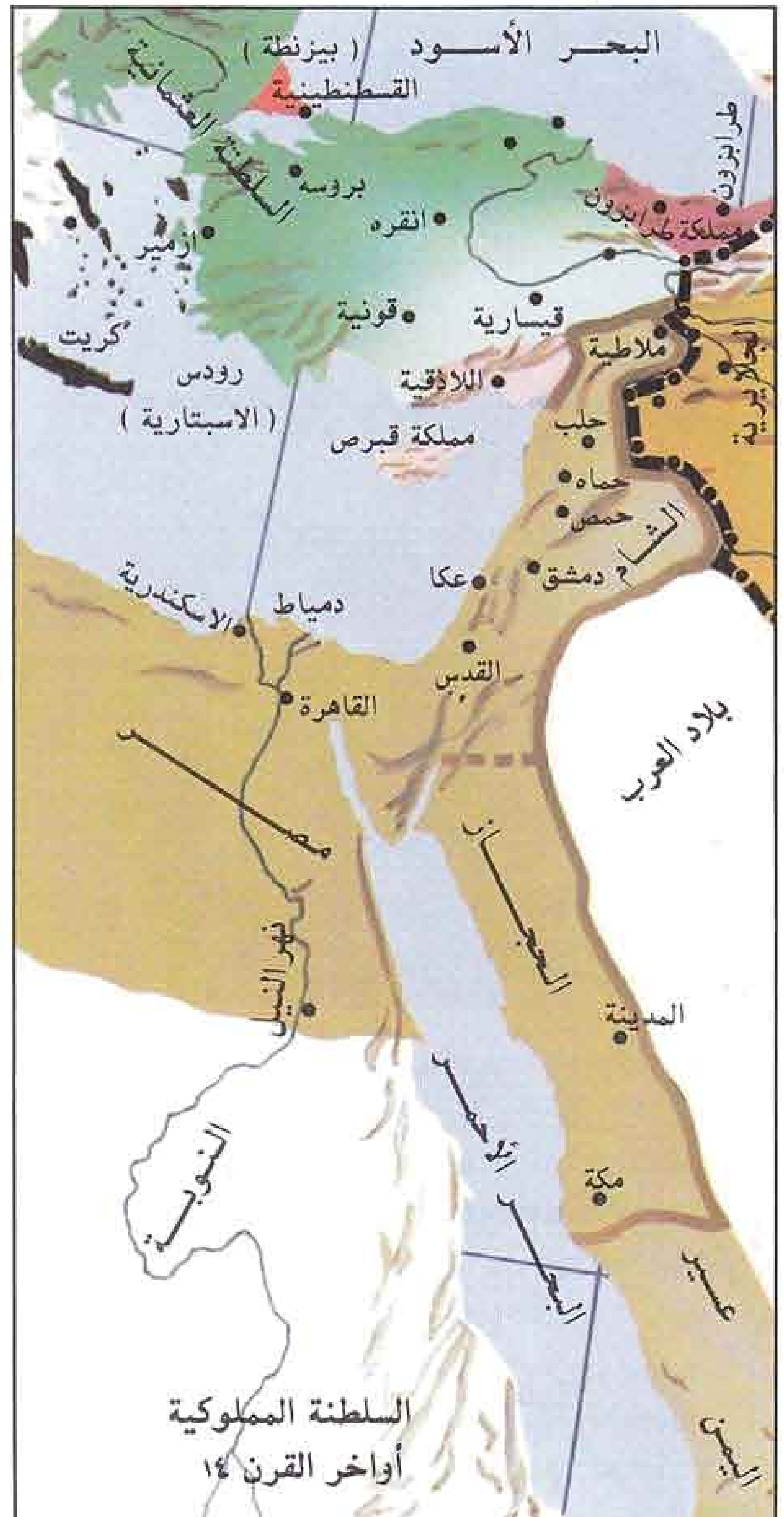
ولكن المغول خربوا القلعة سنة ١٢٥٨ ، فأعيد بناؤها أيام السلطان خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ . ثم دمرها تيمورلنك فلم ترمم الا في القرن السادس عشر . تلتقي في القلعة تقاليد البناء الحربي الشامي مع التأثيرات الايرانية من جهة وتأثيرات القلاع الصليبية من جهة أخرى . قامت القلعة في العهد المملوكي بدورها الحربي ولكنها فقدت هذا الدور في العهد العثماني مع توقف خطر الحروب على حلب ونمو الصفة التجارية للمدينة .

---

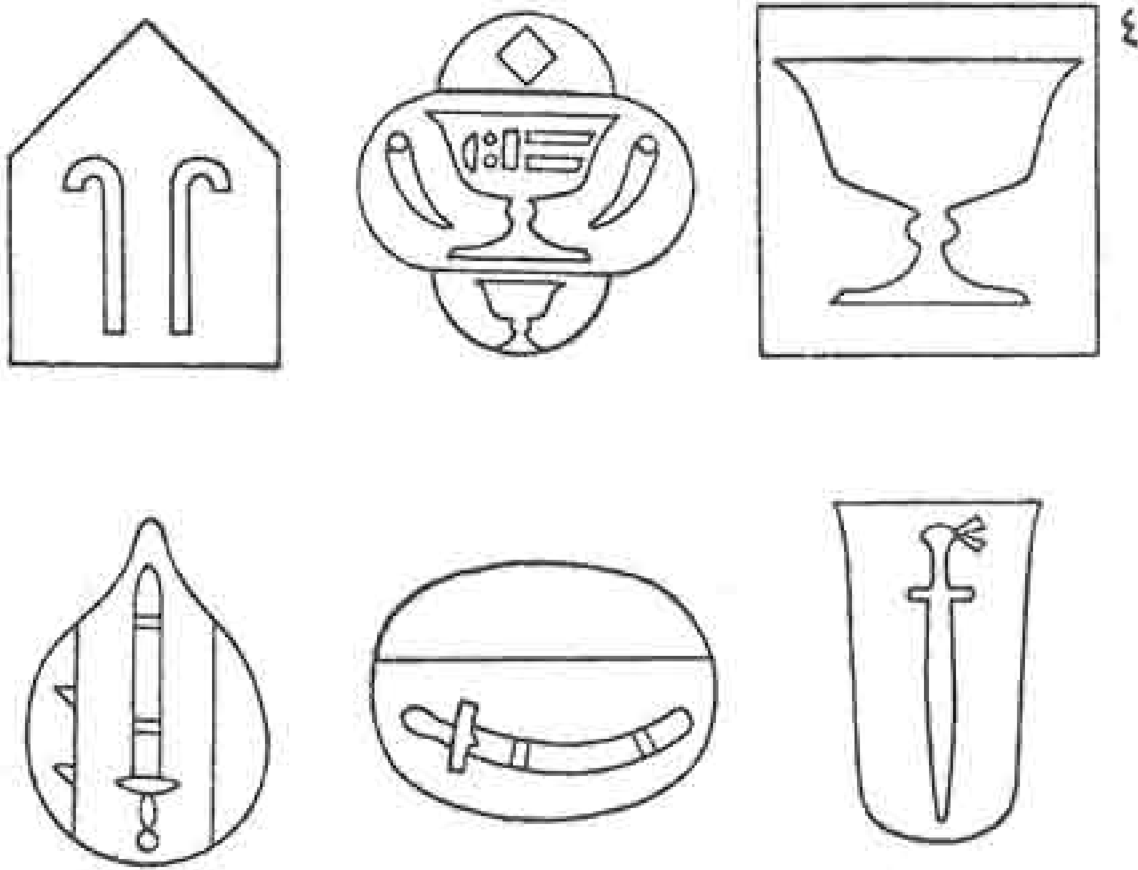
(٢) - ما تزال القاهرة ، في اقسامها القديمة ، مملوءة بأجواء السلاطين المماليك . فقد زرعوا اسماءهم وعمائرهم ، من الجوامع والمدارس والأضرحة ، في كل مكان . وأكثروا منها كثرة كبيرة . وتنافسوا في ذلك وأنفقوا الانفاق السخي . يذكرون ان الناصر محمد بن قلاوون كان ينفق على العمارة ، كل يوم ، سبعة آلاف درهم (٣٥٠ دينارا ذهبيا) . بهذا الشكل بقيت اسماء هؤلاء السلاطين الغرباء أمثال قايتباي . برقوق . قلاوون . برسباي . حسن . خاير بك . الناصر محمد . قانصوه الغوري . تعطي القاهرة الأثرية الى اليوم الطابع الجمالي المملوكي . حرص السلاطين على أن يجعلوا عماراتهم مجموعات من العمائر يجتمع فيها الجامع ، مع المدرسة ومع الضريح أيضا .

في الاصل مماليك البيت القلاووني ثم انتقضوا عليه وقد توالى منهم خلال ١٣٥ سنة ٢٥ سلطانا ايضا منهم تسعة حكموا ١١٩ سنة في حين حكم الـ ١٦ الباقون نحوا من ١٥ سنة فقط . وأبرزهم برقوق الذي أوصل المجموعة الى السلطنة والأشرف برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) وجقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ثم قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦) وقد تميز عهد الجراكسة في فتراته الاولى بالاستقرار واحتكار السلاطين للتجارة وكثرة الابنية والعمران ثم اضطرب أمرهم في الفترات الاخيرة ودخلوا في منازعات دامية بينهم ورافق ذلك موجات من الطواعين وأزمات اقتصادية كما رافقه نمو الاخطار الخارجية (العثمانية من الشمال والبرتغالية من الجنوب) مما دمر القوى المملوكية وآذن بنهايتها . تابع المماليك جميعا ، خلال سلطنتهم ، المهمة المزدوجة وهي التي كانت أهم العوامل في قيام دولتهم

٣



٤



(٣) - ورثت السلطنة المملوكية الاراضي الايوبية كلها تقريبا . وسلطنة صلاح الدين ، التي مزقها افراد اسرته من بعده ، كانت احياء لسلسلة الدول التي سبقت في القطرين ، الشام ومصر (الطولونية والاخشيدية والفاطمية) . عاصر المماليك دول المغول والتركمان التي قامت في العراق وايران وصدوا الهجمات القادمة منها . كما عاصروا نمو السلطنة العثمانية حتى اتجهت الى تدمير سلطنتهم سنة ١٥١٧ بعد أن ابتلعت كل الدولة البيزنطية . كانت قبرص ورودس ، الجزيرتان الصليبيتان ، هما الشوكة في خاصرة المماليك حتى فتحوا قبرص وحيدوا رودس . أدخل المماليك الاسلام الى بلاد النوبة وربطوها بهم . لكنهم لم يستطيعوا اثبات قوتهم البحرية امام البرتغاليين في بحر العرب (مطالع القرن ١٦) وحين خسروا الطريق التجاري خسروا السلطنة .

---

(٤) - شاعت في العصر الصليبي والمملوكي من بعده ، عادة اتخاذ كل سلطان أو أمير شعارا خاصا له ، يرسمه أو ينقشه على ممتلكاته أو عماراته . ولأتباعه شعاراتهم أيضا .

وفي توطيدها وبقائها الطويل .

أعمال المماليك

أ - دفع الصليبيين الذين تمركزوا في قبرص ورودس ، بعد طردهم من الشام ، وأقبلوا يشنون الغارات على السواحل الشامية والمصرية . وقد دفع المماليك الهجمات . واستطاع السلطان برقوق في ثلاث حملات متتالية (١٤٢٤ - ١٤٢٦) أن يحتل قبرص ويأسر ملكها (جانوس) ويتبعه للسلطنة . وأكمل عمله السلطان جقمق الذي غزا الاسبتارية في رودس في ٣ حملات (١٤٤٠ - ١٤٤٤) وأجبرهم على المهادنة .

ب - دفع التتر : فبعد تحييد الأيلخانيين وانهيارهم جاء الخطر مرة أخرى مع تيمور الأعرج (لنك) الذي أسس امبراطورية واسعة توسعت اطماعها لتمتد الى الاراضي المملوكية . فهاجم بلاد الشام وأنزل بها أفدح النكبات (١) (١٤٠٠) . وقد تراجع عنها ليتفرغ لهزيمة السلطان بايزيد العثماني (١٤٠٢) ، ثم جاء موته السريع سنة ١٤٠٥ لينقذ الدولة المملوكية منه .

انتهاء المماليك

غير ان المماليك فوجئوا في أواخر القرن ١٥ ومطالع ١٦ بخطرين جديدين عليهم وان كانا من طبيعة الخطرين السابقين . وقد أنهيا الدولة المملوكية اقتصاديا وعسكريا .

أ - الخطر البرتغالي : فقد وصل البرتغاليون عن طريق رأس الرجاء الصالح الى المحيط الهندي (١٤٨٧ - ١٤٩٧) تدفعهم اسباب اقتصادية ودينية . ووصلوا الى الهند وسرعان ما عملوا على احتكار بضائع الشرق معتمدين على قوتهم البحرية وعلى الفتك العدواني . وقد شعر المماليك بالخطر الكبير مع انقطاع التجارات وعائداتها عنهم وحاولوا التدخل البحري - رغم ان قوتهم برية - وهزموا البرتغاليين عند ساحل الهند سنة ١٥٠٨ لكن الاساطيل البرتغالية كانت أقوى منهم فهزمتهم (معركة ديو ١٥٠٩) ثم أخرجتهم من المحيط الهندي وسدت المدخل الجنوبي للبحر الأحمر . وفي تلك الأثناء جاءت الضربة الثانية والقاضية على المماليك من الخطر الثاني .

ب - الخطر العثماني : فقد كان العثمانيون قد أسسوا امبراطورية آسيوية اوروبية استطاعت ان تستولي على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وصارت لها نتيجة لذلك أطماع توسعية في الشرق ظهرت آثارها في الدول التركمانية الصغيرة على الحدود بينهم وبين المماليك . ثم انكشف في مطالع القرن ١٦ حين وصل السلطان سليم الأول الى العرش (١٥١٢) وما كاد هذا السلطان يفرغ من هزيمة الصفويين (معركة جالديران ١٥١٤) ويأمن جانبهم حتى كانت خطوته الثانية ضد المماليك . ولم ينفع السلطان قانصوه الغوري دفاعه المجيد على رأس جيشه وهو يقارب الثمانين فسقط قتيلا (معركة مرج دابق شمال حلب سنة ١٥١٦) ودخل السلطان سليم العثماني بلاد الشام . ثم اتجه لدخول مصر (١٥١٧) وقتل السلطان المملوكي الأخير الذي نصبه المماليك هناك : طومان باي .

وآلت دولة المماليك بشامها وحجازها والحرمين ومصر حتى برقة الى الدولة العثمانية .

الاقتصاد والثقافة في عصر المماليك

الانتصارات العسكرية والسياسية عملت على ظهور الدولة المملوكية وتوطيدها . والعوامل الاقتصادية قد أعطتها عناصر البقاء والازدهار . فالموقع الجغرافي المميز الذي سيطر عليه المماليك أعطاهم السيطرة على مصبات الطريقين الرئيسيين للتجارة بين اوروبا والشرق : برا وبحرا (١) و (٢) .

التجارة المملوكية

وكانت اوروبا منذ الحروب الصليبية تتجه الى التزايد السكاني وظهور المدن والنهضة الثقافية والفنية وتوطيد الملكيات مما زاد حاجة البلاطات والطبقات الاقطاعية والكنسية الى بضائع الشرق ومبادلتها

١



(١) - صورة هذا المركب البحري التجاري تعود الى القرن الثاني عشر. رسمها الرسام العراقي يحيى بن محمود الواسطي لأحد مراكب المحيط الهندي وفيه التجار. ومراكب هذا المحيط كانت تختلف عن مثيلاتها في البحر المتوسط فأخشابها كان يشد بعضها الى بعض بألياف القنب وجسم المركب مزدوج المقدمة والمؤخرة وصاري المقدمة يحمل اشرعة مربعة صغيرة . وللمركب مرساة كلابية ويوجه بدقة تحرك بالحبال كما هو الحال في مراكب عمان الى اليوم .

---

٢ أ



ب



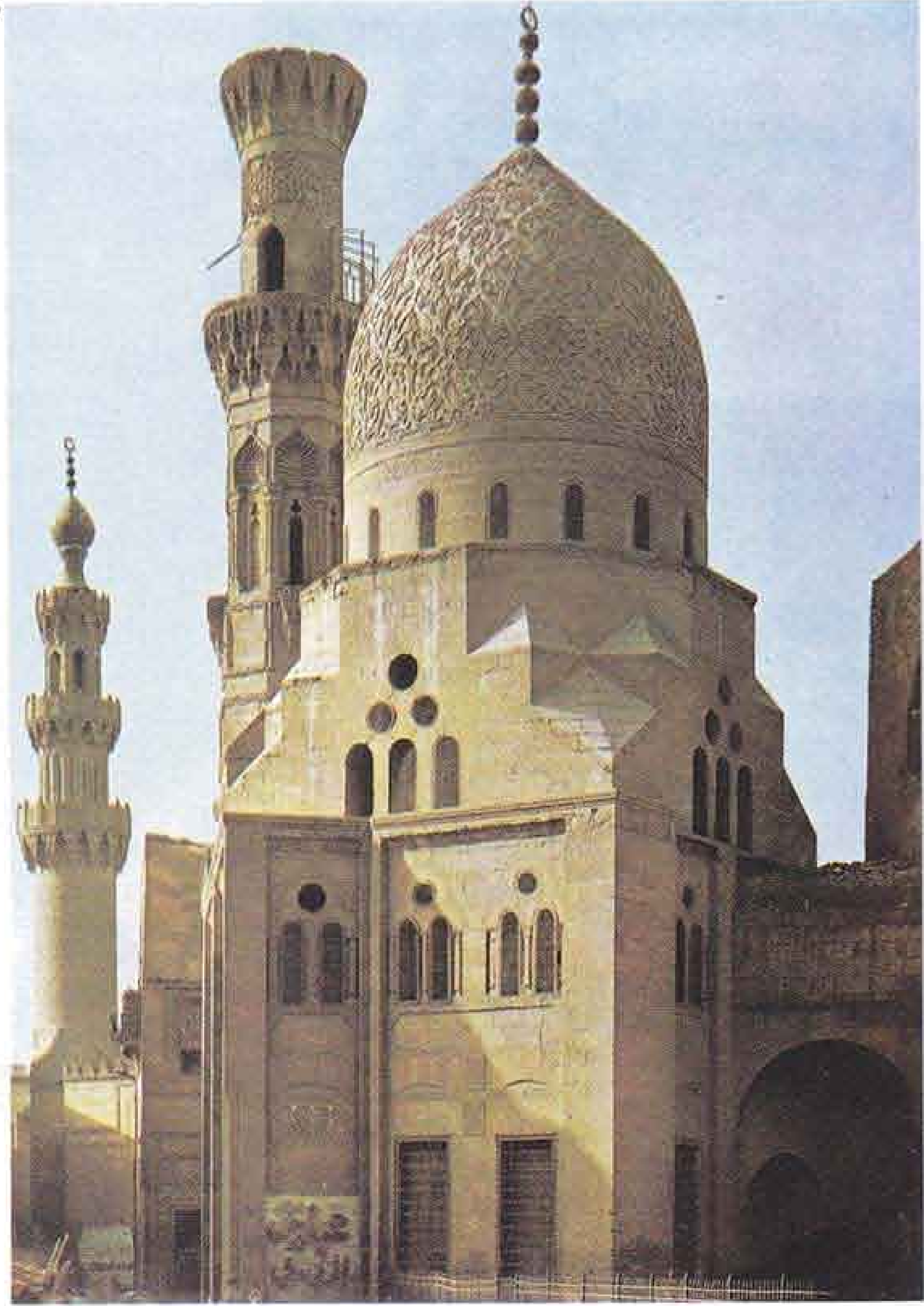
(٢) - كانت التجارة البرية في المشرق الاسلامي تقوم بصورة اساسية على الجمال (أ) . وقد رسمها أيضا الرسام الواسطي في النسخة الفريدة التي كتبها وصورها حوالى سنة ٦٣٤ / ١٢٣٥ لمقامات الحريري والمحفوظة في باريس وفيها اكثر من ٥٠

بالبضائع الاوروبية . وقد كان ذلك كله يتجمع للمبادلة في اسواق القاهرة ودمشق والمدن الأخرى . كما كانت المكوس عليه مصدر رزق كبير للدولة .

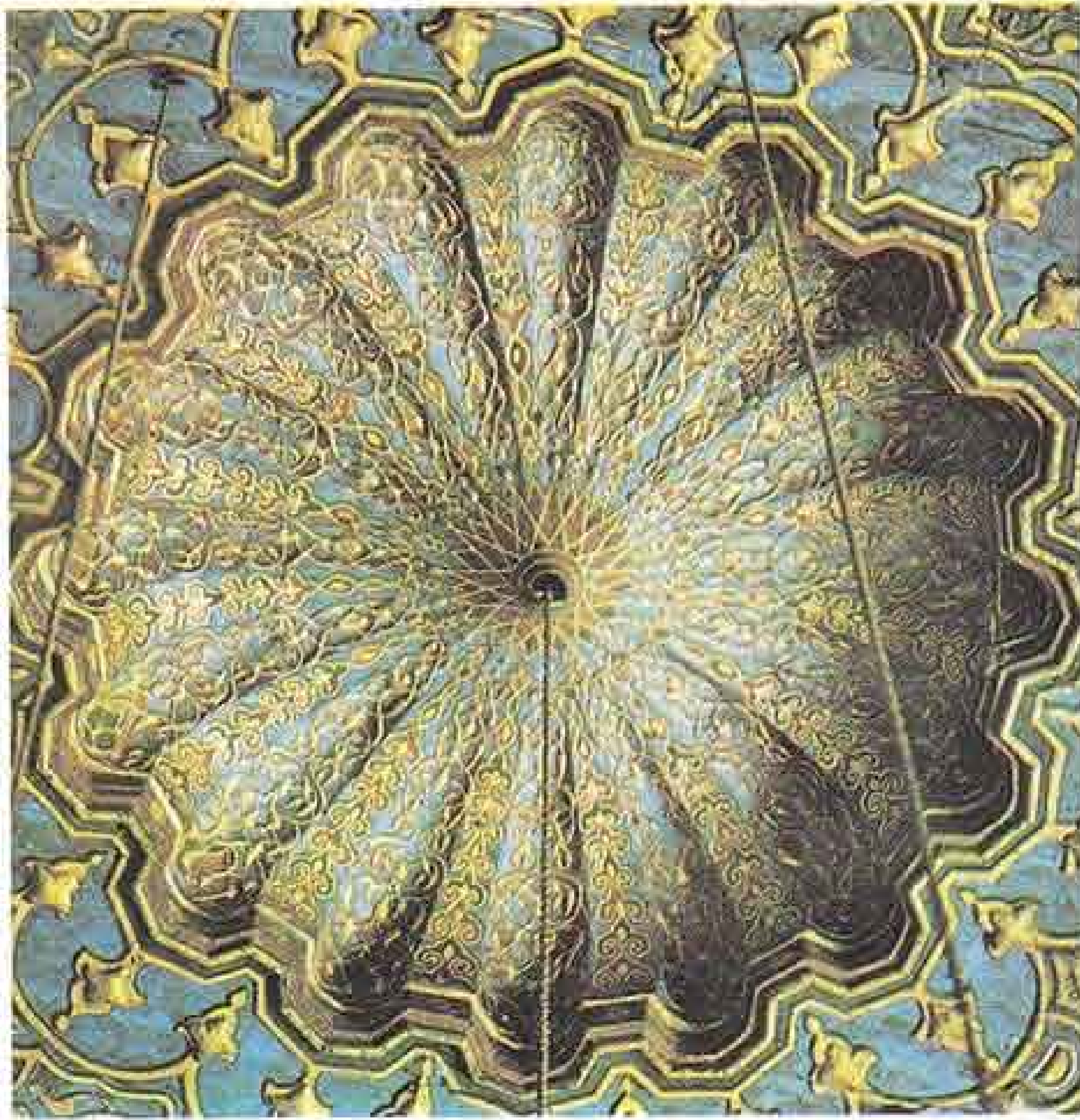
وعمل السلاطين على ضمان الامن في الطرق والأمر بحسن معاملة التجار الاوروبيين ، وعقد المعاهدات مع بلادهم وارسال الوفود اليها واستقبالها منها (مثل صقلية . قشتالة . أراجون . فرنسا . جنوة . البندقية) كما عقدوا الصلات مع الهند وسيلان .

كانت التجارة منذ العهد الفاطمي (القرن الحادي عشر) تقوم على المبادرة الفردية لمجموعات تجارية عرفت بتجار الكارم وكانت لهم العلاقات الواسعة ما بين الهند واقصى المغرب ولهم الثروات الطائلة واساطيل السفن ولهم شبكة من المراكز والعملاء في مختلف الموانىء والمدن التجارية وقد ظلوا

أ٢



ب



صورة ملونة تصور مختلف جوانب الحياة في عصره . طريقته في الرسم كانت تقوم على تصوير الواقع دون محاكاة الطبيعة وذلك باعتماد السطح الواحد لا العمق وعدم تجسيم الوجوه ، والاكتفاء بالخصائص العامة دون الخصائص الفردية واهمال المنظور واعطاء الازهار والاشجار الوانا غير طبيعية وكل ذلك نزولا عند مقتضيات الجمال وحدها بقطع النظر عن متطلبات الواقع . الرسم (ب) للواسطي ايضا يمثل احدى حلقات الدراسة العلمية ويحمل كل خصائص رسمه .

(٣) - سمح الغنى التجاري للمماليك بأن ينفقوا لا على حياتهم الخاصة وحسب ، بل على المباني التي بنوها لقبورهم أيضا كما كانوا ينفقون على المساجد والمدارس . وقد تفننوا في تزيينها من الداخل والخارج . وتظهر في الصورة (أ) التزيينات الداخلية الرائعة والمعقدة لقبة مدرسة السلطان برقوق التي بنيت سنة ١٣٨٦ . وفي الصورة (ب) قبة ضريح خاير بك المزينة بتزيينات فاطمية نباتية بارزة من أجمل نماذج التزيين في القباب وقد بنيت سنة ١٥٠٢ .

عماد التجارة المملوكية العالمية حتى مطالع القرن الخامس عشر حين جاء السلاطين الجراكسة الى الحكم وتولوا احتكار التجارة لحسابهم فكان هذا الاحتكار هو الضربة الاولى للتجارة المملوكية كما كان احد اسباب الضربة الثانية وهي تصميم القوى الاوروبية على الوصول مباشرة الى الهند. وحين نجحت في ذلك (بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧) كان نجاحها يعني انقطاع التجارة المملوكية وقطع دماء الدولة نفسها ونهايتها وبدء حركة التوسع التجاري والسياسي الاوروبي التي افتتحت صفحة الاستعمار السوداء.

الحركة الثقافية والعلمية

رافق الغنى الاقتصادي حركة ثقافية وفنية (٤ و ٥) وعمرانية زاخرة ولكنها اتجهت الى دراسة التراث في حلقات الدرس (٣) والى



٤

(٤) - أكثر المماليك من استخدام النحاس في الابواب والمساجد والثريات والصناديق والأسلحة واستدعي ذلك ظهور براعات تقنية في نقشه وتكفيته بخيوط الذهب والفضة. ومن الصعب تحديد المكان الذي نشأت فيه هذه التقنية لكن المعروف ان دمشق وحلب والموصل انتجت منذ اوائل القرن الثالث عشر قطعا رائعة من البرونز المكفت. ومنه هذا الاناء الموجود في المتحف البريطاني. انتقلت الصنعة بعد ذلك الى مصر وافريقيا والشمالية. وأكثر المصنوعات اتقانا كانت الشمعدانات التي تهدى للمساجد.

---

(٥) - عرف العرب مبكرين الأواني الخزفية الصينية وقد زاد الاقبال عليها بعد الهدية التي تلقاها هارون الرشيد من امراء الصين حوالى سنة ٨٠٠ ولم يكن ذلك لاستخدامها ولكن للزينة والتهادي. وقد حاول العرب كثيرا صنع البورسلين الصيني الذي لم يعرف الغربيون سره حتى القرن الثامن عشر ولم يفلحوا لأنهم لم يكونوا يعرفون مادة الكوالين التي تميز تركيبه ولا الأفران الخاصة به والتي تقتضي حرارة عالية جدا وتحكما منظما فيها. لذلك اتجهت تقنية الخزف الاسلامي الى التفنن في رسمه وتزيينه واثروا بذلك في الخزف العربي وفي الصيني ايضا. (والصحنان في الصورتين (أ)، (ب) مثال لذلك. كما ان العرب اعادوا ابتكار تقنية الطلاء الزجاجي بالقصدير بعد ان اندثرت واستخدموها لانتاج خزف يحاكي البورسلين الصيني وتميزوا بها وانتقلت صناعتها الى الاندلس والمغرب ثم الى ايطاليا واوروبا حيث استعملت لانتاج خزفيات « الما يوليكا » و « الفايانس » و « دلفت ».

٥ أ



ب



المحافظة والتقليد دون الابداع :

أ ـ فالأخطار التي عانتها المنطقة العربية (منذ القرن الحادي عشر) دفعتها الى التمسك المتزايد بالتراث والتشدد في المحافظة الدينية ومحاربة الفلسفة واغلاق باب الاجتهاد في الفقه ومناهضة شتى الفرق الدينية وحصر مهمة العقل في الدفاع عن العقيدة .

ب ـ وكانت طبيعة الحكم المملوكي تتفق مع هذا السياق لأن المماليك كانوا طبقة عسكرية غريبة ليس لها جذور في الارض والسكان والدين ولا ذخيرة حضارية سابقة وتريد الظهور بمظهر حامية الدين وتراثه ونماذجه التقليدية الثابتة .

ـ وهكذا لم يضق المجال الابداعي فقط ولكن ظهر منذ العصر الايوبي وخلال العصر المملوكي (ثم العثماني ايضا) نوع من التحالف الضمني بين الحكام المندفعين الذين بذلوا السيف للدفاع والمال لبناء المساجد والمؤسسات الدينية وتشجيع الفنون المتصلة بها (٥) ، وبين العلماء الذين جعلوا ذلك نفسه همهم الأول ورأوا في طبقة الحكام العسكريين اليد المنقذة للاسلام . وكانت النكبات المتصلة سواء أكانت عسكرية (كالكوارث المغولية والتيمورية والصليبية والفتن الداخلية) او طبيعية (كالمجاعات والطواعين الجارفة ومنها الوباء الاسود العالمي سنة ١٣٤٩ ، وطاعون سنة ١٤٠٤ وسنة ١٤٩٠) تقدم للطرفين مبررات التوطد والبقاء . كما كان كل ذلك سببا في انتشار التصوف وتكاثر اتباعه وفرقه ورجاله ونجاحه منذ القرن الرابع عشر ، وظهور الايمان بالاقطاب والابدال وشيوخ الوقت وكراماتهم الغيبية .

وضمن هذا الاطار اهتم ابناء هذه الحقبة المملوكية اهتماما واضحا بحفظ كتب السلف وجمعها وشرحها والكتابة في مواضيعها التي كادت تنحصر في مجالات الدين واللغة والتاريخ والمعارف العامة . وهكذا كتبوا الاعمال الموسوعية القائمة على الجمع سواء في اللغة أو في المعارف العامة والتاريخ او في الانشاء ونظم الدولة او في التراجم او في جغرافية الدولة والأرض وشؤونها ومسالكها او في التاريخ . عدا موسوعات التفسير والحديث والفقه ..

ولم يخل العصر بالطبع من مبدعين تألقوا وحدهم كالشهب مثل ابن خلدون (ت ١٤٠٦) مؤسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وابن تيمية (ت ١٣٢٨) المجدد الحنبلي وابن نفيس الطبيب (ت ١٢٨٨) مكتشف الدورة الدموية الصغرى والدميري (ت ١٤٠٥) صاحب أشهر كتاب عربي في علم الحيوان .

الأدب

وعلى النهج نفسه لم يعرف الأدب ابداعا او تجديدا في الشعر او النثر في هذا العهد . بل نحا منحى التقليد وغلب الشكل فيه على المضمون والمحسنات اللفظية على الروح والمعنى . ولكننا نجد مقابل ذلك ازدهارا في القصص الشعبي يدل عليه ما أنتجته الآداب العربية من السير الشعبية مثل سيرة عنترة وسيرة الظاهر ، وألف ليلة (التي اتخذت يومئذ شكلها النهائي الذي نعرفه اليوم) وما تزال تلك السير محببة لدى الطبقات الشعبية في المشرق العربي وما يزال لألف ليلة مقامها الأدبي العالمي في الشرق والغرب .

الفنون في العصر المملوكي

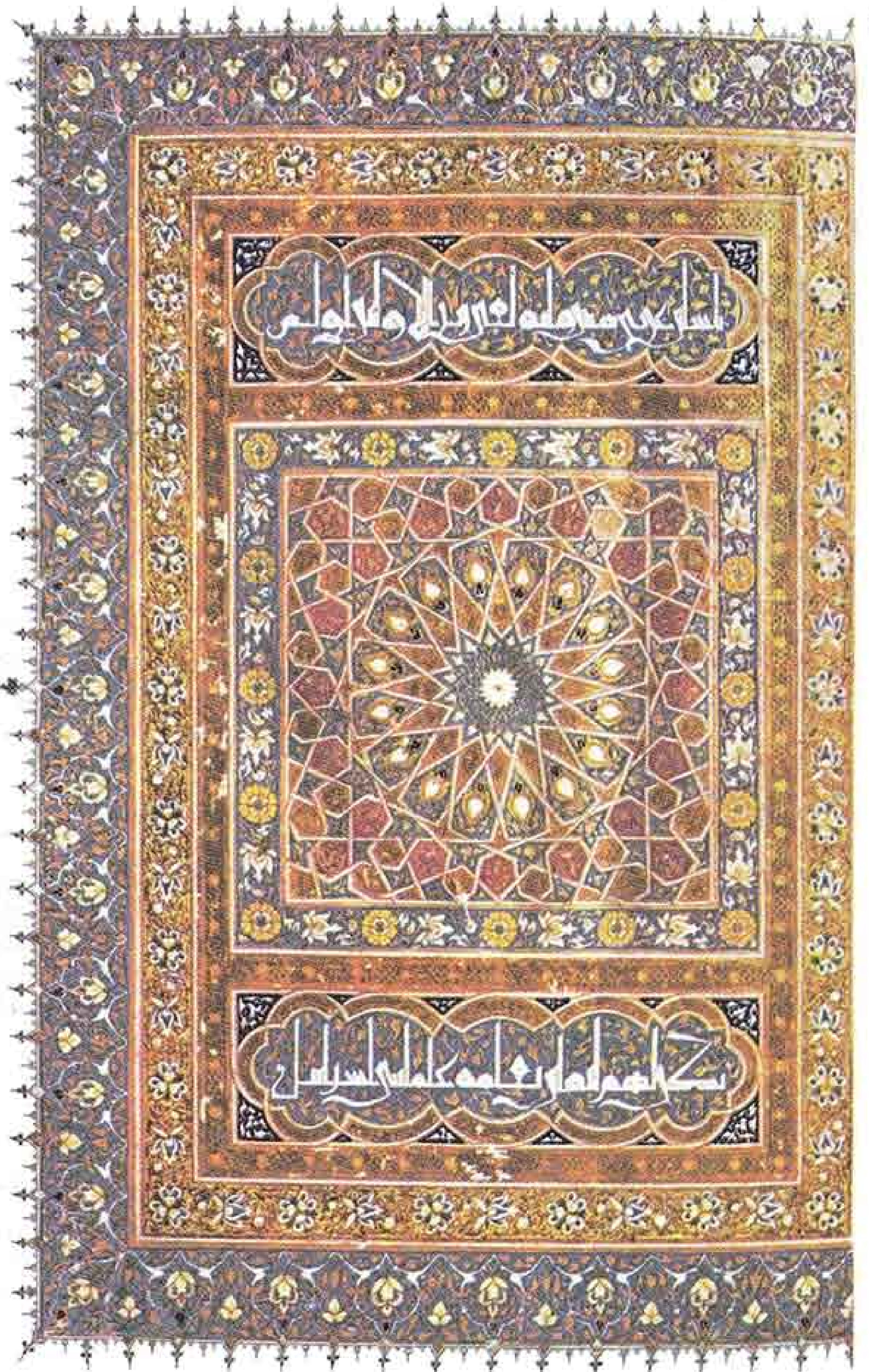
بالرغم من النكبات ونتيجة لها في وقت واحد ، شهدت الحقبة المملوكية حركة تعليمية وعمرانية وفنية حافلة وان كانت كلها تدور حول القطب الديني ، بوصفه القيمة الاولى والكبرى في الفكر في تلك الحقبة .

وكان وراء هذه الحركة توسع الملوك والناس في « الاوقاف » ، تلك المؤسسة الاسلامية التي قامت بدور هام جدا في التاريخ الاسلامي وكانت دعامة التمويل الدائم لكثير من المشاريع الاجتماعية والعمرانية .

المدراس

كانت « المدارس » هي مركز الحركة التعليمية ، بجانب المساجد ، في هذا العهد .

١

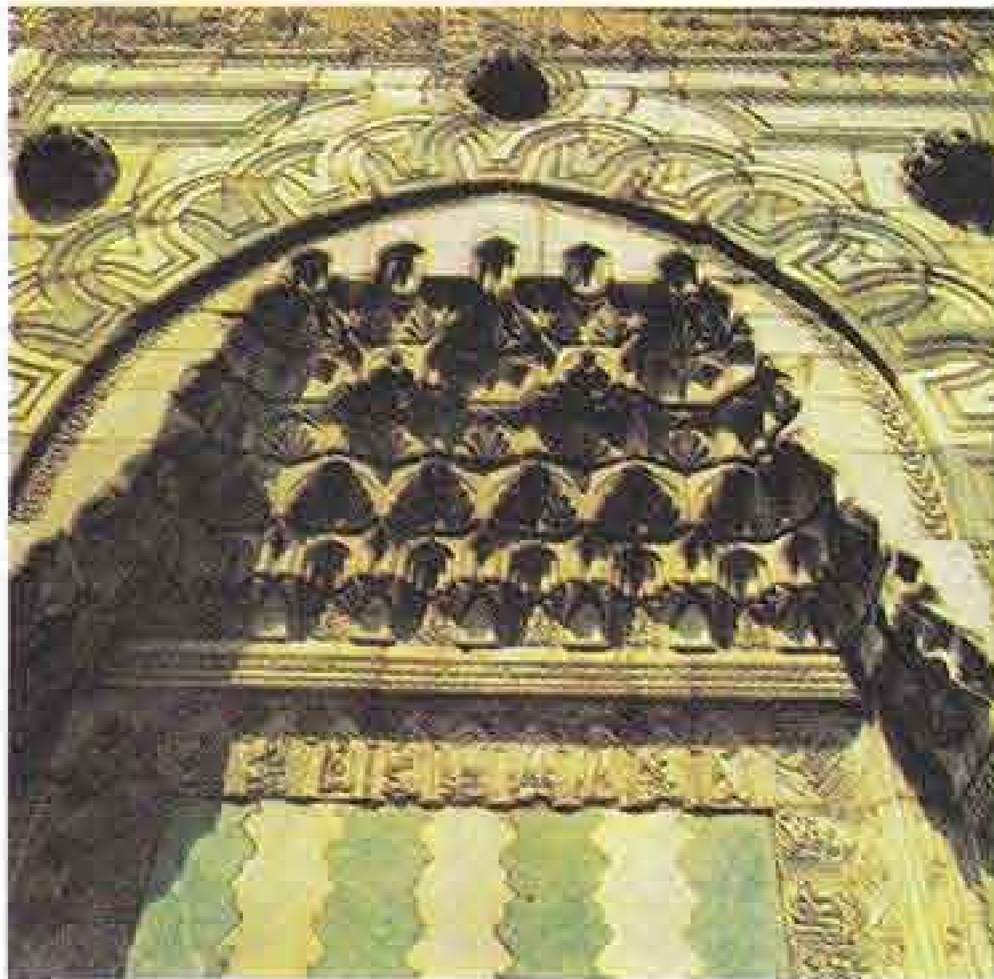


(١) ـ عني الفنانون أيام المماليك عناية خاصة بزخرفة صفحات المصحف الأولى بالأشكال الهندسية والنباتية. وكان لتذهيب المصحف وتجليده فنانون متخصصون بهذه الصناعة . وهذه الصفحة من مصحف أرغون شاه (١٣٦٨ ـ ١٣٨٨) الموجود بدار الكتب المصرية نموذج من أجمل نماذجها .



(٢) ـ مدرسة قرطاي في قونية (١٢٥١) تقلد المدارس الايوبية والمملوكية في الشام ومصر وقد توسع هؤلاء كثيرا في بناء المدارس وزخرفتها فكان في دمشق منها ١٥٨ مدرسة وفي القدس ٦٢ وما يزال في القاهرة الى اليوم آثار ٥٨ مدرسة عدا الأبنية الصوفية .

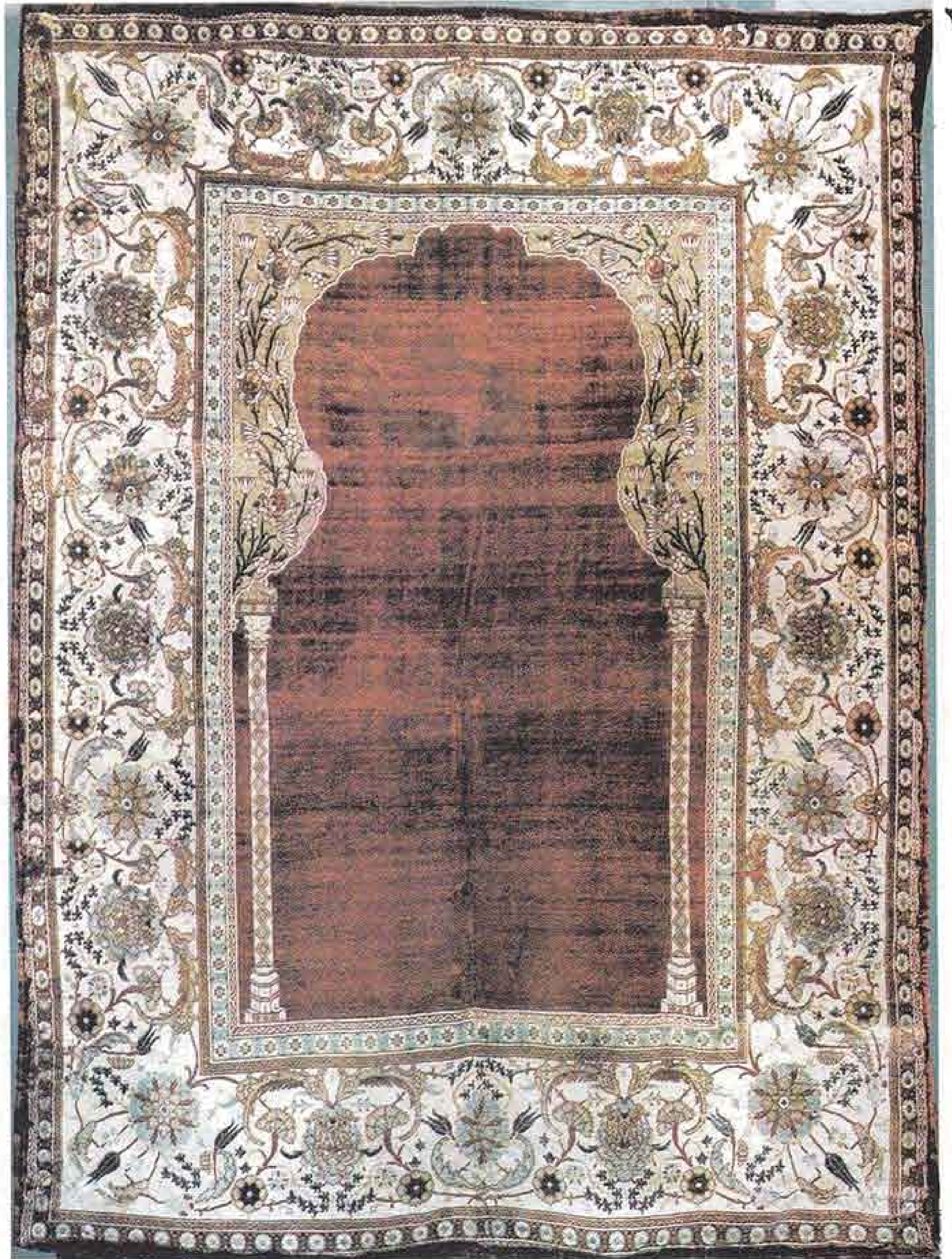
٢



والمدرسة (وهي تقابل الدراسة الثانوية والجامعية اليوم) مؤسسة للتعليم (الديني في الغالب) انفصلت عن المسجد منذ القرن الحادي عشر وما قبله بقليل واصطنعها السلاجقة (بمبادرة وزيرهم نظام الملك) لتعزيز السنة واستقطاب علمائها والوقوف في وجه الدعوة الشيعية الفاطمية وتنظيماتها. لكنها ما لبثت ان انتشرت بسرعة في الشرق الاسلامي كله، بعد ان تبناها الاتابكة والايوبيون ثم المماليك من بعد. فأقاموا المئات من المدارس النشيطة والشهيرة في مصر والشام ونظموا شؤونها وعينوا لها المدرسين وحبسوا عليها الأوقاف السخية. فبلغت هذه المؤسسة في عهدهم درجة رفيعة من التنظيم والتأثير.

وبجانب المدارس كثر بناء الجوامع والمساجد التي كانت ذات مهمة تعليمية بجانب وظيفتها الدينية. كما كثر بناء الزوايا

٣



(٣) - في العهد المملوكي ازدهر فن الحياكة والنسيج، اما السجاد، فقد نسب الباحثون الاختصاصيون صناعة اكثر السجاجيد المعقودة والموجودة في المتاحف الاوروبية الى مصر المماليك. انصرفت عناية حائكي السجاد الى «سجادة الصلاة» بنوع خاص التي كثيرا ما كانت تحاك بخيطان حريرية. كما كانت تتميز بان رسمتها تتضمن رسمة المحراب للدلالة على القبلة، كهذه السجادة الموجودة في المتحف الاسلامي في برلين. يظهر ان تزيين السجاد كان حتى اواخر العصر التيمورلنكي مقتصرا على رسمة هندسية او مؤسلبة متكررة ضمن اطار السجادة لكنها توحي بانها مستمرة التكرار الى ما لا نهاية له خارج ذلك الاطار، وذلك تعبيرا عن الفكرة الاسلامية الاساسية القائلة بان كل ما هو متناه هو عابر وفان. وفي حوالى اواخر القرن الخامس عشر اخذت الازهار تظهر على السجاد بشكل واضح الى ان ادخلت عليها على عهد الصفويين رسمات الحيوانات والاشخاص.

والخوانق والرباطات لتعليم وسكنى المتصوفة الذين اتسع نشاطهم وأثرهم ولقوا من السلطة الرعاية والتشجيع وغالبا ما كانت تلحق بهذه المنشآت مكتبات لجمع الكتب ومطالعتها ونسخها . وكان لهذا كله أثره في حركة التأليف الضخمة التي شهدها العصر .

ويجب أن نضيف أخيرا البيمارستانات التي كانت تقام للعناية بالمرضى ولتعليم الطب ونجد منها في حلب ودمشق وصفد والقدس والقاهرة ومن أهمها البيمارستان المنصوري الذي أنشأه المنصور قلاوون في القاهرة والذي فاق كل ما سبقه سعة وتنظيما وأوقافا .

العمارة المملوكية

هذه المنشآت جميعا تتصل مباشرة بالحركة العمرانية التي هي وجهها المكمل . وقد تميز عهد المماليك بكثرة العمران .

(٤) ـ على عهد المماليك ، اقبل الفنانون على الاشكال الهندسية ، وخصوصا النجمية منها المكونة من حشوات صغيرة تتألف من اشكال سداسية الاضلاع مزخرفة بالفروع النباتية المورقة الدقيقة، دعيت « الاطباق النجمية » . انتشر استعمال هذه الزخارف النجمية خصوصا في الابواب والمنابر الخشبية . لكن في القطع الخشبية الصغيرة كعلب المجوهرات وما شابهها قام الفنان المملوكي بتطعيم الخشب باشرطة رقيقة من نوع آخر من الخشب وذي لون مختلف وهو ما يسمى اليوم « بالماركتري ». ثم أخذ يطعمها أيضاً بالعظم أو العاج أو الصدف او بالثلاثة معا . وقد اشتهرت خصوصا بلاد الشام بالتطعيم الصدفي ، اذ ان صناعها كانوا يطعّمون ، ليس القطع الصغيرة وحسب . بل القطع الخشبية الكبيرة ، كالصناديق والخزائن والمقاعد وكل ما يشكل مفروشاً خشبيا للمنازل الفخمة . يمتاز التطعيم الشامي بان كل قطعة من الصدف المغروزة في الخشب يجب ان يحيط بها من جميع جهاتها خيط أو شريط من القصدير . الصندوقة الظاهرة هنا هي من الخشب المطعم بالعاج وموقعة باسم محمد السراج وموجودة في المتحف الأثري في مدريد .

٤



وكانوا ينفقون فيه الكثير لا من باب التدين فقط ، ولكن لكسب السمعة ايضا ولحماية اموالهم من المصادرة أحيانا بتحويلها اوقافا . ولهذا كان عصر المماليك هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الاسلامية في مصر وفي الشام على السواء . فقد كان الاقبال شديدا على تشييد العمائر من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة كما كثر التنافس في التنوع والاتقان والاناقة والتزيين في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومآذن وقباب وزخارف جصية ورخامية .

ولم يبق من العمارات المدنية كالقصور والحمامات والوكالات الا بقايا محدودة سواء في مصر او في الشام ومثلها في ذلك الا بنية العسكرية من قلاع واسوار وا براج ولعل اجمل ما بقي من هذه الا بنية الاخيرة قلعة حلب الأ يوبية (١٢٠٩) وتجديداتها المملوكية وبقايا قلعة دمشق وقلعة القاهرة . أما الأبنية الباقية فهي ذات الطابع الديني من مساجد ومدارس وأضرحة (٢) .

ومن أجمل هذه العمائر جامع السلطان حسن (حفيد قلاوون ١٣٥٤ - ١٣٦١) وقد بني من ١٣٦٠ الى ١٣٦٣ وهو آية من آيات الفن الاسلامي بناه محمد بن بيلبك المحسني وله مئذنتان وقبة فخمة مزخرفة ومدخل سامق العلو (٣٨ مترا) . وهناك مجموعة معمارية تعرف باسم السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) تمت عمارتها سنة ١٢٨٥ وتتكون من مدرسة وبيمارستان ومسجد وقبة ضريح هي من اجمل القباب الاسلامية . ومثلها مجموعة الابنية التي تضم ضريح السلطان قايتباي (بنيت ١٤٧٢ - ١٤٧٤) وفيها مدرسة وسبيل ماء ومسجد . وقبة الضريح مزخرفة من ظاهرها بالنقوش الهندسية والنباتية البارزة . وهناك ايضا المجموعة التي تسمى خطأ بمقابر الخلفاء شرقي القاهرة وتضم اضرحة بعض السلاطين وكبار الامراء كما يتميز ضريح السلطان برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٨) الذي تمت عمارته سنة ١٤١٠ ، ومسجد ومدرسة السلطان الأخير قانصوه الغوري .

وهذه المجموعات من الا بنية هي التي تعطي القاهرة حتى اليوم روعتها العمرانية التراثية وطابعها الاسلامي الخاص ، بما تحوي من مقرنصات وتزيين بالحجارة الملونة ونقوش كتابية وهندسية ومآذن متميزة . وقلما استخدموا القاشاني . وكانت الجدران تترك عارية او يغشى بعضها بالرخام المنقوش أو المرصوف بأشكال هندسية .

الفنون المملوكية

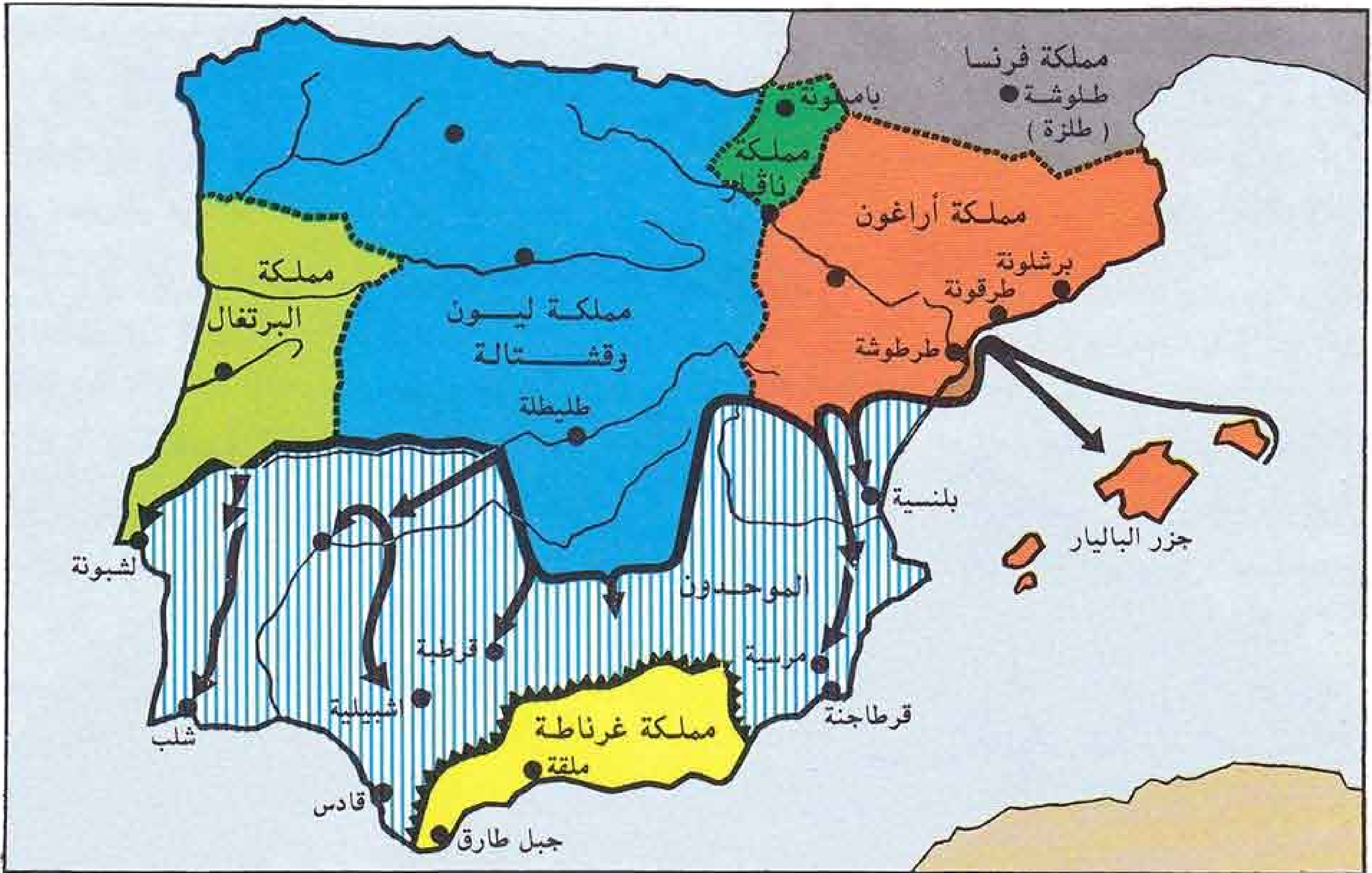
وبجانب ذلك حظيت الفنون الصناعية بالكثير من التقدم والرواج في هذه الحقبة . بدليل تلك الاعداد الواسعة التي تحتفظ بها المتاحف من الادوات المملوكية الفنية من السجاد (٣) والاسلحة والأواني (٤) .

ويتميز في هذا المجال فن التصوير الذي كان يمارسه الفنان المملوكي على الصحاف والاواني ، وعلى الانسجة والذي أخذ أروع أشكاله في تذهيب وتزيين المصاحف (١) ، وفي المخطوطات المصورة في هذه الحقبة . ومصوروها المجهولون يتبعون مدرسة يحيى بن محمود الواسطي الذي برز في بغداد أواسط القرن الثالث عشر .

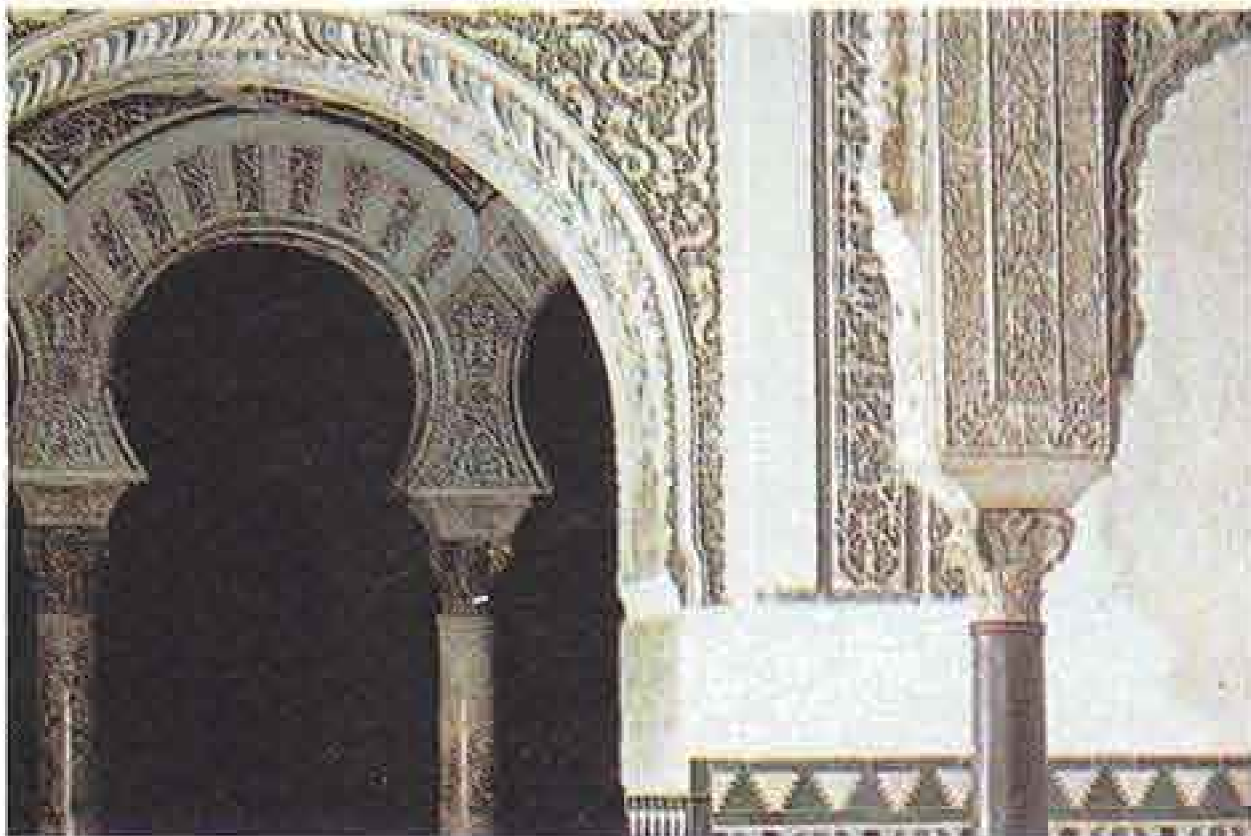
ان التراث الثقافي المملوكي بموسوعيته ، وتميز فنونه وغناها هو الذي أعطى الحقبة المملوكية طابعها الخاص .

الأندلس والمغرب بين القرنين ١١ و١٦ [١]
السياسة

المغرب والأندلس كانا الجناح الغربي من العالم الاسلامي في القرون الوسطى . وكان لهما منذ وصل العباسيون في المشرق الى الحكم (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) مصيرهما السياسي المختلف عن مصير المشرق . وفي مطلع القرن العاشر ، تشكلت في المغرب والاندلس خلافتان : الفاطمية في تونس ، والخلافة الأموية التي أعلنها عبد الرحمن الناصر (٩١٢ ـ ٩٦١) في قرطبة . لكن الأولى انتقلت سنة ٩٦٨ الى مصر والشرق والثانية اضطربت أمورها حتى ألغيت سنة ١٠٣١ وقامت بدلا منها دويلات تزيد على العشرين عرفت بملوك الطوائف . قضت العصر في التناحر والمنافسة .

١


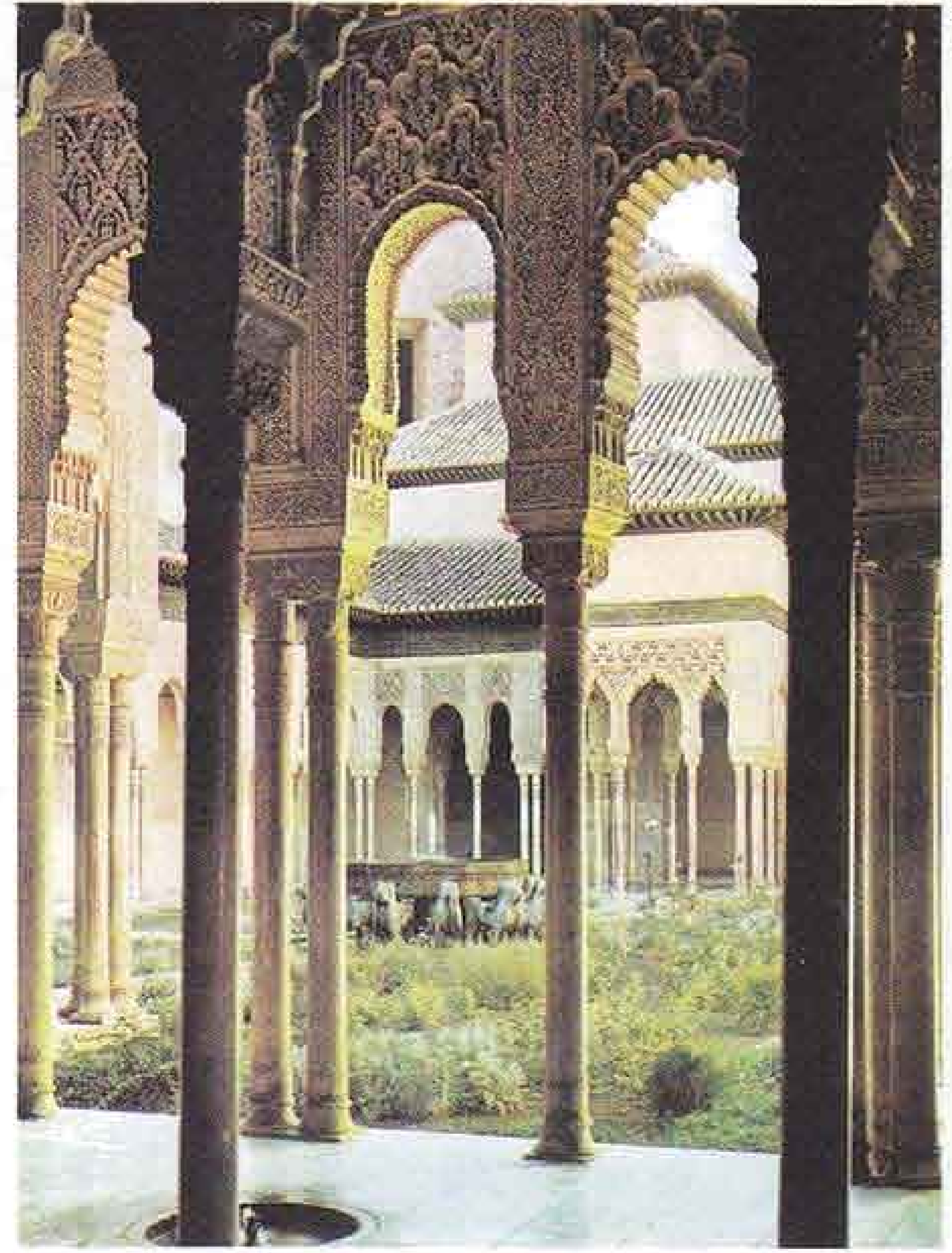
(١) ـ ترافقت الحروب الصليبية الاسبانية (حروب الاسترداد) في القرن الثالث عشر مع هجمات المغول على الشرق الاسلامي ، وهجمة الحملات الصليبية (الخامسة والسادسة والسابعة) ، على مصر والشام ، والثامنة على تونس . وكانت الدول الاسلامية في الاندلس متفرقة وسندها من المغرب ضعيفا ، وهكذا سقطت واحدة اثر الاخرى : ماردة (١٢٢٨) جزر الباليار (مايورقة ومينورقة ويابسة ١٢٢٩ ـ ١٢٣٢) بطليوس (١٢٣٦) بلنسية (١٢٣٨) مرسية (١٢٤٣) اشبيلية (١٢٤٨) شلب (١٢٥٠) قادس (١٢٦٢) . وهكذا لم يبق من الاندلس سوى الساحل الجنوبي الشرقي (غرناطة) .

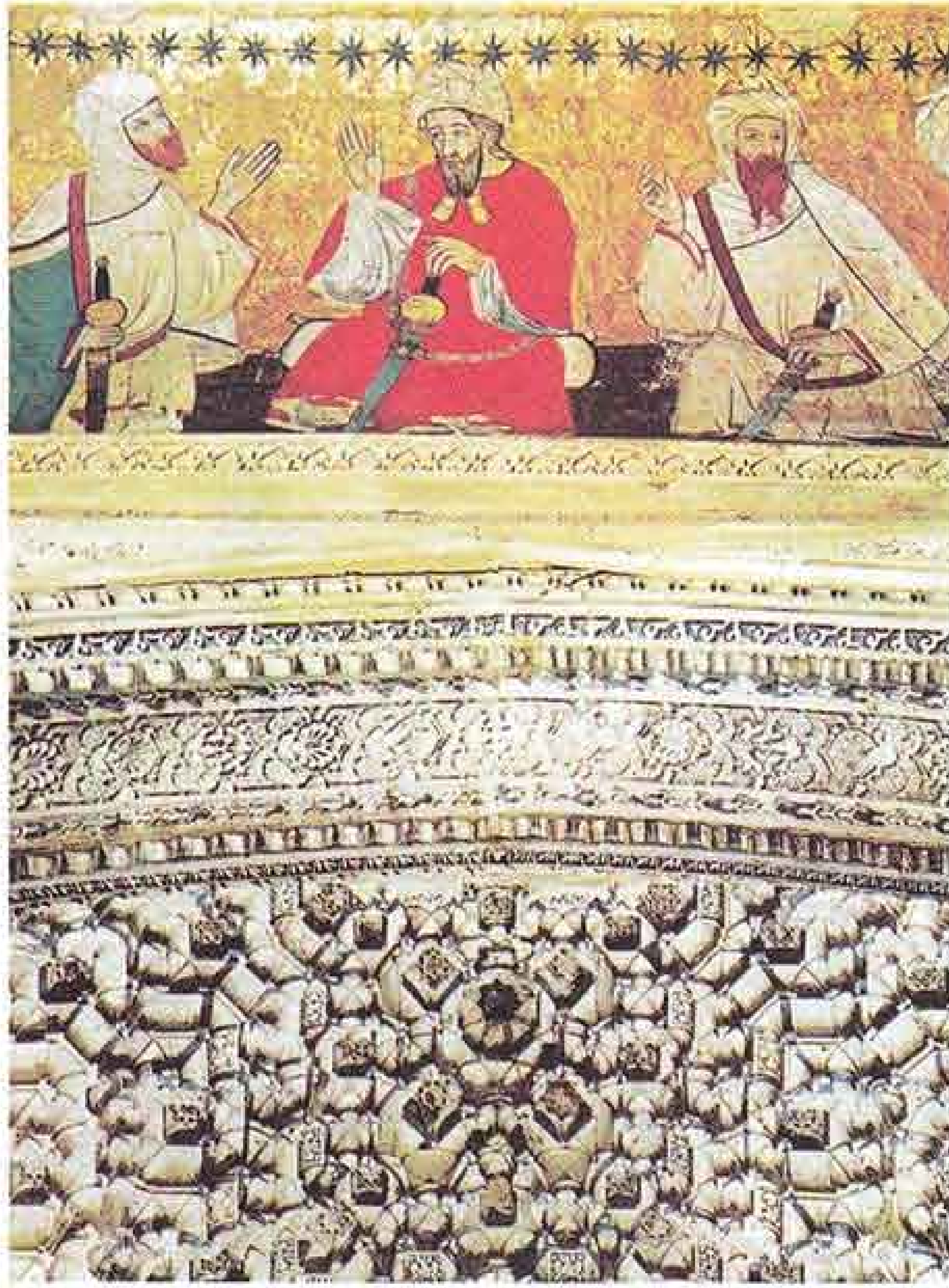
٢


ملوك الطوائف والاسبان

في الوقت نفسه كان النصف الشمالي من شبه جزيرة ايبريا قد تكونت فيه امارات اسبانية مسيحية عديدة ، والحروب بينها قائمة حتى جاء فرناندو الاول (١٠٣٧ ـ ١٠٦٥) فوحّد قشتالة وليون في دولة كبيرة صارت تشكل خطرا على ملوك الطوائف الذين دفع له بعضهم الجزية . ثم جاء الفونسو السادس (١٠٧٢ ـ ١١٠٩) ، فأخذ يهاجمهم ، واستطاع احتلال طليطلة (سنة ١٠٨٥) بعد أن وضعت القوى الاسبانية النامية مشاريعها الحربية في محتوى صليبي وعلى اساس استرجاع الأندلس كله وما وراءه . وصارت تسمي حروبها هذه : حروب الاسترداد (١) .

ومع ضعف الأندلس انتقل مركز القوة الاسلامية الى المغرب ، حيث ظهرت دولة المرابطين (١٠٥٦ ـ ١١٤٦) وهم يقابلون السلاجقة في الشرق . وأمام الخطر الصليبي





(٢) ـ بني القصر في اشبيلية بين سنتي ١٣٦٤ ـ ١٣٦٦ بعد سقوطها في يد الاسبان . وصاحبه هو الملك بيير القاسي . وهو يقدم بأقواسه وبزخارفه البارزة من الكتابة والتزيينات الهندسية ، وبالخزف الملون الذي يغشي أسفل الجدران ، نموذجا رائعا من نماذج البناء الاندلسي في أوج كماله . كما يقدم الدليل على استمرار الفن الاسلامي تحت الحكم الاسباني على أيدي من يسمون بالمدجنين .

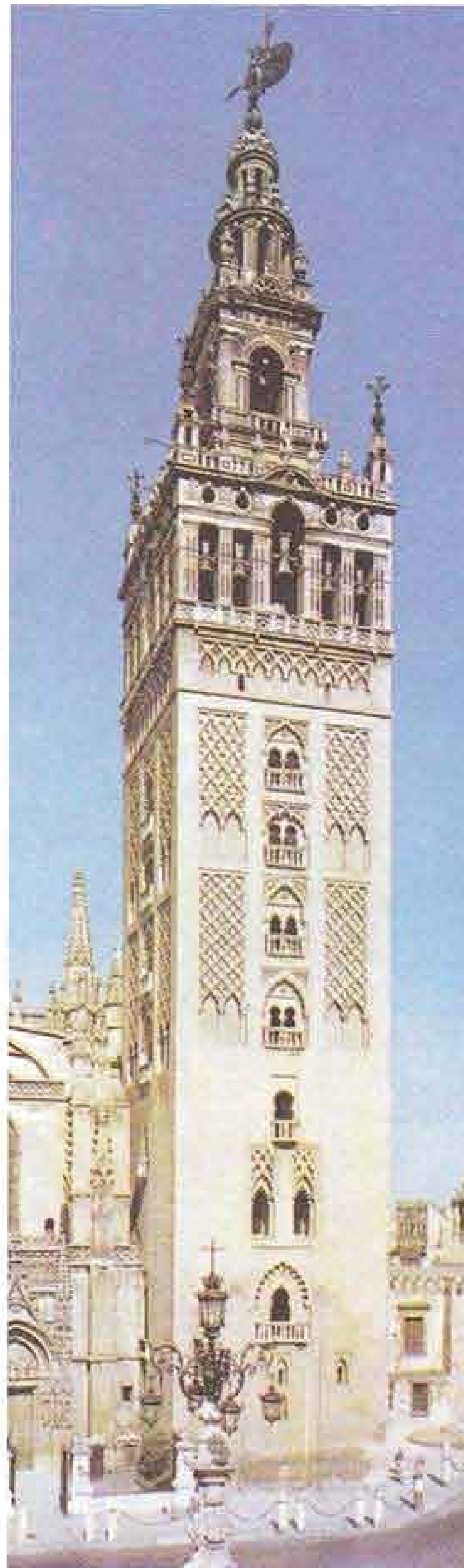
---

(٣) ـ في أعلى قاعة الملوك (ب) من الحمراء . يجد الزائر صور عدد من رجال بني نصر لعلهم كانوا من القضاة يحملون سيوفهم ويتداولون . وهي من صور القصور العربية التي ندر ان بقي أمثالها من الصور الجدارية في قصور العرب في المشرق والمغرب ، وأما ساحة الأسود (أ) فتجمع كل جمالية الحمراء وفنها . بنيت سنة ١٣٧٧ ومن حظ الحمراء بقاؤها رغم انها مبنية بمواد قليلة المقاومة بينما نجد ان قصور الزهراء التي بنيت قرب قرطبة (أواخر القرن ١٠) ، وكانت مدينة قائمة بذاتها . لم يبق منها الا الآثار . مع انه قد عمل فيها ١٠ ـ ١٢ الف عامل ، خلال ١٣ سنة ، وكلفت قرابة مليوني دينار . بعض الباحثين يعتقد ان تماثيل الاسود في الحمراء تمثل ساعات النهار الاثنتي عشرة . وهي بتناوب الماء فيها ساعة مائية أيضا .

الاسباني استنجد بنو عباد اصحاب اشبيلية بأميرهم يوسف بن تاشفين (١٠٦٠ - ١١٠٦) الذي قاد حملة على الاندلس انتصر فيها على الاسبان نصرا مؤزرا (معركة الزلاقة ١٠٨٦) وألحق الامارات الاندلسية بدولته.

لكن أمر المرابطين اتجه بسرعة الى الضعف في المغرب فاضطروا الى التخلي تدريجيا عن الاندلس، بينما كانت القوى الاسبانية تشتد وتتلقى نجدات من الشمال وتحتل المدن الاندلسية التي كررت الاستنجاد بالمغرب. وكانت دولة الموحدين قد قامت فيه (١١٣٠ - ١٢٦٩) فأرسل اميرها عبد المؤمن بن علي (ولد ١٠٩٤ - توفي ١١٦٣) حملة (١١٤٥) أقامت لها حكومة في اشبيلية. ومع ان الموحدين انتصروا في معركة الارك (٥) (١١٩٥)، فقد عجزوا عن وقف الحملات الاسبانية. وحين هزموا في معركة العقاب (١٢١٢) انسحبوا نهائيا من الاندلس، فما





٤ أ ب

(٤) - بعد أن انتصر الخليفة الموحدي المنصور على الاسبان، في معركة الأرك سنة ١١٩٥، بنى تخليدا لنصره، جامع حسان في الرباط. أسواره الحجرية التي فتح فيها ١٤ بابا على حرم الصلاة، تشكل مستطيلا من ١٨٠ × ١٤٠ مترا. ومئذنته (أ) تقوم كالبرج المربع بزخارفها وضخامتها. وقد توفي المنصور قبل اكمالها. فما تزال الى اليوم على ما تركها. وكما انها لم تكمل كذلك لم يكمل النصر الذي تخلده. فقد هزم الموحدون في معركة العقاب سنة ١٢١٢. واضطروا للانسحاب من الاندلس، الذي سقط معظمه بيد الاسبان. وحين احتل هؤلاء اشبيلية سنة ١٢٤٨ هدموا جامعها الأعظم (الذي بني سنة ١١٧١) ليبنوا بدلا منه الكنيسة الكبرى. واحتفظوا بمئذنته (ب) التي صارت ناقوس الأجراس ويسميها الناس اليوم (الخيرالدا) نسبة الى تمثال العذراء القائم في أعلاها والذي يدور مع اتجاه الريح.

لبثت مدنه ان سقطت الواحدة بعد الاخرى بيد الاسبان (ما بين ١٢٢٨ ـ ١٢٦٢) .

مملكة غرناطة

نجح ابن الأحمر محمد الغالب (١٢٣١ ـ ١٢٧٢) في ان يقيم دولة في اقصى الجنوب تجمع باقي القوى الاندلسية والتراث الاسلامي ، هي الدولة النصرية في غرناطة وكانت سياسة ملوكها حفظ التوازن بينها وبين الاسبان من جهة وبينها وبين بني مرين اصحاب المغرب في أيامها من جهة أخرى بالاضافة الى بناء القوة الذاتية ، ولكنها ضعفت بعد مقاومة قرنين ونصف القرن ، وعاود الاسبان سياسة الهجوم من جديد ، فاحتلوا جبل طارق (١٤٦٣) . ثم حين تزوج ملك اراغون من ملكة قشتالة ، وتوحدت المملكتان ، تقرر مصير غرناطة . اذ هاجمتها القوات الاسبانية المشتركة واحتلتها (٢ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٤٩٢) . وانسحب ابو عبد الله المعروف بالصغير آخر بني الاحمر النصريين الى المغرب مسجلا نهاية العهد العربي في الأندلس (٣) . وقد تكفلت محاكم التفتيش ، بأساليبها التي أضحت مثلا للوحشية في التاريخ ، بتصفية الاسلام واللغة العربية في الاندلس . وعلى مشارف غرناطة ، بعد أشهر ثلاثة من احتلالها ، نال كريستوف كولومبوس موافقة الملكة ايزابيلا ، ملكة قشتالة على مشروعه بالوصول الى الهند عبر المحيط الاطلسي .

المغرب ما بين القرن ١٢ و ١٦

أما المغرب فكان المرابطون اولا قد وحدوه في دولة واحدة تمتد من طرابلس الى المغرب الاقصى ، ثم اعاد الموحدون توحيده بعد أن ازاحوا بني حماد (١١٥٢) من الجزائر ، (٤) وبني زيري من القيروان (١١٦٠) .

لكن الدولة الموحدية ما لبثت ان ضعفت وتمزقت ، فتخلت عن الاندلس ، وأخذ صلاح الدين الايوبي طرابلس ، وتقسم المغرب بين ثلاث دول : بني حفص (١٢٢٨ ـ ١٥٣٤) في تونس ، الذين صدوا الحملة الصليبية الثامنة سنة ١٢٧٠ . وبني عبد الواد (أو زيان) (١٢٣٥ ـ ١٣٩٣) في تلمسان والمغرب الاوسط ، وبني مرين (١١٩٠ ـ ١٤٧٠) ، الذين أقاموا دولة ذات بأس وثروة وعمران ديني وثقافي في المغرب الأقصى . واستولوا على مراكش (١٢٦٩) ، عاصمة الموحدين وانهوا دولتهم . وبعد قرن من ذلك ، توسعوا فأنهوا الدولة الزيانية ، واستمروا في الحكم حتى أزيحت سلالتهم على يد بني وطاس سنة ١٤٧٠ ، الذين حكموا جنوب المغرب الاقصى خاصة حتى سنة ١٥٥٤ . بينما كان البرتغاليون يستولون ، بدوافع صليبية وتجارية ، على بعض موانئه الأطلسية ، الى ان تسلم امر المغرب شرفاء مراكش السعديون (١٥٤٤ ـ ١٦٤٤) .

ومنذ مطالع القرن ١٦ ، وصلت القوى البحرية العثمانية ، (الأخوان عروج وخير الدين بربروس) الى الجزائر (١٥٠٩) ، ثم الى تونس فأنقذتها من الاسبان ، ثم أنقذت طرابلس بعد ذلك من أيدي فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) . الذين منحهم اياها البابا بعد خروجهم من رودس . وألحقت الأقاليم الثلاثة (سنة ١٥١٩ وسنة ١٥٦٨ وسنة ١٥٥١ بالترتيب) بالامبراطورية العثمانية .

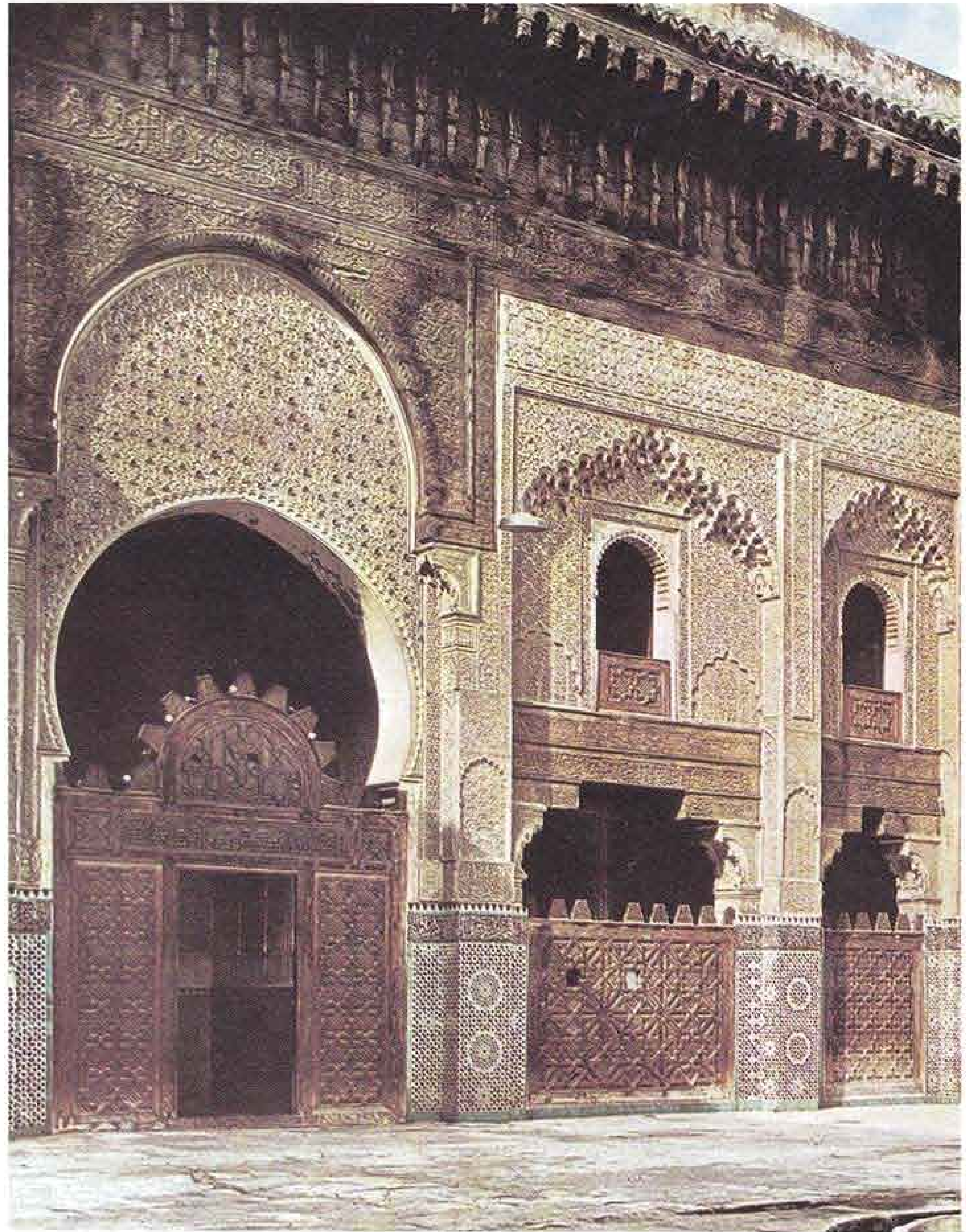
الأندلس والمغرب بين القرنين ١١ و١٦ (٢)
الثقافة والفنون

شكّل المغرب والأندلس فيما بينهما وحدة ثقافية فنية متميزة خاصة بعد القرن العاشر .

أولا : نتيجة الصلات القوية التي قامت بين الاقليمين ثمانية قرون والدور الايجابي الذي قام به المغرب اثر التمزق السياسي الاندلسي . فقد حمل (من خلال المرابطين ثم الموحدين ثم المرينيين) مع أهل الأندلس عبء الوقوف في وجه الصليبيات الاسبانية وحرب الاسترداد .

ثانيا : بسبب ما تلقاه المغرب دون انقطاع من موجات الهجرة الاندلسية التي كانت من اسباب ازدهاره .

١



(١) - وجه المرينيون عناية خاصة لبناء المدارس وتزيينها الكثيف ، وتعهد مدرسيها ، والأحباس الوافرة عليها ، تماما كما فعل المماليك المعاصرون لهم . بنى السلطان ابو سعيد المريني ثلاث مدارس معا ، في فاس سنة ١٣٢٣ ، منها مدرسة العطارين . ثم صار عدد المدارس فيها ، في أواسط القرن نفسه ، سبعا . كلها من بناء السلاطين . منها مدرسة بوعنانية (الصورة) التي بنيت بين سنتي ١٣٥٠ - ١٣٥٧ وهي أكبر مدارس المرينيين . واذا كانت هذه المدارس تعبر عن تدينهم فانها كانت تعبر ايضا - كما لدى المماليك في مصر - عن حاجتهم الى تخريج موظفين يخدمون الدين والدولة . وبهذا الشكل توسع التعليم في العهد المريني في الأعداد وفي نوعية التدريس . وكان للعلماء نفوذهم الواسع على السلاطين وتأثيرهم الواضح في المجتمع - كما في مصر المملوكية - وهم الذين اطلقوا ثورة سنة ١٤٦٥ التي كلفت المرينيين عرشهم .

ثقافة الاندلس والمغرب

وبينما كانت الثقافة الاسلامية الاندلسية تحت الحكم الاسباني تشكل ما عرف بثقافة وفنون المدجنين ، وكان الاوروبيون ، وبخاصة في طليطلة وسالرنو ، يترجمون الثقافة العربية الى اللاتينية او الى لغاتهم ، كان الاندلس والمغرب يشتركان معا في تبادل رجال الثقافة بينهما وفي رعايتهم . وفي تلك الفترات ظهر كبار فلاسفة الاسلام في الاندلس كابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) وابن طفيل (ت ١١٨٥) وكبار الأطباء كابن زهر الاشبيلي (١١٦٢) وابن شقرون المكناسي المعاصر له . وظهر ابن البيطار المالقي (ت ١٢٤٨) عالم النبات والأديب الشاعر ابن الابار (١١٩٩ ـ ١٢٦٠) والكاتب الطبيب الوزير لسان الدين ابن الخطيب (١٣١٣ ـ ١٣٧٤) والمؤرخ المشهور ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) والامام الفقيه ابن عرفة (١٣١٦ ـ ١٤٠٢)

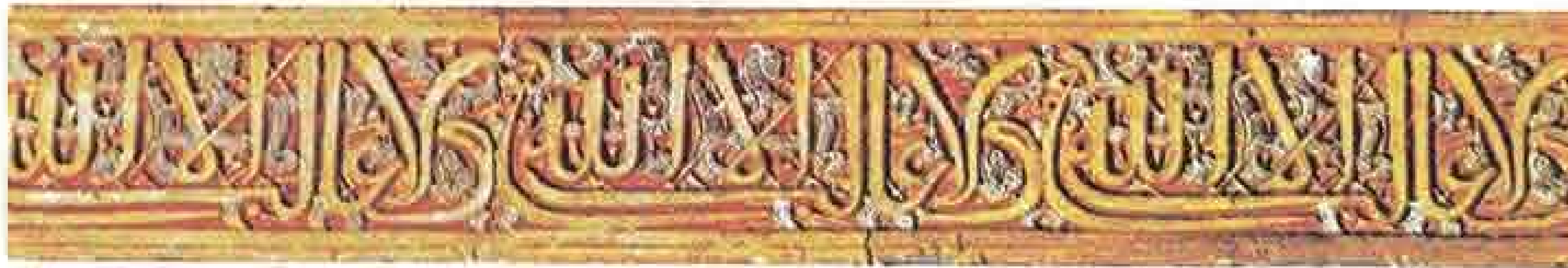
٢ أ



ب



ت



(٢) ـ تكرار الوحدة الزخرفية طريقة من طرق التزيين العربي المألوفة . الوحدات (ب ، ت) ، وان تميزت بها زخارف قصر الحمراء وحملت شعار بني الأحمر : « لا غالب الا الله » ، الا ان عناصرها الأساسية تتكرر في مختلف ابنية الاندلس . وما تزال في أبنية المغرب . أضاف بنو الأحمر الى قصورهم التصوير والنقش البارز . ومنه لوحة (أ) لأسود تفترس غزلانا ومن حولها أوز وأسماك ونبات وفي بقية النقش نسور . وهي عناصر تزيينية كانت شائعة في العصر ولعل أصولها جاءت من المشرق .

والرحالة المغربي المعروف ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) .

عمارة الاندلس والمغرب

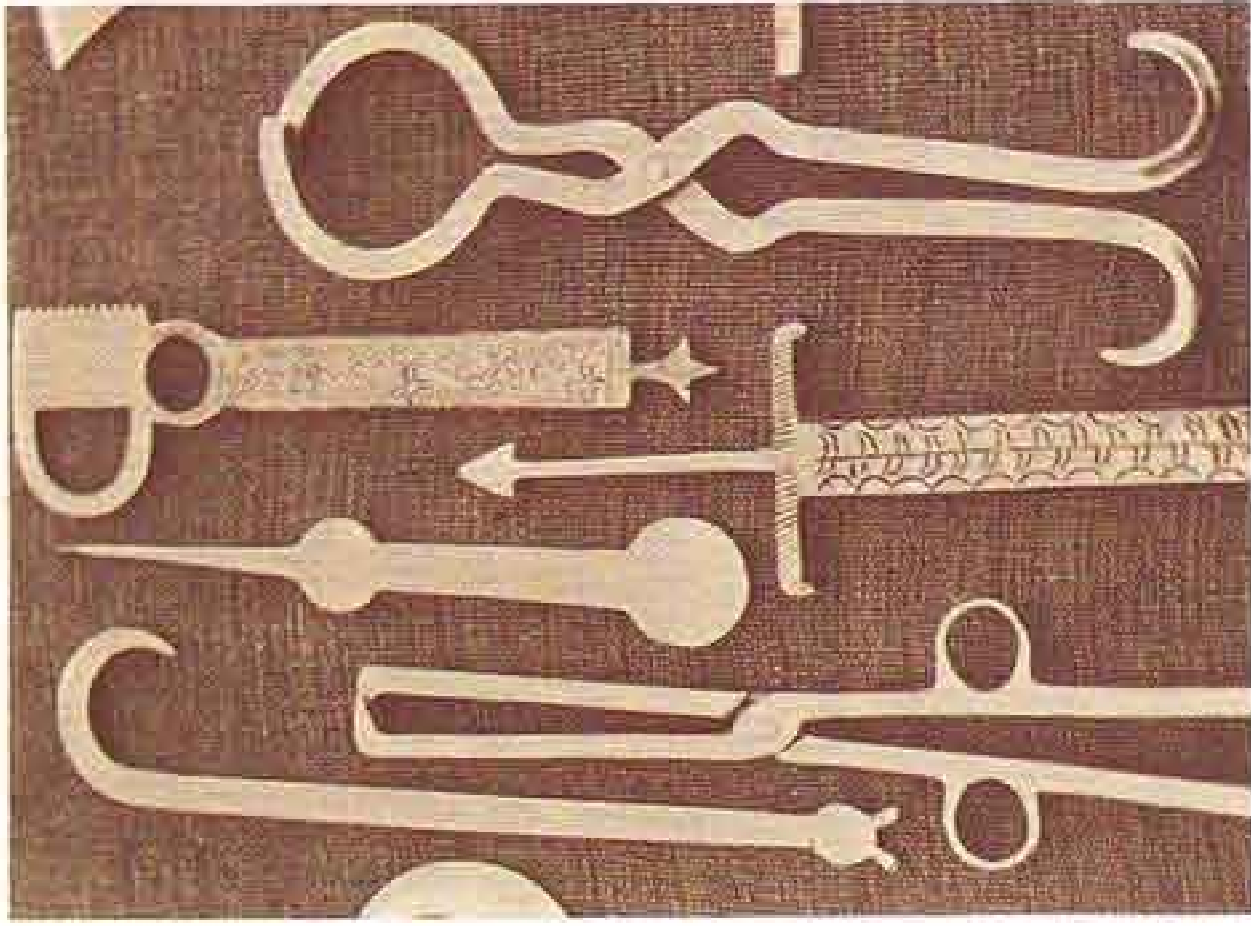
وتظهر وحدة المغرب والأندلس أوضح الظهور في الفنون ولاسيما العمارة التي تشيع فيها روح واحدة آسرة ، سواء في الخطوط المعمارية والاعمدة الرشيقة والاقواس ، او في النقوش الكثيفة البارزة والمذهبة والغنية بالمقرنصات والترف . ونحن نشهد هذه الميزات المعمارية في مراكش التي انشأها المرابطون وفي رباط الموحدين وفاس المرينيين ، وفي تلمسان والجزائر تماما كما نشهدها في اشبيلية وقرطبة . وبينما كانت الاندلس تضيع كان المغرب يقيم اندلسا أخرى ما بين مشارف القيروان وأقصى مراكش .

أبرز ما بناه المرابطون في حماستهم

٣



٤



(٣) - قطعة قماش من الحرير تظهر عليها زخرفة لطيور الطاووس متقابلة (ومستعدة للهجوم) . تعتبر هذه القطعة من اجمل ما انتجته الانوال في اسبانيا في القرن الثاني عشر ، وهي محفوظة الآن في قطع متفرّقة في متحف فكتوريا والبرت في لندن وفي كاتدرائية تولوز .

---

(٤) - ذكر المقرّي ان عدد فهارس الكتب بلغ في ايام الحكم الثاني اربعا واربعين فهرسا في كل فهرس عشرون ورقة . كما بلغ عدد الكتب اربعمئة الف كتاب . سعر الكتاب الواحد الف دينار من الذهب . وكانت النساء يشتغلن في نسخ المخطوطات منهن مئة وسبعون امرأة في الربض الغربي وحده . وكان يصدر في كل سنة ستون الف مخطوط وخرجت الحضارة الاندلسية من بوتقة التأثيرات الشرقية لتحلّق خلقا وابداعا . كان ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي من كبار الجراحين والمؤلفين العرب في القرن الحادي عشر . تعاطى الطب في قرطبة وله « المقالة في عمل اليد على فن الجراحة » و « التصريف لمن عجز عن التأليف » . استنبط آلات جراحية كثيرة منها هذه الادوات التي كان يستعملها في اجراء العمليات .

الدينية هو المساجد والقلاع ومنها جامع مدينة الجزائر (حوالى سنة ١٠٩٦) وجامع تلمسان الكبير (بدأ سنة ١٠٨٢) وكلاهما تقليد لجامع قرطبة الكبير بالمخطط والزخارف .

ولم يكن الموحدون أقل اهتماما بالعمران الديني والحربي والمدني على السواء . وجوامعهم الكبرى في مراكش والرباط واشبيلية وأبنيتهم الحربية في تنملل وفاس وتلمسان ومكناس وجبل طارق ، ومؤسساتهم من المشافي والحمامات والأقنية ، شواهد كافية . لكن ابنيتهم كانت عامة أقل زخرفا من أبنية المرابطين وان ظهرت فيها التزيينات الأندلسية . ومن أجملها جامع الكتبية الذي بناه الخليفة عبد المؤمن في مراكش (سنة ١١٤٠ ثم أعيد بناؤه سنة ١١٩٥) ، ويعتبر قمة البناء الاسلامي في المغرب . وقد عاصره بناء مسجد حسان العظيم السعة في الرباط . وكل المآذن التي بناها الموحدون مشتقة من المئذنة الاموية المربعة في قرطبة . هذا بالاضافة الى الابنية ذات الطابع الديني ايضا ، من مدارس وبيمارستانات ، والأبنية الحربية .

وحين قامت الدولة المرينية وتمركزت في فاس الجديد (بجانب فاس) بنت لها اسوارها ثم جامعها الكبير (١٢٧٦) وبلغ الفن المغربي في عهدها أوجه . فقد أقيمت أعداد واسعة من الجوامع والمدارس لا في العاصمة فحسب ، ولكن في مدن المغرب الاخرى ، مثل مكناس والجزائر وسلا وتازا ووجدة وتلمسان . وبجوار هذه المدينة ، واثناء حصارها ، بنى المرينيون مدينة المنصورة ، بأسوارها وابوابها الضخمة وجامعها العظيم ذي المئذنة المربعة (١٣٣٦) والصحن المربع الذي أضحى نموذج الجوامع المرينية بعد ذلك . لكن البساطة الهندسية في تخطيط المساجد ، كانت تتعارض مع الزخارف الكثيفة التي تظهر فيها . ومدرسة العطارين (١٣٢٣) في فاس ، ودار القرآن (١٢٩٦) في تلمسان ، ومدرسة بوعنانية (٢) يمكن ان تعتبر من أكمل وأروع أعمال المرينيين .

غرناطة

النصريون في الاندلس تركوا بجانب الفنون الاخرى (٤) أخلد نماذج البناء المدني الاندلسي في مجموعة قصور الحمراء في غرناطة . بدأها يوسف الاول (١٣٣٣ - ١٣٥٤) ثم تابع بناءها ابنه محمد الخامس (١٣٥٤ - ١٣٩١) على رابية تطل على المدينة ، وهي حصن ومقر ملكي . وليس مخطط الأبنية بموحد ، وقد أزال الاسبان بعضها ، وما بقي منها يشكل مجموعتين من المنشآت لقصرين متصلين ، يندمج احدهما بالآخر . وتنتظم كل مجموعة منها حول باحة مركزية : باحة الريان (أو البركة) ، وباحة الأسود . والقاعات من حولها غنية الزخرف ودقيقة الفن ، وهي التي أعطت الحمراء سمعتها العالمية .

وقد ظلت تقاليد الفن والأدب والبناء الاندلسي منتشرة في انحاء اسبانيا زمنا طويلا ، بعد ذهاب دولة بني الأحمر ، وعرفت بفن وأدب المدجنين . وعواصف محاكم التفتيش في القرنين ١٥ و ١٦ ، حولتها الى الفن والأدب الموريسكي قبل أن تقضي عليها بمختلف الاساليب القهرية التي استمرت أكثر من قرن ونصف القرن .

الصين الى ١٣٦٨

خلف الامبراطور لي يوان الذي أسس أسرة التانج (٦١٨ ـ ٩٠٧) ابنه الامبراطور تاي تسونج (حكم ٦٢٧ ـ ٦٤٩) الذي أصبحت الصين في عهده أقوى وأوسع امبراطورية على الأرض . وأدى الأمان الذي نعمت به الصين ومكانتها هذه الى تشجيع التجارة مع العالم الخارجي واستيراد كمية ضخمة من السلع . كذلك حملت التجارة الأفكار العلمية غربا الى ما وراء حدود الصين (١٠) .

الفن والتجارة والديانة

إزدهرت الفنون الصينية ابان حكم أسرة التانج (٢ ، ٤) ولا سيما الشعر ، فبرز شعراء أمثال وانغ وي ، و لي بو و توفو . وبدأ أول

٢


١


٣


(١) ـ يرجع كتاب « الصوترا الماسية » ، وهو أقدم كتاب مطبوع في العالم ، الى سنة ٨٦٨ ب . م ، أي الى حوالى ستة قرون قبل ظهور الطباعة في أوروبا . فضلا عن البارود والبوصلة المغنطيسية ، كانت الطباعة أحد الاختراعات الثورية التي ابتكرتها الصين قبل الغرب بزمن طويل . كان من نتائج نمو القراءة والكتابة ان الموظفين (الذين كانوا نظريا يختارون دائما على اساس ديمقراطي) أصبحوا ينتخبون بصورة متزايدة من دائرة أوسع من العائلات . وسهلت الطباعة الازدهار الاقتصادي العظيم الذي امتاز به حكم اسرة السونج ، اذ مكّن من ادخال عملة الورق وصكوك الاقتراض .

(٢) ـ هذا الوعاء الفضي للماء من عصر أسرة التانج مثال على صناعة المعادن الصينية . وهو يعكس الأثر الأجنبي . في ظل هذه الأسرة ، كانت العاصمة تشانج آن (بكين اليوم) على الأرجح أعظم مدينة يختلط فيها السكان . ومع اتساع رقعة الامبراطورية ، جاءت البضائع اليها من كل ناحية . هذا الوعاء مصنوع على غرار الزق الذي يرافق التجار في رحلاتهم لحمل الماء .

(٣) ـ كانت الهياكل البوذية المحفورة في الصخر من مميزات عصر اليون كانج واللونج مين (في القرنين الخامس والسادس للميلاد) .

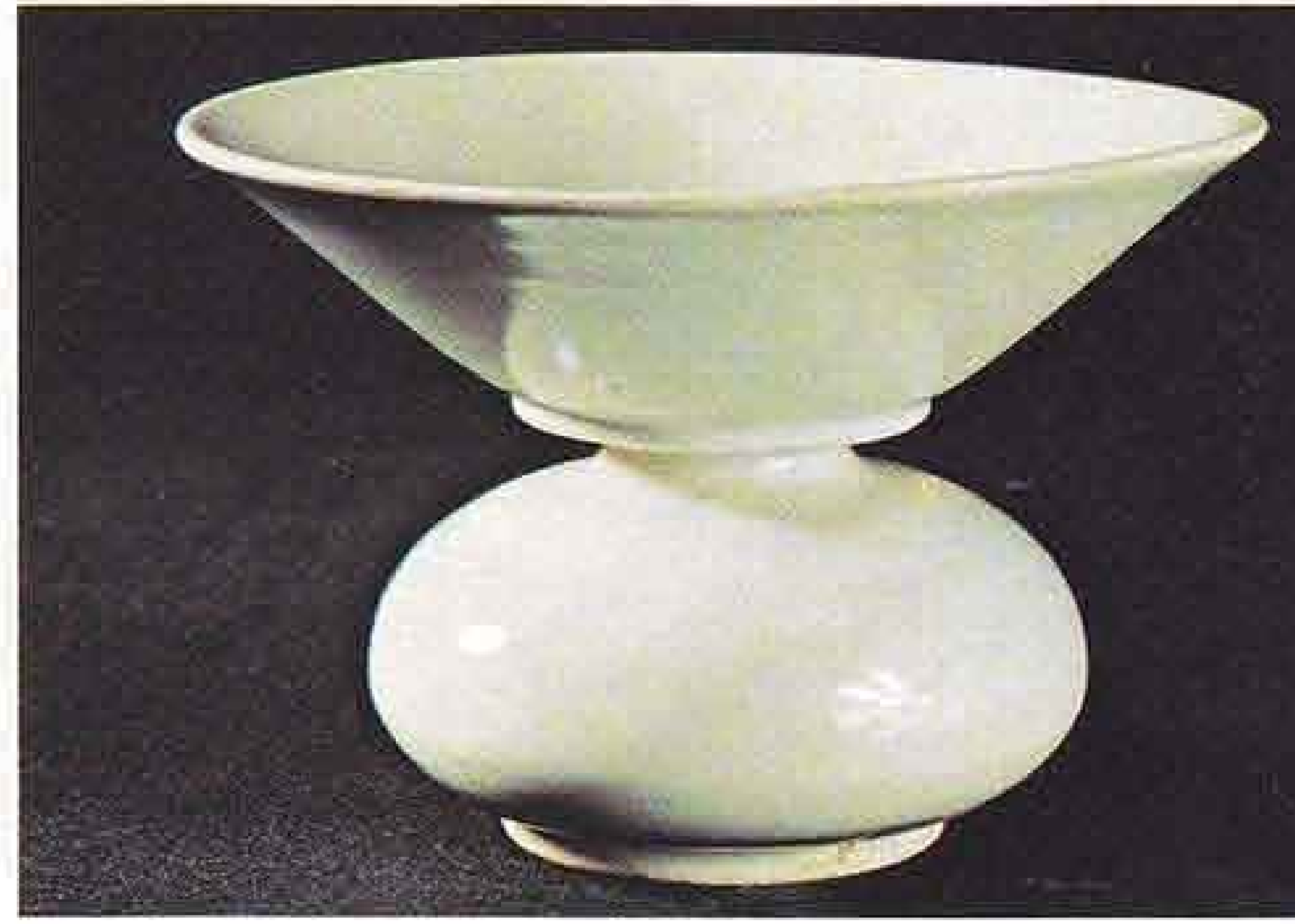
شكل معروف من الطباعة في هذه الحقبة المثمرة ، وصدرت أول عملة ورقية (١) . كما أصاب المرابون النجاح في الأسواق المتعددة ، وأدى نمو التجارة الى تبادل البضائع مع تجار من اليابان وآسيا الوسطى وبلاد العرب والاناضول والبحر المتوسط .

كان الامبراطور متسامحاً مع الأديان التي حملها التجار الأجانب معهم تسامحه مع التجار أنفسهم . ومع انه كان طاويّاً ، فقد أيّد الكنفوشية لأسباب سياسية ، وعامل البوذيين باحترام عظيم . كذلك قامت معابد زارادشتية وكنائس مسيحية نسطورية في العاصمة تشانج آن ، أي بكين اليوم .

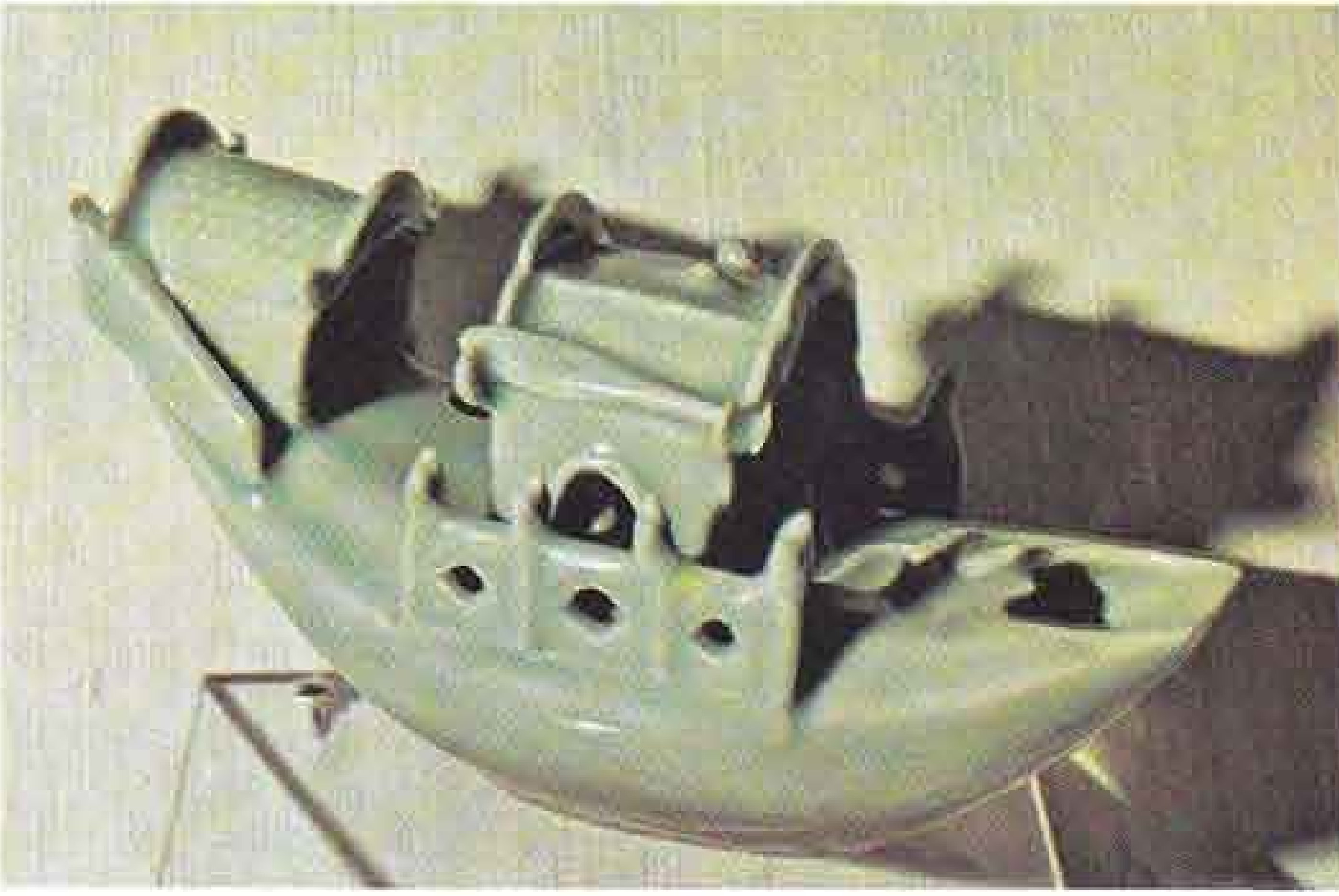
ووتسي تين امبراطورة قديرة

واصلت عملية إحلال السلام والازدهار اللذين بسطهما تاي تسونج على الامبراطورية عشيقته السابقة ووتسي تين التي اعتلت

٤



٥



٦



(٤) - من النماذج الرائعة للانتاج الأنيق الذي عرفته الحقبة الكلاسيكية للحضارة الصينية هذا الاناء من البورسلين الأبيض المعد للماء الذي يرقى الى عهد التانج في أواخر القرن التاسع . جاء من هسينج تشو في مقاطعة هوباي اليوم ، وهو من أفضل نماذج الآنية الخزفية المشوية على نار حامية التي كانت تصنع هناك . في عهد التانج ، كانت تشانج آن عاصمة مزدهرة ، وأحد المراكز الثقافية في الشرق . كانت ثروتها تستمد جزئيا من التجارة الغربية الرابحة ، اذ كانت السلع الصينية مطلوبة كثيرا على طول « طريق الحرير » .

(٥) - اتسعت التجارة البحرية كثيرا في عهد اسرة السونج . كانت مراكب اليونك العابرة للبحار ، مثل هذا النموذج من البورسلين الظاهر هنا ، تحمل بضائع الحرير والبورسلين الى جزر الهند الشرقية والهند وساحل افريقيا الشرقي . لا شك ان التحسينات التي ادخلت على الملاحة (التي ساعدها كثيرا اختراع البوصلة الطوافة سنة ١٠٢١ ب . م) ساهمت كثيرا في انطلاق تلك البعثات التجارية الجريئة الى الخارج .

(٦) - كان هذا الموظف التانجي أحد أفراد النخبة الرفيعة التربية والحظ والثروة ، التي كانت تؤلف جهاز الموظفين أو الادارة العامة . كانت استمرارية ومرونة البيروقراطية الضخمة للدولة منذ أقدم العصور احدى سمات التاريخ الصيني البارزة . كان موظفوها المنتخبون عن طريق الامتحانات العامة يجبون الضرائب ويشرفون على مشاريع الدولة وعلى صناعتي الملح والحديد المؤممتين (الواقعتين تحت اشراف الدولة منذ عهد اسرة الهان) ويديرون مناطق محلية . كذلك كانوا يشرفون على مؤسسات التجار والتجارة الخارجية التي كانت مهنة محتقرة يمارسها المغتربون الأجانب عامة تحت اشراف الدولة الدقيق .

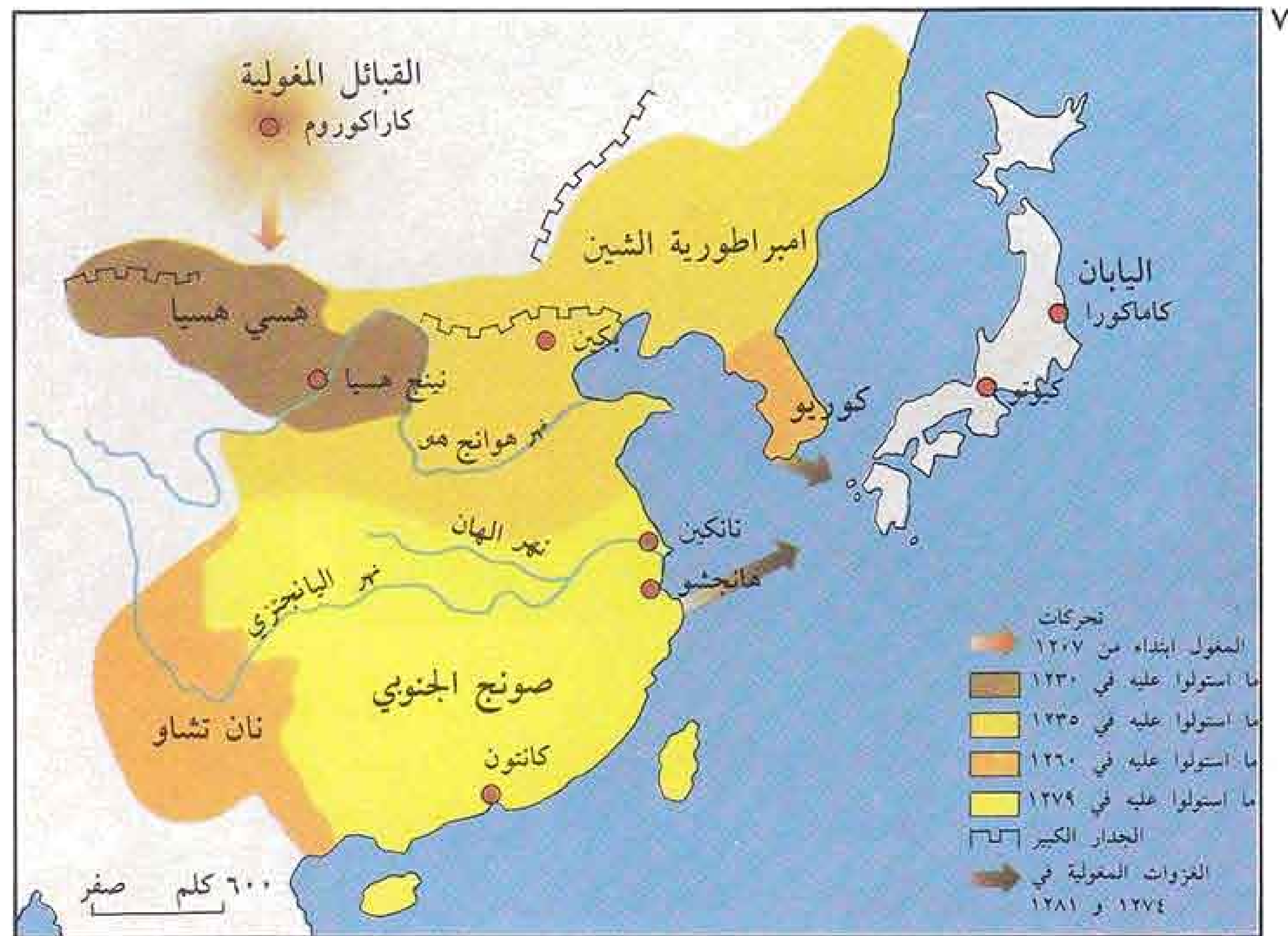
نحت آخرها (كهيكل فان لاي فنج بالقرب من هانجشو الذي تظهر بعض تفاصيله هنا) في القرن الثالث عشر (على عهد اسرة اليوان) . بلغت البوذية في الصين ذروتها في منتصف عهد اسرة التانج ، ولكن هذه العقيدة تداخلت فيما بعد تدريجيا مع العادات التقليدية والمعتقدات الفلسفية الصينية .

العرش سنة ٦٨٣ وحكمت الصين بمقدرة فائقة ، الى أن اضطرت الى التخلي عن العرش سنة ٧٠٥ وهي في سن الـ ٨٢ . كانت تؤمن ايمانا عميقاً بالبوذية وكانت الأنثى الوحيدة والأولى المعروفة « بابن السماء » . كان الكثير من الرقي والاستقرار في البلاد ناجماً عن كون الموظفين في الدولة (٦) ينتخبون على أساس امتحانات خاضعة لأساليب دقيقة ، كذلك سمحت الامبراطورة للنساء بالتقدم الى الامتحانات الخاصة بمناصب الحكومة .

خمس أسر حاكمة والمغول

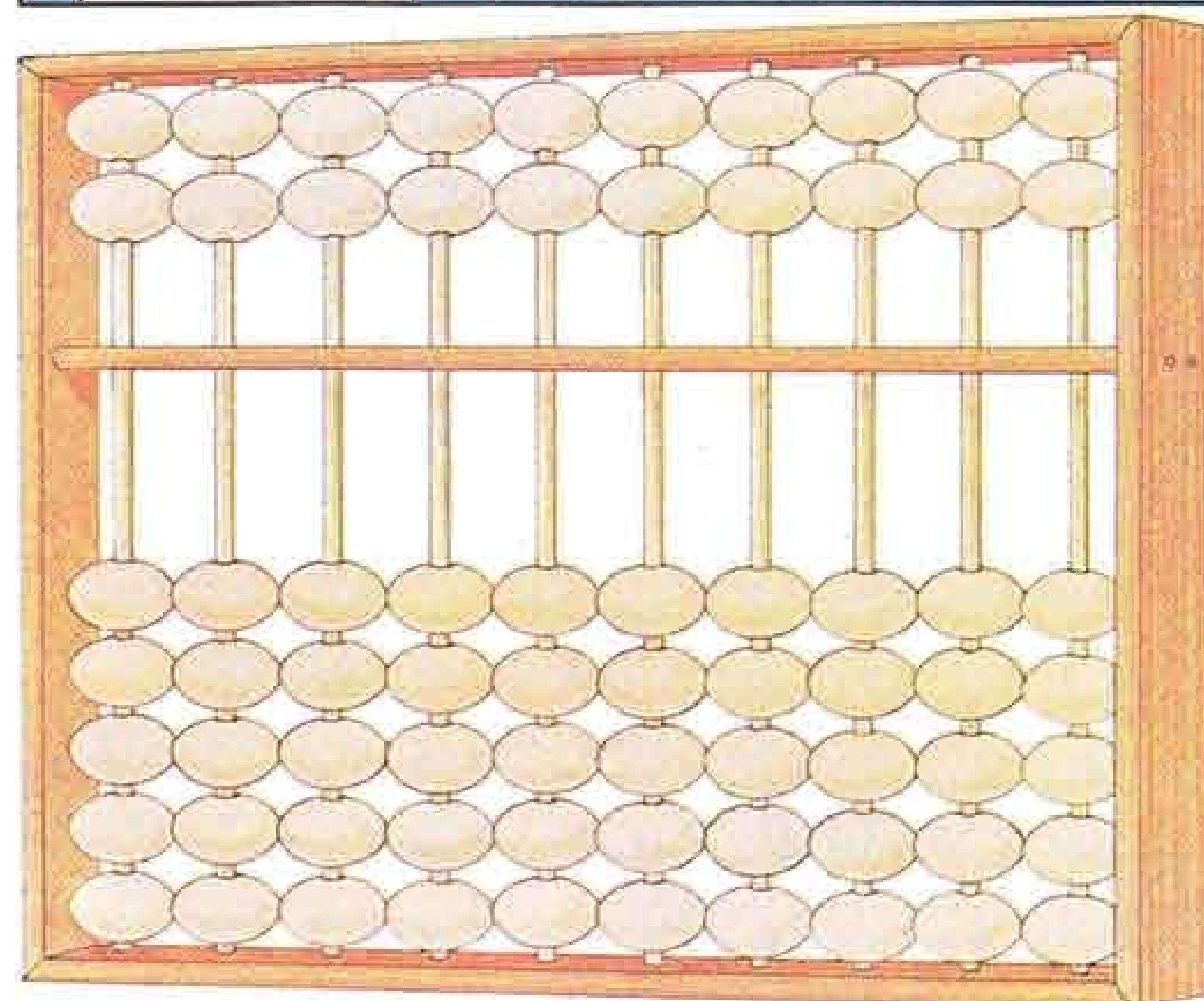
تلت عهد أسرة تانج حقبة تدعى « عهد الأسر الحاكمة الخمس » ، وذلك بين ٩٠٧ و ٩٦٠ ، اذ أخذت الدول ، كما يقول شاعر صيني ، تنشأ وتزول كما تذوب الشموع في الريح » . لكن في سنة ٩٦٠ ، أسس تشاو

٧



(٧) - انجزت عملية فتح الصين على يد المغول سنة ١٢٧٩ . كان السونج قد تحالفوا في الماضي مع المغول ضد التشين في الشمال . ولكنهم ما لبثوا أن طوقتهم الفتوحات المغولية .

٨



(٨) - استحدثت آلة العد المعروفة بالأباكوس في عهد اسرة السونج ومازالت تستعمل اليوم على نطاق واسع في جميع ميادين التجارة . في عهد التانج والسونج لحق بالاقتصاد تطور سريع ، شبيه بذلك الذي جرى في أوروبا في القرن السابع عشر . ولكن على الرغم من ذلك بقي المجتمع الصيني اقطاعيا في جوهره .

(٩) - اخترع البارود كيميائيون طاويون حوالى القرن التاسع ، واستعمل في البدء لأغراض سلمية صرف . لكن حوالى سنة ١٠٠٠ ب . م ، كانت تصنع منه قنابل ومتفجرات وصواريخ بسيطة . ان أول من استخدم البارود في اغراض عسكرية هم المغول الذين استخدموا على الأرجح نوعا من المدافع في حملاتهم على قوات السونج ، كما استخدموا دون شك مهندسين صينيين . استولى المغول أيضا على اسطول السونج الذي كان مجهزاً بمجانيق لاطلاق القنابل . ومع ان البارود كان اختراعا صينيا ، فانه لم يحدث في المجتمع الصيني الآثار الثورية التي احدثها في اوروبا . في الصورة صاروخ صيني من عهد السونج .

كوانج ين أسرة السونج ، فرحّبت البلاد بالامبراطور الجديد الذي اتخذ لقب سونج تاي تسو ، اذ أسعدها ، بعد أن انهكتها الحروب ، أن يستتب فيها حكم مستقر.

كان البارود قد اكتشف خلال حكم التانج ، لكنه لم يكن يستعمل الا في الالعاب النارية . أما الآن ، فاستعمل لأول مرة في التاريخ لصنع صواريخ حربية (٩) . كذلك عوّض جزئياً عن خسارة الجزء الشمالي من



(١٠) - هذا الرسم الطبي المأخوذ من كتاب فارسي يرجع الى القرن الرابع عشر هو بالحقيقة من أصل صيني ، ويدل على تأثير العلم الصيني الواسع الانتشار .



(١١) - يسجل هذا الرسم استيلاء جنكيز خان على مدينة صينية . استطاع المغول ان يسيطروا على كل آسيا الشرقية تقريبا كجزء من امبراطورية كانت تمتد عبر آسيا حتى هنجاريا والبحر الأسود . بعد التغلب على السونج في الجنوب ، بات يحكم الصين لأول مرة غزاة أجانب . حكمت أسرة يوان الصين لاقل من ١٠٠ سنة . تحت حكم المغول باتت الطرق التجارية عبر آسيا آمنة . وسمح لعدد من الديانات ، بما فيها المسيحية ، بالانتشار .

البلاد ازدهار التجارة البحرية ، التي نشطها الى حد كبير اكتشاف الصين للبوصلة . فأخذت سفن مسطحة عابرة للمحيطات ومعروفة باليونك (٥) تحمل الشاي والحرير والبورسلين والرسوم وسواها من المصنوعات الفنية الى جزر الهند الشرقية وافريقيا والهند . أما الاختراع الهام الآخر الذي توصلت اليه الصين ، فكان الآلة الحاسبة (٨) ، وهي أول آلة من نوعها وما زالت تستعمل حتى اليوم .

انتهت اسرة السونج كما انتهت الامبراطوريات السابقة . فالفساد في البلاط والاستياء بين طبقات الشعب أدّيا الى صعود نجم آخر امبراطوريات البدو الرحل الشماليين: امبراطورية المغول . بدأت الحملة الجديدة في القرن الثالث عشر بغزو جنكيز خان (١١٦٧ - ١٢٢٧) للصين الشمالية (٧) ، ولم يحل عام ١٢٢٣ حتى كان قد اجتاح معظم البلاد الواقعة الى الشمال من النهر الأصفر ، وقهر الهسيا ، وقتل حوالى ٩٠ بالمائة من السكان (١١) .

نجح الحكم المغولي أو ، كما كان يعرف رسميا ، « أسرة اليوان » (١٢٦٤ - ١٣٦٨) ، في توحيد الامبراطوريتين الصينية والمنغولية ، وبلغت سلطة المغول ذروتها في عهد قبلاي خان . الا ان هؤلاء الغزاة غلبوا على أمرهم في آخر الأمر . فلم يكن لخلفاء قبلاي خان مقدرته . كما ان تجبر الحشود من الموظفين الاجانب على الصينيين دفع هؤلاء الى تأليف الجمعيات السرية والثورات . وفي سنة ١٣٥٦ ، سقطت نانكين أمام حركة فلاحين يقودها راهب ، يسمى تشو يوان تشانج لم يلبث أن أصبح أول امبراطور على الأسرة الحاكمة الجديدة الصينية كليا ، أي المينج ، في سنة ١٣٦٨ .

الفن الصيني الى ١٣٦٨

كان المجتمع الصيني في العصر الحجري الجديد (٧٠٠٠ ؟ - ١٦٠٠ ؟ ق . م) متمركزا حول النهر الأصفر ومنظما على شكل جماعات قروية . وكان الخزافون يصنعون آنية لولبية يلمعونها ويطلونها بالطين الأسود والأبيض والأحمر في أشكال مدهشة من الحيوانات والأزهار والصور الخيالية . وكانت اشكال أوعية العصر الحجري الجديد اللاحقة أنيقة ومعقدة ، وتبدو على علاقة بأواني البرونز التي تعود الى أولى الأسر المالكة التاريخية (شانج ، ١٦٠٠ ؟ - ١٠٣٠ ؟ ق . م) .

أشكال الفن الباكر

كانت أواني الطقوس الدينية في عهد

١



٢

٣

(١) - يظهر على هذه المعلقة البوذا وهو في حال التأمل في الفردوس . وهي تبين غنى التصوير التانجي . بلغ تأثير البوذية في الصين ذروته في عهد التانج ، وقد جعلت هذه الحقبة حقبة كلاسيكية في الفن الصيني المنسوجات وقطع الفضة والخزف التي انتجت حينئذ . تأتي هذه المعلقة من تو هوانج ، وهو مركز تنسكي كبير في الصين الشمالية الغربية زينت فيه مئات من هياكل الكهوف بالرسوم الجدرانية .

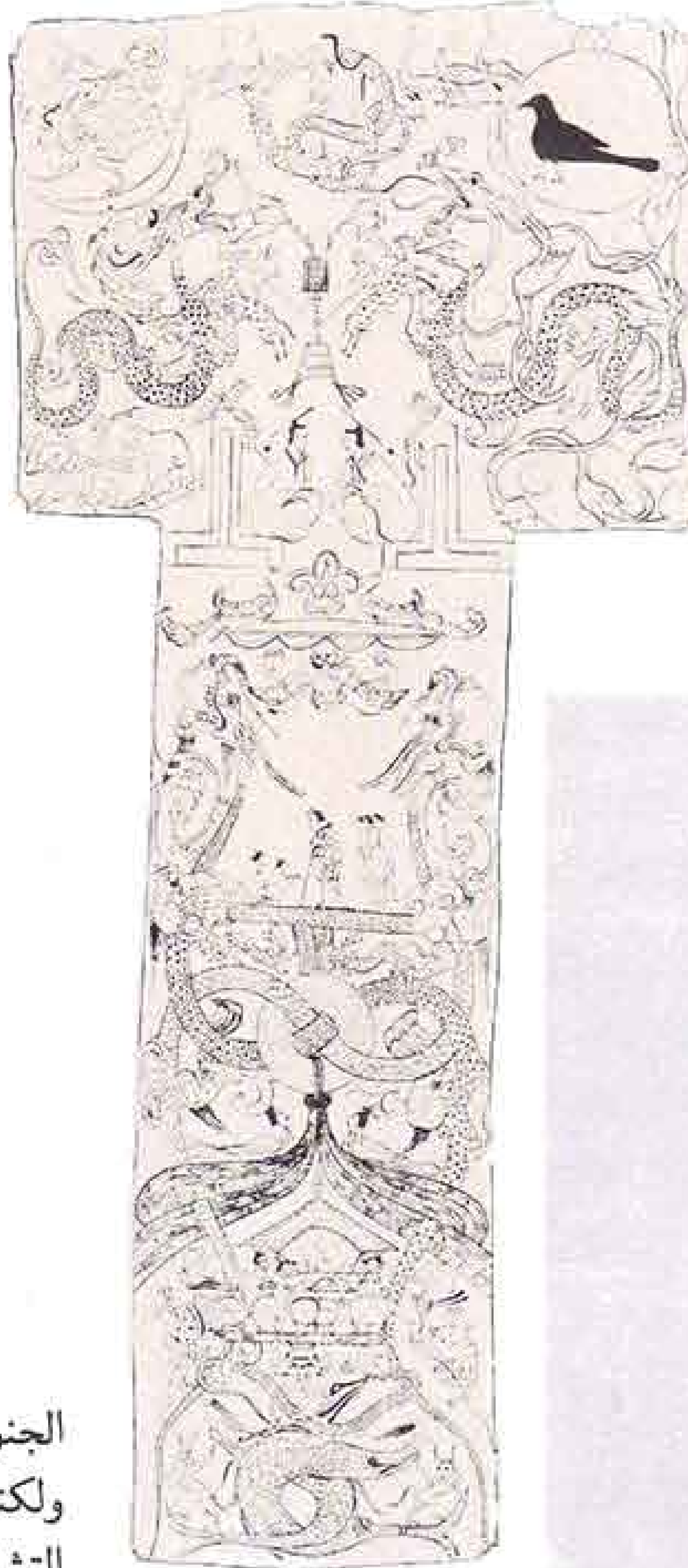
(٢) - كانت مصنوعات البرونز الصينية الباكرة ، الشبيهة بهذا الوعاء الطقسي (المدعو تشيا) الذي يرجع الى القرن الرابع ق . م (أسرة شانج) تركب من قوالب منفصلة ، وهي قطع تربط معا بشكل يسمح بتفكيكها واعادة سكبها واستعمالها ثانية . التزويق مرتب على شكل دوائر حول الوعاء ومستمد من مواضيع حيوانية يمكن أن تكون حقيقية أو أسطورية . كان لكل وعاء طقسي مهمته الخاصة ، وقد استعمل هذا الوعاء لصب الماء .

مجتمع العبيد الشانجي ، الذي كان يحكمه ملك صنم ، مصممة ومصبوبة باتقان رائع . وكانت الأشكال متنوعة والزخرفة غنية مبنية على مواضيع حيوانية (٢) . وحين تغير المجتمع وفقدت الطقوس مدلولها ، أصبح البرونز أزهى وأغنى منظرا ، وغدا في أغلب الأحيان مطليا بالذهب . وكانت الزخرفة تشتمل على أشكال زهرية ، وكانت تكتمل إما بالترصيع أو التطعيم بالذهب أو الفضة أو الحجارة شبه النفيسة .

كانت صناعة الفخار دائما ذات شأن عظيم لدى الصينيين ، وعلى امتداد القرون أخذ الخزافون يتفننون في صنع صلصال الآنية الحجرية الموجود في مناطق الصين الشرقية ، فاتقنوا مد الطين وصقله وطبخه على درجات عالية من الحرارة . وكان تصوير اللّكر اختراعا باكرا تطور تدريجياً أيضا ، لاسيما في جنوبي البلاد ، حتى أصبح شكلا فنيا خاصا .

(٣) ـ مقبض الخنجر هذا الذي يرقى الى حقبة الدول المتناحرة (٤٧٥ ـ ٢٢١ ق . م) مصنوع من الذهب المصبوب . استعملت طريقة الشمع المجهولة اليوم لصياغة هذه الاشكال المخترقة والمعقدة . مصنوعات هذه الحقبة من الذهب المصبوب نادرة جدا .

٤



٥



٦



(٤) ـ يمثل هذا العلم المصور المأخوذ من قبر يرجع الى اسرة الهان مشاهد من اساطير العالم العلوي والسفلي . في الوسط صورة نزيل القبر .

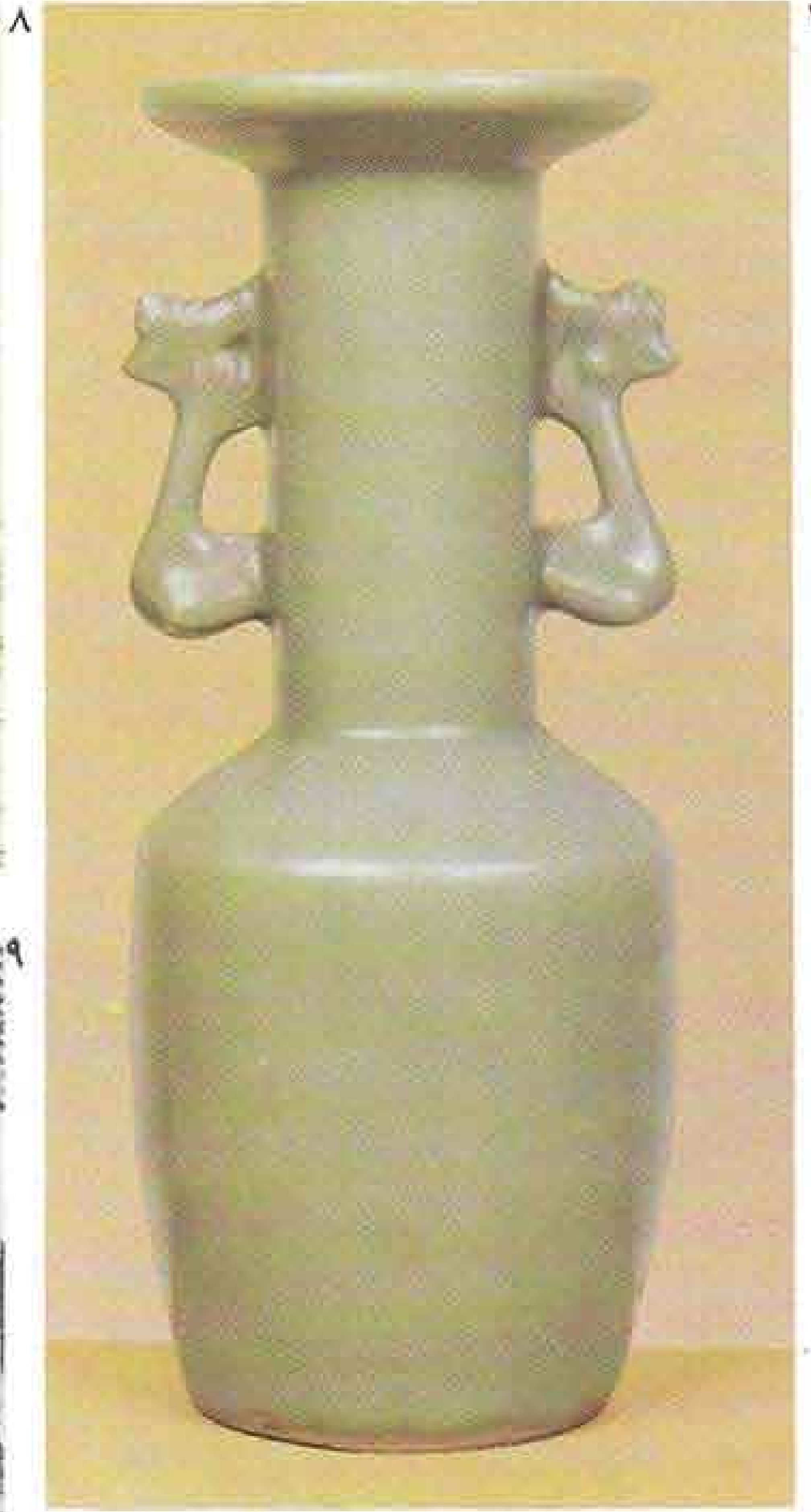
(٥) ـ كان ليانج كاي راهبا بوذ يا ورساما شهيرا من التشان (زين) في منتصف القرن الثالث عشر . هذا الطامور المعلق الذي يظهر فيه كاهن يمشي يمثل نمطه خير تمثيل . كان يستعمل حبره وفرشاته بمهارة جهابذة السونج الجنوبيين والأكاد يمين ، ولكنه أضاف الى ذلك صراحة التشان . وقد عبر هنا عن شخصية الكاهن ببساطة كبرى .

(٦) ـ أسد مجنّح يرجع الى اسرة السونج (٩٦٠ ـ ١٢٧٩) وقد رصع بالفضة والذهب وصنع على غرار مصنوعات اسرة التشو المتأخرة (١٠٣٠ ؟ ـ ٢١١ ق . م) ، وهو يشكل نموذجا لأحد وجوه الذوق عند السونج . تشبه الزخرفة فيه زخرفة التشو ، ولكن على طراز أضخم . وخلافا لأسرة التانج السالفة ، عندما كانت التأثيرات الخارجية كالبوذية مثلا تؤثر في الكثير من جوانب الحضارة الصينية ، كان عهد السونج عهد تأكيد جديد واعٍ للقيم التقليدية .

وباختراع الفرشاة والورق ، أصبحت صنعة الخطاطين نوعا فنيا رئيسيا انبثق عنه فن التصوير الذي كان مخصصا في البدء للطقوس الدينية ، ولكنه اصبح ، بحلول القرن الثاني ق . م شكلا من أشكال التعبير الفني ، كما تفيد بينات عديدة .

وقد شهدت اسرتا التشين (٢٢١ ـ ٢٠٦ ق . م) والهان (٢٠٦ ق . م ـ ٢٢٠ م) العظيمتان توحيد البلاد التي كانت تشمل عدة ثقافات مختلفة . وقد استعمل فن ابتكر في تلك الحقبة ، هو فن التصوير بالألوان على القماش أو الورق للتعبير عن تنوع الاساطير والأقاصيص الخاصة بهذا التراث الغني (٤) . صنعت طائفة من أزهى التصاوير في المنطقة الجنوبية ، وهي مملكة التشو القديمة (أي منطقة هونان اليوم) وفي الغرب في سيزتشوان الحالية حيث استعمل الآجر المطبوع والنقوش النافرة لتصوير الحياة

٧



(٧) ـ كانت تصنع الاواني الحجرية الرمادية الفاخرة المطلية بطلاء كثيف ازرق رمادي في افران وادي نهر التونج الاعلى . عرفت هذه الأواني في اوروبا باسم الاواني الخضراء او السيلادونية . وهذا الوعاء ، الذي يشبه المطرقة شكلا ، هومن نوع اواني السيلاد وفي الخاصة بلونج تشوان (اواخر القرن

٨

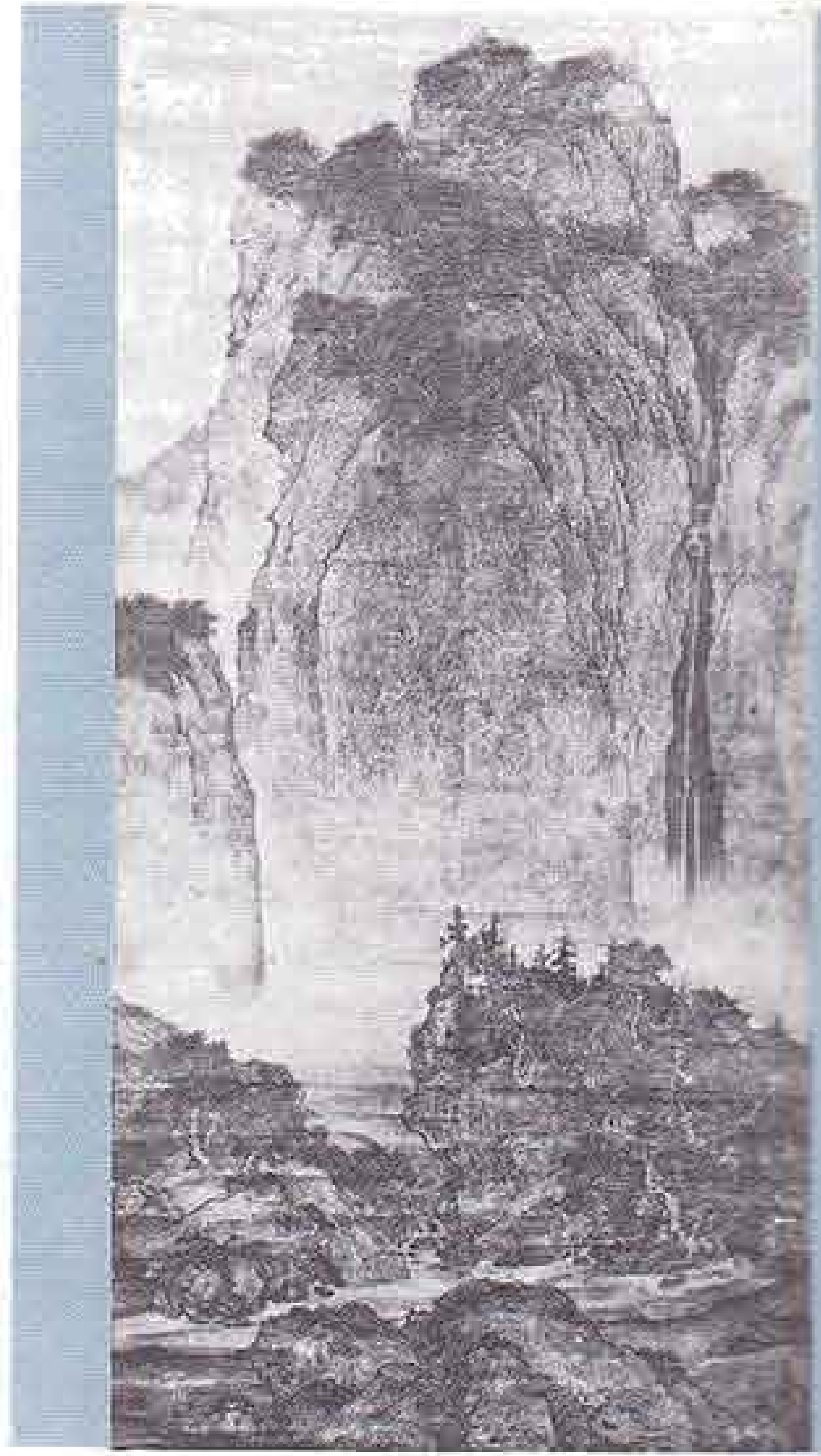


٩



اليومية والمشاهد الاسطورية .

دخلت البوذية الى الصين اثناء القرن الأول للميلاد ، ولكنها لم تظهر في الفنون حتى القرن الرابع . ومع ذلك ، فبين هذا التاريخ والقرن التاسع بنيت هياكل عظيمة أو شقت في الصخر وزيّنت بنقوش صخرية أو رسوم ومعلّقات جدرانية كبيرة (١) مع صور من البرونز أو الحجر المذهّب . ومن المؤسف ان فترات التدمير الموجهة ضد البوذية قد



الثاني عشر أو اوائل الثالث عشر) . انه ، كالعادة ، بسيط الشكل والزخرفة ، لكن نوعيته الفاخرة ناجمة عن نوعية الطلاء الاستثنائية . لقد صنعت اثناء تلك الحقبة بعض افخر مصنوعات الخزف في العالم . يمثل هذا الوعاء أحد الأواني الصينية الكلاسيكية التي كانت تروق لأصحاب الذوق السونجي الجنوبي المرهف ولذوق المثقفين في الحقب المتأخرة .

(٨) ـ من أكثر الرسوم احتراما وتقديرا لدى الصينيين « جبال فوتشون » بريشة هوانج كونج وانج . استغرق انجاز هذا الطامور المرسوم بحبر على ورق ثلاث سنوات تقريبا ، اذ كان الفنان ، وهو احد الاساتذة الاربعة الكبار ، متقدما في السن . تتجلى في هذا الرسم شخصية الفنان العالم من خلال بساطة وصراحة تقنيته المستمدة من الاساتذة القدماء .

(٩) ـ رسم هذا الطامور اليدوي من القرن الثالث عشر بالحبر على الورق فنان لم يعرف اسمه ، وهو يصف الاستعدادات الخاصة بمهرجان الربيع عندما تجتمع العائلات لزيارة قبور الأجداد . يتصف هذا المشهد العام بكثير من الدقة والاثارة .

(١٠) ـ « مسافرون بين الأنهر والجبال » هو أسم طامور معلق يرجع الى اوائل القرن الحادي عشر من رسم فان كوان . رسم هذا الطامور بالحبر وبلون باهت على الحرير ، فجاء رائعة من روائع المناظر الطبيعية الباكرة ، وهو يدل على نمط البناء الكلاسيكي .

طمست الكثير من هذا الانتاج الضخم ، ولم يبقَ قائما الا الهياكل الصخرية العظيمة في الصين الشمالية .

فن أسرة التانج (٦١٨ ـ ٩٠٧)

اشتهرت اسرة التانج بأنها كانت عهدا من أروع عهود العمل الفني بجميع اشكاله في الصين . فقد كان عهدا زاخرا بالحيوية الدولية والأبهة الوطنية . وكان الفنانان الرئيسيان في ذلك العهد ووتاو تسي (أواسط القرن الثامن) ووانج واي (٦٩٩ ـ ٧٥٩) .

تراث تصوير المناظر الطبيعية

تطور تصوير المناظر الطبيعية على يد كبار الرسامين طوال القرون الأربعة اللاحقة (١٠) . وشهد العصر الكلاسيكي في القرنين العاشر والحادي عشر رسم الطوامير الجبلية المعلقة الهائلة التي كان يبدو فيها الانسان كساكن صغير جدا لمنطقة طبيعية عظيمة وطاغية عليه .

وتجلّى ذوق هذه الحقبة المثقف في جميع الأعمال الحرفية : في الآنية الحجرية المتمثلة في آنية تشيكيانغ الخضراء (٧) وأواني البلاط المصنوعة من يشب كالفنج المحفور والبرونز المذهب (٦) والخزف . وفي الوقت نفسه ظهر ، خصوصا في الشمال ، تذوق قوي للزخرفة الزاهية كالتي تبدو في آنية تسو تشو .

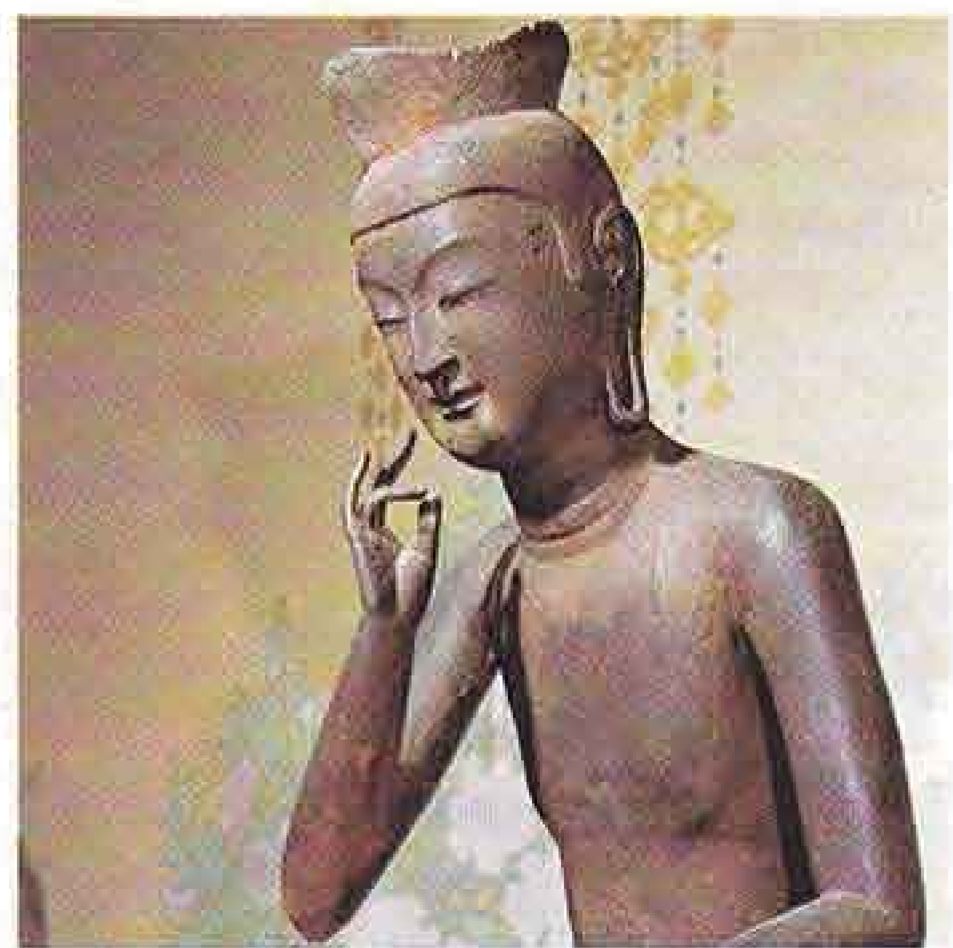
ويبدو أن أكثر ما ينبىء عن حدوث تغير جذري في الأذواق هو ازدهار فن التزويق على الفخار ، الذي رافقه استعمال تقنيات التصوير المصقول بالكوبلت وتنوير اللاكر بالذهب والأحمر في صنع علب فاخرة وقطع صغيرة من المفروشات .

الفن الياباني

يدين الفن الياباني كثيرا ، منذ دخلت البوذية الى اليابان في القرن السادس الميلادي ، للفن الصيني والكوري (١) ، وقد يدفع هذا الى صرف النظر عنه باعتباره غير أصيل . لكن ذلك هو ا بعد ما يكون عن الحقيقة ، لأن اليابانيين ، وان كانوا لا يتلكأون أبدا عن استيعاب تأثيرات جديدة وعن استعمال تقنات وآراء مستوردة ، فانهم يبتكرون دائما انماطا جديدة على طريقتهم الخاصة .

الفن الياباني الباكر

حتى القرن الميلادي السادس ، كان الفن الياباني بسيطا نسبيا . ولكن ، بفضل

١


٢


٣


(١) - هذا البوذا العتيد (بوديساتفا) المحفور في الخشب يرجع الى القرن السابع ، وهو من الطراز الكوري .

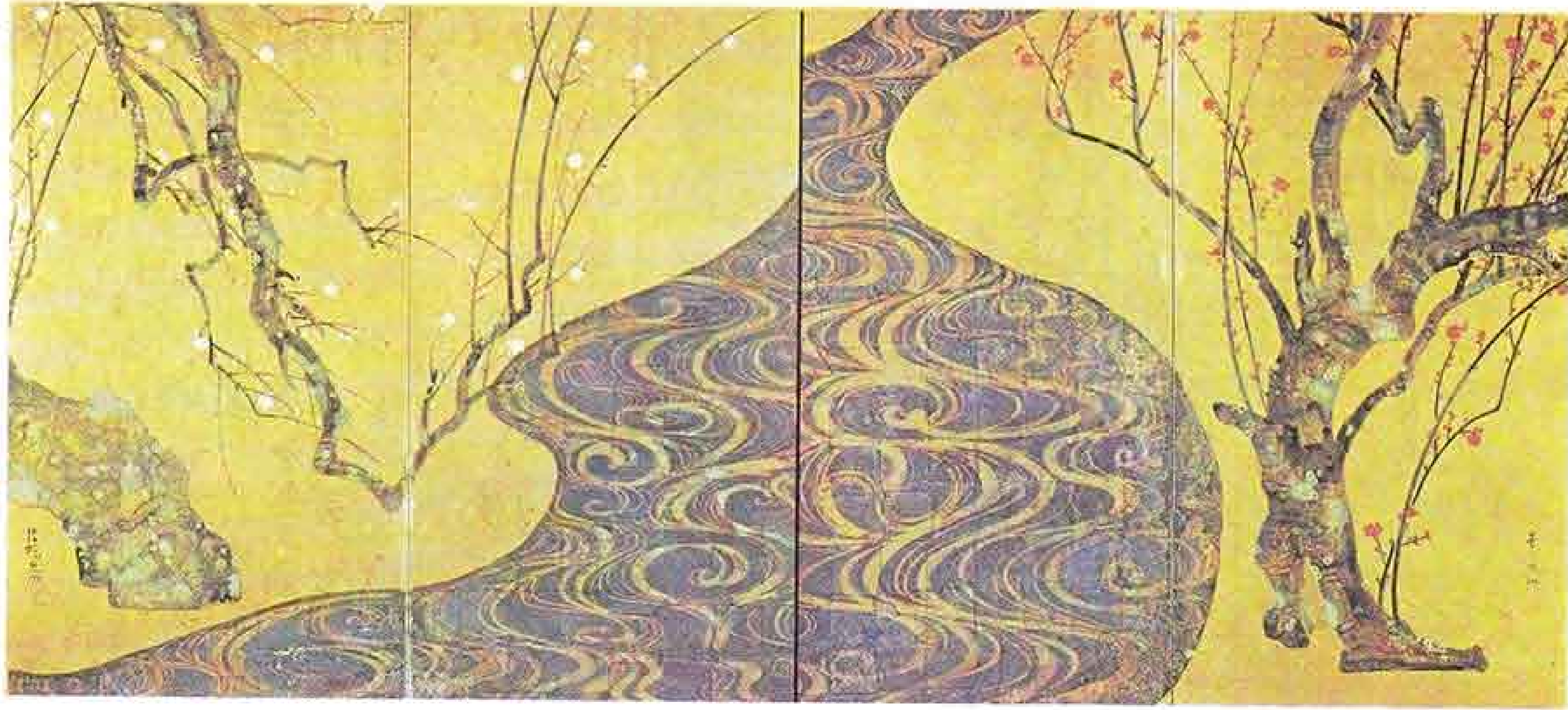
(٢) - دُعِيَت « قاعة العنقاء » بالقرب من كيوتو (القرن الحادي عشر) بهذا الاسم ، لأنه يقال انها تشبه العنقاء التي تحط على الأرض وجناحاها مبسوطان . تبيّن هذه البناية الجميلة كيف فهم البناؤون اليابانيون البوذيون الأفكار الصينية ، واستفادوا من أساليب البناء الصينية .

(٣) - رسمت صور « قصة جانجي » (وهي من أدب القرن العاشر) على الطريقة الياماتوية في القرن الثاني عشر . كان العرف يقضي بابراز المنظر من فوق ، والتشديد على الزخرفة أكثر منه على الأشخاص .

التدريب على أيدي الصناع القادمين من كوريا، وفيما بعد من الصين، ظهرت تطورات في حقل الفنون أدّت الى فن الحقبة المعروفة بحقبة النارا (٦٤٥ - ٧٩٤) والتي بقي حتى يومنا هذا في الهياكل الكثير من نتاجها في فن العمارة وفن النحت في الخشب والبرونز واللّكر الجاف. فالكميات الكبيرة من اللّكر والخزف والمنتوجات الجلدية فضلا عن الرسم والتطريز التي عثر عليها في متحف نارا المعروف بالشوسو إين العائد الى القرن الميلادي الثامن تعطينا فكرة واضحة عن الفنون والحرف في ذلك العهد.

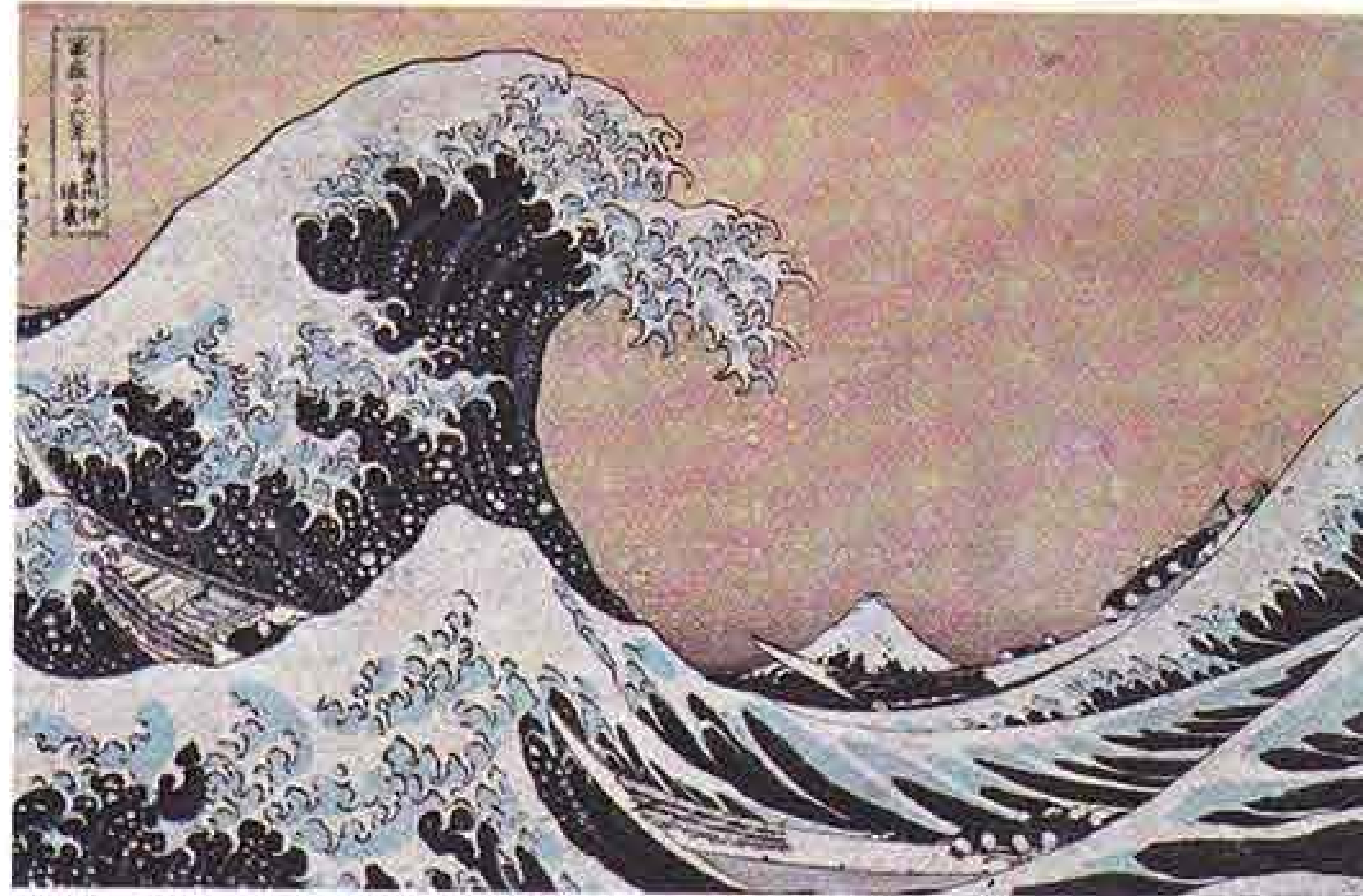
في عهد اليابان التالي (٧٩٤ - ١١٨٥) اكتسبت الفنون البوذية لوناً يابانياً وطنياً بارزاً، ورسمت على النمط الياماتوي أي الياباني صورة بلاط تلك الحقبة الأنيق الذي خلّدته رواية « قصة جانجي » (٣). ويختلف النمط الياماتوي اساسيا عن الأساليب الصينية

٤



٦





(٤) - تدعى هذه الستائر « شجرات الخوخ الحمراء والبيضاء »، وهي من رسم اوجاتا كورين (١٦٥٨ - ١٧١٦) وتشكل نموذجا أمثل لمدرسة « ريمبا » أو « مدرسة الرسم الزخرفية ». ففيها تظهر النزعة الى اختصار الموضوعات الطبيعية، ومعالجتها بطريقة تقليدية لكن في اطار مبتكر كليا. كانت الطريقة الياماتوية تستعمل للمواضيع المبسّطة لكن المزخرفة ايضاً.

(٥) - تنسب هذه « الكلاب المستأسدة » الى كانو ايتوكو (١٥٤٣ - ١٥٩٠) أحد أكبر عظماء رسامي مدرسة كانو.

(٦) - « جوف موجة البحر السحيق » هو واحد من مجموعة ٣٦ مشهداً لفوجي من الرسوم المطبوعة بقوالب خشبية، رسمها كاتسوشيكا هوكوساي.

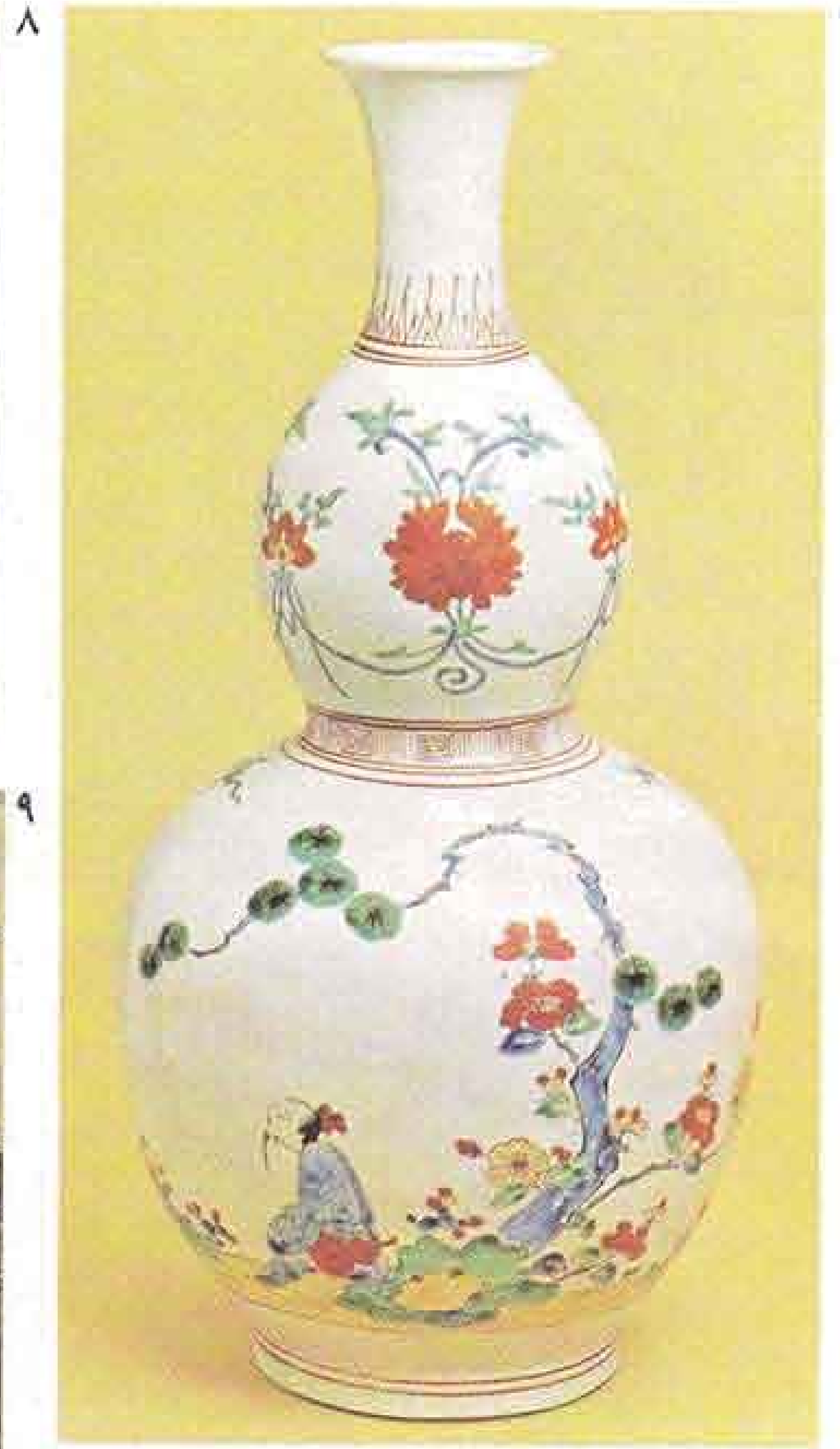
من حيث عدم اكتراثه لضربة الفرشاة وكثرة استعماله للمساحات المسطحة القاتمة اللون .

في القرن الثالث عشر ، انتعشت أساليب نارا في حقل النحت البوذي بزعامة مدرسة كايكي ، وتشعب الرسم الى عدة فروع وفقا للطوائف البوذية المختلفة . واستمر الفن الدنيوي يستعمل الطوامير اليدوية لتمثيل الاحداث التاريخية أو للنقد الاجتماعي ، بينما كان الفنانون البوذيون يستعملون الطوامير في شكل كتاب .

ابتكارات من الصين وسواها

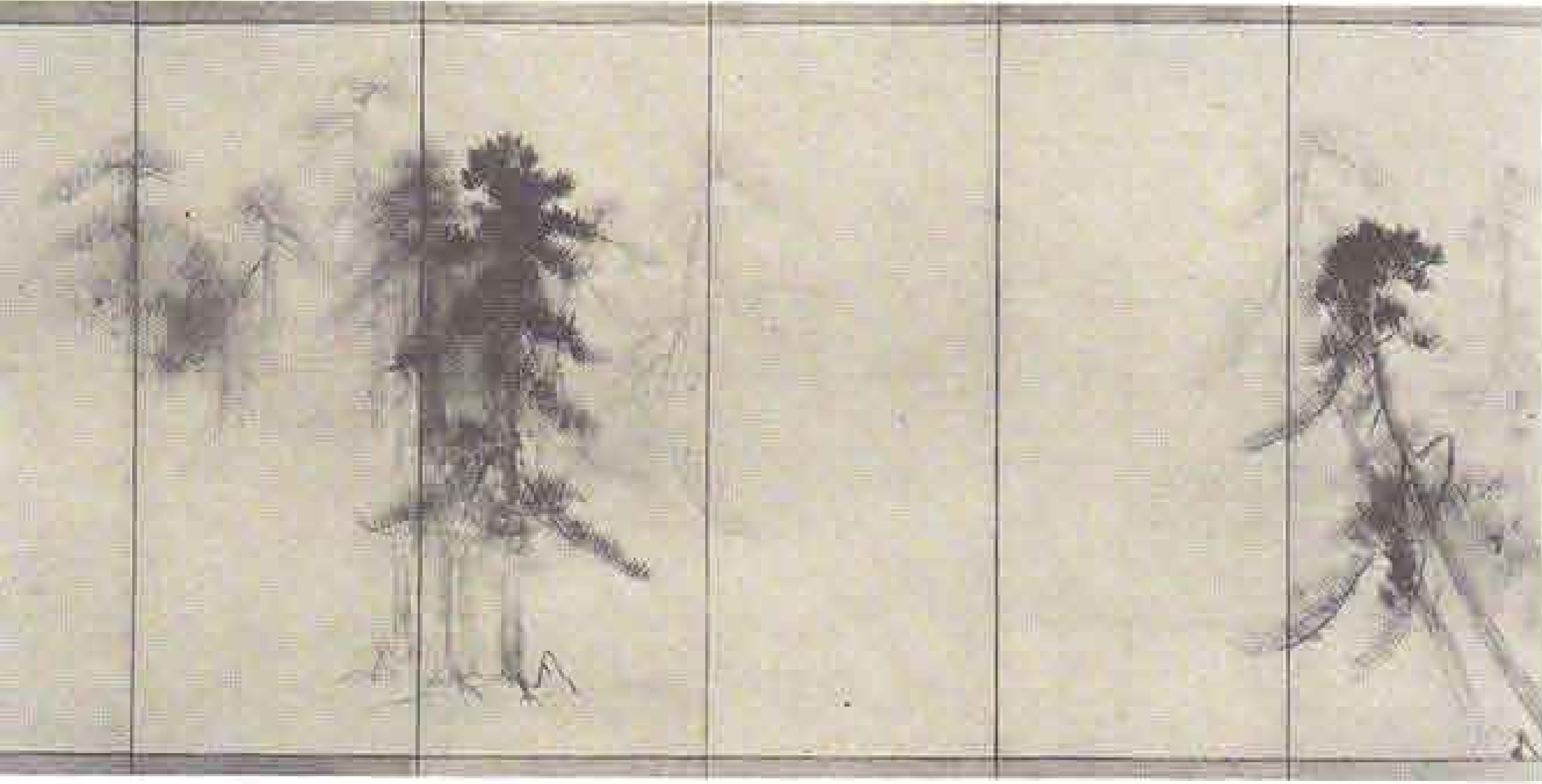
ازدهرت الفنون في عهد اسرة اشيكاجا خلال حقبة الموروماتشي (١٣٣٣ - ١٥٧٣) على الرغم من الحروب الأهلية . وقد مكّنت الاتصالات مع الصين الفنانين اليابانيين الذين كانوا ينتمون الى أديرة « زِنّ » البوذية من زيارة الصين وكوريا وتعلم فن الرسم بالحبر

٧



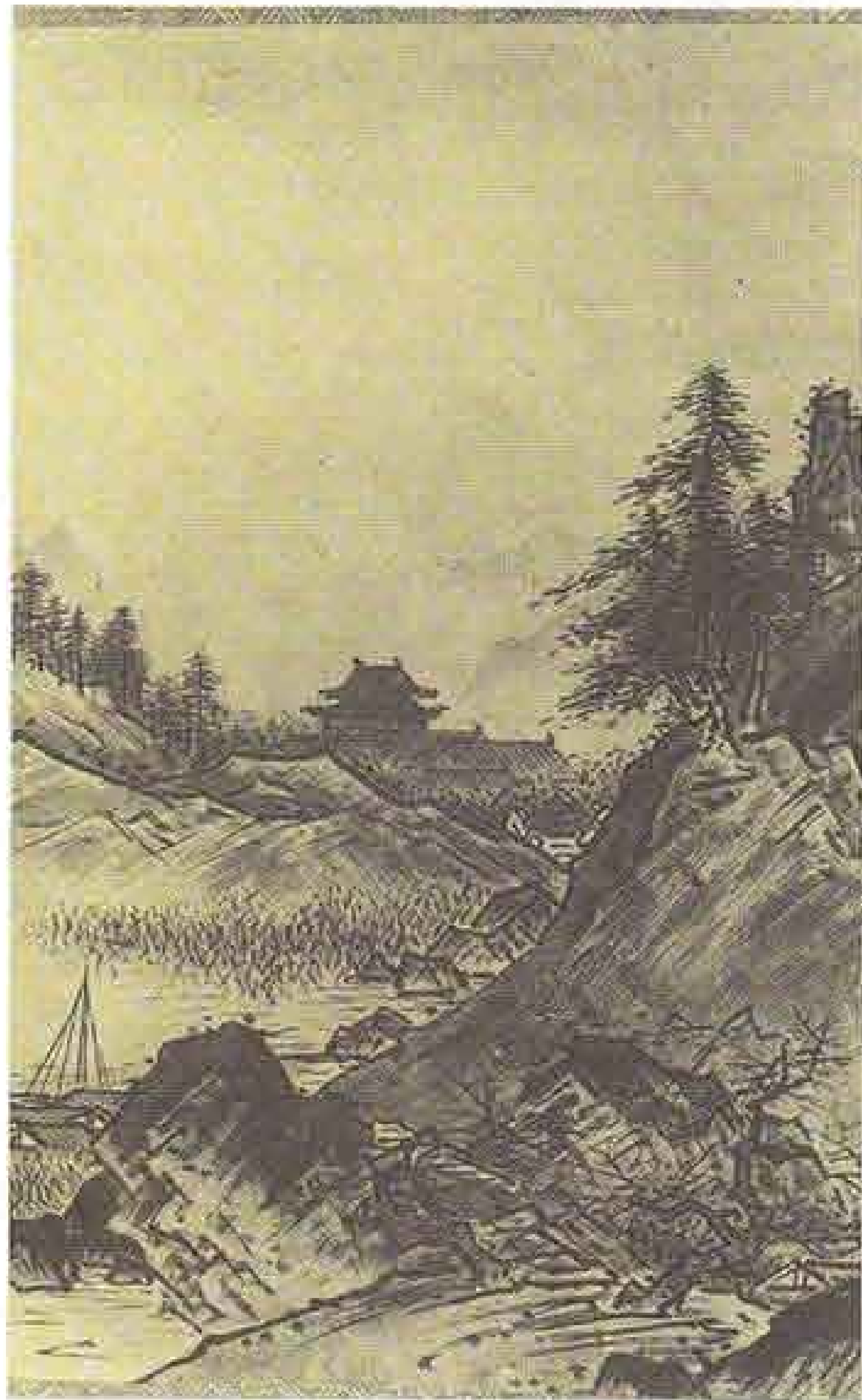
(٧) - ابتدأ تصدير البورسلين الى اوروبا بواسطة الهولنديين منذ ١٦٥٠ . أثرت الآنية المطلية بالمينا الشبيهة بهذا الاناء الكاكيموني المصنوع في القرن السابع عشر في فن بورسلين مايسن . فيما أثرت الآنية الزرقاء والبيضاء على تصاميم الخزف في دلف وسواها من الأمكنة الأوروبية .

٨



(٨) - يمثل هذا الستار بعض أخشاب الصنوبر في الضباب ، وهو أحد ستارين من ريشة توهاكو (١٥٣٩ - ١٦١٠) أحد منافسي فناني كانو المعاصرين . يبيّن هذا الستار كيف يحافظ الفنان على المهارة في الرسم بالحبر مع استعماله للألوان الزاهية وورق الذهب .

٩



(٩) - كان سيشو (١٤٢٠ - ١٥٠٦) رساماً زار الصين وتعلم فن الرسم بالحبر من الرسامين الصينيين . يظهر هذا المشهد للخريف كيف أضفى هذا الفنان طابعا يابانيا خاصا على اسلوب الحبر الصيني .

من الرسامين الصينيين (٩) . في البدء كانت اكاديمية الرسامين في اليابان مليئة بالرسامين الرهبان دون سواهم . ولكن لما شاع الاهتمام بحضارة البر الآسيوي ، ظهرت مدرستان دنيويتان من الرسامين ، مدرسة آمي ومدرسة كانو ذات الشأن الكبير .

كانت مدرسة كانو ، التي اصبحت فيما بعد المدرسة « الكلاسيكية » في اليابان ، عبارة عن طراز صيني بالدرجة الأولى ، ولكنها بثّت روحا زخرفية جديدة كانت بعيدة تماما عن تقاليد الرسامين الصينيين . وعندما اخترع كانو ايتوكو (٥) ، خلال حقبة موموياما (١٥٧٣ - ١٦١٦) طريقة استعمال أوراق الذهب كخلفية للّون القاتم ، أدخل بذلك على الفن الياباني فخامة جديدة لم يكن لها مثيل من قبل ، مع احتفاظه بالطريقة الصينية للمسة الفرشاة .

التأثيرات في العصور الحديثة

حكم خلفاء هيديوشي ، توكوجاوا لياسو واسرته ، اليابان حتى سنة ١٨٦٨ . وكانت حقبة ايدو أو حقبة توكوجاوا حقبة عزلة صارمة وتقييد للاتصال بالعالم الخارجي بقصد المحافظة على السلام الداخلي . فازدهرت التجارة داخل اليابان وجلبت معها الرخاء لطبقة جديدة من التجار . فأدّى ذلك بدوره الى ظهور انماط جديدة من الرسم ومغامرات جديدة في حقل فنون الزخرفة . بدأت صناعة البورسلين (٧) في كيوشو ، وفي وسط القرن السابع عشر اصبحت قطع البورسلين تصدر الى اوروبا والشرق الأدنى بواسطة الهولنديين ، الذين كان قد سمح لهم وللصينيين ببعض التسهيلات التجارية .

ساعدت مقاييس مدرسة كانو المتقهقرة على قيام مدرسة جديدة شعبية هي مدرسة اوكيو ، وهي مدرسة فناني الطباعة الذين أخذوا ينتجون كتبا مطبوعة وصحائف وملصقات للمسارح ويوميات تلبية لأهواء عالم الايدو المتداعي . وقد أخذوا مواضيعهم عن « الابطال الشعبيين » لذلك الزمان وعن الغانيات والممثلات ولحظات المسرح الدرامية والغراميات الجنسية .

ثم جرى احتكاك جديد بالرسم الصيني ، فأدى ذلك الى اقتباس النمط المثقف المدعو « ناتجا » الذي تفرع فيما بعد الى مدرستين ، مدرسة ماروياما اوكيو الواقعية ومدرسة شيجو الرصينة والجريئة معا التي قادها ماتسومورا جوشون .

عند بداية التدخل الغربي في اليابان سنة ١٨٦٨ ، أخذ هذا النشاط فجأة اتجاها جديدا ومختلفا . فقد اصبحت الأزياء الغربية هوس الناس ، فارتدى افراد البلاط ثياب السموكن والقبعات العالية ، وراح الرسامون يدرسون الرسم بالزيت في باريس ، ولم ينقذ التراث الياباني الفني والمعماري من الاهمال ، ان لم يكن من التدمير الكامل ، سوى تدخُّل بعض المتنوّرين امثال ارنست فنولوزا (١٨٥٣ - ١٩٠٨) . اما في قرننا الحالي ، فقد تمت العودة الى المثل الوطنية في عدد من الفنون والحِرَف ، كما جرى في الوقت نفسه إقبال كبير على استعمال المواد والطُرُق الغربية ، بحيث اصبح من الممكن ان نجد بين الرسامين اليابانيين فنانين من أبرز المشتغلين بالطباعة ، وفي الوقت نفسه معماريين ، مثل كانزو تانجي ، وهم من افضل المعبرين عن أسلوب دولي خالص .

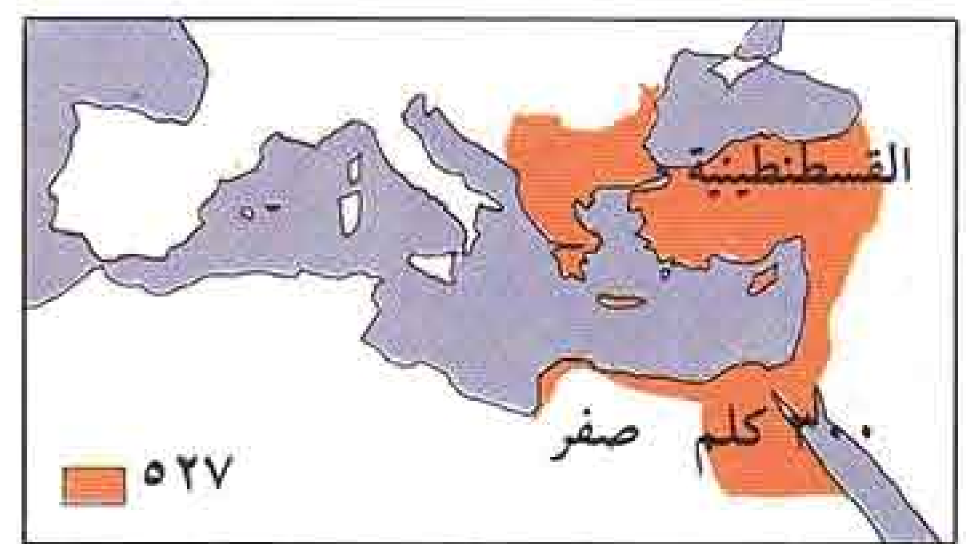
الامبراطورية البيزنطية

في سنة ٢٩٣ للميلاد ، قرر الامبراطور ديوقلسيان ، أن ينقل مركز الامبراطورية الرومانية شرقا . ونشأت الامبراطورية البيزنطية أصلا بمثابة روما جديدة ، لكنها أصبحت صلة وصل بين أوروبا وآسيا ، ومعقلا تمكنت الحضارة اليونانية الرومانية ان تطوّر في كنفه اشكالا جديدة . وقد وجدت بيزنطية نفسها فيما بعد على خلاف عقائدي وسياسي مع الباباوات والأباطرة الغربيين ، الا انها ، كامبراطورية مسيحية ، حاربت العرب والسلاف والأتراك طيلة أكثر من ١١ قرنا .

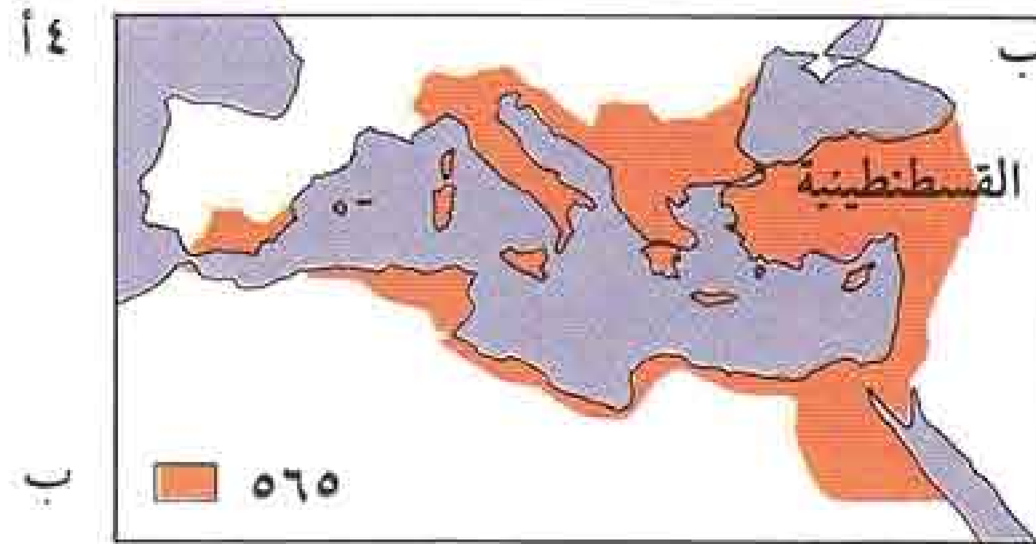
تأسيس القسطنطينية

كان ديوقلسيان (٢٤٥ ـ ٣١٣) وقسطنطين

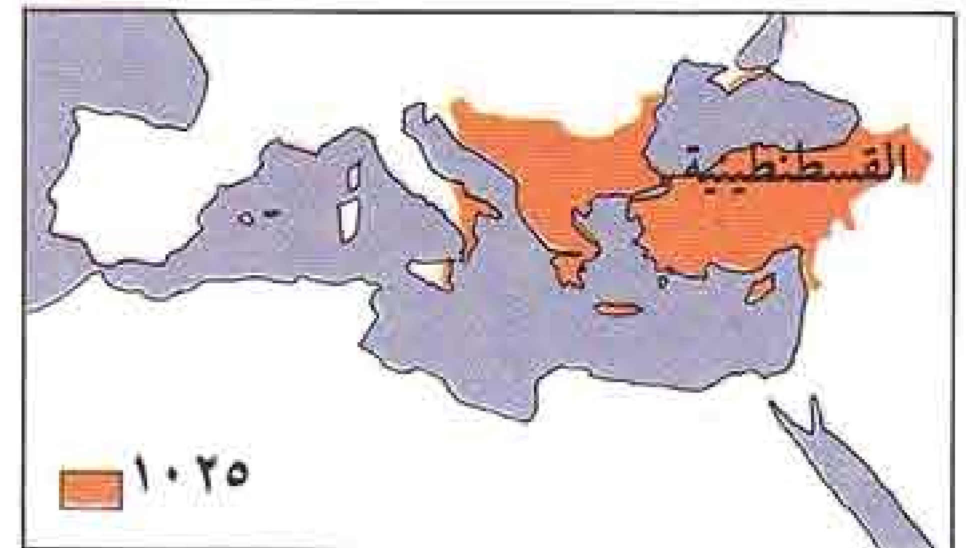
١ أ



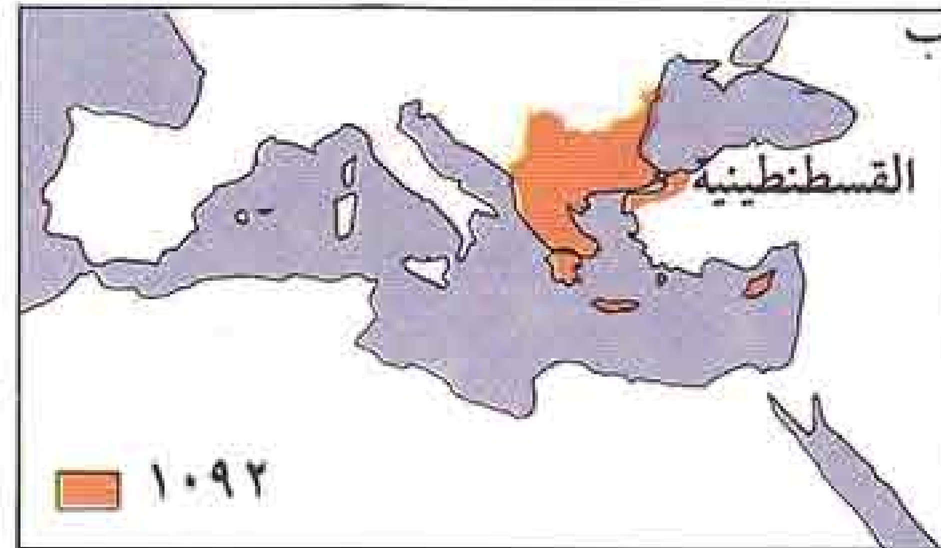
ب



٢ أ



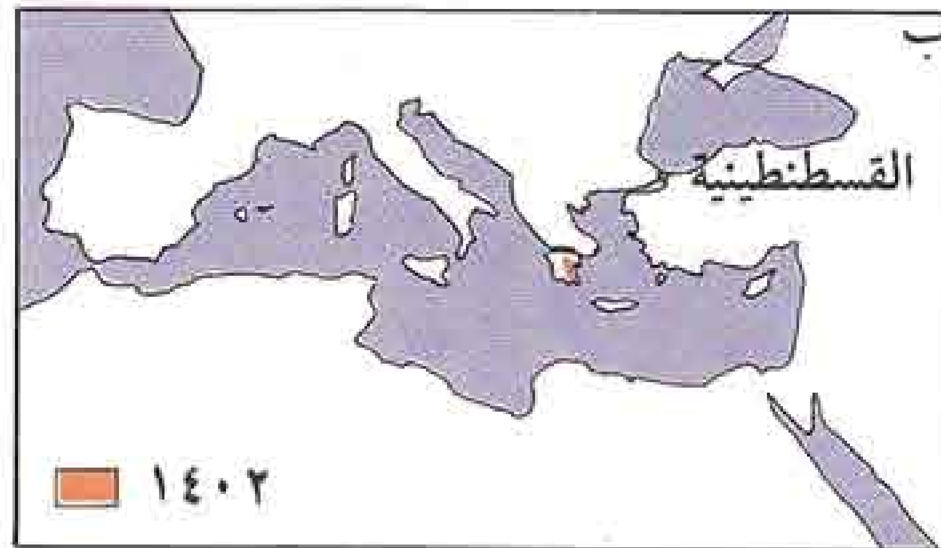
ب



٣ أ



ب



٤ أ



ب



(٤) ـ اخذت النقود البيزنطية بعد القرن السابع تعكس تغييرا بتطورها نحو ثقافة كان يغلب عليها طابع الثقافة اليونانية . فاستبدل النقش اللاتيني الظاهر على هذه القطعة الذهبية (أ) بنقش باللغة الرسمية اليونانية الجديدة (ب) .

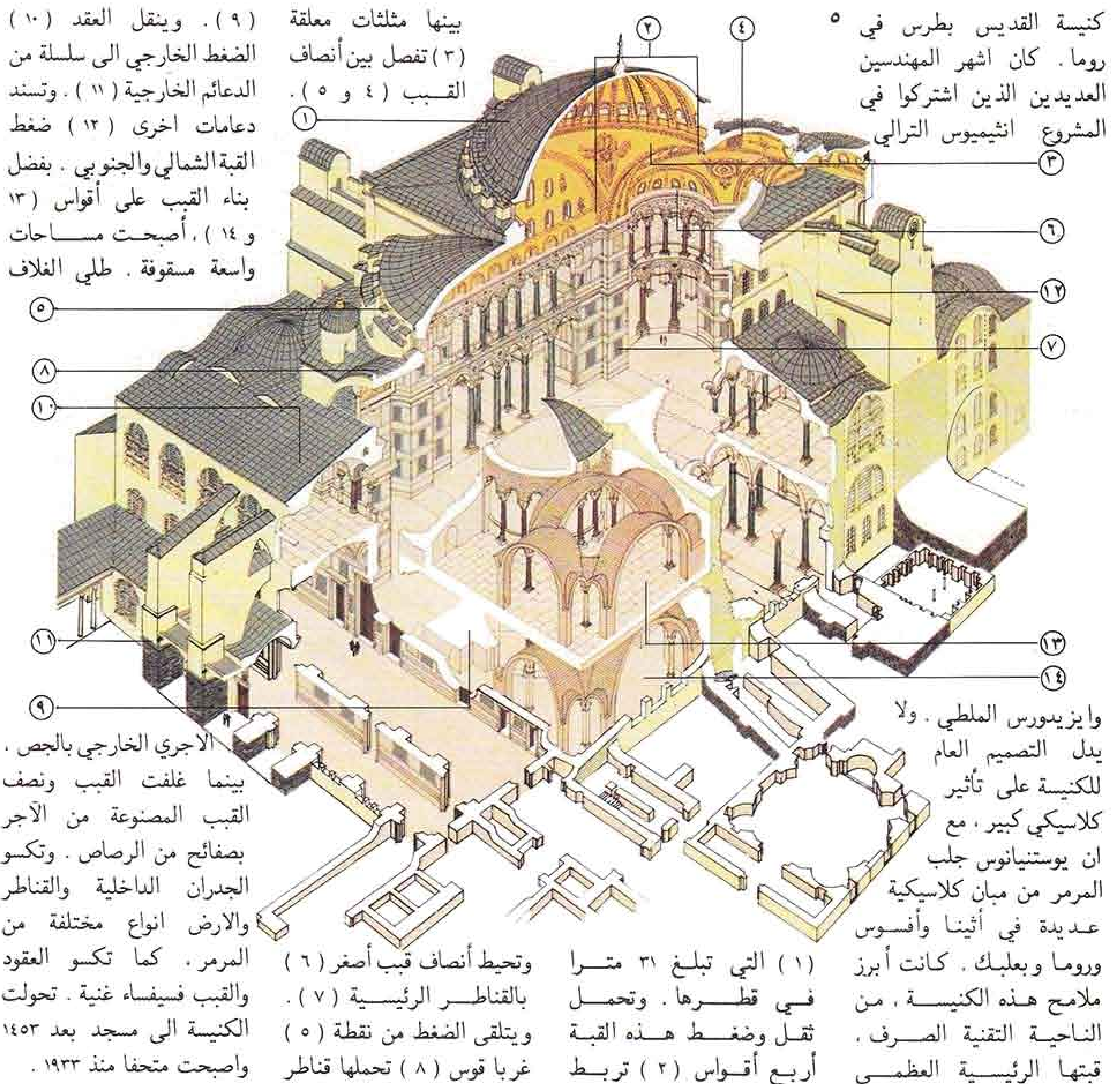
(١) ـ تطورت الامبراطورية البيزنطية في عهد يوستنيانوس الأول . فبعد ان كانت دولة شرقية صرفا سنة ٥٢٧ (أ) أصبحت سنة ٥٦٥ امبراطورية تسيطر على عدد من مناطق روما الامبراطورية السابقة (ب) . وقد طردت الغزاة الجرمان من البحر المتوسط .

(٢) ـ نتيجة لفتوحات باسيل الثاني (سفاح البلغار) (أ) تمت استعادة عدد من الاراضي التي كان السلاف والألمان والعرب قد جردوا الامبراطورية منها . لكن النورمانديين والأتراك قاموا بعدة فتوحات كبرى في أراضي الامبراطورية بحلول سنة ١٠٩٢ (ب) .

(٣) ـ تقلصت الامبراطورية سنة ١٣٥٠ نتيجة لتقطيع أوصالها من جراء الهجمات التركية والخصومات الداخلية . حتى اصبحت عبارة عن زاوية من البلقان مع بعض قطاعات في بلاد اليونان (أ) . وفي سنة ١٤٠٢ كانت الأراضي البلقانية نفسها قد فصلت عنها (ب) .

(٥) ـ انجز بناء اياصوفيا (أي كنيسة الحكمة المقدسة) التي شيدت في عهد يوستنيانوس الاول ، في خمس سنوات فقط . وقصد بها ان تكون مركزا روحيا للامبراطورية . فكانت اضخم كنيسة مسيحية في العالم الشرقي لا يفوقها روعة الا

الأول (٢٨٥ ؟ - ٣٣٧) ينشدان عاصمة للامبراطورية تكون أفضل من روما وأقرب الى مناطق الأناضول والبلقان التي كانت تجند منها العساكر . وقع اختيار قسطنطين على مدينة تقع على البوسفور كانت اصلا موقعا لمدينة يونانية قديمة ، اسمها بيزنطة ولها ميناء ممتاز . وهكذا أصبحت العاصمة الجديدة تعرف باسم القسطنطينية . كانت هذه المدينة تمتنع على الغزاة امتناعا تاماً تقريبا (٧) . وقد صمم قسطنطين لها حجما يفوق كل ما كان معروفا في العالم القديم . وكان قسطنطين عازما على تأسيس مركز مدني يكون بوسع الناس في جميع أنحاء امبراطوريته ان يقدموا فيه ولاءهم له . وكان يعتقد ان سيطرة ديانة واحدة على الرعايا من شأنها أن تشدهم معا برابطة قوية . اعتنق قسطنطين المسيحية سنة ٣١٢ ، وفي سنة ٣٣٠ كرَّس القسطنطينية لمريم العذراء .



كنيسة القديس بطرس في روما . كان اشهر المهندسين العديدين الذين اشتركوا في المشروع انثيميوس الترالي وايزيدورس الملطي . ولا يدل التصميم العام للكنيسة على تأثير كلاسيكي كبير ، مع ان يوستنيانوس جلب المرمر من مبان كلاسيكية عديدة في أثينا وأفسوس وروما وبعلبك . كانت أبرز ملامح هذه الكنيسة ، من الناحية التقنية الصرف ، قبتها الرئيسية العظمى (١) التي تبلغ ٣١ مترا في قطرها . وتحمل ثقل وضغط هذه القبة أربع أقواس (٢) تربط بينها مثلثات معلقة (٣) تفصل بين أنصاف القبب (٤ و ٥) . وتحيط أنصاف قبب أصغر (٦) بالقناطر الرئيسية (٧) . ويتلقى الضغط من نقطة (٥) غربا قوس (٨) تحملها قناطر (٩) . وينقل العقد (١٠) الضغط الخارجي الى سلسلة من الدعائم الخارجية (١١) . وتسند دعامات اخرى (١٢) ضغط القبة الشمالي والجنوبي . بفضل بناء القبب على أقواس (١٣ و ١٤) ، أصبحت مساحات واسعة مسقوفة . طلي الغلاف الاجري الخارجي بالجص ، بينما غلفت القبب ونصف القبب المصنوعة من الآجر بصفائح من الرصاص . وتكسو الجدران الداخلية والقناطر والارض انواع مختلفة من المرمر . كما تكسو العقود والقبب فسيفساء غنية . تحولت الكنيسة الى مسجد بعد ١٤٥٣ واصبحت متحفا منذ ١٩٣٣ .

وبفضل الترابط الوثيق بين الكنيسة والدولة وسؤدد العاصمة وابهتها واستحالة الاستيلاء عليها تقريبا تحققت للقطاع الشرقي من الامبراطورية الرومانية وحدة بارزة ، بعد ان شطر ثيودوسيوس (٣٤٦ - ٣٩٥) الامبراطورية الى شطرين . ولما انهارت الامبراطورية الغربية سنة ٤٧٦ ، استطاعت الامبراطورية الشرقية او البيزنطية ان تقاوم هجمات القوط الغربيين والشرقيين على البلقان . وفي القرنين الرابع والخامس ، استحدثت نخبة من المفكرين فيها علم اللاهوت الذي أقاموه على أسس المنطق اليوناني والوحي المسيحي .

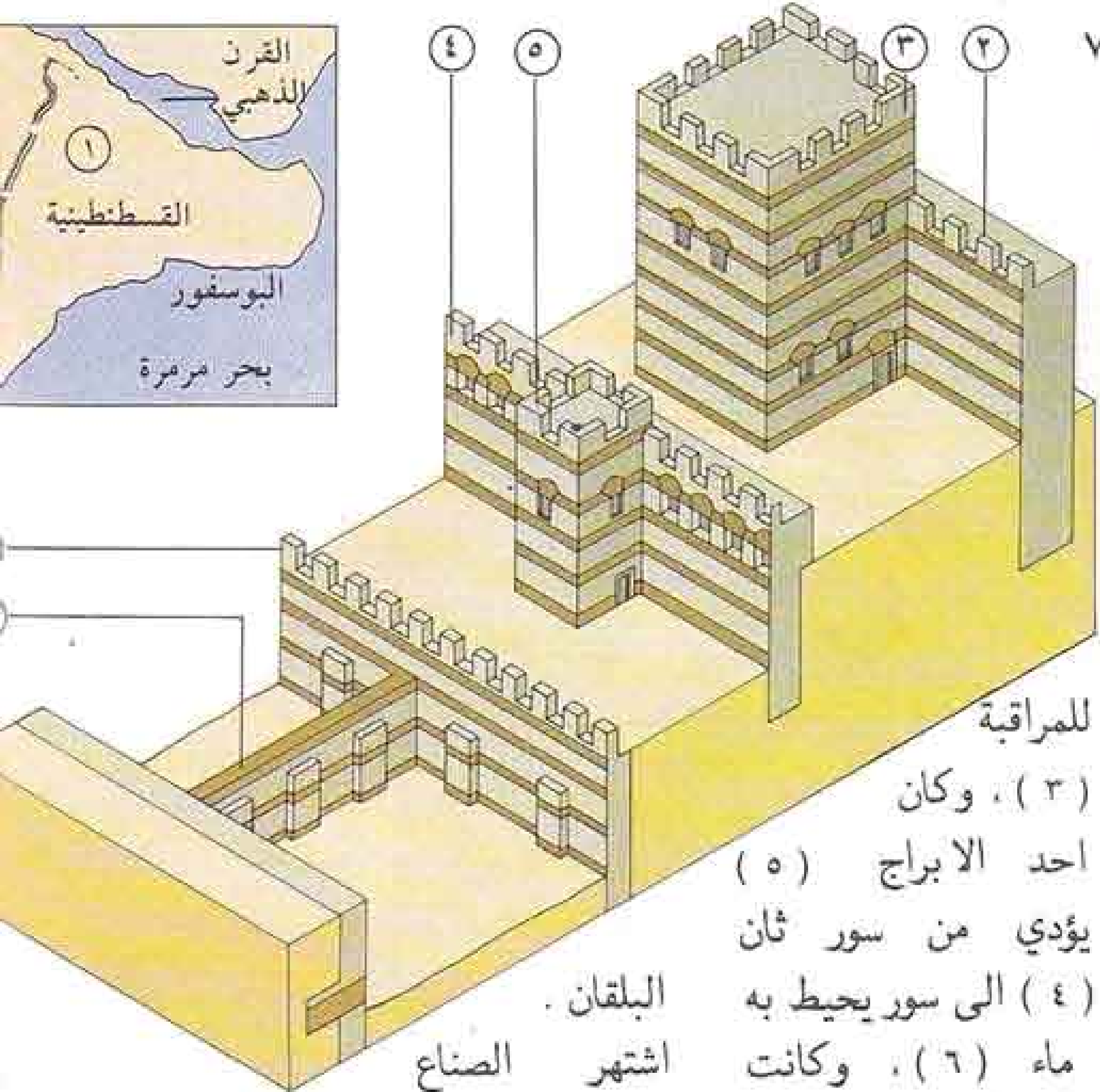
عصر يوستنيانوس

بلغت الامبراطورية أوج عزها في عهد يوستنيانوس الكبير (٤٨٢ - ٥٦٥) وهو اداري لامع ذو مطامع عسكرية واسعة (٦) .

٦



٧



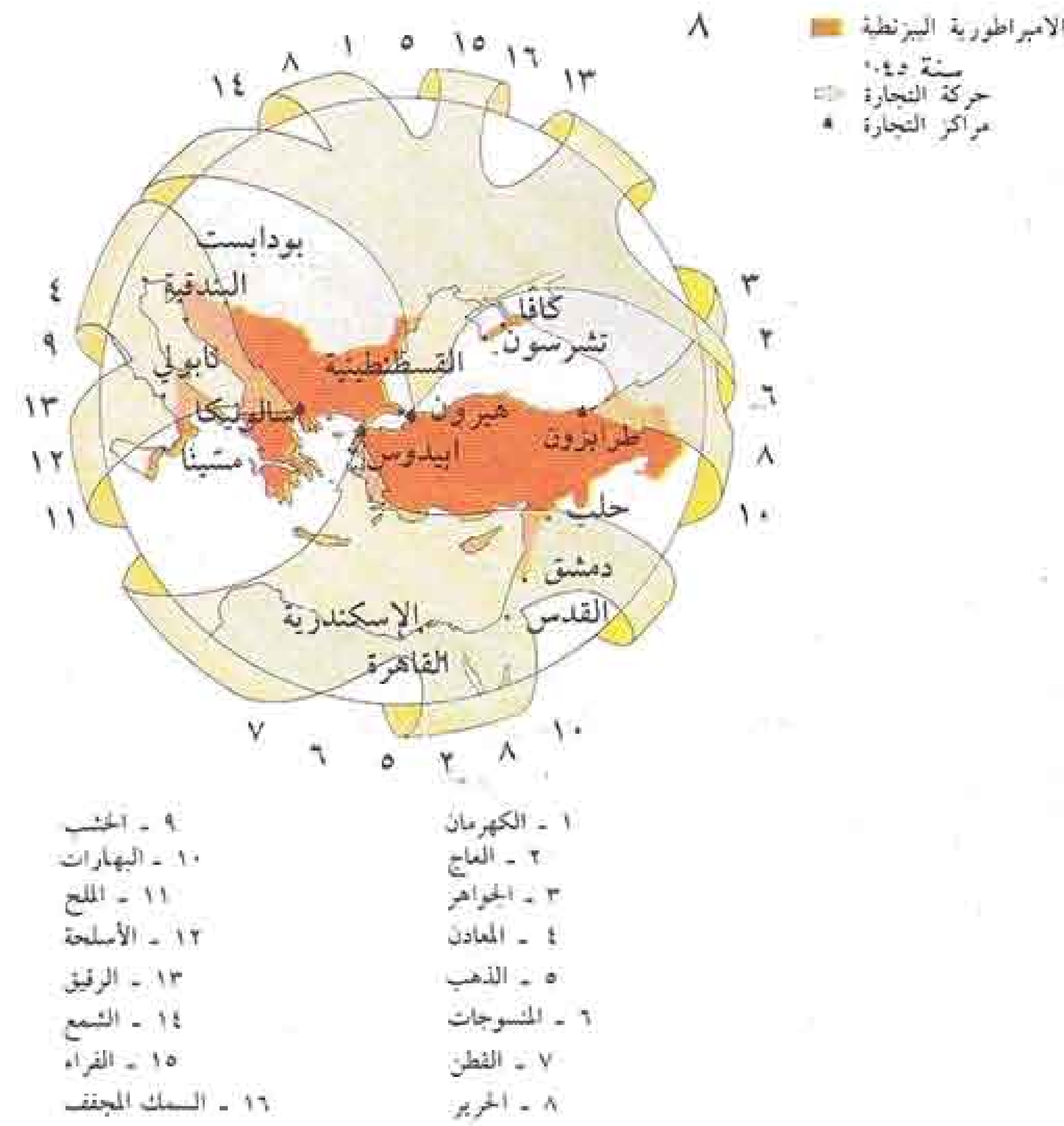
(٦) - يوستنيانوس الأول (حكم من ٥٢٧ الى ٥٦٥) هو الشخصية الرئيسية في فسيفساء زاهية من كنيسة القديس فيتاله في رافينا . قام يوستنيانوس بمحاولة لاعادة توحيد الامبراطورية الرومانية القديمة في ظل المسيحية . فبنيت الكنائس البيزنطية الشبيهة بهذه الكنيسة في رافينا ، بعد ان اجتاح قائد جيوش يوستنيانوس بليساريوس ايطاليا حتى ميلانو شمالا في السنوات التي عقبت سنة ٥٣٥ . بفضل انجازات يوستنيانوس العسكرية والثقافية والادارية اكتسب هذا الامبراطور لقب العظيم . وقد أثرت قرينته ثيودورا ، وهي ابنة لاعب في السيرك ، في سياسة البلاط البيزنطي .

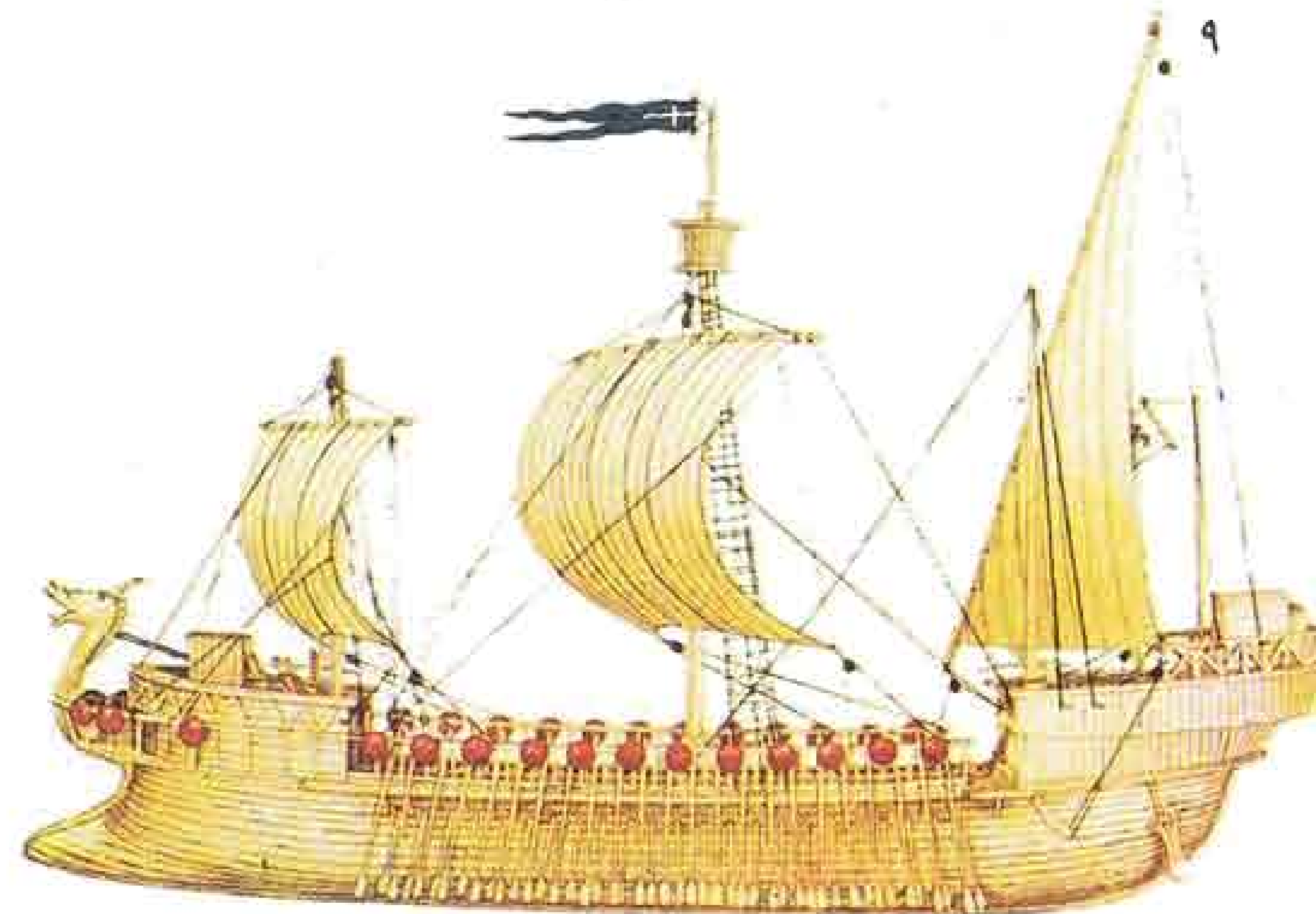
(٧) - كان الدفاع عن اسوار القسطنطينية ، التي بنيت على طول شبه الجزيرة (١) في القرن الخامس ، يتم على مستويات متفاوتة . فقد كان للسور الرئيسي (٢) ٩٦ برجا للمراقبة (٣) ، وكان احد الابراج (٥) يؤدي من سور ثان (٤) الى سور يحيط به خندق ماء (٦) ، وكانت بوابات لجر الماء (٧) تتحكم بالماء المار بالخندق .

(٨) - التقت الطرق التجارية الرئيسية في القرن الحادي عشر عند تقاطع طبيعي في القسطنطينية ، فاصبحت المدينة سوقا شرقية - غربية كبرى . فرضت ضريبة قدرها ١٠ بالمائة على الواردات التي كانت تصل الى هيارون من البحر الاسود والى ابيدوس من البحر المتوسط ، والى طرابزون من آسيا والى سالونيكا من البلقان . اشتهر الصناع البيزنطيون بصياغتهم للذهب والفضة والكهرمان والعاج وشتى انواع الاحجار الكريمة .

(٩) - سفينة الدرومون هي تطوير بيزنطي للقادس اليوناني . كان قسم كبير من التجارة البيزنطية ينقل بحرا ، واحتفظت الامبراطورية باساطيل تجارية وعسكرية ضخمة وفعالة . كانت موانىء صنع السفن على ساحل مرمرة افضل موانىء في اوروبا حتى القرن الثاني عشر .

وقد استطاع قائده الأعلى بليساريوس اعادة بسط السلطة المسيحية الرومانية على مساحات واسعة من الامبراطورية الغربية السابقة . ووسع يوستنيانوس العاصمة توسيعا كبيرا وبنى اياصوفيا (٥) التي ارادها ان تكون مركز عابدة للعالم المسيحي برمته . ولعل أعظم انجازات يوستنيانوس هي تصنيف القانون الروماني . فقد بقي « تشريع يوستنيانوس » الذي وضعه هذا الامبراطور المصدر الرئيسي





للقانون في العصور الوسطى بأوروبا .

مع ذلك أصبحت بيزنطة يونانية الطابع بشكل متزايد بعد ولاية يوستنيانوس ، كما حلّت اليونانية في آخر الأمر محل اللاتينية كلغة رسمية (٤) . فقد كانت فتوحاتها في الغرب قصيرة الأجل ، ثم جاءت آفات انتشار الطاعون فأضعفت قدرة الامبراطورية على مقاومة الهجمات الفارسية في الشرق ، فاستطاع الفرس أن يحتلوا ، بمساعدة اليعاقبة ، معظم مصر وسوريا وفلسطين حوالى ٦١٥ . ثم جاء الفتح العربي ٦٣٢ - ٦٤٥ فانتزع هذه المناطق نهائيا من بيزنطة .

انتعاش فانحطاط (٨٦٧ - ١٤٥٣)

ساعد تقلص حدود الامبراطورية الدولة على استعادة وحدتها العرقية وأكسبها المزيد من المنعة . وهكذا ، ابتداء من سنة ٨٦٧ ، وفي ظل السلالة المقدونية المالكة ، بادرت الى التحرك ضد المسلمين . وعند وفاة باسيل الثاني (٩٥٨ - ١٠٢٥) ، كانت حدودها قد امتدت من الدانوب حتى كريت ومن ايطاليا الجنوبية حتى أطراف سوريا (٢) . خلال هذه الحقبة الأخيرة من العظمة ازدهرت التجارة (٩) ونشر المبشّرون المسيحية في انحاء البلقان حتى روسيا .

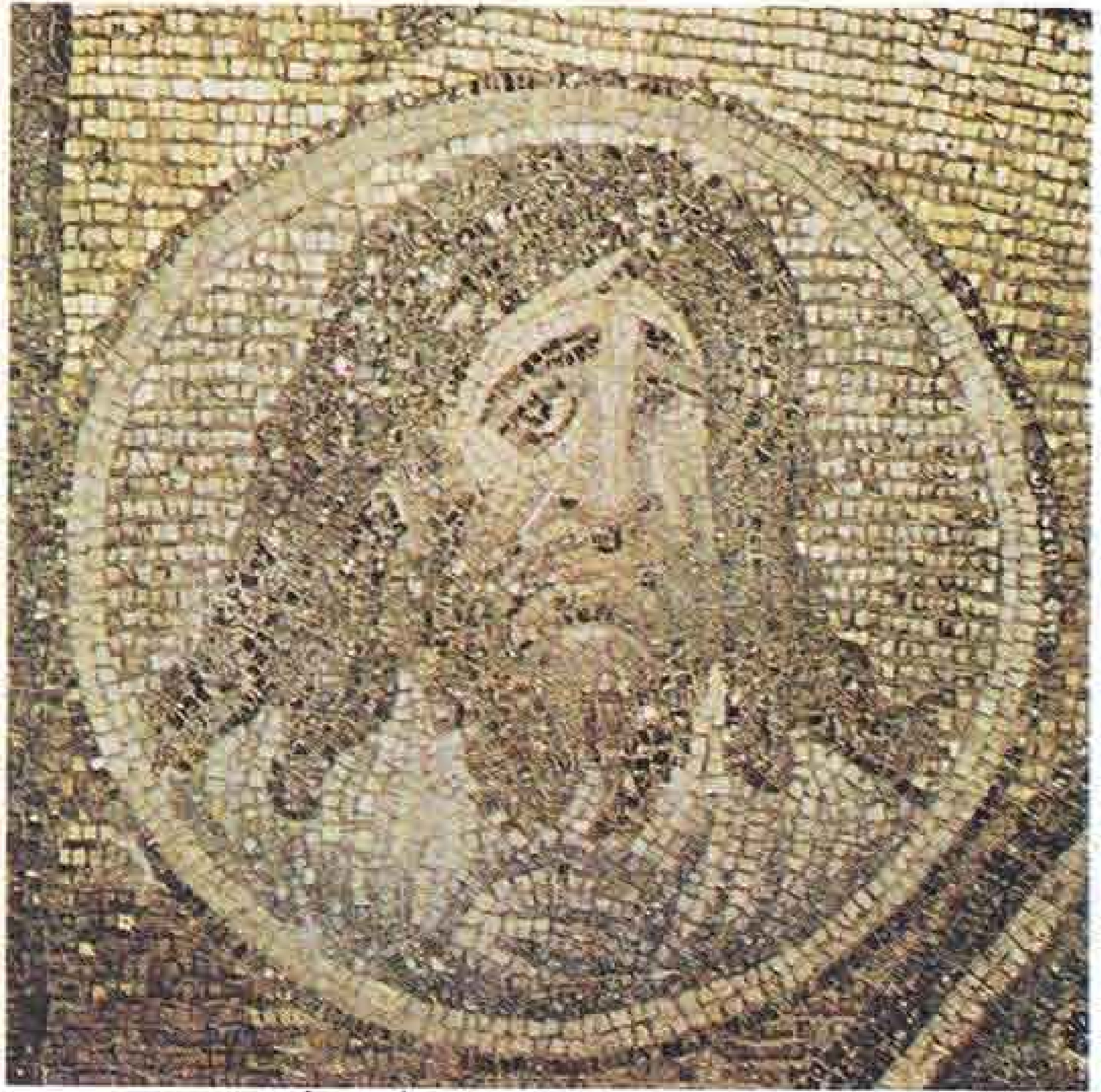
لكن الأتراك استطاعوا ، مع ذلك ، ان يرغموا الامبراطورية على الركوع أمامهم ، وكانت هزيمة رومانوس الرابع على يد السلاجقة سنة ١٠٧١ واستيلاء هؤلاء على الاناضول فيما بعد بداية النهاية . ومنذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٤٥٣ ، أخذت الامبراطورية تتداعى من جراء المكائد والهجمات والخصومات الدينية (٣) .

الفن البيزنطي

القسم الضئيل من الفن البيزنطي الذي وصلنا هو فن « رسمي » ، أي تمثيل جمالي للمعتقدات المسيحية او للسلطة الامبراطورية ، أو لمزيج منهما في الدولة الرومانية المسيحية . كان هذا الفن هو النتاج البارز لهذا المجتمع ، وكان الفن الدنيوي معدوما تقريبا . لهذا يبدأ الفن البيزنطي بتأسيس القسطنطينية سنة ٣٣٠ ، وينتهي بسقوطها في يد الأتراك سنة ١٤٥٣ .

الفن « الرسمي »

أعادت العاصمة الجديدة ، التي بنيت على أنقاض بيزنطة ، الفن الروماني الى موقعه الجغرافي الأصلي الذي منه انبثق





(١) - هذه المستديرة من الفسيفساء التي تمثل يوحنا المعمدان مأخوذة من كنيسة كبرى أسسها حوالى ٥٥٠ يوستنيانوس عند موقع « العوسجة الملتهبة » في سيناء (وهو اليوم دير القديسة كاترين) . توحي قوتها التعبيرية العظيمة بأن الفنانين الذين استطاعوا تحويل قناع كلاسيكي مأساوي الى فسيفساء ، كانوا من القسطنطينية .

(٢) - من الأرجح أن يكون قد ازاح الستار عن فسيفساء « العذراء وولدها على العرش » الموجودة في اياصوفيا البطريرك فوتيوس في مارس ٨٦٧ ، الذي قال في موعظة شهيرة له بأن الفسيفساء بدت هنا وكأنها حيّة بحيث لم تكن مريم « عاجزة عن الكلام » .

(٣) - في هذه الأيقونة المصغّرة المصنوعة من الفسيفساء في القرن الرابع عشر « لبشارة الملاك » نُزّلت المكعبات الزجاجية الصغيرة في الشمع الأصفر . أصبحت هذه الأيقونات التي يمكن حملها شائعة لدى أثرياء القسطنطينية الباليولوجية ، وكان باباوات « عصر النهضة » يقتنونها لضمها الى مجموعاتهم الفنية . هذا هو الشكل الوحيد تقريبا من الفن البيزنطي الذي كان له احترام وتقدير في الغرب .

(٤) - هذه الصورة « للصلب » توجد في دير القديس لوقا استيريس باليونان الوسطى . كانت رفات لوقا المقدسة تجذب الحجاج الى هذا المكان . وهكذا موّلت هذه الكنيسة في القرن الحادي عشر . القديسان الظاهران هنا يعبران عن تقوى رهبانية .

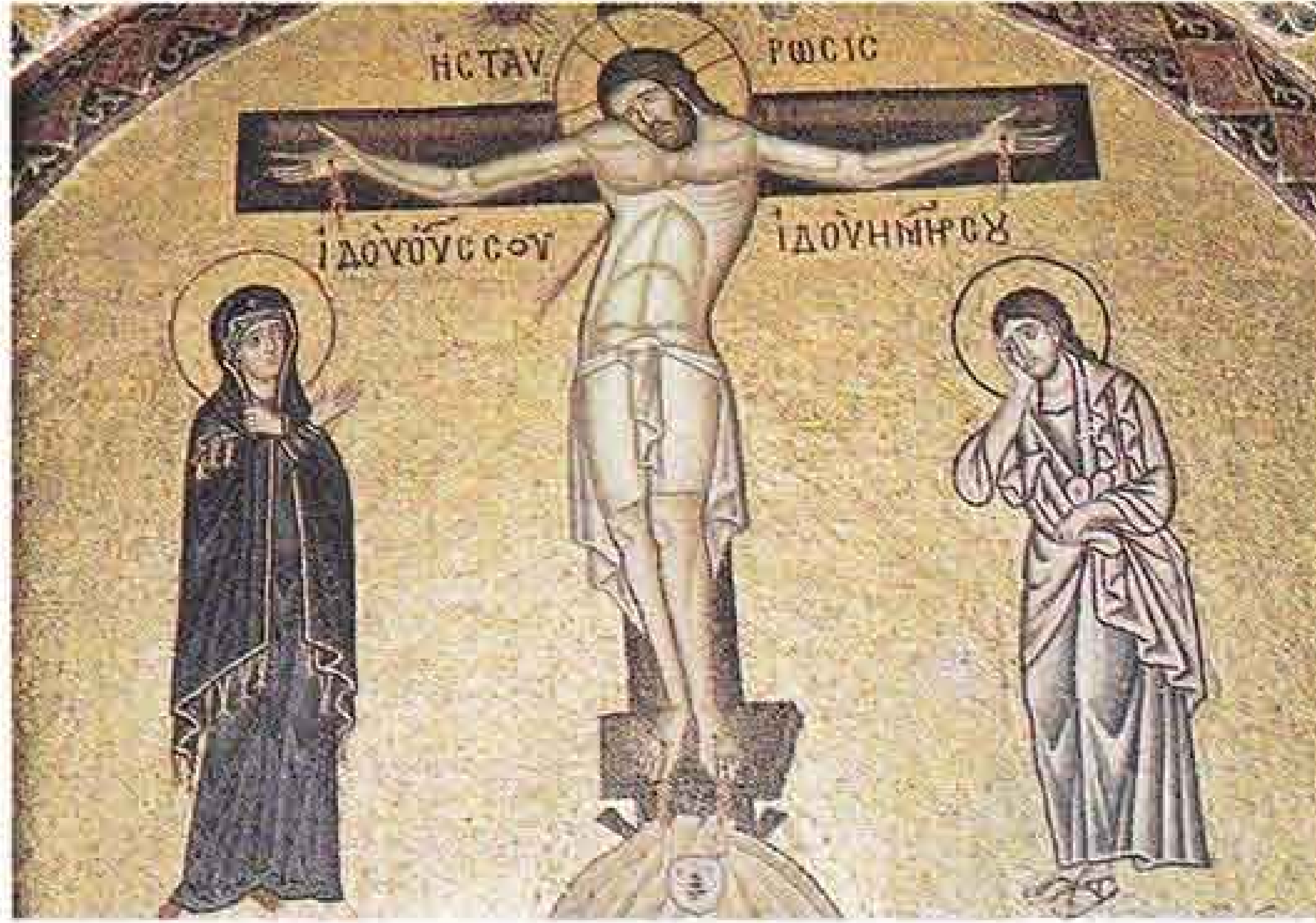
(٥) - أسس كاتدرائية مونريال (أ) وليَم الثاني

الكثير من تقاليده وأشكاله ومواده . مع ذلك لم يكن الفن البيزنطي مجرد استمرار للفن اليوناني الروماني في خدمة الكنيسة المسيحية . فعندما حذت القسطنطينية في القرن الرابع حذو روما القديمة وأقامت مثلها عمودين لولبيين ، جاءت منحوتات هذين العمودين النافرة (التي نعرفها من خلال الرسوم فقط) مختلفة جدا عن أشكال طراجان الكلاسيكية . فهذه المنحوتات لم تكن حافلة بالرموز المسيحية فحسب ، بل راحت تمثل العظمة الامبراطورية من خلال موكب لامتناهٍ من الشخوص الجامدة . كذلك جاء اسلوبها يعكس نظام الدولة الهرمي . نما هذا الفن الجديد في المدن القريبة من المتوسط الشرقي ، كما تشهد على ذلك مثلا فسيفساء السقوف المقببة لكنيسة القديس جرجس في سالونيكا (٤٥٠) ، حيث يمثل نمط فني ، هلنستي الى حد ما ، مكانة

٣

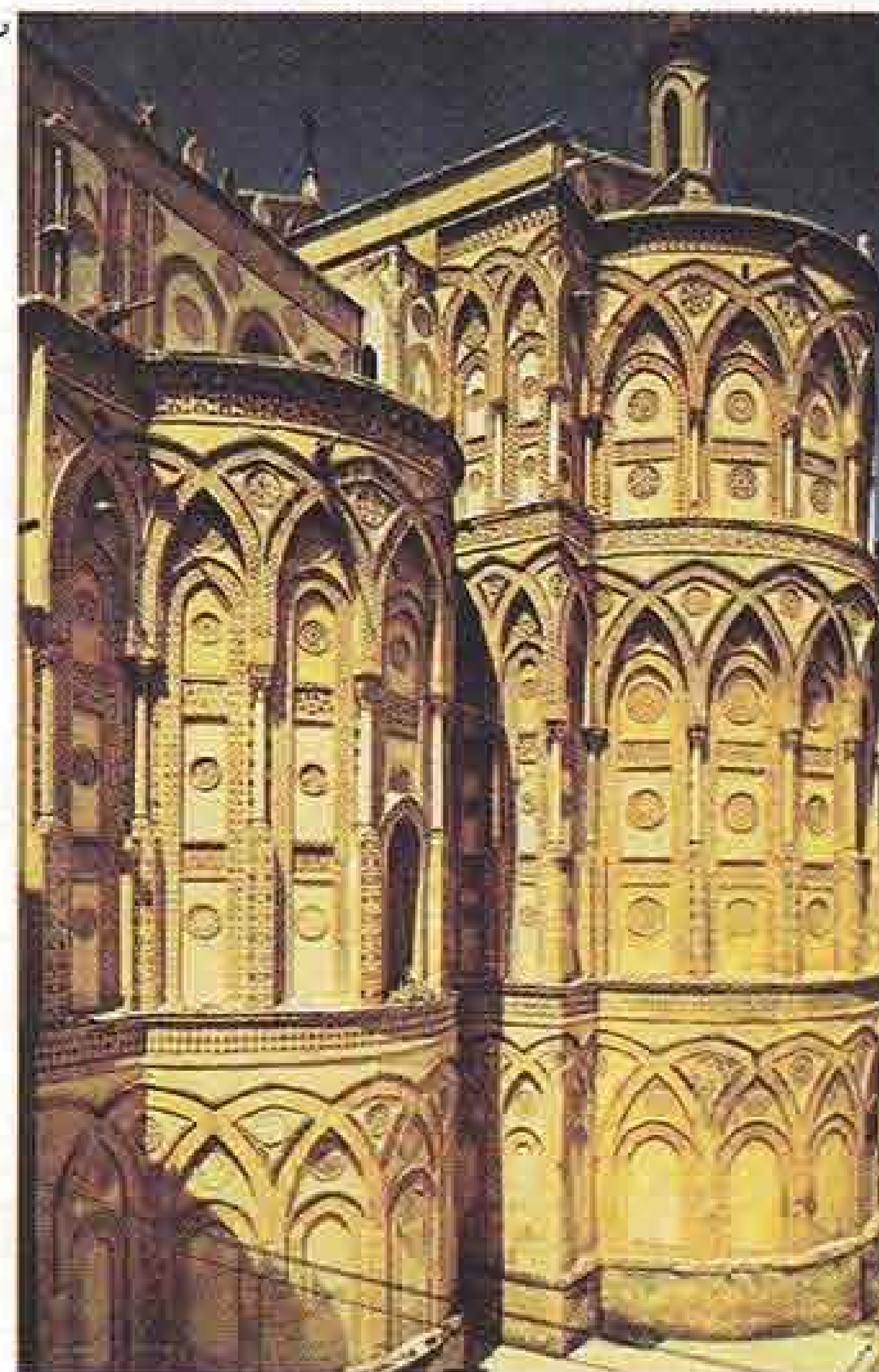


٤



الداخلية الضخمة (ب) . كان الاسلوب الدرامي هو الشائع في القسطنطينية آنذاك . غير ان اضطرار الفنان الى التقيد بالمواضيع التقليدية المعروفة جعل معظم جهوده تنصرف الى التفنن بتفاصيل الرسوم ودقائق الفسيفساء .

٥ أ



ب



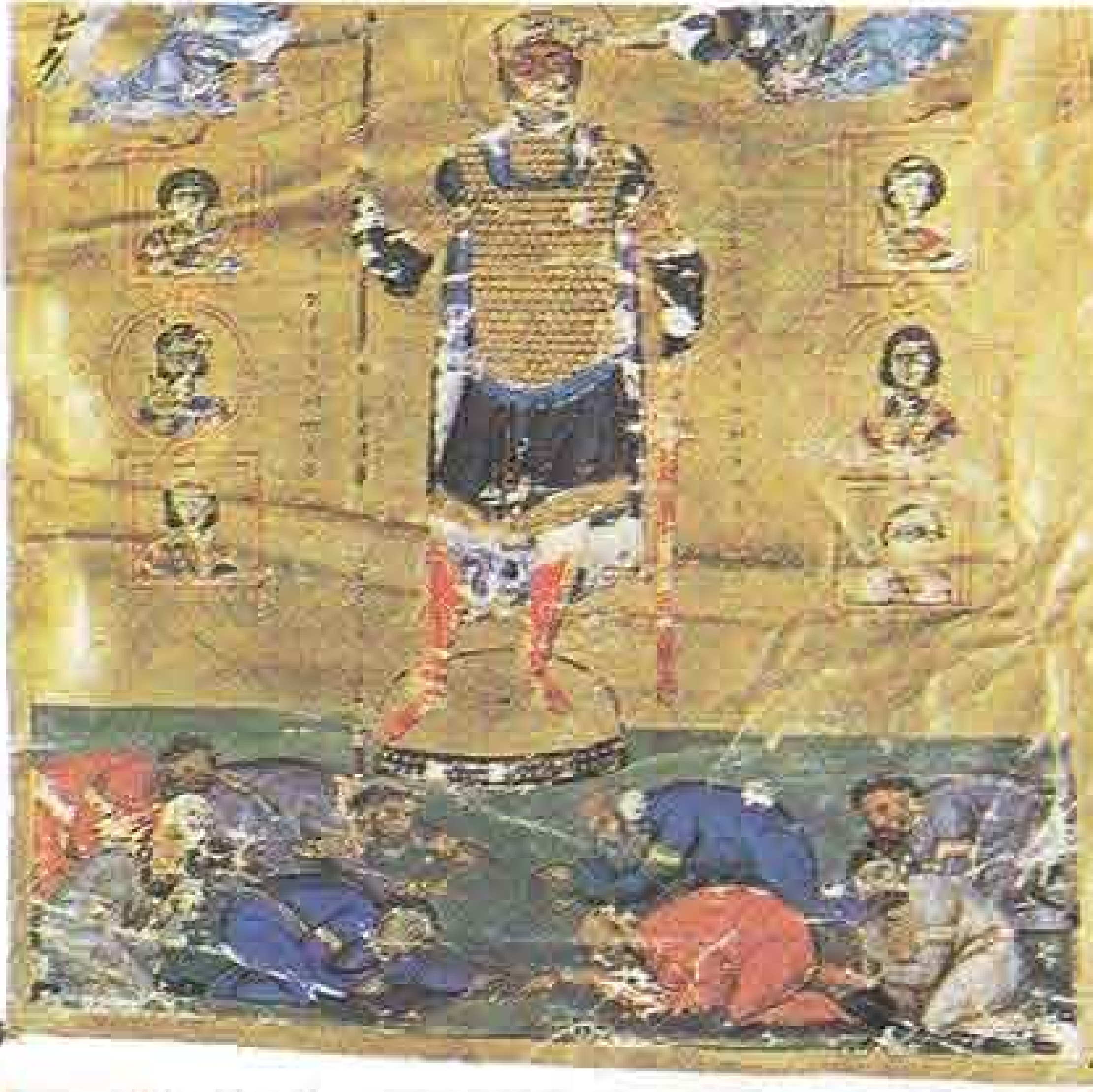
(حكم ١١٦٦ ـ ١١٨٩) لتكون كاتدرائية رهبانية تضاهي مركز أساقفة بالرمو . انها كنيسة لاتينية مع هيكل بشكل صليب يوناني مربع . تقوم الواجهة الشرقية المتعددة الألوان على التلّة التي تشاهد من بالرمو . « المسيح حاكم الكل » هو محور اللوحة الفسيفسائية

الشهداء المسيحيين في السماء .

ترجع انجازات الفن البيزنطي الكبرى الأولى الى عهد يوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥) الذي امتدت رعايته للفن من آياصوفيا في العاصمة (٢) الى قطع الفسيفساء في جبل سيناء (١) النائي . ثم جاءت « العصور المظلمة » التي تلت عصر يوستنيانوس ، والتي اصبحت فيها بيزنطة مهددة بخطر الغزو الدائم ، فتكاثر انتاج الأيقونات ، أو بالاحرى ، ازدهر تقليد تكريم الصور الخرافي والقديسين كشفعاء للفرد لدى الله تعالى . لكن الا باطرة المناوئين لهذا التقليد حاولوا ، من سنة ٧٢٦ حتى سنة ٨٤٣ ، فرض فن ديني غير تمثيلي للأشخاص ، شبيه بفن المجتمعين الاسلامي واليهودي في العصور الوسطى . الا ان بيزنطة استطاعت تخطي « العصور المظلمة » ، كما استطاع ذلك ايضا الفن المسيحي التمثيلي للأشخاص (الأيقوني) .



(٦) ـ « البشارة » جانب من أيقونة ذات وجهين محفوظة في المتحف الوطني في أوهريد ، يوغوسلافيا . تظهر في الأيقونة أيضا العذراء ، مخلّصة الأرواح . كانت هذه الأيقونة جزءا من رياش كنيسة قديمة ، هي كنيسة القديس اقليمنضوس اليوم . من الممكن أن تكون قد ارسلت من القسطنطينية ، ومن الأرجح انها رسمت حوالى ١٣٠٠.



(٧) ـ لكتاب مزامير بيزنطي فخم وقديم صورة غلاف رسمت في القسطنطينية بين سنة ١٠٠٨ و ١٠٢٥ تخليدا لذكرى انتصار باسيليوس الثاني على البلغاريين . في هذه الصورة يظهر الامبراطور الظافر يتوّجه المسيح وتسلّحه الملائكة وهو يدوس اعداءه المغلوبين تحت قدميه . تنمّ الصورة عن سلطة البيزنطيين وتعبر عن مفهومهم للسيادة .



(٨) ـ أعاد تزيين الخورا (كاري جامعي) بالفسيفساء في القرن الرابع عشر ثيودور ميتوخيتس ، باستثناء المعبد الجنوبي الذي احتوى على قبره في اطار مجصص . كان مرسوما على القبة مشهد « القيامة » (الظاهر هنا) حيث يرى السيد المسيح ينقذ آدم وحواء في عيد الفصح من الجحيم .



(٩) ـ مبنى « كاري جامعي » باسطمبول هو في الأصل دير الخورا . بني في القرن ١١ . حوّله الأتراك الى مسجد ، وهو اليوم متحف .

بعد انقضاء فترة « اللاأيقونية » ، احتفل الأباطرة المقدونيون (٨٦٧ - ١٠٦٥) بانتصار الكنيسة الرسمية ، وذلك بالعودة الى زخرفة الكنائس ، ابتداء بقباب آياصوفيا . كان التقدم في بيزنطة يعني بصفة عامة العودة الى عصور السلف ، فأعادت هذه الحقبة الى الحياة النمط الفني لعصر يوستنيانوس .

نصراء جدد للفن

لقد وصل الينا من فن السلالة الكومنينية (١٠٨١ - ١١٨٥) قدر أكبر مما وصل الينا من فن السلالة المقدونية . ففي عهد الكومنينيين ، انتقلت ثروة بيزنطة بشكل ملحوظ من أيدي الأباطرة والأبرشيات الى أيدي الملاكين الارستقراطيين والرهبنات .

كان للانشغاف بالألوان الذهبية والحادة فضل كبير في انماء مهارة لا تضاهى في صنع الفسيفساء . فكانت المكعبات الزجاجية (الملونة أو المصهورة مع اوراق الذهب أو الفضة) وقطع المرمر وحتى الأحجار الكريمة تزج الواحدة تلو الأخرى في أرضية الجص المغلفة لقباب الكنائس زجاً يجعلها تعكس النور . وكان المؤمنون البيزنطيون يجدون انفسهم في الكنائس محاطين باشكال ضخمة من الفسيفساء تتألق وهجا ذهبيا أثيريا .

تميز القرن الثاني عشر بأنه كان عصر تنقية وتطور للاشكال السابقة ، مع نمو الوعي الذاتي . فقد بدأ الفنانون في هذا القرن يوقعون اسماءهم على منتجاتهم الفنية . كان هناك أثران زخرفيان رئيسيان من الفسيفساء في اليونان يشعان في سماء تاريخ بيزنطة في القرون الوسطى ، هما أولا مشهد « الصلب » في دير القديس لوقا (٤) الذي يرقى الى الحقبة المقدونية ، مصورا « موت » المسيح كحدث بارز في تاريخ الكنيسة تعقبه « القيامة » ؛ وثانيا مشهد « الصلب » في دافني .

ابتكار أم تقليد ؟

لما كان الفنانون الكومنينيون قد اعتادوا تزيين الأجزاء المألوفة من الكنيسة (كالصليب المربّع في كنيسة مقببة مثلا) بمواضيع مألوفة (كحياة المسيح ومريم مثلا) ، فلم يكن من المنتظر أن تنمو الفردية لديهم من جراء ذلك . ففي مونريال (صقلية) مثلا (٥) كان لا بد لفناني الفسيفساء الذين ارسلوا الى صقلية أن يكيفوا مواضيعهم على بنيات أو مواد مختلفة ، لكنهم مع ذلك أظهروا براعة في التنفيذ أكثر مما اظهروا في الابتكار والابداع .

لقد ألحق الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١) اضرارا دائمة بالاقتصاد البيزنطي ، فتقلص الفن الباليولوجي (١٢٦١ - ١٤٥٣) من جراء ذلك حتى كاد يقتصر على صناعة المنمنمات . مع ذلك بقيت آخر مجموعة كبيرة من فسيفساء تلك الحقبة ، هي اثر « كاري جامعي » الذي أعد فيه احد النبلاء معبداً جنائزيا لنفسه (٩) .

بعد منتصف القرن الرابع عشر ، لم يعد ثمة ما يكفي من الثروة لتشجيع الفن في القسطنطينية ، فرحل عدد من الفنانين بحثا عن العمل الى مجتمعات أرثوذكسية أخرى ، كروسيا مثلا . ومع ان النتيجة كانت انتشار التراث البيزنطي ، فقد أدّى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ الى زوال الفن البيزنطي الخلّاق من الوجود .

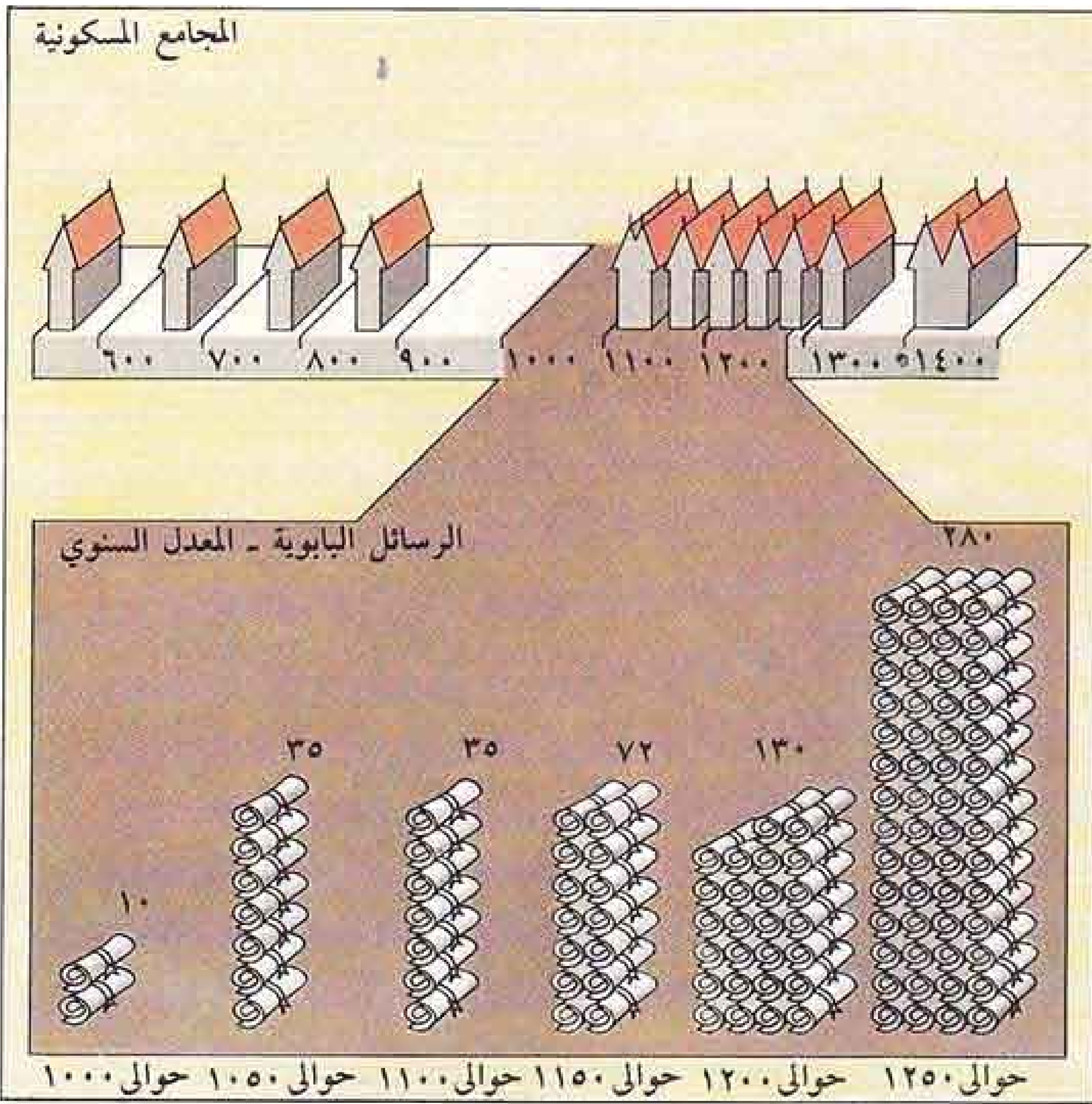
هيمنة الكنيسة في الغرب

شهدت السنوات الفاصلة بين اعتلاء غريغوريوس السابع السدة البابوية سنة ١٠٧٣ وبين انتقال الكرسي البابوي الى افينيون سنة ١٣٠٩ اهمّ انجازات الكنيسة المسيحية الغربية في العصور الوسطى على جميع المستويات.

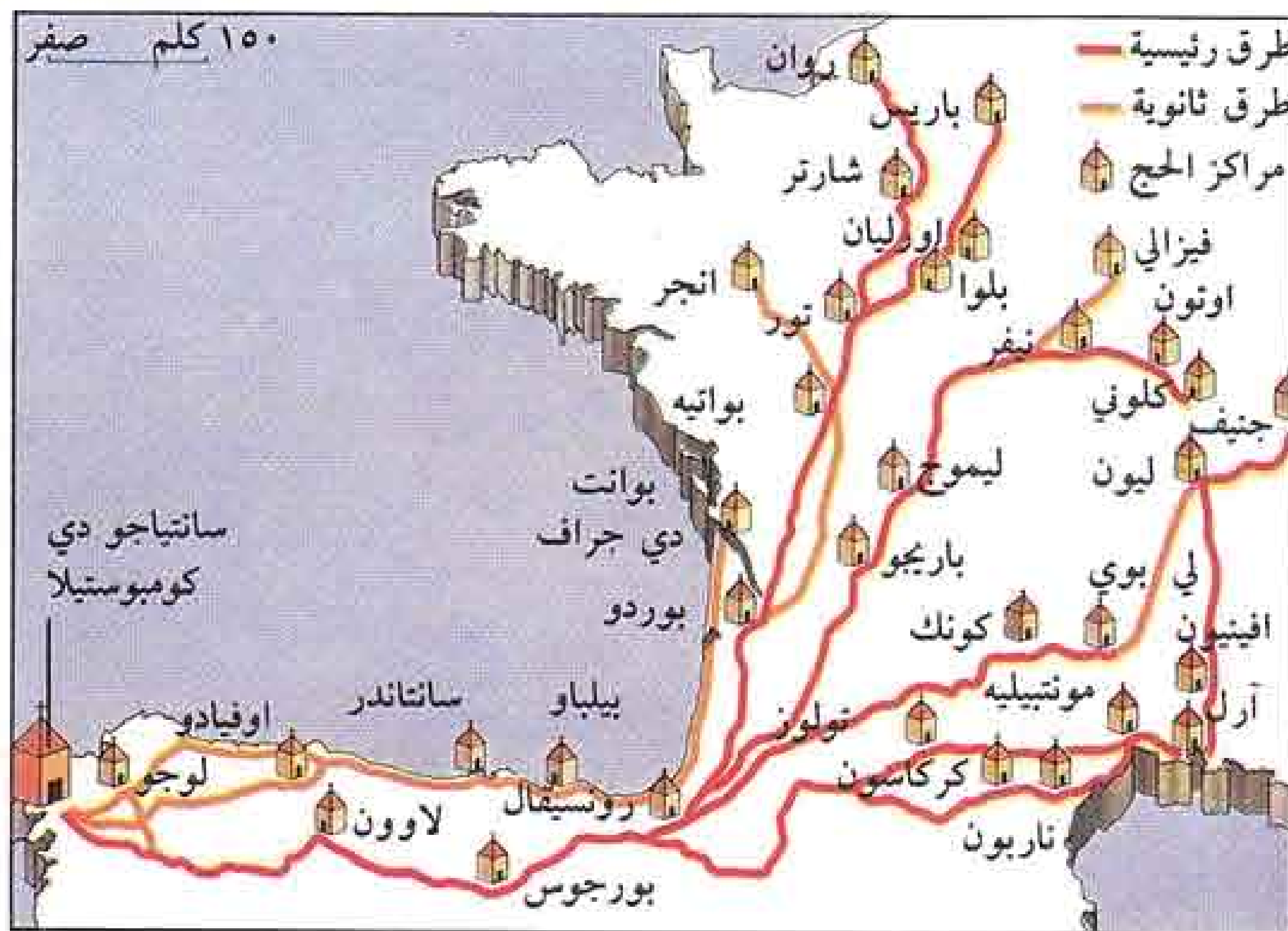
في تلك الفترة غدا من الممكن النظر الى العالم المسيحي الغربي كوحدة حقيقية. فقد كان له حوالى ٥٠٠ اسقفية تعمل جميعها كجزء من نظام بابوي دولي يتصاعد تنظيمه ونفوذه باستمرار. ووضعت المسيحية الرومانية القواعد الاساسية لحياة الفرد في المجتمع الاوروبي، وهي قواعد لم يستثنَ منها سوى اليهود. وشهد القرنان الثاني عشر والثالث عشر ايضا انتصار فني العمارة والزخرفة



(١) ـ تبين مجموعة مراسيم غريغوريوس التاسع، وهي المخطوطة التي أخذت منها هذه الصورة المصغرة، الأهمية التي كانت تسند في القرن الثالث عشر الى عقيدة «الاستحالة السرية». أصبحت هذه العقيدة التعليم الرسمي للكنيسة بانعقاد المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥) الذي فرض ايضا على المؤمنين واجب الاعتراف السنوي. شمل غريغوريوس التاسع الرهبنات الجديدة برعايته وأعلن مؤسسيها دومينيك وفرنسيس وانطوان قديسين.



(٢) ـ بلغت المجامع المسكونية، وهي اجتماعات لممثلي الكنيسة برمتها، ذروتها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. فعندما وطدت الكنيسة الرومانية دورها كسلطة دينية وكحكم في الأحداث السياسية، قويت مهمتها الادارية واشتد ساعدها، مما رفع من شأن المجامع المسكونية وشجع على الاحتكام أمام المحاكم الرومانية، وازدادت مراسلات «الكوريا» وهي مجموعة المناصب القضائية والتشريعية والادارية الخاصة بالمقام البابوي. فقد ارتفعت المراسلات البابوية، وهي سجل للتدخل الكنسي، من ١٣٠ رسالة خلال ولاية ادريان الرابع (١١٥٤ ـ ١١٥٩) الى ٣٦٤٦ خلال ولاية يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ ـ ١٣٣٤).



(٣) ـ كان الحج شائعا في العصور الوسطى. فكان المسلمون الأتقياء يتوجهون

القوطيين ، وهو انجاز لم يضارعه يومذاك سوى التنسيق الكامل للقانون وللمعرفة وللفلسفة ضمن اطار لاهوتي مسيحي على يد الفلاسفة « المدرسيين » لا سيما القديس توما الاكويني (١٢٢٥ ؟ - ١٢٧٤) .

سلطة الكرسي البابوي

كان من شأن الاصلاح الكلوني ، الذي برز على أفضل وجه في المجمع الفصحي المنعقد في روما سنة ١٧٠٤ ، والذي وضع اسسا صارمة لتعيين رجال الدين وسلوكهم ، انه حمل الكرسي البابوي في القرن الحادي عشر على الاقدام على خطوات مماثلة . ففي السنوات التالية ، حظَّر غريغوريوس السابع رسميا تعيين الاساقفة من قبل الحكام المدنيين ، مما أثار ليس حفيظة الامبراطور هنري الرابع (ملك ١٠٥٦ - ١١٠٦) ، فحسب ، بل الاستياء العام ايضا في جميع انحاء المانيا

٤



٥



٦



نحو مكة المكرمة ، كما كان المسيحيون الأبرار يؤمّون روما او كومبوستيلا او كانتربوري أو الأراضي المقدسة بفلسطين . كان الحج تتويجا لحياة دينية ناشطة ، وتجربة من تجارب العمر في الوقت ذاته . في اوائل العصور الوسطى ، كانت روما محور الحج المسيحي ، الا ان ظهور الذخائر المقدسة المشهورة تدريجيا في شتى أنحاء العالم الغربي أدى الى تكاثر المزارات الاقليمية ، وكان أشهرها مزار جسد الرسول يعقوب في كومبوستيلا باسبانيا .

(٤) - كان البلاط البابوي في افينيون مركزا انسب للحكومة البابوية من روما ، وهو دليل على ثروة ونجاح وثقافة البلاط البابوي في الاسر . بعد قرنين من التمتع بسلطة كبرى في روما دخل المقام البابوي مرحلة من الخضوع للحكام المدنيين عندما نقل عنوة من سنة ١٣٠٩ حتى ١٣٧٧ الى افينيون . كانت الغاية من هذا الانتقال ظاهريا حل الخلافات التي ضاقت بها روما ، ولكن تأثير الملكية الفرنسية على المقام البابوي ازداد في هذا المنفى .

(٥) - تبين هذه الصورة الجدارية انتصار الكنيسة ، كما كانت تراه عينا الفنان الفلورنسي اندريا دي بونايوتو في أواخر القرن الرابع عشر . توجد هذه الصورة في المعبد الاسباني بكنيسة سانتا ماريا نوفيلا في فلورنسا ، وهي تفسير من تلك الحقبة لتحول الكنيسة الى منظمة دولية واسعة ذات دور خاص في الادارة والتعليم الديني . سانتا ماريا نوفيلا كنيسة دومينيكية ، وتشدد الصورة على دور الأخوة الدومينيكان الذين عين عدد منهم كمفوضين دائمين لاستئصال الهرطقة ، وتلك كانت بداية دواوين التفتيش الكهنوتية في عهد غريغوريوس التاسع . يبدو الأخوة الدومينيكان هنا بمثابة « حراس الرب » .

(٦) - أدت مسألة « من يعيِّن الاسقف ؟ » الى شقاق بين البابوات والحكام الدنيويين . كان يقترن منصب الاسقف بثروة عظيمة وسلطة سياسية محلية ، وهي ثروة كان من مصلحة أي حاكم ان يلجأ اليها في مكافأة أو رشوة خادم نافع . في هذه اللوحة البرونزية ، التي تمثل الامبراطور اوتو الأول ، وهو ينصب الاسقف ادلبرت من مجديبورج سنة ٩٦٢ ، يبرز المنصب الامبراطوري في أقوى لحظاته . فهنا يبدو الاسقف الجديد يتلقى سلطته من الحاكم المدني لا من البابا .

وفرنسا وانجلترا (٦) . وحتمت المعركة التي نشبت عن ذلك على الكرسي البابوي ان يلجأ الى تبريرات قانونية مستفيضة لموقفه ، مما أدى في آخر الأمر الى تحويل المنصب البابوي الى مؤسسة ، وهو ما يتعارض كليا مع حركة الاصلاح الكلونية الأصلية .

ذهب البابا الى انه القاضي الأعلى والحكم الخلقي في المنازعات الزمنية . لذلك اصبح من الممكن في هذه الحقبة فقط لغريغوريوس السابع أن يذل الأمبراطور هنري الرابع في كانوسا ، ولذلك ايضا اضطر ملك انجليزي بقوة هنري الثاني أن يتوجه الى كانتربوري بقميص من الشعر ليكفر عن جريمة قتل توماس آبيكيت ، كما أرغم الملك جون (ملك ١١٩٩ ـ ١٢١٦) على تقديم خضوعه (وخضوع التاج الانجليزي معه) للبابا اينوسنت الثالث . وفي هذه الحقبة ايضا تمكن اينوسنت الرابع ان يقضي على

٧



٨ أ ب ت ث



(٧) ـ أحرق بعض اتباع أماريك من شارتر على الوتد في مطلع القرن الثاني عشر ، لاعتقادهم ان اولئك الذين يحبون الله يشاركون في كماله وانهم معصومون عن الخطيئة . تقليديا ، كانت المحافظة على العقيدة الرسمية من اختصاص الكنيسة . لكن دور السلطات الكنسية ، لا سيما الدومينيكان والفرنسيسكان ، كان يقتصر على استقصاء الهرطقة واثباتها ، بينما كان دور السلطات المدنية انزال العقاب باصحابها .

(٨) ـ ازداد عدد الرهبنات الدينية ازديادا كبيرا نتيجة للتقوى الشعبية والتعقيد المتزايد لتنظيم الكنيسة . فشدد المصلحون الكلونيون في القرن العاشر في تطبيق « القاعدة البندكتية » ، وكان الكارثوزيون (أ) الذين أسسهم القديس برونو سنة ١٠٨٤ ، والسيسترسيون أو « الرهبان البيض »(ب) يعيشون بحسب قواعد جديدة تشدد على فضائل انكار الذات والممارسة الدينية الصارمة جدا . وكانت « الأخويات »وهي رهبنات الدومينيكان (ت) والفرنسيسكان (ث) صنف جديد من الكهنة الذين كانوا يطوفون مختلف أنحاء أوروبا ، وهم لا يملكون عقارا ولا مالا ، بل يعتمدون على الاستعطاء لكسب رزقهم. لم تكن دعوة التزهد الأصلية التي نادى بها القديس فرنسيس بصورة شعرية مقبولة عند المقام البابوي ، لأن المؤسسات الضخمة القائمة بأداء مهمة دينية كانت بحاجة جماعية الى المال . لذلك على الرغم من معارضة بعض الرفاق الأوفياء للقاعدة الأصلية ، سرعان ما اقتنى « الأخوة » أملاكا جماعية .

٩



(٩) ـ هذه الصورة المصغرة للقديس برنارد من كليرفو (١٠٩٠ ـ ١١٥٣) ، وهو يرضع من ثدي مريم العذراء ، مأخوذة من كتاب سيسترسي للصلاة وضع في البندقية في القرن الخامس عشر . وهي تقوم شاهدا على احد بنود تعاليم القديس برنارد الرئيسية ، وهو التعبّد شبه العاطفي الذي كان يكنه لسيدتنا مريم .

سلالة الاباطرة الهوهنشتاوفن سنة ١٢٥٠ .

كان أقوى سلاح في يد الحكومة البابوية المجمع المسكوني ، وهو هيئة مؤلفة من جميع اساقفة العالم المسيحي الغربي ، لها صلاحية اتخاذ القرارات ، وتنعقد بدعوة من البابا وتحت اشرافه . عقد ما لا يقل عن سبعة مجامع من هذا النوع خلال السنوات ١١٢٣ - ١٣١٢ .

الادارة البابوية

كذلك ترعرعت « الكوريا » ، وهي الجهاز الاداري المركزي للفاتيكان ، فاستخدمت اكثر فأكثر كمحكمة دولية . وهكذا ما جاء القرن الثالث عشر حتى كان طابع الكرسي البابوي الكهنوتي قد تقلص أمام طابعه الزمني . فقد كان بعض البابوات ، مثل اينوسنت الرابع (حكم ١٢٤٣ - ١٢٥٤) قانونيين واداريين أكثر مما كانوا رعاة دينيين . كذلك انغمس الكرسي البابوي بصورة متزايدة في السياسة الدولية ، وهو تطور أدى بالنهاية الى نقله بالقوة الى افينيون على يد ملك فرنسا من ١٣٠٩ حتى ١٣٧٧ (٤) .

لكن ، خلافا للتعقيد المتزايد للادارة البابوية ، اجتاحت الرهبنات الدينية موجة من الاصلاحات ، بنيت جميعها على التقوى والبساطة والتقشف . فعلى الرغم من الاصلاحات الكلونية ، كانت الرهبنة البندكتية قد فقدت حماسها الروحي في مطلع القرن الثاني عشر ، فجاء قانون الرهبنة السيسترسية المدعو « وثيقة المحبة » لواضعه القديس اسطفان هاردينغ سنة ١١١٩ ، يطور « القاعدة البندكتية » ويجعلها تقوم مجددا على رفض الأبهة وعلى اختيار حياة التقشف بعيدا عن مراكز السكان . كانت الاستجابة لهذه الدعوة الصارمة من العبادة عارمة ، وبحلول سنة ١٢٠٠ ، كان قد تأسس ٥٣٠ ديرا سيسترسيا .

قامت عدة رهبنات جديدة أخرى في القرن الثاني عشر ، من رهبنات القانونيين الاغسطينيين الى رهبنات النساك والمضيفين والمنظمات الصليبية ، وفرسان الهيكل ومنظمات اسعاف المرضى والسجناء . لكن ذروة الاصلاح الكهنوتي كانت في تأسيس الأخويات (٨) . فكلا القديس فرنسيس الاسيزي (١١٨١ - ١٢٢٦) والقديس دومينك (١١٧٠ ؟ - ١٢٢١) فرضا على اعضاء اخويتيهما واجب أداء نذر الفقر التام ، بحيث لا يكون لا للافراد ولا للرهبنة بمجموعها أية أملاك . كان على « الأخوة » بطبيعة الحال ان يعيشوا من ثمرة أيديهم ، واذا اقتضى الامر على الاستعطاء ، وكان عليهم ان يعظوا الناس ويحثوهم على التقوى .

اضطهاد الهراطقة

كان اضطهاد الهراطقة هو الجانب الأبشع للادعاءات البابوية وللتطرف المتصاعد في ميدان الحياة الدينية (٧) . لقد ترك اليهود وشأنهم في هذه الحقبة على اعتبارهم من غير المؤمنين . أما الهراطقة ، فكان من الواجب باعتبارهم مارقين من الدين الصحيح اعادة تنصيرهم حتى بالقوة اذا اقتضى الأمر . كان بين هؤلاء الهراطقة الالبيجانسيون الذين نادوا بأن جميع الشؤون المادية والاجتماعية شر كلها ، مما كان يهدد كلا الكنيسة واستقرار المجتمع ، فقضي عليهم في غضون القرن الثالث عشر .

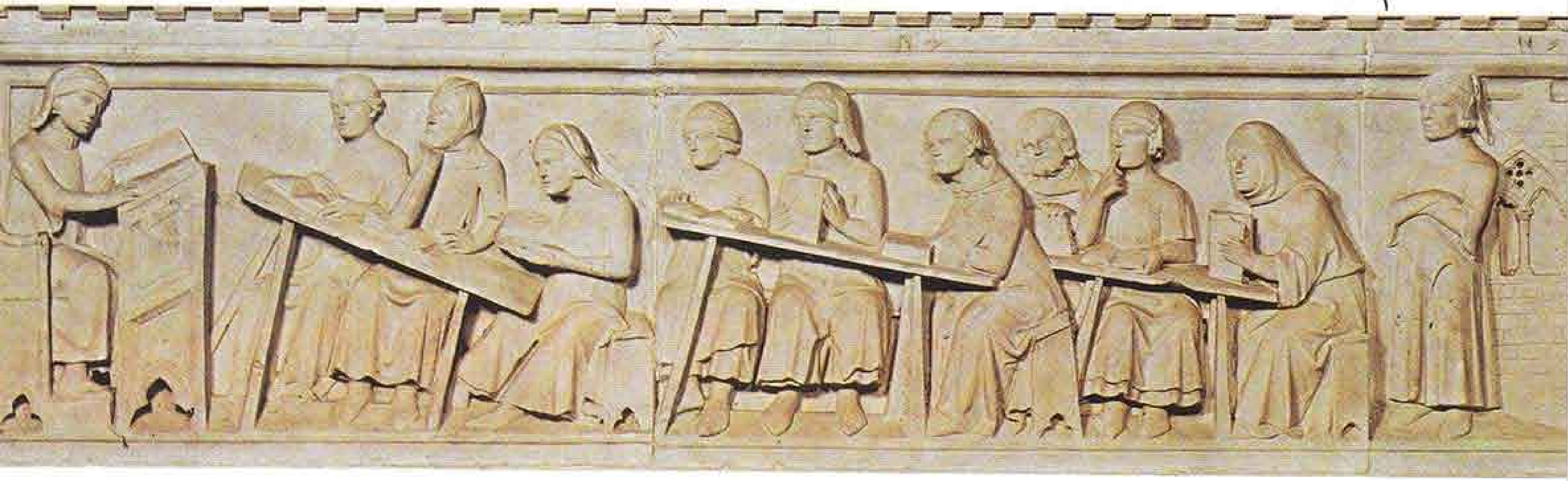
الحركة الفكرية في أوروبا في القرن الثالث عشر

بلغت السدة البابوية أوج عزها وثرائها وتماسكها في القرن الثالث عشر، وذلك في الفترة نفسها التي كان القديس توما الاكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ينهي فيها «الخلاصة اللاهوتية» (١٢٦٦ - ١٢٧٣)، أعظم أثر من آثار الفلسفة «المدرسية» (السكولاستيكية).

نشوء الحركة «المدرسية»

كان أعظم انجاز للفكر المسيحي في العصور الوسطى هو الفلسفة المدرسية، التي كانت عبارة عن نظام فكري شامل يستخدم منطق ارسطو (٥). فما ان اصبحت مؤلفات ارسطو متوافرة للعلماء الغربيين في ترجمات لاتينية عن العربية ابان القرن الثاني عشر

١



(١) - كان تشينو دا سينيبالدي محاميا وشاعرا تسكانيا شهيرا توفي سنة ١٣٣٦. كان قبره أحد المباني الايطالية الجنائزية العديدة التي اقيمت للاكاديميين، وهي تمثل غرف الدراسة في جامعات العصور الوسطى المتأخرة. تشهد روعة هذا القبر على الأهمية التي بدأ الايطاليون يمحضونها لاساتذة القانون المدني في المدن الايطالية. كان تشينو قد درس في جامعة بولونيا العظيمة، ومارس مهنته في بيستويا وروما وتريفيزو وفلورنسا وسيانا وبيروجيا. وكان تشينو صلة وصل بين اكاديميي القرن الثالث عشر المدرسيين وبين الاساتذة «الانسانيين» الذين قدر لهم ان يضعوا الاطار الفكري لعصر النهضة ابتداء من القرن الرابع عشر.

(٢) - اشتهرت بولونيا، وهي من أقدم وأشهر الجامعات الاوروبية، بكلية الحقوق التابعة لها. شهد القرن الثاني عشر ظهور النقابات الطلابية التي تحررت تدريجيا من قوانين المدينة. بحلول القرن الرابع عشر، كان لجامعة بولونيا نظام جامعي منظم أكثر من كل مدن ايطاليا.

(٣) - هذه الصورة الفرنسية المصغرة التي ترجع الى القرن الثالث عشر تمثل ارسطوطاليس وهو يعلم الاسكندر المقدوني اذ كان صبيا بعد. وهي مأخوذة من مجموعة «الكنوز» التي وضعها برونيتو لاتيني (١٢١٠ ؟ - ١٢٩٧) والتي هي ملخص للتاريخ والفلسفة والاساطير أنجزه سنة ١٢٦٥. كان تدريس الفلسفة يعتبر ضروريا في تربية الحاكم.

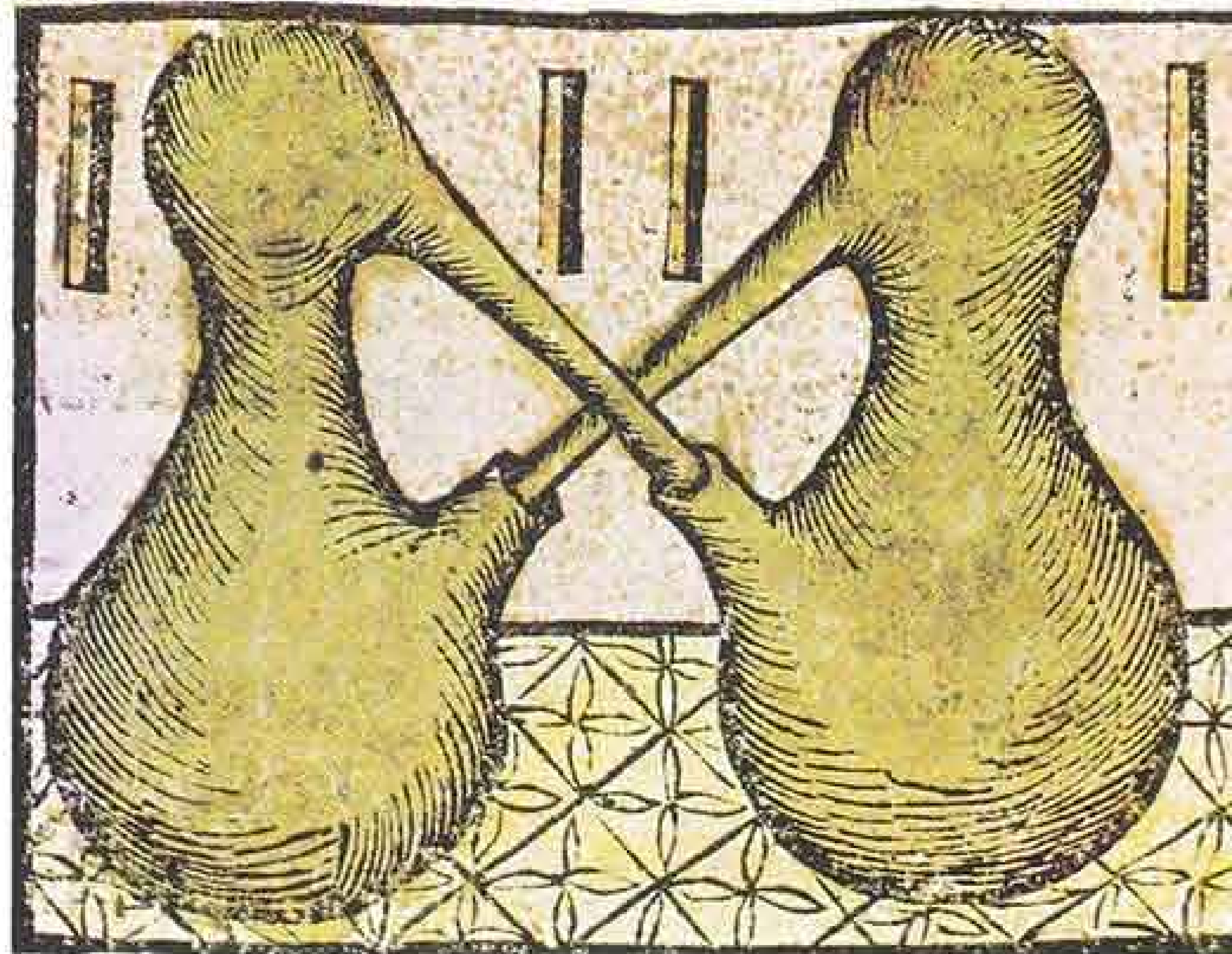
(٤) - كانت السيمياء علما زائفا في العصور الوسطى، مع ان الكثير من الجهد بذل في اجراء تجارب مستهجنة (مثل هذه التجربة التي كان يستعمل فيها انبيق مزدوج) في محاولة عقيمة لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب. فقد كان عدد من السيميائيين علماء أكفياء وضعت ابحاثهم الأسس للمعرفة اللاحقة. على غرار التنجيم، كانت أصول السيمياء، ترجع الى العصر الكلاسيكي القديم، وقد ازدهرت في القرن الثالث عشر جنبا الى جنب مع ابحاث علمية مفيدة سواء في حقل الرياضيات والبصريات أو علم الفلك.

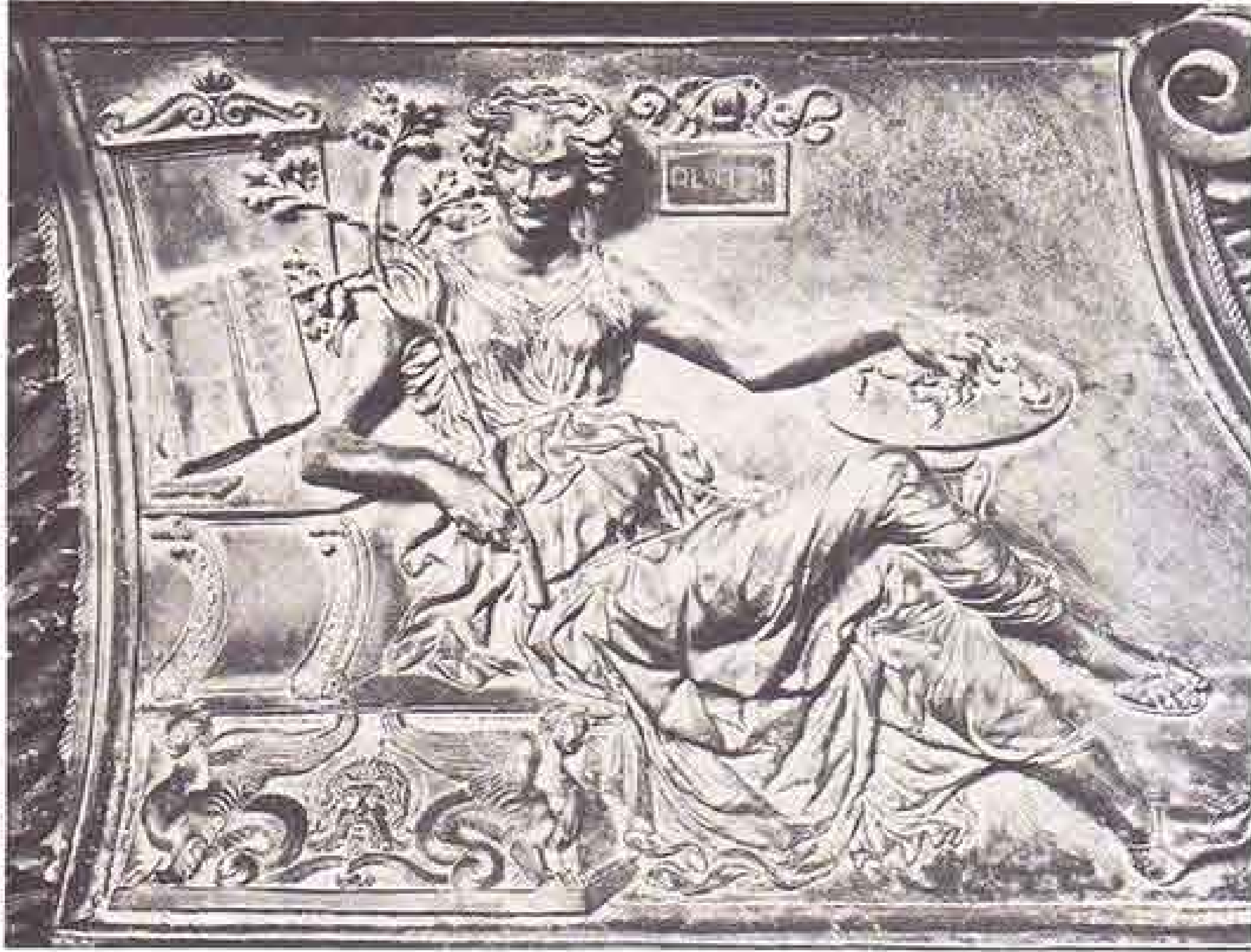
حتى طبقت طريقته التحليلية على جميع حقول البحث ، فكانت النتيجة ثورة في طرق التعليم ومحتواه ، وولدت نظاما متماسكا من الفلسفة واللاهوت وعلما فقهيا جديدا ، ووضعت أسسا أولى ، وان تكن ركيكة ، للعلم التجريبي .

عندما أصبح عدد متزايد من النصوص الفلسفية والعلمية اليونانية والعربية متوافرا في اوروبا ، أخذت مراكز التعليم تتحول من أديرة ومدارس اسقفية الى ضرب جديد من المنظمات الاكاديمية ، هي الجامعات (١) . كانت الجامعات في بادىء الأمر عبارة عن جمعيات او نقابات من الاساتذة والتلاميذ تشكلت في عدة مراكز مدنية كانت المعارف الجديدة متوافرة فيها . نشأت أقدم الجامعات في اوائل القرن الثالث عشر في بولونيا (٢) وباريس ومونبيليه ونابولي واكسفورد وكمبردج وتولوز وسلامانكا . أعطت هذه

٢


٣


٤


٥


(٥) ـ هذا الرسم الذي يرقى الى القرن الخامس عشر يرمز الى فن الجدل المنطقي. اضيفت الى الفضائل والرذائل المسيحية التي كانت ترسم على شكل بشري صور تمثل علوم الفلاسفة في القرن الثالث عشر . أول من صاغ فن الجدل وهو فرع من فروع المنطق يدور على قواعد الاستدلال هو ارسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) في بلاد اليونان .

المدارس الحـــركة المدرســية أســـمها (السكولاستيكية أي تعليم المدارس) .

كانت الدراسة في جامعة العصور الوسطى طويلة ومضنية ، تستوجب عادة من الطالب قضاء ست سنوات للحصول على شهادة « استاذ في الآداب » ، بعد دراسة المنطق والنحو والبلاغة والحساب والهندسة وعلم الفلك والموسيقى . أما الدكتوراه في اللاهوت ، وكانت أرفع انجاز أكاديمي ، فكانت تتطلب حوالى ثماني سنوات أخرى .

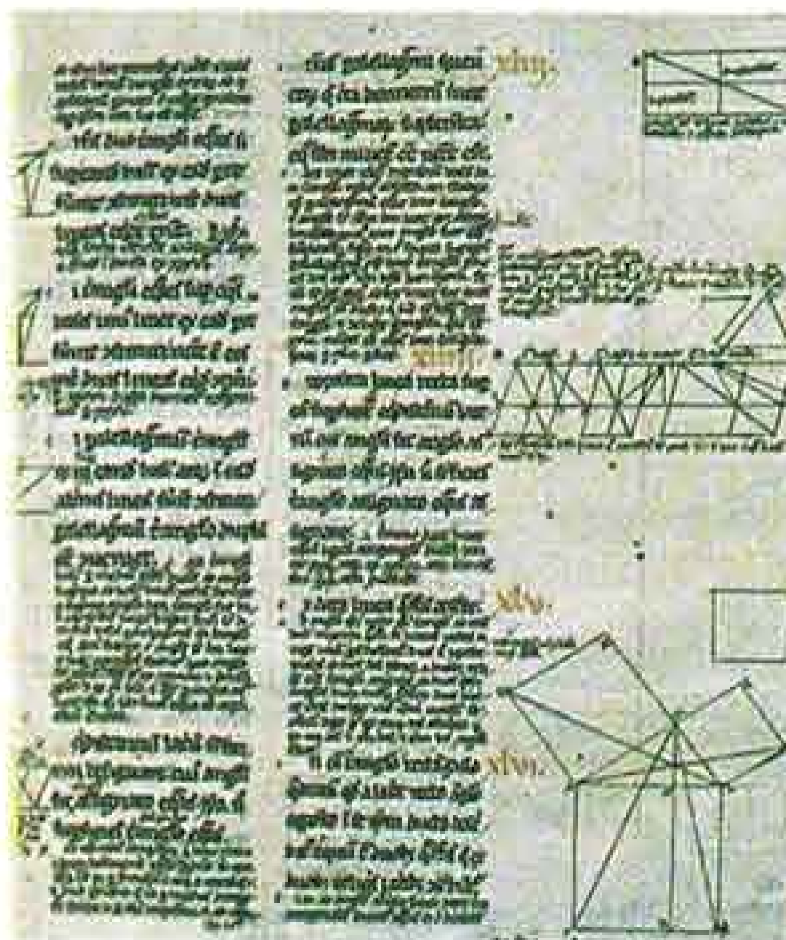
كان ذلك العصر عصر ترجمة ، اما عن اللغة اليونانية الاصلية ، أو عن النصوص والشروح العربية والعبرية . لقد تعرف الغربيون الى الكثير من علوم الكونيات والرياضيات والفلسفة القديمة من خلال آثار علماء عرب من أشباه الفارابي (توفي ٩٥٠) وابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) وابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) . وتدريجيا تعرفوا ايضا على كامل



٦



٧



٨

(٦) ـ في هذه الصورة المصغرة ، يظهر روجر بيكون العالم . وهي ترجع الى القرن الخامس عشر . كان فضوله العقلي يبدو بلا حدود تقريبا ، الا ان طرافة اهتماماته وأفكاره الجديدة أدت به آخر الأمر الى السجن .

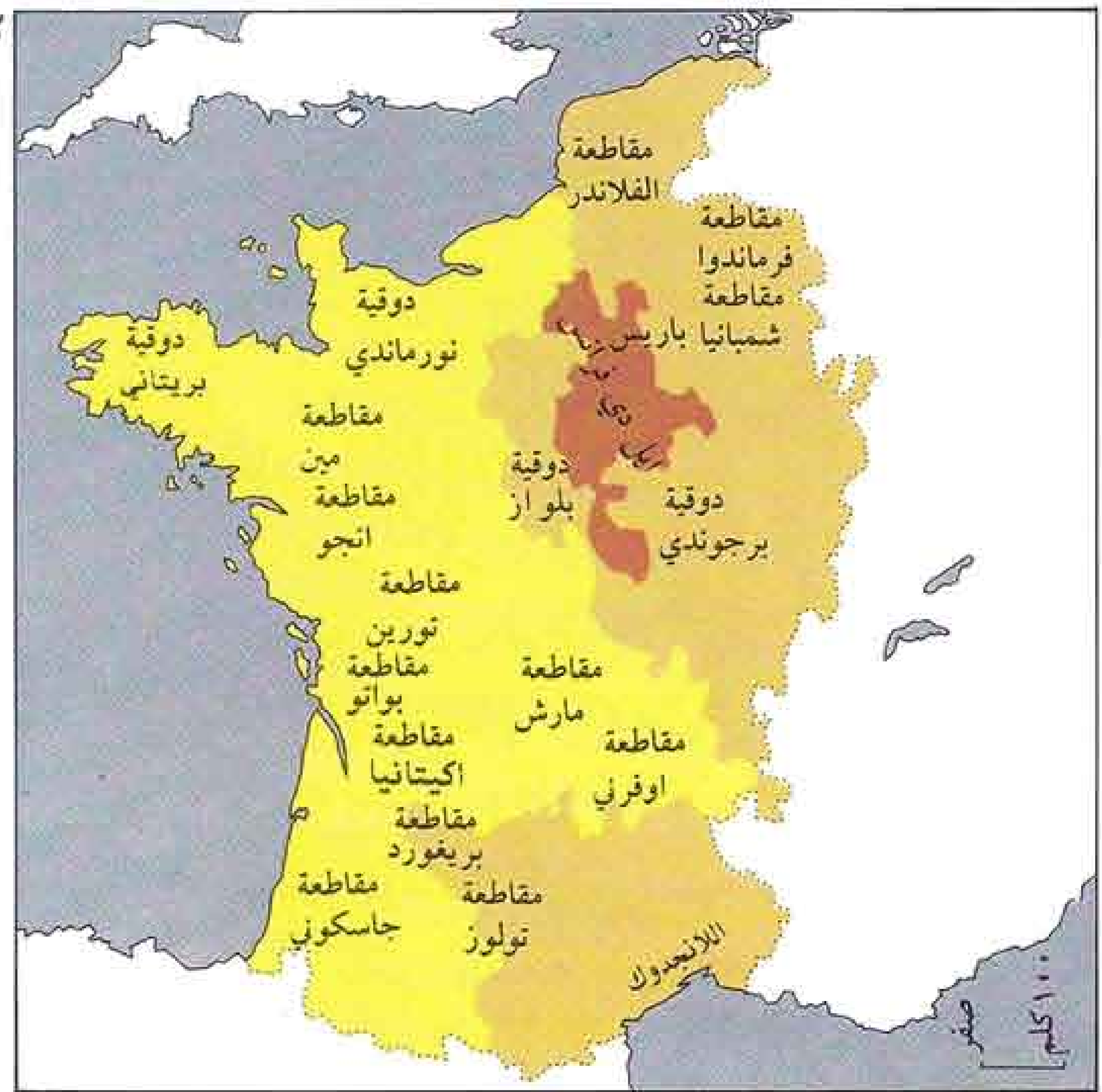
(٧) ـ كان القديس توما الاكويني أعظم معلمي الكنيسة في العصور الوسطى وأعظم شارحي الفلسفة المدرسية . حاول في الخلاصة اللاهوتية ، وهي أشهر مؤلف فلسفي في زمانه ، وضع نظام شامل متناسق لمعطيات العقل والوحي اصبح المرجع اللاهوتي الأعظم للكنيسة . لقد تعرضت تحاليله الارسطوطالية للنقد في بادىء الأمر ، الا ان اقواله اصبحت تعتبر فيما بعد تفسيرا مسيحيا بكل معنى الكلمة لوجود الانسان وأفعاله .

(٨) ـ لعبت الرياضيات ، على غرار المنطـق ، دورا في منهاج الفيلسوف المدرسي ، اذ كانت تكشف من خلال العقل عن الخطة الالهية للكون . كانت الرياضيات تتألف في العصور الوسطى كليا تقريبا مما أعيد اكتشافه من المعارف اليونانية في هذا الحقل ، وهو ما حافظ عليه ونقله الى الغرب العلماء المسلمون . هذه القضايا الفيثاغورية (الرسم) مستمدة من مؤلف يرجع الى القرن الثالث عشر .

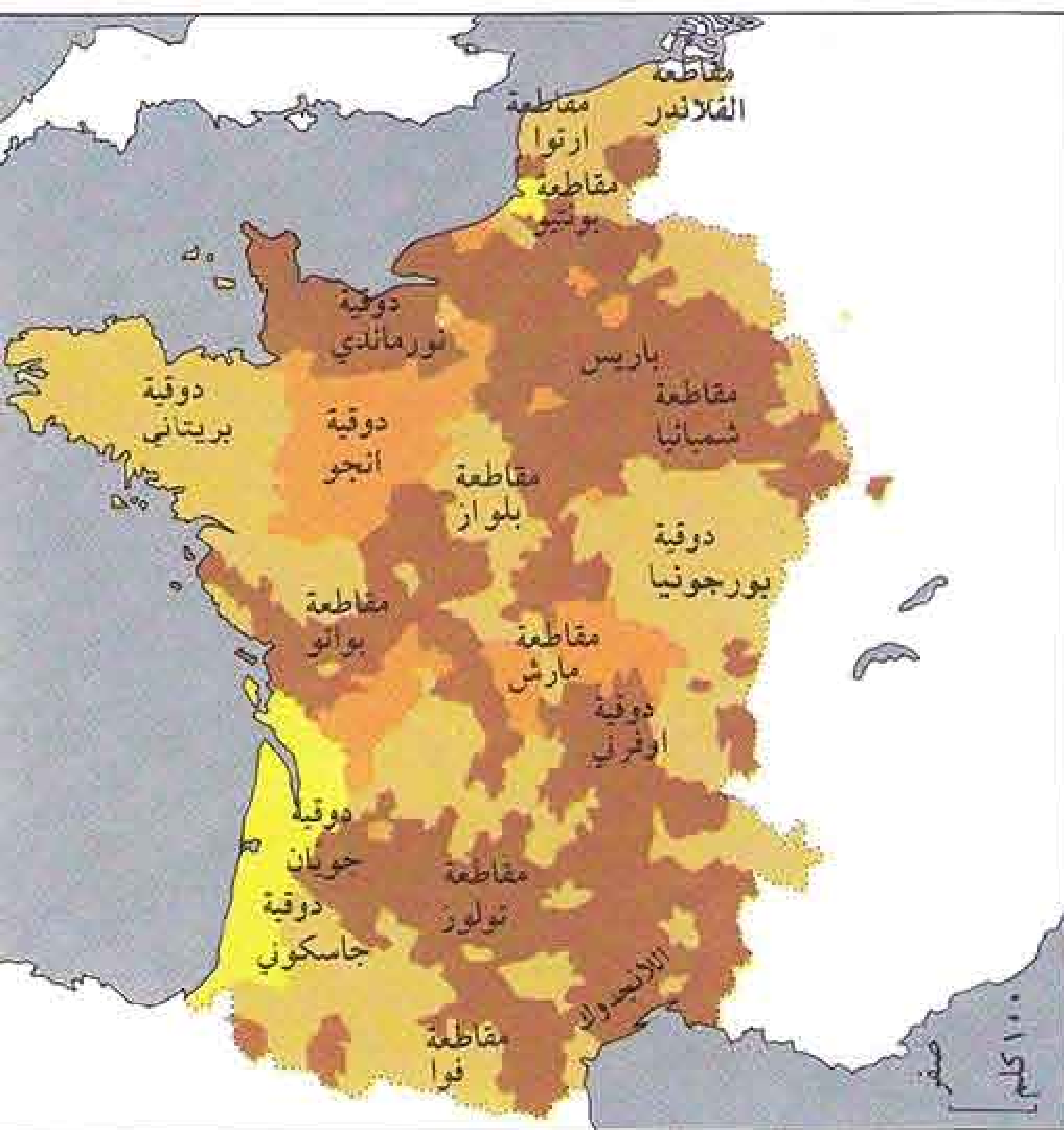
نشوء الأمة الفرنسية

من الممكن رد نشأة فرنسا الى اسرة كابيت في العصور الوسطى. انتخب هوج كابيت، وهو شريف اقطاعي كانت اراضيه تقع على نهر السين الأوسط، ملكا على الممتلكات الفرنكية الغربية في سنة ٩٨٧ وبقي متربعا على العرش حتى سنة ٩٩٦، حالاً بذلك محل الكارولنجيين. كانت فرنسا آنذاك جزءا من بلاد الغال، التي كانت تمتد من جبال البيرينه حتى نهر الراين، وكانت قد اصبحت، منذ الغزوات الفرنكية في القرن الخامس، خليطا من العناصر الجرمانية والكلتية والرومانية. من بين تلك العناصر، صعد نجم الشعوب الناطقة بالفرنسية، لكنها لم تتحد الا نتيجة لاتساع السلطة الكابيتية.

١



٢



المتلكات الملكية ١١٨٠
اقطاعات يملكها ملوك انجليز ١١٨٠
اقطاعات أخرى ١١٨٠

(١) - في غضون سنة ١١٨٠، كانت خارطة فرنسا تشمل اجزاء من بلجكا الحديثة، ولكنها لم تكن تشمل مقاطعات فرانش كونتي والدوفينه وبروفانس، التي كان يحكمها الامبراطور. ولكن حتى في المناطق الواقعة ضمن اطار السلطة الشكلية للسلالة الكابيتية كان عدد من المقاطعات خارجا كليا عن السيطرة الملكية الفعلية. كان المركز الحقيقي لسلطة الملك محصورا بين باريس واللوار. الى الغرب، كانت تقع ممتلكات منافسة من البلانتيجينت. لكن استولى على جميع هذه الممتلكات تقريبا فيليب اغسطس الثاني (حكم ١١٨٠ - ١٢٢٣).

(٢) - خلال سنة ١٣٢٨ كانت فرنسا قد امتدت الى ما وراء حدودها القائمة سنة ١١٨٠، ثم استولت سنة ١٣٤٩، على الدوفينه. داخليا، بسطت السلالة الكابيتية سلطتها على الممتلكات البلانتيجينية السابقة، وكان جميع الملاكين الاقطاعيين في بورجونيا وبريتاني واللانجدوك يعترفون بسلطتها، كما كان يعترف بها ايضا الملك الانجليزي في مقاطعة جويان. الا ان وجود ممتلكات فرعية عديدة وبيوتات شريفة كثيرة في ذلك الحين يدل على تهلهل السلطة الملكية، التي كثيرا ما كانت تضطر الى الرضوخ

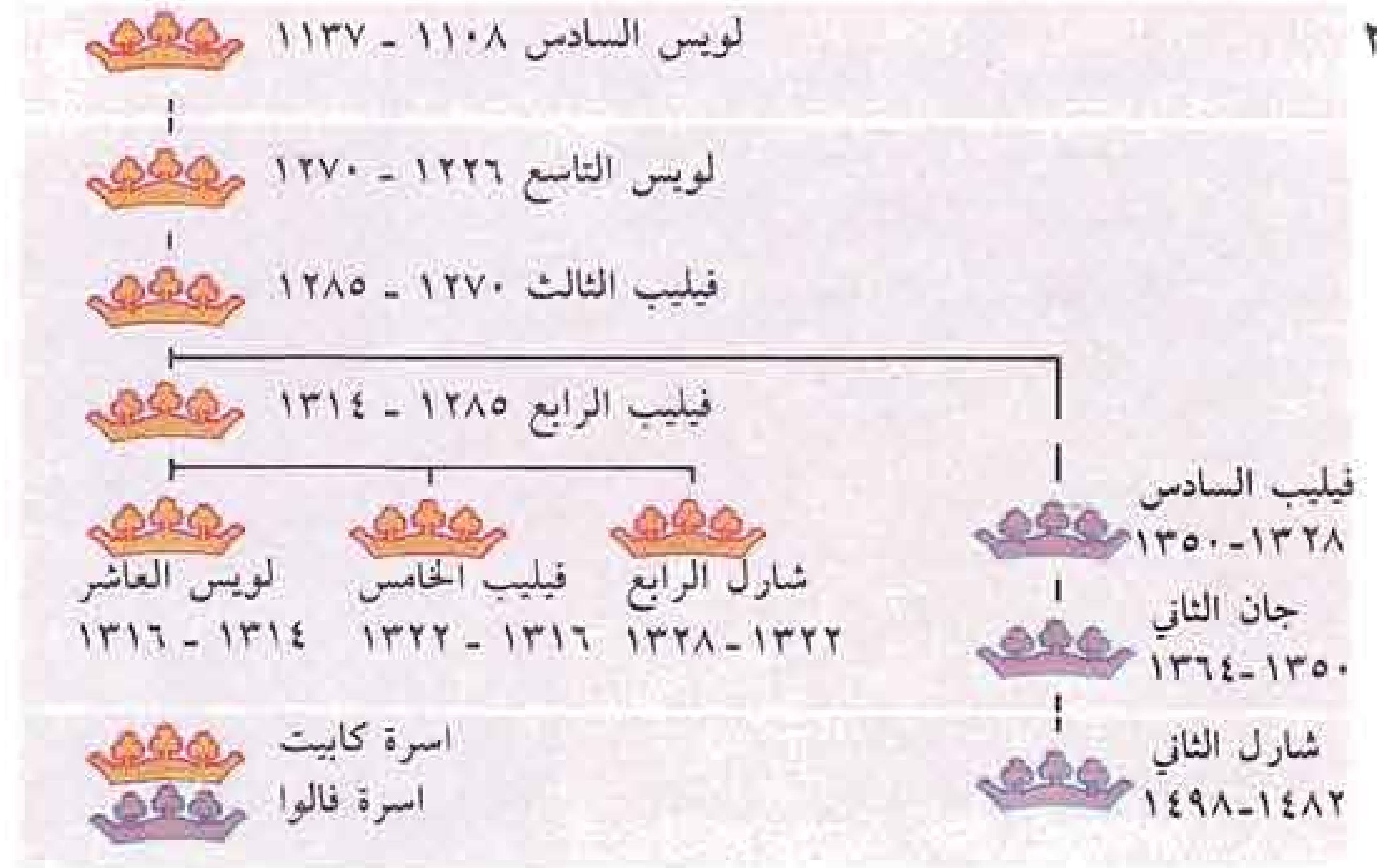
المتلكات الملكية ١٣٢٨
مقاطعات الأمراء الملكيين ١٣٢٨
اقطاعات يملكها ملوك انجليز ١٣٢٨
اقطاعات أخرى ١٣٢٨

كان الكابيتيون قد سيطروا اصلا على مساحة صغيرة تحيط بباريس واورليان ، متمتعين طيلة ٢٠٠ سنة بولاء رمزي فقط كان يكنه لهم عدد من الاشراف الاقطاعيين الأقوى منهم بكثير في فرنسا .

الملوك الكابيتيون

لم يكن للملوك الكابتيين أي اتصال تقريبا بمقاطعة أكيتانيا والجنوب ، بينما كانت في الشمال أسر قوية من الأشراف في نورماندي وانجـو والفلاندر وبورجونيـا تضاهيهم في الثروة والنفوذ . الا ان مصدر نفوذ الكابيتيين الحقيقي كان الاجلال الشعبي الذي أخذ ملوكهم يحاطون به بصورة متزايدة . فقد أخذ هؤلاء الملوك يبرزون تدريجيا كشخصيات مقدسة ، مسحت بالزيت المقدس الذي استعمله بادىء الامر القديس ريمي (٤٣٨ ؟ - ٥٣٣) « رسول الفرنكيين »

٣



٤



(٣) - تحدرت الملكية الفرنسية من خلال سلالة من الذكور من سنة ٩٨٧ حتى ١٨٤٨ . حوفظ على تعاقب الابن للأب المباشر بعناية حتى سنة ١٣١٦ . ثم انقطعت السلالة الكابيتية الاصلية كليا سنة ١٣٢٨ . حكمت آنذاك سلالة الفالوا حتى سنة ١٥٨٩ .

(٤) - وقعت جان دارك في الاسر في معركة كومبياني سنة ١٤٣٠ . ظهرت امام بلاط شارل السابع عندما كان نجمه في الحضيض سنة ١٤٢٩ . كان من شأن اقتباسها زي المرتزقة وطرقهم انه خلق الاستياء لدى البعض ، لكنه أثار حماس البعض الآخر . في آخر الأمر ، توصلت جان دارك الى تحويل مجرى الأحداث لمصلحة الملك الفرنسي شارل . حاكمها الانجليز سنة ١٤٣١ بتهمة الهرطقة وأحرقوها .

(٥) - كانت معركة بواتيه (١٣٥٦) (المأخوذة في الصورة عن مخطوطة ترقى الى القرن الخامس عشر) هزيمة كبرى للجيش الفرنسي . مع ان الانجليز كانوا أقل عددا تحت قيادة ادوارد « الأمير الأسود » ، فانهم شنوا في ذروة المعركة هجوما من وراء الخطوط الفرنسية . فلم يكن من الملك الفرنسي جان الثاني الا ان لاذ بالفرار . ولكنه وقع في الاسر مع ابنه فيليب ، ونقل الى انجلترا حيث قضى نحبه .

٥



لمطالب الزعماء المحليين . عدد من الأشراف التاج وفي الحروب اللاحقة ، حرض الانجليزي على التاج الفرنسي .

حوالى سنة ٤٩٧ وقت معمودية كلوفيس . احتفظ بهذا الزيت فيما بعد في ريمس داخل قارورة لم تكن لتجف قط (٦) . وكان يعتقد ايضا ان اللمسة الملكية تشفي من مرض السل اللمفاوي . وفي سنة ١٢٩٧ اضيفت هالة جديدة على اسرتهم عندما أعلن احدهم لويس التاسع قديسا وأصبحت روحه رمزا للتدين والوطنية معا .

تدريجيا ايضا ، بنى الملوك الفرنسيون سلطتهم السياسية على أساس متين من رخاء فرنسا المتزايد . فقد محضتهم ولاءها الكامل تلك الجماعات المزدهرة في المدن التي حظيت بتشجيعهم الفعال في القرن الثاني عشر . ثم اتسعت السلطة الملكية بصورة مدهشة الى ما وراء حدود الميراث الملكي الاصلي في عهد فيليب الثاني اغسطس (١١٦٥ ـ ١٢٢٣) . فقد استغل هذا الملك هبوط شعبية جون ملك انكلترا ليستعيد النورماندي

٦



(٦) ـ كان كأس التتويج في كاتدرائية ريمس رمز الملكية المقدسة . عوضت الملكية الفرنسية عن ضعفها الطبيعي بالاستعانة بهيبة قداستها الدينية . كان الملوك يمسحون بالزيت الذي كان يقال انه استعمل لدى معمودية كلوفيس ، أول الملوك الفرنكيين . كان الزيت يحفظ في قارورة تمتلىء مجددا بصورة خارقة لدى كل تتويج .

٧



كان الملك في نظر عدد من الناس شخصية دينية . وكان يقال ان الزنابق التي كانت تزين ترسه ظهرت اصلا بصورة عجائبية على ترس كلوفيس ، وان رايته (الشعلة الذهبية) عبارة عن الحربة الاسطورية الملتهبة لشارلمان ، ملك الفرنكيين .

(٧) ـ يبدو شارل الخامس ملك فرنسا ، في هذه الصورة ، يحتفي بالامبراطور شارل الرابع ، بمناسبة زيارته الرسمية لباريس سنة ١٣٧٧ . اصبح شارل الخامس (١٣٣٨ ـ ١٣٨٠) ، الذي اعتلى العرش في سن التاسعة عشرة ، واحدا من المع ملوك فرنسا في أحلك ساعاتها . بعد ان حد من سيطرة الانجليز على فرنسا الى درجة كبرى ، راح يتحالف مع حلفاء اوروبيين لطرد اعدائه من بلاده .

٨



(٨) ـ صنع ختم جامعة باريس سنة ١٢١٥ . بدأت الجامعة كنقابة للتلامذة في القرن الثاني عشر ، ثم خرجت في القرن الثالث عشر عددا من أنفع من خدموا التاج ، فضلا عن كبار الفلاسفة .

التي كانت واقعة تحت الحكم الانجليزي، ويبسط السلطة الملكية المباشرة على ممتلكاته الشاسعة التي كانت تمتد حتى جبال البيرينه. كذلك أدخل ابنه لويس الثامن (١١٨٧ ـ ١٢٢٦) السلطة الملكية الى قلب فرنسا الجنوبية (اللانجدوك) في اعقاب سحق الالبيجانيين هنالك على اثر الحملة الصليبية البابوية الموجهة ضد دعواتهم الهرطقية القائلة بان العالم من خلق الشيطان. أما لويس التاسع (القديس لويس) (١٢١٥ ـ ١٢٧٠) فكانت قوته ونفوذه عظيمين الى حد انه استطاع ان يتصرف كالحكم الفصل في جميع انحاء اوروبا. أخيرا بلغت فرنسا الأوج في عهد فيليب الرابع (١٢٦٨ ـ ١٣١٤) الذي دفع بالحدود شرقا الى مسافة بعيدة واخضع حتى الكرسي البابوي.

التغير في الحكم

أدى هذا التقدم الى نوع جديد من الحكم. فقد أخذ الملوك في القرن الثالث عشر يجذبون اليهم الأشراف المستقلين للانخراط في سلك خدمتهم، كما راحوا، بمساعدة طبقة من الرجال المثقفين من خريجي جامعة باريس (٨)، يؤسسون جهازا «للخدمة المدنية» مؤلفا من موظفين محليين يفصلون في قضايا النزاع ويجبون الضرائب في الأقاليم. في النقطة المركزية من ذلك الجهاز، كان يقع «البرلمان» في باريس، وهو أرفع محكمة في المملكة، «ومجلس المحاسبات» وهو دائرة مالية عليا. وكانت هاتان الهيئتان مؤلفتين من حقوقيين من طراز رفيع جعلوا عدالة ملوك فرنسا مثلا يقتدى به. وهكذا، بحلول سنة ١٣١٤، كان الملك الفرنسي يتمتع أكثر من أي حاكم أوروبي آخر بالثروة والاحترام والولاء.

اما ان سلطته بقيت محدودة بالرغم من ذلك، فهو أمر ثابت كشفت عنه أزمات القرن الرابع عشر. فحتى سنة ١٣١٤ كانت السلطة تتحدر، بحكم صدفة غريبة، دون انقطاع من الأب الى الابن. الا ان الذرية الكابيتية المباشرة انقطعت سنة ١٣٢٨، فآل التاج الى ابناء عمهم (الفالوا) (٣). لكن ملك انجلترا ادوارد الثالث (١٣١٢ ـ ١٣٧٧)، الذي كان قد التجأ الى بلاطه جميع المعارضين الفرنسيين، أنكر حق الفالوا بالعرش.

جان دارك، فتاة اللورين

بعد ان كانت اقدار ملوك فالوا في الحضيض، وكان الانكليز والبورجونيون يحكمون شمال فرنسا، عادت الملكية الفرنسية في جانبيها الشعبي والديني الى البروز مجددا في الأحداث الخارقة التي اقترنت باسم جان دارك (١٤١٢ ؟ ـ ١٤٣١) (٤). وفدت جان، وهي فتاة بسيطة من اللورين، على بلاط ولي العهد المخلوع شارل السابع (١٤٠٣ ـ ١٤٦١)، مبشرة اياه ان القديسين سيتدخلون بصورة عجائبية لنصرته ونافثة بذلك في قضيته روحا جديدة. في آخر الأمر أحرق الانجليز جان دارك، الا ان المصالحة التي تمت على اعقاب ذلك بين بورغوندي وشارل السابع في مؤتمر اراس (١٤٣٥) جعلت وضع الانجليز في فرنسا واهيا للغاية. وعندما انسحب الانجليز من فرنسا، وجدت الملكية نفسها راسخة الدعائم في قلوب رعاياها، ولم يتطرق الى وحدة فرنسا منذ ذلك التاريخ أي شك.

الأدب والدراما في العصور الوسطى

كانت اللاتينية لغة أوروبا الأدبية العامة في العصور الوسطى، وكانت تستعمل على نطاق واسع لوضع المؤلفات في الفلسفة وعلم اللاهوت والقانون والتاريخ، وحتى لكتابة الروايات والقصص الخيالية. ومع ذلك كان سحر الأدب التخيلي في العصور الوسطى يكمن في اللغة الدارجة أو المحلية. فقد جاء غزاة الامبراطورية الرومانية الغربية بثقافات ولغات وتقاليد اسطورية جديدة، حلّت في بعض الحالات محل تقاليد روما ولغتها القديمة، أو انصهرت فيها.

من الملحمة الى الرواية الخيالية

في البدء، تحدرت أساطير الألمان





(١) - كان الحب البلاطي أو العذري يدور حول مزايا المعشوق الروحية وجماله الفتان وما يقابل ذلك من تعبد العاشق له. يتمثل هذا الحب في هذه اللوحة التي ترجع الى اوائل القرن الخامس عشر. كان ممثله الرئيسي في باب الشعر كريتيان دي طروا، الذي أدخل موضوع «الكأس المقدسة» في الروايات الارثورية.

(٢) - وضع طوبوغرافية الجحيم الذي نزل اليه دانتي في «الكوميديا الالهية» بارتولوميو دي فروسينو حوالى ١٤٢٠. ومع ان موضوع الملحمة كان موضوعا لاهوتيا وفلسفيا رفيعا، فقد اعطت أبلغ صورة عن أشكال العذاب الذي كان الخطاة يقاسونه، لاسيما اولئك الذين كان دانتي نفسه يكرههم بوجه خاص. تكمن عبقريتها في التدرج صعدا من النمط الوصفي في الجحيم الى النمط الغنائي في المطهر، الى الصوفي الوجدي في الفردوس.

---

(٣) - استيلاء برونهيلدي، احدى فتيات الفالكيري، على الخاتم السحري في الاحتفال الجنائزي بحرق سيغفريد هو الخاتمة الدرامية لقصة «خاتم النيبلونغ»، وهي اعنف ملحمة

والسكنديناڤيين القدماء (٣) وملاحمهم وأدبهم الشعبي شفهياً عن طريق التلاوة في قاعات مآدب العظماء . كان تدوينها خطياً من الأمور النادرة ، وهذا ما يحول دون معرفة تطورها وأصولها بدقة . كذلك كانت بعض أحداث التاريخ المعاصر تنقلب أحيانا الى أساطير ، كما حدث للقصيدة الانجلوسكسونية « معركة مالدون » ، التي تروي قصة معركة مشهورة ضد الدنمركيين وقعت سنة ٩٩١ . على عكس ذلك كانت قصيدة « بيوولف » (حوالى ٧٠٠ ـ ١٠٠٠) النسخة الخطية لملحمة قديمة تدور على قتل التنين غرانديل ، كما كانت « الايدا النورسية » عبارة عن ملاحم تنتمي الى ذلك التقليد ذاته .

بحلول القرن الحادي عشر ، اختلطت هذه التقاليد الشعبية القديمة باهتمامات أدبية أخرى ، فوقعت المواضيع الغنائية والرمزية والغزلية والقصصية تحت تأثير حركات

٣



٤



٥



عاطفية من ملاحم الشعب الألماني . القصة من أصل بورجوندي فرنكي .

(٤) ـ رسم جان فوكه (١٤٢٠ ؟ ـ ١٤٨٠) احدى « روايات الاسرار » في العصور الوسطى في صورة مصغرة فريدة . في هذه الصورة يظهر مسرح مستدير تحيط به شرفات أو منصات . يبدو فيها الممثلون جلوسا فوق والمشاهدون تحت . نقلت المسرحية من داخل الكنيسة الى الخارج . ومع ان موضوعها وهو مشهد استشهاد ، يتم تمثيله على المنصة الوسطى المرتفعة ، نرى الملائكة والعرش والجمهور يختلطون بعضهم ببعض .

(٥) ـ يظهر حجاج كنتربري وقد بدأوا مسيرتهم في هذه الصورة المأخوذة من « قصص كنتربري » . كان كل حاج يسلّي الآخرين بقصة خلال الرحلة . في هذا الأثر الرئيسي الأول من الأدب الانجليزي جمع تشوسر حكايات قديمة في اطار جديد خاص بالعصور الوسطى . كما وضع صورة كاملة ومسلية جدا لعادات وطرق وأخلاق القرن الرابع عشر .

انبعاث يوناني روماني كلاسيكي في المحتوى والشكل ، كان يرافقها أحيانا حنين رومنطيقي متقطع الى ماضٍ غير كلاسيكي . وهكذا اجتاحت اسطورة أرثور أدب العصور الوسطى .

في مطلع القرن الثاني عشر ظهر نوع أدبي كان له تأثير كبير ، هو انشودة الحماسة الفرنسية . من أشهر نماذج هذا النوع « انشودة رولان » ، الملحمة الشعرية .

كذلك في هذا القرن ، حل محل الشعر الملحمي والقصصي الذي كان شائعا في العصور الوسطى الباكرة شعر الغرام البلاطي الذي كان أشهر ممثليه الشاعر الفرنسي كريتيان دي طروا (اشتهر ١١٦٥ - ١١٨٠) . فضلا عن ذلك ، جاءت في القرن الثالث عشر « رواية الوردة » (٦) ، وهي قصيدة ضخمة من النوع الرمزي ، بمثابة معارضة ساخرة للشعر الغرامي اللاتيني ، بينما جاءت قصيدة



٦



٧



٨

(٦) - بدأ غليوم دي لوري بكتابة « رواية الوردة » ، وهي أعظم قصائد القرن الثالث عشر ولكن أشدها غموضا . كي تكون رمزا للغرام . هنا (في الصورة) تتحدث « السيدة الطبيعة » مع « العبقري » الكاهن في حديقة مسوّرة . أضاف جان دي مون ١٧٠٠٠ بيتا الى الـ ٤٠٠٠ التي نظمها لوري ، ولكنه في معرض ذلك القى غشاوة على معاني الموضوع الأصلي .

(٧) - يحتل جوفاني بوكاتشيو مع دانتي وبترارك المكانة الأولى بين شعراء القرن الرابع عشر . تجلى انجازه الرئيسي في واقعيته القصصية البارزة في مؤلفة « ديكامرون » (١٣٤٨ ؟ - ١٣٥٣) ، وهو سلسلة واهية الارتباط من الحكايات المسلية ، وأحيانا السفيهة ، حول العادات والأخلاق المعاصرة . الا أن الكتابة بالايطالية كانت بالنسبة اليه تنازلا ، اذ كانت مؤلفاته الجدية مثل « النساء اللامعات » (١٣٦٠ ؟ - ١٣٧٤) مكتوبة باللاتينية .

(٨) - ترتيلة « لتفرح » (لتفرح اجواق السماء الملائكية الآن) هي احدى ترانيم عيد الفصح الكبرى . في شكلها الحالي ، كانت على الأرجح من وضع القديس امبروز الميلاني (٣٤٠ ؟ - ٣٩٧) مبتكر الترتيل الامبروزي الذي سبق الترتيل الغريغوري . كانت تكتب « لتفرح » على طوامير خاصة ، رسم عليها في أغلب الأحيان مشاهد من الحياة المعاصرة ، كما نرى في هذا النموذج الايطالي الذي يرقى الى القرن الحادي عشر .

« جاوين والفارس الأخضر » ، المنظومة بالانجليزية الوسطى ، نموذجا للشعر الخيالي الفروسي في القرن الرابع عشر . في هذه الأثناء كان الشعراء المتجولون البروفنسيون ، مثل برتران دي بورن (١١٣٥ ؟ - ١٢٠٧) والمنشدون الألمان مثل ولفرام فون اشنباخ (١١٧٠ ؟ - ١٢٢٠ ؟) وفالتر فون دير فوجلفايدي (١١٧٠ ؟ - ١٢٣٠) ، ينظمون شعرا جديدا منمّقا من الغزل البلاطي الرقيق كان ينشده مغنون وشعراء متجولون ، وهو يمثل ذروة الثقافة البلاطية في العصور الوسطى .

تطور الموسيقى والدراما

كذلك كانت قصائد الشعراء المتجولين تمثل نقطة التقاء بين التطورات المختلفة في الأدب والموسيقى في العصور الوسطى . في أوائل العصور الوسطى ، كانت الموسيقى مكرسة برمتها تقريبا لخدمة طقوس الكنيسة ، وكان يسيطر عليها الترتيل الغريغوري المعروف أيضا بالترتيل العادي . كان الابتكار الموسيقي العظيم في القرن الحادي عشر هو تعدد الأصوات أي التقابل بين جوقتين أو أكثر من الأصوات المتشابكة بصورة متناغمة . من أبرز ممثلي هذا النوع مدرسة نوتردام الموسيقية بباريس التي أنجبت في القرن الثاني عشر مؤلفين موسيقيين مثل ليونان وبيروتان .

انتصار اللغة الدارجة

بلغ فن الغناء في العصور الوسطى ذروته في القرن الثالث عشر في الترتيل ، وهو اخراج الشعر المنشود في ذلك السياق المتعدد الأصوات الذي سكب الشكل الموسيقي على شعر المنشدين والشعراء المتجوّلين . وفي ايطاليا ، ازدهر الشعر الغنائي في بلاط فريدريك الثاني الصقلي ، حيث امتزجت اللغة والمواضيع البروفانسية باللغة الايطالية الجديدة . وحدث تطوّر مماثل في غاليسيا والبرتغال في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وكذلك في شمالي فرنسا ، على يد روتبوف (نشط من ١٢٥٠ - ١٢٨٠) وأوستاش ديشان (١٣٤٦ - ١٤٠٦ ؟) وشارل دورليان (١٣٨٤ ؟ - ١٤٦٥) .

تميّز القرن الرابع عشر ببروز لغات أوروبا الحديثة كلغات أدبية حقيقية . في ذلك الوقت نفسه بدأ اكتشاف وتقدير اللاتينية واليونانية كأدب خيالي في بدء عصر النهضة ، فنظم الشعراء أمثال فرنسيسكو بيترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) بالايطالية واللاتينية على السواء . لكن بيترارك كتب باللغة الايطالية شعره الغنائي لتمجيد الشعر الغرامي والاعجاب بالطبيعة .

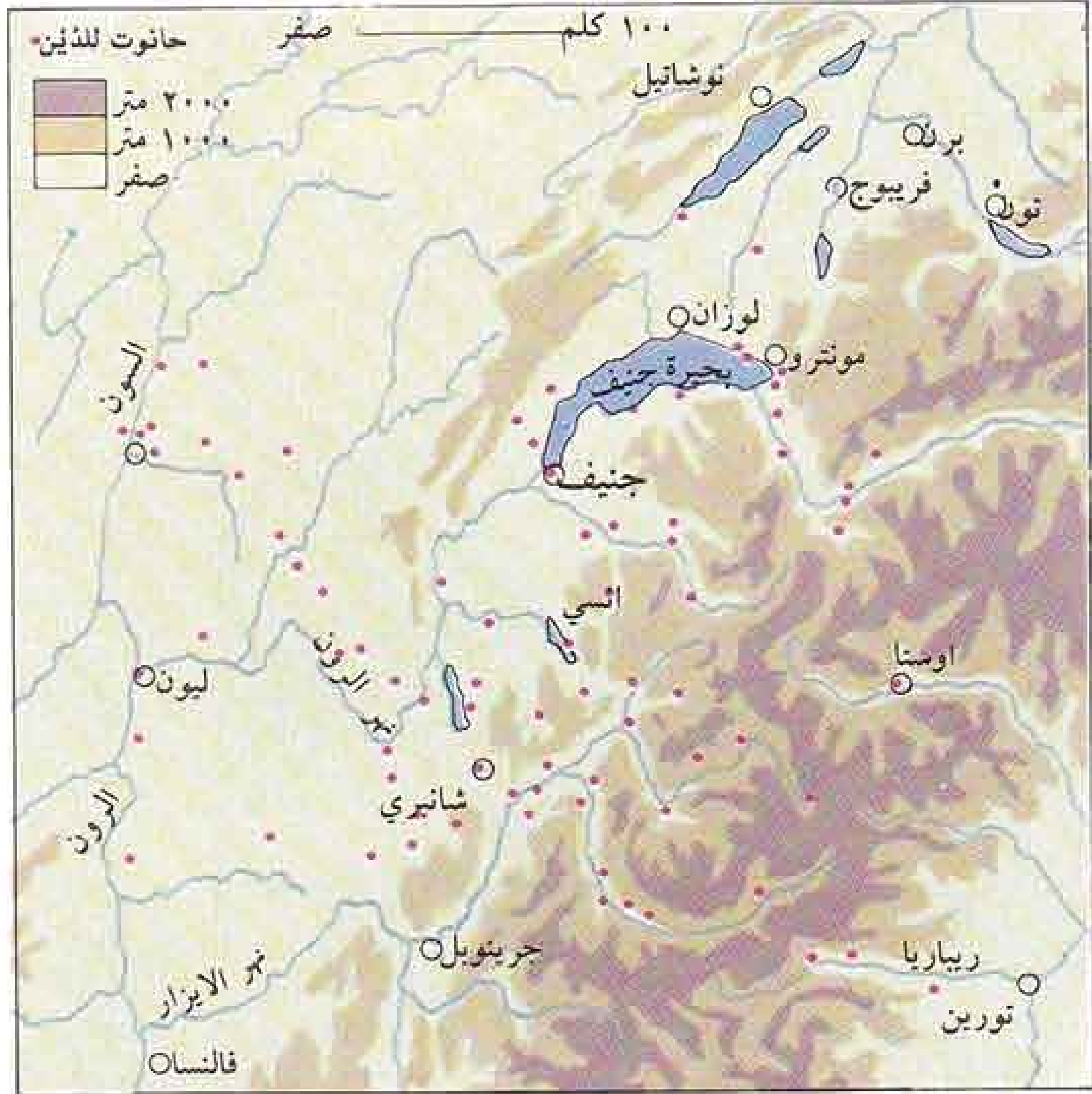
طوّر جوفري تشوسر (١٣٤٥ ؟ - ١٤٠٠) في « قصص كانتربري » (٥) وجوفاني بوكاتشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) في « الديكامرون » (٧) فن القصص على طريقة المجموعات الايطالية « للأقصوصة » و « حكايات البهائم الفرنسية » والقصة الفرنسية « اوكاسان ونيكوليت » . الا انهما اضافا بُعداً جديدا من الدعابة والخبرة مستمدا من المشاهد الحية . أما الرائعة الأدبية في أواخر العصور الوسطى ، فكانت « الكوميديا الالهية » لدانتي أليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١) ، وهي رحلة شخصية خيالية الى الجحيم والمطهر والفردوس .

المجتمع الأوروبي ١٢٥٠ - ١٤٥٠

حوالى ١٢٥٠ ، كانت قاعدة اوروبا الطبيعية كما نعرفها اليوم قد أرسيت . فقد كانت معظم المدن والقرى القائمة اليوم مسكونة آنذاك . ومع ان الغابات كانت أكثر اتساعا منها اليوم ، فمساحة الاراضي الزراعية كانت قد بلغت مرحلة توسعها القصوى . لكن خلال المائتي سنة التالية ، نشأت أزمات السكان والانتاج ، والتراوح بين الازدهار والجمود ، وتطوير التقنات في عالم المال (١ و ٤) والتجارة ومختلف الحرف . والأرجح ان الأزمة الرئيسية نجمت عن تزايد عدد السكان في القرن الثالث عشر .

فسجلات الضرائب تفيد ان عدد السكان في جنوبي انجلترا وفي بروفانس في فرنسا

١



٢



٣



(١) ـ كانت حوانيت الدائنين اللومبارديين ترى على مشارف أودية السافوا في جبال الألب في القرن الثالث عشر . وفي عدد كبير من أنحاء أوروبا وخصوصا في ايطاليا ، تحولت حياة الريف بفضل المال في هذه الحقبة . فتزايد السكان استوجب تطويرا سريعا لمختلف الأراضي الزراعية ، وكان المزارعون يحصلون على رأس المال الضروري عن طريق القروض بصورة خاصة . وكان الدائنون يقومون بعملياتهم في حوانيت أقيمت في المناطق الريفية .

(٢) ـ تقلصت مدينة فلورنسا الرومانية المحصنة خلال سنوات الركود في « العصور المظلمة » ، ولكنها نمت بسرعة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . انعكس حجمها الجديد وقوتها العظيمة في الأسوار التي اقيمت

تضاعف ابان ذلك القرن . كما امتدت بعض المدن القديمة ، مثل فلورنسا (٢) الى ما وراء اسوارها ، وتضاعف عدد ابرشياتها ، كما كانت مدن جديدة تؤسس في جميع انحاء أوروبا .

تزايد اعداد سكان المدن

في سنة ١٢٥٠ ، كان سكان اوروبا قد بلغوا حوالى ٧٠ مليونا . وتوحي البينات المستمدة من عدة مصادر بأن نسبة الزيادة التي طرأت على هذا العدد كانت حوالى واحد بالمئة سنويا . نتيجة لذلك أخذت الموارد الغذائية للقارة تشح . فقد بلغت الهجرة من المانيا الى أوروبا الوسطى والشرقية أوجها في القرن الثالث عشر ، في حين اصبحت الأراضي المجدبة والمساحات الهامشية في مرتفعات الألب والأبنين تستغل (٨) للمرة الأولى . وقد اقترن معدل أعلى للعمر بمعدل أعلى





لها في ١١٧٢ وفي ١٢٨٤ ـ ١٣٣٠. على الرغم من الصراع الحزبي الداخلي ، أدت مكانة هذه المدينة كمركز لصناعة الملابس وتجارة الصوف الى حقبة من الازدهار .

(٣) ـ في صورة « ميلاد المسيح » ، التي رسمها هوجو فان دير جوس (١٤٤٠ ؟ ـ ١٤٨٢) مستلهما حياة الفلاحين بلا شك ، تظهر على الرعاة تلك الفردية التي كانت تتميز بها حياة الفلاحين المطمئنة في تلك الحقبة والتي تجلت ايضا في الفن الشعبي .

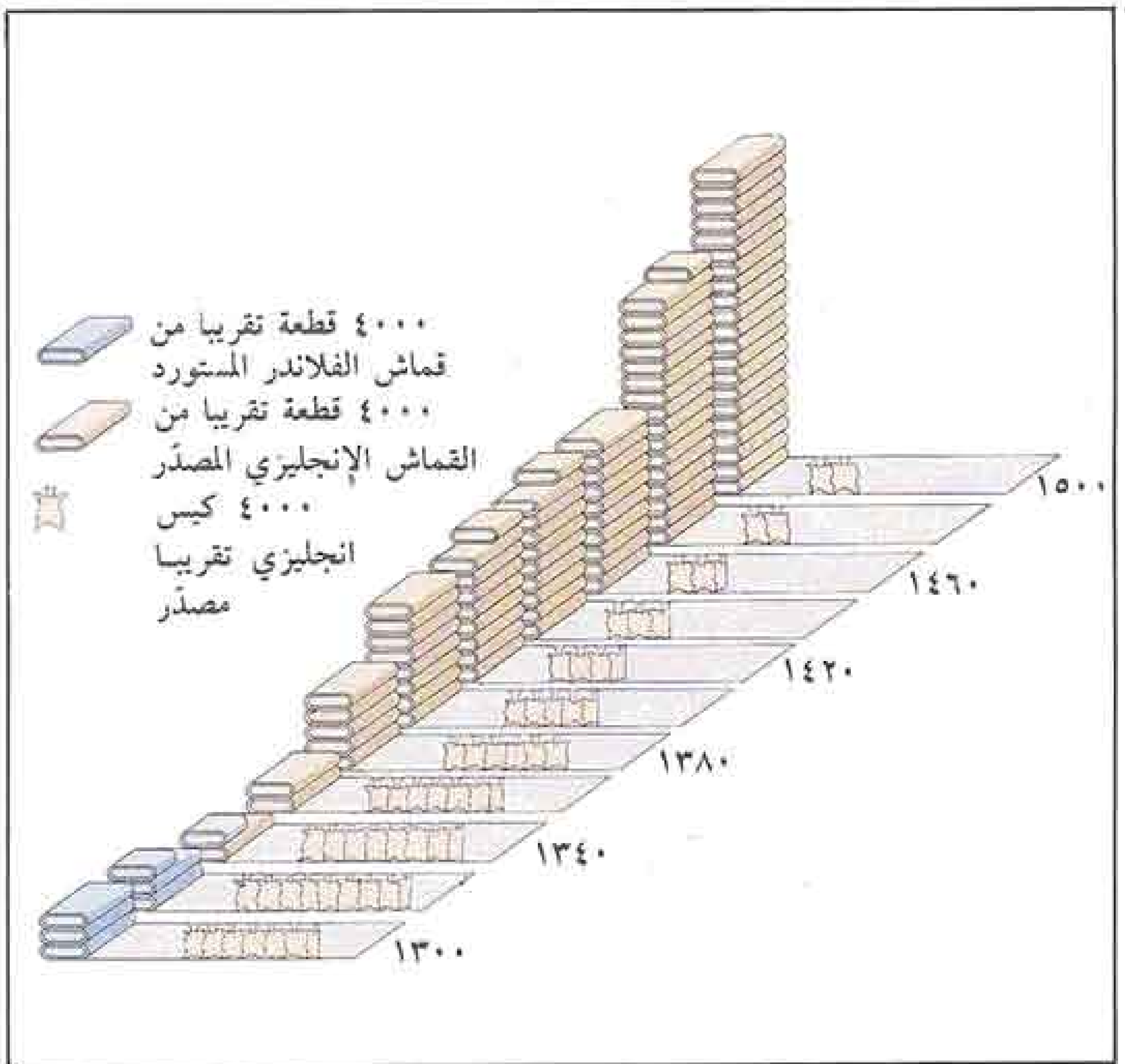
(٤) ـ تكاثرت النقود في اواخر العصور الوسطى بسبب نمو نظم اقتصادية قائمة على التجارة . فقد أعيد في القرن الثالث عشر سك العملة الذهبية التي كانت مجهولة تقريبا منذ القرن السابع . وقد قامت بذلك جمهورية البندقية . وعرف نقدها بالدوقة ، وجمهورية فلورنسا صاحبة الفلورين . هذه النقود (الرسم) ذات مظهر عادي تقريبا . وقد سكت سنة ١٣٥٧ ـ ١٣٦٧ ، بأمر بدرو الأول أمير قشتالة (أ) ، وسنة ١٣٩٩ ـ ١٤١٣ بأمر هنري الرابع ملك انجلترا (ب) ، وسنة ١٤١٩ ـ ١٤٣٤ بأمر كونراد الثالث حاكم ماينز (ت) ، وسنة ١٣٦٨ بأمر من جمهورية فلورنسا (ث) ، وسنة ١٣٥٠ ـ ١٣٦٤ بأمر من جان الثاني ملك فرنسا (ج) ، وحوالى سنة ١٤٢٠ ، بأمر من توماسو موتشينيجو ، ممثل جمهورية البندقية (ح) .

(٥) ـ عندما قام ماركو بولو برحلته الى آسيا سنة ١٢٧١ كانت البندقية (كما تخيلها الكاتب في هذه الصورة الملحقة بأحد الكتب) أشد الموانىء ازدحاما في العالم .

للولادة ليدفعا معا بالمجتمع الأوروبي الى انفجار ازمة سكانية كانت تتكون ببطء .

أدت هذه الظاهرة الى قيام اشكال اجتماعية جديدة ، أهمها ظهور المدن الضخمة التي حولت الحضارة الاوروبية تحويلا عميقا . فبينما لم يكن يوجد على الأرجح ، منذ الأزمنة القديمة ، مدن يزيد عدد سكانها عن ٤٠٠٠٠ نسمة ، أصبحت البندقية ونابولي وبرشلونة وبروج وباريس وبعض المدن الأخرى تفوق هذا العدد بمراحل . كذلك أخذ المهاجرون من أمكنة نائية يتوافدون على هذه المدن ليعملوا في صناعة المنسوجات في بروج او فلورنسا ، او في الحرف الأكثر تنوعا في لندن وباريس . فضلا عن ذلك ، أخذ مرفآن عظيمان يمدان أوروبا بمنتوجات الشرق هما البندقية (٥) وجنوة ، وكان التاجر البندقي ماركو بولو من اوائل الاوروبيين الذين يزورون الصين . من جهة

٦



٧

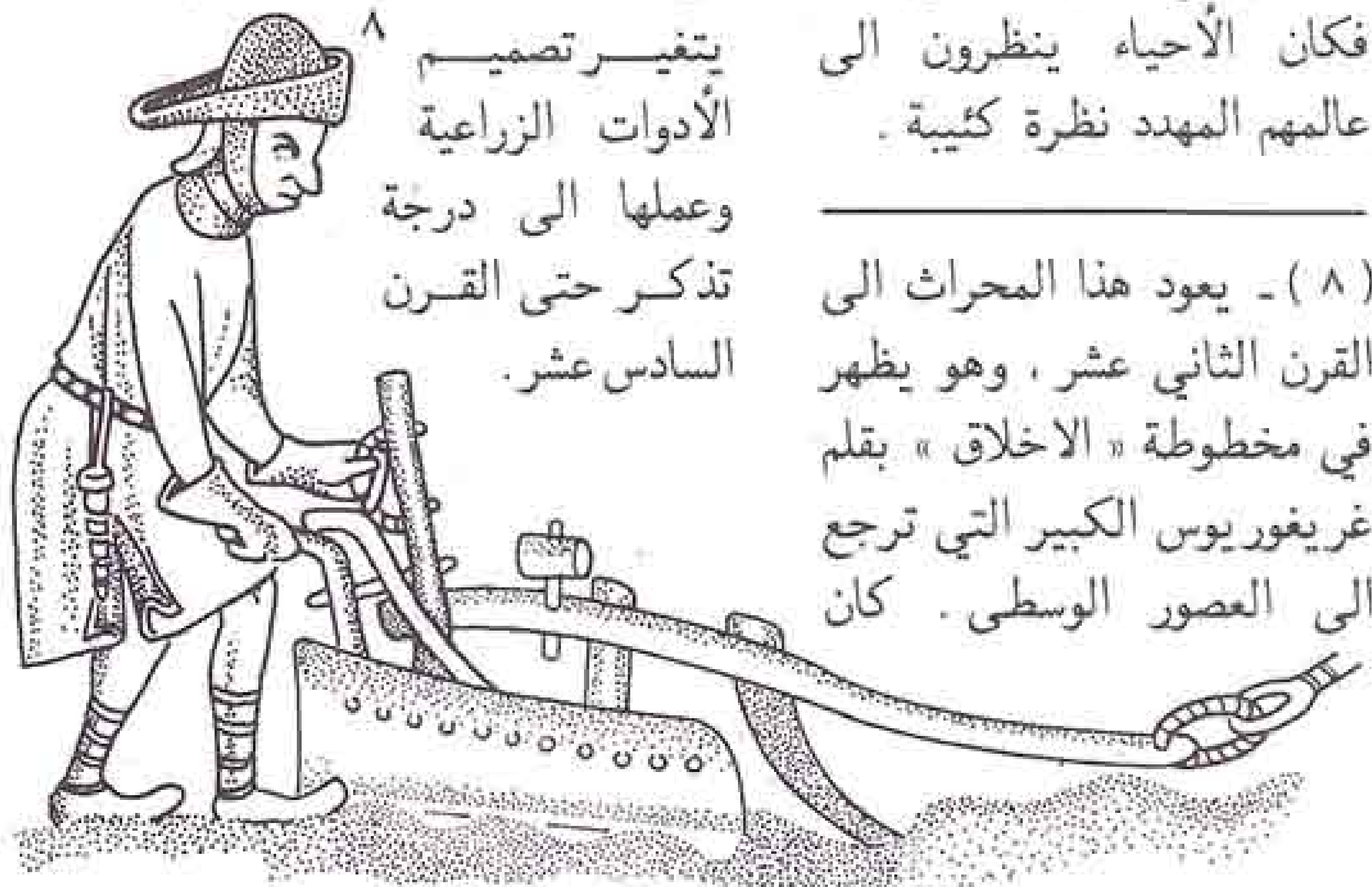


(٦) ـ تطورت تجارة الصوف الانجليزي بسرعة بعد سنة ١٢٠٠ . كان الصوف يرسل أصلا للحياكة الى منتجي القماش المعروفين في بروج وفلورنسا والمراكز الأخرى في فرنسا وفلاندر وايطاليا . الا ان احتكار هؤلاء انتهى بسبب التصدير المتزايد للأقمشة المصنوعة في انجلترا .

(٧) ـ رسم اندريا اوركانيا (١٣٠٨ ؟ ـ ١٣٦٨) صورة « انتصار الموت » بعد حلول كارثة « الموت الأسود » سنة ١٣٤٨ بفترة وجيزة . تمثل هذه الصورة بواقعية رهيبة آلام المرضى وهم يضرعون الى الله طلبا للتخلص من عذاب الطاعون . هيمن موضوع الموت وعدم استقرار حال البشر على الأدب والفن في اواخر القرن الرابع عشر . ولعل ذلك احد آثار كارثة الطاعون . « لم يبك الموتى أحد » ، كان يقول المؤرخ من أهل سيينا اغنولو دي تورا . « لأن كل امرىء كان يتوقع الموت بدوره » . فكان الأحياء ينظرون الى عالمهم المهدد نظرة كئيبة .

(٨) ـ يعود هذا المحراث الى القرن الثاني عشر ، وهو يظهر في مخطوطة « الاخلاق » بقلم غريغوريوس الكبير التي ترجع الى العصور الوسطى . كان القالب الخشبي والسكة مثبتين الى عمود تجره الثيران . لم يتغير تصميم الأدوات الزراعية وعملها الى درجة تذكر حتى القرن السادس عشر.

٨



أخرى الى الشمال ، احتكر حلف الهانزا ، وهو حلف قوي من المدن الألمانية الشمالية ، تجارة بحر البلطيق .

كان من الطبيعي أيضا ان تنشأ في المدن اشكال متنوعة من الأعمال المتخصصة . فقد أدّت اعمال المحاسبة والصيرفة المعقدة (التي كان أول ظهورها في بيزا وفلورنسا) وعمليات التأمين البحري (التي كانت من اختصاص البندقية) الى ظهور الشركات العالمية الأولى ، كشركة آل باردي الفلورنسيين التي اصبحت ، بواسطة عملائها في لندن وبروج ، أهم دائني التاج البريطاني . كذلك أخذ ترف افراد حاشية البلاط ورعاة الفنون المدنيين والمتأنقين من الناس يتناقض مع حالة الفقر المدقع الجديدة .

قرن من الكوارث

جعل سوء التغذية حشود السكان في القرن الثالث عشر فريسة يفتك بها المناخ السيء والجوع والأمراض بلا هوادة . ففي سنة ١٣١٥ ، عطل هطول الأمطار المتواصلة المواسم ، فاجتاحت سنتان من المجاعة انحاء اوروبا الشمالية . كذلك تزعزع استقرار الأسعار العالية والتجارة الرائجة في القرن السالف وبدا الاقتصاد كأنه قد نما باسرع مما ينبغي ، فأصيب من جراء ذلك كبار المغامرين ، وهم رجال المصارف الايطاليون ، بأقسى النكبات . ومما زاد الطين بلة أن التاج البريطاني ألغى سنة ١٣٤٣ الديون المتوجبة عليه ، فأدى ذلك الى ازمة انهار فيها آل باردي وكثير غيرهم .

لم تتوقف المصائب عند هذا الحد . ففي سنة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠ ، جاء « الموت الأسود » الرهيب ، وهو أولى موجات الطاعون الدقلي والرئوي المتكررة التي بقيت تفتك باوروبا حتى ١٧٣٠ . كان هذا الطاعون ، الذي نقلته الجرذان والبشر معا على السفن القادمة من القرم ، يقضي فورا على المصابين . وقد انتشر بسرعة من اوروبا الجنوبية الى اوروبا الشمالية ، تاركا آثارا هائلة . فقد ذهب فريسة له ٥٠ بالمائة من مجموع سكان اوروبا ، وفقدت بعض المدن في بروفانس اربعة اخماس سكانها ، كما ان بعض القرى اخليت نهائيا .

نتج عن هذه الكوارث اضطراب اجتماعي في المدن والريف معا . وللمرة الأولى ، عمد اهل القرى والمدن الى اللجوء الى تدابير عنيفة ضد الحكومات الفاسدة ، كما تشهد على ذلك فتنة جاكري في شمالي فرنسا (١٣٥٨) وثورة الفلاحين في انجلترا (١٣٨١) وفي كاتالونيا (١٤٠٩ ـ ١٤١٣) .

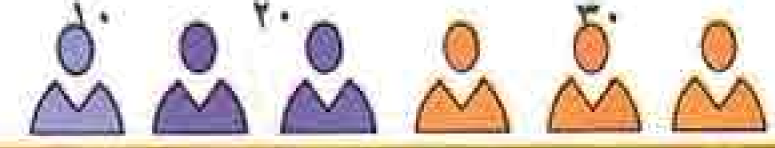
مستوى المعيشة

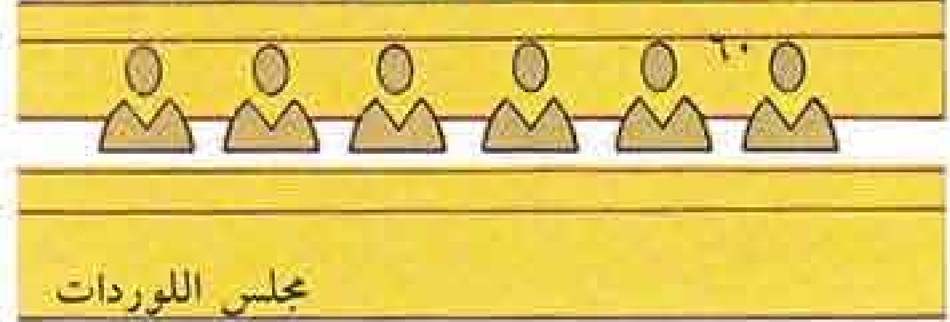
كانت هذه الفتن تعكس تطلعات الفلاحين المتصاعدة . ففي انجلترا تضاعفت معدلات الأجور ، بينما بقيت الاسعار ثابتة بين ١٣٥٠ و ١٤١٥ . كذلك كانت الفتن دليلا على حيوية وضعاء الناس (٣) واستقلالهم . فالتدني السكاني أدى لديهم الى مستوى اعلى من المعيشة ، واعطاهم فرصة لتحويل الأراضي الزراعية المستثمرة الى مزارع صغيرة . وبالاختصار ، فبعد قرن من الكوارث ، أخذ فلاح القرن الخامس عشر يقتفي اثر اصحاب المصارف والتجار المنتمين الى عصر ما قبل الطاعون في التمتع بقدر معيّن من الرخاء .

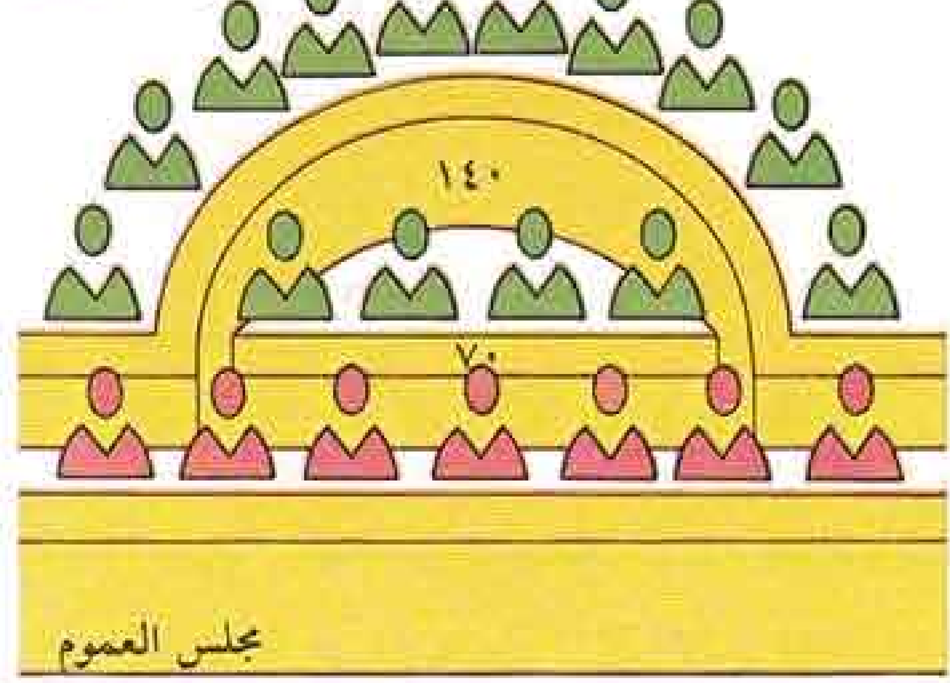
نشأة البرلمان

ليس للبرلمان الانجليزي بداية محددة ، ولكن من الجلي انه ظهر الى حيز الوجود في القرن الثالث عشر . في تلك الحقبة ، كانت لفظة « برلمان » تعني اجتماعا خاصا للمجلس الملكي ، بحضور القضاة ، بغية الاستماع الى الشكاوى المرفوعة الى الملك من قبل رعاياه . كانت « البرلمانات » الأولى عموما مناسبات لسماع قضايا قضائية بحضور مستشاري الملك او الأشراف والاساقفة ورؤساء الأديرة ، بحيث يتمّ فصل القضايا الخطيرة بأبهة أعظم مما لو تولى ذلك القضاة لوحدهم . بهذا المعنى كان البرلمان كناية عن شكل معدّل للمجلس الملكي القديم .

١







(١) ـ استقرت بنية البرلمان نهائيا تقريبا بعد سنة ١٣٥٠ . فأصبح من الطبيعي ، اذا دعي أحد الأشراف الى البرلمان أن يدعى اليه بصورة آلية . وغدا عدد من الفرسان وممثلي المدن يختارون بانتظام . لكن بعض المقاطعات والمدن لم تكن تبالي بايفاد ممثلين عنها . لذلك كان حجم « العموم » خاضعا للتغير . كان حضور اعضاء المجلس الملكي في

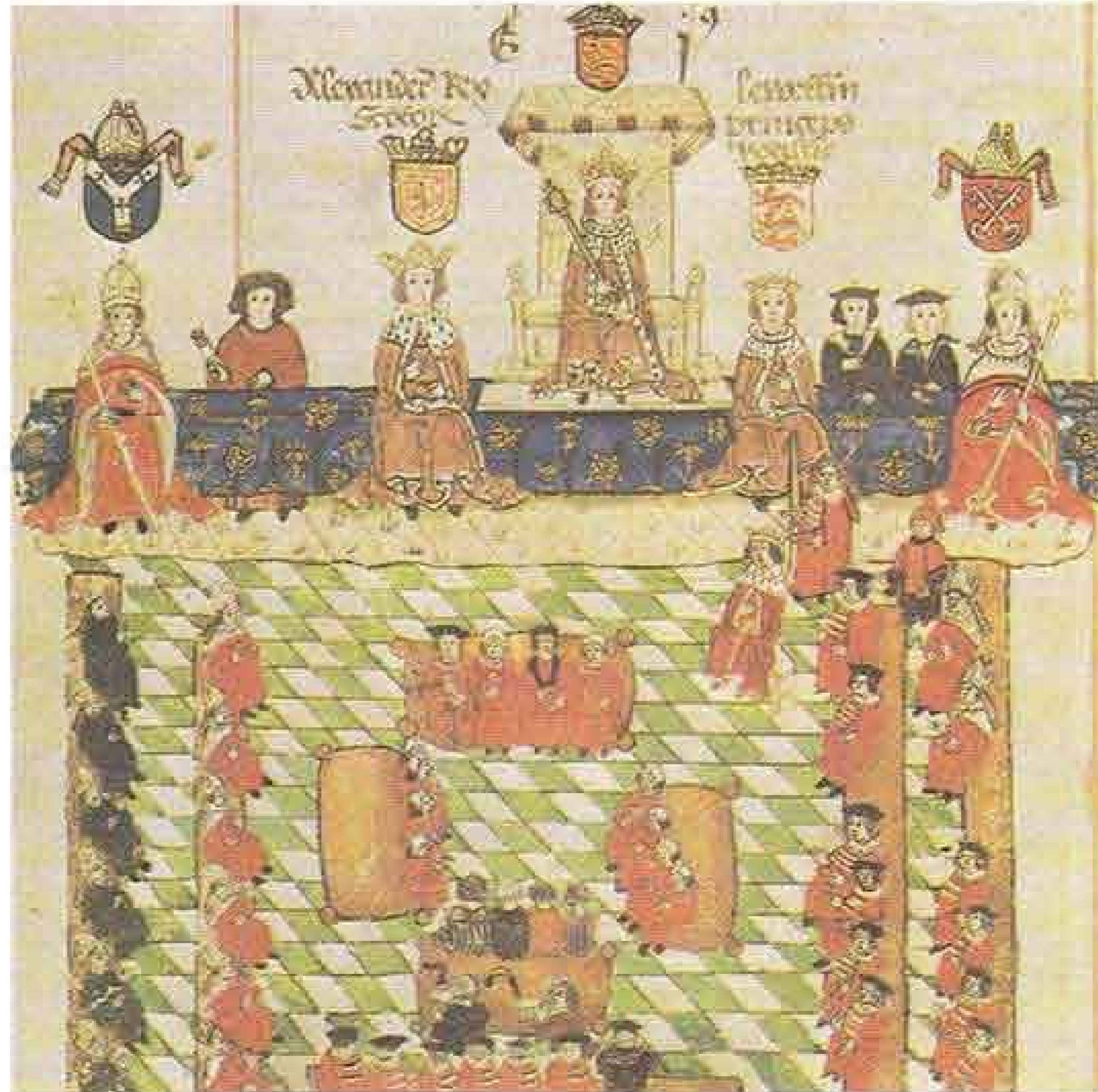
٢



البرلمان عبارة عن تذكير دائم بمهمة البرلمان الأصلية .

(٢) كان توماس هنجرفورد (توفي ١٣٩٨) من أوائل رؤساء مجلس العموم الذين وصلتنا اسماؤهم مدونة .

٣

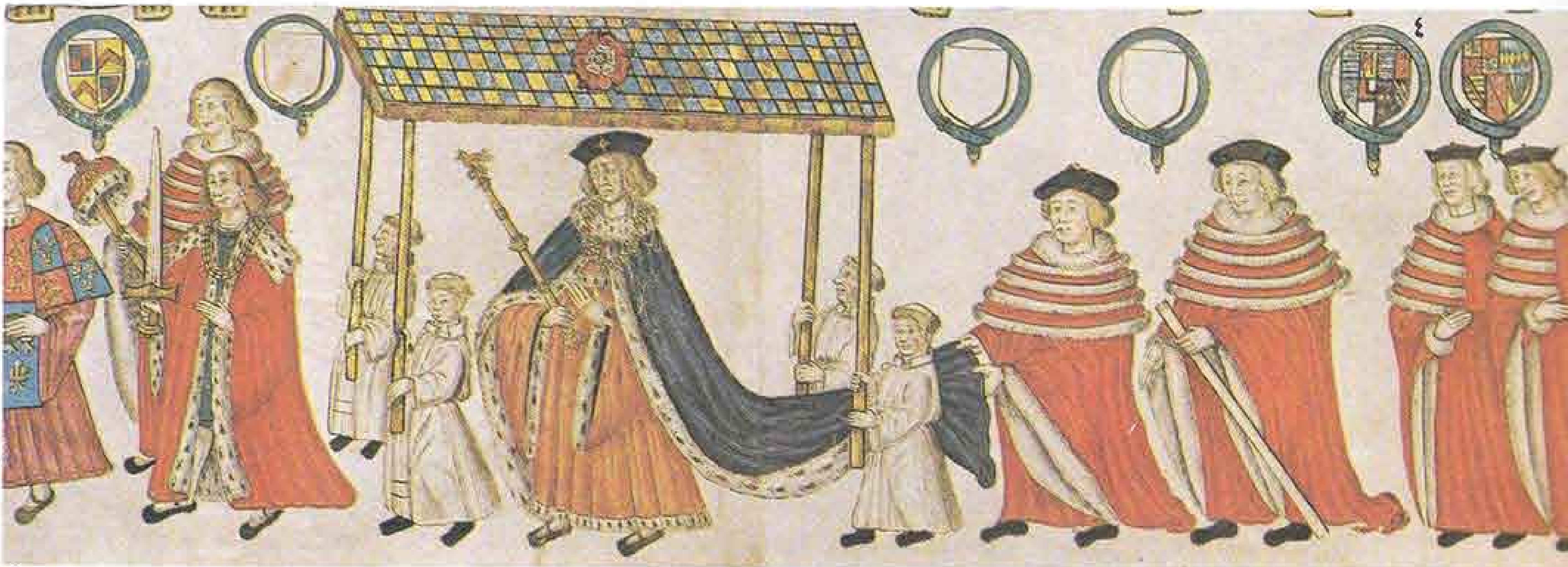


كان مولى لجون أوف جونت ، الذي كان أحد المستهدفين الرئيسيين لهجمات البرلمان الصالح سنة ١٣٧٦ ، وقد مثل العموم في السنة التالية عندما استطاع جونت أن يقلب عددا من قرارات ذلك البرلمان . كان رئيس المجلس ينتخب من قبل « العموم » ليكون ناطقا باسمهم ، وكي يدير أيضا جلسات المناقشة . كان تأسيس هذا المنصب بمثابة بلورة لثقة « العموم » المتصاعدة بنفسهم ، حتى شعروا سنة ١٤٤٠ بانهم اصبحوا أولى بمعالجة الشؤون الادارية من الملك .

البرلمان وفرض الضرائب

لم تكن مهمة « البرلمان » مقتصرة على القضاء ، بل كان يتيح الفرصة أيضا لرعايا الملك كي يوافقوا على الضرائب ويسدوا النصيحة حول القضايا الخطيرة . كانت هذه المهمة تفترض أن يمثل المصالح والجماعات المختلفة اناس يتمتعون بالقدرة على الزام ناخبيهم بقراراتهم . كانت موافقة هؤلاء الممثلين المنتخبين على الضرائب هي القاعدة العامة « للبرلمانات » التي كان سيمون دي مونتفور (١٢٠٨ ؟ ـ ١٢٦٥) يدعوها للانعقاد للتدليل على التأييد الشعبي الواسع للثورة التي قام بها سنة ١٢٥٨ ـ ١٢٦٥ .

قضى ادوار الأول (ملك ١٢٧٢ ـ ١٣٠٧) (٣) على ثورة دي مونتفور سنة ١٢٦٥ . ثم توحدت ، ابان عهده ، جميع مهام البرلمان المختلفة . فكان المجلس يجتمع بحضور أكبر عدد ممكن من المستشارين والاشراف



٤

(٣) ـ في هذه اللوحة المعاصرة ، يجلس ادوارد الأول في البرلمان مع ملكي اسكتلندا وبلاد الويلز . ولكن في الواقع لم يجتمع هؤلاء الثلاثة قط . وراءهم صف من الأمراء الملكيين ومن رؤساء الأساقفة . يجلس الأشراف والأساقفة الآخرون جنبا الى جنب ، وفي الوسط يجلس القضاة وأعضاء المجلس الملكي ومستشارو التاج القانونيون . ويقف وراء الملك « العموم » ووكلاء الأكليروس الذين يفترض ان عددهم كان يفوق عدد سائر الآخرين .

---

(٤) ـ افتتح هنري السابع البرلمان سنة ١٤٨٥ محاولا أن يجعل منه حليفا للتاج . كانت سياساته تتوافق مع مصالح التجار الذين كانوا نافذين في مجلس العموم . لكنه حد كثيرا من سلطة « حلف الهانزا » في انجلترا . وأصدر سنة ١٤٩٦ « قانون التعامل الكبير » لتحسين العلاقات التجارية مع هولندا .



٥

(٥) ـ كان تقسيم المجتمع الى طبقات ثلاث ، الفرسان والكهنة والعمال ، قاعدة اساسية للبرلمان الانجليزي . لكن هذه القاعدة لم تظهر بوضوح في تركيب مجلس اللوردات والعموم .

والأساقفة ، وكان تمثيل المقاطعات الشمالية والجنوبية بوكيلين ، وكانوا جميعهم يتمتعون بصلاحيات مطلقة للموافقة على الضرائب .

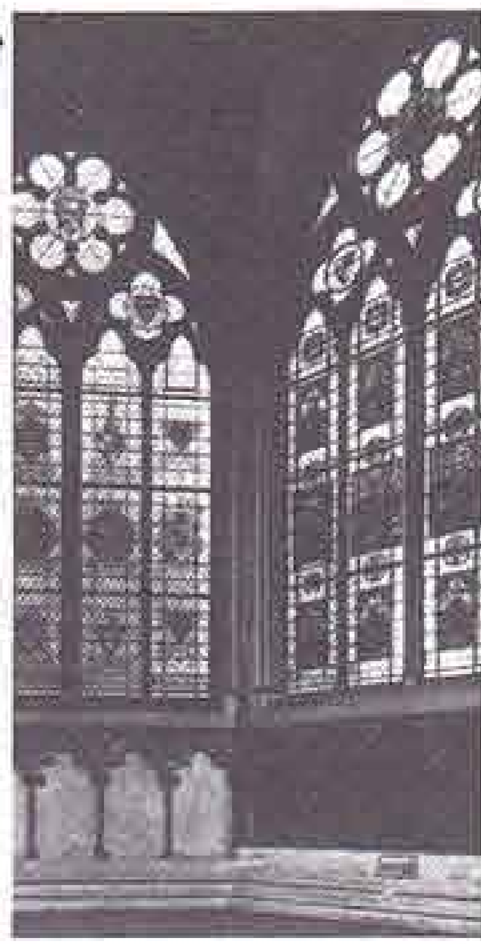
الادلاء بالمشورة الى الملك

كان من عادة ادوارد الأول أن لا يدعو النواب الا لعدد قليل من برلماناته الأولى . لكنه أصبح يدعوهم أكثر فأكثر كلما ازدادت حاجته الى الأموال ، اذ تبيّن له ان جباية الضرائب بدون موافقتهم عسيرة . وبحلول ١٣٠٧ ، كان قد اصبح من المألوف ان تجتمع البرلمانات كل سنة . صحيح ان البرلمان كان من صنع الحكومة خدمة لأغراضها الخاصة ، لكنه كان فضلا عن ذلك دعوة موجهة الى الطبقات الملاكة لكي تشارك في عملية الحكم . لكن المقاطعات والمدن ، التي كانت منهمكة في شؤونها المحلية لم تكن تقبل هذه الدعوة الا على مضض . ومع ذلك ، فقد كان



٦

(٦) - نادى هنري السابع رسميا بحقه في العرش أمام البرلمان سنة ١٤٨٥ ، ودوّن ذلك في « سجل القوانين » ، بلغة الوثائق القانونية التي كانت قد اصبحت عتيقة في ذلك الحين ، وهي « الفرنسية النورماندية » . وخلافا لمراسيم ريتشارد الثالث وادوارد الرابع المستفيضة التي كانا يقيمان فيها مطالبتهم بالعرش على حجج قانونية معقدة ، لم يستند هنري في دعم حقه الا الى هذا التصريح البرلماني في هذه الوثيقة المختصرة التي لم تقر انشاء سلالة ملكية جديدة فحسب ، بل أكدت ايضا الاعتراف بفعالية البرلمان العليا . وكان ذلك تمهيدا للتصريح البرلماني اللاحق سنة ١٥٣٤ .



٧

(٧) - كان « تشابتر هاوس » في وستمنستر المكان الذي اجتمع فيه « العموم » للمرة الأولى بمعزل عن اللوردات ، وذلك خلال اجتماع « البرلمان الصالح » سنة ١٣٧٦ ، عندما استخدم حق الطعن للمرة الأولى ضد وزراء الملك لابتزازهم ضرائب مخصصة للحرب . كانت هذه الخطوة تعبيرا عن ادراك واضح ان « للعموم » دورا يختلف عن دور اللوردات . في ذلك الوقت ، كان « العموم » قد وضعوا لمجلسهم نظاما داخليا خاصا وانتخبوا له رئيسا .



٨

(٨) - يقال أحيانا ان سيمون دي مونفور ، الذي تظهر درعه في الصورة ، هو الذي أسس البرلمان الانجليزي . ففي محاولة دعم ثورته على صهره هنري الثالث ، دعا برلمانا « تمثيليا » للانعقاد سنة ١٢٦٤ . كان يؤمن فعلا بالحكم الشرعي الجماعي القائم على اجتماعات متكررة للبرلمان لوضع حد للسلطة الملكية او البيروقراطية الجامحة .

ممثلوها يحضرون الجلسات ، وهكذا اصبح يمثل طبقة « العوام » اجمالا في برلمانات القرن الرابع عشر اناس اكتسبوا خبرة واسعة في عدد لا يحصى من اللجان القضائية المحلية ولجان جباية الضرائب وغيرها من اللجان ، فشاركوا على هذا الوجه في نشاط الحكومة التنفيذي . أفضل مثال على ذلك ان احدهم ، جون مورتاين ، وهو ملّاك كبير خدم عدة مرات في حروب ادوارد الثاني (ملك ١٣٠٧ ـ ١٣٢٧) ، كان عضوا في عدة لجان واشترك تسع مرات في برلمان بيدفوردشير . كان لأمثال هذا الرجل بالطبع آراؤهم الفردية ، وكانت اصواتهم تُضم الى اصوات اللوردات فيكون لها تأثير متزايد .

استمر البرلمان عموما على النظر في العرائض والشكاوى والقيام بمهمة محاكم العدل ، وتحصيل الضرائب للتاج . الا ان عددا من البرلمانات لم يقم بأي من هذه الأدوار ، بل يبدو ان ادوارد الثاني وادوارد الثالث (ملك ١٣٢٧ ـ ١٣٧٧) كانا عوضا عن ذلك يطلبان من هذه البرلمانات النصح والمشورة ، وفي بعض المناسبات الموافقة على التشريعات . وبحلول ١٣٧٠ أصبح على الملك أن يسن القوانين داخل البرلمان ، فأتسع نوع القضايا المتداولة فيه . وانبثقت « قوانين العمال » سنة ١٣٥١ عن عرائض رفعها الملاكون الى البرلمان لضبط أجور العمال .

مجلس اللوردات ومجلس العموم

ابان الحقبة الممتدة من ١٣٧٠ الى ١٤٥٠ ، تطورت بنية البرلمان وأساليب عمله الكلاسيكية . فانشق ممثلو طبقة الأكليروس الدنيا عن البرلمان للالتحاق « بمؤتمرهم » الخاص ، وسنة ١٣٧٦ انعقد مجلس اللوردات ومجلس العموم كهيئتين منفصلتين . ثم تطورا بحيث اصبحا هيئتين سياسيتين تمارسان الضغط على وزراء الملك . وسلاحهما « الطعن » ، وهو اجراء قضائي كان يخول مجلس العموم بمفرده ان يتهم احد الوزراء ويحيله الى مجلس اللوردات لمحاكمته في القضية المعنيّة .

في عهد ريتشارد الثاني (ملك ١٣٧٧ ـ ١٣٩٩) وهنري الرابع (ملك ١٣٩٩ ـ ١٤١٣) ، كان البرلمان قد اصبح خبيرا في طرق التأثير على عملية الحكم : فسنة ١٣٧٧ عيّن « أمناء لخزينة الحرب » للاشراف على الضرائب المخصصة للاغراض العسكرية ، وسنة ١٤٠١ قرر أن لا يوافق على ضرائب جديدة قبل تسوية المظالم . في هذه المسائل ، كان يقود « العموم » نائب من نوع جديد ، هو الشخصية الوطنية المستقلة الصريحة والمحنّكة سياسيا ، مثل ارنولد سافيج رئيس المجلس سنتي ١٤٠١ و ١٤٠٤ . بقيادة أمثال هؤلاء السياسيين الوطنيين « أصحاب المقاعد الأمامية » ، غدا البرلمان معدا للقيام بدور أساسي في سياسات القرن الخامس عشر . فقد اصبحت الانتخابات ساحات قتال ، تثبت فيها الأحزاب المختلفة مدى قوتها . وهكذا كسب عدد من الاشراف البارزين مجموعات كبيرة من المؤيدين في مجلس « العموم » . من الدلائل على أهمية البرلمان المتزايدة ان هنري السابع (ملك ١٤٨٥ ـ ١٥٠٩) استخدم البرلمان ليضفي صبغة الشرعية على حقه المشبوه في العرش (٦) ، مع أنه كان يحاول في الوقت نفسه أن يخفف من تدخل البرلمان في شؤون السلطة الملكية .

حرب المئة سنة

تميز الصراع بين اسرتي البلانتاجينت والفالوا ، الذي دام من ١٣٣٧ حتى ١٤٥٣ ، بمعارك قصيرة ، فهدنات أطول ، ففترات جمود . عرف هذا الصراع بحرب المائة سنة ، وامتد عبر تاريخ كل من انكلترا وفرنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وحتى بعد ١٥٠٠ ، كان خطر استئنافه سلاحا قويا في يد الانجليز .

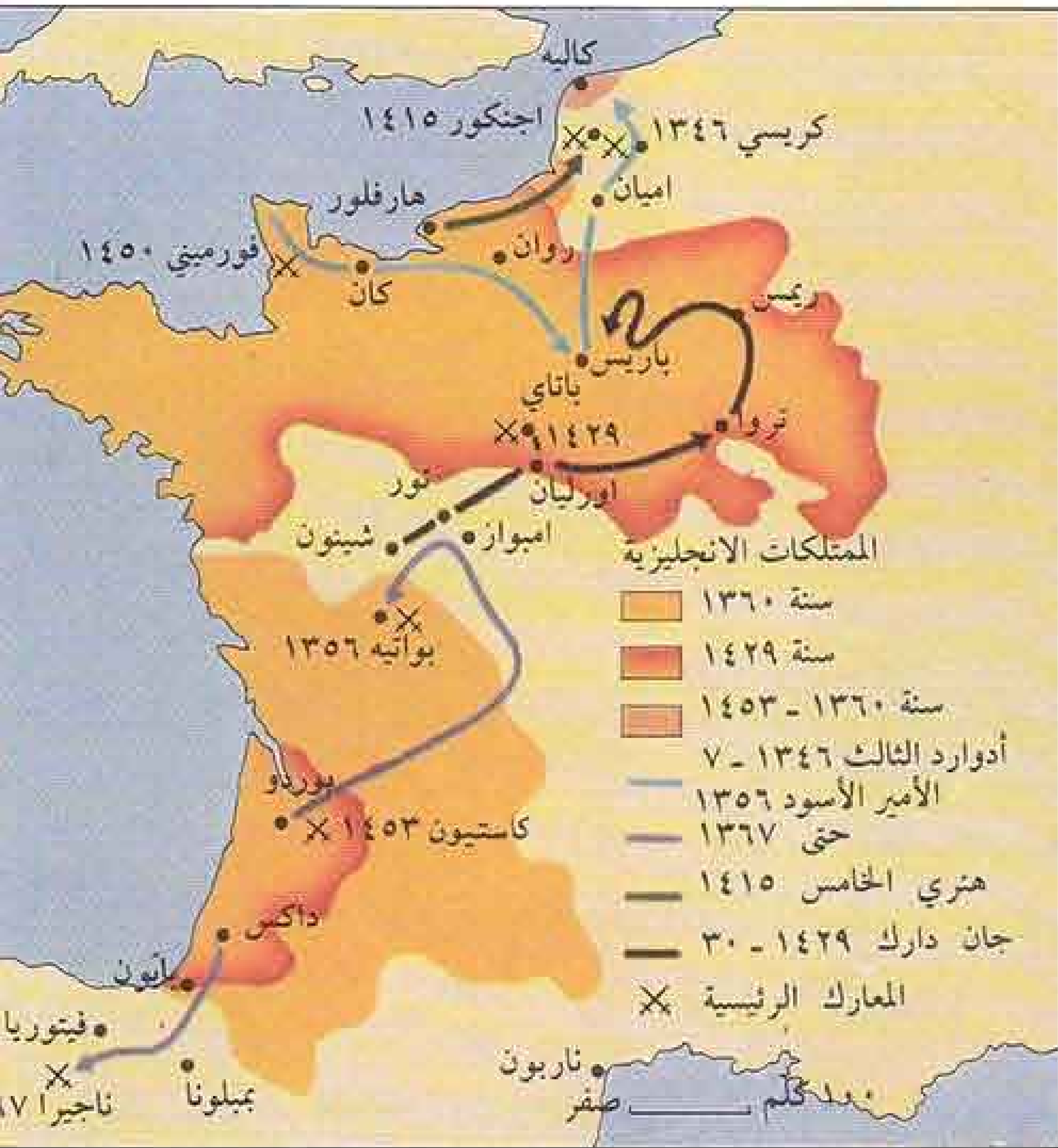
بداية الحرب

ترجع أسباب الحرب الى الفتح النورماندي ذاته . فقد بقيت الامبراطورية الانجليزية النورماندية حقيقة واقعة حتى عام ١٢٠٤ ، وكان يطارد ظلها الملك هنري الثالث

١



٢



(١) - دخلت الزنبقة في شعار انجلترا الحديث التصميم ، عندما اتخذ ادوارد الثالث لقب ملك فرنسا سنة ١٣٤٠ . تصرف هذا التصرف بعد أن حظي بتأييد سكان الفلاندر ورعايا فرنسا الناقمين . دام هذا الشعار حتى ١٨٠١ .

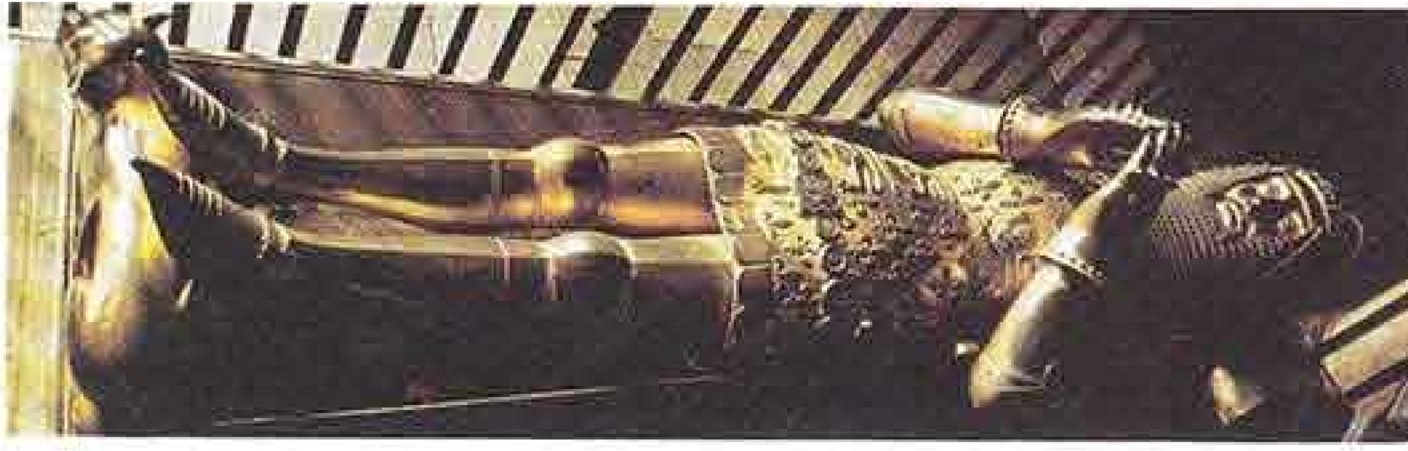
(٢) - كانت الحملات الانجليزية على غسكونيا وفرنسا عبارة عن غزوات ترمي الى نهب معظم أنحاء فرنسا الغربية والشمالية . واذا استثنينا بعض الحصون التي احتلت لم يكن ثمة محاولات تذكر لفتح الاراضي الفرنسية . قبل مهاجمة هنري الخامس لنورماندي سنة ١٤١٧ .

(٣) - كان الحصار من تقاليد الحرب الشائعة في أواخر العصور الوسطى ، وكان يخضع لأعراف ثابتة : كان الحصار الرسمي يبدأ عندما كان يطلب باسم الملك من احدى طلائع الفريق القائم بالحصار ان تدخل الموقع ، وبعد ذلك لم يكن بوسع ضارب الحصار ان يتراجع دون مهانة . برّر دوق بورجونيا فشله في احتلال كاليه سنة ١٤٣٦ بقوله انه لم يحاصرها رسميا قط ، عندما لم يكن لدى القلعة أو المدينة المحاصرة أمل بالنجدة ، كان السبيل المشرّف أمام قائدها ان يستسلم ، كان لغم الأسوار اشهر أشكال الهجوم ، وبحلول ١٤٠٠ كانت المدفعية قد حلت محل آلات الحصار القديمة الى حد بعيد ؛ كان جعل قائد آمرا على الحامية التي اجبرها على الاستسلام من أهم المكافآت التي كان بوسع الملك ان يمنحها لمن يخدمونه ، وكان هذا المنصب ، كغيره من المراكز المسؤولة ، مصدر نفع عميم لصاحبه .

(ملك ١٢١٦ - ١٢٧٢) . كانت مقاطعة جاسكوني ، التي عهدت بها معاهدة باريس (١٢٥٩) الى الانجليز ، فيما ابقتها في الواقع تعتمد الى حد كبير على التاج الفرنسي ، مصدرا للخلاف الدائم بين انجلترا وفرنسا . كان من الممكن ان تبقى هذه المسألة قضية حقوقية فقط ، لو لم يطالب الملك ادوار الثالث (ملك ١٣٢٧ - ١٣٧٧) على أثر وفاة شارل الرابع (ملك ١٣٢٢ - ١٣٢٨) بالعرش الفرنسي (١) .

ومع أن والدة ادوارد الانجليزي كانت أخت شارل الرابع الفرنسي ، فقد رفض الأشراف الفرنسيون الخلافة عن طريق الاناث ، واعتبروا ان فيليب دي فالوا (١٢٩٣ - ١٣٥٠) ، ابن عم شارل هو أولى بالعرش ، فأعلنوه ملكا باسم فيليب السادس . على الرغم من هذه الصدمة ، لم يطالب ادوارد بحقه ، وبقي متريثا حتى هاج الرأي العام الانجليزي

٤

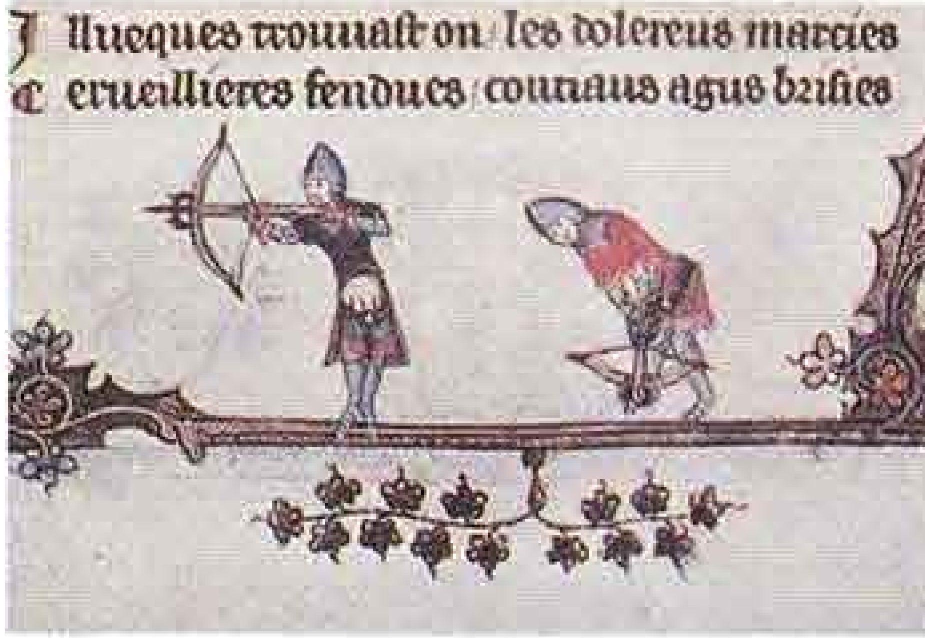


٣



٥





٦



(٤) - استمد ادوارد « الامير الاسود » ، وهو أشهر فارس في زمانه ، وبطل معركة بواتيه (١٣٥٦) ، هذا الاسم من الدرع الاسود الذي كان يرتديه . يقع هنا التمثال فوق قبره في كاتدرائية كنتربري .

(٥) - كانت براعة الرماة الانجليز سببا لعدد من الانتصارات . كانت القوس (الظاهرة الى اليمين) سلاحا فعالا . استعملت بصورة فتاكة في الحروب الصليبية، وكانت أدق اصابة من القوس الطويلة على مسافات قصيرة وكان فعلها أكبر .

(٦) - كانت معركة كريسي اول انتصار انجليزي عظيم في الحرب البرية ، وقد نشبت عندما لحق الجيش الفرنسي الاقوى والأوفر عددا بقوات ادوارد وهي تتجه نحو الفلاندر . أوقف الرماة الانجليز حملة الفرسان الفرنسيين برماياتهم الكثيفة ، وكادوا يدمرون الفرنسيين تدميرا كاملا .

هيجانا كافيا نتيجة للقلاقل المستمرة حول جاسكوني ، وللتأييد الفرنسي لاستقلال اسكتلندا .

بعد أن بدأت الحرب سنة ١٣٣٧ وأحرز الانجليز انتصارا بحريا في معركة سلويس (١٣٤٠) ، لجأ ادوارد الى الأسلوب التقليدي القائم على تجنيد فرق العساكر الضخمة ، عن طريق استقراض الأموال من امراء المانيا وهولندا .

بعد سنة ١٣٤٠ ، لجأ ادوارد الى ما يشبه ، الى حد ما ، حرب العصابات . فقد أقام له مواقع على الساحل الفرنسي وأحكم تحصينها بحيث غدت قواعد لهجمات كاسحة على الريف الفرنسي . كان لهذه الخطة مزيّة هامة ، هي انها لم تكن تحتاج الى قوات كبيرة . وأهم من ذلك ، كثرت المكاسب الناجمة عن فديات الأسرى وعن أعمال النهب (٨) بحيث كانت تغطي نفقات الحملات .

٧

	بنسات	شلنات
١٠ جنود ؛ ٧ حملة رايات		٤
٧٤ فارسا		٢
١٩٩ من حملة السلاح		١
٢٥٠ من الرماة	٦ ـ ٣	
٢٠٠ رجل مسلح	٢	

٨

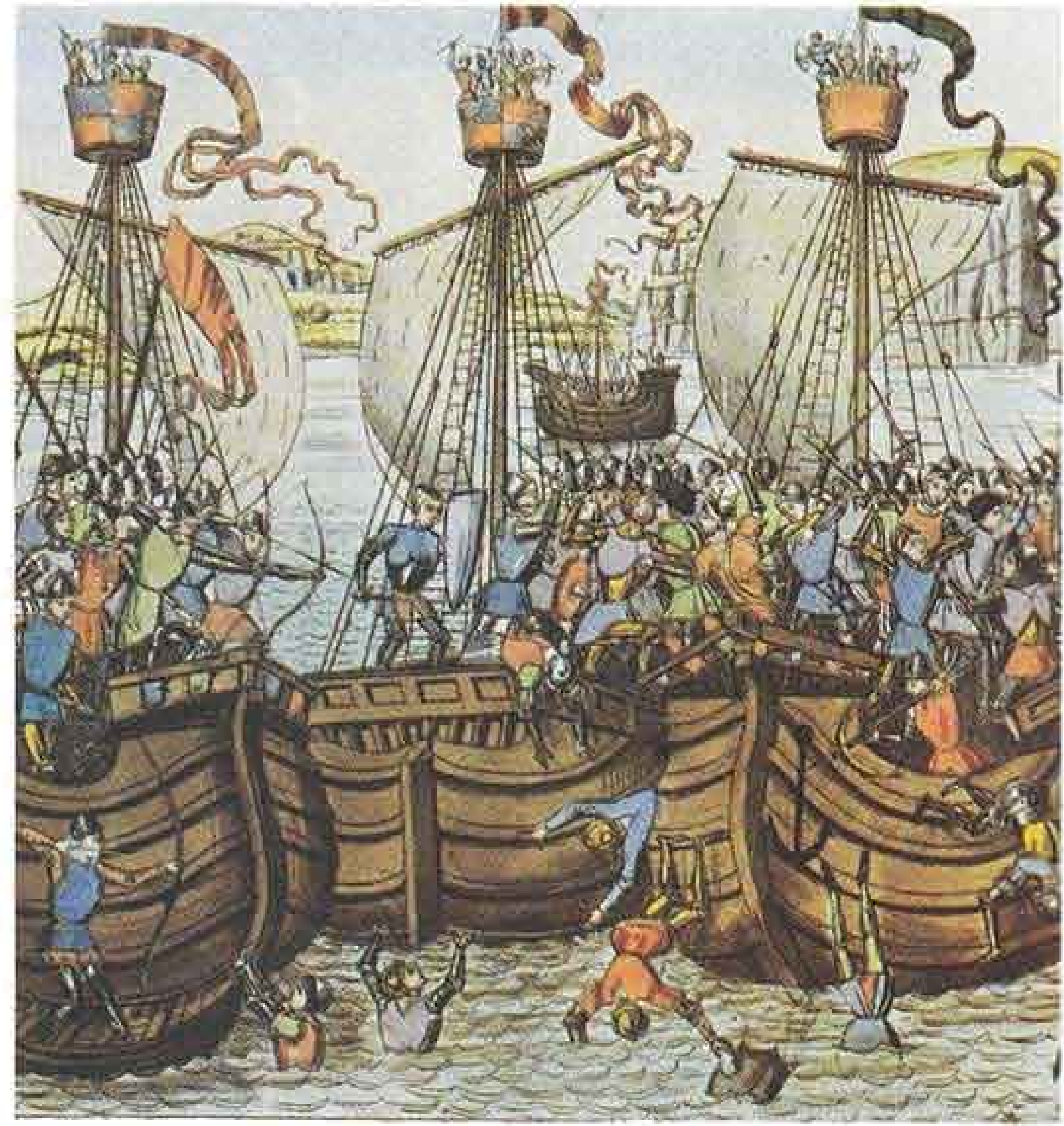


(٧) ـ كانت جيوش « حرب المائة سنة » تتألف من كتائب يجندها ويدربها قادة محترفون من الاشراف او الجنود الذين تميزوا بمهارتهم العسكرية . كان يتعاقد القادة مع الملك على حشد رجالهم والقتال في سبيله لقاء اجور معينة ، وكانوا يقودون رجالهم عادة في عمليات عسكرية محددة ينص عليها العقد . وكان القادة يتعاقدون بدورهم مع من يمدهم بالجنود . كان الرجالة والرماة غالبا من المتطوعة ، ولكن الكثيرين منهم كانوا يجندون من قبل « لجان تجنيد » خاصة تعمل في كل مقاطعة . شجعت الأجور المرتفعة والوعود بالعفو « عملية التجنيد » ، وكثيرا ما كان يتقدم عدد من المتطوعين يربو على العدد الذي كان بوسع الملك استخدامه . تبين الصورة حاشية ايرل نورثهامبتون سنة ١٣٤١ . برهنت طريقة التجنيد هذه عن مرونة اكبر من طريقة الواجبات الاقطاعية القديمة . سرعان ما أخذت العقود القصيرة الأمد تطبق على العلاقات بين السيد والخادم في ايام السلم ، وكان لها شأن في ظهور « الاقطاعية المبندقة » .

(٨) ـ كان النهب أحد الاسباب التي حملت الجنود العاديين على الاشتراك في الحرب ، اذ كانت تزيد مدخولهم بانتظام ، وذلك باسلوبين : اما من خلال الفدية أو باحتلال موقع عنوة . فعند الاستيلاء على قرية او مدينة بكاملها ، كان العرف السائد يقضي بنهبها واعمال السيف والنار بسكانها . ولما استولى « الامير الاسود » على ليموج سنة ١٣٧٠ ، لم يكتف باباحة أعمال النهب فحسب ، بل أمر ايضا بقتل جميع أفراد الحامية . ولما سقطت كاليه ، قيل « ان كل انجليزي أصبح يرتدي شيئا من غنيمتها » . كانت مكاسب الحرب ، لاسيما بالنسبة الى الظافرين ، عظيمة . وعندما فضّل هنري الخامس ان يكتسب عطف المدن المحتلة وأمر جنوده بالكف عن النهب ، كان ذلك أمرا نادرا جدا في ذلك العصر .

كانت اساليب ادوارد العسكرية تعتمد على السرعة والمرونة في وجه الفرسان الفرنسيين الأوفر عددا والاكثر تنظيما . وكان لرماته (٥) ، العاملين من مواقع مختارة بعناية ، فعالية كبرى .

نتيجة لكل ذلك ، ألحق ادوارد بأعدائه في معركة كريسي (١٣٤٦) (٦) ، هزيمة كبرى بفضل سيل من السهام ، وفي معركة بواتيه دحر ابنه ادوارد ، « الامير الاسود » (١٣٣٠ ـ ١٣٧٦) (٤) ، فرقة الفرسان الفرنسية وأسر جان الثاني (ملك ١٣٥٠ ـ ١٣٦٤) ، وربما كان أهم من كل ذلك ، أن الانجليز استولوا على قاعدة كاليه (١٣٤٧) التي بقيت مستعمرة انجليزية طيلة مائتي سنة .



(٩) ـ أمنت السيطرة على المانش للفرنسيين تفوقا حاسما في الحرب في بادىء الأمر . فقد تمكنوا حتى عام ١٣٤٠ ، بمساعدة الاميرال الجنوي باربانيرا ، من غزو ساوثهمبتون ونشر رايتهم عند مصب التيمس . لكن معركة سلويس الحاسمة ، التي أحرز فيها الانجليز أول انتصار بحري لهم في تاريخهم . كانت بمثابة نقطة تحول . في معركة لاروشيل (الظاهرة في الصورة) التي دارت سنة ١٣٧٢ ، فاجأ القشتاليون ، الذين كانوا حلفاء للفرنسيين ، اسطولا انجليزيا يحمل امدادات لغسكونيا . انهت تلك الهزيمة السيطرة الانجليزية على المانش ، وعقبتها هزيمة جيشهم في غسكونيا . مما أدى الى هبوط نجم ادوارد الثالث .

القتال من أجل الغنائم

تبين مع ذلك ان السلام لم يكن سوى سراب . فالحرب لم تكن بالفعل صراعا بين أمتين ، بل كانت قد اصبحت مشروعا تجاريا بالغ التنظيم يرمي الى استغلال فرنسا . فقد كان قادة مستقلون ، أشباه والتر ماوني (توفي ١٣٧٢) وجون شاندوس (توفي ١٣٧٠) يجندون المحاربين عن طريق « الارتزاق » او التعاقد لفترة محددة لقاء أجر ، وكانوا بدورهم يعقدون اتفاقات من هذا النوع مع الملك لتجنيد عدد معين من الجنود (٧) له .

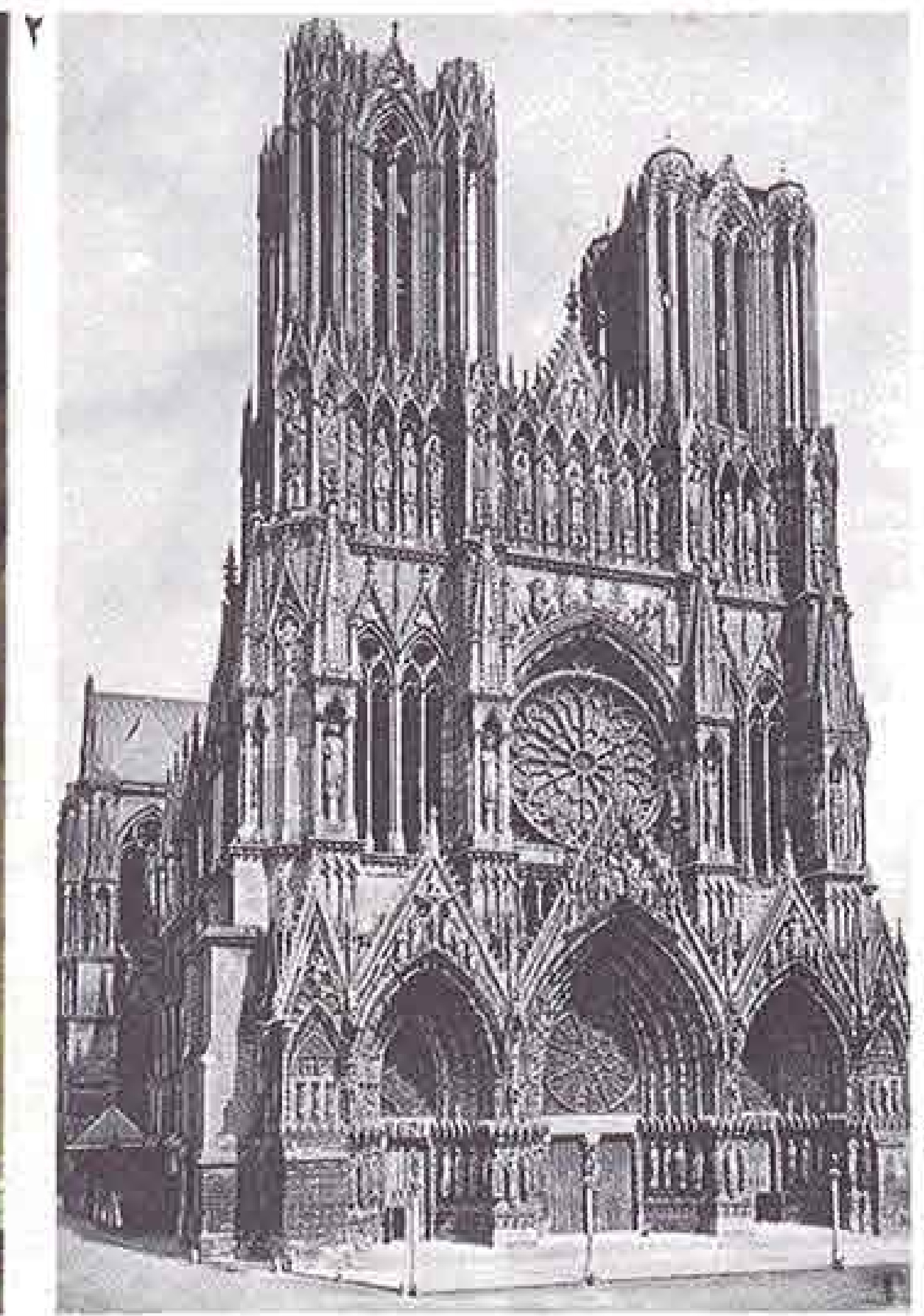
استئناف الحرب

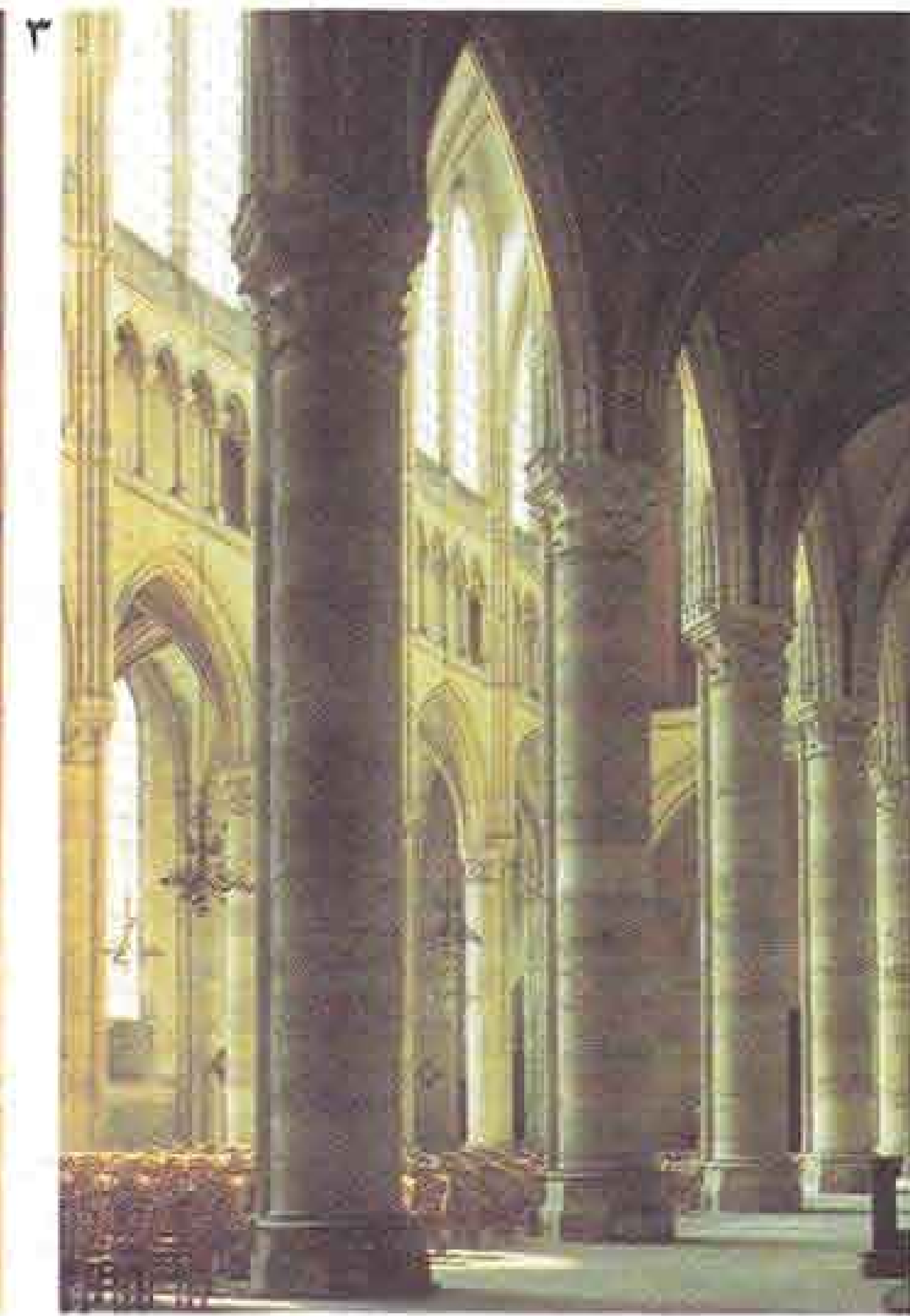
كانت أبرز مرحلة من مراحل الحرب تلك التي تلت اعتلاء هنري الخامس للعرش (ملك ١٤١٣ ـ ١٤٢٢) . كان هنري نابغة عسكريا ، بوسعه ان ينظم ويضبط جيشا عرمرما طيلة سنين عدة ، وقد حظي استئنافه للحرب بتأييد شعبي . تنفيذا لمعاهدة طروا (١٤٢٠) ، تزوج هنري كاترين ابنة الملك شارل السادس ، وأصبح وريثه ، وذلك بقصد تدشين ملكية انجليزية فرنسية موحدة . ومع ان هنري توفي قبل تحقيق هذا الهدف ، فقد سيطر مدة على سائر شمالي فرنسا .

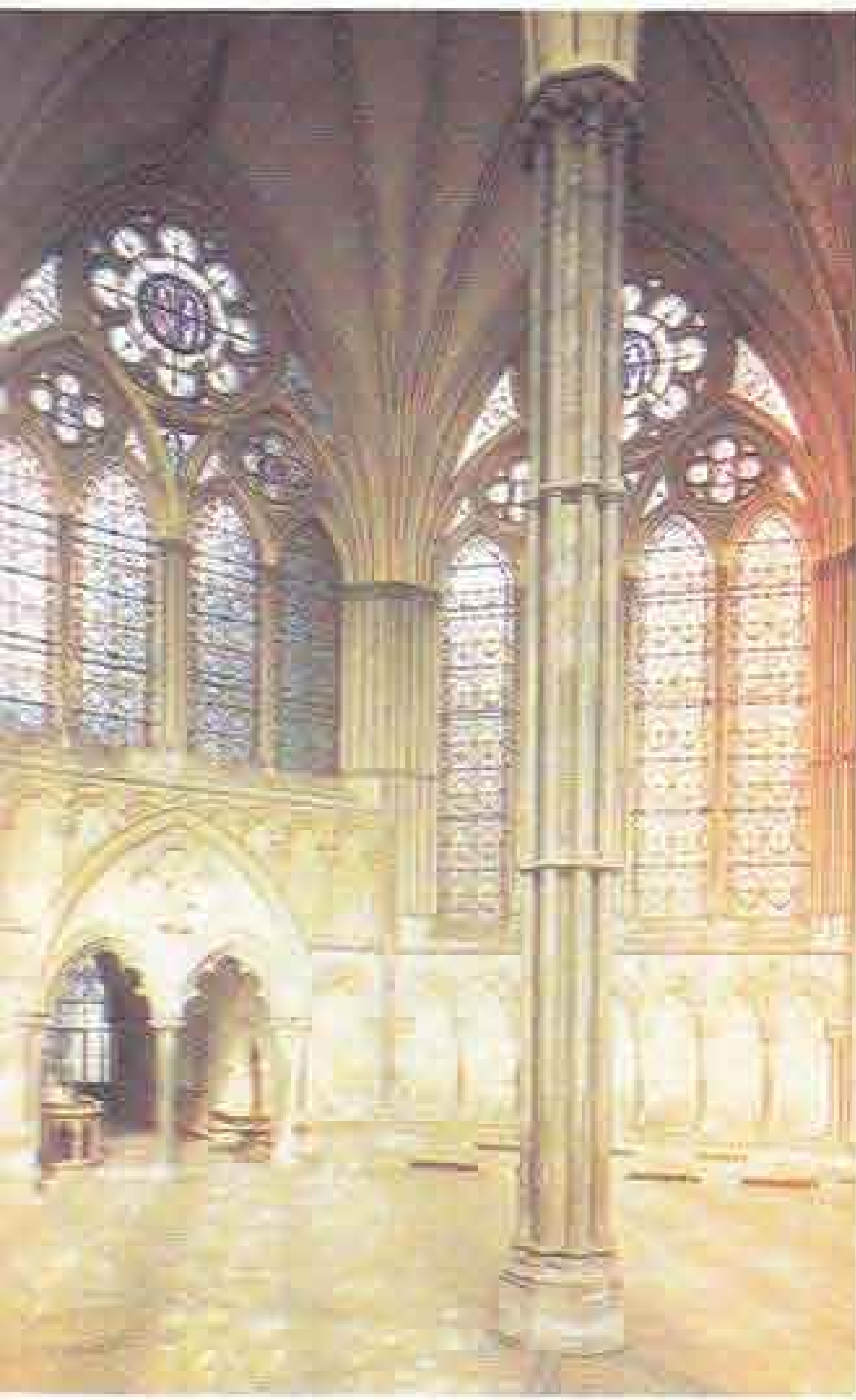
بحلول سنة ١٤٥٣ أدى انتعاش أسرة فالوا الى جلاء الانجليز عن النورماندي وحتى عن الجاسكوني أيضا .

الفن القوطي وتطوّره

التزمت كاتدرائيات القرن ١٢ القوطية الى حد كبير في تصاميمها وتوزيع مساحاتها الداخلية بسالفاتها الكاتدرائيات الرومانسكية . ولكن ألغيت الطبقة الثانية (الشرفة او المنبر) في عدد من الكنائس التي شرع بنائها في أواخر ذلك القرن لتوسيع المجال أمام الأروقة العالية المتوجة بنوافذ عظيمة السعة وتطلب ذلك بناء العاضدات المرسلة التي أصبحت منذ ذلك التاريخ احدى سمات الكاتدرائيات الفرنسية . وقد ظهر بذلك الشكل الخارجي المعقد القلق الذي يعتبر اليوم قوطيا بكل معنى الكلمة . وأصبحت كاتدرائية شارتر (٤) كما كانت سان دنيس قبل ذلك بخمسين سنة نموذجا لسلسلة

١


٢


٣


(١) - كان يتوخّى أن يكون لجميع الكنائس القوطية في فرنسا . ابتداء بسان دنيس ، واجهة غربية ببرجين ، هنا في ريمس كما في لاون وشارتر ، كان في النية بناء أبراج أيضا فوق واجهات الجناح الفرعي ، ولكنها لم تنجز قط . كانت النافذة الوردية احدى الخصائص الشائعة لواجهات القرن الثالث عشر الغربية ، الا ان البوابات كانت تختلف عن ذلك لأنها استبدلت النوافذ الوردية بالحواجب المنحوتة .

(٢) - يظهر تأثير شارتر على كاتدرائية سواسّون في الأقواس العالية والنوافذ الفوقانية . الا ان النسب العامة كانت أطول من نسب شارتر ، كما ان الدعامات كانت عبارة عن اعمدة بسيطة ومستديرة ألحقت بها اسطوانة واحدة خلافا لشارتر ذات الأربع اسطوانات . تعود الانارة الخارقة التي تظهر في الداخل اليوم الى زوال النوافذ الأصلية بزجاجها الملون .

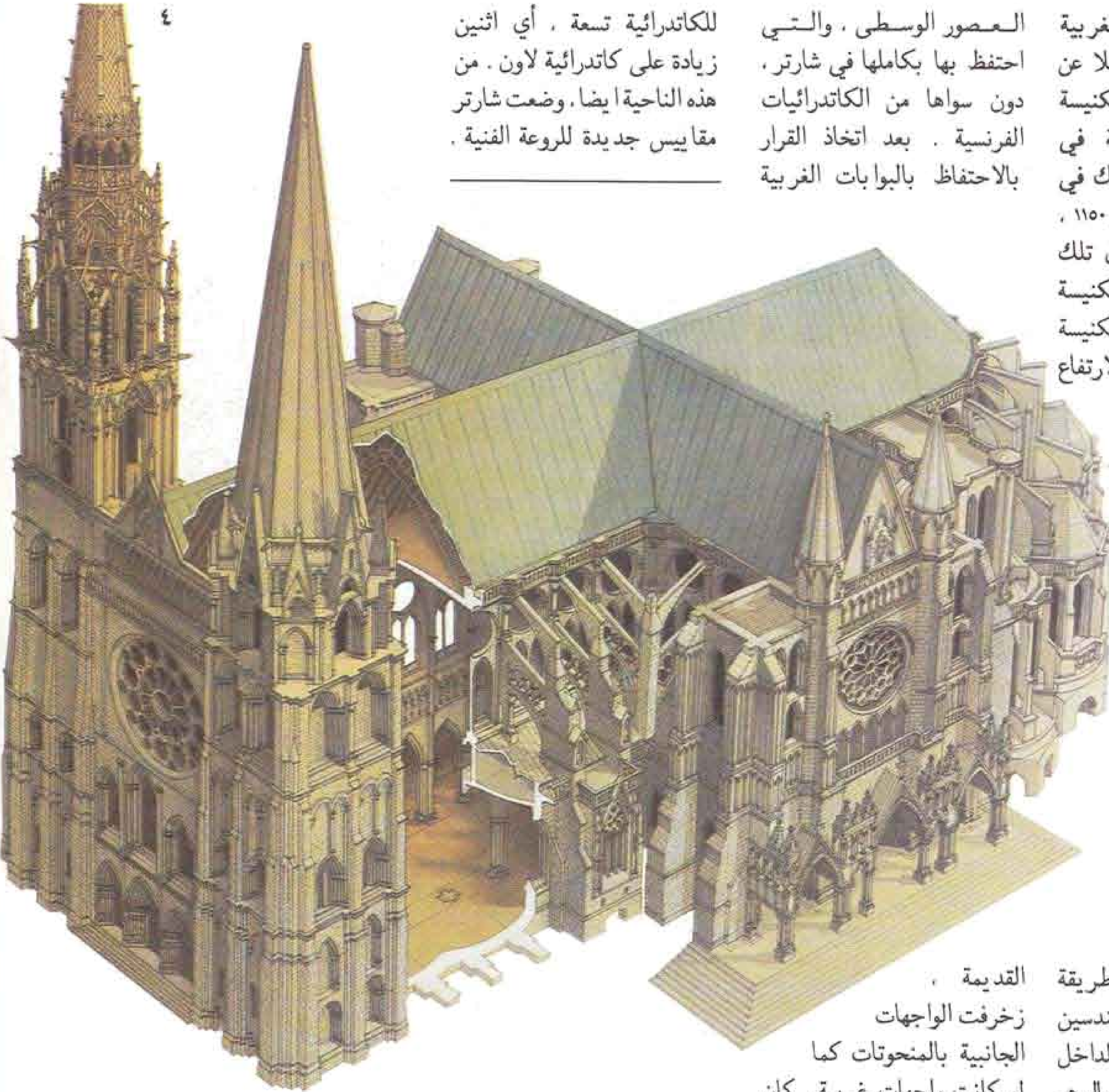
(٣) - كانت « منازل الكهنة » تستخدم من قبل الاكليريكيين لمعالجة الشؤون الدنيوية ، كان تصميمها الرئيسي ابتكارا انجليزيا يرقى الى القرن الثاني عشر ، مع ان ابدع النماذج ترقى الى القرن الثالث عشر . في كاتدرائية سالزبري (الظاهرة في الصورة) تعود النوافذ الضخمة المحشوة بقضبان زخرفية الى أصل فرنسي . أما في لنكلن وويلز ، فالعقد أبرز للعيان .

من الكاتدرائيات الفرنسية الشمالية ومنها كنيسة ريمس (بدأت ١٣١٠) وسواسّون (١ ، ٢) .

التطورات الاوروبية

في عهد فيليب الثاني العظيم (١١٦٥ - ١٢٢٣) كانت فرنسا قد أصبحت الدولة الكبرى في غرب اوروبا ، وفي عهد حفيده لويس التاسع (١٢١٥ - ١٢٧٠) غدت الحكم الأعلى في قضايا الذوق الاوروبي . ونجم عن ذلك ان الكنائس التي ظهرت خارج فرنسا في ذلك الحين مثل كاتدرائية ليون في قشتالة (بدأت حوالى ١٢٥٠) وكاتدرائية كولونيا (بدأت ١٢٤٨) كادت لا تتميز عمليا عن البناء الفرنسي . ولا يقال ذلك عن كنيسة وستمنستر (بدأت ١٢٤٥) مع أن لها من الملامح الفرنسية أكثر مما لأي كنيسة انكليزية أخرى في القرن الثالث عشر (٣) .

بقي الزجاج هو العنصر الرئيسي



(٤) - اضيفت الابراج الغربية في كاتدرائية شارتر ، فضلا عن البوابات والنوافذ ، الى الكنيسة الخشبية السقف المبنية في القرن الحادي عشر ، وذلك في الفترة الواقعة بين ١١٣٠ و ١١٥٠ ، واحتفظ بها بعد احتراق تلك الكنيسة سنة ١١٩٤ . للكنيسة القوطية الجديدة عرض الكنيسة القديمة ذاته ، ولكن الارتفاع الاضافي يمكن قياسه بالرجوع الى النافذة الوردية التي اضيفت فوق النوافذ الغربية . هناك ورود اصغر في النوافذ الفوقانية ، وورود أشد تعقيدا في الواجهات الجانبية . وحتى الصفوف الدنيا من العاضدات المرسلة حبكت باقواس متشعبة لكي تبدو شبيهة باجزاء النوافذ الوردية . أما الكوى الملحقة بالعاضدات ، فهي من اوائل الشواهد على طريقة اصبحت شائعة عند المهندسين القوطيّين . ان ما يبرز الداخل الصارم ابرازا يبلغ حد الكمال هو نوافذ الزجاج الملون العائدة الى العصور الوسطى ، والتي احتفظ بها بكاملها في شارتر ، دون سواها من الكاتدرائيات الفرنسية . بعد اتخاذ القرار بالاحتفاظ بالبوابات الغربية القديمة ، زخرفت الواجهات الجانبية بالمنحوتات كما لو كانت واجهات غربية . كان عدد الأبراج المخطط للكاتدرائية تسعة ، أي اثنين زيادة على كاتدرائية لاون . من هذه الناحية ايضا ، وضعت شارتر مقاييس جديدة للروعة الفنية .

للزخرفة الداخلية (٦) . ولكن حوالى ١٢٥٠ أخذت الألوان الزرقاء والحمراء الشائعة اوائل القرن تغيب لتحل محلها مجموعة أكثر تنوعا .

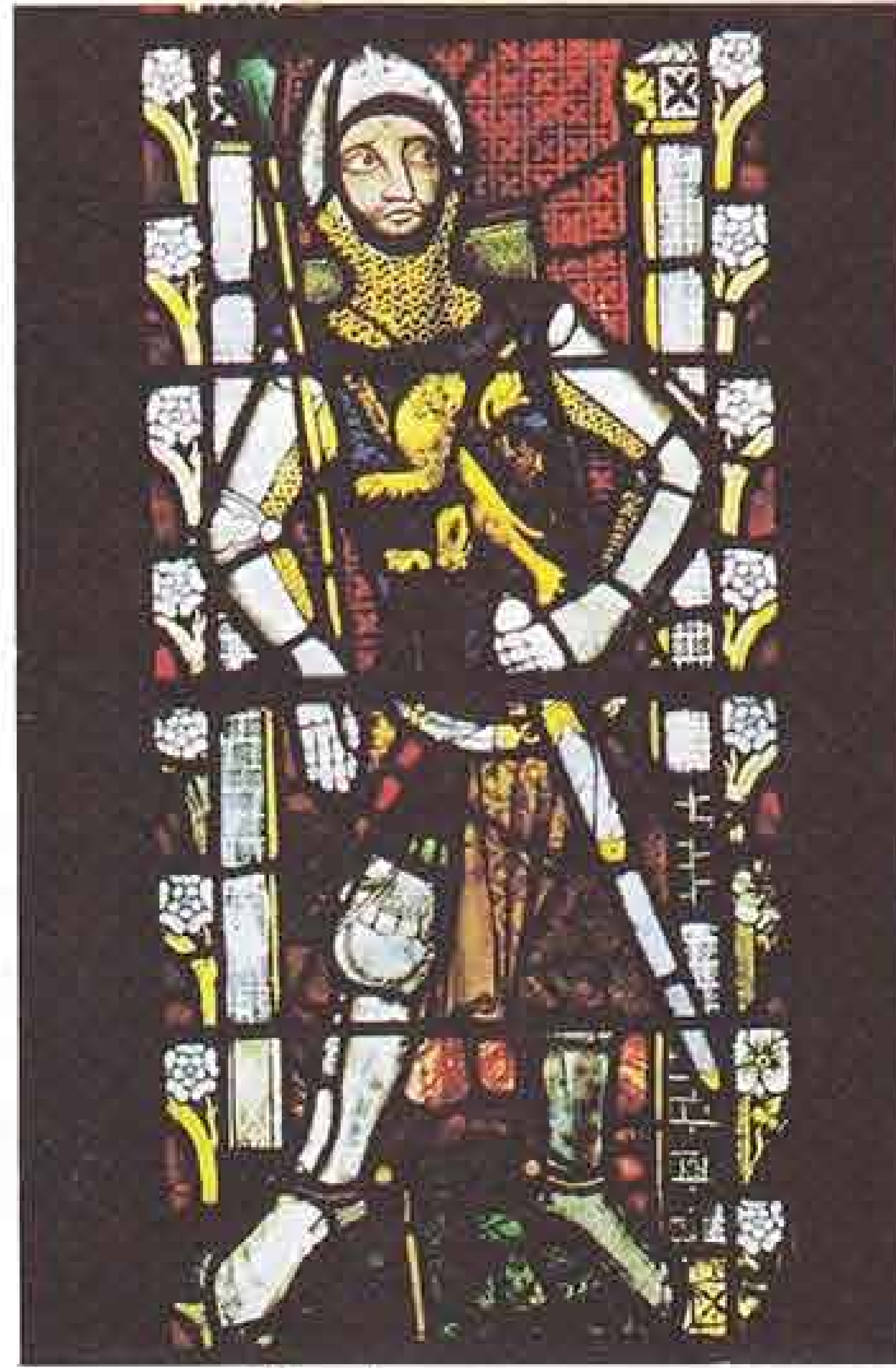
احتفظت البوابات المنحوتة في القرن الثالث عشر بالشكل الأساسي ذاته الذي كان شائعا في القرن الثاني عشر ولكن كبر حجمها على غرار الكاتدرائيات التي كانت تزينها (٧).

الفن القوطي في القرن ١٤ :

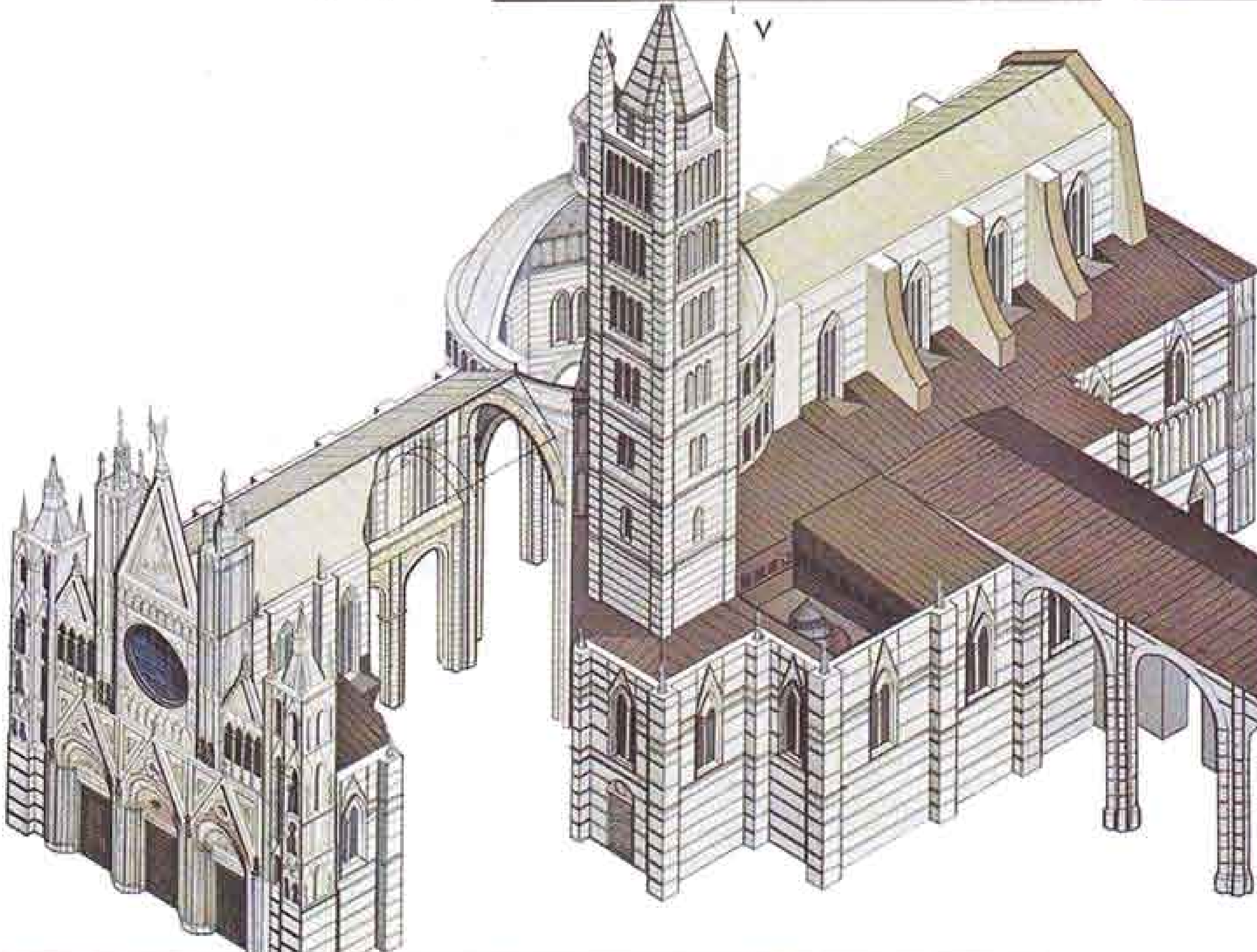
جمعت العمارة والزخرفة من نهاية القرن ١٣ حتى نهاية القرن ١٤ بين الأناقة والواقعية بسبب ذلك الاسلوب الفرنسي الذي عرف « بالفرنسي المشع » والذي يظهر بجلاء في النوافذ الوردية . الا ان اسلوبا جديدا هو الفن القوطي العالمي كان قد ظهر في نهاية هذه الحقبة .

في البداية كانت المباني قد أضحت





(٧) ـ ادخلت على الواجهة الغربية من كاتدرائية سيينا اضافات من الفن القوطي الأخير . فقد تمت « تغشية » الممرات والنوافذ الفوقانية ، ورفعت القبة ، وبني الخورس فوق الفجوة . أخيرا كانت النية متجهة نحو بناء بهو جبار الى جنوبي الممر المسدس الاضلاع ، بحيث يصبح البهو القائم والخورس جناحين جانبيين له . لكنه تبين ان الروافد غير كافية لسلامة البنيان ، فأهمل المشروع . الا ان جدران البهو الجديد والعقود ما زالت داخلة في هيكل المباني التي اضيفت فيما بعد .



(٥) ـ حولت الزيادات التي اضيفت الى دير تيوكزبري في أوائل ١٣٠٠ الخورس النورمندي البسيط الى كنيسة فخمة لدفن أعضاء اسرة ديسبنسر . من ميزات هذه الكنيسة أيضا انها كانت مقنطرة بكاملها .

(٦) ـ اشتمل الزجاج الملون في نوافذ تيوكزبري الفوقانية على سلسلة من صور الفرسان المدرعين ، كانت تقابل التماثيل الظاهرة على قبور ديسبنسر في صحن الكنسة .

أضخم وأشد تعقيدا وشاعت الأبراج السهمية كما اصبحت رؤوس الأعمدة والعقد شديدة الزخرفة . واستعمل الخشب بدل الحجر وأخذ يصبح أداة بناء قائمة بذاتها . واقتدت العمارة الاوروبية بالفن المشع الفرنسي وازدادت ضخامة . ومنذ أواسط القرن ١٤ لم تعد فرنسا قادرة على منافسة المانيا وبوهيميا في الابتكار وحاول الايطاليون تطعيم الافكار القوطية الشمالية في بابي الحجم والزخرفة فجاءت النتائج طريفة وان كانت في الغالب مفرطة في طموحها المعماري لدرجة ان عددا من الكنائس ظل دون اكمال وبعضها في بولوني بقي كذلك حتى القرن ١٩ .

كانت مساهمة ايطاليا في النحت أكبر . ومع ان التماثيل بقيت من كل مكان مقترنة بالعمارة اقترانا وثيقا فقد أخذت هنا تستقل عنها بصورة متزايدة . واعتبر كبار النحاتين اعمال النحت فنا قائما بذاته . وخلافا للعمارة لم يبق من فن الرسم الاوروبي الشمالي شيء يذكر ، لكن بعض اللوحات كانت من مستوى رفيع وان لم يكن واضحا انها من صنع فرنسيين او انجليز . وكانت ايطاليا أوفر حظا من حيث بقاء صورها التي تكشف عن تطور مشابه .

الفن القوطي بين ١٤٠٠ - ١٥٥٠

يمكن اعتبار الفن الاوروبي في أواخر العصور الوسطى استمرارا لتطور النمط القوطي العالمي . ففي جميع فروع الفن والعمارة في هذه الحقبة تتجلى الغبطة بالأشياء الزاهية الألوان والمصقولة والمعقدة بقطع النظر عن الفوارق الاقليمية .

في ايطاليا ، استمر الولع بالزخرفة القوطية والمواد الزاهية . أما في شمال أوروبا ، فلم يكن للفن القوطي العالمي منازع . يمكن القول بوجه عام ان الزيادة في التفاصيل الزخرفية نمت بالتوازي مع الزيادة في الواقعية . وكان الرسم على الالواح شائعا لتزيين المذابح ولم تكن الطبقة الارستقراطية هي الفئة الوحيدة التي تشمل الفنون برعايتها بل شاركتها البورجوازية العليا وكان لذلك أثر كبير . فالتجار كانوا يملكون الدور الريفية الانيقة ويشيدون المؤسسات الخيرية .

تميل العمارة القوطية في عهدها الأخير في اوروبا الى تبني ما هو غريب الطابع . ففي النمط الفرنسي ، يصح استعمال لفظة « متوهج » لوصف الرسم المنساب كألسنة من نار على الجدران والنوافذ . وفي شبه الجزيرة الايبرية ، شاعت انماط الزخرفة الشبيهة بالنبات . وفي المانيا وبوهيميا ، تفنن المعماريون في تصميم اشكال جديدة للعقود .

واستحدث المعماريون الانجليز نمطا عرف بالنمط المتعامد ، وأنفقوا جهودا كثيرة على العقود (٥) .

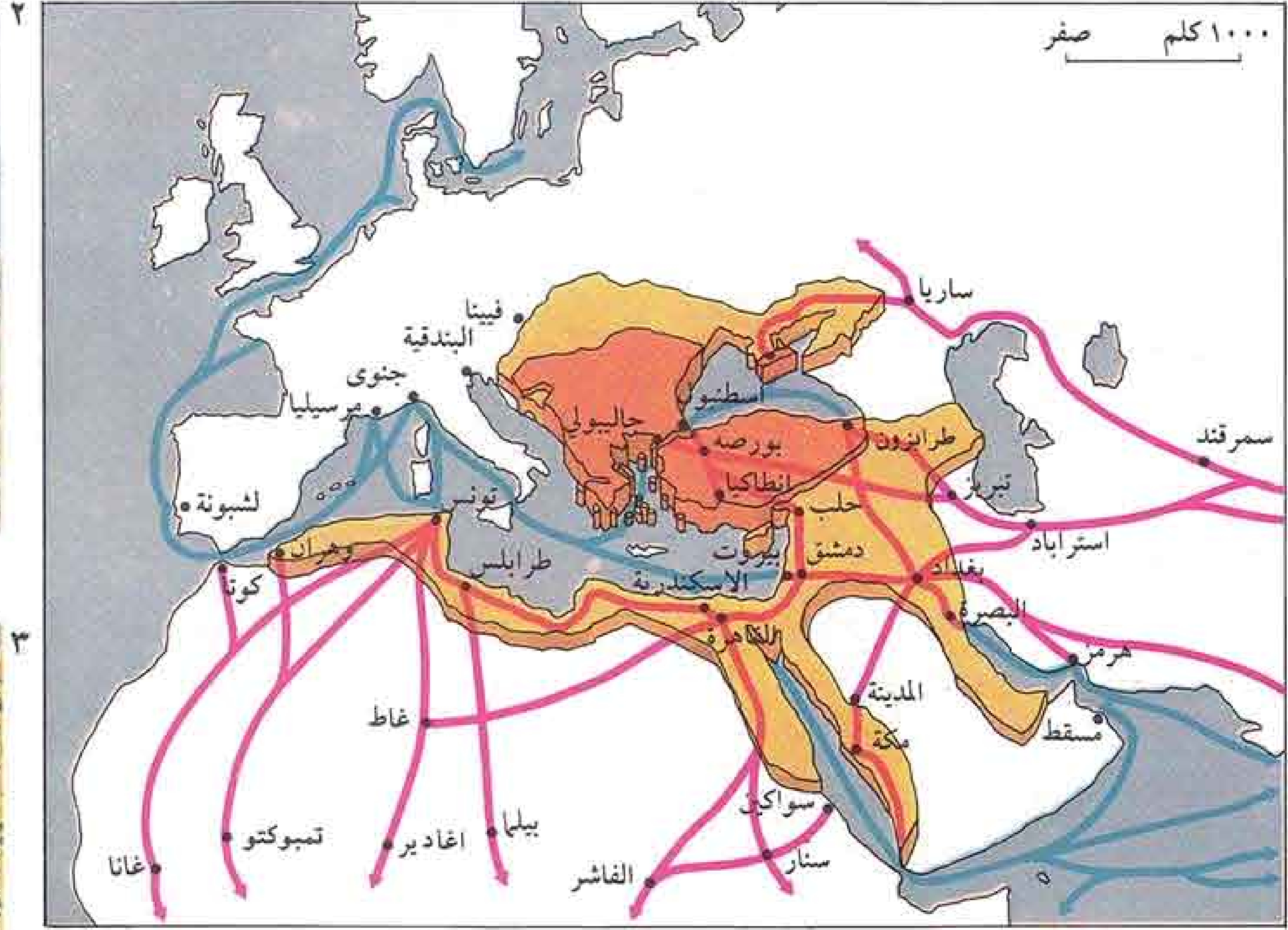
في أواخر الحقبة القوطية ، أصبحت النوافذ أكبر بصورة عامة ، وكانت تحتوي على اشكال رائعة من الزجاج الملون . على ان الاشكال الزخرفية للقرن الخامس عشر كانت ، بشكل عام ، أقل تنوعا مما كانت عليه في القرن الرابع عشر ، وهو اتجاه أدى في حالات عديدة الى استخدام المخطط ذاته للزجاج الملون في عدة كنائس . وكان من شأن هذا التكرار في كل من الفن والعمارة انه حدّ من نضارة الاسلوب القوطي وابتكاره ، فأعد العقول بذلك لتقبل « النهضة » بسرعة أكبر في أوروبا الشمالية .

ظهور الدولة العثمانية الى ١٦٠٠

الأتراك العثمانيون دعوا بهذا الاسم نسبة الى مؤسس السلالة عثمان الذي توفي سنة ١٣٢٦ وقد بدأوا كمحاربين مسلمين يحرسون تخوم العالم الاسلامي تجاه الامبراطورية البيزنطية . رفعتهم عبقرية عثمان العسكرية من مستوى البدو الرحل ، المفتقرين الى النظم السياسية والوعي القومي ، الى مرتبة أسياد عظام لامبراطورية عظيمة في منتصف القرن الرابع عشر .

هزم أورخان (حكم ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠ ؟) ، وهو ابن عثمان وخليفته ، جيشا بيزنطيا ارسل لمهاجمته سنة ١٣٢٩ ، وواصل زحفه حتى استولى على نيقية (ازنيك) وسواها من المدن وضم امارة كاراسي التركية المجاورة .

١



مسالك تجارية بحرية في القرن الخامس عشر

طرق تجارية برّية

الأمبراطورية العثمانية ١٤٨٠

الأمبراطورية العثمانية ١٦٠٠

(١) ـ استولت الامبراطورية العثمانية ، لدى استيعابها للعالم اليوناني القديم ، على المسالك التجارية الشرقية والغربية . فقد هاجمت المحطات التجارية في البلوبونيز وعلى طول بحر مرمرة وفي قبرص . الا ان المصلحة التجارية لم تكن الا أحد أهداف التوسع التركي ، لذلك كانت المكاسب التجارية تضحى أحيانا في سبيل التوسع العسكري باتجاه الدول غير الاسلامية في اوروبا .

٢



(٢) ـ كانت الخانات تبنى كفنادق على طريق قوافل الابل التي كانت تنقل البضائع الى الامبراطورية العثمانية عبر شبكة واسعة من الطرق البرية المؤدية الى الشرق ومنه . تقهقرت هذه الطرق عندما أخذت البرتغال تتاجر مع الهند عن طريق البحر . كان الخان التقليدي ، الذي كان يبنى على الطراز الفارسي ، يتألف من بناية ذات طابقين ، الأسفل منها مخصص لاسطبلات تحيط بمساحة مكشوفة . أقدم هذه المباني الذي ما يزال قائما يرجع الى حوالى ١٠٨٠ .

٣

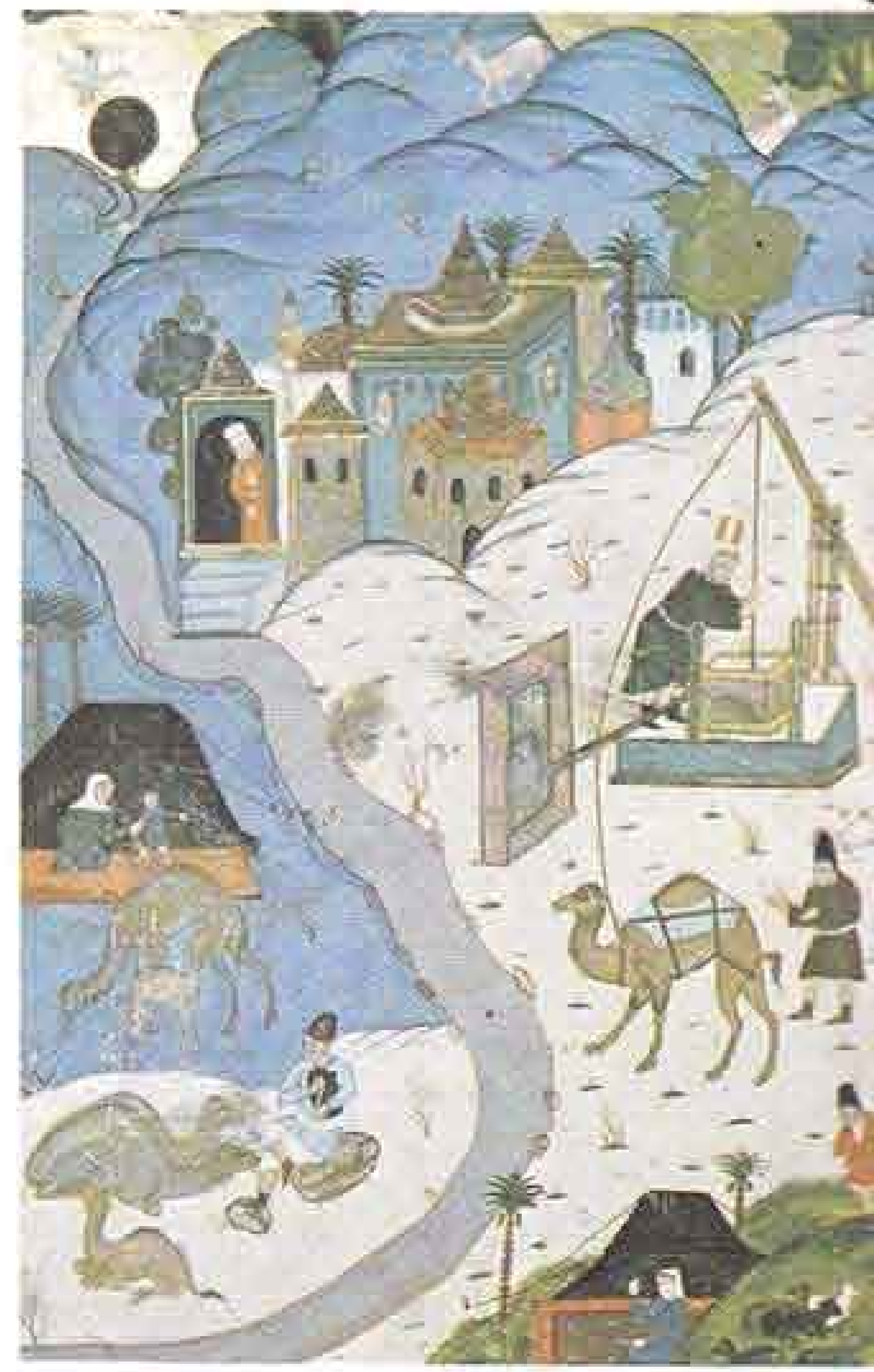


استهوت انتصاراته عددا من المحاربين التركمان الآخرين ، فالتحقوا طوعا بخدمته المغرية . في ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية الناشئة تملك حتى قبل عام ١٤٥٣ مساحات من الأراضي في اوروبا الشرقية أكثر اتساعا من مقاطعاتها في آسيا الصغرى .

حقبة توسع

بعد أن وطد سليمان ، ابن اورخان ، حكمه في غاليبولي سنة ١٣٥٤ ، أصبح للعثمانيين جيش ضخم قادر على شن حملات كبرى على اوروبا . فاستولى مراد الأول ، أخو سليمان وخليفة اورخان ، على ادرنة وجعلها سنة ١٣٦٥ عاصمته الاوروبية ، مدشنا بذلك نمطا جديدا من الفتح ، يتم به الاستيلاء لا على عاصمة يونانية فحسب ، بل ايضا على جهاز الحكومة وادارة الكنيسة فيها . استخدم العثمانيون رجال الاكليروس

٤



(٣) - عندما سقطت القسطنطينية (الظاهرة هنا على خارطة ترقى الى القرن الخامس عشر) سنة ١٤٥٣ ، ابتدأت مرحلة جديدة في التاريخ العثماني . كانت تلك المدينة العظيمة محورا للطموح التركي لأمد طويل ، الا أن المحاولات المتكررة للسيطرة عليها باءت بالفشل . وعندما تم الاستيلاء على العاصمة البيزنطية القديمة آخر الأمر ، أصبحت المركز الثقافي والاداري للامبراطورية العثمانية .

(٤) - رفع سليمان الأول ، المعروف « بالعظيم » أو « بالقانوني » الامبراطورية الى ذروة المناعة . هنا يصلح عماله قلعة في مصر ، وذلك دليل على اتساع سلطته وقوته العسكرية .

---

(٥) - بنى محمد الثاني ، فاتح القسطنطينية ، سراي طوبكابي أو « القصر القديم » على أنقاض الاكروبوليس القديمة . كانت هذه السراي أحد المباني العثمانية الباكرة في العاصمة الجديدة . وكانت المقر الرسمي للسلطان ، كما كانت مقرا للحريم . لقد بنيت حول عدد من الساحات وصممت على نطاق ضخم .

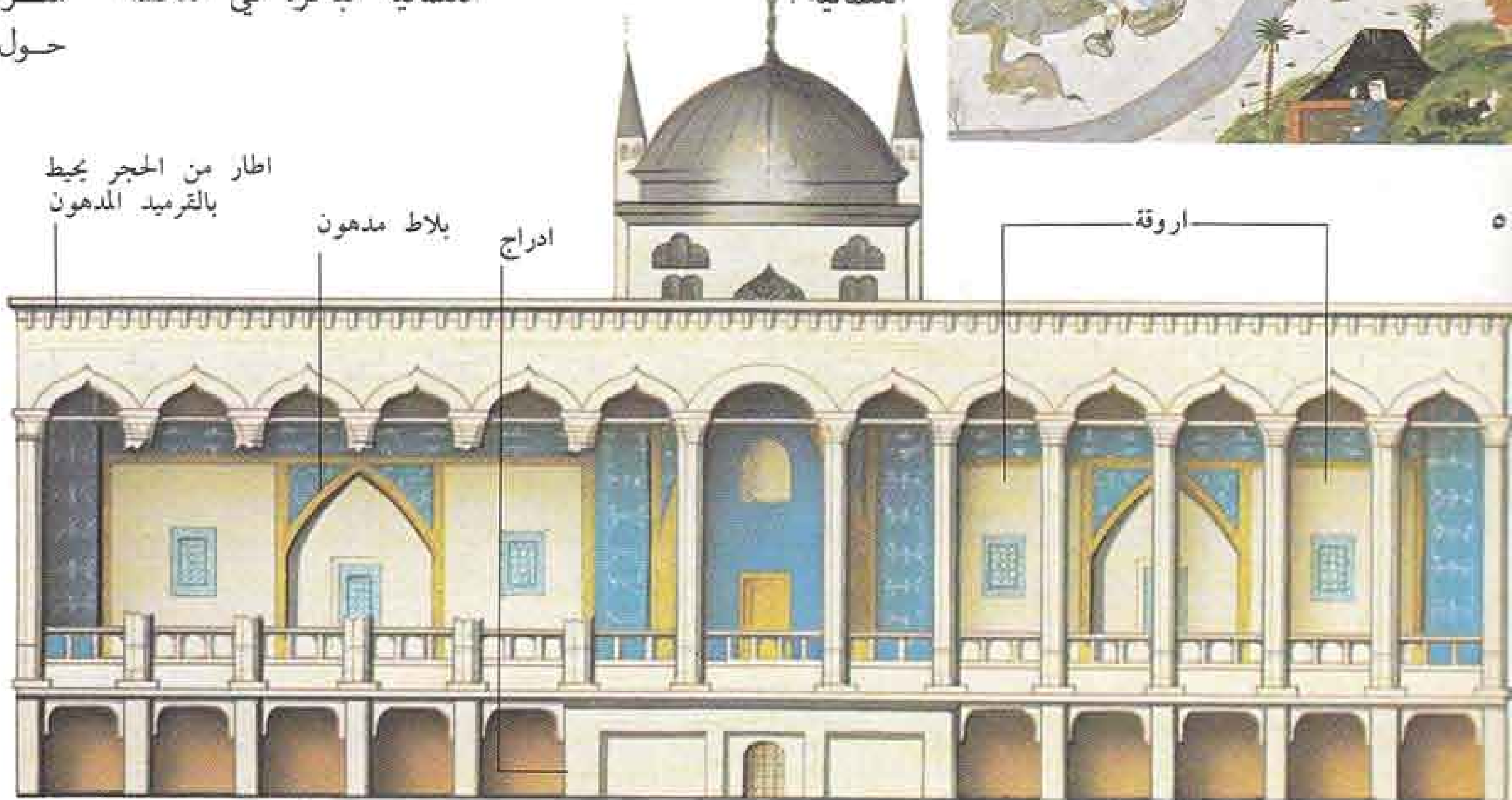
٦



---

(٦) - كان حصار فيينا ، على يد سليمان العظيم سنة ١٥٢٩ بمثابة الحد الفاصل للتوسع العثماني غربا . كانت خطوط الامدادات العثمانية قد امتدت الى مساحة شاسعة البعد عن اسطمبول .

٥

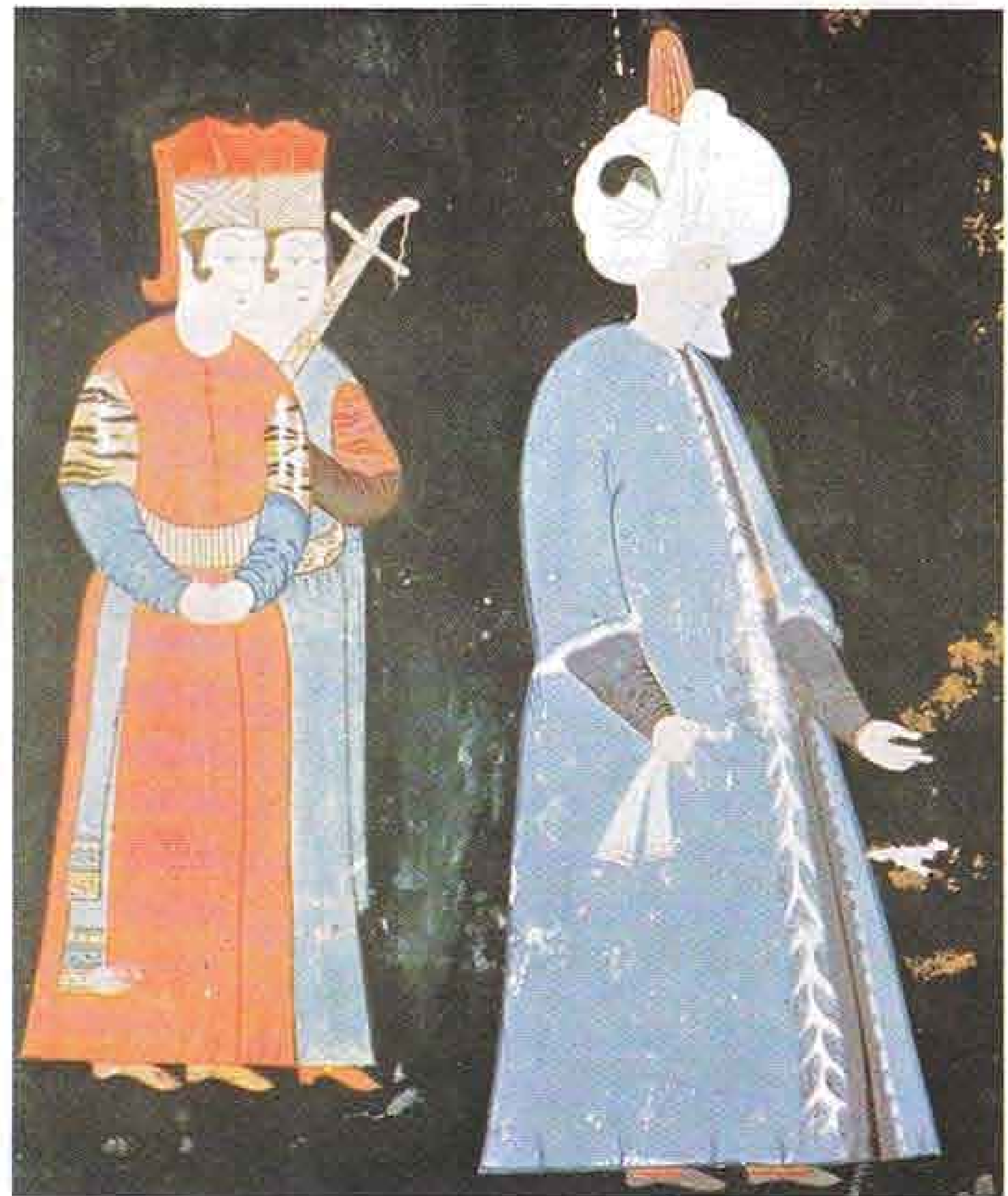


كجباة ، واعتبروهم مسؤولين عن تصرف رعيتهم ، ومنحوا الفلاح العادي قدرا من الحرية مساويا للقدر الذي كان يتمتع به في ظل الحكم اليوناني ، ان لم يكن أكثر .

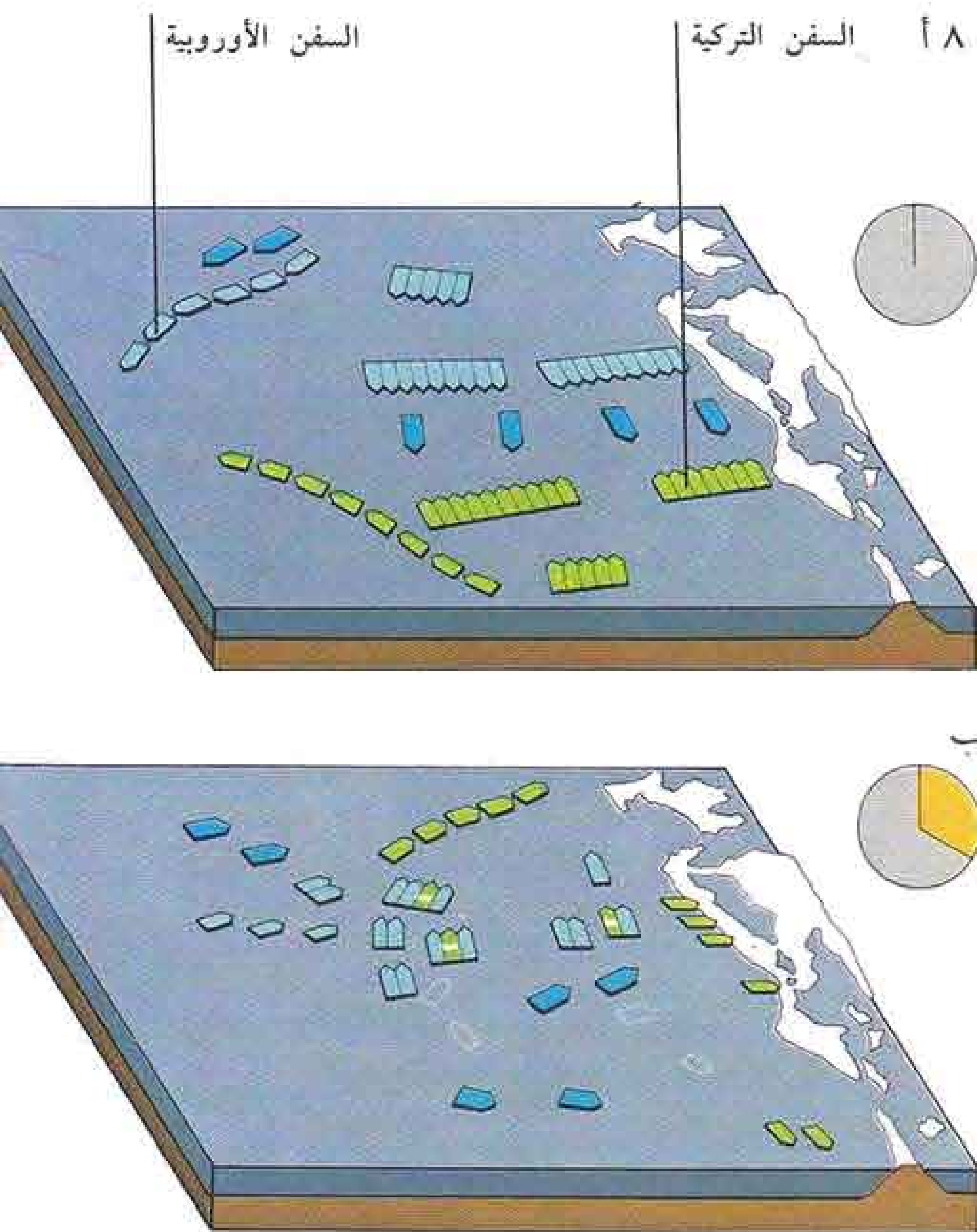
توقف الزحف غربا لمدة وجيزة في الجزء الأخير من القرن الرابع عشر ، على اثر هجمات القائد التتري تيمورلنك على الأناضول . أقام تيمورلنك امارات تركمانية مستقلة ، ومع ان احدى هذه الامارات لم تعمر طويلا ، الا ان مجرد وجودها كشف عن ضعف الامبراطورية .

العصر الذهبي

جاء العصر الذهبي للسلطة العثمانية في عهد مراد الثاني (حكم ١٤٢١ ـ ١٤٥١) وابنه محمد الثاني (حكم ١٤٥١ ـ ١٤٨١) . انشأ مراد الانكشارية ، وهي مجموعة من الجنود والموظفين الذين كانوا يؤخذون من بين



٧



(٧) ـ تبيّن هذه الصورة المصغرة لسليمان الأول (الذي لقبه الشرق بـ « القانوني » والغرب بـ « العظيم ») في منتصف القرن السادس عشر ، اقتباس الأزياء الداخلية التي تميّز بها الفن التركي . استغل الأتراك مهارات رعاياهم . ولم يكن لديهم فن تركي أصيل واسع النطاق باستثناء حياكة السجاد والمنسوجات على أشكالها .

(٨) ـ دارت معركة ليبانتو بين اسطول الحلفاء (اسبانيا والبندقية والكرسي البابوي) والاسطول العثماني بالقرب من الساحل اليوناني . في البداية (أ) كان كل أسطول مؤلفا من صفين زاحفين وصف للمساندة . كان لدى القوات الاوروبية قوادس (زرقاء غامقة) وسفن كبرى أخرى (زرقاء باهتة) . بعد أربع ساعات (ب) كان الاسطول التركي قد تناثر . بعد أن اندفع معظمه الى الشاطىء أو غرق (الهوامش البيضاء) أو استولى المهاجمون على ما تبقى منه (السفن المعلمة بالبياض بين اللون الأزرق) .

مسيحيي البلقان ويدربون على الطاعة المطلقة. بقيام هذا الجيش، الذي كان يدعى «دوشرمة»، نشأت طبقة اجتماعية جديدة اصبح مصيرها مرتبطا بمصير السلطنة.

كان محمد الثاني المعروف «بالفاتح» سبب سقوط الامبراطورية البيزنطية. ففي سنة ١٤٥٣، وفي أعقاب حصار طويل الأمد، استولى على القسطنطينية (وتعرف اليوم باسطمبول) (٣، ٥)، فأعطى للامبراطورية المركز الثقافي والاداري الذي كانت تفتقر اليه. كان انجازه بالحقيقة هو انه وحد من جديد الامبراطورية الشرقية القديمة تحت لواء حاكم واحد. أدى انتقال السلطان وبلاطه الى العاصمة الجديدة الى انتصار «الدوشرمة» على الارستقراطية التركمانية القديمة، ولكنه جعل أيضا مركز السلطة بعيدا عن الأناضول، مما زاد في اضعاف الحدود الشرقية البالغة الأهمية.

جاءت الحقبة الكبرى التالية من حقب التوسع في عهد سليمان الأول، «القانوني» أو «العظيم» (حكم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) (٤، ٦) الذي كسب للامبراطورية اراضي جديدة في اوروبا. أصابت وطأة الهجوم الرئيسية هنغاريا التي اصبحت سنة ١٥٢٦ دولة خاضعة لحكم السلطان. الا ان الحاجة الى المحافظة على وجود قوي في الأناضول، فضلا عن مشاكل التموين والنقل عبر مساحات شاسعة من هذا النوع، جعلت المضي في التوسع غربا أمرا خطرا أو غير ممكن. فمني حصار فيينا سنة ١٥٢٩ (٦) بالفشل. الا ان الصراع استمر في البحر، اذ كانت مصانع السفن في القسطنطينية قد جعلت من العثمانيين قوة بحرية رئيسية. لكن معركة ليبانتو سنة ١٥٧١ (٨) قضت في آخر الأمر على القوة التركية البحرية، وأعادت الأتراك الى شرقي البحر المتوسط.

الانحلال والسقوط

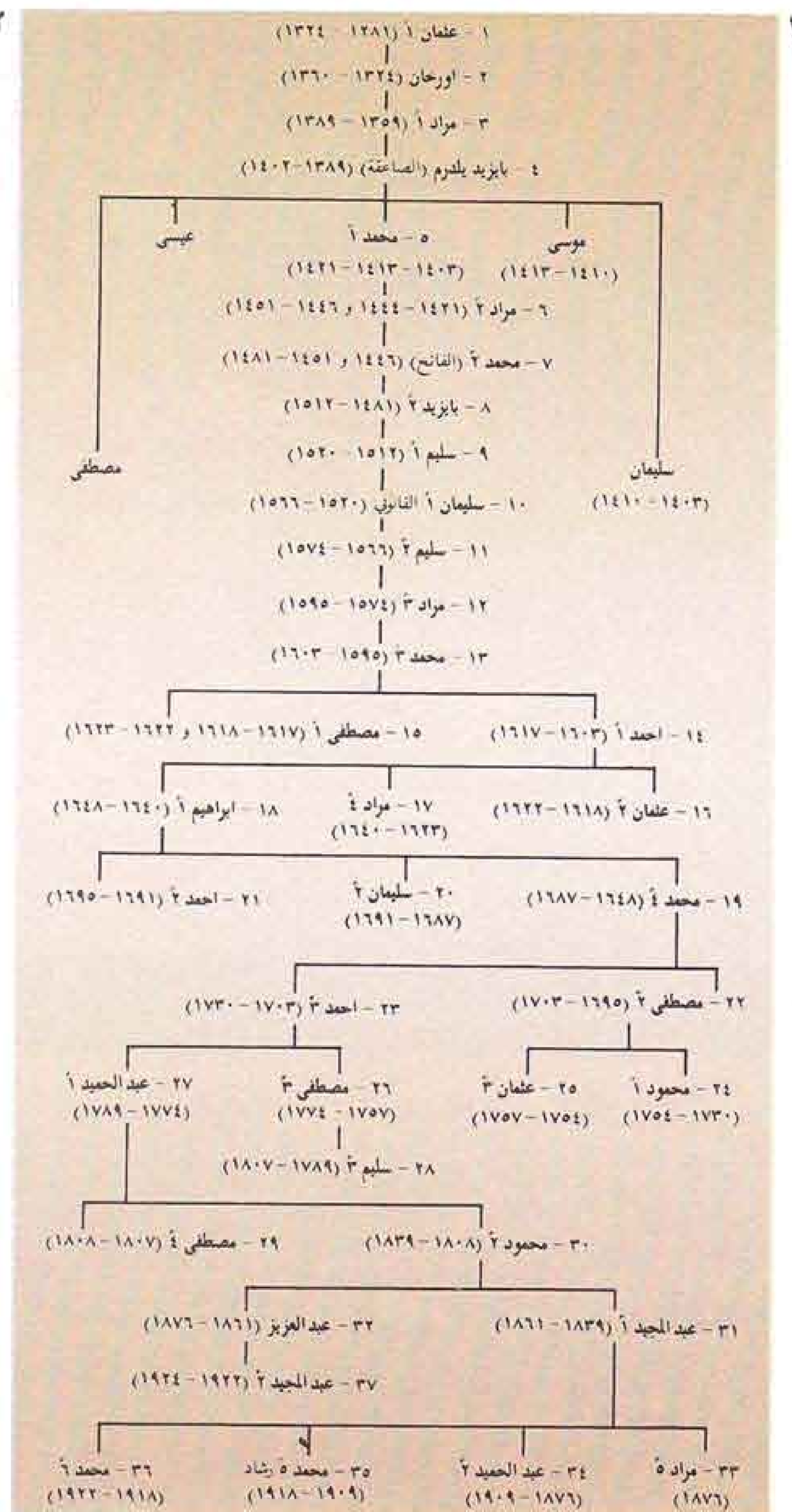
في اواخر القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت الدولتان العظميان، العثمانيون وآل هابسبورج، تواجه احداهما الأخرى مواجهة خطرة. ولكن بحلول ١٦٠٠ بدأت السلطة العثمانية في التدهور نتيجة للنزاع الداخلي والصراع الحزبي فضلا عن تدخل الحريم في السياسة والضغط المستمر على الحدود الشرقية.

بقيت الامبراطورية العثمانية اثناء تاريخها الطويل قبلية البنية في جوهرها. فلم يكن «للديوان»، وهو هيئة السلطان الادارية، سوى صلاحيات جزئية. ومع ان الصدر الأعظم أخذ يحكم الامبراطورية بفعالية متزايدة بعد عهد سليمان، فقد كان مركزه مزعزعا دوما. ولم تكن ثمة طريقة سهلة لتأمين خلف له لدى وفاته او عند نقمة السلطان عليه. كذلك لم يؤد توزيع الأراضي على شكل هبات شبه اقطاعية تدعى اعتيمارات الى قيام طبقة من النبلاء الملاكين يكون مصيرها مرتبطا بمصير السلطان. ومع ان الدوشرمة أمنوا للسلطان قاعدة عسكرية متينة، فقد باعدوا بينه وبين النبلاء التركمان، وأصبحوا أحيانا خطرا على سلامته. لكن على الرغم من الضعف الداخلي، نجحت الامبراطورية العثمانية في نظم مجموعة من الشعوب المختلفة في عقد دولة واحدة.

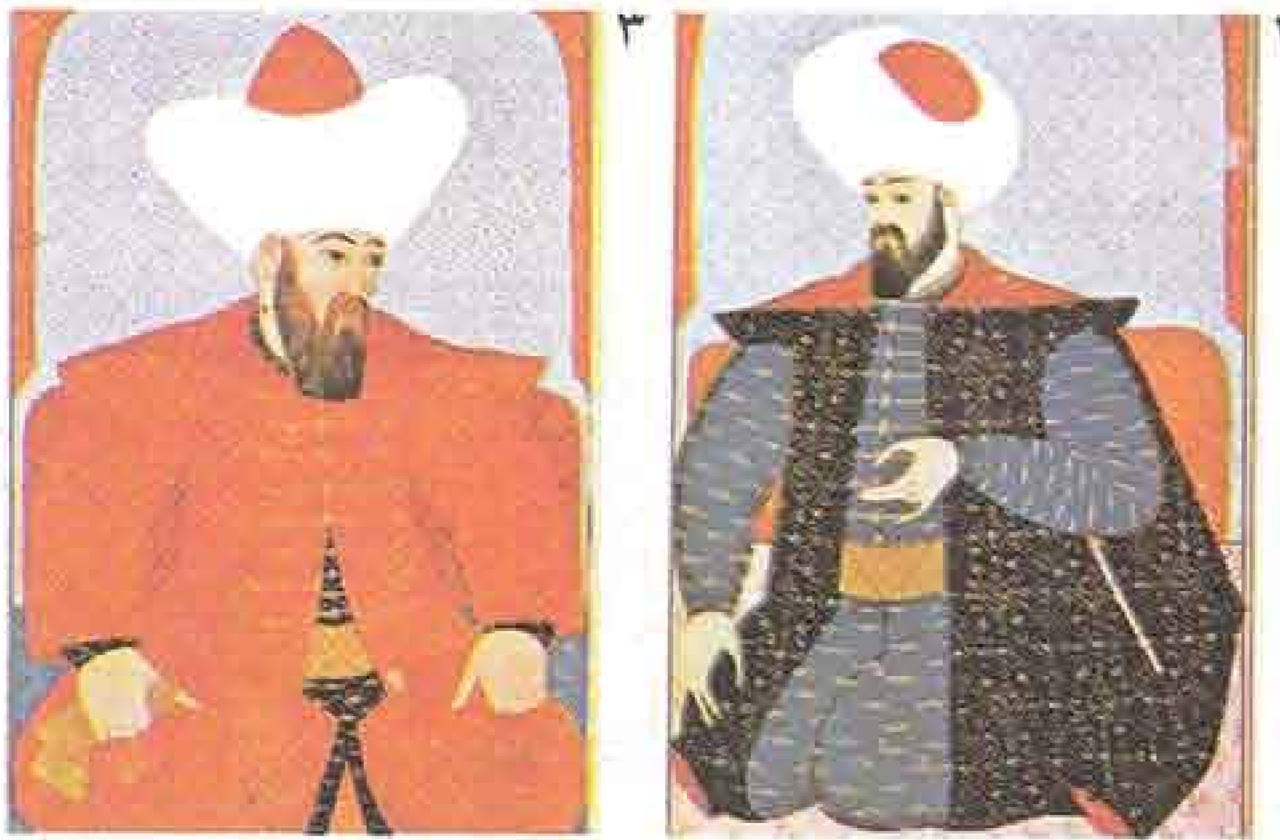
توسع الامبراطورية العثمانية

كانت السلالة التركية التي سيخرج منها عثمان (١) ، مؤسس الدولة التي ستعرف بأسمه ، احدى القبائل التركية التي قذفها مع سواها من القبائل التركية المد المغولي الأول بقيادة جنكيز خان في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي من اواسط آسيا الى بلاد الاناضول حيث انزلها السلجوقيون في غربي البلاد للدفاع عن المناطق المتاخمة للبيزنطيين والمعرضة مباشرة لهجماتهم . واذ تمرست هذه القبيلة في هذه الحروب واشتد ساعدها ، قام أحد قوادها ، وهو عثمان الأول (٢) (١٢٨١ ـ ١٣٢٦) وأعلن استقلاله عن السلجوقيين ، مصمما على محاربة البيزنطيين لحساب دولته الفتية ، وسرعان ما أخذ يكتسح

١



٢ ٣



(١) ـ يبين هذا الجدول سنوات حكم كل من سلاطين بني عثمان ، من المؤسس عثمان الى محمد وحيد الدين او محمد السادس الذي انتهى حكمه سنة ١٩٢٢ . بلغ عددهم ستة وثلاثين سلطانا . في عهد السلاطين الستة الأول (١٢٨١ ـ ١٤٥١) تمّ توسيع الدولة حتى شملت آسيا الصغرى وجزءا من البلقان ، ونقلت العاصمة من بورصة الى ادرنة (ادرينوبل) . ولما تولى محمد الفاتح السلطنة (١٤٥١) شدد الحصار على القسطنطينية واحتلها (١٤٥٣) ، وعندها بدأ عصر الامبراطورية ، واصبحت العاصمة تدعى اسطنبول .

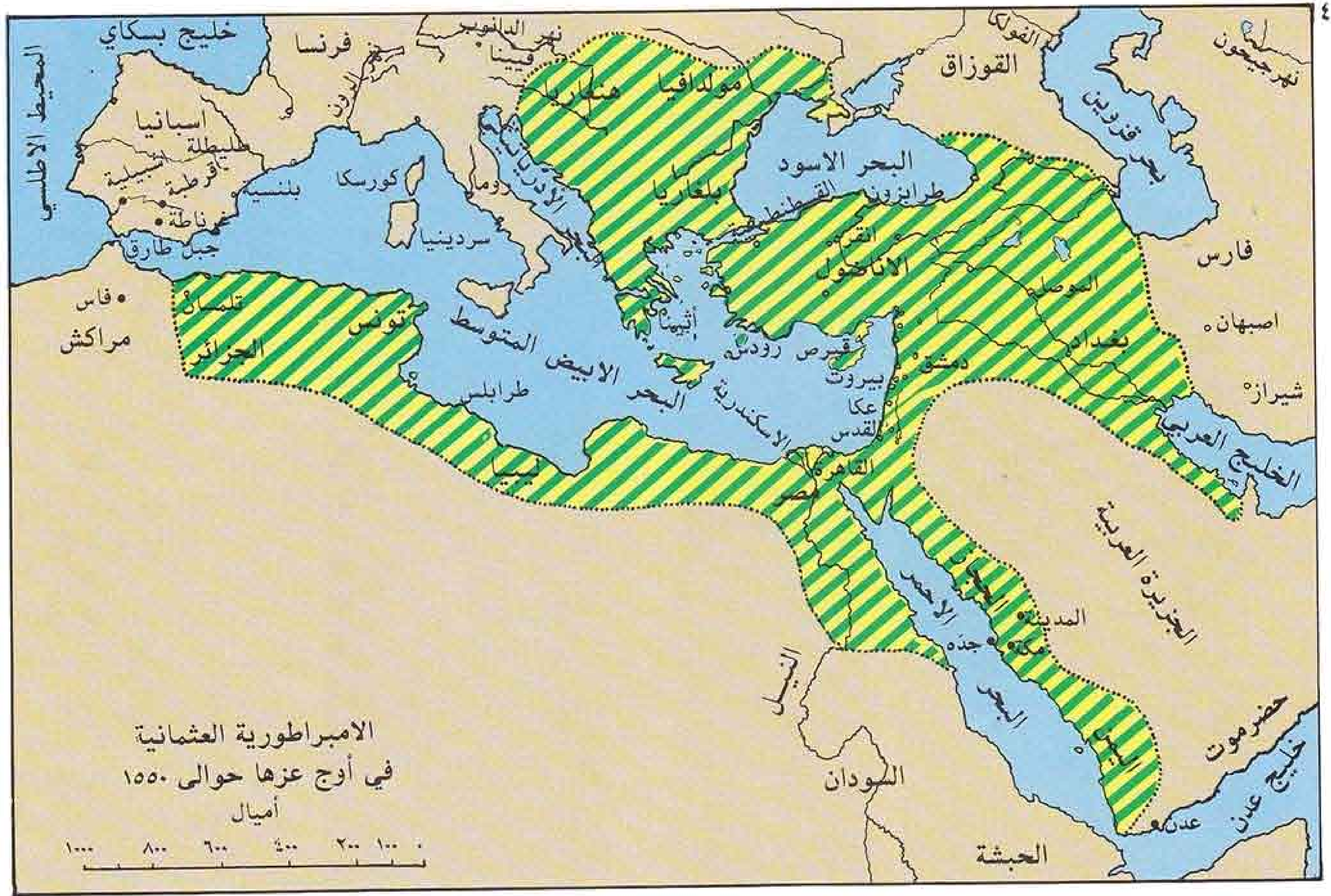
(٢) ـ السلطان عثمان الأول (١٢٨١ ـ ١٣٢٤) هو مؤسس الدولة ، ومنه تحدر جميع سلاطين آل عثمان . بدأ بالاستيلاء على مثلث مدن بيليسيك واينيغول ويار هيشار . ولما استولى على مدينة ينيشهر ، اتخذ منها مركزا للعمليات الحربية ضد ازنيك (نيقية) و بورصة .

(٣) ـ السلطان أورخان (١٢٨٨ ؟ ـ ١٣٥٩) هو ابن عثمان الاول مؤسس الدولة العثمانية . انشأ الجيش الانكشاري واخضع بعض الامارات التركية في الاناضول ثم توجه نحو البيزنطيين ، فهزمهم عند بورصة ١٣٢٦ التي جعلها عاصمة له . اخيرا اجتاز البوسفور واحتل مقدونيا وتراقيا . بنى عددا من المدارس والجوامع .

قواعدها المجاورة .

سلاطين بني عثمان الأول

تولى العرش العثماني بعد عثمان خمسة سلاطين هم : اورخان (١٣٢٤ - ١٣٥٩) ومراد ومراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) وبايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) الذي وقع في الأسر ، ومحمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) ومراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) وفي عهد هؤلاء تم للدولة العثمانية ، بقيادة سلاطينها وجندها الانكشاري (٣) (أنشأه اورخان) القيام بأعمال عسكرية هامة حققت التوسع العثماني المعروف . فقد احتُلَّت بورصة واتُخِذت عاصمة للدولة (١٣٢٤) . وقُضي على آخر معقل بيزنطي في الاناضول (١٣٣٧) ووُضعت الامارات التركية الصغرى فيه تحت سيطرة الدولة (١٣٩٩) . لكن الزحف العثماني شرقا توقف بسبب حملة تيمورلنك (١٤٠٢) التي انتصر

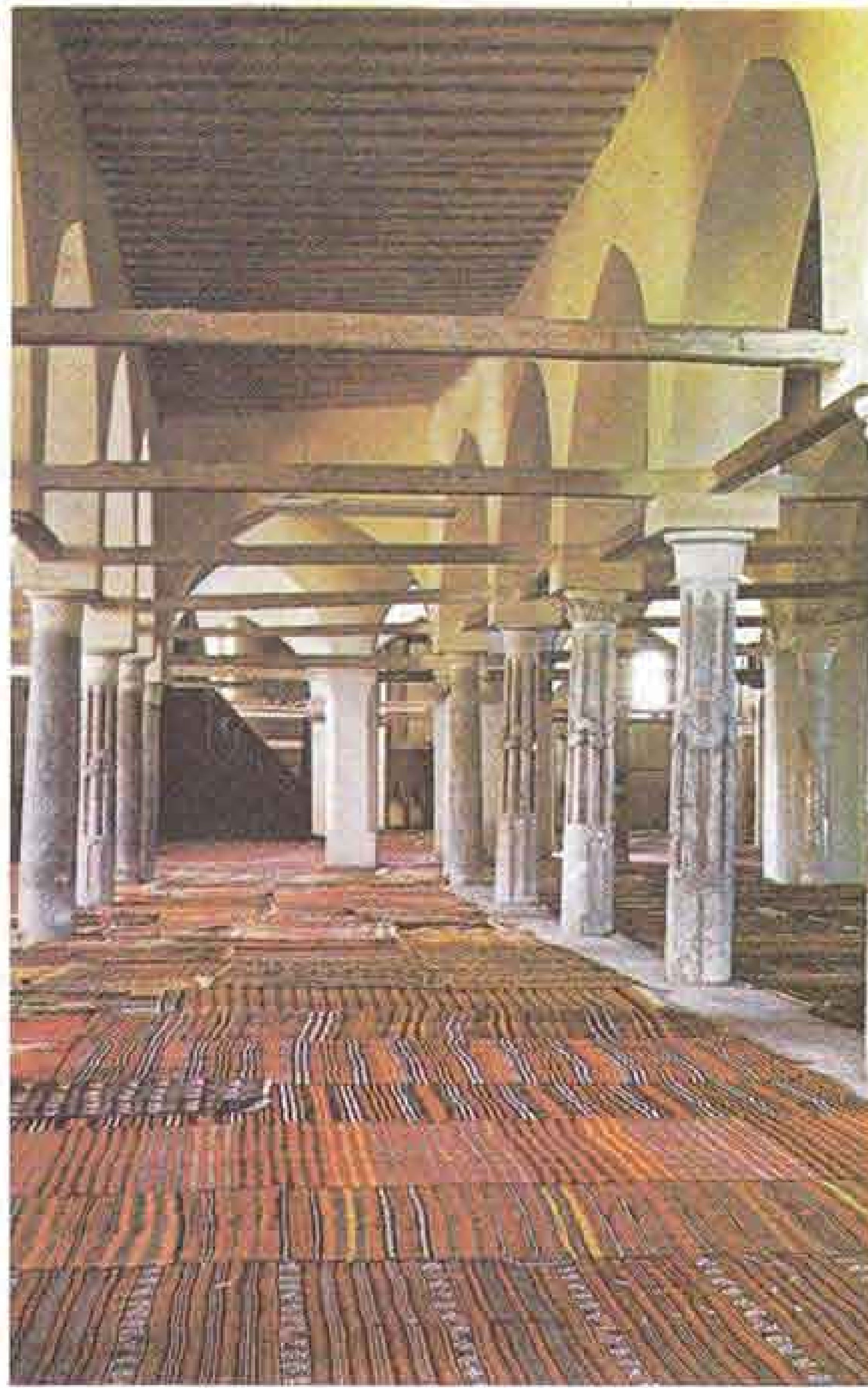


(٤) - بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، اصبحت الدولة العثمانية امبراطورية اخذت تتوسع تدريجيا حتى توصّلت ، في أوج مجدها ، الى شكلها المتمثل في هذه الخريطة . فقد امتدت غربا حتى بلغت أبواب فيينا ، شاملة معظم البلدان البلقانية ، وتوسعت نحو الجنوب الشرقي فضمت العراق وبلاد الشام ومصر ١٥١٨ ، ثم تطلعت الى بقية الشمال الافريقي ، فضمت الجزائر ١٥٢٠ ورودس ١٥٢٢ وتونس ١٥٣٤ وليبيا ١٥٥١ ، وكانت في تلك الاثناء قد أخضعت اليمن بعد ان احتلت عدن ١٥٤٧ ومسقط ١٥٥١ حتى رأس الخليج العربي . بقي خارج حدودها ، من البلدان العربية السودان والمغرب وحضرموت ؛ ومن البلدان الاسلامية الآسيوية المتاخمة بلاد فارس الشيعية؛ ومن بلدان اوروبا روسيا وانجلترا وفرنسا و«الامبراطورية الرومانية المقدسة » التي كانت تشمل اسبانيا وامريكا اللاتينية وايطاليا وهولندا والمانيا والنمسا .

فيها على بايزيد الأول وأسره (وقد مات هذا في الأسر) .

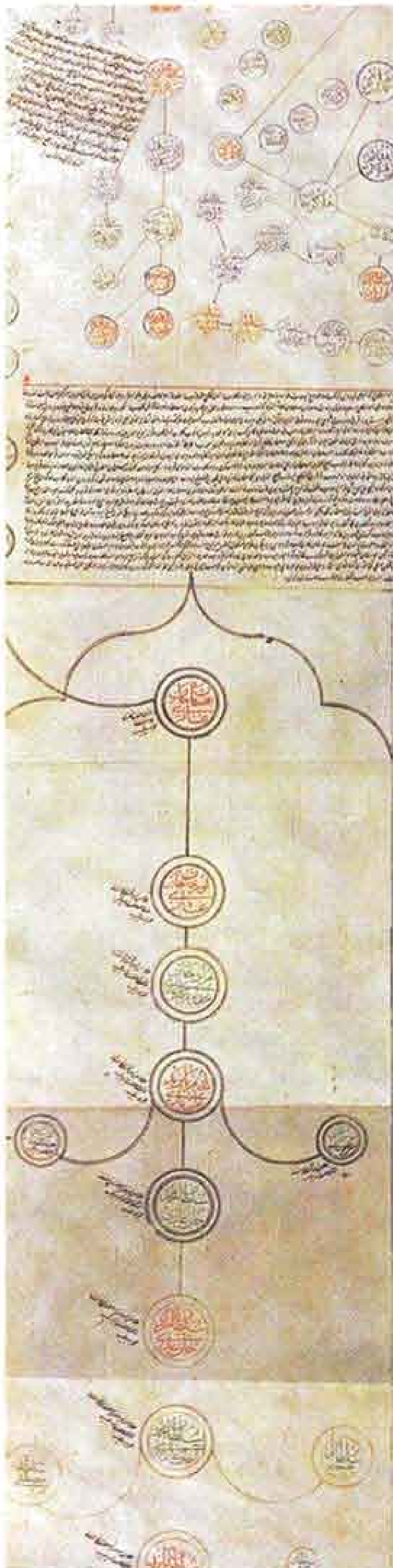
الا ان الاتجاه غربا كان هو الأهم في الفترة التي تولى فيها هؤلاء السلاطين الحكم . فقد نزل العثمانيون في جاليبولي (١٣٥٣) واتجهوا نحو البلقان فاحتلوا تراقيا ، واتخذ مراد الاول من ادرينوبل (ادرنة) عاصمة له (١٣٦٥) تأكيدا لعزمه على البقاء في اوروبا . وسحق العثمانيون القوات الصليبية في مارتيزا (١٣٦٣) ونيكوبوليس (١٣٩٦) . وانتصروا على القوات المحلية في كوسوفا (١٣٨٩) .

وقد عبّد هؤلاء الطرق لفتح القسطنطينية، وذلك انهم أرغموا الامبراطور البيزنطي على دفع غرامة حربية (١٤٢٤) وانتزعوا سلانيك من البنادقة (١٤٣٠) وانتصروا على آخر تحالف صليبي ضدهم في معركة فارنا (١٤٤٤) .



٥

(٥) ـ تقع قونية (ازنك الحالية) في اواسط آسيا الصغرى ، وقد كانت عاصمة سلطنة الروم السلجوقية (١٠٨١ ـ ١٣٠٢) . وقد احتلها عثمان (١٢٨١ ـ ١٣٢٤) وقضى على السلطنة السلجوقية فيها . وكان احتلال بلاد هذه السلطنة بدء الاتصال الحضاري الوثيق بين العثمانيين والسلاجقة . مسجد علاء الدين في قونية نموذج للفن المعماري لتلك الفترة ، بناه قيلج أرسلان الثاني سلطان قونية (١١٥٦ ـ ١٢٢٠) . الصورة للمسجد من الداخل . تتجلى في هذا البناء بعض خصائص الفن المعماري السلجوقي في الاناضول التي تميزه عن الفن المعماري السلجوقي الفارسي والتي أثرت في الفن العثماني ، وهي اتساع الجامع طولا ، والقباب بدلا من الساحات ، والحجر بدلا من الآجر . وكما عرفت سوريا بفن الزجاجيات . وايران بالفخاريات والمنمنمات ، والعراق بالمعدنيات . هكذا عرف سلجوقيو الروم بناء الجوامع والخانات المحصنة .



٦

(٦) ـ شجرة سلاطين بني عثمان . توضح هذه الصورة أمرين ؛ الاول تحدر أمراء العثمانيين من ملوك المغول القدامى ، والثاني ان جميع سلاطين آل عثمان ـ من المؤسس عثمان الى آخر واحد منهم ـ متحدرون من نسل السلطان الأول . الا ان نظام الخلافة العثماني كان يمنح حق تولي العرش بعد وفاة السلطان الى أكبر الذكور سنا من الأسرة ، وليس بالضرورة الى ابن السلطان المتوفي .

فتح القسطنطينية

جاء محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١) الملقب « بالفاتح » مصمما على الخلاص نهائيا من الامبراطورية البيزنطية التي كانت قد انحسرت حينذاك الى بقعة صغيرة تضم العاصمة نفسها وريفها المباشر . ورغم المقاومة الشديدة التي أبداها آخر الأباطرة البيزنطيين ، دخل محمد « المدينة الابية » في ٢٩ مايو ١٤٥٣ . ثم استولى على البوسنة (١٤٦٣) والبانيا ، وطرد الجنويين من القرم (١٤٧٥) وقضى على الدولة اليونانية في طرابزون (١٤٦١) . ثم تساقطت الايالات الجنوية والبندقية القائمة على بحر إيجه الواحدة تلو الاخرى ، كما وقعت جزيرة الموره في ايدي العثمانيين الذين كانوا قد اخذوا يشنون الحرب في البحر ايضا فتوصلوا الى النزول حتى في اوترانت في جنوبي ايطاليا (١٤٨٠) .

وعلى عهد بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢) تمكن ملك هنجاريا ماتياس كورفان من ايقاف التقدم العثماني في اوروبا . غير ان الاسطول العثماني أحرز اول نصر بحري له على اسطول البندقية في معركة ليبانتو الأولى (١٤٩٩) فقام اذ ذاك « الحلف المقدس » المؤلف من البابوية والبندقية وهنجاريا واسبانيا وفرنسا ، لكنه لم يحقق شيئا يذكر ، سوى انه حوّل موقتا النشاط التوسعي العثماني نحو بلاد الشرق .

عمل سليم الاول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) على توحيد جميع الشعوب الاسلامية تحت حكمه ، فتسنى له ذلك اولا بقهر شوكة الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية في ايران عند سهل جالديران (١٥١٥) وثانيا بضم بلدان سوريا ومصر والحجاز التي انتزعها من يد السلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد معركتي مرج دابق والريدانية (١٥١٧) وأوقف سلسلة الخلفاء العباسيين في القاهرة ولقبهم الذي كان لا يزال قائما اسميا في ظل العرش المملوكي في مصر .

التوسع العثماني في أوجه

بلغ التوسع العثماني ذروته على يد سليمان القانوني او كما يسميه الغربيون سليمان العظيم (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الذي احتل بلغراد (١٥٢١) ووضع معظم هنجاريا تحت حمايته (بعد انتصاره في موهاك ١٥٢٦) ، وان كان هجومه على فيينا (١٥٢٩) لم ينجح . اما في البحر المتوسط ، فقد طرد سليمان فرسان القديس يوحنا (١٥٢٢) من رودس وحل محل البندقيين في جميع الأماكن التي كانوا قد نزلوا فيها . وكان قد استخدم القائد البحري خير الدين بربروسا للسيطرة على الجزائر (١٥٢٠) ومن ثم على طرابلس وتونس . (بقي المغرب خارج حدود الامبراطورية العثمانية) . قويت شوكة الامبراطورية في عهد سليمان الى حد ان فرنسوا الاول ملك فرنسا أخذ يتقرب منه وتحالف معه ضد منافسيه الاوروبيين ووضع معه اتفاقية « الامتيازات » الشهيرة .

بعد سليمان العظيم ، أخذت بوادر التقهقر تدب في جسم الامبراطورية ، من الداخل ومن الخارج معا ، حتى اصبحت في اوائل القرن التاسع عشر ذلك « الرجل المريض » الذي احاط القادة الاوروبيون بسريره لمعالجته اولا ثم للقضاء عليه في آخر الأمر .

تنظيم الدولة العثمانية

كان احتلال محمد الثاني الفاتح للقسطنطينية (١٤٥٣) فاتحة عصر جديد للدولة العثمانية التي قدر لها بعد ذلك ان تصبح امبراطورية واسعة (٢) . وبهذا أعاد الأتراك الى الوحدة الاسلامية سابق مجدها .

ورث العثمانيون ، في النظام الذي وضعوه لدولتهم الجديدة ، فضلا عن حضارة السلاجقة والدول التركية في الأناضول ، حضارات متنوعة ومتباينة : استمدوا من البيزنطيين اكثر نظمهم الحربية ، واخذوا عن المماليك نظم الادارة ، وعن الفرس موضوعاتهم الفنية واصطلاحاتهم الادبية والسياسية واعتبروا العرب معلميهم في مجال الشريعة والعلوم واللغة .

١



٢



(١) ـ كانت آلة الدفاع والحرب والفتوح العثمانية تقوم على الجند السباهي (الفرسان) والانكشارية (المشاة) . كان الانكشارية فخرا للعثمانيين ولجميع الجيوش المقاتلة منذ انشاء نظامهم على يد اورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٥٩) الى القرن السابع عشر . الصورة لفريق من الانكشارية بالثياب العسكرية والسلاح الكامل .

---

(٢) ـ أراد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ان تتضح عظمة الامبراطورية التي كان يتربع على عرشها بشكل بيّن في عاصمته . فبنى الجامع الذي يحمل اسمه « السليمانية » . وقد أراده ان يكون أعلى من ايا صوفيا (التي اصبحت جامعا منذ فتح القسطنطينية ١٥٤٣) فزاد في ارتفاع قبته خمسة امتار ، وهو من بناء المهندس الكبير سنان .

---

(٣) ـ الجامع الأزرق ، أحد أجمل جوامع اسطنبول ، بناه

نظام الحكم في الامبراطورية العثمانية

كان نظام الحكم في الامبراطورية العثمانية في جوهره نظاما عسكريا ، اذ اكتسبت هذه الدولة وجودها من كونها دولة مجاهدة على الحدود البيزنطية . كان السلطان يحتل رأس الهرم في هذا النظام ، فهو المهيمن على الجهاز السياسي والجهاز العسكري الذي انبثق عن نظام الاقطاع المنقول عن نظام سلاطين قونية . وكان السلطان يحكم على أساس « الحق الالهي » ، ويعتبر الممثل الوحيد لرعاياه ولمصالح الاسلام . وتُضرب السكة باسمه ، ويُخطب له على المنابر . كان يدافع عن دولة الاسلام ضد النصارى ، ويحمي الاماكن المقدسة ، وينظم الحج بعنايته . ومع انه كان يتقيد بأحكام الشريعة الاسلامية وبعض الاعراف والتقاليد ، فان ارادته كانت مطلقة . والدولة كانت تُعتبر ملكا خاصا به ، اذ كان محصول



السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) . وقد تم العمل على يد المهندس المعماري محمد آغا بين سنتي ١٦٠٩ - ١٦١٦ . تبدو في هذا الجامع المهارة الفنية في تركيب القبة الكبرى على الأقواس ، والاهتمام بالقباب الصغيرة . كما يتضح من الألوان ومن الزخرف الشوط الذي قطعه المهندس والمعمار العثمانيان منذ أيام محمد الفاتح (جامع الفاتح) الى أيام أحمد الأول.

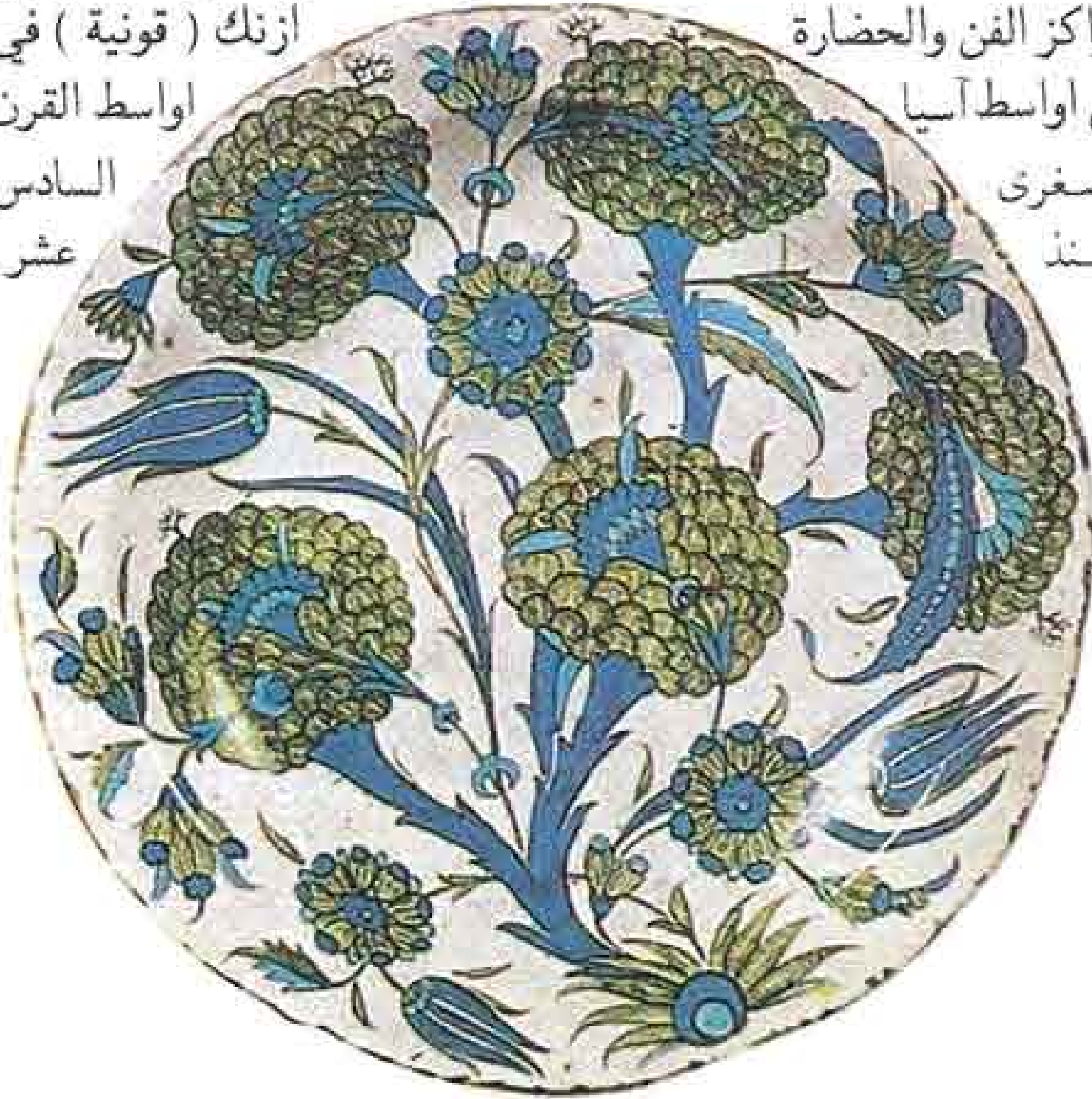


٤

(٤) - مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) الذي يعود اليه اتخاذ غاليبولي نقطة انطلاق للفتوح في أوروبا . وهو الذي فتح تراقيا واحتل ادرنة . وقد قبل مراد خضوع بعض الامارات الاوروبية ودفعها الجزية ، دون أن يحتل بلادها . وبدءا من سنة ١٣٧١ احتل مراد مقدونيا واواسط بلغاريا وانتصر على الحلف البلقاني في كوسوفا (١٣٨٩) . وقد قتل هو في هذه المعركة .

---

(٥) - كانت سلطنة قونية السلجوقية (١٠٨١ - ١٣٠٢) من مراكز الفن والحضارة في أواسط آسيا الصغرى منذ وقت قديم الى ان احتلها العثمانيون . كانت المقدرة الفنية أحد العناصر التي ورثها العثمانيون عن السلجوقيين ، وظلت للمنطقة اتجاهاتها الفنية ، كما يبدو



٥ من هذا الصحن الكبير المصنوع في ازنك (قونية) في اواسط القرن السادس عشر.

الضرائب الصافي البالغ أحيانا خمس ميزانية الدولة ، يجمع في بيت ماله الخاص المعروف بخزانة الأبراج السبعة . لكن السلطة الفعلية كانت تنتقل ، في عهد السلاطين الضعفاء ، الى كبير الوزراء او « الصدر الأعظم » . غير ان هذا المنصب كان مدينا بوجوده للسلطان نفسه الذي كان باستطاعته عزل متوليه متى شاء .

ان « قانون نامه » الذي وضعه السلطان محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١) ، كان يعتبر الوزير الأول وصيا فعليا على الامبراطورية ، يقرر شؤون الدولة ومصالحها ، ويحمل الخاتم الامبراطوري رمزا الى ما كان يتمتع به من نفوذ . وكان الموظفون الاداريون يقدمون له الاموال والولاء في كل مناسبة ، حتى أصبح مقره الشهير المعروف بالباب العالي مقرا حقيقيا لحكومة السلطان . ولكن قوة الوزير الاول او الصدر الاعظم كانت مرتبطة بقوة

٦ أ



ب



(٦) ـ تضم متاحف اسطنبول حاليا معظم كنوز العثمانيين من الاقمشة والمنسوجات كالحرير المقصب والمخمل على الطراز الاوروبي او الايراني على السواء . كما تضم نماذج مختلفة من السجاد والصناديق المعدة لحفظ النسخ الفاخرة من المصاحف . الا ان اعظم متاحف عاصمة العثمانيين هو مركز السلطان العثماني المعروف بـ (طوب قابي) الذي يضم مجموعات عظيمة من المجوهرات والكؤوس والكاسات والأطباق المرصعة بأغلى الجواهر (أ) وكذلك المصاحف المزينة وعروش السلاطين (ب) التي تتجلى فيها مظاهر الترف والبذخ الذي عرفه السلاطين بفضل الميرة والضرائب .

٧



(٧) ـ طغراء تحمل اسم السلطان سليمان الاول (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الذي عرف عند العثمانيين « بالقانوني » وعند الاوروبيين بسليمان الكبير . هذا نموذج رسالة منه الى فرنسوا الأول ملك فرنسا تعطي فكرة عن عظمته ورفعة مكانته : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك . مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ، ظل الله في الأرض . سلطان البحرين الابيض والاسود وخاقان البرين ، وملك الروملي والأناضول وبلاد الكرمان وبلاد الروم وزلكدريا وديار بكر وكردستان واذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والقدس وكل البلاد العربية واليمن وبلاد كثيرة اخرى افتتحها آبائي الاشراف واجدادي الانجاد ـ نوّر الله مراقدهم ـ بقوة سلاحهم وجعلتها جلالتي المعظمة تابعة لسيفي ومُهنّدي المنتصر ، انا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان أبعث اليك انت فرنسوا ملك بلاد فرنسا ... » .

السلاطين العثمانيين وضعفهم .

ادارة الولايات ورجال الدين

كان الوالي او « الباشا » (امير الامراء) يمثل السلطان في ولايته . وكانت أهمية الولاية من حيث الموقع والغنى تنعكس على اهمية الوالي نفسه . ولم تكن جنسية الوالي بذات أهمية بالنسبة للعثمانيين . وكانت صلاحيات الوالي تنحصر في ضمان الولاء والاستقرار ، وتأمين العدل ، والاهتمام بالشؤون الادارية والعسكرية والقضائية .

كان السلاطين يخشون استقلال الولاة وعصيانهم ، لذلك كانوا يبثون الجواسيس حولهم ويستبدلونهم بين فترة وفترة . فقد بلغ عدد الولاة في الشام مثلا ، في القرن السابع عشر ، واحدا وتسعين واليا . أما في الولايات البعيدة ذات الحكم الذاتي ، فكان السلاطين يعمدون الى قبول ولاة محليين يختارهم اصحاب الأمر هناك كما حصل في شمالي افريقيا . وقد تركت الدولة السلطة في بعض الولايات للزعماء المحليين كما في لبنان وشمال فلسطين وكردستان .

كان السلاطين يعينون موظفين يشاركون الوالي سلطاته كالدفتردار الذي كان مسؤولا عن الادارة المالية للولاية ؛ ثم الكخيا او وكيل الوالي الذي كان حلقة الوصل بين الوالي والشعب ؛ أما قاضي القضاة ، فقد كان يشرف على سير العدالة في الولاية ، بالفصل في المسائل المدنية التي تتعلق بأحكام الشريعة الاسلامية .

أما الديوان في الدولة العثمانية ، فقد وجد لمعاونة الوالي في الحكم والأمور الهامة ، وهو مؤلف من الضباط والعلماء والأعيان .

كان على رأس الجهاز الاسلامي المفتي الاكبر ، او شيخ الاسلام ، الذي كان يعين المفتين والقضاة الكبار في انحاء الامبراطورية ، ويعتبر القيّم على الشريعة الاسلامية والمفسر الوحيد لها .

كان الجهاز الاسلامي في الدولة العثمانية يتألف من العلماء (القضاة والمفتين) ، كما يضم الوعاظ او الخطباء في المساجد وائمة الصلاة والمؤذنين والاشراف الذين يتحدرون من سلالة الرسول وأهمهم نقيب الاشراف في كل ولاية .

الجيش

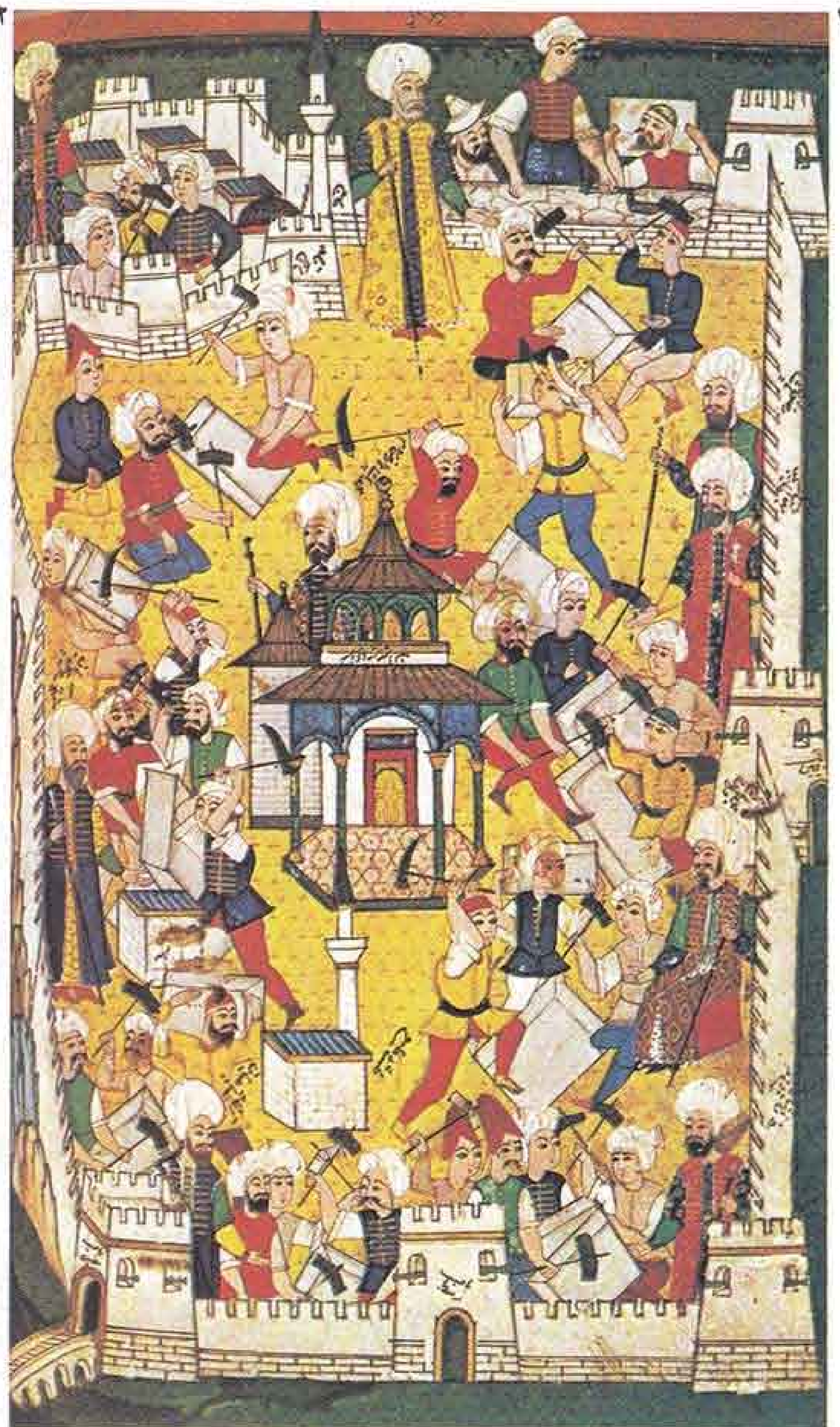
كانت الخدمة العسكرية في الدولة العثمانية حتى عهد السلطان سليمان القانوني (٧) تقوم على أساس اقطاعي اذ كانت الارض المفتوحة تقسم اقساما مختلفة (اقطاعات) تمنح للمُقطَع لقاء تأديته الخدمة العسكرية . لكن السلطان سليمان اصدرا قانونا (١٥٣٠) نظم بموجبه حقوق المُقطع وحقوق وارثيه من بعده في الحصول على اقطاعات صغيرة ، عندما يبرهنون بأعمالهم العسكرية انهم جديرون بحظوة الدولة .

أما فريق الانكشارية (١) ، فقد كانت عناصرها تتألف من غلمان النصارى الذين كانوا يشترون بالمال ، أو يؤسرون ، أو يقدمون لقاء الجزية (ضريبة الدم) التي كانت تفرض على غير المسلمين . وقد اخذت هذه المؤسسة بالانهيار ، عندما سمحت الدولة لأفرادها بالزواج في اوائل القرن السابع عشر ، مما جعل الانتماء اليها وراثيا بصرف النظر عن المقدرة العسكرية .

الامبراطورية العثمانية والخصوم الجدد

بلغت الدولة العثمانية أقصى توسعها في عهد السلطانين سليم الأول (٤) (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) وسليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ولم يبدأ تقلص حدودها الا في القرن السابع عشر . ويبدو انها كانت توازن توسعها في اوروبا بتوسع مقابل في آسيا وافريقيا ، لتحافظ على قاعدتها الاسلامية . كذلك كانت كل خسارة في اوروبا تعقبها خسارة مماثلة في آسيا وافريقيا . فحين فقدت الدولة العثمانية البلقان ، في الربع الاول من القرن العشرين ، فقدت ، في الوقت ذاته ، بقية الاقطار العربية . وعادت ، في نهاية الحرب العالمية الاولى الى حيث خرجت ، اي الى الاناضول . فكأن تاريخ الدولة العثمانية خلال

١



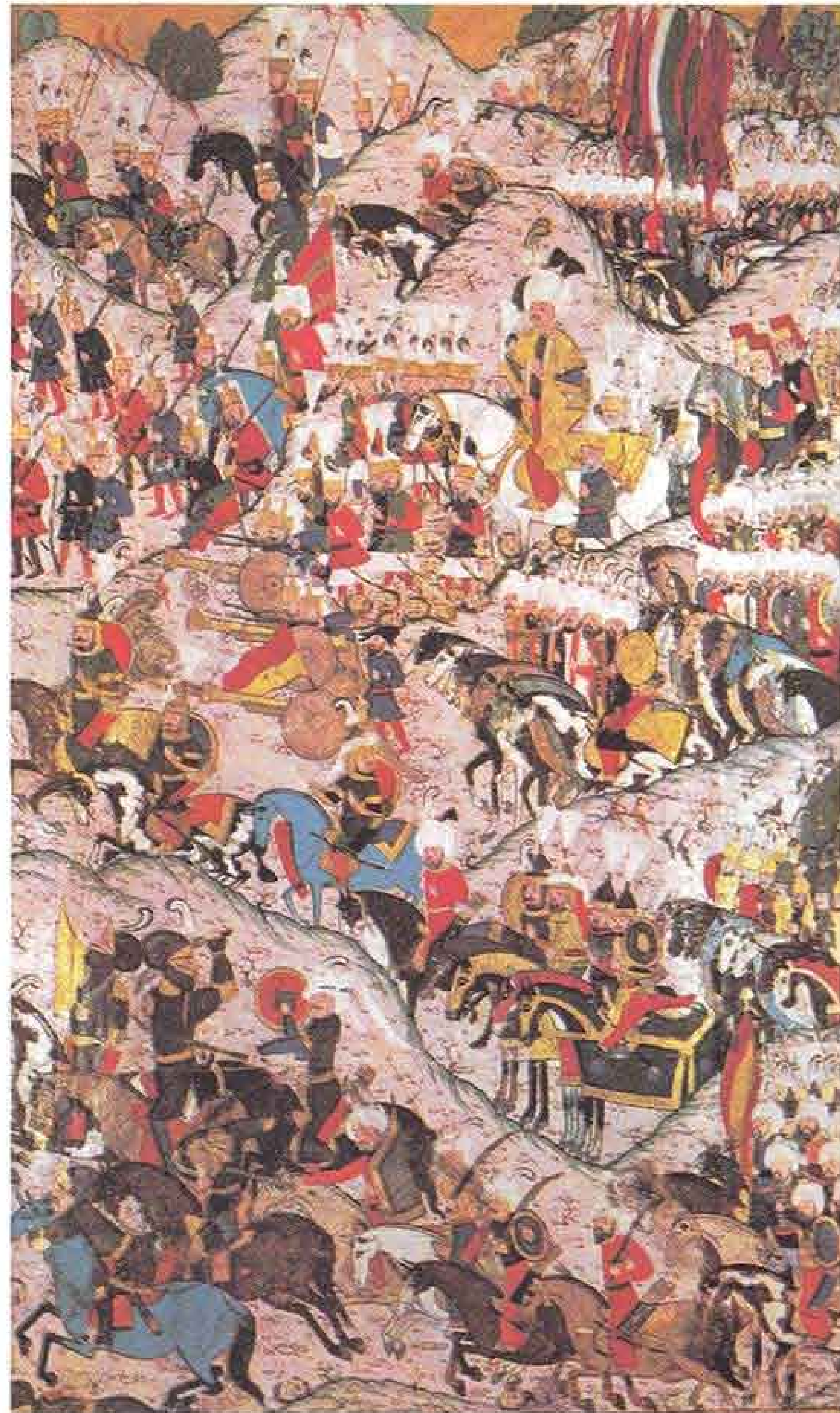
٢



ستمائة عام هو مجرد توسع ثم انحسار .

العثمانيون في القرن السابع عشر

واجه العثمانيون ، في القرن السابع عشر ، اعداء أشداء في اوروبا وفي الجبهة الشرقية . ففي الوقت الذي كان فيه العثمانيون مشتغلين بالأخطار على الجبهة الصفوية ، في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) (٥) ، كانت أوروبا تمزقها حروب الثلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) . وحين استعادت الجبهة الاوروبية نشاطها ، في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، صد جيش نمساوي ـ الماني ـ بولوني هجوم العثمانيين ، للمرة الثانية ، على فيينا (١٦٨٣) (٣) ، واندفع النمساويون ، في اعقاب ذلك ، فاحتلوا مناطق عثمانية في هنغاريا واليونان وعلى سواحل البحر الأسود . وهزم النمساويون وحلفاؤهم العثمانيين في معركة موهاج الثانية



(١) ـ الجنود العثمانيون والعمال المساعدون لهم يبنون حصنا في كارز (في شرق الاناضول) بعد ان احتل الجيش العثماني المكان في اواخر القرن السادس عشر . يقوم في وسط الصورة قصر الحاكم (محمد باشا) الذي يبدو خلف الحصن . وثمة صورة للمسجد . ويمثل الجزء الاسفل من الصورة البلدة .

(٢) ـ في سنة ١٣٩٦ ، قاد الاوروبيون حملة ضد الدولة العثمانية هي واحدة من الحملات الصليبية . وقعت المعركة الفاصلة في نيكوبوليس (١٣٩٦) في ايام بايزيد الاول (يلدرم ـ الصاعقة)(حكم ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣) . تظهر هذه المنمنمة تنظيم الجيش العثماني ومعداته . (الصورة مأخوذة من كتاب اسمه هونر نامه (كتاب الانجازات) من وضع نكاس عثمان (١٥٨٤ ؟) .

(٣) ـ في سنة ١٦٨٣ حاصر العثمانيون فيينا للمرة الثانية ، وقد طال الحصار ، لكنهم عجزوا عن أخذ المدينة . هذه الصورة تمثل الحصار في واحد من اقسى ادواره . ومن طريف ما يروى ان الاتراك الذين وقعوا اسرى في ايدي النمسويين علموا هؤلاء كيف يصنعون القهوة من البن ، بعد ان وقعت اكياس منه في ايدي الآسرين . حاصر العثمانيون فيينا للمرة الأولى عام ١٥٢٩ ، عندما احتل الامير الهبسبورجي فرد ينان المناطق العثمانية من هنغاريا ، فزحف السلطان سليمان عليها وطرد النمسويين منها وحاصر فيينا . فشل هذا الحصار ايضا ، غير ان سليمان تمكن بفضله من توطيد سيطرته على معظم هنجاريا وترنسلفانيا ، وأثبت للاوروبيين انه قادر على تهديدهم حتى في عقر دارهم . يعود فشل الجيش العثماني في حصاره المتكرر لفيينا الى بعده عن اسطنبول التي كان يجب ان تبقى مصدرا وسطا لارسال الامدادات بالرجال والاعتدة والاغذية الى الجيوش العثمانية المحاربة ليس على الجبهات الغربية فحسب ، بل على الجبهات الشرقية ايضا .

(١٦٨٧) ، وفي معركة زنتا (١٦٩٧) . ووقّع العثمانيون (١٦٩٩) معاهدة كارلوفيتز مع آل هابسبورج ، فتخلوا لهم بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا . وكانت هذه اول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالى ثلاثمائة عام بعد هزيمتهم على يد تيمور في ١٤٠٢ ، كما كانت هذه اول مرة يوقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين . لم يتمكن العثمانيون ، بعد ذلك ، من استعادة ما خسروه ، بل خسروا مناطق أخرى . فتخلت الدولـة العثمـانية عـن مناطـق تمسـفار والافلاق الصغرى وبلغراد واجزاء من شمالي صربيا للنمسا بموجب معاهدة باساروفيتز (١٧١٨) . ولكن العثمانيين ، بدعم من فرنسا ، استعادوا هذه المناطق بموجب معاهدة بلغراد (١٧٣٩) . وأنهى صلح سيستوفا (١٧٩١) أكثر من قرنين ونصف من العداء بينهم وبين النمسا ، فلم تعد النمسا



٤

(٤) ـ سليم الأول (حكم ١٥١٢ ـ ١٥٢٠) هو الذي نقل الجيوش العثمانية (مؤقتا) من الميادين الاوروبية الى الميادين العربية . بدأ بمحاربة الفرس ، فانتصر عليهم في معركة جالدران في ارمينيا ١٥١٤ ، ودخل تبريز ، ثم تحول نحو الجنوب فهزم المماليك في معركتي مرج دابق (١٥١٦) والريدانية (١٥١٧) واحتل مصر وقضى بذلك على دولة المماليك . ثم ضم الشام والحجـاز وبرقة الى الامبراطورية العثمانية .



٥

(٥) ـ جاء السلطان مراد (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) ، الذي انتزع بغداد من الفرس ١٦٣٨ ، في فترة كانت الدولة العثمانية قد بدأت تضعف من الداخل بسبب تقاعس السلاطين عن الاهتمام بشؤونها بانفسهم .



٦

(٦) ـ موظفون في الدولة العثمانية (القرن السادس عشر او القرن السابع عشر) . من اليمين كبير كتاب ، عضو للايضاحات ، حاجب ، رئيس الافادات ، رئيس عرفاء الآغا .

تشكل ، بعد ذلك ، خطرا كبيرا عليهم . وكانت الدول الرئيسية في اوروبا الوسطى والغربية مشتغلة ، آنذاك ، بمشاكلها الداخلية وبخلافاتها بعضها مع بعض .

روسيا والدولة العثمانية

حلّت روسيا محل النمسا في تهديد العثمانيين . وقد بدأ عداء قياصرة روسيا للدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر ، وكان هدفهم السيطرة على البحر الاسود للوصول الى البحر المتوسط . ولما فرض العثمانيون نفوذهم على شبه جزيرة القرم ، هرع الروس الى فرض نفوذهم على اصطراخان وقازان في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وفي عام ١٦٩٦ ، توصل القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) الى الاستيلاء على مناطق ازوف . ولكن بعد فترة من السلم ، استؤنف القتال بين الدولتين (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) ، وكانت روسيا قد ازدادت قوة في عهد القيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) التي تبنت مبادىء فلسفة التنور ، وادخلت الاصلاحات الى بلادها ، فهُزمت الدولة العثمانية في هذه الحرب ، وهدد اسطول روسي مواصلاتها وشواطئها في البحر الا بيض المتوسط . وبموجب معاهدة كوجك قنارجة ، التي انهت الحرب الروسية ـ العثمانية ، استقل تتار القرم عن الدولة العثمانية ، ثم ضمتهم روسيا اليها . فوصلت روسيا الى شواطىء البحر الاسود ، وحصلت على حرية الملاحة التجارية في المياه التركية وبحر البوسفور والدردنيل . مما يلفت النظر ان السلطان استخدم لأول مرة ، في وثيقة رسمية ، لقب خليفة في معاهدة كوجك قنارجه ، بغية اظهار نفوذه على كافة المسلمين ، وللتعويض عما فقده من سمعة سياسية وعسكرية . ثم تجدد القتال بين العثمانيين والروس ، (١٧٨٧ ـ ١٧٩٢) ، وانتهى بصلح ياسي (١٧٩٢) ، وبموجبه وصلت حدود روسيا حتى نهر الدنيستر .

الجبهة الشرقية

في الجبهة الشرقية ، توقفت الجيوش العثمانية عند حدود العراق مع فارس ، ولم تتوغل أبعد من ذلك لأسباب سياسية وعسكرية واستراتيجية . وقد حاول الصفويون ، حكام فارس ، في عهد الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) ، اقامة تحالف مع آل ها بسبورج ضد العثمانيين . وتمكنوا من احتلال بغداد واجزاء أخرى من العراق (١٦٢٣) . ولم يستطع العثمانيون طردهم منها حتى ١٦٣٨ . وانحسر بعد ذلك الخطر الصفوي عن العراق حتى ١٧٢٢ . وتجدد العداء بين سلطان فارس والعثمانيين في اعقاب ذلك ، وبلغ هذا العداء أشده في عهد نادر شاه ، الذي استقل بحكم بلاد فارس (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧) . وقد أدت انتصاراته على العثمانيين (١٧٣٠) الى قيام ثورة شعبية بقيادة الانكشارية ، في اسطنبول ، احتجاجا على هزائم العثمانيين في الجبهة الفارسية . وأجبر الثائرون السلطان أحمد الثالث على التنازل . وحاصر نادر شاه بغداد (١٧٣٣) ، وبعد عشرة اعوام حاصر الموصل ، لكنه فشل في الحصارين ، واخيرا وقّع اتفاقية سلام مع العثمانيين (١٧٤٦) . وباغتيال نادر شاه (١٧٤٧) ، عادت امور فارس الى الاضطراب ، ولم تعد فارس تشكل خطرا كبيرا على العثمانيين حتى أواخر القرن .

الامبراطورية العثمانية ودور التقهقر

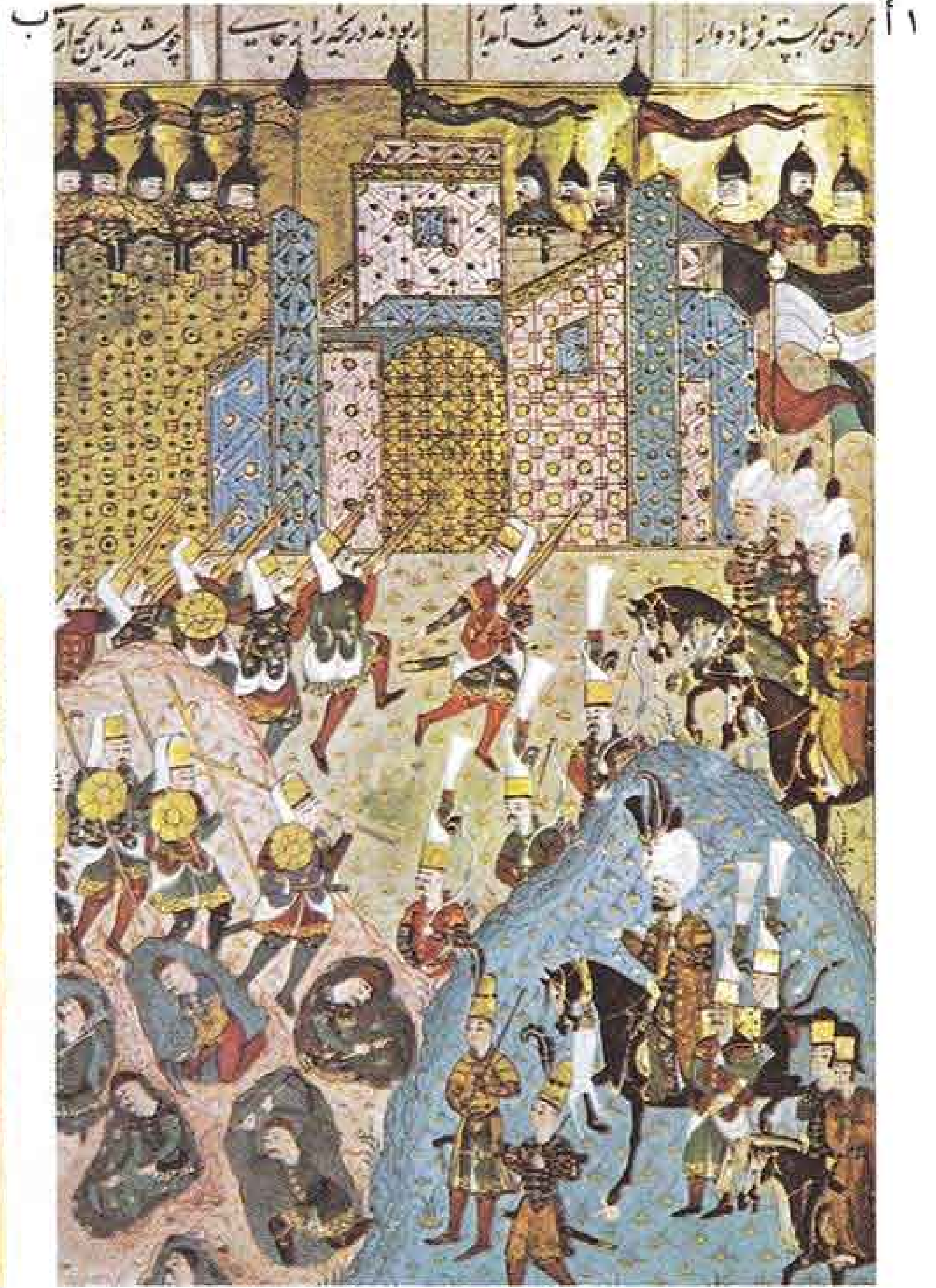
توقف النفوذ العثماني عند أطراف الجزيرة العربية بسبب صعوبة اختراق المحيط الهندي وخطر مجابهة البرتغاليين المسيطرين عليه . واقتصرت السلطة العثمانية على سواحل اليمن وعدن ، وعلى مناطق سواكن ومصوع على الساحل الافريقي الشرقي .

واقتصر الحكم العثماني ، في شمال افريقيا ، على المناطق الساحلية ، اذ ان الطبيعة الجغرافية والبشرية للمنطقة الداخلية حدّت من توسع العثمانيين فيها .

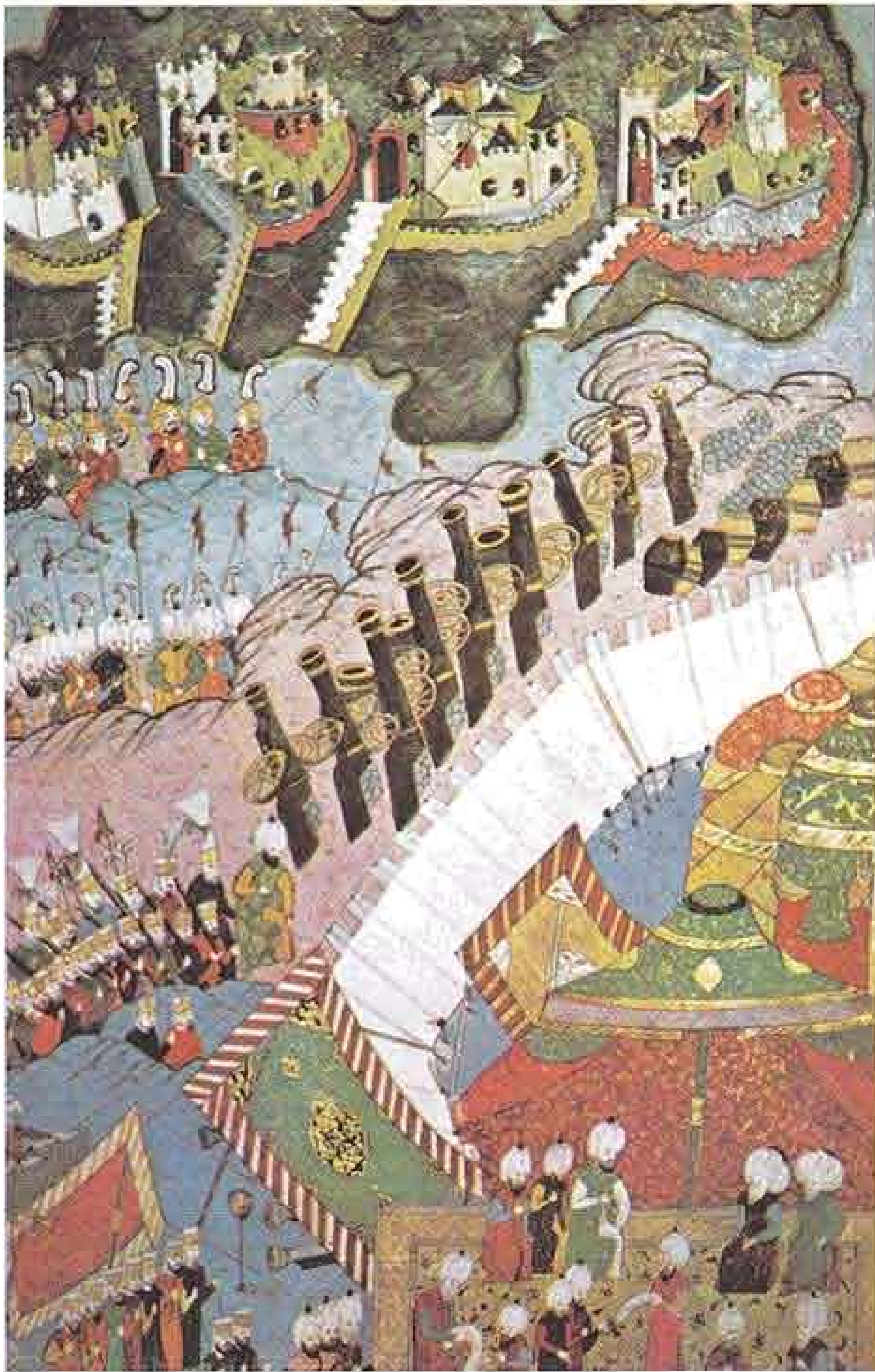
تقلص نفوذ السلاطين

أثّر توقف التوسع العثماني على تطور

أ



ب

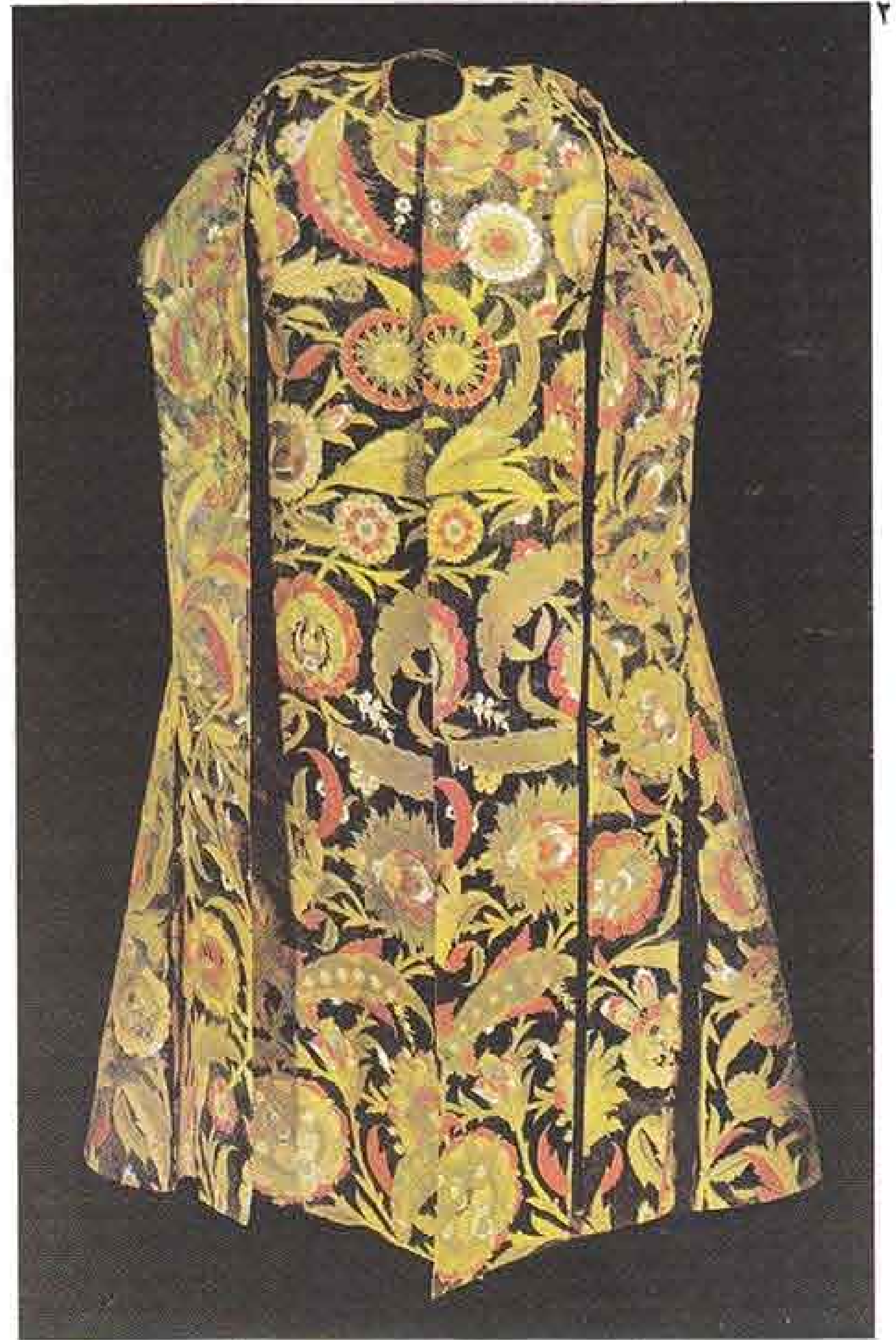


(١) ـ بدأ سليمان القانوني حكمه (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ، بحسب التقليد السلطاني ، بحملتين هامتين الأولى ضد بلغراد (١٥٢١) فاحتلها ، ثم توجه نحو جزيرة رودس ، التي كانت حتى ذلك الوقت مركزا لفرسان القديس يوحنا ، فحاصرها (أ) واحتلها (شتاء ١٥٢٢) وأجلى عنها الفرسان الذين اتخذوا بعد ذلك من مالطه مقرا لهم ، حتى أجلاهم عنها نابليون سنة ١٧٩٨ واحتضنهم الفاتيكان . في ذلك الوقت كانت جيوشه تتجه غربا نحو هنجاريا وتهزم الجيش الهنغاري في معركة موهاكس (١٥٢٦) . بعد عهده بدأ عهد التقهقر . هذه المنمنمة (ب) تظهر السلطان سليمان (اسفل الصورة الى اليمين) يتشاور مع مستشاريه . وتبدو في الصورة المدافع التي اصبحت ذات قيمة كبيرة في عمليات الحصار وفي المعارك .

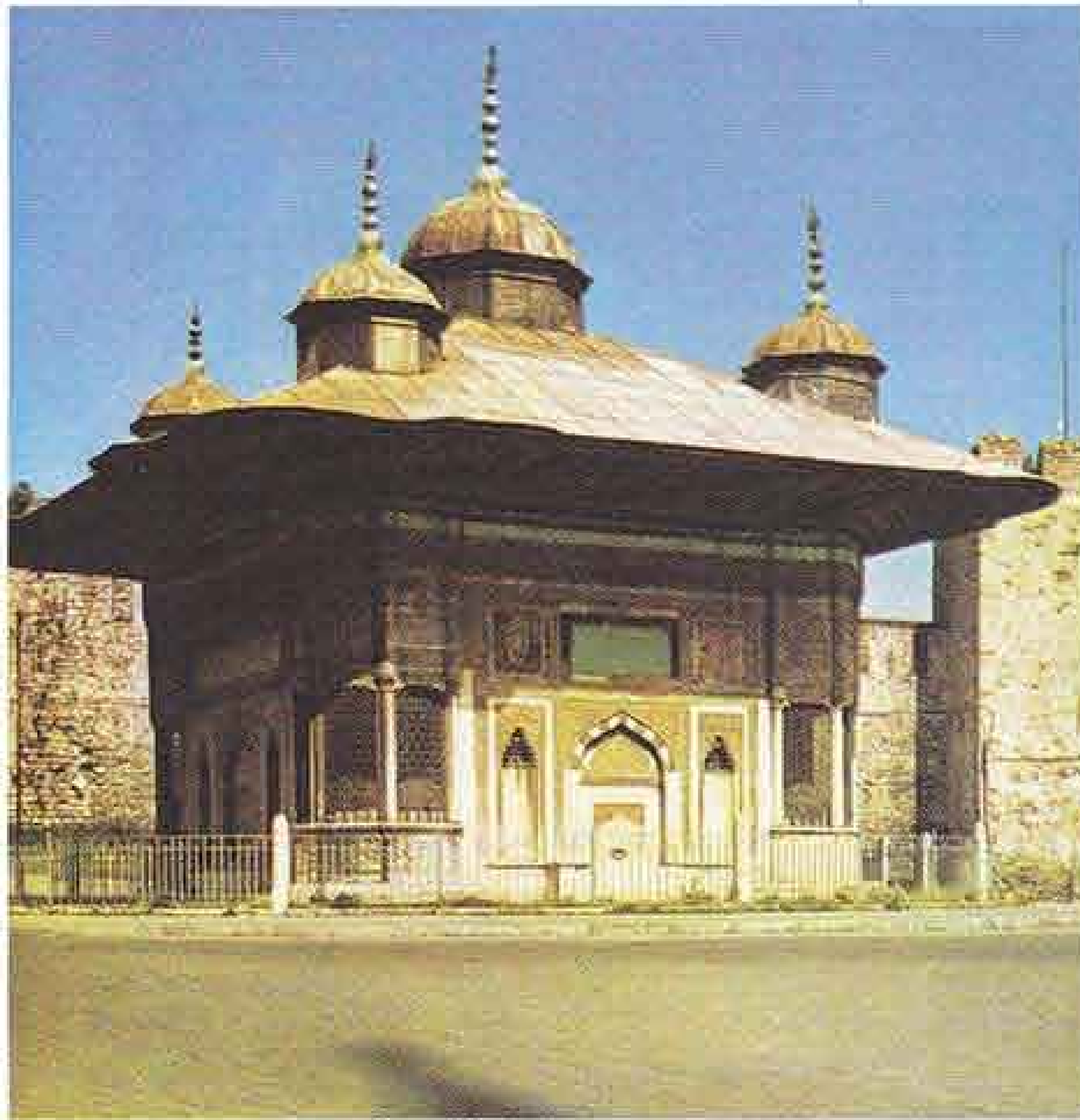
الدولة ككل ، خصوصا وان الدولة العثمانية كانت قد ازدهرت على الغزو ضد اعداء الدين في اوروبا ، والى حد ما في فارس . ظهر ضعف الدولة اولا في شخصيات السلاطين انفسهم ، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش والادارة ، وانقطعوا الى حياة القصر . وباستثناء السلطان مراد الرابع ، الذي اظهر مقدرة كبرى ازاء الاخطار المهددة للدولة من الداخل والخارج ، وبخاصة على الجبهة الصفوية ، لم يظهر اي سلطان قوي في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني (١٥٦٦) وحكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ، وهو الذي قام بأول محاولات الاصلاح .

ونتج عن تقلص نفوذ السلاطين في الحياة العامة ان انتقل زمام المبادرة الى الصدر الاعظم ، فاصبح له ابتداء من ١٦٥٤ مقر خاص به ، عُرف باسم الباب العالي . اشتهر من

٢



٣



(٢) - قفطان من الحرير المزركش كان يستعمله السلطان بايزيد الثاني (حكم ١٤٨١ - ١٥١٢) ، وهو معروض في متحف طوب قابي باسطنبول بين أجمل المنسوجات التركية المزخرفة .

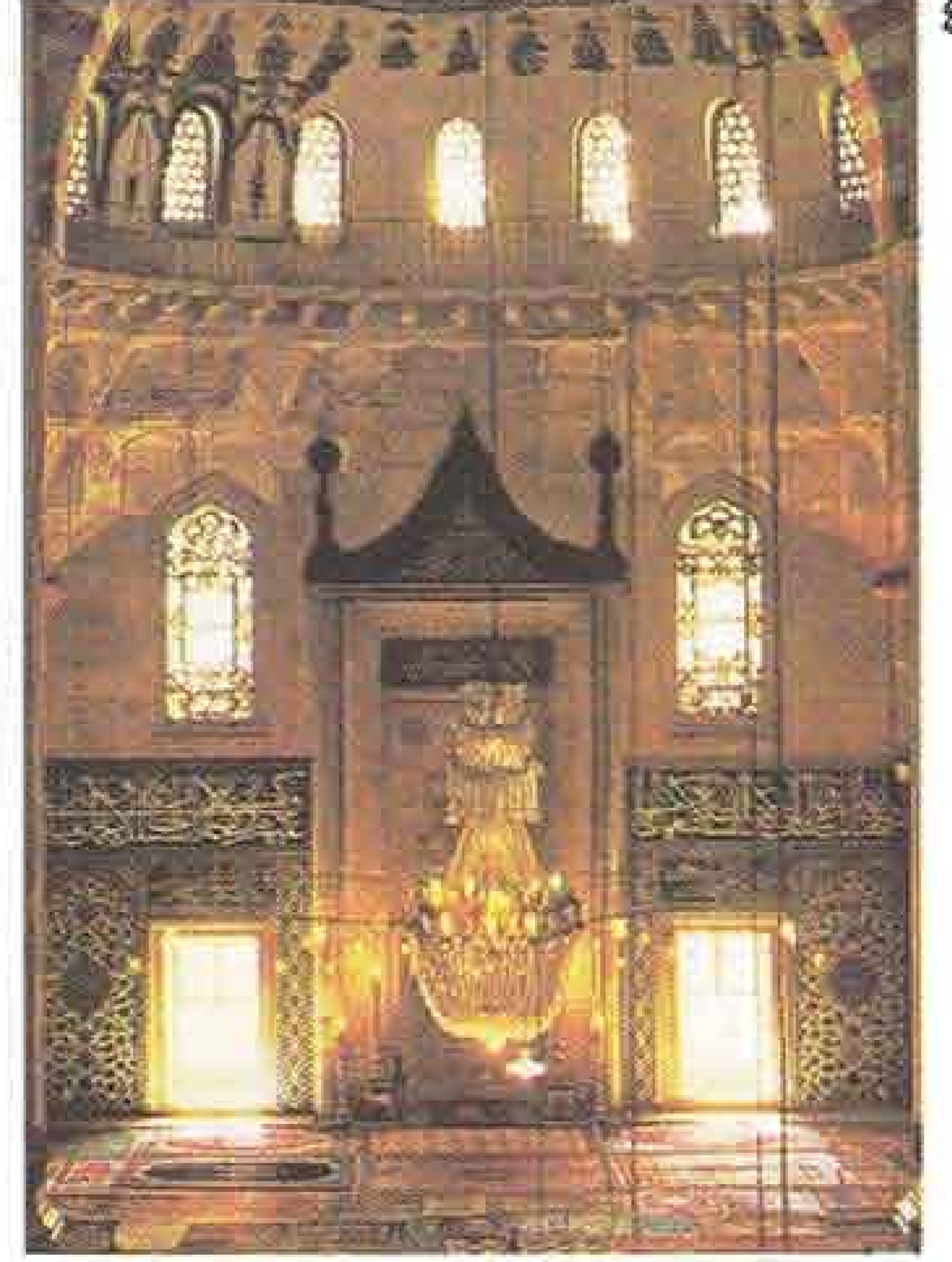
(٣) - مع ان بناء المساجد والجوامع كان يكاد يسيطر على تفكير سلاطين آل عثمان ، وبخاصة الاوائل منهم ، فان اقامة الابنية ذات الفائدة العامة كانت موضع اهتمامهم ايضا . هنا سبيل للماء باسطنبول بناه السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . كان هذا السلطان يشجع الفنون على انواعها ، وكان شاعرا موهوبا وخطاطا . وزيره ابراهيم باشا كان بدوره متعلقا بالفنون . سميت الحقبة التي حكم فيها والتي تلتها ، حتى عام ١٨٣٠ ، « عصر التوليب » لأنها كانت تتسم بطابع غربي سواء في فنها المعماري او في فن رسم المنمنمات الذي ازدهر في هذه الحقبة ازدهارا كبيرا . فكانت حياة القصر تقلد الى حد بعيد حياة قصر فرساي ، وكان للفن الفرنسي تأثير كبير على فن العمارة والتقنيات الأخرى . هذا البناء المتضمن سبيلا للماء ، بناه أحمد الثالث عام ١٧٢٨ ، وهو من أكثر الابنية تمثيلا لعصر « التوليب » الذي استوعب بشكل عفوي تعاليم فن الباروك الاوروبي . دعيت هذه الحقبة بعصر التوليب لرواج زراعة هذه الزهرة الاوروبية فيها .

الصدور العظام ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، افراد من اسرة كوبريلي . ونظرا لانقطاع السلاطين الى حياة القصر ، ازداد شأن موظفي القصر ، وعلى رأسهم القزلار آغا ، المسؤول عن الحريم ، فأخذ ينافس الصدر الاعظم على النفوذ . وكان لهذا الصراع اثره على حكام الولايات ، الذين اعتمدوا على الواحد او الآخر من هذين الموظفين الكبيرين .

التقهقر الداخلي

من مظاهر ضعف الدولة العثمانية ايضا انحطاط الجيش فيها . ففي اعقاب توقف الفتوحات وتناقص سلطة السلاطين الفعلية ، فُقد نظام الجيش ، وتضعضعت الانكشارية ، فطمع المسلمون الاحرار بالتجند في صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم . وازداد تمرد الانكشارية ، واخذوا يرهبون السلاطين . وكان أول ضحاياهم البارزين السلطان عثمان الثاني ،

٤



٥



(٤) ـ كان مألوف سلاطين آل عثمان ان يشكروا الله على انتصاراتهم ببناء الجوامع . وجاء جامع السليمية في ادرنة الذي بناه سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) شكرا لله على فتح قبرص (١٥٧٠) . كان هذا الجامع ، مثل عدد كبير من جوامع النصف الثاني من القرن السادس عشر ، من بناء المهندس المعماري سنان الذي اشتهر ايضا ببناء جامع السليمانية (نسبة لسليمان القانوني) في اسطنبول ، والذي كان أول من عرف أن ينقل تصميم قبة كنيسة أياصوفيا الى الجامع الاسلامي وان يستبدل بالقبة التي تقوم على عضادات أربع ، القبة المستديرة القوائم . تحدّر سنان (١٤٨٩ ـ ١٥٨٨ ؟) من أصل رومي في الغالب ، من أسرة معماريين ، وبدأ عمله في بناء التحصينات .

(٥) ـ محراب جامع صوقللو محمد باشا (اسطنبول) من تخطيط وتنفيذ سنان ، وهو المهندس المعماري الذي بنى الكثير من مساجد عاصمة الدولة العثمانية وادرنة في النصف الثاني من القرن السادس عشر . ويعتبر البعض هذا المحراب اجمل ما بناه سنان اطلاقا (يرجح انه بني ١٥٧١ـ١٥٧٢) .

(٦) ـ من مظاهر انحطاط الدولة العثمانية في القرن السابع عشر والثامن عشر وفقدان سلطتها للمحافظة على القانون انتشار الاجرام وازدياد عدد قطاع الطرق . لذلك كان لا بد من اللجوء الى اقسى العقوبات كالمشنقة لردع الناس عن الجرائم .

٦



الذي عزلوه ، ثم قتلوه (١٦٢٢) .

وكان قد نتج عن اعتماد الدولة اعتمادا كبيرا على الانكشارية ، منذ القرن الخامس عشر ، ان أهمل الجند من اصحاب الاقطاع ، وهم السباهية الفرسان ، واستمر هذا الاهمال فيما بعد . وأدى انحطاط هؤلاء الجنود الى انحطاط نظام الاقطاع بشكل عام ، مما أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة ، استطاعت ان تسيطر على الريف وتستثمره لصالحها . وكانت تتصرف بالأرض إما بأخذها كاقطاع او بالتزام ضرائبها . ورافق ذلك كثير من التلاعب بأموال الدولة ، وظهرت قوى محلية تستمد سلطتها من التزام الضرائب .

واشتهر ، في فترة ضعف الدولة العثمانية ، الجنود المرتزقة بسبب توفر العناصر البشرية ، وبخاصة الريفية ، التي لا عمل لها فأخذت تبيع خدماتها . وعمد زعماء محليون ثائرون الى استئجار هذه العناصر لدعم سلطتهم ضد السلطنة العثمانية وضد بعضهم بعضا .

ونتج عن توقف الفتوحات ، وبالتالي انقطاع مواردها ، ان ازداد ارتباك الاقتصاد العثماني . وجاء ذلك مع ازدياد عدد الجنود الانكشاريين والموظفين اصحاب المرتبات . فيما تناقصت واردات الدولة بسبب فساد نظام الالتزام . وتأثر الاقتصاد العثماني ايضا ، لأن الواردات الجمركية على بضائع الشرق الاقصى المارة في الاراضي العثمانية انخفضت ، بعد ان نُقل جزء كبير من هذه البضائع رأسا الى اوروبا عبر رأس الرجاء الصالح . ولم تستطع موارد الدولة من المعادن الثمينة تلبية الحاجة المتزايدة للنقد . وجاء تدفق الفضة الرخيصة الى بلاد حوض البحر المتوسط من العالم الجديد - امريكا - ليزيد في ارباك النقد العثماني وانهيار قيمة وحدته الفضية . ولهذا اصدرت الدولة العثمانية في عام ١٦٢٠ وحدة نقد فضية جديدة ، هي البارة ، لتحل محل الاقجة ، ولكن حتى هذه انهارت قيمتها بدورها ، فاصدرت الدولة عملة جديدة هي القرش ، وذلك في الربع الاخير من القرن السابع عشر . ولم يُجدِ ذلك نفعا ، فلجأ الموظفون الى الرشوة ، ولجأ اصحاب الرواتب من العساكر الى فرض ضرائب اضافية . ولم يبق امام السلطات العثمانية الا اللجوء الى الاصلاحات لتحسين اوضاع الدولة ، وبدأ ذلك بشكل واضح منذ اواخر القرن الثامن عشر ، وبلغ الغاية في القرن التاسع عشر .

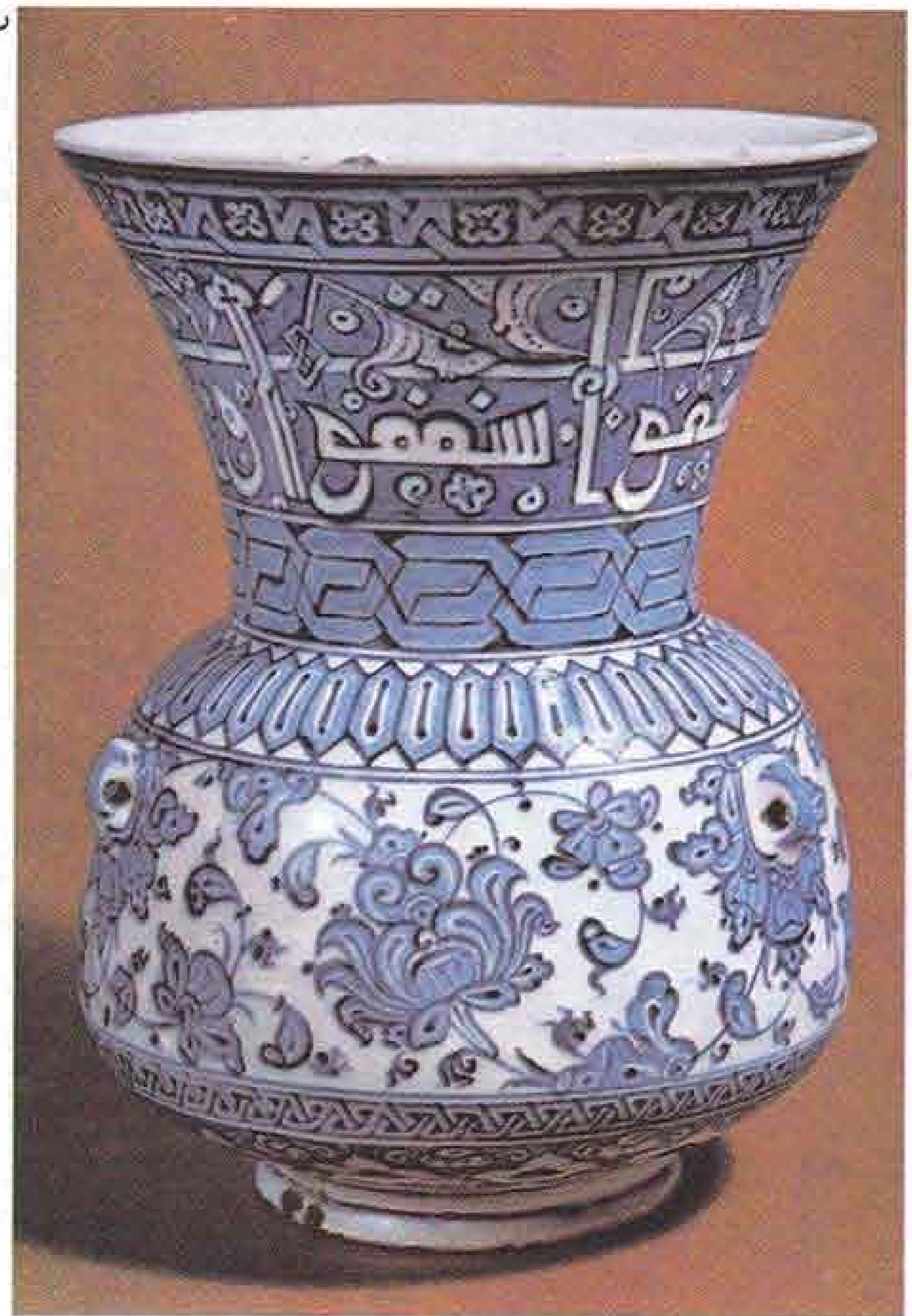
التقهقر الخارجي

رافق عوامل الضعف الداخلية هذه ضعف خارجي وتراجع متواصل على معظم الجبهات : ففي الشرق ، اضطر العثمانيون الى عقد معاهدة مع الصفويين في بلاد الفرس عام ١٦٣٩ وضعت حدا نهائيا لمطامعهم التوسعية في هذا الاتجاه ؛ وفي الشمال الافريقي ، اصبحت تونس والجزائر ، مع بقائهما في حظيرة الامبراطورية ، دولتين مستقلتين استقلالا عمليا تاما ؛ وعلى الجبهة النمسوية اضطر العثمانيون بمعاهدة كارلوفتز (١٦١١) اولا الى الانسحاب من معظم ممتلكاتهم في هنجاريا والتنازل عن جميع مطامعهم في ترنسلفانيا ، ثم بمعاهدة باساروفتز ١٧١٨ الى اكمال جلائهم عن هذه الممتلكات ؛ وعلى الجبهة الروسية ، انتزع منهم بطرس الكبير مرفأ ازوف ١٦٩٦ وكاترين الكبيرة شبه جزيرة القرم ١٧٧٤ .

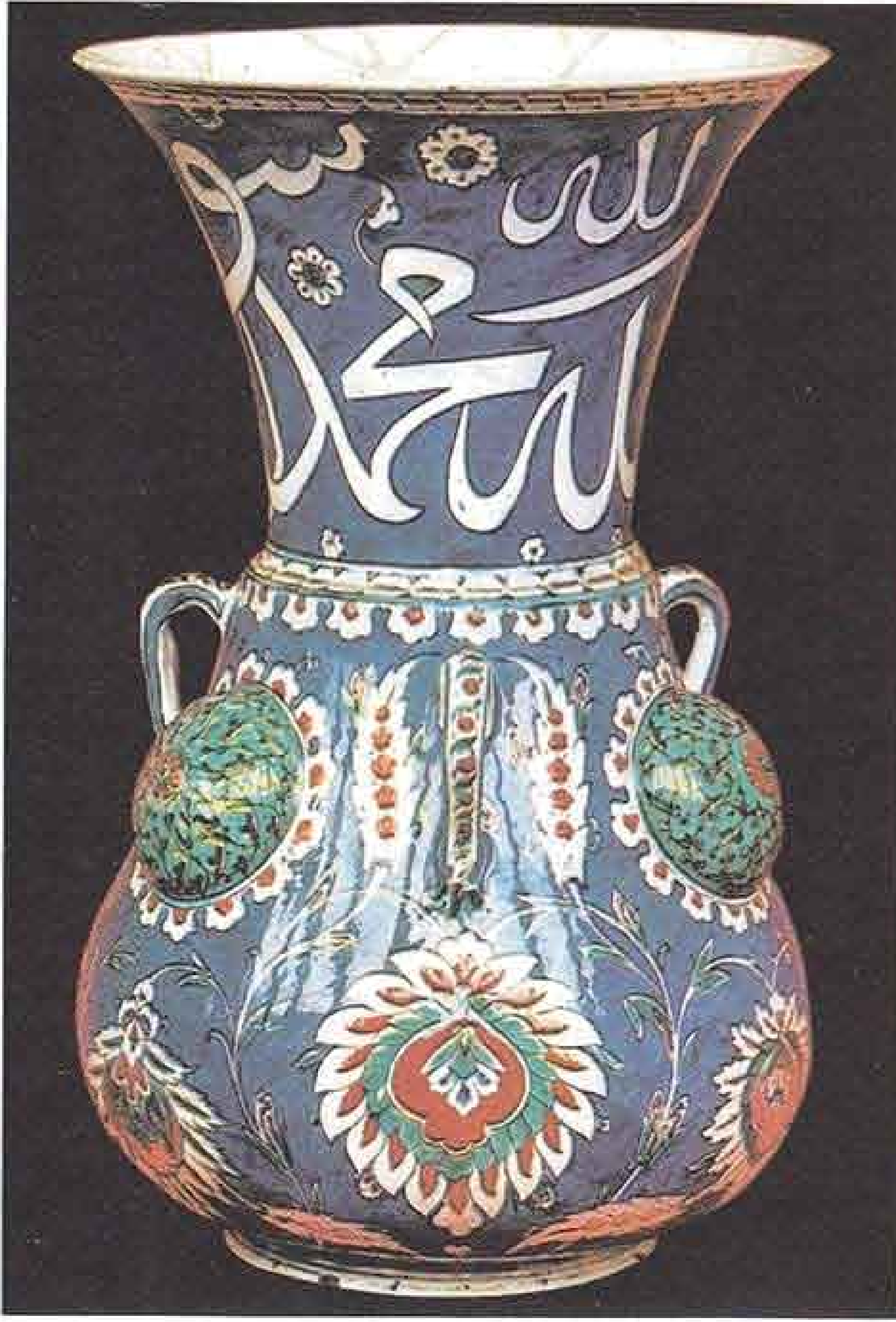
العمارة والفنون في العهد العثماني

الفن العثماني فصل خاص في تاريخ الفنون الاسلامية، له طابعه الواضح الخاص لأنه كان نتيجة التقاء وامتزاج تيارات أربعة مختلفة: تيار اسلامي، ذي ملامح شامية وسلجوقية، وتيار بيزنطي ظهر في العمارة، وتيار ايراني كان له أثره في الخزف والتصوير والنسيج، وأخيرا تيار أوروبي بدأ يمارس التأثير منذ القرن ١٧ نتيجة العلاقات المتزايدة مع اوروبا. كان مقر هذا الفن العثماني في عواصم الاناضول. ثم في اسطنبول خاصة والبلقان. ولكنه امتد منها الى جميع مراكز العالم العربي الذي تبع العثمانيين مثل دمشق وبغداد والقاهرة وتونس والجزائر.

أ ١



ب



(١) ـ منذ أواخر القرن الخامس عشر، افتتحت صفحة جديدة في تطور الخزف الاسلامي، في الأناضول العثماني حيث تظهر فيه تقاليد فن جديد مختلف جدا عن الماضي. تختفي خطوط التزيين العربية والشخصيات الانسانية وتقل الكتابة لتحل محلها الازهار والاوراق النباتية منفردة او مجتمعة. ومع ان هذه العناصر التزيينية مؤسلبة (محورة)، الا ان الصور فيها تظل واضحة ولا تخضع للتكوين الهندسي فيما عدا التناظر والتكرار. ولعل ذلك لأن صانعي الخزف في الأناضول ورثوا الطرائق البيزنطية وجعلوها متفقة مع الذوق الجمالي العربي. مركز هذا الفن الخزفي العثماني كان في نيقية (ازنيق) قرب اسطنبول. وكان الخزفيون ينتجون أولا الخزف المزين بالزرقة كهذا السراج (أ) المصنوع حوالى سنة ١٥٠٠. ودخلت ألوان أخرى. كالسراج (ب) المصنوع سنة ١٥٧١ لجامع صوقللو في اسطنبول.

العمارة العثمانية وسنان باشا

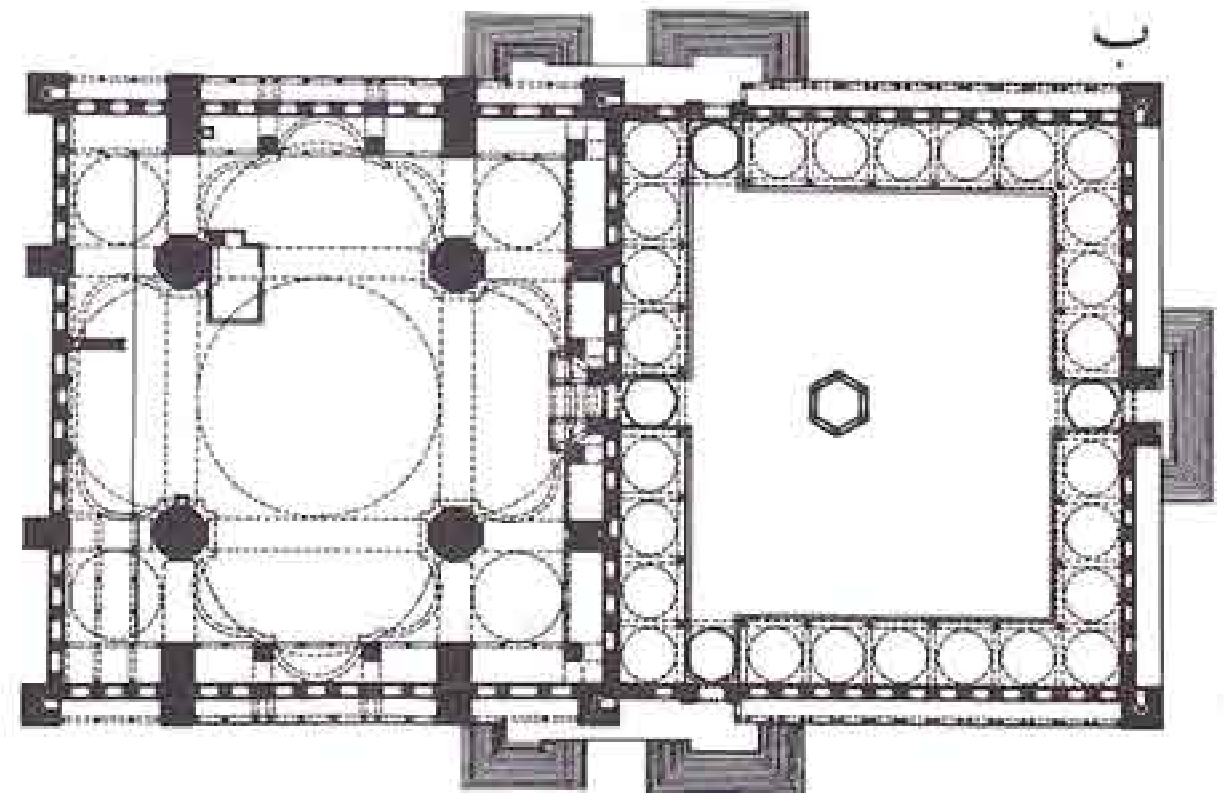
أبرز ما ظهرت فيه ملامح هذا الفن العثماني هو العمارة ، سواء منها الدينية التي داوم العثمانيون على تشييدها ، او المدنية والحربية .

كانت أبنية العثمانيين قبل فتح القسطنطينية متأثرة بالطـراز السـلجوقي . وتعتبر حلقة اتصال بينه وبين الفن العثماني اللاحق ، الذي ظهر بعد الفتح ، وظهرت فيه التأثيرات البيزنطية . ومجد العمارة العثمانية الدينية كان في تلك المساجد العظيمة الجلال ، التي أقيمت في اسطنبول والتي تأثرت ببناء كنيسة (ثم جامع) أياصوفيا . وأولها جامع السلطان بايزيد الثاني (شيد بين ١٥٠١ - ١٥٠٧) ، حيث تظهر القبة الرئيسية محمولة على أربع أكتاف فوق حرم الصلاة . ويتصل بها رواقان جانبيان ، تعلو كلا منهما اربع قباب صغيرة . أما المآذن فما تزال

٢ أ



ب



(٢) - يدين العثمانيون بسمعتهم المعمارية الى سنان باشا المهندس العثماني الاكبر. لم يكن من أصل تركي ولكن من جنـد الدوشـرمة (الانكشارية) . وترقى في المناصب ، وظهرت براعته في بناء الجسور الحربية ثم انصرف الى البناء . وتوالت ابداعاته فيه . كما توالت أبنيته تواليا سريعا مدهشا . لقد بنى ٨١ جامعا و٥٠ مسجدا و ٥٥ مدرسة و ٧ مدارس للقرآن و ١٦ تكية و ٣ ملاجىء و ٧ قناطر معلقة و ٨ جسور و٣٤ قصرا و ١٣ استراحة و ٣ مخازن و٣٣ حماما و ١٣ ضريحا وتوفي وهو يقارب التسعين . ويعتبره الكثيـرون ، في أعمـاله المعمارية ، وفي تصميمها ، وفي كثرتها ، وفي طول عمره ، ميكل انجلو العثمانيين . بنى جامع الأحمدية (أ) بين سنتي ١٦٠٩ - ١٦١٧ للسلطان أحمد الأول (١٦٠١ - ١٦١٧) وقد اتبع مهندسه خطى سنان باشا الذي حل مشكلة القبة العثمانية في جامع السليمانية باقامة قبة رئيسية كبرى (ب) يحف بها من الجانبين نصفا قبة اصغر حجما ثم يخرج من كل من النصفين نصف قبة أخرى . ويلاحظ ان المهندس العثماني لم يأبه كثيرا للمظهر الخارجي للبناء الذي يبدو دوما بشكل كتلة ضخمة مستريحة على الارض ومغطاة من الخارج دون اي زينة سوى المآذن الرشيقة التي تبرز منها .

سلجوقية الطابع .

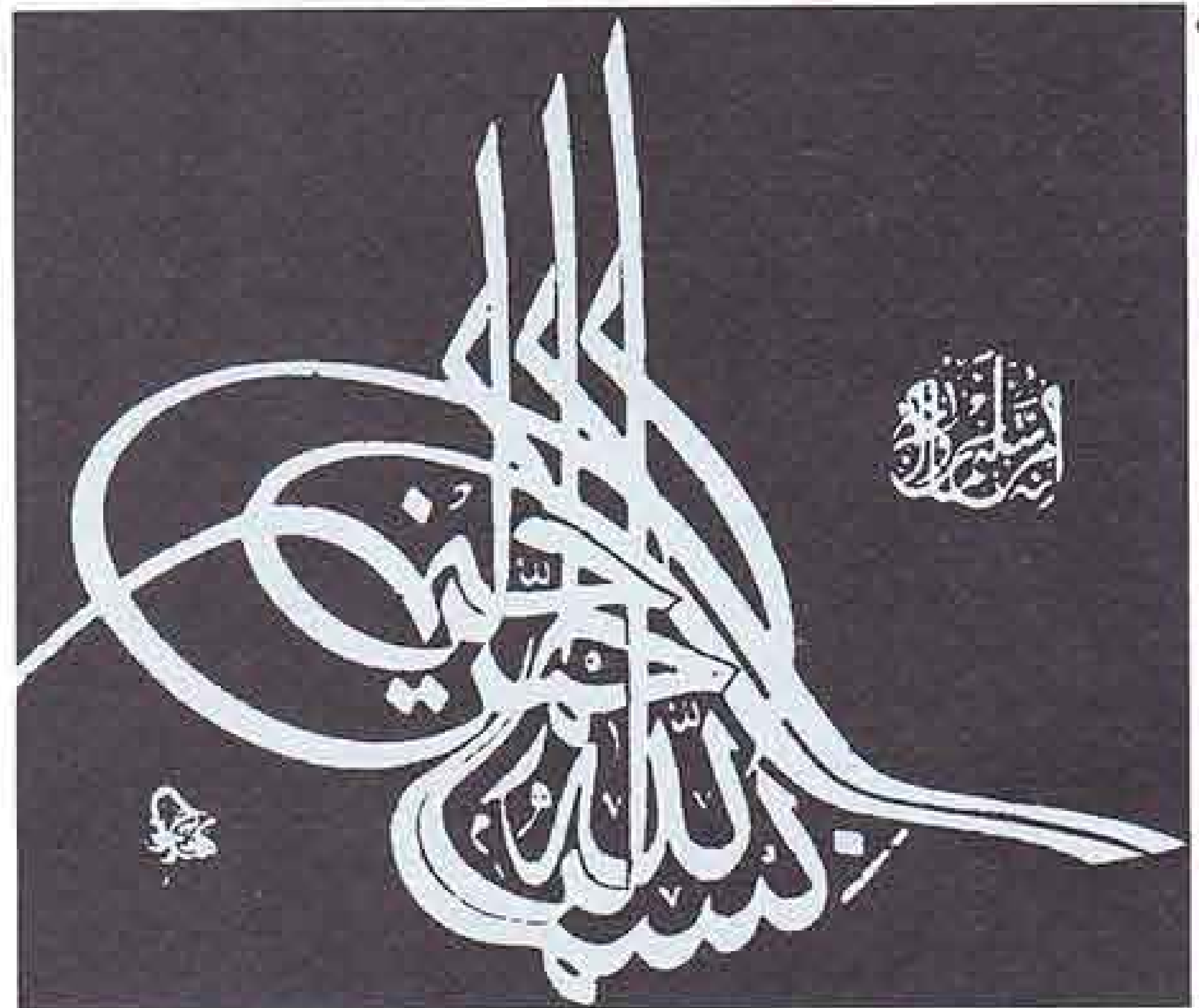
بلغ البناء العثماني أوج الروعة والنضج في اعمال المهندس سنان باشا (١٤٨٩ - ١٥٧٨) الذي ترك تراثا معماريا رائعا في ضخامته ، وفي تصميمه ، وفي كثرته (٣٤٣ بناء) . كانت براعته التي لا نظير لها في المآذن البالغة الرشاقة ، وفي استخدام القبة ، واقامتها على قواعد مربعة ، او سداسية ، او ثمانية . محاولا على الدوام ترك اوسع مكان تحتها لحرم الصلاة . وقد أقام باعماله مدرسة البناء العثماني . وكان له تلاميذ يعاونونه . وقد تابعوا منهجه من بعده . وحين توفي سنان ، كانت أعماله قد شكلت جانبا من تألق وعظمة العصر الذي عاشه : عصر السلطان سليمان القانوني . ومن أهم أعماله : جامع روكسلانة (خاصكي خرم ١٥٣٩) ، ومسجد السليمانية (١٥٥٠ - ١٥٥٦) ومسجد الأمراء في اسطنبول ، ومسجد السليمية في

٣



(٣) - أخذ خزف نيقية شهرة واسعة في القرن السادس عشر ، خاصة بما قدمته معاملها من الانتاج الخزفي الكبير في كميته ، والمتقن جدا في صناعته . وبالرغم من ان مركزا آخر لصنع الخزف قد ظهر ، في القرن السابع عشر ، في كوتاهية ، (في اواسط الاناضول) ، فان انتاجها كان اقل جودة من انتاج نيقية ، الذي بلغ أوجه ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٥٨٠ تقريبا . في مرحلته الأولى ، كان يقلد البورسلين الصيني الأزرق (مينج) . ثم قلد الخزف الدمشقي ، حين تنوعت فيه الألوان الزرقاء ، ومشتقاتها ثم دخلت الحمرة ، منذ أواسط القرن ١٦ . وعملت نيقية ، بأقصى طاقتها من الانتاج ، حتى أواخر القرن ١٧ ، لتسد حاجة المساجد العثمانية الواسعة ، في اسطنبول ، وتقدم لها حاجتها من البلاط (ومنها هذه القطع التي تغشي ضريح السلطان سليمان القانوني) .

٤



(٤) - برع الخطاطون العثمانيون كل البراعة في الخط العربي. وأضافوا الى اقلامه التي كانت موجودة حتى عهدهم وهي ٣٢ قلما اقلاما جديدة منها : الرقعة والديواني والهمايوني وقلم الاجازة والسنبلي . وتفننوا في الطغراء، وهي في الاصل شعار السلطان على المراسيم. وقد وجدت في العهد المغولي، ثم أخذها العثمانيون .ويعطيها بعض المؤرخين معنى سحريا . وقد بالغ العثمانيون في تهذيبها وتزويقها وتنويع الكتابة بها، سواء للآيات القرآنية او للتواقيع او لنصوص من الحكم .

أدرنة (١٥٦٩ ـ ١٥٧٥) ، وهو أبدع ما شيد .

وقد انتشر اسلوب سنان في العمارة من بعده . وعلى طريقته المعمارية بني جامع السلطان أحمد الأول (١٦١٧) (٢) وجامع محمد علي في القاهرة (١٨٢١) .

كانت المدارس والأضرحة العثمانية تلحق بالجوامع أحيانا كثيرة كالمدرسة الملحقة بجامع السلطان سليم ، والضريح الملحق بالجامع الأخضر في بورصة (مدفن محمد الأول ١٤٢١) . أما القصور العثمانية فأجمل ما بقي منها قصر جينيلي كوتشوك (١٤٧٢) .

ولم يهتم البناء العثماني بزخرفة الواجهات والمداخل ، منذ أواخر القرن الرابع عشر ، وان ظل على تغشية الجدران الداخلية بالقاشاني الزخرفي الملون ، الذي يجعل البناء ، من الداخل ، كأنه حديقة مزهرة .

الفنون الصغرى

لم تكن الفنون العثمانية الصغرى بمثل عظمة البناء ، وان كانت تتميز مثله بطابعها الخاص . ولقد ازدهرت صناعة الخزف . (القاشاني) ، وخاصة في ازنيق (نيقية) ، منذ القرن السادس عشر . وانتجت هذه المدينة مجموعة رائعة متطورة ونادرة ، في اشكالها والوانها ، من الاواني (١) ومن البلاط (٣) .

ازدهرت صناعة النسيج المقصب ، والأقمشة الموشاة والمخملية في بورصة (منذ القرن ١٥) . كما اشتهرت آسيا الصغرى بالسجاد (منذ القرن ١٣) ، الذي تطورت زخارفه تطورا كبيرا (منذ القرن ١٦) ، وخاصة في مدينة عشاق ، التي تميزت بسجادها الصغير .

وقامت في اسطنبول ، وبعض المدن الأخرى ، مدرسة عثمانية للتصوير ، اعتمدت اول الأمر الاسلوب الايراني . وصورت الكتب والمنمنمات . ثم تفردت بفنها الخاص ، بعد فتح القسطنطينية ، ثم بعد الاتصال الواسع بأوروبا ، وصارت تصور الاحداث التاريخية والمعارك والسلاطين . ومن أشهر المصورين العثمانيين صباح كالم (القرن ١٥) .

الخط العربي

ولا بد في الكلام عن الفن العثماني من ذكر الخط . فقد نقل السلطان سليم معه الى اسطنبول ، بعد فتح مصر والشام ، مهرة الصناع والفنانين ومن ذلك الخطاطون . وكان لبعض السلاطين أنفسهم ، ولع بالخط . فازدهر هذا الفن كل الازدهار . واستخدم لا في كتابة المصاحف الرائعة فحسب ، ولكن في تزيين الجوامع والقصور أيضا . كان في الخط العربي ٣٢ قلما فاستحدث الخطاطون العثمانيون خمسة اقلام أخرى (٤) . ومن اشهرهم حمد الله الأماسي (١٥٢٠) وكانت له مدرسة من تلاميذه والخطاط شكر الله والحافظ عثمان (١٦٩٩) الذي صارت له الرياسة بطريقته الخاصة في خط الثلث ، وفي قلم النسخ الذي كتب به المصحف المعروف بالعثماني . وكان آخر الخطاطين البارزين مصطفى الكوتاهي (١٧٧٠) .

وقد تفنن خطاطو العهد العثماني بكتابة الطغراء والآيات بخط الثلث على الأبنية وباعطاء الكتابة الاشكال الحيوانية والهندسية.

وحين نستعرض تاريخ الامبراطورية العثمانية وأعمالها نجد ان اعمالها العمرانية وفنونها كانت أخلد ما بقي منها .

اوروبا تتعرّف الى العالم

في أواخر القرن الخامس عشر، دار فاسكو دي جاما (١٤٦٩ ؟ - ١٥٢٥) حول رأس « الرجاء الصالح » بحرا حتى الهند، وعثر كريستوفر كولمبس (١٤٥١ - ١٥٠٦) صدفة على الامريكتين. وهكذا ابتدأ عصر من الاستكشاف قيض فيه للأوروبيين أن يمخروا عباب البحار السبعة ويحلوا في معظم انحاء العالم المأهولة وأن يقفوا متأملين أمام العالم ككل.

لكن الرحلات شرقا لم تكن سوى مناسبات جديدة للتعرف بصورة أكمل الى امكنة كانت معروفة بصورة ناقصة من قبل. فقد كان الاسكندر الكبير قد قاد الجيوش اليونانية عبر بلاد فارس حتى الهند، وكانت

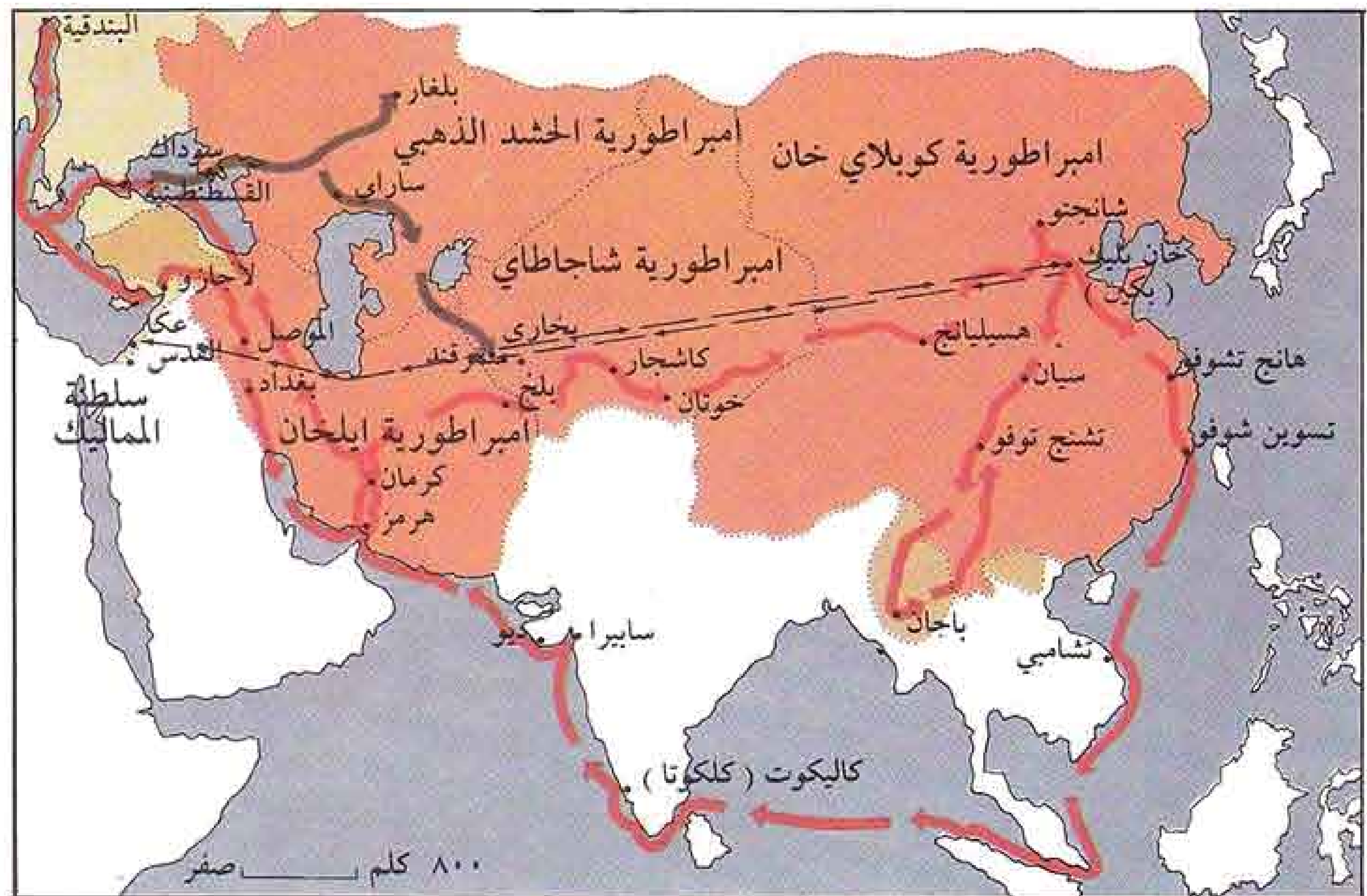
٢



١



٣



امبراطورية المغول، في أواخر القرن الثالث عشر

البلدان الخاضعة للمغول، في أواخر القرن الثالث عشر

العالم المسيحي، في أواخر القرن الثالث عشر

رحلة ماركو بولو الأولى المعروفة ١٢٦٠ - ١٢٦٩

الجزء الأول المجهول من رحلته الأولى

رحلة ماركو بولو الثانية ١٢٧١ - ١٢٩٥

روما قد تاجرت بالحرائر والبهارات الآسيوية وتركت لأوروبا في العصور الوسطى جغرافية بطليموس ، كما شكلت بيزنطة جسرا ، لمدى أجيال طويلة ، بين اوروبا وآسيا . الا ان هلال الاسلام الفاتح كان قد طوق اوروبا المسيحية ، حتى فتوحات جنكيز خان .

انجاز ماركو بولو

ربطت الامبراطوريات المغولية الممتدة من روسيا الى الصين ما بين الطرق البرية في اوروبا وآسيا ، فسمحت بذلك للقارتين ان تتاجرا بصورة مباشرة الواحدة مع الأخرى . ففي سنة ١٢٧١ ، سافر ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) عبر بخارى الى بلاط قبلاي خان في بكين (٢) . وفي منتصف القرن الرابع عشر ، احتوى كراس ايطالي وضع كدليل للتجار بعنوان « ممارسة التجارة » ، وصفا لرحلة الـ ١٤٠ يوما من البحر الأسود حتى أن يمرّا بشبه جزيرة الملايو وسومطرا والهند . كشفت هذه الرحلات كيف ساعد « السلام المغولي » على وصل اوروبا بآسيا ومكّن الاوروبيين من الاطلاع على الشرق .

٤

(١) - في نهاية القرن الخامس عشر ، كانت السفن المعروفة باسم « الكاراكات » أضخم السفن التجارية ، بعكس « الكارافيل » التي كانت أصغرها حجما . كانت سفن الكاراك البرتغالية تبلغ احيانا ٦٠٠ - ١٠٠٠ طن ، وكانت ضخمة البناء ، ذات قلاع كبيرة ، ومجهزة عادة بثلاث سوار ، ولها نافذة للرصد في المقدم وعلى السطح ، وأشرعة مثلثة الشكل. اصبحت بنية القلاع أشد تعقيدا ، (كما يتبين من هذه الصورة التي ترجع الى القرن السادس عشر) وكثيرا ما كانت داخلة في هيكل السفينة . كانت تلك السفن ، بحجمها واتساعها لحمل البضائع وبنائها المتين ، هي التي استعملها البرتغاليون في رحلاتهم شرقا للاستكشاف والتجارة ، مع أن ضخامتها كانت تجعلها غير مناسبة لأعمال الاستكشاف التفصيلية .

(٢) - وفد ماركو بولو على بكين سنة ١٢٧٥ وخدم المغول في الشرق طيلة ١٧ سنة . ولما عاد الى البندقية سنة ١٢٩٥ ، قدم لأوروبا في كتابه « وصف العالم » أول وصف مفصل للصين وجيرانها . كان هذا الكتاب أوفى وصف للشرق وضع قبل ١٥٥٠ . فهو يحتوي على تفاصيل دقيقة عن المدن والأقنية والأنهار والموانىء والصناعات . كان بولو رجلا اداريا وتاجرا ، فلم تكن له عناية خاصة بالدين والحضارة ، ولكن شروحه جاءت واقعية وخالية نسبيا من الأوهام التي كانت من صميم أدب الرحالة المعاصر . أعاد ماركو بولو صورة معقولة لآسيا أمام الذهن الأوروبي .

(٣) - سنة ١٢٦٠ ، سافر نيقولا ومافيو بولو من القرم الى بكين عبر بخارى . بعد عودتهما الى اوروبا ، عادا اليها ثانية سنة ١٢٧١ مع ماركو بولو . في رحلة العودة الى اوروبا التي تمت سنة ١٢٩٢ الى ١٢٩٥ كان عليهما

(٤) - تبين هذه الخارطة ، المرسومة في البندقية سنة ١٤٤٨ ، كيف كانت « خارطة العجلة » (أو الدولاب) التي تميزت بها العصور الوسطى ، آخذة في التغير . كانت خارطة العالم في العصور الوسطى مستوحاة من الكتاب المقدس ، فكانت القدس تقع في وسطها ، والفردوس الأرضي في اعلاها ، ثم تأتي القارات مرتبة بانتظام . بحلول منتصف القرن الخامس عشر ، أخذت الخارطة المتداولة في العصور الوسطى تتأثر بالخرائط البحرية المعاصرة ، وتزداد غنى من اقتباس بعض المعلومات المستمدة من الرحالة . تعدلت ايضا نتيجة لظهور الكتابات الكلاسيكية عن العالم الخارجي ولاسيما جغرافية بطليموس وفرا ماورو ، كما يتبين من هذه الخارطة .

الصين (٣) ، مع ذكر اسماء ما يناهز ٢٨٨ صنفا من البهارات والعقاقير التي كان يمكن شراؤها من أسواق آسيا . الا ان هذه الاتصالات النادرة التي كانت متاحة للتجار والمبشرين ايضا لم تلبث ان قطعتها ثانية جيوش تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) .

أهمية الصين

عند نقطة انتهاء رحلة ماركو بولو الطويلة شرقا كانت تقع الصين التي قامت سلالة المينج الوطنية (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) فيها بطرد المغول الأجانب وانشاء امبراطورية خاصة واعادة بناء الاقتصاد وارساء البيروقراطية على أسس أفضل . لكن سلالة المينج هذه ، وقد هالها في وقت من الأوقات تهديد منافسين لها قريبين من سواحلها ، فضلا عن اعمال القرصنة اليابانية الواسعة النطاق ضدها ، رأت من الضروري لها

٥



٦



٧



(٥) ـ تعتبر بعثات تشنج هو البحرية السبع ، التي ابتدأت سنة ١٤٠٥ وزار خلالها اكثر من ٣٠ بلدا ، انجازات بارزة في فن الملاحة . بلغت اكبر سفنه ١٢١ مترا طولا و ٥٤ مترا عرضا ، وكان لها اربع طبقات وحجرات لا يدخلها الماء . كانت الـ ٦٢ سفينة التي اشتركت في رحلته الى الهند تقل ٠٠٠ ٢٨ رجل . ووصلت شرقي افريقيا .

(٦) ـ داس جنكيز خان الفاتح التتري الحضارة الصينية تحت قدميه ، فباع العديد من الناس رقيقا وكان الصينيون يكرهونه ويرفضون علاقاته مع الخارج ويعتبرون ان حكم المغول يقطع الترابط في تاريخ تقاليدهم المتواصل ، وكانوا ينظرون الى المغول كسادة أجانب حتى طردوهم آخر الأمر على يد سلالة المينج الوطنية في القرن الرابع عشر .

(٧) ـ قبل عودة ماركو بولو الى البندقية ، لم تكن اوروبا تعرف الا القليل عن آسيا . كانت الخرافات تقول ان تلك القارة كانت قارة المسوخ والشياطين . وفي القرن الثاني عشر ، كان المسيحيون يتجادلون حول امكانية تنصير أهل الهند ، اذ كانوا يعتقدون ان رؤوسهم رؤوس كلاب . وحتى في أواخر القرن الرابع عشر ، كان في بعض المخطوطات صور لهنود لهم رؤوس الكلاب ، وهي خرافات لم يبددها نهائيا سوى اكتشاف الطرق البحرية المباشرة الى الشرق .

الانكماش على النفس ، فدخلت في عزلة جزئية ، قاطعة صلاتها ببعض الدول القديمة التابعة لها ، ومحظرة على رعاياها السفر الى الخارج ، وطاردة التجار الأجانب ، ومانعة التجارة الخارجية الخاصة ، وذلك بعد ان كان أول ملوك المينج قد أقام علاقات مع ١٧ دولة مجاورة مختلفة ، وبعد ان كان اكثر من ١٥٠ حاكما مستقلا من حكام آسيا الوسطى يتاجرون سنة ١٥٠٢ مع الصين بحكم تبعيتهم لها ، وبعد ان كانت بعثات تشنج هو البحرية (٥) تبشر بامكانيات صينية ضخمة .

بحكم هذه السياسة التقشفية والمنكرة للذات التي سلكها المينج ، لم يتسنَّ للصين ان تستغل في عهدهم استغلالا كافيا تجارة المحيط الهندي بل تركت ذلك لامارات جزر الهند الشرقية التجارية ، ولخليط من التجار الأجانب ، كالعرب والفرس والهنود .

أما في أوروبا ، فكان ألدّ أعداء دولها أقرب الجيران اليها ، أي الأتراك العثمانيين . فباحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، استولى العثمانيون على البوابة القائمة بين اوروبا وآسيا ، وباحتلالهم لمصر المماليك (القابضين على الحكم في مصر وسوريا منذ سنة ١٢٥٠ ـ ١٢٦٠) وذلك سنة ١٥١٦ ـ ١٥١٧ ، قطعوا الطرق الاوروبية التجارية المؤدية الى الشرق ، وانتزعوا قسما كبيرا من أرباح التجارة الشرقية من أيدي تجار البندقية وجنوة .

تحرك العثمانيين نحو أوروبا

لعل أخطر قرار اتخذ في العصور الحديثة ، هو قرار العثمانيين التحرك غربا نحو أوروبا الذي أوصل جيوشهم عبر سهول المجر الى ابواب فيينا ، وحافظ على اسطولهم في البحر المتوسط . فبسيطرتهم على مجموعة البلاد البلقانية ومنطقة البحر الأسود وبلدان الشرق الأدنى ، سدوا هذه المناطق في وجه التوسع الاوروبي وحفزوا بذلك الدول الايبرية وأعطوها الفرصة لايجاد منافذ جديدة لها ، سواء بالدوران حول الساحل الافريقي نحو الشرق ، أو بالهبوط على سواحل أمريكا .

هكذا وجدت اوروبا نفسها ثانية على اتصال بسلطات برية شرقية عظيمة في آسيا كان عدد منها يدين بالاسلام ، فلم تجرؤ على تحديها ، ولم تكن ترى من الممكن التغلغل فيها . لذلك اكتفى الاوروبيون اثناء تقدمهم نحو الشرق عبر المسالك البحرية الجديدة بان يلامسوا فقط الطرفين الغربي والشرقي لافريقيا التي كانت أقاليمها الشمالية قد تأثرت منذ القدم بالاسلام ، فيما بقي داخلها مجهولا من قبل العالم الخارجي طيلة قرون .

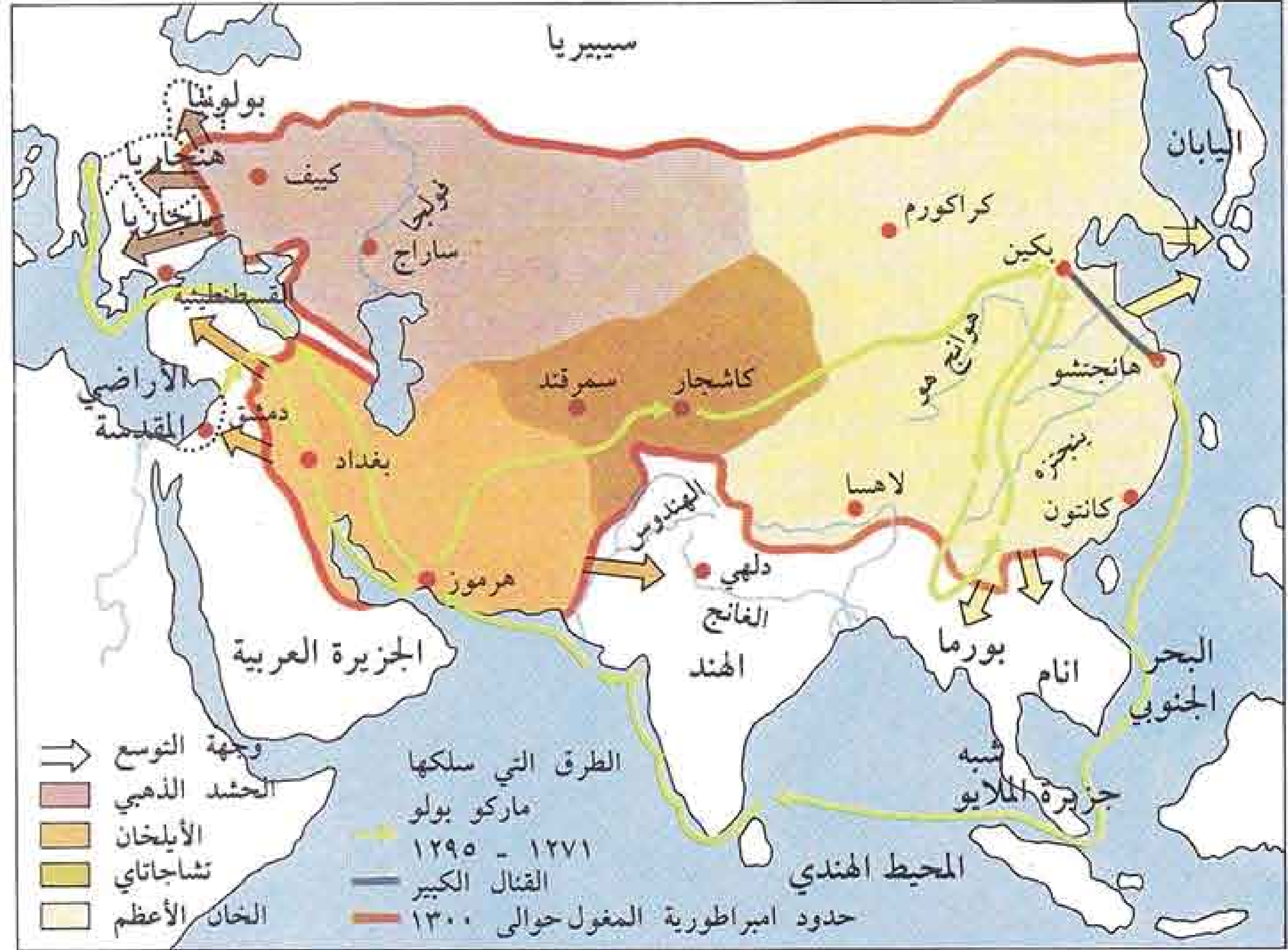
لكن القصة كانت مختلفة بالنسبة الى « العالم الجديد » . فهنا ارتاد الاوروبيون بالفعل قارة كانت منقطعة عن سائر العالم . وجدوا هنا حضارات نائية ومنعزلة وذات معالم مدهشة وتقاليد غريبة ، الا ان تقنياتها كانت مختلفة عن تقنيات اوروبا وآسيا . لذلك أدّى استكشاف اوروبا لامريكا الى فتح تلك القارة بسرعة وكليا لرياح التأثير الاوروبي التام : الفتح والاستغلال والمرض والدين . فنتج عن ذلك تصادم تام بين ثقافتين مختلفتين كل الاختلاف تلتقيان لأول مرة في التاريخ .

امبراطوريات المغول الأسيوية

كانت الامبراطورية المغولية ، في أوج عزها في القرن الثالث عشر ، اكبر امبراطورية برية في التاريخ . امتدت من البحر الأصفر شرقا حتى نهر الدانوب غربا ، واشتملت على مناطق تشكل اليوم جزءا من روسيا والصين وا يران .

نشأة المغول غامضة . فهم من القبائل الرحل التي كانت تعيش في خيام من اللباد تدعى « اليورت » وتسوق قطعانها من الخيل والماشية والجمال والغنم في رحلات سنوية طلبا للكلأ في المناطق التي تعرف اليوم بمنشوريا ومنغوليا وسيبريا . هذه القبائل المغولية العديدة المتشردة والمتناحرة على الدوام كان جنكيز خان (١١٦٧ ـ ١٢٢٧) أول

١

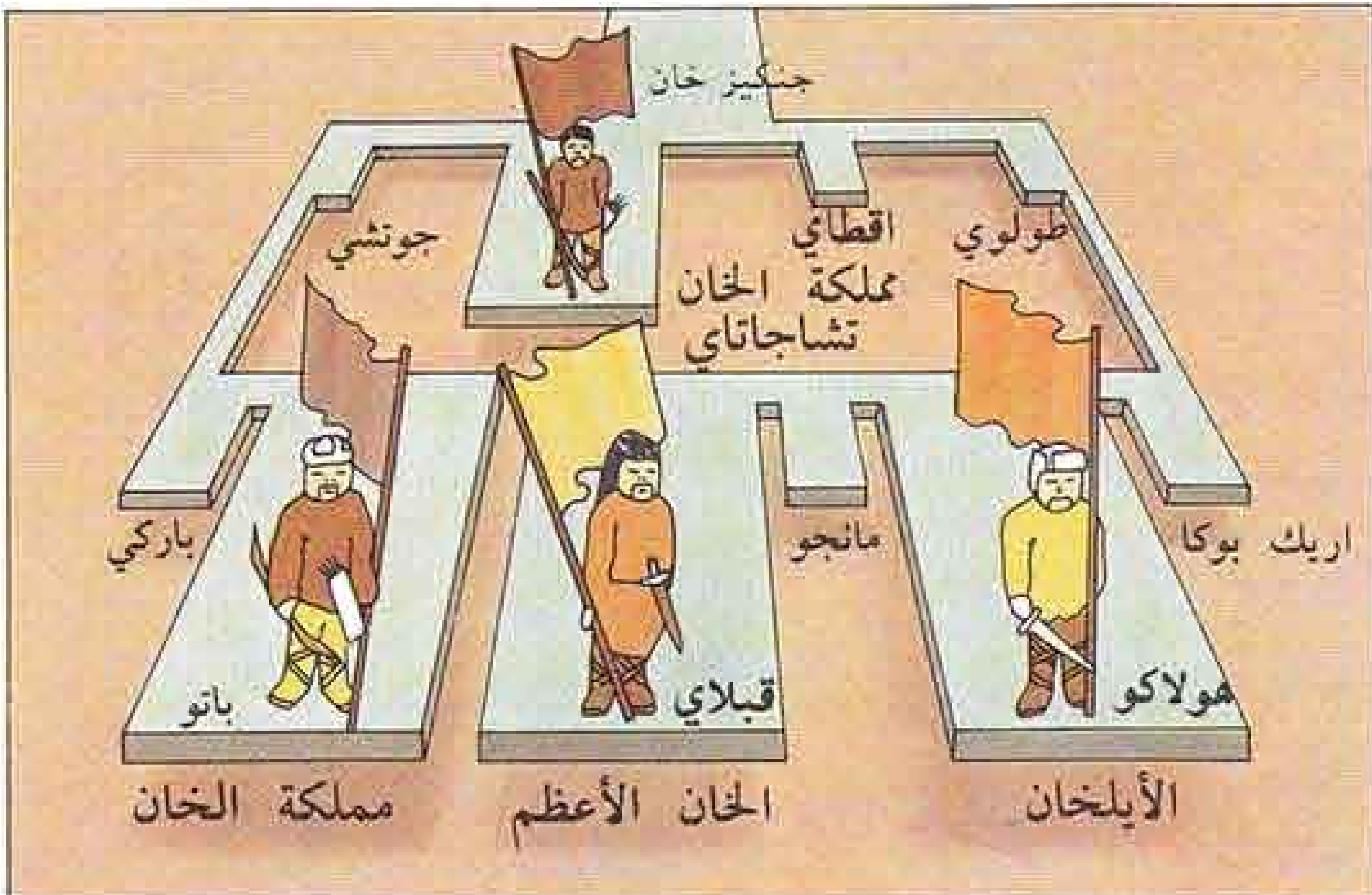


(١) ـ على الرغم من الرعب الذي أشاعه المغول ، أدت سيطرتهم على مساحات شاسعة من آسيا واجزاء من اوروبا الى شق طرق تجارية أخذ يسلكها تجار من عدة أمم في القرن الثالث عشر . بدأ ماركو بولو ، وهو من أهل البندقية ، رحلته الى بكين سنة ١٢٧١ ، وقد مرت اكثر من عشرين سنة قبل عودته الى اوروبا .

(٢) ـ وحّد جنكيز خان القبائل المغولية تحت أمرته سنة ١٢٠٦ . بعد وفاته سنة ١٢٢٧ ، قسمت الامبراطورية المغولية النامية الى اربعة اقسام بين ورثته .

(٣) ـ غزا هولاكو ايران سنة ١٢٥٦ ، واستولى على بغداد وهزم « الحشاشين » . ولكنه هُزم بدوره على يد المماليك في سوريا . كانت تلك نقطة تحول في تاريخ المغول .

٢



(٤) ـ يظهر رسم النبي ارميا في كتاب « تاريخ العالم » (١٣٠٦) لرشيد الدين . كان المؤلف طبيبا في بلاط اباقا خان . حاكم ايران المغولي ، وقد أدخل مواضيع من الكتاب المقدس في تاريخه العالمي ، وهذا دليل على تساهل المغول تجاه الأديان الدخيلة . تدل هذه الصورة ايضا على التأثيرات الثقافية الصينية .

(٥) ـ انجز « غور امير » ، وهو قبر تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) في سمرقند سنة ١٤٣٤ . كان هذا أحد المباني العديدة الرائعة التي قام ذلك الحاكم المغولي ـ الذي كان نصيرا عظيما للفنون كما كان

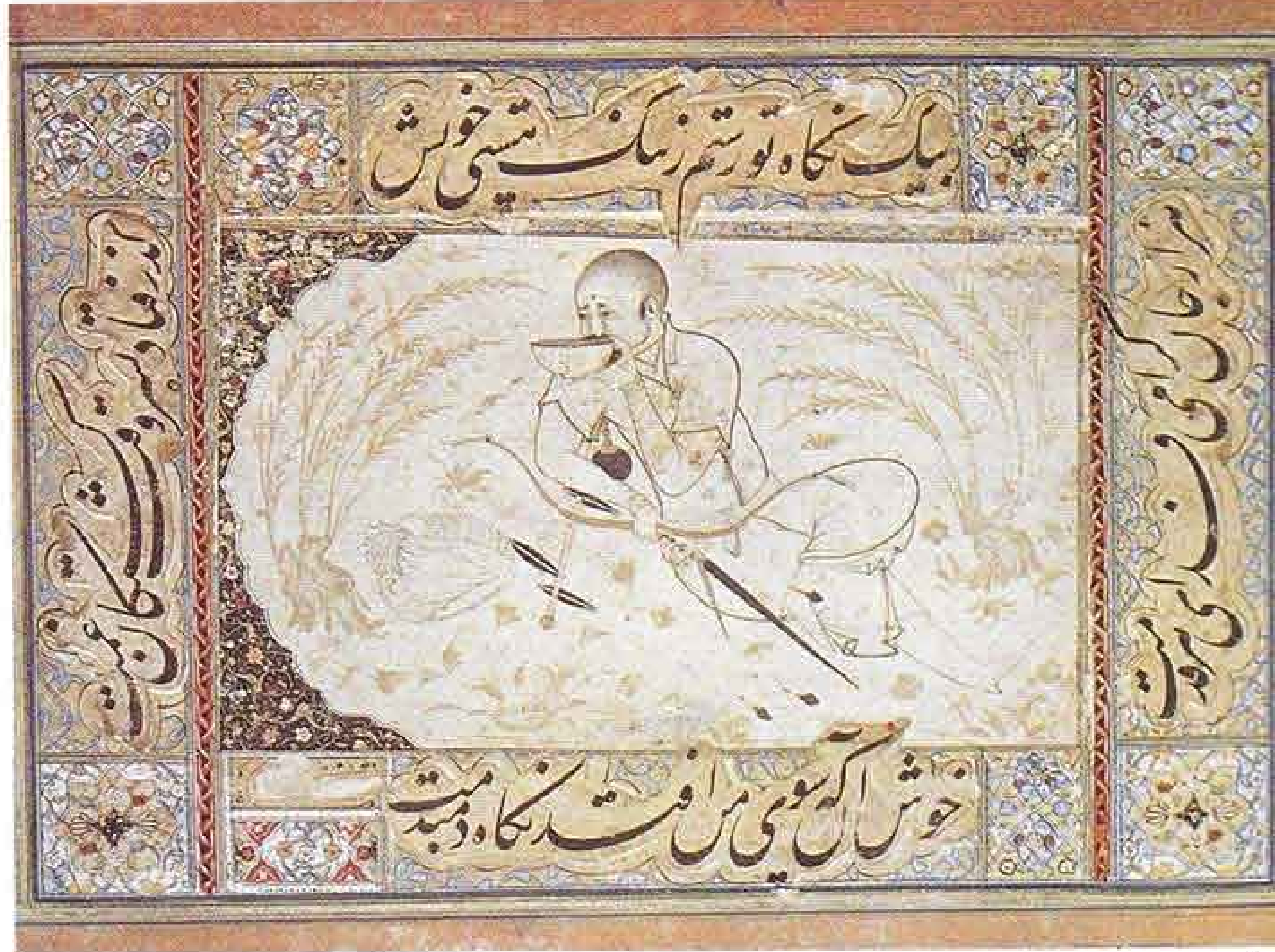
من وحدها في بوتقة الدولة الواحدة بتوصله الى حكم المغول سنة ١٢٠٦ (٢) .

جنكيز خان والامبراطورية المغولية

كانت أول خطوة قام بها جنكيز خان اعادة تنظيم المجموعات القبلية الكبرى في منغوليا ، فضلا عن تلك التي كانت تقيم على حدود سيبريا . ثم وجه اهتمامه نحو الصين ، فشن هجوما على امبراطورية التشين في شمالي الصين ، وتابع ذلك الهجوم حتى وقعت الصين بكاملها تحت السيطرة المغولية سنة ١٢٧٩ .

الا ان الصين لم تكن هدفه الأوحد . فقد هاجم المغول ، الذين كانوا مجهولين حتى ذلك التاريخ ، المناطق الغربية أيضا . ففي سنة ١٢١٩ ـ ١٢٢٠ هزم جنكيز خان محمد شاه حاكم خوارزم ، واستولى بذلك على بلاد ما وراء النهر وفارس . كذلك دحر اثنان من كبار

٣



٤



٥



محاربا ـ بتشييدها في تركستان ، منطقته المفضلة وسواها من المناطق . تمّ له أن يعيد توحيد امبراطورية جنكيز خان موقتا بمساعدة أنصاره التتر .

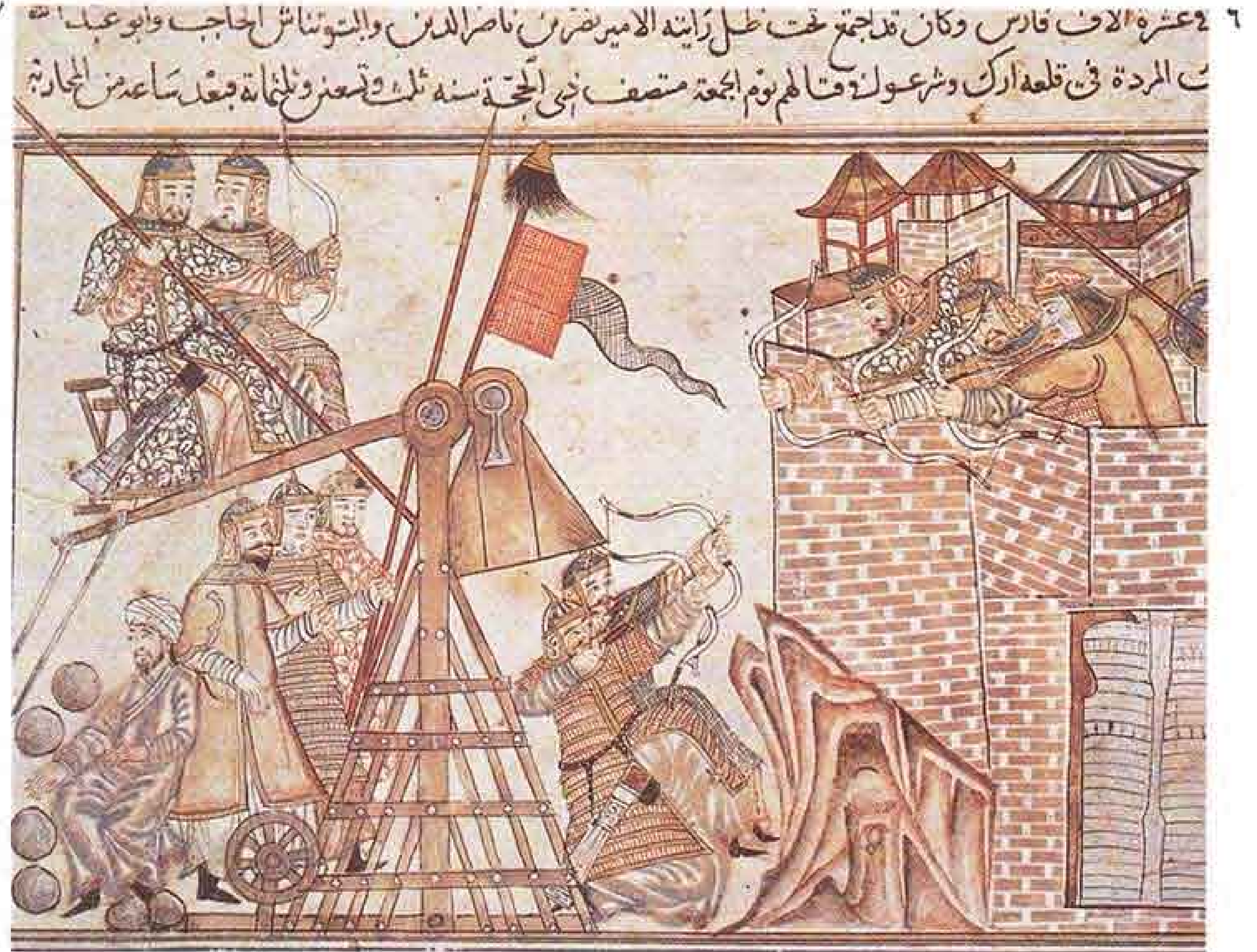
قواده على التوالي الجورجيين ، فالاتراك الكومان ، عند مروج الفولجا والدون (الذين شكلوا فيما بعد المستودع البشري « للحشد المغولي الذهبي » الذي سيطر على روسيا) كما هزما الجيوش الروسية ذاتها على ضفاف الدنيبر .

خلفاء جنكيز خان

قام اقطاي (١١٨٥ ـ ١٢٤١) ، الذي تولى منصب الخان بعد وفاة جنكيز سنة ١٢٢٧ ، باستئناف الهجوم الغربي ، فاجتاح بلاد الفرس وجورجيا وارمينيا حتى البحر الاسود . في الوقت نفسه أدت الحملة الشرقية الى هزيمة التشين سنة ١٢٣٤ ، فتزايد الضغط على سلالة السونج في جنوبي الصين .

زحف باتو (توفي ١٢٥٥) ، وهو حفيد جنكيز ، على شمالي بحر قزوين وبلاد القوقاز باتجاه اوروبا ، فهزم البلغار على









(٦) ـ يبدو الجنود المغوليون وهم يهاجمون احدى المدن بآلات الحصار . صنع هذه الآلات المعروفة بالمنجنيق شخص الماني الأصل كان عائشا في الصين سنة ١٢٧٣ .

(٧) ـ كان الفرسان الذين كانوا يؤلفون نخبة الجيوش المغولية سر نجاح المغول العسكري . كانوا يدربون على استعمال القوس أو السيف فيما هم يعدون عدوا حثيثا .

(٨) ـ كان جنكيز خان ، الذي صوره هنا فنان صيني ، رجلا سياسيا ومحاربا في آن واحد . استخدم سياسة بسط الحماية واقامة الاحلاف بمهارة لبلوغ أهدافه .

(٩) ـ امبراطورة من سلالة اليوان التي أسسها قبلاي خان تعتمر غطاء مغوليا للرأس يعود طرازه الى القرون الوسطى . هذا التقليد مستمر منذ سبعة قرون .

الفولجا ، واستولى على عدة مدن منها كييف ، قبل تقسيم جيشه الى قسمين ومباشر الهجوم على بولونيا وهنجاريا. ثم استولى على كراكوف وبريسلو ، ودحر جيشا المانيا بولونيا في لجنيكا سنة ١٢٤١ . هزم باتو بنفسه الجيش الهنجاري عند الساجو ، واستولى على مدينتي بست وجران ، ثم قاد جنوده نحو الادرياتيك . لم يحاول السيطرة على هنجاريا او بولونيا ، لكنه اسس قاعدة مغولية على الفولجا السفلى لمراقبة الروس والكومان .

جاء حفيد آخر ، هو هولاكو (١٢١٧ - ١٢٦٥) (٣) مؤسس سلالة ايلخان الفارسية (يدل اللقب على الخضوع للخان الأكبر) ، فجهز حملات لاجتياح الجنوب الغربي من آسيا أي البلاد الاسلامية . فسقطت ايران وسقط معقل الاسماعيليين (الملقبين بالحشاشين) في ألموت سنة ١٢٥٦ ، وسقطت بغداد سنة ١٢٥٨ . وتلا ذلك فتح الشام . الا ان المغول اصيبوا بهزيمتهم الاولى سنة ١٢٦٠ في معركة عين جالوت بفلسطين .

كان الجيش المغولي في هذه المعركة بقيادة كتبغا المسيحي المذهب ، مما يدل على مدى تعدد الأديان لدى المغول .لكن المغول انفسهم كانوا يدينون بصورة عامة بالشامانية وهذا التسامح الديني يفسر وجود عدد من الكهنة المسيحيين في البلاط المغولي ، وهو ما شجع ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) ومكّنه من القيام برحلته عبر آسيا الى الصين .

قبلاي خان يفتح الصين

سنة ١٢٦٠ ، اصبح قبلاي خان (١٢١٦ - ١٢٩٤) « الخان الأعظم » ، فنقل عاصمته من كراكوروم الى موقع بكين الحالية سنة ١٢٦٤ . ومن هذه القاعدة جهز الحملات التي أفضت الى ضم الصين بكاملها الى الامبراطورية .

ومع ان الحملة لم تنتهِ حتى ١٢٧٩ ، فقد دامت سلالة اليوان التي أسسها قبلاي ، بحسب التقدير العام ، من تأسيس العاصمة الجديدة حتى فرار آخر ملوكها امام جيوش المينج طلبا للنجاة في الوطن المغولي سنة ١٣٦٨ . الا أن الامبراطورية التي كان قبلاي نفسه حاكمها الاخير كانت قد تفككت قبل ذلك بأمد طويل ، اذ اعتنق حملة لقب الخان الغربيون الاسلام ، ورفضوا الخضوع لسلطة « خان أعظم » غير مسلم .

كذلك لم تتوج حملات قبلاي بالنصر . ففي الشمال ، لم يتمكن من قهر كايدو (توفي ١٣٠١) حفيد أقطاي . وفي الجنوب لم يتمكن من احتلال بورما رغم استسلامها ، كما ان المرض أجبره على الانسحاب من فيتنام الشمالية . كذلك صدت احدى حملاته البحرية على جاوه ، كما اخفقت محاولته لغزو اليابان . وبعد وفاة قبلاي ، تولى السلطة تسعة حكام حتى سنة ١٣٦٨ . وفي عهد الحكم المتهتك لآخر الأباطرة ، طوغان تيمور ، تطورت الثورات والفوضى الى تمرد مكشوف سنة ١٣٤٨ ، والى هزيمة نهائية على يد الثوار الصينيين .

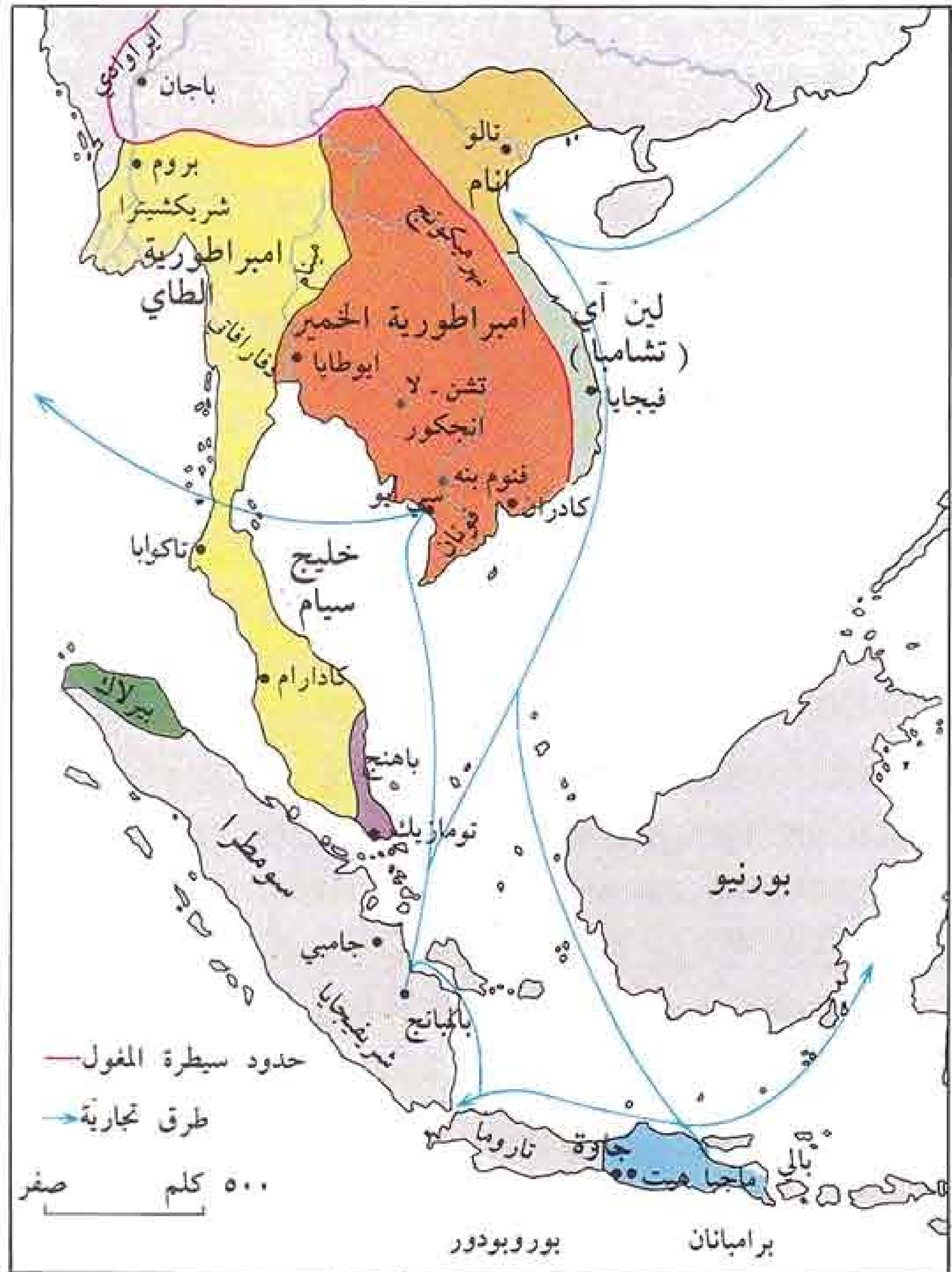
في الشرق الأوسط وروسيا ، استمرت السلالات المغولية في الحكم حتى ١٥٠٢ ، مع انها كانت قد اصبحت عند ذاك منغولية بالأسم فقط ، لأن فتوحاتها المختلفة كانت قد أذابت المجموعات المغولية الأصلية الى حد كبير في الشعوب الأخرى .

امبراطوريات جنوب شرق آسيا

تأثرت المناطق التي تقع على طول الطريق البحرية بين شبه القارة الهندية والصين (١) كثيرا بهاتين المنطقتين . واذا استثنينا فيتنام ، نرى ان التأثير الثقافي الرئيسي جاء من الهند ، ولكن طيلة قرون عديدة كانت ممالك آسيا الجنوبية الشرقية تعترف الى حد ما بالسيادة السياسية العليا لأباطرة الصين .

القرون الأولى للميلاد

يبدو ان تدخل الهند والصين في شؤون هذه المنطقة المعقدة يعود خصوصا الى حاجتهما الى ايجاد طريق بديل بينهما كلما كان عدم الاستقرار السياسي في آسيا الوسطى

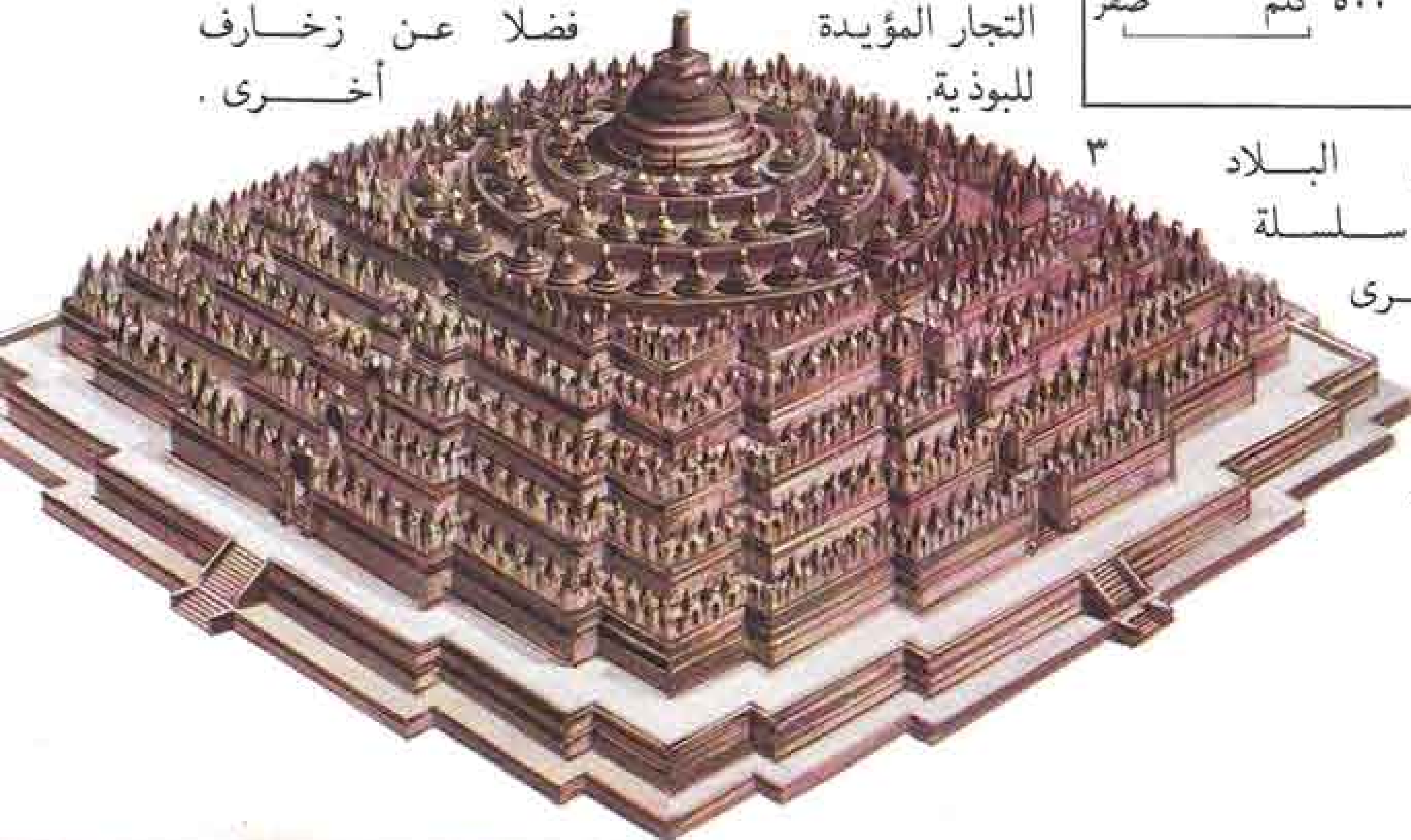


(١) - يفسر وقوع آسيا الجنوبية الشرقية جغرافيا بين الهند والصين ، وفي وسط سلسلة من الرياح الموسمية ، جانبا كبيرا من تطور هذه المنطقة الثقافي واهميتها التاريخية . كذلك جلب التبادل التجاري النشيط في داخل البلاد على طول سلسلة الأنهار الكبرى تأثيرات دينية وسياسية وثقافية شتى الى المنطقة .



(٢) - كان « تشاندي ماندوت » ، وهو هيكل صغير من مجموعة « بوروبودور » يشكل على الأرجح مدخلا الى معبد . يبين هذا الرسم النافر على الجدار الشمالي للرواق الصنم « كوفيرا » ، صنم الثراء أي الذي كانت تكرمه خصوصا طبقة التجار المؤيدة للبوذية .

(٣) - بني « بورو بودور » ، وهو من أعظم المعابد البوذية في العالم ، حوالى منتصف القرن التاسع ، وفقا لتصميم فريد اقتضى تنفيذه موارد هائلة . فقد نقل ٧٥٠٠٠٠ متر مكعب من الحجارة من مجرى أحد الأنهار ، فقطعت وثبتت في مواضعها وحفرت فيها نوافير وكؤوس لا حصر لها ، فضلا عن زخارف أخرى .



يجعل الرحلة البرية بين البلدين عسيرة . الا ان اجزاء آسيا الجنوبية الشرقية المختلفة كانت قد احرزت تقدما تقنيا واقتصاديا وسياسيا كبيرا ، لدى وقوعها تحت تأثير جارتيها الكبيرتين في القرون الأولى للميلاد .

في اوائل الحقبة المسيحية ، كانت هناك دولتان نعرف عنهما أكثر مما نعرف عن سائر الدول الأخرى القائمة في جنوب الصين ، هما « لين آي » وعاصمتها بالقرب من هيو ، و « فونان » في دلتا الميكونج . أصبحت « لين آي » فيما بعد مملكة تشاميا التي سيطرت على فييتنام الوسطى وعلى اجزاء اخرى من الجنوب حتى القرن الرابع عشر . أما فونان ، فقد غدت امبراطورية ضخمة سيطرت على معظم شواطىء خليج سيام الشمالية والشرقية ، فضلا عن المناطق الداخلية ، الى ان انتقل مركز القوة حوالى منتصف القرن السادس الى دولة كانت تابعة

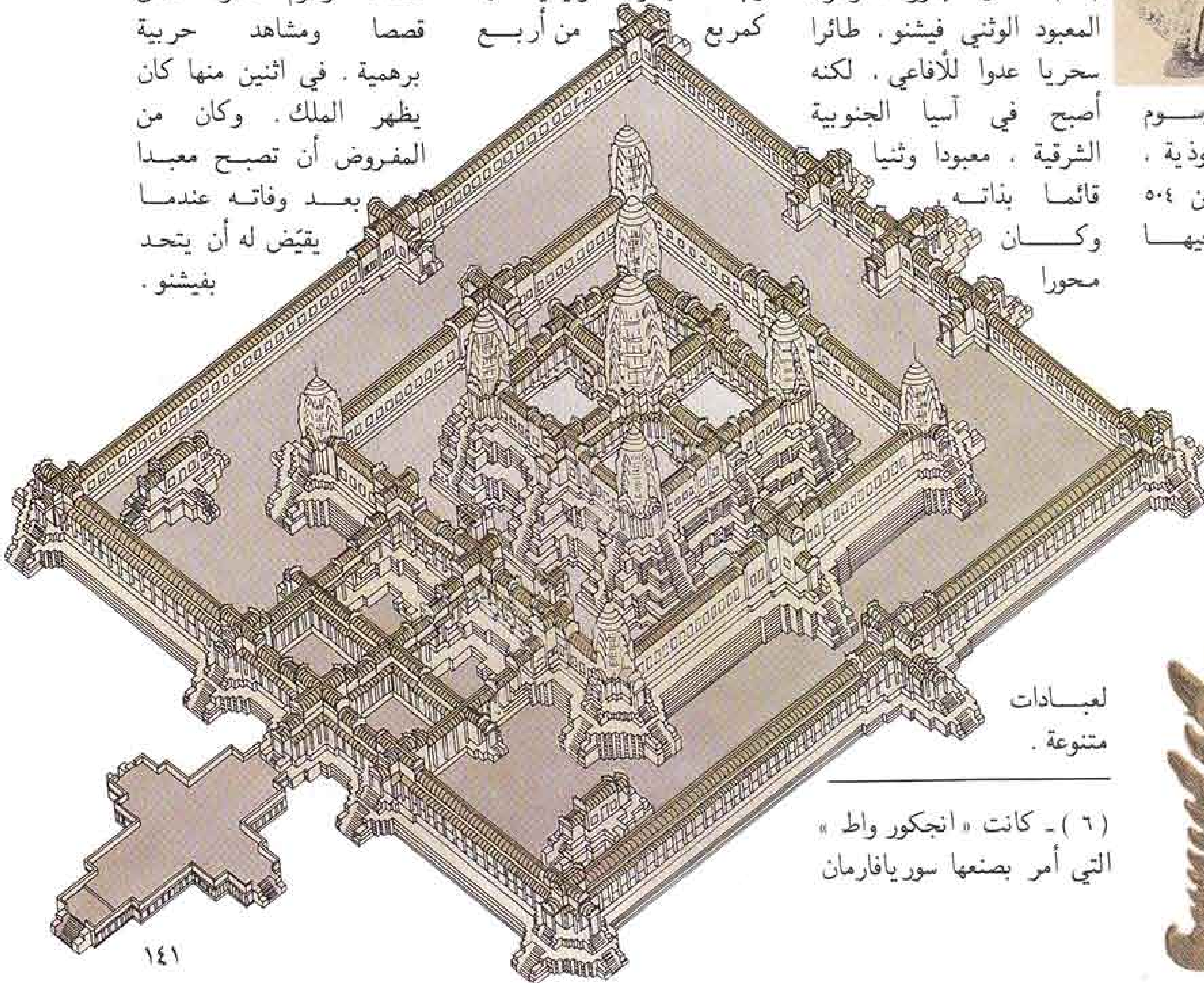


تغطي الجدران رسوم نافرة تشرح العقيدة البوذية ، وثمة ما يقرب من ٥٠٤ معابد يجلس فيها البوذات .

(٤) ـ رأس من الفخار المطبوخ من تايلند الجنوبية يمثل غضب شيفا ، وهو مخلوق التهم جسده لكي يسد جوعه ، بعد أن غفر للشيطان الذي كان مقدورا له أن يلتهمه .

(٥) ـ كان الجارودا ، رسول المعبود الوثني فيشنو ، طائرا سحريا عدوا للأفاعي ، لكنه أصبح في آسيا الجنوبية الشرقية ، معبودا وثنيا قائما بذاته . وكان محورا لعبادات متنوعة .

(٦) ـ كانت « انجكور واط » التي أمر بصنعها سوريافارمان الثاني (ملك كمبوديا من ١١١٣ ؟ حتى ١١٥٠) ، مركز العبادة في مملكته ، حيث كان يحفظ الاحليل الملكي (لنغام) رمز السلطة . كان الرواق الخارجي المعمّد المسقوف (١٣٨٠ × ١١٥٠ مترا) يحيط بمجموعة من الأبنية ، رتبت المجموعة الرئيسية منها كمربع من أربع بنايات وواحدة فقط في الوسط . كانت تزينها جميعها رسوم نافرة بديعة تمثل اصناما من راقصين ونباتات وطيور وحيوانات أخرى . كانت تحتوي الابراج المتعددة على صور ، وكانت جدران المجموعة المركزية تغشاها رسوم نافرة تمثل قصصا ومشاهد حربية برهمية . في اثنين منها كان يظهر الملك . وكان من المفروض أن تصبح معبدا بعد وفاته عندما يقيّض له أن يتحد بفيشنو .





لها فيما مضى هي « تشين لا » الواقعة على الأرجح بالقرب من التونلي ساب . وعن مملكة « تشين لا » هذه انبثقت ، ابتداء من القرن التاسع ، امبراطورية الخمير الكمبودية (٩).

الى الغرب من الصين ، كانت تقوم في القرن السابع مملكة دفارافاتي بالقرب من بنكوك الحالية ، وأبعد من ذلك غربا ، كانت تقوم في بورما مملكة شريكشترا البيووية مع عاصمتها في بروم .

الى الجنوب ، ازدهرت في ارخبيل اندونيسيا وعلى شبه الجزيرة الملايزية (التي يبدو ان بعض اجزائها كانت تحت سيطرة فونان) طائفة من الممالك الصغيرة ، نتيجة بالأرجح لظهور طرق تجارية بين الصين والغرب . جلبت هذه الطرق الحجاج البوذيين الى المنطقة كما استهوت ايضا بعض المعلمين البراهمة . أصبحت هاتان الديانتان ، اللتان ظهرتا اصلا في الهند ، الديانتين الشرقية خلال الألف سنة الأخيرة (كما يستعملان حتى يومنا هذا) . لما كانت حتى المعابد وصورها في الغالب من خشب ، سقط قسم كبير من الماضي من السجل الأثري .

٧



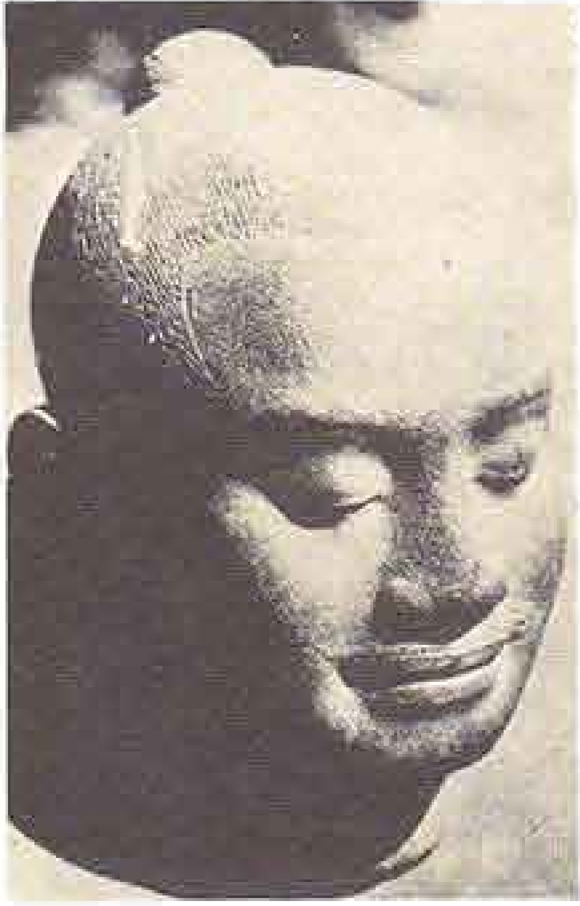
(٧) - بنى « البليوسان تشاندي » ، وهو مجموعة ضخمة من الأبنية البوذية في جاوة الوسطى ، حوالى منتصف القرن التاسع . تتميز مجموعتان منه تبدوان متماثلتين بمزارات مركزية تحيط بها صفوف مستطيلة من الهياكل . لكل بناية رئيسية طابقان ، ويسكنها مجموعة من البوذات والبوذ يساتفات (اي الطامحين الى مرتبة البوذا) . جاء في بعض النقوش هناك ان الصور « تشع بالعقيدة » وقد رتبت النوافذ بلا شك لخلق جو من الاشعاع .

٨



(٨) - تذكرنا « مقصورة البحيرة » في « القصر الصيفي » في بانكوك ، بخشبها المحفور والمذهب ، ان البامبو والخشب استعملا كمواد لمعظم الأبنية في آسيا الجنوبية

٩



(٩) - اصبح جايافارمان السابع (١١٢٠ ؟ - ١٢١٥) ملكا على كمبوديا سنة ١١٨١ بعد ان طرد غزاة التشام . وعلى غرار ابيه سوريافارمان الثاني الذي بنى انجكور واط تعهد برنامجا معماريا ضخما . كان بوذيا يبدو انه كان على صلة خاصة بأحد أرباب البوذية ، لوكيشفارا (الظاهر في الصورة) الذي كان رأسه المحفور يتوج ابراج وبوابات المباني .

الرسميتين لممالك آسيا الجنوبية الشرقية ، وهو مركز احتفظت به البوذية ، بينما تلاشت البرهمية (٤ ، ٥) تقريبا من هذه المنطقة ما عدا بالي .

التأثيرات البوذية والبرهمية

حوالى القرن السابع للميلاد ، كان رحالة صيني بوذي اسمه « آي تشينج » ينصح أتباعه بقضاء بعض الوقت في سومطرا لدراسة اللغة السنسكريتية والديانة البوذية قبل التوجه الى الهند . وكان هذا الرحالة نفسه قد ئقضى حوالى عقد هنالك يترجم النصوص البوذية الى الصينية . يبدو ان ظهور هذا المركز في غربي اندونيسيا وتطوره الى دولة عرفت فيما بعد باسم شريفيجايا وسيطرت تجاريا على آسيا الجنوبية الشرقية طيلة عدة قرون كان نتيجة لانتقال السلطة من الساحل الى الداخل . في هذه الأثناء ، بدأت تظهر التأثيرات الهندية في امكنة أخرى من الأرخبيل وفي جاوة الغربية (تاورما) وبورنيو ، واستولت على السلطة في جاوة الوسطى سلالة رئيسية ، هي اسرة الشايلندرا الملقب ابناؤها « بأسياد الجبل » الذين ربما كان لهم روابط مع فونان . ويبدو ان البوذية ازدهرت هناك (٤) بين القرنين الثامن والتاسع ، ويتجلى أوج عزها في معبد بوروبودور (٣ ، ٢) . يعتبر هذا المعبد ، الذي تمتد رسومه النافرة المفسرة للعقيدة على طول أميال عديدة ، واحدا من اضخم المعالم الدينية في العالم .

الا ان البرهمية لم تكن مهملة . ومن الأرجح ان جايافرمان الثاني (حوالى ٧٧٠ - ٨٥٠) « العائد من جاوة » ، كما نقرأ في أحد النقوش ، قد أسس في كمبوديا انطلاقا من هنا المملكة التي سيطرت على البر الأوسط من حوالى القرن التاسع حتى الرابع عشر ، وكانت البرهمية دين هذه المملكة المرتكز الى طقوس احليلية كانت تقام في هيكل وسط العاصمة . كانت الهياكل متزايدة التعقيد ، وقد بلغ التعقيد أوجه في مبنى « انجور واط » (٦) الرائع وبايون العجيب في وسط انجكور طوم .

كذلك شهدت جاوة الشرقية ، وربما لاسباب اجتماعية واقتصادية ايضا ، ظهور مملكة « ما جاباهيت » ، وهي دولة مكنتها قوتها البحرية من صد اسطول صيني سنة ١٢٩٣ . امتد نفوذها حتى سومطرا الوسطى غربا ، وكان مزجها للبوذية والبرهمية ذروة اتجاه كان قد ظهر في جاوة الوسطى في عام ٧٨٢ . يبدو ان نهاية هذه المملكة كانت نتيجة لانتشار الاسلام الذي كان قد استقر في سومطرا الشمالية ابان زيارة ماركو بولو سنة ١٢٩١ ، واصبح ذا شأن هام على ساحل جاوة بعد ذلك بقرن ونيف .

التطورات في البر الداخلي

مع ان المغول لم يلقوا نجاحا يذكر في جاوة ، فقد كان لتدخلهم في فيتنام بعض النتائج . أما بورما ، حيث تركزت المملكة حول باغان على نهر ايراوادي وحيث تشهد الوف من الهياكل تقريبا التي بنيت خلال قرنين على قوة البوذية هناك ، فقد سقطت أمام هجمات المغول عام ١٢٨٧ . وحوالى ذلك التاريخ ، وطد راما خامهينج سلطة التاي في المنطقة التي كانت اصلا امبراطورية الخمير ، مؤسسا بذلك دولة تايلاند الحالية .

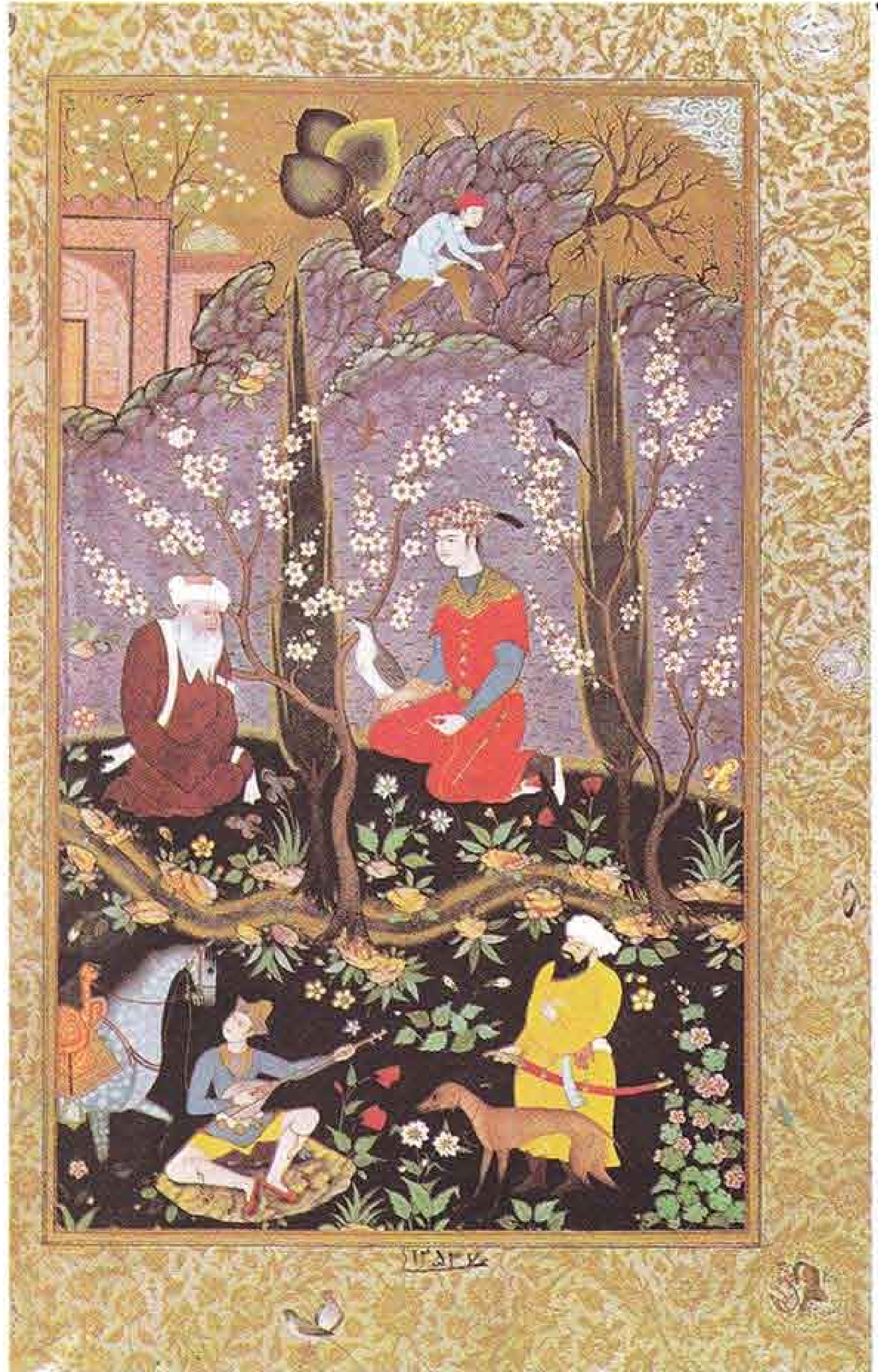
إنتشار الاسلام في آسيا

منذ القرن الثاني عشر أي في عصور التمزق السياسي والاخطار الخارجية وخلال فترات الصراع مع المغول من جهة ، ومع الهجمات الصليبية من فرنجية واسبانية من جهة أخرى ، عرف الاسلام موجة من الانتشار الهادىء في افريقيا السوداء وفي آسيا .

الاسلام في اواسط آسيا وفي الصين

لم يحمل الاسلام الى هذه المواقع تنظيم ديني معين ، او مؤسسة كهنوتية او تبشيرية او سلطة سياسية قاهرة ولكنه انتشر سلميا وبتطوع اهله . ورافق العلاقات التجارية من جهة كما أعان عليه نشاط رجال الطرق الصوفية من جهة أخرى .

١



٢



(١) ـ ندر أن اجتمع في عاهل ما اجتمع في السلطان اكبر من الثقافة الدينية والفلسفة . كما كان رساما أيضا . وقد أثر بذوقه وفكره في توجيه الفن الاسلامي الهندي نحو الواقعية وتمثيل الحياة الطبيعية . وان ظهر في هذا الفن أولا أثر التصوير الفارسي ثم التصوير الغربي بعد ذلك ، كما في الصورة (لقاء جهانكيز) التي رسمها رضا عباسي (مطالع القرن ١٧) وهي في متحف طهران .

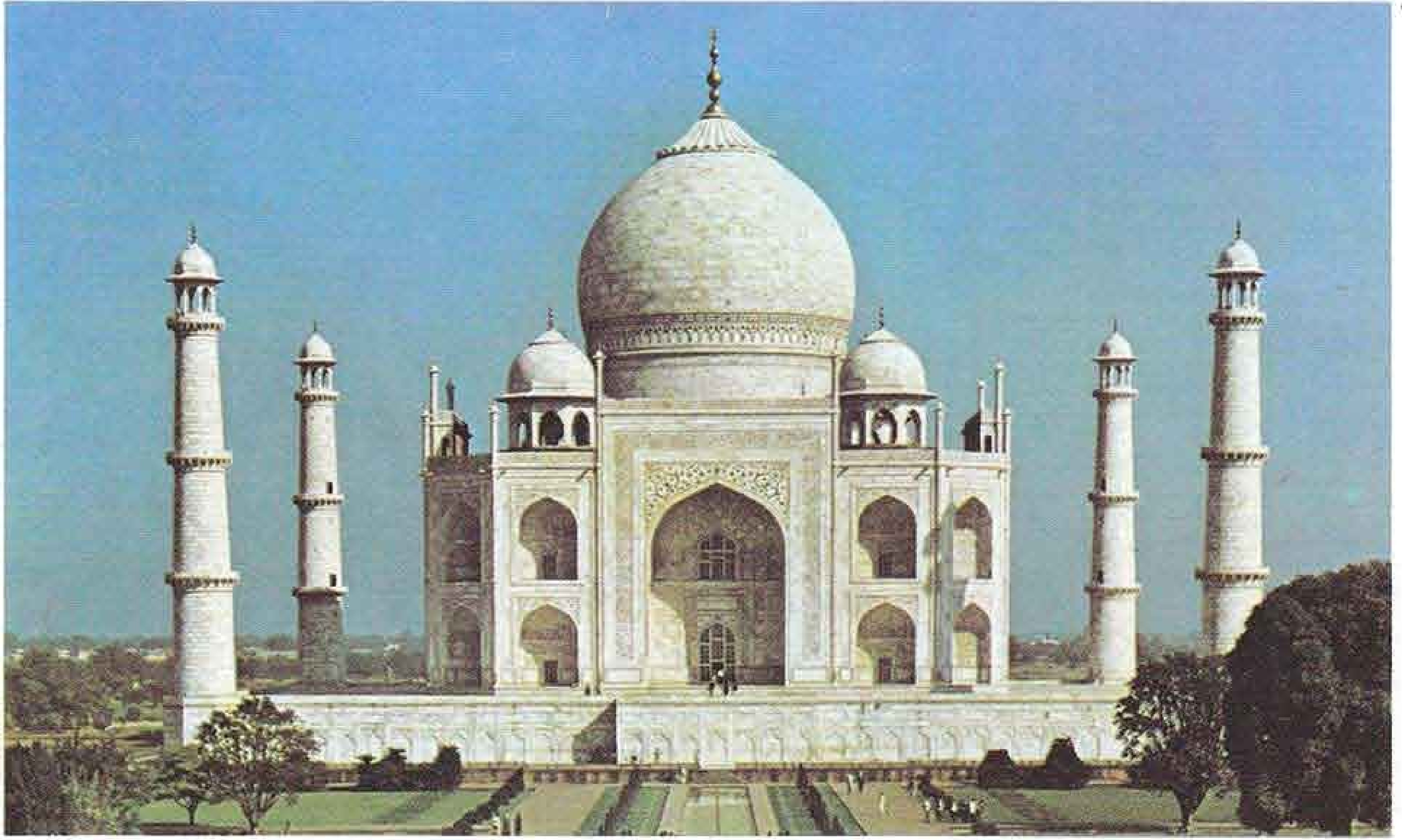
(٢) ـ هذا الجامع بناه شاه

أ ـ ففي أواسط آسيا عند ممرات طرق التجارة العالمية القديمة الى الصين كان الاسلام قد كسب ما وراء النهر (القرن الثامن) ثم كسب الترك (الغز) السلاجقة ثم تعرض هذا الشرق لهجمات المغول (القرن الثالث عشر) فما لبثت أقسام منهم ان دخلت الاسلام وحضارته (الايلخانيون في ايران ومملكة جغطاي والقبيلة الذهبية في آسيا الوسطى وجنوب روسيا (القرن الرابع عشر).

ثم اسلمت بعد ذلك قبائل واسعة من القرغيز والقازاق ومن التتر في القرم وفي سيبيريا وعلى ضفاف نهر ايرتش (القرن السادس عشر). لكن الزحف الروسي الدائب عبر سيبيريا الى فلاديفوستك (القرن السابع عشر والثامن عشر) أوقف التحرك الاسلامي كله.

ب ـ وعرفت الصين الاسلام مبكرة جدا (القرن السابع). التجار المسلمون وصلوها عن طريق البحر من جنوبها الشرقي وكانت

٣



جهان في دلهي بين سنتي ١٦٤٤ ـ ١٦٥٨ وهو اكبر جامع مغولي في الهند. ومن الملاحظ أن الاسلام دخل الهند في الوقت الذي دخل فيه الاندلس ولكنه في الهند انتظر الى القرن السادس عشر ليرى انتشار الحكم الاسلامي على الهند كلها (عدا الدكن) ثم جاء السلطان بابر (حفيد تيمورلنك من ناحية الاب وجنكيز خان من ناحية الأم) فأسس الامبراطورية المغولية في الهند كلها وسرعان ما ظهر في عهود عدد قليل من الاباطرة البارزين عصر ذهبي لم تعرف الهند مثله من قبل اختلطت فيه التقاليد الاسلامية بالهندية وبلغت فيه العمارة الأوج (ومن ذلك تاج محل وجامع مسجدي) ولكن الحكم لم يدم وفي سنة ١٧٣٩ نهب شاه الفرس مدينة دلهي وسنة ١٧٥٧ هزم المغول أمام الاستعمار الانجليزي في معركة بلاسي في دلتا الغانج التي اسلمت الهند للانجليز.

---

(٣) ـ تاج محل بناء عالمي الشهرة. بناه السلطان شاه جهان (١٦٢٧ ـ ١٦٥٨) على قبر زوجته الأثيرة «ممتاز محل». دام بناؤه ٢٢ سنة (١٦٣٠ ـ ١٦٥٢). وقد أخذ شكل الجامع الاسلامي بقبته والمآذن. ولكنه بزخارفه الدقيقة وتوازنه الهندسي وابعاده أضحى جوهرة العمارة الاسلامية الهندية. وهناك في أغرا نفسها مجموعة أخرى من الأبنية الاسلامية الرائعة منها قصور الامبراطور اكبر في داخل القلعة. وجامع اللؤلؤة (بني بين سنة ١٦٤٨ ـ ١٦٥٥) عدا عدد من الجوابع والأضرحة.

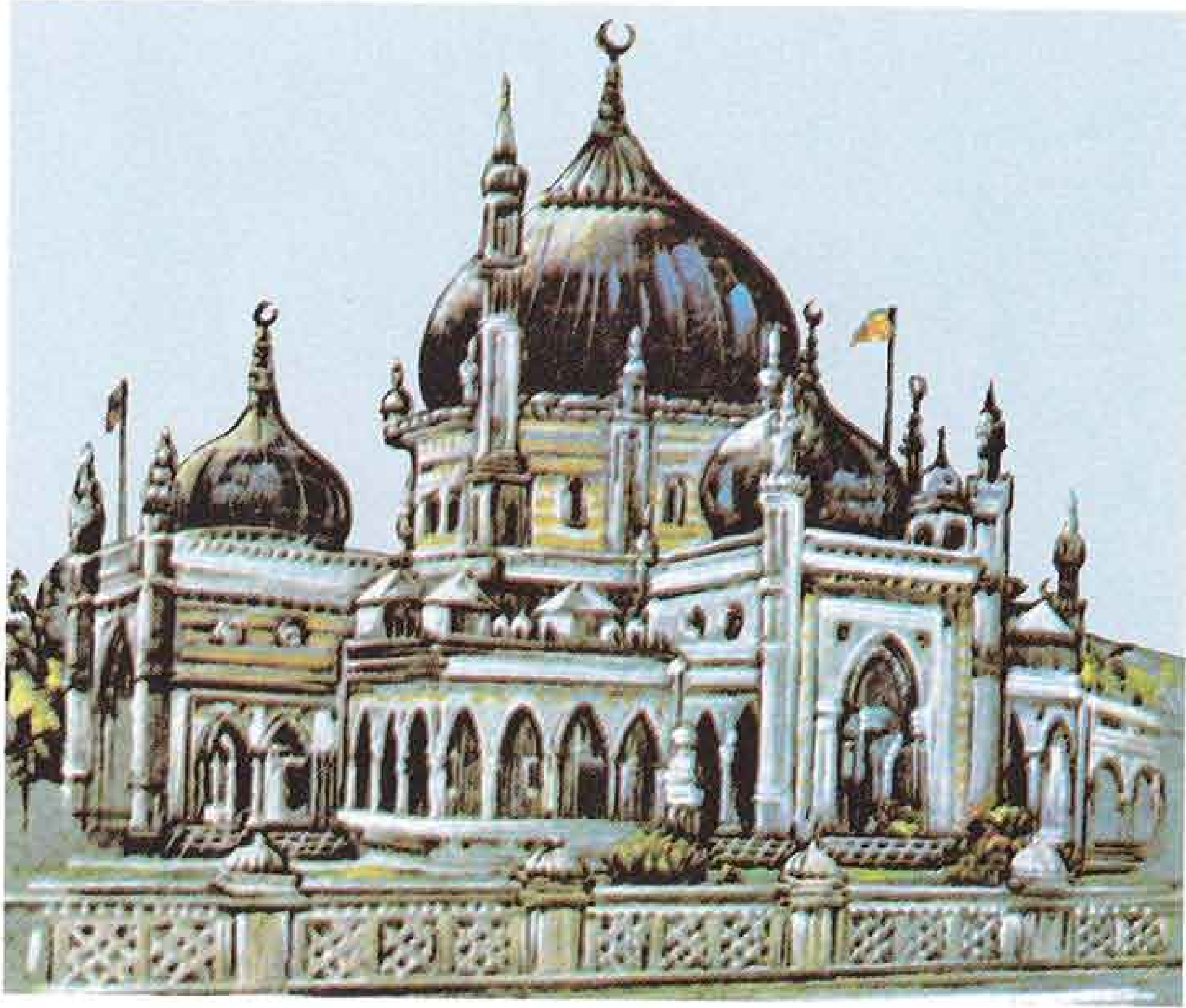
لهم في القرن الثامن جالية كبيرة قوية في خانفو (كانتون) . ويجب ان ننتظر الفتح المغولي (القرن الثالث عشر) لنجد تكاثر المسلمين الواردين الى الصين من الشمال الغربي خاصة واستقرارهم واختلاطهم بالصينيين (٢) . وقد برز منهم رجال تولوا مناصب هامة في الدولة (في القرون ١٣ حتى ١٧) . أباطرة أسرة منشو كانوا يضطرون الى التسامح معهم أحيانا ولكنهم كانوا يقمعون ثوراتهم بمنتهى الشدة وخاصة تلك التي كانت بين ١٧٥٨ ـ ١٨٥٥ .

الاسلام في الهند

على ان الاسلام لقي مصيرا أزهى وأعظم بكثير في جنوبي آسيا :

ففي الهند وجد الاسلام نفسه ينافس دينا من أقدم الأديان فيها هو الهندوسية ومع ذلك فقد توطد . في القرن السابع وصل

٤



(٤) ـ واحد من مئات المساجد في ارخبيل الملايو لا يمثل فقط ٢٠٠ مليون مسلم في تلك الاصقاع ولكنه يمثل في الوقت نفسه جهود آلاف من الدعاة المجهولين والشيوخ المعلمين وقادة السفن والتجار والملوك والامراء الذين بذلوا جهودهم وحياتهم منذ ما قبل القرن ١٢ لينشروا الاسلام هناك .

٥



(٥) ـ ظهر أثر الاسلام الصيني في الانتاج الفني (كما في الصورة) وفي التأليف الأدبي والعلمي . وبرز من المسلمين الصينيين علماء كان أهمهم خمسة : وانغ داي يو (١٥٦٠ ـ ١٦٦٠) اول من كتب بالصينية عن الدين الاسلامي . وماتشو (١٦٤٠ ـ ١٧١١) مؤلف كتاب ارشاد الاسلام في ١٠ اجزاء وليو تشه (١٦٥٥ ـ ١٧٤٥) وله السيرة النبوية بالصينية في ٢٠ جزءا ومافوتشو (١٧٩٤ ـ ١٨٧٣) ومن مؤلفاته تعريف روح الاسلام وقبلهم جميعا ظهر خونغ تشو « استاذ الاساتذة » (القرن ١٦) الذي كان أول عالم صيني حول المساجد الى مدارس للدين .

العرب المسلمون الى االهند الغربية فاتحين في حوض السند . ثم دخلها الغزنويون من الشمال الشرقي عن طريق افغانستان (٩٩٨ - ١٠٣٠) واستقروا في لاهور . وتلاهم الغوريون الذين اقاموا دولة اسلامية هناك هي سلطنة دلهي (١٢٠٦ - ١٥٥٥) وحكمت بعدهم الاسرة الخلجية (١٢٩٠ - ١٣٢٠) التي حولتها في عهد السلطان علاء الدين (١٢٩٦ - ١٣١٦) الى امبراطورية تضم شبه القارة كله تقريبا . ثم تلاهم عليها بنو تغلق شاه (١٣٢٠ - ١٤١٢) الذين خسروا هذه الامبراطورية على يد حكام الاقاليم المتناحرين . وفي عهد هذه السلطنة منذ الغوريين ، انتشرت الطرق الصوفية (السهروردية والجشتية وصوفية ابن عربي) ونمت الثقافة الاسلامية الهندية ، وألّف عدد من مؤلفات الفقه .

على أن غزوة تيمورلنك للهند (١٣٩٨) هي التي أضعفت سلطنة دلهي كل الضعف واطلعت فيها عدة دول وأسر حاكمة . منها : دولة البنغال التي نجح الاسلام فيها اكثر من غيرها رغم نمو تيار ثقافي هندوسي بجانبه . ودولة كشمير التي اسلم أهلها وصارت دولة اسلامية (١٣٤٦ - ١٥٨٧) ودولة كوجرات البحرية (١٣٩١ - ١٥٨٣) التي اصطدمت مع الغزو البرتغالي . وأسرة (شرقي) في حوض نهر الغانج (١٣٩٤ - ١٤٧٩) وسلطنة مالوا في وسط الهند (١٤٠١ - ١٥٣٠) التي شيدت آثارا معمارية رائعة . ودولة البهمانيين (١٣٤٧ - ١٥٢٧) والدول الخمس التي خلفتها في هضبة الدكن والتي اقامت نمطا مميزا من الثقافة الهندية الاسلامية في جنوب الهند (١) .

وأخيرا قامت الامبراطورية المغولية الاسلامية (١٥٢٦ - ١٨٥٩) على يد السلطان بابر واستطاعت حتى مطالع القرن الثامن عشر ان تضم شبه القارة كلها في امبراطورية مزدهرة ، ذات عمران هندي اسلامي رائع (٢ ، ٣) ، وفي عهدها انتشرت الطريقتان الصوفيتان (النقشبندية والقادرية) كما انتشرت في كجرات الاسماعيلية الفاطمية (الطيبية والنزارية) بجانب الاسلام السني في باقي الهند .

الاسلام في جنوب شرقي آسيا

وفي أرخبيل الملايو (شبه جزيرة الملايو واندونيسيا والفيليبين) كانت قصة الاسلام مختلفة جدا ولعل من أهم فصولها انتشاره بالدعوة والقدوة الحسنة . كان الاسلام واحدة من موجات ثقافية ثلاث عملت على تكوين حضارة الارخبيل : اقدمها الهندوسية البوذية ثم جاء الاسلام ثم الحضارة الغربية الحديثة . بدأ انتشار الاسلام منذ القرن الثاني عشر مع التجار المسلمين القادمين من الهند ومن الجنوب العربي . وانتشر دون عون خارجي . وكان انتشاره من شبه جزيرة ملقا باتجاه الشمال نحو سيام وبورما ، ومن شرقي سومطره نحو الشرق والجزر الأوقيانوسية .

في شبه جزيرة الملايو حمله بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر بعض الشيوخ العرب الذين كسبوا بعض السلاطين المحليين (٤) .

وأما في شرقي سومطره فقد أسس الاسلام اسرة حاكمة سنة ١٢٠٥ ومنها انتقل الى جاوه ثم سار تدريجيا بين آلاف الجزر الاندونيسية وما وراءها . وتابع انتشاره الهادىء رغم وصول الاوروبيين الى تلك المواقع حتى صار جزءا أساسيا من مقومات الشخصية الاندونيسية المعاصرة .

الامبراطوريات الافريقية والاسلام

أفريقيا ، (الموصوفة بالسوداء) ، ظلت طويلا في عتمة التاريخ . رغم أن لها لغات (١) وحضارات قديمة ، متطورة منذ العصور الحجرية (٢ ، ٣) . أقدم دولها التاريخية مثل امبراطورية كوش (على النيل الأوسط بين ٨٠٠ ق . م و ٤٠٠ م) وامبراطورية أكسوم في الحبشة (بين القرن ١ ـ ٥ م) قامت بتأثير مصر وجنوب بلاد العرب . أما المناطق الأبعد فظلت مجهولة لانقطاعها . الحدود الجنوبية للعالم المعروف كانت ، حتى ما قبل ٥٠٠ سنة ، لا تجاوز جنوب الصحراء الكبرى ، من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي ، بعرض ٧٠٠ الى ٨٠٠ كلم ، وتنتهي بأطراف الغابات الاستوائية . انها ، جغرافياً ، مناطق

(١) ـ معظم سكان افريقية في البلدان الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى من الزنوج ، مع ان الخويسان في اقصى الجنوب من اعراق مختلفة . اما سكان افريقية في البلدان الواقعة الى شمالي الصحراء ، فهم من الشعوب البيضاء وهم في الغالب قوقاسيو الاصل . تميز تطور اللغات الافريقية بثلاث سمات : النمو البطيء للغات الافريقية الغربية ؛ فالانتشار السريع بعد ٢٠٠٠ ق . م تقريبا لأحد فروعها ، وهو فرع البانتو في جميع انحاء افريقية الواقعة الى جنوب خط الاستواء ؛ وسيادة العربية على اللغات السامية الأقدم جدا منها ، مثل لغة البربر التي ما زالت محكية في بعض انحاء افريقية الشمالية .

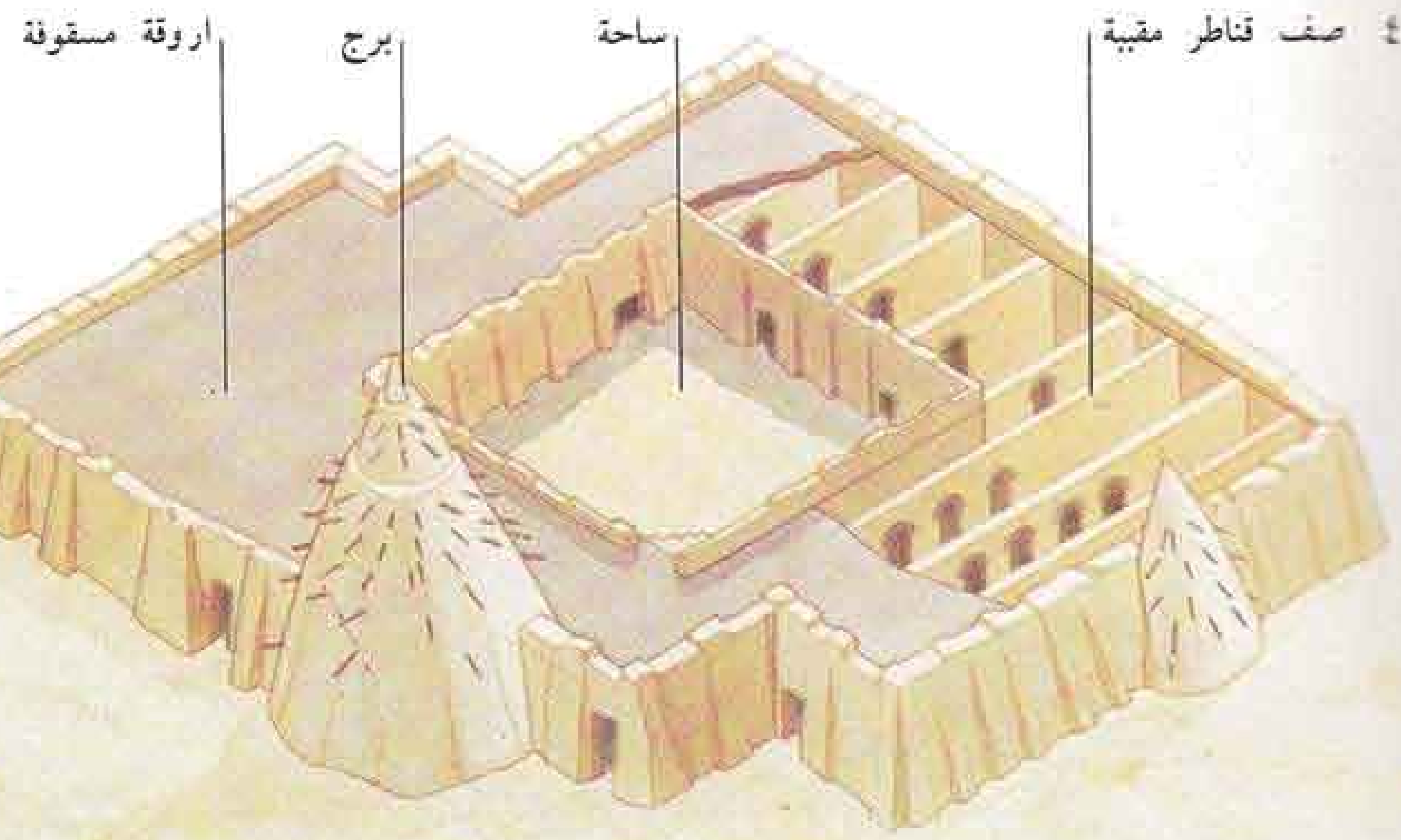
السافانا ، وانتقالها الى طور الدول المنظمة ذات الحضارة ، ترافق مع اتصالها بالاسلام والمسلمين ، تجارة ودنيا وثقافة . أطلق العرب عليها أسم السودان . وسموا الأقسام الغربية منها بلاد التكرور . ويجب ان نضيف اليها سواحل افريقيا الشرقية المطلة على المحيط الهندي ، والتي عرفها العرب باسم « بر الزنج » .

تسربت المسيحية ، عبر وادي النيل ، الى الحبشة ، في القرون الاولى للميلاد ؛ ثم توقفت حتى العصر الحديث . أما الاسلام فدخل افريقية السوداء ، حتى قبل القرن الثامن . ويعتبر دخوله انقلابا في تاريخها كله . وصلها ، عبر الصحراء ، عن ٣ طرق :

١ - طريق المغرب العربي من فزان وغدامس وسجلماسة الى حوض النيجر (٦) .

٢ - طريق وادي النيل الى دارفور وبلاد الكانم (تشاد) .

٤



٥



(٢) - نشأت ممالك قوية في أدغال افريقيا الغربية حوالى ١٤٠٠، وكانت على اتصال تجاري مع ممالك الشمال السودانية القديمة. كان لتلك الممالك تراث فني قديم وغني خصوصا في النحت (وقد أحرزت برونزيات وخزفيات بلدة إيف والبرونزيات البنينية شهرة عالمية) . تنقص هذا الرأس البرونزي من صنع البنين دقة المنحوتات البنينية الباكرة جدا .

---

(٣) - هذا الرأس البرونزي الذي تعلوه قبعة من العاج ، يمثل أوبا (أحد ملوك بنين). كانت عظمة الدول الافريقية العظمى تتجلى في شخص حكامها الدين كان ينظر اليهم كآباء لشعبهم ومسؤولين عن رفاهيته .

---

(٤) - كانت امبراطوريات السودان دوما على علاقات قوية تجارية وثقافية مع سلطنة المماليك في مصر وسلطنة المرينيين في المغرب . حج منسا موسى سلطان مالي سنة ١٣٢٤ ، فلما عاد أنشأ جامع تمبكتو الكبير سنة ١٣٣٥ (صممه مهندس اندلسي لقيه في الحج) وألحق به مدرسة للتدريس على غرار الأزهر . وأودع فيها جملة وافرة من الكتب اشتراها من مصر كما استقدم اليها العلماء .

---

(٥) - بجانب التأثيرات الثقافية ، تأثرت حضارات السودان الاسلامي بالفنون الاسلامية رغم بقاء الكثير من ملامح الحضارات الافريقية . وكان المسلمون والأوروبيون ينظرون الى امبراطورية مالي مثلا بوصفها مملكة اسلامية تمتد اربعة اشهر في ثلاثة . وقد ذاعت شهرتها بالذهب حتى ان رسامي الخرائط الاوروبيين ظلوا حتى القرن ١٦ يرسمون في وسط الصحراء عرشا من الذهب يجلس عليه ملك متوج تبدو عليه امارات الثراء هو ملك مالي .

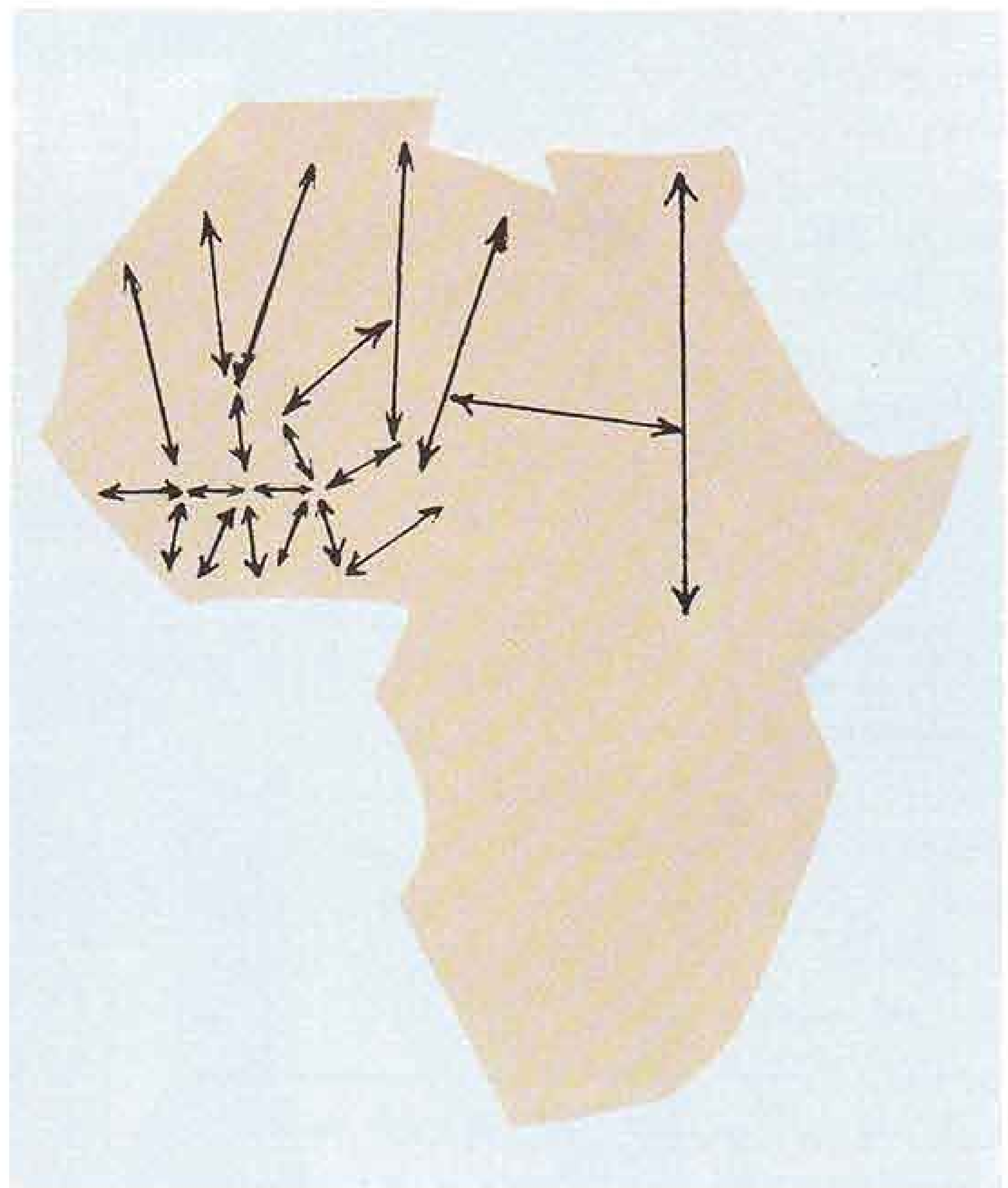
---

٣ ـ الطريق البحري من القرن الافريقي الى ممباسا وحتى سفالة ومدغشقر .

امبراطورية غانة :

كانت أولى الامبراطوريات السودانية هي غانة . ولعل دولتها بدأت في القرن ٣ للميلاد . والأسم ، في الأصل ، لقب لملوكها . ثم اطلق عليها . وفي مطالع القرن ٩ كانت قد تطورت ، نتيجة اتصالها عبر سجلماسة ، بالمغرب لتصبح دولة تجارية قوية . تسيطر على سائر البلاد الواقعة بين نهري السنغال والنيجر الاعلى . قامت قوة غانة على استغلال ثلاثة معادن : الحديد للتسلح ، والذهب للتجارة ، والملح الذي يستورد من الشمال .

استمرت هذه الامبراطورية حتى القرن ١٣ للميلاد . وأدى اتصالها التجاري الواسع مع المغرب الى الاتصال الديني . وكثر المسلمون في القرن العاشر ، حتى صار الوزراء منهم .





(٦) ـ كانت قوافل التجارة (أ) كثيرة النشاط في القرون ١٢ ـ ١٦ عبر الصحراء الكبرى . التاجر العربي (ب) ، صورته هذه من القرن ١٣ . أدخل الجمل الى افريقيا . فصارت القوافل بين القاهرة ومالي ١٢ ألف جمل . يقال عن كانكان موسى أنه ، حين ذهب الى الحج سنة ١٣٢٤ . كان موكبه مؤلفا من ١٠ آلاف رجل ، و ١٤ ألف جارية لخدمته ، وما لا يعد من الجمال المحملة بالبضائع والتبر . مما أذهل القاهرة ومكة ، وأرخص ثمن الذهب في المشرق لكثرة ما أنفق منه . وقد اهتم سلاطين مالي بالبحر . كان لهم اسطول بحري . استخدمه منسا بكاري الثاني لاختراق المحيط الأطلسي . حاول ذلك مرتين : الأولى في ٣٠٠ سفينة يقولون ان واحدة منها فقط عادت وذكر صاحبها أنهم وجدوا في عرض البحر نهرا عظيما ذهب بالسفن . (لعلهم يقصدون تيار الخليج) وقرر السلطان أن يذهب بنفسه فأمر باعداد ألفي سفينة ، ألف للرجال وألف للأزواد . وأبحر هو نفسه معها بعد أن عهد بالحكم الى ابن عمه كانكان موسى . فلم يرجع .

وبنيت المساجد في العاصمة وكثر الفقهاء .

بعد قرن من ذلك هاجم المرابطون (١٠٥٤ - ١٠٦٧) مملكة غانة . ومع انهم تركوها لحكامها بعد ذلك ، الا ان الفتح أدى الى انتشار الاسلام في المملكة كلها . وقد ضعفت الامبراطورية في القرن ١٢ . وفي سنة ١٢٤٠ سقطت على أيدي قبائل السوشو الوثنية .

امبراطورية مالي :

في ذلك الوقت ، ومنذ سنة ١٢٢٥ ، كانت تظهر مملكة مالي التي شكلها شعب الماندينغو . وقد ورثت افريقية الغربية كلها تقريبا (بين ١٢٤٠ - ١٢٥٥) . كان شعب مالي قد دخل الاسلام قبيل القرن ١١ وأسس المدينتين التجاريتين الاسلاميتين (جنى) سنة ١٠٤٣ و (تمبكتو) سنة ١١٠٠ على حوض النيجر (٤) . حمل ملوك مالي لقب منسا . وبذلوا همهم لتنظيم الادارة والأمن والثقافة الاسلامية (٥) . وصرف بعضهم همه لاختراق المحيط الاطلسي . وحج بعضهم مثل كانكاي موسى الذي بلغت مالي في عهده (من ١٣٠٧ الى ١٣٥٢) ذروة القوة والثروة . ثم بدأ الضعف فيها مع بداية القرن ١٥ بنزاعها الداخلي وخروج المناجم من أيديها واحتلال القبائل لأطرافها .

امبراطورية سنغاي :

في بداية القرن ١٥ نفسه برزت محل مالي امبراطورية سنغاي . تأسست الدولة منذ القرن ٧ على الحوض الاوسط للنيجر اواخر القرن ١٠ وفي سنة ١٠٠٩ حكمتها اسرة طرابلسية الاصل (اسرة ضياء) حتى اخضعتها مالي سنة ١٣٢٥ ولكن اسرة سنى (وهي متفرعة عن الاولى) حررتها (١٣٣٥) وظلت تحكم حتى سنة ١٤٩٣ .

استطاع ملوك سنغاي ان يستولوا على امبراطورية مالي كلها في القرن ١٥ وظهر منهم ملوك كبار (علي بير اي الكبير ١٤٦٥ - ١٤٩٢) ثم الاسقيا محمد الكبير (١٤٩٣ - ١٥٢٨) الذي بدأ اسرة الاسيقيين . وصل هؤلاء بالمملكة الى ما لم تصله امبراطورية قبلهم من القوة والتوسع . لكنها انتهت بحملة مغربية عليها سنة ١٥٩١ ثم انتهت امجاد السودان الغربي منذ ١٦٠٠ بنزول الاوروبيين على افريقية .

دول الحوصة والكانم

الى الشرق من سنغاي ، كانت تقوم دول الحوصة ، (مثل كانو وكاسينا) ، التي يرجع نشوؤها الى القرن ١١ والتي اضحت مع حلول القرن ١٤ ممالك قوية ، فيها تجار أثرياء ، ومراكز مدنية للتجارة والحرف ، واشتهرت بمصنوعاتها الجلدية التي سمتها اوروبا بالجلد المراكشي .

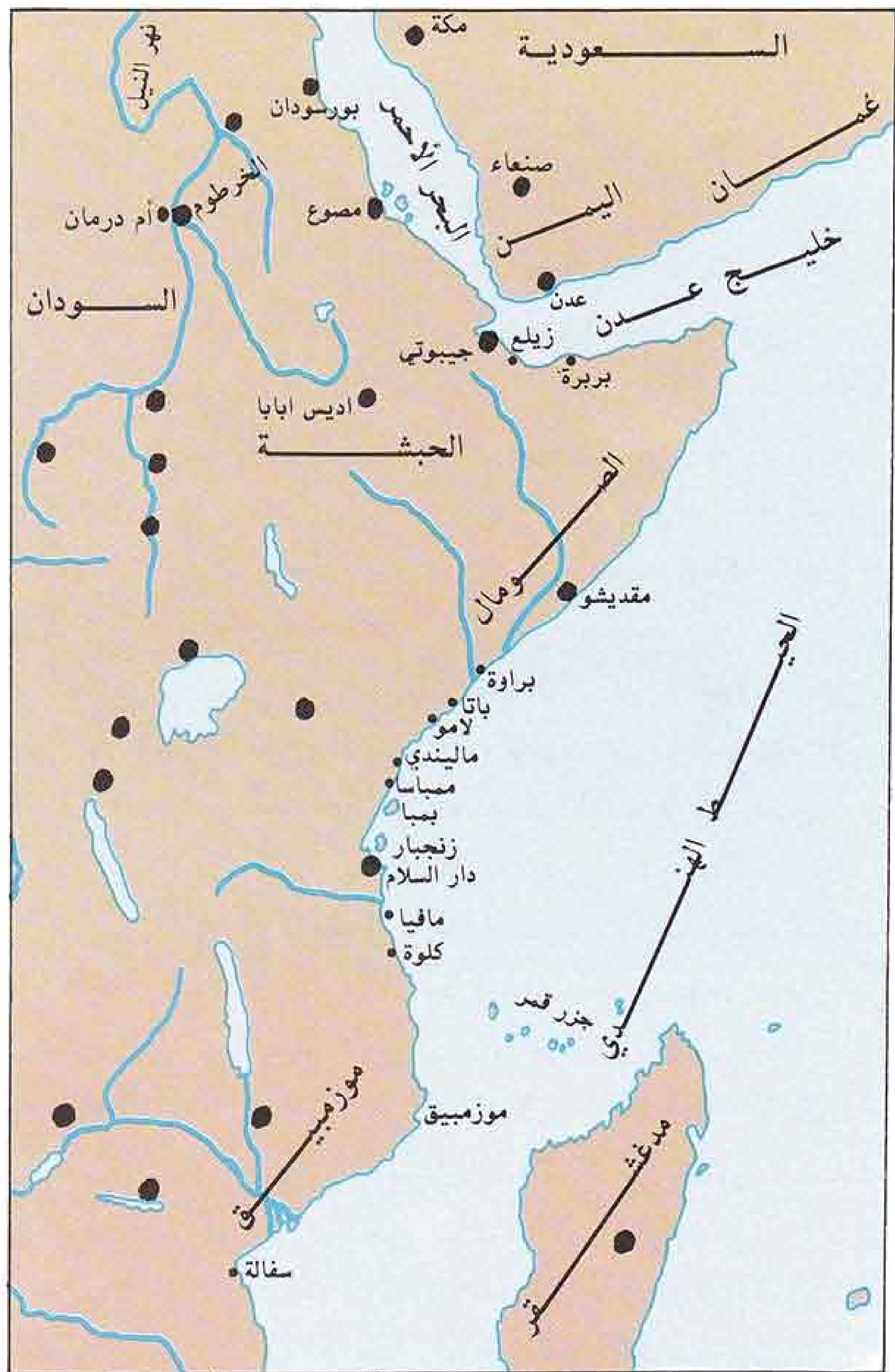
في وسط السودان ، على ضفاف بحيرة تشاد قامت دولة كانم - بورنو العظيمة التي كان حكامها قد اعتنقوا الاسلام منذ القرن ١١ . ظلت هذه الدولة من اكبر واقدم الدول الافريقية . واحتفظت باستقلالها (مع تغيرات في السلالة الحاكمة) ، حتى سقطت في يد الغزاة الاوروبيين اواخر القرن التاسع عشر .

أما في الادغال والغابات الاستوائية جنوبي السودان ، فقد تأخر ظهور الممالك فيها بعض التأخر . لكن عددا منها كانت لا تزال قائمة قبل قدوم اوائل الاوروبيين الى افريقيا ، أواخر القرن الخامس عشر .

شرق افريقيا والاسلام

كانت الغابة الاستوائية في افريقية ، عبر العصور ، أشبه بالسد الذي حرم النصف الجنوبي لهذه القارة من الاتصال بالعالم ، ودخول التاريخ . وحتى بعد أن دار البرتغاليون ، قبل ٥٠٠ سنة حول القارة ، ظلت دخائلها مجاهل مغلقة حتى القرن الماضي . الأبحاث الأثرية الحديثة فقط سمحت بمعرفة الملامح من تاريخها المجهول . ومنها ان لغة البانتو انتشرت فيها طيلة عدة الوف من السنين . وان عددا من الممالك القبلية كانت تظهر وتختفي فيها حول منطقة البحيرات العظمى ، ومنها رواندا وبوغندا . كما ظهرت مجموعة أخرى ، هي ممالك لوبا لوندا ، الى الجنوب من غابات الكونغو (زائير) . كما

١



(١) ـ الجبهة الشرقية من افريقية كلها فيما عدا الاقسام الجنوبية البعيدة هي عربية اسلامية . واذا كانت شواطئها على البحر الأحمر عربية دوما فان سواحلها من القرن الافريقي حتى سفالة كانت منذ عصر الميلاد تقريبا تحت التأثير العربي ثم الاسلامي وقد زرع المسلمون هذا الساحل مدنا تجارية طيلة ثمانية قرون (٨ ـ ١٦) . قامت حضارة هذه السواحل على التجارة وقبيل وصول البرتغاليين اليها كانت السفن الاندونيسية ، عدا العربية والهندية تصل هذه السواحل كما كانت تصلها السفن الصينية ذات الاشرعة السبعة والطوابق التي تبلغ الخمسة والطول الذي يزيد على مائتي متر . وحين وصل البرتغاليون وجدوا في مدن هذه السواحل ما يذهل من ثروات الذهب والعاج واللؤلؤ والخشب والرقيق والأواني الصينية والحرير ، عدا كميات الحديد والنحاس والتوابل .

---

(٢) ـ بنيت هذه المستديرة العظيمة في زيمبابوي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وهي أشبه بالحصن ، حول موقع كان يستخدم لأغراض دينية شعائرية منذ القرن العاشر للميلاد . كانت منطقة الهضاب في زيمبابوي (وهي مناطق روديسيا ـ زامبيا) تمد التجار العرب بالذهب . تبيعه لهم في بلدة سفالة وهي القاعدة الساحلية الجنوبية لمدينة كلوة التجارية الثرية في شرق افريقيا . الى الشمال من زيمبابوي الكبرى تأسست مملكة مونوماتابا في القرن الخامس عشر على

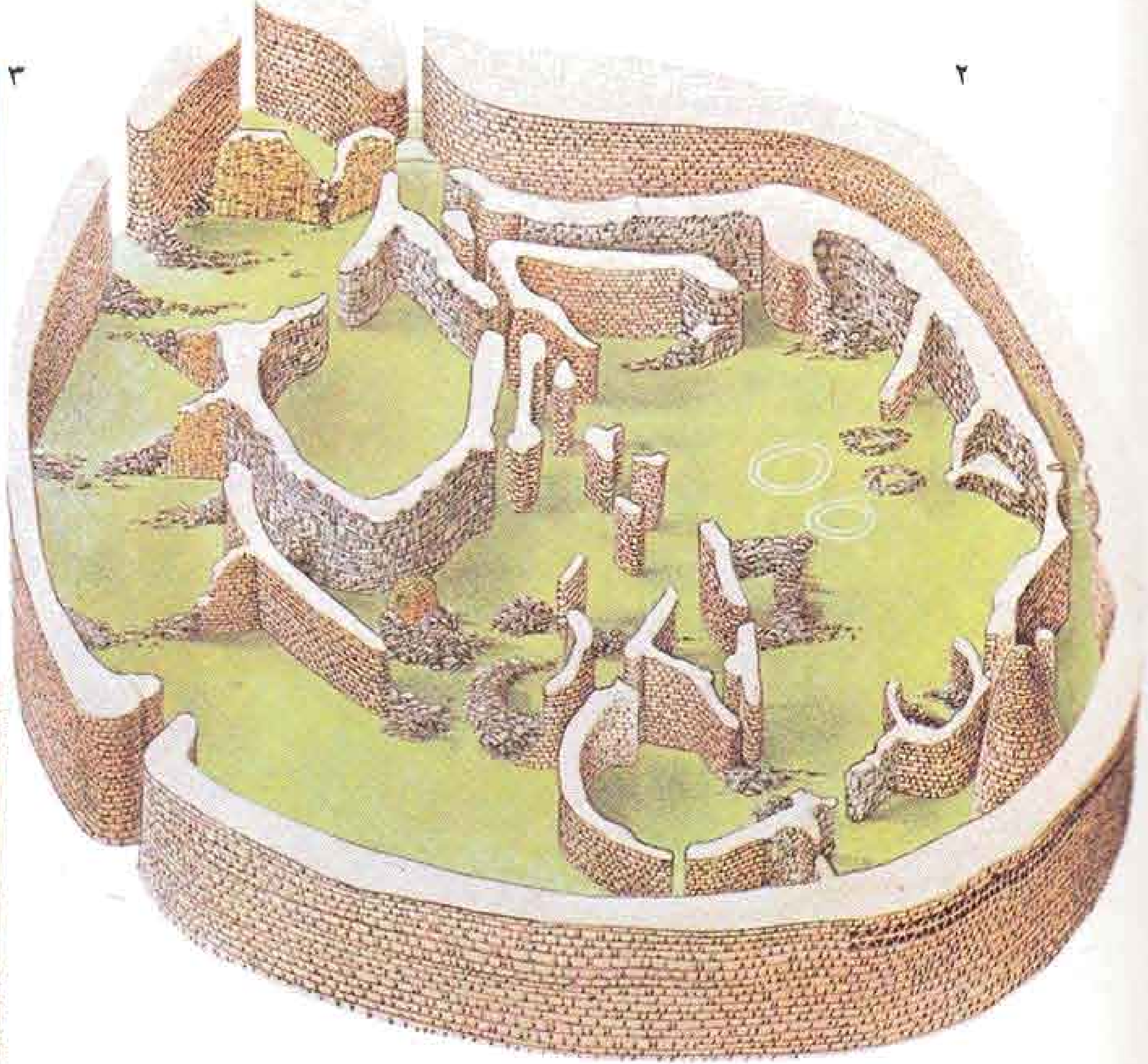
ظهرت مملكة الكونغو، الى الجنوب من مصب النهر الذي سيحمل اسمها، في عهود الاستعمار الاوروبي. وكانت تقوم، أبعد من ذلك في الجنوب، مملكة زنبابوي (٢) وامبراطورية مونو ماتابا على هضبة رود يسيا وكانتا تتاجران بالذهب مع المدن الاسلامية في سواحل افريقية الشرقية. اذا تركنا الداخل فالجوار العربي كان حاسما في تاريخ السواحل الشرقية.

العرب وسواحل افريقية الشرقية

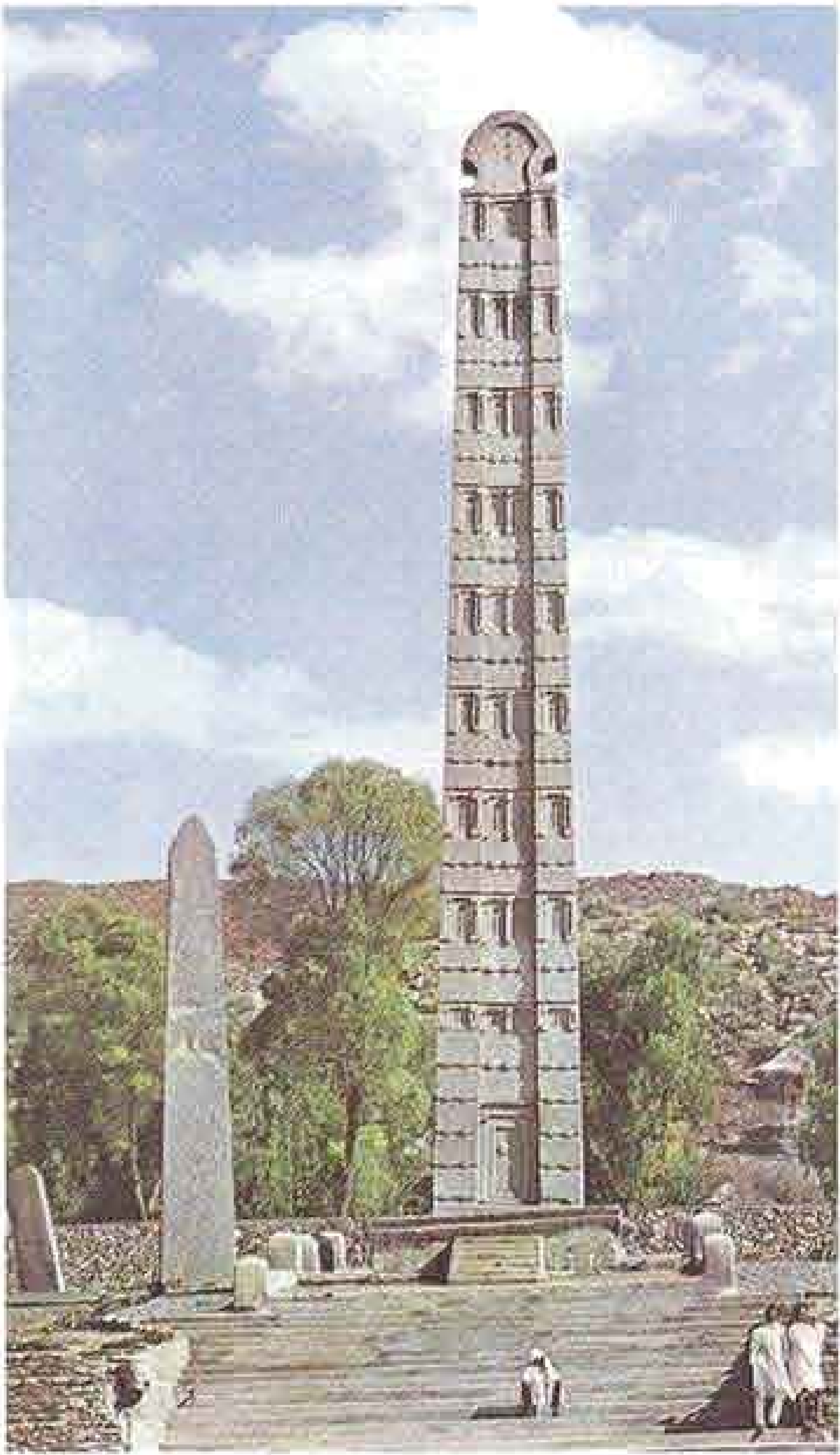
المحيط الهندي المفتوح لعرب الجنوب، منذ ما قبل الميلاد، لعب بالنسبة اليها دور الصحراء الكبرى. حلت سفينة المحيط محل جمل الصحراء. فسجل العلاقات في الحالين واحد: تجارة وارتباط د يني (١) وحضاري.

في هضبة الحبشة الجبلية قامت بعد امبراطورية اكسوم القديمة المرتبطة بحضارتي اليمن ومصر، امبراطورية الحبشة

٢



٣



الأرجح. وفي مطالع القرن السادس عشر أخذ البرتغاليون يحلون محل العرب في استغلال المنطقة وفي التجارة العالمية.

---

(٣) - شاع في مصر القديمة، وبعض الشرق، نصب المسلات الحجرية تذكارا لأعمال الملوك. اقتبس الطريقة ذو سقال، مؤسس السلالة الملكية التي حكمت اكسوم، في شمال شرقي الحبشة، منذ اواسط القرن الاول الميلادي. كانت اكسوم متأثرة بحضارة سبأ اليمنية، وتجاور مرفأ عدول على البحر الأحمر. ومنذ نشطت في نقل تجارة الشرق منها الى مصر الرومانية انفصلت عن حضارة اليمن. ثروة التجارة اعانت ملوكها على القوة، وعلى ضرب النقود الفضية والذهبية، وبناء الأوابد، وأخذ الكثير عن حضارة مصر. وحين انتشرت المسيحية في الشرق، انتهت اكسوم بأخذها (أيام الملك عيزانا على الأرجح في القرن ٤ أو ٥) ومنذ هذا العهد بدأت الحبشة مسيرة حضارية خاصة. انعزلت حين حاربت الاسلام من الشرق، كما حاربت القبائل الوثنية حولها حروبا تجارية وسياسية حملت الطابع الديني. بقي من حضارة أكسوم القديم آثار كثيرة منها هذه المسلة الحجرية التي ما تزال قائمة اليوم بارتفاع ٧٠ قدما، بنقوشها المتأثرة بوضوح بالنقوش اليمنية.

العهد الاسلامي ، جاء بجالية عربية اختلطت مع الصوماليين . ثم أقامت دولتين اسلاميتين هما : زيلع ومقديشو ، متأثرتين كل التأثر بالثقافة العربية . وقد تيسرت لمملكة زيلع ، التي ظلت تزدهر منذ القرن ١٤ ، اسباب الرخاء بسبب تجارتها النشيطة مع الداخل الافريقي ، وتعاون الدول الاسلامية الاخرى معها . اما مقديشو فلم تزدهر سوى فترة من ذلك القرن . ثم شغلها الصراع مع القبائل الداخلية . وان ظلت محتفظة باستقلالها حتى ايام السلطان المظفر (القرن ١٦) . وفي القرن ١٧ احتلها امام عمان . ثم تركها لسكانها مكتفيا باعترافها بسلطانه . ولما انقسمت سلطنة عمان قسمين (١٨٥٦) ، كان الصومال من نصيب سلطنة زنجبار . وبعد ستين عاما سيطرت عليه ايطاليا . والصوماليون مسلمون يتكلمون اللغة السواحلية وهي لغة افريقية ذات صبغة عربية واضحة .

امارات « بر الزنج » العربية

الساحل الممتد جنوبي الصومال دخل الحضارة بتأثير عاملين : دخول الافريقيين عصر الحديد والتأثير العربي (التجاري والبشري والثقافي) الذي رافقه . نمت علاقات العرب بهذه السواحل ، بعد الاسلام ، منذ ارسل عبد الملك بن مروان جاليات شامية بنت مجموعة من المهاجر هناك (٥٠ مدينة ؟) لاستيراد الذهب . ثم كانت الازمات السياسية احيانا تدفع ببعض المضطهدين الى الهرب البعيد . فيبنون مهاجر ما تلبث ان تصبح مدنا . وهكذا أدت هجرة اولاد الجلندي من عمان (القرن ٧) الى تأسيس مدينتي باتا ولامو وهجرة بعض الزيديين (القرن ٨) الى ساحل بنادر ، وهجرة بعض أهل الاحساء ثم بعض الشيرازيين (القرن ١٠) الى تأسيس مقديشو (٩٠٧) وبراوه وكلوة (٩٧٥) التي اصبحت ما بين القرنين ١١ ـ ١٥ أهم تلك المدن . وقامت فيها دولة اسلامية قوية عرفت بدولة الزنج . ظلت مزدهرة حتى دمرها البرتغاليون (١٤٩٨) . سلاطين كلوة استطاعوا توحيد معظم مراكز الساحل (عدا مقديشو) تحت سلطانهم واهتموا بالجهاد والتجارة وكان لهم تنظيم اداري وأساطيل وثروات .

قامت عدة امارات اخرى على عدد من الجزر القريبة للساحل او البعيدة عنه مثل : زنجبار وبمبا ومافيا وممباسا ثم جزر القُمُر وجزيرة مدغشقر . وكانت سفالة آخر المدن التي وصلها العرب في الجنوب .

عرفت هذهالمدن سلالات من الامراء العرب المسلمين كما عرفت الازدهار التجاري الاوسع ما بين القرنين ١٢ ـ ١٥ وربطت علاقاتها مع عدن وسلطنة المماليك ومع الخليج العربي والهند والاساطيل التجارية من اندونيسيا ومن الصين .

وحين وصلت الاساطيل البرتغالية من الجنوب ، عبر رأس الرجاء الصالح ، آخر القرن ١٥ ، ذهلت لهذا العالم البالغ الثراء والترف والنشاط وللأسواق المملوءة بأنفس البضائع ، وللأبنية الفخمة وللنشاط الثقافي الواسع . وللسفن من مختلف الأمم ، عدا الصين لأن الامبراطور أمر بانقطاعها قبل نصف قرن .

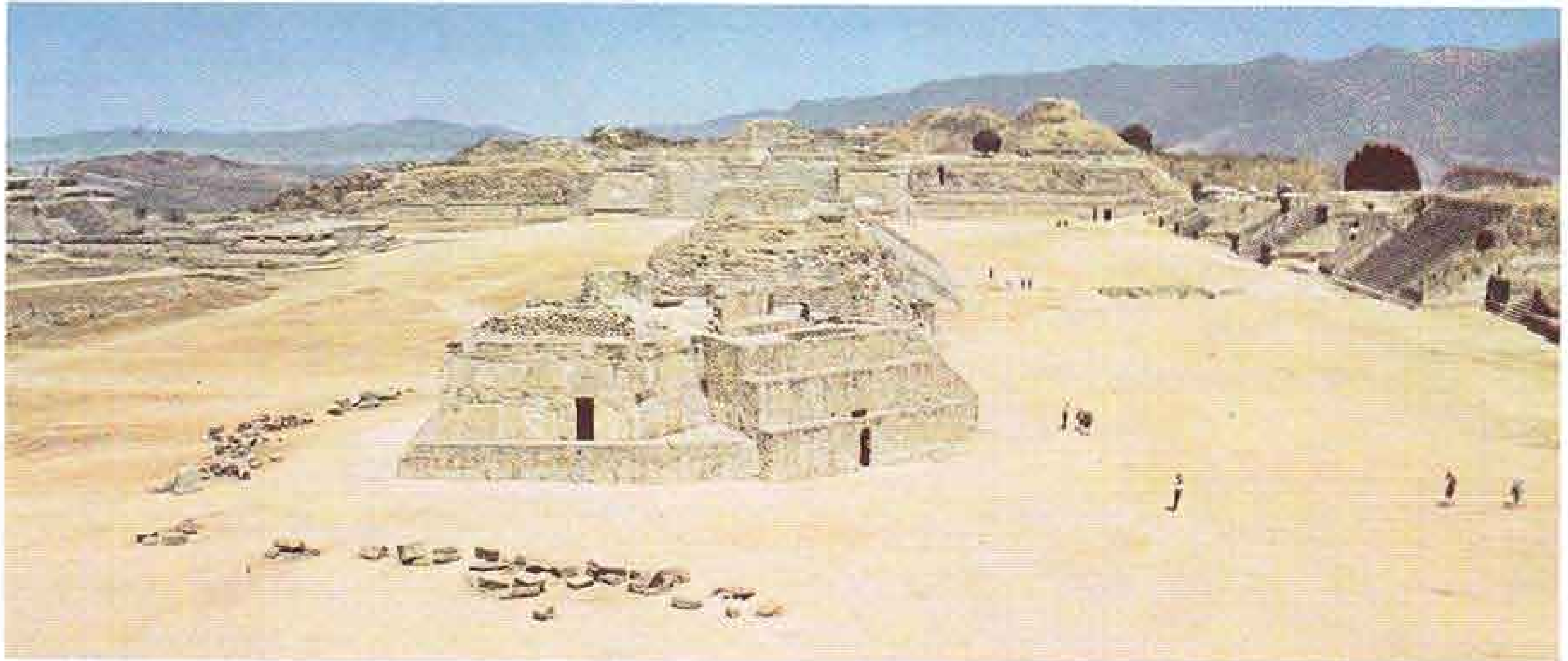
كل ذلك سحقه البرتغاليون سحقا (٤) في مطالع القرن السادس عشر ، مفتتحين عصر الاستعمار الغربي .

امريكا الوسطى الى ١٥٢١

في غضون القسم الاكبر من الـ ١٥٠٠ سنة الأولى بعد ميلاد المسيح ، كان هناك حضارة « امريكية وسطى » موجودة واضحة المعالم . ابتكر هذه التسمية « امريكية وسطى » العالم بول كيرشنهوف سنة ١٩٤٣ للدلالة على الثقافات المتشابهة جدا التي كانت تحتل بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠٠ م ما يعرف اليوم بالمكسيك والبليز وجواتيمالا وهوندوراس والسالفادور ، والممتدة شرقا عبر نيكاراجوا الى كوستاريكا . من العناصر المشتركة بين هذه الثقافات : الهياكل الهرمية للعبادة الدينية ؛ لعبة الكرة المقدسة المدعوة « بوك تابوك » عند المايا و « ثلا شتلي » عند الازتيك ؛ مجموعة من الاصنام تشمل الشمس والريح

١ 

(١) ـ « هرم القمر » في تيوتيهواكان واحد من بنائين ضخمين يسيطران على وسط تلك المدينة العظيمة ، التي كانت اول مستوطنة كبرى ذات تصميم واضح في امريكا الوسطى . ازدهرت من ١٠٠٠ ق . م تقريبا . حتى ٧٠٠ م في واد صغير يتفرع عن وادي المكسيك .

٢ 

(٢) ـ الساحة الكبرى في مونتي البان الواقعة على التلال المشرفة على وادي اوكساكا تشكل قلب « مركز المراسم » الزا بوتيكي . للبناية الظاهرة في المقدمة ، وهي تلة متدرجة ، اتجاه يختلف عن سائر الموقع ،

والمطر ؛ وفنّ تصويري يشدد بصورة مرعبة على الموت ظهر خصوصا في الجزء الأخير من تلك الحقبة .

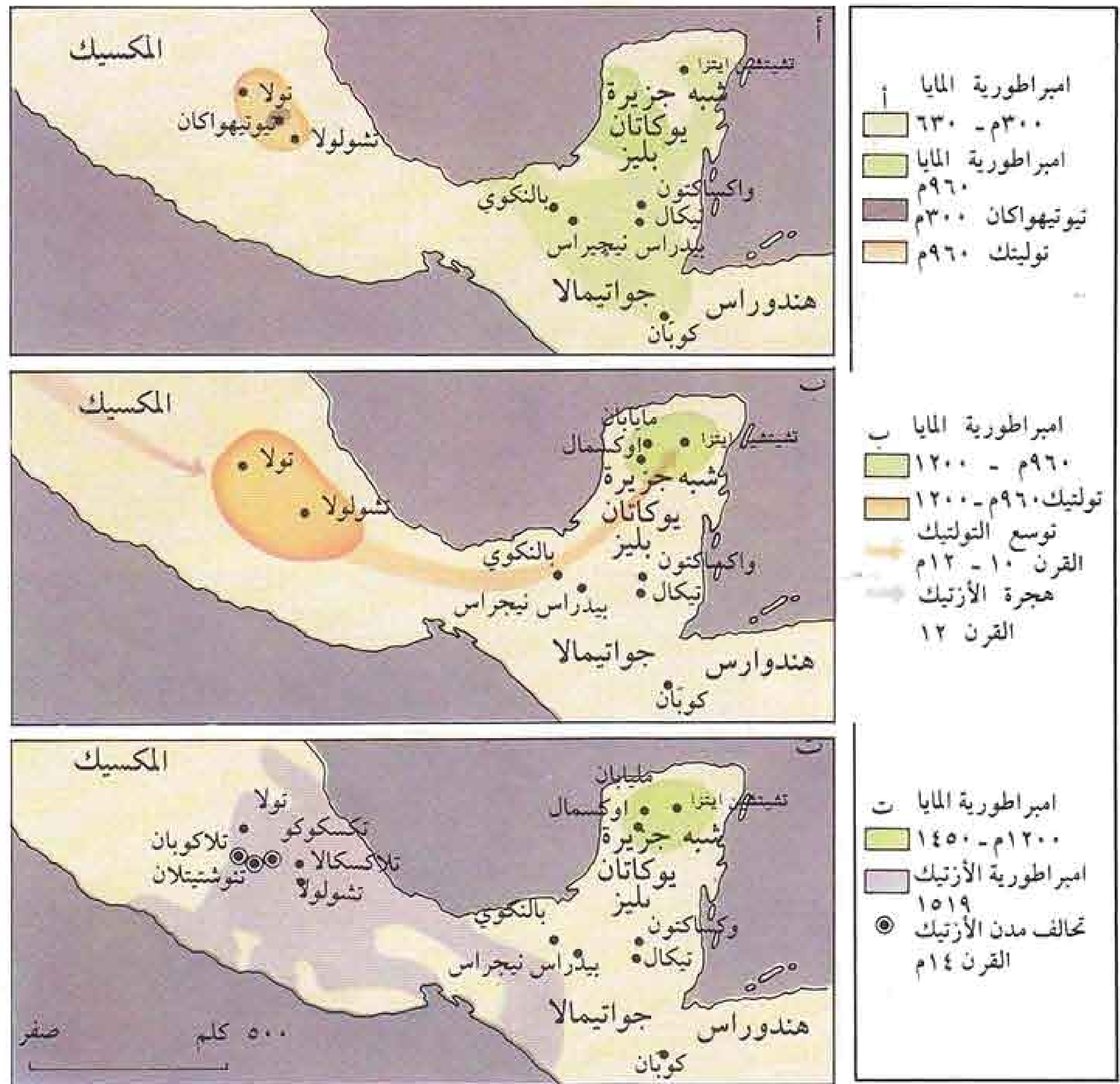
الثقافات الكلاسيكية وما قبل الكلاسيكية

ظهر الكثير من هذه الملامح للمرة الاولى في الثقافات ما قبل الكلاسيكية ، لكنها بلغت اعلى درجة من التعقيد والانتشار في الحقبة ما بعد الكلاسيكية اللاحقة (من ٩٠٠ م حتى الفتح الاسباني سنة ١٥١٩) .

كانت اولى الثقافات الكلاسيكية التي قدر لها ان تبلغ شأنا عظيما ثقافة تيوتيهواكان ، السائدة في المدينة العظيمة التي كانت تحمل ذلك الاسم في وادي المكسيك ، والتي بلغت بين عامي ٣٠٠ و ٦٠٠ م اكبر حجم لها ، اذ يقدر انها كانت تحتوي على ٢٠٠٠٠٠ نسمة .

كانت احدى الثقافات المحيطة بها ثقافة

وقد تبين انها كانت مرصدا فلكيا . وكانت تزينها ايضا لوحات ذكرت فيها اسماء المدن التي احتلها اسياد مونتي البان .



(٣) ـ هناك ثلاث مراحل لتطور امريكا الوسطى في ما قبل التاريخ . الأولى (أ) هي التي سيطرت فيها مدينتا تيوتيهواكان وتشولولا على هضاب المكسيك (٥٠٠ م) ؛ والثانية (ب) هي التي وصل فيها تأثير التولتيك المنطلق من تولا الى تشتشين ايتزا في منحدرات المايا التي اخذت حضارتهم تنهار حوالى ١٠٠٠ م ؛ والثالثة (ت) هي التي حكم فيها الازتيك الهضاب وانتهت بهجر مواقع المايا في يوكاتان (١٥٠٠ م) .



(٤) ـ كان ملعب الكرة العظيم في تشيتشين ايتزا اكبر الملاعب في امريكا الوسطى . شيد هذا البناء الضخم البالغ طوله ٨٣ مترا التولتيك الذين فتحوا يوكاتان سنة ١٠٠٠ م . تصور المنحوتات عند قاعدة الجدران رأس لاعب كرة وهو يقطع . وربما كان رأس قائد الفريق المغلوب .

المايا التي كان شعبها يقطن شبه جزيرة يوكاتان وهضاب جواتيمالا المجاورة . كانت هذه المنطقة تقسم الى ثلاث مناطق متباينة : المنطقة الجنوبية المؤلفة من الهضاب البركانية والمنحدر السحيق المؤدي الى شاطىء المحيط الهادىء ؛ المنطقة الشمالية المؤلفة من هضبة يوكاتان الشمالية القاحلة والشوكية ؛ والمنطقة الوسطى المغطاة بالادغال والمؤلفة من احواض انهار اوسوماسنتا وبليز وهوندو . في هذه المنطقة الوسطى ، انبثقت حضارة المايا الكلاسيكية وازدهرت .

من معالم هذه الحضارة الظاهرة للعيان : اعمدة من الرخام نقشت عليها كتابات من التقويم المعقد المعروف « بالعد الطويل » ، الذي كان يجمع بين تقاويم ثلاثة ؛ هياكل ضخمة من الحجر ومبان عامة في مجموعات مدنية ودينية كانت تعرف عادة « بمراكز

٥



٦



٧



(٥) ـ اشتهر الهيكل القائم في المنخفضات الغربية لموقع بالنكوي المايوي بمنحوتاته المجصصة . كان هذا الموقع من اوائل المواقع المايوية التي نقب عنها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد استمر العمل هنالك حتى اليوم . جرى أهم اكتشاف سنة ١٩٥٢ عندما اكتشف درج يؤدي الى قبو فيه تابوت كبير من الحجر يحتوي على جسد أحد الحكام محشوا باليشب . ساعدت الدراسات الحديثة لعدد من اللوحات الهيروغليفية ، التي اعطت هذا الهيكل المعروف « بهيكل النقوش » اسمه ، على تحديد هوية ذلك الحاكم ، وهو باكال ، أول وأعظم حكام بلانكوي .

(٦) ـ هذا الرأس هو احد القطع الرائعة من المصنوعات الذهبية الميكستيكية . وقد اكتشف سنة ١٩٣٢ لدى التنقيب عن القبر رقم ٧ في مونتي البان . كان ذلك القبر احد قبور الزابوتيك العائدة الى حقبة أقدم ، اعيد استخدامه لدفن سيد من اسياد الميكستيك . هذه القطعة كانت تلبس على الأرجح على الصدر ، وتكشف عن رمزية معقدة . جاء فن صناعة الذهب من امريكا الجنوبية .

(٧) ـ « هرم الكوى » في « ألتاخين » عبارة عن مركز عظيم للمراسم واقع على خليج المكسيك . وهو واحد من اشهر مواقع حضارة فيراكروز الكلاسيكية . ازدهر أبان الألف سنة الأولى للميلاد ، على أيام المايا الى جنوبه الشرقي ، والتيوتيهواكان الى جنوبه . ثمة ٣٦٥ كوة في الهرم . وقد فسرت على انها رموز لأيام السنة الشمسية .

المراسيم » ؛ وأوان خزفية متعددة الالوان وبديعة الزخرفة وذات اشكال جديدة .

كان ثمة حضارة اخرى تستحق الذكر، هي حضارة الهنود الزابوتيك التي ازدهرت في وادي اوكساكا الواقع بين جبال مكسيكو الجنوبية ، والذي كان تاريخه من اطول تواريخ امريكا الوسطى . بلغت هذه الحضارة اوجها بين ٣٠٠ و ٦٠٠ ، وكانت قاعدتها في مونتي ألبان (٢) ، المدينة الواقعة على قمة هضبة والتي كانت احد « مراكز المراسم » .

في هذا الموقع ، ساحة ضخمة تحيط بها من الجهات الاربع ابنية كبيرة تقود اليها صفوف عريضة من الدرجات . كانت صناعة الحجارة الكريمة والمعادن النفيسة احدى المميزات البارزة للزابوتيك ولخلفائهم في حكم اوكساكا الميكستيك .

ساحل الخليج

لم يظهر قط مثل هذا التعبير الرائع عن الألمعية المعمارية على طول ساحل الخليج ، موطن الاولميك . الا ان حضارة الفيراكروز والى الشمال منها حضارة الهواستيكا كانتا ذواتي صفات مميزة خاصة . فقد تميزت منحوتات فيراكروز بالواح حافلة بالرسوم المعقدة التي يدور الكثير منها على التضحية او لعبة الكرة او الاثنين معا . أشهر مواقع هذه المنحوتات هو موقع التاخين (٧) ، حيث كشف حتى الآن عن خمس ساحات للعب الكرة .

كانت تشيتشين ايتزا موقعا مايويا في الأصل . تشهد اروع خرائبها على احتلال التولتيك ليوكاتان الشمالية والسيطرة عليها ، وهم شعب محارب أتى من هضاب المكسيك الواقعة الى شمالي مدينة مكسيكو . اقتبس عدد من المباني في تشيتشين عن عمارة تولا ، عاصمة التولتيك ، وابرز هذه المباني « الكاستيلو » ، وهو عبارة عن هيكل هرمي ضخم تحيط به سلالم من جهاته الأربع ، « وهيكل المحاربين » و « رف الجماجم » (تزومبانتلي) حيث تعرض رؤوس الضحايا (٤) .

أبرز خواص هذا الموقع ظاهرة طبيعية ، هي بئر التضحية المستديرة الكبيرة التي يبلغ عمقها ١٨ مترا والتي كانت تلقى فيها الضحايا للاستسقاء .

كانت حضارة الازتيك في ريعانها عندما جاء الفاتحون الاوروبيون ودمروها ، فكانت اذن الحضارة « الامريكية الوسطى » المهمة الوحيدة التي كان من الممكن التعرف اليها مباشرة ودراستها عن كثب .

مدن الازتيك

اعتمد الازتيك تيوتيهواكان (١) وتولا نموذجا لهم عندما اتخذوا هضاب المكسيك الوسطى قاعدة لهم ، ومثلهما شقوا طريقهم منحدرين نحو المناطق الساحلية المنخفضة . كانت عاصمتهم تنوشتيتلان كناية عن بعض الجزر في بحيرة تكسكوكو وكان عدد سكانها يقدر بـ ٣٠٠٠٠٠ نسمة . وكانت مؤلفة في الحقيقة من مدينتين ، تنوشتيتلان بالذات وتلاتيلولكو الواقعة الى شمالها والتي كانت بمثابة المركز التجاري . جرى التنقيب عن جزء من سوق هذه المدينة وهياكلها واعيد ترميمه ، بعد ان كان الاسبان قد هدموا اثناء الفتح الجزء الأعظم من المدينة وشيدوا المباني في وسطها على انقاضه .

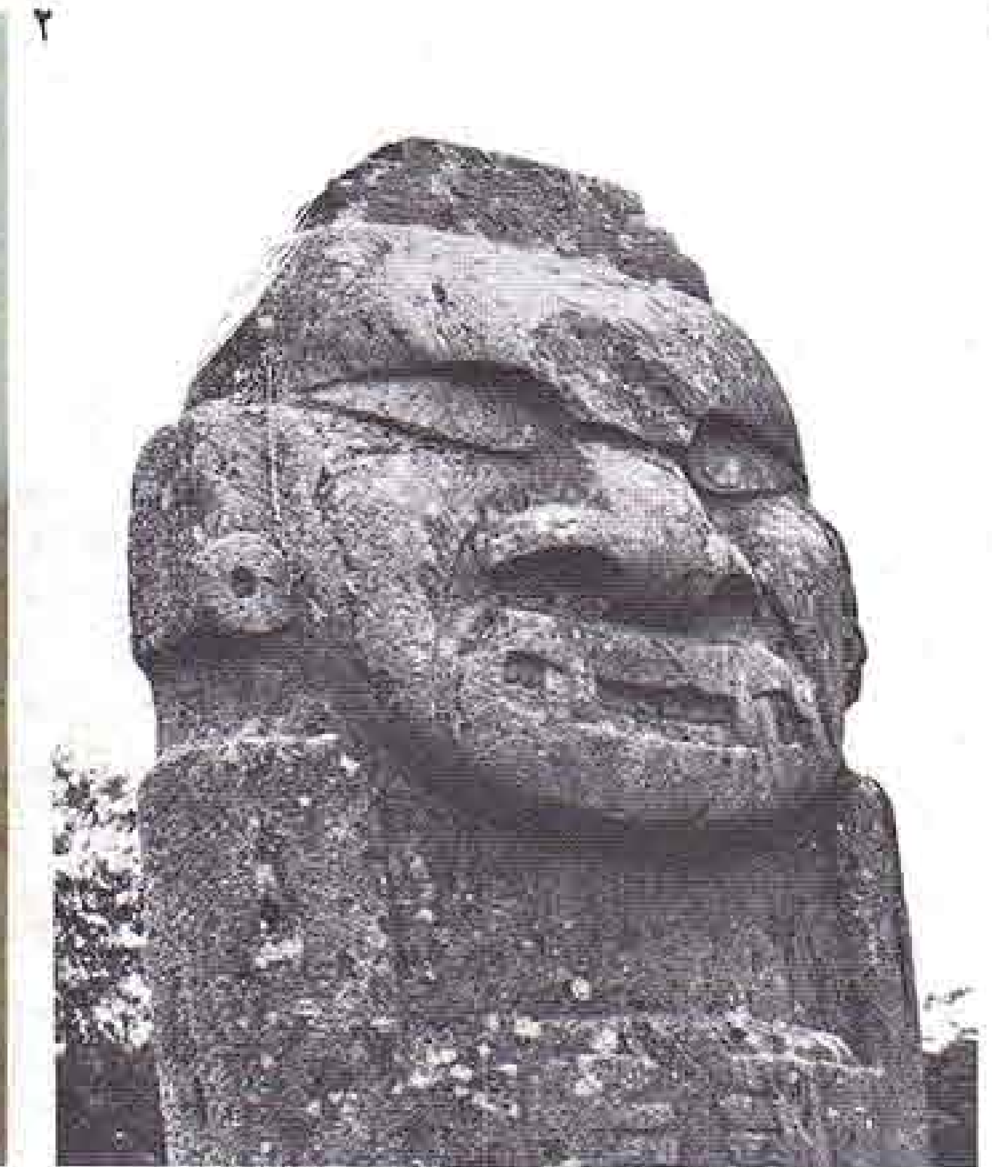
كولومبيا والبيرو الى ١٥٣٤

في امريكا الجنوبية ، كانت المنطقة الرائدة للحضارة دوما هي منطقة الأنديس الممتدة من بحيرة تيتيكاكا جنوبا حتى باناما . فهنا عثر على أقدم الأواني الخزفية واولى الدلائل على الزراعة ، واولى المستوطنات والمباني العامة . ويبدو انه ، ابتداء بسنة ٣٠٠ م وبعد ١٥٠٠ سنة من زخم متزايد ، ظهر عدد من الحضارات الاقليمية المختلفة بوضوح بعضها عن بعض . بلغ التباين الاقليمي في فنونها حدا يوحي بكيانات سياسية منفصلة .

فنون كولومبيا

ظهر في أقصى شمال القارة الامريكية

١



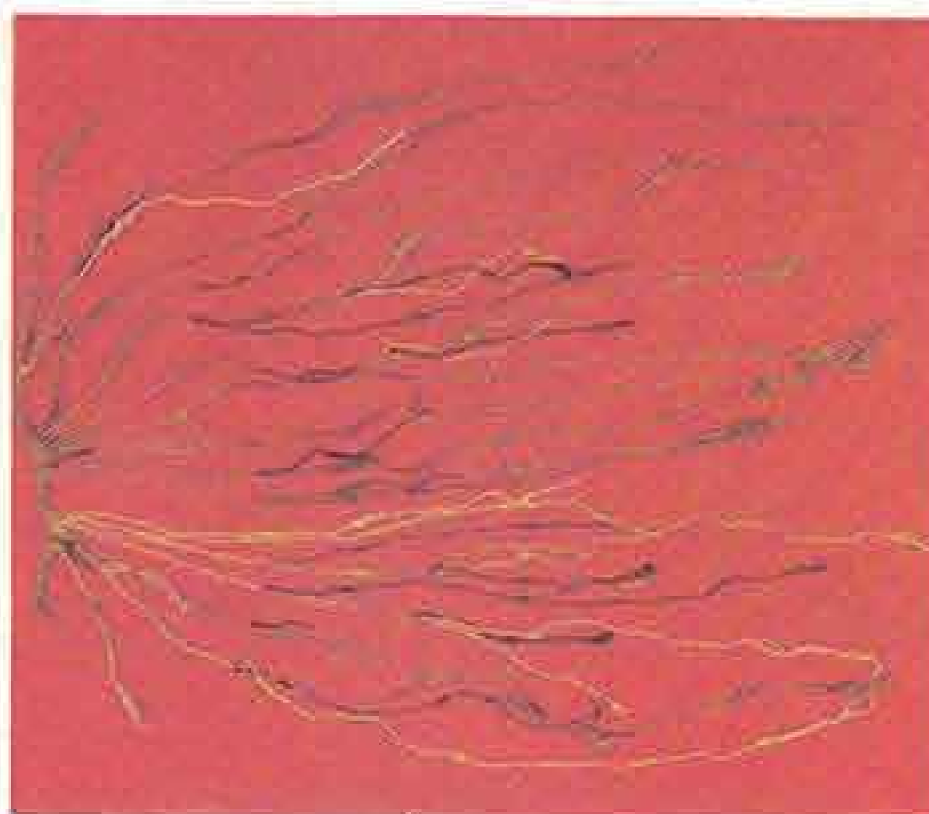
٢



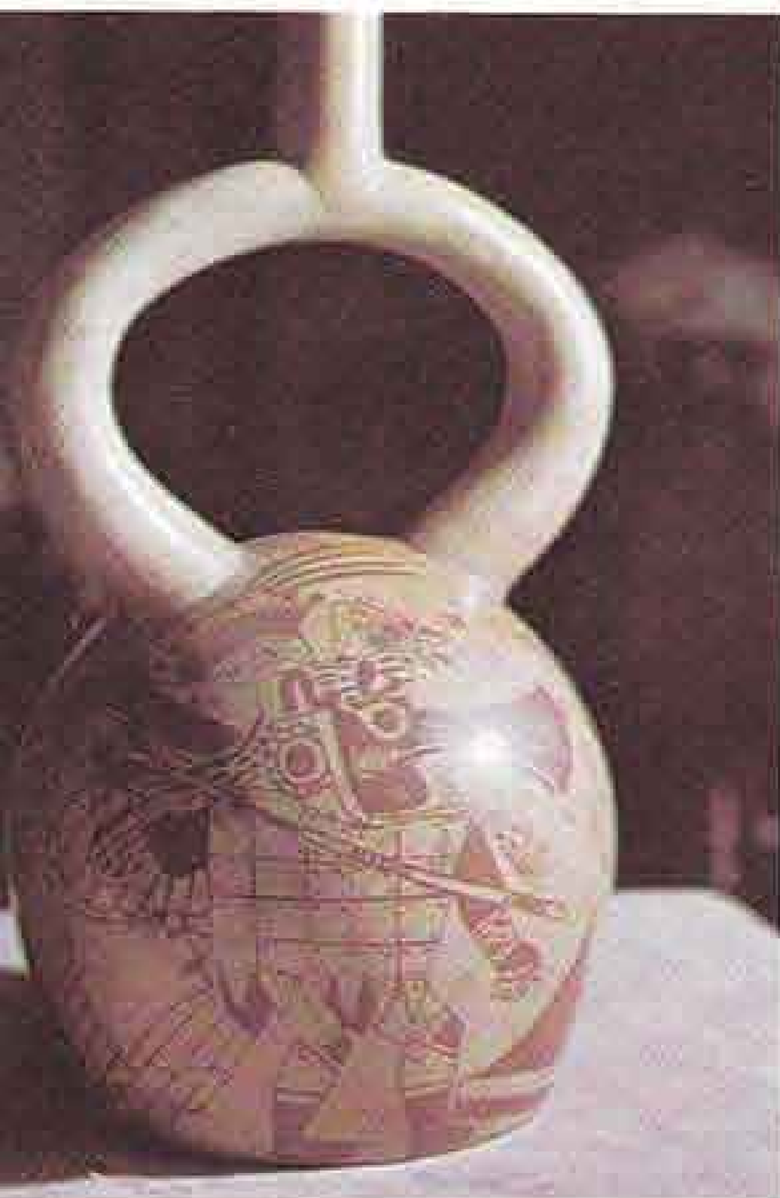
(١) ـ تتناثر محفورات ضخمة وغامضة المعنى على التلال المحيطة بمدينة سان اغسطين الحديثة في كولومبيا الجنوبية . يمثل عدد منها اناسا تجلس على رؤوسهم ارواحهم الاخرى على شكل حيوانات ، بينما تمتزج في البعض الآخر ملامح بشر وهررة ذات أنياب طويلة . ثمة غرف صخرية ضخمة (لعلها قبور) ، لا تختلف عن غرف اوروبا في ما قبل التاريخ ، واحواض منحوتة من الصخر وجلاميد من الصخر المحفور ايضا .

(٢) ـ استعملت ملايين من قطع الآجر لبناء «هيكل الشمس» (أو هرم الشمس) و «هيكل القمر » المجاور له في موتشي ، على الساحل الشمالي لبيرو . كان هيكل الشمس يؤلف محور الاحتفالات الدينية في دولة موتشينكا ، ابان الالف سنة الاولى للميلاد . أضر بكلا القصرين ضررا عظيما التأكل والنهب حتى بات من الصعب اليوم تبين شكل هرم الشمس .

٣



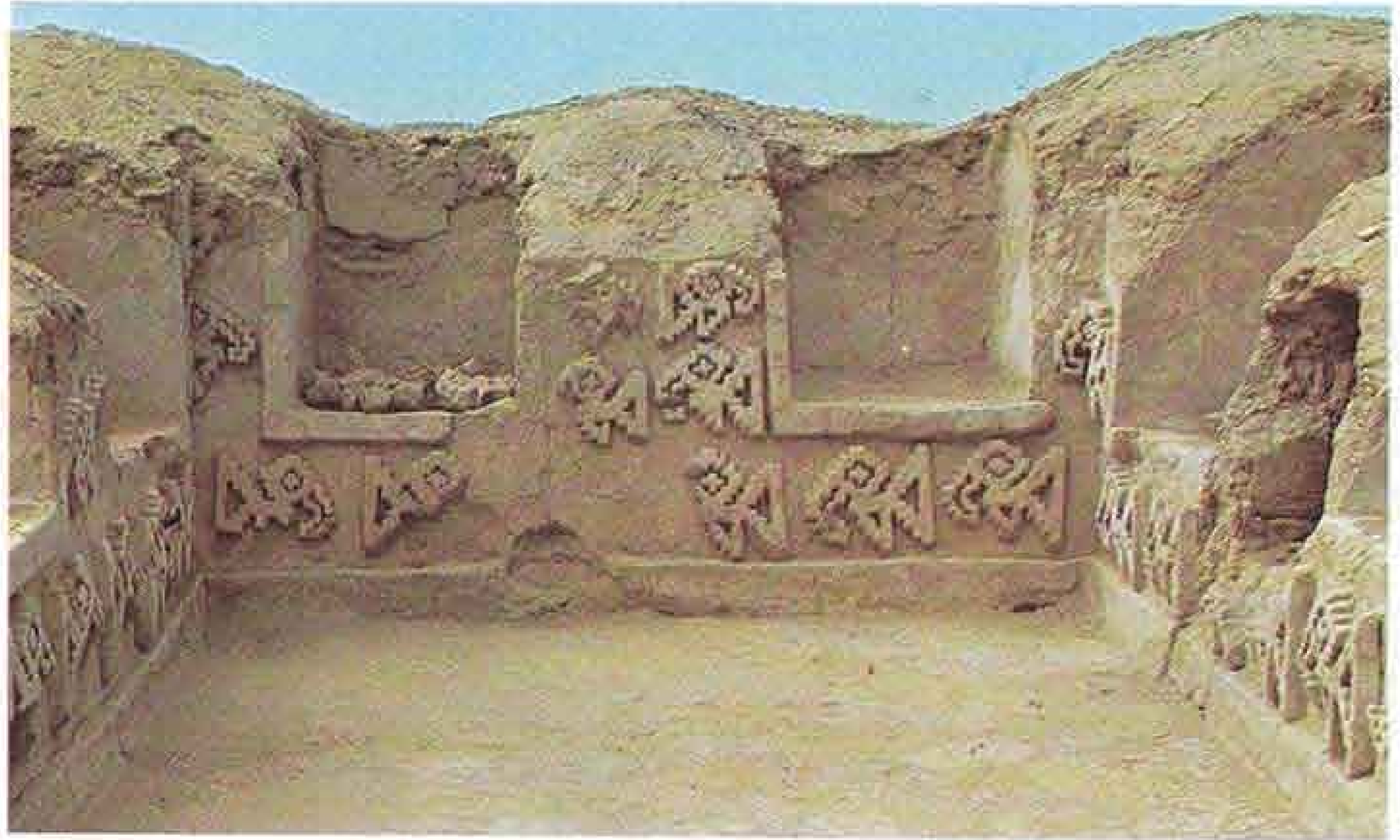
٤



الجنوبية ، أي في كولومبيا الحالية ، تقليد خاص بصياغة الذهب يتصف باتقان تقني مدهش وابتكار فني عظيم .

في كولومبيا الجنوبية ازدهر فن اغسطين المعماري النحتي (١) . فعلى التلال الواقعة في هذه المنطقة لا تزال تقوم غرف حجرية ضخمة ، يبدو انها كانت عبارة عن قبور ومعابد في آن واحد ، يدخلها المرء من خلال انفاق حجرية تزينها رسوم مطلية . كذلك صنعت من صخور بركانية ضخمة من الاندسيت توابيت تشبه الصناديق ، وأعمدة من الصخر حولت الى تماثيل للمحاربين والشياطين تثير الرعب . كان بعضها عبارة عن شكل مزدوج ، يظهر فيه حيوان (هو أنا الانسان الأخرى) فوق رأس الانسان .

كان المركز الرئيسي في شمالي البيرو حوض نهر الموتشي ، مقر الموتشيكا والتشيمو والانكا والحكام الاسبان المستعمرين . دامت

٥


٦


(٣) ـ كان الانكا يستعملون الكويبوس ، وهو سلسلة من الحبال المحبوكة ، بمثابة آلة للعد او للتذكر . كانت العقد من الوان مختلفة ، لتدل على انواع شتى من المعلومات ، وهي دليل ساطع على البنية البيروقراطية لامبراطورية الانكا ، اذ لم يكن من الممكن الاستغناء عن هذه الآلة في عمليات تدوين مبالغ الجزية المحصلة .

(٤) ـ كانت الآنية ذات الصنابير الشبيهة بالمهماز من مميزات حقبة الموتشيكا في الالف سنة الاولى للميلاد ، وهي من صناعة خزافين متخصصين . اتخذ احد انماط الآنية شكل رؤوس الاشخاص ، بينما اتخذ نمط آخر شكل اجسام عارية ناعمة رسمت عليها بعض الصور (يظهر في الصورة نموذج من هذا النوع) . كثيرا ما اتخذت هذه الصور شكل مشاهد مستمدة من حياة الموتشيكا او المحاربين وهم في ساحة القتال . تغير شكل الصنبور بصورة شبه خفية على مر العصور .

(٥) ـ تزيّن رسوم نافرة من الطين المجفف الجدران الداخلية لاحدى الغرف في تشان تشان . الاطناف متكررة وتتألف من صور طيور وسمك او اشكال تجريدية . للغرف كوى داخلية في الجدران ولبعضها بنية على شكل (U) تدعى « مجالس » ، ويعتقد انها كانت مقرا لأحد الكتبة المدققين في البضاعة الداخلة والخارجة .

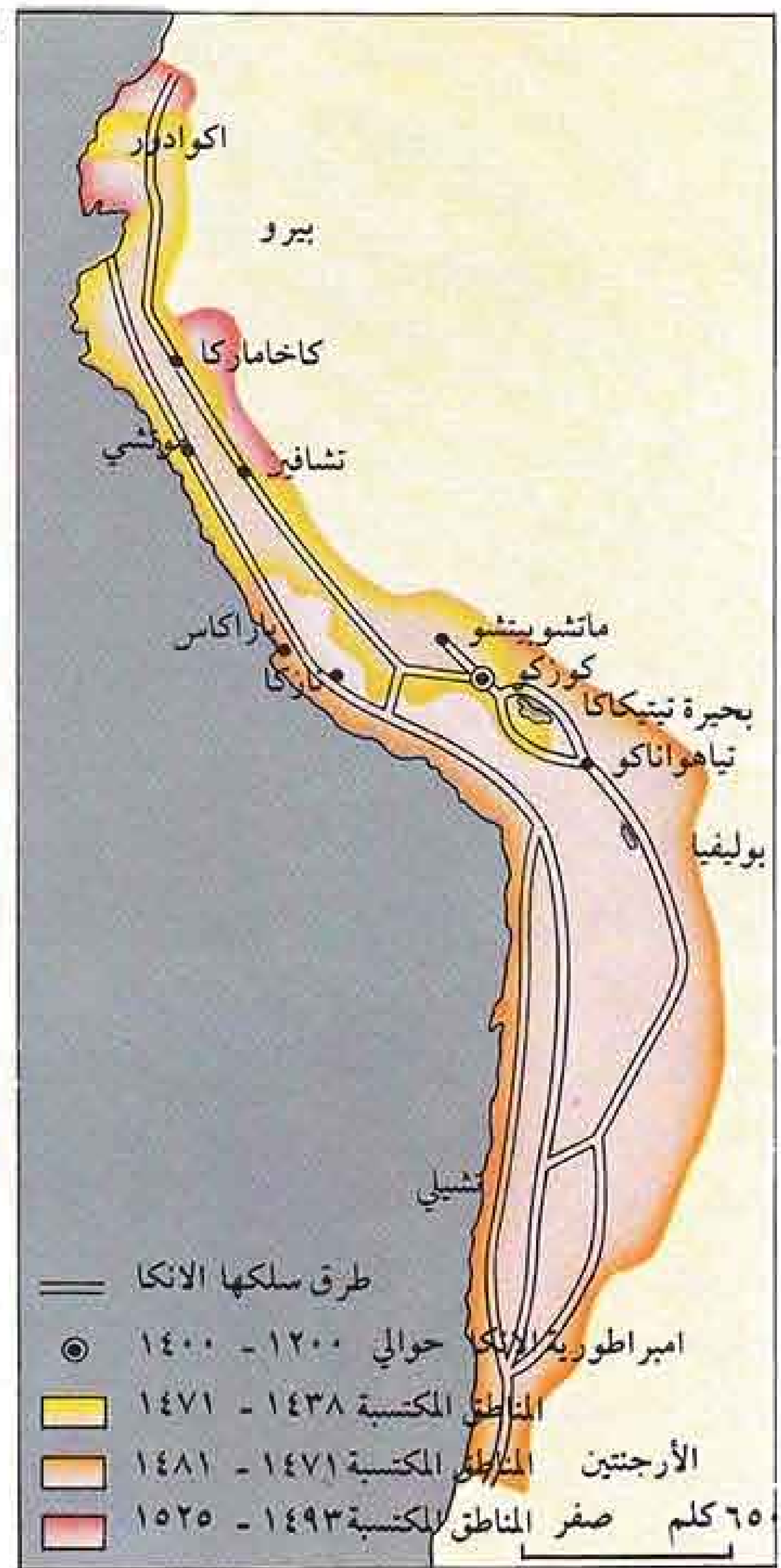
(٦) ـ نحتت « بوابة الشمس » في تياهواناكو ، بوليفيا ، من قطعة واحدة من الصخر ، وكانت تؤلف جزءا من حظيرة شعائرية ضخمة حفرت عليها رسوم نافرة قليلا .

حضارة الموتشي من حوالى ٢٠٠ م حتى ٧٠٠ . تشهد المعابد الضخمة على الموارد الموضوعة تحت تصرف الحكام : « فمعبد الشمس » الضخم (٢) ، وهو هرم مدرّج مصنوع من نوع خاص من الاجر ، تبلغ مساحته ٢٢٨ مترا بـ ١٣٦ مترا وعلوه ٤١ مترا ؛ و « هرم القمر » المجاور هو عبارة عن قصر كبير الحجم تزينه لوحات جدرانية . وكان هناك أقنية ضخمة للري ممتدة عبر الصحراء . جرى التنقيب وفقا للاصول في بعض المقابر الموتشية ، بينما نهب بعضها الآخر نهبا . وأبرز أشكال الرياش الباقية آنية ذات أفواه على شكل المهاميز (٤) ، بعضها مزين بمشاهد للقتال والصيد والحياة العادية ، بينما صيغ بعضها الآخر على شكل رؤوس مثلثة .

قصور للحياة والموت

ابتداء بحوالى ١٠٠٠ م ، كان وادي

٧



٨



٩



(٧) ـ امتدت امبراطورية الانكا في اوج عزها من اكوادور الشمالية حتى اواسط التشيلي ، وهي مسافة تربو على ٣٢٠٠ كلم. كانت العاصمة تقوم في كوسكو ، موطن شعب الانكا الفاتح . من هنالك كان الانكا نفسه يتصل بارجاء الامبراطورية النائية بفضل شبكة من الطرق والرسل الذين كانوا يسعون راجلين.

(٨) ـ بنيت جدران الانكا الحجرية في الانديس البيروانية بمهارة بارزة جدا . فقد كانت قطع الحجر الصلبة متداخلة باحكام مع ان حافاتها واطرافها لم تكن منتظمة . لأحد المباني الكبرى في احد شوارع كوسكو ١٢ زاوية ، غير ان مثل هذا التفنن ليس نادرا . في كوسكو نفسها ، ما زالت عدة بنايات من عهد الانكا قائمة ، بما في ذلك جزء من « هيكل الشمس » ، وهي تولف اليوم جزءا من الدير الدومينيكاني . وعلى التلال المشرفة على كوسكو، تبدو قلعة ساكسا يهوامان الكبرى ، بابراجها المتعددة لمجابهة العدو . مثل هذا البناء الحجري معروف في مدينة ماتشو بيتشو القائمة على رأس جبل وقد استخدم نمط منه لبناء المصاطب الزراعية .

(٩) ـ صنع هذا الشكل الواقعي لضارب طبل خزافو النازكا الذين

الموتشي مقر عاصمة مملكة تشيمور ، مدينة تشان تشان العظيمة التي كانت مساحتها تزيد على ١٥,٥ كيلومترا (١٠ ، ٥) . يتألف وسط المدينة من عشر حظائر مسورة متشابهة اصلا ، لكل منها مجموعة من الغرف والساحات المكشوفة والقبور التي كانت غنية فيما مضى ، ولكنها نهبت اليوم .

ينم « طراز ليما » الخزفي في ساحل بيرو الأوسط عن وجود دولة شبيهة بموتشي ، ذات مراكز للاحتفالات مثل آرامبورو بالقرب من ليما الحالية . الا ان أروع طراز خزفي كان دون شك طراز نازكا على الساحل الجنوبي ، المتميّز بآنيته المتعددة الألوان ، (٩) (غالبا اربعة أو خمسة الوان) ورسمه المفضّل الممثل للشيطان في شكل هرّة .

الا ان اوسع الحضارات أثرا في جنوبي بيرو آنذاك كانت قائمة حول تياهواناكو الى الجنوب من بحيرة تيتيكاكا . جرى التعرف على مساحات شاسعة من الحقول المدرجة على ضفاف البحيرة ، مما يدل على طاقة زراعية واسعة وتوافر اليد العاملة اللازمة لها . اشتهرت تياهواناكو بمحفوراتها الحجرية الضخمة ، بما في ذلك « بوابة الشمس » الشهيرة (٦) .

صعود وهبوط الأنكا

دام مجد الانكا أقل من قرن واحد وذلك بين ١٤٧٦ و ١٥٣٤ . بدأ توسع الانكا في عهد الحاكم باتشاكوتي انكا يوبانكوي (ملك ١٤٣٨ ـ ١٤٧١) واستمر في ذلك التوسع متواصلا في عهد خلفه توبا انكا ، وعندما بلغ ذورته ، كانت دولة الانكا تمتد من الاكوادور في الشمال حتى ما يعرف اليوم بتشيلي وبوليفيا والارجنتين ، مرورا بسلسلة جبال الانديس والساحل على طول أكثر من ٣٢٠٠ كلم (٧) . نعرف الكثير عن تنظيم الانكا الاجتماعي والسياسي ، كطريقتهم في تدوين المعلومات على حبال معقدة اسمها كويبوس (٣) ، ونظام الجيش المحترف ، واجهزة المواصلات بواسطة قوافل من السعاة ، كما نعرف الكثير ايضا عن سلطة الانكا ذاته المطلقة التي كانت مصدر قوة الامبراطورية وسبب سقوطها في آخر الأمر .

١٠



(١٠) ـ تؤلف هذه اللوحة الزخرفية من الطين المجفف التي اعيد ترميمها جزءا من هيكل « التنين » في موقع تشان تشان ، المدينة القديمة الواقعة الى الشمال من تروخيلو في وادي الموتشي في بيرو الشمالية . كانت موتشي مركزا باكرا للحضارة من هذا الوادي ، قبل ان ترثه عنها مدينة تروخيلو الاستعمارية والعصرية . يتألف هذا الموقع من سلسلة من الحظائر الكبيرة المسورة ، وتبلغ مساحته ٢٨ كلم مربعا تقريبا .

اشتهروا بكتل الالوان الفاقعة التي تضفي على مصنوعاتهم صفة الرسوم الهزلية . ازدهرت حضارة النازكا في بيرو في الوقت نفسه الذي ازدهرت فيه حضارة الموتشيكا في الشمال .

عصر الاستكشاف الجغرافي

ان أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر هي حقبة من اكثر حقب تاريخ اوروبا أهمية . ففي سنة ١٤٩٢ ، ابحر كريستوفر كولومبوس (١٤٥١ ـ ١٥٠٦) غربا عبر « بحر الظلمات » وارتاد الامريكتين .

وسنة ١٤٩٧ ، اقلع فاسكو دا جاما (١٤٩٦ ؟ ـ ١٥٢٥) من لشبونة مبحرا بمحاذاة الساحل الافريقي الغربي وحول « رأس الرجاء الصالح » ، حتى بلغ الموزامبيك وممباسا ، ثم اتجه بحرا نحو كاليكوت في الهند . وسنة ١٥١٩ ، قاد فرد ينان ماجلان (١٤٨٠ ؟ ـ ١٥٢١) (٤) حملة اسبانية حول الطرف الجنوبي لامريكا الجنوبية ، ومنها عبر المحيط الهادىء الى « جزر الهند الشرقية » ، وذلك

١



٢



(١) ـ كان الامير هنري البرتغالي المعروف « بالملاح » أهم رواد عصر الاستكشاف . عيّن اسيادا من اسرته النبيلة لقيادة سفنه ، ووضع منهاجا منتظما ، وان كان متقطعا ، للاستكشاف الى ما وراء رأس بوخيادور . لدى وفاته ، كانت سفنه قد تقدمت جنوبا مسافة ٢٤١٥ كلم .

(٢) ـ كانت رحلة فاسكو دا جاما ، التي بلغ فيها كليكوت سنة ١٤٩٨ ، حدثا ذا دلالة كبرى ، الا ان ما حققه بذلك لا يمكن ان يقارن بانجاز ماجلان او كولومبوس . ففي ابحاره شرقا ، اتم ما كان قد بدأه الآخرون ، فدياز كان قد دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، لا بل رافق دا جاما جزءا من الطريق في رحلته الهندية .

(٣) ـ قبل دوران بعثة ماجلان حول العالم ، ادت الرحلات غربا الى التحقق التدريجي ان قارة مجهولة تقع بين اوروبا وجزر الهند . وفيما كان البرتغاليون يبحرون شرقا من اجل تجارة التوابل ، كانت اسبانيا وانجلترا تعملان على اكتشاف طريق أقصر الى الغرب .

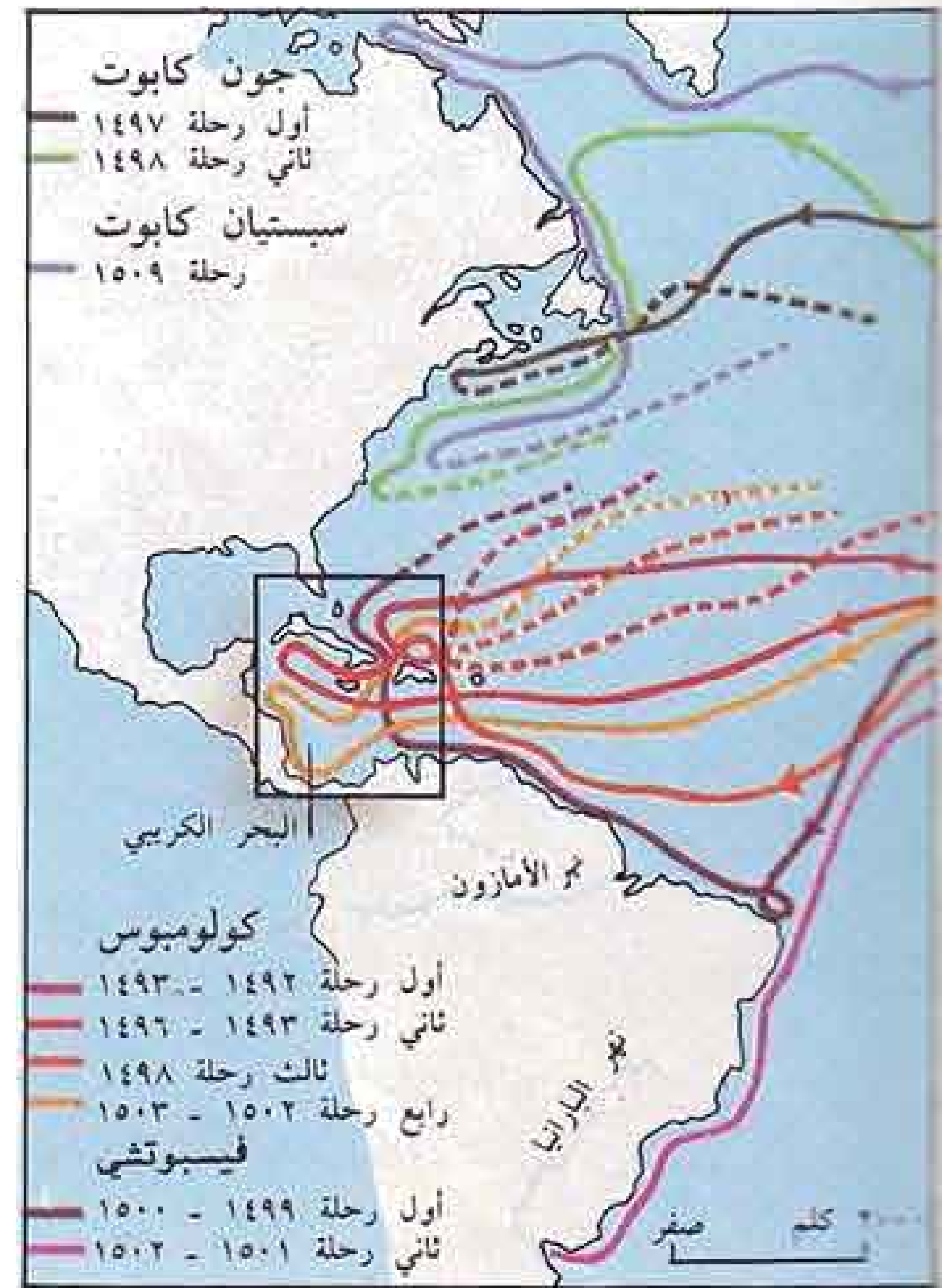
(٤) ـ سنة ١٥١٩ اقلع من اشبيلية فرديناند ماجلان ، وهو برتغالي في خدمة ملك اسبانيا ، في رحلة افضت به الى المضيق الذي يحمل اسمه . من ثم قطع المحيط الهادىء الى

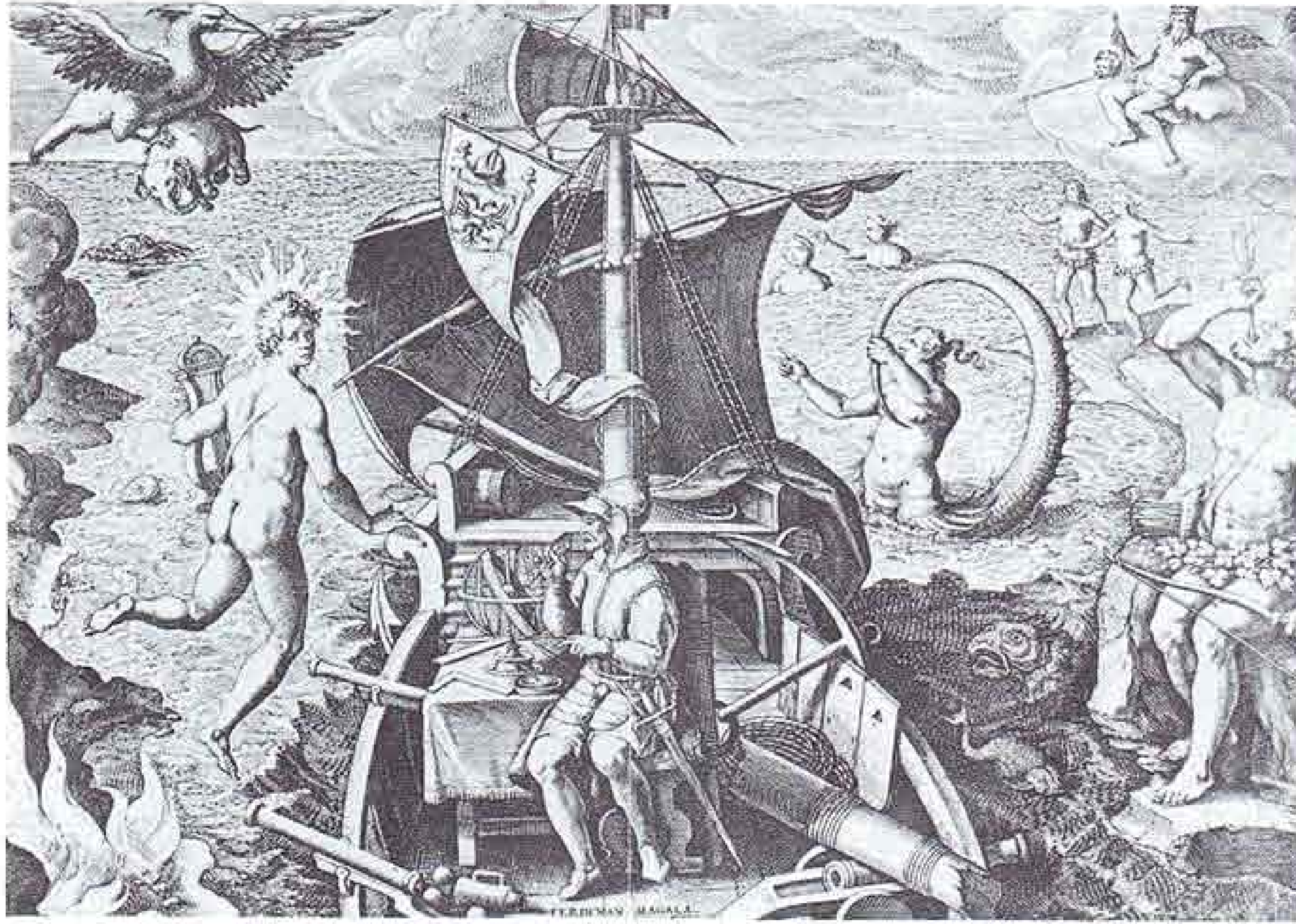
بحثا عن الطريق المؤدية الى الشرق والتي كان كولومبوس قد فشل في العثور عليها . لاقى ماجلان مصرعه اثناء تلك الحملة ، الا ان الناجين من رفاقه داروا حول الكرة الارضية للمرة الاولى في طريق عودتهم مرورا برأس الرجاء الصالح .

رحلة البرتغاليين

لم تكن بعثة فاسكو دا جاما (٢) شرقا رحلة استكشافية بقدر ما كانت بعثة مسلحة ترمي الى افتتاح اسواق مع الشرق للتجارة البرتغالية ، فجاءت ذروة لقرن كامل تقريبا من المحاولات الاستكشافية الاختبارية المترددة التي تلمست خلالها السفن الشراعية الصغيرة طريقها على طول الساحل الافريقي الغربي ودارت حول رأس الرجاء الصالح . كان ذهب افريقيا وعاجها قد فتن ربابنة هنري الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) ، كما أغرتهم

٤





٥



الفيليبين ، حيث قتل . أكمل ديل كانو الرحلة من بعده .

---

(٥) ـ في اواخر القرن السادس عشر كانت لشبونة ، وعدد سكانها حوالى ١٠٠٠٠٠ نسمة ، مدينة البرتغال الكبرى وعصب امبراطوريتها البحرية حيث كانت توزع توابل آسيا في عالمي المتوسط والاطلنطي مقابل سلعهما . في القرن التالي ، كتب للبرتغال ان تفقد سيادتها التجارية في آسيا ، واستقلالها السياسي في اوروبا .

غنائم التجارة الشرقية فراح اولئك الاوروبيون القادرون على بلوغ الهند بحرا يقومون برحلات مهدت الطريق امام فاسكو دا جاما، كرحلاتهم الى ماديرا (١٤١٨) وجزر الازور (١٤٣١)، ودورانهم حول رأس بوجيادور (١٤٣٤)، واكتشافهم لمصب نهر السنغال (١٤٤٤)، واهتدائهم الى سيارا ليوني (١٤٦٠) واكتشافهم في آخر الأمر سنة ١٤٨٧ « رأس الرجاء الصالح »، على يد بارتلميو دياز.

دوافع المستكشفين

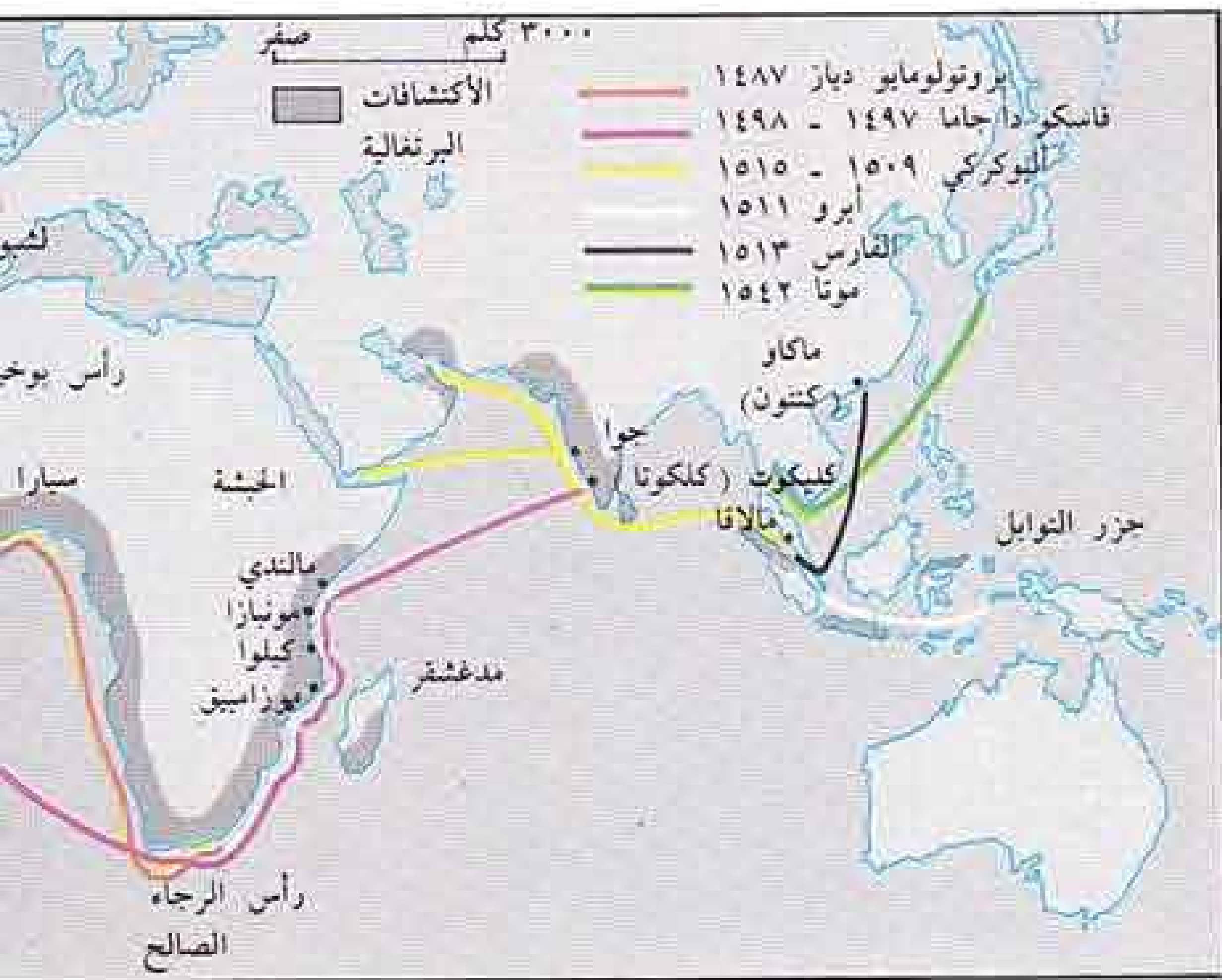
كانت الدوافع وراء هذه الرحلات الاستكشافية الباكرة، سواء البرتغالية او الاسبانية منها، مزيجا من حب الاستملاك والحمية الدينية. فلما عجز الايبيريون بسبب المنافسة الايطالية، عن الظفر بغنيمة تجارة بحر المتوسط الضخمة، وكانوا قد حرموا ايضا من ارباح المتاجرة بالسلع الشرقية الفخمة التي اخذ التجار العرب واهل

٦



(٦) - كان الاسطرلاب والربعية (أو ذات الربع) من الاختراعات العربية التي سهّلت الى حد بعيد الرحلات الاستكشافية البعيدة المدى.

٧



(٧) - قضى البرتغاليون ٥٠ سنة في شق الطريق الى جزر الهند، وذلك ابتداء بدوران دياز حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨. كانت اعظم خطوة مفردة على تلك الطريق عبور جاما للمحيط الهندي.

٨



(٨) - كانت الامبراطورية البرتغالية في الشرق تتألف من سلسلة مراكز تجارية محصنة، ممتدة من سفالة في شرقي افريقيا حتى ماكاو في بحر الصين. كان مركز قيادة « دولة الهند » مدينة جوا على الساحل الغربي للهند. وكان الغرض من القلاع الضخمة الشبيهة بالقلعة الظاهرة هنا، والتي بناها البرتغاليون في جوا، ارهاب منافسيهم من البحر، وتثبيط عزيمة مهاجميهم من الداخل.

البندقية يتحكمون بها فيما بينهم ، راحوا يبحثون عن طرق جديدة تقودهم الى مصادر الثروة . في الوقت نفسه ، كان يحفزهم ولا شك الحماسة الصليبية . ولكن لم يكن الا يبيريون وحدهم يقومون بجميع الرحلات خلال هذه الحقبة . فقد اقلع كريستوفر كولومبوس الجنوي تحت الرعاية الاسبانية بحثا عن طريق غربية للتجارة مع جزر الهند ، فهبط في اكتوبر ١٤٩٢ على شاطىء جزر البهاما ظنا منه انها ارخبيل اسيوي . وبحلول ١٥٠٤ ، كان قد قام بثلاث رحلات اخرى الى البحر الكاريبي ، دون ان يدنو خطوة واحدة من اثبات ان اقدامه قد وطأت ارضا آسيوية . في هذه الاثناء ، كانت رحلات جون كابوت (١٤٥٠ ؟ - ١٥٠٠) انطلاقا من انجلترا على طول الساحل الشمالي الشرقي لامريكا ، ورحلات امريكو فيسبوتشي الفلورنسي (١٤٥٤ - ١٥١٢) على طول الساحل الشمالي لامريكا الجنوبية والبرازيل لمصلحة الاسبان ، قد أدت الى الاعتقاد بوجود كتلة برية مجهولة ، واقعة الى الغرب ، بين اوروبا وآسيا ، هي ما سيسمى فيما بعد « العالم الجديد » (٣) .

تفوق البرتغاليون بعدة مزايا على منافسيهم الاوروبيين الاخرين في استكشاف افريقيا وآسيا . فقد كان الايطاليون محصورين في البحر المتوسط ، ولم يكن الاسبان موحدين في دولة واحدة حتى ١٤٧٩ (اذ لم يكتمل اخراج العرب من اسبانيا نهائيا حتى ١٤٩٢) .

التفوق البرتغالي في تجارة التوابل

بفضل اكتشاف طريق مباشرة الى الهند ، استطاع البرتغاليون ان يتفوقوا على سواهم في تجارة التوابل ، وكان واضع اسس التفوق البرتغالي في الشرق هو الفونسو دا بوكركي (١٤٥٣ - ١٥١٥) . ففي سنة ١٥١٠ ، استولى على جزيرة جاوا ، وسنة ١٥١١ على مالاقا . ومن جزر الهند الشرقية انطلقت السفن البرتغالية الى الصين ، وكانت تبحر سنويا بين الصين واليابان . كان هدفهم التجاري مزدوجا : احتكار تجارة التوابل مع اوروبا ، والحصول على اكبر حصة ممكنة من التجارة الجارية بين الموانىء المختلفة في المحيط الهندي .

ولكن ما حصل بالفعل هو انه تحقق للامبراطورية التجارية البرتغالية في القرن السادس عشر ، وهي وليدة عصر الاكتشاف ، كل ما كان يرجوه بناتها . فقد نجح البرتغاليون في ارعاب منافسيهم الاسيويين في عرض البحار ، وان لم يسيطروا عليهم . كذلك ظلوا ، حتى وصول الهولنديين ، محتكرين الطريق البحرية حول رأس الرجاء الصالح التي كانوا قد فتحوها ، وان لم يتمكنوا من احتكار تجارة التوابل بين اوروبا وآسيا . فقد استمر تجار البندقية ، معتمدين على المسالك البرية القديمة ، في بيع بعض التوابل في اوروبا ، ولم يسيطر البرتغاليون فعلا على جميع جزر التوابل . اما « دولة الهند » (٨) فلم تتمكن من التوغل الى الأعماق .

في البدء ، كانت الاستكشافات في الشرق اهم لاوروبا منها للمناطق المستكشفة نفسها . وهي تدل على تحول مركز ثقل التجارة الاوروبية من الدول الايطالية الى المحيط الهادىء . وقد غيرت الطرق الجديدة المؤدية الى الشرق بحرا خارطة العالم التجارية تغييرا لا رجوع عنه .

الامريكتان : الاحتلال والاستيطان

منذ اوائل القرن السادس عشر ، كان الاسبان قد اسسوا مستعمرات في جزر الانتيل وبرزخ باناما . ولكن سرعان ما تبين لهم ان المواد المعدنية في هذه الجزر ضئيلة ، وانه ، على الرغم من اسم « كاستيل الذهبية » ، لم يكن لتلك المنطقة نتاج يذكر . لكن البعثات التجارية على ساحل يوكاتان كشفت عن امكانية وجود ثروة اعظم في الداخل . فقام حاكم كوبا دياجو دي فلاسكيز (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠) سنة ١٥١٩ ، بارسال اسطول لاستعمار المنطقة بقيادة كورتيز .

الفتوحات الكبرى

هبط هرنان كورتيز (١٤٨٥ ـ ١٥٤٧) (٢)

أ



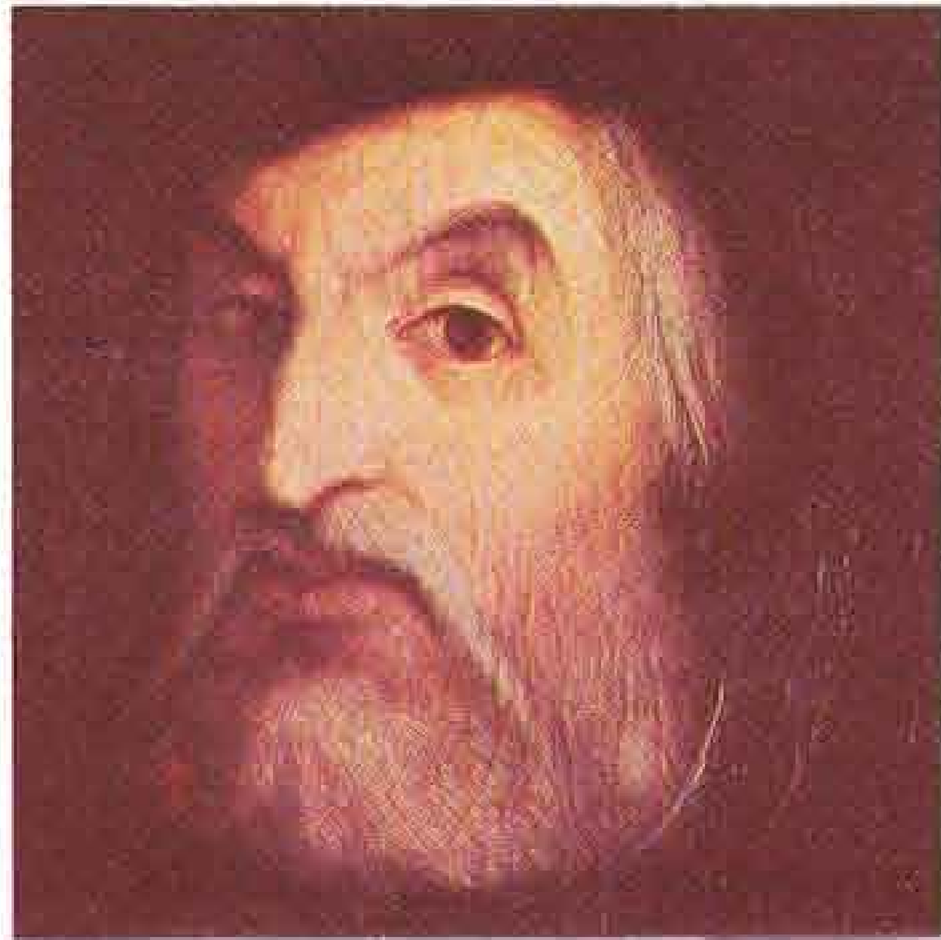
ب





(١) ـ نزل كورتيز الى اليابسة عند فيراكوز (أ) في ٢٢ ابريل ١٥١٩ . واستطاع بفضل التحالفات التي عقدها مع شعوب تشامبوالا وخالاب وتلاكسكالا ان يؤمن خط الامدادات من الساحل (ب) . بعد بعض المناوشات ، اقنع « دولة » تلاكسكالا القوية والمستقلة بالانضمام اليه ، وهكذا وضع يده على القاعدة التي كان يحتاج اليها حاجة ماسة لشن غاراته على عاصمة الازتيك تنوختيتلان . بعد تراجع « الليلة الحزينة » في ٣١ يونيو ١٥٢٠ ، فرّ كورتيز الى تلاكسكالا . وهناك بنى ، بمساعدة بعض العمال المحليين اسطولا من زوارق المناوشات لانهاك قوات تنوختيتلان انطلاقا من البحيرة . كانت هذه الزوارق تنقل قطعا مفككة تركب على ضفة البحيرة . وكان الجيش ، المؤلف بالدرجة الاولى من اهل تلاكسكالا ، يهاجم المدن المعروفة بتعاطفها مع الازتيك المحاصرين .

٢



(٢) ـ ولد هرنان كورتيز في مقاطعة استريمادورا باسبانيا أبحر باتجاه هيسبانيولا سنة ١٥٠٤ ، واشترك كمعاون لفيلاسكويز بفتح كوبا . بعد فتح المكسيك ، صرف معظم جهود حياته ، على غرار عدد من « الفاتحين » الاسبان للحصول من التاج على اعتراف صريح بانجازاته . توفي في اسبانيا سنة ١٥٤٧ .

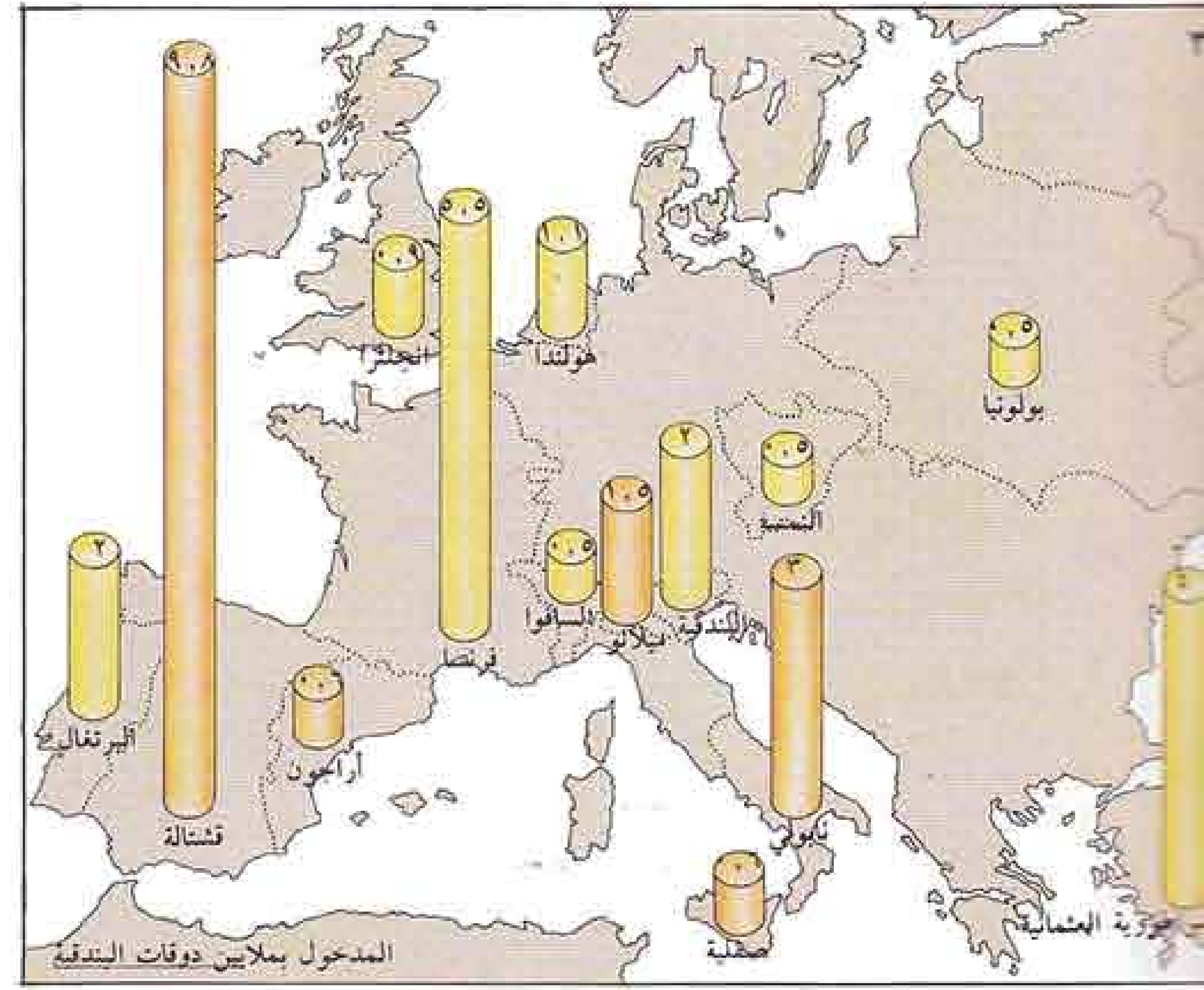
(٣) ـ وفرت سبائك الفضة الآتية من الجزر الهندية الثروة الطائلة لقشتالة في القرن السادس عشر . الا ان تدفق الفضة تضاءل عندما اخذت المناجم تنضب في القرن

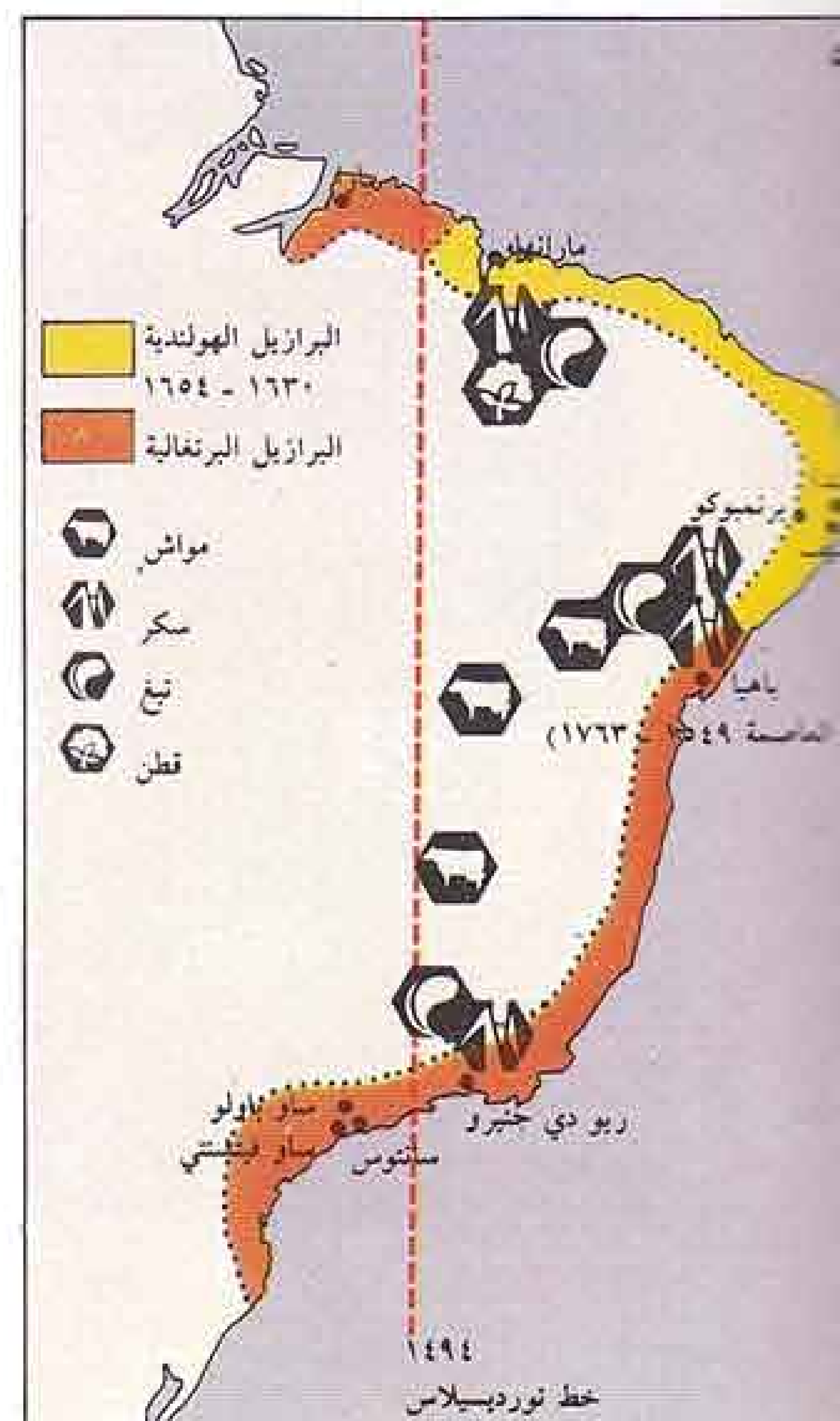
وبعثته المؤلفة من ٥٥٠ رجلا على ساحل المكسيك ، واسس مستوطنة فيراكروز . من ثم خلع كورتيز سلطة فيلاسكيز ووضع نفسه مباشرة تحت سلطة التاج . وبفضل سلسلة من التدابير الدبلوماسية الحاذقة والتقنيات العسكرية المتفوقة استولى كورتيز رسميا على عاصمة الازتيك تنوختيتلان .

تمّ فتح البيرو سنة ١٥٣٢ على يد المغامر فرنسيسكو بيزارو (١٤٧١ ؟ - ١٥٤١) (٩) نتيجة للبحث عن الذهب . عندما بلغ الاسبان ساحل البيرو عند تومبيز ، كانت امبراطورية الانكا منقسمة على نفسها على أثر حرب أهلية ، وكان زعيم احدى الفئات المتحاربة ، الانكا أتاهوالبا ، قد خرج ظافرا من تلك الحرب . فهاجمه بيزارو في قلعة كاخاماركا (٤) حيث استطاع الاسبان ان يفتكوا بمعظم حاشية اتاهوالبا وان يقبضوا عليه نفسه . عرض اتاهوالبا ان يملأ غرفته بالذهب









السابع عشر . من الممكن ان يكون التضخم الهائل الذي ظهر في اوروبا خلال القرن السابع عشر قد نجم عن هذه الكميات المستوردة من الفضة الامريكية .

(٤) - اعانت شبكة عظيمة من الطرق بيزارو على فتح البيرو . بلغ تومبيز سنة ١٥٣١ ، ثم زحف الى الداخل باتجاه كاخاماركا لتعقب حاكم الانكا اتاهوالبا . على اثر هجوم مفاجىء ، سقطت المدينة واعدم اتاهوالبا فيما بعد . اسس بيزارو عاصمة جديدة في ليما ، وهكذا نقل مركز التجمع الانكاوي من كوسكو الى الساحل .

(٥) - اتفق الاسبان والبرتغاليون ، بتشجيع من البابا الكسندر السادس ، على خط يفصل بين مطالبهم الاقليمية ، وذلك في معاهدة تورد يسيلاس سنة ١٤٩٤ . عندما اكتشف كابرال البرازيل سنة ١٥٠٠ ، طالبت البرتغال بها طبعا ، ولكنها لم تستعمرها جديا حتى سنة ١٥٣٠ . ولما توحدت اسبانيا والبرتغال بين ١٥٨٠ و ١٦٤٠ ، اصبحت البرازيل عرضة للهجوم من قبل اعداء اسبانيا . وسنة ١٦٣٠ ، استولى الهولنديون على منطقة غنية الى الشمال ، واحتفظوا بها حتى ١٦٥٤ .

لقاء حريته. قبل بيزارو بذلك، ولكنه بالرغم من ان اتاهوالبا قد وفى بعهده لم يطلق سراحه. قدرت قيمة فديته بحوالى ٢٠ مليون دولار، وكانت تشمل كنوز « هيكل الشمس »، فصهرت وحولت الى سبائك.

بعد فتح البيرو، تحول انتباه الرائدين الاوروبيين الى امكنة أخرى. فارسلت البعثات الى تكساس وفلوريدا، وجرى تأسيس بعض المستوطنات فيهما. اما استعمار نيومكسيكو، فقد تم بعد بعض التخطيط، الا ان المنطقة لم تلبث ان تحولت الى موقع عسكري لا أكثر ولا أقل.

الادارة

خشي التاج الاسباني ان يقوم الفاتحون المنتصرون بتأسيس اقطاعات مستقلة، فعمد بسرعة الى القبض على زمام الحكم في المستعمرات الجديدة. كانت الادارة معقدة: الأوروبيين. في البدء، حاول الاسبان المحافظة على بنية المجتمع الهندي، فاستخدموا زعماء محليين كقضاة وجباة للضرائب. ولكن في غضون القرن السابع عشر، أخذ الأشراف المولودون هناك يتزاوجون فيما بينهم، بينما راح الاسبان يتزوجون

٦



٧



٨



(٦) - كانت قسوة الاسبان تجاه الهنود ذائعة الصيت. ساعد كتاب « قصة مختصرة لتدمير الجزر الهندية »، لبارتلومي دي لاس كاساس، الذي اصبح من اروج الكتب في القرن السادس عشر، على انتشار ما سمّاه الاسبان « الاسطورة السوداء ». ظهرت هذه الصورة بريشة دي بري في هولندا كدعاية ضد الاسبان.

(٧) - كان من نتيجة فتح الاوروبيين لامريكا في القرن السادس عشر ان حضاراتها الاصلية كادت تطمس كليا. لكنّ نظرا لرغبة الاسبان في تنصير الهنود الامريكيين، كان لا بد لهم من استيعاب الكثير من نواحي حياة الشعب الاصلية وادخالها ضمن حضارتهم.

(٨) - يظهر في هذا الكوب الانكاوي المصنوع من الخشب الذي يرقى الى القرن السابع عشر هنود من البيرو مع احد

ففي اعلى المراتب ، كان نائب الملك ، الذي لـم يكـن مسـؤولا الا أمـام التـاج فقـط ، يتمتع بسلطة كبيرة نظرا للمسافة الشاسعة بين اسبانيا وجزر الهند ؛ وللمحافظة على توازن القوى داخل المستعمرة ، اقيمت محكمة مستقلة للاستئناف ، كان من حقها الاتصال مباشرة بالتاج ، وبوسعها عزل موظفي التاج من مناصبهم ، كما كانت تمثل الهنود امام اسيادهم ، وتقوم بقضاء العدل ؛ فرض التاج ايضا نظام « الاقامة » ، الذي كان يقضي بتقييم اعمال موظفي التاج عند انتهاء خدمتهم ومعاقبتهم على اي سوء تصرف .

ثروة الامريكتين

كانت ثروة امريكا العظيمة تكمن في مخزونها من الفضة . فقد اكتشفت جميع مناجم بوتوسي في البيرو والمناجم الاخرى في زاكاتيكاس وجوانا خواتو والبوتوسي بالمكسيك خلال اربعينات القرن السادس عشر ، ولم يلبث انتاجها ان سيطر على سوق الفضة في اوروبا . مع ذلك ، لم يستفد المستعمرون كثيرا من هذه التجارة ، لأنهم ارغموا على الانصراف الى الزراعة والاتجار مع الفيليبين بالسلع الاقل قيمة كالحرائر ، كي تبقى المعادن النفيسة تشحن الى اوروبا عن طريق اشبيلية المحتكرة لتجارة امريكا ، والتي كانت قد اقيمت فيها منذ ١٥٠٣ « دار التعامل التجاري » . وفي الحقيقـة كـانت الامريكتان دوما مغامرة قشتالية ، وقد استفاد التاج القشتالي مباشرة من ذلك (٣) .

أثّر الاستعمار الاسباني على العالم الجديد تأثيرا شديدا وقاسيا (٧) . فقد قضى ادخال المحاصيل والمواشي الاوروبية على حياة الهنود الداخلية ، وغيّر توازن البيئة في المكسيك الاوسط . وبزوال الانقسامات القبلية القديمة وانهيار مجتمع الازتيك ، نشأ مجتمع مستضعف وغريب عن نفسه وعاجز عن مقاومة الامراض الاوروبية الفاتكة فيه ، فهبط عدد السكان بسرعة خلال القرن السادس عشر . في اعقاب ذلك اصبحت لأمريكا اللاتينية حضارة مختلطة يغلب عليها طابع المستوطنين الاسبان .

٩


الهنديات بمثابة الجواري . وانجبوا منهن فئة مختلطة من المواليد تعرف « بالمُوَلَّد » . ثم تدهورت الحضارة الهندية الاصلية وحلت محلها حضارة مجتمع ابيض او شبه ابيض .

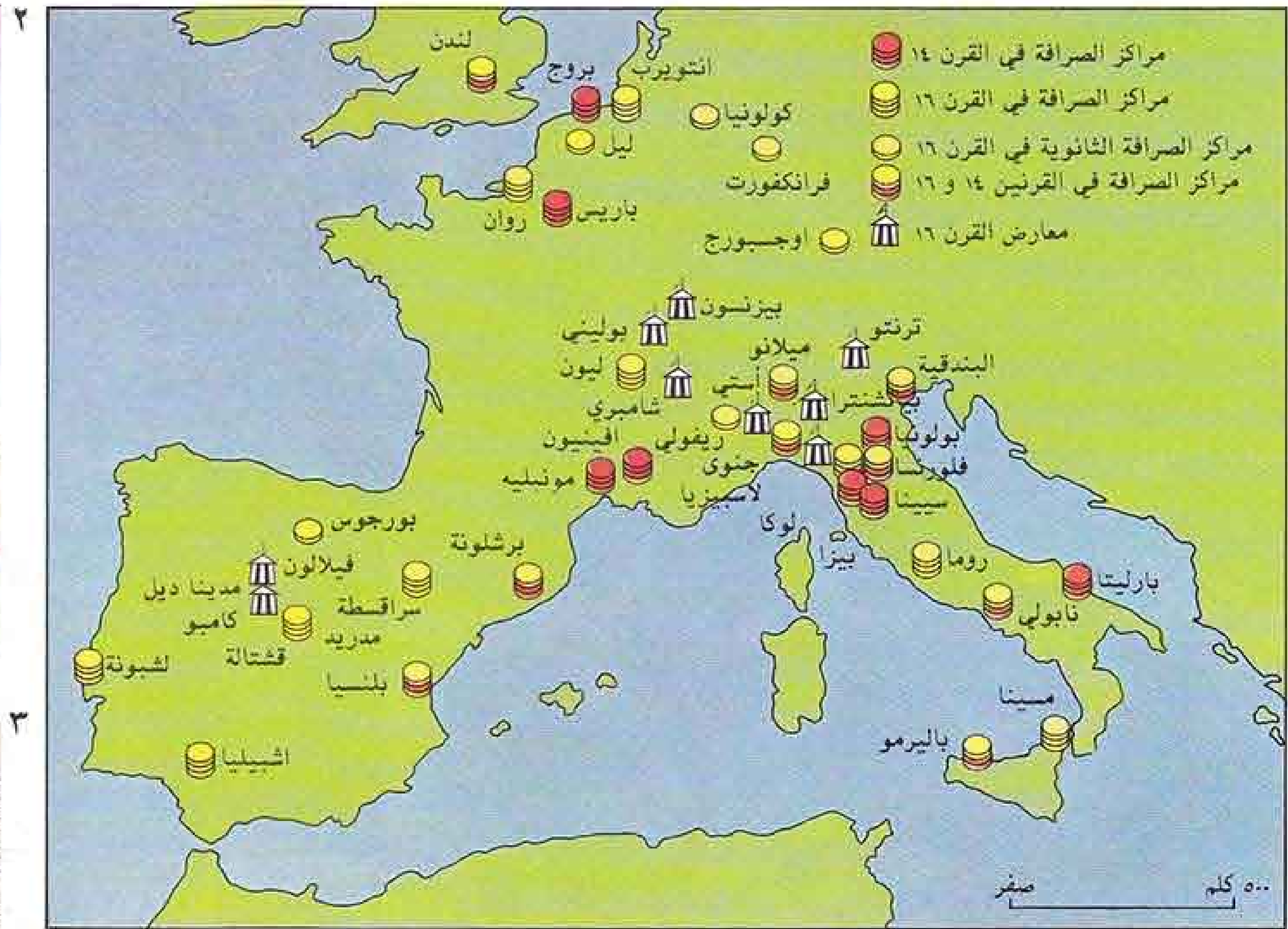
---

(٩) - سنة ١٥٢٨ منح شارل الخامس تأييده لبعثة بيزارو الثالثة الى البيرو . كان بيزارو قد رافق بيلباو في زحفه عبر برزخ باناما سنة ١٥١٣ ، وتحالف فيما بعد مع دياجو دي الماجرو وفرناندو دي لوكوي لاحتلال البيرو والبحث عن ثروات الانكا . لكن البعثات الاولى (١٥٢٤ - ١٥٢٨) باءت بالفشل . في سنة ١٥٣١ ، غادر بيزارو واخوته باناما باتجاه البيرو ، وانضم اليهم فيما بعد الماجرو . كان يفتقر بيزارو الى مهارة كورتيز الدبلوماسية ، فلم يستطع الحد من مطامع اعوانه . بعد اخضاع الانكا بفترة وجيزة انشق الماجرو ، وفي غضون الحرب الاهلية التي تلت ذلك قتل بيزارو .

نموّ المصارف

بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر ، مارست ايطاليا سلطتها التجارية والمالية على أوروبا ، اذ كانت صاحبة معظم الابتكارات في التجارة والصيرفة . لكن هذه السيادة أخذت في الانحسار بحلول القرن السادس عشر . في القرن الثاني عشر في جنوة ، كانت المصارف تحفظ الودائع وتحول العملات الاجنبية الى عملة محلية وتتعامل بالسبائك . فيما بعد ، اصبح الفلورنسيون أكبر صيارفة ايطاليا . في غضون هذه الحقبة تشابكت الصيرفة والتجارة معا دون تمييز ، واقتضت علاقات الايطاليين مع مختلف انحاء أوروبا تحويل المال عبر الحدود بصورة منتظمة ، فاستخدموا في القرن الرابع عشر سند الصرف

١



٢



٣



(١) ـ كانت بروج (بلجيكا) ، التي كان يسيطر الايطاليون على نشاطاتها الصرافية ، المركز المصرفي الدائم خارج ايطاليا في العصور الوسطى . شهدت اواخر القرن الخامس عشر ظهور المؤسسات الالمانية الجنوبية . كانت المراكز الرئيسية في القرن السادس عشر انتورب وليون وكانت المعارض الموسمية تقام في قشتالة وفي بيزانسون . كان الجنويون يسيطرون على معارض بيزانسون التي لم تلبث أن نقلت لتستقر في بياتشنزا في ١٥٧٩ .

(٢) ـ بنى جاك كور (١٣٩٥ ؟ ـ ١٤٥٦) ، التاجر والدائن الصيرفي الفرنسي ، هذا القصر في بروج على أيام مجده وعزّه . خسر ثروته سنة ١٤٥٣ ، وعاش في المنفى حتى وفاته .

(٣) ـ بنى مراب يهودي شهير اسمه هارون هذه الدار في لنكلن حوالى ١١٧٠ ـ ١١٨٠ . كان يتعامل مع أعظم الأسر الانجليزية ، وقد مول بناء جزء من كاتدرائية كنتربري . لدى وفاته ، اقتضى تعيين دائرة خاصة من وزارة المال لتصفية ثروته المالية . طرد اليهود من انجلترا سنة ١٢٩٠ ، اذ كان الملك يأمل ان يستولي على ممتلكاتهم .

(٤) ـ يظهر في هذه اللوحة بريشة كوانتان ماسّيس (١٤٦٥ ؟ ـ ١٥٣٠) الصيرفي وامرأته وهما منهمكان في

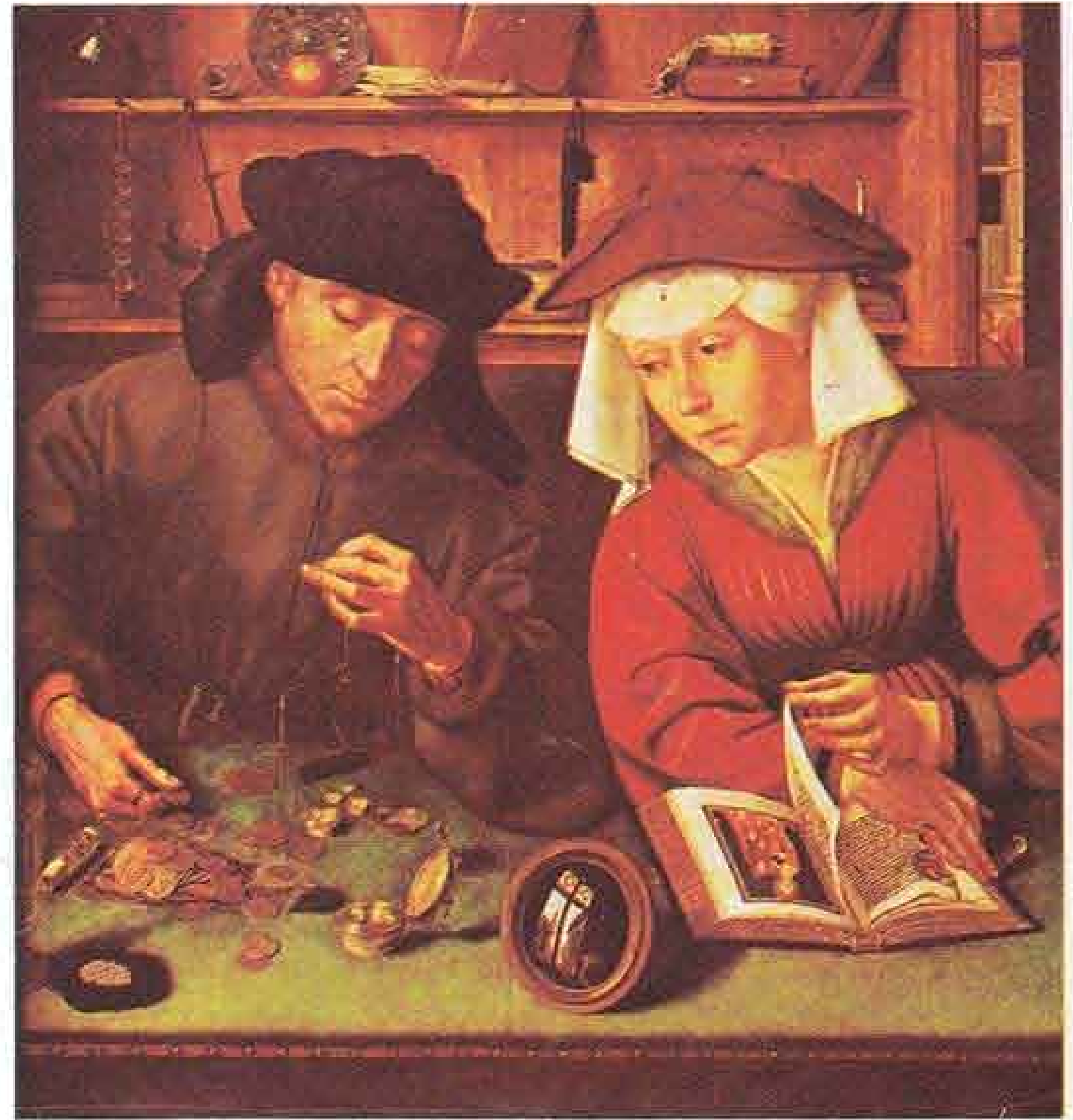
البسيط ، لكن البالغ الأهمية ، لتحاشي أخطار نقل النقود الذهبية والفضية . أخذوا ذلك عن العرب .

اعمال صيارفة العصور الوسطى

نتيجة لالقاء الكنيسة الحظر على اقراض المال بفائدة (الربا) جعل صيارفة العصور الوسطى معاملات الصرافة نشاطهم الرئيسي . ومع ان سند الصرف كان ينطوي ضمنا على عنصر الدين حتى حصول الدفع في تاريخ لاحق ، فانه لم يكن يحسب كقرض .

جاء ربح الصيرفي من معدل فائدة الصرافة ، وقد بلغ معدل فائدة اسرة المديتشي ١٥ بالمائة . قد يصح القول ان الحظر على تقاضي الفائدة على الدين قد أعاق تطور الاعمال الصيرفية الرئيسية من استدانة وادانة لقاء فائدة ، مع ان مصارف الودائع كانت موجودة في ايطاليا بالدرجة الاولى ، وفي بروج (بلجيكا) ايضا (١) . كانت هذه

٤

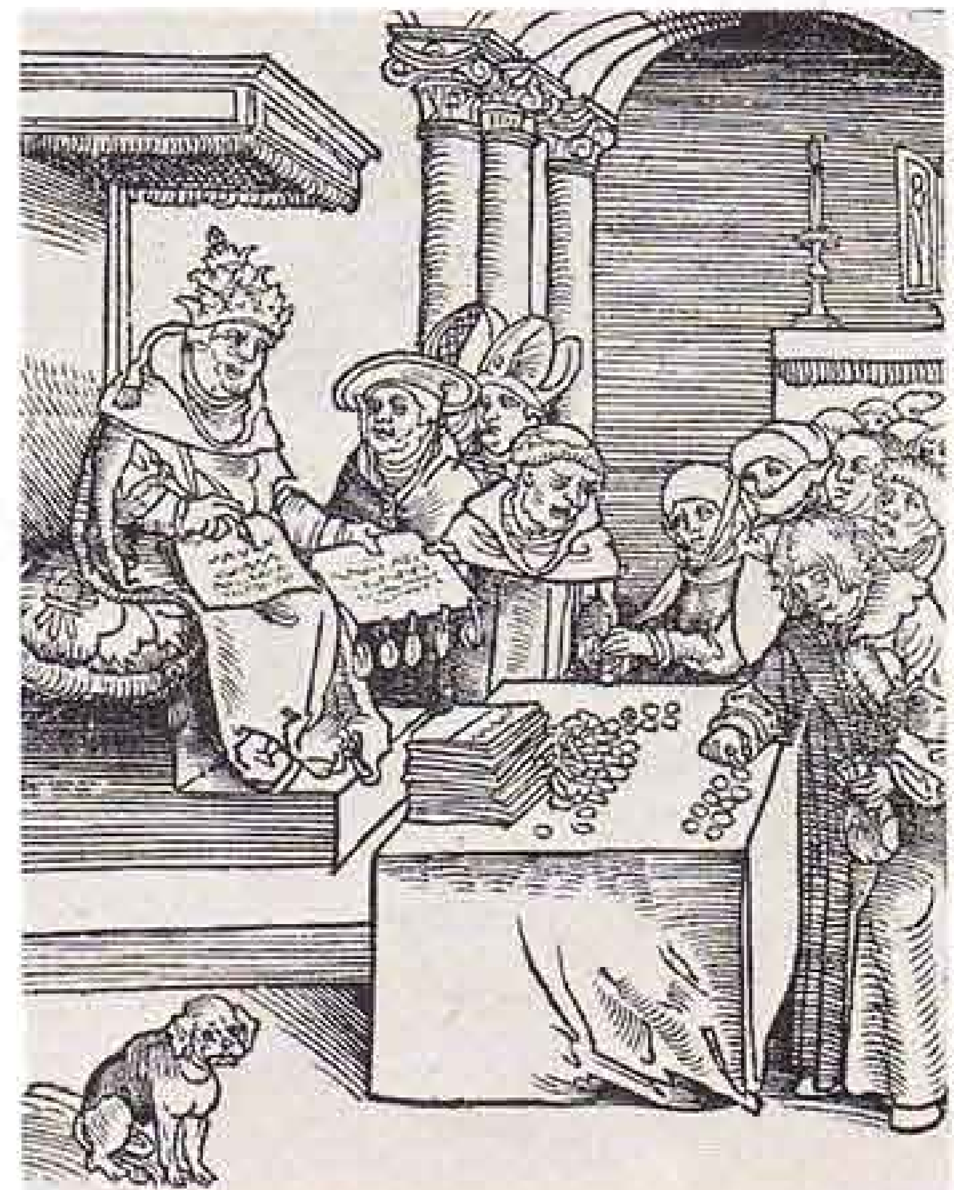


عملهما . لقاء رسم ضئيل ، كانا يحولان النقود الذهبية الى نقود فضية او النقود من عملة الى عملة أخرى .

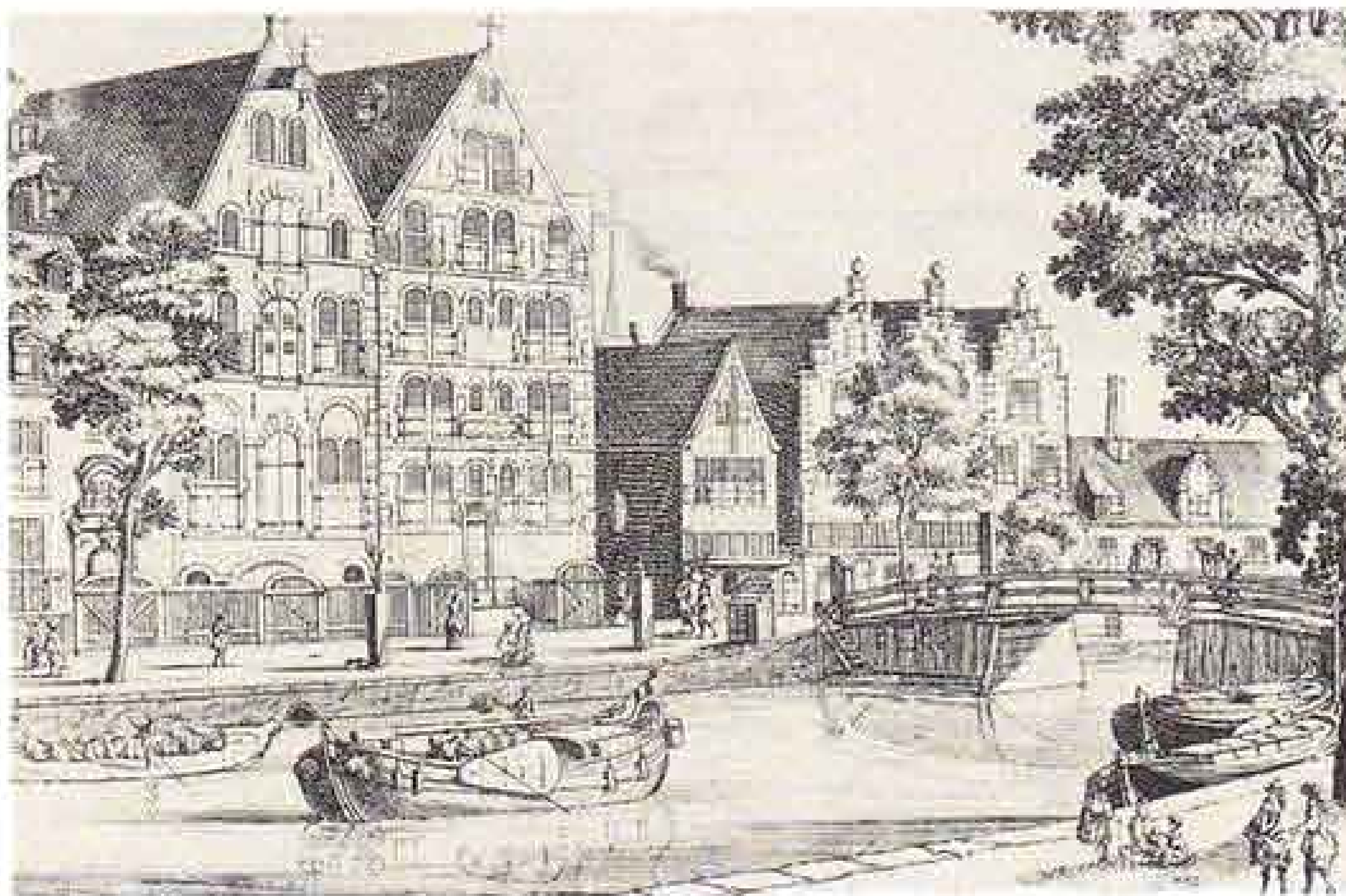
(٥) - كان الكرسي البابوي يستوفي الرسوم والضرائب من جميع انحاء اوروبا . وكان يستدين ايضا من الصيارفة لقاء فوائد ، غير آبه بالحظر المفروض على الربا . جرى معظم تمويل كنيسة القديس بطرس العظيمة ، التي شرع ببنائها في أوائل القرن السادس عشر ، من مدخول « صكوك الغفران » التي كان يوزعها آل فوجر .

(٦) - كان بنك امستردام للصرافة (١٦٠٩) من أشهر وأنجح المصارف التي كانت تشرف عليها البلديات التي أنشئت في اعقاب الانتعاش المالي في اواخر القرن السادس عشر . كان يتلقى ودائع نقدية تربو على ٣٠٠ فلورين ، ويحول المال من حساب زبون لحساب آخر ، ويتاجر بالسبائك ، ويتعامل بجميع سندات الصرف التي تربو على ٦٠٠ فلورين . على غرار مصارف بلدية أخرى ، لم يكن يقدم القروض او تسهيلات السحب ، ولم يكن يحسم السندات او يصدر أوراق العملة .

٥



٦

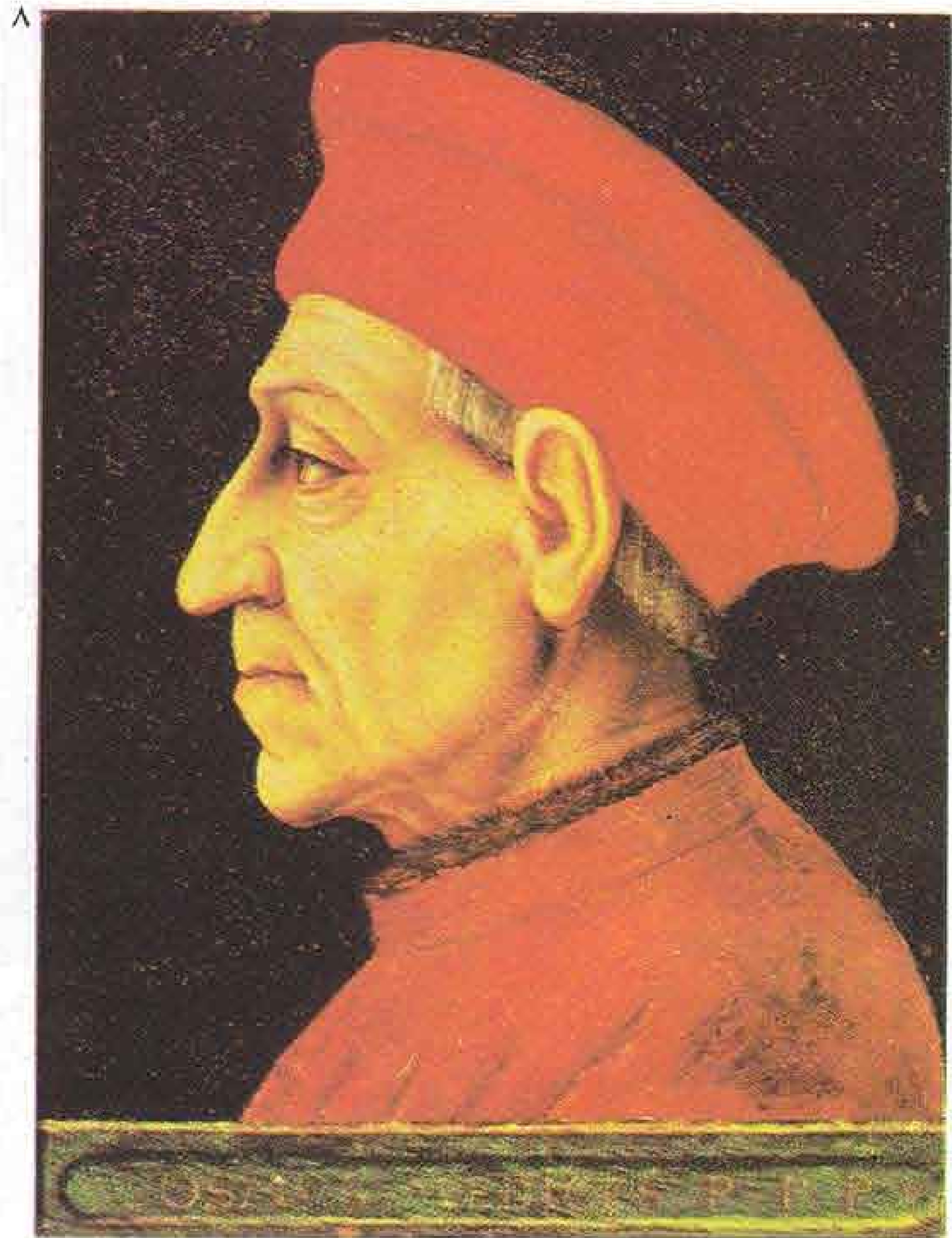


المصارف تفتح حسابات جارية دون فائدة وتؤمن امكانية التحويل المالي من حساب زبون الى آخر .

ابتداء بالقرن الرابع عشر ، سمحت بعض المدن بتحويلات خطية (وهي الاصل الاول للشيك) ، فألغت هذه التحويلات الشرط الاصلي القاضي بأن ينجز مثل هذه المعاملات صاحب الوديعة بذاته شفهيا .

في القرن الخامس عشر ، حدث جمود في الاعمال المصرفية في هولندا وايطاليا ، كما يشهد على ذلك هبوط عدد المصارف الفلورنسية الكبيرة من ٨٠ الى ثمانية بين ١٣٣٠ و ١٥٢٦ . ومما يكشف عن مخاطر اعمال الصيرفة في العصور الوسطى ذلك الخبر الوارد من سنة ١٥٨٥ والقائل ان ٩٦ مصرفا من اصل ١٠٣ في البندقية قد افلست نتيجة لاجراء القروض بلا ضمانات الى التجار والحكومات . لكن نشاط مصارف الودائع عاد

٧



٨



(٧) ـ كان آل مديتشي أعظم صيارفة ايطاليا في القرن الخامس عشر ، وكان لهم فروع في فرنسا وانجلترا وهولندا وايطاليا . بلغوا أوج مجدهم وثروتهم في عهد كوزيمو دي مديتشي (١٣٨٩ ـ ١٤٦٤) الذي كان ، على غرار خلفائه ، نصيرا للفنون . لكن ألمت بهذه المؤسسة ضائقة مالية كبرى ، ثم ما لبثت ان انهارت سنة ١٤٩٤ .

(٨) ـ في اوائل القرن السادس عشر ، كان لأسرة فوجر الاوجسبورجية امبراطورية اوروبية تجارية ومالية تعتبر اعظم امبراطورية عرفها العالم حتى ذلك التاريخ . نعمت بأشهر حقبة في تاريخها باشراف جاكوب فوجر (١٤٥٩ ـ ١٥٢٥) الملقب « بالثري » . (وهنا رسم له بريشة البرخت دورير) . كان فوجر قد تعلم فن الصرافة في ايطاليا .

فانتعش في أواخر القرن السادس عشر ، وذلك عندما عادت تلك المصارف الى العمل كمصارف حكومية تشرف عليها البلدية ، كما جرى في البندقية ، وفيما بعد في امستردام (٦) .

المصارف الصغيرة والدائنون

كانت البنوك المحلية الصغيرة في ايطاليا أكبر عددا واوسع انتشارا من المصارف التجارية الكبرى ، كمصرف المديتشي (٧) . كانت هذه البنوك الصغيرة تقاسم المصارف الكبرى عددا من اعمالها ، فتستلم الودائع وتمنح القروض لقاء تعهدات وتصرف المال ، ولكنها كانت تتجنب اعمال الصيرفة والتحويل .

لكن في ذلك الوقت ، كان قد ظهر ايضا في جميع انحاء اوروبا الدائنون والمرتهنون الخسيسون (وان كان عملهم ضروريا أحيانا) ، وهم الذين كانوا يقدمون قروضا صغيرة وقصيرة الأجل للفقراء . ذلك انه ، حتى في الاقتصاد القروي القائم في جملته على مجرد سد الاود ، كان لا بد من دفع الضرائب ، فكان الفقراء يضطرون للبحث عن قروض في الظروف العصيبة .

الصرافة في القرن السادس عشر

لم يشهد القرن السادس عشر تجديدات كبرى في معاملات الصرافة . الا انه ، بازدهار الاقتصاد الاوروبي ، نما وازداد حجم المعاملات واصبحت القروض اوسع انتشارا ، فاقتبست شعوب أخرى لاسيما الألمان الجنوبيون الأساليب الايطالية . أما لندن ، فقد بقيت مركزا ماليا ثانويا حتى أواخر القرن السابع عشر . في تلك الاثناء اصبحت طرق الحصول على قروض أكثر مرونة ، نتيجة لازدياد استعمال طريقة التجيير والحسم ، مع ان هذه الاساليب لم تطبق الا نادرا على سندات الصرف حتى القرن السابع عشر . كذلك هبطت معدلات الفائدة ، واقتبست بعض الدول البروتستانتية سياسة ارحب بالنسبة الى الربا ، كما سهل المبادلات التجارية وضع نظام غير رسمي لتصفية الديون والموازنات التجارية الدولية خلال المعارض التجارية الأوروبية الموسمية العظمى ، وقد استمر ذلك حتى أواخر القرن السادس عشر ، عندما أخذت المعارض تفقد أهميتها .

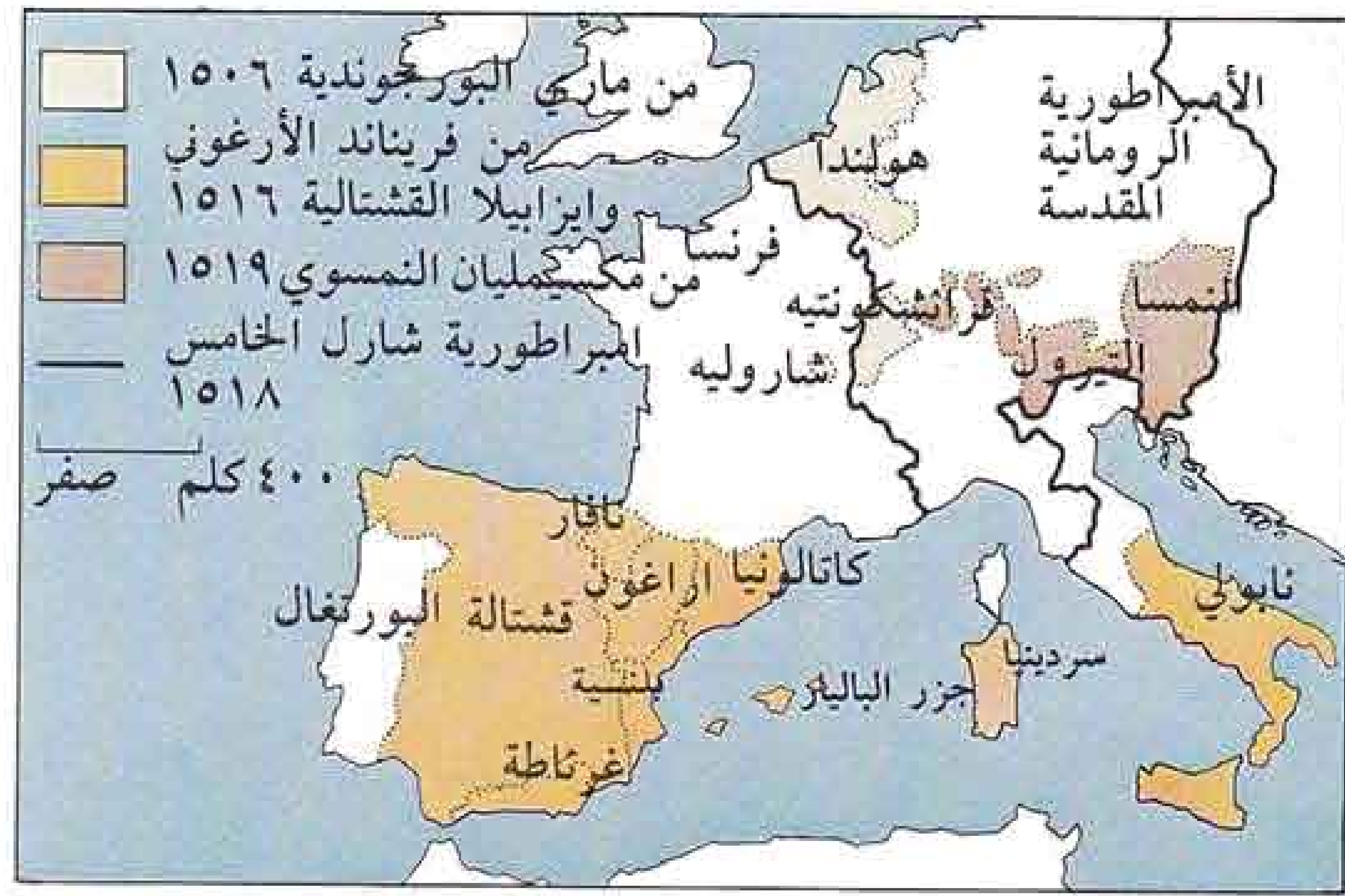
كان من أعظم التطورات التي حصلت في أواسط القرن السادس عشر تزايد القروض الحكومية لسد نفقات الحروب المتصاعدة . كان الملوك الفرنسيون يحصلون على المال من ليون ، والحكام الانجليز والاسبان من أنتورب (بلجيكا) ، اعظم مركز للتجارة البعيدة المدى في تلك الحقبة . لكن الثروات كانت تنهار ، عندما كان ملوك فرنسا واسبانيا يتلكأون عن دفع ديونهم ، تماما كما جرى عندما حمل ادوارد الثالث ، ملك انجلترا ، مصرفين فلورنسيين على الافلاس في العقد الرابع من القرن الرابع عشر . كانت مثل هذه الكارثة تحل بأشخاص عاديين ، وبمصارف ضخمة على السواء ، كما حل بآل فوجر (٨) الألمانيين الجنوبيين . لكن ما كاد القرن السادس عشر يبلغ نهايته ، حتى كان عهد الصيرفي الدولي قد ولى ، مع ان اشكالا أكثر مرونة من اعمال الصيرفة واصلت ازدهارها وتطورها .

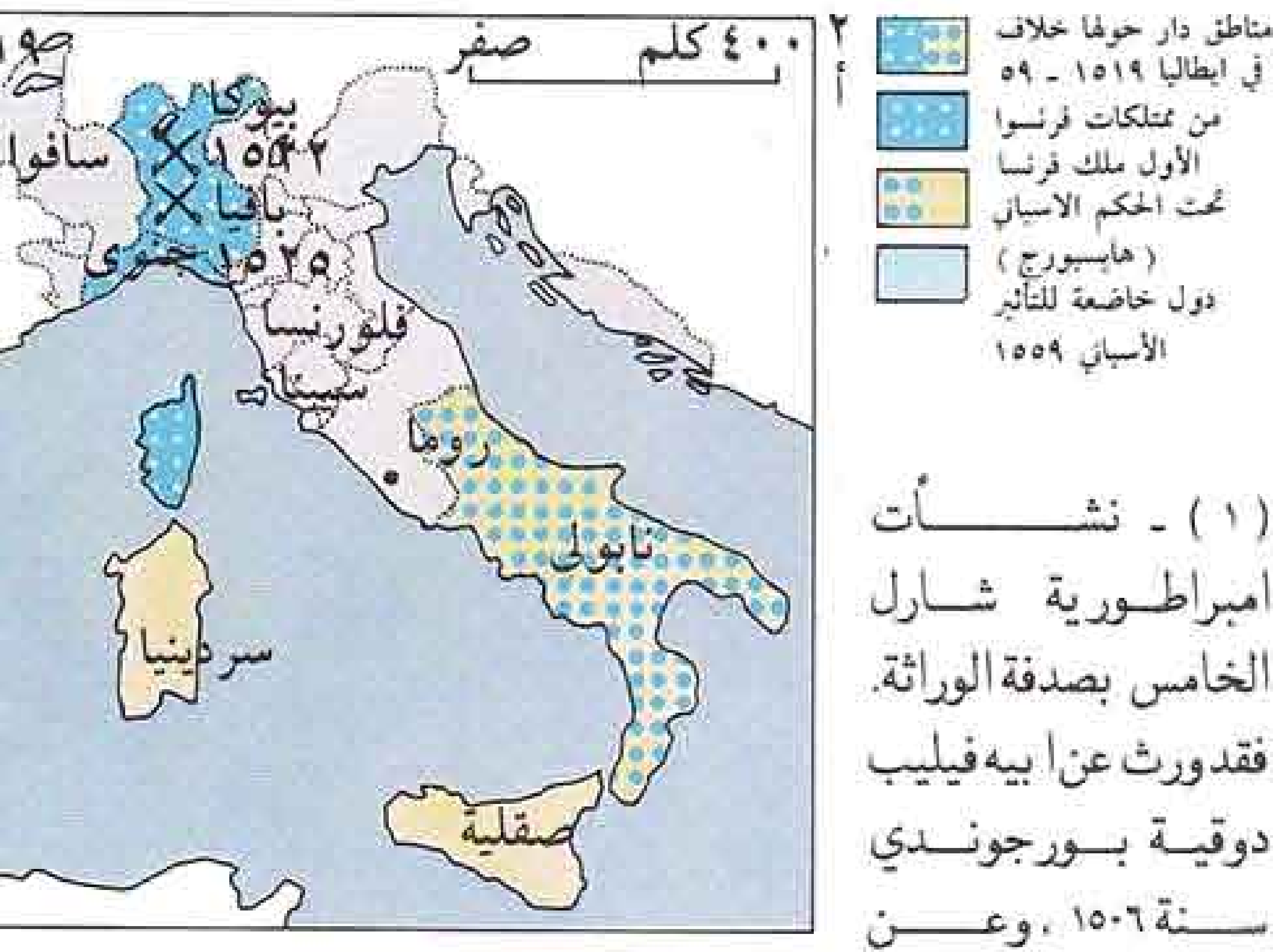
الحياة السياسية في أوروبا ١٤٥٠ - ١٦٠٠

كانت أوروبا عبارة عن « جمهورية مسيحية » ، يحكمها سيفان ، الروحي في يد البابا ، والزمني في قبضة الامبراطور . الا ان القرن السادس عشر شهد تفكك هذا المثال ونمو الملكية التي كتب لها الانتصار على حساب الكنيسة والأشراف معا . ظهرت هذه العملية بأوضح شكل لها في فرنسا (٤) ، حيث نجح التاج تدريجيا في تحويل الاراضي التي كانت خاضعة للنظام الاقطاعي القديم الى أراض يملكها التاج ، وذلك بفضل سلسلة من الاتفاقات .

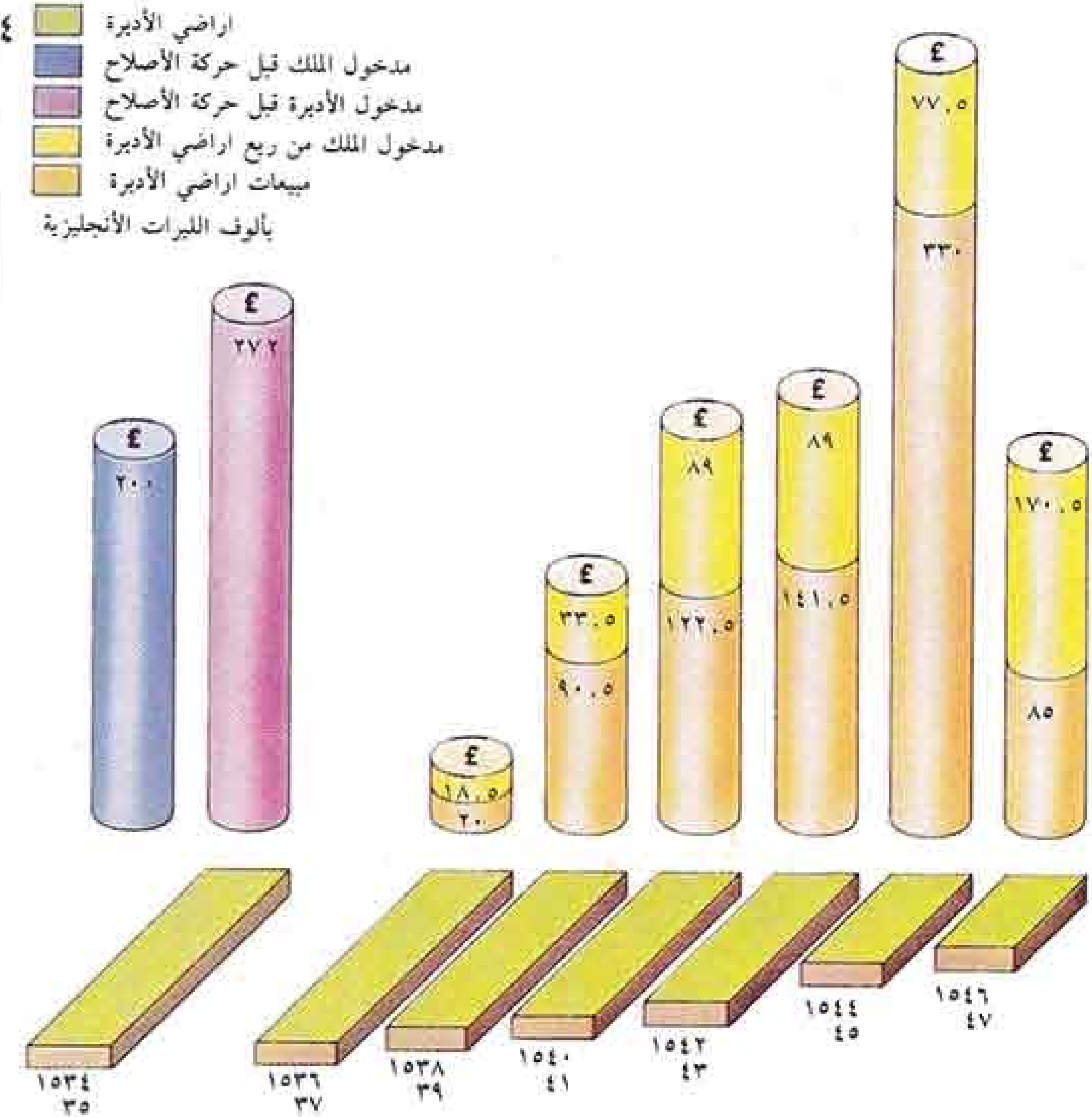
الباباوات والملوك

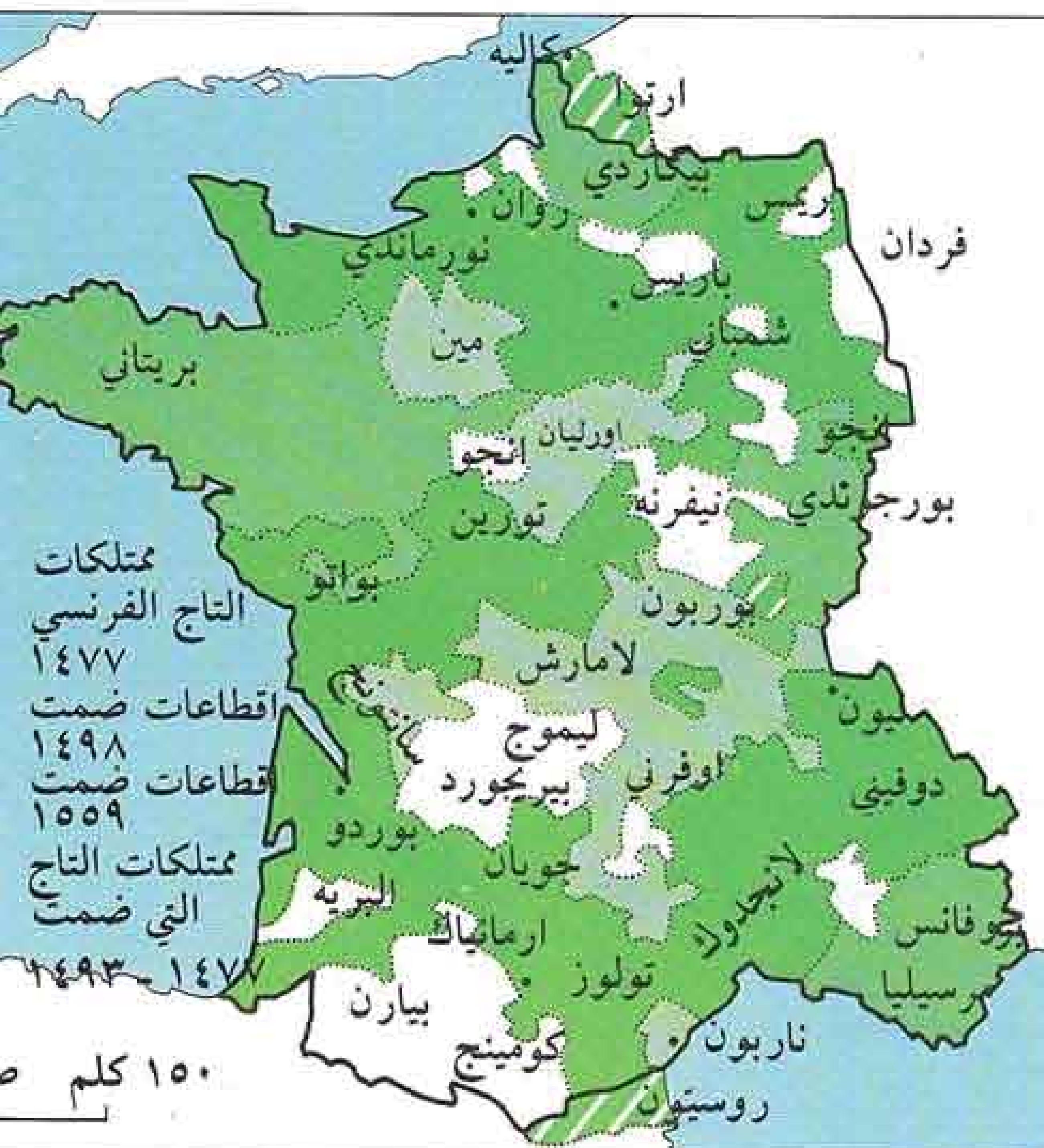
أساء الخلاف بين المطالبين بالكرسي





(١) - نشأت امبراطورية شارل الخامس بصدفة الوراثة. فقد ورث عن ابيه فيليب دوقية بورجوندي سنة ١٥٠٦ ، وعن





البابوي في الفترة الممتدة من ١٣٧٨ الى ١٤١٧ الى مركز البابا كرأس للعالم المسيحي . فقد أصبح المرشحون المتنافسون ألاعيب في ايدي الحكام الزمنيين ، وأخذ البابوات يمارسون لعبة السياسة الايطالية ، بينما راح ملوك اوروبا يستغلونهم للسيطرة على الكنيسة .

حاول ملوك القرن السادس عشر توطيد سيطرتهم على الاشراف . كانت سلطة الملك الحقيقية في العصور الوسطى تقوم بالحقيقة على ثروته وعلى القوة العسكرية التي في أمرته . وفي أواخر العصور الوسطى ، توصلت بعض الأسر العريقة في عدة انحاء من أوروبا الى توسيع سلطتها وثروتها الى حد كبير . فقد كانت سلطة عائلة برسي مثلا شمال انجلترا تعادل سلطة الملوك . وعندما كان يحدث مثل ذلك في فترات ضعف الملوك ، كانت تنشب حروب أهلية ، كما جرى في فرنسا واسبانيا وانجلترا (« حروب الوردتين »





جدّه فرديناند عرش الأراغوان وقشتالة سنة ١٥١٦ ، كما ورث مقاطعات الامبراطورية الرومانية المقدسة بحكم انتخابه لهذا المنصب سنة ١٥١٩ .

(٢) ـ هيمن آل هابسبورج وآل فالوا على سياسة القرن السادس عشر . ورث شارل الخامس من آل هابسبورج المطالب المتضاربة على أجزاء من بورجونيا وايطاليا (أ) . وطّد فرنسوا الأول حكم آل فالوا على فرنسا ، وكان يخشى ان يطوقه آل هابسبورج . كان الخلاف يدور على ايطاليا ، الكبيرة الاهمية من حيث ثروتها ، ولكونها محورا حيويا للمواصلات بين ممتلكات آل هابسبورج في اسبانيا وسائر اجزاء الامبراطورية . كانت الطريق عبر الممرات الايطالية البديل الوحيد لطريق القناة التي لم تكن خاضعة لسلطة شارل . وقعت معظم المناطق المتنازع حولها تحت السيطرة الامبراطورية بموجب معاهدة كاتو كامبريزي (١٥٥٩) (ب)

(٣) ـ يظهر هنا مدخول هنري الثامن الناتج عن قراره بحل الاديرة ، مع النسب التي كان يتقاضاها من ايجار وبيع الاراضي . اتخذ هنري تدبير الغاء الأديرة بعد انفصاله عن روما بأربع سنوات ، وادعى انه فعل ذلك لوضع حدّ للفساد ، بينما كان دافعه الحقيقي الرغبة في الحصول على مزيد من الدخل لتمويل الحروب التي شنها بغية تحقيق مطامعه الوراثية في أوروبا .

(٥) ـ تشهد على الدعاية السياسية في المانيا بان « عصر الاصلاح » هذه المحفورة الخشبية التي تمثل شخصا يلوح بعلم الحرية . أدى تطور الطباعة والتمسك المتزايد باللغات القومية ، فضلا عن فترة من الصراع الديني والسياسي ، الى ظهور الصور الكاريكاتورية والنشرات الاعلانية كوسائل للاقناع في اوائل القرن السادس عشر . كان للتمثيل بالصور اعظم الرواج في عصر كانت القراءة فيه محدودة . كان الرهبان يمثلون كذئاب ، وكان أعداء لوثر يمثلون بكاريكاتورات ساخرة ، وكانت طريقة مقارنة الصور لاظهار تباينها بواسطة المحفورات الخشبية شائعة الاستعمال ، ففي احداها يظهر صعود المسيح الى السماء ، بينما يظهر البابا في الأخرى نازلا الى الجحيم .

٦



(٦) ـ اتفق ان عاش نيكولو ماكيافيلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) في فترة ظهور الدولة القومية وبداية فن السياسة العملية . وضع ماكيافلي الخطوط الكبرى لدليل الأمراء في كتابه « الأمير » (١٥٣٢) ، ومقالاته عن كتب المؤرخ الروماني ليفي العشرة الاولى . ادخل كتاب « الامير » الرعب في أوروبا المسيحية وأكسب مؤلفه صيت السياسي المحتال والمخاتل . لكنه أصبح شخصية بارزة في « عصر النهضة » .

١٤٥٥ ـ ١٤٨٥) . الا أن فوضى الحرب كانت تهدد الطبقات المحظوظة عامة ، لذا كانت تتطلع نحو ملك قوي ليعيد توطيد الأمن ، وهكذا أعاد الملوك بناء الحكم الملكي الفعال القائم على الموارد المالية ، والاتباع الأقوياء ، ومركزية الادارة ، وتقلص سلطة الأشراف المستقلين .

في انجلترا ، حاول هنري السابع اللانكاستري (١٤٥٧ ـ ١٥٠٩) ، الذي ظفر بتاجه بحد السيف ، ان يوطد سلطته الشخصية في الحكم ، فاستولى على اراضي الامراء المغلوبين وحقق استقرارا ماليا . كان يدير شؤون المملكة من مقره الخاص ، واستطاع ان يروض لنظامه طبقة من الاشراف كانت قد أنهكتها الحروب وأن يخفف من اعداد قواتها العسكرية ، وبزواجه من أميرة من أسرة يورك حدّ من امكانيات المنافسة على العرش . وبالاختصار أعاد هنري بناء



(٧) ـ « حقل القماش الذهبي » لوحة تحيي ذكرى اللقاء التاريخي بين هنري الثامن ملك انجلترا وبين فرنسوا الاول ملك فرنسا في يونيو ١٥٢٠ لتوقيع سلام طال انتظاره . اتّصف هذا اللقاء بابتهاج عظيم واستعدادات معقدة . فقد بنى هنري قصرا مؤقتا لهذا الغرض ، وكانت جميع الخيام مطرّزة بالذهب والمخمل ، وكانت المقابلات الملكية مناسبات للمبارزة وسواها من المباريات الفروسية والمآدب الرسمية والألعاب النارية . ولما راح كل من الملكين يحاول بذّ قرينه في الفخفخة والأبهة ، تحولت تلك المناسبة الى امتحان الواحد لقوة الآخر . لم ينجم عنها أي تحالف ، بل اندلعت الحرب علنا بعدها سنة ١٥٢٢ .



(٨) ـ كانت لشبونة ، السوق المركزي لتوابل آسيا ، قلب الامبراطورية البرتغالية التي امتدت شرقا حتى المحيط الهندي وجزر مولوقا ، وغربا حتى البرازيل . ارتفع عدد سكان هذه المدينة الدولية من حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة عام ١٥٠٠ الى أكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة بنهاية القرن السادس عشر . كانت التطورات المشابهة التي تناولت امستردام ومدريد وانتورب ولندن وباريس جوهرية بالنسبة الى ظهور الدول الحديثة . فقد أصبحت العواصم ، التي كانت مراكز للتجارة ، قاعدة للحكومة ولحياة البلاط أيضا .

ملكية شخصية قوية على مساحة من الاراضي لم يعهد مثيل لها منذ عهد ادوارد الاول (١٢٣٩ ـ ١٣٠٧) . واصل ابنه هنري السابع (ملك ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) انماء سلطة التاج ، وضم بلاد ويلز الى المملكة ، ووضع ثروة الكنيسة وسلطتها تحت تصرفه .

فرنسوا الأول وشارل الخامس

اعتلى فرنسوا الأول (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) عرش فرنسا ، وهو يواجه وضعا عسيرا . كانت فرنسا قد مزقتها الحرب ، وكان الأشراف ، كعائلة البوربون مثلا ، أقوياء ، كما كانت المملكة واسعة الأطراف ومقسمة . استغل فرنسوا حق الملك في فرض الضرائب المباشرة ، ووحد أموال الخزينة .

في اسبانيا ، بزغ أمل ضعيف باستتباب شيء من الوحدة والمركزية عندما ورث شارل الخامس الهابسبورجي (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨) مملكتي أراجون وقشتالة سنة ١٥١٦ (١) . قمع شارل ثورة « العامة » وأوفد الرسل الملكيين الى مختلف المناطق لفرض ارادته فيها . الا ان الأشراف ظلوا على قوتهم وتمسكهم بامتيازاتهم ، وبقيت المملكتان منفصلتين . لكن ما صرف شارل عن توطيد اسس اسبانيا هو واجباته الامبراطورية ، اذ انه كان ايضا « امبراطورا رومانيا مقدسا » . ولكي يحصل على المال القشتالي ، اضطر الى الاعتراف بامتيازات الاشراف . واصل فيليب الثاني (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨) اعتماده على السبائك القشتالية لشن حملاته وأهمل أراجون التي كانت تقدم القليل من المال للتاج . لم تتمتع ممالك اسبانيا بالمركزية قط ، وفي حدود ١٦٠٠ ثارت أراجون وكاتالونيا على التاج .

عندما اصبح شارل الخامس امبراطورا سنة ١٥١٩ ، حاول توحيد سلطته على اراضيه عن طريق مؤسسات امبراطورية وزيارات متواصلة ، الا ان المهمة كانت مستحيلة . فلم يكن للامبراطورية شيء من الوحدة ، وكانت المدن الكبرى مثل نورمبرج فخورة باستقلالها ، وكان الأمراء يحاولون اثبات وجودهم ، فيما راحت الاسر القوية ، كأسرة فيتالباخ ، تسعى للحيلولة دون تعاظم قوة آل هابسبورج ، كما ان حركة « الاصلاح » (٥) كانت قد شطرت الامبراطورية .

أدت محاولات شارل الخامس وفرنسوا الأول ملك فرنسا لتعزيز سيطرتهما على مملكتيهما الى نشوب حرب بينهما دارت حول مطالبهما المتضاربة في ايطاليا (٢) ودامت أربعين سنة . وعوضا عن أن تزداد ايطاليا اتحادا ، تجزأت كليا بسبب الحرب .

الحاجة الى ملكية قوية

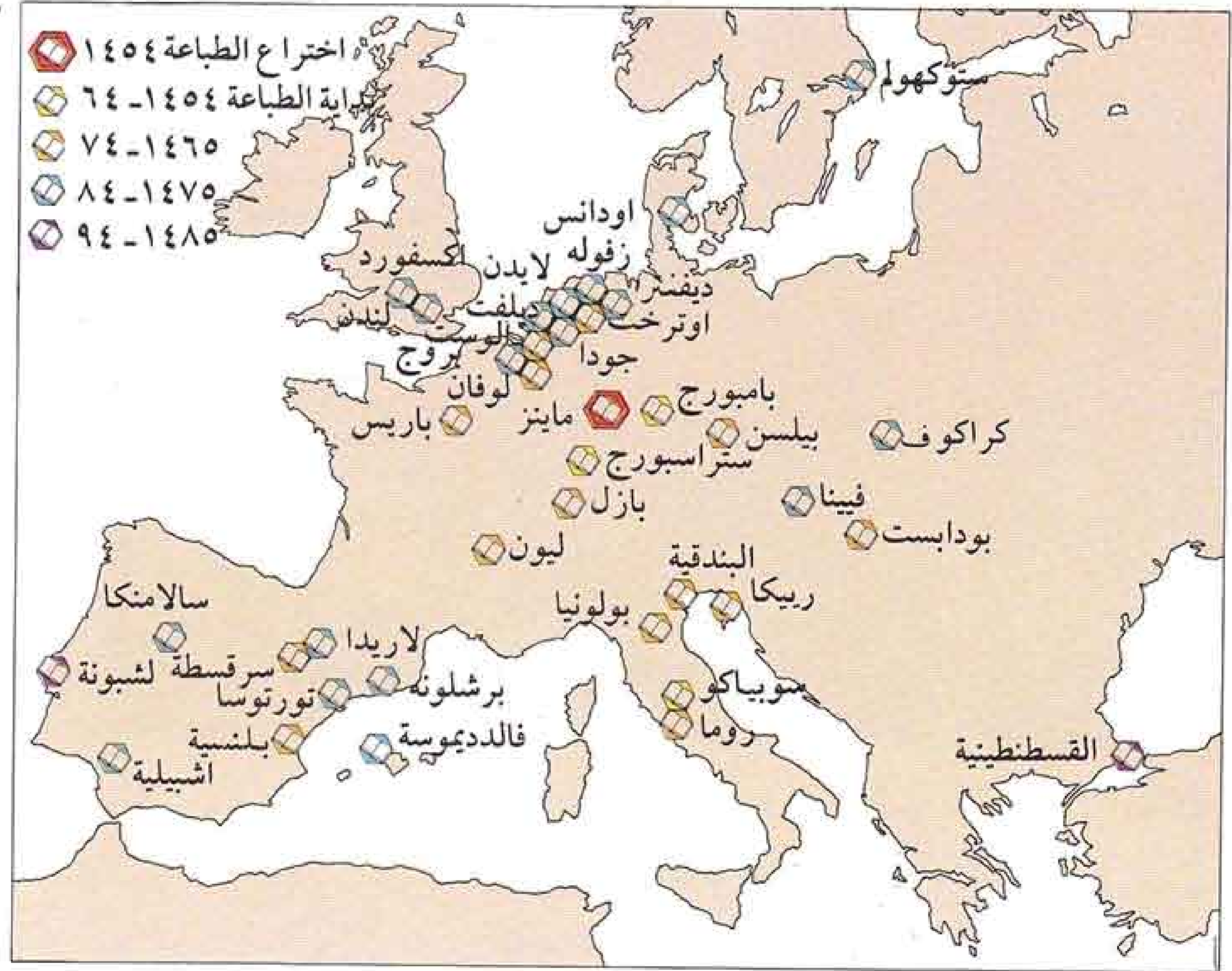
مع أن ممالك قوية ظهرت ابان القرن السادس عشر في أوروبا ، فقد كانت تقف في وجه انتشار سيطرتها صعوبات جمة . فكان على الملوك ، ولم يكن لديهم ادارة مدنية محترفة ، ان يعتمدوا على الأشراف . وكان الناس يفكرون مثلا بكاتالونيا أو بروفانس قبل ان يفكروا باسبانيا او فرنسا . وكان الولاء للأسرة الخاصة او المحلة أو السيد المحلي أشد من الولاء للملك نفسه . في أواخر القرن السادس عشر ، كانت الانقسامات الدينية تهدد الملكية في انجلترا وتشجع على العودة الى الانفصالية في فرنسا . الا أن الفوضى الناجمة عن الحرب نبهت الأشراف العاديين ثانية الى الحاجة الى ملك قوي .

عصر النهضة : الاتجاه الانساني

من المستحيل تحديد تواريخ دقيقة « للنهضة » . فقد طرحت جانبا الآن تلك الصورة التقليدية لانبعاث الفكر والعلم الخلّاقين فجأة بعد سنوات العصور الوسطى المظلمة . فالعلم الجديد لم يكن مبتكرا كليا ، كما لم يكن الفكر الخلاق نادرا في العصور الوسطى . الا أن هذا لا يقلل من أهمية « النهضة » التي أدت ، بين القرنين الرابع عشر وأواخر السادس عشر ، الى نمو الروح الدنيوية ، وتجديد العناية بالحضارة الكلاسيكية ، واحترام متزايد للأدب .

الانبعاث الكلاسيكي

عزّز العناية بالمؤلفات الكلاسيكية

١


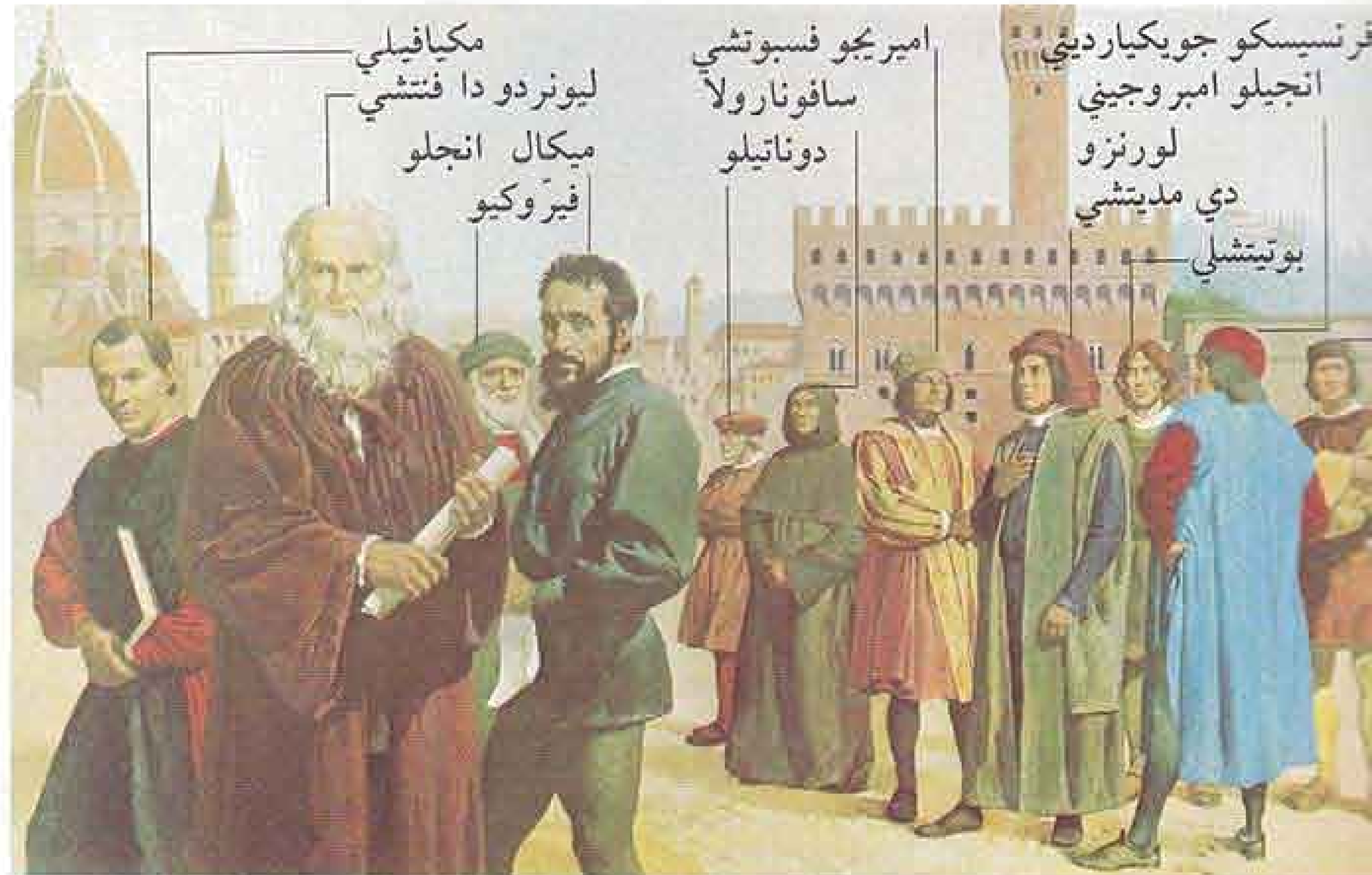
٢


٣


(١) ـ كان تأثير الدراسات الانسانية التي ظهرت في قرون النهضة قد يظل محدودا، لولا اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر . تبين الخارطة المدن الأوروبية التي كانت تملك مطابع ذات أهمية بين ١٤٥٤ و ١٤٩٤ . بحلول ١٥٠٠ ، كان في ايطاليا ٧٣ مطبعة ، وفي المانيا ٥٠ ، وفرنسا ٤٥ ، بينما لم يكن في انجلترا الا اربع . لكن بالرغم من انتشار المطبعة ، لم تنتشر القراءة والكتابة في الأوساط العلمانية الا بعد شيوع التربية خلال « عصر الاصلاح » .

(٢) ـ تمثل هذه المحفورة الخشبية محاضرة يلقيها كريستوفورو لاندينو . كان لاندينو من أشهر شراح الأدب الكلاسيكي واستاذا في فلورنسا . كان مؤلفه الرئيسي دراسة عن فرجيل ودانتي ، وقد كان لاندينو شديد العناية بالسياسة ، وكان أحد أفراد حلقة لورنزو مديتشي ، ويؤمن بحرية المواطن . في أحد كتبه (١٤٧٥) ، يناقش مسألة من مسائل الفكر الفلسفي الرئيسية : المحاسن النسبية للحياة العملية ، بالقياس الى الحياة التأملية .

فرنشيسكو بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) الذي كان يشتغل على نصوص كلاسيكية وينظم الشعر بالايطالية واللاتينية الكلاسيكية . وأصبحت المدن الايطالية المزدهرة مراكز للدراسة الكلاسيكية التي كانت تتمّ خارج الجامعات وتحت رعاية الارستقراطيين المهتمين بالحضارة السابقة للعالم المسيحي . وبفضل اقامة عالم بيزنطي ، هو مانويل كريسولوراس (١٣٥٠ ؟ ـ ١٤١٥) في فلورنسا ، اشتهرت هذه المدينة بالدراسات اليونانية . فأسس فيها مارسيليو فيتشينو (١٤٣٣ ـ ١٤٩٩) أكاديمية لدراسة فلسفة أفلاطون . نجم الاقبال الشديد على النصوص الكلاسيكية الى حدّ ما عن العناية بالترجمات العربية للقدماء في العصور الوسطى . الا أن التبحّر في النصوص من قبل العلماء أمثال لورنزو فالا (١٤٠٧ ـ ١٤٥٧) ، الذي استخدم التحقيق الفيلولوجي لاكتشاف النصوص الكلاسيكية الصرفة ، كان



٤

فلورنزو مديتشي مثلا كان يجمع بين النشاط الدبلوماسي ورعاية الفنون والشعر، وكان فرنشيسكو جويكياردينى (١٤٨٣ـ١٥٤٠) سياسيا ومؤرخا، فيما كان مايكل أنجلو شاعرا ورساما ونحاتا ومعماريا .



٥

(٣) ـ كان غليوم بودي رائد الدراسات اليونانية في فرنسا ، وهو الذي أدخل اليها علمي اللغة والاشتقاق الجديدين . أبانت دراسته النقدية « لخلاصة » يوستنيانوس ، وهو موجز للفقه الروماني المدني ، كيف دخل التحريف على النص خلال القرون . دلّل بودي للانسانيين الفرنسيين كيف يؤثر الزمان والتغير على اللغة والقانون ، بل على سائر المؤسسات .

(٤) ـ غالبا ما كان الأشخاص اللامعون في عصر النهضة بفلورنسا الظاهرون في الصورة يعملون في عدّة حقول ثقافية وسياسية في آن واحد .

(٥) ـ وضع سير توماس مور مخططا للجمهورية المثلى (يوتوبيا) سنة ١٥١٦ . يصف في هذا المخطط الملكية الجماعية للأرض وتعليم الرجال والنساء بالتساوي والتسامح الديني . كعالم انساني ، كان مور يؤمن بأن الناس جميعهم قادرون بجهدهم الخاص على تحسين نوعية حياتهم . بصورة خاصة ، كان الانسانيون يعتقدون ان تحصيل العلم من شأنه ان يعلم الناس كيف يحكمون الجمهورية.



٦

(٦) ـ كانت الحياة الفكرية في عصر النهضة تتصف بالرغبة في محاكاة رجال الفكر في اليونان الذين أحاطوا بجميع المعارف الفلسفية والبلاغية . كانت الاكاديميات الفلورنسية تبنى غالبا على غرار اكاديميتي افلاطون وارسطو، الذين يظهران هنا يتجادلان بحماس ، في رسم نافر لجيوتو (١٢٦٦ ـ ١٣٣٧) .

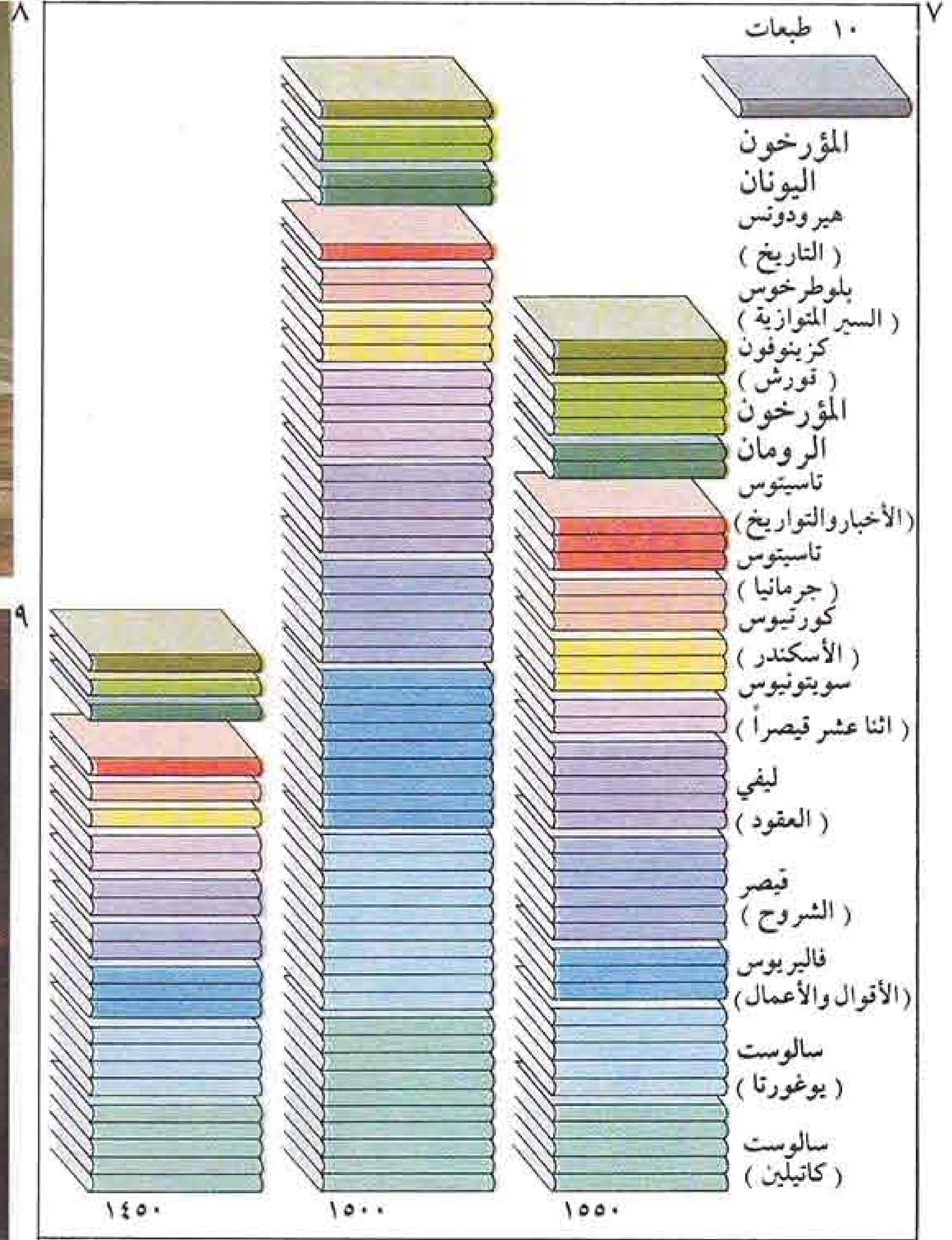
مبتكراً كلياً .

في ايطاليا جاءت الرعاية العلمانية لحركة النهضة شاهداً على ان المعرفة الجديدة كانت دنيوية بالدرجة الأولى . فقد فتن رعاة المعرفة والمثقفون بمآتي الانسان ، وأخذوا يميلون الى الاعتقاد أن له بحد ذاته قدرة حقيقية على التحكم بمصيره ، كما اصبحوا ينظرون بشغف واعجاب الى ذلك الزمان الماضي الذي بلغ فيه الانجاز الانساني ذروته ، أي الى ماضي روما الكلاسيكية .

أطلق على الحركة الجديدة اسم « الانسانية » ليوناردو بروني (١٣٧٠ - ١٤٤٤) ، وهو مؤلف « تاريخ الشعب الفلورنسي » الذي استوحاه من نماذج كلاسيكية .

انتشرت هذه الحركة بسرعة ، لأن ايطاليا كانت مركز تجارة البحر المتوسط ، وأخذ المحاربون في المعارك الايطالية الكتب

٧



(٧) - كانت طبعات النصوص الكلاسيكية تظهر بأعداد كبيرة على أثر انبعاث العناية بالروائع الكلاسيكية واختراع فن الطباعة . يبين الرسم عرضا لانتاج الكتب الكلاسيكية بين ١٤٥٠ و ١٦٠٠ . بدأ نشر النصوص في ايطاليا ، ثم انتقل الى فرنسا والمانيا وانجلترا . بعد اهتمام القرن السادس عشر بليفي وقيصر ، انصب اهتمام القرن السابع عشر على فلوروس وتاسيتوس . ربما وزع ما يربو على مليوني نسخة من النصوص الكلاسيكية في هذه الفترة .

٨



(٨) - أصبحت المكتبة الضخمة خاصة « لورنزو العظيم » (١٤٤٩ - ١٤٩٢) ، حفيد كوزيمو مديتشي (الذي بنى المكتبة المرقسية في كنيسة سان ماركو بفلورنسا) ، مكتبة عامة سنة ١٥٧١ .

٩



(٩) - كان أيراسموس الروتردامي يمثل ، أكثر من أي عالم آخر ، الانسانيات في اوروبا الشمالية . كان يجمع بين الاهتمام الايطالي بالروائع الكلاسيكية وتحقيق النصوص ، وبين الحركات الدينية . عمل على اخراج نص يوناني خالص « للعهد الجديد » ، على أمل وضع حد للخلافات الدينية .

معهم الى بلاط فرنسوا الأول (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧)، الذي شجع الدراسة الجديدة .

نمو الطباعة

كانت المطبعة عاملا آخر لدفع انتشار العلم الايطالي شمالا بسرعة . فقد كانت البندقية قد أصبحت مركزا رئيسيا لطبع الروائع وكتب آباء الكنيسة اليونانية واللاتينية ، كما أخرج أصحاب المطابع ، بالتعاون مع علماء المانيا وهولندا ، طبعات جديدة للروائع (٧) ولمؤلفات الأدباء الايطاليين .

مع ذلك ، حدّ من تأثير النزعة الانسانية الايطالية في هولندا والمانيا ظهور الحركات الدينية الجديدة ، مثل « التقوى الجديدة » . لكن تدريجيا دخلت أفكار جديدة الى بنية الفلسفة المدرسية المتوسطة وفلسفة القديس توما الأكويني . كانت اهتمامات الانسانيين الشماليين أقل علمانية من زملائهم الايطاليين ، مع أن عنايتهم بالثقافة السابقة للمسيحية ودعوتهم الى ديانة ذات طابع شخصي قوي هو ما أدّى الى اصطدامهم بالكنيسة . تتمثل فلسفتهم على أفضل وجه في انتاج دزيدريوس أيراسموس (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) ، من أهل روتردام (٩) . طبق أيراسموس الطريقة العلمية الجديدة لتحقيق النصوص في اخراج نصّ يوناني خالص للكتاب المقدس .

كان أيراسموس يشارك الايطاليين في بعض معتقداتهم الخاصة باكتفاء الانسان الذاتي ، لكن ورعه الصوفي لطّف كثيرا من نزعته الانسانية .

في انجلترا ، كان همفري ، دوق جلوستر (١٣٩١ ـ ١٤٤٧) ، سفيرا للحركة الجديدة . وبعد ١٤٩٠ ، جعلت محاضرات وليم جروسين (١٤٤٦ ؟ ـ ١٥١٩) اكسفورد مركزا للدراسات اليونانية ، وأقام توماس وولزي (١٤٧٥ ؟ ـ ١٥٣٠) كلية في أكسفورد (هي « كنيسة المسيح » اليوم) للانصراف الى الاهتمام بالحركة الانسانية الجديدة .

الى حدّ كبير ، كان يتعهد الحركة الجديدة العلمانيون وأمراء أوروبا الذين كانت سلطتهم تتعاظم ، وكانت قصورهم الفخمة تشهد على أبهتهم ونفوذهم . لذلك لم يكن مستغربا أن يكون عدد من المسائل التي أعتنى بها رجال الفكر مسائل تتعلق بالدولة المثلى والحاكم النموذجي وأفضل القوانين .

السياسة والنزعة الانسانية

كان الانسانيون يعتقدون أن بوسع البشر تحسين أوضاعهم بنفسهم ، فحثوا على التفكير في الشؤون السياسية ، وهي الشؤون التي تناولتها مؤلفات أيراسموس ، وبصورة أجلى مؤلفات توماس مور (١٤٧٨ ؟ ـ ١٥٣٥) وكلود دي سايسيل الفرنسي ونيقولو ماكيافيلّي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) . كان المثقفون الذين ينظرون الى الماضي الكلاسيكي باهتمام ويستعملون المهارات النقدية الجديدة لتقييم البيّنات يتطلعون الى المعرفة الجديدة لبناء المستقبل . وكما اقتبسوا عن نماذج الروائع الكلاسيكية مثالا للأدب الجديد الحي ، كذلك كانوا يأملون ان يعثروا في ثنايا الماضي على مخطط لمجتمع أفضل . كان روح التفاؤل هذا ، أي الاعتقاد بطاقات الانجاز عند الانسان ، هو ما أعطى « عصر النهضة » حيويته الفريدة .

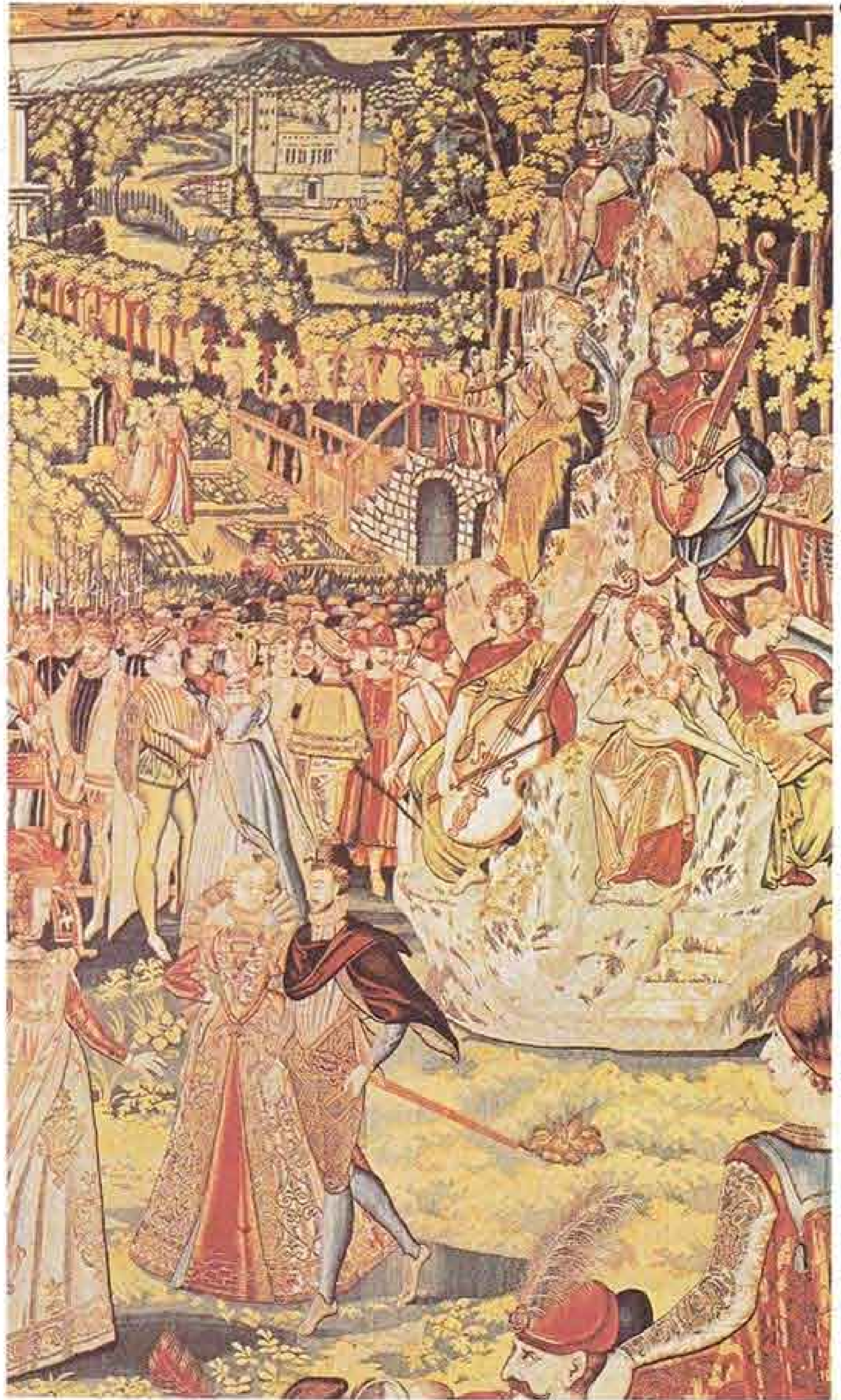
الموسيقى في عصر النهضة

كانت النهضة الموسيقية في أوروبا من عمل مؤلفين فلاندريين الى حد كبير، تعاقبوا في حوالى ستة أجيال بين ١٤٠٠ و ١٥٧٠، ودفعوا بالتطور الموسيقي قدما في فرنسا وايطاليا والمانيا واسبانيا وانجلترا.

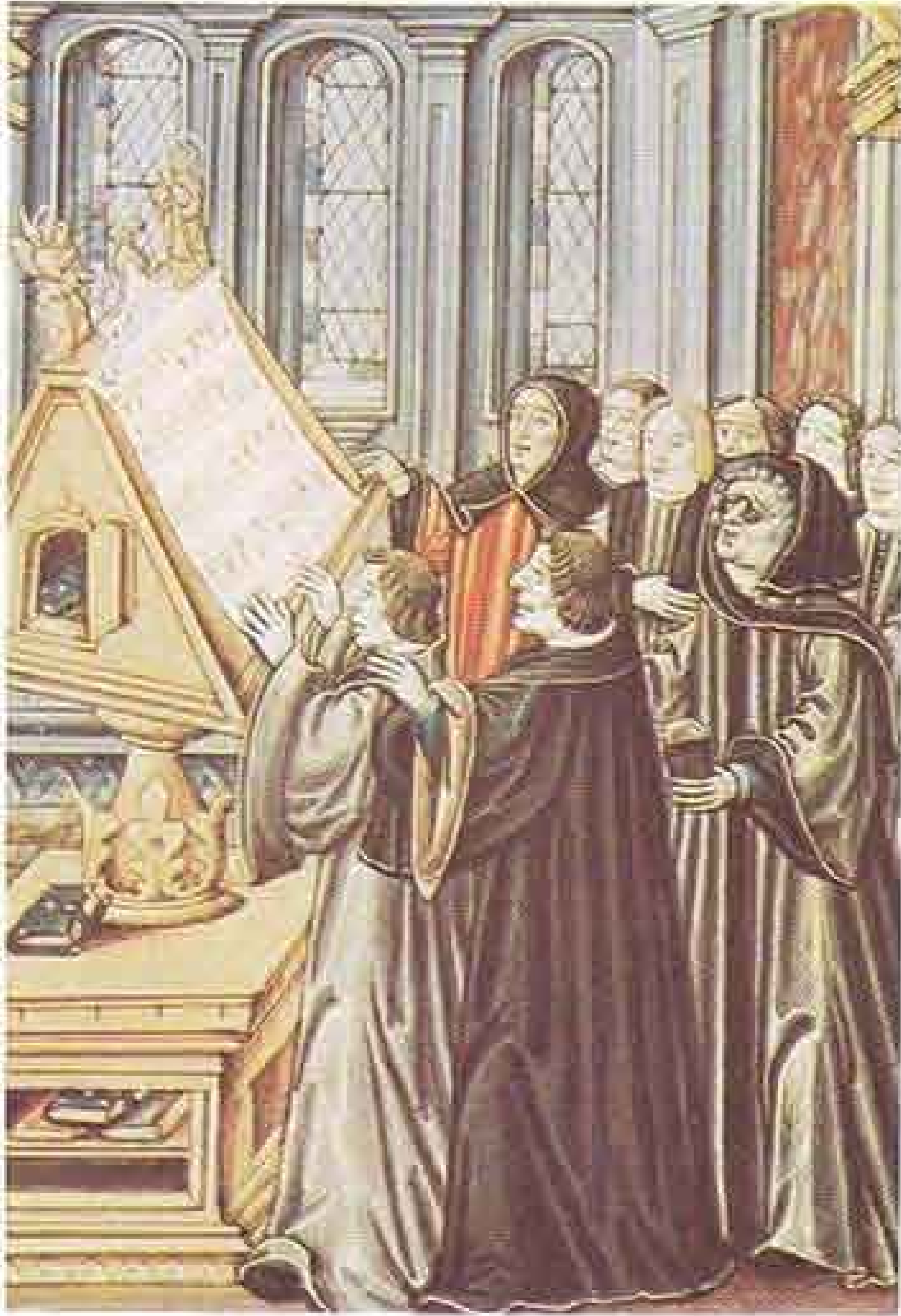
انبثاق الموسيقى الفلاندرية وانتشارها

من المدهش أن تنجب بلاد صغيرة الى هذا الحد كالفلاندر مثل هذا العدد الضخم من المواهب. ولكن، في الحقبة التي كان جيرانها الكبار يخوضون فيها غمار حروب طويلة ومدمرة، أو يعانون أهوال الطاعون، كانت الفلاندر، وهي جزء من دوقية بورجوندي، تتمتع بحضارة عالية المستوى ومزدهرة بفضل طبقة وسطى حرّة نسبيا

١



٢



٣

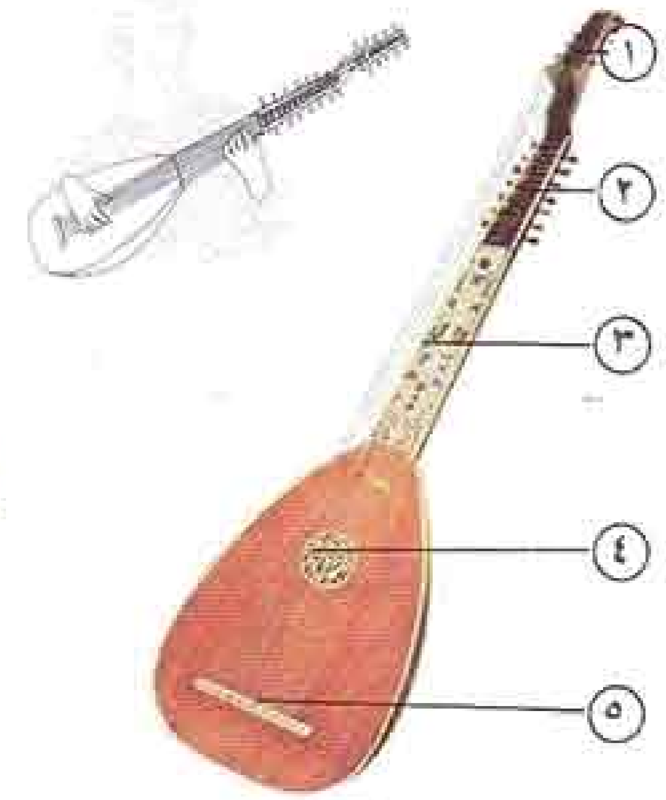


(١) - كانت بلاطات الملوك والنبلاء تستخدم الموسيقيين بصورة منتظمة، وكانت واجبات هؤلاء تشمل الاشتراك في حفلات الترفيه التي كانت تقام على شرف الزوار البارزين. كانت حفلات الباليه أو الحفلات المقنعة، التي كانت تقوم عليها مظاهر الترفيه في الغالب، ايطالية الاصل، وكانت تشتمل على الغناء والرقص والتمثيل الايحائي والاخراج المسرحي المعقد، وتدور في الغالب على موضوع رمزي. من هذه الحفلات «باليه البولونيين» التي تظهر على هذه السجادة الجدرانية المزركشة. أقيمت هذه الباليه في البلاط الفرنسي سنة ١٥٧٣ على شرف السفراء البولونيين، وألف موسيقاها اورلندو دي لاسّو. تبدو مجموعة من الموسيقيين هنا، وقد

ومولعة بالفنون وحريصة على رعاية فنّانيها . كذلك كان للتربية الموسيقية في مدارس الكاتدرائيات في الفلاندر وشمالي فرنسا الفضل الكبير في تفتيق هذه المواهب ، اذ كان التأليف الموسيقي يدرس فيها جنبا الى جنب مع الترتيل ، وكان لكل عضو في الجوقة ، والحالة هذه ، فرصة بلوغ درجة المؤلف الموسيقي التّام .

لهذا السبب كان الطلب على المرتّلين الفلاندريين عظيما في شتى أنحاء أوروبا . تلقي سيرة اورلندو دي لاسّو (١٥٣٢ ؟ ـ ١٥٩٤) (٧) ، ضوءا جليا أمامنا على الفرص المتاحة حينذاك لمرتلي الجوقة . كان صوت اورلندو الصبي رخيما جدا ، فأدخله نائب الملك الصقلي في خدمته ، فسافر معه الى ميلانو وصقلية . بعد أن أصبح مؤلفا موسيقيا ، خلع عليه الامبراطور مكسيمليان سنة ١٥٧٠ لقب شريف ، وعينه البابا « فارسا للمهماز

٤



٥



٦



جلسوا على خشبة المسرح ، وهم يعزفون على قيثارة قديمة (اعلى الصورة) وبوق وعود وكمان كبير . كان الكمان الذي نعرفه اليوم يستعمل أيضا .

(٢) ـ كان جان دوكجهيم (١٤٣٠ ؟ ـ ١٤٩٥) من أهم المؤلفين الموسيقيين الفلاندريين . كان نشيده المؤلف من ٣٦ جزءا يعتبر من عجائب الدنيا . كان مديرا لمعبد الملك في باريس في عهد شارل السابع (١٤٠٣ ـ ١٤٦١) ، وهو يقود جوقته هنا .

(٣) ـ كانت « الراكيت » آلة موسيقية من القصب المزدوج سبقت « الباسون » . جاءت نتيجة لمحاولة ترمي الى حصر طول الأنبوب المطلوب لآلة من نوع « الباسون » في أصغر مساحة ممكنة . لكنها كانت تخرج صوتا مكتوما .

(٤) ـ كان الونّ عودا من نوع الرخيم . يظهر هنا في وضع العزف ، جانبيا ومواجهة . كانت تثبت خمسة أزواج من الأوتار الرخيمة في علبة الأوتاد الاضافية (١) وسبعة في العلبة الرئيسية (٢) . كانت ثمة دساتين (٣) مرتبة بالتدريج على لوحة الاصابع ، ثم ثقب صوتي مزخرف ، هو « الوردة » (٤) ، وجسر (٥) توثق به الأوتار . لم يكن بوسع العازف أن يعزف بسرعة كبرى على الونّ . لذا كان يصلح لأعمال المرافقة أكثر مما يصلح كآلة منفردة .

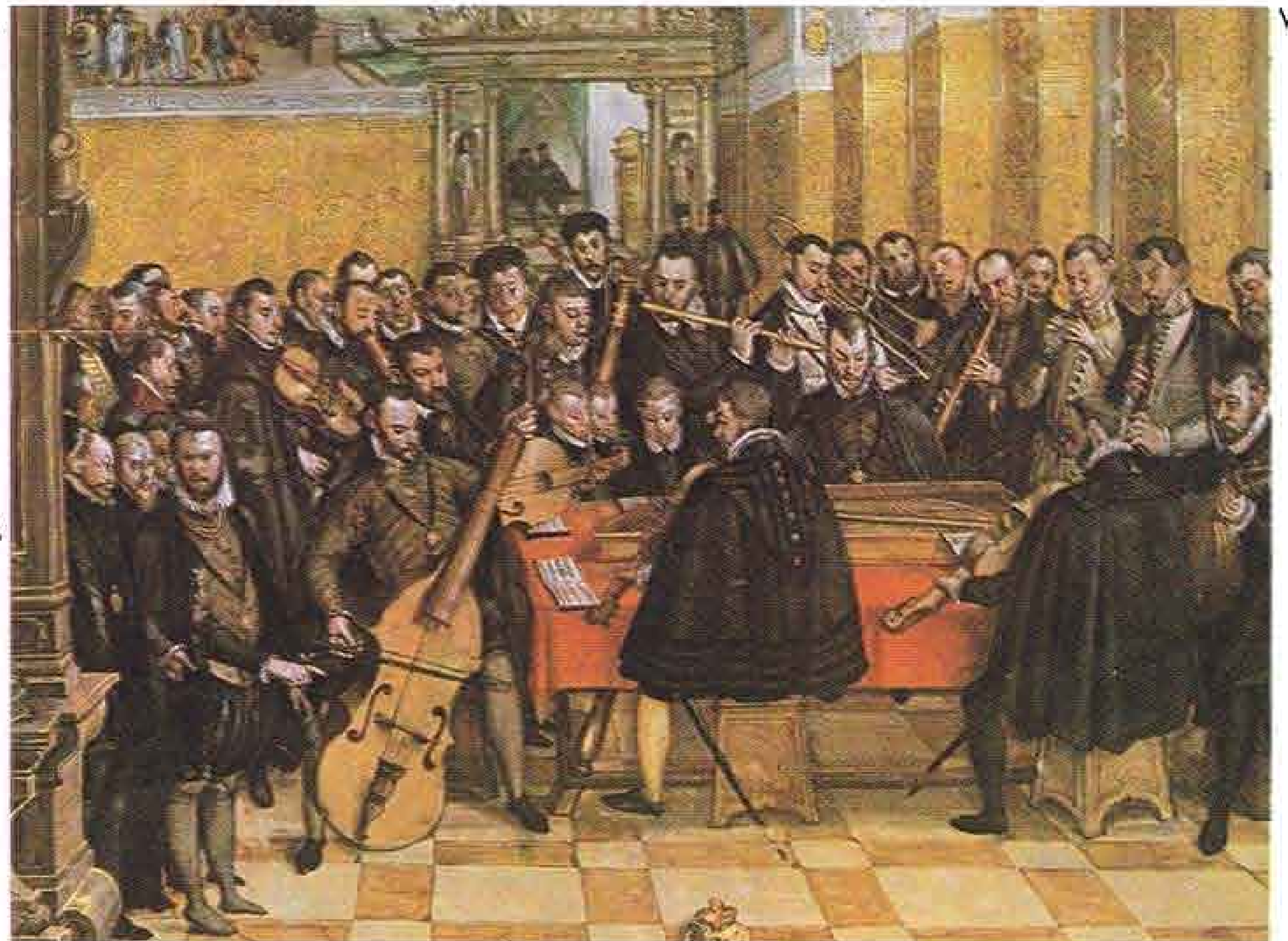
(٥) ـ ظهرت الى الوجود اسرة الكمان الكبير ، التي يمثلها هنا الرخيم (الباس) (أ) ، والصادر (التينور) (ب) والمثلث (التريبل) (ت) . بعد أنواع الربابة في العصور الوسطى . شاعت الكمانات الكبيرة ابان القرن الخامس عشر ، واستمرت في حيز الوجود حتى القرن الثامن عشر ، عندما حلت محلها بصورة عامة اسرة الكمان الذي نعرفه اليوم . كان للكمان الكبير مفاتيح متحركة قائمة فوق دساتين الاصابع ، وبصورة عامة ستة أوتار .

(٦) ـ كان البوق القديم (أ) يصنع من الخشب أو العاج ، وهو مزيج من آلة نفخ خشبية وآلة نحاسية ؛ فهو له ثقوب للاصابع ، لكن له ايضا فوهة مقصورة يمكن جعلها ترن « كالقصب » . كانت ربابة عصر النهضة (ب) وقيثارة دا برتشيو (ت) رائدتي الكمان الحديث . كان لهذه الربابة خمسة أوتار عادة وكذلك كان لهذه القيثارة التي كان لها ايضا وتران مستقلان على هامش لوحة الأصابع يمكن شدهما أو نقرهما حسب المقتضى .

الذهبي » سنة ١٥٧٤ .

تدلل سيرة أورلاندو بجلاء على جانبين هامين من جوانب موسيقى النهضة : الجانب الأول هو تغير مركز الموسيقار الاجتماعي تغيرا مدهشا : ففي غمرة الاعجاب بكل انواع الفنون الذي نجم عن « حركة النهضة » ، كانت الموهبة الخلاقة غالية الثمن . فلم يعد الموسيقار مجرد صانع أو محترف معروض للاستخدام ، بل أصبح قادرا ، اذا كسبت له موسيقاه العطف والتقدير ، أن يصبو الى ما يشاء بلا أي حدود ؛ الجانب الثاني ، علمنة الموسيقى ، وهو أمر أبعد أثرا من حيث نتائجه : فقد غدا الناس ، مثل لاسّو الذي ترعرع في تقليد منحصر حتى ذلك الوقت في الكاتدرائيات والأديرة ، ممن يتنافس عليهم لرفع شأن المؤسسات الموسيقية الخاصة بالملوك والأمراء فضلا عن البابوات والأساقفة .

٧



٨





٩



(٧) - ولد أورلاندو دي لاسّو (الى اليسار من الأمام) في مونس ، ووفد وهو شاب يافع على صقلية وميلانو ، وكان مدير جوقة كنيسة القديس يوحنا اللاتراني في روما . عاد الى بلاده واستقر في انتوورب سنة ١٥٥٥ . بعد ذلك بقليل التحق ببلاط الدوق البريخت البافاري ، وقضى بقية حياته في بافاريا ، اذ التحق فيما بعد بخلفه الدوق ويلهلم . يظهر هنا وهو يقود أحد الكونسرتات في البلاط البافاري . ساهم في تطور جميع اشكال الموسيقى الصوتية الكنسية والعلمانية في زمانه ، ويعد من مصاف باليسترينا وبيرد من حيث النوعية والتنوع والكمية . بهذا المعنى ، كان دون ريب من أعظم المؤلفين والعازفين الموسيقيين في زمانه .

(٨) - كانت أوتار « الكلافيكورد » لا تنقر كما ينقر الهاربسيكود ، بل تضرب كما يضرب البيانو . يفتح الدستان (١) ، فيدور (٢) ، فيضرب الخابور المعدني (٣) الوتر . بقي الكلافيكورد ، بسبب حجمه الصغير وصوته الدافيء ، لمدّة طويلة الآلة المنزلية المفضلة . لكن لم يلبث الهاربسيكود ثم البيانو أن حلا محله .

(٩) - نشر جون داي (١٥٢٢ - ١٥٨٤) كتاب مزاميره سنة ١٥٦٠ ، الذي كان يحتوي على هذه الصورة للتعليم الموسيقي في المنزل . نشر كتاب المزامير هذا في اعقاب القرار الصادر سنة ١٥٥٩ بأن تكون الموسيقى في الكنيسة البروتستانتية « عبارة عن ترتيلة بسيطة ... يمكن فهمها بسهولة كما لو كانت تتلى دون ترتيل».

من الطبيعي أن تؤثر هذه الرعاية الجديدة في التأليف الموسيقي . كان الترتيل الغريغوري في الغالب القاعدة الأساسية لتأليف الموسيقى من أجل القداس . ولكن اصبح الآن من المألوف استعمال الأنغام العلمانية ، كما فعل مؤلفون أمثال جوسكان دي بري (١٤٥٠ ؟ - ١٥٢١) ، رئيس معابد لورنزو دي مديتشي ولويس الثاني عشر ومكسيميليان الأول ، وأمثال جون تافرنر (١٤٩٥ ؟ - ١٥٤٥) في انجلترا . وهكذا أخذ المؤلفون تدريجيا يستلهمون الاشكال العلمانية ، مما كان في غاية الأهمية لتطور الموسيقى الغربية . في الوقت نفسه ، لجأ المؤلفون الى الشعراء من أجل أغانيهم ، فظهرت القصيدة الغزلية ، كما خطت « الانشودة » (التي كانت تقابل القصيدة الغزلية في فرنسا) خطوات واسعة الى الامام.

الموسيقى الصوتية والآلية

كان الغناء ، حسب قول بلداسّار كستيجليوني في كتابه « دليل رجل الحاشية » ، مسموحا به كاحدى الخصال الارستقراطية اللائقة « بالجنتلمان » الكامل . يردف كستيجليوني ذلك بقوله : « ان جميع الآلات ذوات الدساتين متناغمة أيضا ، ومن السهل أن يعزف عليها عدة أشياء من شأنها أن تملأ النفس بعذوبة الموسيقى » . فليس من الغريب اذن أن نجد على ظهر آلة وترية من تلك الحقبة ، وهي قيثارة خاصة ، صنعها جوفاني داندريا من فيرونا سنة ١٥١١ ، نقشا يونانيا يقول : « الغناء شفاء لآلام الانسان » .

جنبا الى جنب مع هذه التطورات في ميدان الموسيقى الصوتية ، سارت تطورات في ميدان الموسيقى الآلية . كان العود والهاربسيكورد والأرغن والفيولا (٥) ، فضلا عن عدّة انواع من آلات النفخ (٣) ، كثيرة الاستعمال ، وأصبحت ، بحكم التشجيع الارسستقراطي لها ، رائجة الى حدّ كبير . لكن آلات النفخ كانت تعتبر غير لائقة بالجنتلمان ، لأنها كانت ، كما يقول كاستيجليوني : « آلات تزدريها مينرفا » . لكن هذا الموقف ما لبث أن تغير ، فأصبحت جوقات آلات النفخ جزءا رئيسيا من معدات الحفلات الرسمية والمهرجانات في الأوساط الارستقراطية .

النهضة الايطالية والانجليزية

لم تدم هيمنة المهاجرين الفلاندريين على الأمكنة التي حلّوا فيها الا بضع سنوات ، ولكنهم قاموا بدور الحافزين بالنسبة الى الموسيقيين الأهليين . ففي ايطاليا مثلا ، يمكن القول ان الفلاندريين هم الذين وضعوا أسس التقليد الكلاسيكي في روما والتقليد الصوتي والقصيدة الغزلية في البندقية ، وان يكن الايطاليون انفسهم هم الذين دفعوا بهذه الفنون الى نموها الكامل .

لكن في لحظة ساحرة تمّ نوع من التوازن بين شمال أوروبا وجنوبها ، بين تعدد الاصوات - التي كانت تنشد في آن واحد أجزاء موسيقية مختلفة - واللحن ، بين الألفاظ والموسيقى ، بين ما قد جاء قبلا وما سيأتي بعده . كان ذلك العصر الذهبي عبارة عن ذروة « النهضة » ، اذ جاءت الطباعة الموسيقية (٩) تعطيه زخما جديدا ، كما أثرت حركة الاصلاح والاصلاح المضاد تأثيرا كبيرا في تطوره واتجاهاته .

الفن الفلورنسي

تميّزت السنوات الأولى من القرن الخامس عشر في فلورنسا بحروب مخيفة ومكلفة ، ولم ينقذ تلك المدينة منها الا حسن الحظ والفتن السياسية . أدت هذه الظروف الى ارتفاع الضرائب ، والى خراب أو تشرد عدد من الأسر الميسورة ، والى هبوط عظيم في ثروة المدينة . ولكنها في الوقت نفسه بعثت الروح الوطنية ، وأحيت الاحساس بتقاليد المدينة الثقافية وباصلها الروماني المزعوم ، كما أدت الى التنافس بين شتى أنصار الآداب والفنون .

قبة الكاتدرائية

جاء بناء قبة الكاتدرائية الفلورنسية (١) على يد فيليبو برونلسكي (١٣٧٧ ـ ١٤٤٦)

٢



١



٣



(١) ـ شرع ببناء الكاتدرائية في فلورنسا أرنولفو دي كامبيو (١٣٠٠ ؟) . في مطلع القرن الخامس عشر ، كان البنـاء قد بلغ مرحلة المثمّن . قامت السلطات المختصة باستشارة مختلف الجهات في كيفية اشغال مساحة ٤٠ مترا قبل الموافقة سنة ١٤٢٠ على الحل الذي قدمه برونلسكي : قبة تبنى بدون صقالة وتكسى بقرميد مزدوج متداخل وأضلاع حجرية . أنجزت القبة سنة ١٤٣٦ .

يرمز الى وضع المدينة الجديد : فقد بدا كتحقيق حلم مدني مستحيل ، وأنجز بفضل دراسة فن الهندسة المتوسطة والرومانية ، واحتل مركزا مساويا لأعظم انتصارات فن العمارة القديمة .

ليست القبة كلاسيكية في تفاصيلها ، باستثناء عناصرها المضافة مؤخرا ، وهي القنديل والحُجر الاربع النصف دائرية التي تقوم بدور العاضدات للاسطوانة ، ومن الجدير بالملاحظة انه حتى هذه الحجر نفسها لم تكن كلاسيكية الوظيفة ، وان كانت مؤلفة من اعمدة مربوعة ورؤوس وأروقة معمّدة وتداوير وكوى كلها كلاسيكية .

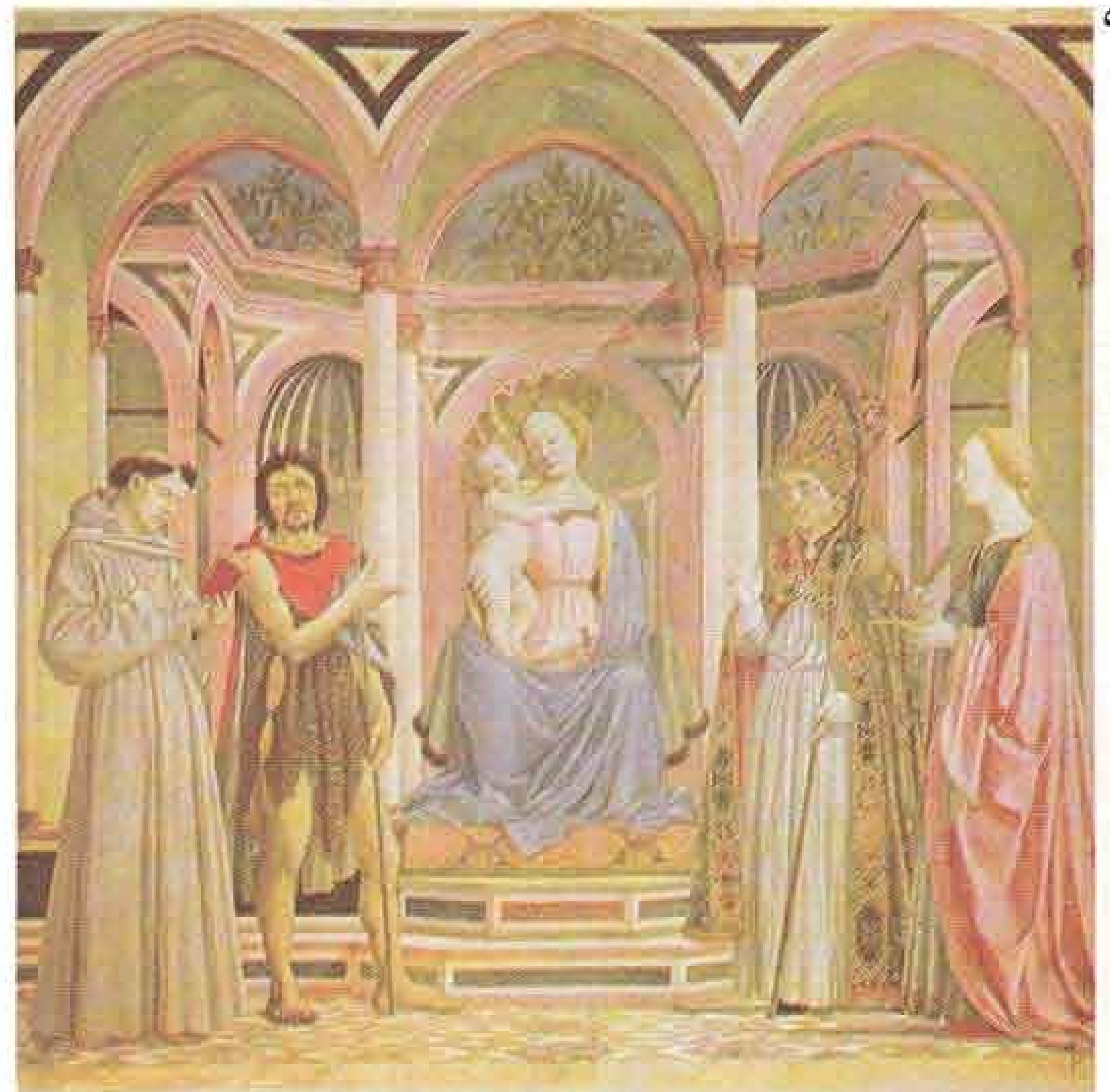
حلّ برونلسكي بكثير من الثقة مشكلة ظلت قائمة في صلب معظم أشكال العمارة اللاحقة ، وهي مشكلة تطبيق المصطلحات الشكلية القديمة على النماذج المعمارية لعصر جديد . ساعده على ذلك طراز العمارة

٤



(٤) - « مال الأتاوة » من رسم ماساكيو (١٤٢٧ ؟) هو المشهد الرئيسي في مجموعة من الرسوم الجدارية في معبد سانتا ماريا ديل كارميني لآل برنكاتشي في فلورنسا تشرح قصة القديس بطرس . بدأ بالمجموعة حوالى ١٤٢٤ فنان أكبر سنا هو ماسولينو . كان اللاهوتيون يحللون الموضوع كدليل على سلطة البابا كنائب للمسيح .

٥



(٢) - كانت « سيدة تاركوينيا » بريشة فيليبو ليبّي (١٤٣٧) أثرا باكرا من رسومه . رسمه بدهان زلالي على لوحة ، بعد فترة من التقليد الشديد لماساكيو ، وعلى اثر رحلة الى ايطاليا الشمالية . تكشف المعالجة غير الرسمية والعائلية للموضوع مع الألوان القاتمة الغنية عن اطلاع الرسام على فن الرسم الفلامندي .

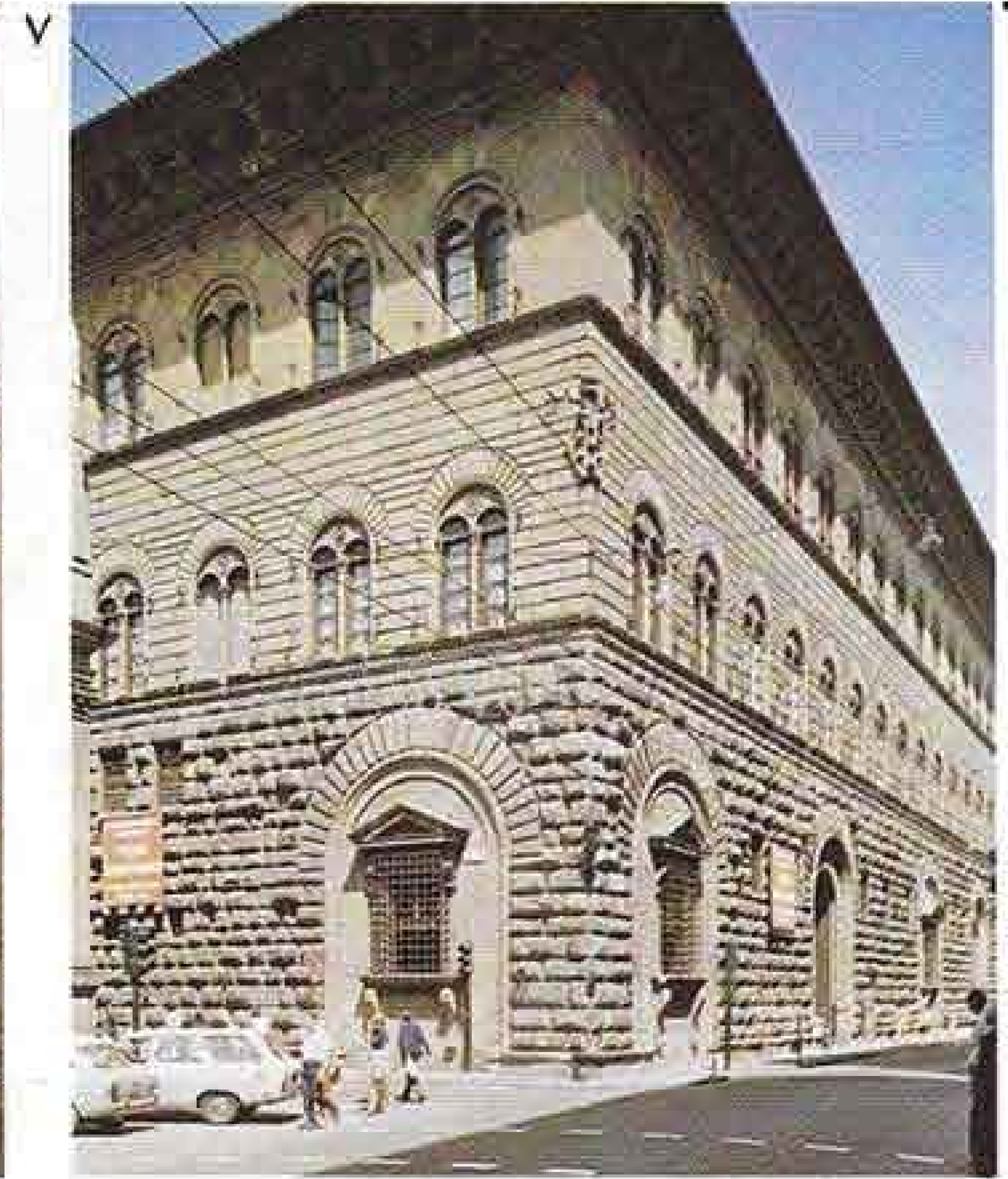
(٣) - « سليمان وملكة سبأ » نقش قليل البروز للورنزو جيبرتي . وهو ينتمي الى مجموعة من عشرة نقوش من البرونز المذهب تدعى « ابواب الفردوس » أوصت عليها نقابة التجار لتزيين كنيسة المعمودية (١٤٢٥ - ١٤٤٧) . كانت تلك ، المجموعة الثانية من النقوش التي نفذها جيبرتي ، وهي مستوحاة من « العهد القديم » .

(٥) - « المادونا القديسة لوتشيا » من رسم دومنيكو فينسيانو (حوالى ١٤٤٥) ، هي صورة فوق المذبح من النوع الذي يدعى « محادثة مقدسة » وهي تتوخى ابراز علاقة وثيقة وغير رسمية ، مكانيا ونفسيا ، بين « السيدة » والقديسين . كثيرا ما كانت اللوحة الفريدة تحل محل البنية المتعددة اللوحات ، الا انه كان يحافظ في الغالب على الترتيب التدرجي الخاص بهذه ، كما يظهر هنا في الصورة ، وذلك بفضل تصميم بارع من البناء المطلي . جاء التركيب المنظوري محذلقا للغاية ، كما اتحد اللون والنور بصورة فائقة .

الفلورنسي الرومانسكي ، وبوجه خاص كنيسة « المعمودية » وكنيسة « الرسل القديسين » في المدينة ، فجاء استعماله الحازم لمواد تقليدية محلية ، كالحجر القاتم المعروف « بالحجر الرصين » وكالآجر وملاط الجبس المقصور ، حتى والقشرة المرمرية الملونة ، دليلا على ان ابنيته كانت من حيث ألوانها أقرب الى الطراز الدارج لا الى الفن القديم . كذلك عمل التقابل القوي السائد بين هذه المواد على جعل ابنيته تتميز بوضوح المعالم .

النحت الفلورنسي

الوضوح في التركيب والتعمق في دراسة القديم هما مما يميز ايضا منحوتات دوناتلّو الناضجة (١٣٨٦ - ١٤٦٦) . فقد كانت كنيسة القديس مارك التي بناها عام ١٤١٢ أول تعبير فعّال عن « الطريقة القديمة » (التي توخّت تقليد القديم) ، أي التعبير عن نبل



٦



٧

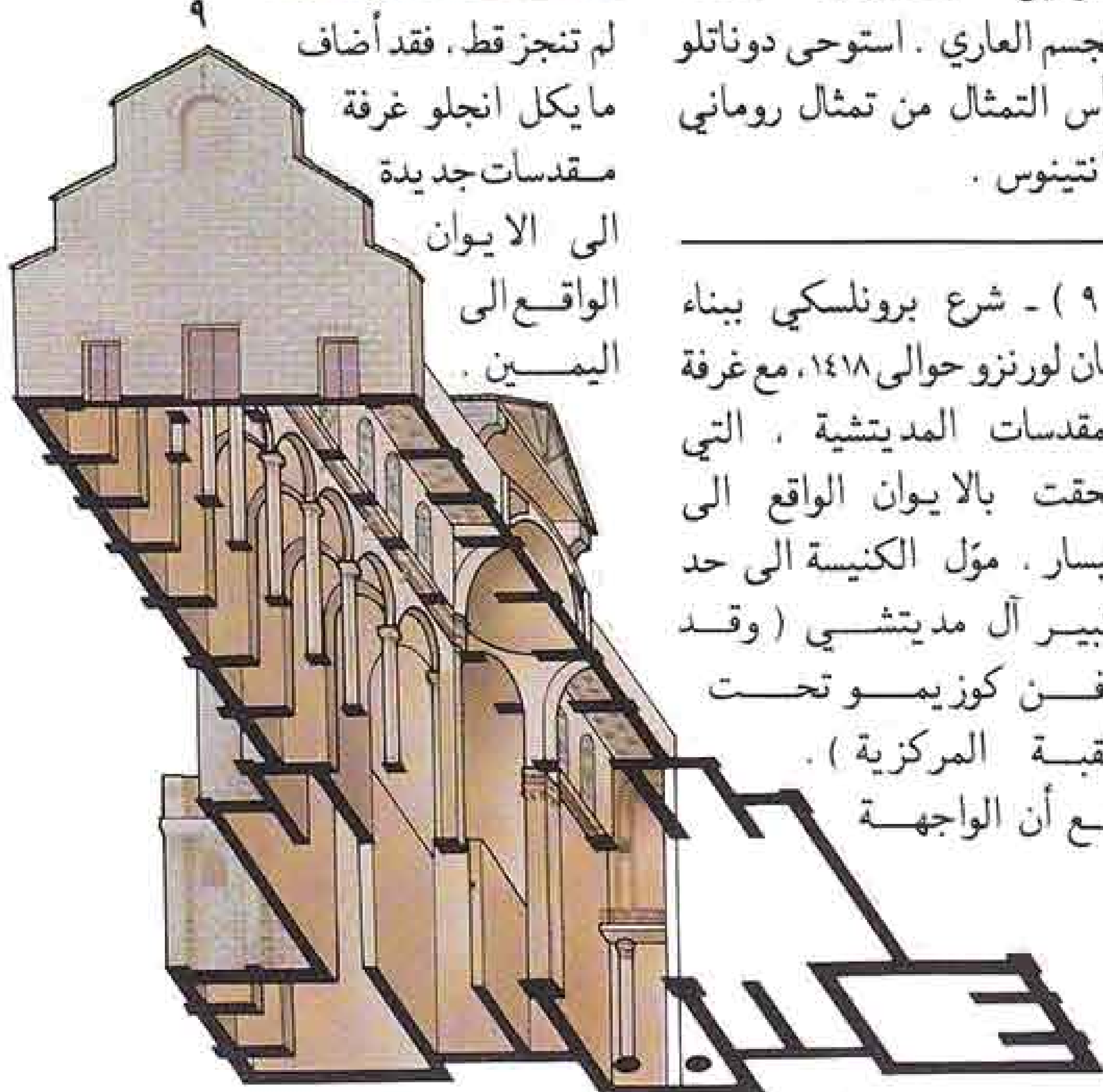


٨

(٦) - بنى قصر مديتشي ريكاردي المعمار مايكلوزّو حوالى ١٤٤٤ - ١٤٦٠ ، بأمر من كوزيمو دي مديتشي الذي كان قد رفض تصميما صنعه له برونلسكي لفرط الأبهة فيه . يتفق تصميم مايكلوزّو سطحيا في ظاهره مع منزل التاجر الفلورنسي التقليدي ، مع ان طنفا كلاسيكيا كثيفا يوشي الأطراف البارزة . يوجد في داخله رواق رائع من نمط « عصر النهضة » .

(٧) - صمّم معبد باتزي بسانتا كروتشي في فلورنسا برونلسكي حوالى ١٤٣٠ ، ليكون ، في آن واحد ، معبدا خاصا لعائلة غنية ومجلس اجتماع كنسي . احتوى التصميم على مستطيل مقبب جانبي مع مذبح مقبب صغير ، وهو تطوير لغرفة المقدسات السابقة التي بناها برونلسكي في سان لورنزو (١٤٢٠ - ١٤٢٨). الا ان الارتفاعات التي أبرزها بصورة مميزة « الحجر الرصين » على جبس أبيض ، قد ائتلفت هنا بصورة منطقية .

(٨) - صنع دوناتلو تمثال داوود (١٤٣٥ ؟) لآل المديتشي . يبدو فيه داوود شهوانيا ووثنيا ، وهو أول محاولة ناجحة لاحياء القوانين الكلاسيكية لنحت الجسم العاري . استوحى دوناتلو رأس التمثال من تمثال روماني لأنتينوس .



٩

(٩) - شرع برونلسكي ببناء سان لورنزو حوالى ١٤١٨ ، مع غرفة المقدسات المديتشية ، التي الحقت بالايوان الواقع الى اليسار . موّل الكنيسة الى حد كبير آل مديتشي (وقد دفن كوزيمو تحت القبة المركزية) . مع أن الواجهة لم تنجز قط ، فقد أضاف مايكل انجلو غرفة مقدسات جديدة الى الايوان الواقع الى اليمين .

الانسان ووقاره ، باسلوب مماثل لاسلوب شيشرون وفي لغة شبيهة بلغة النحت الروماني (٨) . تلا ذلك سلسلة طويلة من تماثيل القديسين والرسل حفلت بها مباني فلورنسا العامة ، وهي تمثل شخصيات فذة يقظة ونشيطة تجسدت في كل منها فضيلة معينة من الفضائل .

لم ترتكز القوة التعبيرية البارزة في انتاج دوناتللي الى المهارة في الصنعة والفخامة في المواد ، بل جاء انتاجه من هذه الناحية يمثل ثورة جمالية ـ أشادت بها مقالة البرتي « في الرسم » (١٤٣٥) ـ كانت تدعو الى احياء المثل القديمة من بساطة وتقشف وفصاحة . الا ان جيبرتي (١٣٧٨ ـ ١٤٥٥) الذي عاصر دوناتللي وكان اقل منه تطرفا ، وجد حلا وسطا أنيقا بين مثل الجمال القوطية والأسلوب الجديد . كان هذا الفنان حرفيا لا يضارع ، ففاز لهذا السبب بالمباراة (١٤٠١ ـ ١٤٠٢) الخاصة بتصميم أول مجموعة من ابواب البرونز المذهبة لكنيسة « المعمودية » تلك الأبواب التي لم يكن تصميمها او تفاصيلها تدين بشيء تقريبا للفن القديم . الا ان مجموعته الثانية ، أي « أبواب الفردوس » ، جاءت بتصميم أشد صفاء وساهمت في عملية الاحياء من عدة نواح . أما استعماله للمنظور الرياضي الظاهر بقوة ، وهو بالحقيقة اعادة اكتشاف لما كان برونلسكي قد اكتشفه من قبل ، فانه يدلنا أين يكمن ولاؤه الحقيقي (٣) .

فن الرسم الفلورنسي

كان أسرع من استغل المنظورية الرسام ماساكيو (١٤٠١ ـ ١٤٢٨) ، أصغر رواد تلك الحركة ، فسمح له ذلك أن يضع الاشياء في علاقات مكانية تبدو معقولة . الا انه لاحظ ان التطبيق المنسجم للقوانين البصرية التي تعبر عنها تلك الطريقة يؤثر ، لا في تحديد التخوم والفجوات المكانية فحسب ، بل أيضا في رسم الاشكال لأحداث منظور الابعاد الثلاثة ، فكانت النتيجة واقعية ، لكن بمعنى جديد ، أي واقعية التركيب ، أو لها الواقعية البنيوية . ولكن طريقة التفكير ذاتها ، في باب المكان والشكل كوحدتين ، قادته ايضا الى اخراج أول نور تصويري حقيقي ، موحد ومنطقي الى حد انه يستتبع الظل كشريك ملازم له (٤) .

لم يغيّر رسام اتجاه فنه في حياة قصيرة ، كما فعل ماساكيو . فقد بسّط المشاكل الشكلية ليجعلها تتفق مع القوانين . استمر بعض أتباعه ، مثل باولو أوتشلو (١٣٩٧ ـ ١٤٧٥) في السير على مسيرته تلك ، الا ان معظمهم طبّق اكتشافاته على التعقيدات لجعلها تنسجم أكثر فأكثر مع التقاليد القوطية والمظاهر الطبيعية ، فجاء فرا أنجليكو (١٣٨٧ ؟ ـ ١٤٥٥) يدين بالفعل كثيرا لأواخر الرسامين القوطيين مثل لورنزو موناكو (توفي ١٤٢٤) . لكن فيليبو ليبّي (١٤٠٦ ؟ ـ ١٤٦٩) (٢) ودومينيكو فينيسيانو (١٤١٠ ؟ ـ ١٤٦١) عدّلا الطراز الجديد لتوجيهه نحو الطبيعية الوصفية ، الأول منهما بالاستجابة الى الفن الفلامندي ، والثاني بدراسة مكثفة للواقع ، ولاسيما الضوء . تمثل « المادونا القديسة لوتشيا » (٥) ، بريشة دومينيكو ، أرقى مرحلة بلغها الرسم الفلورنسي في منتصف القرن الخامس عشر ، وهي مثال على طراز رسوم المذبح السائد آنذاك .

النهضة الفلندرية

في خلال السنوات التي سبقت سنة ١٤٠٠ ، كان المركزان الفنيان الأبرزان في اوروبا الشمالية متباعدين جدا ؛ واحد في باريس والآخر في براغ . لكن بعد الشقة لم يؤثر كثيرا في الأمر ، لسبب بسيط هو ان كلا المدينتين كانتا مركزا لأسلوب واحد من الفن البلاطي كان دارجا في الوقت نفسه في لندن ولومبارديا معا ، وعرف باسمين غير مناسبين وان كانا مفيدين ، هما « الاسلوب القوطي الدولي » و « الاسلوب اللّين » . انبثقت بداية هذا الاسلوب عن حدث ملكي ، هو اتحاد دوقية بورجونيا وبلاد الفلانـدر تحت لواء فيليب « الاصلع » ، فجمع هذا المحور الشمالي الجنوبي (محور بروج ديجون) جميع



١ (١) - « عرس أرنولفيني » (١٤٣٤) من رسم جان فان ايك . جاء في التوقيع ما معناه « جان كان هناك » ، أي انه كان شاهدا على ما يبدو بوضوح انه زواج . يعتقد ان العروسين هما جيوفاني ارنولفيني ، وهو تاجر من لوكا ، وجيوفانا تشينامي . اللوحة حافلة بالرموز المتعلقة بالزواج ؛ فشمعة الزواج تذكر برعاية المسيح ، والمرآة ترمز الى الطهارة ، والكلب الى الامانة .

(٢) - كانت « مادونا المستشار رولان » (١٤٣٥ ؟) لجان فان ايك موجودة في كاتدرائية اوتون ، بلدة نيقولاس رولان ، الذي كان أحد مناصري روجيير فان دير فايدن الرئيسيين .

(٣) - أوصى على منحوتة « رئيس الملائكة روفائيل وطوبيا » التي صنعها فايت شتوس (١٥١٦ - ١٥١٨) ، للكنيسة الكرملية في نورمبرج ، تاجر حرير فلورنسي اختار هذا الموضوع لأن الملاك روفائيل كان يعتبر عند العامة شفيع المسافرين .

الفنانين القادمين من الفلاندر وهولندا والمانيا في مدرسة واحدة عرفت عموما بالمدرسة الفلاندرية .

من النزعة الطبيعية الى الواقعية

في البدء ، كانت ديجون مركز رعاية أمراء بورجونيا للفنون . فقد استدعى فيليب « الاصلع » (١٣٤٢ ـ ١٤٠٤) الى ديجون الرسام ملكيور بروديرلام (توفي ١٤١٠ ؟) من ايبر ، والنحات كلاوس سلوتر (توفي ١٤٠٦ ؟) من هارليم وبروكسل . الاثر الرئيسي الذي بقي لنا من انتاج بروديرلام هو الجزء المرسوم من لوحة كبيرة جدا صنعت لمذبح ديجون ، وهو من النوع الذي كان موجودا بكثرة في سائر انحاء أوروبا الشمالية في القرن الخامس عشر ، من بورجونيا الى بولونيا ، والمتميز بوضوح عن الاساليب الايطالية : فالجزء الرئيسي من هذا الاثر متعدد الألوان ، ومصنوع

٢



٣



٤



في هذه المنحوتة ، يظهر الجمال الطبيعي للمادة ، اذ انها ليست مطلية بالألوان المتعددة المألوفة او بالذهب . وهي من أواخر منحوتات فايت شتوس .

---

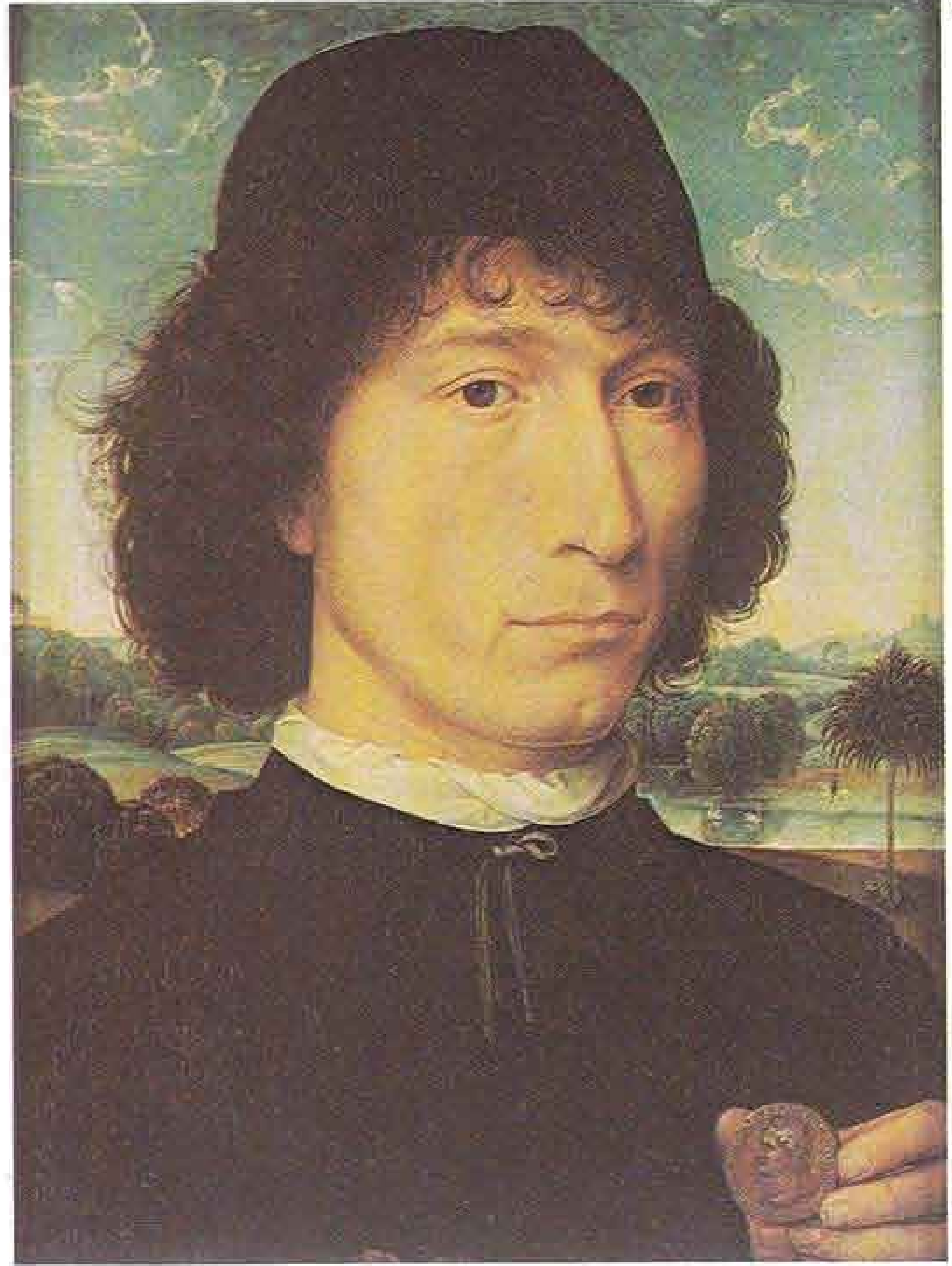
(٤) ـ صورة « المجدلية » (١٤٥١ ؟) لروجيير فان دير فايدن ، هي اللوحة اليمنى للبنية المثلثة اللوحات التي يقع المسيح منها في الوسط ، وقد احيط بالعذراء والقديس يوحنا ، والتي رسمت من أجل جان دي براك . صنعت البنية المثلثة اللوحات بعد عودة روجيير مباشرة من ايطاليا ،

من الخشب المذهب المنحوت ضمن اطار قوطي مزخرف جدا تحيط به أجنحة مع قصص مصورة شتى .

أما أعظم نتاج لسلوتر ، فهو آخر آثاره المعروف « ببئر موسى » (وهو مجموعة من الجلجلة) والموجود في ميتم ديجون . جاء سلوتر باسلوب ضخم وحي ، اصبح فيما بعد من مميزات النحت البورجوني .

حظي الملك فيليب ايضا بألمع رسامي المنمنمات في زمانه ، وهما الأخوان ليمبورج (ولدا في نيمويجن وتدربا في باريس) . لكنهما صنعا أشهر مخطوطة لهما لحساب شقيق فيليب ، جان دي فرانس ، دوق بيري ، وهي مخطوطة « الساعات الغنية جدا » . تعكس القصص في هذا الكتاب الطابع العالمي ولاسيما الايطالي للفن الفرنسي في اواخر القرن الرابع عشر ، الا ان صفحات التقويم تنم عن نزعة طبيعية جديدة .

٥



(٥) ـ اصبح هانز مملينج (١٤٣٣ ؟ ـ ١٤٩٤) ، التلميذ الالماني لروجيير ، بعد سنة ١٤٦٥ ، أنجح رسام في بروج ، حيث اقام له علاقات مع عدد كبير من الزبائن العالميين . كانت عدة رسوم له تمثل الا يطاليين، مثل هذه الصورة، «رسم الا يطالي»(١٤٨٠؟)، وكان لهذه الرسوم تأثير كبير على ايطاليا. ربما كان صاحب هذه الصورة صانع أوسمة ، ومن الأرجح انه من هواة جمع الآثار الفنية .

(٦) ـ تتصل منقوشة « القديس ميخائيل » لمارتن شونجاور (١٤٧٥ ؟) اتصالا وثيقا بفن الحفر الخشبي الالماني المعاصر . كان شونجاور يوقع اعماله بانتظام ، وهو بالفعل اول نقاش شمالي معروف بالاسم . كان نتاجه أحد المجاري الرئيسية للتأثير الشمالي على الرسامين الا يطاليين ، مثل جورجيوني ، كذلك كانت احدى لوحات مايكل انجلو الباكرة جدا ، وهي « تجربة القديس انطونيوس » (١٤٩٠؟)، نسخة مصورة عن تصميم شائك ومدهش شبيه بها من الشمال . نشر شونجاور أكثر من ١٠٠ رسم .

٦



انتقلت الرعاية البورجونية من ثم الى مدينة بروج ، العاصمة التجارية والمصرفية للشمال ، فاستخدم فيليب « الصالح » (اصبح دوقا ابتداء بسنة ١٤١٩) ومستشاره رولان الفنان جان فان ايك (توفي ١٤٤١) (٢) ابتداء بسنة ١٤٢٦ التي توفي خلالها هوبرت شقيق جان . يبدو ان هوبرت هو الذي بدأ برسم البنية الضخمة المتعددة اللوحات « عبادة الحمل » ، الموجودة في كاتدرائية سانت بافون بجانت ، وان جان أكملها سنة ١٤٣٢ ، وكان قد اوصى عليها أحد التجار . كان جان يرسم ايضا لرجال الدين والبورجوازيين ورجال البلاط والزوار الايطاليين . وكان اسلوبه ، وهو أقرب الى الطبيعة من اسلوب ليمبورج أو سلوتر ، أكثر اساليب العصر تفننا وفخامة من الناحية التقنية (١) . لم يكن هو أول من استعمل الزيت ، ولكنه استفاد منه الى اقصى حد لتحقيق القوة والشفافية في اللون ، ولاتقان وصف امتزاج الضوء مع البنية .

اثراء التراث

أدى تبادل الافكار الفنية بين ايطاليا وهولندا في القرن الخامس عشر الى اثراء التراث الفلاندري ، ثم ظهر بعد مؤسسي المدرسة الفلاندرية الثلاثة عدد من الرسامين العاملين في هولندا في النصف الثاني من القرن ، فساهموا بدورهم في اثراء هذا التراث والمحافظة على مكانته الرفيعة . لكن « الانبعاث » الفلاندري أنعش فن الرسم الالماني ايضا الذي نما طيلة النصف الاول من القرن مستقلا بصورة عامة عن « الاسلوب اللين» . جاء التغيير الحاسم هنا من خلال تأثير روجيير العام وبصفة خاصة على مارتن شونجاور (١٤٥٠ ؟ - ١٤٩١) الذي كان أكثر عمله في الراين الاعلى بناحية كولمار . كان شونجاور ، كرسام ، ليس مصدر الالهام الرئيسي « لدورير » وحسب ، بل كان ايضا اول نقاش عظيم (ابتداء من حوالى ١٤٧٠) (٦) ، كما كان له تأثير عالمي من خلال هذا الفن .

طرأ ايضا على فن النحت الالماني ، وقد كان أكثر المدارس الشمالية في اواخر القرن حيوية ، تغيير كبير بفعل التأثير الهولندي ، وتنوع خاص بسبب نشاط نيقولاس جيرهارت من لايدن (اشتهر ١٤٦٣ - ١٤٧٣) الذي جعل السطوح في الاسلوب القوطي اكثر تنوعا بفضل التقطيع التحتاني الذي أدخله عليها .

كان من جهابذة هذه المرحلة النهائية شبه الباروكية من النحت القوطي « فايت شتوس » (٣) (١٤٤٠ ؟ - ١٥٣٣) .

كذلك يعتبر تيلمان ريمانشنايدر (١٤٦٠ ؟ - ١٥٣١) من جهابذة هذه المرحلة ايضا الأكثر تحفظا ورصانة .

البراعة في فن العمارة

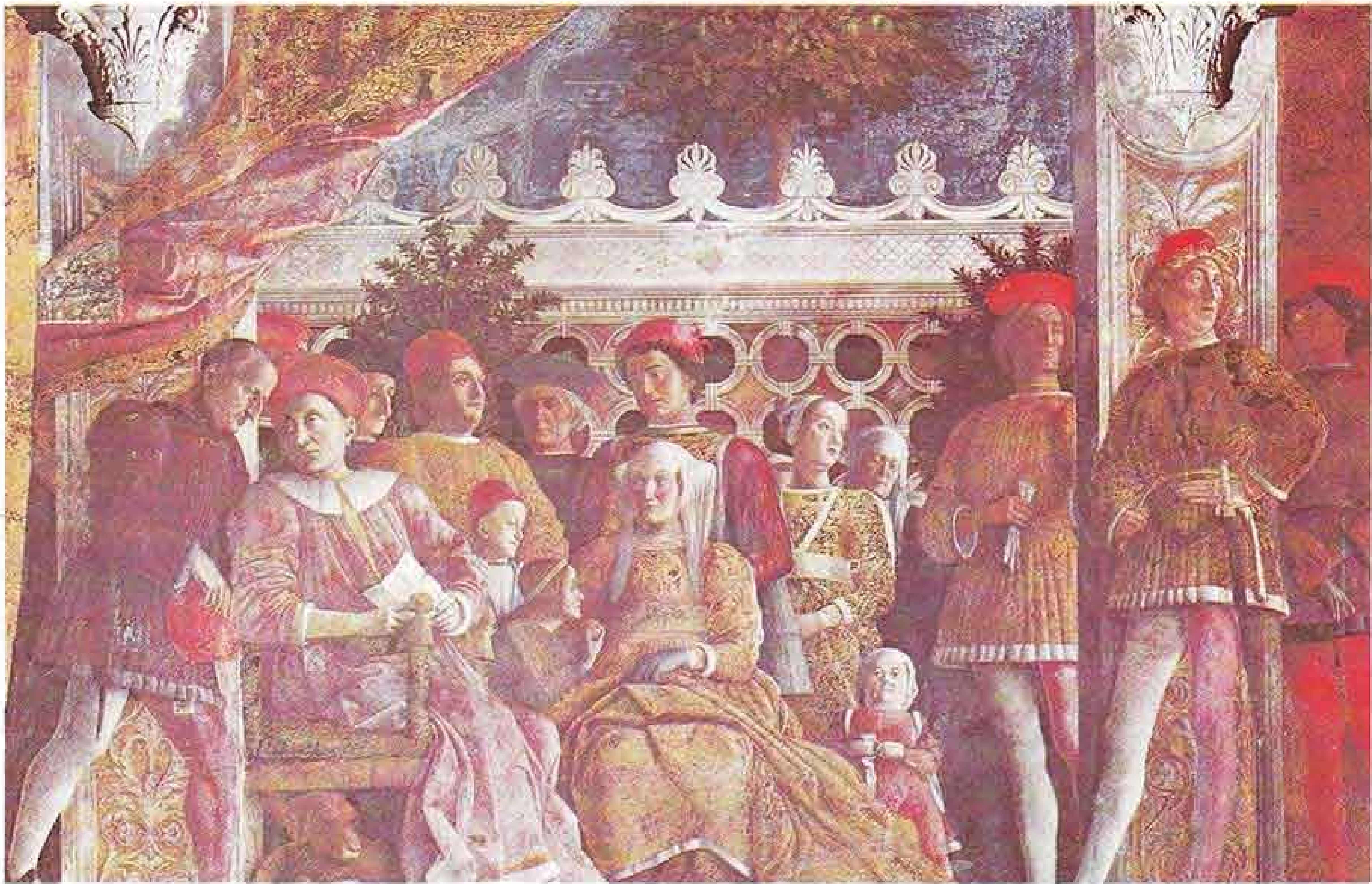
لم تكن العمارة محافظة قط في هذه الحقبة . فقد كان البناؤون يتوخون الاتقان والضخامة في اعمالهم ، كما نرى ذلك في عدد من البلديات الهولندية ، وخاصة بلدية بروكسل (بدئت سنة ١٤٠٢) . لكن اشد النتائج ابتكارا ظهرت في أنظمة التقبيب الهائلة ، لاسيما في انجلترا ، وخاصة الاقبية المروحيـة ذات المعلقـات أحيـانا ، وفـي المانيا في هندسة الاشكال الضلعية الأشد تعقيدا .

الفن الايطالي ١٤٥٠ - ١٤٩٠

كان للثورة الفنية في ايطاليا ابان العقدين الثاني والثالث من القرن الخامس عشر نتائج تختلف من ناحيتين أساسيتين عن النتائج التي نجمت عن انجازات دوكيو وجيوتو في القرن الرابع عشر: أولا ، عمّ الاحساس بآثار تلك الثورة بسرعة جميع الأوساط ذات الشأن الفني تقريبا ؛ ثانيا ، ظهرت جمهرة من الفنانين الموهوبين وذوي الخيال الخصب جعلت من الانتاج الذي جاء بعدها ذخيرة من النشاط الزاخر والمستمر للاستكشاف والابتكار .

تزايد الرعاية الدنيوية

أحد عوامل هذا التطور اتساع الفرص التي

١


(١) - في اللوحة الجدارية لأندريا مانتينيا ، « بلاط جونزاجا » (١٤٧٠ ؟ - ١٤٧٤) يجلس لودوفيكو جونزاجا ، وقد أحاطت به اسرته وحاشيته ، ليتلقى رسالة . ثمة مشاهد شبيهة أخرى على جدار آخر . طلي السقف ليوهم بانفتاح مستدير على السماء الزرقاء .

---

(٢) - رسم لوحة « رمز الربيع » ساندرو بوتيتشلي (١٤٧٨ ؟ -) لتوضع فوق متكأ في المنزل الريفي لابناء عمّ لورنزو دي مديتشي الشباب . أقدم اللوحات الدنيوية كانت عادة أما للزينة الجدارية أو لتزيين الرياش .

---

(٣) - يخلّد « نصب كولّيوني » لأندريا فيروكيو اسم برتلميو كولّيوني الذي كان « زعيما » على البندقية . صنع فيروكيو نموذجه للمباراة من أجل النصب في فلورنسا ، وانتقل الى البندقية سنة ١٤٨٣ لانجازه . جرى صبّه بعد وفاته (١٤٨٨) على يد ليوباردي الذي صمّم القاعدة أيضا .

---

(٤) - صمّم البرتي « سان اندريا » ، في مانتوا سنة ١٤٧٠ من أجل لودوفيكو جونزاجا . البهو وحده هو الجزء المعروف بتأكيد ان البرتي هو الذي صممه .

---

(٥) - شرع ببناء دارة المديتشي المدعوة ، « بوجيو آكايانو » (فلورنسا) ، جوليانو دا سانجالو (١٤٨٢ ؟) لحساب لورنزو دي مديتشي ، وانجزت ليسكنها ليون العاشر

أتاحتها للفنانين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر مراكز نصرة الفنانين وتشجيعهم العديدة .

كانت هذه المراكز تنقسم بصورة عامة الى نوعين : المراكز في الجمهوريات الاسمية القديمة ، مثل فلورنسا والبندقية ، حيث كانت البورجوازية الميسورة ، وعلى رأسها طبقة ارستقراطية ، تعطي قدرا من الرعاية لا يقل عما كانت تقدمه الدولة ؛ والمراكز في الامارات الصغيرة ، مثل ميلانو ومانتوا وفرارا وريميني وأوربينو ونابولي ، حيث كان خليط غامض من الامراء المستبدين ومن الارستقراطيين القدماء يميل ، لمآرب خاصة على الارجح ، الى حصر الرعاية في مركز معيّن ، مثلا بلاط بورجونيا . هذا مع العلم ان فترة طويلة من السلام النسبي بعد منتصف القرن كانت قد زادت في الأهمية الفنية لتلك البلاطات ومنها بلاط روما .

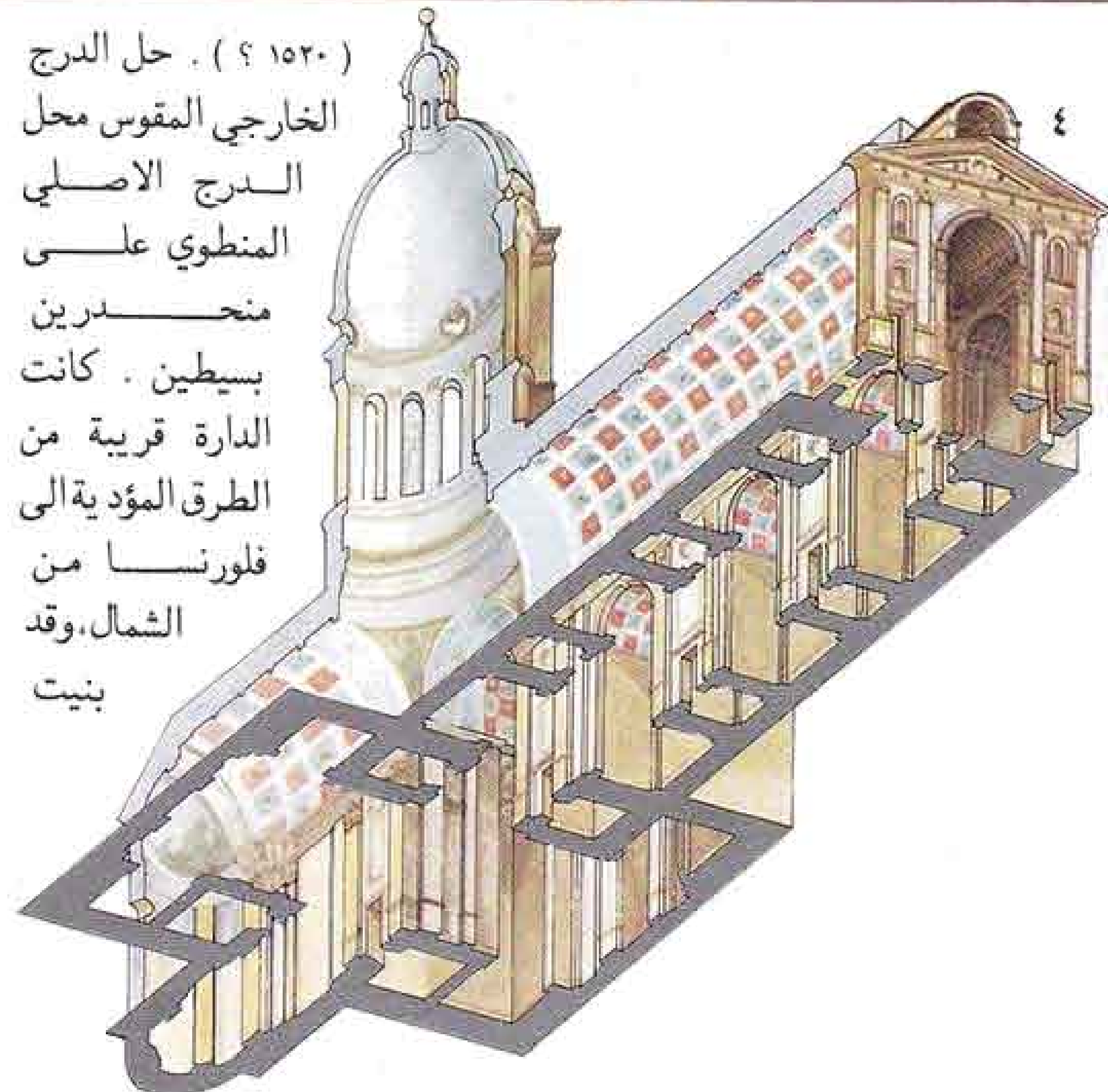
٢



٣



٤



(١٥٢٠ ؟) . حل الدرج الخارجي المقوس محل الدرج الاصلي المنطوي على منحدرين بسيطين . كانت الدارة قريبة من الطرق المؤدية الى فلورنسا من الشمال ، وقد بنيت لحفلات الاستقبال ولسد الحاجات الريفية والصيفية المعتادة . من هنا جاءت على الأرجح ضخامة حجمها ورصانة شكلها .

٥

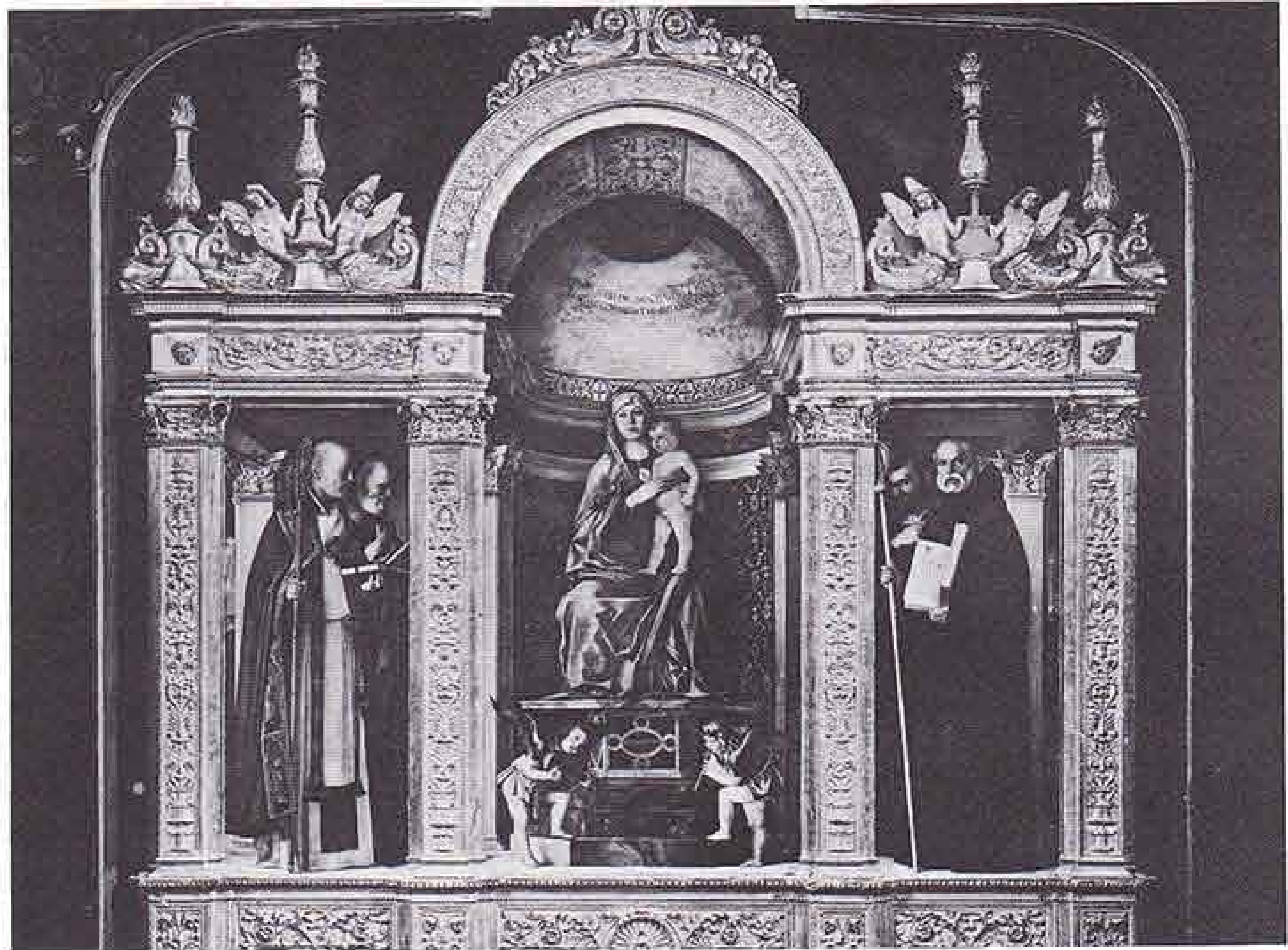


تحوّل ملحوظ

مما زاد في هذه الفرص المتاحة للفنانين التحول البطيء والدقيق الذي حصل في الموقف من مكانة الآثار الفنية وفائدتها. كانت تلك الفترة هي التي انتصرت فيها، بصورة عامة المعركة الهادفة الى رفع الفنون البصرية الى المرتبة عينها التي احتلتها الموسيقى بين الفنون الحرّة. وبمعزل عن أي تغير فلسفي من هذا النوع، أصبح من الممكن توظيف الثقافة من أجل الثقافة. فالفنانون، الذين كانوا قد توقفوا عن رسم جزء مما كانوا يرسمونه سابقا من الصور الجدارية في الكنائس، أخذوا ينتجون عددا أكبر من رسوم الاشخاص والمنحوتات للاستمتاع الخاص. وهكذا أصبحت كمية القطع الفنية في المنازل أكثر بكثير، عند نهاية القرن، مما كانت عليه في بدايته.

في الوقت نفسه، كانت نتيجة هذه

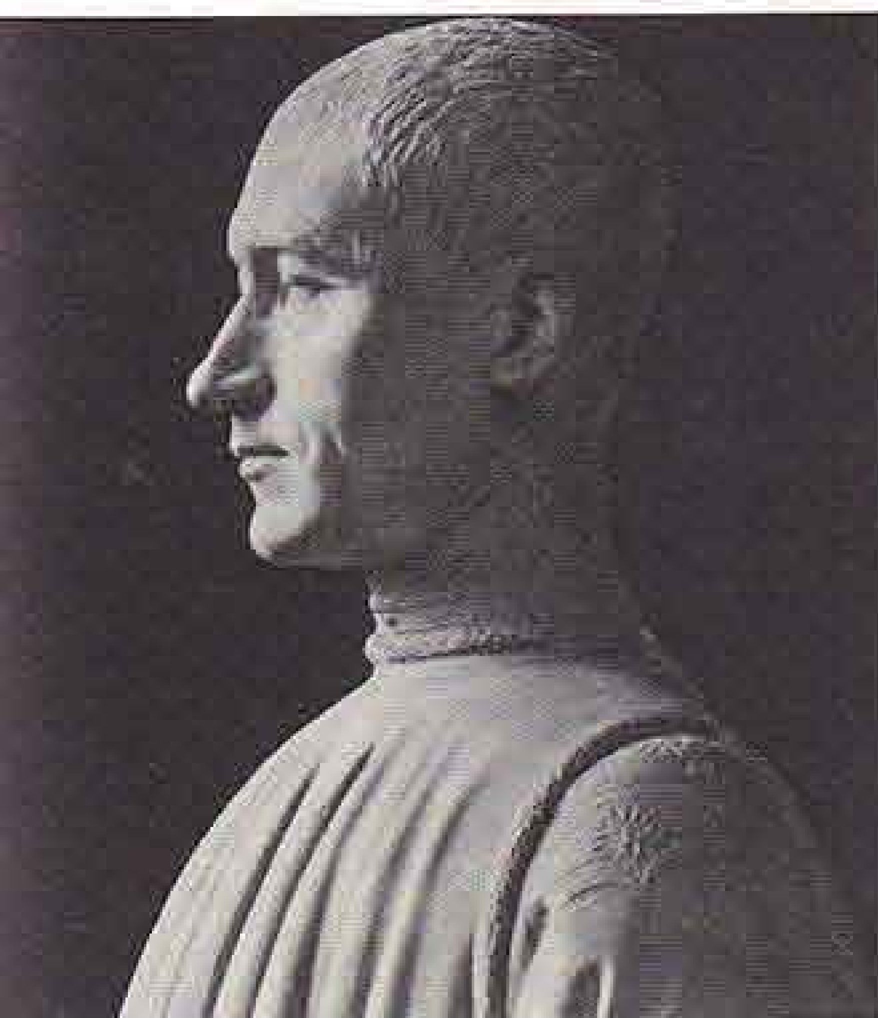
٦



٧



٨



(٦) - يظهر في لوحة «العذراء والقديسون» بريشة بلّيني في سانتا ماريا دي فراري في البندقية (١٤٨٨) كبرياء الفنّان ووقاره، مع وصف دقيق للضوء خاصة وللون الزاهي. رسمها بليني عندما كان قد أخذ يتجه، في المرحلة الأخيرة من فنه، نحو أشكال أبسط وأضخم. الاطار الكلاسيكي الشكل مبتكر.

(٧) - «هرقل وأنتايوس» هو تمثال برونزي صغير (١٤٧٠ ؟ - ١٤٨٠)، يشبه في تصميمه لوحة صغيرة بريشة بولا يولو (١٤٢٩ - ١٤٩٨) في الموضوع ذاته (الفضيلة)، وصنع لآل مديتشي. كان هذا التمثال على الأرجح جزءا من مجموعة المديتشي أيضا. ومع أن له قاعدة مثلثة، فلا يمكن فهمه الا من زاوية نظر واحدة. أما زاوية النظر الشاملة، فأول من حققها هو فيروكيو.

(٨) - بنى فيليبو ستروتزي (١٤٢٨ - ١٤٩١)، وهو أهم نصير فلورنسي للفنون بعد آل مديتشي، قصرا أفخم من قصورهم. هذا التمثال النصفي من المرمر الذي يمثله (١٤٨٥ ؟) هو من صنع بنديتو دي مايانو.

التغييرات التي طرأت على الطلب منسجمة مع امكانيات العرض الجديدة الناجمة عن التقدم في التقنات ووسائل التعبير. وبصورة عامة، حصل تنوع أكبر في أشكال ووظائف الآثار الفنية في هذا النصف الثاني من القرن. فقد استتب الأمر مثلا للتمثال البرونزي الصغير وصورة الشخص النصفية في هذه الحقبة، وهما نمطان يمثلان ظاهرة عامة، هي سد الحاجات الجديدة والدنيوية في الغالب بتكييف أشكال قديمة ودينية في معظمها. فالتمثال البرونزي الصغير للمواضيع الاسطورية أو المجازية انما هو الشكل الجديد للتقليد العريق لتماثيل القديسين. كذلك نجد بالرجوع الى الصناعة المتواصلة للمنحوتات النصفية للقديسين، أفضل تفسير لصور الاشخاص المنحوتة. تطور كل من هذين النمطين بفضل جمع الآثار المتشابهة من العصور القديمة، كما أن خبرة الفنانين في الفن الكنسي هي ما جعل من الممكن صنع تلك الرسوم التشكيلية الجديدة والضخمة التي اصبحت تزين منازل الأمراء والأشراف. وهكذا تذكرنا «غرفة الزوجين» لأندريا مانتينيا في قصر الدوق بمانتوا (١٤٧٣ - ١٤٧٤) بالقصص الديني، و «رمز الربيع» (٢) لساندرو بوتيتشلي بالعذراء والقديسين. في بعض الأحوال النادرة، استوحت المؤلفات الدنيوية لفناني هذا العصر المنحوتات الكلاسيكية القديمة، كما فعل مانتينيا (١٤٣١ ؟ - ١٥٠٦) وبوتيتشلي (١٤٤٥ - ١٥١٠).

انماط العمارة

تدل العمارة على أن التنوع الناجم عن التلقيح المتبادل يجري في الاتجاهين معا. فجوليانو دا سنجالو (١٤٤٥ - ١٥١٦) ولورنزو دي مديتشي (١٤٤٩ - ١٤٩٢)، وضعا في «بوجيو آكايانو» (٥) تصميم أولى الدارات الكبرى في عصر النهضة على نمط حديث موروث عن العصور الوسطى عززته العودة الى قراءة القدماء. وعلى العكس، كان مصدر الالهام الرئيسي في التصاميم الكنسية التي وضعها ليون باتيستا البرتي (١٤٠٤ - ١٤٧٢) شكلا دنيويا صرفا، هو قوس النصر الروماني.

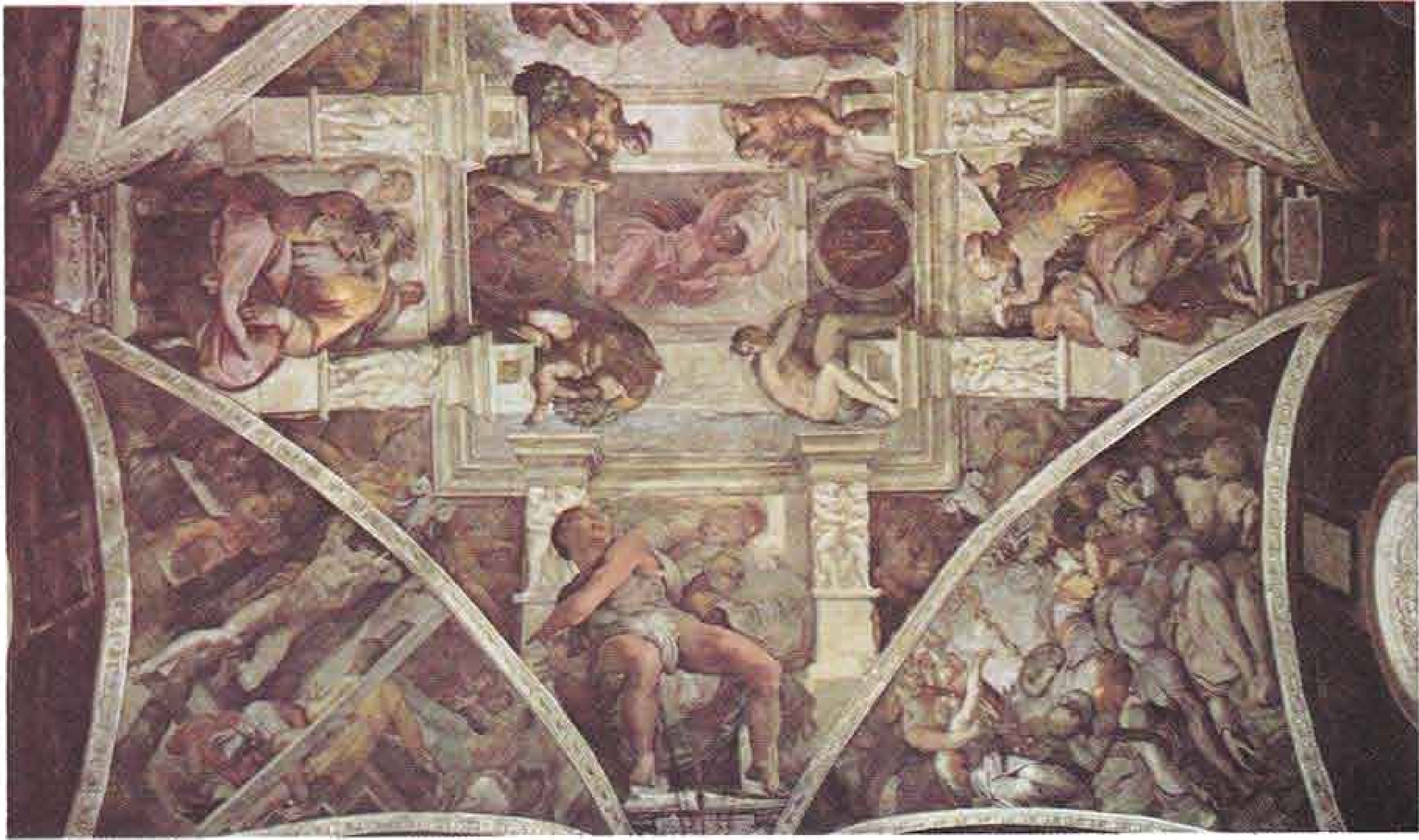
تدل أيضا هذه النماذج المعمارية على تكييف الانماط الحديثة لمجابهة مشاكل قديمة ودائمة، وقد يكون من الصعب على الناظر أن يصف بدقة مقدار التغيير الحقيقي الذي حصل. فقد بقيت الكنائس والقبور والمذابح وسواها تصنع بالطبع بالوفرة السابقة، وكان تنوع الأساليب يعادل تنوع الأشكال الفنية عددا، لذا كان التعميم في هذا المجال صعبا جدا. ولكن بالنسبة الى العمارة، يمكننا القول بأن الاسلوب الجديد كان يتصف بمعرفة أدق وأوفى وأعمق للفن القديم.

أما في فني النحت والرسم، كما تجليا بصورة نموذجية في انتاج أعظم نحاتي العصر اندريا ديل فيروكيو (١٤٣٤ ؟ - ١٤٨٨)، أو اعظم الرسامين في ذلك الحين جيوفاني بليني (١٤٣٠ ؟ - ١٥١٦)، فلم يكن القديم هو مصدر الالهام الرئيسي، كما كان بالنسبة الى سلفيهما دوناتلو وماساكيو. بل حلت محله محاكاة الطبيعة، وقام التعقيد مقام البساطة، والأناقة مقام التقشف، فكان الفن الايطالي، من هذه النواحي، في أواخر القرن الخامس عشر، يعكس بنية السوق وقيمتها.

فلورنسا وروما : النهضة في أوجها

يبدو بصورة عامّة أن الأحداث التاريخية حوالى ١٥٠٠ أدت ثانية الى حصر النشاط الفني في فلورنسا وروما والبندقية، والى عكس الاتجاه السابق نحو الانتشار في عدة مراكز. كان للهجمات الأجنبية والمنازعات على السلطة داخل ايطاليا تأثير سيء جدا على رعاية القصور للفنون، فكادت تزول من نابولي وأوربينو وميلانو. والحق انه كان من المتوقع أن يؤدي وجود ليوناردو (١٤٥٣ - ١٥١٩) وبرامانتي (١٤٤٤ - ١٥١٤) في ميلانو ورعاية لودوفيكو ستورزا (١٤٥١ - ١٥٠٨) الطموحة الى جعل هذه المدينة احدى عواصم اوروبا الفنية، لولا الاجتياح الفرنسي لها سنة ١٤٩٩. عندها عاد ليوناردو الى فلورنسا،

١



(١) - عهد الى مايكل أنجلو رسم سقف معبد السيستين في الفاتيكان البابا جوليوس الثاني. الذي طلب منه أن يصور فيه تلامذة المسيح الاثني عشر. أجاب الفنان، اذا صحت روايته، ان ذلك مخطط سخيف، وهكذا أعطي حرية تامة. فجاءت الاشكال الرئيسية الظاهرة على روافد القبة رسوما لسبعة أنبياء وخمس عرّافات تمثل الوحي الى اليهود والأمم الاخرى، كما ظهرت على طول الوسط مجموعة من تسعة مواضيع مستمدة من العهد القديم، ابتداء بالخلق (الظاهر هنا فوق المذبح)، وانتهاء بسكرة نوح، وكلها تمثل حقبة من التاريخ الديني لم تمثل قبلا في معبد. كشف الستار عن النصف الأول في أغسطس ١٥١١، وأنجز القسم الثاني بعد ذلك بسنة.

(٢) - صنع مايكل أنجلو تمثال «موسى» (١٥١٣ - ١٥١٦) في سان بياترو في فنكولي بروما لقبر جوليوس الثاني. بموجب التصميم الثاني (١٥١٣)، كان من المفروض أن يقام في أعلى القبر. لكن التمثال الحالي هو جزء من نصب أصغر جدا من الأصلي توصلوا الى اقامته على مستوى الارض كحل بعد عدة محاولات فاشلة في العقد الخامس من القرن الخامس عشر.

(٣) - كانت لوحة روفائيل «بولس يعظ في أثينا» (١٥١٥ - ١٥١٦)، أحد رسوم تمهيدية ملونة عشرة (وصلنا منها سبعة) لستائر أو سجادات صنعت في بروكسل، كان ينوي ليون العاشر أن يكمل بها تزيين معبد السيستين. توجد الستائر

ليدخل مع ميكل أنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) في منافسة مباشرة طيلة ست سنوات زاخرة بالنشاط . ثم انضم اليهما سنة ١٥٠٤ روفائيل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) (٣ ، ٧) ، وفيما بعد على التوالي عدد من الفنانين الشباب ، وخاصة أندريا د يل سارتو (١٤٨٦ - ١٥٣٠) .

في فلورنسا ايضا ، حدث زلزال سياسي ، الا أن طرد المديتشي منها سنة ١٤٩٤ وانشاء الجمهورية رسميا فيها (حتى ١٥١٢) خلّفا طغمة ميسورة قابضة على زمام الحكم فيها ، وفّرت للفنانين عددا من أعظم الفرص التي أتيحت لأي فنان فلورنسي من قبل . ومما يجدر بالذكر هنا هو انها عهدت الى ليوناردو وميكل أنجلو رسم لوحتين حربيتين عظيمتين لقاعة المجلس (لم ينجز أي منهما) .

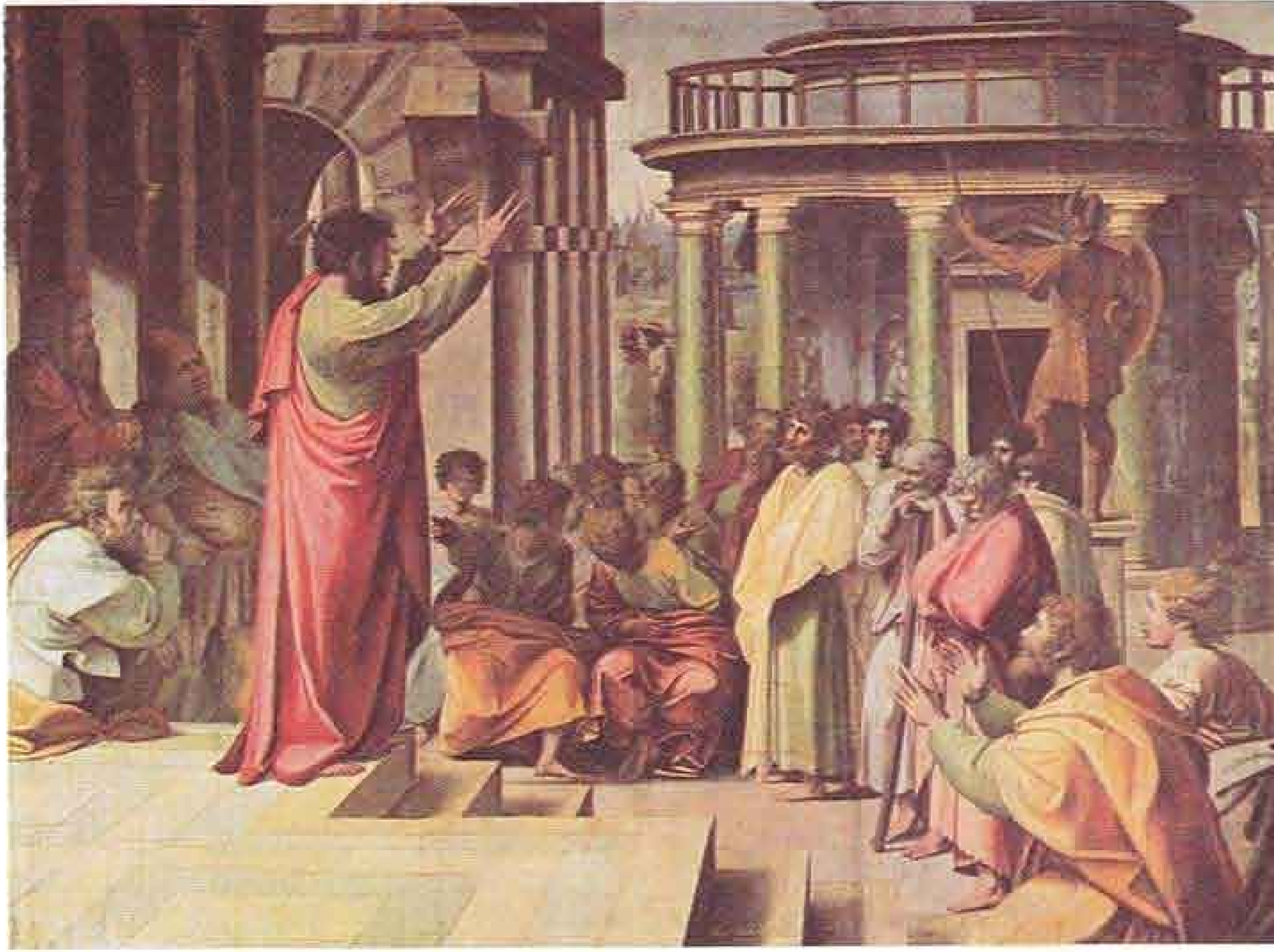
برامانتي وكنيسة القديس بطرس

بعد ١٤٩٩ ، وفد برامانتي على روما ،

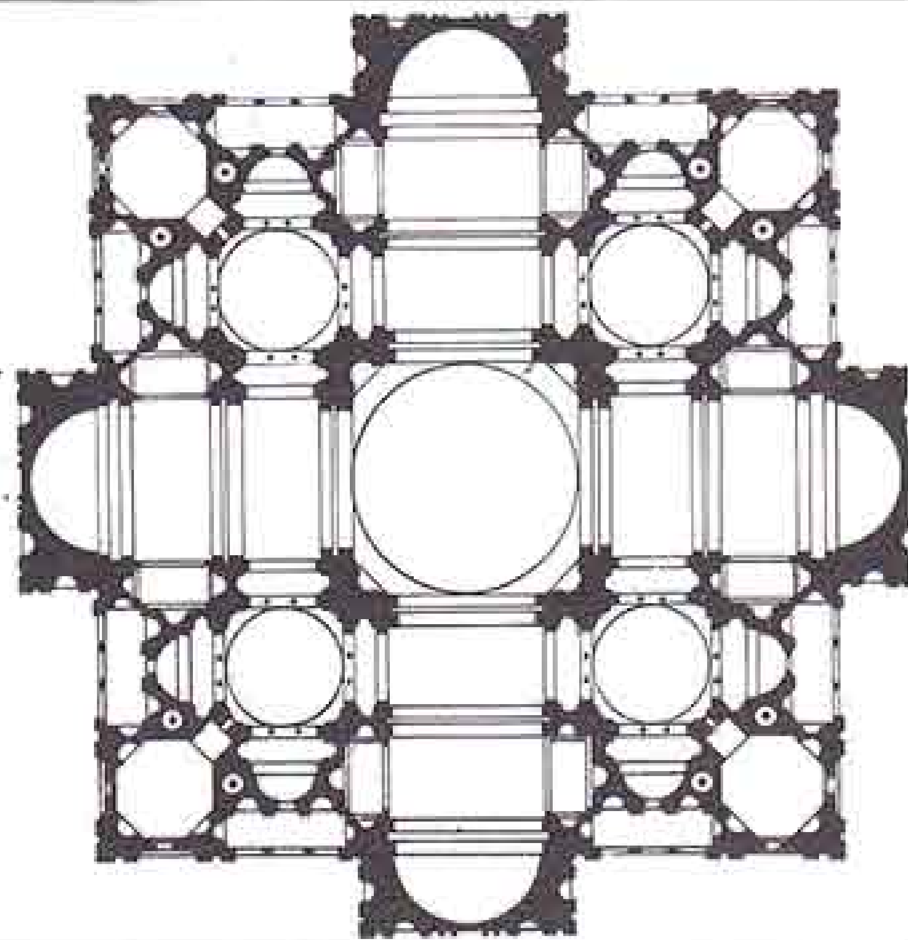
٢



٣



٥



(٥) - تصمم أرضية كنيسة القديس بطرس لبرامانتي .

٤



الباقية حتى اليوم في الفاتيكان .

---

(٤) - ظهرت لوحة ليوناردو دا فنشي « العذراء والطفل مع القديسة حنة » (١٥١٠ ؟) للمرة الأولى في نسخة أصلية (مفقودة اليوم) عرضت في فلورنسا سنة (١٥٠١) . كان التأليف الأصلي يختلف بعض الشيء عن هذه النسخة (في الصورة) .

فأتيحت له فرصة كبرى سنة ١٥٠٦ عندما اختاره جوليوس الثاني النشيط (تولى البابوية ١٥٠٣ ـ ١٥١٣) مهندسا لكنيسة القديس بطرس الجديدة . كانت هذه الكنيسة دون شك ولا تزال رمزا لسلطة الكنيسة الروحيّة ومركزيتها ، ولم تكن اعادة بنائها ضرورة عملية فحسب ، بل بادرة تجديد ايضا . يعبر تصميم برامانتي (٥) عن هذين الهدفين بوضوح جليل ، وقد أرست قناطر العقد التي بناها قواعد القياس الضخم للبناية الحالية .

كان ميكل انجلو قد أقام في روما سابقا . ثم عاد اليها ليعمل في خدمة جوليوس ، أولا (١٥٠٦) في مشروع قبر بلغ من ضخامة الحجم وتعقيد النحت حدا لم يحلم به أحد منذ عهد المزارات في العصور القديمة (٢) ، وبعد ذلك (١٥٠٢ ـ ١٥١٢) في رسم سقف لمعبد السيستين (١) . قبل الفراغ من سقف السيستين ، كان روفائيل قد زيّن

٦


٧


(٦) ـ بنى برامانتي « الهيكل الصغير » « تامبيتو » في سان بياترو في مونتوريو روما ، كمزار فوق الموقع التقليدي لاستشهاد القديس بطرس . أراد برامانتي أن يكون ذلك الهيكل محصورا داخل ساحة مستديرة . يخالف تصميم برامانتي الهياكل الكلاسيكية المستديرة باسطوانته العالية ذات النوافذ بين الأعمدة والقبة .

(٧) ـ صمّم روفائيل « فيلا ماداما » سنة ١٥١٧ للكاردينال جوليو دي مديتشي . هذه الشرفة المطلة على الحديقة ، التي زخرفها بعض تلامذة روفائيل بعد وفاته ، لا سيما الفنان اللامع جيوفاني دا أوديني ، هي نموذج نادر عن الشكل والوظيفة والزخرفة التي كانوا بها جميعا يقلدون الفن الكلاسيكي .

٨


(٨) ـ « رؤوس المحاربين » (١٥٠٣ ـ ١٥٠٤) لليوناردو هي دراسة تفصيلية لملامح الفرسان من « معركة انغياري » وهي لوحة جدارية أوصت عليها الجمهورية الفلورنسية ، ولكنها لم تنجز قط . تقوم شاهداً اليوم على تقنيات الرسم الجديدة التي اخترعها ليوناردو ، كجزء من العملية الصعبة للتمهيد للرسم .

لجوليوس الغرفة الأولى من مجموعة غرف قصر الفاتيكان ، وهي « الستانزا ديلا سنياتورا » ، التي رسمها بنماذج متتالية تمثل قوى الذهن . زين من بعدها توا « الستانزا دليودورو » (١٥١١ - ١٥٤٤) ، التي جاء رسمها مختلفا جدا ، اذ انها زينت بقصص درامية من تاريخ الكنيسة .

جعل جوليوس من روما مركزا فنيا يضارع فلورنسا في أهميته . خلفه ليون العاشر (بابا من ١٥١٣ حتى ١٥٢١) ، ابن لورنزو المديتشي ، وكان لذوقه الفني طابع شخصي قوي ، تغلب عليه الأناقة لا الرؤيا ، فاستأنف العمل لانجاز بناء كنيسة القديس بطرس وزخرفة قصر الفاتيكان ومعبد السيستين .

لم يقتصر فن العمارة في « النهضة العليا » على نتاج برامنتي ، فنتاج عائلة سانجالو لا يقل شأنا عنه . فقد ورث روفائيل مركز برامانتي في كنيسة القديس بطرس مع الزعامة المرافقة لذلك العمل ، وبدأت سيرة ميكل انجلو كمهندس معماري حوالى ١٥١٦ . تدرب جميع هؤلاء ، كما كان معهودا في عصر النهضة ، على فنون أخرى .

عمق الشعور الجديد

لكن كان هناك نمط معماري خاص بعصر النهضة العليا . تميز هذا النمط بتملك تام لناصية لغة القدماء وبتصميم واضح ومتزن ، فضلا عن الرصانة والضخامة وتزايد المادة وتنوعها . فأخذت الوحدات تربو نسبيا على الكل ، واصبحت الأشكال أشد كثافة وأكثر مرونة مما كانت عليه في عصر النهضة الباكر ، وظهرت هذه المزايا نفسها في فني الرسم والنحت . لكن بما ان الفن التشكيلي يسمح بالمقارنة مع المقاييس الطبيعية ، نجد هنا كل شيء قد تعدى الحدود البشرية : فالأشخاص تتحرك بعنف أو بروية ، لكن دائما في اوضاع تفوق بمراحل السلوك البشري ، وعندما تظهر في صور بطولية ومثالية ، تبدو كأنها من جنس العمالقة . جاء هذا الاسلوب فصيحا وخطابيا ومشبعا بعمق جديد في الشعور .

في ميدان الرسم ، ظهرت بتأثير من ليوناردو الى حد كبير ، أبعاد درامية جديدة ، تجلت في قوة الحركة وحضور الاشكال الطبيعي ، وكان مما ساعد على ذلك اكتشاف بعض الخصائص لرسم الضوء والجو ، ونموّ براعة خاصة في أحداث تأثيرات قوية وموحدة للتقابل النغمي . بين جميع هذه الفنون الثلاثة ، كان للرسم دور جديد ، (هنا أيضا كان ذلك من تأثير ليوناردو الى حدّ كبير) . فقد تزايدت كمية التحضير للرسم تزايدا عظيما ، وأصبح الاكتشاف في باب الرسم أشد وعيا .

مكانة الفنان

كان لكل من هؤلاء الفنانين الرئيسيين الأربعة شخصية تمكنت من أن تغير نهائيا مكانة الفنان الاجتماعية (عاش روفائيل في قصر صممه برامانتي من أجل كاردينال) . وقد أسبغت مزايا النضج وكمال الشكل والابتكار التي تميزت به أعمالهم صفة « الكلاسيكية » على آثارهم . فاز هؤلاء الفنانون بلقب « الملهمين » ، وهو لقب كان مقصورا على الشعراء ، وكتب لأسلوبهم أن يوسم « بالأسلوب الفخم » .

النهضة في أوجها في شمال ايطاليا

كان معاصرو الفنانين الروميين والفلورنسيين في شمالي ايطاليا حوالى ١٥٠٠ يشاطرونهم الكثير من اهتماماتهم . ولكن يكون من الشطط هنا ان نفكر ان النهضة العليا قد تدرجت تبعا للأجيال المتعاقبة . فقد بقي جيوفاني بليني على قيد الحياة بعد وفاة جيورجيوني (١٤٧٥ ؟ - ١٥١٠) الذي بدأت معه ، على ما يبدو ، مرحلة جديدة من الرسم في البندقية .

تفاعل الأساليب

كانت حصيلة النشاط الكبير الذي بذله ليوناردو أثناء فترات اقامته في لومبارديا (١٤٨٣ - ١٤٩٩ ، ١٥٠٦ - ١٥٠٨) أن فناني

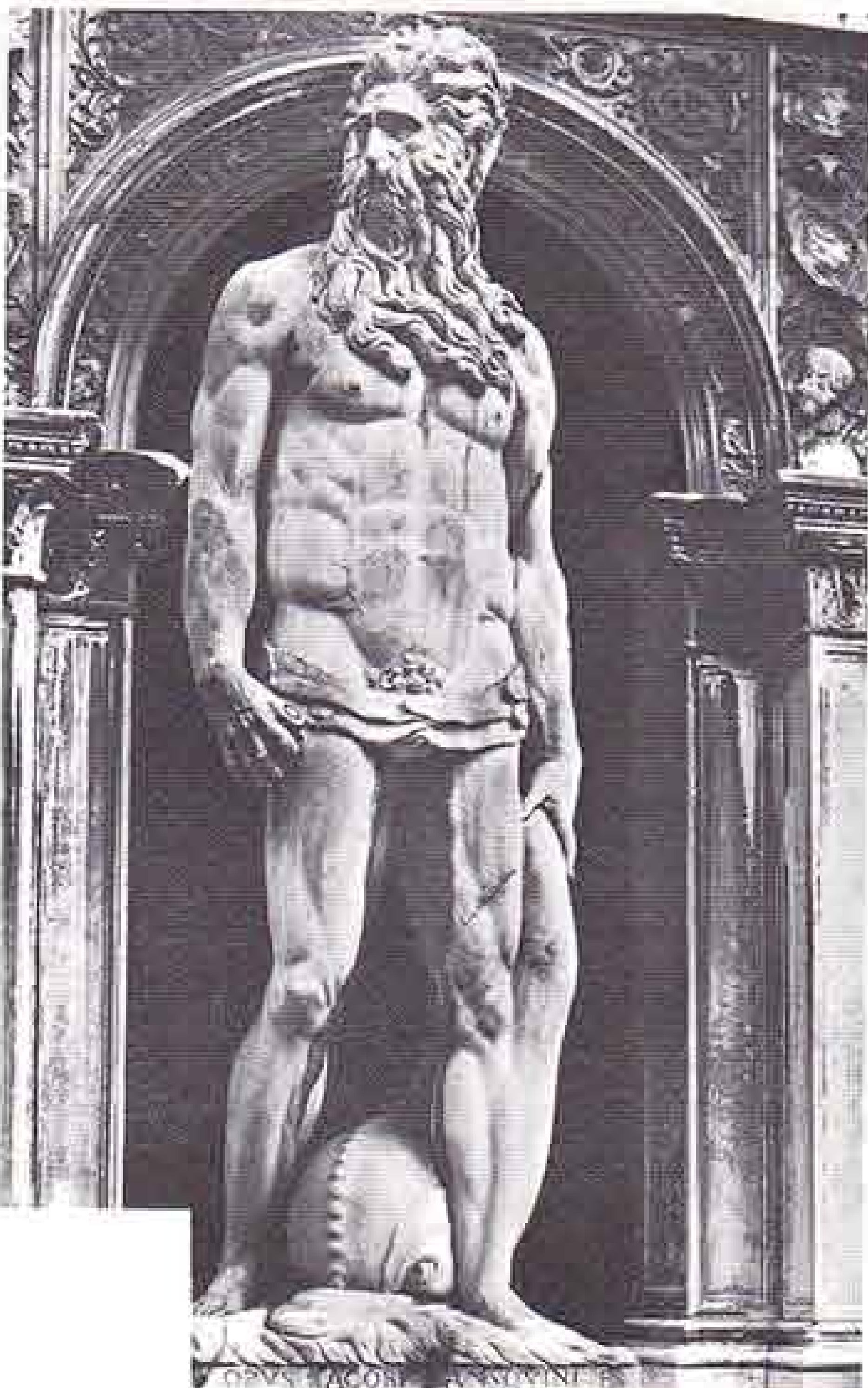
١



٢



٣



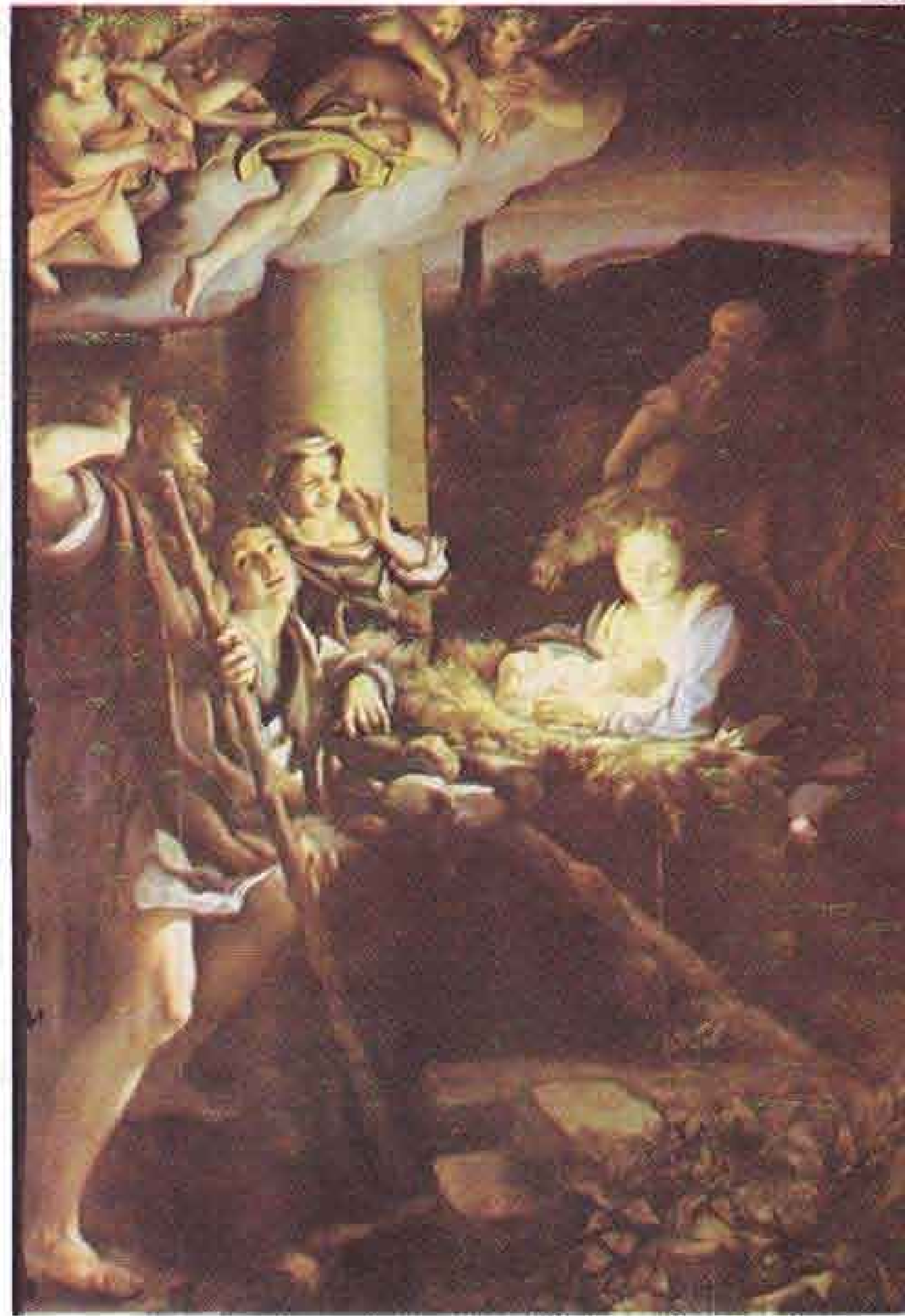
(١) - « العاصفة » لجيورجيوني (١٥٠٧ ؟) هي احدى الصور المنسوبة الى هذا الرسام . أثار الموضوع الكثير من التخمين . من الممكن ان جيورجيوني ، بتأثير من اسطورة الرسام اليوناني أبلّس الذي قيل انه كان يرسم ما لا يرسم (اي العاصفة) ، أراد أن يجعل من هذا التحدي موضوعه الرئيسي . تعد هذه اللوحة من اوائل المشاهد الطبيعية الغربية .

(٢) - رسم باولو فيرونيزي الزخرفة الجدارية (١٥٦٢ ؟) لدارة باربارو في ماسير (بالقرب من تريفيزو) التي صممها بالاديو . هذه الدارة هي أجمل تأليف يتم لبالاديو بين

شمالي ايطاليا غدوا ، كالفنانين الفلورنسيين ، متمسكين بالتعبير الجريء ونفح الحياة في جميع المواضيع وان موجات من الهجرة أخذت تحصل في كلا الاتجاهين لتعمل مباشرة ، بل بتعمد ، على جعل الاساليب ، تمتزج وتتفاعل . ويمكن القول بحق ان عصر روما الذهبي قد اندثر في بداية ١٥٢٠ بتشتت تلامذة روفائيل ، وبينهم جيوليو رومانو (١٤٩٩ - ١٥٤٦) الذي حقق طموح فريديريكو جونزاجا في جعل مانتوا روما ثانية . ثم ان كارثة اجتياح روما ونهبها (١٥٢٧) قد أفادت عدة مدن ايطالية شمالية ، لاسيما البندقية التي حظيت بقدوم جاكوبو سانسوفينو (١٤٨٦ - ١٥٧٠) اليها (٣) .

نجت أسرة جونزاجا في مانتوا وأسرة أستي في فيرارا من الكسوف الوقتي الذي اصاب معظم البلاطات الايطالية حوالى ١٥٠٠ ، وواصلت تقديم الرعاية والنصرة لأهل الفن

٤



٥



القصر والمنزل الريفي . كان بالاديو يعتبر فيرونيزي مزخرفه المثالي . كان لهذا الفنان المزخرف طريقة ايهامية تعبث ولو الى حد قليل بفن العمارة الحقيقي ، وكانت ألوانه الزاهية وملاحظاته الواقعية للمشاهد الطبيعية تجعل رسومه الجدارية فذة الى حد كبير. لبعضها مواضيع دينية ، مثل « زواج القديسة كاترين » الظاهر هنا ، أو مشاهد طبيعية ، والبعض الآخر يحتوي على رسوم عائلة صاحب الدارة وأصدقائه وخدمه.

(٣) - « نبتون » لجاكوبو سانسوفينو . وهو يجسد القوة البحرية التي كانت لمدينة البندقية .

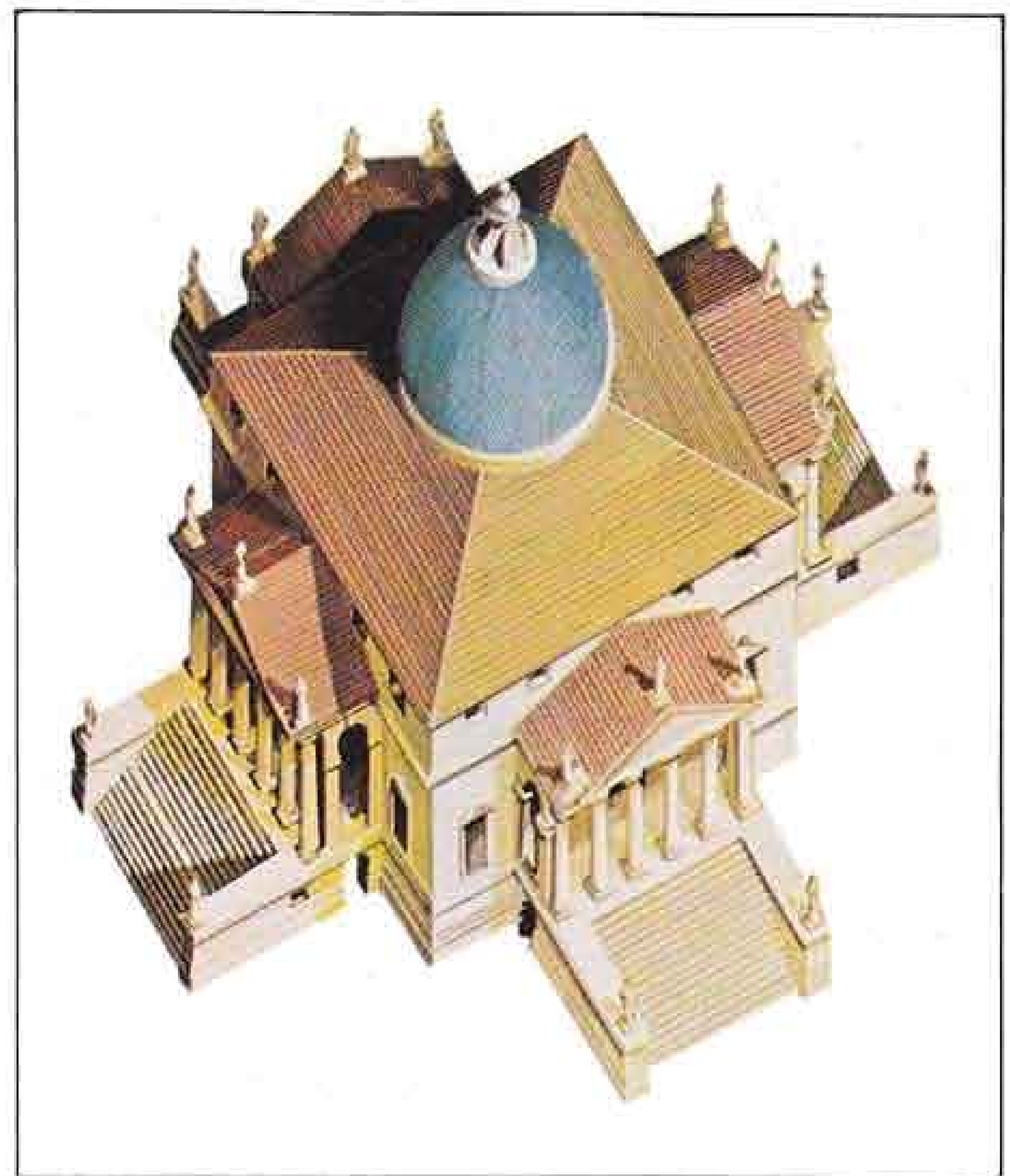
---

(٤) - لوحة كوريجيو « عبادة الرعاة » (١٥٢٨ ؟ - ١٥٣٠) هي المثال البارز على طريقة هذا الفنان الايهامية في رسم الضوء .

(٥) - لوحة تيسيان « اغتصاب أوروبا » (١٥٥٩ - ١٥٦٢) هي احدى مجموعات اسطورية رسمت لفيليب الثاني الامبراطور وملك اسبانيا . وهو نصير تيسيان الرئيسي في الجزء الأخير من حياته الفنية . يبدو ان الفنان كان حرا في اختيار مواضيعه .

كما كانت تفعل في الماضي . وكان متوفرا في هذه المراكز قدر كبير من المواهب المحلية . ولكن من مميزات الوضع الجديد ان كبار الفنانين كانوا يستخدمون عن بعد ، كتيتيان (١٤٨٧ ؟ - ١٥٧٦) من البندقية أو انطونيو كوريجيو (١٤٩٠ ؟ - ١٥٣٤) من بارما . كانت بارما لفترة قصيرة مركزا فنيا ذا شأن عظيم ، لا لأن شروط الرعاية الحسنة كانت متوفرة فيها فحسب ، بل أيضا لأن كوريجيو وبارميجيانينو (١٥٠٣ - ١٥٤٠) كانا يقيمان فيها . يمثل أندريا بالاديو (١٥٠٨ - ١٥٨٠) في فيتشنزا أفضل من سائر الفنانين ظاهرة الفنان « الاقليمي » الكبير .

كانت البندقية مركزا لرعاية الفنانين المدنية والنقابية على نطاق واسع اثناء هذه الفترة ، وفي شتى حقول الفنون البصرية . كذلك في فن العمارة ، جاءت المكتبة الجديدة ودار السكة التي تعهد بهما







(٦) - باشر بالاديو حوالى ١٥٥٠ ببناء « الدارة المستديرة » في فيتشنزا ، وهي فريدة بين الدارات للتماثل التام الذي تتصف به ، والذي كان يرمي الى استغلال المنظر من أعلى التلة . تعلو القبة ، وهي من الملامح الجديدة للمباني المنزلية ، قاعة مستديرة . كان الرواق الكلاسيكي قد ظهر من قبل في « بوجيو آكايانو » بفلورنسا ، وهي دارة آل المديتشي التي صممها جويليانو دا سانغالو وأنجزها سنة ١٥٢٠ للبابا ليون العاشر . الأروقة المؤلفة من ستة أعمدة والمحيطة بالجهات الاربع جميعها عبارة عن توسيع لتصميم بالاديو الأصلي .

(٧) - مكتبة سان ماركو بالبندقية لجاكوبو سانسوفينو بدئت سنة ١٥٣٦ . كان الموقع يحتاج الى بناء يشغل طول الساحة بكامله ، ويحتوي على رواق كبير (كمرفق عام ولاقامة حوانيت فيه) .

(٨) - بوشر ببناء كنيسة سان جورجيو بالبندقية لبالاديو سنة ١٥٦٦ ، وهي أولى كنائس بالاديو ، الذي استوحى كغيره من المعماريين العاملين في البندقية كنيسة سان مارك في استعماله للاعمدة بأعداد كبيرة ، الا انه ترك الداخل خفيف الألوان الى حد مدهش ، وحسن الاضاءة ، وغير مزخرف .

سانسوفينو (٧) أفضل شاهد على ذلك ، اذ راح الفنانون والنحاتون يغدقون الزينة بسخاء على هذين البنائين الجديدين ، فضلا عن قصر الدوج القديم .

الزخرفة الفخمة

يتصف أسلوب الزخرفة البندقي عموما بالفردية في فخامته وفي تعقده المحبوك المتناسق ، كما يمتاز بالبهجة التي عرفتها موسيقى البندقية في تلك الحقبة (٢) . زد على ذلك انه من النادر ان يساهم العظماء في تقرير طبيعة الفن في مدينة من المدن كما فعلوا في هذه المدينة . فجورجيوني ، الذي كان يعمل على ما يبدو في نطاق ضيق اقدم على اختياره دون الاهتمام بمتطلبات السوق ، وسّع ، على غرار ليوناردو ، المفهوم العام لماهية الأثر الفني ، وذلك في تركيزه على مواضيع خاصة ، كأحوال الطبيعة المتقلبة في « العاصفة » (١) ، أو هيجان العواطف في رسومه للاشخاص . كذلك تيسيان ، الذي يختلف عنه اختلافا كبيرا لاسيما في شمول فنه ، فقد توصل ، بفضل مجموعته المتلاحقة من الروائع الممتدة على طول سيرته الفنية الطويلة جدا أن يجعل فن البندقية يثابر على تمركزه حول تلك المواضيع التي كانت قد اصبحت مهملة في ايطاليا الوسطى ، كقضـايا الجو واللون ، والتعبير والتمثيل الدراميين (٥) . ومن المعلوم ان تيسيان اصبح ، بفضل الرعاية الى حدّ كبير ، أكبر رسامي أوروبا .

أما كوريجيو (٤) ، الذي كان تيسيان معجبا به ، فقد كان فنانا أشد ابتكارا من بعض النواحي ، وهو من بين سائر رسامي القرن السادس عشر الفنان الذي اقترب اشد الاقتراب من اسلوب الباروك . وكانت تجاربه في ميدان الحركة والعواطف أجرأ تجارب تلك الحقبة .

القصور والدارات

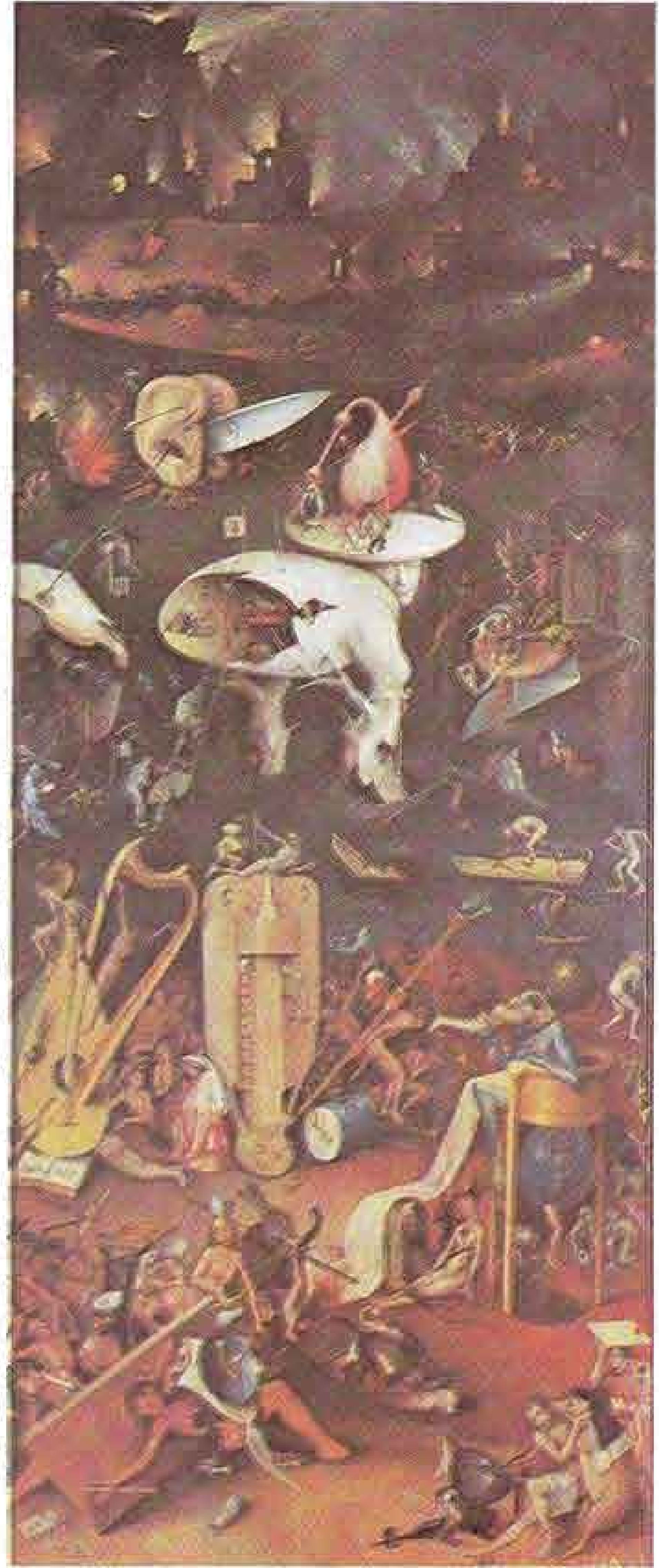
اكتسب ذلك الفنان « الاقليمي » العظيم الآخر ، بالاديو ، مكانة اوروبية لأسباب أخرى . فقد تسارع نشاط البناء عامة في شمالي ايطاليا ابتداء من حوالى ١٥٢٥ ، لاسيما في المجالات المدنية والمنزلية . فبنى جوليو رومانو وسانسوفينو وسان ميكيلي (١٤٨٤ ؟ - ١٥٥٩) (وهو أحد ناقلي تأثير روما الى فيرونا خاصة) قصورا ودارات ، وكان بالاديو مدينا لنماذجهم في وضع تصاميمه .

كان ازدهار بناء الدارات في تلك الحقبة فائقا ، وان كان أمرا طبيعيا . فقد أخذت الارسطقراطية ، لاسيما في البندقية ، تميل الى توظيف أموالها في الأراضي بصورة متزايدة ، وكانت حريصة على الاقامة في ممتلكاتها . عبقرية بالاديو تتمثل في مزيج نادر من القوة النظرية والحس السليم المرن . كان مزاجه عمليا جدا ، وكان مع ذلك خصب الخيال ، فاستطاع ، بتشييد مجموعة من النماذج المعمارية ، أن يلبي زبائن جددا تتباين أهواؤهم وحاجاتهم تباينا عظيما . كانت هذه المجموعة تتراوح بين منزل ريفي أجنحته عبارة عن مخازن ، وبين قصر ريفي مترامي الاطراف (٦ ، ٢) . جاء عمل بالاديو يسد حاجة اجتماعية باستعماله نماذج البناء الواضحة الكلاسيكية واضفائه على اصحابها صفة الوجاهة الاجتماعية .

النهضة في المانيا وهولندا

اندفعت موجات التأثير الفني شمالا في القرن السادس عشر، عندما أخذت هيبة الثقافة الايطالية تعوض عن ضعف ايطاليا السياسي. كان البريخت دورير النورمبرجي (١٤٧١ - ١٥٢٨) (٣) من أوائل الفنانين الشماليين الذين هضموا انجازات النهضة الايطالية والعصور القديمة، وكان قد شاهد آثارها مباشرة في البندقية بالدرجة الأولى. كان معظم نتاجه من المحفورات الخشبية والمنقوشات (٧)، وقد ظهر فيها حذقه التقني الخارق وطاقته الهائلة على الابتكار فأصبح أعظم فنان يحتذى في أوروبا. كانت سلسلة الرسوم الدينية التي اصدرها من اجل السوق الشعبية ألمانية الطابع وواقعية الاسلوب

١



٢



(١) - «الجحيم» لهيرونيموس بوش (١٥٠٠ ؟)، هو اللوحة اليمنى من البنية المتعددة اللوحات المعنونة «جنة اللذائذ». تظهر «الخليقة» على اللوحة اليسرى منها. عند اقفال اللوحتين يظهر مشهد الطوفان. تبدو تخيلات بوش السوداوية كانها تأملات في سخافات البشر وعواقبها.

(٢) - كانت «القيامة» لماتياس جرونيفالد (١٥١٢ ؟ - ١٥١٦) لوحة من لوحات الواجهة الكبيرة لمذبح دير ايزنهايم الأنطوني، التي يظهر عليها، عند اغلاقها مشهد «صلب المسيح». عند فتح أول لوحة منها، تظهر مشاهد «البشارة» و«الميلاد» و«القيامة». وعند فتح اللوحة الثانية، تظهر

بالأكثر ، بينما كانت المواضيع الانسانية المطبوعة واللوحات الخشبية الاخيرة (ابتداء بـ ١٥٠٦) مستمدة من النهضة بالأكثر .

جرونيفالد وهولباين

كان ماتياس جرونيفالد (١٤٨٠ ؟ ـ ١٥٢٨)، رساما وخطاطا ذا طاقة خيالية مماثلة لطاقة دورير ، وان كان أضيق مدى منه . عمل في بلاط رئيس أساقفة ماينز وبراندنبورج ، واشتهر خصوصا بلوحة المذبح العجيبة التي رسمها لمستشفى أيزنهايم (اليوم كولمار) (١٥١٢ ؟ ـ ١٥١٦) (٢) . توصل جرونيفالد ، بتحريفاته الفصيحة المعنى وألوانه الزاهية وتقنياته البارعة ومقدرته الكبيرة على الابتكار ، الى اعطاء رسومه قوة عاطفية هائلة .

أما هانز هولباين الاصغر (١٤٩٧ ـ ١٥٤٣) ، فكان شخصية أكثر برودة وشمولية . ولد في

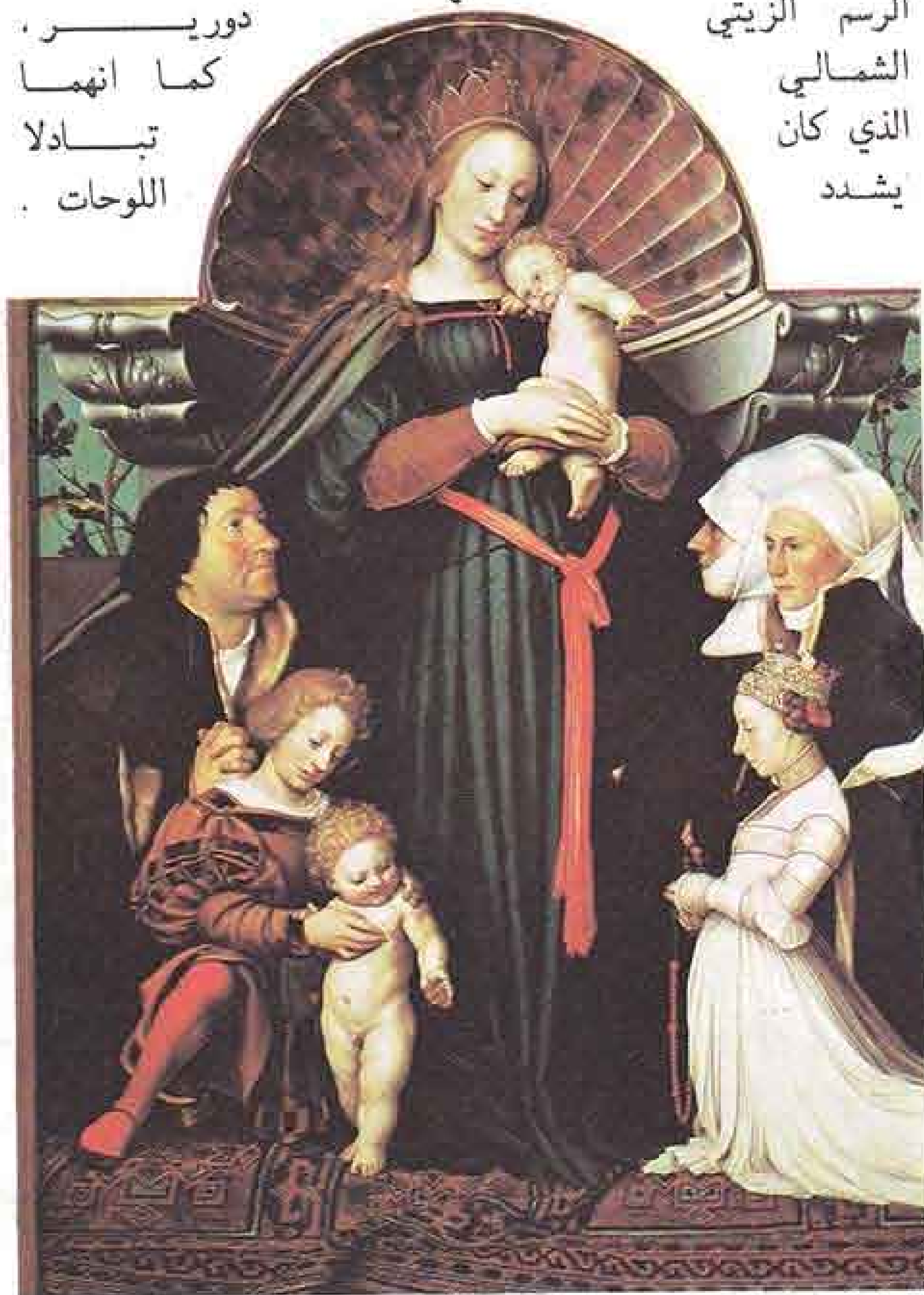
مشاهد الناسكين بولس وانطوان وتجربة أنطوان ، وتتاخم اللوحتين ثلاثة رسوم خشبية محفورة للقديسين . نبذ جرونيفالد أفكار « النهضة » ، وراح يعبر عن قوة العاطفة والاحساس في نتاجه بواسطة رموزه القوطية .

(٣) ـ كانت لوحة « القديسان بولس ومرقس » لالبريخت دورير (١٥٢٦) احدى لوحتين تمثلان « الامزجة الاربعة » ، قدمها الفنان الى مدينة نورمبرج . أما اللوحة الثانية ، فكانت تمثل القديسين بطرس ويوحنا . مزج دورير تقليد الرسم الزيتي الشمالي الذي كان يشدد على الواقعية ، مع الاسلوب الايطالي التشكيلي الضخم . وقد تأثر بفن بليني الذي كان قد شاهده في البندقية ، وبالدراسات الحديثة لرافائيل (على الأرجح من خلال المنقوشات) ، وقد راسله دورير ، كما انهما تبادلا اللوحات .

(٤) ـ رسم هانز هولباين الاصغر « مادونا ماير » (١٥٢٦) لقلعة ماير رئيس البلدية الواقعة على مقربة من بال . ادخل على اللوحة بعض التعديلات فيما بعد (١٥٣٠) عندما أضاف هولباين اليها صورة زوجة ماير الاولى . كان هولباين ، من أعظم رسامي الاشخاص في زمانه .

(٥) ـ رسم هولباين « ديريخ بورن » سنة ١٥٣٣ ابان زيارته الثانية للندن . كان ديريخ بورن تاجرا من كولونيا يقيم في لندن .

٣


٤


٥


أوجسبورج ونضج في بال (٤) ، وعمل فيما بعد في لندن . طرأ تحوّل جذري على نشأته الالمانية الصرف ، من جراء تعرفه ، مباشرة على الأرجح ، الى فن النهضة الايطالية الشمالية العالية ، فضلا عن الفن الفرنسي والفلاندري .

كان للرسم الألماني ، في مطلع القرن ، محور آخر على طول ضفاف الدانوب ، بين بافاريا والنمسا ، وكان العبقري الرئيسي في المدرسة الدانوبية البريخت ألتدورفر (١٤٨٠ ؟ ـ ١٥٣٨) . بدأ هذا الفنان يرسم ، في آن واحد تقريبا ، مع جورجيوني (١٤٧٥ ـ ١٥١٠) في البندقية ، لوحات كان موضوعها الرئيسي المشاهد الطبيعية .

أصبحت أنتورب في الفلاندر المركز الرئيسي للرسم بعد أن حلّت محل بروج كعاصمة تجارية ابتداء من حوالى ١٤٩٠ . أسس مدرسة أنتورب كنيتان ماسي

٦


٧


٨


(٦) ـ لوحة بيتر بروجيل الاكبر « حصاد الحنطة ـ اغسطس » (١٥٦٥) هي واحدة من مجموعة خاصة « بالأشهر » ، بقيت ناقصة . توجد ثلاث لوحات أخرى منها في فيينا وواحدة في براغ . رسمت ، على ما يبدو ، كجزء من زخرفة بيت في انتويرب . سوف يرسم روبنز فيما بعد هذا النوع من المشاهد الطبيعية .

(٧) ـ أنجزت منقوشة البريخت دورير « رسم ايراسموس » سنة ١٥٢٦ . كان ديزيديريوس أيراسموس (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) أهم شخصية في تاريخ النزعة الانسانية المميزة « بالنهضة » الاوروبية الشمالية .

(٨) ـ في نافورة أبولو (١٥٣٢) لبيتر فلوتنير ، يناهز التمثال نصف القياس الحي ، ويبدو في هذه الحقبة فريدا بالنسبة الى فن النحت الشمالي ، من حيث كلاسيكيته . نجم ذلك الى حد ما عن أبحاث دورير في حقل النسب المثالية للجسم البشري (كما في منقوشته آدم وحواء ، ١٥٠٤) ، وبالأرجح أيضا عن اختبارات فلوتنير نفسه في ايطاليا ، حيث قد يكون شاهد « ابولو بلفيديري » في روما . سبق نتاج فلوتنير جميع الامثلة الايطالية المعروفة من هذا النوع من النوافير الهرمية مع التنانين البحرية وقطع المعجون حول القاعدة .

(١٤٦٥ ؟ ـ ١٥٣٠) ، الذي مزج ، على غرار معاصريه الألمان ، التقاليد الوطنية بالأفكار الايطالية . كان معاونه يواكيم باتنيه (توفي ١٥٢٥ ؟) رساما للمشاهد الطبيعية دشنت نظرته الشاملة الى العالم تقليدا هولنديا طويل المدى .

نبذ التقاليد المحلية

كان لماسي عدد من الاتباع الذين اتسم فنهم التشكيلي القوطي المعقد الجديد بالسمة المشبوهة المعروفة « بالتصنعية الانتوربية » . لكن ظهر في الفلاندر ايضا ، وفي هولندا الى حد أبعد ، تيار مضاد تحدوه فكرة نبذ التقاليد المحلية (باستثناء التقنية منها) في سبيل التقاليد الايطالية ، وقد دعي هذا التيار بكثير من الحق بالتيار الروماني ، وكان يتزعمه سكوريل (١٤٩٥ ـ ١٥٦٢) ، (في اوترخت وهارليم) ، وهيمسكيرك (١٤٩٨ ـ ١٥٧٤) ، وقد انبثق عن هذه المدرسة مجموعة ناجحة من رسامي المشاهد العادية .

تميز الرسم الهولندي في القرن السادس عشر بتلك الخاصية التي ستصبح مألوفة كثيرا في القرن السابع عشر ، وهي كثرة صغار الفنانين الى جانب حفنة كبارهم . مع ذلك ، يبرز اثنان هما هيرونيموس بوش (١٤٥٠ ؟ ـ ١٥١٦) ، وبيير بروجيل الاكبر (١٥٢٠ ؟ ـ ١٥٦٩) . كان بوش ، الذي عمل منعزلا على ما يبدو في بيرابانت ، ناشطا قبل ١٥٠٠ بفترة طويلة ، ولكنه بدأ حوالى هذا التاريخ يستفيد من الرعاية الاوروبية (كرعاية فيليب ، أرشيدوق النمسا) . جاءت تخيلاته الخاصة الغريبة ، القائمة على الامثلة الشعبية والتخيلات البصرية الدارجة ، بمثابة تعاليق أخلاقية على الوضع الانساني (١) ، واليه تعود تلك التقنية اللينة والشفافة في رسم الالواح التي استمرت حتى زمان روبنز . أما بروجيل ، فكان يشكل احدى حلقات هذا التقليد ، ولكنه كان ينظر بامعان اشد الى الطبيعة وفصولها (٦) والى الطبقات الاجتماعية ، فنفح الرسم العلماني بثراء جديد .

النحت والعمارة

ظهر أسلوب من اساليب النهضة في حقل العمارة بجنوب ألمانيا حوالى ١٥٢٠ ، لاسيما في اينزبروك وأوجسبورج . وتعد « نافورة أبولو » في نورمبورج (٨) ، وهي من صنع بيتر فلوتنير (١٤٩٣ ؟ ـ ١٥٤٦) ، جزءا واضحا من تراث « نهضة » دورير ، كما انها تستهل سلسلة بارزة من النوافير الالمانية تنتهي بنوافير هوبرت جيرهارد (١٥٥٠ ؟ ـ ١٦٢٠) . كانت أنتورب المركز الرئيسي الآخر للنحت الشمالي ، ومقر تدريب جيامبولونيا (١٥٢٩ ـ ١٦٠٨) الذي قضى الجزء الأكبر من حياته في فلورنسا . كانت المباني التي تعكس النمط النهضوي الصحيح نادرة ، وهي تشمل معبد فوجير في اوجسبورج (١٥٠٩ ـ ١٥١٨) ، ومعبد سيجسموند في كراكوف (١٥١٧ ـ ١٥٣٣) ، وقلعة بريدا . الا ان أهم التطورات المعمارية التي ظهرت في تلك الحقبة كانت تلك المباني الضخمة ، والوظيفية ، وغير المتنطحة في اسلوبها ، والمتعددة النوافذ والتي كانت تؤلف جزءا من العمارة المدنية في عدة مدن المانية ، مثل « دار البلدية » ببريمن ، ومنازل كمنازل لونغليت وهاردويك في انجلترا .

النهضة في فرنسا

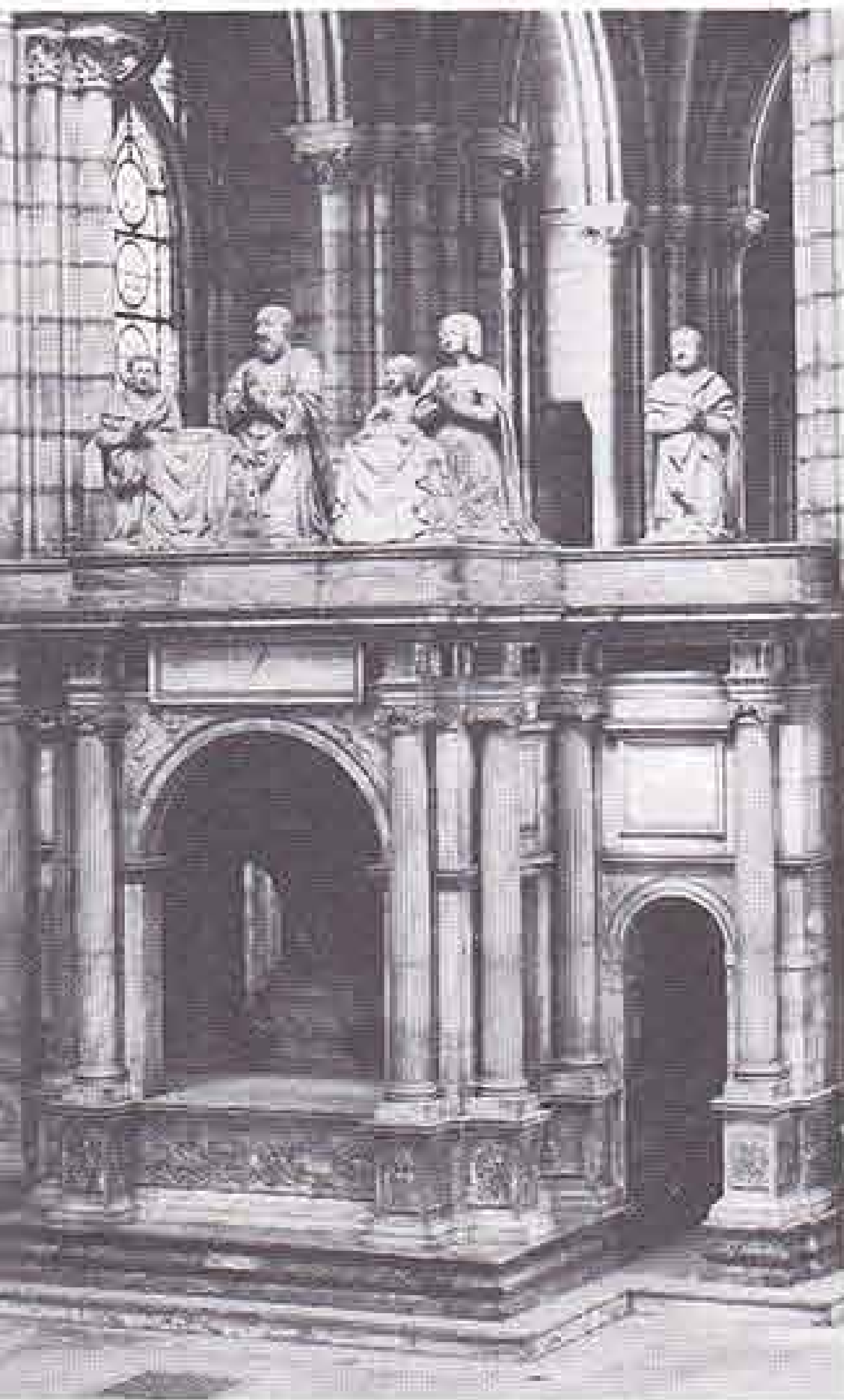
كان لطلائع الرسم والنحت الفرنسيين في القرن الخامس عشر شبه عظيم بالفن البورجوني والهولندي ، ولا غرو في ذلك ، فبعض الفنانين ، امثال جان مالويل الهولندي (توفي ١٤١٥) وآل لنبورغ ، كانوا يعملون لكلا البلاطين الفرنسي والبورجوني على حد سواء . مع ذلك ، كان لفن الرسم الفرنسي جذور متصلة بتقليد حي لرسم المصغرات او المنمنمات ، لاسيما في باريس التي كانت ايضا أحد المراكز الرئيسية للأسلوب القوطي العالمي (١) .

النزعة الطبيعية والبساطة

لكن مع الزمن ، اخذت تظهر بوادر بداية

١


٢


٣


(١) - « ظهور الملاك » المأخوذ من « ساعات بوسيكو » (١٤٠٥ ؟) مشهد قصصي يحيط به هامش من الزهور . يتمثل في الستارة الناعمة الملفلفة الاسلوب القوطي العالمي ، الا ان المشهد الطبيعي ينبىء بنزعة فان آيك الطبيعية .

(٢) - في « السيدة » لمعلم مولان (١٤٩٠ ؟) من تأثير الفلاندري هوغو فان دير جوس بمقدار ما فيها من تأثير فوكيه . كان الفنان الذي رسمها على الارجح هو الهولندي جان هاي ، رسام بلاط آل البوربون في مولان التي من اسمها جاء لقبه .

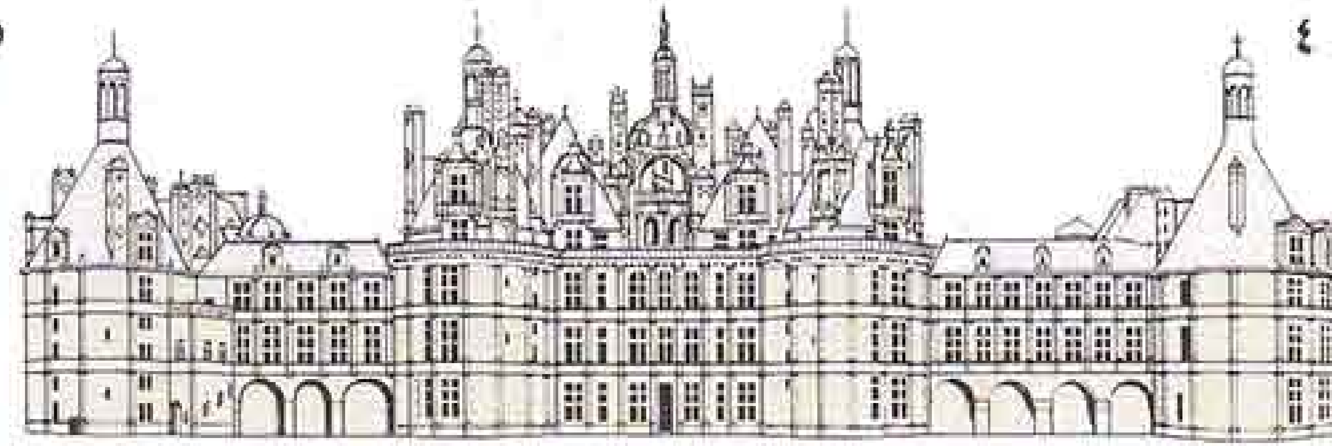
(٣) - باشر بناء قبر فرنسوا الاول بسان دني بباريس ، فيليبير دي لورم سنة ١٥٤٧ . يرمز شكل قوس النصر الى انتصار الحياة على الموت ، كما في القبور الايطالية . يبدو الزوجان داخل القبر ميتين ، وفي اعلاه حيين وهما يصليان . اما النحات فهو بيار بونتان .

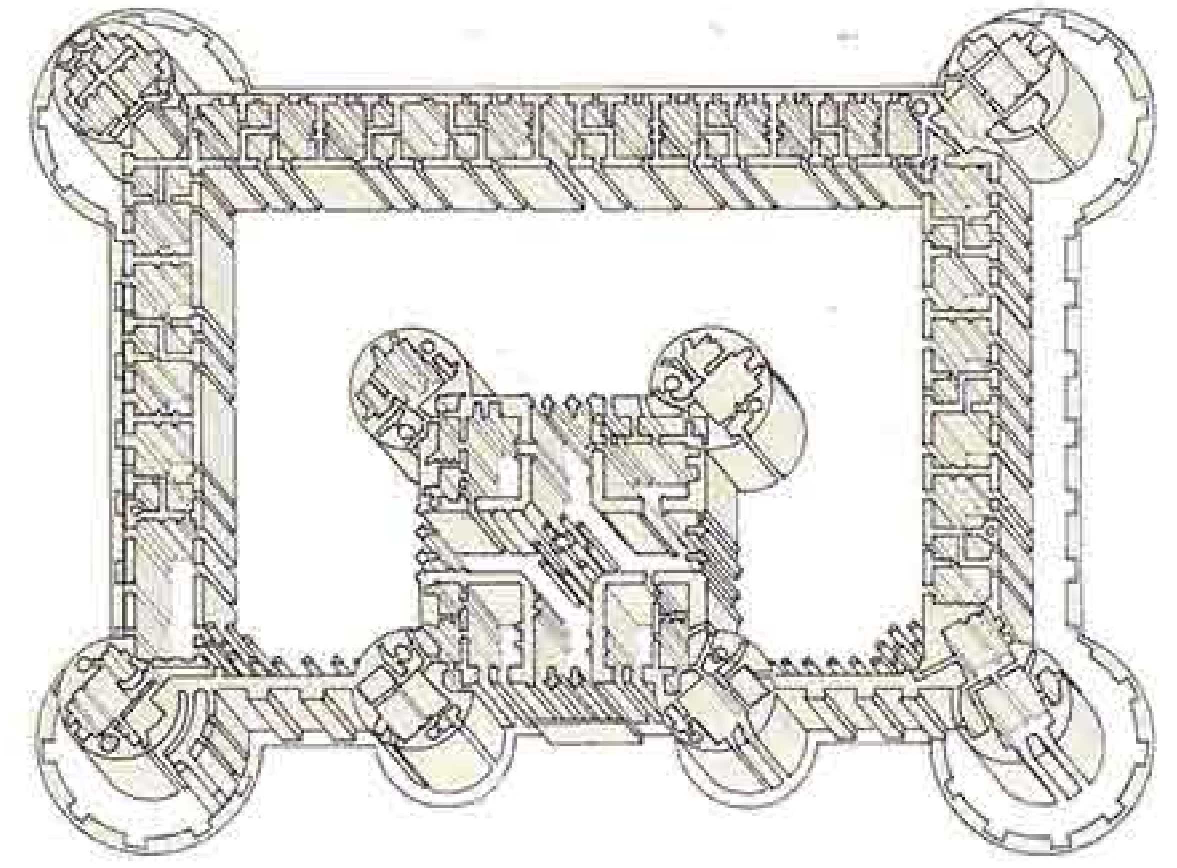
(٤) - بوشر بقصر شامبور سنة ١٥١٩ ، وكان مهندسه دومينيكا دا كورتونا على الارجح ، مع ان الآثار الحقيقية الوحيدة للتصميم الايطالي لا تظهر الا في البرج المبني على شكل صليب . فيما عدا ذلك ، تظهر في التصميم العام ميزات القصور الفرنسية في العصور الوسطى .

(٥) - بدأ بيير ليسكو ببناء « الساحة المربعة » في اللوفر سنة ١٥٤٦ . كانت اعادة بناء اللوفر القديم (ابتداء من ١٥٢٧) بأمر من الملك فرنسوا الاول ايذانا بعودة السلطة المركزية الى باريس .

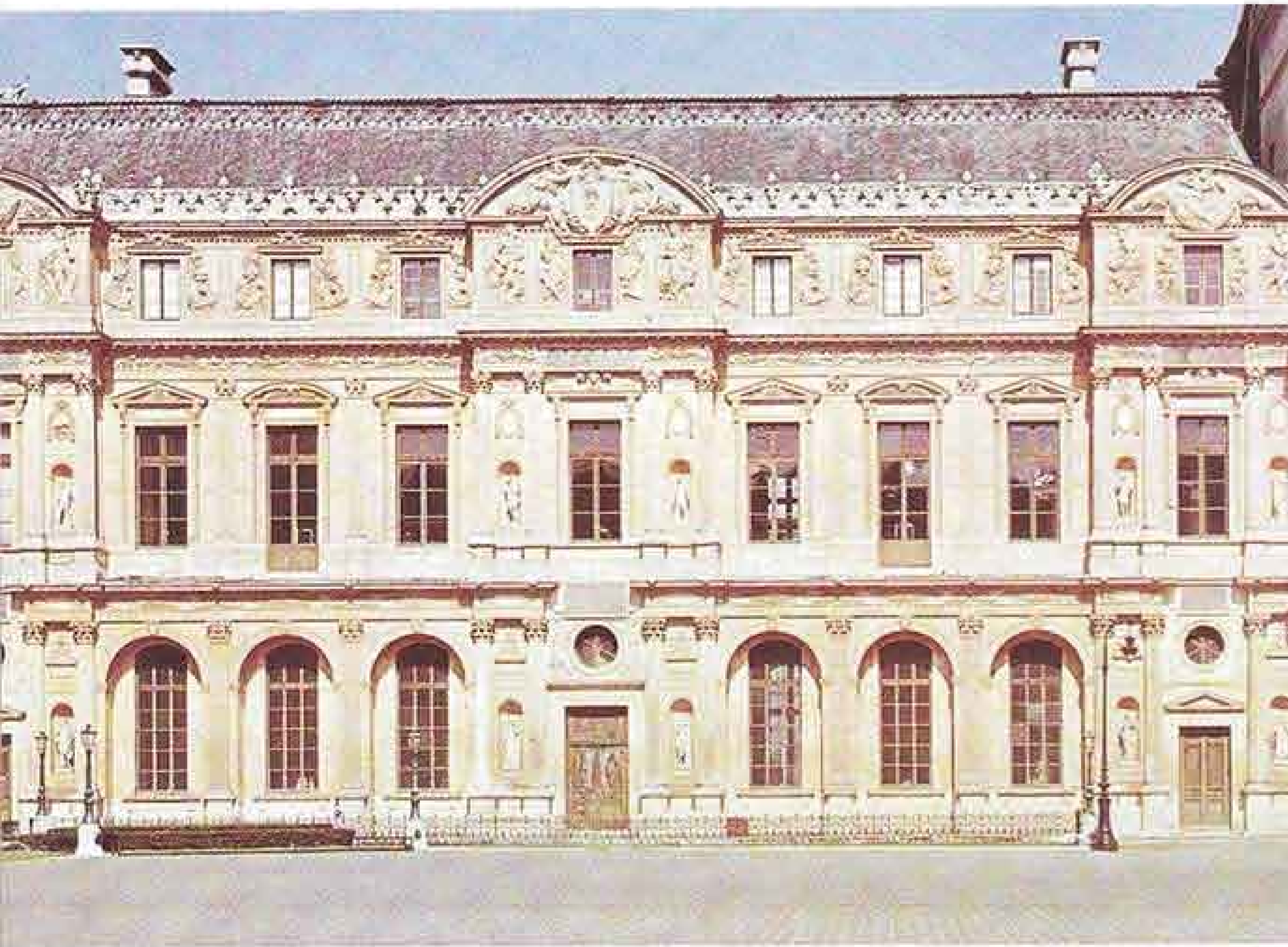
فنية جديدة كانت مستوحاة من جانبين : ايطاليا والفلاندر . كان اهم فنان في هذا المجال هو جان فوكيه (حوالى ١٤٢٠ - ١٤٨٠) (٧) الذي أقام في روما بين ١٤٤٦ و ١٤٥٠ ، فجاء جمعه بين نزعة الشمال الطبيعية الجديدة وبين النزعة الجنوبية الى البساطة وجلاء الشكل والمساحة منقطع النظير في منتصف القرن . عمل فوكيه ، الذي يبدو انه كان الفنان الرئيسي لشارل السابع (١٤٠٣ - ١٤٦١) ولويس الحادي عشر (١٤٢٣ - ١٤٨٣) كرسام لوحات ومنمنمات في تور وبورج ، كما عمل فنانون آخرون على صلة بالبلاط ، مثل معلم مولان (جان هاي) (٢) في ذلك الجزء من وادي اللوار المحبّب لدى بطانة الملك آنذاك . مع ذلك ، ظهرت ايضا مدرسة ناشطة جدا في بروفانس ابتداء من حوالى ١٤٤٠ كان رساموها يميلون اما الى الاسلوب الفلاندري ، كنيقولا فرومان (١٤٥٠ ؟ - ١٤٩٠)

٤

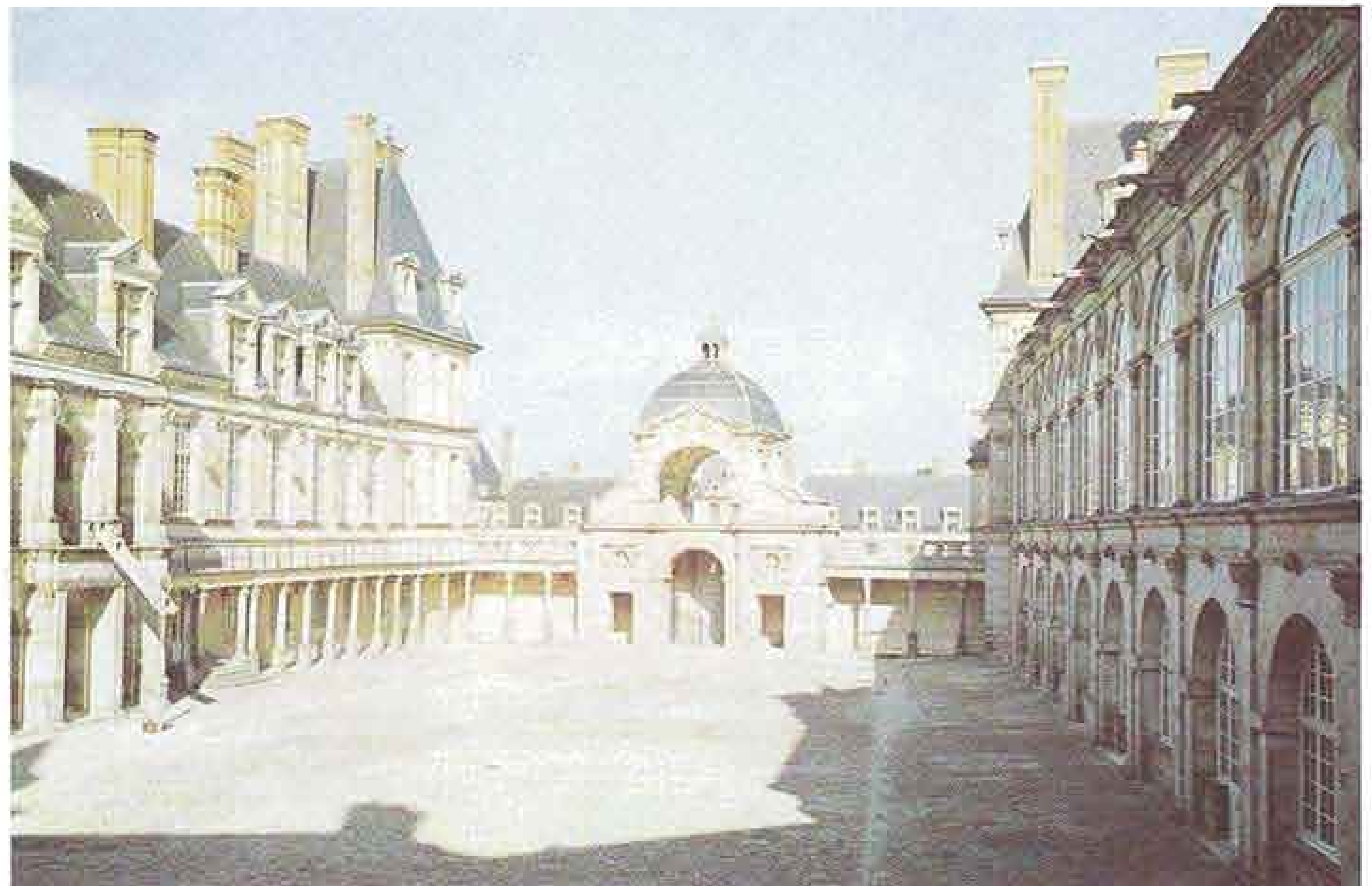




٥



٦



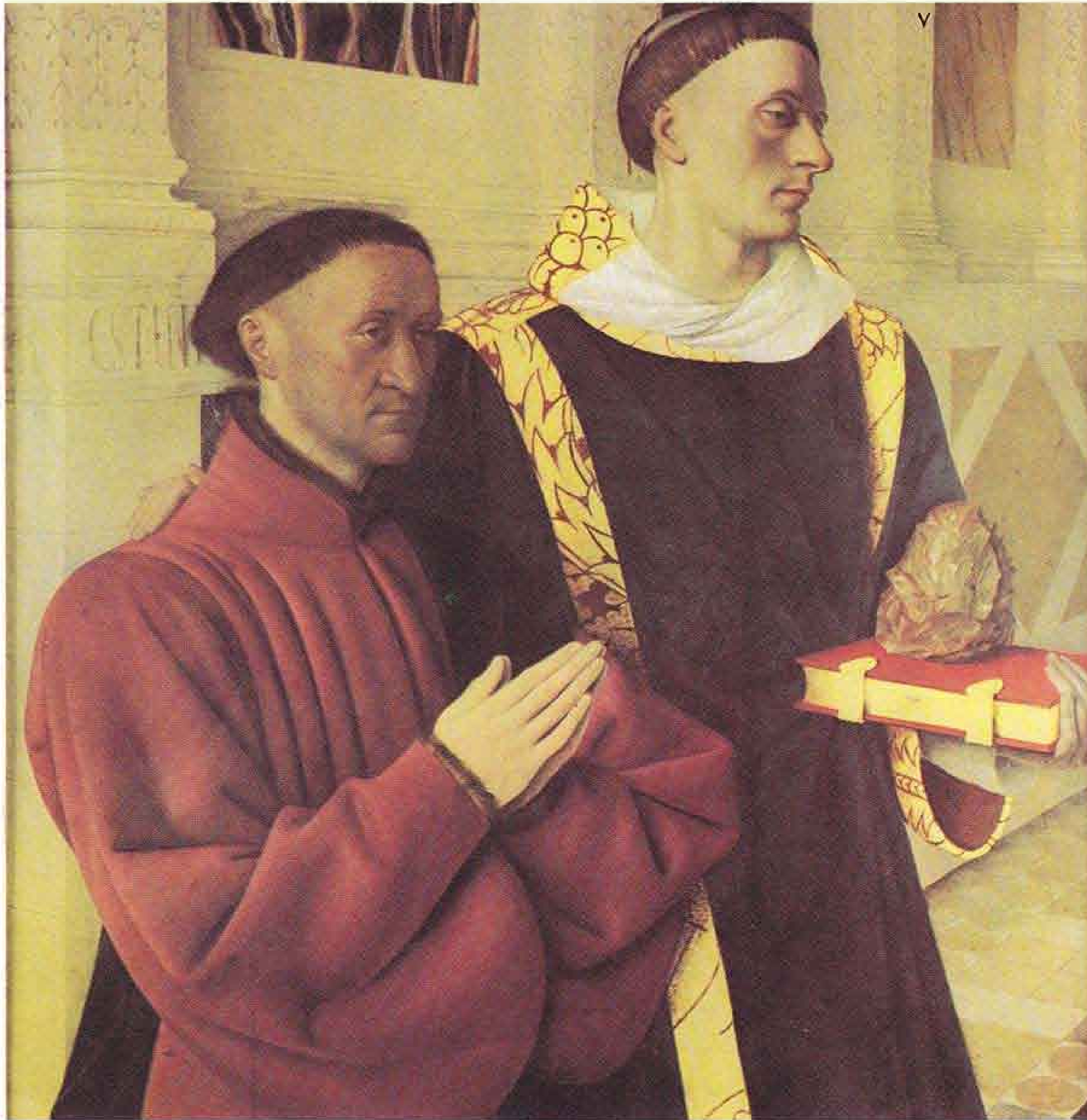
(٦) - « الساحة البيضوية » لقصر فونتانبلو (شرع بها سنة ١٥٣٠) اضيفت على يد المهندس جيل لوبريتون الى كوخ الصيد الخاص بفرنسوا الأول . في البدء كان يصعد المرء الى الفتحة العليا المثلثة الاقواس الواقعة الى اليسار عن طريق درج خارجي . أما الممر المقبب ، فقد أضيف حوالى ١٦٤٠ .

مثلا ، واما الى الاسلوب الايطالي ، مثل : أنغيران كارتون .

بلغ النحت عامة ارفع درجات الابتكار في الانماط الدنيوية من القصور والمنازل الريفية الكبرى ، مثل اوتيل جاك كور في بروج (١٤٤٤ - ١٤٥١) او اوتيل كلوني بباريس (بوشر به سنة ١٤٨٥) . ففي مثل هذه المباني ، تظهر عناصر من التخطيط قيض لها ان تتكرر في قصور القرن التالي العظمى ، وخصوصا في ساحاتها الواسعة وسلالمها الخارجية ، وابراجها المستديرة وسقوفها المنحدرة واروقتها البسيطة .

الثقافة المنبثقة عن الصراع

جاء انتعاش الفن الفرنسي ابتداء من حوالى ١٥٠٠ نتيجة لانتصارات شارل الثامن ولويس الثاني عشر في الغزوات العسكرية لايطاليا في عامي ١٤٩٤ و ١٤٩٩ ، وغدا



(٧) - ان لوحة « اتيان شيفاليه والقديس اسطفان » (١٤٥٢ ؟) هي النصف الايسر من لوحة لفوكيه كانت تقوم فوق قبر شيفاليه في ميلون ، ويظهر في النصف الأيمن منها العذراء برفقة الملائكة ، مما يعني في الارجح ان القديس يعهد بالمتبرع باللوحة للعذراء كي ترأف به . كان شيفاليه من أهم أفراد حاشية شارل السابع . وقد وضع فوكيه له كتابا خاصا بساعات الصلاة . يكشف هذا الأثر أيضا عن براعته في الرسم المنظوري وفي تصوير الخلفيات ذات الأعمدة الكلاسيكية ، وهي صفات جاءت بطبيعة الحال من ثمار رحلته الحديثة لايطاليا . وهناك اعتقاد بأن واقعية فوكيه كانت مستمدة بالأحرى من جذوره في الفن الفلاندري .

الفرنسيون ثقافيا من اتباع ايطاليا ، بعد ان سحرتهم النهضة الثقافية التي شاهدوها في فلورنسا ونابولي وميلانو . وقد ظهرت طلائع الطلينة في البلاط على عهد هذين الملكين . ان اقدم اثر موثق توثيقا حسنا (مع انه وصل الينا ناقصا) هو قصر غايون (١٥٠١ - ١٥١٠) الذي بني وزخرف على يد بعض الايطاليين للوزير الكاردينال دامبواز . لكن هذه « الطلينة » ما لبثت ان غدت منهاجا واضح المعالم على عهد فرنسوا الاول (ملك ١٥١٥ - ١٥٤٧) الذي زار ايطاليا واعجب بها وجذب الى بلاطه شعراء وموسيقيين وفنانين ايطاليين (منهم ليوناردو) . في اعقاب ذلك ، اصبح البناء الدنيوي هو المهيمن على الفن الفرنسي طيلة قرن كامل ، خصوصا بعد ان اخذ الملك واتباعه يحيطون انفسهم بنماذج النمط الجديد التي تكيفت بالطبع حسب الظروف الاجتماعية والمناخية المختلفة كل الاختلاف عن الظروف السائدة في ايطاليا فاحتفظت بملامح فرنسية الطابع .

أما اولى مباني فرنسوا الاول التي قاومت الزمن حتى يومنا هذا - وهي الجناح الكائن في بلوا وقصر شامبور (٤) - فهي مخضرمة ، وقد لقحت فيها الاشكال المحلية بالتفاصيل الايطالية ، فجاءت النتائج خليطا غريبا عجيبا ، كما نرى ذلك في المداخن وغرف النوم نصف « المشعة » ونصف النهضوية المرتفعة فوق سطح شامبور المدهش .

الا ان جميع آثار الفن القوطي قد زالت من المباني الجديدة في فونتانبلو التي بدأ بها بأمر من فرنسوا جيل ليبرتون (٦) سنة ١٥٢٨ ، وانجزها في الستينات بريماتكيو . لا يمكن بالطبع اعتبار النتيجة بناء ايطاليا ، فسقوفها المنحدرة وغرف النوم فيها لا تسمح لنا بذلك . لكن حوالى ١٥٣٠ ، كان قد استتب الامر لنمط اصيل خاص بالنهضة الفرنسية ، وهو بمراحل عديدة انضج الانماط كلها التي ظهرت خارج ايطاليا ، فحافظ النحت الفرنسي في منتصف القرن على مكانة رفيعة بزعامة فيليبير دي لورم (١٥١٠ ؟ - ١٥٧٠) (٣) وبيار ليسكو (١٥١٠ ؟ - ١٥٧٨) (٥) . يبدو ان اسلوب دي لورم ، وقد اتصف بالنقاوة والتعقـل ، غـدا من وجهة نظـــر الاجيال اللاحقة ، اساس التقليد الكلاسيكي الفرنسي .

مدرسة فونتانبلو

كان البلاط الملكي محورا للنشاط في ميدان الرسم والنحت ، بحيث اصبحت « مدرسة فونتانبلو » لقبا ينطبق انطباقا تاما على اغرب التطورات التي حصلت في هذين الفنين . هنا ايضا كان وجود الايطاليين الذين استقدمهم فرنسوا الاول حاسما ، امثال روسو فيورنتينو (١٤٩٥ - ١٥٤٠) وفرانشيسكو بريماتيكيو (١٥٠٤ - ١٥٧٠ ؟) من الرسامين ، وبنفنوتو شليني (١٥٠٠ - ١٥٧١) من النحاتين . وقد اتفق ان ظهرت مواهب محلية بين النحاتين اكثر منها بين الرسامين : فجان غوجون (١٥١٥ - ١٥٦٢) وجرمان بيلون (١٥٣٥ ؟ - ١٥٩٠) عالجـا الجسـم البشـري برقة ومهارة تضارعان أي ند ايطالي باستثناء مايكل انجلو وحده . وقد قيض لمدرسة فونتانبلو ، التي برزت في حقل النقش وصناعة المعادن ايضا ، ان تصبح احد المراكز النافذة « للتصنع الفني » في الشمال ابتداء من سنة ١٥٣٠ .

المدرسة التصنعية في الفن

كان اسلوب « النهضة العليا » في فلورنسا وروما مصطنعا من عدة وجوه ، لا سيما من حيث رشاقته ومثاليته ونزعته الى المغالاة في اتخاذ الوضعات أو المواقف . كان انجاز الفنانين الرئيسيين يكمن أصلا في كمال الاسلوب ، أو هكذا بدا لهم ، فأصبح توخي كمال الاسلوب هدفا بحدّ ذاته . يدعى الطور المتصف بهذه الخصائص « التصنعية » .

خصائص الاسلوب

لم يكن التكلف المزيّة الوحيدة التي اعتبرت جديرة بالاعجاب في القرن السادس عشر ، بل كان التجديد والخروج على القاعدة والتنويع والاتيان بالعجيب الغريب



١

(١) - ان الجزء الذي اختص به روسو فلورنتينو من قاعة فرنسوا الاول (١٥٣٥ - ١٥٣٩) في قصر فونتنبلو هـو احدى فرجات القاعة الاثنتي عشرة المختلفة كل منها عـن الأخـرى بصورة عامة ، تبدو المشاهد في هذه القاعة رموزا لعهد فرنسوا الأول . الرسم الجداري المركزي هنا (وهو أقرب ما يمكن أن يكون الى فن روسو) هو رسم « وفاة أدونيس » الذي ربما كان يلمح الى وفاة ولي العهد سنة ١٥٣٦ ، كما ان السمندر البادي في أعلى الصورة هو شعار الملك الخاص . أما بريماتيتشيو ، فقد كان يستعمل خليطا مشابها من الرسم وملاط الجبس (وهي أفكار رومانية وفلورنسية) .



٢

(٢) - رسم بارميجيانينو « السيدة ذات العنق الطويل » (١٥٣٤ - ١٥٣٦) من أجل ا يلينا باياردي ، لكنيسة في بارما . يشير الموضوع الى رؤيا القديسة هيلانة للصليب ، التي يمثلها الاناء البلوري . تتفاعل جميع الاشكال مع هذه الرؤيا . فالعذراء ترى في الطفل المستلقي على ركبتيها صورة مسبقة لآلام الصليب ، والعمود رمز لطهارة « العذراء » . يمكن مقارنة المحتوى بواجهة المذبح لكوريجيو (١٤٩٤ ؟ - ١٥٣٤) ، ولكن النشوة تبدو هنا شكلية أكثر منها تعبيرية .

موضع تقدير عظيم في ذلك العصر لم يسبق له مثيل ، كما يتبين من التحليل النقدي الذي قام به جيورجو فازاري (١٥١١ ـ ١٥٧٤) مثلا . كذلك اعتبر تعمّد اظهار العبقرية من خلال العمل الفني هدفا مشروعا ، لا بل كان من الممكن أن يصبح هذا الاظهار الموضوع الحقيقي للعمل الفني . كانت « التصنعية » أحد أساليب « النهضة » الأخيرة ، وكان من المهم لجميع المعتقدات التي بني على أساسها أن تجد لها ما يبررها في مؤلفات الثقاة من القدماء . فكانت آثار العصور القديمة الباقية تقرأ وتفسر بروح جديدة كانت تعير اهتماما خاصا لما يتصل بالتجوز والتعقيد والاناقة في تلك المؤلفات . ومما سهل تقبل هذه النزعة الجديدة في البلدان الشمالية تقدير هذه البلدان للخصائص المماثلة التي كانت تجدها في المرحلة الأخيرة من الفن القوطي ، مع انها كانت تزدري كليا الفن القوطي بحد ذاته .

٣



(٣) ـ كان تمثال « علم الفلك » (١٥٧٣ ؟) لجيانبولونيا من أكثر تماثيل هذا الفنان الصغيرة اتقانا ، وقد صنع بحيث يمكن ادارته باليد ، ليمكن المرء من التمتع بروعة وتنوع تركيبه . فمن أي زاوية كان ، تؤلف الاشكال تصميما متوازنا ومعقدا ، يأتي مختلفا كل مرة . دفع جيانبولونيا في نتاجه تلك الخاصية المميزة للقرن السادس عشر (وهي صنع الفن للعارفين) الى نتيجتها المنطقية . فهو لم يكن يرى للموضوع أهمية خاصة ، بل كان يختار الاشكال « لكي تعطي بعدا خاصا لآفاق العلم وانجاز الفن » .

٤



(٤) ـ كانت لوحة « فينوس وأدونيس » لبارتولاماوس شبرانجر (١٥٩٠ ؟) تعبر عن ذوق رودلف الثاني وبلاطه في براغ ، حيث شاع اهتمام غير عادي بجميع الأشياء الغريبة وغير المحتملة . كان شبرنجر فنانا عالميا ، تدرب في أنتورب وباريس وبارما وروما ، فأثر تأثيرا بالغا ، بواسطة نقّاشه غولزيوس ، في مراحل « الحركة التصنعية » الأخيرة . بصورة عامة ، يعطينا انتاجه الانطباع ، كما في هذه الصورة ، بأن اسلوبه يتسابق مع مواضيعه في الا بتعاد عن المعقول .

كانت الظروف الفنية في روما بعد ١٥٢٠ بقليل مؤاتية جدا لنمو الحركة « التصنعية » . فالطائفة اللامعة من الفنانين الشباب من تلامذة رافائيل الفلورنسيين ، أمثال ج . ب . روسو (١٤٩٤ - ١٥٤٠) وبنفنوتو تشيليني (١٥٠٠ - ١٥٧١) ، أو من الايطاليين الشماليين ، أمثال جيرولامو بارميجيانينو (١٥٠٣ - ١٥٤٠)، وجدوا أنفسهم مضطرين الى اظهار مهارتهم وحذلقتهم بسبب المنافسة الشديدة فيما بينهم من جهة ، وبسبب تأثرهم ، من جهة أخرى ، بخصائص الآثار الأخيرة لرافائيل (توفي ١٥٢٠) ونتاج ميكل أنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) المعاصر . فقد كانت رسوم ميكل أنجلو غنية بالابتكار ، ومنحوتاته عذبة ومتفننة الى حد الابتعاد عن الطبيعة ، وعماراته متسمة أكثر فأكثر بالتجوز عوضا عن الالتزام بالقاعدة (٦ ، ٧) . بدأ تفرق شمل هذه الجماعة قبل اجتياح روما سنة ١٥٢٧ ، ولكن هذا التفرق استهدف موضوعا ما او موقعا او نصيرا ، عدا الطموح الرامي الى اقناع العالم بأنه ، خلافا للاشاعات ، قادر على العمل على نطاق ضخم في المرمر كما في المنحوتات البرونزية الصغيرة ، التي قامت عليها شهرته .

٥


(٥) - صنع فانزل يامنتزر هذا الدورق (١٥٧٠ ؟) من الفضة المذهبة المطلية بالمينا والمرصعة . لقد وصلتنا من أيام الامبراطورية الرومانية آنية مدهشة في ابتكاراتها ومصنوعة من البرونز والفضة . ثم أصبح صنع الأواني الأكثر تفننا وتعقيدا أحد المشاغل « التصنعية » الرئيسية . كان يامنتزر (١٥٠٨ - ٨٥) يستعمل قوالب من الحيوانات الحقيقية .

٦


(٦) - جاءت « البوابة البارّة » بروما لميكل أنجلو ، وقد بوشر بها سنة ١٥٦١ ، نموذجا بديعا للتجوز « التكلفي » . فليس لها رؤوس أقواس حقيقية ، وما رؤوسها المزيفة سوى اجزاء من عارضة تعلوها قطرات أحد الطنوف .

٧


(٧) - صمم تمثال « لنصر » لميكل انجلو (١٥٢٧ ؟ - ١٥٢٨) لكي ينصب في مشكاة واقعة في أدنى موقع من ضريح يوليوس الثاني حيث يحيط بها عبدان . تعرف حركة الاشكال اللولبية المتواصلة « بالشكل الثعباني » ، الذي يقال ان ميكل انجلو كان يعتبره أكمل الأشكال .

٨


(٨) - يبدو ان لوحة « اغتصاب المرأة السابينية » (١٥٨٢) لجيانبولونيا قد رسمت دون ان يكون الفنان قد

ذاته أثر بشكل مباشر في نشر « التصنعية » في مراكز أخرى ، كجنوة مثلا من خلال انتقال بيرينو ديل فاجا (١٥٠٠ ؟ - ١٥٤٧) اليها ، واميليا من جراء مجيء بارميجيانينو اليها وفونتنبلو في آخر الأمر بنزول روسو فيها .

رعاية آل مديتشي

في ايطاليا ، كان ألمع فنان تصنعي في حدود ١٥٣٠ ، اذا استثنينا ميكل انجلو ، هو بارميجيانينو ، أولا في بولونيا ثم في بارما . فلوحته « السيدة ذات العنق الطويل » (٢) ، هي أحد الآثار الدينية التي تبدو رسالتها الدينية أقل ظهورا ووضوحا من اشكالها الأنيقة ورشاقتها الايقاعية ورقة تفاصيلها ولونها النقي غير الواقعي . وبعد ١٥٤٠ ، أصبحت فلورنسا أشد المراكز الايطالية حيوية ، وبقيت كذلك حتى مطلع القرن السابع عشر ، في ظل رعاية أمراء آل مديتشي . فقد جمع كوزيمو الاول (١٥١٩ - ١٥٧٤) فريقا من كبار الفنانين الموهوبين : هم الرسامان سالفياتي (١٥١٠ - ١٥٦٣) ، والبرونزينو (١٥٠٢ - ١٥٧٢) ، والنحاتان تشليني ، وبارتولوميو أماناتي (١٥١١ - ١٥٩٢) ، والمهندس المعماري بونتالانتي (١٥٣٦ - ١٦٠٨) . وفي عام ١٥٦٠ ، جذب هذا البلاط اليه الفنان الوحيد العظيم حقا الذي التزم كليا بالاسلوب التصنعي ، جيامبولونيا الفلاندري (١٥٢٩ - ١٦٠٨) . لم يضارع نتاج أي نحات آخر آثاره في تعقيدها الأنيق ، أو في تعمدها لأن تكون موضع اعجاب من اجل فنها بحد ذاته . فضلا عن ذلك ، لقد رفع التماثيل البرونزية الصغيرة الى ذروة الاتقان ، واشتغل أيضا على نطاق واسع بالمرمر (٣ ، ٨) ، محاكاة لميكل أنجلو الى حد ما .

من الطبيعي أن يزدهر في مجال المعدنيات والمجوهرات ذلك الاسلوب الذي كان يميل الى التأنق ويقوم على الاتقان التقني . كان تشليني ، الذي أنجز مملحته الذهبية من أجل فرنسوا الأول ، أشهر صاغة عصره ، الا أن أكثف حشد لهذا النوع من المواهب ظهر في المانيا الجنوبية في النصف الثاني من القرن (٥) .

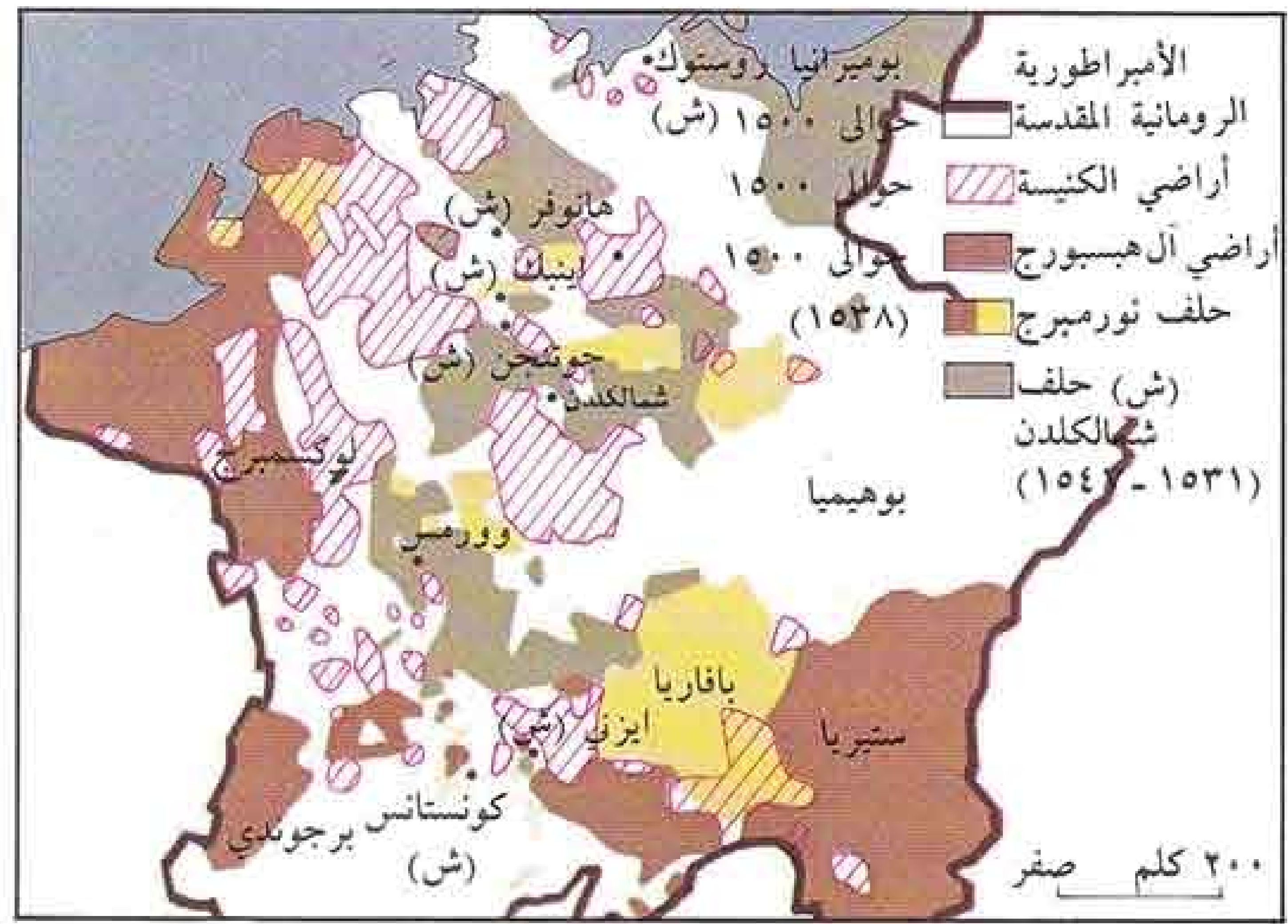
المراكز الشمالية

جعلت الحركة « التصنعية » في الشمال من البلاطات ، بالدرجة الأولى ، وان لم يكن بصورة قطعية ، مركزا لها ، كان أولها في فونتنبلو . فهناك ، ابتداء من حوالى ١٥٣٠ ، جاءت زخرفة قصر فرانسوا الجديد « تصنعية » بالتأكيد ، وأحدثت تأثيرا كبيرا (مثلا في انجلترا) . كان الفنانان الرئيسيان هنالك الايطاليين روسو وبريماتيتشيو ، وكان نتاجهما الرئيسي « قاعة فرنسوا الأول » ، وهي خليط فضفاض من الرسم الرمزي المؤسلب ومن ملاط الجبس النافر المعقد (١) ، حيث ظهرت للمرة الاولى ملامح الرواج الشامل للزخرفة « التصنعية » والعمل بالسيور (اي أطواق زخرفية شبيهة بالسيور) . حوالى ١٦٠٠ ، كانت مراكز « التصنعية » الحيوية الأخيرة مزدهرة في هولندا (مدرسة هارليم) وفي بلاط رودولف الثاني في براغ ، حيث انتج الرسام الفلاندري بارتولوماوس شبرانجر (١٥٤٦ - ١٦١١) والنحات الهولندي ادريان دي فريز (١٥٤٨ ؟ - ١٦٢٦) فنا غراميا جنسيا مبتذلا ولكن من أعلى طراز .

حركة الاصلاح الديني

عندما علق مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) « مبادئه الخمسة والتسعين » على باب كنيسة القصر في فيتنبرغ بسكسونيا (المانيا) في ٣١ اكتوبر ١٥١٧ ، لم يكن ذلك منه سوى طريقة جديدة لافتتاح جدل ديني من الطراز التقليدي . الا ان نتائج احتجاجه هذا أدت الى احداث ثورة كانت ايذانا ببداية عهد تاريخي جديد انطوى على : نهاية هيمنة الكنيسة الاوروبية الكاثوليكية الواحدة وانشاء كنائس « اصلاحية » او بروتستانتية متعددة ، وقرن ونصف من الحروب « الدينية » التي حزت دول اوروبا القومية الناشئة ، وفهم جديد للعقيدة المسيحية اثر في ملايين من الرجال والنساء في شتى انحاء العالم . جميع هذه

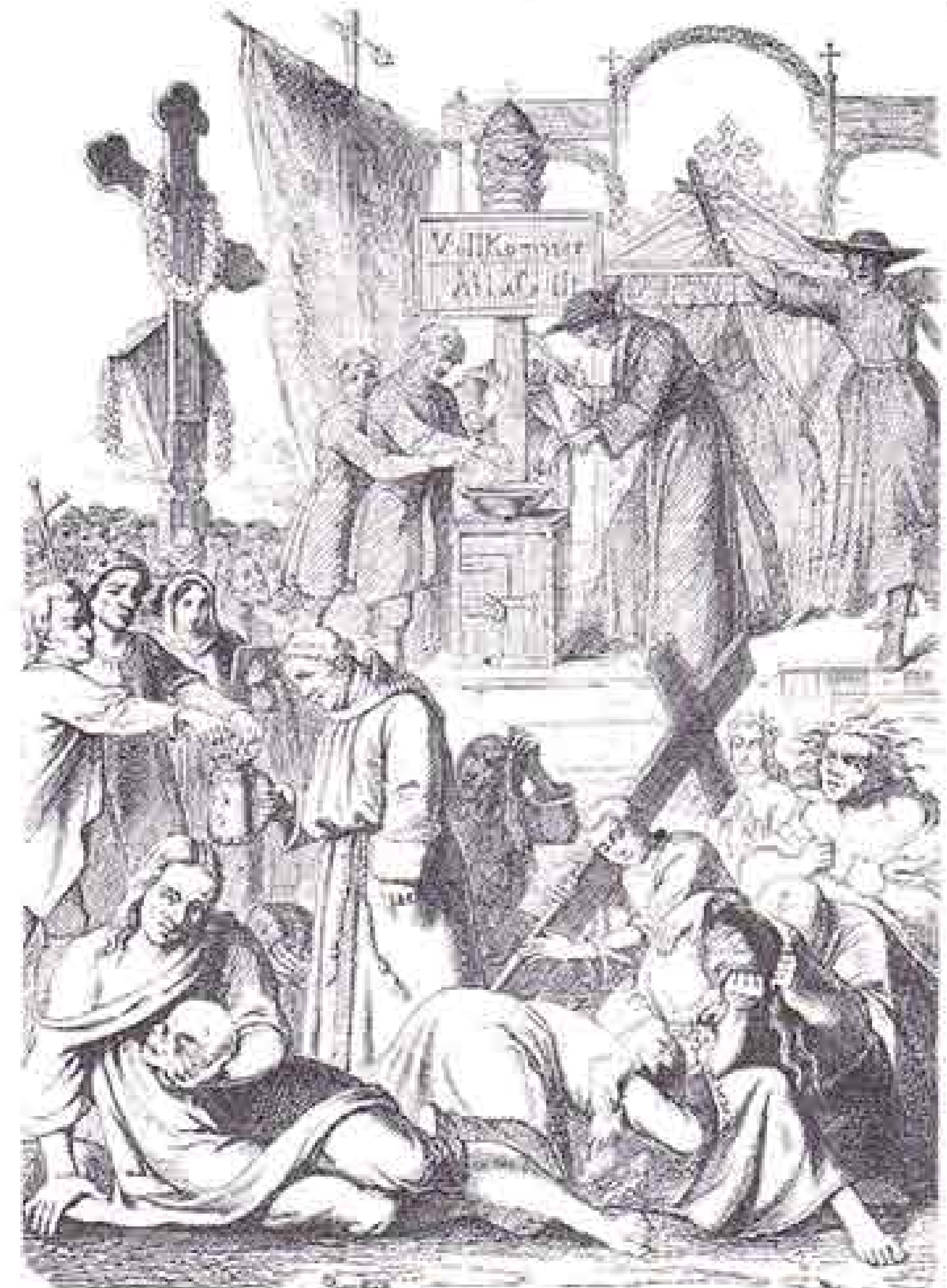
١



(١) - كانت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » نظريا هي التعبير السياسي عن الكنيسة الكاثوليكية ، لكنها عمليا مجموعة من الدول الالمانية المتنافسة . أتاحت حركة « الاصلاح » الفرصة التي كان يتربصها عدد من الأمراء فيها لتحدي سلطة الامبراطور . فألف الحكام البروتستانت فيما بينهم حلف شمالكلدن سنة ١٥٣١ . فرد الامبراطور على ذلك بتأليف حلف نورمبرغ سنة ١٥٣٨ . وبدت الحرب وشيكة الوقوع . لولا التسوية للخلافات التي حصلت سنة ١٥٣٩ .

(٢) - كان الهدف من بيع « صكوك الغفران » جمع المال لاعادة بناء كنيسة القديس بطرس في روما . كان مفهوم الغفران اصلا الغاء العقوبة على الخطيئة ، شرط توبة الخاطىء

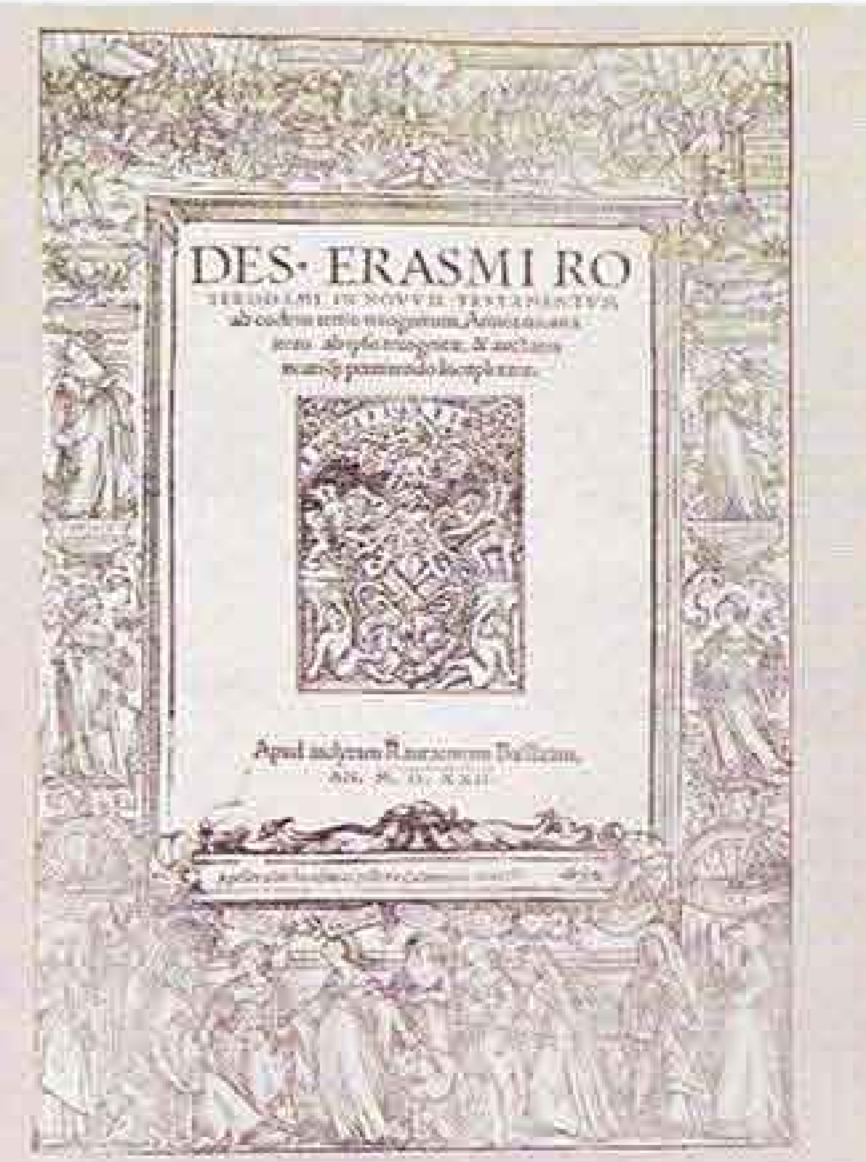
٢



٣



٤



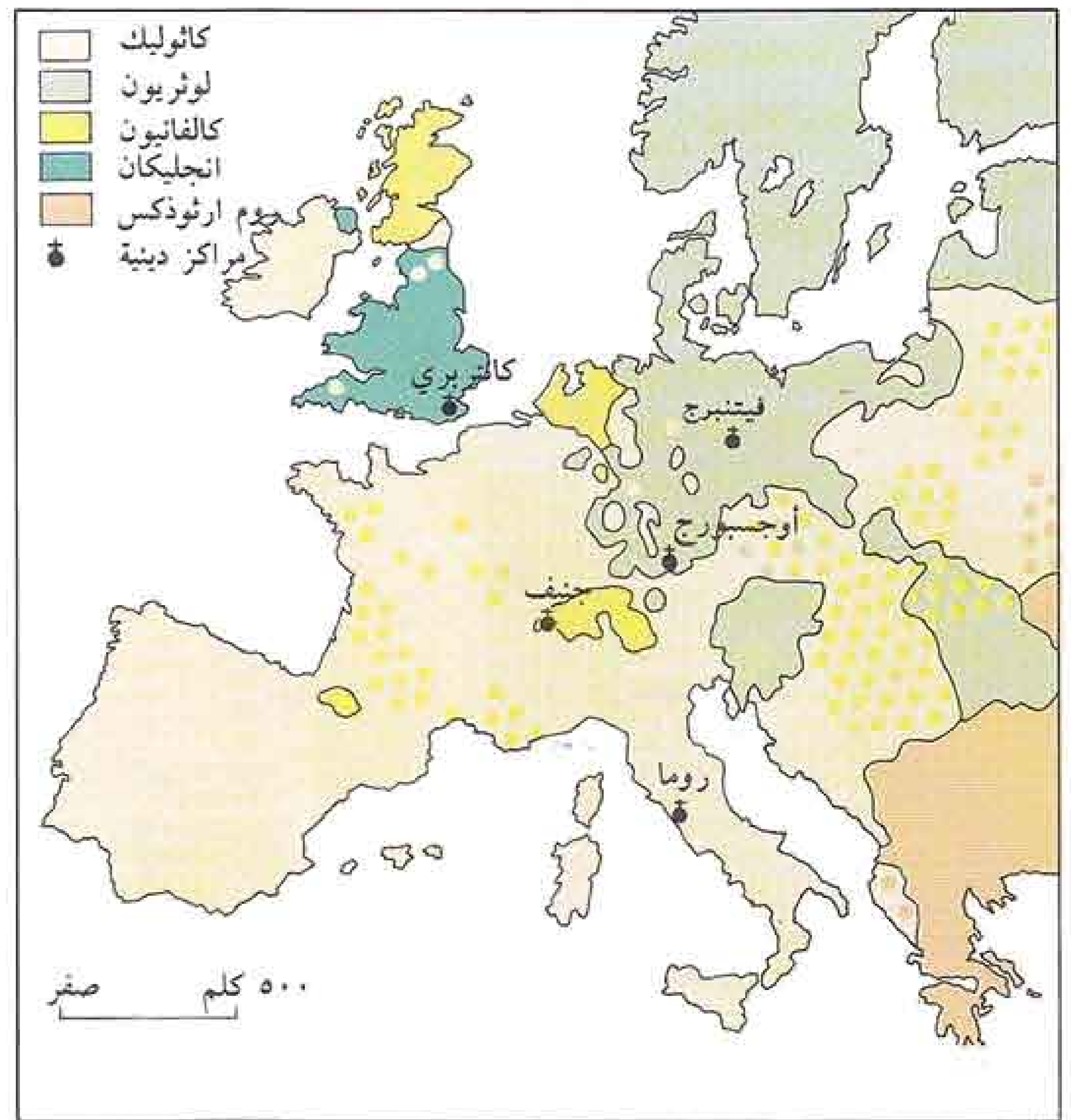
التطورات تشكل تاريخيا جزءا من الحركة المعروفة باسم « الاصلاح الديني » .

النوايا الأصلية

لفظة « الاصلاح » بحد ذاتها تعبر بدقة عن نوايا لوثر الاصلية ، اذ ان « مبادئه الخمسة والتسعين » (٨) لم تكن بالحقيقة سوى حملة على المفاسد التي كانت تعاني منها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من الداخل . فقد ندد بالبابا لاستخدامه الطائش لثروته الضخمة ، ولاسيما لاسلوبه في جمع المال ببيع « صكوك الغفران » (٢)التي كان الواعظون يدّعون انها تمنح آليا غفران الخطايا لكل من اشتراها .

بالحقيقة ، كان تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، طيلة قرون عديدة ، كناية عن سلسلة من محاولات للاصلاح الديني ، وعلى مدى أكثر من عقد واحد قبل عام ١٥١٧ ، كان

٥



الصادقة . لكن في العصور الوسطى ، أخذ الغفران يمنح للخطاة الذين كانوا يأتون الصالحات ، كالالتحاق بحملة صليبية او التبرع بالمال من اجل بناء كنيسة . فأدى ذلك الى الفكرة القائلة بأن الغفران يمكن شراؤه كما لو كان سلعة .

(٣) ـ كانت الرهبنات الدينية المؤلفة من رهبان وراهبات واخوة ، تثير بعض الاستياء والنقمة ، اذ كان اعضاؤها يبدون في نظر الناس العاديين ودعاة الاصلاح عاطلين عن العمل ومفرطي الثراء ينفقون أموالهم على ملذاتهم لا في سبيل الله . كذلك كان الحكام يحسدونهم على ممتلكاتهم النفيسة في المدن وفي الريف .

(٤) ـ جاءت ترجمة « العهد القديم » على يد ايراسموس (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) شاهدا على الجهود الكاثوليكية الرامية قبل ظهور حركة « الاصلاح » الى اصلاح الكنيسة من الداخل . راح ايراسموس في مؤلفاته الأخرى يتهكم على حماقات وخرافات الكنيسة ، معبرا بذلك عن النقمة التي كانت تساور الكثيرين من الذين كانوا حريصين على تجنب انقسام المسيحية على ذاتها . وحتى البابا نفسه كان يشعر بالقدرة على الضحك دون تهيب عند مطالعته لكتب النقد الجديدة .

(٥) ـ بحلول سنة ١٥٦٠ كانت اللوثرية قد امتدت من المانيا الشمالية حتى اسكنديناڤيا وبولونيا وهنجاريا على طول الطرق التجارية الالمانية . وفي اوساط جماعات مبعثرة في المدن التجارية . وبعد ٢٥ سنة من الحروب الدينية ، اعطى صلح اوجسبورج (١٥٥٥) الامراء والمدن اللوثرية الحق في حرية العبادة ، فقوى بذلك سلطة الحكام الكاثوليك والبروتستانت داخل اراضيهم .

٦

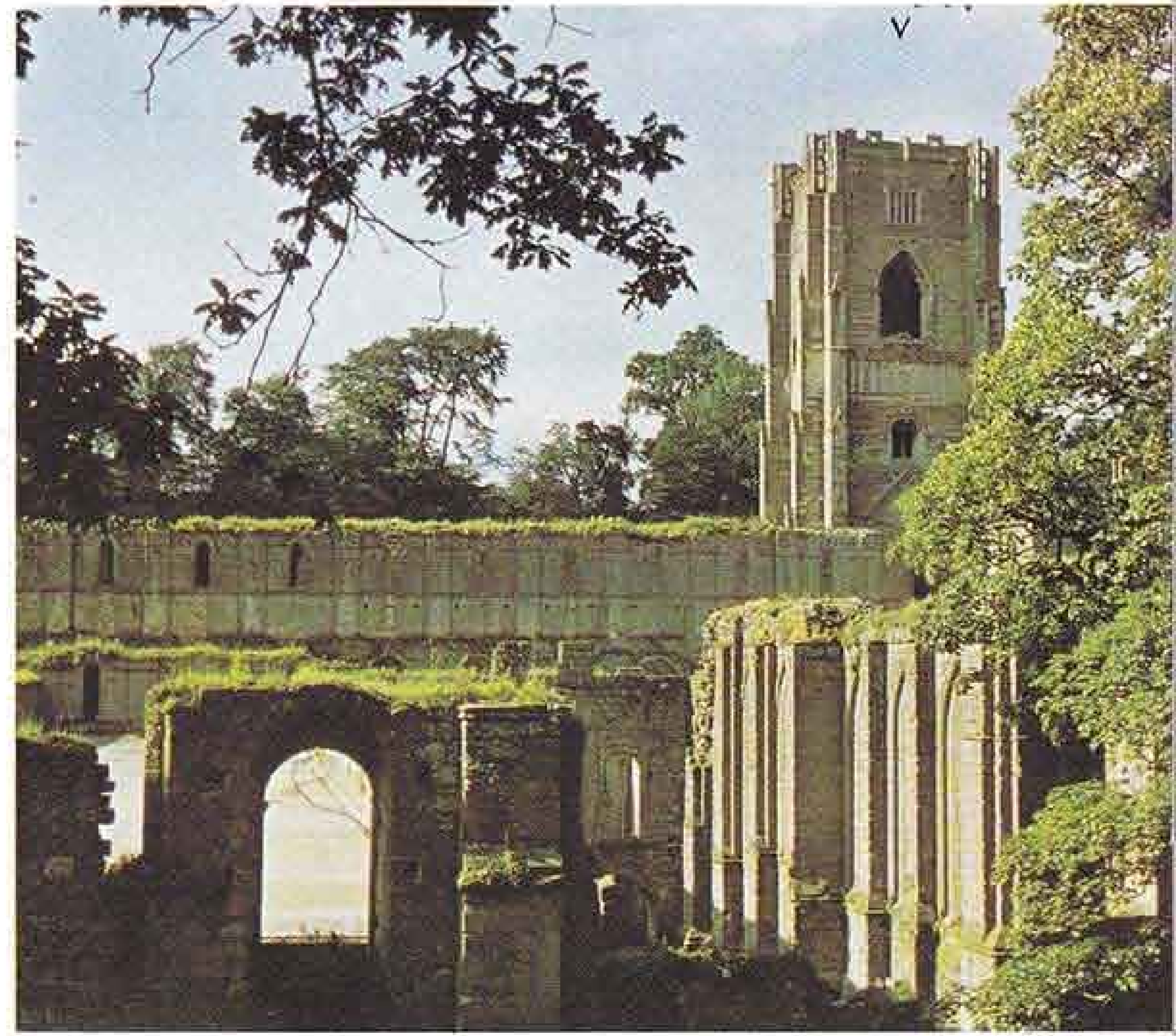


ولكنه لم يمنح اتباع كالفين وزوينجلي اي امتيازات ، وهم الفئات الدينية التي كانت تشكل الاكثرية في هولندا واسكتلندا ومعظم الكنتونات السويسرية ، واقلية ذات شأن في فرنسا وهنجاريا والمانيا

(٦) ـ حل « الكتاب المقدس » محل الكاهن ، كسلطة روحية ، بالنسبة الى الرجل العادي . فترجمت الاسفار المقدسة من اللاتينية واليونانية ، ووضعت بين يدي الشعب في لغته الخاصة ، وبالدرجة الاولى الالمانية في ترجمة لوثر ، والانجليزية في ترجمة الملك جيمس سنة ١٦١١ .

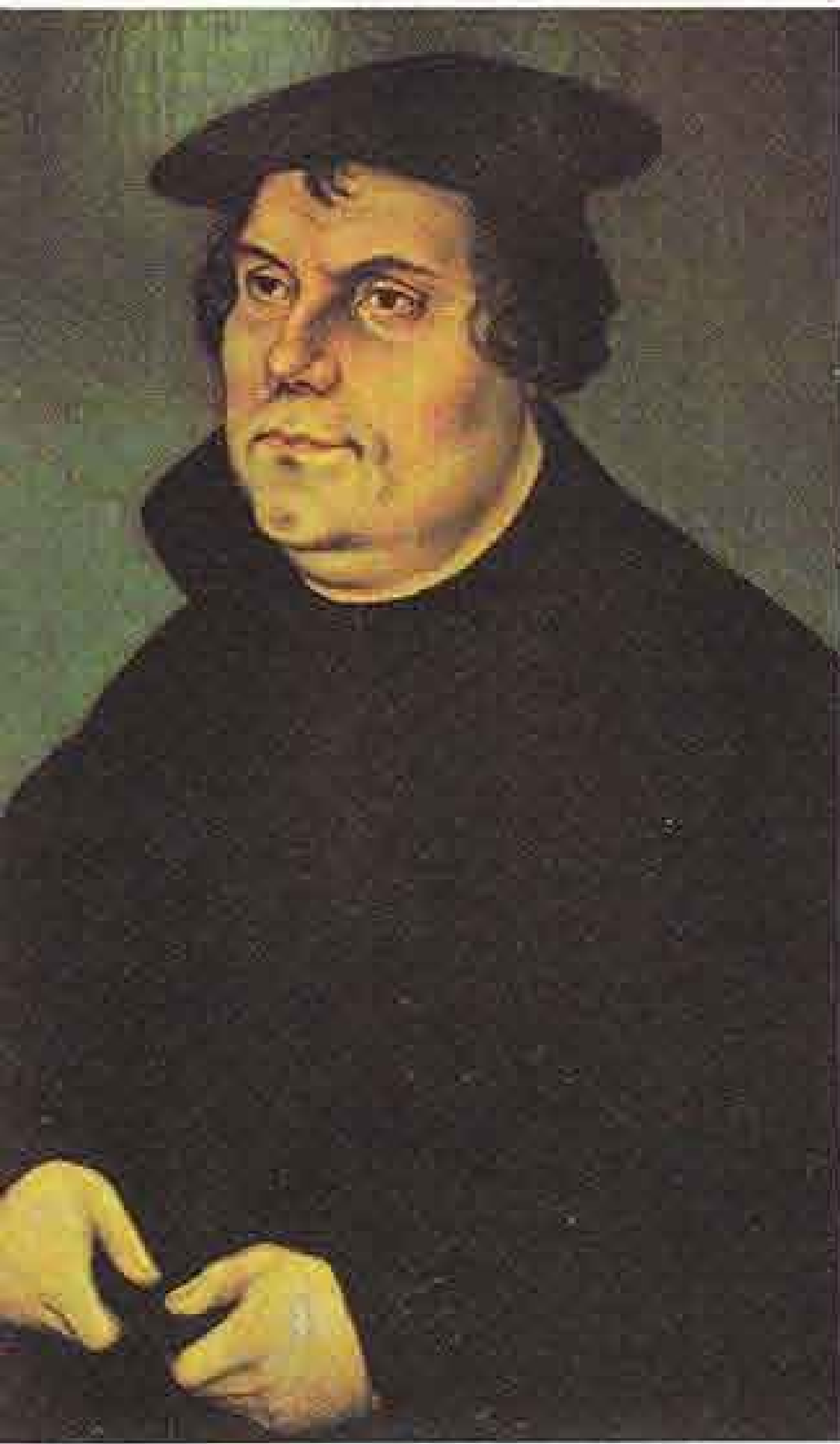
جون كوليه (١٤٦٧ ؟ - ١٥١٩) وايراسموس (١٤٦٦ - ١٥٣٦) (٤) وتوماس مور (١٤٧٨ ؟ - ١٥٣٥) يعملون على تطهير الكنيسة من حماقاتها . لكن ما جعل لوثر يبدو اكثر من مصلح تقليدي انما هو شدة اقتناعه بضرورة الاصلاح وقوة التزامه الشخصي بالعمل على تحقيقه ، مع اقتران ذلك بالوضع السياسي الذي اتفق ان كان سائدا في تلك الحقبة بالذات من تطور اوروبا .

غير ان لوثر تجاوز في شكواه صكوك الغفران واشمئزازه من المال الذي كانت تباع به ، وتطرق الى لب العقيدة اللاهوتية ورفض مفهوم الحساب والعقاب التقليدي بكامله . كان لوثر يشعر بعدم جدارة الانسان الفطرية ، اي بعجزه عن بلوغ الكمال عجزا كليا لا يمكن لأي قدر من الاعمال الصالحة ان يعوض عنه . فقد كان هذا الراهب الاغسطيني والدكتور في اللاهوت ثم الاستاذ



٧

(٧) - (دير فاونتنز) من اروع المباني الدينية التي تهدمت عند الغاء الاديرة في انجلترا (١٥٣٨ - ١٥٤٠) . الغى أول قرار (١٥٣٦) الاديرة التي كان يقل مدخولها السنوي عن ٢٠٠ ليرة . ثم جاء قرار حل الاديرة الاكبر (١٥٣٩) . دفعت رسوم التقاعد للرهبان الذين رفضوا الانضمام الى الاكليروس المدني ، واستولى التاج على الباقي . احتفظ التاج ببعض الاراضي ووهب البعض الآخر ، ولكن معظمها بيع لمزارعين ملاكين .



٨

(٨) - كان مارتن لوثر ، وهو راهب اغسطيني ، اول كبار القائمين بحركة « الاصلاح » . فقد ارتاع ، عند زيارته لروما سنة ١٥١١ ، مما شاهده من ثروة الكنيسة الكاثوليكية الدنيوية وفقرها الروحي المناقضين لمثل المسيحية الاصلية التي جعل منها شعاره ، عند تفنيده لفساد الكنيسة في « مبادئه الخمسة والتسعين » (١٥١٧) . لم يكن لوثر ثوريا ، اذ انه احتفظ بالحلل الكهنوتية وببعض الشعائر الكاثوليكية . لكنه ، في كنيسته الاصلاحية ، انتزع كأس المناولة من يد الكاهن وسلمه لجماعة المؤمنين ، والغى شفاعة القديسين واراد ان تنفق ثروة الكنيسة على المشاريع الرعوية والتربوية .



٩

(٩) - تحت اشراف كالفين ، أصبحت مدينة جنيف السويسرية أكثر مراكز حركة الاصلاح تأثيرا ونفوذا . عاش سكانها في ظل حكم الكنيسة الكالفينية الخلقي الصارم ، الذي لم يتنكب عن احراق الخصوم .

في جامعة فيتنبرغ يمارس بلا هوادة طرائق قهر النفس او اماتتها ، لكنه مع ذلك لم يفارقه الشعور يوما بانه دنس وذميم وخاطىء وغير جدير حتى بالوقوف في حضرة الله . لذلك حصل عنده الاقتناع الجازم بان لا خلاص للانسان الا بالايمان . عن هذه القناعة انبثقت عقيدة « التزكية بالايمان » التي شكلت القاعدة الروحية لحركة الاصلاح . كانت هذه العقيدة تنطوي ، فضلا عن وقف الخلاص على الايمان ، على رفض وساطة الكنيسة وكهانها بين المؤمن والله .

التأثير على المانيا

كان لأفكار لوثر ، التي انتشرت عن طريق الطباعة ، وقع عظيم في جميع انحاء المانيا . ومما ساعدها كثيرا على مد جذورها في النفوس تقاعس السلطات الكاثوليكية طيلة اربع سنوات عن التصدي لها . كان سبب هذا التقاعس ان البابا ليون العاشر (١٤٧٥ ـ ١٥٢١) ، الذي كان يأمل ان يوطد سلطته باعتماد التكتيك البابوي التقليدي القاضي بتأييد مرشح ضعيف لعرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كان قد اختار مرشحا لهذا المنصب فريدريك « الحكيم » امير ساكسونيا (١٤٦٣ ـ ١٥٢٥) الذي كان نصير لوثر الخاص وحاميه . وهكذا لم يصدر قرار رسمي بادانة تعاليم لوثر حتى سنة ١٥٢١ في « مجلس وورمز » .

انجلترا وسويسرا

مارس هنري الثامن (١٤٩١ ـ ١٥٤٧) في « حركته الاصلاحية » في انجلترا حقوق الحاكم ، وجرى تأكيد ذلك في « قرار الهيمنة » سنة ١٥٣٤ الذي تم بموجبه انتزاع السلطة العليا على الكنيسة الانجليزية من يد البابا في روما والقائها بين يدي العاهل الانجليزي . وكما جرى في اسوج سنة ١٥٢٧ وفي الدنمرك والنروج سنة (١٥٣٦ ـ ١٥٣٩) ، لم يكن توماس كروموبل ، عندما ألغى نظام الاديرة (١٥٣٦ ـ ١٥٤٠) ، ليأبه كثيرا لامكانية تفسير عمله هذا بانه لم يكن سوى وسيلة للاستيلاء على ثروة الكنيسة .

في سويسرا وحدها ، كان تجريد الكنائس من الصور والزخارف عبارة عن تقشف مسيحي حقيقي . ففي زوريخ وفي حدود ١٥٢٠ أمر هولدرايخ زوينجلي (١٤٨٤ ـ ١٥٣١) بتحطيم آلات الارغن الكنسية ، بحجة ان انغامها دنيوية الوقع ، ثم راح يعمل على توحيد جماعة المواطنين في نظام جديد دعاه « نظام ديمقراطية المؤمنين » .

بعد عام ١٥٤١ ، جعل جان كالفين (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) من جنيف (٩) مدينة مقدسة آوت أكثر من ٦٠٠٠ لاجىء بروتستانتي فروا من الاضطهاد الديني في فرنسا وايطاليا واسبانيا ، وفي عهد الملكة ماري في انجلترا ايضا . ارسى كتاب كالفين « دعائم الديانة المسيحية » (١٥٣٦) اسس عقيدة ثانية هامة من عقائد « الاصلاح » ، هي عقيدة « المصير المقرر سابقا » أو مذهب الجبرية القائل بان الله يصطفي اولياءه ، فهب اولئك الذين شعروا بان الله قد اصطفاهم يبشرون بحماس شديد واحيانا بعنف بتعاليم كالفين ، كما فعل الكالفينيون في هولندا ، والهوجنوت في فرنسا والمشيخيون في اسكتلندا والبيوريتان اي المتطهرون في انجلترا ومن ثم في « العالم الجديد » .

حركة الاصلاح الديني في انجلترا

انطوت حركة الاصلاح الانجليزية على عنصر خاص بها ، هو رغبة هنري الثامن في الغاء زواجه ، ورفض البابا الاستجابة لها . لكن كان هناك ايضا استياء انجليزي عام ، الا انه كان من نوع الاستياء الذي أفضى الى الاضطراب الديني داخل الامبراطورية الرومانية المقدسة وفي فرنسا وهولندا في اوائل القرن السادس عشر . فالضرائب الكنسية كانت تمتص ثروة البلاد لتمويل أطماع البابا السياسية ، وكان بوسع طبقة الكهنوت طلب الاعفاء من العقوبات المدنية ، كما كان البابا يحتفظ لنفسه بحق تعيين كبار رجال الاكليروس والأساقفة . كذلك كانت بعض ممارسات الكنيسة القائمة على الخرافات تثير

١



٢



(١) - في هذا الرسم يبدو هنري على سرير الموت ، وهو يعطي ارشادات روحية لا بنه الشاب ، ادوارد السادس ، حرصا منه على استقرار حركة الاصلاح . يظهر ايضا في الرسم اعضاء مجلس ادوارد الذين تبنّوا عددا من أشد السياسات البروتستانتية تطرفا في انجلترا في القرن السادس عشر . من هذه السياسات الأمر الذي يمنع الصور « الخرافية » في الكنائس والذي أدى الى ثورة على الصور . منها ايضا الغاء المعابد التي كانت تستعمل خاصة للصلاة من أجل ارواح الموتى التي كان يعتقد انها ما تزال في المطهر . لكن اهتم اعضاء ذلك المجلس كثيرا بانشاء المدارس ، وهكذا أقيم عدد كبير من المدارس في عهد ادوارد .

---

(٢) - عقد قران آن بولين (١٥٠٧ ؟ - ١٥٣٦) سرأ على هنري في يناير ١٥٣٣ . لاضفاء الشرعية على ولادة الطفل الذي كانت تحمله . لكنها ولدت ابنة هي اليصابات ، عوضا عن الوريث الذكر الذي كان هنري يتمناه . خلال حمل آن اللاحق ، وقع هنري في غرام جين سيمور (١٥٠٩ - ١٥٣٧) فاتهم آن بالزنى وسفاح القربى ، وأمر باعدامها سنة ١٥٣٦ .

---

(٣) - رفضت ماري الأولى التخلي عن دين والدتها الكاثوليكية اثناء حكم هنري . وبعد اعتلائها العرش دعمت الكثلكة التي اعادتها الى الدولة بزواجها من فيليب الثاني ، ملك اسبانيا وزعيم الحركة الاصلاحية المضادة . أكسبها عزمها القاطع على القضاء على البروتستانتية في انجلترا لقب « ماري الدموية » ، ولكنها كانت في الشؤون الخاصة رقيقة المشاعر .

---

(٤) - نصب جون هويتجيفت رئيسا لاساقفة كنتربري سنة ١٥٨٣ ، ومع انه كان كالفينيا من حيث معتقده الخاص ، فقد نفذ القوانين الموجهة ضد المعارضين بدقة . اعترض بعضهم على استخدامه « لمحكمة التفويض العليا » .

الانتقاد والتنديد . فضلا عن ذلك ، كان ثمة تقليد من المعارضة للبابا ترعرع على أيدي جون ويكليف (١٣٢٨ ؟ - ١٣٨٤) ولم يتلاشَ كليا ، وقد رافقته نزعة الى التشكيك ببعض المعتقدات القديمة في ضوء النظرة الانسانية الجديدة التي جاء بها عصر النهضة .

القومية والاصلاح

انبثقت حركة الاصلاح في انجلترا أصلا عن المعارضة القومية للتدخل الخارجي . فمع ان آراء ويكليف كانت تدور بالدرجة الأولى على القضايا العقائدية ، فانها كانت تتضمن في جوهرها ثورة على سلطة البابا . فقد ترجم الكتاب المقدس الى الانجليزية ودعا العلمانيين أن يقوموا بنفسهم بتفسير وفهم مبادىء دينهم . لقد ظهرت هذه الآراء قبل آراء مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) ، ومع بداية القرن السادس عشر لم يعد مستهجنا من دولة

٣


٤


٥


٦

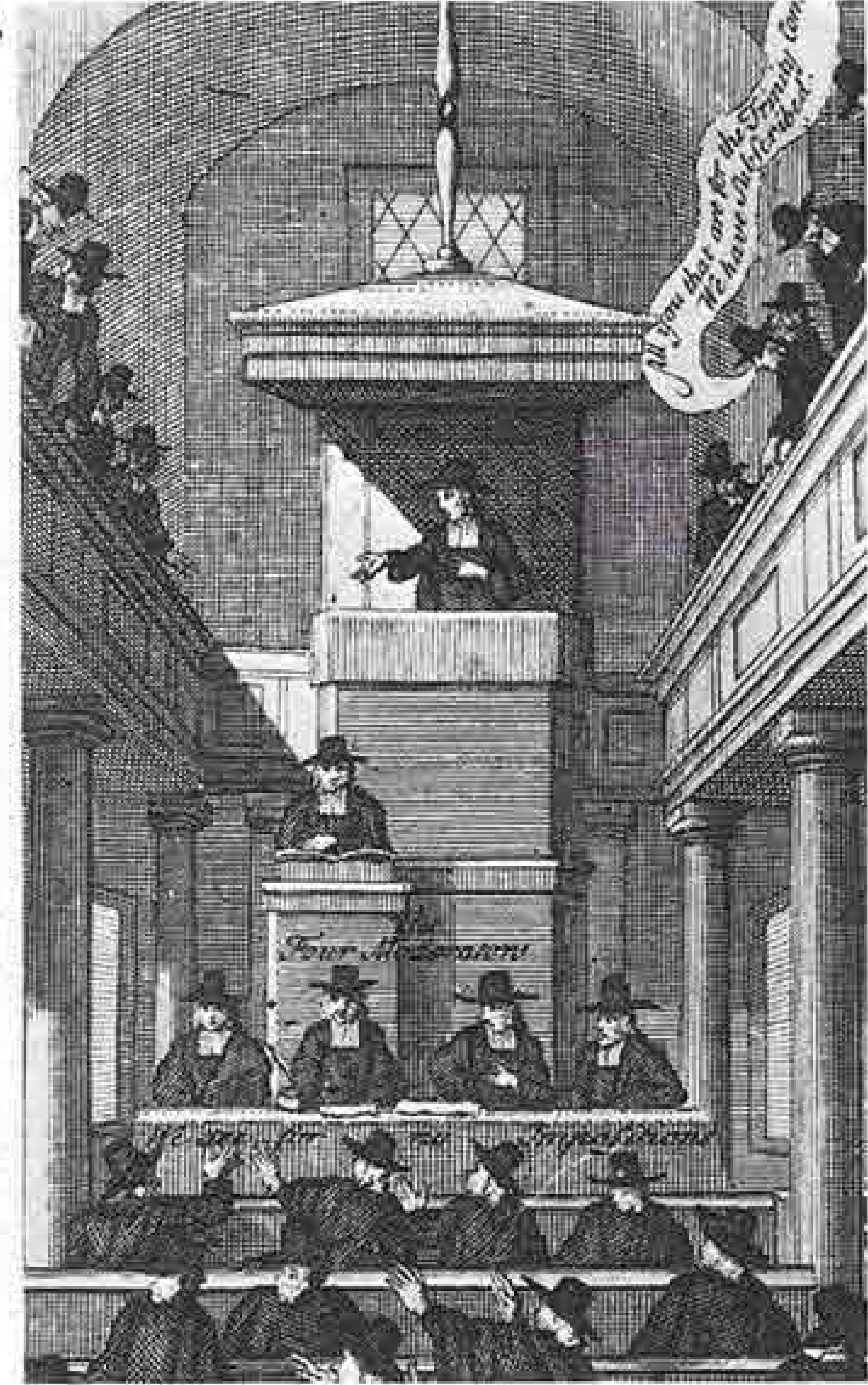

(٥) - ليس « كتاب الشهداء » (١٥٦٣) لفوكس سوى عبارة عن سيرة اضطهاد البروتستانت الانجليز منذ القرن الرابع عشر . ألفه جون فوكس (١٥١٦ - ١٥٨٧) في ستراسبورج حيث أقام منفيا اثناء حكم ماري. هنا يبدو احد المضطهدين على يد ماري ، وقد لبس زي المسيح الدجال ، وهو يقاد الى ساحة الاعدام .

(٦) - اضفى توماس كرانمر نبلا خاصا على الحركة الاصلاحية من خلال روعة ترجماته للكتاب المقدس والطقوس الكنسية . ولكنه كان من الناحية السياسية ضعيفا ومترددا ، وكان أحيانا يتصرف ضد قناعاته الشخصية ارضاء للسلطة الملكية . من معينه اللاهوتي استوحت تعاليمها معظم البدع والتجديدات التي ظهرت في عهد ادوارد . ارغمته ماري على التنصل من ايمانه البروتستانتي ، ولكنه عاد عن هذا التنصل ذاته فيما بعد وتعمد ، عندما أحرق ، ان يلقي اولا في النار اليد التي كانت قد وقعت على ذلك التنصل .

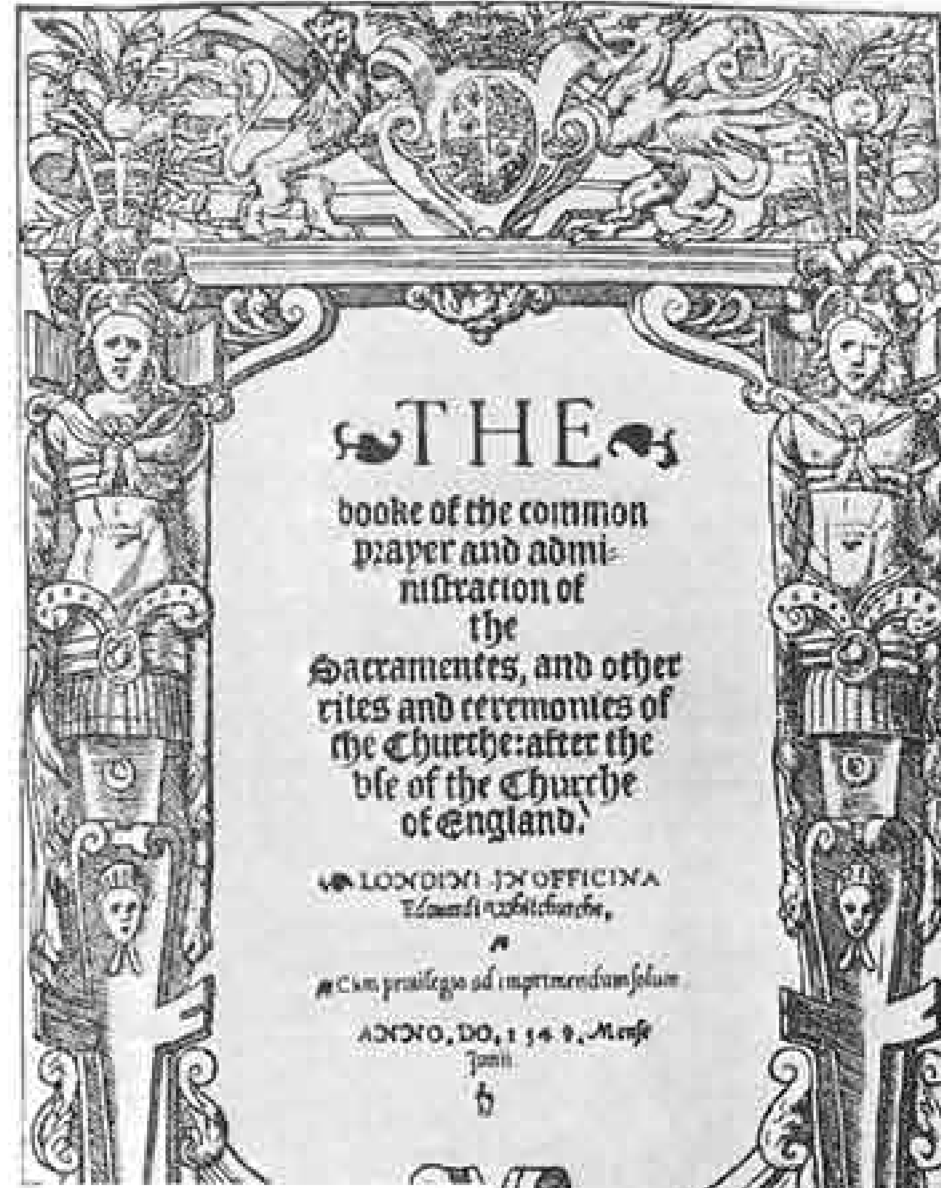
قومية ان تعارض سلطة البابا الشاملة على الكنيسة . في تلك الأثناء ، كان هنري السابع (ملك ١٤٨٥ ـ ١٥٠٩) قد أقام عرشا بلغ من القوة ما أكسبه احترام الدول في أوروبا ، كما ان هنري الثامن (ملك ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) (١) كان مصمما ان يكون أميرا مثاليا من أمراء النهضة ، لا منازع له في الداخل ، وذا هيبة بارزة في الخارج .

خشي هنري الثامن ان لا يرزق وريثا ذكرا من امرأته الأولى كاترين أوف اراجون (١٤٨٥ ـ ١٥٣٦) . لكن البابا ، تحت تأثير الامبراطور الروماني المقدس شارل الخامس ابن اخت كاترين ، ابى أن يلغي زواج هنري منها . وفي عام ١٥٣٣ ، حملت خليلة هنري آن بولين (٢) ، فارتأى توماس كروموبل (١٤٨٥ ؟ ـ ١٥٤٠) انه من الممكن حل المشكلة بسرعة ، على اساس ان الملك غير مسؤول تجاه البابا . بناء على ذلك أقدم

٧



٨


THE
booke of the common
prayer and admi-
nistration of
the
Sacramentes, and other
rites and ceremonies of
the Churche: after the
use of the Churche
of England.
LONDINI IN OFFICINA
Edwardi Whitchurche.
Cum privilegio ad imprimendum solum.
ANNO.DO.1549. Mense
Junii.

٩



(٧) ـ كانت الكنيسة البيوريتانية ، كما تبدو في هذه الصورة التي ترجع الى القرن السابع عشر ، قليلة الأثاث ومتقشفة . هاجم أشد البيوريتان تطرفا ، بزعامة توماس كارترايت (١٥٣٢ ؟ ـ ١٦٠٣) الأساقفة ، على أمل العودة الى مبادىء الكنيسة الأولى والتسليم فقط بسلطة الكتاب المقدس . وكان البراونيون ، بزعامة روبرت براون (١٥٥٠ ـ ١٦٣٣) جماعة متطرفة تعمل على ان يدير الكنيسة نوع من اتحاد مجلس للقساوسة الذين تنتخبهم الرعية .

(٨) ـ اعطى كتاب الصلاة البروتستانتي الصادر سنة ١٥٤٩ الطقوس الدينية طابعا قوميا عاما لتحل محل « الممارسات » المحلية المختلفة التي كانت شائعة من قبل . عقائديا كان الكتاب معتدلا ويشكل حلا وسطا ، لكن بعد ثلاث سنوات تلته نسخة أقرب الى البروتستانتية .

(٩) ـ يدوس هنري الثامن البابا بمساعدة كرانمر ، فيما يقف بعض الكهنة متفرجين في هذه الصورة المعاصرة . كان هنري مصمما على جعل سلطته مطلقة في مملكته ، وادّعى ان تلك هي رغبة الشعب .

توماس كرانمر (١٤٨٩ ـ ١٥٥٦) (٦) ، الذي عيّنه هنري رئيسا لأساقفة كنتربري خصيصا لمعالجة مسألة الطلاق ، على الغاء الزواج ، محظّراً على كاترين أن ترفع شكواها الى روما . ومنذ ذلك الحين صدرت الأوامر الى « برلمان الاصلاح » (١٥٢٩ ـ ١٥٣٦) ، عند كل مرحلة من مراحل الانفصال عن روما ، باشتراع القوانين الضرورية ، وفي سنة ١٥٣٤ أصدر هذا البرلمان « قرار الهيمنة » الحاسم ، القاضي باعلان هنري الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية ، كما أبرم قرار التاج بالغاء الأديرة .

ادخال البروتستانتية

اراد هنري الثامن أن يصبح رئيسا للكنيسة الانجليزية . ولكنه أراد ايضا أن يبقيها بمعزل عن الأفكار اللوثرية التي كانت آخذة في الانتشار في أنحاء الامبراطورية الرومانية المقدسة . مع ذلك توصل كرومويل وكرانمر الى اقناعه باتخاذ موقف أكثر بروتستانتية ، فأمر سنة ١٥٣٨ بتزويد كل كنيسة بالترجمة الانجليزية للكتاب المقدس .

شهد عهد ادوارد السادس (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) تزايدا في قبول العقيدة البروتستانتية (١) . كان ادوارد ما يزال قاصرا ، فخفف الوصي على العرش سومرست (١٥٠٦ ـ ١٥٥٢) من صرامة القوانين الموجهة ضد الهرطقة ، ورحب بقدوم الوعاظ الأجانب المتطرفين الى البلاد . بعد ذلك أبيح الزواج لرجال الاكليروس ، وظهر في كتابي الصلاة الجديدين الصادرين سنة ١٥٤٩ (٨) و ١٥٥٢ ، تحول واضح نحو العقيدة البروتستانتية .

لكن ، عندما اعتلت العرش ماري (ملكت ١٥٥٣ ـ ١٥٥٨) (٣) ابنة كاترين اوف اراغون الكاثوليكية ، أحدثت ردة فعل كاثوليكية صارمة . فأرغمت عددا من البروتستانت على مغادرة البلاد ، وأحرقت ٣٠٠ منهم تقريبا بتهمة الهرطقة (٥) . الا ان حركة القمع التي لجأت اليها ماري لم تلاقِ تأييدا شعبيا .

التسوية الانجليكانية

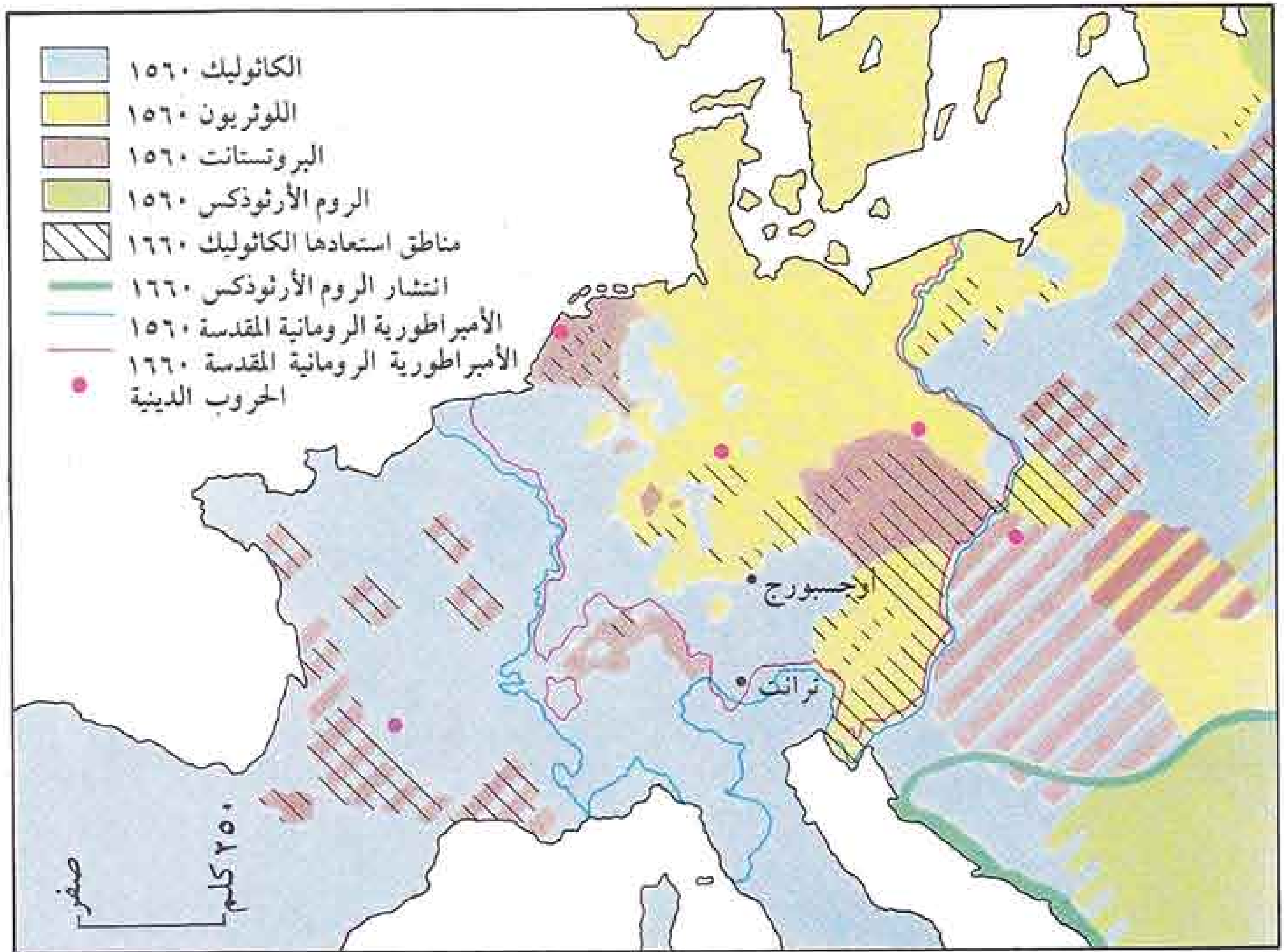
اعتلت اليصابات الأولى (١٥٣٣ ـ ١٦٠٣) العرش سنة ١٥٥٨ ، وهي تبحث عن طريق وسط بين سياسات العهدين السابقين . الا ان عودة عدد من المنفيين في عهد ماري من جنيف الكالفينية ، فضلا عن وجود برلمان بروتستانتي متقلب ، حملها على تبني موقف أشد تطرفا مما كانت تنويه أصلا ، فاتخذت لنفسها لقب « الحاكم الاعلى » للكنيسة ، آملة ان لا تسيء بذلك الى الكاثوليك ، ثم قضت سنة ١٥٦٣ بأن يقسم جميع الكهنة على اعتناقهم « لبنود الايمان التسعة والثلاثين » .

لم تكن اليصابات تأمل ، بهذه الحلول الوسطى أو هذه التسوية ، أن ترضي ضميرها ، بل أن تكسب ولاء مختلف الفئات لها . وقد توصلت بالفعل ، على الرغم من الضغط المتواصل في البرلمان وخارجه من طائفة البيوريتان (كما كان يدعي الكالفينيون المتطرفون سياسيا) لتعديل هذه التسوية ، ان تعطي الكنيسة الانجليكانية هوية ايجابية . لكن بعض البيوريتان حاولوا ، بعد ١٥٧٠ ، الحصول على اذن يسمح لهم بالعبادة خارج الكنيسة الرسمية ، وما لبثت معارضة جون هويتجيفت (١٥٣٠ ؟ ـ ١٦٠٤) (٤) أن دفعت جميع المعارضين البيوريتان في سائر انحاء البلاد الى المقاومة السرية .

حركة الاصلاح الديني المقابلة

شطرت « حركة الاصلاح » في اوائل القرن السادس عشر اوروبا الى بلدان الجنوب الكاثوليكية وبلدان الشمال البروتستانتية . استتب الأمر للبروتستانتية بحماية الامراء الالمان ، مما اوقع الامبراطورية الرومانية المقدسة في حالة حرب دينية باردة شاقة . ذلك ان الاعتقاد كان سائدا في القرن السادس عشر انه يستحيل تعايش دينين اثنين في مجموعة سياسية واحدة ، فغدت عملية الخروج على الدين الرسمي التي ناصرها الامراء بمثابة حملة موجهة ضد النظامين الدنيوي والديني معا .

أمام هذه الحالة ، راح كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الاصلاحيون ، مثل غاسبارو







(١) ـ استعادت حركة الاصلاح المضادة في القرن الذي تلا مجمع ترانت الكثير من المقاطعات التي كانت قد كسبتها البروتستانتية . فقد كان نجاحها عظيما في اعادة الشعب الى العقيدة الكاثوليكية في بولونيا ، حيث أدّى تشريع التسامح الديني سنة ١٥٧٣ الى تصاعد النشاط اليسوعي في ميدان التربية الذي دعمه سيجسموند الثالث (حكم ١٥٨٧ ـ ١٦٣٢) دعما كانت نتيجته القضاء التام على البروتستانتية في بولونيا . غالبا ما رافق حركة الاصلاح المضادة تحريم الكتب الهرطقية والهيمنة الكاثوليكية على التعليم العالي بدعم من الاسر الملكية والنبيلة ، وحرمان البروتستانت من حقوقهم . كما ان كثيرا من نجاح تلك الحركة قد تحقق عن طريق الحرب .

(٢) ـ كان وليم اوف اورانج (١٥٣٣ ـ ١٥٨٤) « الصامت » أكبر ملّاكي الاراضي في هولندا . تزعم حركة المعارضة لفيليب الثاني التي أثارها تقييده للحريات الارستقراطية والدستورية لهولندا . ابان الحرب ، حاول وليم توحيد المقاطعات الحريصة على حقوقها ، وشجع التساهل الديني للحؤول دون الانشقاق بين البروتستانت والكاثوليك

كونتاريني (١٤٨٣ - ١٥٤٢) ، ينادون بسياسة المهادنة واصلاح المفاسد . الا ان المناقشات بين الكاثوليك والبروتستانت في مجلس ريجنسبورج سنة ١٥٤١ كشفت عن استحالة حل وسط ، وقضت على الأمل بعودة الوحدة المسيحية .

بالاضافة الى هجمات الاصلاح اللوثري ، تعرضت الكنيسة الكاثوليكية لهجوم بروتستانتي جبار آخر من الكنيسة التي قام بتنظيمها جون كالفين . ولما أخذ البروتستانت ينتشرون ويتوسعون في المانيا وسويسرا ، ووفد المبشرون القادمون من جنيف على فرنسا وهولندا ، ادركت الكنيسة الكاثوليكية الحاجة الى التحرك . فكرر البابا بولس الثالث ، بين ١٥٣٦ و ١٥٤٥ ، الدعوة الى عقد مجمع عام ، لكنه اضطر مرارا الى تأجيله لأسباب سياسية . انعقد المجمع آخر الأمر في ترانت في ١٥ ديسمبر سنة ١٥٤٥ .





في دفاعهم المشترك عن حقوقهم الدستورية الواحدة .

(٣) - هيمن فيليب الثاني ، ملك اسبانيا ، على السياسة الاوروبية في اواخر القرن السادس عشر . كان يعتبر فيليب بطل الحركة الاصلاحية الكاثوليكية المضادة لحركة الاصلاح البروتستنتية . لكنه ، عمليا ، كما شكا أكثر من بابا ، لم يكن يدافع اولا وآخرا الا عن مصالح آل هابسبورج . كان من شأن توحيده بين مصالح آل هابسبورج والمصالح الكاثوليكية انه جعل حياة اوروبا الدينية والسياسية معقدة وواقعها في حالة حرب دائمة مع الاتراك والهولنديين الثائرين والهوجنوت الفرنسيين والانجليز . لقد جعل فيليب من اسبانيا قوة عظمى ، ولكنه في غضون ذلك حشد ضدها جميع دول اوروبا تقريبا .

(٤) - كانت سياسات الكاردينال ريشيليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢) وزير لويس الثالث عشر ، تعكس تضارب المصالح الفرنسية في الداخل والخارج . كان يرى الفرنسيون في آل هابسبورج الكاثوليك اعظم تهديد لهم . فلو نجح فيليب الثاني وفيليب الثالث في تأسيس قواعد قوية لهما في كل من اسبانيا وهولندا ، لكانت فرنسا قد وقعت بين جناحي قوة معادية . نشأت معضلة الملكية الفرنسية من ان مصالحها كانت تستدعي في آن واحد نصرة الكثلكة في الداخل ونصرة القضية البروتستانتية في الخارج . ابتداء من ١٦٣٤ ، جر ريشيليو فرنسا علنا الى الحرب مع الامبراطور (حتى سنة ١٦٤٨) ومع اسبانيا .

(٥) - قامت مذبحة سان بارتلمي في ٢٤ اغسطس ١٥٧٢ بالفتك بالبروتستانت الفرنسيين (الهوجنوت) . امتدت المذبحة الى سائر انحاء فرنسا ، مما أدى الى اندلاع الحرب الاهلية . كان قد راع الوصية على العرش الفرنسي آنئذ كاترين دي مديتشي (١٥١٩ - ١٥٨٩) تزايد سلطة الهوجنوت السياسية ، فدبرت مؤامرة ضد زعمائهم ، وحرضت على المذبحة .

العقيدة الصحيحة الجديدة

لم يفقد اتباع كونتاريني الأمل بالتفاهم مع البروتستانت . الا ان الكاردينال جان بترو كارافا (١٤٧٦ - ١٥٥٩) وجماعته كانت تحدوهم نوايا مختلفة . فبعد ثلاث جلسات (١٥٤٥ - ١٥٤٧ ، ١٥٥١ - ١٥٥٢ ، ١٥٦٢ - ١٥٦٣) أقدم المجمع للمرة الاولى على الرد على التحدي اللوثري ، فأعيد تأكيد الموقف الكاثوليكي حول جميع نقاط الخلاف اللاهوتي المتعلقة بقضايا الخلاص وتحول جوهر القربان وسلطة آباء الكنيسة ، وذلك بوضوح كان لاهوت العصور الوسطى الاخيرة يفتقر اليه . كذلك قام المجمع باصلاح رمزي لمعظم المفاسد الصارخة . لكن أهم ما قام به هو توطيد سلطات الكنيسة من الاساقفة حتى البابا ، مع ان مركز البابا الخاص في الكنيسة لم يكن قد تطرق اليه الشك . كان حماة العقيدة الرسمية الجديدة مسلحين منذ

٦



(٦) - كان اغناطيوس دي لوايولا من النبلاء الاسبان . ولد سنة ١٤٩١ وعانى اختبارا روحيا خلال فترة نقاهته من جراح اصابته في احدى المعارك . بعد دراسة اللاهوت في السوربون بباريس سنة ١٥٣٤ ، ألف جمعية من الاتقياء لخدمة المسيح « ونائبه على الارض البابا » . أحكم تنظيم رهبنته الدينية « جمعية يسوع » احكاما شديدا ، مخضعا اعضاءها لانضباط صارم . وصف البعض النظام اللاهوتي الذي لخصه لوايولا في كتابه « التمارين الروحية » كرياضة روحية قائمة على طريقة « الصدمة » . كانت العضوية في هذه الرهبنة اصلا لا تتعدى ٦٠ يسوعيا ، الا ان البابا سمح للرهبنة سنة ١٥٤٠ بزيادة عدد اعضائها زيادة غير محدودة . بحلول سنة ١٥٥٦ ، كانت الرهبنة قد ارست قواعدها في اوروبا ، وأخذ عدد رهبانها يتزايد بكثرة حتى منتصف القرن السابع عشر ، وهي تقوم طوال تلك المدة بدور المدافع الرئيسي عن الحركة الاصلاحية المضادة كما كانت تبذل ايضا جهدا تبشيريا على نطاق واسع .

٧



الأمبراطورية ١٦٣٠ - ١٦٣٤
مناطق الحرب الرئيسية
أسوج تدخل الحرب
انتصارات الامبراطور وحلفائه
انتصارات البروتستانت وحلفائهم

٨



(٧) - اعتلى غوستاف ادولفوس عرش أسوج سنة ١٦١١ ، وهزم وهو ما يزال شابا الدنمرك وبولونيا وروسيا ايضا . بنى اسطولا وجيشا هائلا جعل من اسوج دولة عظمى . كان الخطر الذي يهدد اسوج هو سيطرة الهابسبورج الكاثوليكية على المانيا الشمالية . أقنعت الحرب البولونية غوستاف بتأجيل حرب وقائية ضد آل هابسبورج في بحر البلطيق . الا ان تصاعد قوة آل هابسبورج بعد ١٦٢٩ هدد سلامة اسوج نفسها فضلا عن البروتستانتية الاسوجية . فأحرز الاسوجيون انتصارات باهرة في برايتنفلد سنة ١٦٣١ ولوتسين سنة ١٦٣٢ . الا ان غوستاف ادولفوس قتل في المعركة الثانية الآنفة الذكر ، فحرم الاسوجيون من قيادته فهزموا في معركة نوردلنجن سنة ١٦٣٤ .

(٨) - أعانت اليصابات الاولى ملكة انجلترا هولندا الثائرة في كفاحها ضد اسبانيا في ١٥٦١ - ١٥٧٠ . تبين لفيليب الثاني ان هولندا لن تستقر بها الحال ، ما دام الثوار يتلقون العون من الخارج ، فقرر ايقاف هذا العون . وفي سنة ١٥٨٠ ، بعد أن نجح في الحيازة على اسطول قوي وبعد ان ازداد مدخوله المالي من « جزر الهند » ، أقدم على تجهيز « الأرمادا » ضد انجلترا . كان فيليب يأمل ، بالتحالف مع زعماء الكاثوليك الفرنسيين ، أن يرسو في الموانىء الفرنسية ، فيما كان قد طلب من وصيه على هولندا ، دوق بارما ، أن يطهر المدن الساحلية كي تستقبل السفن الاسبانية . لكن « الأرمادا » هُزمت سنة ١٥٨٨ .

زمن طويل « بهيئة التفتيش » المؤسسة سنة ١٢٣٣ و « بالفهرست » الذي يدون فيه البابا الكتب المحرمة ، ففدت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية نتيجة لمجمع ترانت طائفة متأهبة للقتال . وحتى قبل انعقاد المجمع ، كان اغناطيوس دي لوايولا (١٤٩١ - ١٥٥٦) (٦) المعين رئيسا « لجمعية يسوع » سنة ١٥٤١ ، قد حشد بعد موافقة البابا بسنة جيشا من المناضلين المبشرين ، هم اليسوعيون .

بداية حرب دينية

كان الاقلاع عن سياسة المهادنة يعني حربا دينية ، كما كان قيام الاشراف والامراء لنصرة البروتستانتية ، يعني حربا أهلية . ففي فرنسا تبنت الفئتان المتنافستان من النبلاء اي آل البوربون من جهة وآل الجيز من جهة مقابلة قضيتي الكالفينية والكاثوليكية الترانتية (اي الكاثوليكية الرومانية كما اصلحها مجمع ترانت) ، فدشنتا بذلك ٣٠ سنة من الصراع .

كان الباباوات يعتبرون امراء اوروبا الكاثوليكيين الاداة المدنية لتطبيق مقررات ترانت ، وبصورة خاصة الخليفة الرئيسي للأمبراطور شارل الخامس ، فيليب الثاني ملك اسبانيا (١٥٢٧ - ١٥٩٨) (٣) .

في سنة ١٥٥٥ ، أدى صلح اوجسبورج الى هدنة موقتة في الصراع القائم في المانيا . وخلال الفترة المتبقية من ذلك القرن ، كانت الامبراطورية في سلام غير مستقر ، اذ حاول آل هابسبورج ان يعيدوا توطيد سيطرتهم ، فيما كان الكالفينيون (الذين لم يعترف بهم مؤتمر الصلح) يحرزون بعض التقدم . فألف امراء المانيا الكاثوليكيون ، حلفا سياسيا بزعامة مكسيميليان البافاري .

حرب الثلاثين سنة

انطلقت شرارة الحرب ، عندما قاوم اهالي بوهيميا قرار الامبراطور ماتياس (١٥٥٧ - ١٦١٩) بتعيين فرديناند الستيريائي (١٥٧٨ - ١٦٣٧) المتعصب للكثلكة ملكا عليهم . فالبوهيميون لم يكونوا يريدون عليهم لا ملكا من آل هابسبورج ولا ملكا كاثوليكيا . بدأت الحرب فعلا عندما القوا سنة ١٦١٨ بعضوين من المجلس الامبراطوري من نافذة قاعة المؤتمر في براغ ، ودعوا زعيم الألمان البروتستانتيين ، فريدريك الناخب البلاطي (١٥٩٦ - ١٦٣٢) ، لنصرة قضيتهم . فأدّى ذلك الى ٣٠ سنة من الحرب .

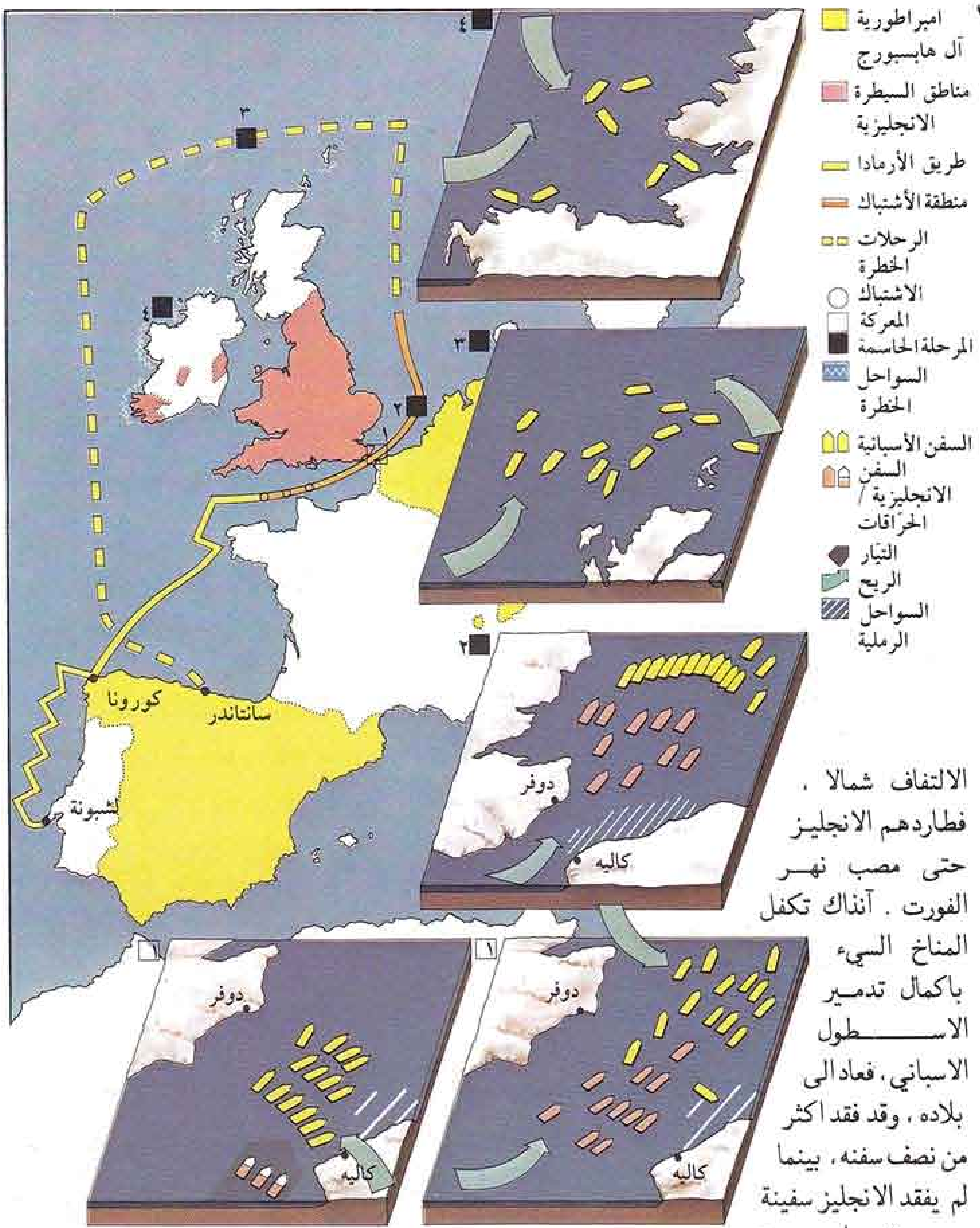
سحقت القوات الامبراطورية (بمعاونة مكسيميليان) قوات فريدريك ، فأعيد توطيد سلطة آل هابسبورج . وبحلول سنة ١٦٢٩ ، كان فرديناند ملك بوهيميا الكاثوليكي قد اصبح امبراطورا ، فاشتد ساعده الى حد انه استطاع اصدار مرسوم يقضي باعادة جميع الاراضي التي صودرت منذ ١٥٥٢ الى الكنيسة الكاثوليكية ، فاضعف بذلك شوكة البروتستانت الاقليمية . الا ان استقواء آل هابسبورج وتضامن فرعيها الاسباني والنمساوي مع الكثلكة أديا الى تأليب جميع اعدائهم عليهم . فحارب الاسوجيون (٧) ، ثم الفرنسيون ، ولسخرية القدر بزعامة الكاردينال الكاثوليكي ريشيليو (٤) ، الى جانب القضية البروتستانتية ، ضد آل هابسبورج . بعد ٣٠ سنة من القلاقل التي ارهقت الامبراطور فرديناند الثالث (١٦٠٨ - ١٦٥٧) وقع صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ .

اليصابات والأرمادا

عندما اعتلت اليصابات العرش الانجليزي سنة ١٥٥٨ ، كانت فرنسا ، لا اسبانيا ، هي العدو المباشر . كان فيليب الثاني ملك اسبانيا (حكم ١٥٥٥ ـ ١٥٩٨) قد تزوج ماري ، اخت اليصابات ، غير انه بعد ان ترمل ، عرض الزواج على اليصابات . ومع ان اليصابات رفضت ذلك العرض ، كما رفضت جميع عروض الزواج الأخرى ، فقد كانت تشاطر فيليب الخوف من ان تهدد مطامع حكام آل الجيز في فرنسا كلا من مملكتيهما .

تهديد ماري ، ملكة الاسكتلنديين

كان الخطر على انجلترا ناجما عن « التحالف القديم » بين فرنسا واسكتلندا



(١) ـ اقلعت الارمادا الاسبانية من ليشبونة في آخر مايو ١٥٨٨ ، ولكنها لم تلبث ان اصطدمت بعواصف اجبرتها على اللجوء الى كورونا ، ولم تتمكن من الابحار نحو انجلترا حتى شهر يوليو . اقلع لورد هوارد (١٥٣٦ ـ ١٦٢٤) ، الاميرال الانجليزي ، من بلايموث عندما وصلت الارمادا آخر الأمر الى المانش ، ليحتل موقعا في اتجاه الرياح ، الا ان الاسبان تابعوا طريقهم شرقا . حصلت بعض المناوشات الجدية تجاه بورتلند وجزيرة وايت ، ولكن عندما وصلت الارمادا الى كاليه ، لم يكن الجيش المعد لغزو انجلترا جاهزا . فارغمت الحراقات التي ارسلها الانجليز عددا من السفن الاسبانية على الفرار الى عرض البحر . حاول مدينا سيدونيا الاميرال الاسباني ان يعيد تجميع اسطوله تجاه جريفلاين ، ولكن قوة المدفعية الانجليزية المتفوقة في المسافات القصيرة سبقته فدمرت اسطوله . وعندما تحول اتجاه الريح نحو الجنوب الغربي ، اضطر الاسبان الى الالتفاف شمالا ، فطاردهم الانجليز حتى مصب نهر الفورت . آنذاك تكفل المناخ السيء باكمال تدمير الاسطول الاسباني ، فعاد الى بلاده ، وقد فقد اكثر من نصف سفنه ، بينما لم يفقد الانجليز سفينة حربية واحدة .

حيث كانت ماري دي جيز (١٥١٥ ـ ١٥٦٠) تقوم بدور الوصية على ابنتها ، ماري ستوارت ، ملكة الاسكتلنديين (٧) ، التي كانت قد تزوجت ملك فرنسا . فقامت اليصابات بتشجيع فتنة بروتستانتية للقضاء على النفوذ الفرنسي في اسكتلندا سنة ١٥٦٠ ومدت لها يد العون غير الرسمي . بعد ذلك توفي زوج ماري ستوارت ، فعادت سنة ١٥٦١ لتحكم بلدها الاصلي ، وكانت اجمل ارملة فتية واشد المرشحات للزواج فتنة في اوروبا . ولما كانت كاثوليكية وحفيدة لهنري السابع ، فقد كان يعتبرها اولئك الكاثوليك الذين كانوا ينظرون الى اليصابات كلقيطة بروتستانتية ، بمثابة ملكة انجلترا الشرعية .

بعد حملة طائشة وفاشلة قامت بها اليصابات لاستعادة كاله (١٥٦٢ ـ ١٥٦٣) ، ادركت ضعف موقفها ، فلجأت الى لعبة الانتظار والترقب التي تميزت بها سياستها

(٢) ـ كان سقوط كاله سنة ١٥٥٨ بعد ٢٠٠ سنة من الحكم الانجليزي ، وهي آخر موطىء قدم لانجلترا في اوروبا ، نتيجة لحرب كانت دائرة بين فرنسا واسبانيا المتحالفة مع انجلترا بحكم زواج ماري .

(٣) ـ ارسلت اليصابات ايرل ليستر على رأس جيش ملكي رسمي الى هولندا لتشديد عزم المقاومة الهولندية ضد الاسبان وذلك بعد استيلاء الكاثوليك على مدينة انتورب . سافر ليستر في ديسمبر ١٥٨٥ ، لكنه عاد بعد سنة خائبا . فقد كانت الحملة باهظة التكاليف ، كما ان ليستر تشاجر خلالها مع حلفائه واغضب اليصابات لاتخاذه لقب « حاكم المقاطعات المتحدة » ، مناقضا بذلك رغبة الملكة في احترام حقوق الاسبان بالسيادة . عاد ليستر الى هولندا في ١٥٨٧ ، ولكنه استدعي ثانية في نوفمبر . يبدو هنا على رأس الجنود المتجمعين عند ڤيلبري سنة ١٥٨٨ .

(٤) ـ كان ادموند كامبيون (١٥٤٠ ـ ١٥٨١) زعيم البعثة اليسوعية التي اقترن اسمها في انجلترا بمؤامرات لاغتيال اليصابات واعادة الملكية الكاثوليكية الى العرش . وشي به فاعدم بتهمة الخيانة .

٤


٢

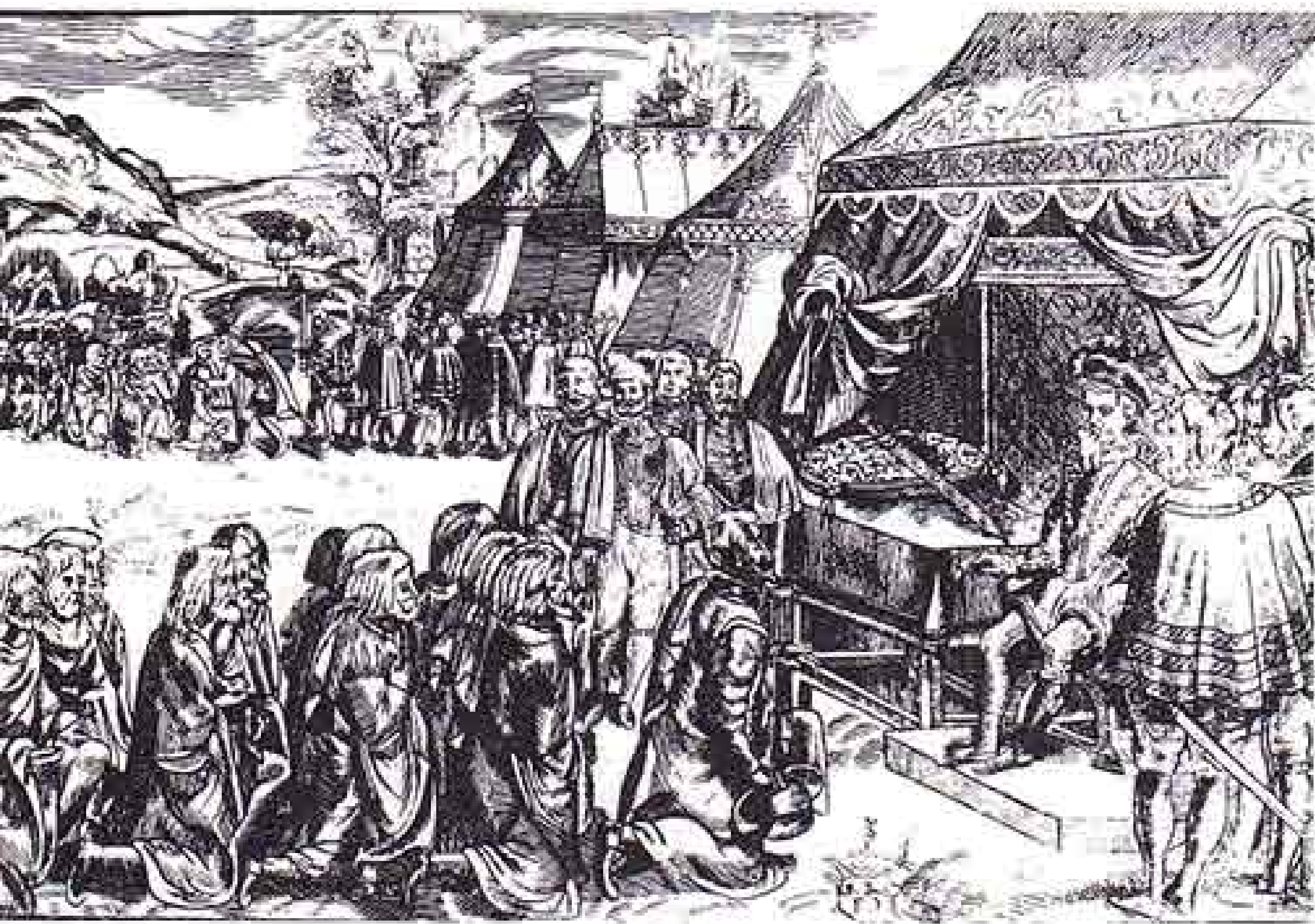

٣


الخارجية برمتها منذ ذلك الحين . فقد تغلبت على عدد من الازمات باللجوء الى التسويف والتردد الظاهر والتقلب السياسي المدروس ، مما كان يخرج مستشاريها من صوابهم . كانت تتملص من طلبات ماري للاعتراف بها كخليفة لها ، وعندما فرت ماري من اسكتلندا سنة ١٥٦٨ ، وضعتها تحت الحراسة الاحتياطية طيلة ١٩ سنة . وبما انها كانت تعتقد انه طالما كانت ماري على قيد الحياة ، فلا بد لفرنسا واسبانيا ان تترددا كثيرا قبل الاقدام على الهجوم على انجلترا ، فلم توافق على اعدام ماري الا عندما بدأت الحرب فعلا مع اسبانيا .

الحرب مع اسبانيا

سنة ١٥٧٢ ، قضي على الهوجنوت ، وهم من الفرنسيين البروتستانت ، في مجزرة سان بارتلمي ، واضعفت الحرب الاهلية التي

٥


٦




(٥) ـ من بين الـ ١٣٠ سفينة التي كانت سفن الارمادا تتألف منها ، كانت ٥٠ سفينة تقريبا قد صممت لخوض الحرب ، فيما كانت مهمة البقية نقل المعدات اللازمة للحملة .

(٦) ـ كانت الفتنة ضد انجلترا في ايرلندا خطرة في أواخر حكم اليصابات . تمكن تيرلو اونيل (توفي ١٥٩٥) من المحافظة على سلام نسبي ، وهو يبدو هنا يعلن طاعته للقائد الانجليزي هنري سيدني سنة ١٥٦٧ . ولكن على اثر وفاته ، اندلعت ثورة شملت كل البلاد ، فحاول الاسبان دعمها سنة ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧ . كلفت الفتنة الايرلندية اليصابات ثمنا باهظا من الحرب مع اسبانيا .

(٧) ـ ارسلت ماري ملكة الاسكتلنديين (١٥٤٢ ـ ١٥٨٧) وابنة جيمس الخامس ، الى فرنسا سنة ١٥٤٨ ، لاحباط الخطط الرامية الى زواجها من ادوارد السادس ملك انجلترا ، وتزوجت الملك الفرنسي العتيد فرنسوا الثاني (١٥٤٤ ـ ١٥٦٠) عوضا عن ذلك . في فترة لاحقة ، تزوجت ابن عمها لورد دارنلي ، فشكل ذلك خطرا على اليصابات ، لأن كلا منهما كان له الحق في العرش الانجليزي . بعد وفاة دارنلي ، اقصت اليصابات ماري عن اسكتلندا ، وسجنتها في قصر شفيلد ، لكي تمنعها من خلق المزيد من المتاعب لانجلترا . الا ان ماري تورطت في عدة مؤامرات رامية الى اغتيال ملكة انجلترا ، فوافقت اليصابات آخر الأمر في سنة ١٥٨٧ على اعدامها . بالحقيقة لم تكن تود القيام بهذا العمل ، لانهما كانتا ابنتي عم ، ولأن ذلك العمل كان بمثابة تحامل على السلطة الملكية .

عادت الى الاشتعال في فرنسا مركز هذه الدولة كزعيمة للسياسة الدولية . بعد ان حرم البابا اليصابات سنة ١٥٧٠ ، وجد فيليب ، الزعيم الزمني للحركة الاصلاحية المضادة ، مبررا لشن الحرب عليها ، خصوصا وان اندحار انجلترا من شأنه ان يؤدي الى تحسين طرق المواصلات بين اسبانيا وهولندا .

في بادىء الامر اقتصرت الحرب على استفزازات وتحرشات من الجانبين ، لاسيما هجمات قامت بها السفن الانجليزية الخاصة على السفن والمواقع الاسبانية في جزر الهند الغربية ، ومؤامرات كاثوليكية ترمي الى قتل اليصابات . ومع ذلك لم ينطلق الاندفاع نحو الحرب الا تدريجيا . فالروابط الانجليزية التجارية مع بلاد الفلاندر التي كان يسيطر عليها الاسبان كانت اقوى من ان تقطع بسهولة ، ولم يقدّم فيليب عونا كبيرا لسفرائه عندما كانوا يتآمرون على حياة اليصابات .

لكن اغتيال « وليم الصامت » ، زعيم الثوار الهولنديين سنة ١٥٨٤ حمل اليصابات على ارسال ايرل ليستر على رأس حملة رسمية لمساعدة الثوار سنة ١٥٨٥ (٣) ، فاشتعلت نيران الحرب ، التي كان يخشى وقوعها منذ زمن ، ضد فيليب . في تلك الاثناء ، كان جون هوكنز (١٥٣٢ ـ ١٥٩٥) قد أعاد تنظيم الاسطول الانجليزي ، فاستبدل ، تلبية لحاجات العصر ، السفن العالية المعروفة بالكاراك والصالحة فقط للملاحة في المياه الاقليمية بالبوارج السريعة الصالحة للمحيطات والطويلة بالنسبة الى عرض هيكلها . بعد أن جهّزها بمدافع بعيدة المدى وقلل من عدد بحارتها لتخفيف الازدحام والحد من انتشار الامراض .

استعمل فرانسيس در يك (١٥٤٠ ؟ ـ ١٥٩٦) بعض هذه السفن الجديدة في غزوات رامية الى ازعاج الاسبان دون كلفة تذكر . ففي سنة ١٥٨٥ ـ ١٥٨٦ ، نزل في خليج فيجو ، وقام بنهب جزر الرأس الأخضر ، وهاجم سان دومنجو وقرطاجنة في البر الاسباني ، ثم ابحر باتجاه قادس سنة ١٥٨٧ ودمر ٣٠ سفينة من سفن الارمادا التي كان فيليب يعدّها لنقل جيوشه الى انجلترا .

الارمادا الاسبانية

أعاقت هذه التحركات واضعفت خطة الهجوم الاسباني . ومع ذلك ابحرت نحو المانش في يوليو ١٥٨٨ قوة بحرية هائلة مؤلفة من ١٣٠ سفينة و ٣٠٠٠٠ رجل بقيادة دوق مدينا سيدونيا (١٥٥٠ ـ ١٦١٥) للالتحاق بجيش اسباني آخر مؤلف من ١٧٠٠٠ رجل احتشدوا في موانىء الفلاندر (١) .

جاء الانتصار الانجليزي على الارمادا (٥) خليطا من حسن الطالع والتخطيط البارع ، فاتضح بسرعة بعده ان الاسبان لن يتمكنوا ثانية من تهديد وجود انجلترا البروتستانتية . الا ان الحرب استمرت حتى ١٦٠٤ وان يكن بدون انتصارات مثيرة لأي من الطرفين . فقد بقيت انجلترا متورطة في هولندا ، كما تدخلت اليصابات ضد المطامع الاسبانية في فرنسا في تسعينات ذلك القرن . كذلك حاول الاسبان من جهة ثانية التدخل في فتنة موجهة ضد الحكم الانجليزي في ارلندة (٦) سنة ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧ . لكن عندما اصبحت الحرب عبئا متزايدا على موارد كلا البلدين ، رحب الشعبان بالصلح الذي عقده جيمس الأول .

الاستكشاف والتجارة الانجليزيتان في القرن السادس عشر

من الأرجح ان ربابنة البحر، دريك ورالي وهوكنز من عهد اليصابات (١٥٣٣ - ١٦٠٣ هم الذين زودوا تاريخ انجلترا التودورية بأبقى اساطيره. الا ان بطولاتهم تمّت في حقل الاستكشاف الذي كان تاريخه قد ابتدأ قبل قرن كامل تقريبا. كانت دواعي الاستكشاف متباينة، الا أن أهمها كان الضغط الاقتصادي الناجم عن تزايد السكان، والتضخّم، وتقلص الأسواق التقليدية، يضاف الى ذلك حب الاستطلاع المجرد، والتعطش الى المغامرة، والزهو القومي

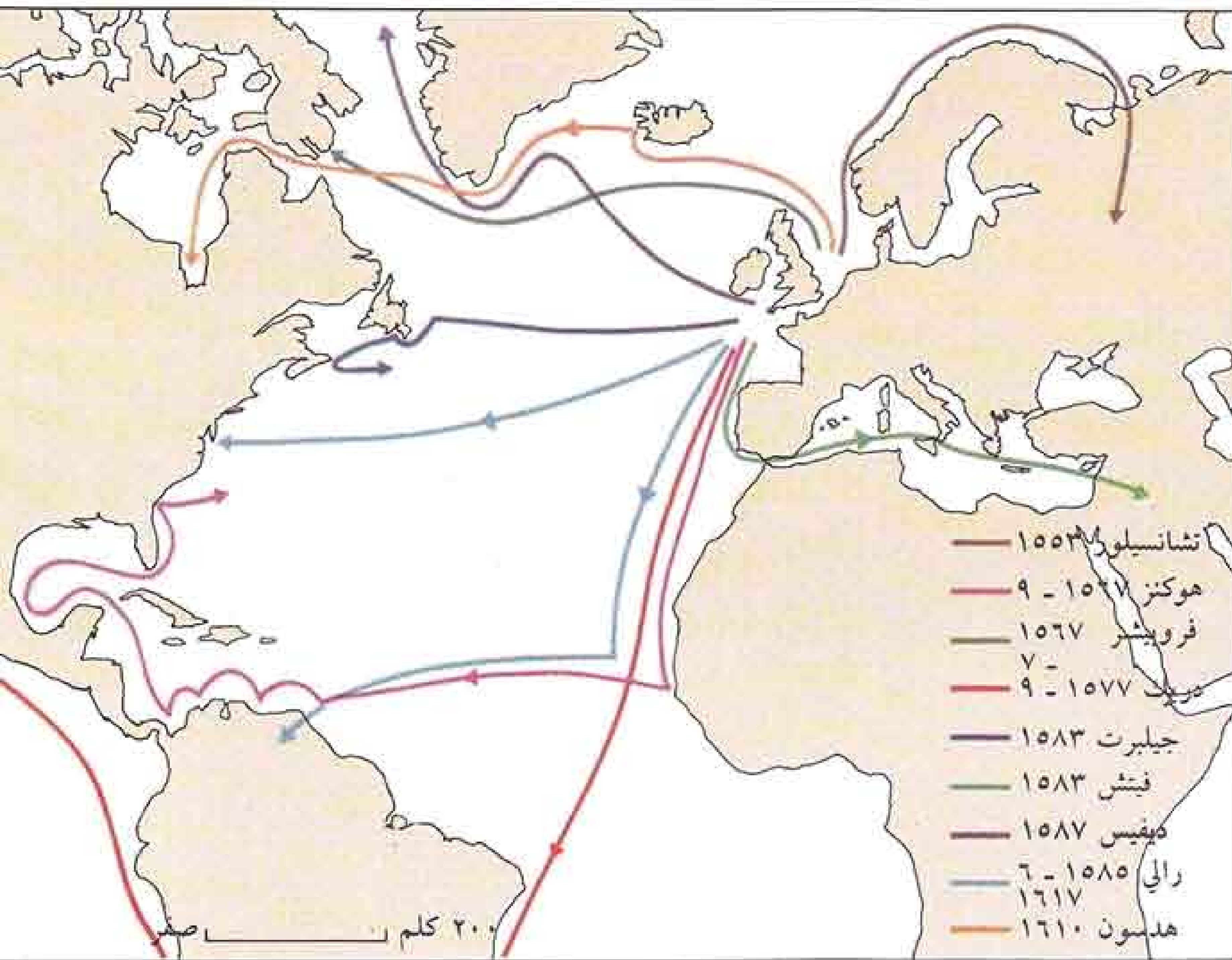
تغير نمط التجارة

كان الاتجار بالصوف وبالأقمشة الصوفية

١



٢



(١) - ارتاد جون كابوت وابنه سباستيان نوفا سكوتيا، تجاه ساحل اميركا الشمالية سنة ١٤٩٧، ولكنهما ظنا انهما اكتشفا آسيا. بعد ذلك ببضع سنوات توفي جون اثناء رحلة ثانية قام بها. سنة ١٥٠٩، أبحر سيباستيان على محاذاة جرينلند الشمالية، حتى مضيق ديفيس، ولعله وصل الى خليج هدسون. وفي تاريخ لاحق، أمّ اسبانيا وقضى عدة سنوات ربانا لاسطولها التجاري، وقام ببعض الاكتشافات على ساحل امريكا الجنوبية. عاد الى انجلترا سنة ١٥٤٧، وساعد على تأسيس شركة مساهمة سنة ١٥٥٣ للبحث عن طريق بحري يكون شماليا شرقيا. موّلت هذه الشركة بعثة ويلوبي وتشانسيلور الى موسكو.

(٢) - لم تبلغ حركة الاستكشاف الانجليزية نشاطها الكامل الا بعد ١٥٥٠. منذ ذلك التاريخ، أصبح الغرض الرئيسي من الرحلات العثور على طريق تؤدي الى أسواق الصين وآسيا الجنوبية الشرقية الرابحة، دون التعدي على الممتلكات الاسبانية والبرتغالية التي كانت قد تحددت بموجب المرسوم البابوي لسنة ١٤٩٣. وهكذا سعت الشركات التجارية، مثل الشركة الموسكوبية، وراء اسواق جديدة للقماش الانجليزي، مقابل الخشب وسواه من السلع الأخرى النافعة في صناعة السفن، عوضا عن انشاء المستعمرات. لم تكن الرحلات الأخرى بهذه الدرجة من الربح بالنسبة الى الصناعة الا ان الأمل المعقود على سوق الصين لم يتحقق قط، ولم تستفد الصناعة الوطنية في انجلترا من المستعمرات الامريكية حتى منتصف القرن

غير الجاهزة أساس التصدير الذي كان حيويا لانجلترا في أوائل القرن السادس عشر . ولكن في الأربعينات من هذا القرن ، هبطت قيمة العملة الانجليزية ، فأصبح معدّل صرف العملة ضد مصلحة المصدّر الانجليزي . كذلك فقدت انجلترا مركزها الرسمي القديم لتوزيع الصوف الانجليزي في اوروبا على أثر خسارة كاله سنة ١٥٥٨ ، كما تقهقرت أنتورب نفسها خلال صراع هولندا الطويل ضد اسبانيا في سبيل الاستقلال . وهكذا تأثرت صناعة الصوف بصورة خطيرة ، وتحول الرأسمال الى تسوير الأراضي من أجل تحسين الزراعة بدلا من رعاية المواشي ، والى تعزيز استخراج الفحم الحجري والرواسب المعدنية الأخرى . كل هذا حدا بالتجار الى التطلع الى ما وراء البحار بأمل بيع أقمشتهم في بلدان جديدة لم تكن قد اكتشفت بعد ، وهو ما أعطى الاستكشاف دورا رئيسيا في عملية التوسع الاقتصادي .

٣



السابع عشر . لم يقم همفري جيلبرت الا سنة ١٥٨٣ بمحاولة لانشاء أول مستعمرة دائمة في العالم الجديد ، وذلك في نيوفاوندلند .

(٣) - ادعى مارتين فوربيشر انه عثر على الطريق البحري الشمالي الغربي سنة ١٥٧٦ ، فانشئت شركة كاتي لتعزيز التجارة مع الصين . في السنة التالية ، ظن انه اكتشف ذهبا ، فوجد مساندين لرحلة جديدة الى جرينلند التي كانت قد بقيت مجهولة تقريبا منذ رحلات الفايكنج في القرن العاشر . جلب معه الى لندن بعض رجال الاسكيمو ، الذين يبدون هنا وهو يقاتلهم ، الا ان المناخ الانجليزي قضى عليهم .

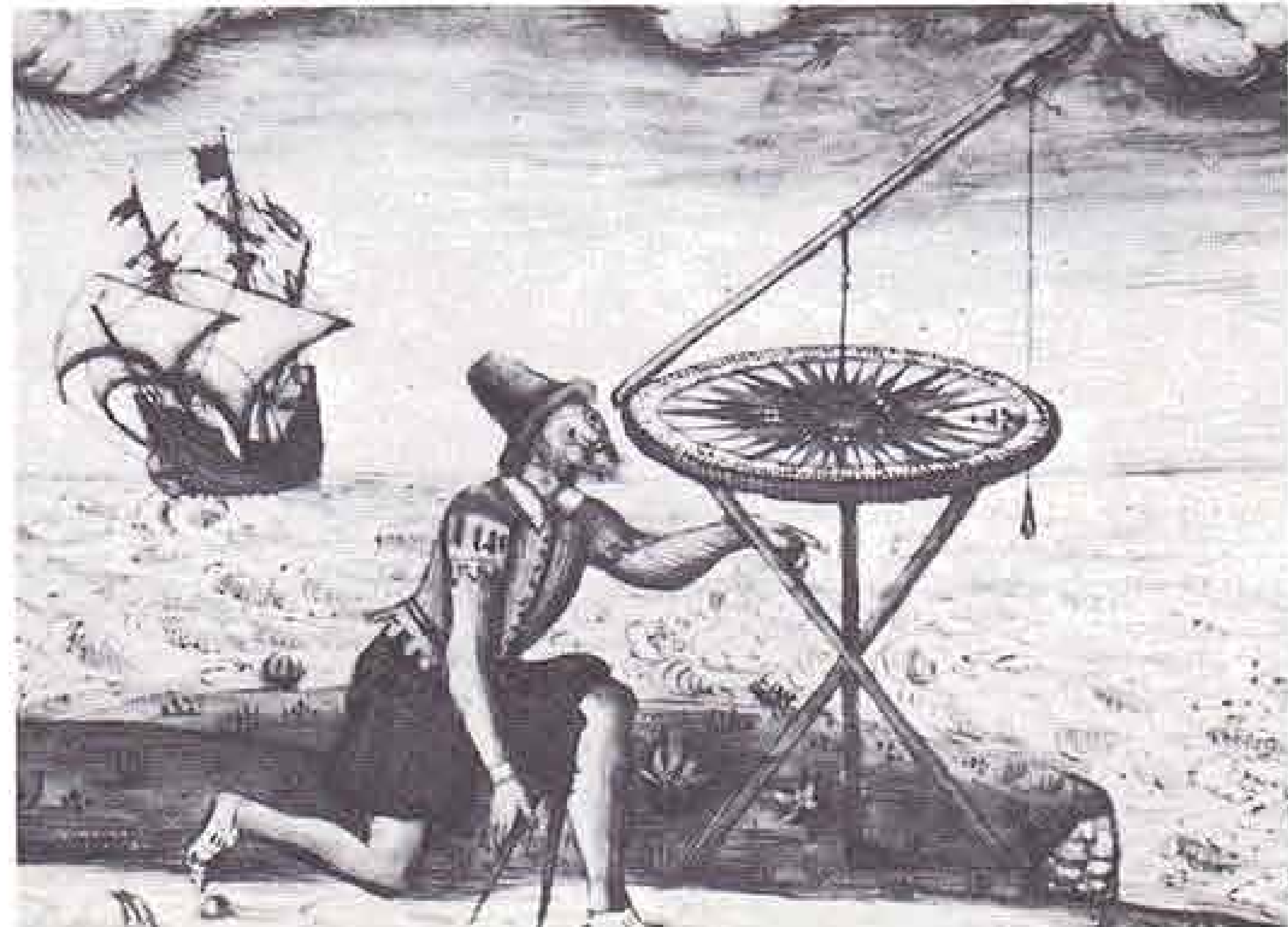
٤



(٤) - كانت « مرآة التجار » (١٥٨٧) أحد المؤلفات الانجليزية في الجغرافيا والملاحة ، الذي عالج موضوعه على شكل علمي ، خلافا للشكل الخيالي المألوف .

(٥) - كانت أدوات الملاحة حيوية للرحلات في عرض المحيطات ، وقد نشأ عدد من مدارس الملاحة في عهد اليصابات ، مثل كلية غريشام لتعليم البحارة المهارات الجديدة . كانت هذه المهارات مهمة لصيادي الاسماك بقدر أهميتها للمستكشفين . كذلك كان حيويا ايضا الاسطرلاب الذي طوره البرتغاليون انطلاقا من تصاميم عربية ، مع ان استعماله على اليابسة كان اسهل من استعماله على ظهر سفينة تتموج على البحر . شملت المبتكرات الثورية الجديدة خريطة للعالم لمركاتور بتاريخ ١٥٦٩ ، كما شملت ايضا عصا جون ديفيس الخلفية للمراقبة التي عدّلت العصا المصلّبة .

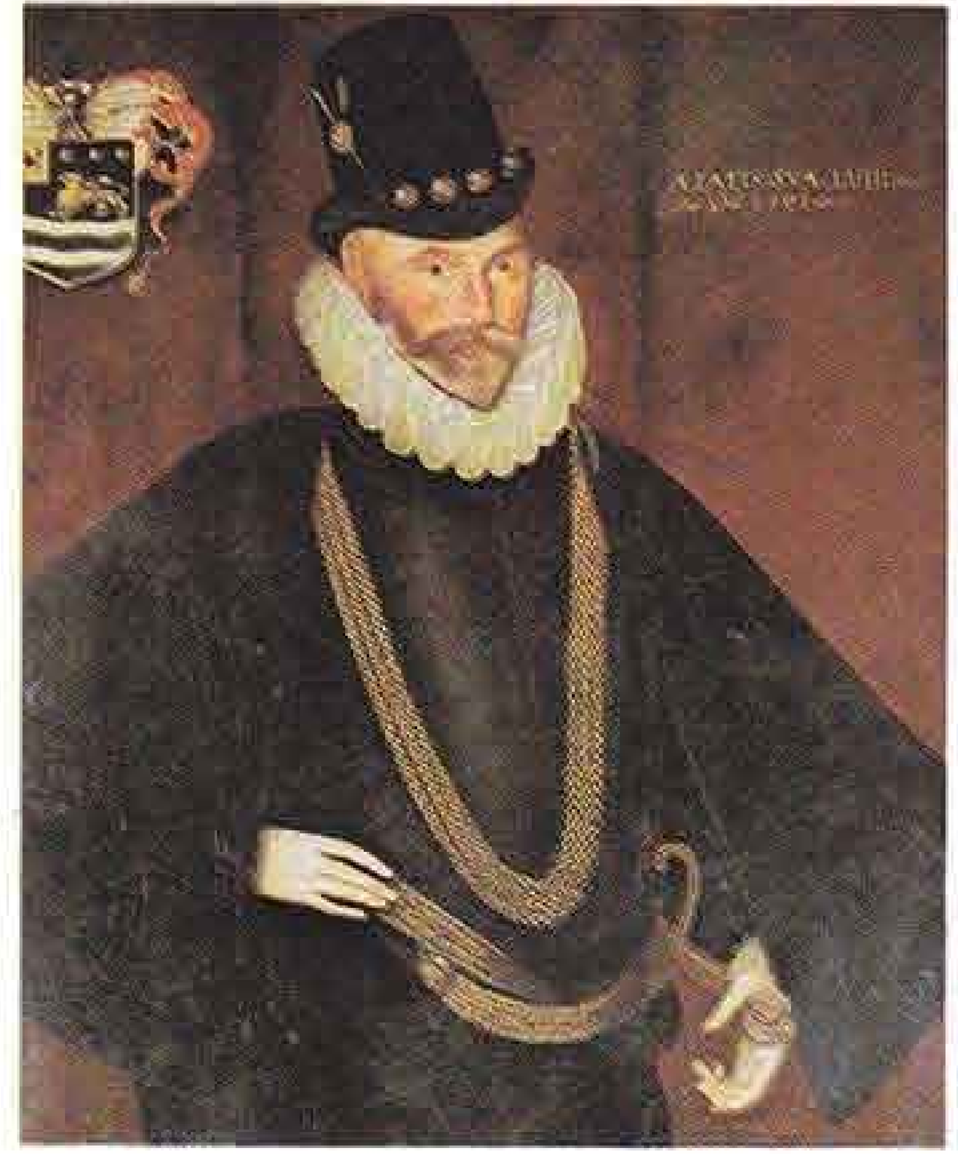
٥



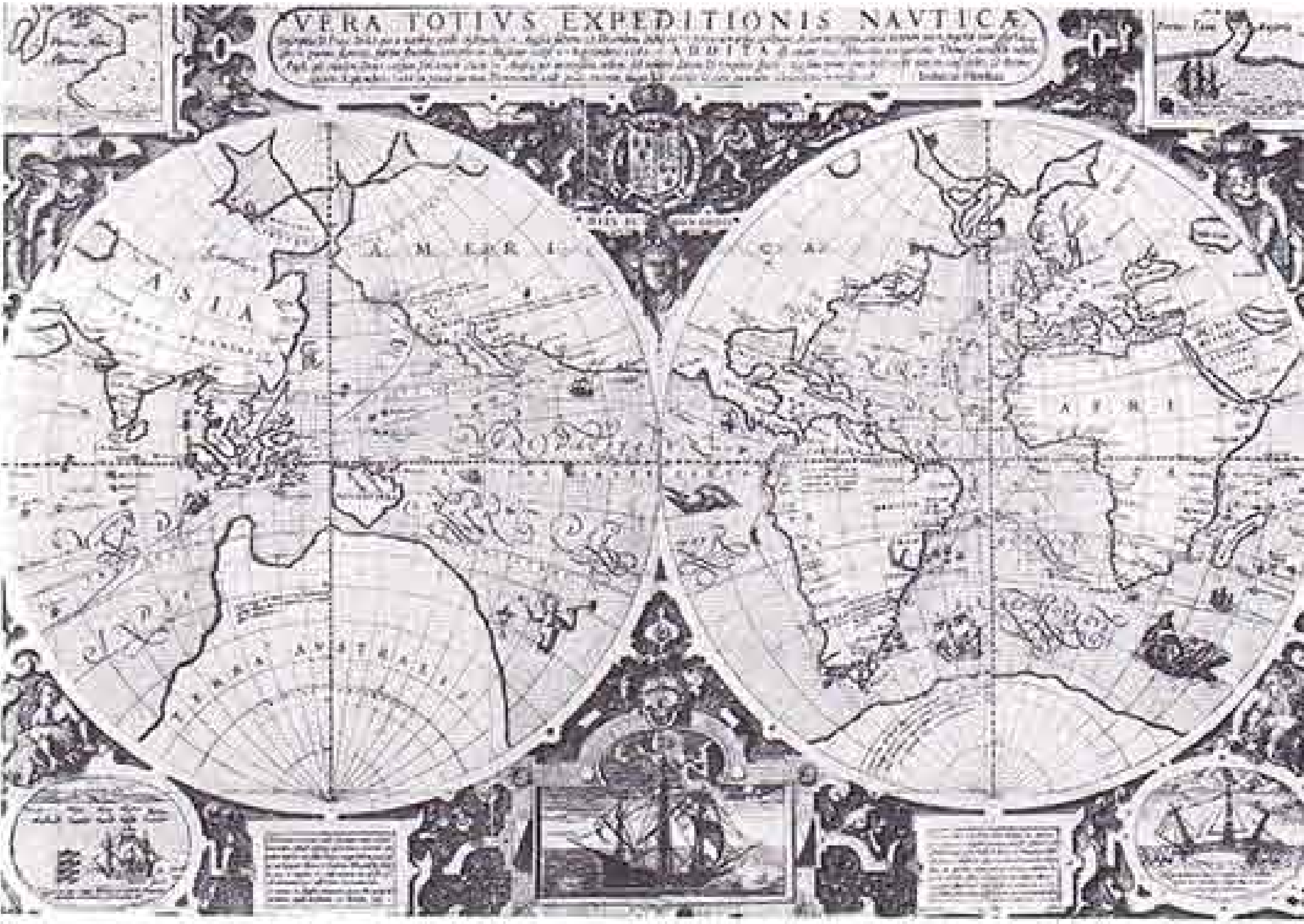
بداية الاستكشاف الانجليزي

كان أول رائد « انجليزي » رجلا ايطالي المولد هو جون كابوت (١٤٥٠ ؟ - ١٥٠٠ ؟) ، الذي كان قد استوطن بريستول . في عام ١٤٩٧ ، انطلق بأمر من هنري السابع لاستكشاف اراضٍ لم يكن يعرفها المسيحيون آنذاك ، وذلك لتعطيل مفعول المرسوم البابوي الصادر سنة ١٤٩٣ والقاضي بتقسيم جميع الاراضي الجديدة بين اسبانيا والبرتغال . بناء على هذا ، لم تعترف جميع الرحلات التيودورية اللاحقة بانطباق ذلك المرسوم الا على الاراضي التي احتلت فعلا في عام ١٤٩٣ . عثر كابوت على نوفا سكوتيا ، ومصائد السمك الهامة في نيوفاوندلاند ، وقال بوجود طريق شمالية غربية للوصول الى جزر البهارات وثروات الشرق الاسطورية التي طالما ضللت الكثيرين من المستكشفين اللاحقين .

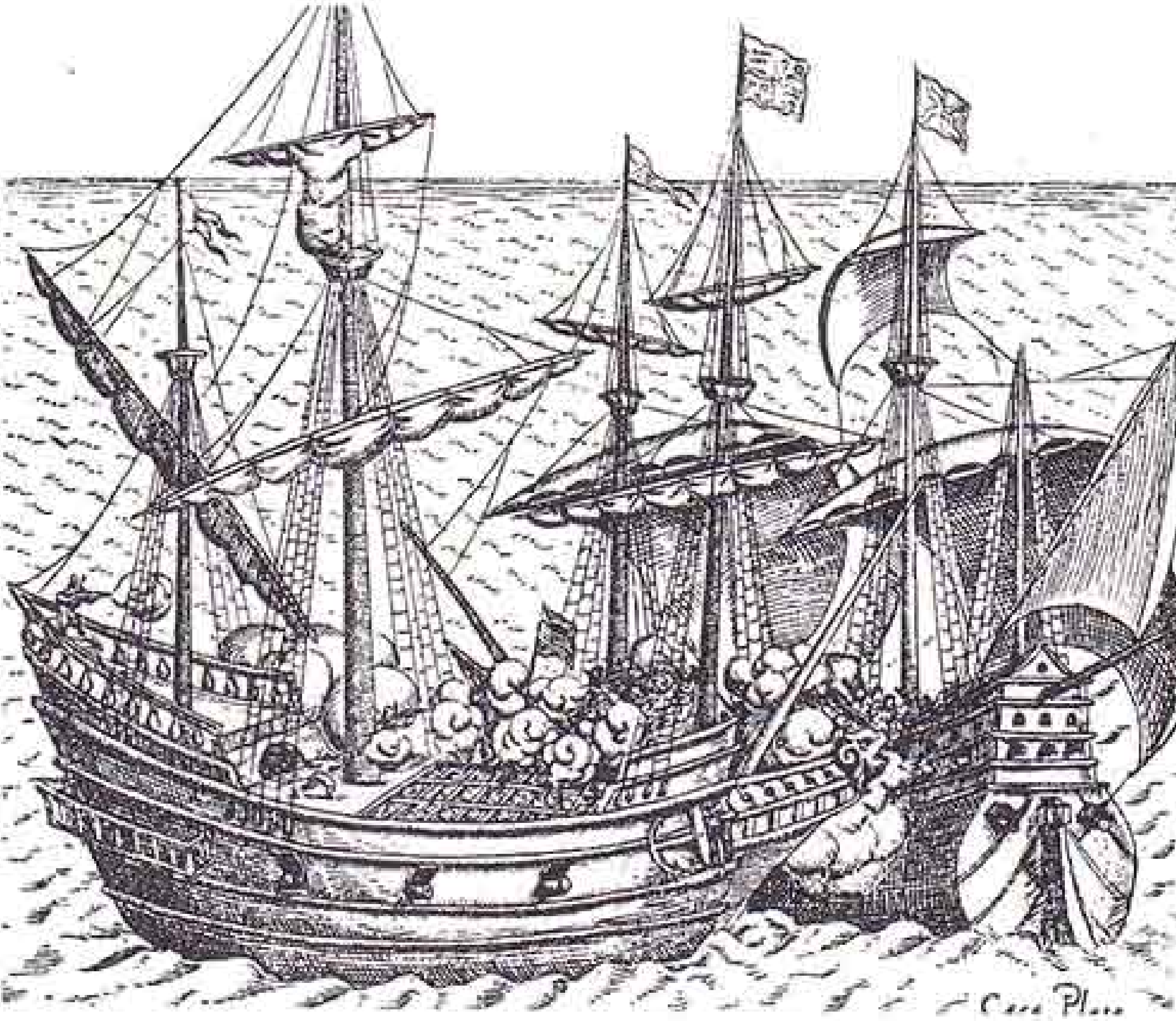
٦



٧



٨



(٦) - كان جون هوكنز رائد « مثلث العبيد » الذي أصبح قاعدة البحبوحة الانجليزية في القرن الثامن عشر . أصبح في وقت لاحق أمين صندوق الاسطول . فأدخل العديد من الابتكارات في تصميم السفن وتجهيزها .

(٧) - خلال دوران دريك حول الكرة الارضية ، اجتاز المحيط الهادىء من كاليفورنيا حتى جزر البهارات حيث استقبله استقبالا ضخما سكان جزر المولوقا الأصليون ، وحمّل سفينته بثلاثة اطنان من القرنفل . كذلك عقد اتفاقا مع سلطان تيرنيت لتأمين مورد لا ينضب من البهارات ، التي بلغ من تقدير الناس لها ان دريك كان يفضلها على المجوهرات .

(٨) - استولى فرنسيس دريك على سفينة اسبانية تحمل كنزا في مارس ١٥٧٩ ، في عرض المحيط الهادىء ، ابان رحلته حول العالم ، وهكذا ضمن نجاح رحلته المالي . كانت اسبانيا في القرن السادس عشر تعتمد على شحنات ضخمة من الذهب والفضة المستوردة من « العالم الجديد » ، فكان الاستيلاء عليها يعتبر مساهمة في الدفاع عن انجلترا والعقيدة البروتستانتية . كذلك كانت البعثات تجلب معها المواد الخام .

وضع سيباستيان (١٤٧٤ ـ ١٥٥٧) ابن كابوت خطة للوصول الى الهند من الشمال الشرقي لكنها فشلت. الا ان بعثة هيو ويلوبي (توفي ١٥٥٤) وريتشارد تشانسيلور (توفي ١٥٥٦) سنة ١٥٥٣ أفضت بهما الى موسكو، فأسسا «الشركة المسكوبية» التي أخذت تتاجر مع روسيا، كما فتحت لها طريقا برية الى ايران. قبل ذلك، أي سنة ١٥٠٩، كان سيباستيان قد عبر مضيق ديفيس الى الشمال الغربي من نيوفاوندلند، وبلغ نهر الهدسون الذي ظنه المحيط الهادىء؛ ثم وصل مارتين فروبيشر (١٥٣٥ ؟ ـ ١٥٩٤) في ثلاث رحلات (١٥٧٦ ـ ١٥٧٨) الى المياه ذاتها، بينما أثبت جون ديفيس (١٥٥٠ ؟ ـ ١٦٠٥) أن جرينلند منفصلة عن البر، وأبحر نحو خليج بافّين. لكن لما كان الممر الشمالي الغربي دائما مكسوا بالثلوج، فلم يكن من الممكن ان يكون طريقا بديلة عن طريق رأس هورن ورأس الرجاء الصالح كما كان متوقعا. كذلك تلاشى الاعتقاد بوجود قارة جنوبية ضخمة تمتد من جنوب رأس هورن حتى جزر الهند الشرقية. توصل عهد اليصابات الى استكشاف القسم المعروف من الارض (٣).

أدت الرحلات الى البحر الكاريبي الى اقامة اتصال بين الامبراطوريتين الانجليزية والاسبانية. فألقى جون هوكنز (١٥٣٢ ـ ١٥٩٥) (٦) القبض عام ١٥٦٢ على عبيد من الزنج في سيراليوني، وباعهم الى الاسبان في سان دومنجو. في رحلة ثانية مماثلة، قام بها هوكنز عام ١٥٦٤، أرسى قواعد تجارة رابحة، ولكن اسطولا اسبانيا قبض عليه سنة ١٥٦٧ ـ ١٥٦٨ في سان خوان دوللوا، ولم يعد الى انجلترا بأمان سوى سفينتين من سفنه.

الرحلات اللاحقة

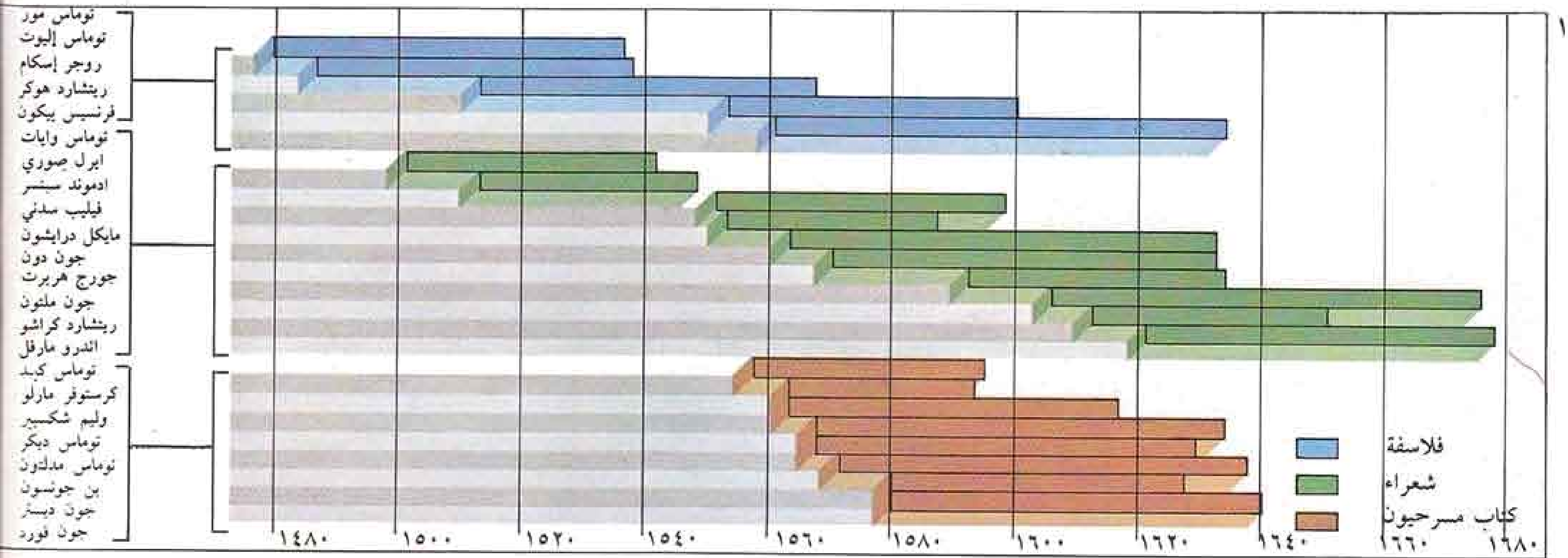
في عام ١٥٧٧، أقلع دريك على متن السفينة «جولدن هند» التي كانت ترعاها الملكة، بحثا عن طريق جنوبي غربي يؤدي الى المحيط الهادىء. أبحر دريك عبر مضائق ماجلان، ونهب المدن الساحلية غير المحمية، وأدعى ملكية كاليفورنيا، ثم اتجه غربا نحو جزر مولوقا، وعاد الى بلاده سنة ١٥٨٠ عن طريق رأس الرجاء الصالح (٧). وفي عام ١٥٨٦ ـ ١٥٨٨، كان توماس كافنديش (١٥٦٠ ـ ١٥٩٢) الانجليزي الثاني الذي يدور حول العالم.

تاجر أنطوني جنكنسون (توفي ١٦١١) مع آسيا الوسطى، ورالف فيتش، الذي ازدهر بين ١٥٨٣ و ١٦١١، مع «أكبر» المغول الأعظم وحاكم الهند، وعاد جيمس لانكستر (١٥٥٠ ؟ ـ ١٦١٨) بغنائم كثيرة من جزر الهند الغربية. على أساس هذه المشاريع الفردية، تشكلت شركات لاستغلال المكاسب التجارية، أهمها شركة الهند الشرقية (١٦٠٠). الا ان الاستعمار الرامي الى تأسيس مستوطنات دائمة، عوضا عن مواقع تجارية، لم يحقق نموا يذكر الا بمزيد من البطء. كانت دوافعه تجارية اولا، تهدف الى الحصول على الأسواق والمواد الخام، وسياسية ثانيا، تتوخى اضعاف شوكة اسبانيا، ودينية ثالثا، تستهدف التبشير (٢)، واجتماعية رابعا، تعمل على تشغيل العاطلين عن العمل. مات همفري جيلبرت (١٥٣٩ ـ ١٥٨٣) أثناء رحلة رامية لاستعمار نيوفاوندلند، وسجن أخوه من أمه والتر رالي (١٥٥٢ ؟ ـ ١٦١٨) في «برج لندن»، قبل أن تقوى جذور مستوطنته في فيرجينيا.

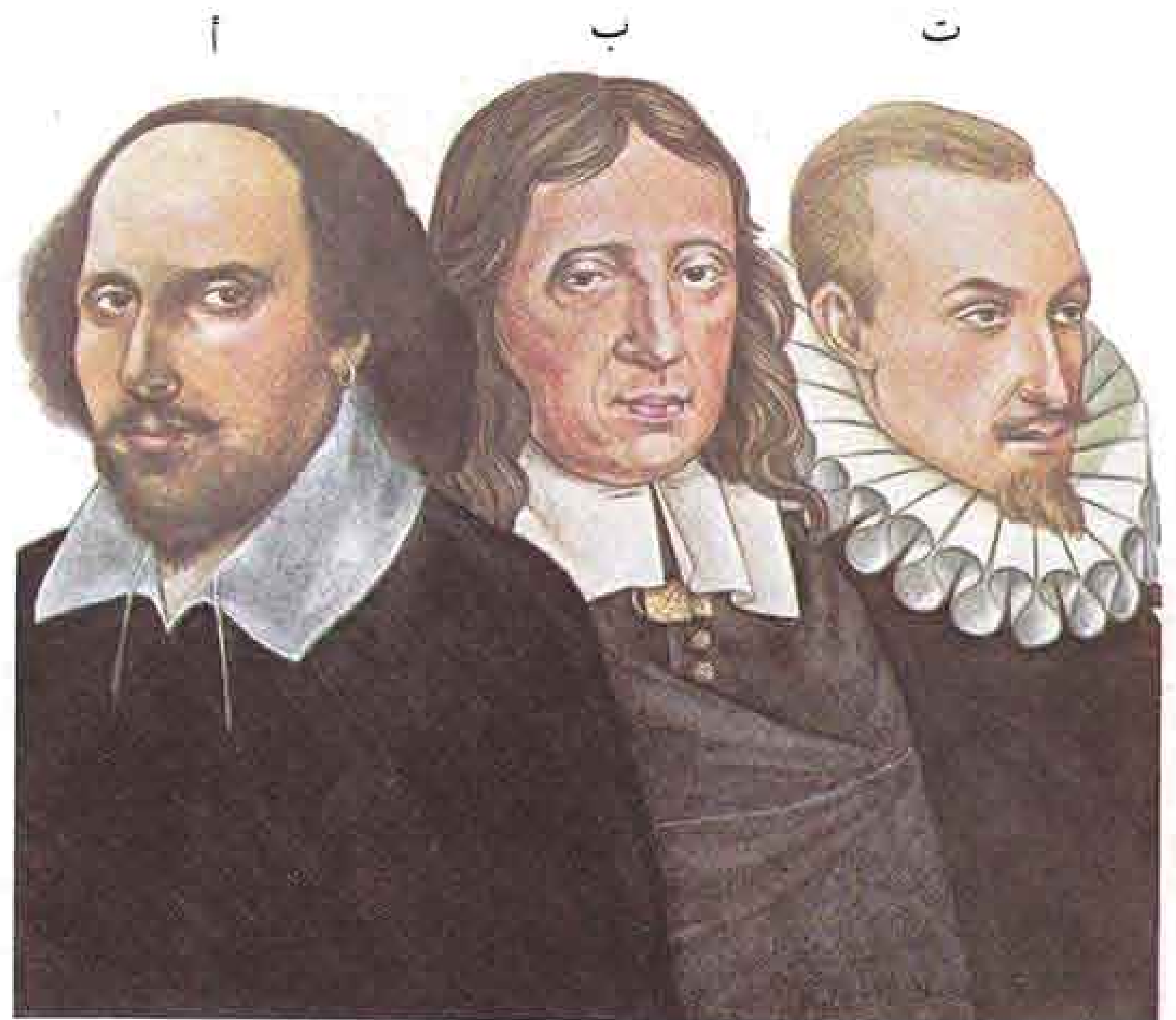
الأدب الانجليزي في عصر النهضة

امتدت المعارف الايطالية الجديدة في القرن الخامس عشر بسرعة في اتجاه الشمال ، واهتم بها في انجلترا جماعة عرفوا « بمصلحي أكسفورد » ، وهم العلماء « الانسانيون » جون كوليت (١٤٦٣ ؟ - ١٥١٩) وووليم جروسين (١٤٤٦ ؟ - ١٥١٩) وتوماس ليناكر (١٤٦٠ ؟ - ١٥٢٤) . فنجم عن ذلك تغير في اغراض نظام التعليم التقليدي ، فلم يعد التعليم يستهدف بالدرجة الاولى ايضاح حقائق الكتاب المقدس ، بل اصبح يتوخى تدريب الشباب على فنون الحكم من خلال دراسة الفلسفة والتاريخ الكلاسيكيين . تلخص هذا الاتجاه الجديد لأول مرة في « الكتاب المدعو بالحاكم » (١٥٣١) لتوماس اليوت

١



٢



(١) - يبين هذا المخطط الزمني تطور شتى الأنواع الكتابية في العصر الذهبي للأدب الانجليزي ، الذي شمل الحقبتين التودورية والستوارتية . كان المفكرون في عصر النهضة الايطالية قد ظهروا قبل مؤلفي المسرحيات والشعراء ، الا ان جميع هذه الفئات الثلاث بلغت أوجها في الحقبة الاليصاباتية الأخيرة ، التي دامت طوال القرن السابع عشر . تركزت انجازات الدراما خصوصا في الفترة الزمنية الممتدة من ١٥٦٠ حتى الحرب الأهلية .

(٢) - كانت أعظم ثلاث شخصيات في تاريخ الأدب الانجليزي في عصر النهضة ، وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) (أ) ، وجون ميلتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) (ب) ، وادموند سبنسر (١٥٥٣ - ١٥٩٩) (ت) . نظم سبنسر الشعر الغنائي ، وكان شكسبير أعظم شاعر مسرحي في التاريخ الانجليزي ، بينما برز ميلتون كعلم غير منازع من أعلام الشعر الملحمي الانجليزي .

(٣) - كان العود ، آلة وترية تنقر بالأنامل ، وقد تميزت به الموسيقى في عصر اليصابات ، اذ كانت الأعواد الانجليزية

ترجمة الروائع الكلاسيكية

كذلك حفزت المعرفة الجديدة الى انتاج ضخم من المؤلفات المبتكرة المكتوبة باللاتينية، من «يوتوبيا» (١٥١٦) توماس مور (١٤٧٨ ؟ - ١٥٣٥)، وهي مقالة في السياسة والحكمة المثاليتين، الى «المنطق الجديد» (١٦٢٠) لفرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦)، وهو يتناول التربية المثالية. ولكن لم تكن المؤلفات العلمية باللاتينية في متناول الجميع، لكن راجت ترجمات الروائع القديمة، مثل ترجمة توماس نورث لكتاب «السِّيَر» لمؤلفه بلوترخوس (١٥٧٩).

كانت المحاكاة أيضا، وهي التقليد الأعمى، وجها مهما آخر للأدب في ذلك القرن. فقد اتخذ بسرعة كمثال يحتذى به ابداع فرنشيسكو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤)، وجوفاني بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) ولودوفيكو اريوستو (١٤٧٤ - ١٥٣٣)، وتوركاتو تاسو







مطلوبة في جميع أنحاء أوروبا. كان الغناء وجها من وجوه الترفيه المحببة في البلاط. لذلك كان يتوقع من الجنتلمان أن ينظم الأغاني، بما في ذلك القصائد الغزلية، وأن ينشدها على أنغام عوده.

---

(٤) - تعكس «معركة الملائكة» المأخوذة من «الفردوس المفقود» لميلتون، فهمه للحياة كصراع بين قوى الخير والشر. ظهر أول ما ظهر في السقوط الكوني الأول للملائكة المتمردين. مما شجع ملتون على هذا التأويل، على الأرجح، تجربته الخاصة كمؤيد لكرومويل في الحرب الأهلية. فقد كان لا بد لصراعه في تلك الحرب أن يبدو له شاقا وعنيفا، وهو ذلك الرجل المرهف الحساسية لاغراءات الحياة والطبيعة. فعبّر عن هذا الصراع بلغة رفيعة وبطولية وصريحة في الوقت نفسه.

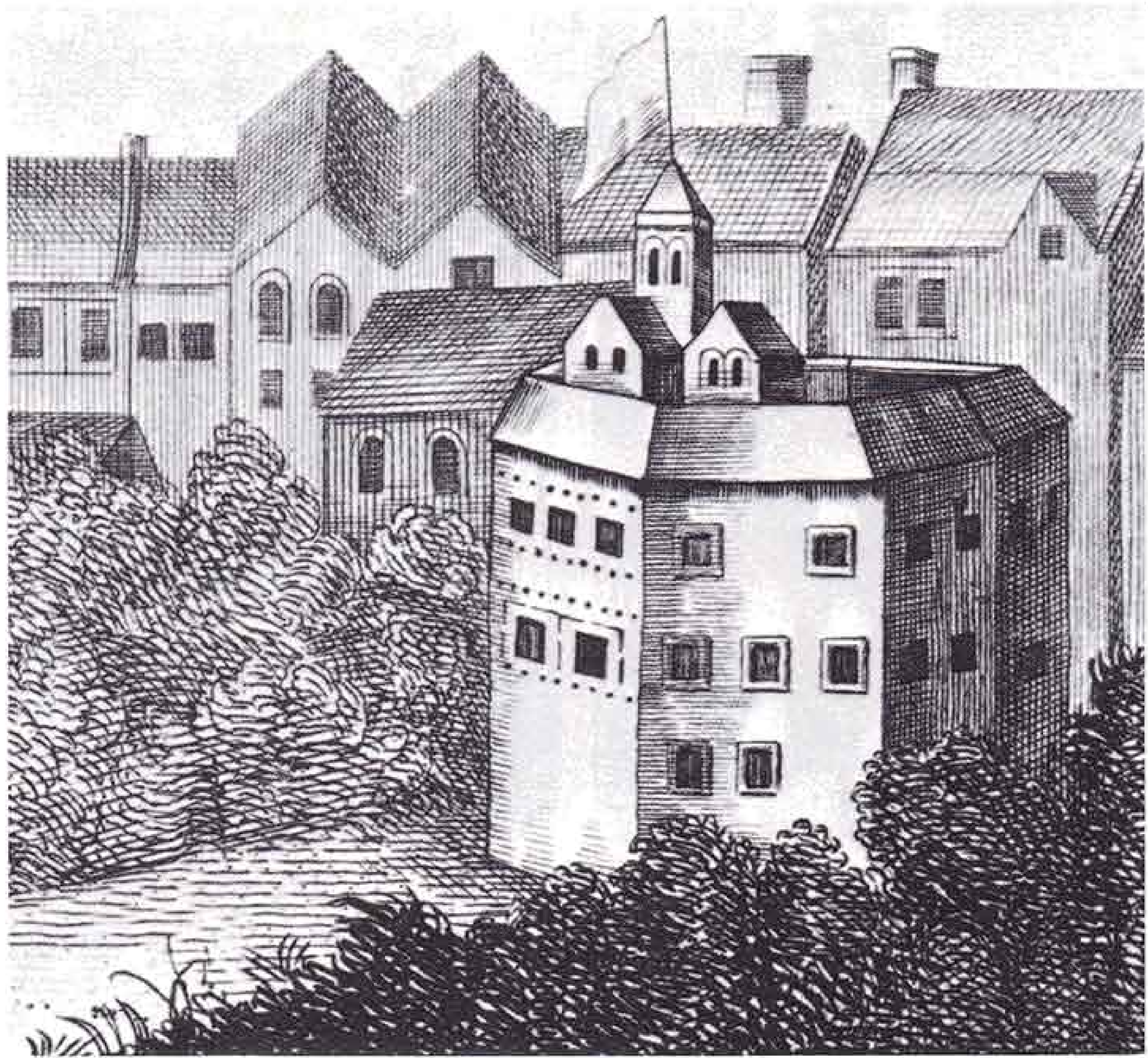
---

(٥) - كان جون دون (١٥٧٢-١٦٣١) أشهر «شاعر ميتافيزيقي» في القرن السابع عشر. كان جنديا من بطانة الملك وعاشقا مرموقا وواعظا ذا شأن عظيم، وأصبح فيما بعد نائب اسقف كنيسة القديس بولس. كان رجلا شهوانيا، الا ان لغته الشعرية كانت انيقة وفلسفية ومعقدة. عبر عن عالم العواطف برقة وبصور مثقلة بالمغازي. كان شعره غنيا بالشهوانية والدعابة المستهترة، ولكنه احتفظ بتقوى أساسية تتجلى في هذه الأبيات «لا أنت تتحكم ولا دينك - بغرام النفس المنسجمة - ولكنك كنت تتمنى لو كان ذلك الغرام من شأنك أنت - لذلك أنت الآن غيور - ولن تنعم بالحب - حتى تحرر نفسي أنا من المزيد - من الحب ...».

(١٥٤٤ ـ ١٥٩٥) ، فبرز كل من توماس ويات (١٥٠٣ ؟ ـ ١٥٤٢) ، وايرل صوري (١٥١٧ ؟ ـ ١٥٤٧) في قصائدهما الغزلية المنظومة على غرار النموذج الذي ابتكره بترارك . وكان ذلك بداية حقبة عظيمة في تاريخ الشعر الانجليزي ، استمرت في نتاج سبنسر وسيدني وشكسبير ، حتى ظهور شعراء القرن السابع عشر ، روبرت هريك (١٥٩١ ـ ١٦٧٤) وريتشارد لوفليس (١٦١٨ ـ ١٦٥٧) واندرو مارفل (١٦٢١ ـ ١٦٧٨) وجون دون وجون ميلتون .

ابان هذه الحقبة الخارقة ، نظمت جميع أشكال الشعر ، من الروايات الغرامية الطويلة ، « كالملكة الجنية » (١٥٨٦ ـ ١٥٩٦) لسبنسر ، والملحمة العظيمة « الفردوس المفقود » (١٦٦٧) لميلتون ، الى القصائد الغنائية القصيرة الشبيهة بالدرر المقتبسة عن نماذج فرنسية وايطالية معدة للغناء (٣) .

٦



(٦) ـ كان مسرح « جلوب » على الأرجح أكبر مسارح لندن في الحقبة الممتدة بين اواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وهي تمثل العصر الذهبي للدراما الانجليزية الشعبية . فقد كانت المسارح تجتذب بصورة عامة جمهورا اسبوعيا يبلغ ٠٠٠ ٢١ شخص . كان أفراد عامة الناس من المشاهدين يجلسون في « المؤخرة » ، بينما كان الأغنياء يجلسون في « المقدمة » (الاوركسترا) . كانت خشبة المسرح تمتد حتى قلب القاعة . فكانت بذلك تقرّب بين المشاهدين والممثلين جاعلة المشاهدين يشعرون كأنهم مشتركون في التمثيل . كانت المناظر مع ذلك قليلة ، وكان الاعتماد في التأثير على المشاهدين يعتمد على المخيلة وما توحيه أحداث القصة .

٧



(٧) ـ صمم « قناع العرافين » وبنى خشبات المسرح انديجو جونز (١٥٧٣ ـ ١٦٥٢) سنة ١٦٢٢ . يقوم « القناع » على الترابط الوثيق بين العمارة والمسرح والموسيقى . كان « القناع » فنا ارستقراطيا ومقصورا على الصفوة وخاصا بالبلاط ، وغالبا ما كان ينطوي على تلميحات سياسية مبطنة . كان « القناع » من أصل ايطالي ، وهو رائد الاوبرا الحديثة . مع ان استعراضات « القناع » لم تكن مسرحيات مكتوبة ، فقد بقيت مدونة لنا في التصاميم والرسوم والموسيقى .

كان أعظم شاعرين في عهد اليصابات هما أدموند سبنسر، وفيليب سيدني (١٥٥٤ - ١٥٨٦) الذي تدل مجموعة قصائده الغزلية « استروفيل وستيلا » على اتقان عظيم للشكل البتراركي . أما أثر سبنسر الرئيسي ، فكان « الملكة الجنية » ، وهي رواية غرامية طويلة ذات دلائل رمزية .

في باب الدراما ، جاء أحياء المعارف اليونانية واللاتينية بعناصر كلاسيكية جديدة . فبلغت المسرحية الاخلاقية ، التي ظهرت في القرون الوسطى ، ذروتها في مسرحيات كريستوفر مارلو (١٥٦٤ - ١٥٩٣) ، التي تؤلف مآسيه الثلاث الكبرى ، « تيمورلنك العظيم » ، و « الدكتور فاوستوس » و « يهودي مالطا » ، دراسات في السلطة البطولية والمفاسد التي تنجم عن تلك السلطة .

تأثير سينيكا

مع دخول المعارف الجديدة ، أصبح المؤلف المسرحي اللاتيني سينيكا (٤ ق . م . ؟ - ٦٥ ب . م) نموذجا للمأساة مفضلا ورائجا . هنا عولجت مواضيع الانتقام والقصاص بما يرافقها من رعب وعنف ، كما استعملت حيل المسرح الميكانيكية لتوفير عامل المفاجأة .

كانت أول مأساة انجليزية على طريقة سينيكا هي « جوربودوك » (١٥٦١) لتوماس نورتون (١٥٣٢ - ١٥٨٤) وتوماس ساكفيل (١٥٣٦ - ١٦٠٨) ، وقد دشنا بها تقليدا بلغ ذروته في « المأساة الاسبانية » (١٥٩٢) لتوماس كيد (١٥٥٨ - ٩٤) .

ثم جاء وليم شكسبير ، فهيمن على الأدب الانجليزي في عصر النهضة . كانت مسرحياته الاولى عبارة عن اقتباسات لنماذج شائعة ، ثم أخذت الكوميديات اللاحقة تنم عن تعقيد أعظم في الشخصيات والعقدة ، كما تجلّى ذلك أيضا في السلسلة الدائرة على الملكية . أخيرا ظهرت المآسي العظيمة ، وتلتها أعمال شديدة التعقيد مثل « سيمبلين » و « العاصفة » و « قصة الشتاء » .

كان خليفة شكسبير العظيم هو بن جونسون (١٥٧٢ ؟ - ١٦٣٧) الذي ابتكر سلسلة من الشخصيات الخارقة القوة ، لاسيما في « فولبون » (١٦٠٧) . كذلك استغل المسرحية البدائية المعروفة باسم « القناع » (٧) ، فأدخل فيها الاسطورة وحياة البلاط والغناء الشعبي والهجاء . من الناحية الأدبية المحضة بلغ « القناع » ذروته في « كوموس » لميلتون .

الشعراء الميتافيزيقيون

يعرف الشعراء الذين اشتهروا في النصف الأول من القرن السابع عشر بالشعراء الميتافيزيقيين ، وأهمهم هيريك ولوفليس ومارفيل ودون (٥) . كانت لغتهم معقدة وذات حدّين ، وكانوا يتناولون في مواضيعهم الاتقياء والعشاق والمتأملين .

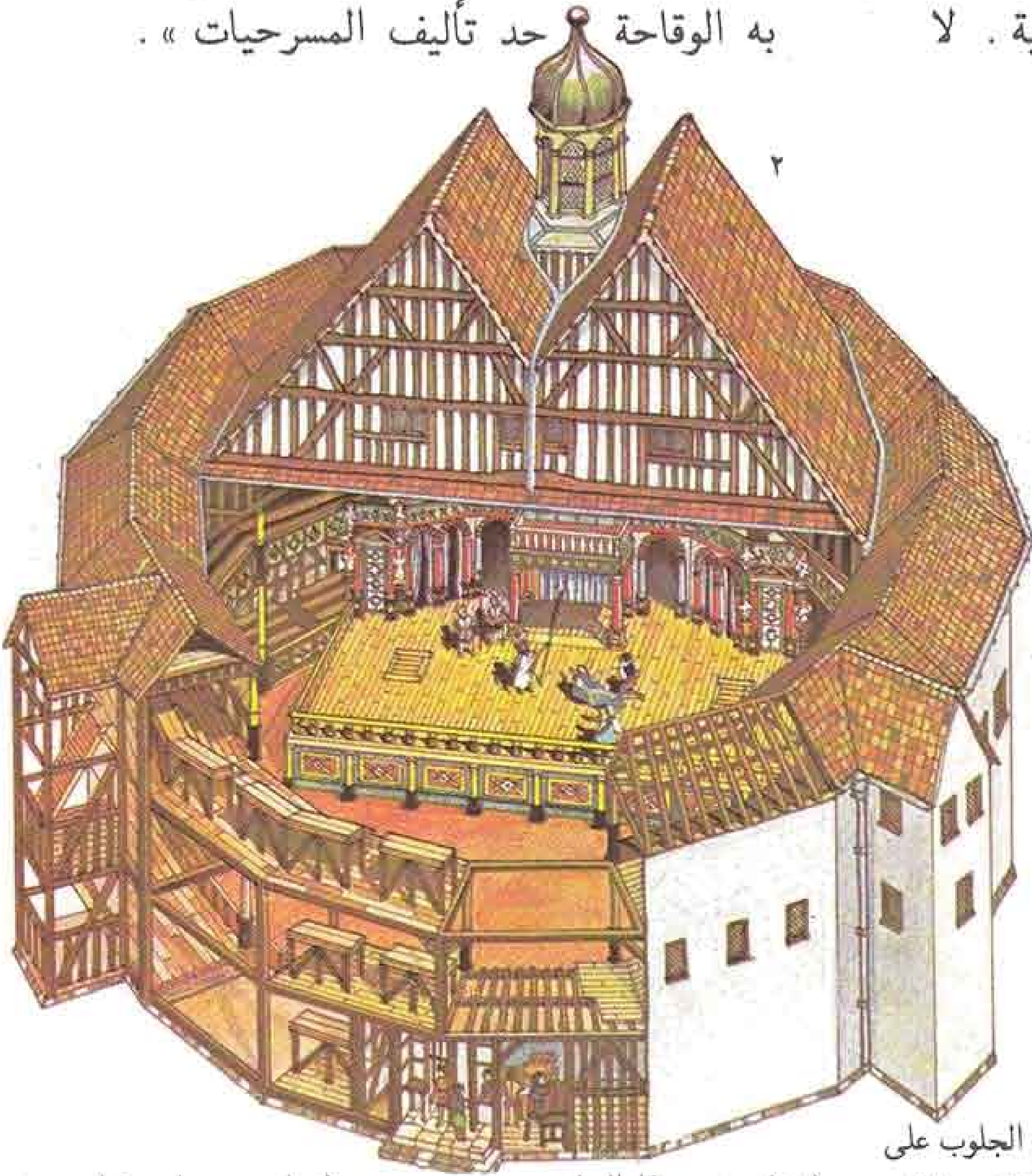
كان جون ميلتون (٢) أعظم شعراء القرن السابع عشر ، وجعلت رائعته ، ملحمة « الفردوس المفقود » (٤) ، المسائل الالهية والقضايا اللاهوتية والأخلاقية التي كانت تشغل الكنيسة تحتل من جديد مركز الصدارة في التأليف الانجليزي . لكن من الآن وصاعدا أخذت ترافق هذه المواضيع دراسة الانسان من حيث هو ، وليس فقط من حيث هو مخلوق من خلق الله تعالى .

شكسبير والمسرح الأليصاباتي

ولد وليم شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) (١) في مدينة ستراتفورد اون آيفون ، وهو مركز تجاري مزدهر في وارويكشاير . كان أبوه ، وهو صانع قفازات ، يعمل في الشركة المحلية المساهمة ، حتى اصبح رئيسا للبلدية . لا نعرف الكثير عن حياة شكسبير الباكرة ، باستثناء زواجه سنة ١٥٨٢ من آن هاتاوي (١٥٥٥ ـ ١٦٢٣) ، من قرية شوتري المجاورة (٩) . رزقا سنة ١٥٨٣ ابنة ، تلاها بعد ذلك بسنتين توأمان . ورد ذكر شكسبير مرة أخرى في السجلات المدونة سنة ١٥٩٢ ، عندما شكا منه روبرت غرين ، قائلا عنه كانه « كالغراب الحديث النعمة » وانه « ممثل عادي بلغت به الوقاحة حد تأليف المسرحيات » .



١



٢

(١) ـ اشتهر شكسبير بأشعاره غير الدرامية ، ولاسيما قصائده الغزلية ، التي نظمها على الأرجح في حدود الـ ١٥٩٠ . ما زالت سرا هوية الاشخاص الذين وجهت اليهم هذه القصائد (« و . هـ . » ، والسيدة السمراء) . من مواضيعها المشتركة المألوفة الموت ، الذي ينتصر عليه المرء بالحب والفن .

(٢) ـ كان مسرح الجلوب على هذا الشكل بين ١٦١٣ و ١٦٤٤ : بناء مسقوف بالآجرّ ومبني من الحجر يتألف من ثلاث طبقات ومن ساحة غير مسقوفة ، حيث كان بوسع المشاهدين الفقراء ان يظلوا وقوفا لقاء بنس واحد . كان هذا المبنى صغيرا يبلغ قطره ٢٥ مترا فقط ، ولكنه كان يتسع مع جميع شرفاته لـ ٢٠٠٠ مشاهد .

(٣) ـ في هذا البيان وردت التواريخ المرجحة للاخراج الاول لمسرحيات شكسبير ومارلو وجونسون . رفع هؤلاء الثلاثة مجتمعين مكانة المؤلف المسرحي من مجرد دجال مبتذل الى مرتبة أديب أصيل .

---

(٤) ـ كان ادوارد ألين (١٥٦٦ ـ ١٦٢٦) مؤلف المآسي عظيما ومحبوبا ، يضارع ريتشارد بوربيج ، وقد انضم الى ممثلي ايرل ورستر عندما كان في التاسعة عشرة من عمره ، لكنه بلغ أوجه عندما انضم الى « رجال الاميرال » ، تحت اشراف فيليب هانزلو ، الذي أصبح حماه فيما بعد . تقاعد ألين سنة ١٦٠٤ ، وأسس كلية دلويش بلندن .

الممثلون والمسارح

انبثقت الدراما الانجليزية عن المسرحيات العجائبية والاخلاقية التي كان يمثلها في معظم الأحيان أفراد النقابات المهنية ، وان كانت فرق من الممثلين المحترفين قد أخذت تظهر وتمثل في الاسواق وفي ساحات الفنادق . سنة ١٥٧٦ ، أسس النجار جيمس بوربيج اول مسرح دائم في انجلترا ، وكان يقع في شورديتش بلندن ، وقد أقيم من أجل تمثيل المسرحيات فقط . فاستأجرته فرقة تمثيلية كان ينتمي اليها ابنا شكسبير (٦) ، وما لبث شكسبير نفسه ان انضم اليها فيما بعد .

لم تكن حياة الممثل الشاب سهلة في ذلك الحين ، فجاء المسرح الدائم خدمة حقيقية للممثلين . فقد كان الممثل ، ان لم يكن له نصير يرعاه ، معرضا دائما للملاحقة كرجل متشرد لا سيد ولا « معلم » له . عرفت فرقة شكسبير باسم « رجال تشمبرلين » ،

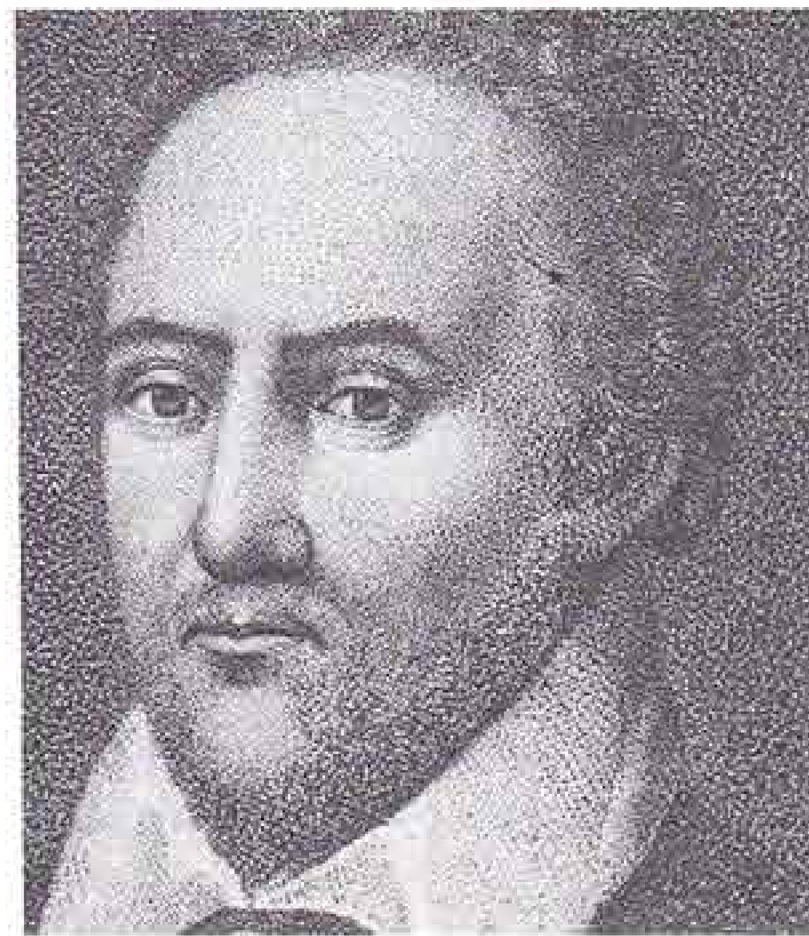


٤

تاريخ أول تمثيل	
١٥٨٨ ـ ٩٢	تيمورلنك ، يهودي مالطا المثري ، الدكتور فاوستوس ، هنري السادس الأجزاء ١و٢و٣
١٥٩٢ ـ ٣	كوميدا الأخطاء ، ريتشارد الثالث
١٥٩٣ ـ ٤	ترويض الشرسة ، تيطوس اندرونيكس
١٥٩٤ ـ ٥	دوارد الثاني ، روميو وجوليت ، المجهود الضائع للحب ، سيدان من فيرونا
١٥٩٥ ـ ٦	حلم ليلة صيف ، ريتشارد الثاني
١٥٩٦ ـ ٧	تاجر البندقية ، الملك جون
١٥٩٧ ـ ٨	هنري الرابع / الجزان ١و٢
١٥٩٨ ـ ٩	هنري الخامس ، عناء كبير من أجل لا شيء
١٥٩٩ ـ ١٦٠٠	كما يحلو لك ، يوليوس قيصر
١٦٠٠ ـ ١	نسوة وندسور المرحات ، هاملت
١٦٠١ ـ ٢	ترويلوس وكريسيدا ، الليلة الثانية عشرة
١٦٠٢ ـ ٣	سيجانوس ، حسن كل ما ينتهي حسنا
١٦٠٤ ـ ٥	عطيل ، قدر بقدر
١٦٠٥ ـ ٦	مكبث ، الملك لير
١٦٠٦ ـ ٧	فولبوني ، انطونيوس وكليوباترا
١٦٠٧ ـ ٨	تيمون الاثيني ، كوريولانوس
١٦٠٨ ـ ٩	بريكليس
١٦٠٩ ـ ١٠	ابيكوني ، سيمبلين
١٦١٠ ـ ١١	الخيميائي ، قصة الشتاء
١٦١١ ـ ١٢	العاصفة
١٦١٢ ـ ١٣	الشريفان القريبان ، وهنري الثامن
١٦١٤	معرض بارتولوميو

شكسبير
مارلو
جونسون

٦



٥



(٥) ـ كانت مسرحية « هنري الخامس » ، كما مثلها لورنس اوليفيه (١٩٠٨ـ) في أحد الأفلام سنة ١٩٤٤ـ وهي رواية تاريخية مؤثرة للغاية ـ محاولة لتصوير الحياة وظروفها كما تظهر في المسرح الاليصاباتي . تعطينا هذه المسرحية فكرة عن المسرح المكشوف ، وردود فعل المشاهدين السريعة ، (وقد كان بعضهم يجلس على المسرح) ، وعن الفتيان من الممثلين وعن الازدحام الضخم في مؤخرة المسرح . اما المشاهد اللاحقة فتصور لنا الحرب في فرنسا .

---

(٦) ـ كان ريتشارد بوربيج (١٥٧٦ ؟ ـ ١٦١٩) ابن الرجل الذي بنى اول مسرح . وضعت من أجله جميع الأدوار المأساوية العظمى عند شكسبير ، اذ كان اعظم ممثل في زمانه .

وبعد سنة ١٦٠٣ باسم « رجال الملك » . كانت المسارح العامة آنذاك يكرهها القساوسة المتزمتون ، كما كان يرى فيها رجال القانون بؤرا لانتشار المشاغبات والامراض والفجور.

عندما انتهى عقد ايجار مسرح شورد يتش سنة ١٥٩٧ ، انتقلت الفرقة باعضائها عبر نهر التيمس الى صورّي ، حيث كانت السلطات أقل تشددا ، فبنوا هناك مسرح « جلوب » (٢) الشهير. اقتفى اثرهم منافسهم العظيم فيليب هنزلو (توفي ١٦١٦) مدير اعمال « رجال الأميرال » ، فبنى « مسرح الحظ » على نمط « الجلوب » نفسه بعد ان وجد في ادوارد الين (٤) ممثلا مأسويا بارعا (قلد اسلوبه بسخرية الممثل كنغ في « هاملت ») . بالرغم من انه كان ثمة فرق ومسارح عديدة اخرى ، فقد كان من شأن المنافسة بين « رجال تشمبرلين » و« رجال الاميرال » انها شحذت القرائح الفنية وأدت

٧



٨



٩



(٧) - تأسست مدرسة ستراتفورد الابتدائية سنة ١٤٢٧ للتعليم المجاني لابناء اعضاء النقابات المحلية . اغلقت سنة ١٥٤٧ ، واعيد فتحها بعد ذلك بست سنوات بناء على ترخيص من ادوارد السادس . كانت هذه المدرسة تعطي دروسا في اللغات القديمة على الطريقة المألوفة . من المرجح أن يكون شكسبير قد حضر بعض الصفوف فيها . على الرغم من ان بن جونسون قال ساخرا ذات مرة ان « شكسبير لم يكن يعرف الا القليل من اللاتينية ، واقل من ذلك من اليونانية».

(٨) - تظهر « فولبوني » هنا ، وهي من اروع مسرحيات بن جونسون ، في اخراج حديث على المسرح الوطني بلندن . كانت معظم مسرحيات بن جونسون هجائية ، مع انها بنيت على نماذج كلاسيكية . بالاضافة الى عضويته في هانزلو ، أحرز نجاحا في بلاط جيمس الاول ، والف عددا من « الاقنعة » .

(٩) - المكان الذي ولدت فيه زوجة شكسبير ، واسمه هيولندز أو كوخ آن هاتاواي ، يقع في شوتري ، على بعد كيلومتر ونصف من ستراتفورد ، وهو من المواقع التي لا تزال تجذب السياح كثيرا . من الارجح ان شكسبير هو أشهر مؤلفي المسرحيات في العالم ، وقد ترجمت آثاره الى معظم اللغات.

الى ازدهار التمثيل . اصابت فرقة هنزلو بعض النجاح من خلال مسرحية لم تصلنا ـ تدور على روبين هود ـ فرد عليها شكسبير بمسرحية « كما يحلو لك » . ان العمل المهني المشترك الدائم بين شكسبير وفرقته يحملنا بحق على استبعاد الادعاء القائل ان يكون بيكون او سواه هو مؤلف مسرحيات شكسبير لا شكسبير نفسه .

مسرحيات شكسبير

لا يعلم احد فعلا الترتيب الذي سار عليه شكسبير في تأليف مسرحياته . لكن يبدو انه بدأ بفترة تجريبية باكرة ، جاءت متفاوتة النتائج ؛ ثم تلتها الفترة التاريخية التي حث فيها شكسبير الانجليز ان ينظروا الى ماضيهم كنبراس لحاضرهم ؛ بعد ذلك اتت الكوميديات الذهبية التي وضعها في مرحلة النضج من عمره ؛ ومع بداية القرن الجديد ، جاءت الحقبة المأسوية التي اتخذت فيها حتى الكوميديا نفسها طابعا لاذعا واتشحت بمظاهر اليأس . أخيرا ظهرت القصص الغرامية ، الحافلة بتباشير العودة الى انتعاش الحياة .

كانت هذه المسرحيات الاخيرة أقرب الى الحياة الشخصية الخاصة منها الى البلاغة الظاهرة الموجهة الى العموم ، وقد يعود ذلك الى ان الفرقة كانت قد حصلت سنة ١٦٠٨ على مسرح جديد في دير بلاكفرايارس ، وهو مسرح شتوي داخلي ، سعته اصغر بكثير واسعاره اغلى بكثير من مسرح الجلوب . في هذه الفترة كان شكسبير يقضي معظم وقته في ستراتفورد ، وفي سنة ١٥٩٧ اشترى « نيوبليس » ، المنزل الجميل في ستراتفورد . لم يكن شكسبير يكسب مالا من مسرحياته مباشرة ، لأنها كانت ملكا للفرقة ، الا ان حصته من ارباح المسرح جعلته رجلا ثريا ومحترما الى حد ما .

مارلو وجونسون

بوفاة كريستوفر مارلو الباكرة (١٥٦٤ ـ ١٥٩٣) زال المنافس الوحيد الذي كان بوسع عبقريته ان تسطع سطوع عبقرية شكسبير . اصيب مارلو ، الذي كان يعمل لفرقة « رجال الأمير » بطعنة أثناء شجار في حانة دبيفورد ، فخلّف وراءه تراثا جليلا من المسرحيات التي مهّدت ، باستعمالها للشعر المرسل ومعالجتها للمواضيع المأسوية ، السبيل لانجازات شكسبير العظمى على المسرح .

ربما كان بن جونسون (١٥٧٢ ـ ١٦٣٧) ، الذي ابتكر كوميديا الدعابة ، متقعرا ومتفلسفا الى حد لم يكن يتلاءم مع الذوق الشائع حينذاك ، الا انه كان في شبابه لا يقل حماسة ونزقا عن مارلو . ففي سنة ١٥٩٨ ، نجا بأعجوبة من المشنقة لاقدامه ، في مبارزة بالسيف ، على قتل غابرييل سبنسر أحد رفاقه في التمثيل في فرقة هانزلو .

من منافسي شكسبير الآخرين ، جورج تشابمان (١٥٥٩ ؟ ـ ١٦٣٤) ، مترجم هوميروس ، الذي كان يحاول تأليف مآس فلسفية فيها الكثير من التكلف البياني . كان يكتب الكوميديات الشعبية توماس ديكر (١٥٧٢ ؟ ـ ١٦٣٢) وتوماس ميدلتون (١٥٧٠ ـ ١٦٢٧) وتوماس هايوود (١٥٧٤ ؟ ـ ١٦٤١) الذين ادعوا انه كان لهم ضلع في كتابة ٢٢٠ مسرحية راجت في اوساط المشاهدين اللندنيين من جميع الطبقات .

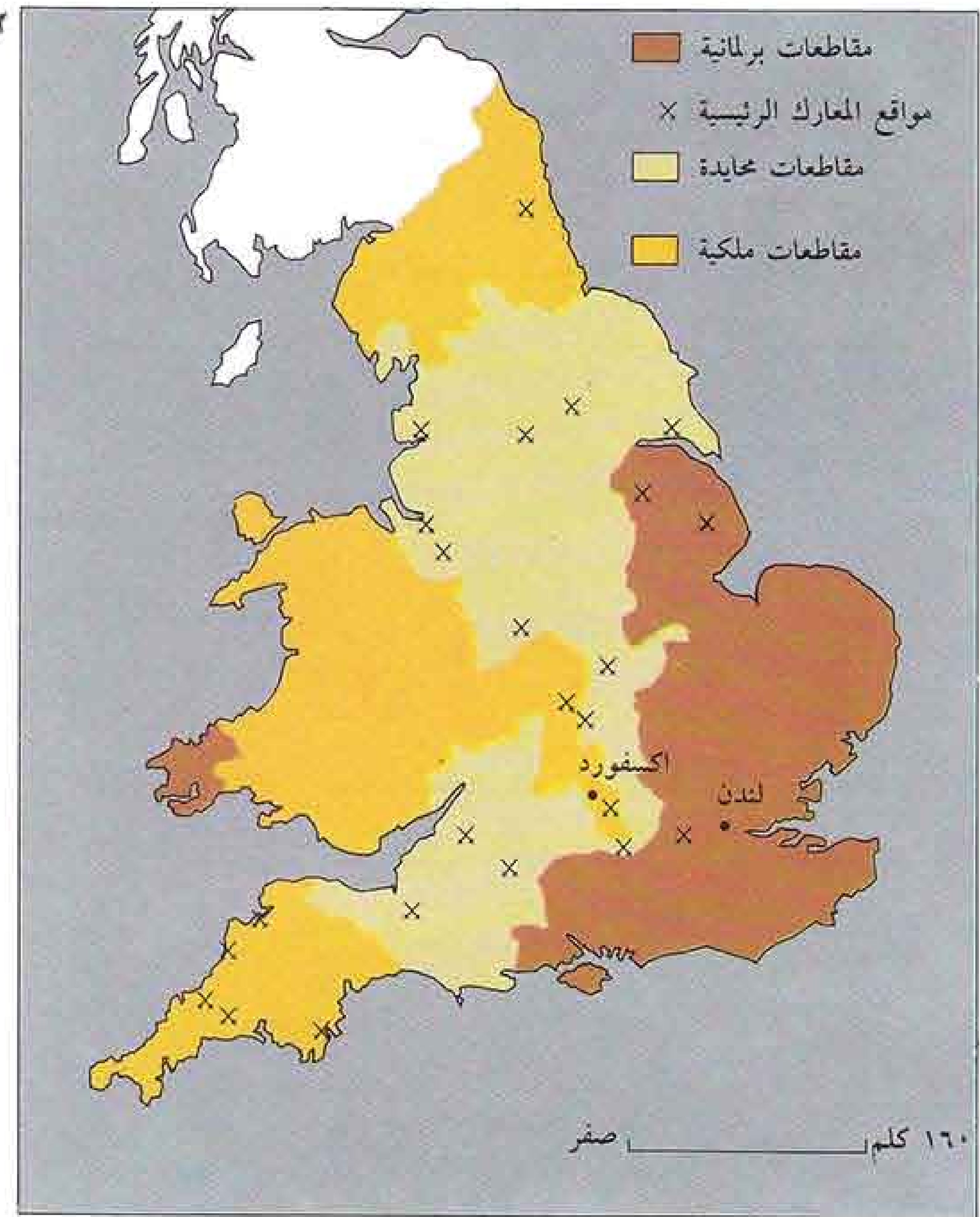
الثورة الانجليزية

كانت الثورة الانجليزية (١٦٤٠ ـ ١٦٦٠) اولى الثورات الحديثة ، وتشبه الى حد بعيد ومن عدة نواح الثورتين الفرنسية والروسية اللاحقتين . من الطبيعي ان تتخذ كل ثورة سياسية في تطورها المعقد شكلها الفردي الخاص ، الا ان ذلك لا يمنع ان تكون هناك مراحل واحدة تمر بها مختلف الثورات .

النموذج الثوري

تشمل هذه المراحل : فترة اولى من الهيجان السياسي والفكري تنتهي بانهيار النظام القديم ؛ ثم ظهور قيادة متطرفة بعد ان تكون الازمة السياسية قد طالت ثم في فترة ما يتوقف تحرك الثورة اليساري ، ثم يوطد

١



٢



(١) ـ في الحرب الأهلية الاولى ، كانت قوة الملكيين الكبرى محصورة في المناطق البعيدة عن لندن ، في الشمال والغرب ، بينما احتفظ البرلمانيون بالعاصمة وبالجنوب الشرقي المكتظ بالسكان . فنشب القتال من اجل السيطرة على المناطق المختلطة .

(٢) ـ كان الضباط يرتدون اللباس المدني ، اما الفرسان من كلا الطرفين فكانوا يرتدون الدروع .

(٣) ـ هذه الصورة الانيقة لشارل الأول لأنطوني فان دايك تخفي قامة الملك القصيرة ، ولكنها تبرز هيبته الملكية وشيئا من ارادته الكئيبة . عين فان دايك رساما رسميا للبلاط بأمر من شارل الذي كان من كبار أنصار الفن .

(٤) ـ عقب انتهاء الرقابة الصحافية سنة ١٦٤١ سيل من المنشورات وكثير من الجدل والحوار . كانت جميع الافكار التقليدية عرضة للبحث والنقاش . لكن سرعان ما أخذ المعتدلون في البرلمان

السلطة حزب قوي ذو قاعدة عسكرية في الغالب وفي آخر الأمر يعود الاستقرار السياسي او احيانا يبعث النظام القديم وتنهار الحركة الثورية. يمكن ملاحظة هذه المراحل في الثورات الانجليزية والفرنسية والروسية، مع الفارق الواضح انه لم تحصل في روسيا عودة الى حكم سلالة رومانوف.

شكلت المرحلة الاولى للثورة الانجليزية (١) ثورة ١٦٤٠ - ١٦٤١ الدستورية «غير الدامية»، التي اضعفت النظام الاستبدادي القديم. بدأت في اكتوبر ١٦٤٠، عندما دعا شارل (١٦٠٠ - ١٦٤٩) «البرلمان الطويل» الى الانعقاد ليساعده على تخطي ازمة مالية. اضطر شارل، الذي كان منعزلا ولا يتمتع بشعبية كبيرة، الى الموافقة على طائفة كبيرة من الاصلاحات الدستورية التي اعطت البرلمان صلاحيات جديدة لم تكن له في الدستور. اقترنت هذه التغييرات بالكثير من

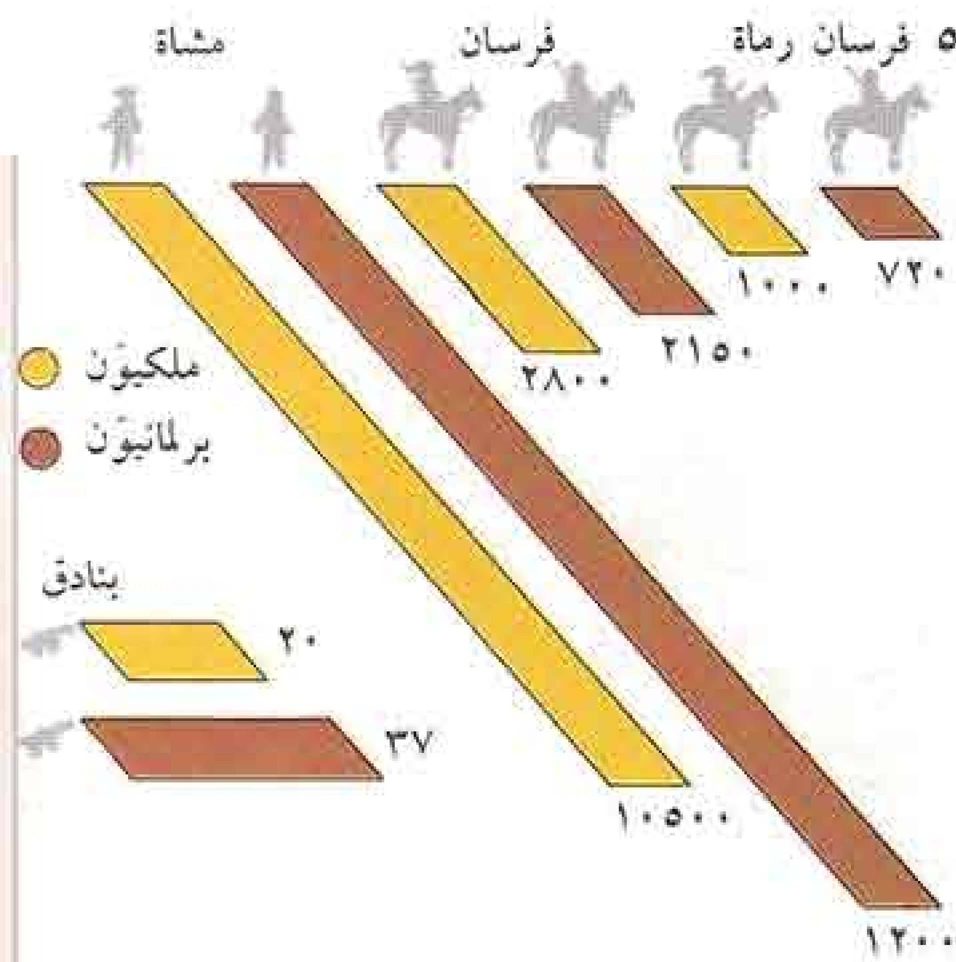








(٤) ... يحذرون من الاصلاح مشددين على أفضلية طريق الوسط الذهبي الارسطوطاليسي. فقد حذروا من «الطرف الجديد» بين الفئات السياسية والدينية المتطرفة، كما حذروا من «الطرف القديم» بين الاعداء.



(٥) - كانت ادجهيل (اكتوبر ١٦٤٢) أول معركة رئيسية من معارك الحرب الاهلية. وقد اشترك خلالها معظم الضباط والجنود في القتال للمرة الاولى. كان الجيشان متكافئين الى حد ما من الناحية العسكرية، الا ان النتيجة لم تكن حاسمة. عند نهاية الحرب، كانت قوات الملك لا تزيد كثيرا عن قوات البرلمان.



(٦) - كان اوليفر كرومويل قائدا عسكريا وسياسيا عمليا. حكم بصفة «حامي» البلاد وحاول التوفيق بين الفئات المتخاصمة.

الحماسة والحوار السياسيين ، لاسيما بعد الغاء الرقابة الصحفية (٤) في يوليو ١٩٤١ .

تصاعد الأزمة

شهدت المرحلة الثانية انعطاف الثورة الى اليسار ، على اثر تصاعد الأزمة السياسية وتحولها الى حرب أهلية . ثم انشطر « البرلمان الطويل » الى احزاب متنافسة في خريف ١٩٤١ ، فألف الملكيون (الفرسان) حزب الملك ، تحديا للبرلمانيين (مستديري الرؤوس) الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الاصلاحات السياسية والدينية . حاول شارل اعتقال معارضيه الرئيسيين في يناير ١٦٤٢ ، واذ لم يكتب له النجاح ، اضطر الى الفرار من لندن . وهكذا دخل من موقع ضعيف الحرب الاهلية الاولى (أغسطس ١٦٤٢ ـ أبريل ١٦٤٦) ، لأن البرلمانيين كانوا قد استولوا على لندن وعلى جهاز الحكومة

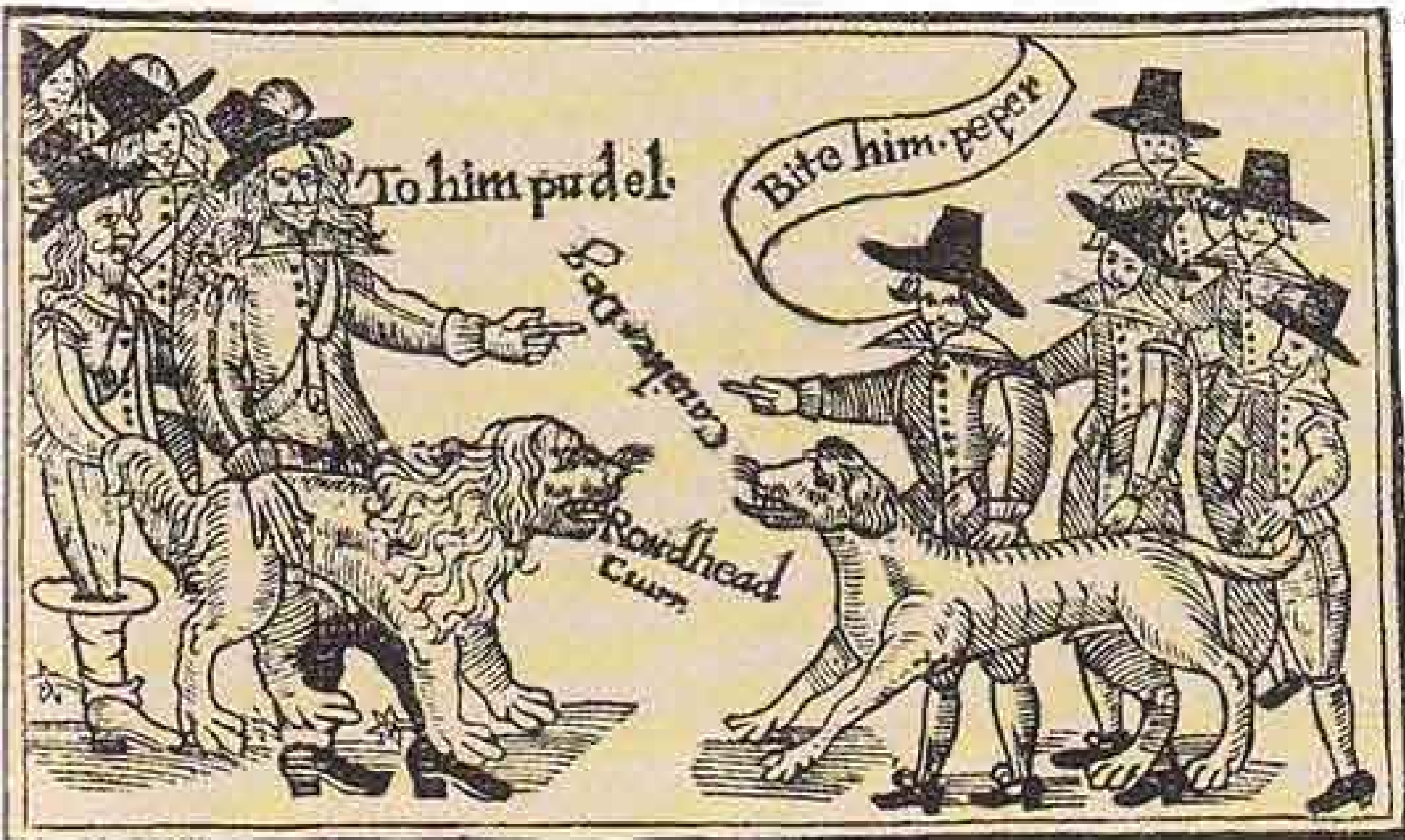
٧



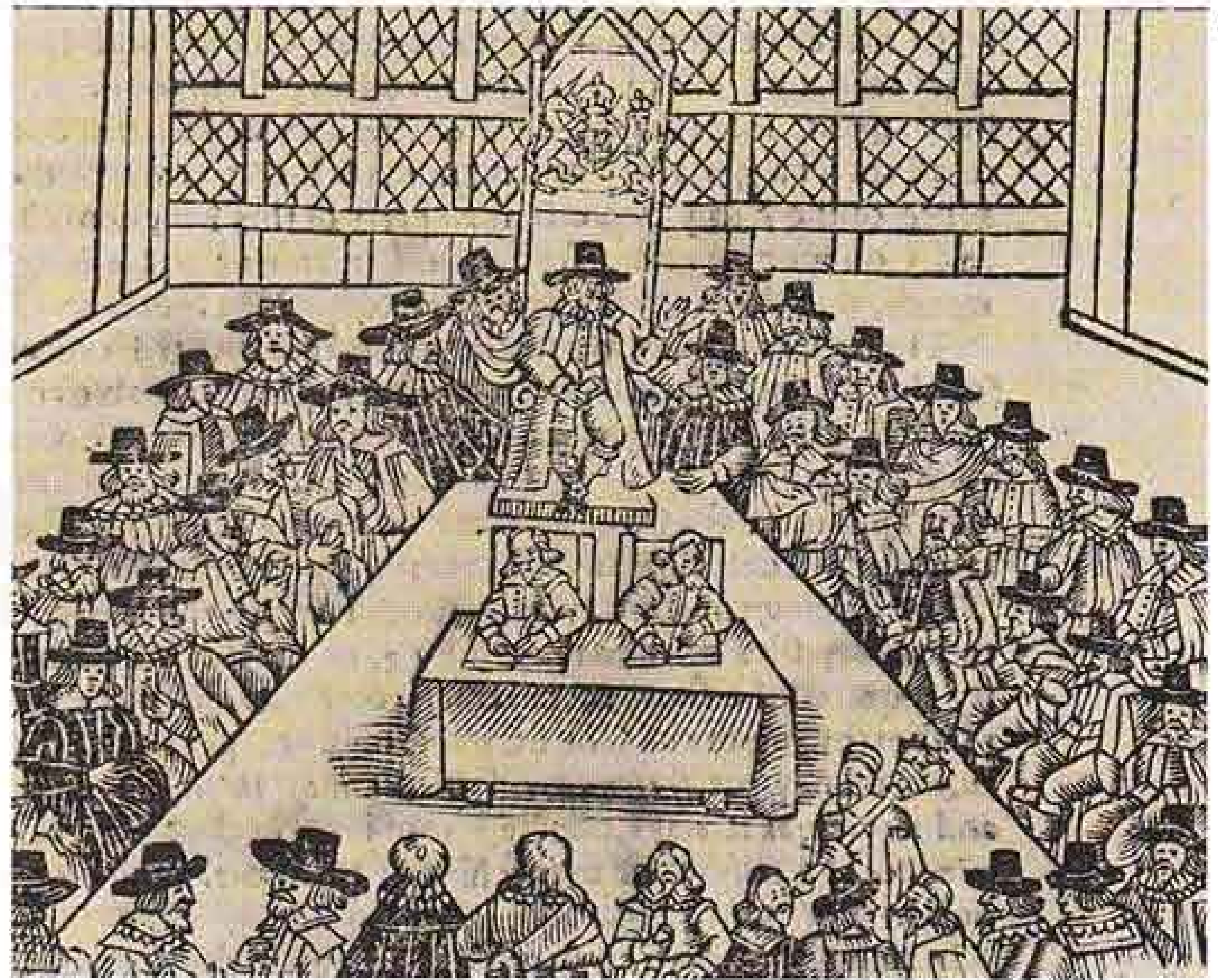
(٨) ـ كان البرلمان مؤسسة ثابتة الاركان قبل ١٦٤٠ ، ذات تقاليد ومناهج وامتيازات . كانت قاعة مجلس العموم تضم الرئيس ومقرري اللجان ، فضلا عن اعضاء البرلمان .

(٩) ـ تمثل الحروب الأهلية انهيار الحياة الاجتماعية والسياسية المنظمة ، مع تصاعد مشاعر العداء ابان القتال . لم يقتصر الامر على الخلافات السياسية والدينية بين الملكيين والبرلمانيين سنة ١٦٤٢ ، بل تعداها الى الخلافات الاجتماعية . كان الملكيون يتهمون بانهم وصفاء وخلعاء ، والبرلمانيون بانهم وعاظ من محتد وضيع .

٩



٨



(٧) ـ عادت الملكية الى الوجود سنة ١٦٦٠ ضعيفة جدا ، فاقتسمت السلطة مع البرلمان . افتتح « البرلمان الفرساني » بكثير من الابهة في ٢٣ ابريل ١٦٦١ ، وقد تقدم شارل الثاني على رأس موكب انطلق من « برج لندن » . كان وجهاء الملاكين قد درجوا على التخوف من الملكية القوية والجيش الدائم وسرعان ما راحوا ينتقدون شارل ووزراءه .

المركزية . مع ذلك لم يستطع البرلمانيون ان يوطدوا مركزهم الا بعد اعادة تنظيم قواتهم في جيش منضبط ومتحمس ، هو « الجيش النموذجي الجديد » في يناير ١٦٤٥ . فأدى ذلك الى ربط الحركة البيوريتانية العنيفة بالقضية البرلمانية . أحرز الجيش ، بقيادة السير توماس فيرفاكس البارعة (١٦١٢ ـ ١٦٧١) انتصارا حاسما على « الملكيين » في معركة نيزبي في يونيو ١٦٤٥ .

مثلت المرحلة الثالثة ذروة تحول الثورة نحو اليسار . فقد انشق « البرلمانيون » على انفسهم فور احرازهم النصر سنة ١٦٤٦ و ١٦٤٧ . كان أشد الفئات محافظة « المشيخيون » الذين تحالفوا آنذاك ، هم والاسكتلنديون ، مع شارل . أما الحزب الأشد تطرفا ، وهو حزب المستقلين الذين كان يدعمهم اوليفر كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨) (٦) والجيش ، فقد حاولوا الوصول الى تسوية ، لكنهم فشلوا وبقوا على عدائهم لشارل . كانت الحرب الأهلية الثانية (فبراير ـ اغسطس ١٦٤٨) نزاعا عنيفا لكن قصير الأمد انتهى بفوز كرومويل الذي سحق الجيش الاسكتلندي في معركة برستون في اغسطس ١٦٤٨ .

تلا ذلك تطهير البرلمان (تطهير برايد) في ديسمبر ١٦٤٨ ، ثم محاكمة واعدام شارل في ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، فالغاء الملكية ومجلس اللوردات في فبراير من تلك السنة ، وهي سلسلة من الأحداث لم يكن لها مثيل في التاريخ الاوروبي .

في الوقت نفسه ، انفصل كرومويل وقيادة الجيش عن الحزب السياسي المتطرف من ابناء الطبقة الدنيا والمعروف بحزب « المسوّين » الذي كان يطالب بتغييرات دستورية رئيسية ، تنطوي ضمنا على تحد للسلطة السياسية والاجتماعية لجميع الملاكين . وفي خريف ١٦٤٧ ، تصدى حزب « المسوين » لفترة وجيزة لكرومويل محاولا انتزاع قيادة الجيش من بين يديه . الا ان كرومويل قرر سحق تلك الحركة ، فقضى على فتنة كان المسوون قد أثاروها في الجيش .

جاءت المرحلة الرابعة تمثل العودة التدريجية الى الاستقرار السياسي . كان الجيش النموذجي الجديد في حدود ١٦٥٠ قوة تناهز ٦٠٠٠٠ رجل . ظهرت أهمية هذه القوة في القمع الوحشي للفتنة الايرلندية (١٦٤٩ ـ ١٦٥٠) .

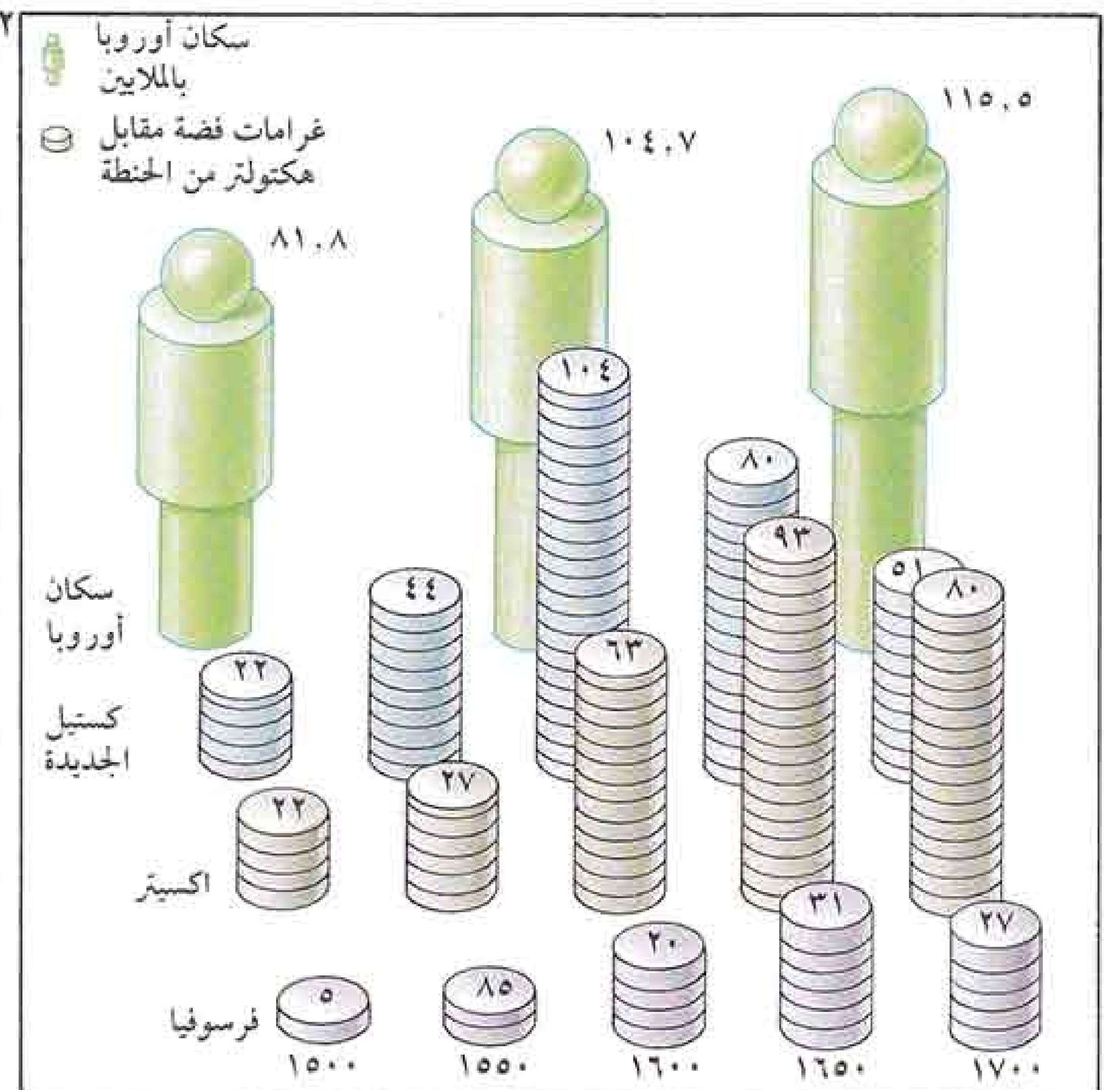
كرومويل وانهيار حكم الجيش

اثبت كرومويل انه كان أنجح حاكم (١٦٥٣ ـ ١٦٥٨) ، اذ كان سياسيا بارعا وقائدا عسكريا لامعا في آن واحد ، كتب لنظامه بعض النجاح في السياسة الخارجية ، مثل الصلح مع الهولنديين سنة ١٦٥٤ ، والانتصار على اسبانيا (١٦٥٦ ـ ١٦٥٨) ، وان لم يعمر هذا النظام طويلا بعد وفاته سنة ١٦٥٨ . نتيجة لذلك ، شهدت المرحلة الخامسة في تاريخ الثورة فترة اولى من البلبلة السياسية ، مضافة الى انهيار حكم الجيش ، وتلا ذلك في الوقت المناسب اعادة تنصيب شارل الثاني (١٦٣٠ ـ ١٦٨٥) في مايو ١٦٦٠ بدعوة من « برلمان المؤتمر » . جاءت الملكية الجديدة (٧) اضعف جدا مما كانت عليه الملكية القديمة ، وكان وجهاء الملاكين الممثلون في البرلمان هم المنتصرين آخر الأمر في الثورة الانجليزية ، اذ قضوا على نظام الملكية المطلقة الى الأبد .

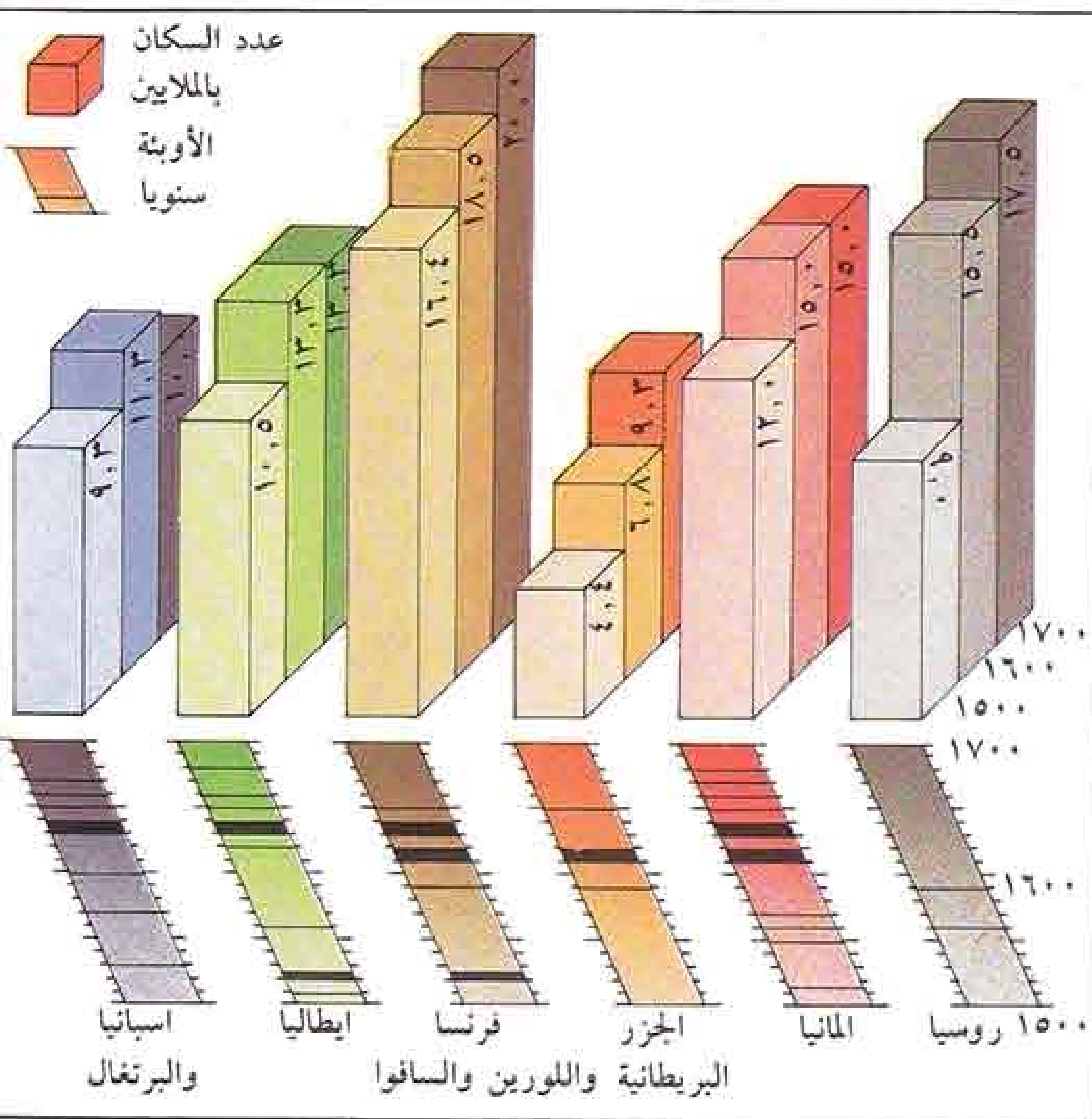
أوروبا ١٥٠٠ - ١٧٠٠

في النصف الاول من القرن السادس عشر ، طغى على اقتصاد اوروبا تصاعد متواصل في الاسعار ، وفي النصف الثاني تضخم لم يسبقه مثيل . شعر الناس بارتفاع الاسعار بادىء الامر في اسبانيا ، نتيجة للازدياد العظيم في واردات الذهب والفضة من المناجم الجديدة في المكسيك وبيرو ، لكن حد فيما بعد من تأثير هذا الاستيراد الضخم للسبائك (٤) تصديرها الى انحاء اخرى من اوروبا ، ان لتسوية موازين مدفوعات اسبانيا السلبية او لتأمين احتياجات جيوشها في هولندا ، ناهيك بالتهريب عبر الحدود الفرنسية . قبل ان يظهر مفعول هذه التحركات للسبائك ، كانت الاسعار العامة في

١



٢



(١) - ليس من تفسير قاطع لارتفاع معدل التضخم المالي خلال هذه الفترة التي ارتفعت فيها جميع الاسعار ارتفاعا فاحشا . لكن يبدو ان ازدياد عدد السكان كان أحد العوامل الرئيسية .

(٢) - كان ازدياد عدد السكان خلال القرن السادس عشر ضخما . يبدو ان هذا الازدياد كان قد بدأ حوالى ١٤٥٠ واخذ يتسارع بعد ١٥٠٠ . وفي منتصف القرن السابع عشر ، كان تفشي وباء الطاعون تكرارا وتطاول الحروب الاوروبية قد حدّا من معدل النمو مرة ثانية . يبين الرسم اعداد السكان المتغيرة بالنسبة الى الدول الاوروبية الرئيسية بين ١٥٠٠ و ١٧٠٠ .

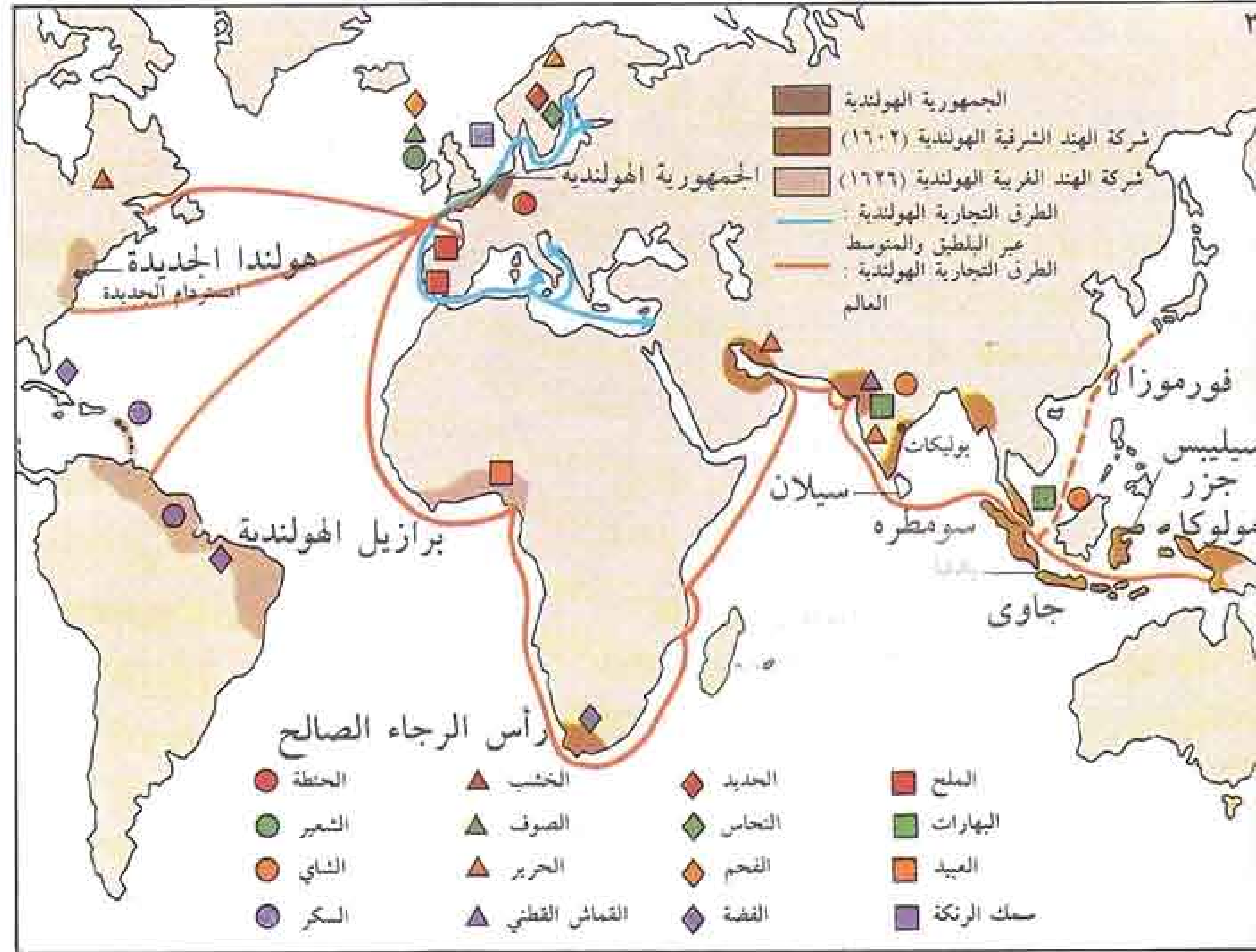
(٣) - سيطر الهولنديون على الاقتصاد الاوروبي خلال نقل منتوجات البلدان الأخرى بالدرجة الاولى . كانت مناطق عمليات النقل الرئيسية البحر المتوسط والمانش وبحر البلطيق . كانت جزر الهند الشرقية مصدر البهارات والسلع الكمالية التي كان يعاد بيعها في اوروبا . كان لشركة الهند الغربية غرض سياسي أكبر هو ، الحد من التجارة الاسبانية عن طريق التجارة الحرة .

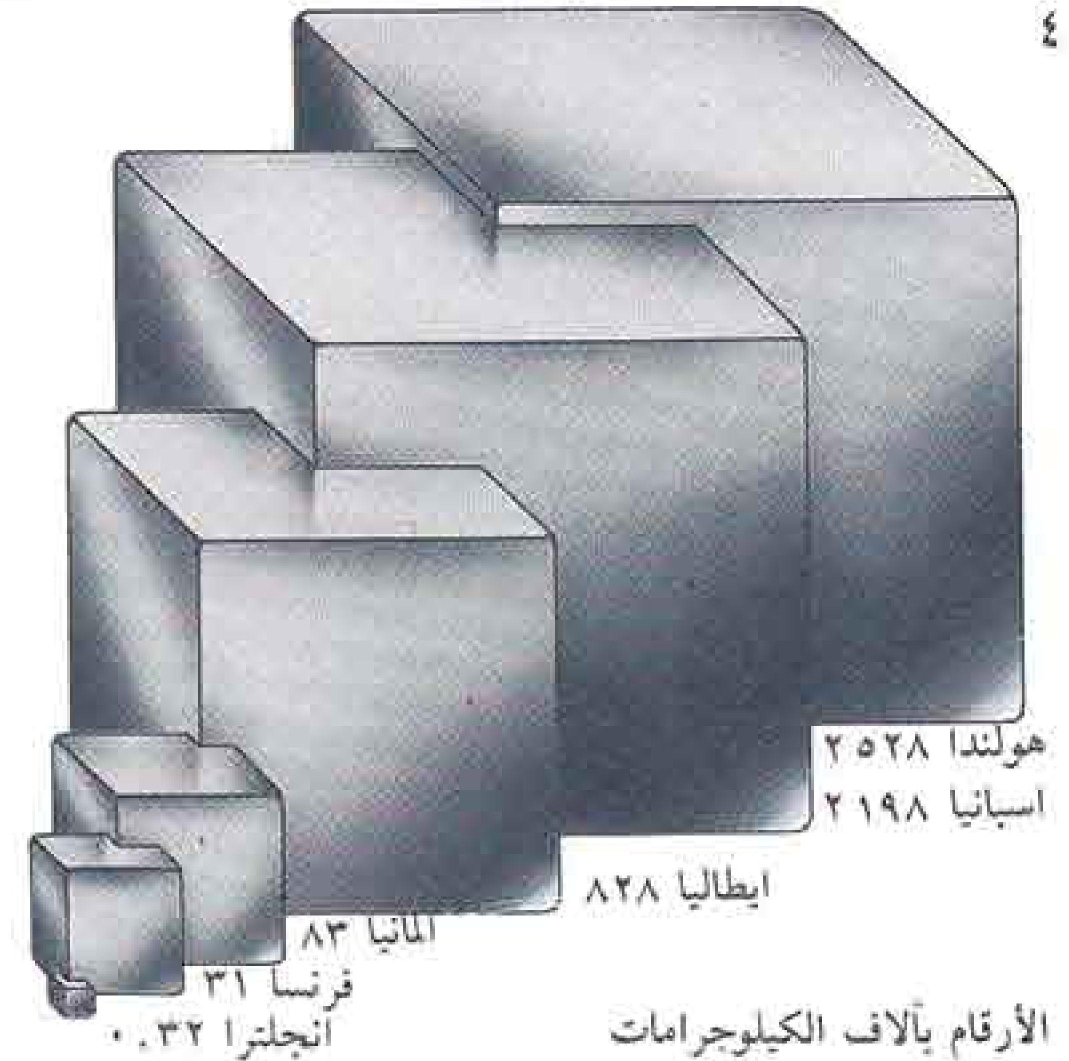
(٤) - كان لاستخراج الفضة في العالم الجديد واستيرادها الى اسبانيا تأثير كبير على الحياة السياسية والاقتصادية في اوروبا . يتبين هنا كيفية توزيع اسبانيا لهذه السبائك بين ١٥٨٠ و ١٦٢٦ . يعكس الانفاق في اسبانيا وهولندا المبالغ الضخمة المخصصة للدفاع . كانت سائر دول اوروبا تتطلع ، على غرار اسبانيا ، نحو التجارة لتوفير الثروة اللازمة للقوة العسكرية .

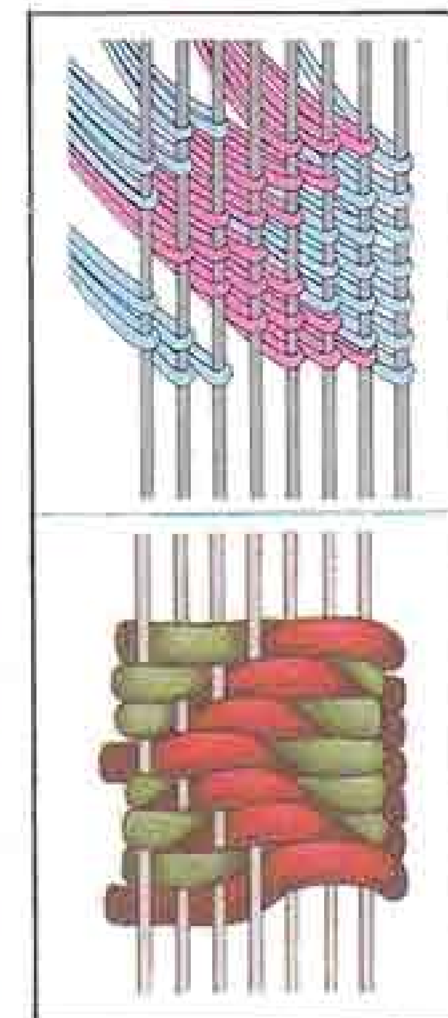
سائر انحاء اوروبا قد ارتفعت ، لكن ببطء اذا قيست بشبه الجزيرة الاسبانية .

تشجيع التجارة الدولية

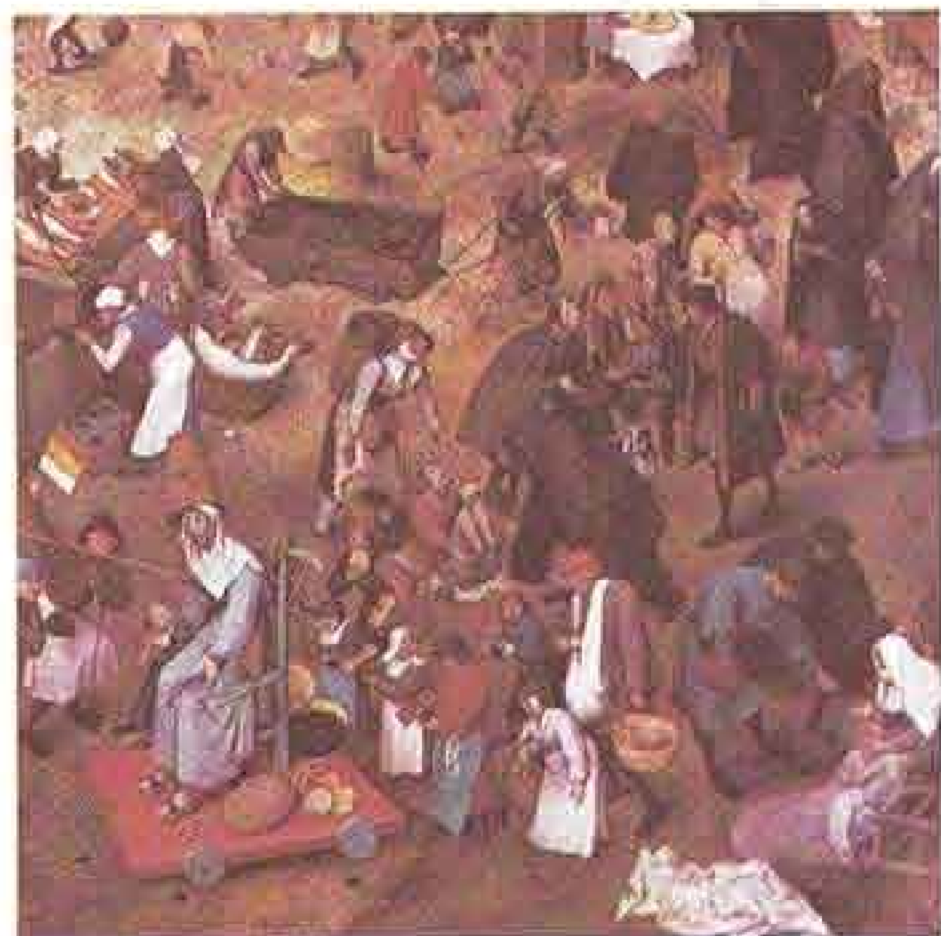
اعطى هذا التباين في نسبة التضخم في البلدان الاوروبية دفعا جديدا لازدهار التجارة الدولية الذي نجم عن اكتشاف « العالم الجديد » . كذلك ارتفعت التجارة البلطيكية بالحبوب مع جنوبي اوروبا ، تلك التجارة التي سرعان ما تحكم بها وموّلها الهولنديون . فقد غدت اسعار المواد الغذائية تربو على اسعار السلع المصنعة ، لأن النمو الكثيف في عدد سكان اوروبا (١ ، ٢) (من ٥٠ ـ ٦٠ مليونا سنة ١٤٥٠ الى ما يناهز ١٠٠ مليون سنة ١٦٠٠) استدعى ازدياد الطلب على المواد الغذائية ، في حين كان العرض محدودا بسبب ضعف المحاصيل في المناطق المنتجة للحبوب في اوروبا الشرقية . ومع ان الصناعة







(٥) ـ كان القماش من أهم المنتوجات في القرن السابع عشر . انتقلت تقنيات حياكة الحرير « المدمشق » المعروفة في القرن الخامس عشر (الظاهرة في الصورة) الى انجلترا من الفلاندر في القرن السادس عشر .

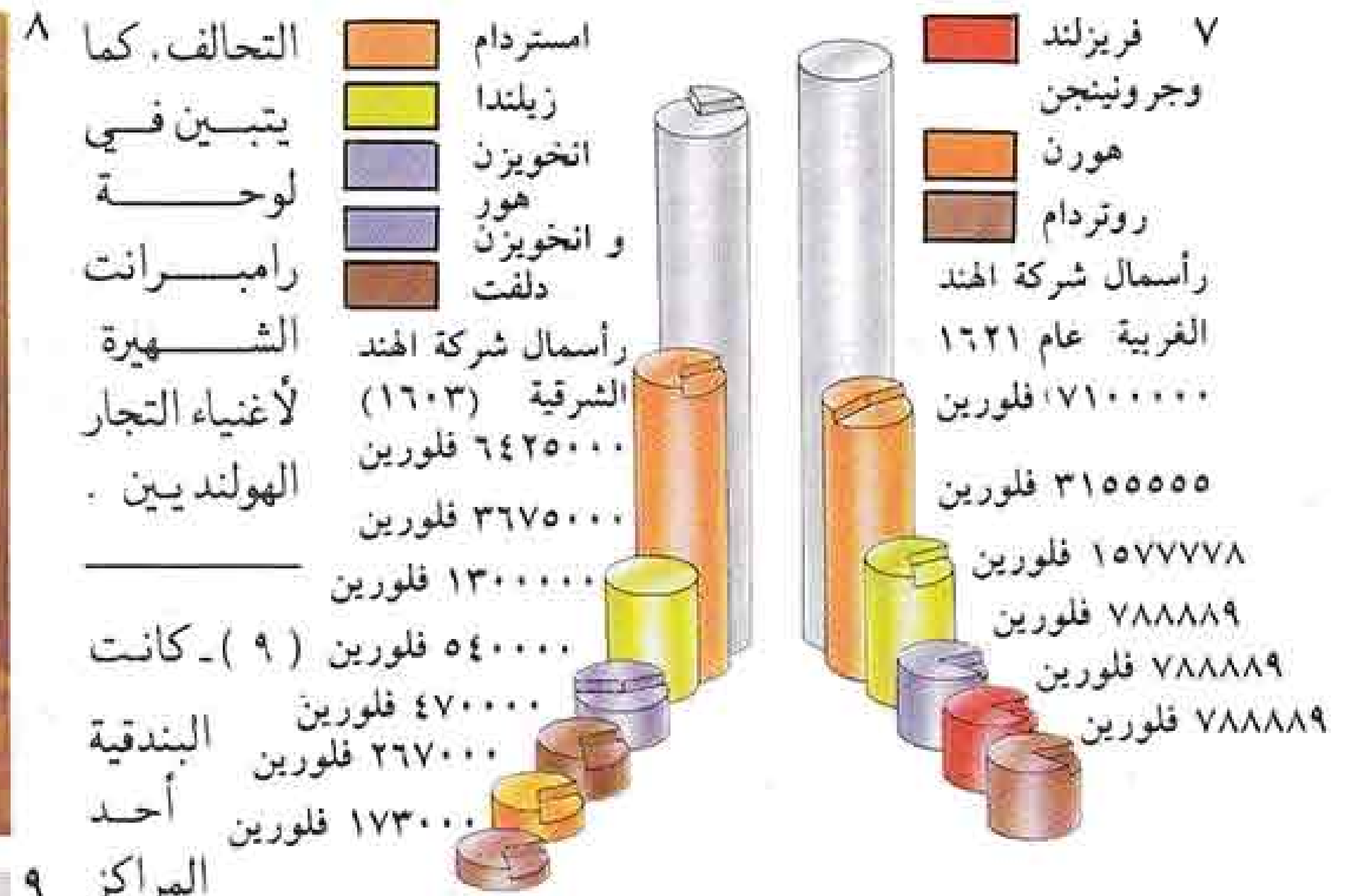


(٦) ـ كانت الحياة قاسية بالنسبة الى الرجل العادي في المرحلة الاولى من اوروبا الحديثة ، كما يصورها بروجيل الاصغر . كان المتسولون يشاهدون في كل مكان ، وكانت ايام الأعياد الكنسية بالنسبة الى العامل مصدر الراحة الوحيد من اعباء حياته اليومية . ولكن الكنيسة ايضا كانت تأمر الالتزام بدقة بأيام الانقطاع عن العمل والايام المخصصة للغفرانات ، وان لم تكن مثل هذه الأوامر تحترم في اغلب الاحيان . ففي عهد شارل الاول ، كان رئيس الاساقفة لود يشجع الالعاب الرياضية يوم الاحد .

استمرت بصورة رئيسية تمدّ الاغنياء بالكماليات ، فالتوسع التجاري أدى الى استعمال أوفى لتسهيلات القروض والى اتساع النشاط المصرفي العام لاسيما في ايطاليا ، حيث كان رجال المال الجنويون يقومون بتحويل الاموال الاسبانية الى هولندا .

« المعجزة الاقتصادية » الهولندية

في القرن السابع عشر ، ارتد عدد من هذه الاتجاهات على اعقابه . فقد وضع حدا للتضخم المالي في العقد الثاني من القرن انخفاض استيراد السبائك من العالم الجديد . كذلك عادت التجارة الدولية التي انعشتها لفترة متطلبات الدفاع الناجمة عن حرب الثلاثين سنة الى التقهقر ثم الى الجمود ، كما ان التنافس بين الدول على حصة أوفى من التجارة الدولية حمل معظم الحكومات ، باستثناء هولندا ، على تبني سياسة



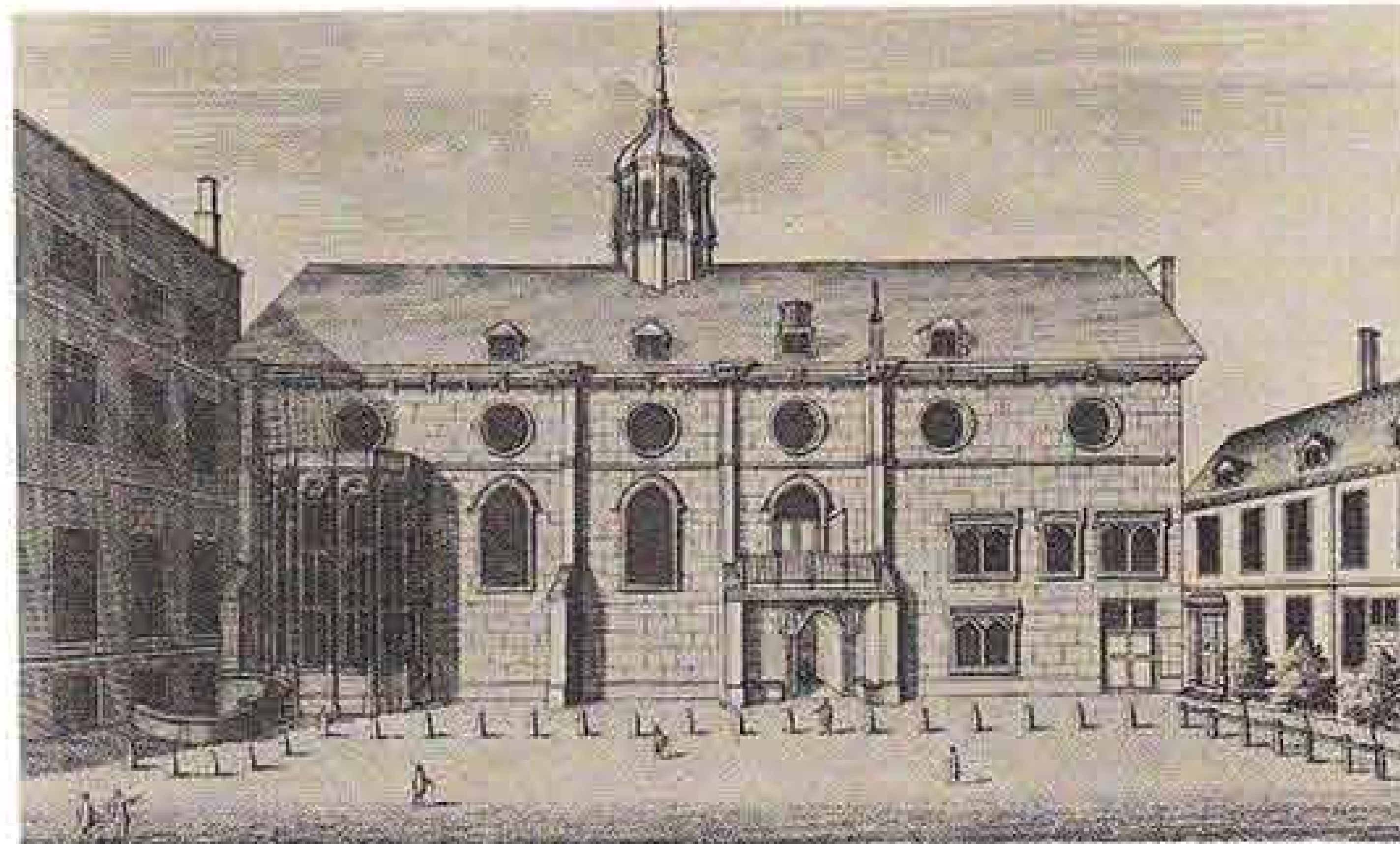
(٧) - وفر تجار امستردام الاغنياء كل الدعم لشركتي الهند الشرقية والغربية . كانت كلتاهما شركتين مساهمتين تضمان عددا من المساهمين ، الذين كانوا يتقاسمون على هذا الوجه الاخطار والارباح التي كانت تنجم عن التجارة الاستعمارية . يبين الرسم مصادر الرأسمال المستثمر في الشركتين ، عندما جرى تأسيسهما .

٨


(٨)- سارت الثروة والثقافة جنبا الى جنب خلال العصر الذهبي للتجارة الهولندية . فجاء الفن الهولندي في القرن السابع عشر يعكس هذا التحالف ، كما يتبين في لوحة رامبرانت الشهيرة لأغنياء التجار الهولنديين .

٩


(٩)- كانت البندقية أحد المراكز التجارية الهامة في اوروبا في مطلع القرن السادس عشر . الا ان حروب القسم الاول من ذلك القرن وعملية استعمار العالم الجديد حوّلت مركز التجارة الى الموانيء الأطلسية .

١٠


(١٠) - أدى نمو التجارة المساهمة على طول مسافات شاسعة الى الحاجة الى استعمال معاملات للقروض والتبادل أكثر مرونة . من الجدير بالذكر ان الهولنديين كانوا اول من خرج على التقليد القاضي باستدانة المال من الاسر الخاصة ، مثل آل فوجر ، فتأسس بنك امستردام سنة ١٦٠٩ .

« المركنتيلية » ، وهي نظام قائم على الحماية التجارية .

مع ذلك استمر مركز النشاط التجاري يتحول من البحر المتوسط الى الساحل الاطلسي ، وكان المستفيد الرئيسي من ذلك ، بالاضافة الى انجلترا ، الجمهورية الهولندية التي اكسبها مكانة دولة عظمى فعلا تفوقها في ميدان النقل التجاري والاكتشافات واعمال المال (٧) .

تعود هذه « المعجزة الاقتصادية » ، التي حصلت في فترة التقلص الدولي العام ، الى السيطرة الهولندية على مصايد سمك الرنكة في بحر الشمال ومصايد الحوت في نيو فاوندلند ، والى خبرة الهولنديين التقنية في ميدان بناء السفن والتأمين ، والى ازاحتهم للبرتغاليين عن ساحة تجارة البهارات مع الشرق الاقصى وللاسبان عن ساحة احتكار التجارة مع امريكا الجنوبية ، والى التسهيلات المصرفية واعتمادات التمويل التي كان يؤمنها مصرف امستردام (تأسس سنة ١٦٠٩) (١٠) ، واخيرا سياسة التسامح التي حملت ضحايا الاضطهاد الديني الميسورين في اسبانيا وفرنسا (اليهود السيفارديم والهوجنوت) على الاستقرار في امستردام .

لكن جاءت الحرب الاقتصادية والبحرية بين الجمهورية الهولندية وبين منافستيها الرئيسيتين انجلترا وفرنسا ، فزعزعت تفوق هولندا التجاري (٣) في اواخر القرن السابع عشر ، حتى تلاشى بكامله في آخر الأمر ابان حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١ - ١٧١٤) .

المجتمع الاوروبي : ١٥٠٠ - ١٧٠٠

كان المجتمع في المرحلة الاولى من اوروبا الحديثة زراعيا بالدرجة الاولى ، يحصّل فيه ٩٠ بالمائة من السكان رزقهم من الارض . كانت الزراعة تمارس باشراف السيد الاقطاعي ، مع مراعاة العادات المحلية المختلفة ، الا ان التضخم المالي كان بمثابة عامل اجتماعي مليّن خفّف من صرامة نظام مجتمع القرن السادس عشر الذي كانت المكانة الاجتماعية فيه تتوقف على القانون لا على الثروة . كذلك تغير المفهوم الشائع في العصور الوسطى « للسعر العادل » و« للاقتصاد الموجه » .

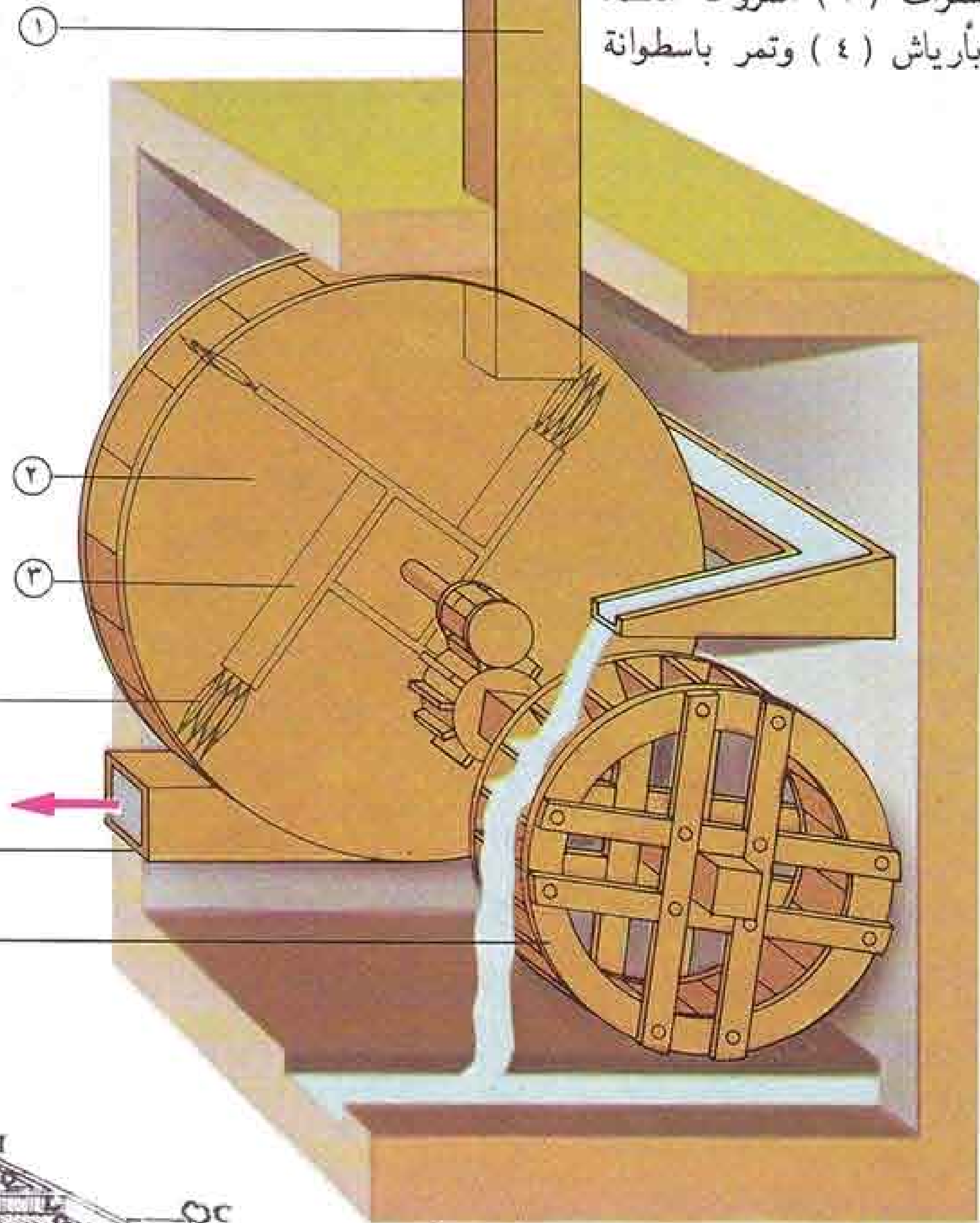
الا ان الموقف الذي ازداد تقلبا في القرن السابع عشر سمح للطبقات الاجتماعية الوسطى بتوطيد ثروتها وتحسين مكانتها الاجتماعية . ويمكن القول ، بصورة عامة ، ان الذين استفادوا الى ابعد حد من ذلك الوضع هم اولئك الذين كانوا يستطيعون تقاضي اسعار اعلى ، دون ان يضطروا الى دفع مثل تلك الاسعار . هؤلاء كانوا المزارعين اصحاب الملكية الثابتة للأرض والاشراف الذين كان بوسعهم طرد مستأجري اراضيهم واستغلالها بانفسهم . اما الذين حرموا من ملكية الارض ، او كانت ملكيتهم غير ثابتة ، فقد كان تأثير ارتفاع الاسعار الحقيقي عليهم فقدانهم لعملهم وتشردهم بل ربما الموت جوعا . ولما كانت الحاجة تدعو الى قوة اصغر من اليد العاملة لزراعة المراعي ، فقد كان محكوما على الكثيرين ان يعيشوا حياة تشرد وتسول (٦) . لكن من وجهة نظر اصحاب الارض ، كانت اليد العاملة تبدو رخيصة نسبيا ، مما كان يشجعهم على المضي في ادخال التحسينات على العمليات الزراعية والصناعية .

العلم والتقنيات ١٥٠٠ - ١٧٠٠

في مستهل القرن السادس عشر ، كانت « النهضة » الاوروبية قد بلغت أشدها ، وابان القرنين اللاحقين ، أرسيت قاعدة العلم العريضة . كانت المعرفة بالعلم اليوناني شائعة ، وتفشت روح الاستطلاع المشجعة على الفحص الناقد للأفكار القديمة . نتيجة لذلك ، أخذت الممارسة القديمة للتنجيم والسيمياء في التلاشي ، وتيقن بعض العلماء والفلاسفة انه لا بد من دراسة الطبيعة على نحو عقلاني .

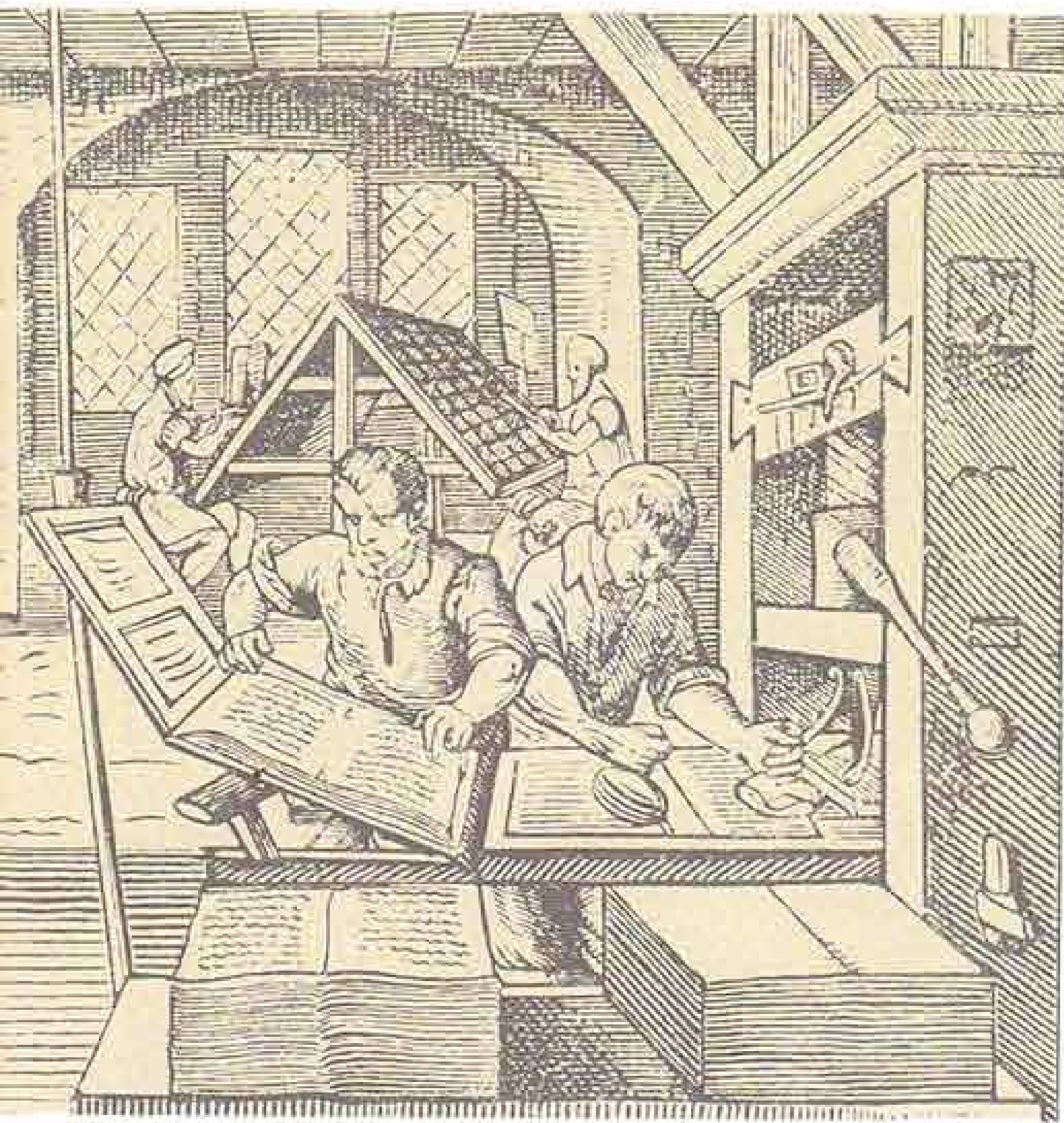
الثورة في علم الفلك

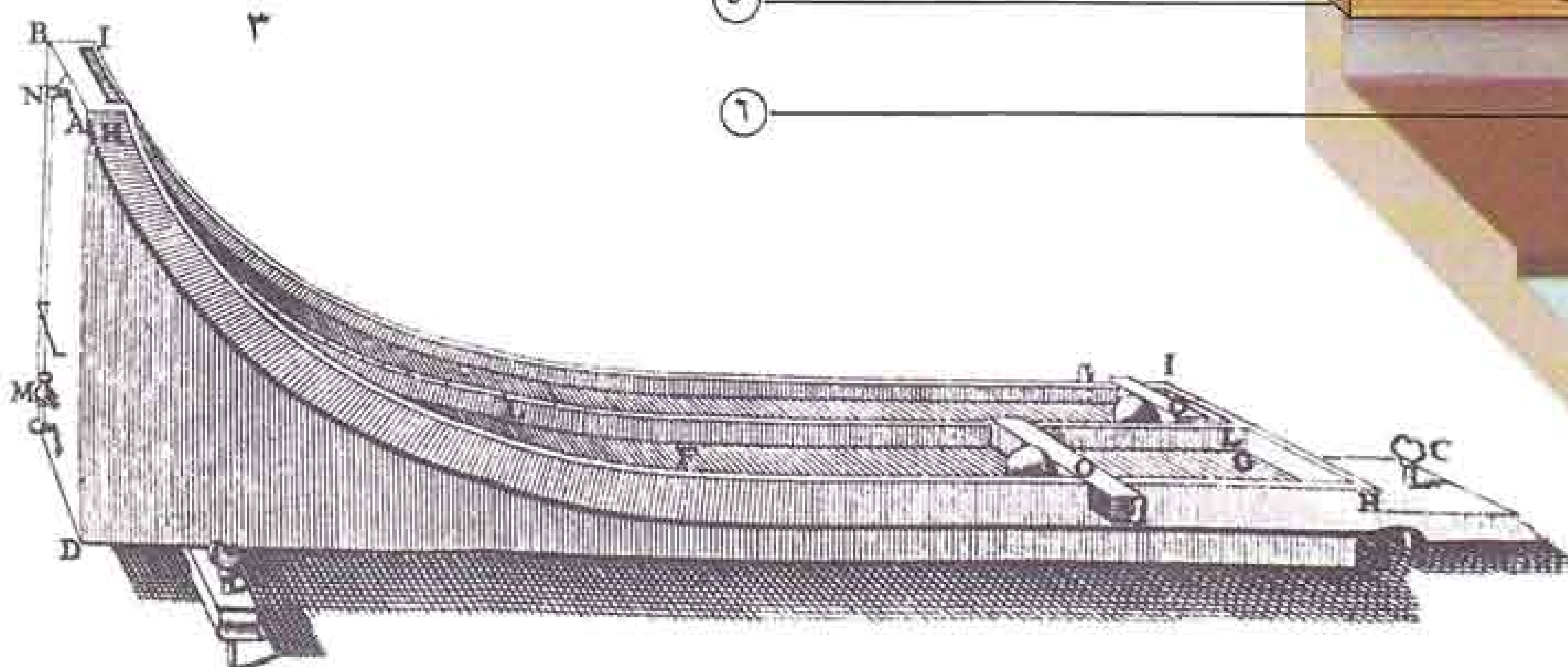
أعطى هذا النهج الجديد أولى ثماره في علم الفلك . ففي سنة ١٥٤٣ ظهرت النظرية القائلة بان الشمس ، لا الأرض ، هي محور



١ (١) ـ كان جهاز التهوية لأحد المناجم في القرن السادس عشر يعمل كما يلي . كان دولاب مائي (٦) يحرك مروحة مارة بجهاز خشبي مدرج . وكانت شفرات (٣) المروحة مغطاة بأرياش (٤) وتمر باسطوانة

٢ (٢) . كانت المروحة تمتص الهواء المار بشاروق التهوية (١) . فيعاد توزيعه في مجار (٥) على عمال المنجم .

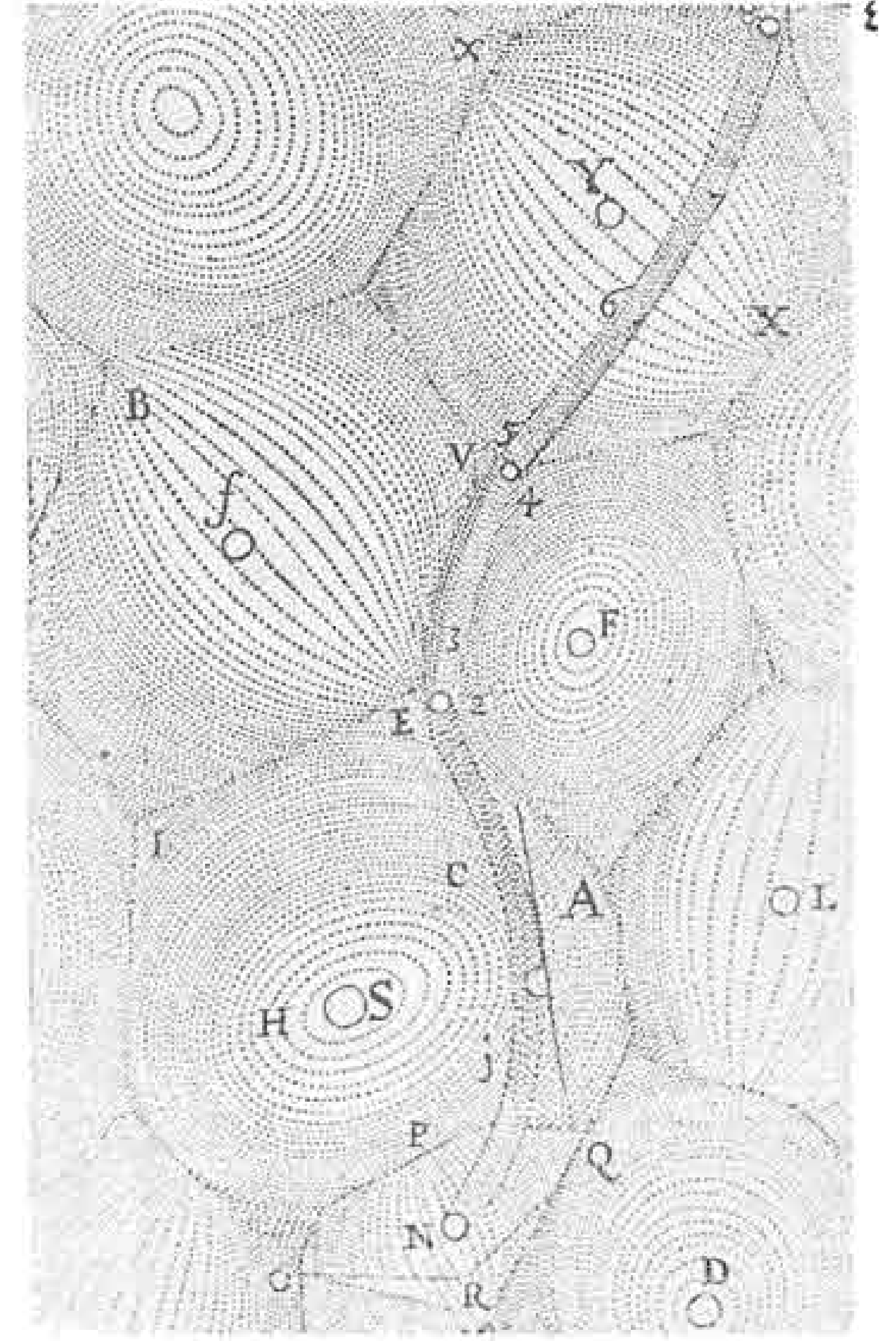




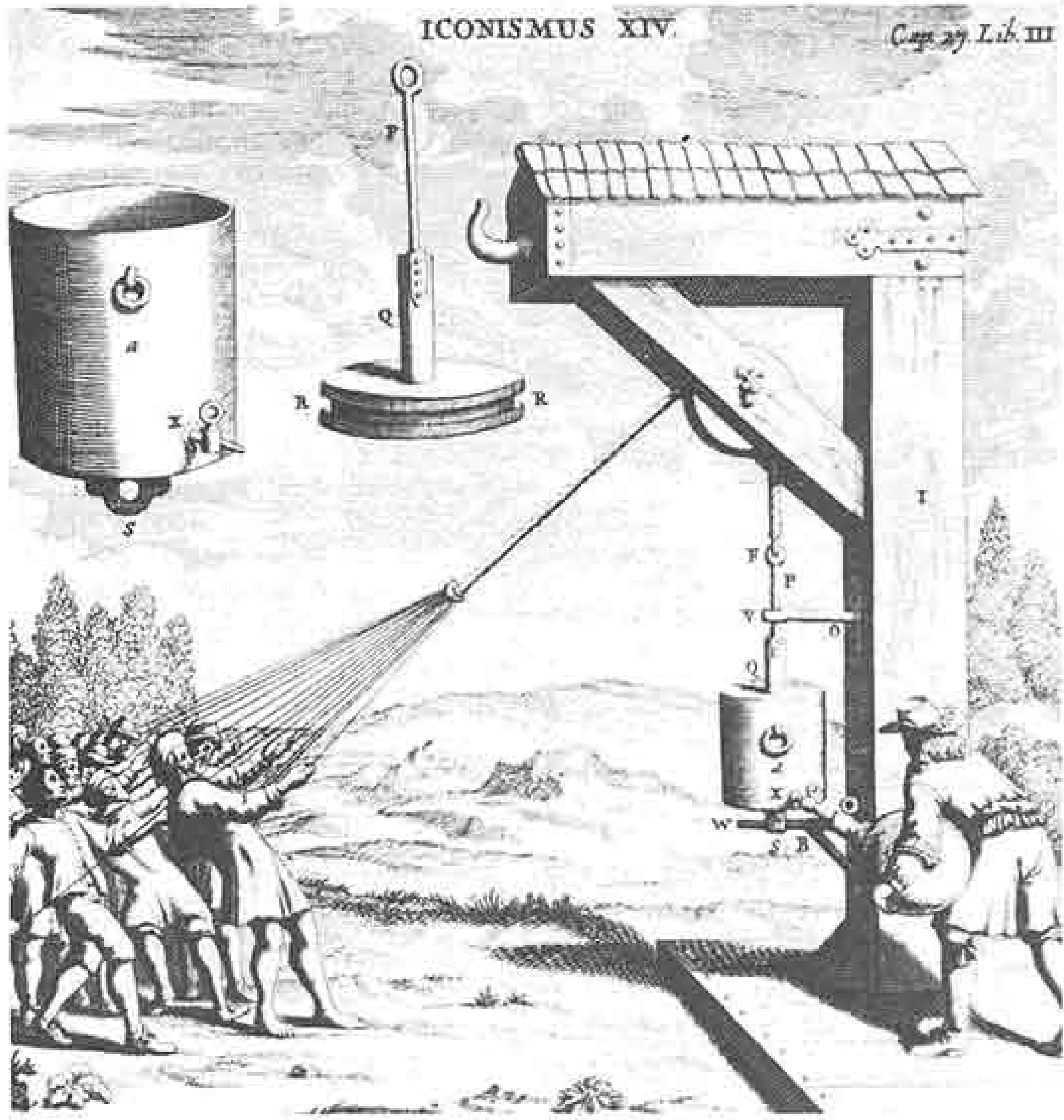
٣

الكون ، في كتاب « الدورات الفلكية » لنيقولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) ، فأثرت هذه النظرية في مفهوم الانسان لذاته وموقفه من الطبيعة . ثم حفزت النظرية الكوبرنيكية تيخو براهي (١٥٤٦ ـ ١٦٠١) خصوصا على اجراء طائفة من الأرصاد الدقيقة ، فمهدت هذه الارصاد السبيل لاكتشافات القرن السابع عشر بواسطة المرقب . ثم جاء يوهانس كيبلر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠) ، فاستخدم ملاحظات براهي لتفسير حركات الكواكب السيارة على اساس نظام الحركات الاهليليجية ، عوضا عن نظام الدوائر الذي وضعه كوبرنيكوس . وفي انجلترا ، نادى فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) بالطريقة التجريبية ، ولكنه لم يعط الرياضيات حقها في تفسير ما تؤديه التجارب من نتائج ، وذلك خلافا لرينه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) الذي احتوت آثاره على عدد

٤



٥



(٢) ـ أدت الطباعة بالحروف المتحركة الى انتشار المعرفة عن الاكتشافات العلمية في اوروبا انتشارا واسعا في القرن السادس عشر . هذه المحفورة الخشبية التي ترجع الى ١٥٦٨ من صنع جوست امان ، وتبين دار طباعة يصف العمال فيها الحروف في المؤخرة بينما يجري تشغيل المطبعة في المقدمة .

(٣) ـ أبحاث غاليليو في حركة الكرات المتدحرجة على سطح منحدر هي التي مهدت الطريق امام نيوتون لصياغة قوانينه الثلاثة . الواقع ان غاليليو هو الذي اسس بتجاربه علم الديناميكا . تبين الصورة تجربة من النوع ذاته ترجع الى القرن الثامن عشر .

(٤) ـ أنكرت آراء ديكارت في العالم نظرية وجود الخلاء ، ذاهبة الى ان المادة التي تملأ الكون تتحرك دوما في دوامات تقع النجوم في وسطها . وهكذا غدت بعض النجوم كواكب سيارة يقع مدارها في دوامة نجم آخر . أما الشهب ، فكانت تسلك ، وفقا لنظرية ديكارت ، طريقها الخاص بين الدوامات وعبرها ، كما نرى في هذا الرسم .

(٥) ـ أثبت التأثيرات الناجمة عن وجود الخلاء اوتو فون جيريك (١٦٠٢ ـ ١٦٨٦) ، رئيس بلدية ماجديبورج ، في راتسبون سنة ١٦٥٤ . تحاول مجموعة مؤلفة من خمسين رجلا ان تسحب مضخة من داخل اسطوانة أفرغت من الهواء . اخذت الصورة من كتاب فون جيريك ، « تجارب جديدة » .

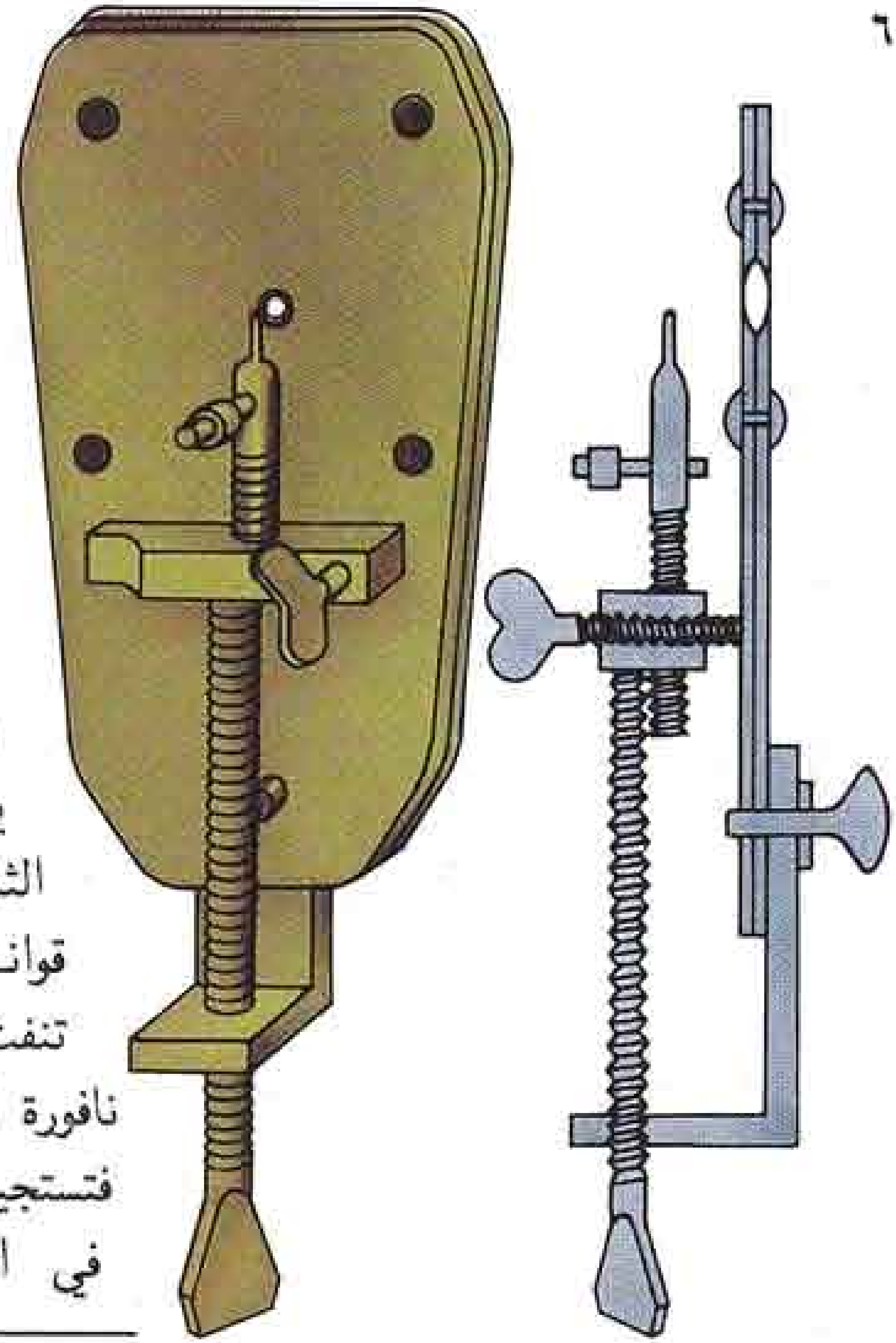
من الافكار الفلسفية التي كانت من صلب روح البحث الجديدة . فقد توخى ديكارت اقامة الدين والعلم على أسس عقلانية كي يكسبهما قيمة المعارف الرياضية ، ويجعلهما بذلك في مأمن من الشكوكية من جهة ومن شعوذات المتمسكين بالخرافات من جهة أخرى . لقد وضع ديكارت نظاما فلسفيا كاملا ، قائما على القول بعالم ميكانيكي بكامله يحيط به مكان تملؤه برمته مادة سائلة (٤) .

كان الفلكي والرياضي والعالم الطبيعي ، غليليو غاليلي (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) أول من استعمل المرقب لدراسة الفضاء ، فوضعت استنتاجاته في حقل الميكانيكا اسس الأبحاث اللاحقة ، لاسيما تلك التي قام بها نيوتون (٣) . الا ان ايمانه بعالم تتحكم به قوانين منتظمة انتظاما رياضيا قوبل بعداء عظيم لاسيما من قبل الكنيسة . ثم جاء

٧



٦



(٨) ـ ينص القانون الثالث من قوانين نيوتون الثلاثة الخاصة بالحركة ان لكل فعل ردة فعل مقابلة مساوية . تبدو في الصورة تجربة أجريت لاثبات صحة هذه النظرية ، وهي مأخوذة من كتاب يرجع الى اوائل القرن الثامن عشر ويدور على قوانين نيوتون . تنفث كرة معدنية نافورة البخار في اتجاه معين فتستجيب الآلة بالتحرك في الاتجاه المعاكس .

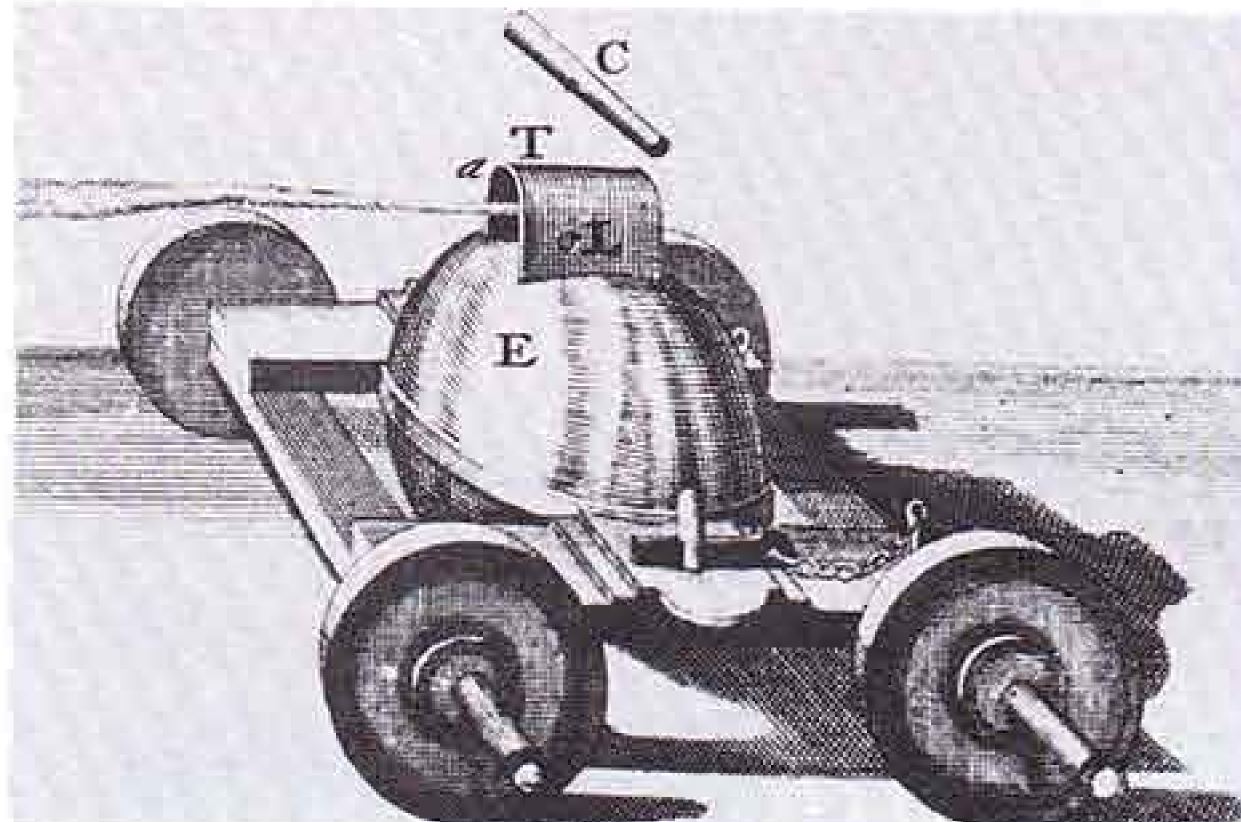
(٦) ـ صمم فان لوفنهوك المجهر القوي ذا العدسة الواحدة في القرن السابع عشر .

(٩) ـ يظهر فيساليوس عالم التشريح العظيم في القرن السادس عشر ، ممسكا بذراع بشرية شرحت جزئيا . الصورة مأخوذة من كتابه « معمل جسم الانسان » .

٩



٨



(٧) ـ نشر هارفي اكتشافه للدورة الدموية في كتابه الموسوم « بحركة القلب » سنة ١٦٢٨ . يبدو هارفي هنا في لوحة من ريشة هانا يشرح المبدأ لشارل الأول .

عبقري هذه الحقبة ، اسحاق نيوتون (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) الذي يعد كتابه « المبادىء الرياضية للعلم الطبيعي » من أهم المؤلفات في العلم الحديث . حدد نيوتون في هذا الكتاب قوانين الحركة (٨) موسعا بذلك ابحاث كيبلير وغاليليو ، وصاغ قانون الجاذبية الشاملة للمرة الاولى . ساهم نيوتون مساهمة هامة ايضا في حقل الرياضيات .

الاكتشافات في علم البصريات

أحرز العلم تقدما جديدا في القرن السابع عشر ، نتيجة لاختراع المجهر والمرقب . استعمل غاليليو المرقب ، فاستطاع تمييز الجبال على سطح القمر والبقع الشمسية ومشاهدة كواكب الزهرة وأقمار المشتري الاربعة الكبرى . ثم جاءت آلات أفضل وأدق . فأكمل نيوتون أول مرقب انعكاسي حوالى سنة ١٦٦٨ . فأدى ذلك فضلا عن استعمال المرقب كأداة قياس فلكية شديدة الدقة الى مزيد من الاكتشافات ، والى تأسيس مراصد وطنية في باريس وغرينتش .

التطورات في علم الطب

في سنة ١٥٣٨ ،أصدر اندرياس فيساليوس (١٥١٤ ـ ٦٤) (٩) دراسته الواسعة للجسم البشري ، وهي الاولى التي خرجت على تعاليم جالينوس (١٣٠ ؟ ـ ٢٠٠ م) . ثم اكتشف خليفة فيساليوس في جامعة بادوا ، وهو بارتلوميو يوستاشيو (١٥٢٠ ـ ١٥٧٤) ، أنابيب الاذن اليوستاشية . في القرن التالي ، وضع هيرونيموس فابريشيوس (١٥٣٧ ـ ١٦١٩) أسس علم الاجنة واكتشف الصمامات في العروق ، وهو اكتشاف استفاد منه وليم هارفي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٧) (٧) في اكتشافه سنة ١٦٢٨ للدورة الدموية . أخيرا اكتشف مارسيلو مالبيجي (١٦٢٨ ـ ٩٤) الشعيرات التي تصل العروق بالاوردة ، واستعان بهذا الاكتشاف ، كما فعل من بعده يان سوامردام (١٦٣٧ ـ ١٦٨٠) في دراساته الخاصة بعلم الاجنة . كذلك ساعد المجهر كثيرا على تطور المعرفة الطبية والبيولوجية ، أثناء حقبة أصبحت المعرفة العلمية مبنية فيها بصورة متزايدة على التجربة الفيزيولوجية . ففي هولندا ، ابتكر انطون فان لوفنهوك (١٦٣٢ ـ ١٧٢٣) مجاهره الخاصة لدراسة الدم والكائنات المنوية ، فضلا عن اشكال الحياة المجهرية (٦) .

في القرن السادس عشر ، كانت الموسوعات النباتية قد اصبحت شائعة . لكن في القرن التالي استعمل نحيميا جرو (١٦٤١ ـ ١٧١٢) المجهر لدراسة الاعضاء التناسلية لدى النباتات ، وبدأ روبرت هوك (١٦٣٥ ـ ١٧٠٣) وجون راي (١٦٢٧ ـ ١٧٠٥) وسواهما باعادة تصنيف المملكتين النباتية والحيوانية . في الكيمياء ، اجرى روبرت بويل (١٦٢٧ ـ ٩٦) تجارب على خواص الهواء الطبيعية ، وصاغ القانون المعروف باسمه حول العلاقة بين ضغط الغاز وحجمه .

حلت النزعة العقلانية والمشاهدة التجريبية الآن محل الخرافات والتأويلات التحكمية كوسائل للمعرفة العلمية . وبفضل هذه الروح الجديدة ، ازدهرت الجمعيات العلمية : فتأسست « الجمعية الملكية » سنة ١٦٦٠ في لندن ، « واكاديمية العلوم » سنة ١٦٩٩ في باريس .

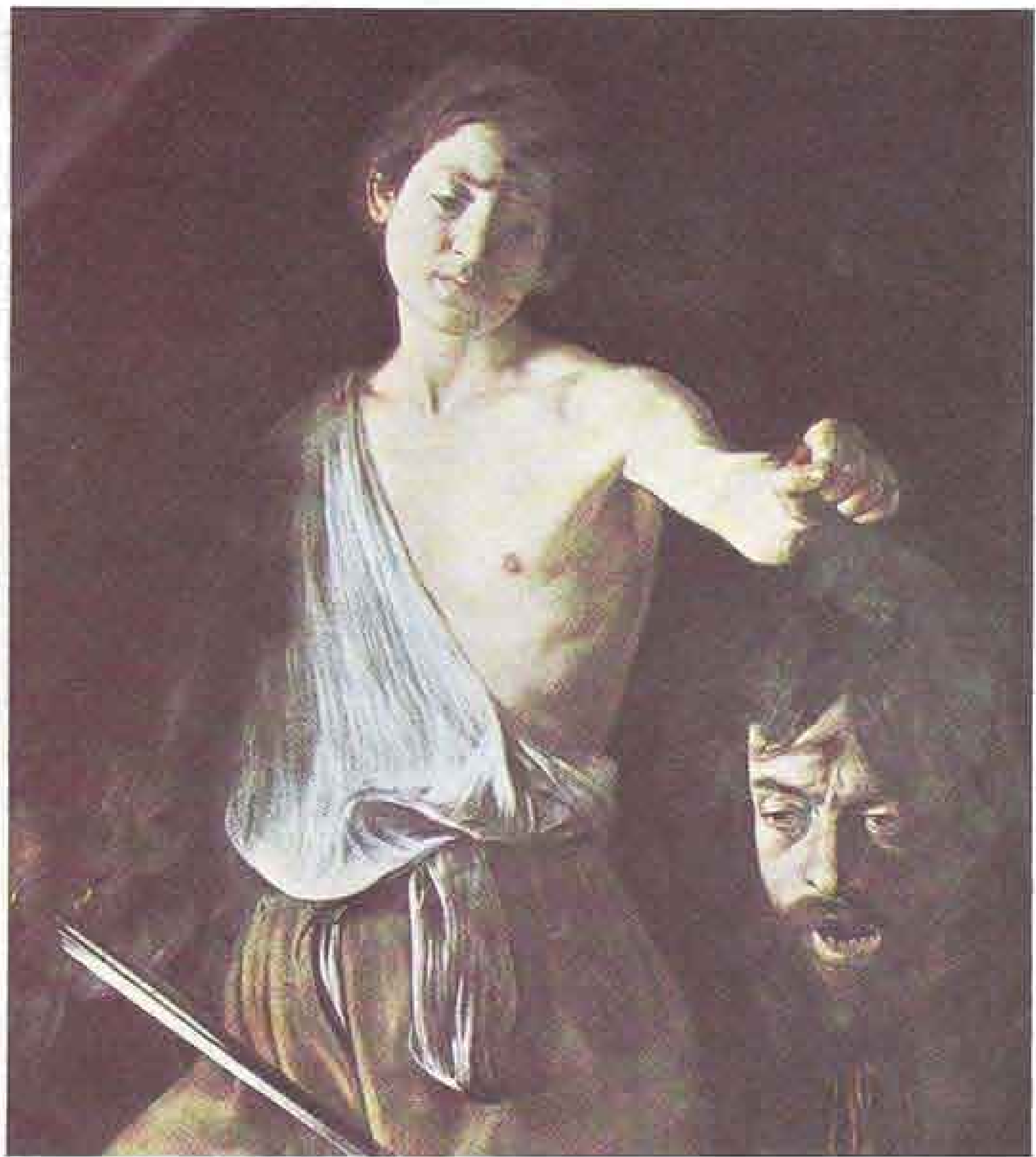
فن الباروك : الاسلوب والمحتوى

كان الاسلوب المعروف بالباروك اعنف اساليب الفن والعمارة التي استحدثتها الحضارة الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر واشدها دينامية. نشأ في ايطاليا متوهجا وعاطفيا قبل ١٦٠٠ بقليل، وبلغ في اواخر القرن السابع عشر معظم انحاء اوروبا الاخرى، واستتب له الامر في المانيا واوروبا الوسطى خاصة، ثم امتد الى امريكا اللاتينية. كانت جميع هذه المناطق كاثوليكية وذات انظمة سياسية استبدادية، فلم يكن عجبا ان يزدهر فن الباروك فيها اكثر مما ازدهر في دول اوروبا الشمالية البروتستانتية الاقل تعصبا. فقد اهّله طابعه الخاص هذا ليكون اداة مثالية للتعبير عن

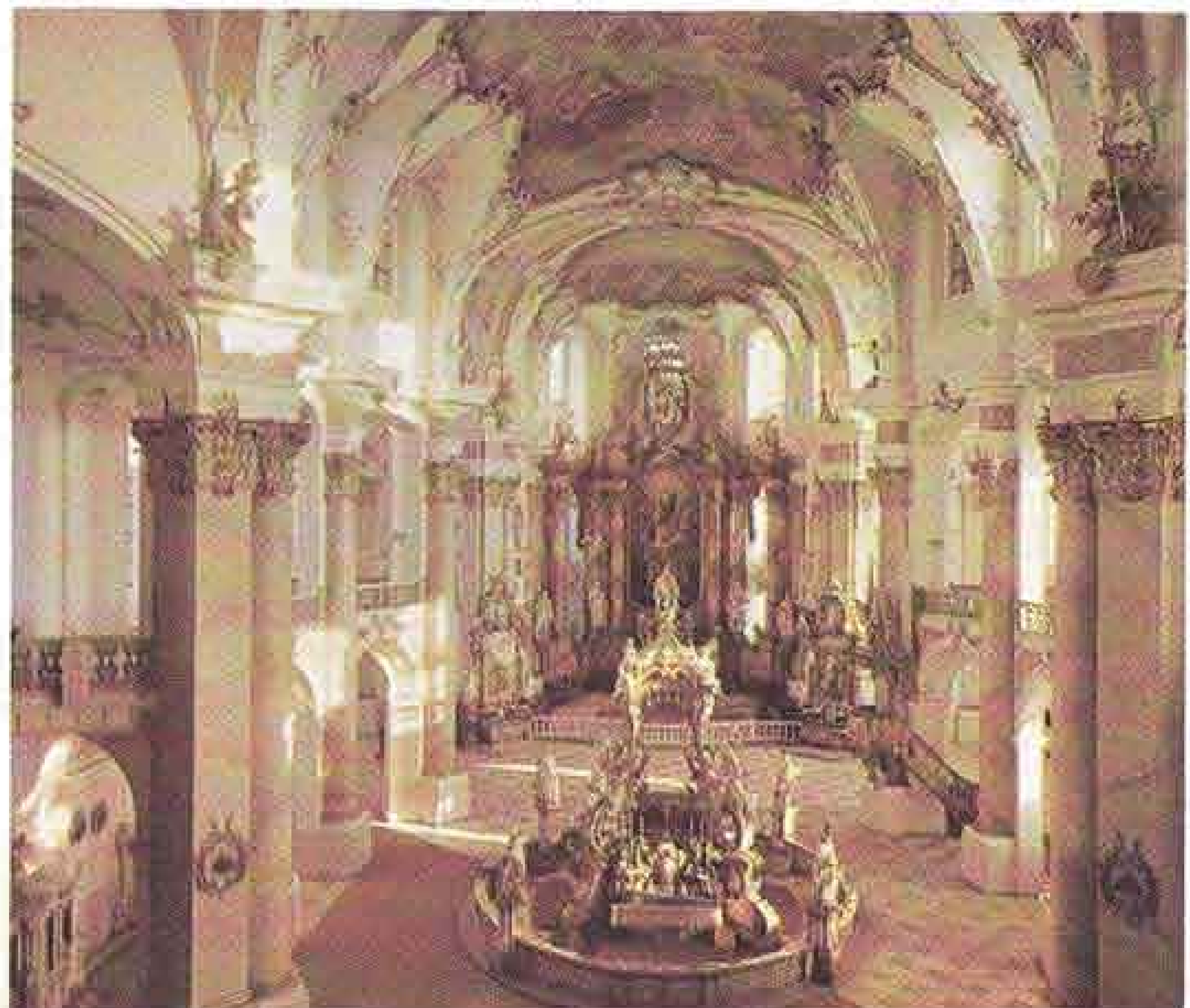
٢



١



٣



العقائد الكاثوليكية المتوقدة والمبادىء السياسية للملكية المطلقة .

تأثير النهضة

اعظم فناني الباروك هما بيتر بول روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) وجان لورنزو برنيني (١٥٩٨ - ١٦٨٠) ، وكانا كاثوليكيين ورعين ومناصرين للحكم المطلق . ولكن يكون من الخطأ ان يربط فن الباروك بايديولوجية ونظام اجتماعي معينين . فقد ظهر هذا الفن ايضا في شكل معدل في بريطانيا وهولندا مثلا ، كما لاقى ، على العكس ، بعض المقاومة في فرنسا الكاثوليكية وفي ظل حكومة من اشد حكومات اوروبا استبدادا ، وذلك لاسباب قومية وجمالية في آن واحد .

لكي نفهم الباروك كأسلوب فني ، يجب ان ننظر اليه من خلال اطار فن « النهضة » ، لأنه اقتبس الكثير من تلك الحركة ، ومن

٤



(١) - عبّر عن الواقعية الباروكية بصورة خشنة ودرامية في اول الامر ميكل انجلو دا كارافاجيو ، الرسام الايطالي الشمالي الذي استحوذ على قلوب اهل روما خلال العقد الاخير من القرن السادس عشر . لم يتدرب على يد احد تقريبا . وكان نابغة بمزاج ملتهب عنيف تجلى على اكمل وجه في منحوتته « داود يحمل رأس جليات » (حوالى ١٦٠٦) ، وكان لنتاجه تأثير عظيم على الفنانين المعاصرين .

(٢) - اثبت برنيني ، أبرز نحاتي الباروك ، تفوقه على زملائه بادىء الامر بمهارته التقنية . ففي منحوتته المصنوعة من المرمر وبالحجم الطبيعي ، ابولو ودافني (١٦٢٢ - ١٦٢٥) ، والتي نحتها من اجل سكيبوني بورجيزي ، تتحول دافني أمام اعيننا الى شجرة غار ، في اللحظة التي يكاد يلحق بها عشيقها المطارد لها .

(٣) - ازدهر فن الباروك في المانيا في القرن الثامن عشر ازدهارا كليا في فن العمارة كميدان للتفنن البنيوي اكثر منه للزخرفة . صمم كنيسة « الاربعة عشر قديسا » (١٧٤٣ - ١٧٧٢) في بافاريا الشمالية بالتاصر نويمان ، على اساس مخطط مؤلف من اشكال بيضوية متقاطعة تعطي دائما الاحساس بالمساحات المتداخلة ، وهو احساس يساعد على ابرازه بقوة في الاتجاه العمودي خصوصا العدد الكبير من الاقبية والاقواس . فداخل الكنيسة يبدو بكامله عبارة عن اقواس وقناطر ناتئة . بالاضافة الى أقواس بارزة دون جدران . أما زينة المذبح فمن نوع الروكوكو .

(٤) - كان الايحاء الايطالي وقدر من الواقعية الفلاندرية اساس اسلوب بيتر بول روبنز . اضاف الى ذلك لمعانا وسيولة وحسا بالحركة الدينامية النشيطة . كل شيء في لوحاته - الطبيعة والحيوانات والبشرة الانسانية - يزخر بحياة عارمة . لذلك يمكن اعتبار روبنز الرسام الباروكي الرئيسي للمشاهد الطبيعية . يبرز كل ذلك بوضوح في لوحته « دينونة باريس » (حوالى ١٦٣٢ - ١٦٣٥) . القصة عبارة عن الاسطورة الكلاسيكية القائلة ان فينوس وجونو ومينرفا بعد ان تجادلن فيما بينهن عمن هي اجملهن ، اسندن القرار الى باريس ، فخلع الجائزة وهي عبارة عن تفاحة ، على فينوس .

خليفتها الحركة المعروفة « بالتكلفية » . بصورة عامة ، استخدمت الاشكال الكلاسيكية طيلة هذه الحقب الثلاث جميعا ، وان كانت قد استخدمت الى حد أدنى في المراحل النهائية من تاريخ الباروك .

اخذ فنانو الباروك يعبرون عن الواقعية والمدى والحركة بطرق جديدة : في الرسم ، بوضع الاشخاص الرئيسيين على الاقل في مقدمة الصورة ؛ وفي النحت ، بالتشديد على استدارة الاشكال وعلى تفاصيل صياغة السطوح ؛ وفي العمارة ، باستعمال اعمدة ضخمة ، واعمدة مربوعة متداخلة ، وزخرفة معقدة عميقة . وقد ساعد على ابراز هذه الملامح في هذه الفنون الثلاثة استخدام الضوء والظل بصورة مثيرة . وخلافا للطريقة الشائعة في كلا حقبتي « النهضة » و« التكلف » ، انتشر الميل لازالة الحدود الفاصلة بين الفنون وبينها وبين العالم الخارجي .



(٥) ـ من مميزات العمارة الباروكية ، كما تظهر في قبة جوارينو جواريني التي تعلو كنيسة الكفن المقدس بتورينو (١٦٦٧ ـ ١٦٩٠) ، التفنن والجرأة في معالجة الاشكال التقليدية ، فضلا عن حس الحركة المرهف .

(٦) ـ في فن الباروك الأخير ، حققت اهداف الطموح الايطالي العريق الرامي الى رسم زخرفة سقفية من الجص ذات عدة اشكال بأقصى درجات الاتقان . ففي غرفة الطعام القائمة في دارة فيرز بورج بالمانيا ، لم يكتف الرسام جوفاني باتيستا تيبولو في القرن الثامن عشر ، وهو من اهل البندقية ، بالرسم على مساحة بيضوية فحسب ، بل استغنى ايضا عن الاطار المعماري الداخلي المدهون ، بحيث اصبح التصميم الضخم بكامله يحتل وحدة مكانية يمتد منها الى ما يحيط بها من ملاط ابيض مذهب . امره بانجازه الاسقف الامير سنة ١٧٥١ ، وكان الموضوع « ابولون يقود بياتريس البورجونية للمثول أمام فريدريك بارباروسا » .





(٧) ـ تبنى العمارة الاسبانية الباروكية عادة من بنيات منفصلة او « مكعبات » يوضع احدها فوق الآخر ، فتعطي انطباعا عمود يا تقويه قبب على شكل المبهرة وابراج صغيرة واعمدة مربوعة نحيفة ضمت بعضها الى بعض . يبرز هذا الانطباع في برج الساعة (١٦٧٦ ـ ١٦٨٠) الذي يعلو كاتدرائية سانتياجو دا كومبوستيلا والذي صممه دومنجو دي انرادي . وقد جاءت زخرفة هذا البرج المرصعة تشهد على ذلك ايضا

اسلوب غني وديناميي

غدا الباروك فنا ثقيلا ، من جراء اشكاله المنتفخة والزخرفةالفضفاضة والمواد الغنية والزاهية المستعملة بوفرة فيه مثل الكثير من المرمر (الملون أحيانا) والمواد المذهبة والبرونز. لكنه كان ايضا ديناميا: ففيه الملائكة تسبح في الفضاء والقديسون يتسابقون الى السماء ، والناس على الارض يلوحون بايديهم ويتشاجرون ، والستائر والالبسة ترفرف كما لو كانت تدب فيها الحياة . فضلا عن ذلك ، كان فنانو الباروك مولعين برسم الحشد والكثرة ، ولا غرو ان يجد هذا الولع ميدانه الامثل في زخرفة السقوف (٦) . أما في فن العمارة ، فقد جاءت الواجهات الضخمة المتموجة ، ومخططات الاراضي البيضوية الشكل كالتي نشاهدها في كنيسة فيرتزانهيلجن (٣) المصممة على يد بلتاصر نويمان (١٦٨٧ - ١٧٥٣) ، وقواعد الاعمدة ، تحل محل الواجهات المستقيمة ، ومخططات الاراضي المربعة او المستديرة ، وقواعد الاعمدة المربعة الزوايا او المقطعة ، التي شاعت اثناء عصر النهضة .

على الرغم من ان فناني الباروك لم يبتكروا اشكالا جديدة ، فقد اظهروا عبقرية قصوى في استحداث نماذج جديدة من الزخرفة ، وتحويل الاشكال التقليدية الى اشكال غير مألوفة . استمد فن الباروك تفننه واحساسه بالعظمة من اجلاله للفن الكلاسيكي ، كما اخذ ادراكه العميق للشكل وحسه باللون والنور والظل من عصر النهضة ، لكنه ورث ايضا عن « عصر التكلف » حب التعقيد والزخرفة .

تطور الباروك وانتشاره

كانت اولى تباشير الاسلوب الجديد العودة الى الواقعية (١) واستخدام الضوء والظل بصورة قوية ، كما تجلى ذلك في اعمال الرسام الايطالي ميكل انجلو دا كارافاجيو (١٥٧١ - ١٦١٠) وانيبالي كارتشي (١٥٦٠ - ١٦٠٩) ؛ ثم ظهرت الدينامية والتحكم باللون الزاهي مع روبنز (٤) الذي حمل فن الباروك الى اوروبا الشمالية بعد زيارته ايطاليا بين ١٦٠٠ و ١٦٠٩ . وبعدئذ ظهر الباروك العالي في ايطاليا ، الذي هيمن عليه ثلاثة فنانين نشطوا في روما في الربع الثاني والثالث من القرن السابع عشر ، وهم النحات والمعماري برنيني (٢) ، والمعماري فرنشيسكو بوروميني (١٥٩٩ - ١٦٦٧) والرسام والمعماري بيترو دا كورتونا (١٥٩٦ - ١٦٦٩) . على أثر ذلك ، انتقلت المبادرة شمالا ، بفضل نتاج جوارينو جواريني (١٦٢٤ - ١٦٨٣) في تورينو (٥) ، الى اوروبا الوسطى والمانيا الجنوبية والوسطى ، حيث بلغت العمارة الباروكية ذروة الازدهار والتفنن . اخيرا عرف الرسم الباروكي فترة انتعاش ذهبية اخيرة في مدينة البندقية في القرن الثامن عشر ، وذلك بفضل اعمال جوفاني باتيستا تييبولو (١٦٩٦ - ١٧٧٠) المزخرفة .

بلغ فن الباروك اسبانيا والبرتغال بادىء الامر في شكل متحفظ رصين في الرسم والنحت ، متخذا شكلا شعبيا في الفن الديني ، وشكلا دنيويا في رسوم الاشخاص التي رسمها دياجو دي سيلفا اي فيلا سكويزا (١٥٩٩ - ١٦٦٠) . أما في فن العمارة ، فالباروك الاسباني والبرتغالي تدفق كسيل من الزخرفة فوق اشكال نموذجية (٧) .

فن الباروك : الرعاية والتطوّر

كان النصراء الرئيسيون لفن الباروك هم الملوك والباباوات والكرادلة وأعضاء الارستقراطية العليا والمجالس الاسقفية وممثلو الرهبنات الدينية . ومع ان الفئتين الاخيرتين لم تكونا بالضرورة مثقفتين او غنيتين ، فقد كانتا أكثر نشاطا في رعاية الفنون مما كانتا عليه منذ القرن الخامس عشر . كان الباروك أول نمط منذ العصور الوسطى يظهر في شكلين اثنين معا ، واحد شعبي والآخر متحذلق او ارستقراطي .

خلفية الباروك الدينية

ظهر الشكل الشعبي طبعا أكثر ما ظهر في المناطق النائية . ومع انه كان لكل

١



(١) ـ كان دياجو دي فلاسكيز على غرار برنيني وفان دايك ، يعتقد ان عليه ، عندما يرسم الملوك ، مثل فيليب الرابع ملك اسبانيا (١٦٤٤) ، أن يحيط موضوعه بالعظمة والمجد ، ولكنه استخدم خلافا لهما طرقا أكثر دقة وأقل فخفخة . فالوجه عنيد ومتحفظ وليس جميلا ، مع ان الالوان زاهية والوقفة وقورة . شمل هذا الملك برعايته ، فضلا

٢



منطقة اشكالها الخاصة. فقد كان الدير المحلي او كنيسة الرعية (٦) الباروكية المتميزة ببرج ناقوسها النحيل ومدخلها البسيط وزخرفتها الداخلية القائمة على ملاط الجبس مشهدا مألوفا في جميع انحاء العالم الكاثوليكي من بولونيا حتى البيرو. مع ذلك، لم يكن الباروك الشعبي بالحقيقة، الا اذا كانت قد فعلت فيه تأثيرات غير اوروبية، سوى شكل أكثر خشونة واشد بساطة من الشكل المتحذلق، وهذا ما ينبغي التوقف عنده عندما نريد ادراك الخلفية الاجتماعية والمحتوى الايديولوجي لهذا الاسلوب.

نشأ الباروك بحافز من حركة «الاصلاح المضاد». جاءت هذه الحركة الاصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية لاعادة التأكيد على العقيدة الكاثوليكية في وجه العداء البروتستانتي. وقد بدأت في ثلاثينات القرن السادس عشر قبل ظهور فن الباروك بالمعنى

٣



٤



عن فلاسكيز الذي رسم عدة صور له ولعائلته، فرنشيسكو دي زورباران (١٥٩٨ - ١٦٦٤) وروبنز.

(٢) - ان اجمل ما تقع عليه العين في كنيسة القديس بطرس بروما، وهي من أقدس معالم الكاثوليكية، هو كرسي بطرس، الواقع في طرفها الغربي. (تواجه كنيسة القديس بطرس الغرب خلافا للمألوف). صمم برنيني هذا الكرسي سنة ١٦٥٧ - ١٦٦٦، في المرحلة الأخيرة من مراحل تغييره لشكل داخل الكنيسة. يستمد الكرسي اسمه من مقعد القديس بطرس الخشبي القديم، الذي يقال انه كان محاطا بالعرش البرونزي الذي يؤلف محور البناء. يشاهد في الاسفل اربعة من آباء الكنيسة، من البرونز ايضا، وفي الاعلى ملائكة مذهبة فوق سحب من الجبس. تحيط بها «حمامة الروح القدس»، مثبتة في نافذة ملونة. وتكمل التصميم أشعة من المعدن المذهب منطلقة من هذه النافذة.

(٣) - انضم شارل الأول ملك انجلترا الى أقرانه من ملوك أوروبا، فأصبح نصيرا للفنون من أشد نصراء العصر حمية. لم يضارعه ملك انجليزي آخر في هذا المجال. هنا في هذه الصورة (١٦٣٥ ؟) التي رسمها له رسامه الخاص، السير انطوني فان دايك، يبدو وهو في حقل الصيد، كسيد انيق فقط، ومع ذلك يبقى ملكا وقورا بكل معنى الكلمة.

(٤) - أسس لويولا «جمعية يسوع» سنة ١٥٣٤. بوشر ببناء كنيسة «يسوع»، وهي الكنيسة الام لهذه الرهبنة بروما، بناء على تصميم جاف وضعه فينيولا (١٥٠٧ - ١٥٧٣) سنة ١٥٦٨. انجز المعبد الرائع الخاص بلويولا في كنيسة «يسوع» سنة ١٦٩٥ - ١٦٩٩ على يد أندريا بوزو (١٦٤٢ - ١٧٠٩)، وأضيف اليه تمثال فضي للقديس من صنع بيير لوجرو سنة ١٧٩٧، صهر فيما بعد لدفع الديون المتوجبة لنابليون على أثر حملته الايطالية. وقد استبدل اليوم بنسخة فضية جزئيا تبدو في الصورة. يعكس التاريخ المتقلب للمعبد بأمانة المرحلة الطويلة التي تنقلت فيها الكاثوليكية على عهد الاصلاح المضاد من بداية بطولية، الى انتصار مجيد، الى خاتمة مذلة.

العادي لهذه اللفظة بزمن طويل. رافق حركة الاصلاح المضاد تأسيس عدد من الرهبنات الدينية الجهادية الجديدة، أهمها «جمعية يسوع» (اليسوعيون) التي أسسها أغناطيوس دي لويولا (١٤٩١ ـ ١٥٥٦).

كان القديس اغناطيوس (اذ اعلنت قداسته فيما بعد، وهو كثيرا ما يظهر (٤) في فن الباروك) اسبانيا، كعدد من الشخصيات الكاثوليكية الرئيسية في هذه الحقبة. كان المعلمون الدينيون الاسبان قد وصفوا في مؤلفاتهم طرقا تأملية خاصة لحمل ذهن المؤمن على الانصباب على تفاصيل آلام المسيح، وبالتالي على تدريب النفس لتلقي مكافأتها النهائية، الاتحاد بالمسيح، وكانوا يقولون انه من الممكن الظفر بهذه المكافأة بفضل ميتة صالحة (تبلغ ذروتها في الاستشهاد)، أو بظهور المسيح او العذراء او أحد القديسين للمؤمن. لكن كان لا بد،

(٥) ـ دعا لويس الرابع عشر جيان لورنزو برنيني للحضور الى باريس سنة ١٦٦٥ ليقوم له بعدة اعمال، منها نحت تمثاله النصفي، فجاء هذا التمثال مجموعة من الخصائص المتضافرة بتألق لتجسيد المثال الباروكي الأعلى. لاحظ شانتلو، وهو ناقد فرنسي، كيف حوّر برنيني الملامح الطبيعية لكي يبرز العظمة التي كان يتصف بها الملك.

٥



٦



(٦) ـ لا شك ان كنيسة القديس فرنسيس في اورو بريتو (١٧٦٦ ـ ١٧٩٤) في البرازيل التي كانت في ذلك الحين مستعمرة برتغالية تعطينا فكرة عن نوع الكنائس الصغيرة الحجم التي ظهرت في اقصى انحاء العالم الكاثوليكي على عهد الباروك. كانت هذه الكنيسة على شيء من الحذلقة في زخرفتها الانيقة وابراجها المستديرة المرتدة بعيدا عن الواجهة الى الوراء. بناها معماري من المولدين اسمه ليزباو.

٧



(٧) ـ هناك مسحة من فرساي على قصر بلفيدير الأعلى بفيينا، الذي بناه لوكاس فون هيلديبرانت، للأمير يوجين (١٧٢١ ـ ١٧٢٤)، (لم يكن بوسع أي نصير في تلك الحقبة، ناهيك بنصير اسهم في ايقاع الهزيمة بلويس الرابع عشر، ان يتجاهل قصر «الملك الشمس»). الا ان هذا القصر جاء أكثر مرحا وبهجة.

لتحقيق مثل هذه التجارب ان يتمرس المؤمن بحال عاطفية سامية ، وكانت وسائل فن البـــاروك صالحةللتعبــير عن هذه التجارب .

الفن والعواطف

الا ان الباروك لم يظهر الا بعد ذلك بسنين عديدة . فقد كانت حركة « الاصلاح المضاد » ، في أطوارها الأولى ، حركة تقشفية متزمتة ، كما كانت الرهبنات الدينية فقيرة لا تبالي بالفنون . فاقتصرت السياسة الرسمية للكنيسة على التحقق من خلو الصور والتماثيل الدينية من مظاهر الفحش او الهرطقة . لكن في اواخر القرن السادس عشر ، أخذ بعض الزعماء الدينيين المقدرين للفن ، مثل الكاردينال فيديريكو بوروميو ، يدركون مدى امكانيات استخدام الفن ، لا كوسيلة للتدليل على العقيدة الكاثوليكية وحسب ، بل كرافد للعبادة ايضا .

بكلام آخر ، كان المطلوب استخدام الفن كوسيلة للنفاذ الى الذهن من خلال العواطف ، وهي التقنية الاساسية للدعاية ، كما نفهمها اليوم ، وقد اشتقت اللفظة من الاسم الايطالي لمنظمة دينية تأسست في هذه الحقبة هي مجلس نشر العقيدة (بروبغندا) . في هذا المجال اثبت اسلوب الباروك ، بفضل واقعيته وديناميته ، انه الوسيلة الفعالة المنشودة . فقد كان باستطاعته ان يترجم بقوة وبفصاحة ديانة مثيرة في دعوتها وغنية بشخصياتها الفائقة الى لغة بصرية وخلابة .

سلطة الكنيسة الكاثوليكية ومجدها

ابتداء بـ ١٦٢٠ ، راح الفن يسـخر بصورة متزايدة ، لا لنشر العقيدة وحسب ، بل للتدليل ايضا على قدرة الكنيسة ومجدها . فانصرف الرسامون والنحاتون والمعماريون المنتمون الى حركة الباروك ، بدعم من الكرادلة وبعض الباباوات المولعين بالفن ، الى بناء الكنائس وتزيينها ، وكان اعظم انجاز مفرد من هذا النوع تحويل كنيسة القديس بطرس بروما ، من الداخل (٢) والخارج ، الى حالتها الراهنة ، وهي المهمة الرئيسية التي اضطلع بها النحات والرسام والمعماري جيان لورنزو برونيني (١٥٩٨-١٦٨٠) .

قام الباروك ايضا بمثل هذا الدور في خدمة أهداف اصحاب السلطة العلمانيين ، الذين كانوا يعتبرون انفسهم مكرسين من الله . وعلى هذا اصبح ، في منتصف القرن السابع عشر ، عدد من الحكام ، أمثال فيليب الرابع الاسباني (١) (١٦٠٥ - ١٦٦٥) ، وشارل الاول الانجليزي (٣) (١٦٠٠ - ١٦٤٩) ، والوصي على عرش الفلاندر الدوق الاكبر ليوبولد فيلهلم ، والبابا أوربانوس الثامن (١٥٦٨ - ١٦٤٤) (الذي كان يتصرف من عدة نواح كما لو كان ملكا علمانيا) ، مناصرين نشـيطين للفنـون والفنـانين ، أمثـال فلاسـكيز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) ، وفان ديك (١٥٩٩ - ١٦٤١) . خلفهم في أواخر القرن السابع عشر أقوى الملوك جميعا ، لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٣٨ - ١٧١٥) ، الذي جعل الكلاسيكية الفرنسية تتجه نحو الباروك (٥) ، ومن بعده في القرن الثامن عشر عدد من أمراء الولايات الالمانية . وكيفما كان الملوك والامراء يتوجهون ، كان الادواق ومن دونهم من الاشراف يقتفون أثرهم ، زارعين أرياف اوروبا بقصور ومنازل باروكية رائعة (٧) تشكل رموزا بليغة للسلطة الارستقراطية .

الرسم الهولندي في عصره الذهبي

كان ازدهار فن الرسم في هولندا في القرن السابع عشر من أبرز التطورات في تاريخ الفن . فقد كانت المدرسة الهولندية من عدة نواح « حديثة » في أوروبا آنذاك ، اذ كانت واقعية ، وغير مكبلة بالقواعد ، وبورجوازية ، وقائمة على حركة السوق الحرة وليس على الرعاية الكنسية او الارستقراطية السائدة في بلدان أخرى . الا ان تطورها ، مثل تطور المجتمع الذي كانت تعكسه ، جاء نتيجة لاعادة صياغة التقاليد السالفة ، فضلا عن بروز بعض القوى الجديدة كليا .

الجمهوريات الجديدة

تمتد جذور الواقعية الهولندية في القرن

١



٢



(١) - بعد أن شاخ رامبراندت وشاخ معه التجار الهولنديون الاغنياء ونساؤهم ، أخذ رامبراندت ينظر الى هذه الفئة من الناس كأنها فئة شيوخ « العهد القديم » بصرامتهم وكبريائهم ووقارهم ، ولكن بحسهم بالشفقة ايضا النابض في قلوب جميع الناس . تظهر في لوحته « مارغريتا تريب » (١٦٦١ ؟) ، وهي زوجة تاجر اسلحة ، مقدرته على التلاعب بالضوء والظل والتحكم بالريشة .

---

(٢) - بعد تأسيس الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر ، تحولت فرق المسلحين التي كانت قد شكلت للدفاع عن المدن الهولندية ضد الجنود الاسبان في القرن السادس عشر الى نواد اجتماعية . كان فرانز هالس من افضل من قام برسمهم ، كما يتجلّى ذلك في لوحته « مأدبة ضباط فرقة القديس جورج » (١٦٢٧) .

---

(٣) - بعد ١٦٥٠ ، اصبح الرسم الهولندي لمشاهد الحياة اليومية أكثر رقة . كما ظهر الى الوجود موضوع تصويري جديد ، هو داخل المنزل البورجوازي مع المرأة كالشخص الرئيسي فيه . تعطينا لوحة « سيدة وسيد قرب البيانو » (١٦٦٠ ؟) بريشة يان فيرمير الذي برع في رسم الضوء النهاري ، شاهدا واضحا على هذا الفن .

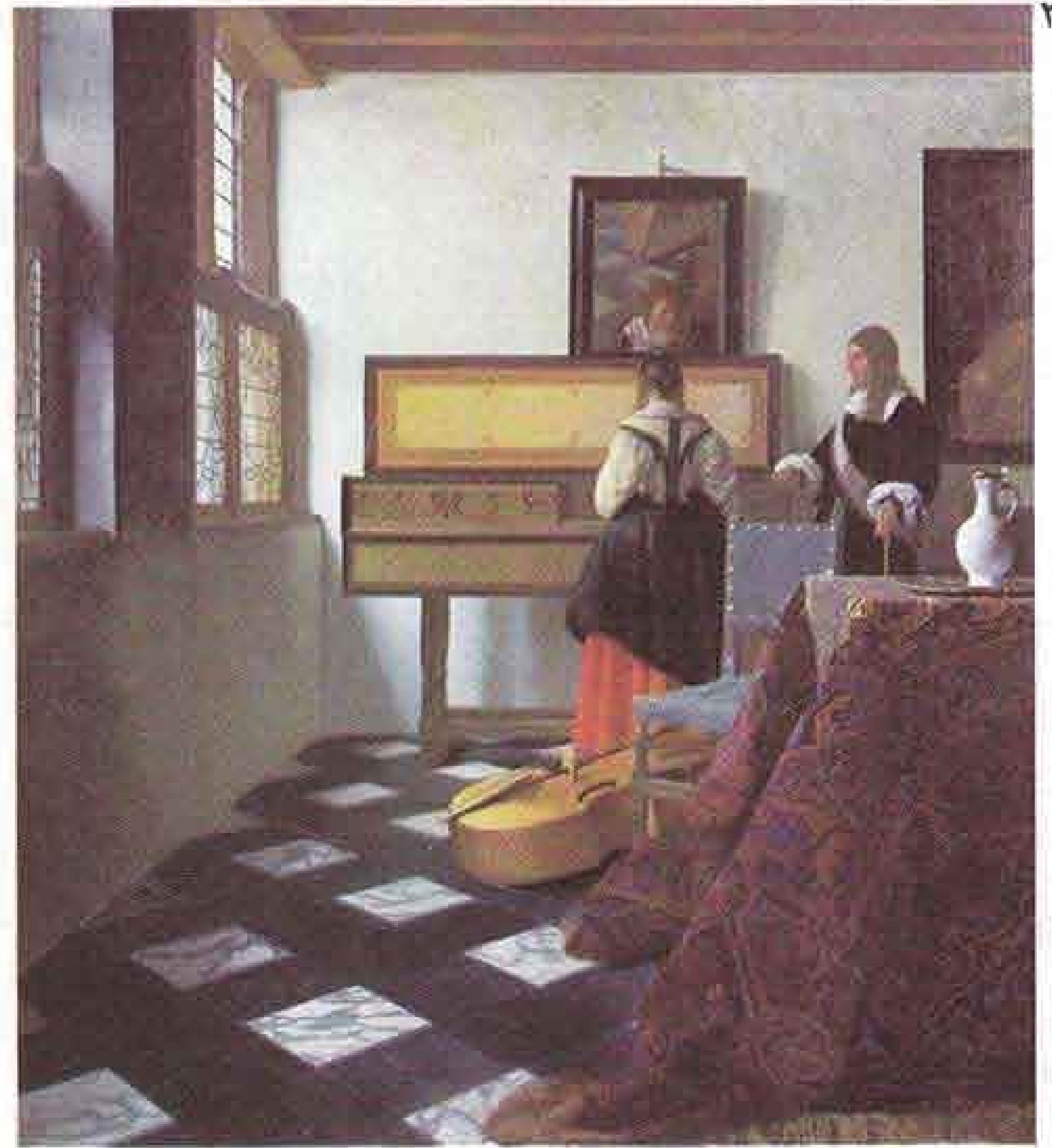
---

(٤) - الحياة الدنيا هو ضرب من الرسم موروث من القرن السادس عشر عن الفنان الفلمنجي بروجيل ، وقد مارسه بروو ير في الفلاندر والأراضي

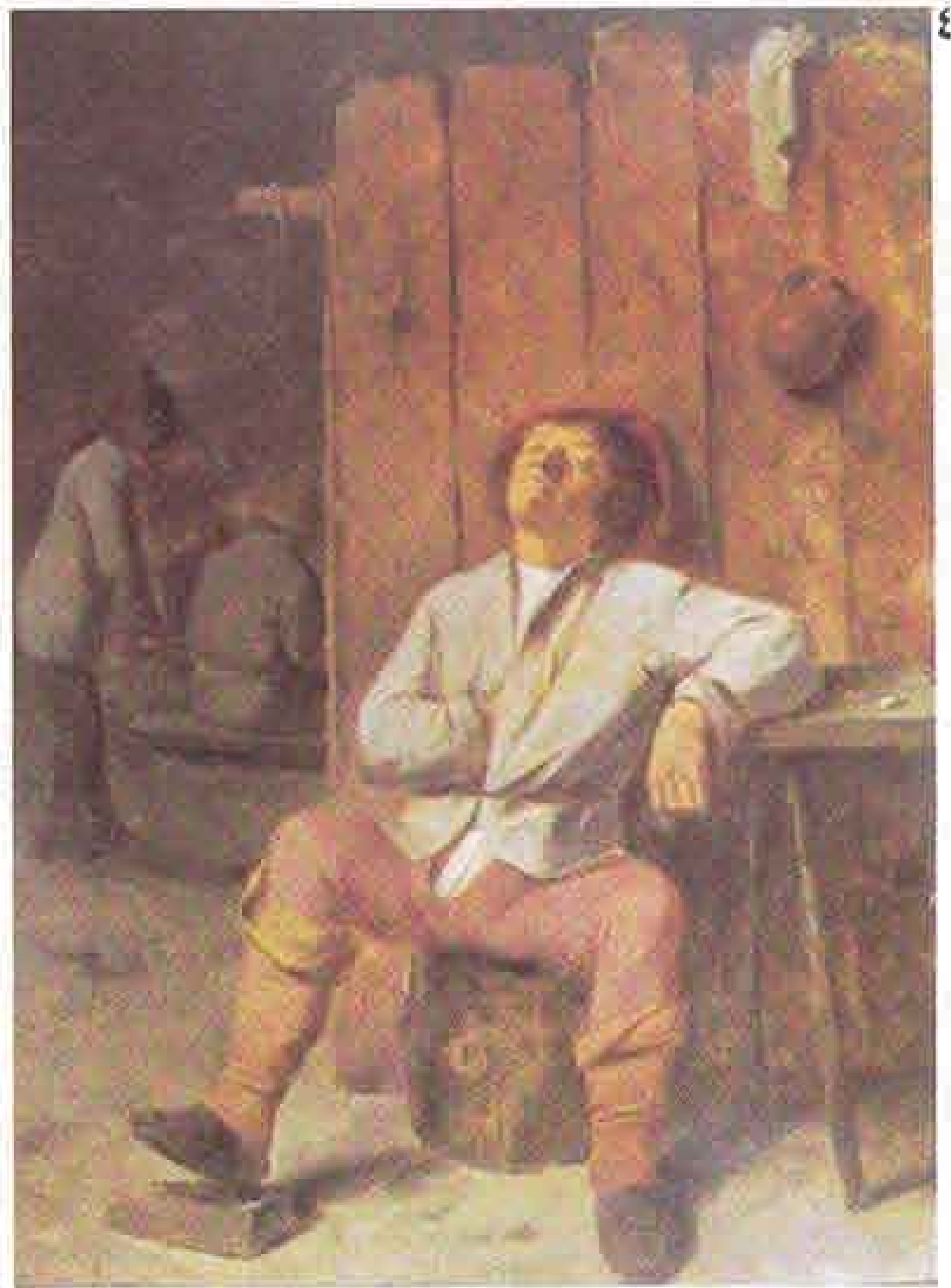
السابع عشر الى نهج سبق له أن تجلّى بوضوح في الرسم الفلمنجي في القرن الخامس عشر. فقد بقي الولع بالتفاصيل الدقيقة وبالنهج القصصي مستمرا جنبا الى جنب مع الاهتمام بالشؤون الشعبية والعناية برسم الحياة اليومية حتى في فن القرن السادس عشر، وذلك بالرغم عن ظهور الاشكال المتأثرة بالفن الايطالي لعصر النهضة.

كانت هولندا بكاملها، بما فيها الفلاندر، خاضعة للسيطرة الاسبانية في القرن السادس عشر. لكن الهولنديين، وكان بينهم كثير من البروتستانت، خاضوا حربا طويلة الأمد ضد جيش الاحتلال الاسباني، واستطاعوا في مطلع القرن السابع عشر تأسيس جمهورية مستقلة، هي « المقاطعات المتحدة ». وسرعان ما أصبحت الجمهورية الجديدة من عدة نواح أكثر البلدان الاوروبية

٣



٤



المنخفضة. رسم لوحته « الجلف النائم » في الفلاندر حوالى ١٦٣٥، ولكن هذه اللوحة تمثل ايضا فن الرسم الهولندي عموما. وما الواقعية الدنيوية لهذه اللوحة، والملطفة بروح الدعابة، سوى انعكاس لملامح النصف الأول لذلك العصر.

٥



(٥) ـ تحققت الواقعية في رسم المشاهد الطبيعية الهولندية بواسطة التبسيط والتركيز على التناغم والضوء على حساب الشكل واللون، كما يظهر ذلك في لوحة جويين « منظر عام لاميريك » (١٦٤٥).

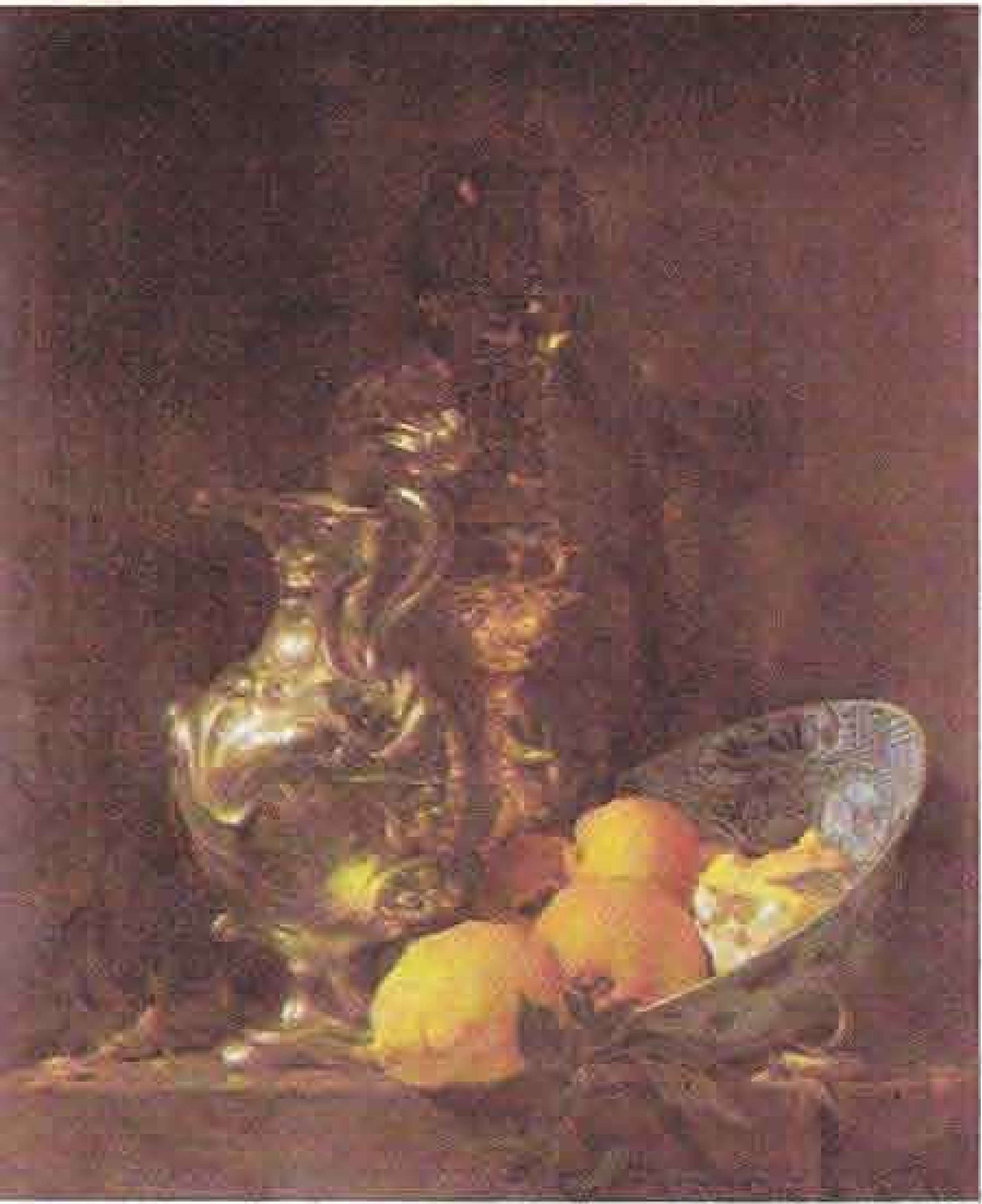
تقدما باقتصادها المزدهر وتقنيتها المتطورة وطبقة التجار القوية فيها وسيطرة روح التسامح السياسي لا بل الديني الى حد ما على مجتمعها . لكنها كانت في الوقت ذاته محافظة ، فأبقت على الحقوق التاريخية للمقاطعات والمدن المختلفة ، بل وللنقابات الحرفية المتعددة ايضا .

كانت نقابة الرسامين في كل بلدة تضبط الانخراط في تلك المهنة ، وهي التي تقرر كيف وأين يستطيع الفنانون بيع اثارهم ، الأمر الذي كان يتم عادة بواسطة المزادات العلنية في المعارض . وعلى وجه أعم ، كان للنظام النقابي نظرة تقليدية قائمة على الاتقان الحرفي للفن ، ومخالفة للنظرة الأكثر تأثرا بالثقافة التي كانت سائدة في المجتمعات الارستقراطية تحت تأثير « النهضة » . أدى ارتباط الفن بالحرفة بدوره الى تعميم الرسوم بين عدد كبير من الناس .

٦



٧



(٦) ـ كان أقوى رسامي المشاهد الهولنديين وأقدرهم على التنوع هو يعقوب فان رويسديل . بعد فترة من الرصانة والتقشف ، عاد الى اللون وحس الشكل في معالجة الكثبان والغابات والطواحين . تعبر لوحته « مشهد غابة » (١٦٦٠ ؟) عن الفارق بين الحياة والموت .

(٧) ـ يتجلى الولع الهولندي بالاشياء العادية المادية في هذه اللوحة الفخمة من « الطبيعة الصامتة » لفلهلم كالف (١٦٦٠ ؟) .

(٨) ـ يبرز أشد الرسامين الهولنديين اصالة وتفننا ، رامبراندت ، الناحية الانسانية من ايمانه الديني في تفصيل للوحته « المسيح يشفي المرضى » (١٦٤٣ ـ ١٦٤٧) .

٨



لكن كان للمجتمع ايضا بعض التأثيرات السلبية على الفن . فتوطيد البروتستانتية كديانة رسمية أدى الى اخراج الرسوم ذات الطابع الديني (٨) والمنحوتات من الكنائس ، فأخذت شعبيتها تهبط تدريجيا لدى المشترين وأصحاب المجموعات .

الواقعية في رسم الأشخاص والمشـــاهد العاديـــة

كل ذلك ترك للفنانين الهولنديين الحرية للتركيز على رسم ذواتهم وممتلكاتهم واجوائهم بواقعية متزايدة . كان القرن السابع عشر في هولندا ، كما كانت الحال في المجتمعات التجارية الاخرى ، العصر العظيم لرسم الاشخاص . كانت ارفع الرسوم شأنا هي رسوم المجموعات البشرية ، وهي عادة مجموعات ضباط بعض الفرق العسكرية (٢)، أو مجموعات رؤساء النقابات المهنية . ساهم كل من رامبراندت فان ريجن (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩) وفرانز هالس (١٥٨١ ؟ ـ ١٦٦٦) ، وهو يأتي بعد رامبراندت في الأهمية على صعيد رسم الاشخاص ، اسهاما كبيرا في هذا المجال ، كما ساهما ايضا في فن رسم الشخص الواحد (١) ، وذلك بانتاجهما اللوحة اثر اللوحة لأفراد تبدو الجدية على وجوههم ويتميزون بقوة الشخصية ولا يخفف من قتامة ملابسهم سوى اطواق القمصان والاكمام البيضاء .

كان الهولنديون شغوفين ايضا برسم انفسهم في منازلهم وحفلاتهم أو في الحانات . لكن تلك الرسوم لم تكن عادة رسوما لأشخاص ، بل مشاهد يومية مستمدة من الحياة العادية ، وتتراوح بين مشاهد داخلية أنيقة تظهر فيها نساء بمفردهن او يتجاذبن الحديث مع الرجال او يعزفن الموسيقى (٣) ، كما في رسوم يان فيرمير (١٦٣٢ ـ ١٦٧٥) وجيرارد تير بورش (١٦١٧ ـ ١٦٨١) ، وبين مشاهد السكر والعربدة ، كما في رسوم يان ستين (١٦٢٦ ـ ١٦٧٩) أو مشاجرات الحانات في رسوم أدريان بروويرِ (١٦٠٦ ؟ ـ ١٦٣٨) (٤) وادريان فان اوستاد (١٦١٠ ـ ١٦٨٥) .

في كثير من الأحيان ، تحتل الممتلكات المادية مكانة بارزة في مشاهد الحياة اليومية ، ولكنها تبدو بصورة أجرأ في رسوم « الطبيعة الصامتة » (٧) .

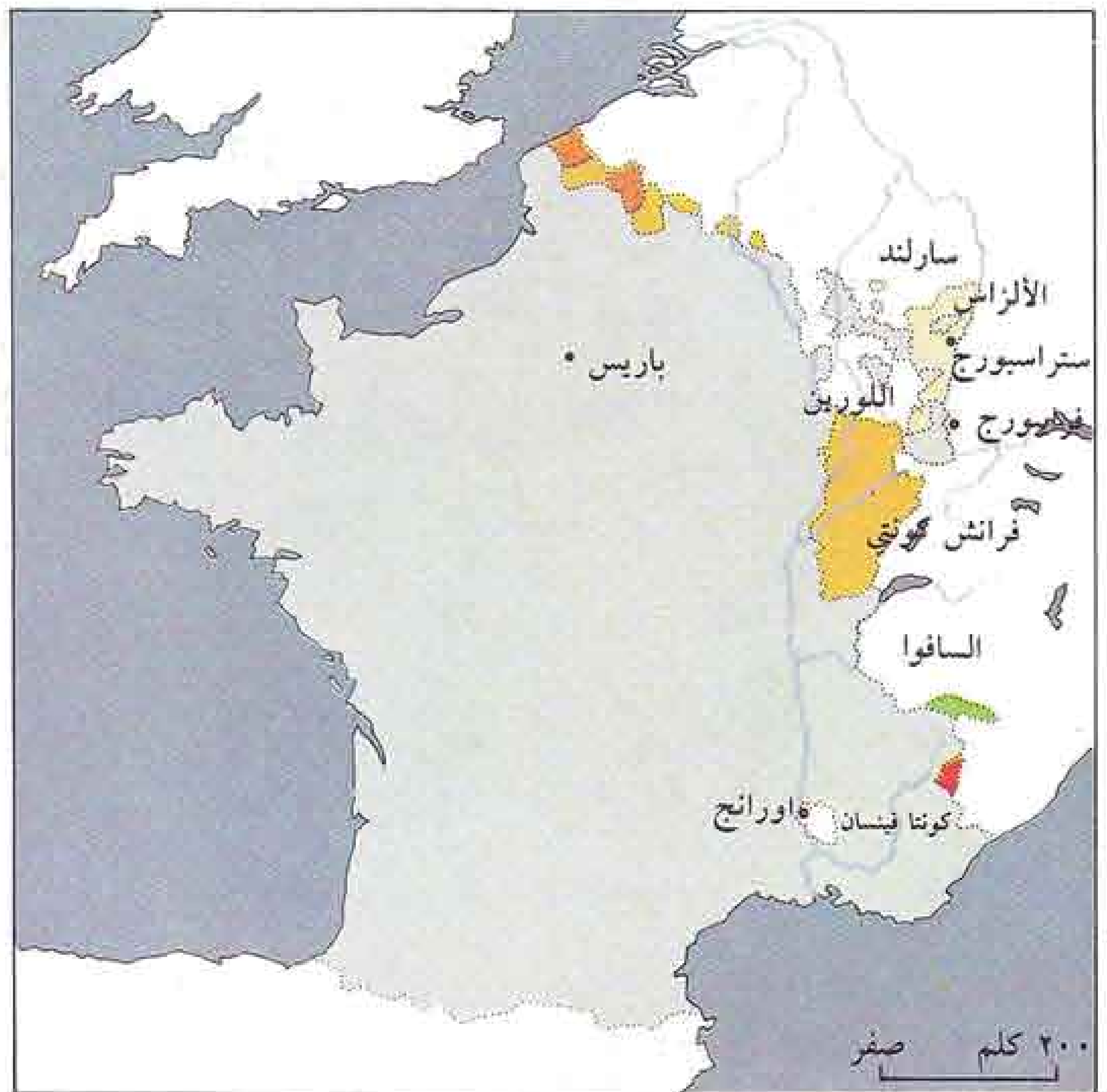
مشاهد الطبيعة والبحر

أخيرا ابتكر الهولنديون طريقة خاصة بهم في باب رسم المشاهد البرية والبحرية ، نابذين بذلك التقاليد المصطنعة حتى الجميلة منها التي كانت ترقى الى عصور مضت او الى مدارس أخرى . صحيح أنهم جاؤوا بتقاليد بدلا عنها ، لكن هذه انما كانت مجرد انماط جديدة في حقلي التأليف والموضوع ، وليس انظمة لخلق رؤى خيالية تطمح ان تكون أكثر تنوعا وأشد اغراء من الطبيعة نفسها . ان مشاهد البر والبحر الهولندية في القرن السابع عشر ، التي رسمها فنانون امثال يان فان جويين (١٥٩٦ ـ ١٦٥٦) ويعقوب فان رويسديل (١٦٢٨ ؟ ـ ١٦٨٢) كانت نوافذ على عالم حقيقي (٦) ، عالم من الكثبان ومصابّ الانهار ومن الاقنية والسهول الساحلية المنبسطة والغابات الداخلية المظلمة ومن الماء الداكن والسماوات العالية المتجهمة بالغيوم السوداء ، وهو العالم ذاته الذي لا تزال مشاهده في الريف الهولندي اليوم .

عصر لويس الرابع عشر

سنة ١٦٦٠ ، كانت فرنسا منقسمة داخليا ، يمزقها الانشقاق . فقد كانت فتنة « الضباط » والأشراف في الفروند هي فترة الاضطراب المدني امتدت من ١٦٤٨ حتى ١٦٥٣ قد أثارت خطر الحرب الأهلية ، وحملت الكاردينال مازاران (١٦٠٢ ـ ١٦٦١) ، الوزير الاول ابان وصاية لويس الرابع عشر ، على مغادرة باريس . وكان عمل ريشيليو لاعادة توطيد السلطة الملكية قد انهار . بكلمة واحدة ، كانت فرنسا بحاجة الى ملك راشد قوي . في مارس ١٦٦١ ، توفي مازاران ، فقرر لويس الشاب ، وله ٢٣ سنة من العمر ، ان يستغني عن وزير أول وأن لا يكتفي بان يملك بل يحكم ايضا . بذلك القرار أعاد لويس الرابع

١



فرنسا عام ١٦٦١

اراض ضمتها بموجب معاهدة ايكس لاشابيل ، ١٦٦٨

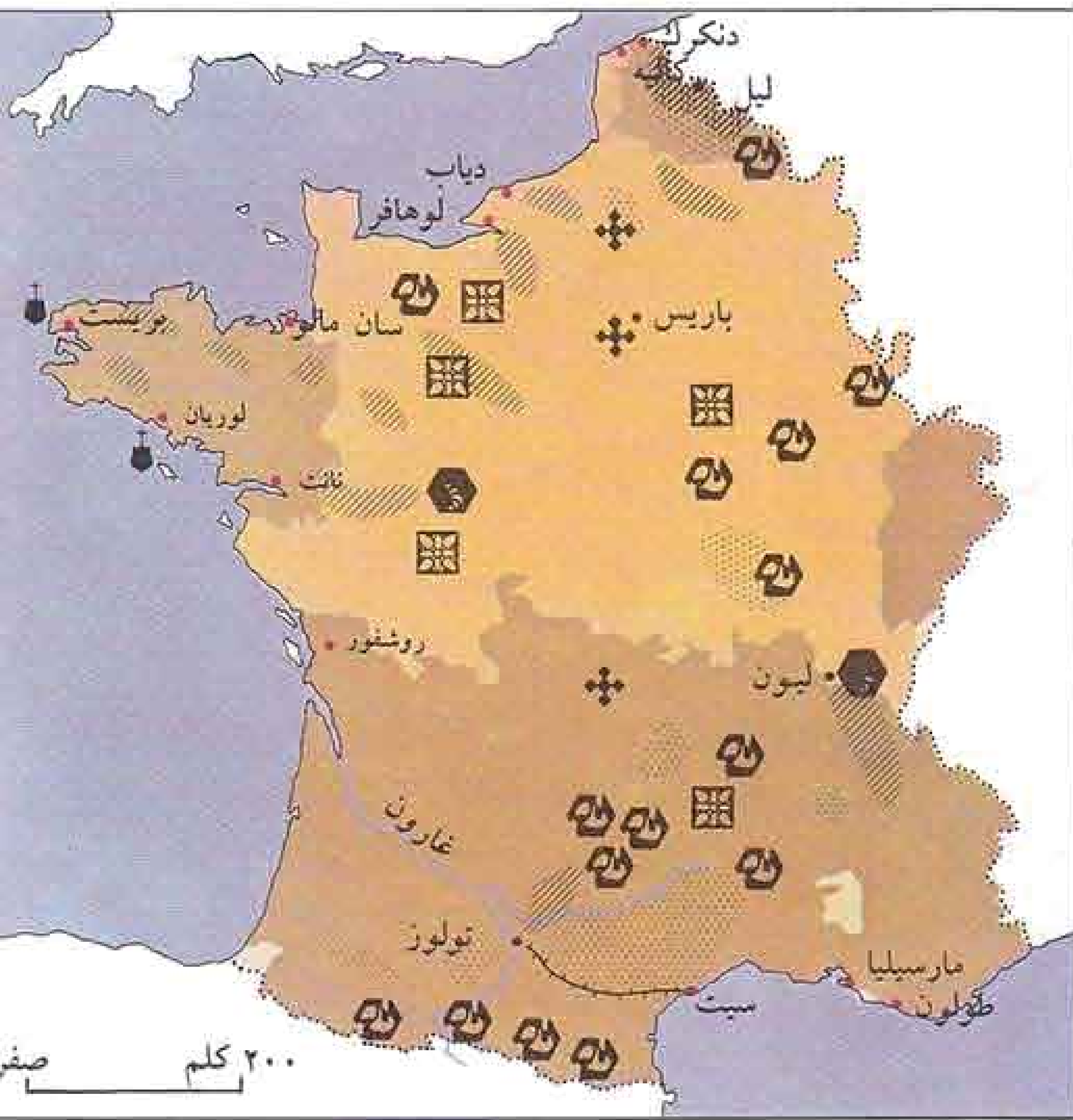
اراض ضمّتها بموجب معاهدات نيجميجن ، ١٦٧٨ ـ ١٦٧٩

اراض تنازلت عنها للسافوا ، ١٦٩٦

اراض ضمّتها بموجب معاهدة ريسفيك ، ١٦٩٧

اراض ضمّتها بموجب معاهدة اوترخت ، ١٧١٣

٢



مزارع الضرائب الخمس الرئيسية

المقاطعات الأجنبية

مقاطعات غير خاضعة للحكم الفرنسي

مرافىء

قناة الجنوب

كتّان

اقمشة

ستائر

تخريم

بناء السفن

مصانع للحديد

حرير

(١) ـ أدى الى تقوية أجهزة فرنسا الدفاعية ، الشمالية والجنوبية ، الاستيلاء بالمعاهدات على عدد من المدن الحدودية . كانت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية تهدف الى ضم مناطق الى فرنسا ، من شأنها ان تعزز الدفاع عن الحدود . تبين الخريطة المقاطعات التي حصلت عليها فرنسا خلال فترة ٥٠ سنة .

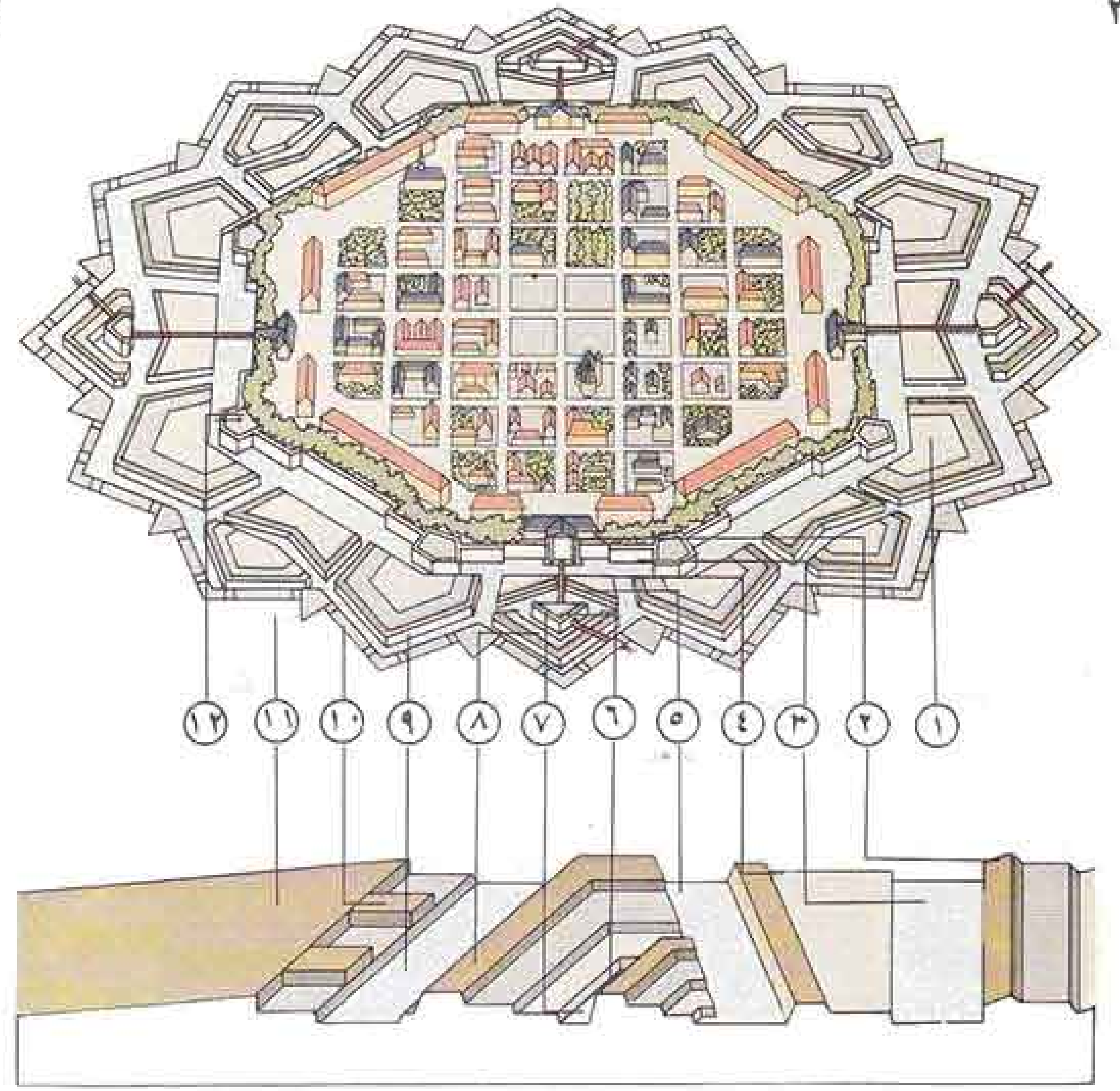
(٢) ـ تبين الخريطة الصناعات التي شجعها كولبير (١٦١٩ ـ ١٦٨٣) كجزء من سياسته المركنتيلية . تبين ايضا مناطق الجمارك الداخلية التي نجمت عن النمو التدريجي للمملكة الفرنسية .

(٣) ـ في عهد لويس الرابع عشر ، أدخل التحسينات على اساليب التحصين سيباستيان دي فوبان (١٦٣٣ ـ ١٧٠٧) ، كما يتبين من قلعة « نوف بريساك » في الألزاس القائمة مكشوفة فوق ارض مسطحة .

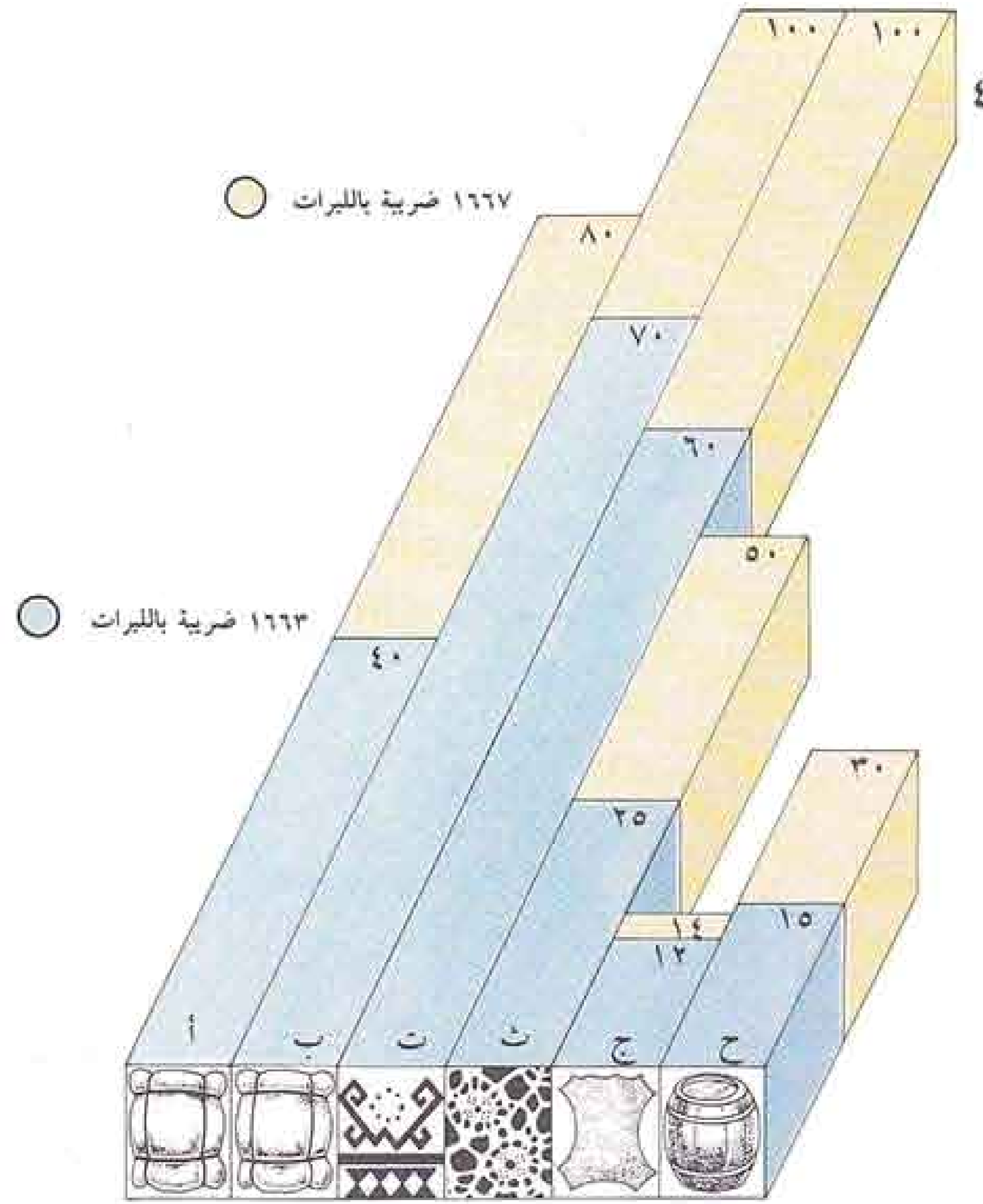
عشر الى التاج الهالة التي كانت تحيط به من قبل والطاعة المتوجبة على الشعب تجاه ملك يحكم بحق الهي. كان مصمما ايضا على اعادة السلطة والجلال الى سلالة البوربون في فرنسا واوروبا، ووضع حدّ للبلبلة المثارة في وجه اسرة حاكمة مكرسة من الله.

لا يمكن فهم سياسات لويس الرابع عشر فهما كاملا في الداخل والخارج الا على ضوء مفهومه للنظام. يتجلى انشغاف لويس بالنظام على افضل وجه في قصر فرساي (٥). فقد التزمت هندسة القصر وتصميم الحدائق والنوافير بقواعد التماثل، كما كانت المراسيم المعقدة ترافق تصرفات الملك طيلة النهار. من جهة اخرى، حدّ لويس من سلطات الاشراف «والبرلمانات» والفئات ذات المصالح الوطنية او الاقليمية، اذ شعر انها كانت قد تضخمت أكثر مما تقتضيه

٣



٤



كانت تحصيناتها تمتد في العمق حول الدائرة بكاملها بفضل قلاع منفصلة (١) عن الخط الداخلي. وكانت تملأ الفجوات «هلاليات» تحيط بها هلاليات أخرى. كان يأتي أولا الستار (٢)، ثم الخندق (٣)، ثم الكماشة (٤) ثم الخندق الثاني (٥). ويتلو ذلك هلالية (٦)، فخندق (٧)، فهلالية (٨)، فخندق خارجي (٩)، فطريق مسقوفة (١٠)، وأخيرا المنحدر (١١)، الذي كان يتدنى الى مستوى الأرض الخارجية. كانت تشرف على الحصن الداخلي «أبراج محصنة» ذات زوايا (١٢).

---

(٤) - حاول كولبير أن ينظم الضرائب الداخلية والخارجية، التي كانت تعرقل التجارة الفرنسية بتعددها. كان ينوي ايضا ان يفرض ضرائب لحماية الصناعات الفرنسية الناشئة، ويحارب المنافسة الهولندية والانجليزية. كانت الضريبة الاولى التي فرضها سنة ١٦٦٤ تخدم اغراض التوطيد الأولى، بينما جاءت الثانية المتخذة سنة ١٦٦٧ لحماية صناعة المنسوجات الفرنسية. أدت هذه الضرائب الى ضرائب ثأرية ضد الخمرة الفرنسية، وأدى التنافس الاقتصادي الى الحرب مع الهولنديين سنة ١٦٧٢. سويت المسائل الاقتصادية في صلح «نيجميجن» (١٦٧٨) لمصلحة الهولنديين. فألغيت ضرائب ١٦٦٤ و ١٦٦٧.

أ - منسوجات صوفية انجليزية وهولندية، القطعة من ٢٥ ذراع
ب - منسوجات صوفية اسبانية فخمة، القطعة من ٣٠ ذراع
ت - ستائر فلندرية، بالقنطار الانجليزي
ث - التخريم والكتان المطرّز، بالرطل الانجليزي
ج - جلد الثور المصبوغ، بالدزينة
ح - الواح التنك، بالبرميل

مرتبتها . كذلك بسط بفضل المركزية سلطة البلاط على الاقاليم ، فكان ممثلو الحكومة المركزية (الحكّام) يشرفون على الشؤون الاقليمية ، بينما كان الأشراف ينصرفون الى اللهو في فرساي . كان النظام يتطلب ايضا استئصال جذور الهرطقة ، فحرم الملك البروتستانت الهوجنوت من حق ممارسة عقيدتهم ، واكرههم ، بالغاء « مرسوم نانت » سنة ١٦٨٥ ، على الانصياع أو مغادرة البلاد .

السياسة الخارجية

كان الايمان نفسه بالنظام والعدالة يكمن وراء سياسة لويس الخارجية . كان يرغب في اعادة جميع الاراضي التي كان لفرنسا حق بها ، ويوسع حدود الأمة حتى « حدودها الطبيعية » . لكن ما كان لويس يراه عبارة عن حقوق لفرنسا ، كانت سائر دول اوروبا تعتبره اعتداء سافرا . لذلك طبعت الحرب عهد لويس الرابع عشر بطابعها ، فكانت

٥

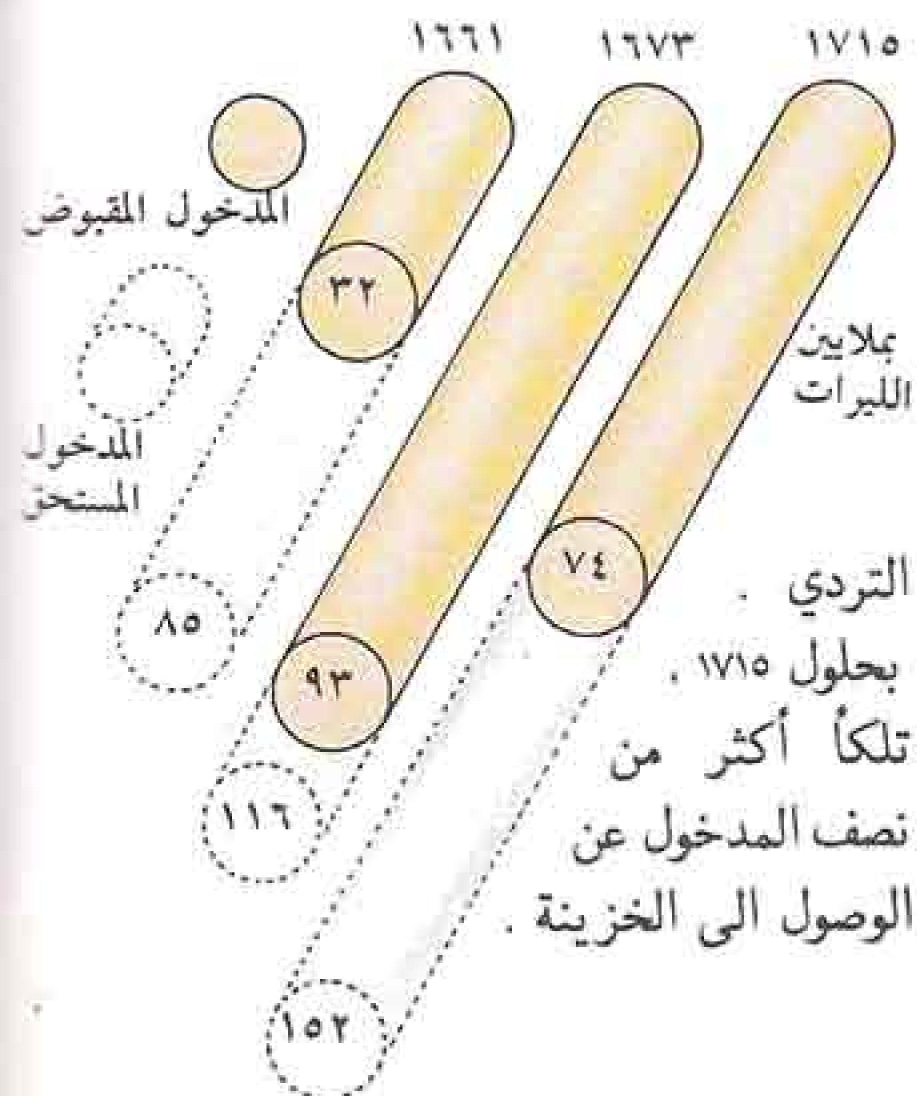


(٥) - كان قصر فرساي ، الذي بوشر به قبل ١٦٧١ ، العالم المصغر للنظام المثالي الذي كان يريده لويس للمملكة . تقع فرساي على مسافة ١٩ كلم من منطقة باريس الغربية التي كانت مسرحا لفتنة الفروند . بني القصر وصممت الحدائق وفقا لمعادلات هندسية . عندما استقر البلاط بكامله هنالك ابتداء من ١٦٨٠ ، كان يقيم فيه سبعة او ثمانية آلاف من الحاشية ، يقضون اوقاتهم بين اظهار الاعجاب بالعظمة الملكية او التلهي بالالعاب في البلاط . الا ان الانقطاع عن باريس جعل الملكية تبدو نائية عن الشعب ، وكأنها ترمز الى نظام وادارة مثاليين فرضا من فوق على واقع وحقيقة الحياة السياسية .

---

(٦) - نجمت احدى المشاكل المالية الرئيسية للملكية عن صعوبة جباية الضرائب وتأمين وصول الأموال المستحقة فعلا الى الخزينة . في عهد كولبير ، أدخلت تحسينات على جباية الضرائب ، مع ان الضرائب ارتفعت . لكن على أثر وفاة كولبير سنة ١٦٨٣ ، وتزايد التحرك ضد حروب لويس الباهظة ، أخذ الوضع في

٦



التردي . بحلول ١٧١٥ ، تلكأ أكثر من نصف المدخول عن الوصول الى الخزينة .

الحملات متواصلة تقريبا من ١٦٦٧ فصاعدا . نشبت « حرب أيلولة الحكم » (١٦٦٧ - ١٦٦٨) بسبب مطالبة لويس بهولندا الاسبانية ؛ والحرب ضد هولندا من ١٦٧٢ حتى ١٦٧٨ ؛ وحرب « حلف اوجسبورج » من سنة ١٦٨٨ حتى ١٦٩٧ ؛ وحرب « الوراثة الاسبانية » من ١٧٠٢ حتى ١٧١٣ .

السياسة الاقتصادية

جاءت سياسات جان باتيست كولبير الاقتصادية استجابة لحاجات الحرب . كان لا بد لفرنسا من الاكتفاء الذاتي ، اذا شاءت ان تتفادى الاعتماد على اعدائها ، لاسيما الهولنديين . فحاول كولبير تنشيط نمو الصناعات الفرنسية الوطنية (٢) ، كالحديد والمنسوجات ، ولاسيما انتاج السلع الكمالية ، كالحرير والتخريم . عندما كانت المواد الخام لهذه السلع الرائجة تصل الى فرنسا من البحر المتوسط وجزر الهند الشرقية ، كان الهولنديون في الغالب هم الذين يستوردونها ويتقاضون سبائك ذهبية ثمنا لها . ولما كانت المعايير الاقتصادية المعاصرة تقيس القوة باقتناء السبائك ، أخذت فرنسا ترفض تلك المستوردات . كذلك كان المزيد من التجارة والصناعة يعني المزيد من المنعة والثروة ، ولما كانت النظرية الاقتصادية المركنتيلية تعني الحرب الاقتصادية ، لجأ كولبير الى سياسة الحماية (٤) ، ليشوش بذلك على الهولنديين ، فتأسست « شركة الهند الشرقية الفرنسية » كمحاولة لانتزاع التجارة من ايديهم في المستعمرات التي كانت ما تزال مصدرا هاما للسبائك .

بدا لويس ، طيلة معظم عهده ، وكأنه قد حقق اهدافه . فقد توطد الأمن في البلاد ، وتم الاستيلاء على الاراضي المطلوبة واعترف بها كممتلكات فرنسية بمعاهدات ، وأحرزت انتصارات عسكرية . كذلك اصابت صناعات كولبير الجديدة بعض النجاح ، وبرزت فرنسا كمنافسة لهيمنة الهولنديين والانجليز التجارية.

الا ان هذه الانجازات تحققت على حساب ارهاق كبير في الداخل ، وعداوة جميع دول اوروبا تقريبا . ولما بلغت تكاليف الحرب مستويات لا سابق لها ، أخذت خزينة الملك تفرغ من المال . فلويس ، بالرغم من كل شيء ، لم يأنس في نفسه يوما من الايام قوة كافية لفرض الضرائب على الأشراف ، ولم يكن ثمة نظام تسليف منظم في فرنسا .

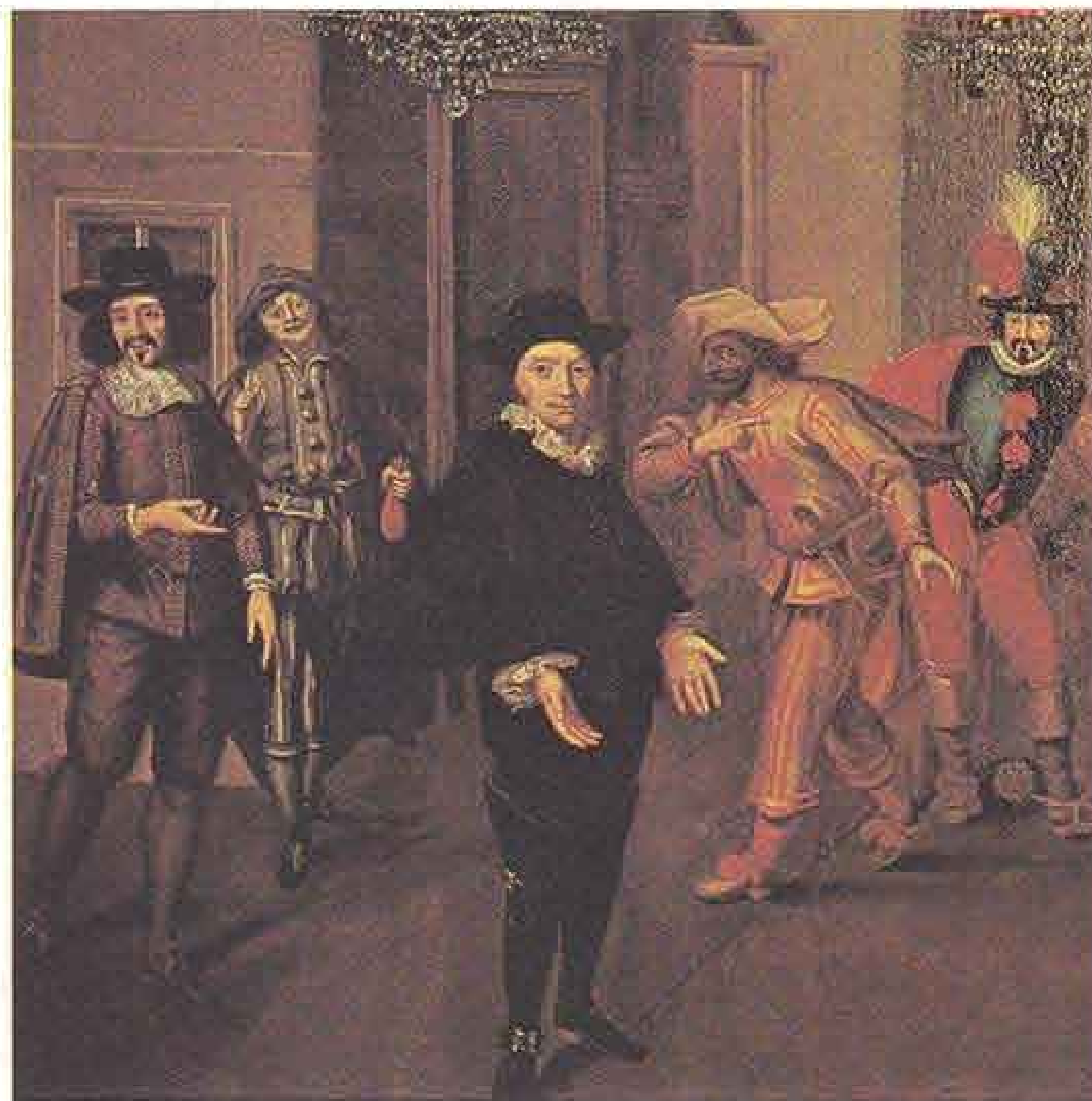
رد الفعل والفتنة

عندما تواصلت الحروب وتراكمت الهزائم ، اشتدت ردود الفعل في فرنسا . فتمرد الفلاحون الذين كانوا يحملون عبء الضرائب الاكبر مع انهم كانوا اقل الناس قدرة على دفعها . وفي أواخر عهد لويس ، اشتدت حدّة النقص في كميات الحبوب ، فرفعت الأزمات الحادة سنة ١٦٩٣ - ١٦٩٤ و ١٧٠٩ - ١٧١٠ ، أسعار الحبوب وأدت الى هلاك الكثيرين في المناطق الريفية . كذلك وقف الأشراف انفسهم في وجه طموح البوربون وعجرفتهم ، فنادى عدد منهم بفضائل الحياة المتواضعة ، وتغنى ببساطة عيشة البرية والعزلة الريفية . في آخر الأمر ، أصبح حكم لويس المطلق ، المرتكز على فرساي ، أبعد أكثر فأكثر عن الشعب ، ورمزا لقوة الحكم الاستبدادي وضعفه في آن واحد .

الأدب الفرنسي الكلاسيكي

هاجم جميع الكتاب الفرنسيين في القرن السادس عشر على وجه أو آخر ثقافة العصور الوسطى ، مشددين على وعي الذات وعلى تنمية الفردية والابتكار . بلغ ذلك ذروته في الشكوكية النقدية التي حمل لواءها ميشال دي مونتين (١٥٣٣ - ١٥٩٢) (١) . هذه الصفات ذاتها نجدها عند كليمان مارو (١٤٩٦ - ١٥٤٤) ، الذي غالبا ما تذكرنا دعابته الساخرة واصراره الشديد على حقه في التفكير الحر بفرانسوا رابليه (١٤٩٤ ؟ - ١٥٥٣) (٧) . في الجهة المقابلة ، نجد جان كالفان (١٥٠٩ - ١٥٦٤) ، المصلح البروتستانتي ، دقيقا ووجيزا ومع ذلك ساخرا ايضا ، ومثبتا ، بمؤلفاته الجدلية ، ان اللغة







(١) - تحتوي « محاولات » (١٥٨٠ - ١٥٩٥) ميشال دي مونتين على أصفى تعبير عن روح فرنسا في القرن السادس عشر . اختراع مونتين الارستقراطي المولد ، اسلوب ما يسمى « بالمحاولة » او المقالة . لم يشأ أن يسيء الى العقيدة الدينية ، مع انه كان شكاكا . فوقف موقفا محافظا في الحروب الدينية . كان الفضول او حب الاستطلاع الذي ظهر عنده ميزة خاصة من ميزات اولئك الرجال الذين كانوا يناهضون التأثيرات الخانقة للعصور الوسطى . يكاد يتطرق في محاولاته ، وباسلوب مباشر وجلي ، الى جميع الموضوعات المعروفة حينئذ : علم الانسان ، والأخلاق ، والسلوك السوي ، والتربية ، وفوق كل شيء ، الرأي الحكيم والسليم .

---

(٢) - كان « موليير » هو الاسم المسرحي لجان باتيست بوكيلان الواقف الى اليسار في هذه الصورة غير الموقعة (١٦٧٠) . حوّل موليير ، الممثل والمدير المسرحي ، فن الكوميديا الاوروبية ، ناهيك بالكوميديا الفرنسية تحويلا تاما ، وربما كان الكوميدي الاسمى في باب تصوير التصرفات ، المتسامح دوما وبسخرية عن الهفوات .

(٣) - اقتبس جان دي لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥) ، وهو أحد أنصار « القدماء » ، كتابة « الخرافات » (التي يظهر مشهد منها هنا) من عدة مصادر ، بما في ذلك أيزوبوس . باسناده استجابات ودوافع بشرية الى الحيوانات ، خلق مواقف طريفة استخدمها لفضح الهفوات البشرية ، الكبيرة والصغيرة ، والتنديد بها . لم يكن كاتبا اخلاقيا بكل معنى

الفرنسية صالحة للنقاش الفكري صلاحيتها للفن القصصي .

النهضة الأدبية

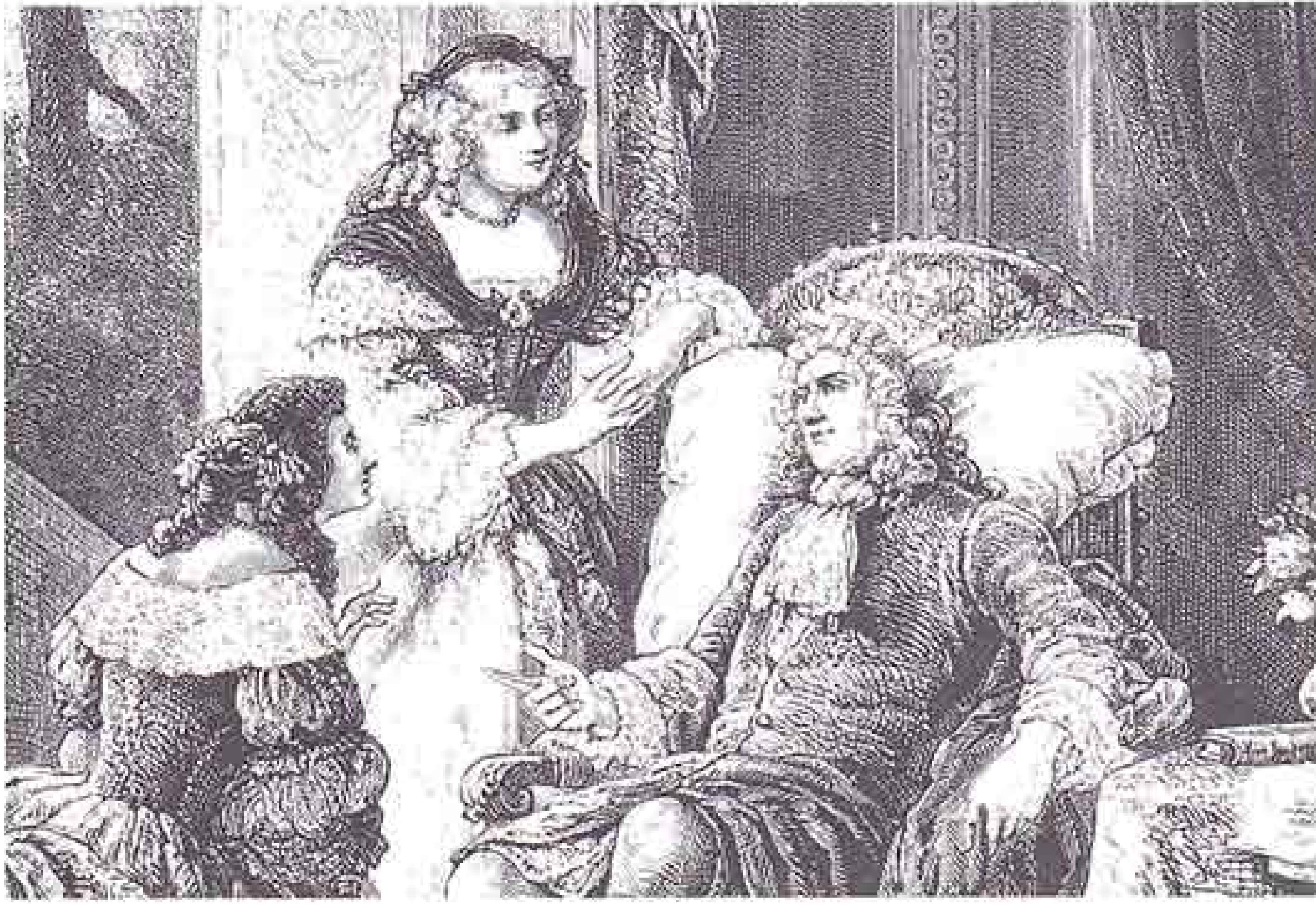
كانت روح « الانسانية » ، التي اقترنت بالنهضة ، قد أخذت بالتغلغل في الأدب الفرنسي . أدى ذلك بادىء الأمر الى اعتبار المؤلفين اليونان واللاتين بمثابة النماذج او المثل العليا ، كما اسفر عن عدد من الترجمات . استمر ذلك الوضع قائما حتى نشوء « الخلاف بين القدماء والمحدثين » في النصف الثاني من القرن السابع عشر .

اذا استثنينا نثر رابليه وكالفان ومونتين ، نلاحظ انه لم يظهر قدر يذكر من النثر الرفيع الشأن في القرن السادس عشر . اما في الشعر ، فقد ظهرت ابتكارات في غاية الأهمية ، أولا على يد مارو ، ثم على يد شعراء ليون . كان ممثل هؤلاء الرئيسي

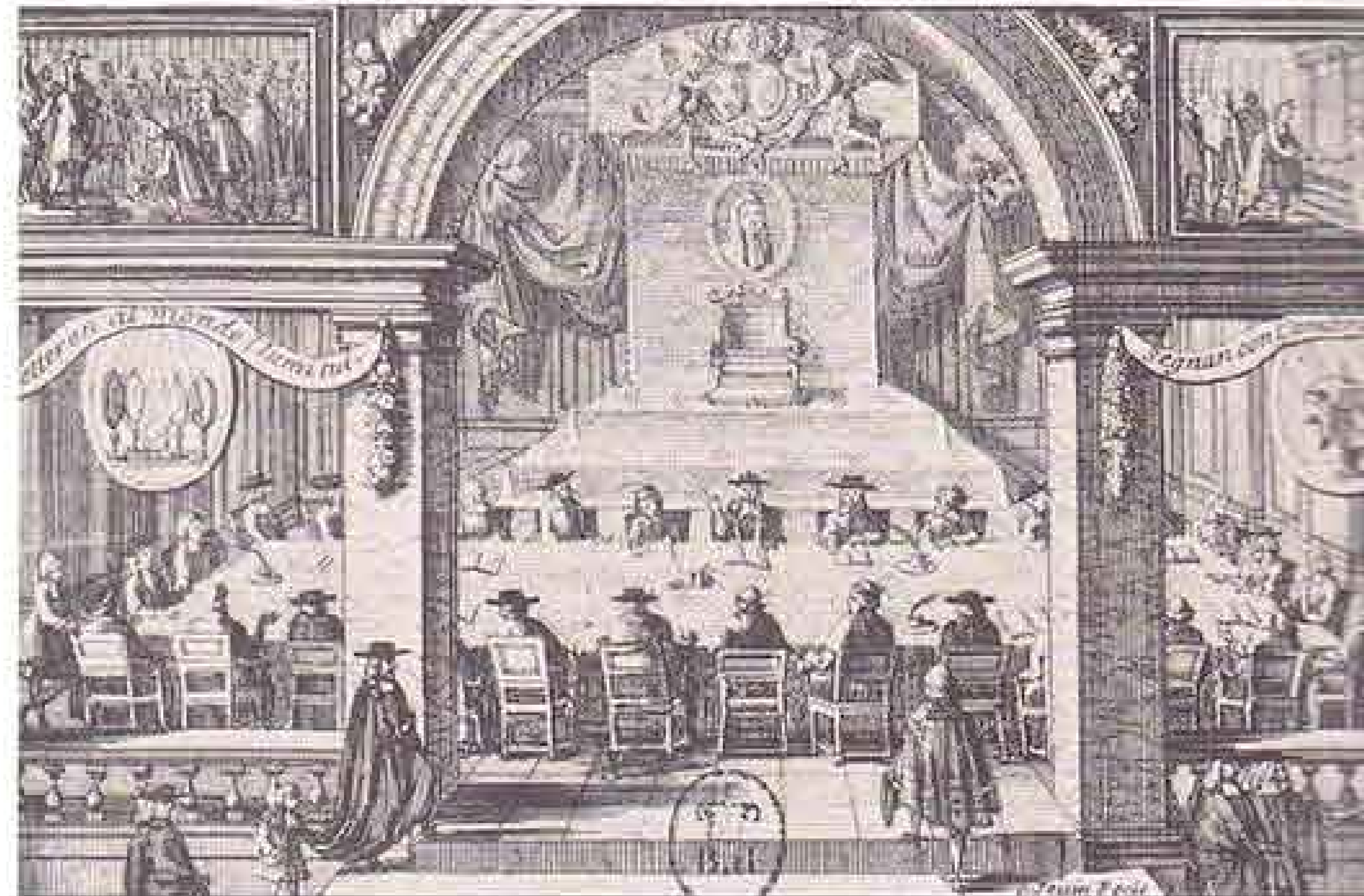
٤



٥



٦



الكلمة ، بل مراقبا ثاقبا للطبيعة البشرية والسلوك الاجتماعي ومؤلفا ساخرا .

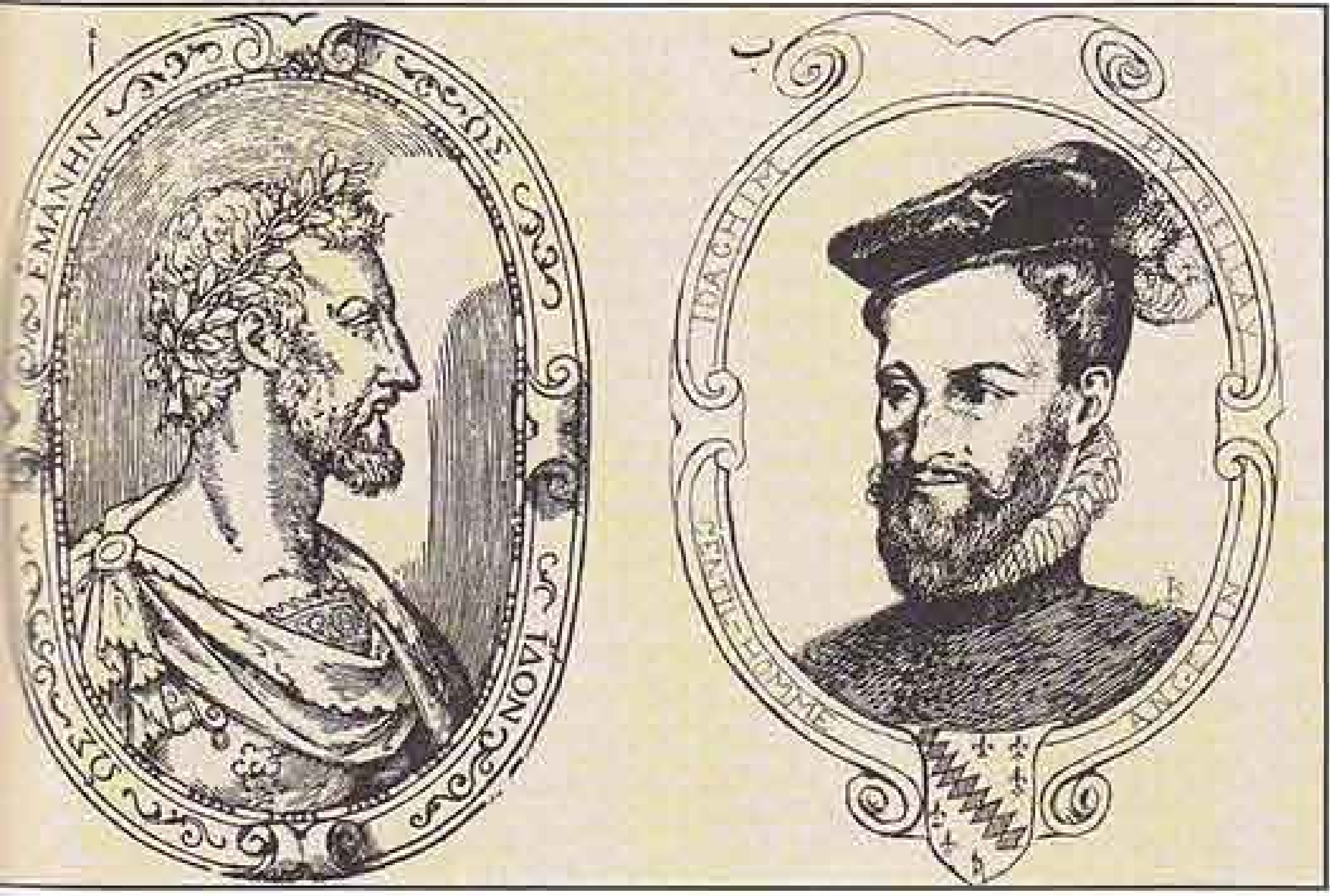
(٤) - يظهر هنا مشهد من مأساة راسين « فيدر » . حقق راسين الكمال الدرامي الكلاسيكي (بالتزام القواعد الارسطوطالية الثلاث الخاصة بوحدة المكان والزمان والحدث) ، ومع ذلك لم يضح بأي ناحية سيكولوجية . مسرحياته تهز النفس هزا عميقا ، وايقاعاته الشعرية البليغة تسمو بالعواطف .

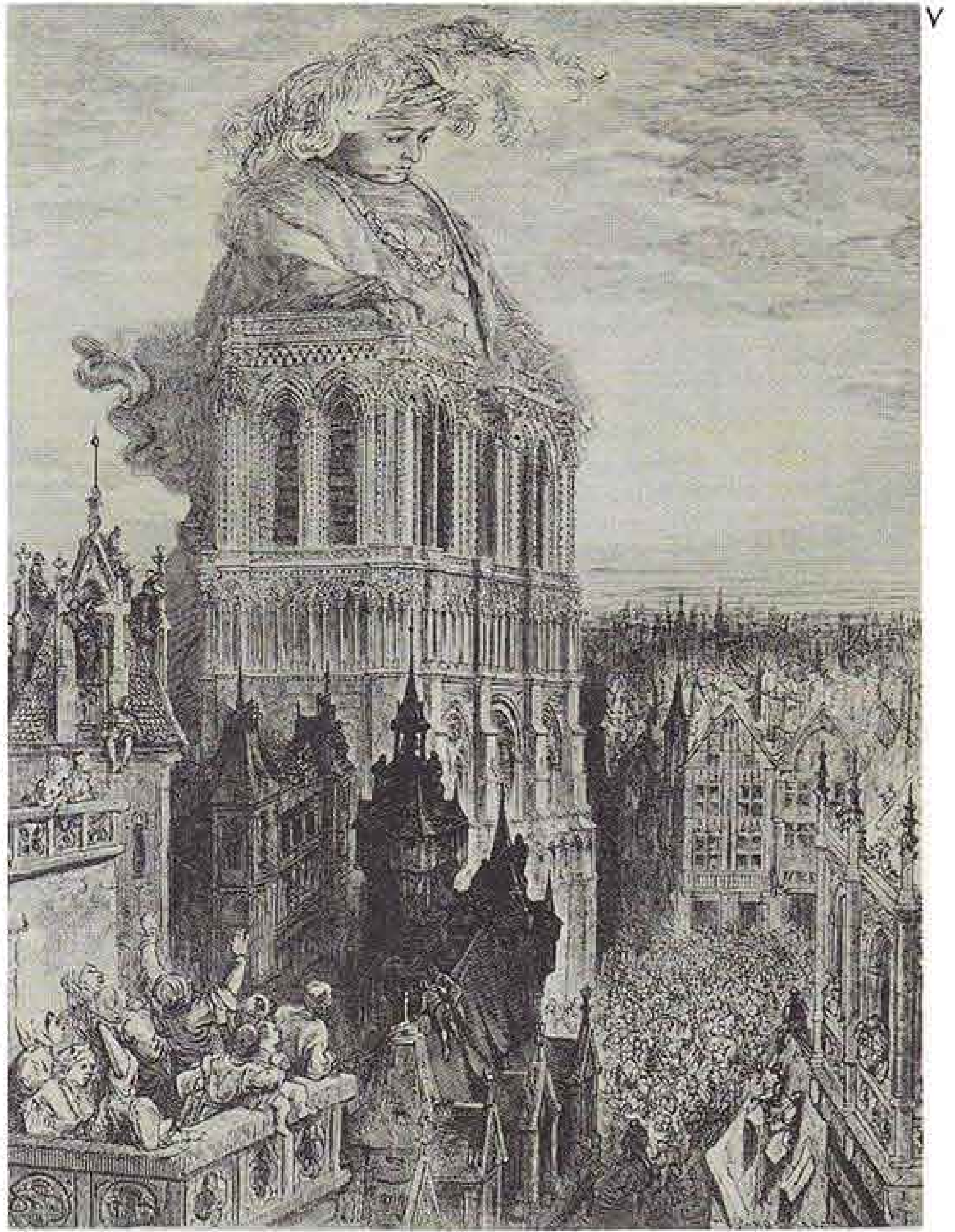
(٥) - تمثل الروائية مدام دي لافاييت (الى اليسار) ، والكاتبة الدقيقة الملاحظة مدام دي سيفينيي ، والكاتب الأخلاقي لاروشفوكو ، ثلاثة اتجاهات كبرى في التأليف الفرنسي في القرن السابع عشر . يجب ان نلاحظ ايضا ان الثلاثة كانوا من الارستقراطيين ، اذ كان الادب احتكارا ارستقراطيا تقريبا .

(٦) - أسس « الاكاديمية الفرنسية » الكاردينال ريشيليو ، بعد أن راح بعض الكتاب يعقدون الاجتماعات سرا (١٦٣٠ ؟) للبحث في المواضيع الأدبية . كان غرضها تحسين اللغة الفرنسية لا يصالها الى حد الكمال .

موريس سيف (١٥١٠ ؟ ـ ١٥٦٤) ، الذي قامت رائعته المعقدة « ديلي » (١٥٤٤) الى حدّ كبير على تقليد بترارك . لكن سيف اعتبر رائدا مبتكرا من قبل جماعة « البلياد » ، وهي مجموعة من الشعراء (ريمي بيلو وجان انطوان دي بيف واتيان جوديل وبونتوس دي تيّار وجاك بيليتيه ، فضلا عن بيير دي رونسار وجواكيم دو بيلاي (٨)) ، اقتبسوا اسمهم من اسم لكوكبة من سبعة نجوم كان قد اطلق من قبل على سبعة من مشاهير الشعراء اليونان في عهد بطليموس الثاني بالاسكندرية .

كان هدف شعراء البلياد رد الاعتبار الى الشعر الفرنسي ووضع اللغة الفرنسية على قدم المساواة مع اللاتينية واليونانية والايطالية كأداة شعرية ، فكانت روح المجموعة بالطبع كلاسيكية . في وقت لاحق ، انقلب شاعر البلاط فرانسوا دي ماليرب (١٥٥٥ ـ ١٦٢٨)

٨


٧


(٧) ـ في هذه الصورة ، التي رسمها غوستاف دوري « لجرجنتويا وبنتاجرويل » (١٥٣٢ ؟ ـ ١٥٥٢) بطلي رابليه ، يظهر جرجنتويا قابعا فوق كاتدرائية نوتردام . سنة ١٥٣٠ تخلى رابليه عن حياة الرهبنة واصبح طبيبا . كان معاصروه ينظرون اليه بالدرجة الاولى كطبيب لامع وانساني . تغير نتاجه مع الايام . في الكتابين الاولين لهذه القصة ، حكاية غريبة عن اسرة من العمالقة ، يتخللها نقد لاذع لرجال الدين واساليب التعليم في ذلك الزمان ؛ الكتاب الثالث اكثر واقعية وجدية ؛ أما الرابع فأشدها تعقيدا . كان رابليه واقعيا ، يؤمن بالأهمية المتساوية لجميع بني البشر . مهد كتابه ، العظيم على رغم تفاوت اجزائه ، لعدد من مشاكل روائيي القرن العشرين . قيمة رابليه لا تضارع ، ككاتب وكرسام لزمانه .

---

(٨) ـ كان ألمع أعضاء مجموعة البلياد بيار رونسار (أ) وجواكيم دوبيلاي (ب) . وضع دو بيلاي بيان هذه المجموعة في كتابه « الدفاع عن اللغة الفرنسية وابراز محاسنها » (١٥٤٩) . كانت نصيحته للمؤلفين ، خذوا النماذج اليونانية واللاتينية والايطالية لكي تجعلوا الفرنسية « عظيمة وذائعة الصيت » ، استحدثوا الفاظا جديدة لاثراء اللغة ، واستخدموا الاشكال القديمة والايطالية ، وانبذوا اشكال العصور الوسطى ، وفوق كل شيء ، توخوا الكمال الشكلي . أما رونسار ، فكان اعظم انجازه في ميدان الشعر الغنائي ، وفي اتقانه للقصيدة المرسلة والغزلية .

على أهداف البلياد ، لتعقدها وتقعرها المفرطين ، ولكنها كانت قد طبعته بطابعها ، مما يرينا كم أثرت في تطور الشعر .

« القدماء » و « المحدثون »

كان القرن السابع عشر قبل كل شيء عصر الكلاسيكية ، مع ان الروح الفردية لم تجتث بكاملها منه . فالتعميات حول الكائنات البشرية كانت تستمد من التحليل الدقيق لنفسية الأفراد ، لكن التصرفات الشاذة لم تكن مستحبة . وكان السعي مستمرا لجعل اللغة الفرنسية لغة الكمال ، فأدى ذلك الى تأسيس « الأكاديمية الفرنسية » (٦) .

في غمرة المعركة بين « القدماء » و « المحدثين » ، تزعم « القدماء » نيقولا بوالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١) ، بينما تزعم « المحدثين » الشاعر جان ديماري (١٥٩٦ ـ ١٦٧٦) والشاعر شارل بيرو (١٦٢٨ ـ ١٧٠٣) الذي كان شاعرا وناقدا اشتهر خاصة بقصصه الخرافية (١٦٩٧) . كانت محاسن التقليد الصارم للنماذج الكلاسيكية تقارن بمحاسن اكتشاف الافكار الجديدة والتقدمية . في آخر الأمر ، اعترف بوالو (١٧٠٠) لبيرو بأن المؤلفين الفرنسيين المعاصرين اذا اقرّوا بالفضائل الكلاسيكية ، فانهم يستطيعون مضاهاة أي من المؤلفين القدماء .

الدراما والنثر

ازدهر الشعر في الدراما المأساوية (مع ان كبار المأساويين ألفوا الكوميديات أيضا) أولا على يد بيير كورناي (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) الخطابي الاسلوب ، ثم على يد جان راسين (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) (٤) المحلل الرقيق للعواطف . رفع موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣) (٢) الكوميديا الى ذروة الكمال ، كما أجاد في القصة الخرافية لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) (٣) .

أما الرواية ، وهي نتاج انتشار القراءة والكتابة والرغبة في الترفيه (لاسيما بين رواد الصالونات الأدبية) ، فانها تبدأ بالحقيقة برواية « لاستري » (١٦٠٧ ـ ١٦٢٧) لهونوري دورفي (١٥٦٧ ـ ١٦٢٥) ، مع أن رابليه كان مع سرفانتيس ، اب الرواية الفعلي . « لاستري » عبارة عن قصة ريفية طويلة ، تتسم بشيء من الواقعية السيكولوجية ، والطابع الأخلاقي الواضح . ألفت احدى المعجبات بها ، ماري دي لافاييت (١٦٣٤ ـ ١٦٩٣) (٥) ، أول رواية فرنسية عظمى ، هي « اميرة كليف » (١٦٧٨) .

يكمل صورة العصر التي رسمها كبار المؤلفين ، كتبة الرسائل والأخلاقيون وواضعو الامثال والحكم والمؤلفات الدينية . من هؤلاء : ماري دي سيفينيي (١٦٢٦ ـ ١٦٩٦) (٥) ، التي ترسم رسائلها الانثوية الذكية ، عن باريس كمركز للثقافة ، صورة لا تضارع في حيويتها ودقتها ؛ فرنسوا دي لاروشفوكو (١٦١٣ ـ ١٦٨٠) (٥) ، الذي بلغت « حكمه » ذروة السخرية في الكشف عن ماهية الدوافع الحقيقية لتصرفات الانسان ؛ بليز باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) ، العبقري الرياضي الذي دافع في كتابه « الافكار » (الذي وضعه قبل وفاته بقليل ، ولكنه لم ينشر الا فيما بعد) عن تلك الفئة من الكاثوليك المتدينين التي كان لها تأثير كبير وعرفت بالجانسينية ، ممهدا بذلك لرواج « اللهجة المنفتحة » للنقاش الديني الحديث .

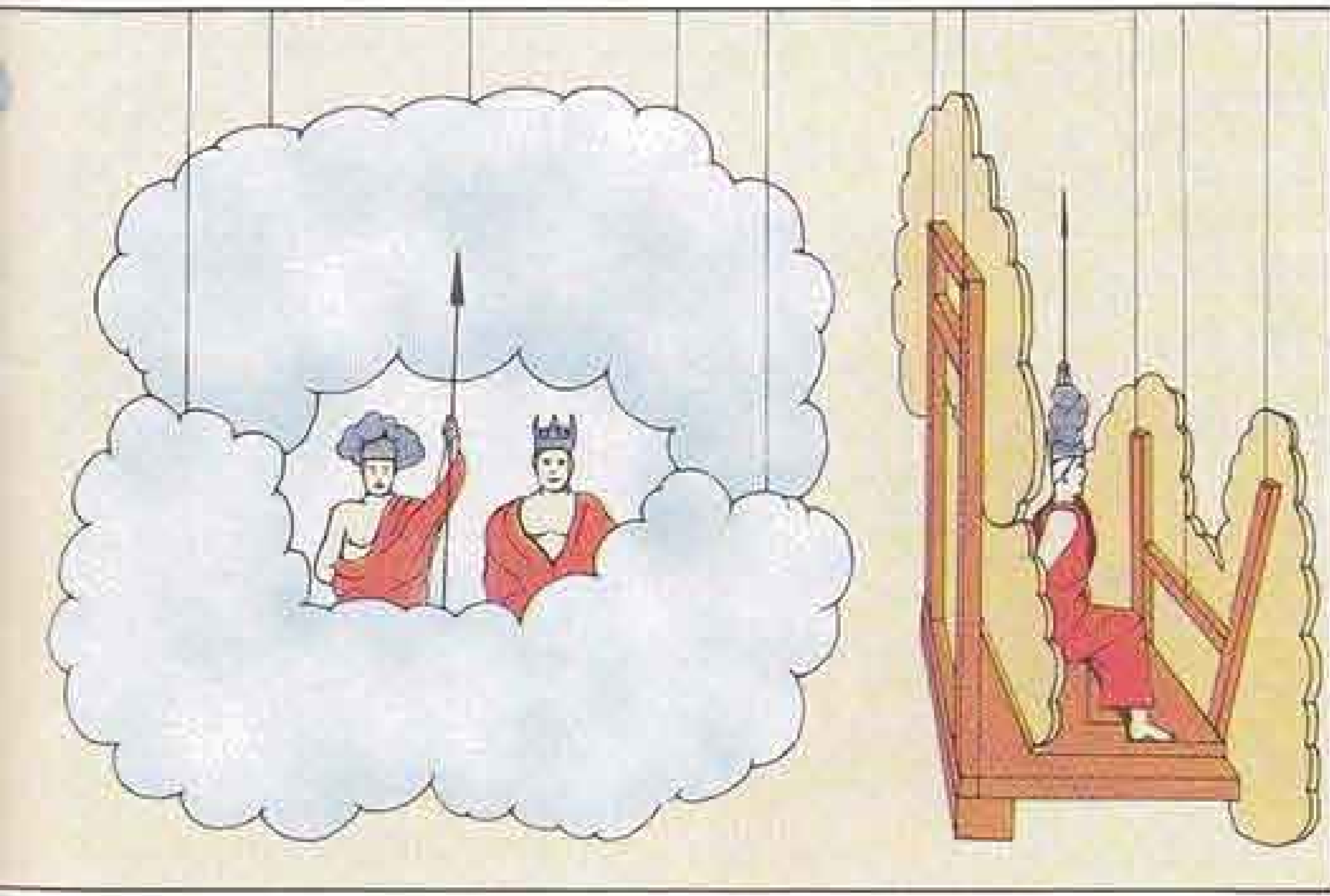
نشأة الأوبرا

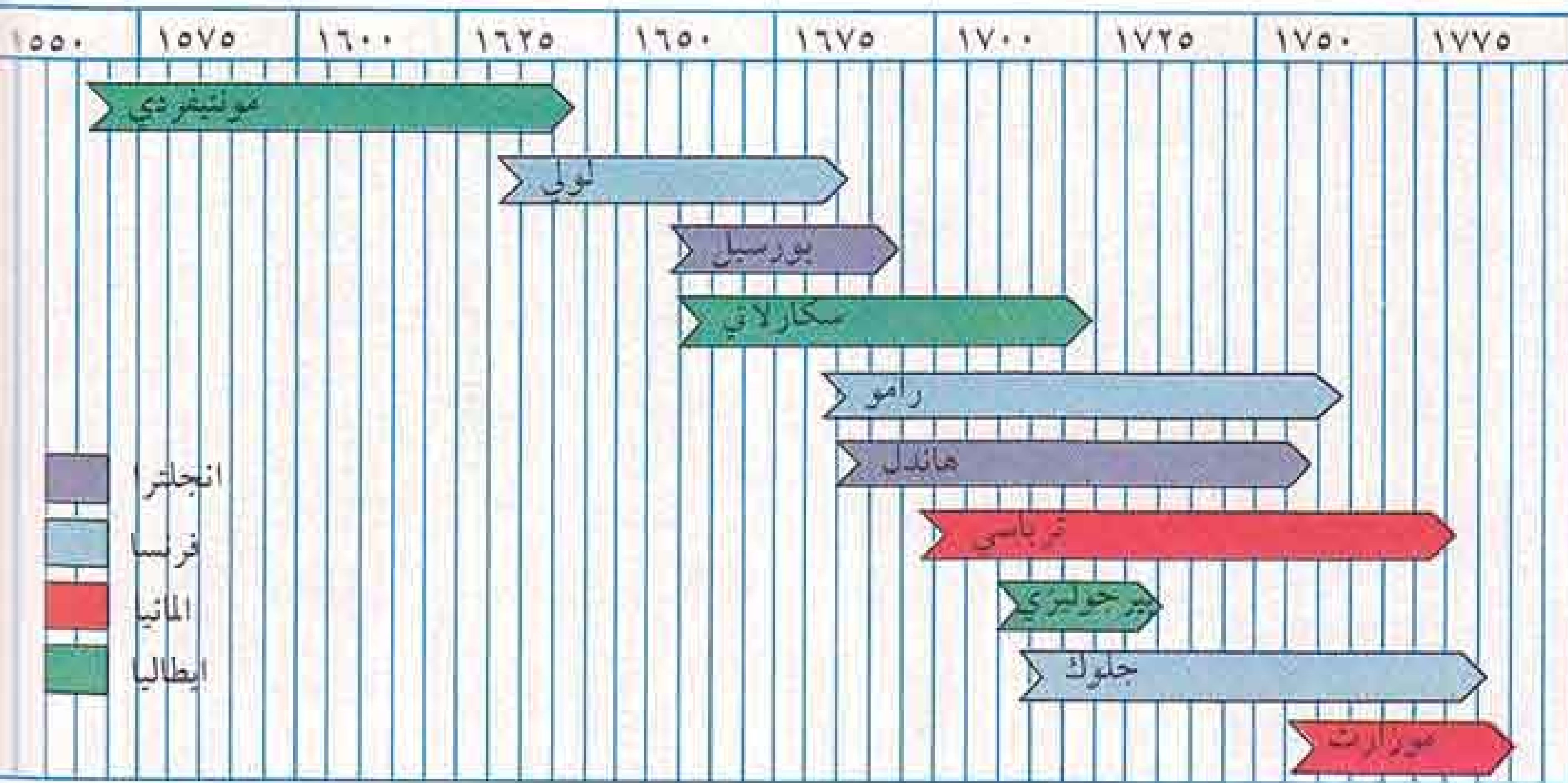
انبثقت الاوبرا عن ثلاثة مصادر مختلفة، واستتب لها الامر في ايطاليا حوالى ١٦٠٠. فقد تأثرت «التمثيليات المقدسة»، وهي مسرحيات دينية ترافقها الموسيقى وتعرض في الغالب باللغة الدارجة، باستعراضات البلاط الرائعة، التي كانت تقام في غضون القرن الخامس عشر للاحتفال بأيام الأعياد والميلاد الملكي. في الوقت ذاته، كانت هناك أناشيد غزلية وأغان متعددة الاصوات تنعم بشعبية كبيرة، وكان ينظم عقدها أحيانا لتروى كقصة متسلسلة.

بزوغ شكل الاوبرا

استنبطت فن الاوبرا من القصة المنشودة

١ 

٢ 

٣ 

(١) - من أولى دور الاوبرا دار الكاردينال باربيريني، التي بنيت في قصره بروما سنة ١٦٣٢. كانت اول اوبرا جرى تمثيلها هناك، وهي «سان أليسيو» بقلم لاندي، خارجة عن العرف من عدة نواح، اذ انها عالجت اسطورة ترقى الى القرن الخامس عشر، عوضا عن موضوع كلاسيكي، كما حوت مشاهد هزلية. فتحت اول دار اوبرا تجارية ابوابها في البندقية سنة ١٦٣٧، وفي السنوات الستين اللاحقة تأسس في البندقية وحدها أكثر من ١٦ دارا أخرى للأوبرا. كانت هذه الدور الباكرة في منتهى الفخامة، وكانت مجهزة بجميع

اشكال الآلات المسرحية المبتكرة.

---

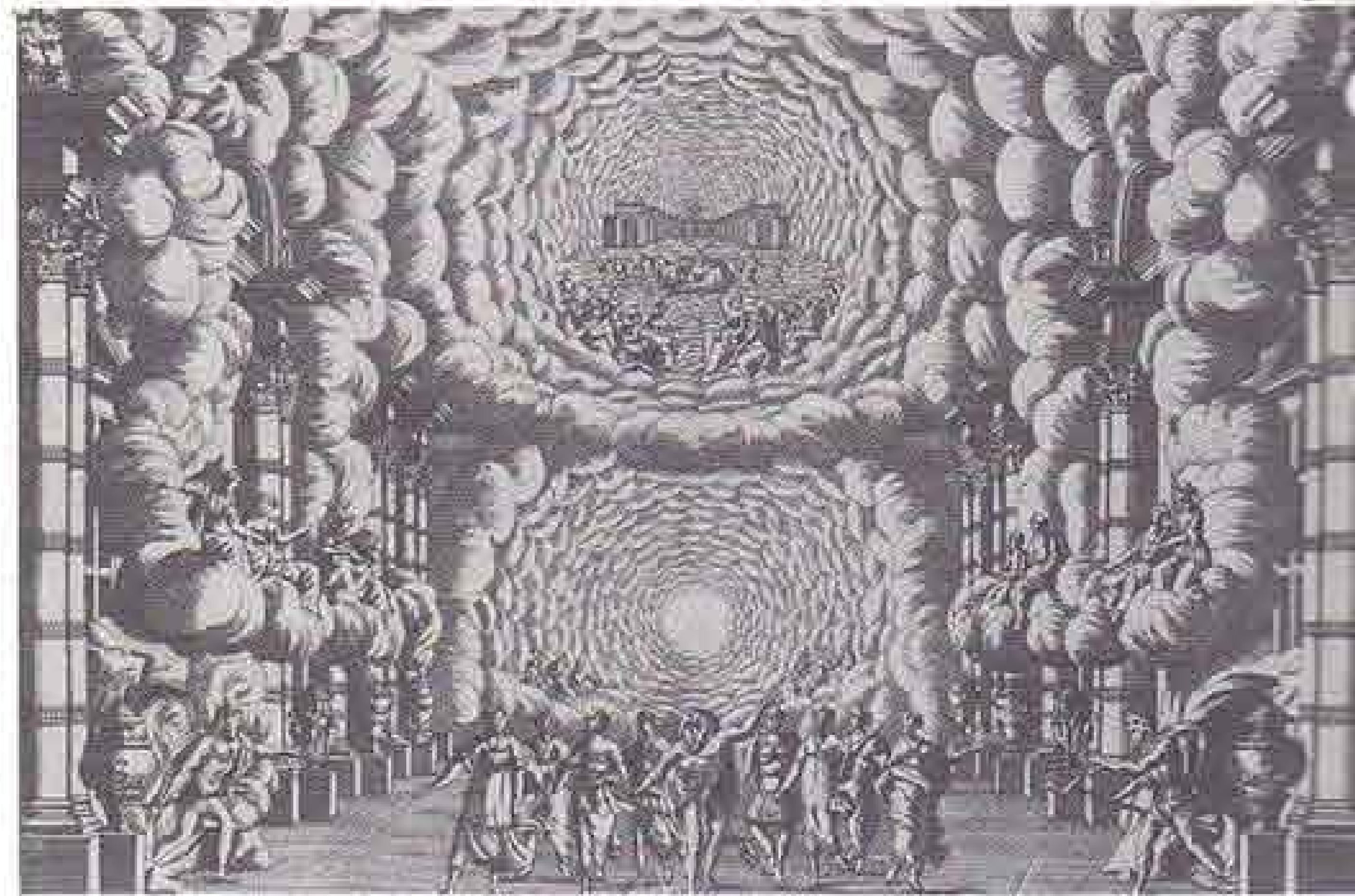
(٢) - كانت بعض التأثيرات المسرحية الباكرة تتم ببساطة ومهارة عظيمتين. ففي عام ١٦٣٨ ألف نيقولا ساباتيني، التي كانت اجهزته المبتكرة رائجة الاستعمال، مقالة مصورة حول «ميكانيك» المسرح يتبين منها انه على الرغم من التقدم التقني الحديث، فمن المشكوك فيه ان يكون المخرجون الحاليون قد استطاعوا منافسة مشاهد بعض التمثيليات الباكرة. أدى انبعاث الاهتمام بموسيقى القرن السابع عشر حديثا الى الاهتمام مجددا باخراج الاوبرا.

(٣) - في الرسم اسماء لبعض كبار المؤلفين الذين وضعوا أسس الاوبرا او طوروها. يلاحظ ان مركز نمو الاوبرا منذ بدايتها هو ايطاليا، فتحول اولا الى فرنسا، ثم أخذ

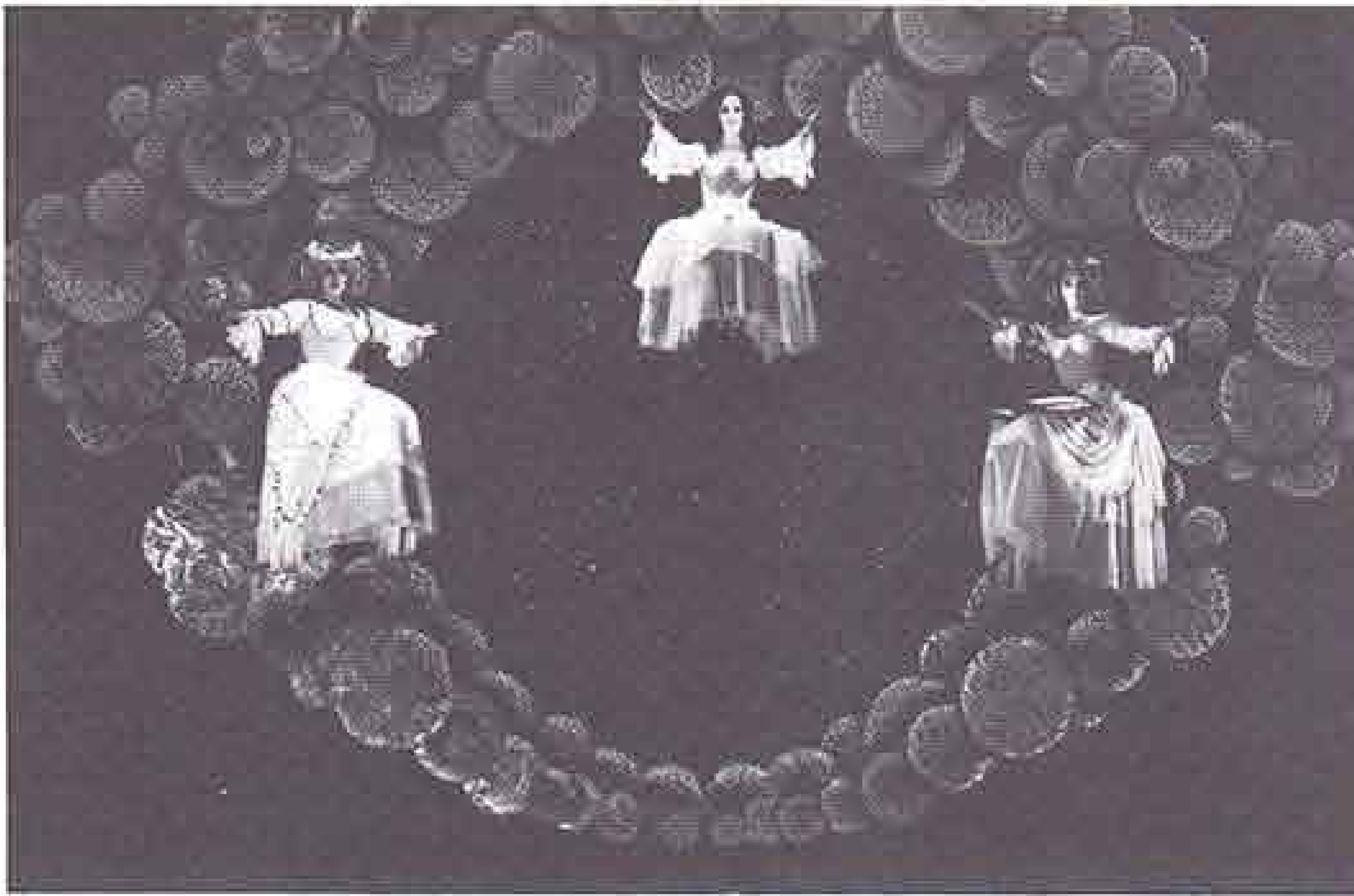
والمشهد والدراما جماعة « الكاميراتا » ، وهي مجموعة فنانين تأثروا بدور الموسيقى في الدراما اليونانية الكلاسيكية . ابتكرت « الكاميراتا » اولا اسلوب السرد ، وهو اسلوب للغناء الالقائي تربط فيه النبرات الصوتية المختلفة بالانغام والايقاعات . وكانت ترافق السرد اصلا موسيقى الهاربسيكورد وحدها ، وكانت الغاية من ذلك ابراز معنى الكلمات .

اقتبس إمام الانشودة الغزلية العظيم ، كلوديو مونتيفردي (٩) اسلوب السرد الشكلي ، ولكنه جمع بينه وبين اسلوب الانشودة ليضع قاعدة « للآريا » التي كانت تتخلل السرد . فضلا عن ذلك استخدم مونتيفردي اوركسترا صغيرة ، ونمّق اللحن المنشود بوصلات وحيل موسيقية أخرى ، ليزيد في قدرة الشكل على التعبير . من المسلم به ان « اورفيو » (١٦٠٧) وهي من وضعه ، كانت أول رائعة اوبرا .

٤



٥



٦



٧



يستقر فيما يبدو في المانيا ، مع ان جلوك ألف أهم مؤلفاته « الاصلاحية » في باريس . في القرن الثامن عشر . كثر الانصباب على الانتاج مما أدى الى الازدهار في فن الاوبرا .

(٤) - استعمل الآلات السحابية جاكومو توريلي (١٦٠٨ - ١٦٧٨) ، أشهر تقنيي المسرح في أيامه . تظهر في المسرح الأدنى الراقصات . أما الأعلى فيضم الاوركسترا .

(٥) - جرى تمثيل حديث لاوبرا « لاكاليستو » لكافالي في جلايند بورن في ساسكس ، فحاول فيه المخرج خلق الجو المسرحي الذي ساد خلال تمثيلها للمرة الاولى ، جاعلا ظلال الأرواح تحوم فوق المسرح وتهبط من الشقوق او السماء ، كما جعل الشياطين تدخل من خلال منافذ واقعة تحت المسرح . ساعد الالتزام بهذه القواعد في الاخراج العصري لبعض الآثار على بعث الاهتمام ببعض المؤلفات التي طال العهد على اغفالها .

(٦) - كان هنري بورسيل لاعب ارغن في كنيسة وستمنستر ، وقد ألف موسيقى للمسرحيات والحفلات المقنعة ، كما ألف قدرا من الموسيقى الكنسية الرائعة وعددا من الاغاني . كانت اوبراه الحقيقية الوحيدة ، « دايدو واينياس » ، اول رائعة من هذا النوع اخرجت في انجلترا ، وقد كتبت لكي تمثل في مدرسة للاناث في تشيلسي . تأثر بموسيقاه عدد من المؤلفين في القرن العشرين ، امثال تيبات وبريتين .

(٧) - اشتهر جورج فريدريك هندل عالميا « بصلاته » الانجليزية الكبرى بعنوان « المسيح » ، مع انه ألف عددا كبيرا من الاوبرات مثل « سيرس » و « ألسينا » .

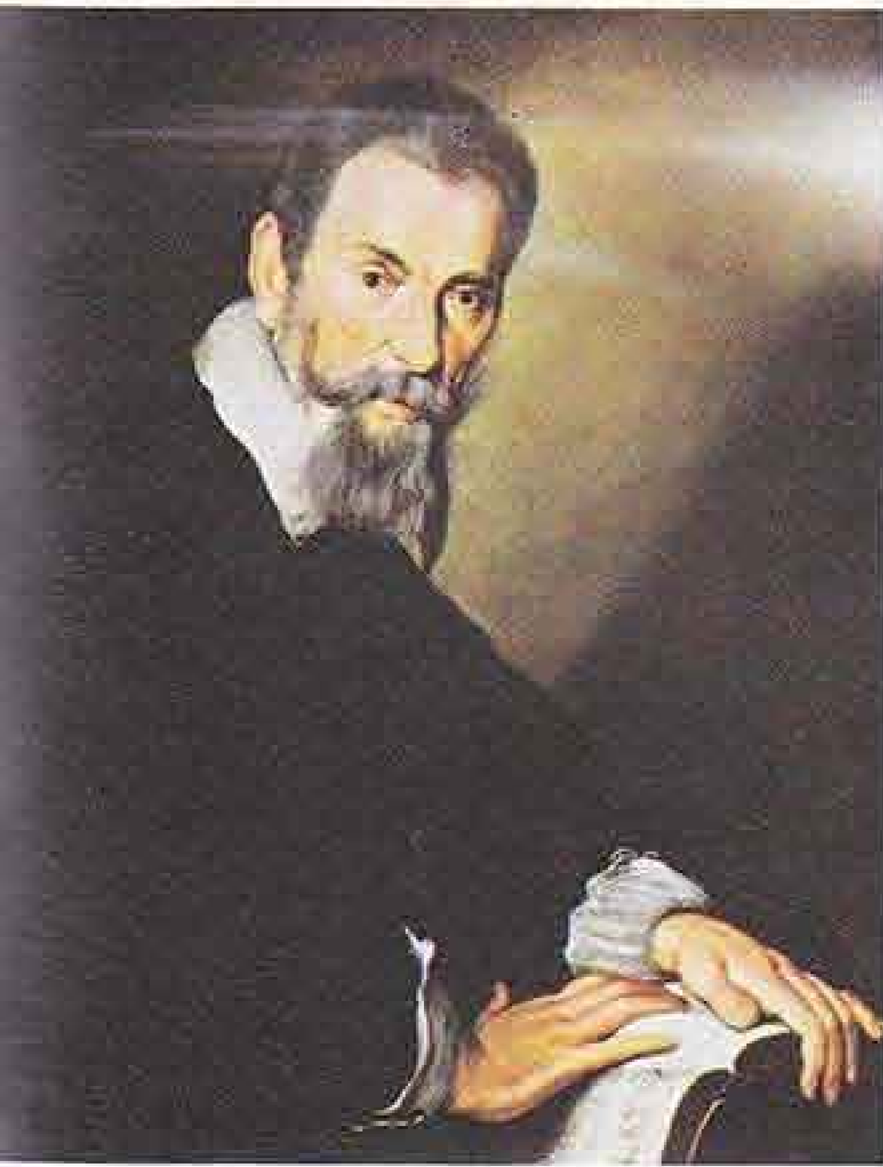
بحلول ١٦٣٧ ، استتب الأمر للأوبرا كشكل دنيوي من اشكال الترفيه في فلورنسا ، وافتتحت في البندقية اول دار للأوبرا . كانت دور الاوبرا الباكرة مجهزة بآلات معقدة لخلق تأثيرات مسرحية خارقة (١ ، ٢ ، ٤ ، ٥) .

انتشار الاوبرا

حمل الاوبرا الى فرنسا الزواج الملكي بين ايطاليا وفرنسا ، فاصبحت فيها فيما بعد موضوعا لجدل كان يدور حول أي منهما أهم ، الكلام ام الموسيقى . عدل الايطالي جان باتيست لولي (١٦٣٢ ـ ١٦٨٧) الاغنية السردية لتتناسب مع ايقاع اللغة الفرنسية الفريد ، مقدما للبلاط الشغوف بالرقص والموسيقى أعماله الاوبراتية . ثم استخدم جان فيليب رامو (١٦٨٣ ـ ١٧٦٤) ، الذي خلف لولي لدى البلاط الفرنسي ،



(٨) ـ كان فولفجانج أماديوس موزارت ولدا اعجوبة ، اجتذبه المسرح في مطلع حياته . كان قد ألف قطعا موسيقية للمسرح عندما كتب ، وهو في الثانية عشرة من العمر ، اول اوبرا هزلية من وضعه ، « لافينتا سمبليشي » ، تلا ذلك في الصيف ذاته سنة ١٧٦٨ الاوبريتا « باستيان اوند باستين » ، وبعد ذلك بفترة طويلة ، أدت صداقته مع الممثل والمغني ومدير المسرح ايمانويل شيكينيدير (١٧٥٢ ـ ١٨١٣) الى تعاونهما في المسرحية الغنائية الشعبية « المزمار السحري » التي مثلت لأول مرة سنة ١٧٩١ .



(٩) ـ ولد ابو الاوبرا كلوديو مونتيفردي (١٥٦٧ ـ ١٦٤٣) في كريمونا ، حيث كان يعمل مغنيا في جوقة الخورس . ألف ما ينيف على ٢٥٠ اغنية غزلية ، جاءت رائعة في نوعها ، وقد استخدم فيها تناغمات جديدة شديدة التعبير . دلت اول اوبرا وضعها ، « اورفيو » ، على قدرته على صهر التقليد الصوتي والتقليد الآلي السائدين في زمانه في بوتقة النشيد السردي الجديد . سيم كاهنا سنة ١٦٣٢ والف كثيرا من الموسيقى الكنسية ، بما في ذلك « صلوات السماء » الشهيرة . وصلنا عدد قليل فقط من الشواهد على انتاجه الهائل في باب الاوبرا ، وهي تشمل أورفيو و « قتال تانكرد وكلورندا » و « عودة أوليسايوس » ، و « تتويج بوبيا » . خلقت هذه المؤلفات مشاكل عدة للعلماء ، ولكنها اليوم معروفة على نطاق واسع ، وان في نسخ مختلفة ومتباينة .



(١٠) ـ كان كارلو فارينلّي (١٧٠٥ ـ ١٧٨٢) اشهر مغنّي السوبرانو الطليان (الخصيان) . يقال ان النساء في فيينا ولندن كن يغمى عليهن من التأثير لدى سماعه .

الجوقة والاوركسترا معا ليخلع على الاوبرا روعــة وزهـوا جـديديـن . كـانت النظـرة الفرنسية الى الاوبرا أدبية بالدرجة الاولى ، تضع الدراما فوق الموسيقى في الأهمية .

في ايطاليا كان من شأن ازدياد الموارد الموسيقية وتقدم تقنية الصوت الذي اصبح ينافس الكمان خفة وحركة اجتذاب الجمهور أكثر فأكثر الى الاوبرا ، فانصب اهتمامه عليها . اعطت اعمال اليساندرو سكارلاتي (١٦٦٠ ـ ١٧٢٥) الشكل النهائي لآريا « دي كابو » أي آريا الرأس (المؤلفة من ثلاثة اجزاء الأخير منها عبارة عن تكرار للأول) وللافتتاحية .

أما الاوبرا الانجليزية ، فقد انبثقت عن حفلات البلاط ، وان تباطأت في اقتباس الاشكال الموسيقية الجديدة . لكن هنري بورسيل (١٦٥٩ ـ ١٦٩٥) توصل بنجاح الى جعل اللغة الانجليزية تتناغم مع « الموسيقى الالقائية » الجديدة ، وتعتبر قطعته « دايدو واينياس » اول اوبرا انجليزية حقيقية (٦) .

لسوء الحظ ، لم تثابر هذه النبتة على النمو في هذا الاتجاه ، بل بالعكس ، هيمن على الاوبرا الانجليزية واحد من اوائل المؤلفين العالميين حقا ، جورج فريدريك هندل (١٦٨٥ ـ ١٧٥٩) .

كانت فيينا الموطن الحقيقي للاوبرا المتواصلة . كانت الأناشيد السردية فيها تستعمل بشكل متقطع لتروي القصة ذات التأثير السامي على النفس اذ كانت تتخللها الآريات المنمقة والمتكررة في أكثر الأحيان . كان صاحب التأثير الاكبر في الاوبرا المتواصلة بييترو تراباس (١٦٩٨ ـ ١٧٨٢) المعروف بمتاستاسيو .

من جلوك الى موزارت

كان خريستوف فيليبالد جلوك (١٧١٤ ـ ١٧٨٧) ، وهو من بوهيميا وعمل في فيينا وباريس ، المصلح الاكبر بعد هبوط شعبية « الاوبرا المتواصلة » . توخى البساطة والصراحة في مؤلفاته ، وقد تجلتا في اوبراه « اورفيو ويوريديتشي » .

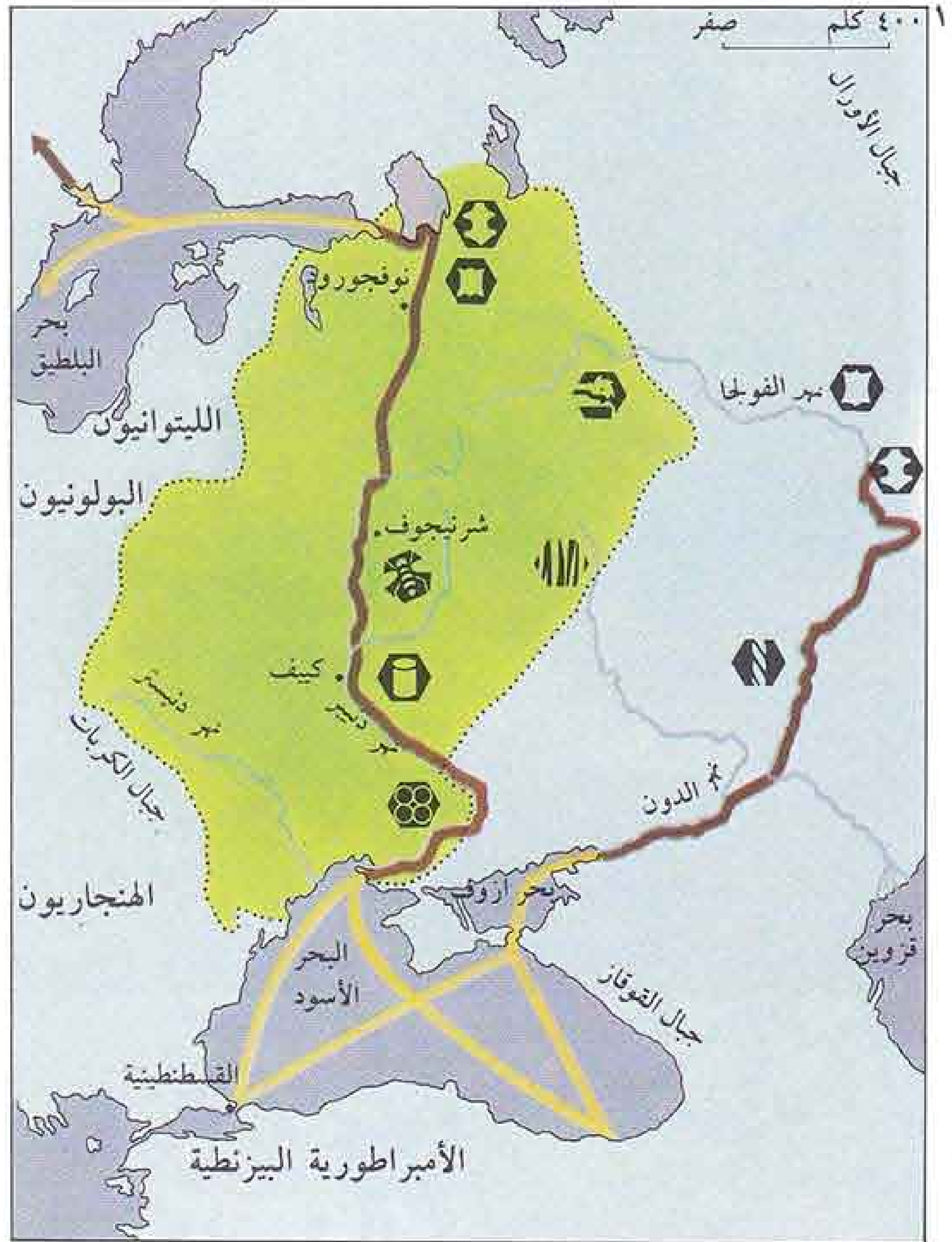
لم تلعب الكوميديا دورا يذكر في الاوبرا حتى ذلك التاريخ ، مع ان ادخال فواصل هزلية كان شائعا في ايطاليا . ظهرت « الاوبرا الهزلية » بكل معنى الكلمة سنة ١٧٣٣ ، عندما قدم جوفاني باتيستا برجوليزي (١٧١٠ ـ ١٧٣٦) « السيدة الخادمة » على المسرح . كانت الاوبرا الهزلية تتطلب نوعا موسيقيا أخف مع سرد القائي اسرع وألحانا بسيطة واوركسترا براقة .

جاءت جميع هذه الأشكال ممثلة خير تمثيل في انتاج فولفجانج اماديوس موزارت (١٧٥٦ ـ ١٧٩١) . كانت مؤلفاته الكبرى « زواج فيجارو » « وكوزي فان توتي » « ودون جوفاني » ، عبارة عن مزيج يبهر الآذان من انماط متلاحمة لخلق كائنات موسيقية درامية عظيمة . توصل بفضل تحكمه بالأوركسترا الضخمة ، واتقانه للمجموعة الصوتية ، وموهبته النغمية ، وحسه الثاقب في علم النفس ، الى رفع الاوبرا الى ذرى جديدة ، كذلك حوّل « المسرحية المغناة » الشعبية الى فن رفيع في « المزمار السحري » .

أرست اوبرات موزارت الأساس للتطورات الموسيقية في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهي الحقبة التي اصبح فيها الانفصال بين الاوبرا الالمانية والايطالية من حيث الأسلوب نهائيا (٨) .

روسيا في العصور الوسطى

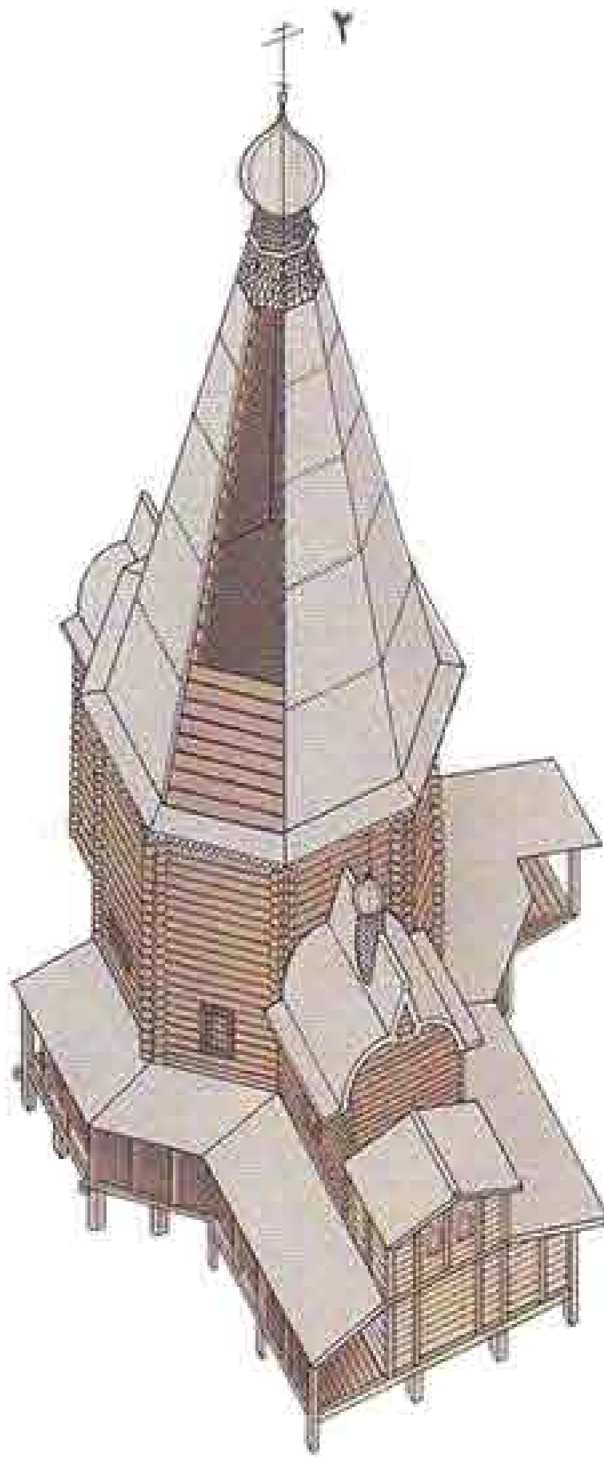
انبثقت أول دولة روسية عن المستوطنات السلافية الواقعة الى الشمال الشرقي من بيزنطة الاوروبية ، بين القرنين السادس والتاسع للميلاد . كان السلاف الروس قد احتلوا منطقة واسعة من الارض تحدها الجبال الكارباتية وبحر البلطيق ومنابع أنهار الفولغا والدون والدنيبر والدنيستر . وفي مطلع ٨٠٠ ، استولى محاربون تجار شرسون من الفايكنج ، يعرفون بالفارنجيين ، على هذه المنطقة ، وأقاموا حلفا من الدول ـ المدن القائمة فيها ، مركزه كييف ويحكمه أمير كييف الاكبر . لكن الطبقة السلافية الحاكمة امتصت الامراء الفارنجيين ، وأنشأت تجارة رابحة مع القسطنطينية (١) ، وخلافا لاقتصاد المقايضة



(١) ـ كانت التجارة أساسية للاقتصاد الكييفي . فقد استمدت كييف أهميتها من موقعها على الطريق التجارية الدولية التي كانت تربط بين بحر البلطيق والمتوسط ، وهي الطريق المائية بين الفارنجيين وبيزنطة . كانت القوافل السنوية الكبرى تطفو على نهر الدنيبر ، وتصل عبر البحر الأسود الى القسطنطينية . في العاصمة البيزنطية ، كانت منتوجات الغابات الروسية ، لاسيما الفراء والعسل والشمع ، تقايض بالتوابل والخمور والعطور والاسلحة . كان الجنود يحرسون الطرق النهرية ضد الرحل .



(٢) ـ نشأت نماذج معمارية محلية في القرى الروسية ، حيث كانت للظروف المحلية ، كتوافر الخشب مثلا ، تأثير أكبر في بناء الكنائس مما كان للنماذج البيزنطية . تعتبر كنيسة سيدة فلاديمير بيلايا سلودا نموذجا حيا لهذا الاسلوب .



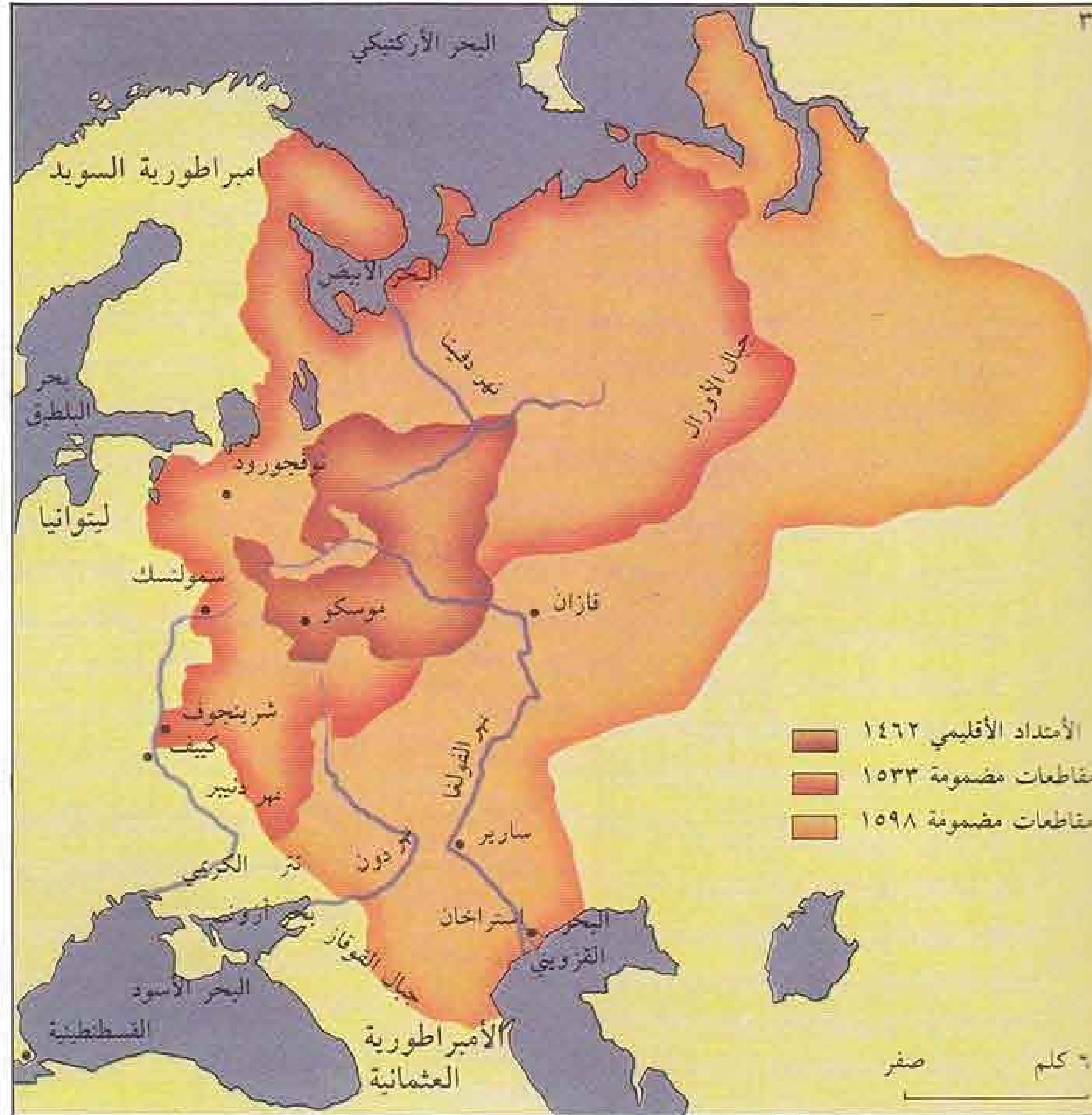
(٣) ـ ساعد على امتداد الامارة الموسكوفية (التي تأسست في منتصف القرن الثاني عشر) انعدام عقبات جبلية داخل روسيا الاوروبية . بحلول ١٤٥٢ ، سيطرت موسكو على منابع الأنهار الكبرى التي تصب في البحار الابيض والأسود والقزوين والآزوف . اجتاح أيفان الثالث وفاسّيلي الثالث نوفجورود (١٤٧٨) وسمولنسك (١٥١٤) ، ووطّد أيفان الرابع سيطرته على

الشائع في الغرب في العصور الوسطى، استخدمت أنظمة العملة والقروض، فأنشأت بذلك حضارة تجارية مزدهرة.

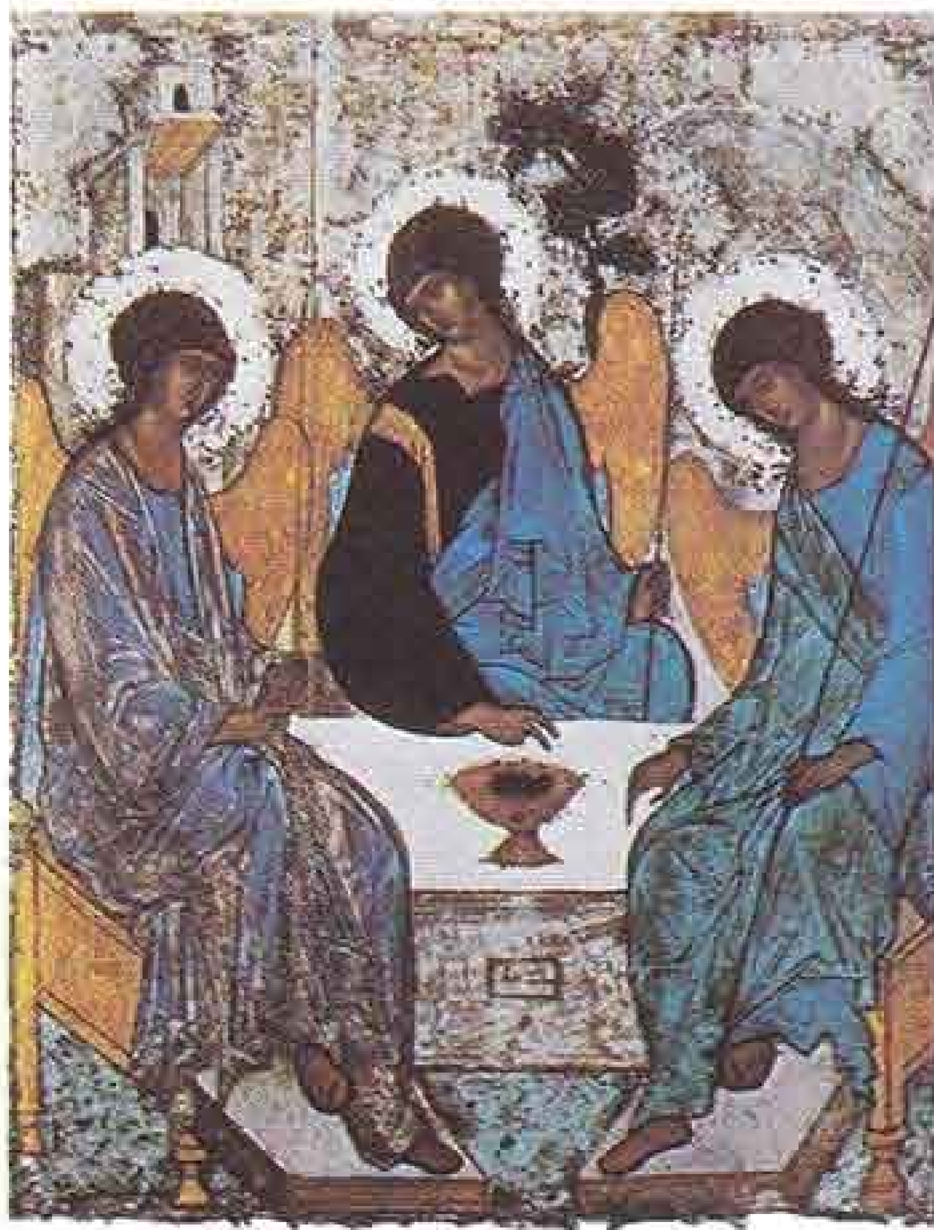
التأثير البيزنطي في روسيا الكييفية

بحلول ١١٠٠، أصبحت روسيا الكييفية، بفضل ثروتها التجارية واحتكاكها بالامبراطورية البيزنطية، دولة قوية ومركزا لحضارة يافعة. ثم تقبلت من القسطنطينية، شريكتها التجارية الرئيسية، التراث الثقافي للمسيحية الاورثوذكسية، فأدخل المبشرون الطقوس الاورثوذكسية بلغة كانت قائمة على الألفباء الكيريلية، فأصبحت أساس اللغة الروسية الحديثة. جعل الأمير الاكبر فلاديمير الأول (٩٥٦ ؟ - ١٠١٥) العقيدة الاورثوذكسية دينا رسميا للدولة، واستحضر مطرانا من القسطنطينية لاقامة الجهاز الكنسي اللازم، فازدهرت هندسة البناء

٣



٤



٥



مناطق واقعة على نهري الدون والفولجا، ووسع المناطق الروسية عبر جبال الأورال.

(٤) - بلغ فن رسم الايقونات الموسكوفي أوجه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. قام برسم أشهر رائعة في هذه الفترة، وهي «ثالوث العهد القديم» حوالى ١٤١١ اندريه روبليف (١٣٧٠ ؟ - ١٤٣٠)، وهو أعظم رسامي الأيقونات الروس.

(٥) - انبثقت طبقة البويار في العهد الكييفي عن التزاوج بين الفارنجيين والارستقراطية السلافية. تبين هذه المنحوتة الخشبية من صنع ميخائيل بيترلي (١٥٧٦) موكبا من البويار والتجار في بلاط مكسيميليان الثاني في النمسا.

البيزنطية (٧) وشاع رسم الأيقونات .

كانت المؤسسات الروسية السياسية والاجتماعية تختلف بصورة واضحة عن نظيراتها الغربية . فقد استطاعت هنا عناصر حكومية ثلاثة أن تتعايش . فكانت أسرة ريوريك الحاكمة مضطرة لاقتسام السلطة على الصعيد القومي مع مجلس من الاشراف (الدوما) ، وعلى الصعيد المحلي مع مجالس ريفية (فيتشر) . كان الامراء واقرباؤهم يحتلون رأس النظام الاجتماعي ، وتليهم طبقة « البويار » (٥) المؤلفة من التجار والجنود والملاكين ، ثم طبقة الفلاحين الملاكين ، ثم المزارعون المستأجرون ، فالعبيد . لم يكن القانون الكييفي يعترف بفروق طبقية ، وكان معظم المواطنين متساوين أمام القانون .

في غضون القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تأثرت روسيا تأثرا عميقا بأحداث كانت تجري خارج حدودها . فقد كان لتوسيع أهل

دينيا ودنيويا . كان فلاديمير أحد الحكام الكييفيين الذين انتشر اسمهم كأبطال شعبيين .

٦



٧



٨

(٧) ـ بدأ بناء كاتدرائية صوفيا ، بكييف ، سنة ١٠٣٧ ، خلال حكم الأمير الاكبر ياروسلاف (« الحكيم » ، حوالى ١٠٣٦ ـ ١٠٥٤) . كانت هذه الكاتدرائية احدى الكنائس الروسية الأولى الكبرى المستوحاة من بيزنطة ، وغدت نموذجا لعدد لا يحصى من الكنائس الاورثوذكسية .

(٨) ـ أيفان « الرهيب » كان مستحقا لهذه التسمية . فقد رافقت طفولته مرحلة من المكائد البلاطية والنزاع المفتوح بين البويار . كان لتعرض ايفان الصغير لهذه المجابهات ، التي كثيرا ما آلت الى اشكال الخنق والمطاردة في أرجاء القصر ، أثر أكيد في اعاقة نموه الخلقي . ففي الثالثة عشرة من العمر ، قبل اعتلائه العرش بأربع سنوات ، أمر بقتل البويار الرفيع المستوى ، اندريه شويسكي . وفي أواخر عهده قتل ابنه في شجار بينهما . ولكن سواء أكان ذلك بسبب تجربته الطفولية أو جنونه او مرض في سلسلته الفقرية او المحاولات المدروسة للقضاء على سلطة البويار ، فان حكم ايفان كان استبداديا .

(٦) ـ كان تاج فلاديمير مونوماخ (الحاكم الأوحد) (١٠٥٣ ـ ١١٢٥) هدية من الامبراطور البيزنطي . اكتسبت الفكرة القائلة ان هذا التاج يخلع الحق بالخلافة الامبراطورية على الاسرة الروسية مزيدا من الرواج أثناء فترة اليقظة القومية في القرن الخامس عشر . دعم ذلك الاعتقاد مطالبة موسكو بحقها في خلافة القسطنطينية المحتلة

البندقية للطرقات التجارية ، ولغزوات القبائل الآسيوية ، وتقهقر بيزنطة ، وظهور دولة بولونيا الليثوانية ، وقيام الامبراطورية المغولية ، دور فعال في تفكيك دولة كييف الى جانب الصراع السياسي والرئاسي الداخلي . نتيجة لذلك ، أخذت الروابط الروسية مع القسطنطينية تنحل ، والقوة الاقتصادية للدولة الكييفية تتراجع . واستطاعت مدينة نوفجورود العظيمة بديمقراطيتها التجارية وأراضيها الداخلية الغنية ، تحقيق استقلالها . الا ان روسيا الغربية وقعت تحت السيطرة البولونية الليثوانية (وبالتالي الكاثوليكية الرومانية) ، كما وقعت روسيا الشرقية تحت نير الامبراطورية المغولية التي كانت آخذة في الاتساع بسرعة بقيادة جنكيز خان (١١٦٧ ـ ١٢٢٧) وخلفائه .

بروز موسكو الى حيّز الوجود

في ظل الحكم المغولي ، أصبحت امارة موسكو (موسكوفي) ذات شأن لأول مرة في تاريخها ، ثم ما لبثت ان بسطت سلطتها على معظم المناطق التي تؤلف روسيا الاوروبية اليوم . كان أدواق موسكو الكبار ، الذين تحدروا من فرع من فروع الريوريك ، جباة الضرائب في ساراي (مركز قيادة المغول الغربية على الفولجا الدنيا) ، ثم اصبحوا ، سواء عن طريق المعاهدات او الغلبة او الشراء او التزاوج السياسي ، يملكون أكبر رقعة من الارض (٣) ، الى أن توصلوا الى قيادة التحالف الذي طرد المغول آخر الأمر .

تطور الملكية القومية

بين ١٤٦٠ و ١٦٠٠ ، ضاعفت موسكو حجمها وقوتها ، واقتبس حكامها أبهة الملكية القومية . ثم وجه أيفان الثالث (العظيم) (١٤٤٠ ـ ١٥٠٥) ، في عدد من الحملات الديبلوماسية والعسكرية البارعة ، ضربة قاصمة الى الامبراطورية المغولية المتداعية سنة ١٤٨١ ، وذلك بعد ان اقام تحالفا مع عدد من الاتحادات المغولية ، وأخذ ينظر الى مملكته ، التي كانت قد حصلت على استقلالها حديثا ، كوريثة للامبراطورية البيزنطية المنهزمة منذ قليل . تزوج صوفيا ابنة أخت آخر الاباطرة ، واقتبس النسر البيزنطي ذا الرأسين كرمز ملكي . ثم جاء بعده ايفان الرابع (« الرهيب » ، ١٥٣٠ ـ ١٥٨٤) ، فاجتاح أراضي ليثوانية ومغولية جديدة ، وتوج نفسه قيصرا (تسار) على جميع انحاء روسيا (٨) .

ساعد سقوط القسطنطينية في يد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ على انشاء كنيسة روسية اورثوذكسية مستقلة . انتقل مركز الكنيسة من كييف الى موسكو في القرن الرابع عشر ، وأخذ نمط روسي متميز في العمارة (٢) والرسم (٤) يظهر حوالى ١٥٨٩ ، عندما أقسم أول بطريرك روسي أورثوذكسي اليمين .

تدين روسيا الحديثة بطابعها السياسي والاجتماعي لموسكو ، لا لكييف . فقد تحولت الدولة الروسية ، بعد ان توحدت على أساس اقتصادي مركنتيلي ، الى دولة زراعية ، وبينما كانت الاقطاعية آخذة في الزوال في الغرب ، كانت جذور العبودية تمتد في موسكوفي . لكن مما عقد المشكلة انه لم تنشأ طبقة من سكان المدن أو المزارعين المستقلين تكون قادرة على وضع حد لسلطة التاج .

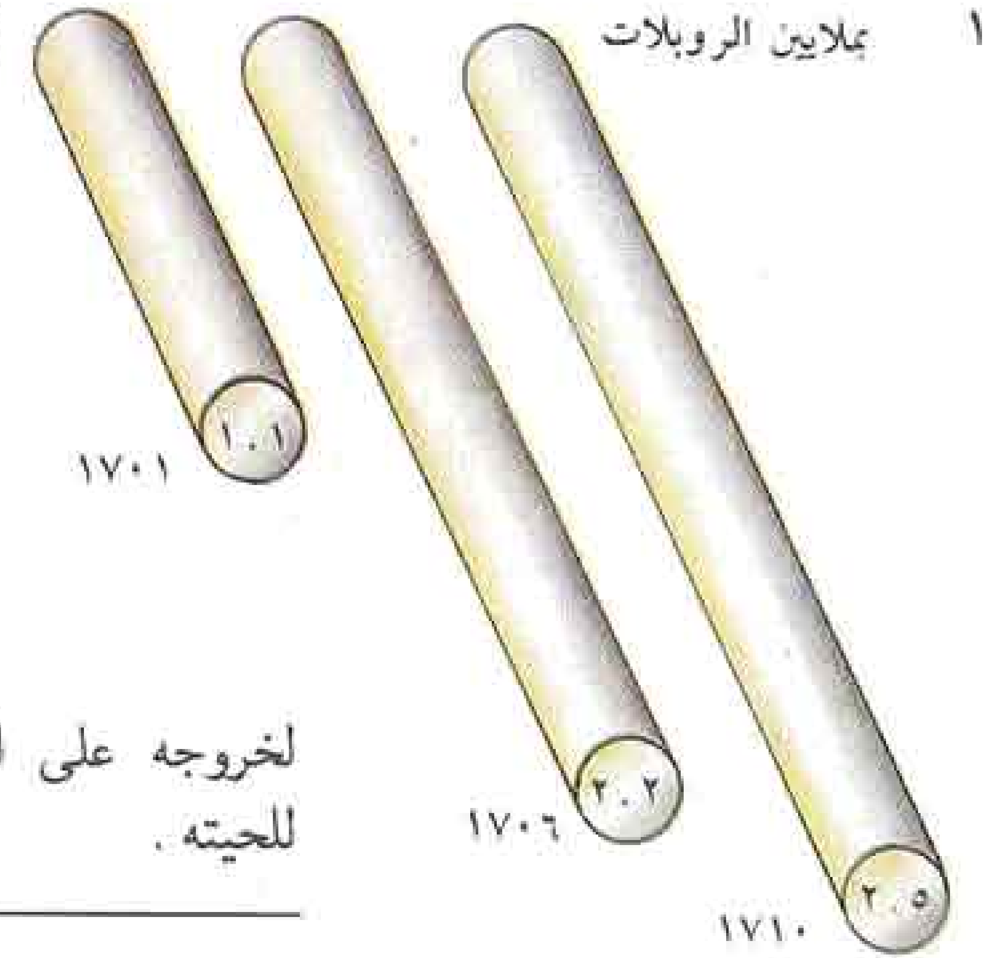
ظهور روسيا الحديثة

شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر تحول روسيا من مملكة متوسطية الى دولة عصرية قوية . فقد تضاعف عدد سكانها من ١٥ مليونا الى ٣٥ مليونا ، واستولت على اراض كانت تخص السويد وبولونيا وليتوانيا وتركيا حتى غدت أكبر دولة اوربية في القرن الثامن عشر (٦) . كذلك جهزت لها جيشا واسطولا عصريين وادارة مدنية مركزية . تمّ هذا التحول العظيم في الدرجة الأولى على يد بطرس الأكبر (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥) وكاترين الكبرى (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦) (٨) .

التوسّع العسكري والاقتصادي

تحقق توسع روسيا الاقليمي بفضل جيش

١

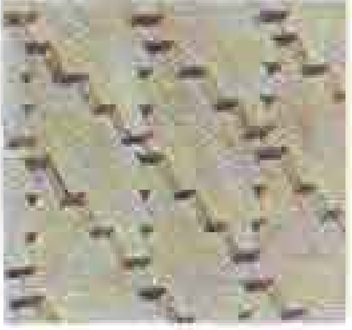


٢



٣


خارطة الكنيسة


تفاصيل الواح الحور المكبرة

(١) ـ طغت الحرب مع السويد على سياسات بطرس الأول . كان ثمن النصر نفقات حكومية متصاعدة جدا . فقد ارتفعت الميزانية للجيش والاسطول والمدفعية والخدمات الدبلوماسية من حوالى ١١٠٧٠٠٠ روبل سنة ١٧٠١ الى ما يناهز ضعفين ونصف سنة ١٧١٠ . من الأمور التي فرضت عليها الضرائب الجديدة البطيخ واللحى والحمامات الحارة والعيون الزرقاء . ارتفعت المداخيل الضرائبية ثلاثة اضعاف خلال حكم بطرس .

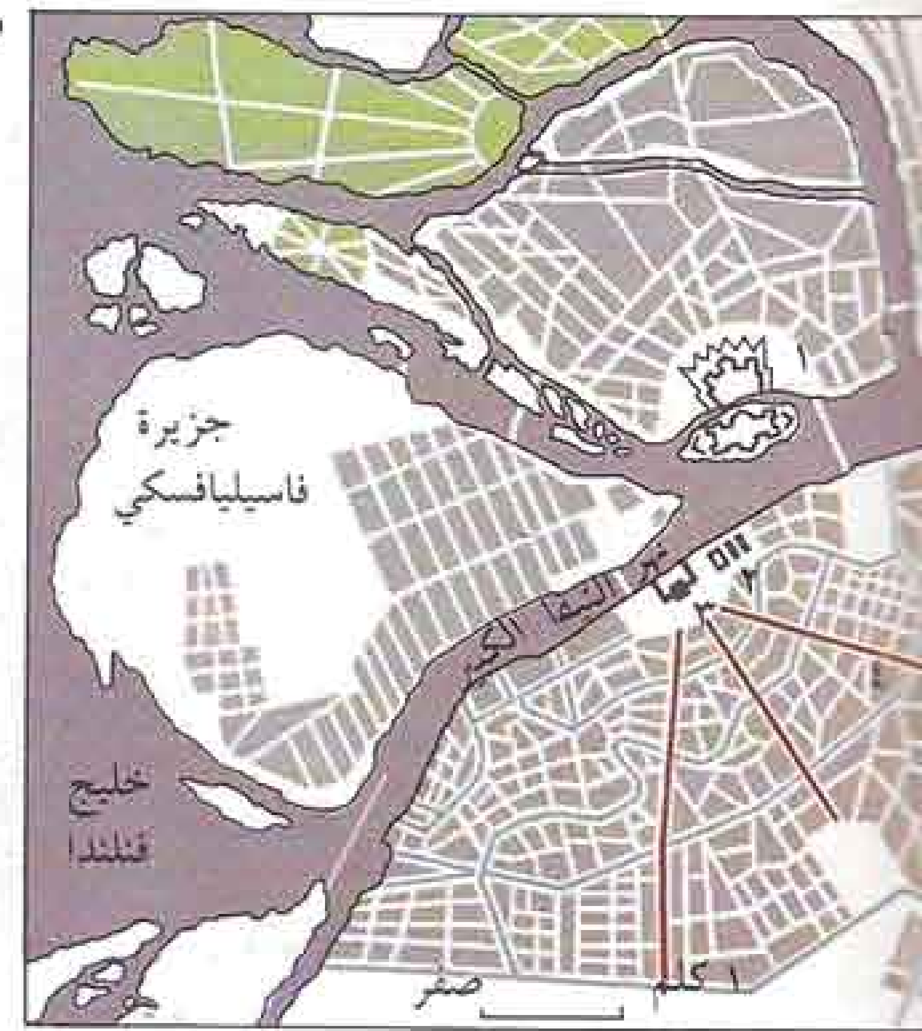
(٢) ـ أثار بطرس ، الذي رُسم على شكل هرّة في هذه الصورة الهزلية ، الكثير من العداء ، لخروجه على التقاليد وحلقه للحيته .

(٣) ـ كانت الثغرة الثقافية الكبيرة بين النخبة المثقفة وطبقة العامة أمرا طغى على تاريخ روسيا الحديثة . لا يمكن اعطاء دليل أوضح على ذلك من الفرق الظاهر بين مباني الباروك والروكوكو في سان بطرسبورج وبين هندسة الكنائس الخشبية المحلية ، التي كثيرا ما كانت رائعة بالرغم من ذلك ، كما نرى في « كنيسة التجلي » ، في جزيرة كيرهي في شمالي روسيا (١٧١٤) ، المتميزة بقببها الـ ٢٢ المصنوعة من الحور ووحدة التأليف بين اجزائها المنحوتة . كذلك كانت الحياة الريفية تستمر عقودا دون أن تتأثر بالتيارات الفنية والادبية

وأسطول جديدين قاما على الخدمة الاجبارية ، وجهزا باسلحة جديدة ، وقادهما ضباط مدرّبون . فبحلول ١٦٧٠ ، كان لروسيا أضخم جيش في أوروبا . لكن النموّ العسكري والتكاليف المتزايدة لادارة وتجهيز القوات المسلحة بالمدافع الخاصة أرهقت الاقتصاد والبنية الادارية المتوارثة من سلالة الريوريك ، فحمل ذلك الدولة على البحث عن موارد جديدة ، فتكرّرت المحاولات الرامية الى تحسين نظام جباية الضرائب (١) .

شجع حكام روسيا ، في حرصهم على زيادة الثروة الضريبية وسدّ حاجات الاسطول ، نمو التجارة والصناعة . فأزيلت حواجز التجارة بين الأقاليم (٧) ، واقيمت السوق على نظام قومي ، وازدادت التجارة الخارجية ، لاسيما مع بريطانيا وهولندا ، ابّان حكم كاترين الثانية ، من ٢١ مليون روبل الى ٧١،٣ مليون ، وذلك من جراء

٤



الشوارع الشعاعية المركزية
أقنية
الحدائق

١ ـ قلعة بطرس وبولس
٢ ـ القصر الشتوي
٣ ـ الأميرالية
٤ ـ ممر نفسكي

٥



٦



التي كانت تصل سان بطرسبورج من الغرب . فبينما كانت كاترين الثانية وأفراد حاشيتها يتكلمون الفرنسية ويعيشون في قصور على الطريقة الايطالية ، كان القروي يتكلم الروسية ويعيش في كوخ . وبينما كانت ثقافة الطبقات الحاكمة تصبح حديثة أكثر فأكثر ، بقيت الكنيسة تقدم النموذج الوحيد من الثقافة المدنية الذي كان متاحا للعامة.

(٤) ـ تأسست سان بطرسبورج سنة ١٧٠٣ فوق مستنقعات البلطيق . صادر بطرس بقساوة ما يربو على ١٠٠٠٠٠ عامل كل سنة لبناء المدينة . أصبحت سان بطرسبورج تعرف ، بفضل نظام اقنيتها وعمارتها الغربية ، « ببندقية الشمال » .

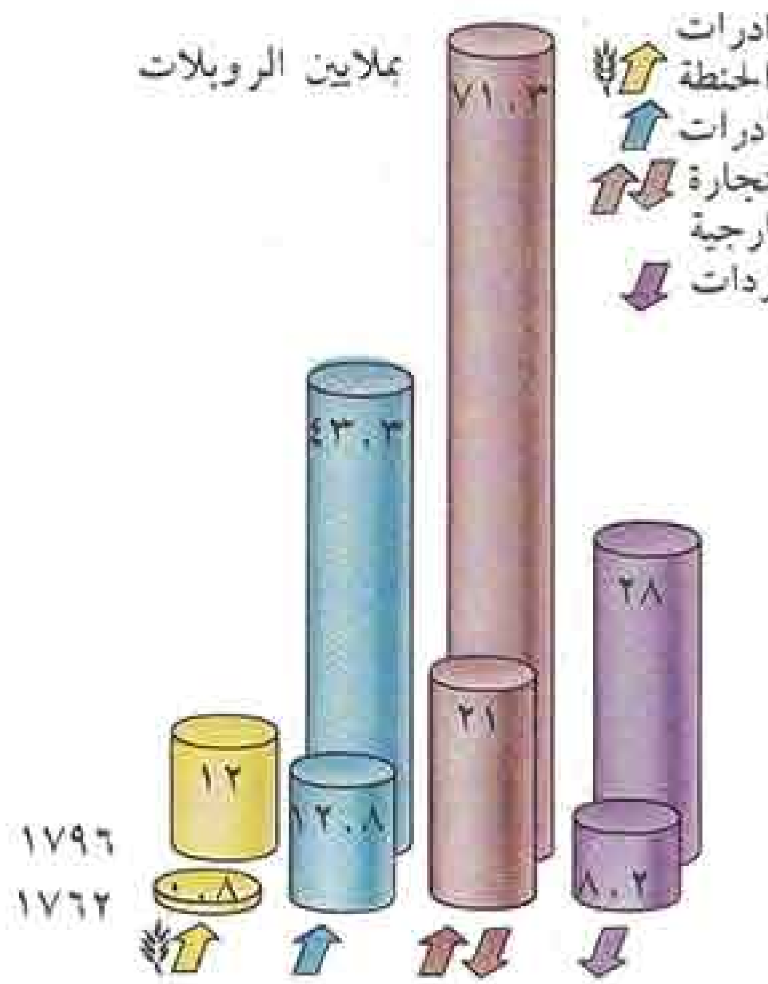
---

(٥) ـ كان نمط الروكوكو المزخرف هو المفضل في عمارة منازل ارستقراطيي القرن الثامن عشر في روسيا . تمثل الصورة « مائدة طعام الفرسان » الفخمة ـ وقد أعيد تصميمها الاصلي ـ في « القصر الكبير » في بوشكين .

(٦) ـ كان حرص آل رومانوف على الاستيلاء على مناطق واسعة جديدة جزاء لا يتجزء من رغبتهم غير المحدودة في الحصول على منافذ بحرية جديدة . بحلول ١٧٠٠ ، كانت روسيا اضخم الدول الاوروبية . ظفر بطرس بقطعة من الساحل البلطيكي بعد قرنين من القتال مع السويد . ضمت كاترين الثانية مناطق بولونيا وليتوانيا وجعلت روسيا تتاخم بروسيا والنمسا للمرة الأولى . كانت ثمرة الحرب مع تركيا ساحلا على البحر الاسود وحقوق العبور التجاري الى المتوسط .

---

(٧) ـ أدت سياسات كاترين



الاقتصادية الى توسع التجارة وتوظيف الأموال في روسيا . أثناء حكمها ، أزالت معظم الحواجز التجارية ، وكان النمو بالنسبة المئوية في الصادرات ٢٣٠ وفي الواردات ٢٥٠ .

حصول روسيا على موانىء غير متجمدة على بحري البلطيق والأسود .

الارستقراطية الجديدة

كان ازدياد ضخامة وتعقيد الشؤون السياسية يتطلب انشاء ادارة مدنية عصرية . فألغى تيودور الثالث (١٦٥٦ ـ ١٦٨٢) النظام الموسكوفي القائم على انتقاء الضباط العسكريين والموظفين الاداريين وفقا للمناصب التي كان يحتلها آباؤهم . وعجل بطرس الأول (الأكبر) في زعزعة أركان طبقة الأشراف العليا (البويار) باقامة جهاز اداري يديره موظفون محترفون مختارون من بين أبناء صغار الوجهاء . كذلك اقيمت الترقية في المناصب العسكرية والادارية على الكفاءة ، وكان كل من يترقى الى منتصف سلّم من ١٤ درجة يصبح شريفا بصورة آلية . وهكذا أصبحت رتبة الشرف ، نظريا ، شهادة

٨



٩



(٨) ـ كانت كاترين الثانية فيلسوفة روسيا الحديثة ومربيتها . بما انها كانت من درّاس كتب مونتسكيو وبلاكستون وصديقة لفولتير ، اعتبرت نفسها « طاغية متنورة » ، على غرار جوزف الثاني النمساوي وفردريك الثاني البروسي . لكن واقع السلطة أفسد معظم نوايا كاترين الطيبة ، مع انها أرست قواعد النظام المدرسي الروسي . ففي نهاية عهدها (١٧٩٦) ، كان ثمة ٢٢٢١٠ تلاميذ و ٧٦٠ معلما في ٢٨٨ مدرسة ابتدائية وثانوية . ومن نتائج عملها التثقيفي نشوء طبقة من المفكرين الروس في القرن التاسع عشر .

---

(٩) ـ كان بطرس الأول مسؤولا أكثر من أي شخص آخر عن تحويل النظام القيصري المتوسطي الطابع الى دولة روسية حديثة . كان يمتاز هو وكاترين الثانية ، عن سائر افراد اسرة رومانوف ، بالذكاء الحاد وثبات التصميم . كانت أفضال بطرس على تحديث روسيا عديدة : فقد أعاد بناء الجيش على أساس دائم ، وكوّن الاسطول ، وأصلح النظام الضرائبي ، ووسّع التعدين والصناعة ، وأعاد تنظيم الادارة المدنية . يرمز تمثاله الذي أمرت بصنعه كاترين الثانية ، وأقيم في ساحة مجلس الشيوخ في سان بطرسبورج ، الى قوة بطرس الهائلة ، كما انه يرمز الى سياسته باتجاهه نحو الغرب .

على حسن خدمة الدولة .

أنشأ بطرس الأول « كليات » ادارية مستقلة ، مبنية على النظام السويدي . كانت أقوى هذه الكليات تثقف أبناء الجيش والأسطول وموظفي الشؤون الخارجية والمالية . ثم جاء اسكندر الأول (١٧٧٧ - ١٨٢٥) فأنشأ الوزارات واجهزتها المعقدة . في مطلع القرن التاسع عشر ، بلغ عدد الموظفين الاداريين ما ينيف على ١٨٠٠٠ ، كانت نفقاتهم تمتص ١٠ بالمائة من ميزانية الدولة .

لكن سرعان ما أصبحت الادارة الارستقراطية الجديدة طبقة تتمتّع بصورة متزايدة بالامتيازات المعروفة (بالدفوريانتسفو) ، فأصبح اعضاؤها يبلغون الدرجات العليا من السلّم البيروقراطي بسهولة أكثر من اولئك الذين لم يكونوا أشرافا . ثم أقرّت كاترين الثانية (الكبيرة) حقّهم في امتلاك اقطاعات تستخدم العبيد ، وفي اعفائهم من الضرائب ومن العقاب الجسدي ، وحتى من الخدمة العسكرية . وهكذا غدا على الفلاحين الذين كانوا يؤلفون ٩٠ بالمائة من السكان أن يتحملوا القسم الأكبر من عبء الضرائب .

ثم أعطي نظام الاستعباد ، الذي حوّل العبيد الى سلع تخصّ الملاكين ، صفة قانونية في ١٦٤٩ . فحاز الملّاكون في غضون القرن الثامن عشر على سلطات متزايدة ، بما في ذلك الحق في معاقبة العبيد عن طريق التعبئة العسكرية او النفي الى سيبريا ، واصبحت القوانين الموجهّة ضد العبيد الفارّين أشد ، ودور الدولة في تطبيقها لا ينازع .

لم يكن ينطوي وضع طبقة الدفوريانتسفو ولا مصلحتهم على أي عنصر من شأنه أن يحملهم على المطالبة بالحد من سلطة التاج ، بل بالعكس ، كانوا يعتمدون على منعته لضمان مراكزهم . ولم تكن ثمة أي طبقة اجتماعية اخرى قادرة على تحدّي سلطة القيصر . فقوة الارستقراطية القديمة كانت قد تضاءلت ، وبقيت الطبقة المدنية الوسطى صغيرة تعتمد على الحظوة لدى الملك ، وأخذ رجال الاكليروس يفقدون نفوذهم بمقدار ما كانت روسيا تصبح غربيّة الطابع .

تضاؤل سلطة الكنيسة

نعمت البطريركية الاورثوذكسية الروسية بفترة انتعاش قصيرة أثناء حكم ميخائيل (١٥٩٦ - ١٦٤٥) ، عندما حكم البطريرك فيلاريت ، أبو ميخائيل ، روسيا « كحاكم ثان » الى جانب ابنه الضعيف . ولكن عندما حاول البطريرك نيكون أن يمارس شيئا من الاستقلال عن القيصر الكسيس (١٦٢٩ - ١٦٧٦) ، عمد المجمع الكنسي (١٦٦٦) للحط من شأنه . ثم ألغى بطرس الأول المنصب البطريركي سنة ١٧٢١ ، لأنه كان مناوئا الى حد كبير لاصلاحاته ، واستبدله « بالمجمع المقدس » للاساقفة الخاضع لموظف مدني تعيّنه الدولة .

لم يؤثر هذا الحط من شأن الكنيسة سياسيا في تأثيرها الثقافي كثيرا ، لا سيما في المناطق الريفية . الا أن طبقة الاشراف اصبحت أكثر استعدادا لتقبل الاساليب الدنيوية الاوروبية في الفن والأدب . فشهد القرن الثامن عشر ظهور نخبة ميّالة الى الغرب كانت تتكلّم الفرنسية أكثر من الروسية ، وصمّمت مبانيها على الطريقة الفرنسية والايطالية المعاصرة (٥) .

الاستبداد المتنوّر

تعود جذور موجة الأفكار الجديدة التي اكتسحت أوروبا في القرن الثامن عشر وعرفت « بعصر التنور »، الى الحركات العلمية والعقلية التي ظهرت في القرن السابع عشر. كذلك كانت لروح البحث العقلي، التي اتسم بها كتّاب القرن الثامن عشر ومفكروه، نتائج سياسية هامة، اذ كان أهم ما ميّز هذه الروح النقد الجذري للمؤسسات والقيم والممارسات القائمة. وعندما اعتنق هذه الأفكار ملوك أقوياء في أوروبا دعيت هذه الحقبة « بالاستبداد المتنور ».

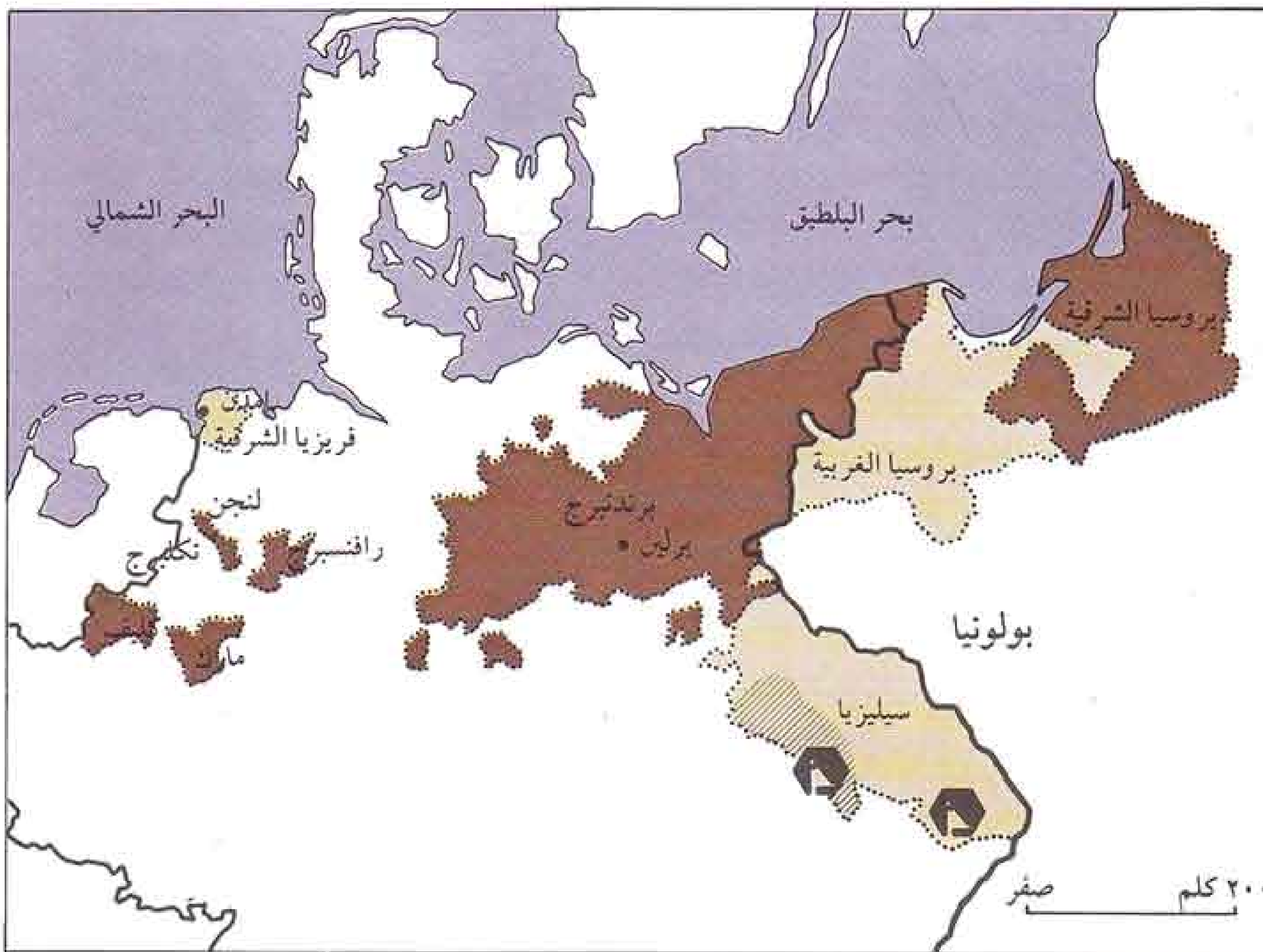
تأثير الكتّاب

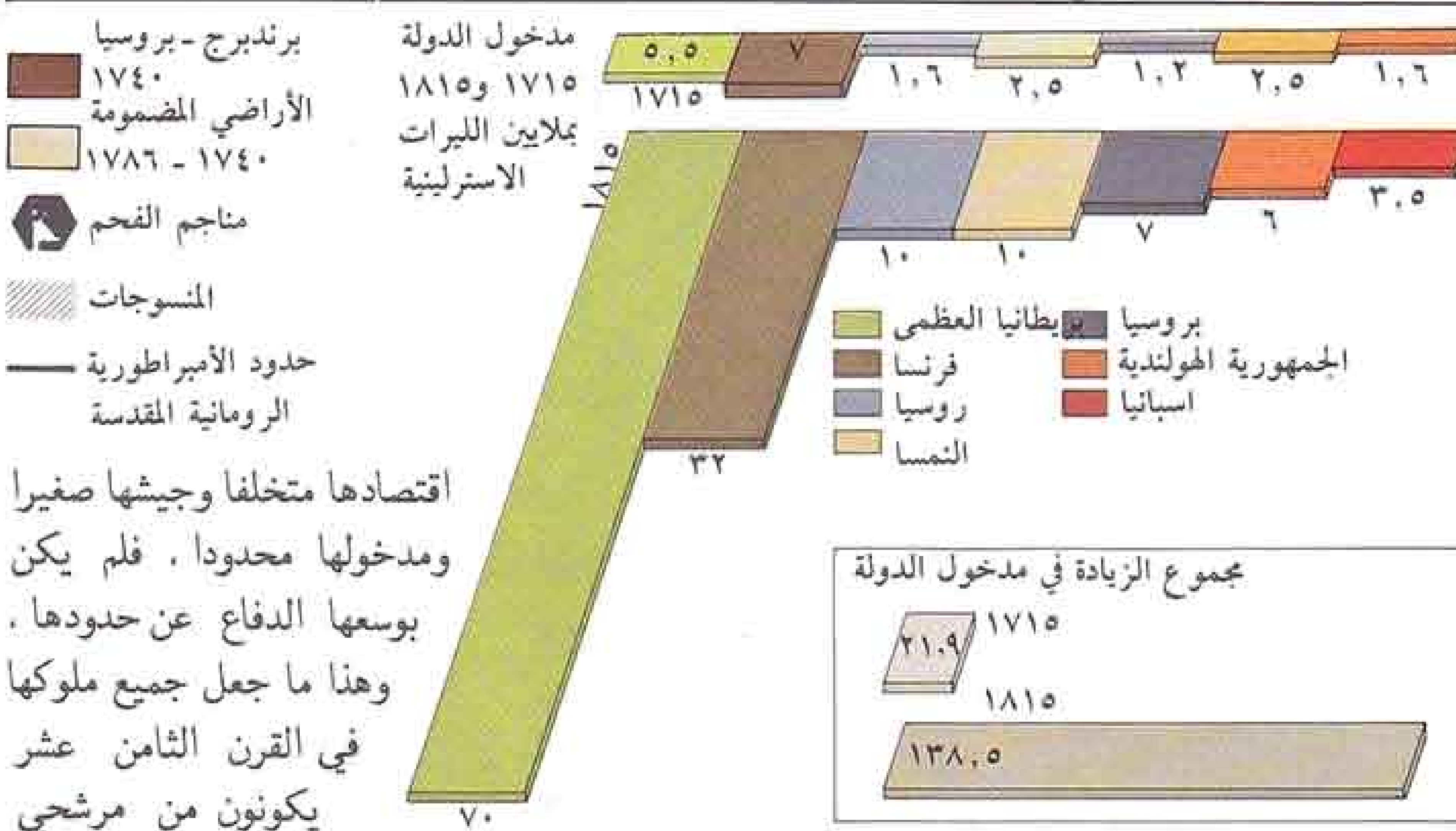
كانت أشمل سمة لأفكار هؤلاء

(١) - ان استيلاء فريديريك الكبير على سيليزيا سنة ١٧٤٠ أعطاه منطقة نفيسة اقتصاديا، فأضاف اليها فريزيا الشرقية سنة ١٧٤٤ وبروسيا الغربية سنة ١٧٧٢، فوسع بذلك حدود بروسيا.

(٢) - ساعد النمو السريع للزراعة والصناعة في أوروبا، ابان القرن الثامن عشر، على تزايد مداخيل الدول بسرعة. كذلك سهلت السلطة المتزايدة التي كانت تمارسها الدول الاوروبية جباية المزيد من الضرائب من الرعايا. لكن بما أن نمو بريطانيا العظمى الاقتصادي سبق نمو البلدان الأخرى، استطاعت هذه الدولة زيادة مدخولها بسرعة أكبر الى مستوى أعلى من عدد البلدان الأخرى.

(٣) - جرى تقسيم بولونيا وتجزئتها عدة مرات في القرن الثامن عشر. تبيّن ان نظامها « الملكية الانتخابية » موطن ضعف لها، وانه يؤدي الى تدخل جيرانها الأقوياء في صراعاتها الداخلية. كذلك كان اقتصادها متخلفا وجيشها صغيرا ومدخولها محدودا. فلم يكن بوسعها الدفاع عن حدودها. وهذا ما جعل جميع ملوكها في القرن الثامن عشر يكونون من مرشحي

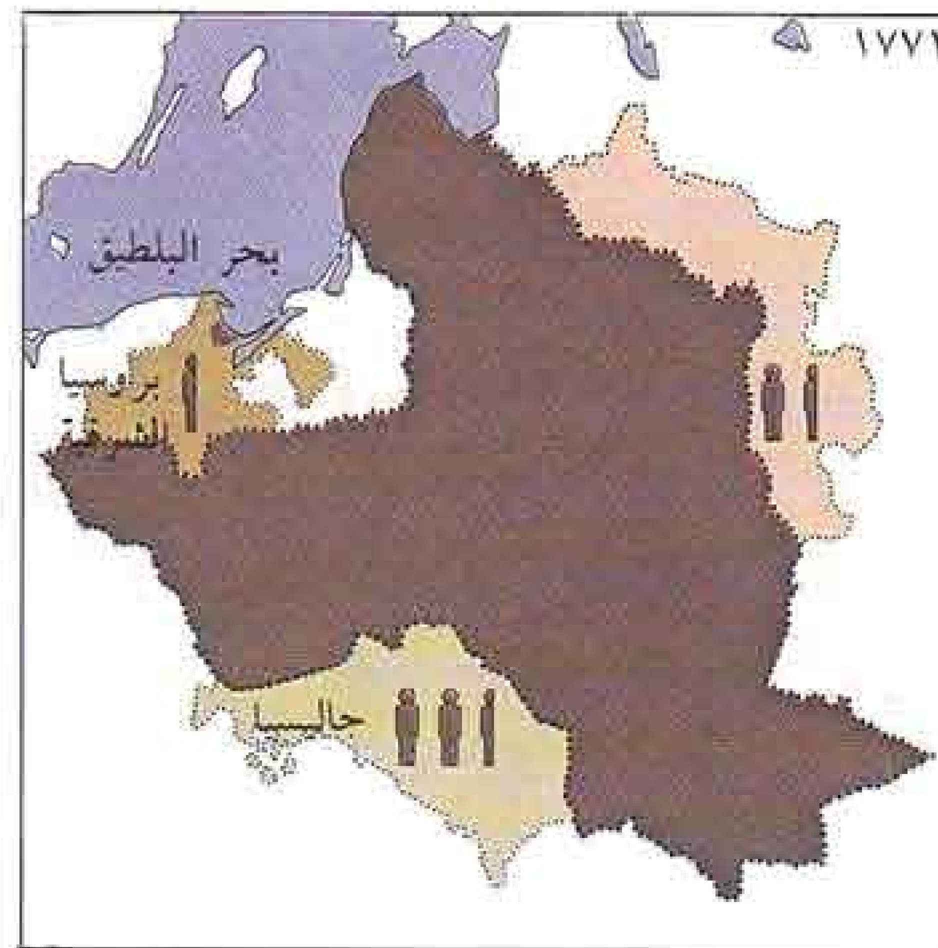
١


٢


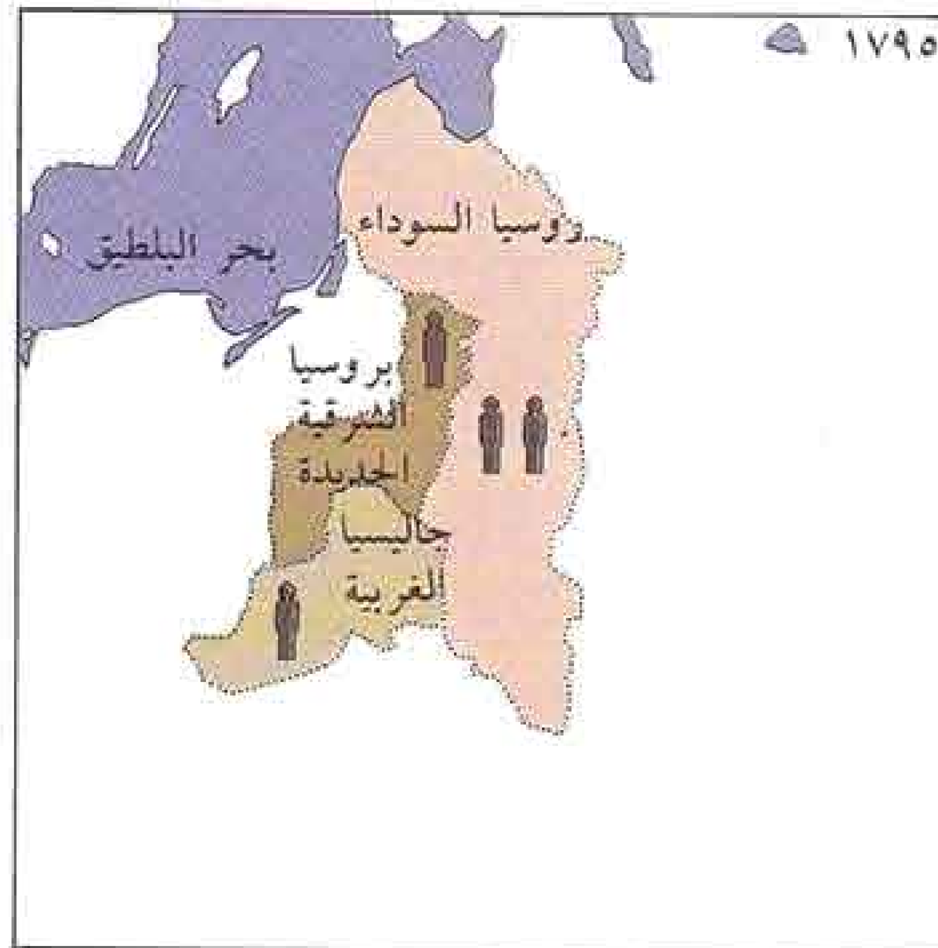
« الفلاسفة » ، كما دعي هذا الفريق من المفكرين ، الايمان بالعقل ، والضوء الناقد الذي صوبوه على مؤسسات ذلك العصر وممارساته . كان من أبعد هؤلاء الكتاب والمفكرين أثـرا : فولتيـر ، شـارل لـويس مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) ، دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) وجان جاك روسّو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) ، الذين استهوت افكارهم في السياسة والمجتمع اتباعا عديدين في أوساط طبقات أوروبا المثقفة . ومع أن نظريات هؤلاء المفكرين كان من شأنها ، في ظروف مثالية ، أن تحملهم على تحبيذ الحكم الدستوري والمؤسسـات الاستشارية ، فانهم كانوا بالعكس في أغلب الأحـيان علـى استعداد للاضطلاع بدور المستشارين لحكام مطلقين أقوياء ، مثل فريدريك الكبير البروسي (١٧١٢ ـ ١٧٨٦) ، وكاترين الكبيرة الروسية (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦) . في هذا الاطار ومن

٣



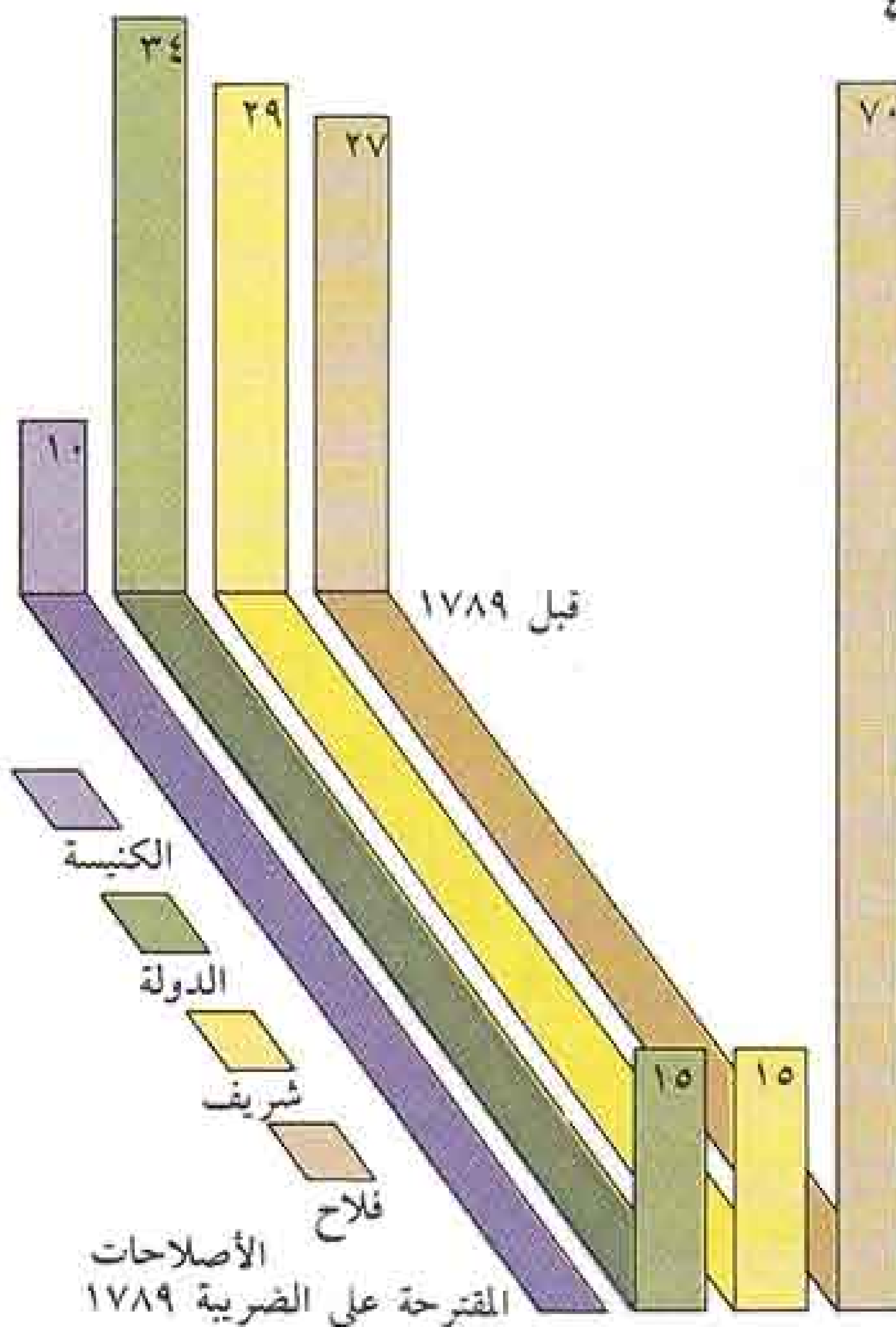






الدول الأجنبية . جرى أول تقسيم لها سنة ١٧٧٢ ، عندما استولت بروسيا وروسيا والنمسا على ثلث مساحتها الاقليمية السابقة ونصف سكانها . سنة ١٧٩٣ ، جرى الاستيلاء على المزيد ، وسنة ١٧٩٥ اقتسم الباقي بين الدول المجاورة الثلاث .

٤



(٤) ـ وضع جوزيف الثاني تخطيطا لاستبدال الضرائب التي كان على الفلاحين أن يدفعوها الى اسيادهم الملاكين والى الدولة والكنيسة بضريبة موحدة جديدة قائمة على نسبة مئوية محددة من مدخولهم السنوي . كان من شأن تلك الضريبة أن تصبح ضريبة عقارية جديدة تنطبق على جميع رعايا الامبراطورية بالتساوي . يمثل الرسم التوزيع المئوي لمدخول فلاح ما قبل هذه الخطة المقترحة وبعدها . مع ذلك ، ألغي هذا الاصلاح سنة ١٧٩٠ ، لدى وفاة جوزيف ، وقبل أن يصبح نافذا .

خلال مؤلفاتهم العامة ، كانوا ينادون بعدد من الاصلاحات المعيّنة ، مثل اقرار المساواة أمام القانون ، ومحو الاستعباد ، والتسامح الديني، وخفض امتيازات النبلاء والاكليروس،

مع ذلك ، لم يؤلف الملوك المتنورون جماعة متماسكة ومنسجمة . ذلك انهم اقتبسوا أهداف « الفلاسفة » المثالية ، لأنها كانت مفيدة لكل منهم في اطار ترتيباته السياسية الداخلية الخاصة . وهكذا جاء تطبيق التشريع المتنوع منوعا ، تتحكم به الظروف الفردية . فبالنسبة الى عدد من الملوك ، كانت الحاجة الى زيادة مدخولهم ضرورية لبلوغ أهدافهم ، فحملهم ذلك على تحبيذ الحملات الفكرية على امتيازات النبلاء ورجال الدين ، كاعفائهم من الضرائب مثلا . كذلك كان لغيرهم مصلحة في الاستثمار الاقتصادي الناجع للبلدان التي كانوا يسيطرون عليها . من هنا ، يمكن تفسير عدد من سياسات « الطغاة



٥



٦



٧

(٥) ـ أرسى حكم ماريا تيريز الطويل للنمسا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٠) القاعدة لحكم ابنها جوزيف الثاني . فقد عملت على تحويل الممتلكات المختلفة لآل هابسبورج الى دولة قومية مركزية ، وباشرت بعدة اصلاحات تقدمية في حقول التربية والقانون والكنيسة . أكمل ابنها عملها بتحرير العبيد سنة ١٧٨١ ، ووحّد النظم الادارية في الدولة ، ودفع قدما بالتطور الاقتصادي السريع .

(٦) ـ أثرت مبادىء « عصر التنور » أيضا في ملوك أقل شأنا مثل شارل الثالث ، الذي يبدو هنا (في الوسط) وهو يدخل مدريد ، وكان ملكا على « الصقليتين » (١٧٣٥-١٧٥٩) وعلى اسبانيا (١٧٥٩-١٧٨٨). في نابولي ، حاول أن يعيد السيولة النقدية والنظام الى دولة فقيرة مدقعة ، فيما أقام في اسبانيا حكومة مستنيرة ، بمساعدة وزراء أكفاء . حاول أن يعالج الفقر بانشاء بيوت للعمل ، فيما شجع بناء المدارس والطرقات والاقنية ، وعلمن التعليم .

(٧) ـ كان الملوك ما يزالون يلعبون دورا هاما في قيادة الجيوش في الحرب . كان جورج الثاني (١٦٨٣ ـ ١٧٦٠) الظاهر في الصورة ، آخر الملوك البريطانيين الذين قادوا جيوشهم شخصيا ، وذلك في معركة ديتنجن بألمانيا سنة ١٧٤٣ .

المستنيرين » كجزء من العقيدة التقليدية المعبّر عنها في لغة السياسة بشعار « مصلحة الدولة » (اي في سبيل خير البلاد) .

تحقيق أفكار « عصر التنور »

مارس عدد من الملوك الأوروبيين الى حدّ ما السياسات التي نادى بها « الفلاسفة » . كان من أشدهم اخلاصا جوزيف الثاني (١٧٤١ - ١٧٩٠) « الامبراطور الروماني المقدس » الذي قام ، رغم حكمه المطلق طيلة عشر سنوات ، بعدد كبير من الاصلاحات .

كان فريدريك الكبير ملك روسيا ، الذي اعتلى العرش سنة ١٧٤٠ ، شديد الاهتمام ايضا بأفكار « الفلاسفة » ، وأراد أن يظهر بمظهر النصير لأهدافهم المثالية ، لكنه كان ، في الواقع ، حاكما حازما ومتسلطا ، يقدم مصالح الدولة البروسية وسلطته الخاصة على أهداف « التنور » المثالية . صحيح انه اعتق العبيد المقيمين على أراضيه ، ولكنه انما فعل ذلك لأسباب عسكرية ، لا لاعتبارات انسانية ، وهو لم يستأصل الاستعباد في الأمكنة الأخرى من بروسيا خوفا من اغضاب الأشراف . مع ذلك ، أصلح النظام القضائي وأدخل عقوبات أرحم . أما في الحقل الاقتصادي ، فقد كانت سياساته الاقتصادية مركنتيلية (١) كليا ، ولم تستمد شيئا يذكر من آراء الفيزيوقراطيين الاقتصادية (وهم جماعة من الاقتصاديين السياسيين) .

كذلك كانت كاترين الكبيرة الروسية من المعجبات بآراء « التنور » ، تراسل فولتير وتحتفي بديدرو في بلاطها . كان أكثر اصلاحاتها مثالية اصلاح التشريع الروسي ، الذي صدر بعنوان « أمر ١٧٦٧ » ، الذي دعيت لمناقشته « لجنة تشريعية » تمثل الأمة بأسرها . الا ان هذا الاصلاح انهار بسبب الخلافات في الرأي بين أعضاء الوفود واشتعال الحرب مع تركيا . ورغم رغبتها السطحية في اقتباس سياسات « تنورية » ، مثل اعتاق العبيد ، اضطرت الى المساومة مع المصالح السائدة . فقد اخضع « ميثاق الأشراف » الذي أصدرته سنة ١٧٨٥ العبيد لمزيد من تسلّط الملاكين ، ووطد مركز الأشراف ، وأقام حلفا بينهم وبين اسرتها المالكة ظل مستمرا حتى الثورة الروسية .

التأثيرات الأخرى في أوروبا

في أنحاء أخرى من أوروبا ، اقتبست أهداف « التنور » المثالية عى درجات متفاوتة (٦) ، ففي البرتغال ، بذل سيباستيان بومبال (١٦٩٩ - ١٧٨٢) جهوده بوصفه الوزير الأول من ١٧٥١ حتى ١٧٧٧ ، لتقوية الدولة واقتصادها ، فطرد اليسوعيين وهاجم امتيازات الأشراف ونسق الادارة ، واقتبس سياسات تجارية حرّة ، ومنح اليهود حقوقا مدنية . لكنه ، من ناحية ثانية ، أقام نظاما بوليسيا صارما ، وألقى بمئات الأشخاص في السجون .

اتخذت عبارة « الاستبداد المتنور » ، عدة أشكال . فهي ليست وصفا دقيقا لدوافع الحكام الاوروبيين في القرن الثامن عشر ولا للسياسات المتنوعة جدا التي انتهجوها . مع ذلك ، أرست تأثيراتها في ميدان التشريع الانساني والعقلي ، نظريا ان لم يكن بالفعل ، اسس الحكومات الليبرالية التي سترى النور في الحقبة التي عقبت الثورة الفرنسية .

البلاد العربية ١٥٠٠ - ١٧٠٠ [١]

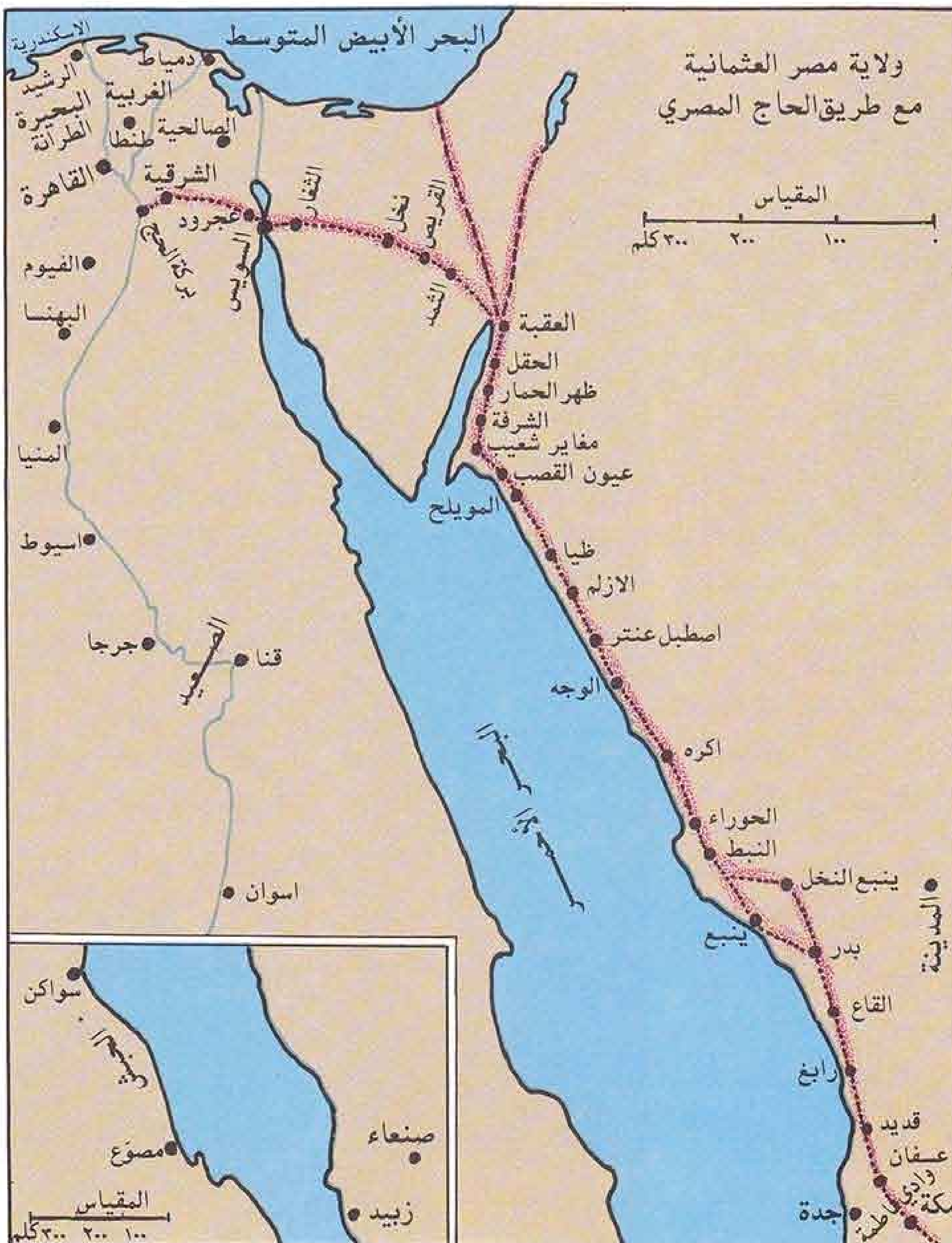
تنافست ، في الربع الاول من القرن السادس عشر ، في منطقة الشرق الادنى ، ثلاث قوى للسيطرة عليه ، وهي : الامبراطورية العثمانية ، والسلطنة المملوكية ، والدولة الصفوية الناشئة . حدث الاصطدام الاول بين العثمانيين والصفويين في موقعة جالديران قرب تبريز في (١٥١٤) ، وبنتيجته خرج الصفويون من ميدان السباق للسيطرة على المنطقة العربية . وبعد سنتين من ذلك (١٥١٦) ، اصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في موقعة مرج دابق قرب حلب ، وهُزم المماليك ، واحتل العثمانيون بلاد الشام . ثم هزم العثمانيون المماليك ، في موقعة الريدانية في مصر (١٥١٧) ، وانهارت

١



(١) ـ هذه القيشانية مأخوذة من محراب مسجد تركي (من القرن السابع عشر) في ازنيك (نيقية) . كانت تغطية جدران الجوامع بالقيشاني شائعة جدا لدى العثمانيين . لا تزال قيشانيات نيقية تملأ المتاحف الكبرى في العالم .

٢



(٢) ـ كان الحجاج القادمون من مصر أو عبر مصر يتجمعون في القاهرة ، ومنها ينطلقون شرقا الى السويس ثم عبر صحراء سيناء الى العقبة . من هناك كانت القوافل تتجه جنوبا بخط مستقيم تقريبا وبمحاذاة الضفة الشرقية من البحر الأحمر حتى تبلغ مكة المكرمة .

في اعقاب ذلك السلطنة المملوكية وسيطر العثمانيون على مصر .

تطلعات عثمانية

كان طبيعيا ، بعد ان احتلت الدولة العثمانية بلاد الشام ومصر ، ان تتطلع الى احتلال اجزاء الخلافة الاخرى ، فتجمع بذلك بلاد المشرق العربي تحت سلطتها . فمنعت الصفويين من الاستيلاء على العراق (١٥٣٤) ، وتوغلت جيوشها بعد ذلك في منطقة الخليج ، فاحتلت القطيف (١٥٥٠) والاحساء (١٥٥٢) التي اصبحت مركز ولاية عثمانية للجهاد ضد البرتغاليين (٦) المتمركزين في هرمز .

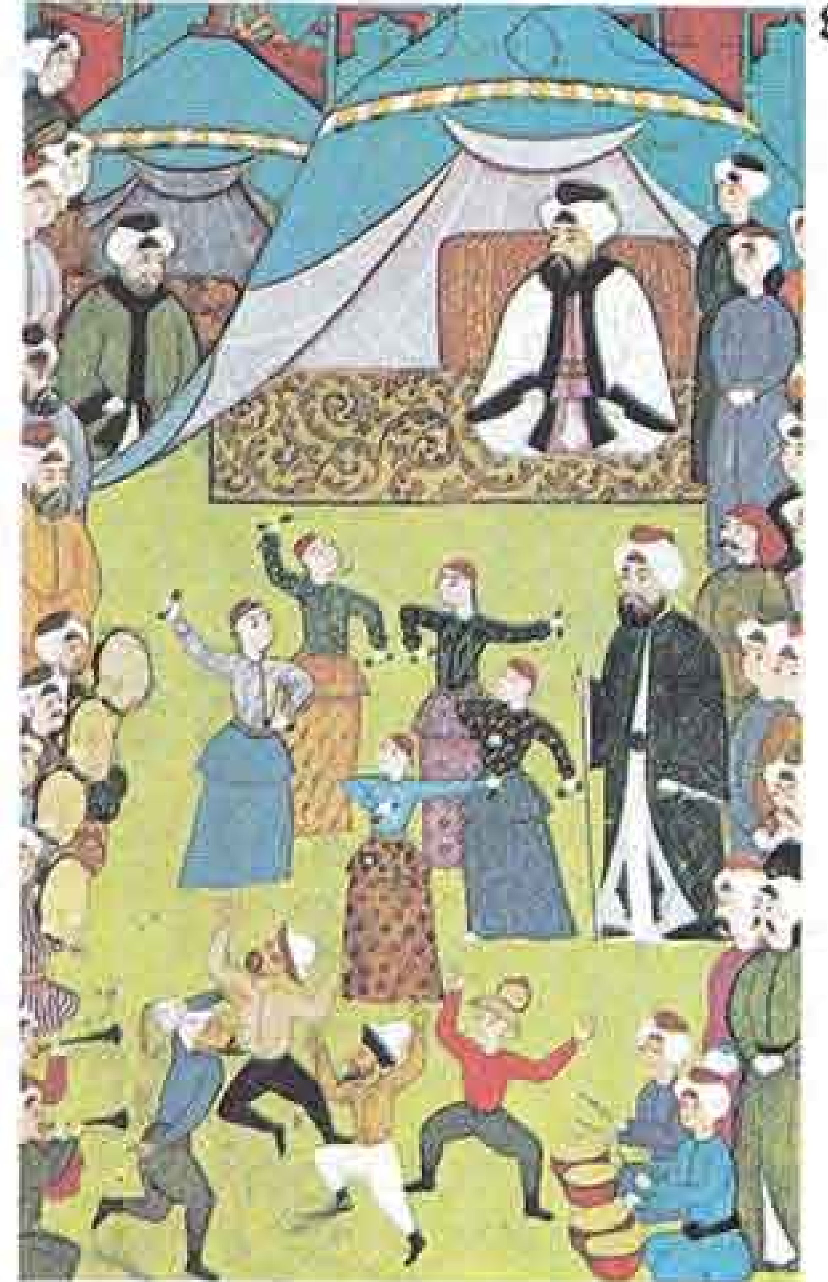
وكان شريف مكة قد اعلن خضوعه للعثمانيين ، اثر فتحهم مصر ، فولوه على الحجاز وجدة (١٥٣٩) ، ثم اخضع العثمانيون المدن الرئيسية في اليمن لحكمهم (١٥٣٩) ،

٣





٤



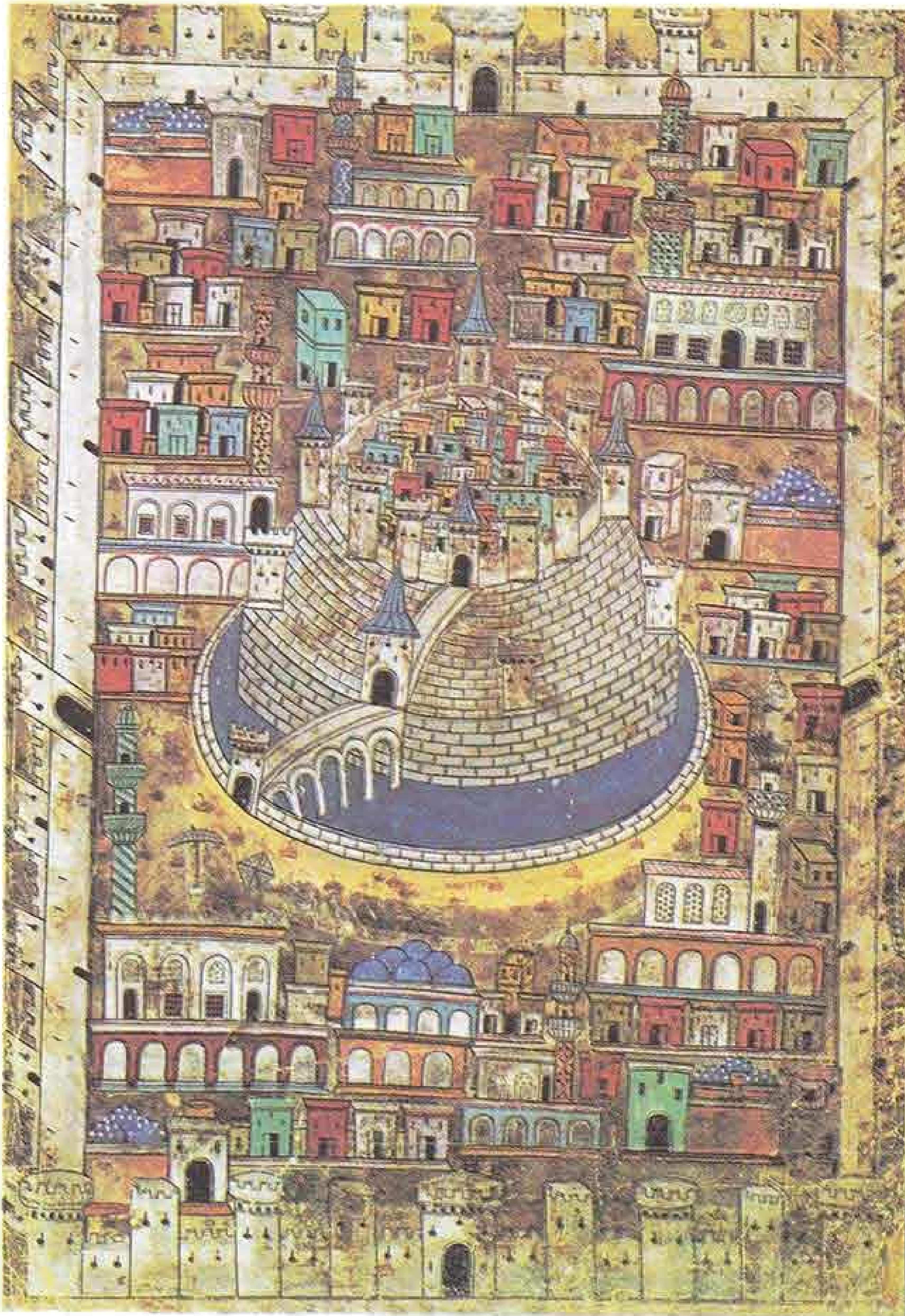
(٣) ـ كان الجيش العثماني يقوم خاصة على فرق السباهية والانكشارية . الجندي السباهي (أ) هو فارس ، كهذا الفارس من القرن السادس عشر الظاهر هنا بسلاحه الكامل . كان ثوبه من قماش مقصب أو حرير ملون ، وسلاحه قوسا ونشابا ومجنا صغيرا ورمحا خفيفا وسيفا مرصعا بالحجارة الكريمة . أما الانكشاري (ب) ، فهو من المشاة الذين كانوا قوام الجيش وعماده بعد تنشئتهم تنشئة صارمة . أصبحت الانكشارية مع الزمن تشمل فرقا من الفرسان أيضا . من شروط تلك التنشئة الولاء المطلق لشخص السلطان وتلقي الأوامر منه فقط ، والتعهد بعدم الزواج . وقد نظمت فرق الانكشارية وفقا لنظام الطرق الصوفية ، وادرجت في عداد فرق احدى الطرق السائدة في تركيا ، الطريقة البكطاشية .

---

(٤) ـ السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣ ـ ١٧٣٦) ، الذي خلعه الانكشارية ، يحضر حفلة رقص . من مظاهر الحضارة الاسلامية الفنية البارزة ، الغناء والموسيقى والرقص ، التي شجعت نموها وازدهارها ، كلها او بعضها ، العوامل الآتية : التجويد في قراءة القرآن الكريم والاذان ؛ حلقات الذكر الصوفية ؛ حفلات الخلفاء والسلاطين والامراء للطرب واللهو ؛ الالحان العسكرية التي كانت على وقعها تتمرن الجيوش او تحتفل او تسير الى الحرب ؛ ومرافقة قوافل الحجاج بالطبول والرموز ترفيهاً عن النفس من مشاق السفر في الصحراء .

واعتبر ذلك ابتداء الفتح العثماني لليمن ، لأن السلطة العثمانية ، قبل ذلك ، كانت تقوم على ولاء الامراء المحليين لها . وفي ١٥٥٥ ، احتل العثمانيون النوبة السفلى ، بين الشلالين الاول والثالث ، وتقدموا باتجاه البحر الاحمر ، حيث احتلوا منطقة الاحباش التي ضمت مينائي سواكن ومصوّع ، وأسسوا (١٥٥٧) ولاية الحبشة العثمانية .

أما في شمال أفريقيا ، فقد تعرض المغرب الاوسط والادنى الى هجمات رجال البحر الاتراك منذ اوائل القرن السادس عشر . وبرز بين هؤلاء خير الدين بربروسا واخوه عروج ، ثم طورغود ، وهزموا القوات الاسبانية ، واقاموا في البلاد حكومات شبه عسكرية . وسرعان ما اسسوا دويلات محلية اعترف بها السلطان العثماني . لكن هذه الدويلات ، المنتشرة بين طرابلس شرقا والجزائر غربا دخلت في منازعات مع الدول



(٥) ـ خارطة مصورة ملونة لمدينة حلب في القرن السادس عشر ، تظهر الرقي والثراء في مباني المدينة الانيقة وحصونها المتينة ، مما يدل على ان حلب تمكنت بنجاح من ترميم الدمار الذي كان المغول قد أنزلوه بها في عام ١٢٦٠ . تظهر القلعة في وسط المدينة ، وهي من بناء الامير غازي الذي عيّنه والده صلاح الدين الايوبي حاكما على المدينة في القرن الثاني عشر . ولا تزال القلعة من الآثار السياحية الهامة .

(٦) ـ قلعة تاروت (القرن السابع عشر) . جاء دخول البرتغاليين الخليج العربي مع احتلال العثمانيين لمصر والبلاد العربية . ولما أراد البرتغاليون ان يدافعوا عن مواقعهم أقاموا عددا من القلاع ، منها هذه التي بنيت في تاروت (في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية اليوم) .



الاوروبية البحرية ، فتدخلت الدولة العثمانية لحمايتها ، وفرضت نفوذها على المناطق الساحلية في مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر. لكن المغرب الاقصى ، اي مراكش ، لم يخضع للعثمانيين ، وقد حكمه السعديون ، ثم خلفهم في عام ١٦٥٤ العلويون .

ثورات القرن السادس عشر

في أعقاب الفتح العثماني للبلاد العربية ، ظهرت سلسلة من الثورات قامت بها قوى مملوكية ، عملت لاعادة السلطنة المملوكية ، او قوى عثمانية ناقمة على الادارة في اسطنبول ، او قوى محلية في بعض المناطق حاولت الحفاظ على نفوذها .

بدأ الثورات على العثمانيين جان بردي الغزالي ، والي دمشق العثماني (١٥١٧ ـ ١٥٢٠) الذي كان قبلا يشغل منصب والي حماة باسم المماليك . ولكن العثمانيين قضوا على ثورته . وقام الامراء المماليك الناقمون على العثمانين بثورة في مصر (١٥٢٢ ـ ١٥٢٣) ، ولكنهم أخفقوا في ثورتهم . ثم ثار والي مصر العثماني ، احمد باشا الخائن ، على سلطة اسطنبول (١٥٢٣) لكنه قضي عليه ايضا . كذلك حدثت عدة ثورات للقبائل في بلاد الشام ومصر ، ولكنها لم تتساوَ من حيث الاهمية مع ثورات المماليك ، ولا مع ثورات القبائل في جنوبي العراق ، حيث كان عددها اضخم وطموحها اكبر وتناولت المدن وبخاصة البصرة . في آخر الأمر ، لجأ العثمانيون الى الطريقة التقليدية بشراء خضوع القبائل بالمال ، او ضرب قبيلة باخرى .

التنظيم الاداري

بعد ذلك ، انصرف العثمانيون الى تنظيم الادارة العثمانية في البلدان العربية المفتتحة . فقسموها الى ولايات ، والولاية الى صناجق (في مصر سميت كشوفيات) . ومنحوا بعض اراضي الدولة (الاراضي الاميرية او الميرية) كاقطاعات عسكرية ، او جبوا مواردها عن طريق الالتزام . ونظموا كذلك عدد وانواع الفرق العسكرية المتمركزة في الولايات العربية . وصدر جميع ذلك بموجب مجموعات من القوانين عرفت بالقانون نامه .

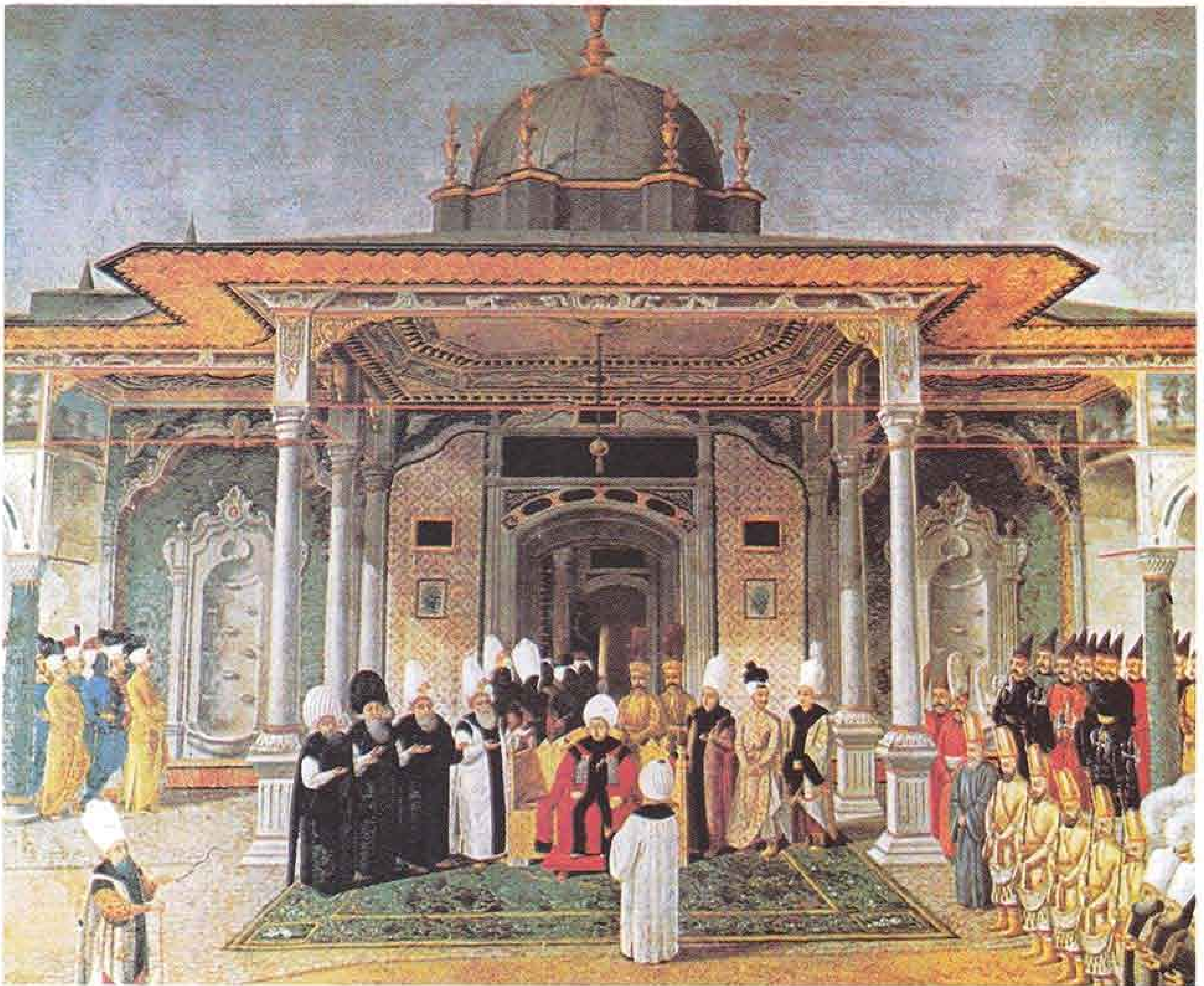
سادت الولايات العربية ، في أعقاب القضاء على الثورات فيها وادخال التنظيمات الادارية اليها ، فترة من الهدوء دامت في بلاد الشام ومصر والعراق قرابة نصف قرن ، لكن تخللها كثير من الاضطرابات في ولايات الاطراف ، في البصرة والاحساء واليمن وشمال افريقيا . وانعكست قوة الدولة وشهرتها المتزايدة ، وبخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني ، على الولايات العربية ، فتجلت هيبة الدولة ونشاط الادارة فيها في اشخاص الولاة الذين عينوا عليها . فقد اتوا اليها ووراءهم امجاد عريضة في ميدان المعارك ، وهو المجال الرئيسي لصنع البطولات في عهد الفتوحات آنذاك ، وبرهنوا انهم على مستوى المسؤولية الادارية ، فحققوا الامن ، واقاموا المؤسسات ، ومعظمها ذات نفع خيري ، كالجوامع والمدارس والسبل ، لتخليد ذكراهم . ولم تشهد اية فترة ، في العهد العثماني ، ما شهدته الولاية العربية في هذه الفترة من نشاط اداري وعمراني .

أما الشمال الافريقي ، فقد اتجه نحو الاستقلال الداخلي بشؤونه الخاصة .

البلاد العربية ١٥٠٠ - ١٧٠٠ (٢)

ظهرت دلائل الضعف في الدولة العثمانية في اعقاب وفاة سليمان القانوني (١٥٦٦) . فقد تصدى للعثمانيين اعداء اشداء تزعمتهم الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ وانكسر الاسطول العثماني في معركة ليبانتو (١٥٧١) ؛ وخسر العثمانيون مناطق هامة في اوروبا (معاهدة كارلوفيتز مع آل هابسبورج ١٦٩٦) ؛ واشتد عداء قياصرة الروس للدولة العثمانية وبخاصة في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) ؛ وفي الجبهة الشرقية تمكن الصفويون ، بعد توطيد سلطتهم ، من احتلال بغداد (١٦٢٣ ـ ١٦٣٨) . أثر توقف التوسع العثماني على الدولة وعلى الولايات العربية . ولعل أخطر ما أصاب الدولة دخول المرتزقة

١ أ

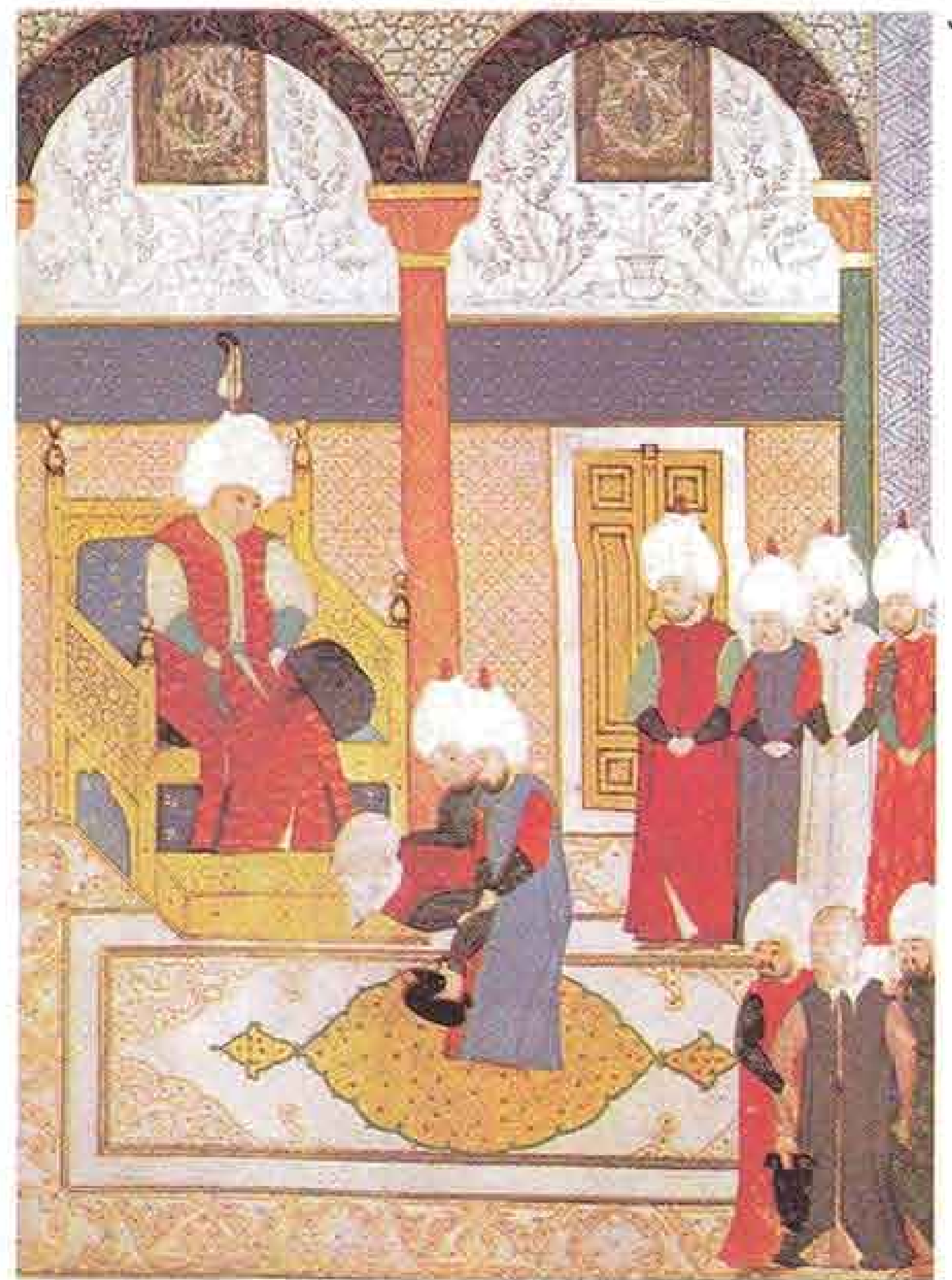


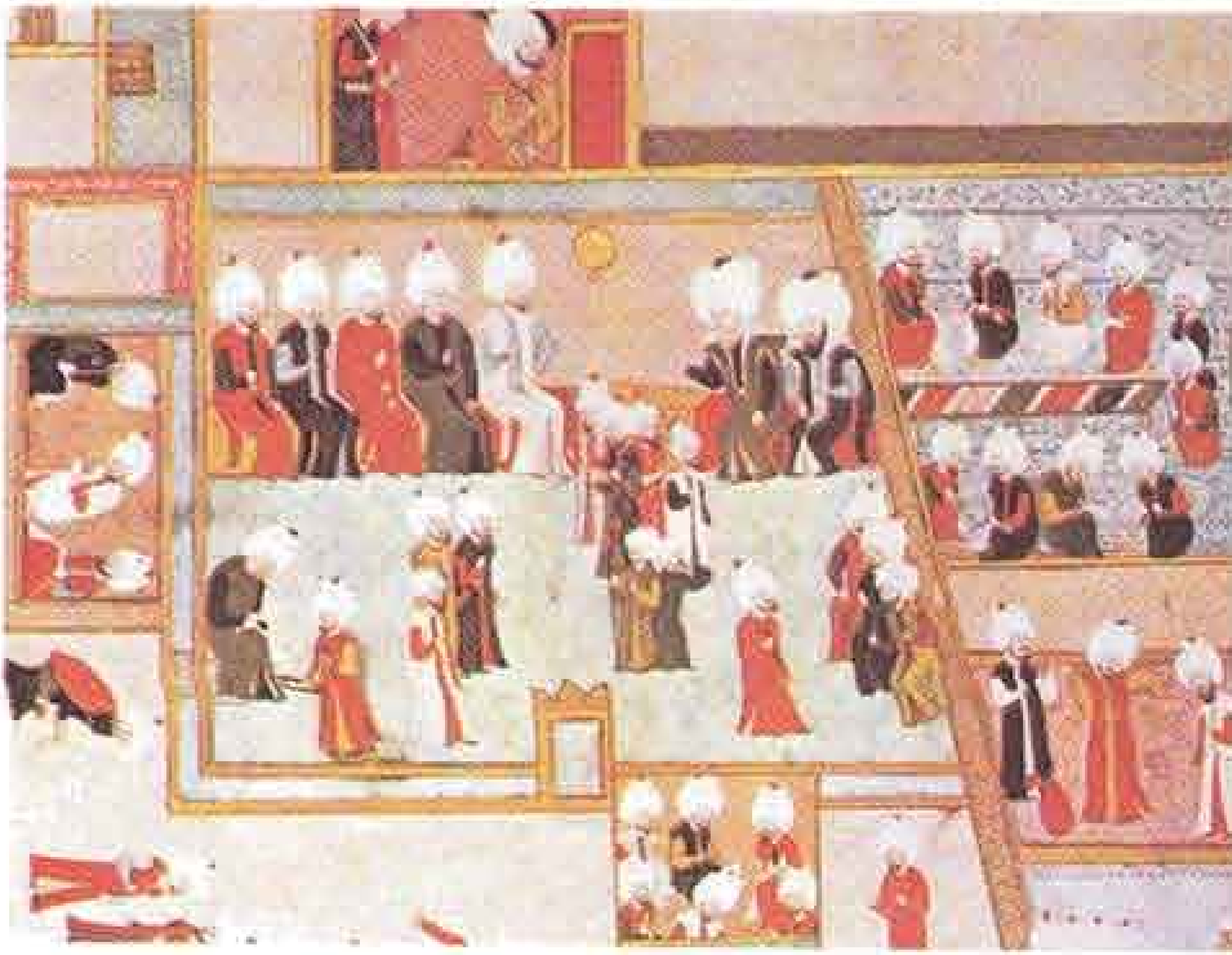
(١) ـ السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) يستقبل سفيرا شرقيا (أ) . وسليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) يستقبل سفيرا اوروبيا (ب) . لاحظ الانحناءة الكبيرة التي يظهر بها السفير الاوروبي اجلاله للسلطان . درج السلاطين العثمانيون منذ القدم على تبادل البعثات الدبلوماسية مع البلدان الاجنبية لتقويم عواطف الود او اجراء المفاوضات . وابتداء من القرن السادس عشر ، اخذت الدول الاوروبية تفتح لها في اسطنبول سفارات دائمة . لكن الدولة العثمانية لم تجارها في ذلك

في جيوشها .

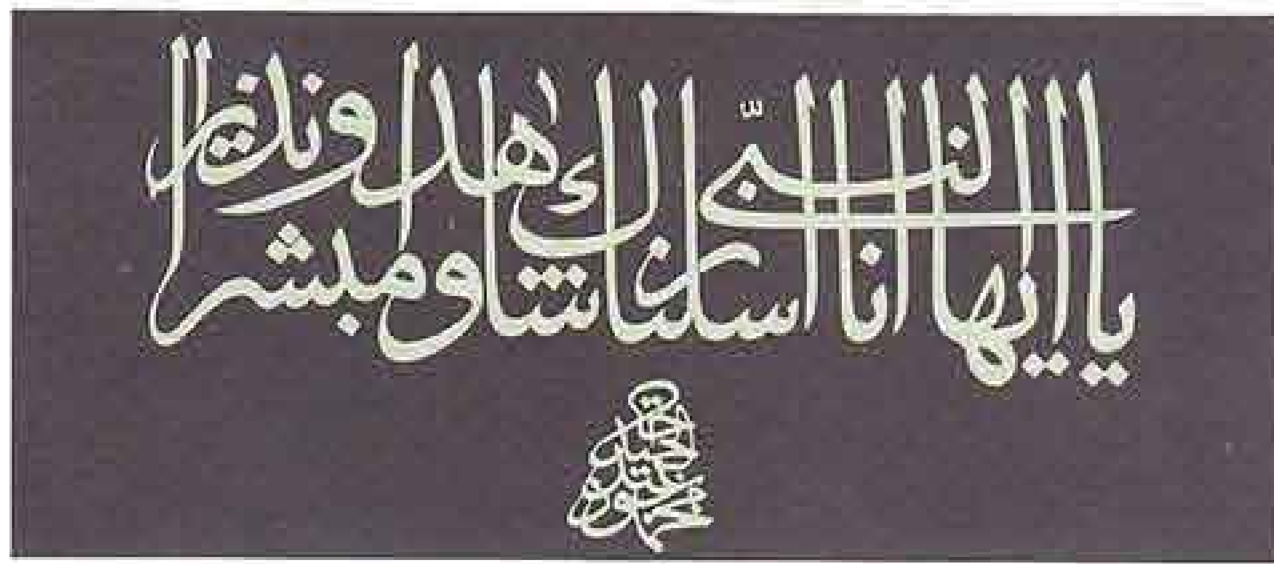
ثورات العساكر

كانت أولى الثورات التي شهدتها البلدان العربية على الحكم العثماني في هذه الفترة هي ثورات العساكر ، التي بدأت في مناطق الاطراف في اليمن ثم انتقلت باتجاه الداخل . ففي اليمن ، حيث كان العساكر يتقاضون الرواتب بدلا من الاقطاعات ، انهارت قيمة مرتباتهم ، تبعا لانهيار قيمة العملة العثمانية ، فافتقروا ، واخذوا يبتزون المال من الاهلين ، ثم انتقلوا لتأييد القبائل الزيدية الثائرة على العثمانيين في مناطق الجبال . ورغم ان والي مصر العثماني سنان باشا قضى على الثائرين في اليمن (١٥٦٩ - ١٥٧١) ، فان الزيديين عادوا الى الثورة وسلخوا اليمن عن الحكم العثماني (١٦٣٥) وكان اليمن بذلك اول قطر عربي يستقل عن





٢



٣

حتى اواخر القرن الثامن عشر . بل كانت تلتقي ببعثات هذه الدول المعتمدة لديها او عند الاقتضاء توفد سفراء مختصين بمهمات معينة الى تلك البلدان .

(٢) - كان الجهاز الاداري الذي سن قوانينه سليمان القانوني يدور على محوره ، السلطان ، ويتألف من : الصدر الاعظم ؛ وحاكمي منطقتي الروملي والاناضولي ؛ وقاضيي الجيش بكليهما ؛ والدفتردار للاقتصاد ؛ وقائد الجيش ، وقبطان الاسطول ، ورئيس الديوان . وكان يرأس الجهاز الديني (العلماء والقضاة) شيخ الاسلام وهو مفتي اسطنبول الذي يأتي في المقام بعد الصدر الاعظم مباشرة .

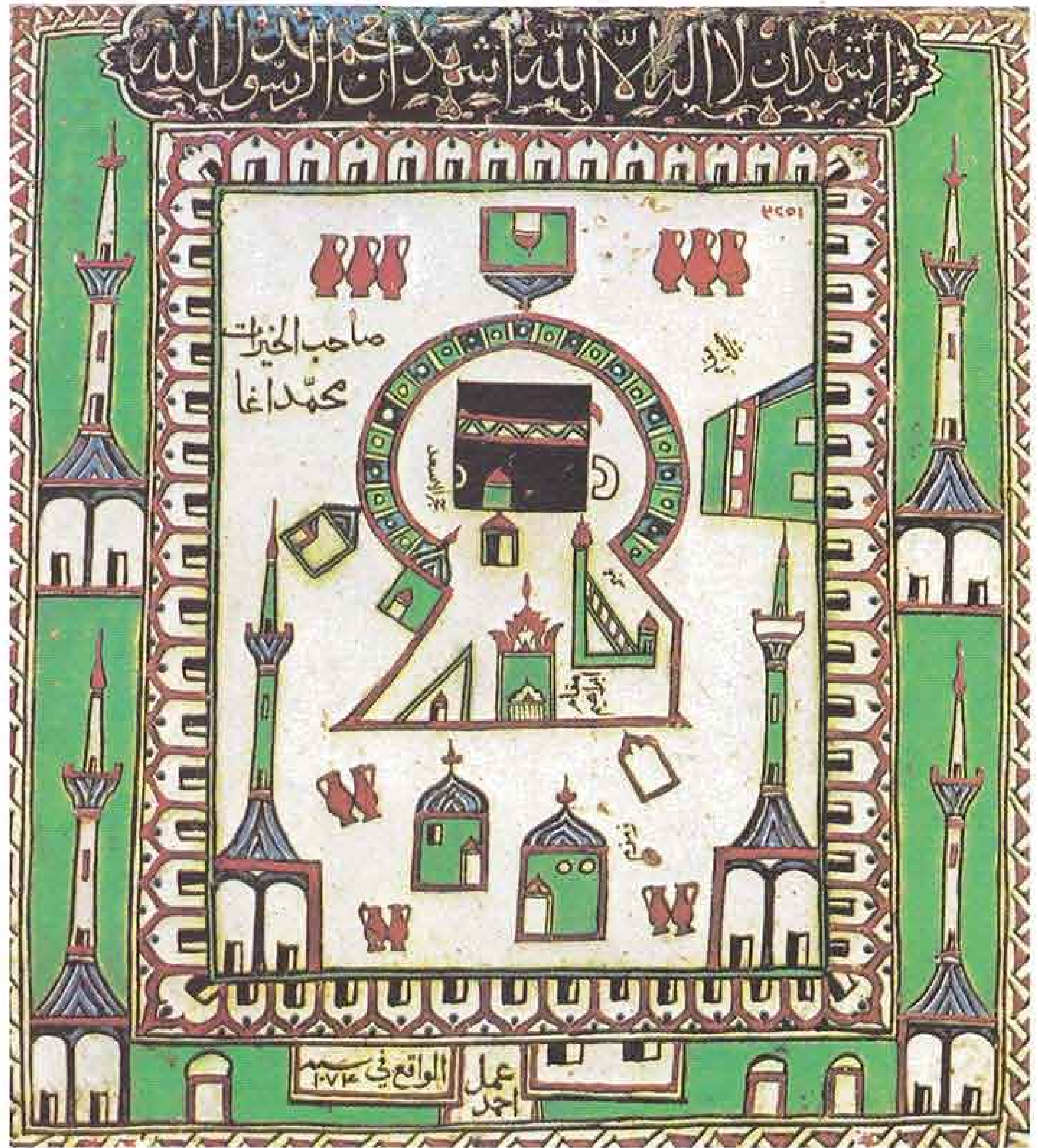
(٣) - بالاضافة الى المهام العظمى الملقاة على كاهل السلاطين العثمانيين ، كان بعضهم كالسلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ، الذي قام باصلاح الدولة العثمانية وقضى على الانكشارية وبدأ باصلاح الجيش ، مولعا بالخط العربي وجميل الخط . وهذا نموذج من خطه الآية : « يا أيها النبي إنّا أرسلْناكَ شاهِداً ومُبَشّراً ونَذِيرا » . اشتهر السلاطين العثمانيون بطغراءاتهم السلطانية التي تحوي توقيعهم والتي كانوا يعتزون بكتابتها بخط يدهم او يكلفون كبار الخطاطين بكتابتها لهم . كانوا يكتبون فوق الطغراء احيانا او تحتها احد المراسيم . كما فعل السلطان سليمان القانوني بوضع مرسوم تمليك لزوجته على احدى طغراءاته .

العثمانيين .

وقامت ثورات العساكر في مصر بين ١٥٨٩ و ١٦٠٩ ، واستغلها المماليك لمصلحتهم ، ووجهوها ضد معظم السكان المحليين العرب ، الذين حاولوا التسرب الى الطوائف العسكرية فمنعهم المماليك من ذلك . وبقضاء العثمانيين على هذه الثورات في مصر قضوا في الواقع على محاولة مملوكية استغلت الأوضاع الاقتصادية السيئة وتذمّر العساكر للسيطرة على مصر .

وقد تمرد العساكر في بلاد الشام على السلطات العثمانية ، ولكن تمردهم لم يبلغ حد العنف الذي تميزت به ثورات العساكر في القاهرة ، بسبب غياب العنصر المملوكي الناقم من صفوفهم . وحاول انكشارية دمشق اغناء انفسهم بابتزاز الأموال ، وبخاصة من الفلاحين في الريف . وأمكن لكثير من السكان المحليين العرب التسرب الى

٤



(٤) ـ هذه الخارطة لمكة المكرّمة والكعبة المشرّفة هي قيشانيّة تركية يظهر عليها اسم الصانع وهو أحمد (عمل أحمد) والتاريخ (١٠٧٣ هـ) . يلاحظ موضع الأباريق بالنسبة الى زمزم والى الميضأة . ازدهر فن صنع القيشاني وتزيينه لدى العثمانيين واشتهرت نيقية عالميا بقيشانياتها التي يزين بعضها اليوم أكابر متاحف الخزف في العالم .

(٥) ـ الشاه عباس الثاني (حكم ١٦٤٢ ـ ١٦٦٦) ، كانت له علاقات عادية مع العثمانيين بعد فترة حروب الشاه عباس الأول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) . فالعثمانيون اخرجوا الفرس من العراق (١٦٣٨) ومن ثم سادت علاقات جوار عادية حتى سنة ١٧٢٢ ، حيث تجدد العداء بين العثمانيين والصفويين . لكن الشاه عباس حكم بلاد فارس في الحقبة التي تمثل عهد الانحطاط في تاريخ الدولة الصفوية . ففي سنة ١٧٢٢ احتل الافغان عاصمتها اصفهان حتى أخرجهم منها نادر شاه الذي انهى الدولة الصفوية باعلان نفسه ملكا عام ١٧٣٦ .

٥



صفوفهم حتى غلبوا على طائفة الانكشارية في دمشق وعرفوا باليرلية (الانكشارية) تبعا لذلك. وارسل العثمانيون فرقا انكشارية جديدة الى دمشق (١٦٥٩) عرفت بالقابي قول، اي عبيد السلطان، وكانت أكثر ولاء للسلطان من الانكشارية اليرلية التي دافعت عن المصالح المحلية، وكان هذا سبب الصراع بين الطائفتين الانكشاريتين.

الامراء المحليون في بلاد الشام

في اعقاب ثورات العساكر استغل ضعف الدولة العثمانية عدد من الامراء المحليين. فثار في بلاد الشام، في الربع الاول من القرن السابع عشر، زعيمان محليان هما علي باشا جانبولاد، الزعيم الكردي في منطقة كلّس (حلب)، وفخر الدين المعني الثاني، أمير الشوف في جبل لبنان، اللذان تحالفا في الثورة. وقد استفاد علي باشا جانبولاد من موقعه الجغرافي ومن التعاون مع القبائل التركمانية والكردية في الاناضول. واستفاد كذلك من الازمة الاقتصادية التي أدت الى بطالة بين سكان الاناضول، الذين باعوا خدماتهم للزعماء الطموحين. وحاصر علي باشا والي حلب دمشق، مع حليفه فخر الدين (١٦٠٦) ثم ارتد عنها. وقضى العثمانيون على علي باشا بعد ذلك. أما الامير فخر الدين، الذي كان يمثل الزعامة الاقطاعية والحزب القيسي في لبنان، فقد امكنه في فترة ولايته (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥) أن يمد سلطته على الساحل اللبناني الشمالي بعد ازاحة آل عساف وآل سيفا، وعلى البقاع وشمال فلسطين. ولقب نفسه سلطان البر، وهزم والي دمشق في موقعة عنجر (١٦٢٣)، ومنحته الدولة لقب امير عربستان. ولكن الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) خشيت من اتساع سلطة فخر الدين، وكانت مهددة بالاحتلال الصفوي لبغداد، فقضت عليه (١٦٣٥). وانشأت الدولة ولاية صيدا (١٦٦٠) لمراقبة جبل لبنان. وحين اختير اول أمير شهابي (١٦٩٧)، تأزم الخلاف القيسي ـ اليمني وبلغ اوجه في موقعة عين دارة (١٧١١)، فكُسر اليمنية وهربوا ـ ومعظمهم من الدروز ـ الى جبل حوران فعرف تبعا لذلك بجبل الدروز.

العراق

وشهدت ولاية بغداد، في الربع الاول من القرن السابع عشر، ثورات عسكرية موجهة ضد السلطة العثمانية. وكانت اكثر عنفا مما جرى في الولايات العربية الاخرى. فموقع العراق الاستراتيجي، امام اعداء اشداء متربصين بالدولة هم الصفويون، استلزم ايجاد قوة عسكرية عثمانية كبرى لتقف في مواجهتهم. وهذا اظهر زعامات عسكرية لم تشهدها ثورات العساكر في الشام مثلا. وكانت ثورة بكر الشوباصي (١٦٢٢) اخطر ما أصاب بغداد، وبسببها احتل الصفويون بغداد (١٦٢٣ ـ ١٦٣٨).

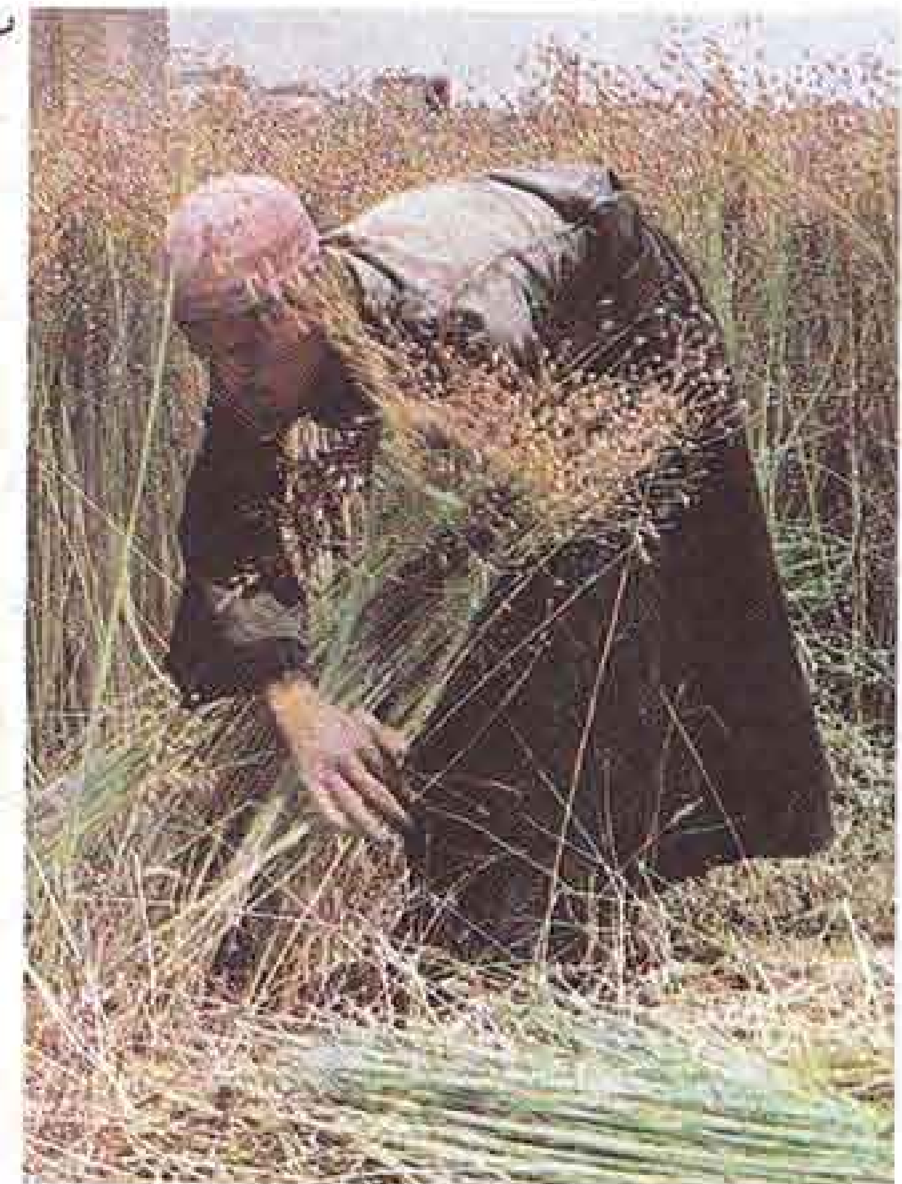
وثار في منطقة البصرة عدد من الامراء المحليين منهم السيد مبارك وآل افراسياب الذين حكموا البصرة (١٥٩٦ ـ ١٦٦٧) الى ان قضى عليهم العثمانيون. قامت هذه الثورات في زمن كانت فيه السلطة المركزية في اسطنبول تشهد ازدهارا على يد الصدور العظام من آل كوبريلي الذين شغلوا الصدارة العظمى من ١٦٥٦ الى ١٦٧٦.

البلاد العربية في القرن الثامن عشر

تأثرت اوضاع البلاد العربية ، في القرن الثامن عشر ، بالوضع العثماني العام . فقد فَقَدَ العثمانيون منذ معاهدة كارلوفيتز (١٦٩٩) زمام المبادرة العسكرية في اوروبا . وجابهتهم في القرن الثامن عشر قوى أخرى ، أهمها روسيا ، وبخاصة في عهد القيصرة كاترين الثانية ، التي هزمت الدولة العثمانية في حرب ضروس (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) .

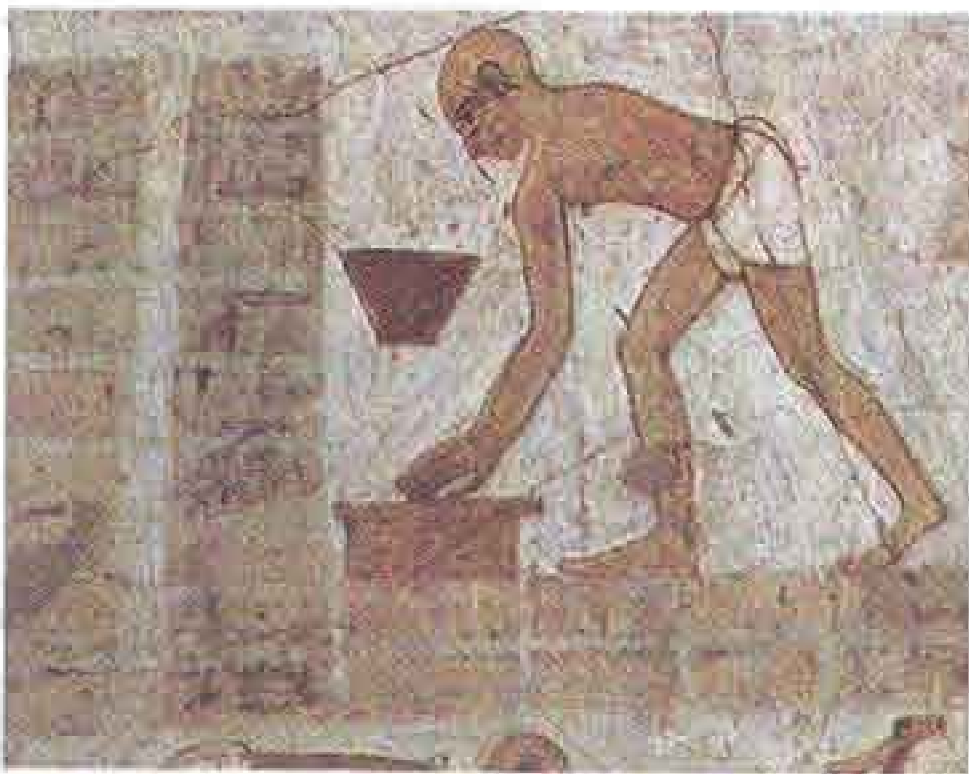
وشهدت الجبهة الفارسية ، منذ الربع الاول من القرن الثامن عشر ، تجدد القتال بين العثمانيين والحكام المتعاقبين في بلاد فارس .

كانت السلطة في اسطنبول موزعة بين الصدر الأعظم والقزلار آغا ، المسؤول عن









(١) ـ استمرار الكثير من طرق المعيشة التقليدية في مصر منذ نشوئها حتى اليوم قد يكون من ابرز واهم الخصائص المميزة للمجتمع المصري . فعلى جدار احد الاضرحة القديمة العائدة الى عهد الفراعنة رسم هذا المصري وهو يقتلع قضبان نبتة القطن (ب) . وهو بذلك يمثل منذ آلاف السنين ما يزال يفعله الفلاح المصري الحديث (أ) في زراعة القطن وحصاده . كذلك مثلما كان البنّاء المصري القديم يجفف الطين الذي كانت تتركه وراءها مياه النيل بعد الفيضان ويجعل منه آجرًا لبناء المنازل (ث) . هكذا لا يزال البناء المصري الحديث (ت) يستعمل هذا الطين للغاية ذاتها . ولا شك ان فلاحي وبنّائي مصر في القرن الثامن عشر لم يشذوا عن هذه القاعدة .

---

(٢) ـ تنخفض منطقة الفيوم (وكانت تسمى بحيرة موريس) نحو ٤٥ مترا عن سطح البحر . وهي منطقة خصبة . اذ ان النيل ، اذا فاض ، يغمر جزءا منها . فاذا جفت التربة اينع فيها الزرع والشجر . وأهل الفيوم مشهورون بتربية الحمام . ويبدو ان عادة اكل الحمام قديمة في مصر . والصورة تمثل برجا لتربية الحمام يعود أصله الى حول سنة ١٦٨٩ . بعد ادخال اصلاحات عليه .

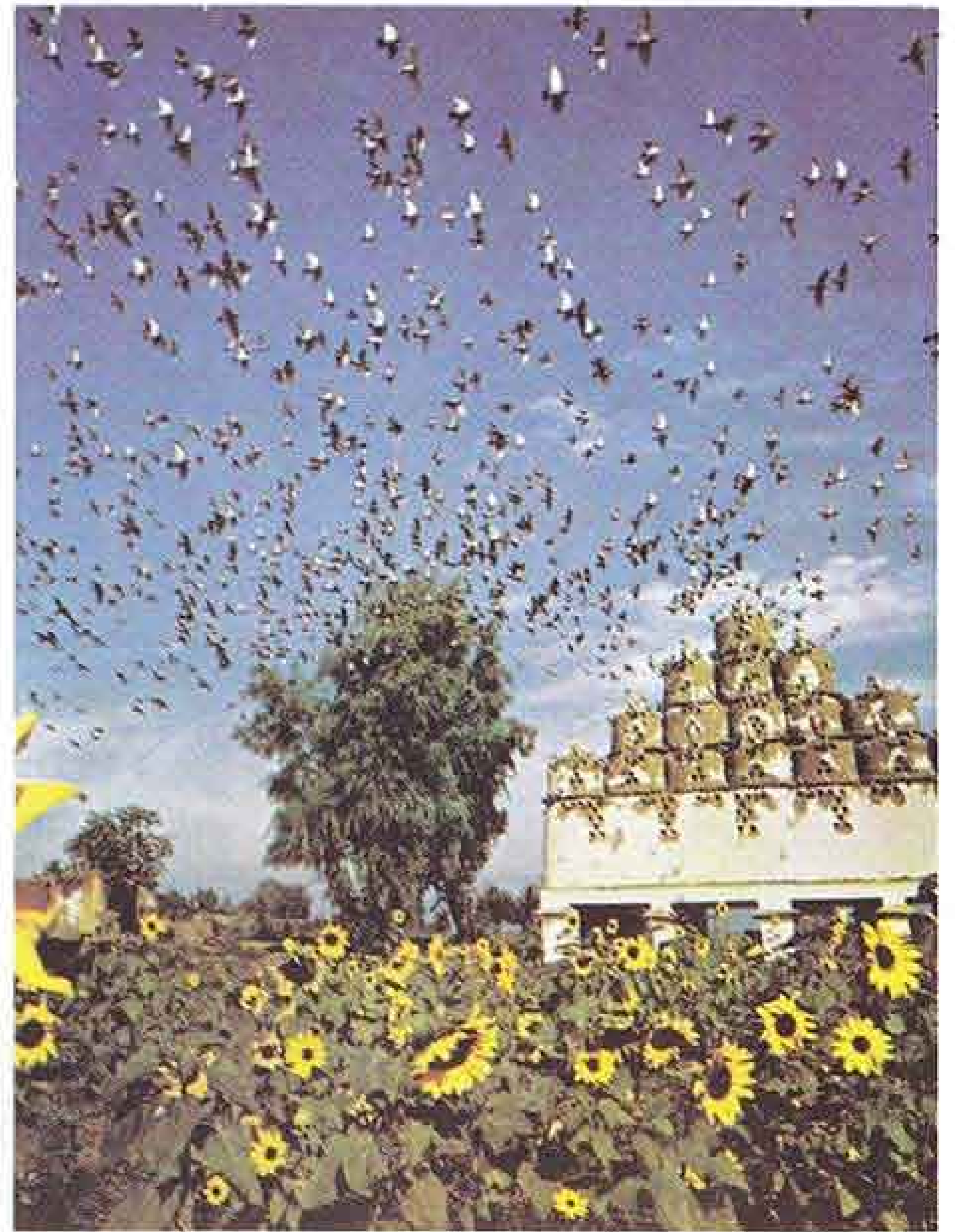
---

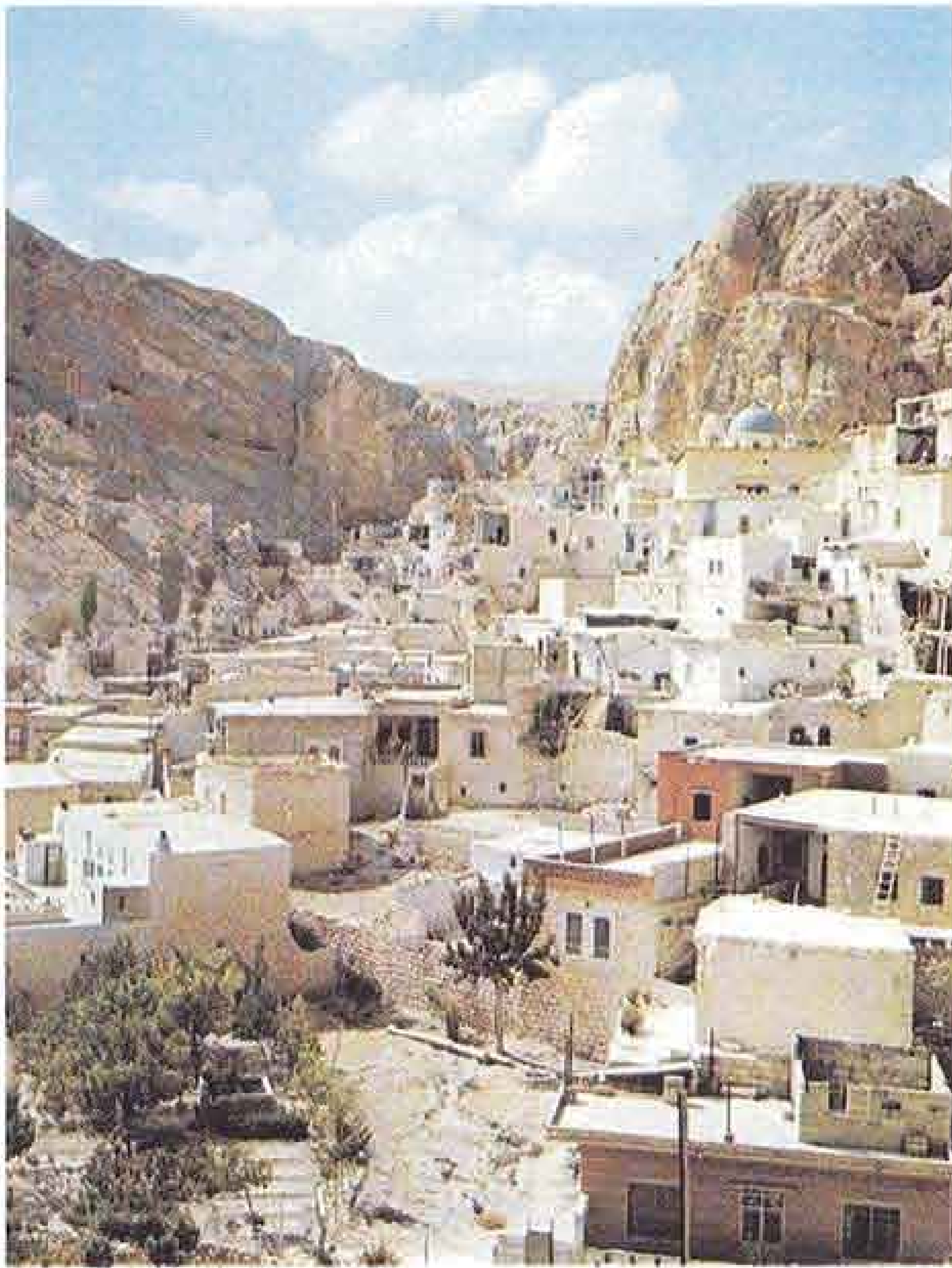
(٣) ـ معلولا ـ تقع هذه القرية على بعد ٥٦ كلم الى الشمال من دمشق . وهي تمثل القرية الشامية الجبلية التي حافظت على شكلها محافظة تكاد تكون تامة . وسكان قرية معلولا كانوا في القرن الثامن عشر يتكلمون فيما بينهم اللغة السريانية ولا

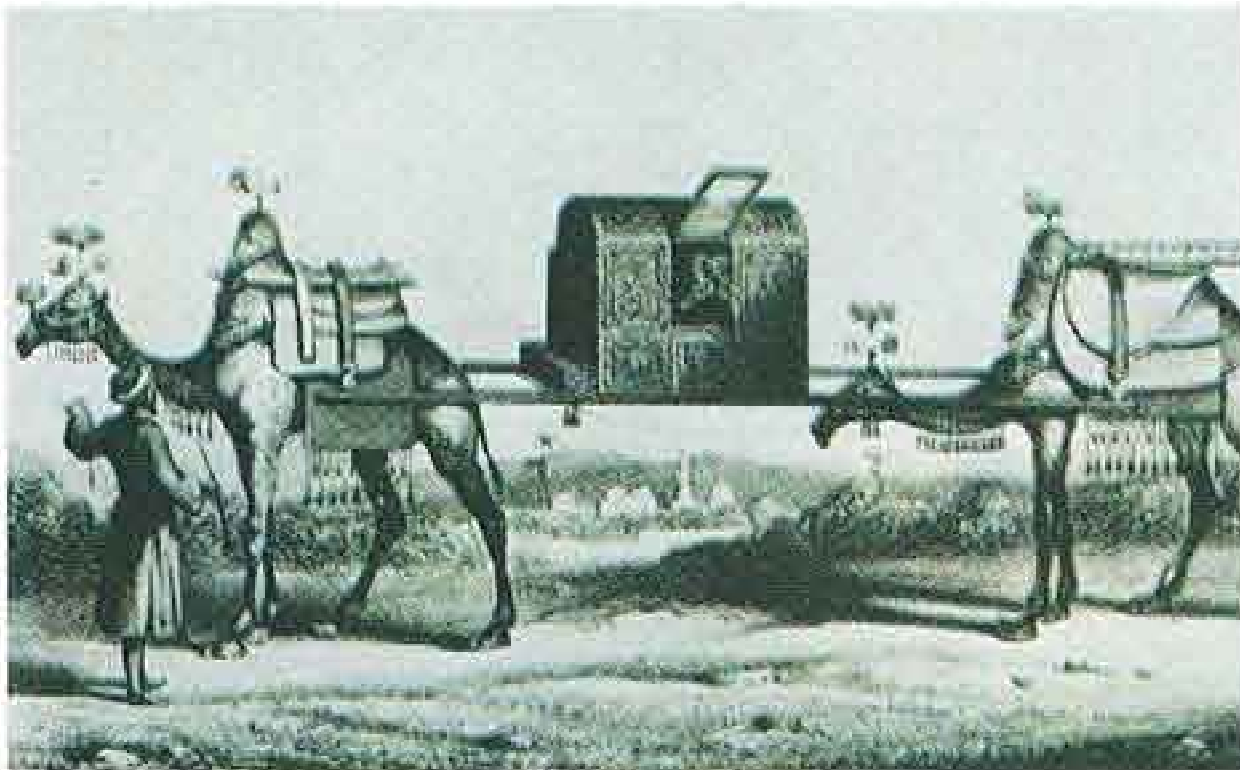
حريم السلطان . فتناقصت هيبة السلطة المركزية ، وعجزت عن تحقيق الأمن . وأتاح ذلك الفرصة لظهور حكام محليين في كثير من الولايات ، اضطرت الدولة الى الاعتراف بسلطتهم .

النفوذ المحلي في بلاد الشام

نلاحظ ازدياد النفوذ المحلي في بلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، على مختلف المستويات . فقد اصبح كبار الموظفين الدينيين ، مثل المفتين ونقباء الاشراف ، يختارون من بين ابناء الأسر المحلية . كما ان موظفين من اصل محلي احتكروا وظيفة الدفتردار ، وهو المسؤول عن المالية في ولاية الشام . واشتهر ، في هذه الفترة ، الجنود الانكشارية اليرلية ، وهم دمشقيون تسربوا الى طائفة الانكشارية ، وسيطروا عليها . وأخذت هذه الطائفة تدافع عن المصالح المحلية ، كما

٢


٣


٤


يستعملون اللغة العربية الا عند زيارتهم لدمشق أو لغيرها من المدن السورية . لا تزال اللغة السريانية مألوفة الى حد ما في هذه القرية حتى اليوم . الصورة تمثل معلولا في مطلع القرن التاسع عشر .

---

(٤) ـ الحج الى بيت الله فريضة على المسلم (ان استطاع الى ذلك سبيلا) . وقد كانت دمشق مركزا لتجمع الحاج الشامي . الذي كان ينضم اليه عادة حجاج من شمال العراق والاناضول كما كانت القاهرة مركزا لتجمع حجاج مصر والشمال الافريقي والبلدان الافريقية السوداء .

اشتهر الاشراف في حلب، ومارسوا دورا سياسيا لم يعرفه أمثالهم في أي مكان آخر في الدولة العثمانية آنذاك. ويبدو ان السبب في ذلك هو ان الاشراف، في ولاية حلب، كانوا الطائفة الوحيدة التي أمكن للسكان المحليين ان يعبروا بواسطتها عن ازدياد قوتهم وان يقاوموا ظلم الولاة والانكشارية.

ووطدت مجموعة قبائل العنزة وشمر سلطتها في بادية الشام في القرن الثامن عشر، بعد ان خرجت من الجزيرة العربية بدافع الجفاف وكثرة السكان. وسهّل انحطاط السلطة العثمانية لهذه القبائل توطيد نفوذها وسيطرتها على الطرق التجارية في البادية.

وتبدّى النفوذ المحلي، في بلاد الشام، أكثر ما تبدّى في ظهور الولاة من آل العظم. وقد عاصرهم، في شمال فلسطين، الزعيم المحلي ظاهر العمر (١٧٧٥) الذي استفاد من نشاط المنطقة الاقتصادي ومن التعامل مع

٥



٦

(٥) - شغل خمسة من آل العظم ادارة ولايتي دمشق وطرابلس ومدينة حماة في القرن الثامن عشر. وكان هؤلاء الحكام يحرصون، جريا على عادة ذلك الوقت، ان تكون بيوتهم قصورا انيقة. فاستقدموا لبنائها وزخرفتها مهرة المعماريين والصناع وأهل الفن. الصورة هي لجزء من صالة الاستقبال في قصر آل العظم في حماة. بنى هذا القصر اسعد باشا العظم (١٧٤٢). والقصر الآن متحف للآثار.

التجار الفرنسيين لتوطيد حكمه . لكنه قُتل في آخر الأمر وتبعثرت اسرته . وجاء بعده أحمد باشا الجزار الذي اعتمد على قوات مملوكية وجعل مركزه عكا .

العراق والجزيرة العربية

شجع ضعف السلطة المركزية قيام حكم متوارث في كل من الموصل وبغداد ، وحكم مملوكي في كل من بغداد والبصرة في القرن الثامن عشر .

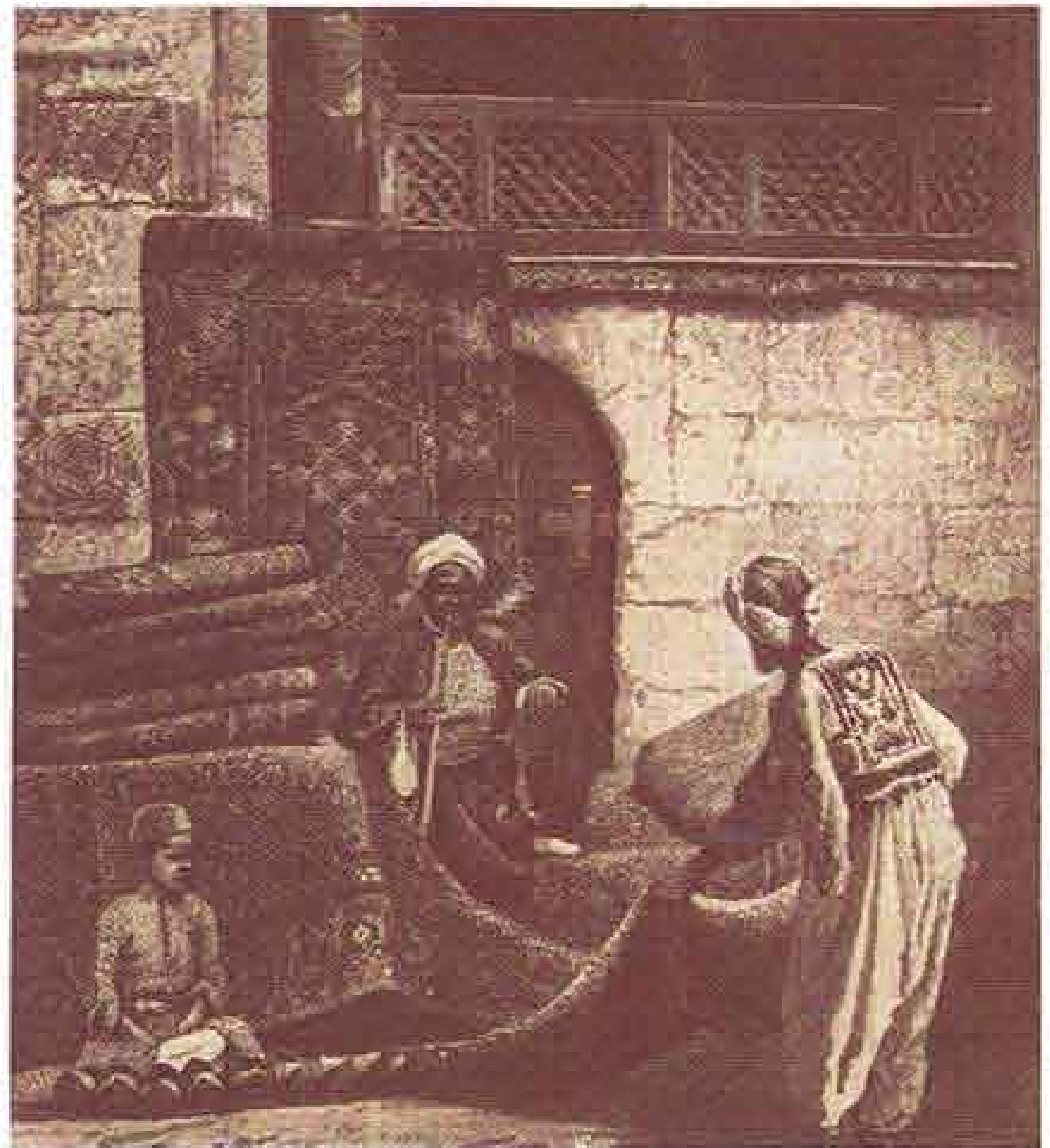
وقد ازداد عدد الامارات المستقلة في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ، وبخاصة في المناطق الشرقية ، ومنها امارة الدرعية لآل سعود الذين تبنوا حركة محمد بن عبد الوهاب في الاصلاح الديني التي سماها العثمانيون بالوهابية . كانت هذه الحركة ، بجانب معناها الديني ، من أبرز حركات التحدي السياسي للعثمانيين في الجزيرة العربية والعالم الاسلامي ، وتأتي أهميتها بصورة خاصة من انها رافقت تحديات سياسية أخرى للعثمانيين .

مصر وشمال افريقية

اختلفت صورة الاحداث في مصر ، في القرن الثامن عشر ، عنها في بقية بلاد المشرق العربي بسبب اختلاف نوعية الفئات المتصارعة على النفوذ في كل منها . وقد بلغ النفوذ المملوكي في مصر الذروة آنذاك .

وظهرت في طرابلس الغرب ، في القرن الثامن عشر ، الأسرة القرمانلية (١٧١١) . وتسلم الحكم في تونس (١٧٠٥) حسين بن علي ، مؤسس السلالة الحسينية التي حكمت تونس حتى عام ١٩٥٧ . أما الجزائر ، فقد سيطر عليها الدايات العسكريون منذ عام ١٦٧١ حتى عام ١٨٣٠ ، وطغوا على سلطات الباشا العثماني .

يلاحظ ان هذه الحكومات السلالية في الجزائر وتونس وطرابلس ، كما في الشام والموصل وبغداد والجزيرة العربية ، قد استمدت قوتها ، بصورة رئيسية ، من قيامها بدور أمني ، عجزت الدولة العثمانية عن تأمينه في فترة انحطاطها .

٧


(٦) ـ النورج (او المدراس) هو الآلة التي كانت تستعمل لفصل الحبوب ، وخاصة القمح والشعير ، عن القش . وكان الحمار او الثور هو الحيوان الذي يستعمل لجر النورج . الصورة تمثل فلاحا في جنوب فلسطين (في القرن الثامن عشر) يسوق ثورين يجران النورج . وثمة رجل (الى يسار الصورة) يكوم سنابل الحب ليدور النورج عليها . اما الولدان فهما يشاركان عملا ولعبا .

(٧) ـ سوق للسجاد التركي او العجمي (الايراني) في القاهرة في القرن الثامن عشر . لا يستغنى فيه عن الشاب الجالس فوق السجادة منتظرا ، اذ لا يمكن بدونه فتح السجادة لعرضها على المشتري ، ولا لفّها اذا بيعت او ضبها اذا بقيت في المحل . فضلا عن السجاد المستورد من تركيا ومن بلاد الفرس ، كانت لدى السوريين والمصريين ولا تزال صناعات صغيرة لصنع السجاد .

مصر وبلاد الشام في القرن الثامن عشر

ضعفت القبضة العثمانية على الادارة المحلية في البلدين ، ولم يعترض السلطان على استيلاء ثوار صغار على الحكم في مقاطعاتهم المحلية ، ووافق على استمرار وجود الزعماء المحليين ، وترك هؤلاء الثوار يتحاربون ويثقلون كاهل الرعية ويحرمونها الامن . ولم يملك الباب العالي قوة عسكرية دائمة الاستعداد سريعة الحركة تستطيع التدخل كلما لزم الأمر . لذا اكتفى بتجهيز حملة لمثل هذا الأمر عند الضرورة القصوى . فلم يرسل سوى حملة عسكرية واحدة ضد مماليك مصر ، بالرغم من اعتداءاتهم المتكررة على الولاة ، ولم يتدخل لوقف المعارك المحلية في حلب أو غيرها .

(١) ـ صورة حديثة لناعورة على العاصي في حماة ، كما يظهر من بعض سماتها التي تمت الى القرن العشرين . لكن اذا حذفنا هذه ، فالباقي هو كما كان قبل قرنين أو اكثر من الزمان . فالناعورة تدور على العاصي لتحمل الماء منه في اوعية معلقة عليها ، ثم تصبه في قناة توصله الى الاراضي المجاورة او الى البيوت .

(٢) ـ حكم خمسة من آل العظم دمشق وحماة وطرابلس ولاة تعينهم الدولة العثمانية . وكانت ادارتهم على العموم نافعة . وقد خلف هؤلاء ابنية جميلة في دمشق وحماة . الصورة هي لرواق من اروقة قصر العظم في دمشق ، ويرى انعكاس صورة الاقواس في ماء البركة التي تحيط الاروقة بها .

(٣) ـ تقوم بلدة الناصرة (شمال فلسطين) على تلال ثلاث تفصل بينها اودية غير عميقة . هذه صورة لاحدى حاراتها (اي اقسامها) الثلاث رُسمت في القرن الثامن عشر . والناصرة هي بلدة سيدتنا مريم عليها السلام . ولم يكن عدد سكانها ، في القرن الثامن عشر ، يزيد عن ثلاثة او اربعة آلاف نسمة ، وكانت مركزا تجاريا للقرى الكثيرة التي تحيط بها .

١



٣



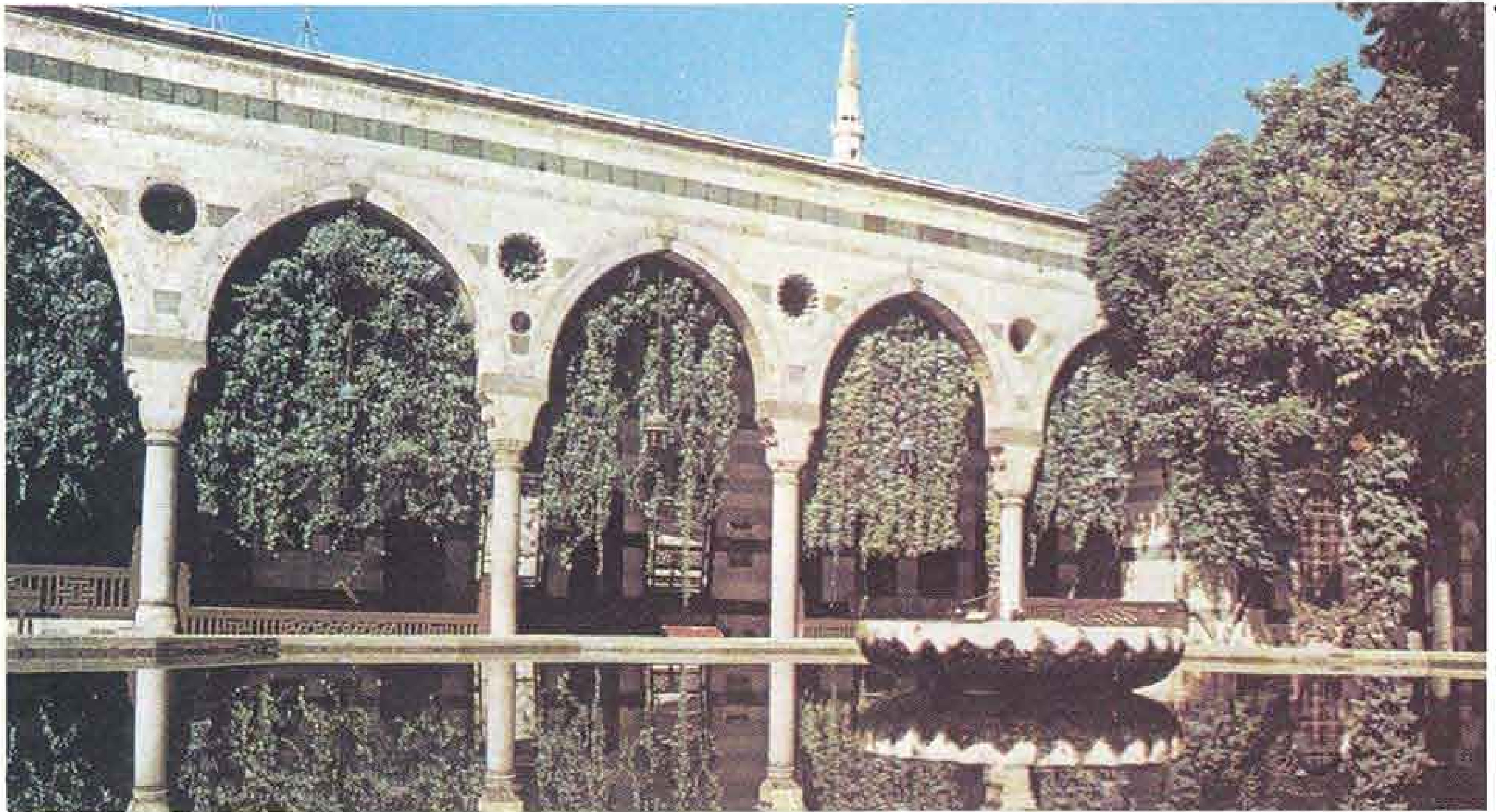
٤



مصر

كانت مصر ولاية واحدة يديرها نظريا الوالي العثماني الذي كان نفوذه ثانويا تقريبا بينما كانت السلطة الفعلية بيد المماليك . وانقسم المماليك الى فقارية وقاسمية وتنازعوا السلطة او تقاسموها . ولكن ذلك لم يمنع مصر من تقديم عون عسكري ومادي للدولة في حروبها الخارجية خلال النصف الاول من القرن . فارسلت ثلاثة آلاف جندي مدربين ومزودين بكمية وافرة من الذخائر والمواد الغذائية . ثم قضى الفقارية (١٧٣٠) على القاسمية نهائيا . وبرز خلال النصف الثاني من القرن علي بك الكبير الذي فر مرتين ، لكنه عاد (١٧٦٧) ، وثبت مركزه في مصر ، وأسند السنجقيات لمماليكه ، وقضى على نفوذ امراء الاعراب ، ومد نفوذه الى الحجاز . ولجأ عدد من منافسيه المماليك الى والي الشام عثمان باشا الكرجي الذي رفض تسليمهم

٢



٥



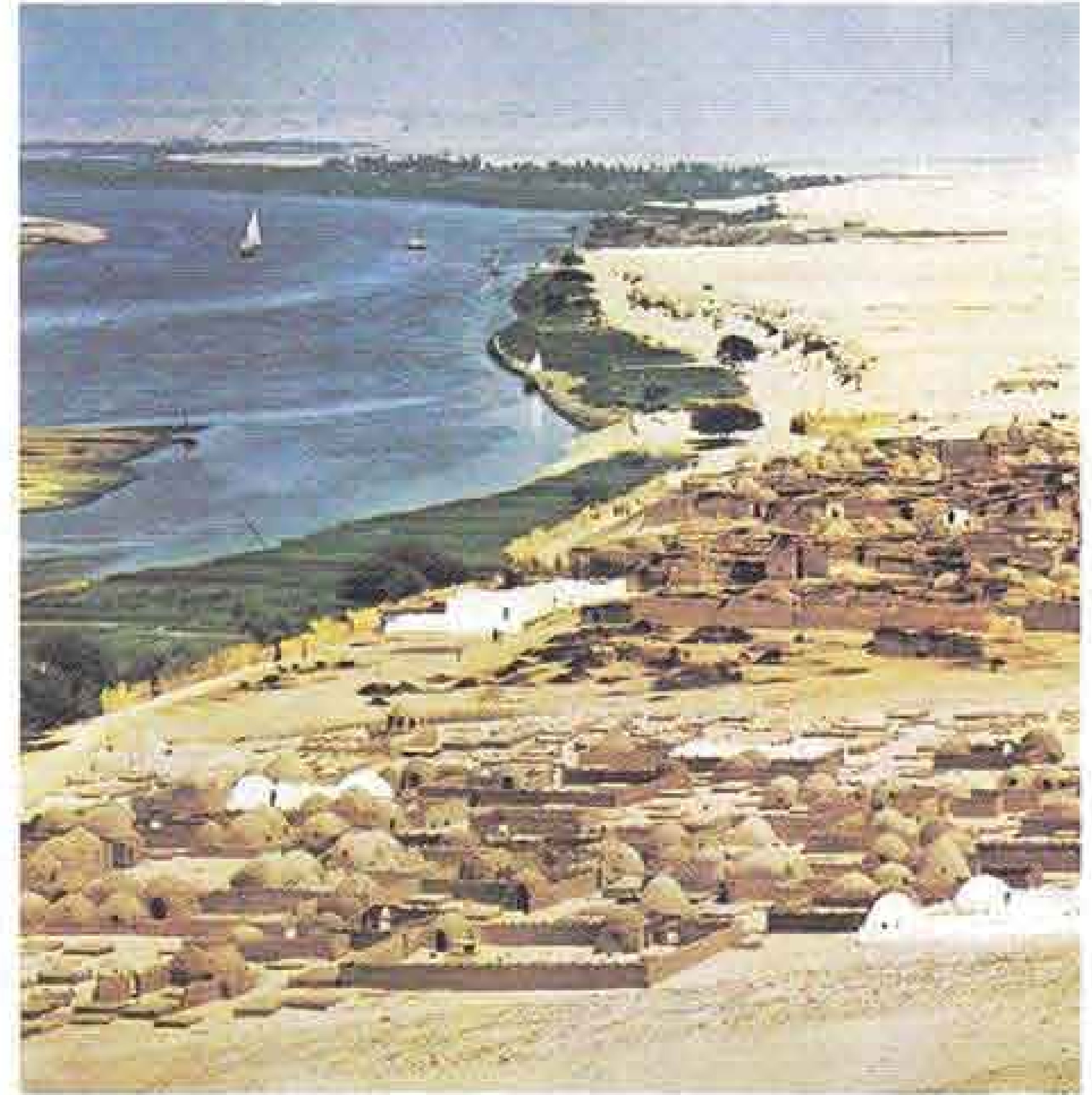
(٤) ـ كانت يافا ـ الى مطلع القرن العشرين ـ الميناء الرئيسي في فلسطين . ويعود ذلك الى انها اقرب مدينة بحرية الى القدس التي كان يزورها الكثير من الحجاج المسيحيين . لم يكن ليافا ميناء بالمعنى الدقيق ، لذلك كانت السفن تقف في عرض البحر ، ثم ينتقل الركاب ـ منها واليها ـ في قوارب صغيرة . فاذا هاج البحر سحبت هذه القوارب الى البر للمحافظة عليها . الصورة ليافا من البحر (القرن الثامن عشر) والرجال الظاهرون فيها هم حراس للقوارب .

(٥) ـ صورة لزيارة (من القرن الثامن عشر) في جهات غزة (جنوب فلسطين) . الصينية الموضوعة على الكرسي الصغير عليها الاشياء المعدة لضيافة الزوار . والشيخ يتلو على الحاضرين (ويبدو ان بينهم امرأة قرب الشجرة) من كتاب بين يديه .

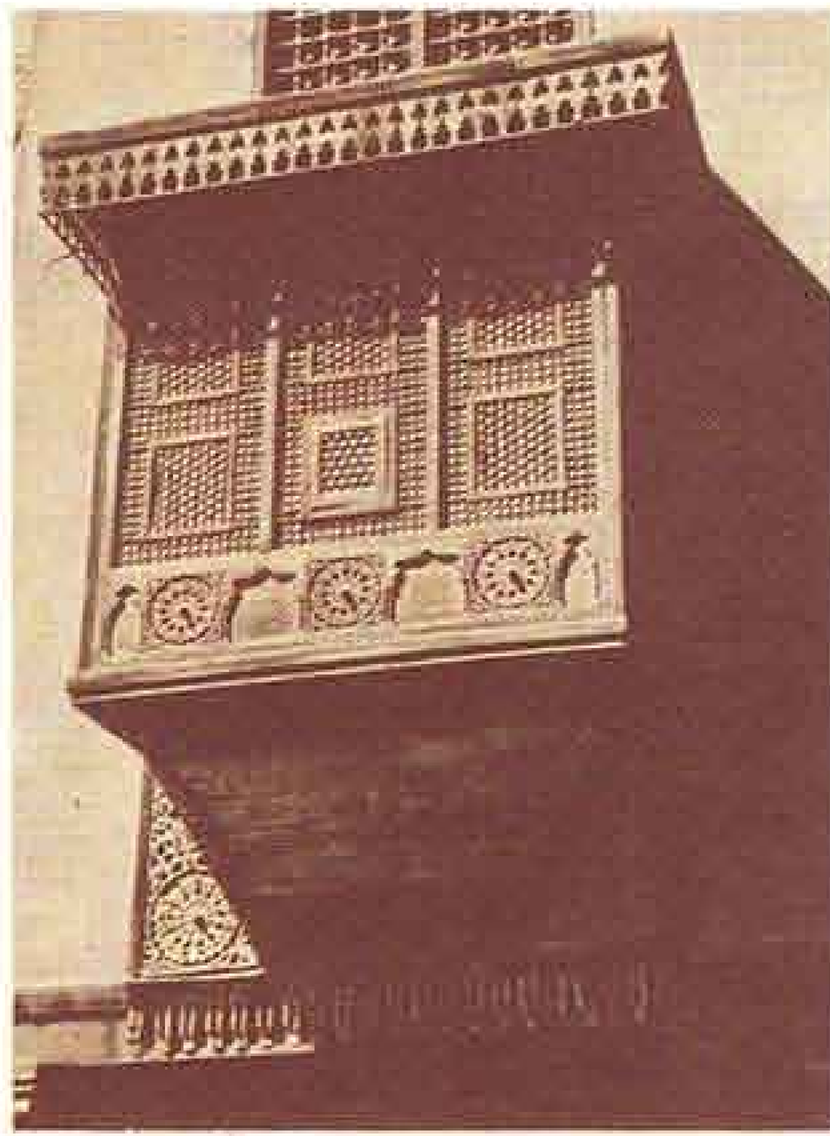
اليه . فتحالف علي بك مع الشيخ ضاهر العمر حاكم عكا والجليل . وهاجم جيش علي بك بقيادة محمد ابي الذهب جيش عثمان باشا وهزمه ودخل دمشق (١٧٧١) . ولكن ابا الذهب ما لبث ان انسحب من دمشق ، وعاد الى القاهرة ثائرا على سيده . وفر علي بك من مصر الى حليفه ظاهر العمر واستعانا معا بالاسطول الروسي الذي كان قد حطم الاسطول العثماني قبل ذلك بعامين ، وعاد علي بك الى مصر ، ولكنه هُزم وجُرح وأسر (١٧٧٣) ثم مات . واعلن ابو الذهب ولاءه للسلطان العثماني وقاد حملة ضد ظاهر العمر ، ولكنه مات فجأة في عكا (١٧٧٥) . وانتقلت السلطة في مصر الى مملوكيه ابراهيم ومراد .

الشام

قُسّمت بلاد الشام الى اربع ولايات هي

٦


(٦) ـ الاصل في هذه الصورة انها لوحة زيتية رُسمت في مطلع القرن التاسع عشر لقرية ابو قرقاص القابعة على ضفة النيل . بيوتها مقببة السقوف ، وذلك لأن مثل هذا السقف ادعى الى دخول الهواء اليها . مثل هذه البيوت توجد في سهول حماة وحمص وسوريا ، وتستعمل الى الآن ، لكن هنا تساعد هذه القباب على ان يسيل ماء المطر عنها بيسر .

٧


(٧) ـ شاعت المشربيات الخشبية في مناطق مختلفة من العالم العربي . فهي بالاضافة الى قيمتها الزخرفية الفنية ، تسمح بالتهوئة دون ان تعرض الموجودين في الداخل لعيون الجيران . هذه الصورة ترجع الى مطلع القرن التاسع عشر ، وهي لبيت كان في « بين القصرين » في القاهرة القديمة .

٨


(٨) ـ بناء سبيل للماء ، تيسيرا للمارة ليشربوا ، او للجيران ليملؤا جرارهم ، أمر مألوف في المدن العربية . وهو على العموم من نوع الوقف الذي ينشئه ثري أو حاكم او ما الى ذلك . ومن المألوف ان يبنى فوق السبيل قبة او كشك يغطيه ويقوم هذا السقف على عمد صغيرة غالبا ما تكون محفورة . هذه الصورة لسبيل ماء في دمشق في القرن الثامن عشر . والأشخاص الظاهرون في الصورة هم : رجل يستقي من السبيل ، ورجل يبيع فطائر او حلوى ، وامرأة (محجبة) تركب حمارا وتبتاع من البائع ما تحتاج اليه . وكان يحفر فوق السبيل الآية الكريمة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

حلب ودمشق وطرابلس وصيدا . وكان لوالي دمشق ، قبل عام ١٧٧٥ ، تأثير كبير على ولايتي طرابلس وصيدا واحداثهما . ولعبت عائلة العظم دورا بارزا في تاريخ هذه الفترة . فقد حكم اربعة منهم دمشق سبعا وثلاثين سنة . وحكم ستة منهم ولاية طرابلس وصيدا فترات مختلفة . كما ان اثنين منهم حكما حلب فترات قصيرة ، وحكم مملوكهم عثمان باشا الكرجي وولداه محمد ودرويش ثلاث عشرة سنة . ثم شغلت أحداث جبل لبنان واليي طرابلس وصيدا اللذين لم يجدا لها حلا . وواجه والي دمشق فتن الانكشارية من قابوقول ويرليه بالاضافة الى مشكلة قيادة قافلة الحج السنوية وحمايتها من الاعراب . وقد اقصى الوالي القابوقول من دمشق (١٧٣١) لضمان الامن . ولكن اليرلية ازدادوا تحديا لسلطة الوالي وكثر نشاط زرباواتهم ، فهاجم الوالي اسعد باشا العظم قلعة دمشق التي تمركزوا فيها واعاد القابوقول الى دمشق لاقامة توازن بين القوى . وعجز الولاة عن وقف التراشق بالمدفعية في دمشق نفسها . وتجرأ اعيان دمشق على الوالي فأخرجوه واعوانه من المدينة واقرهم السلطان على ذلك .

وفشل الولاة في بسط الأمن والعدل والاستقرار خارج دمشق ايضا . ونجح ولاة دمشق من آل العظم في ايصال قافلة الحج بسلام بعد ان اشتروا هذا السلام بمبالغ من المال دفعوها للاعراب . وتعرضت القافلة وجردتُها لكارثة على يد بني صخر (١٧٥٩) ، ولم تستطع الدولة معاقبتهم او حتى منعهم من بيع ما نهبوه في اسواق المدن السورية . وهدد الاعراب أمن القرى الزراعية مما أثر بصورة سيئة على الزراعة وأدّى الى هجر القرى والحقول . وكان الوالي يجرد أحيانا حملات تأديبية انتقامية ، فتعمل في البلاد فسادا وقتلا ونهبا . واتهم بعض الولاة بمصالحة البغاة وقطاع الطرق وتحريض بعضهم على الفتنة .

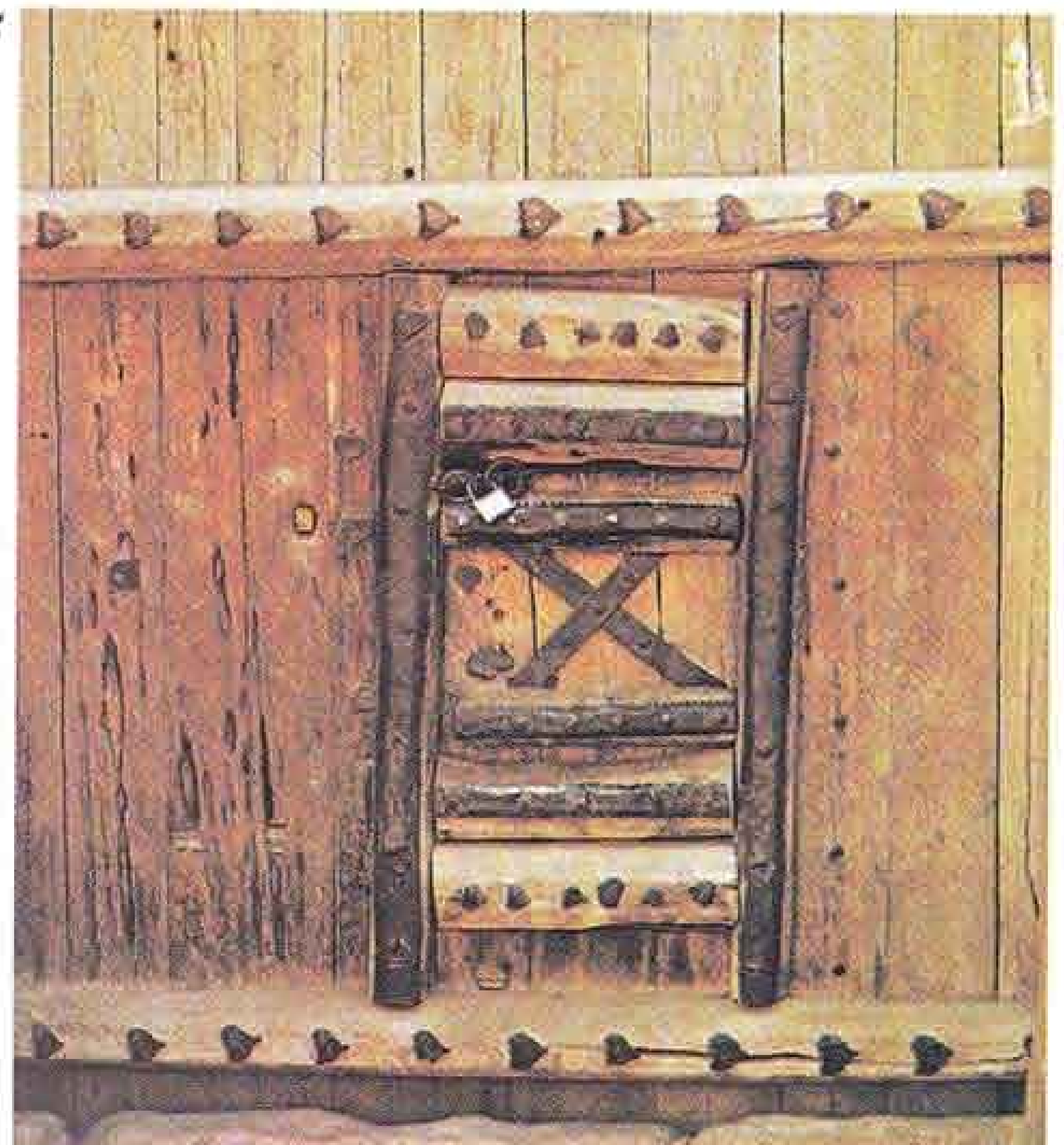
المناطق الجبلية في بلاد الشام

كانت المناطق الجبلية بعيدة عن سلطة الدولة . فلبنان تزعّمه آل شهاب بدءا من اوائل القرن الثامن عشر . وكان ابرزهم بشير الثاني (١٧٨٩ ـ ١٨٤٠) . ونمت القوة الشيعية في جبل عامل بزعامة آل الصغير الذين تحالفوا مع ظاهر العمر المسيطر على شمال فلسطين والمتمركز في عكا وحصنها . تحدى ظاهر العمر والي دمشق ، وتحالف مع علي بك الكبير المصري ومع الاسطول الروسي ، وحوّل التجارة بحيث اصبحت تمر بدمشق وعكا بدل حلب . ظل ظاهر العمر سيد الموقف الى ان تغلب عليه اسطول عثماني بقيادة حسن باشا (١٧٧٥) .

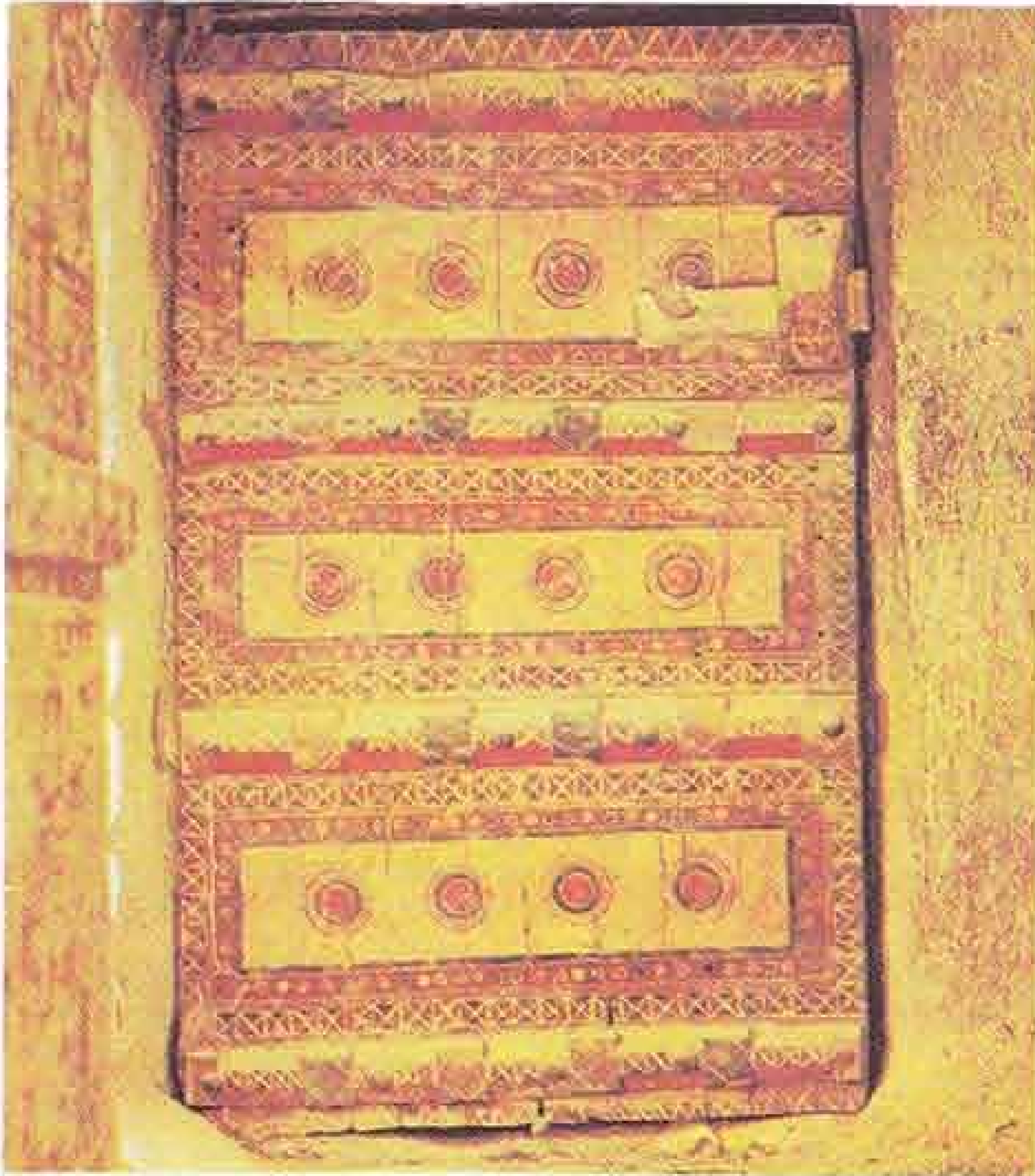
خلف ظاهر العمر في عكا أحمد باشا الجزار والي صيدا ، فسحق مقاومة المتاولة (١٧٨١) وسلخ تدريجيا عن لبنان اكثر الساحل ، وتدخل فيما بين الشهابيين ، وبعد ان نال من حاكم جبل لبنان الامير يوسف الشهابي ما يريد ، دحره في معركة قرب قب الياس ١٧٨٨ ثم شنقه في سجن عكا وعمل على تولية بشير الثاني مكانه . وقد وقف الجزار امام نابوليون في عكا بمساندة الانجليز واضطره على الانسحاب منها (١٧٩٩) فزادت بذلك هيبته حتى مات ١٨٠٤ .

العراق والجزيرة العربية في القرن الثامن عشر

في القرن الثامن عشر كان النفوذ العثماني يضم العراق (الذي شهد نزاعات وثورات محلية) لكنه لا يصل جنوب الجزيرة العربية. فالجنوب الشرقي منها كان منذ قرون طويلة امامة مستقلة غزاها البرتغاليون مبكرين (١٥٠٨) ثم حررها اليعاربة وحكموها (منذ ١٦٢٤) ومدوا نفوذهم (منذ ١٦٥٠) الى شرقي افريقيا. ثم تلاهم آل بوسعيد (منذ ١٧٤١ حتى اليوم) الذين صارت سلطنتهم امبراطورية بحرية تجارية قسم منها في عمان وقسم في شرقي افريقيا (حتى ١٨٥٦) ولم يكن بينها وبين العثمانيين احتكاك. اما اليمن فقد تخلص من الحكم العثماني (١٦٣٥) وقامت فيه امارة زيدية مستقلة. ورغم بقاء الحرمين الشريفين مع السلطان فقد ظهرت في



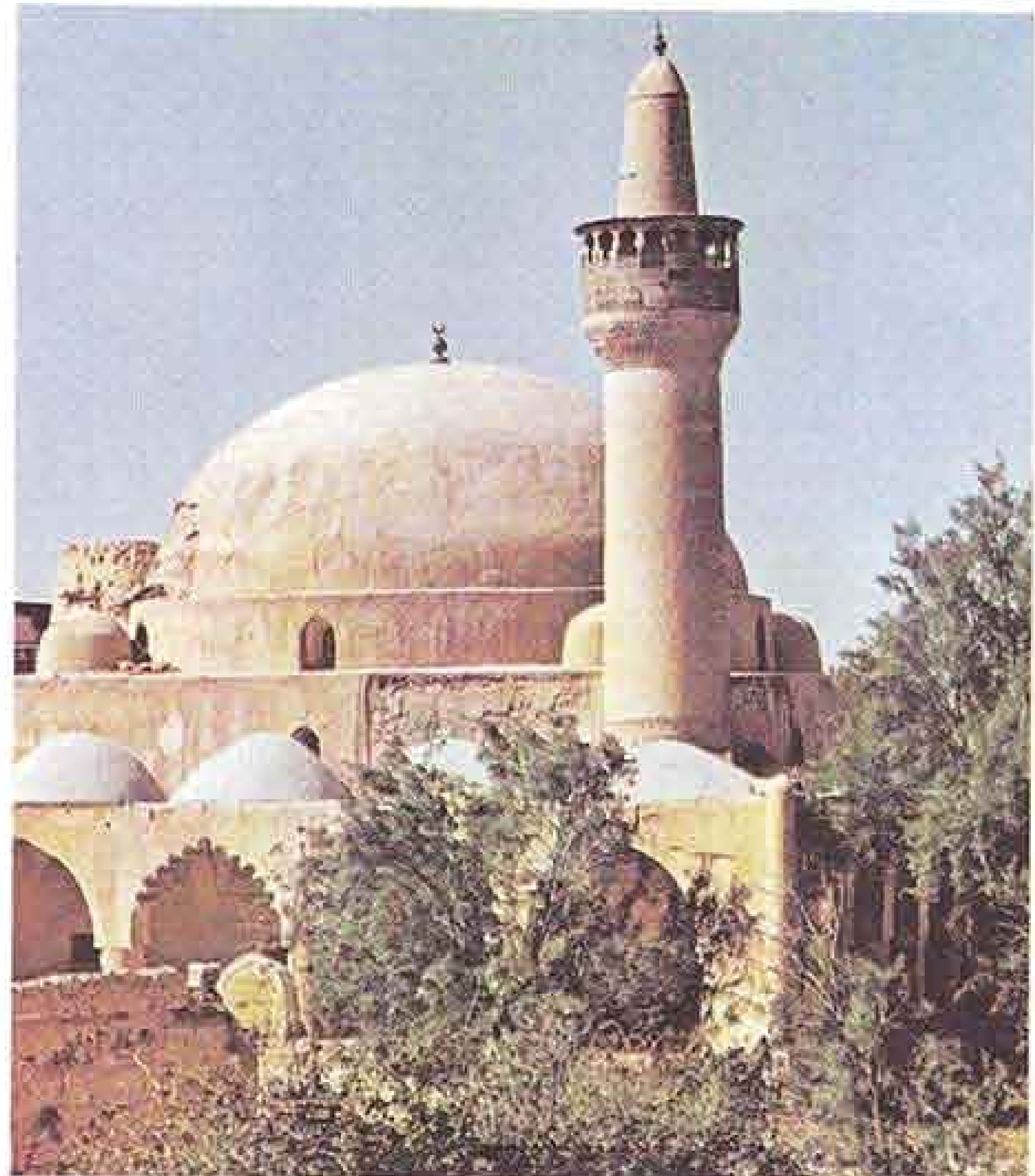
١



٢

(١) - باب (خشبي) صغير قائم في البوابة الكبرى لقصر المصمك القديم في الرياض.

(٢) - باب مزخرف من قصر ابن رشيد في حائل. الزخرف من القرن التاسع عشر، لكن البناء الاصلي أقدم من ذلك. كان ابن رشيد في حائل منافسا لآل سعود في الدرعية. وكانت الحروب بين الفريقين مستمرة خلال القرن الثامن عشر، وان كانت لا تعدو كونها غزوات.



٣

(٣) - ينسب هذا القصر الى الوالي ابراهيم فيضان امير الاحساء في عهد سعود بن عبد العزيز (١٨٠٣ - ١٨١٤). الجزء الاصلي من القصر يعود الى القرن السابع عشر للميلاد. المسجد يقوم في القصر، وقباب هذا المسجد تلفت النظر بعددها وتناسقها.

(٤) - تقع الدرعية عاصمة آل سعود الأولى شمال غربي الرياض، وعلى جانبي

نجد والاحساء امارات بدوية محلية وحركات عديدة لعل أهمها ظهور محمد بن عبد الوهاب وتبني آل سعود (في الدرعية) لدعوته الاصلاحية.

العراق

في تلك الحقبة كانت حدود العراق الجغرافية غير واضحة المعالم ، بل كان هذا البلد مقسما الى عدد من الولايات كان كل منها واقعا تحت السيطرة العثمانية . وهذه الولايات هي ، من الجنوب الى الشمال ، البصرة وبغداد وهي أهمها والموصل وشهروز . لكن بغداد كانت الولاية الرئيسية التي تحكمت بأحداث الولايات الأخرى . فقد كان لوالي بغداد رأي مسموع في تعيين ولاة البصرة والموصل او اعفائهم من مناصبهم . وأسند الى والي بغداد ادارة واحدة أو اكثر من هذه الولايات بالاضافة الى ولاية بغداد . وكان الجزء الأكبر من ولاية البصرة خارج حدود ما يعرف الآن بالعراق .

٤



٥

وادي حنيفة . يرجع تاريخها الى منتصف القرن الخامس عشر . الا ان اهمية الدرعية تعود الى انه في منتصف القرن الثامن عشر وصل اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي وجد في شخص محمد بن سعود خير مؤازر ونصير له في سبيل دعوة الاصلاح واحياء السنة المحمدية . هُدمت الدرعية سنة ١٨١٨ على أيدي القوات العثمانية التي ارسلت من مصر للحد من النفوذ السعودي.

(٥) ـ قصر المصمك في الرياض . يبدو في الصورة برجان من القصر وجزء من السور . كان هذا القصر هدف المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود لما احتل الرياض (١٩٠٢) ووضع اللبنة الاولى في بناء المملكة العربية السعودية . أول بناء للقصر يعود الى قبل الحادثة بنحو قرن . بعد أن حكم آل سعود قسما كبيرا من الجزيرة العربية طيلة قرن بكامله ، تغلب عليهم ابن الرشيد وأخرجهم من عاصمتهم الرياض عام ١٨٨٠ ، فالتجأوا الى الكويت . عندما بلغ عبد العزيز سن الواحدة والعشرين ، قرر استرجاع ملك اسرته . فتقدم مع انصاره الى الرياض ودخلها ليلا (يناير ١٩٠٢) واحتموا في مكان أمين في جوار قصر المصمك . كان من عادة الحاكم الرشيدي أن يقضي ليلته في القصر ويخرج منه في الصباح مع الفجر. عندما خرج الحاكم في ذلك الصباح مع حراسه ، هاجمه عبد العزيز ورجاله فوقع اشتباك بين الطرفين انتهى بمقتل الحاكم . على اثر ذلك دخل عبد العزيز القصر واحتله وأخذ يتوسع ، رغم مقاومة بني الرشيد العنيدة ، فيما كانت تهلل له وتنضم اليه اقوام شبه الجزيرة وقد سحرتها شخصيته القوية والجذابة ، حتى سيطر على كامل ما عرف « بالمملكة العربية السعودية » باحتلال الحجاز عام ١٩٢٤ .

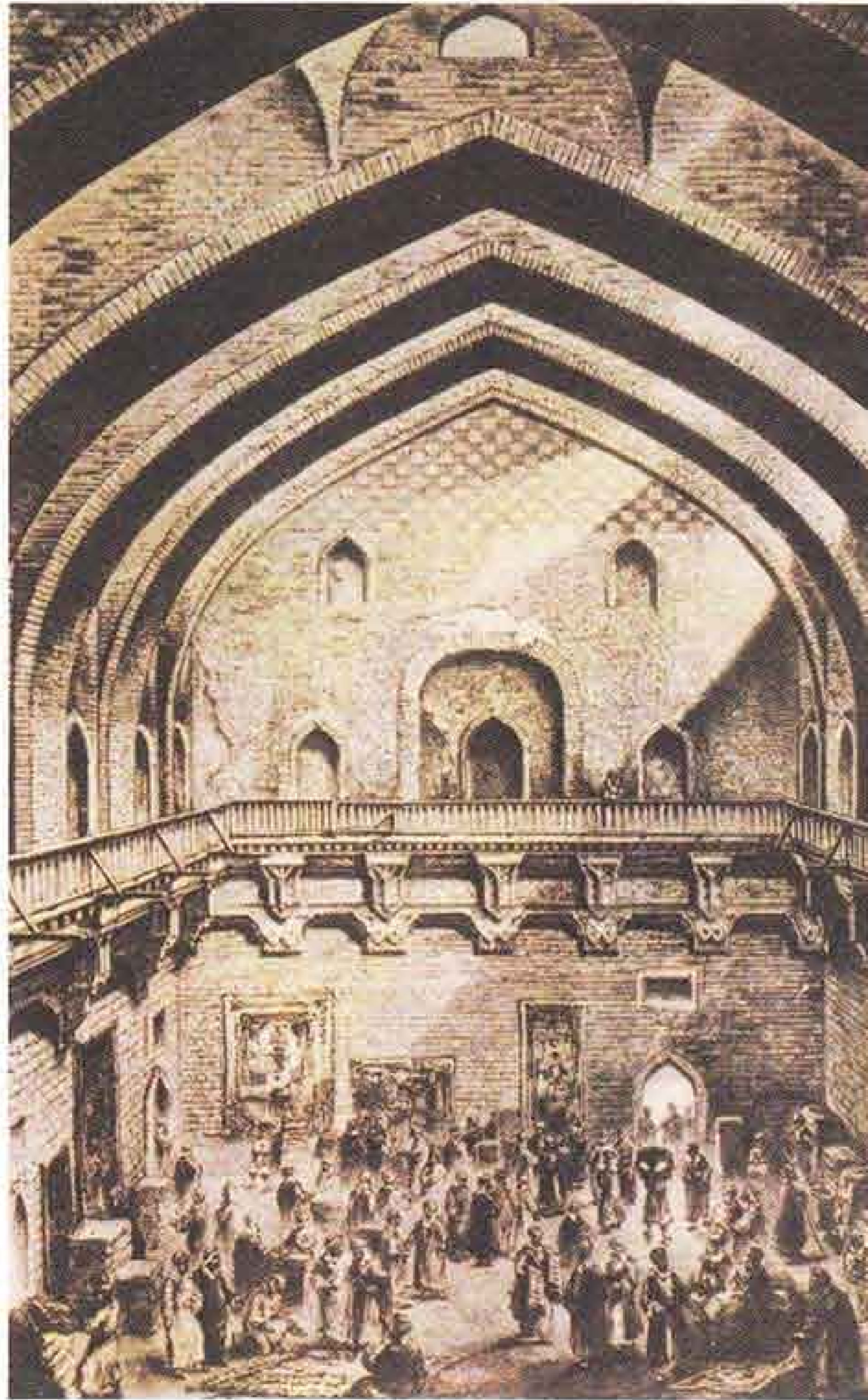
فقد ضمت الاحساء ، أو ما عرف أحيانا بقضاء نجد وقطر ، وادعت احيانا نوعا من المسؤولية عن البحرين ودبي . تميزت هذه الفترة من تاريخ العراق بالتعرض لخطر ايراني شديد ، واخضعت البصرة للحكم الايراني بضع سنوات . وتسلم الحكم في العراق اكثر هذه الفترة حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكهما (١٧٠٤ ـ ١٨٣٠) . وشُغلوا جميعا بحرب ايران وثورات القبائل العربية وتمرد زعماء الأكراد .

بدا في أول القرن ان الامبراطورية الصفوية قد انتهت لتحل محلها دول افغانية . واحتل حسن باشا كرمنشاه (١٧٢٣) . ولكن نادر شاه (١٧٢٢ ـ ١٧٤٧) قضى على التهديد الافغاني ، ودحر العثمانيين ، وانشأ اسطولا في الخليج واحتل البحرين (١٧٣٦) ، وأرسل حملة الى مسقط ، وزحف على العراق ، محاصرا مدن البصرة وبغداد والموصل أكثر

٦



٧



(٧) ـ كان للخان دور هام في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في التاريخ العربي الاسلامي (كما كان له دور مماثل في العصور السابقة لذلك) . ففيه كان يلتقي التجار فيتبادلون السلع ، ويتقابل المسافرون فيتبادلون الأخبار والقصص ، ويجتمع فيه العلماء (المسافرون من مكان الى آخر) فيتحدثون في شؤون الدين والتصوف والعلم . الصورة تمثل خانا (مجهول الاسم) في بغداد في القرن الثامن عشر .

٨



(٦) ـ أهوار العراق مستنقعات دائمة واسعة الرقعة عميقة المياه في بعض اجزائها . وقد تنقص مساحتها بعض الشيء عندما تكون اقنية الري وترعه صالحة للاستعمال . وتتسع المساحة عندما تنهدم هذه الاقنية او تردمها الاتربة . الا ان الاهوار موجودة دائما . ويقطنها عدد لا يستهان به من السكان . ويتم تنقل الناس في هذه القوارب الصغيرة التي لم يتبدل شكلها او حجمها على مر العصور . هكذا كانت في القرون الخوالي .

(٨) ـ غابات النخل في العراق تعود الى ازمنة قديمة . وفي منطقة البصرة نحو ٢٣ مليون نخلة اليوم . ولعلها أكبر غابات النخل في العالم . كانت هذه الاشجار مصدر رزق لعدد كبير من السكان في القرن الثامن عشر .

من مرة . ومع ان الاحوال هدأت عام ١٧٤٧ ، وعُقد صلح ايراني عثماني ، فان العراق لم يسلم من ايران . فتدخلت ايران في المشكلة الكردية وأعانت الثوار ، واحتلت البصرة (١٧٧٥) . ثم هدأت الأمور بعد ذلك بين العراق وايران (١٧٧٩ - ١٨٢١) .

الجزيرة العربية

كان العثمانيون يعتبرون المناطق الشرقية من الجزيرة العربية امتدادا طبيعيا لولاية البصرة ، رغم عجز حكام البصرة العثمانيين عن اقامة دعائم حكم مستقر فيها . فقد أقام بنو عتبة بزعامة آل الصباح امارة في الكويت تولى الامر فيها صباح ثم ابنه عبد الله (١٧٧٦ - ١٨١٤) ؛ وانتقل فرح العتبي الى الزبارة في قطر حيث استقرت الاسرة (١٧٦٦) بزعامة محمد آل خليفة ؛ وانشأ القواسم قوة بحرية في رأس الخيمة والشارقة بزعامة رشيد القاسمي (١٧٥٨ - ١٧٧٧) وابنه صقر (توفي ١٨٠٣) ؛ وأقام آل نهيان حكمهم في ابي ظبي .

وشهدت عمان ، في نهاية عهد اليعاربة ، تدخلا ايرانيا قويا أدى الى قيام دولة البوسعيد لمقاومته . وكان نفوذ عمان قد وصل الى ممباسا والى جزيرة بمبا قرب زنجبار . وفي عهد أحمد بن سعيد (١٧٤١ - ١٧٧٥) ، الذي أنهى حكم اليعاربة . ظهر للسلطان أحمد ان ايران هي الخطر الرئيسي الذي يهدده ، فبادر الى ارسال اسطوله للمساهمة في الدفاع عن البصرة العثمانية . وحاول سلطان بن احمد (١٧٩٢ - ١٨٠٤) ان يوسع نفوذه في الخليج ويبسطه على البحرين ، فخاصمه آل سعود والقواسم .

أما اليمن ، فقد سيطرت عسكريا وأدبيا على الجنوب العربي . كان الامام وهو من نسل ائمة الزيدية الشيعية يعتبر نفسه اماما شرعيا لا يرتبط بالسلطان العثماني . أما الأشراف الهاشميون في مكة فكانوا يعترفون بالسيادة العثمانية . ويعتبر الشريف سرور أبرز أشراف العصر (١٧٧١ - ١٧٨٨) لا يدانيه سوى الشريف غالب الذي اشتهر بحروبه مع آل سعود ثم عزله محمد علي ومات منفيا في سالونيك (١٨١٦) .

الدولة السعودية الاولى

لعل أهم حدث في الجزيرة خلال القرن هو بروز الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقيام الدولة السعودية . كانت الدرعية (٤) ، في منتصف القرن ، قرية صغيرة تضم أقل من مائة بيت ويتزعمها رجل سعودي لم يخطر ببال أحد في ذلك الوقت ان ابنه سيصبح السيد المطاع في اكثر الجزيرة العربية . وجاءها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان قاضيا في قرية مجاورة اسمها العيينة ، ثم أخرج منها بسبب آرائه الدينية التي اعتبرت خطرا سياسيا . ولما مات الشيخ (١٧٩٢) ، كانت القوات السعودية تحاصر مدن الاحساء وتغزو قطر وجبل شمر واليمن . ولم تمض عشر سنوات على وفاة الشيخ حتى كان سعود الكبير قد أحكم سيطرته على الحجاز وعسير ونجد والاحساء وقطر والبحرين وهدد اليمن وعمان وسوريا والعراق . وغدت الدرعية عاصمة كبيرة غنية لمملكة شاسعة الأطراف تتبع ابن عبد الوهاب في اصلاحاته الدينية .

المغرب العربي :
الايالات العثمانية الى حوالى ١٨٠٠

يمثل القرن السادس عشر الميلادي ، بالنسبة الى البحر المتوسط ، فترة نشاط سياسي وعسكري كبير . ففيه كانت الدولة العثمانية سيدة الحوض الشرقي منه ، وكانت فرنسا واسبانيا والبرتغال تتنافس على الاجزاء الغربية من حوضه . وقد دارت حروب ومعارك برية وبحرية بين العثمانيين والاسبان حول شمال افريقيا كانت فيها فرنسا على الحياد بسبب المعاهدة الخاصة التي عقدها في سنة ١٥٣٥ السلطان سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) مع فرنسوا الاول ملك فرنسا (حكم ١٥١٥ ـ ١٥٤٧) .

وكانت النتيجة النهائية لجميع النشاطات هي استيلاء العثمانيين على الجزائر وليبيا



(١) ـ رسم يمثل حصار شارل الخامس ودوق ألبا لتونس سنة ١٥٣٥ . وبسبب المعاهدة التي عقدت في تلك السنة بين سليمان القانوني وفرنسوا الاول ملك فرنسا ، لم يتقدم هذا لمساعدة شارل في حصاره لتونس . وكان هذا كسبا سياسيا وعسكريا للعثمانيين .



(٢) ـ مدينة الجزائر وحصونها البعيدة واسوارها وميناؤها وحصون الميناء ـ مأخوذة من رسم لها صنع حوالى ١٨٠٠ . تلاحظ المدافع الظاهرة من فتحات في الاسوار البرية والبحرية .

(٣) ـ كان الاخوان عروج وخير الدين بربروس (ب) من كبار قواد البحر في القرن السادس عشر . وللأخوين يرجع الفضل في اخراج الاسبان من الجزائر (مدينة واريافا) في مطلع القرن السادس عشر . وقد عين السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) خير الدين قائدا للاسطول العثماني في البحر المتوسط . الصورة (أ) لسفينة القيادة لخير الدين عندما تولى الاشراف على الاسطول . ويرى

وتونس (١) (وكانوا قد استولوا على بلاد الشام ومصر في مطلع القرن) ، واحتلال البرتغال لمراكز تجارية حربية على سواحل الاطلسي . اما المغرب الاقصى ، فقد حافظ على استقلاله كما انه نجح في اخراج المحتلين لبعض اراضيه الساحلية .

الجزائر

بين سنتي ١٥٠٥ و ١٥١٠ تمكنت اسبانيا من احتلال المرسى الكبير ووهران وبجاية ومدينة الجزائر (٢) محاولة بذلك التحكم في المنافذ التجارية لطرق القوافل المؤدية الى داخل البلاد والصحراء واواسط افريقيا . وفي سنة ١٥١٦ استنجد سكان مدينة الجزائر وجوارها بالقائد العثماني الكبير عروج ، الذي كانت له سيطرة كبيرة في غرب البحر المتوسط . فاستجاب عروج للطلب واستولى ، في السنة ذاتها ، على مدينة الجزائر وعلى

٣ أ



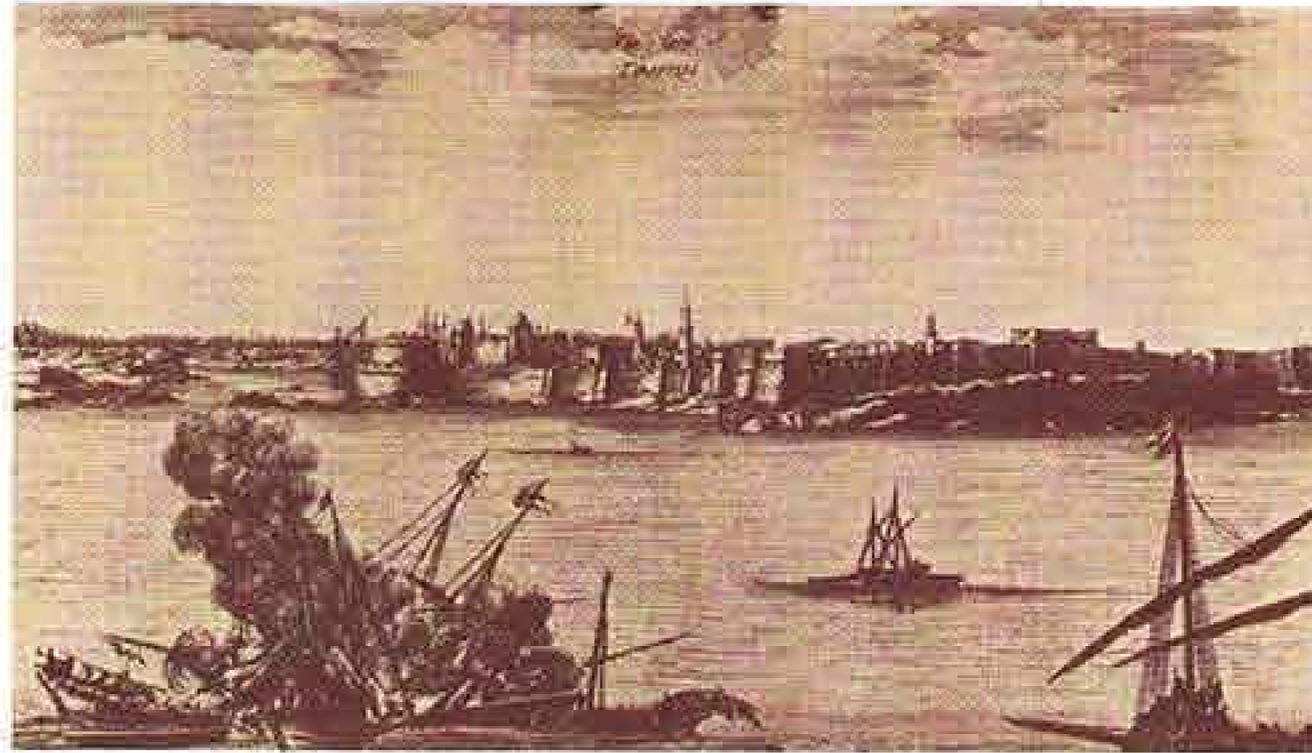
ب



٤



٥



في أعلى السارية العلم العثماني .

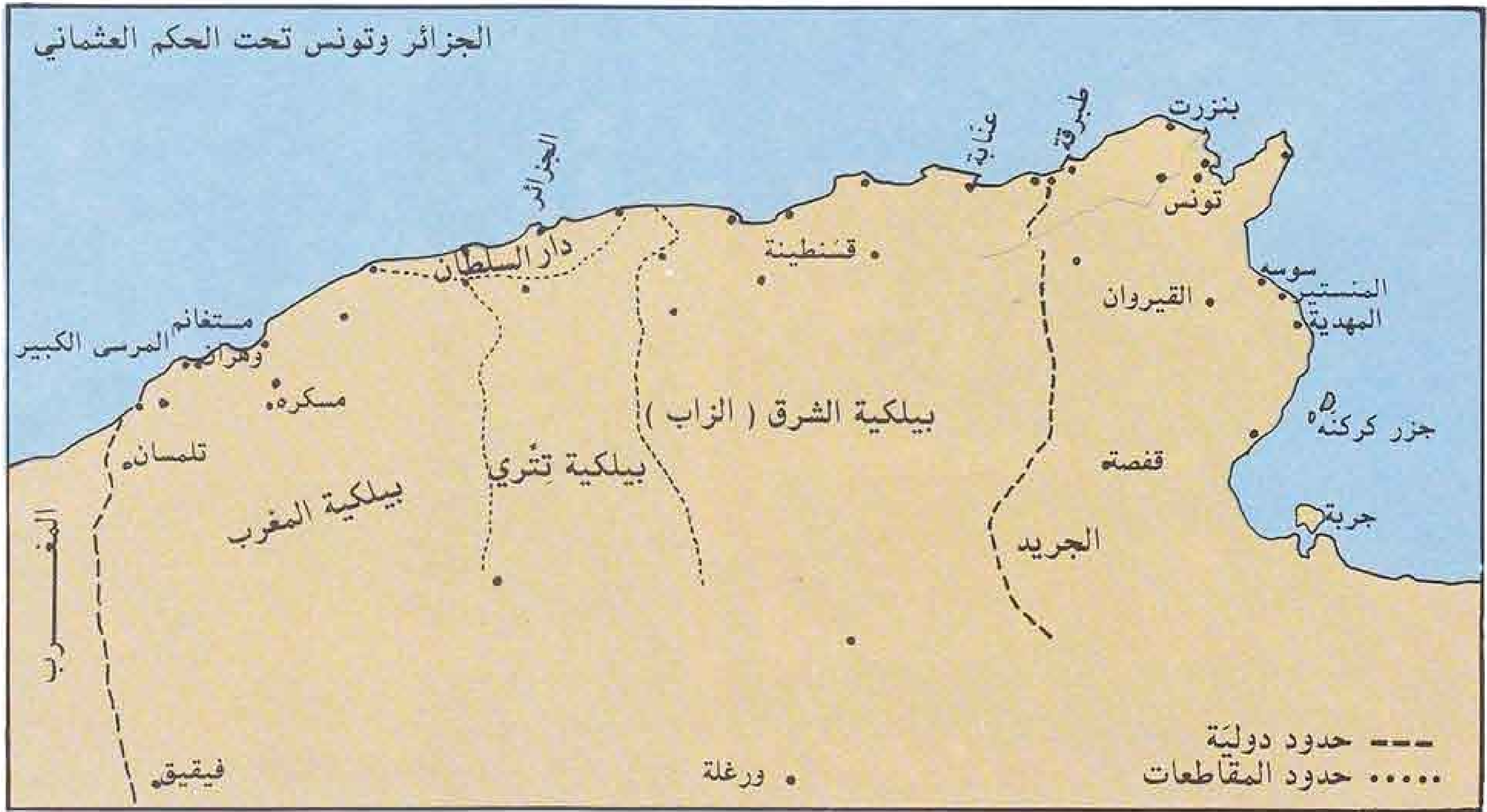
(٤) - في سنة ١٧١١ أقام أحمد باشا القرمنلي حكما لاسرته (القرمنلية) استمر الى سنة ١٨٣٥ حين اعيدت المنطقة للدولة العثمانية . وكانت مدينة طرابلس عاصمة للقرمنليين . هذا رسم لقلعة طرابلس في القرن الثامن عشر .

(٥) - في القرن السابع عشر كان يتوالى على السلطة الفعلية في طرابلس ومنطقتها زعماء الجند . بالرغم من انها كانت قد خضعت منذ سنة ١٥٥١ للدولة العثمانية . هذه الصورة تظهر مدينة طرابلس وميناءها في القرن السابع عشر وهي تحت الحكم العثماني الاسمي بعد ان تعاقب عليها الاسبان (١٥١٠) وفرسان القديس يوحنا (١٥٣٥) .

تلمسان وقسّنطينة ، بالاضافة الى مناطق داخلية . ثم انتزع القائد العثماني الكبير الآخر خير الدين بربروسا اماكن أخرى حتى احتل الجزيرة الصغرى الواقعة قبالة مدينة الجزائر (١٥٢٩) ، فحرر المدينة من خطر دائم . وقد قاد شارل الخامس بنفسه حملة ضد الجزائر (١٥٤١) باءت بالفشل . وهكذا اصبحت الجزائر تابعة للدولة العثمانية .

كانت الجزائر يديرها (الى سنة ١٥٨٧) بيلر بك ، نائبا عن السلطان العثماني . ثم تلا ذلك عصر عرف بعصر الباشاوات (حتى سنة ١٦٥٩) . وجاء دور آغا الانكشارية (حتى سنة ١٧١١) . ومنذ تلك السنة حتى الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠) كان الداي هو رأس الادارة العثمانية . على ان القوة الحقيقية كانت ، منذ اواسط القرن السادس عشر ، اما بيد الانكشارية او بيد رؤساء الطوائف (وهم قادة منظمات المجاهدين وقادة الاسطول) .

٦



(٦) - لبعض مدن تونس والجزائر أهمية تاريخية تستحق الذكر . فالمهدية في تونس أخذت اسمها من مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله المهدي الذي انشأها وجعلها عاصمته (٩٠٩) ؛ ومن سوسة خرج حنبعل ليهاجم سيبيون الروماني ، وكانت مرفأ عسكريا مهما للاغالبة (٨٢٧) ؛ والقيروان التونسية الشهيرة بمسجدها انشأها عقبة بن نافع ٦٧٠ وغدت عاصمة الاغالبة في القرن التاسع ؛ أما في المغرب ، فهناك تلمسان التي ازدهرت في عهد المرابطين (١٠٨٠ - ١١٤٤) واصبحت عاصمة المغرب الاوسط لبني عباد من القرن ١٣ الى ١٦ ؛ وعنابة ، (بونة سابقا) التي كانت اسقفية القديس اغسطينوس .

---

(٧) - ضباط الانكشارية لم يلبثوا ان اصبحوا اصحاب الحل والعقد في شؤون طرابلس بعد احتلال العثمانيين لها . والصورة اعلاه تظهر ضباط الانكشارية بثيابهم الرسمية وادوات التدخين في القرن السابع عشر .

٧



وطد حكام الجزائر علاقات دبلوماسية وتجارية مع بعض دول غرب اوروبا - انجلترا وهولندا وفرنسا - أفادتهم اقتصاديا .

لم تنجح محاولة العثمانيين الاستيلاء على الداخل ، لأن القبائل قاومت ذلك وحافظت على استقلالها ، اما القبائل القريبة من السواحل ، فقد دفعت الضرائب للدولة وقبلت بسلطتها على مضض .

تونس

كانت اسبانيا قد استولت على تونس وجربة (في مطلع القرن السادس عشر) . وكانت المنافسة بين العثمانيين والاسبان قوية في تلك الفترة . ولما كان العثمانيون قد استقروا في الجزائر (بين ١٥١٦ و ١٥٢٩) وكانوا قد احتلوا طرابلس (١٥٥١) ، فقد اصبح بامكانهم احتلال تونس ، فدخلت القوات العثمانية البحرية والبرية (من طرابلس والجزائر) المدينة واحتلتها نهائيا سنة ١٥٧٤ .

اختط سنان باشا ، القائد الفاتح ، نظاما لادارة البلاد يرأسه وال (برتبة باشا) هو الحاكم العام للبلاد ، يعاونه رئيس للانكشارية (وعددهم اربعة آلاف جندي تركي) والباي ، وهو المشرف على الشؤون المالية وأمير البحر . وضم هؤلاء في ديوان كان هو المرجع في تدبير الولاية وامور الجند . ولكن ثورة الجند (١٥٩٠) جعلت الداي يشرف بنفسه على الانكشارية وحكم المدينة . واستمر هذا الوضع الى سنة ١٦٥٠ . وقد نعمت البلاد في عهد الدايات بقسط وافر من الثراء والامن والتقدم ، وخاصة وقد هبطها بين ٦٠ و ٨٠ الفا من مهاجري عرب الاندلس (الذين أخرجوا من اسبانيا قسرا) . وهؤلاء أنشأوا المزارع والقرى وعمروا المدن او انشأوها .

ثم زالت سلطة الباشا ، واختفت سلطة الداي وخلفه الباي (حول سنة ١٦٥٠) الذي كان يختاره الجند ويوافق الباب العالي على ذلك ، ويمنحه رتبة الباشاوية . استمر هذا العهد المعروف بالمرادي الى سنة ١٧٠٥ حيث دب الخلاف بين افراد الاسرة المرادية . عندها نادى الجند بحسين بن علي التركي آغا اوجاق (أي آمر فرقة) باجة ، حاكما للبلاد (١٧٠٥) وأقرت الدولة العثمانية ولايته . ظلت هذه الاسرة الحسينية تحكم تونس ، على تباين في النفوذ والسلطة ، حتى سنة ١٩٥٧ .

ليبيا

احتل الاسبان (٥) طرابلس أيضا (١٥١٠ - ١٥٣٥) ثم وهبها ملك اسبانيا الى فرسان القديس يوحنا (مع جزيرة مالطا) وظلت تابعة لهم الى سنة ١٥٥١ حين احتلتها الدولة العثمانية وطردتهم منها .

على ان اهتمام الدولة العثمانية بتلك المنطقة كان عسكريا ، فاقتصرت عنايتها على بعض المدن الليبية الساحلية ، واهملت الداخل . وقد تأخرت الايالة في ايام حكم الانكشارية (٧) . وفي سنة ١٧١١ أقام أحمد باشا القرمنلي (٤) حكما شبه مستقل . وظلت الاسرة القرمنلية تحكم الى سنة ١٨٣٥ ، حيث تمكنت الدولة من اعادة الايالة الى حظيرتها .

انتهى عهد الاعمال البحرية سنة ١٨١٩ ، ولذلك اخذ القرمنليون يفرضون ضرائب باهظة على السكان ، فضاق هؤلاء ذرعا بذلك ، وقامت ثورات كثيرة في عهدهم .

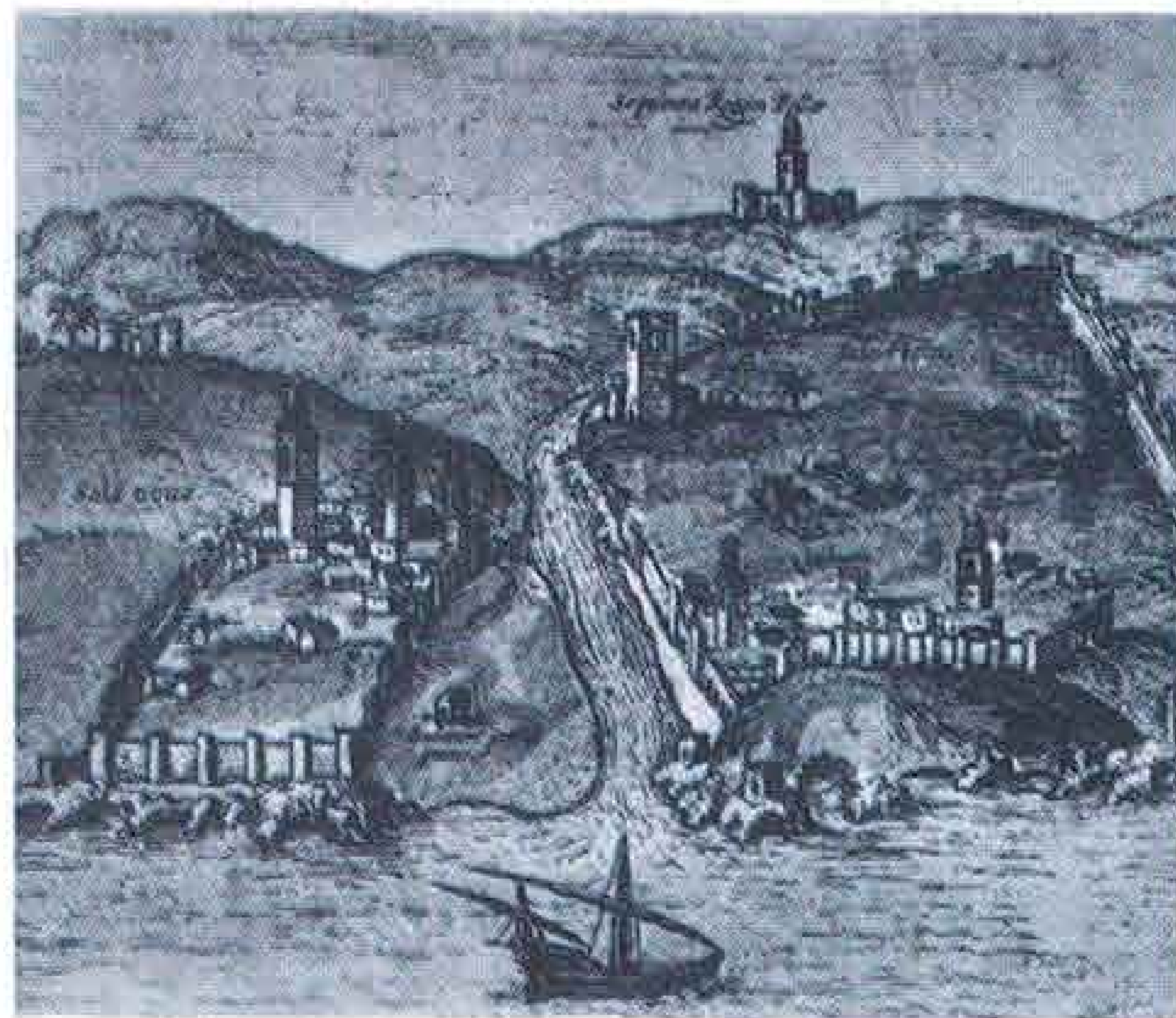
المغرب الأقصى الى حوالي ١٨٠٠

دب الضعف في دولة بني مرين (١١٩٦ - ١٤٦٥) منذ اوائل القرن الخامس عشر ، واخذ الوطاسيون محلهم على الاقل في جنوب المغرب الاقصى ، كما قامت دويلات اخرى في ما تبقى من البلاد . وكان البرتغاليون جد حريصين على الاستيلاء على الموانىء الاطلسية للبلاد ، فاستولوا على اصيلا (١٤٧١) واغادير (١٥٠٤) وآسفي (١٥٠٨) وآزمّور (١٥١٣) . وكانوا قد تملكوا طنجة والقصر الصغير . اما على شواطىء البحر المتوسط ، فقد استولى البرتغاليون على سبته (١٤١٥) والاسبان على مليلة (١٤٩٧) . ولم ينقذ المغرب الاقصى الا قيام الدولة الشريفية السعدية (١٥١١) . وحري بالذكر انه في سنة

١



٢



(١) - سفينتان اوروبيتان تابعتان للبندقية وسفينتان عثمانيتان تشتبكان في معركة . السفينة التركية تقذف نيرانها من رأس الساري حيث يقف الجنود ومعهم الكتل المشتعلة ، ويرفرف فوقهم العلم العثماني ، الهلال . تعود هذه الحوادث الى اواسط القرن السادس عشر .

(٢) - كانت سلا (المغرب) ميناء هاما في تاريخ المغرب الحديث . فقد استقر فيها العرب المهجرون من الاندلس في اعقاب احتلال الاسبان للبلاد . ومن سلا كانت تخرج سفن المجاهدين السلاوي . الصورة عن رسم يرجع الى اواخر القرن الخامس عشر .

(٣) - يعتبر المولى اسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) من أكبر سلاطين المغرب وأهمهم . وهو من السلاطين القلائل الذين تمكنوا من السيطرة على البلاد المغربية بكاملها . وقد بنى اسماعيل مكناس واتخذها عاصمة له ، وانشأ فيها ابنية فسيحة وقصرا ضخما له . ومما بناه ايضا المكان الذي سيدفن فيه . وهذه الصورة تمثل باب هذا المكان .

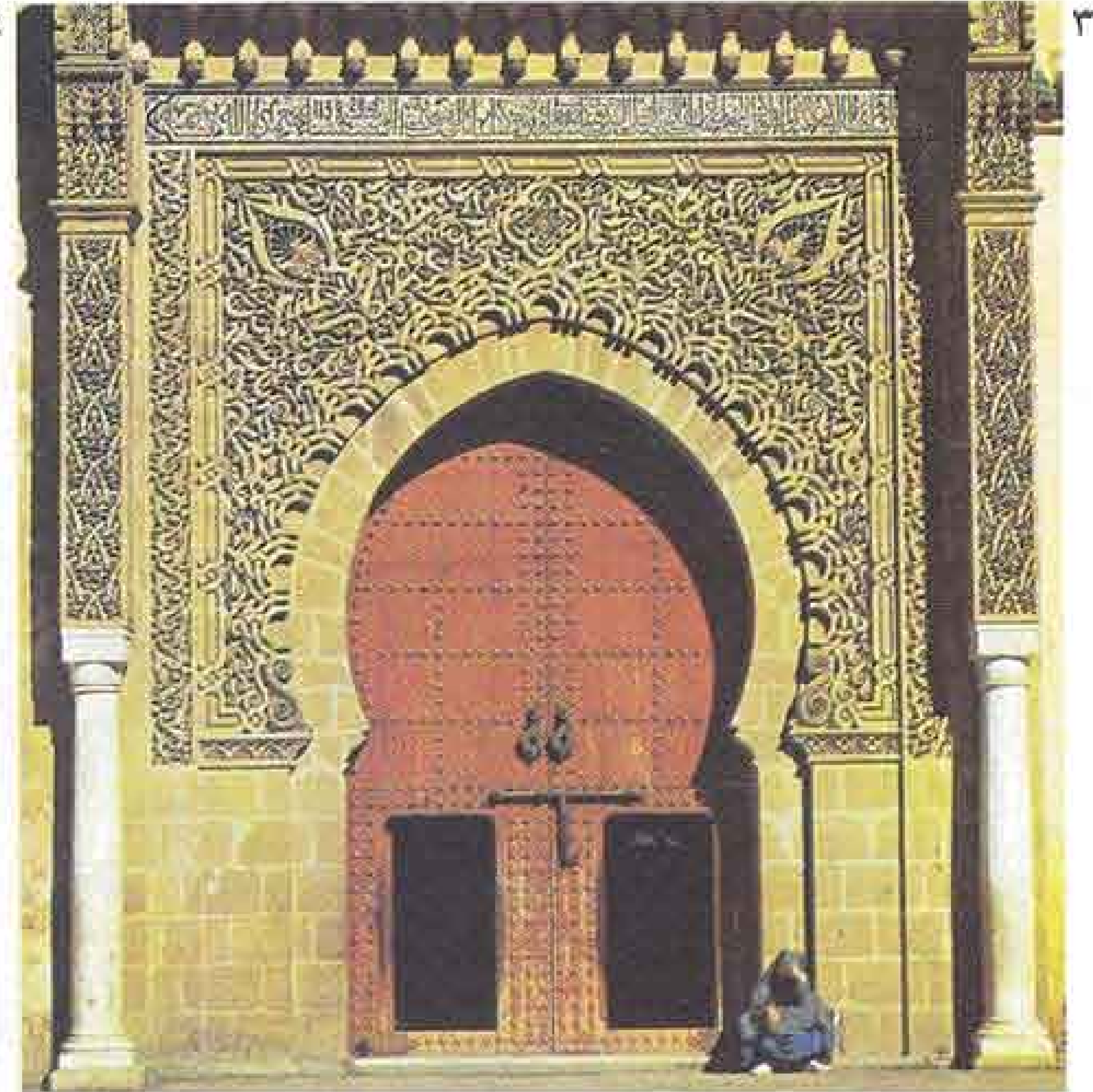
(٤) - يعود بناء جامع القرويين (في فاس) الى اواخر القرن العاشر . وقد اصبح دار علم منذ انشائه تقريبا . الا ان دوره العلمي نما وتطور على مر الايام ، واليه يعود الفضل الاكبر في الحفاظ على الثقافة الاسلامية التقليدية واللغة العربية في المغرب والسودان الغربي منذ القرن الخامس

(١٥١٧) احتل العثمانيون مصر مع برقة ثم امتد نفوذهم الى بقية ليبيا وتونس والجزائر . ومعنى هذا انه لم يكد ينتهي القرن السادس عشـر حتى كانت الدولة العثمانية تسيطر على سـواحل البحر المتوسـط من البلقـان عبر آسـيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وليبيا وتونس حتى الجـزائر ، ولـم يبق من الشـمال الافـريقي خـارج نفـوذها سـوى المغرب الأقصـى .

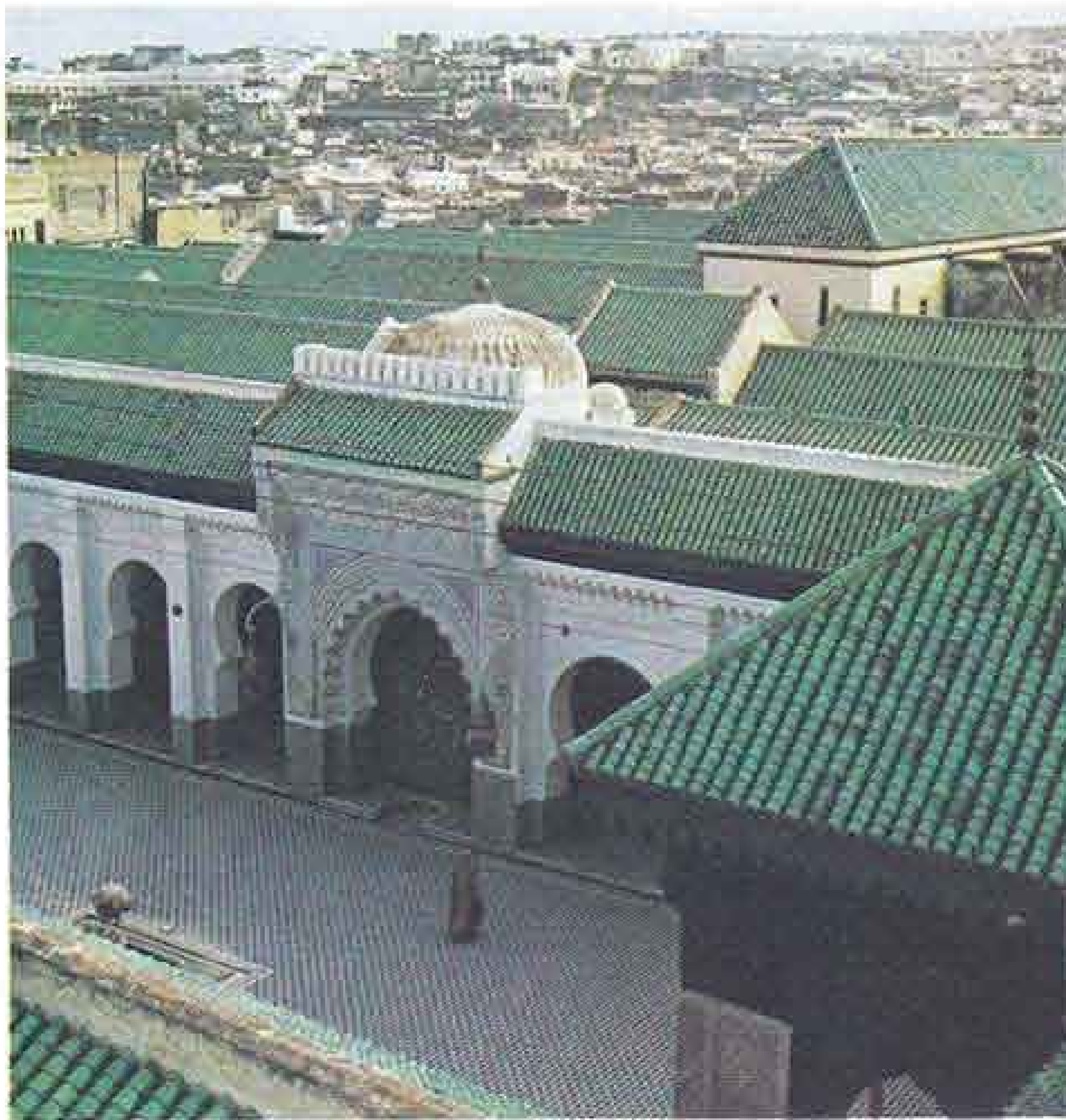
الدولة السعدية

تولى القائم الحكم بدعوة من زعيم الفرقة الصوفية الجزولية ، وظل في الحكم الى سنة ١٥١٧ ، وخلفه ا بنه احمد الاعرج (١٥١٧ - ١٥٤١) ثم ا بنه الثاني محمد الشيخ (١٥٤١ - ١٥٥٧) . وقد نجح هذا في استرداد اغادير وآزمّور ، ثم تخلى البرتغاليون عن آسفي واصيلا . وفي ا يام محمد الشيخ فكّر الاتراك العثمانيون باحتلال المغرب (من الجزائر) .

٣



٤



٥



عشر . الا ان الشيء الذي حصل عليه علماء جامع القرويين ولم ينله امثالهم من علماء الازهر والزيتونة هو ان البيعة للسلطان في المغرب لم تكن تتم ما لم يبايعه علماء القرويين . وهذا تقليد متعارف عليه منذ ا يام بني مرين اي منذ القرن الرا بع عشر .

---

(٥) - كان لمعركة ليبانتو الثانية ١٥٧١ تأثير كبير على مسـتـقـبـل الامـبراطورية العثمانية . وتأثير حاسم على مصير المغرب الاقصى . فانكسار العثمانيين في تلك المعركة والخسائر الفادحة التي وقعت باسطولهم خلالها اضعفت القوة العثمانية البحرية وحدت من نشاطها بحيث لم يعد يستطيع الاسطول العثماني التجول بقوة وحرية في الحوض الغربي من البحر المتوسط بعيدا عن قواعده على شواطىء الاناضول . وهذا مما شكل عاملا اساسيا في ا بقاء المغرب خارج الحكم العثماني .

وقد استمرت هذه الخصومة طويلا . وفي هذا النزاع كانت الجزولية (وهي فرع من الطريقة الشاذلية) تؤيد السعديين ، اما الاتراك فكان يؤيدهم شيوخ الطريقة القادرية .

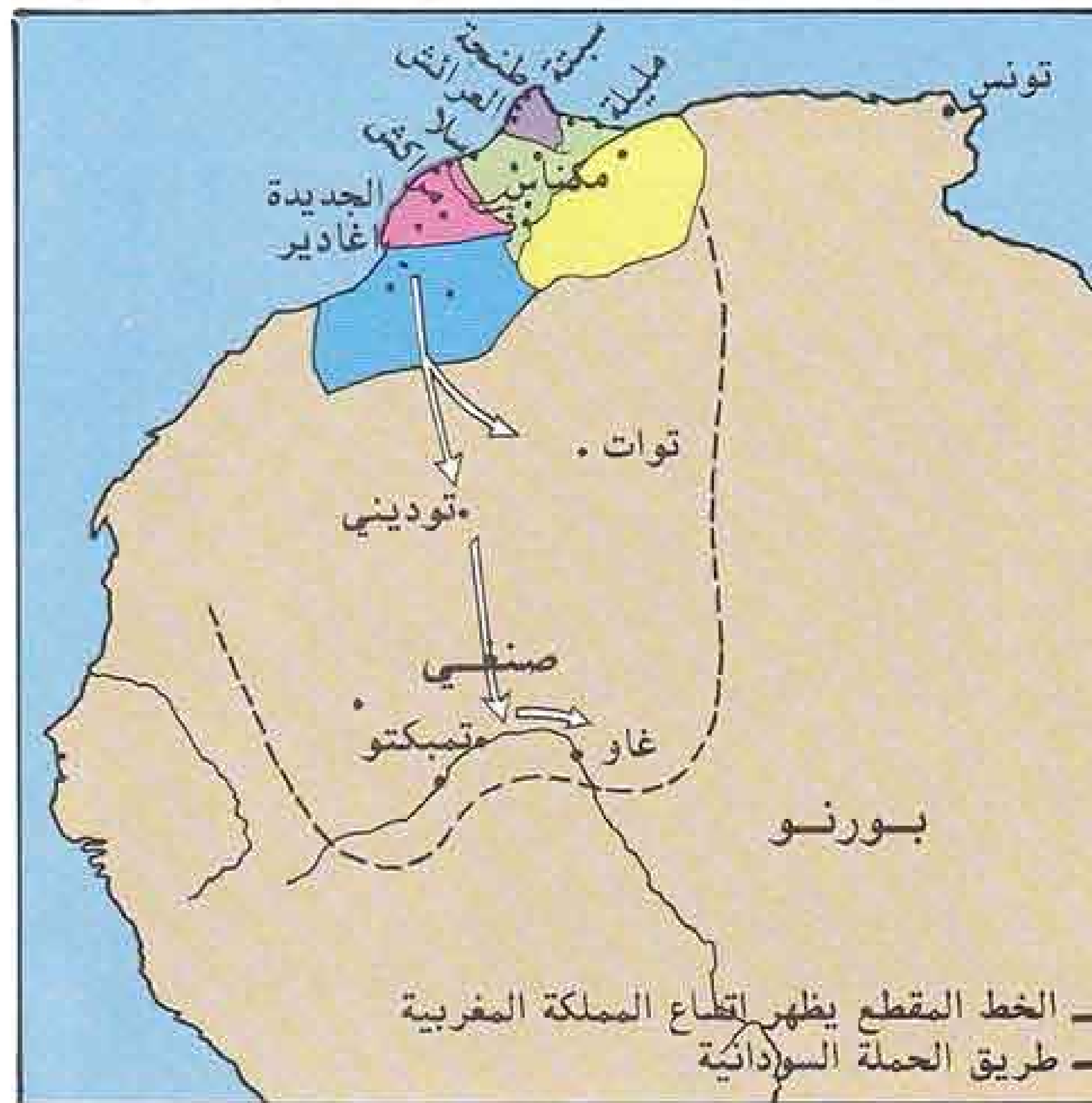
في عهد الملوك الثلاثة الذين تولوا المغرب بعد محمد الشيخ ، وهم الغالب بالله (١٥٥٧ ـ ١٥٧٤) والمتوكل (١٥٧٤ ـ ١٥٧٦) وا بو مروان عبد الملك (١٥٧٦ ـ ١٥٧٨) ، ظهر الاهتمام بتقوية التجارة الخارجية ، وبخاصة مع انجلترا . على عهد هذا الاخير ، تولى سبستيان (حكم ١٥٥٧ ـ ١٥٧٨) عرش البرتغال واراد ان يستعيد بعض ما خسره اسلافه في الشمال الافريقي . لذلك قبل مساعدة احد الخارجين على ابي مروان ، وجاء الى المغرب (١٥٧٨) ، وكان في جيشه كثير من المرتزقة الاسبان والالمان والطليان . والتقى المغاربة بالجيش البرتغالي في وادي

٦



(٦) ـ الجديدة ؛ كان البرتغاليون ، اثناء احتلالهم بعض السواحل الاطلسية المغربية ، قد بنوا مدينة محصنة اسمها « مازاجان » (١٥٠٢ ـ ١٥٤١) ظلت تدافع عن مصالحهم حتى سنة ١٧٦٩ ، اذ اشتد الضغط المغربي على البرتغاليين . عندها خرجوا منها بعد ان دمروا تحصيناتها . الا ان مولاي عبد الرحمن اقام هناك مدينة الجديدة (١٨٢٠) وحصنها . فمازاجان تمثل الاستعمار فيما تمثل الجديدة رمز التحرر والنهوض . وهي اليوم من أهم المرافىء الجنوبية .

٧



(٧) ـ من المدن التي لعبت دورا في هذه الحقبة مراكش التي شيّد فيها السلطان احمد المنصور (حكم ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) آثارا معمارية فخمة ، والتي اصبحت عاصمة للسلطان رشيد الثاني (حكم ١٦٦٤ ـ ١٦٧٤) ؛ وقلناس التي ازدهرت في عهد السلطان مولاي اسماعيل (حكم ١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) ؛ والعرائش التي حررها هذا السلطان من الاسبان ؛ وطنجه التي حررها من الانجليز ؛ ومازاجان التي حررها محمد السادس عشر (١٧٦٩) من البرتغاليين واقام مكانها مولاي عبد الرحمن مدينة « الجديدة » .

المخازن ، وانتصر الاولون . لكن توفي في المعركة السلطان ابو مروان (وكان مريضا يطاف به في محفة) وسبستيان والثائر على السلطان (ابن عبد الله) . وتعرف هذه المعركة ، عند مؤرخي الافرنج ، بمعركة الملوك الثلاثة . وتولى امور المغرب حينذاك ابو العباس احمد المنصور المعروف بالذهبي (حكم ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) .

المنصور الذهبي
والحملة على السودان الغربي

امتد حكم المنصور ربع قرن من الزمان (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) ، قام اثناءه باعمال كبيرة عمرانية وادارية في المغرب ، وحصن اطراف البلاد . وفي أيامه ارسل حملة الى السودان الغربي قضت على مملكة سُنغي (صونجاي) (١٥٩١) التي كانت تتمركز في منعرج النيجر حول العاصمة غُوا والمدينة التجارية الكبيرة تمبكتو ، وهي منطقة غنية بالحبوب والقطن والارز والمراعي ، وكانت مدنها نقاط اتصال تجاري بين ما يقع جنوبيها والصحراء (الى الشمال) والمغرب بعد ذلك .

كان السعديون حريصين على لقب الامامة ، وكان المنصور اشدهم حرصا (وهو لقب اتخذه الموحدون ١١٣٠ ـ ١٢٩٦ اولا وحافظ عليه بنو مرين) . واراد المنصور ان تعترف له الدول الاسلامية السودانية بالامامة ، فقبل ذلك ملك بورنو ، ولكن اسكيا (ملك سُنغي ١٥٨٣ ـ ١٥٩١) رفض ذلك . فكان ذلك احد اسباب الحملة . والسبب الثاني هو ان المغرب لم يعد بامكانه التوسع شمالا (لأن الاسبان لن يسمحوا له بذلك) ولا شرقا (لأن الاتراك كانوا في الجزائر) ، فلم يبق امامه الا التوسع جنوبا للاستيلاء على مصدر الذهب الافريقي واسواق العاج والرقيق .

قضت الحملــة على ممــلكة سُنغي (١٥٩١) . وبلغ عدد الجنود الذين ارسلهم المنصور الى السودان (الغربي) ٢٣٠٠٠ ، وكانت معهم العدة والسلاح بما في ذلك المدافع ، التي حملت على الا بل عبر الصحراء (١٣٥ يوما من مراكش الى غوا) .

الدولة العلوية :
المولى اسماعيل

اضطرب أمر المغرب بعد وفاة المنصور (١٦٠٣) . ولكن الموقف انقذه قيام الدولة العلوية الشريفة على يد محمد بن الشريف اول ملوكها (١٦٣٨ ـ ١٦٦٣) الذي خلفه اخوه الرشيد (١٦٦٣ ـ ١٦٧٢) ، وهو الذي قضى على زعامة الزاوية الدلائية ووحد قسما كبيرا من البلاد تحت حكمه .

ويعتبر المولى اسماعيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) (٣) اكبر ملوك العلويين في عصرهم الاول . وفي أيامه نفذت سلطة المغرب الى جميع اجزاء المملكة ، كما انه عقد معاهدة مع الاتراك (في الجزائر) واستولى على مناطق ساحلية في السودان الغربي . واستعاد المولى اسماعيل المعمورة (المهدية) (١٦٨١) والعرائش (١٦٨٩) واصيلا وطنجه (١٦٨٤) من الأجانب .

كان للمولى اسماعيل جيش ضخم ، وفي أيامه اتسعت تجارة المغرب الخارجية ، وبخاصة مع انجلترا وهولندا وفرنسا واسبانيا وايطاليا .

هذه الدولة العلوية (بدأت ١٦٣٨) لا يزال ملوكها على العرش المغربي الى اليوم .

إقتصاديات المشرق العربي[1] إلى حوالي ١٨٠٠

يمكن القول اجمالا بان التأخر الاقتصادي الذي شمل المشرق العربي بدءا من مطلع القرن السادس عشر بلغ غايته في القرن الثامن عشر. وكانت مظاهره تبدو في تقلص الاراضي المستغلة زراعيا في العراق وبلاد الشام، وتعطل وسائل الري الرئيسية في العراق، وسيطرة البدو على الاقسام الداخلية من بلاد الشام والاجزاء الجنوبية الغربية من العراق، وتأخر التجارة بحيث اصبحت الموانىء الكبرى وكأنها اشباح لتاريخها السابق.

نظرة عامة الى المنطقة

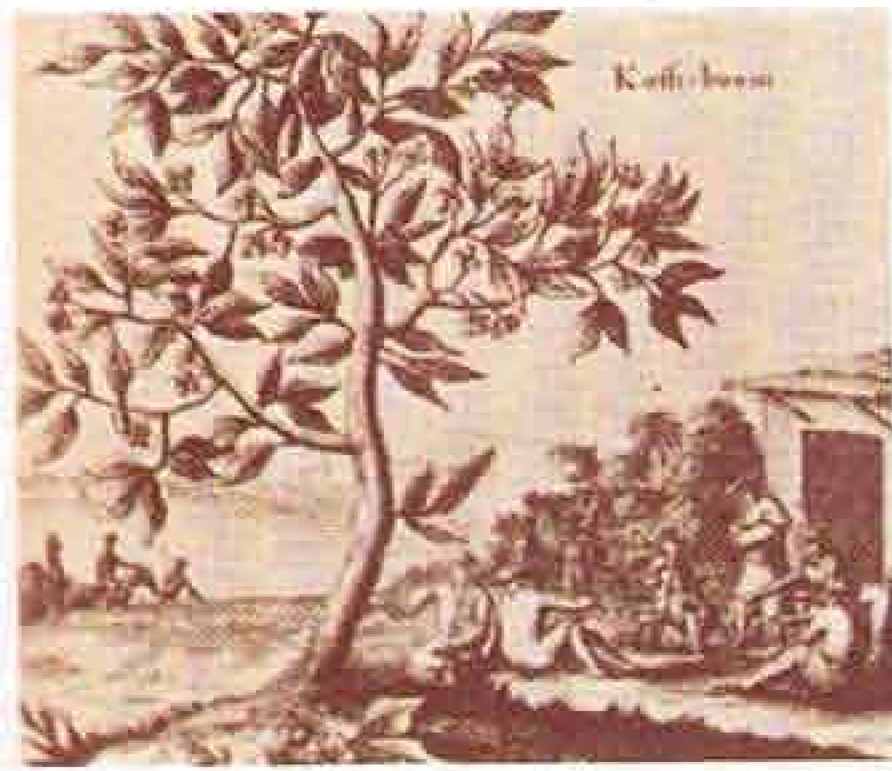
أهم مظاهر التأخر الاقتصادي كان في

١



(١) ـ هذه الصورة تمثل نقطة وصل بين العمل في الحقل والعمل (الصناعي) البيتي. فالمرأة الى اليمين كانت قد ابتاعت القش القمحي (الطويل) من المرأة التي حملته من الحقل، وعملت منه هذه الاطباق الملونة. طبعا مر القش في طريقه على الصباغ ليعطيه اللون المرغوب. والاطباق والآنية معروف استعمالها. هل ثمة فرق بين هذه الصورة الحديثة للمرأة العاملة في الاطباق وبين صورة لها لو أخذت قبل مئتي سنة ؟

٢



(٢) ـ عرفت القهوة شرابا في اوائل القرن السادس عشر في اليمن. وبعد نحو مئتي سنة كان شربها قد شاع بحيث انه فتح اول مقهى في لندن حول سنة ١٧٢٥. نقلها الى النمساويين اسرى الجيش التركي في حصار ڤيينا الثاني (١٦٨٣)، اذ استولى الجيش النمساوي على اكياس من البن كانت مع الجيش العثماني. والصورة هي في الاصل منحوتة لشجرة البن قام بصنعها هولندي في سنة ١٦٨٠ (أي قبل حصار ڤيينا بثلاث سنوات). تنبت شجرة البن ورفيقتها شجرة القات في مرتفعات اليمن على ارتفاع عن سطح البحر يتراوح بين الف والفين م. ويشكلان مادتي التصدير الرئيسيتين.

نقص الانتاج الزراعي ، وذلك لأن الاراضي المستغلة تقلصت رقعتها . ففي بلاد الشام امتدت الاراضي المهملة الى السواحل تقريبا . كذلك قل انتاج الصناعات وساء نوعها ، وكانت المدينتان الوحيدتان اللتان ظل لهما شيء من المقدرة الصناعية في الفترة الممتدة من الفتح العثماني الى نهاية القرن الثامن عشر هما القاهرة ودمشق . واصبحت الموانىء التي كانت تعج بالتجار والسفن والمتاجر ، مثل الاسكندرية والبصرة وانطاكية (عبر السويدية) وبيروت وطرابلس ، اشباحا لما كانت عليه . وهبط عدد السكان ، في بلاد الشام مثلا ، الى نحو مليونين في اواخر القرن الثامن عشر ، وكان يقدر بنحو ستة ملايين في العصور القديمة واوائل العصور العربية الاسلامية . ومصر التي كان يقطنها نحو اربعة ملايين في القرن الرابع عشر أصبح سكانها ، حوالى سنة ١٨٠٠ ، مليونين ونصف .

من الثابت ان البن اليمني هو اول بن عرف واستعمل في العالم . من المرجح ان اسم القهوة في اللغات الاجنبية مشتق من الاسم العربي . من المعروف ايضا ان ثلث سكان العالم يشربون القهوة .

٣



(٣) ـ تظهر هذه الصورة (غير الدقيقة) ، المنقولة عن رسم يرجع الى القرن السادس عشر ، فلاحا يحرث أرضه ويجر المحراث فيها ثوران . ويبدو ان الفنان اراد ان يظهر اجزاء المحراث جميعها فلم يغرسه في الارض بل اكتفى بأن تركه على السطح . عدم الدقة يظهر بشكل خاص في طول الخشبة (النير) التي تصل بين الثورين .

٤

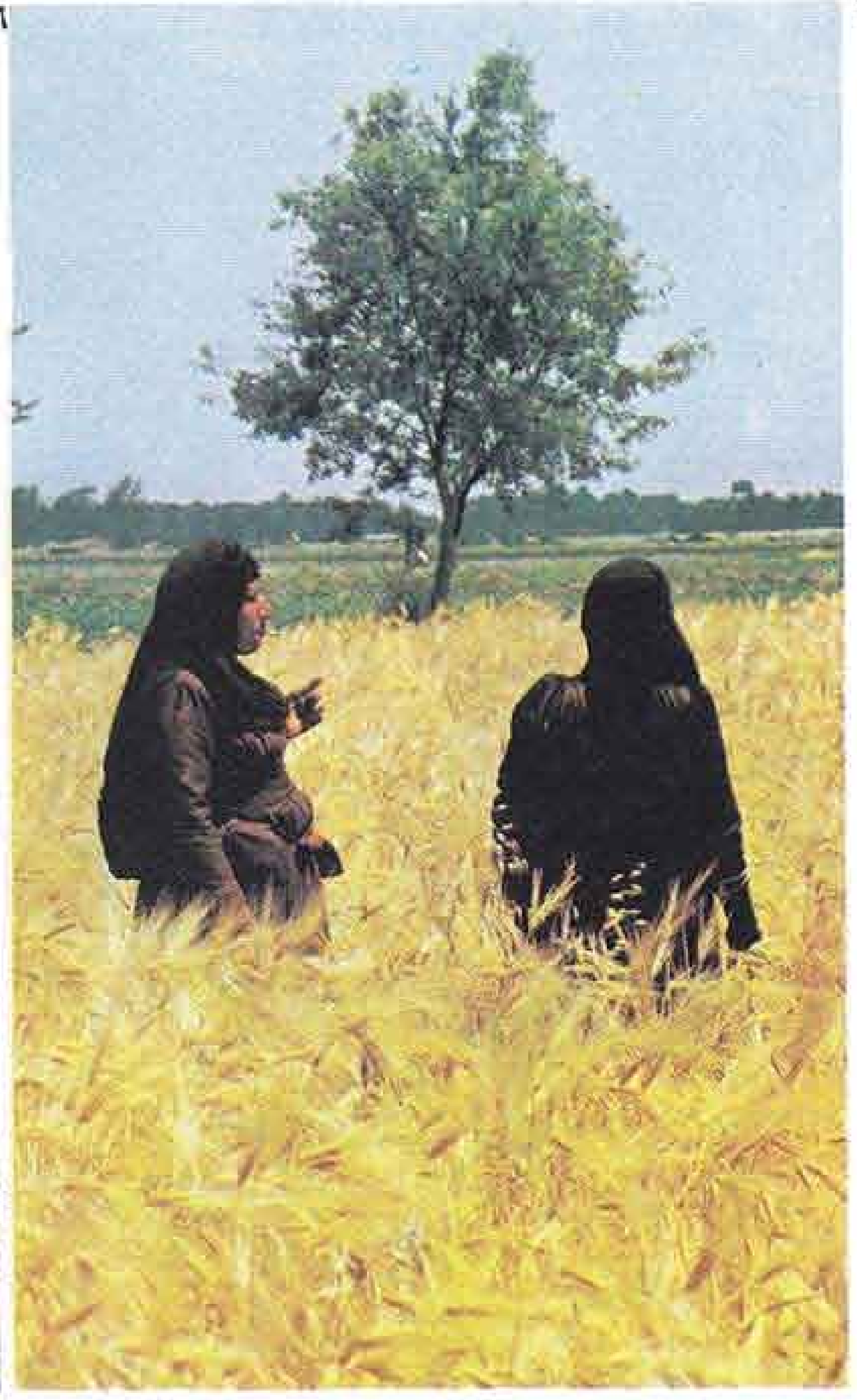


(٤) ـ هذه المرأة تدق او تعصر شيئا في وعاء مصنوع من الحجر . وقد تكون تعد مواد غذائية استعدادا لطبخها . وتعمل في الهواء الطلق مما يدل على انها تعمل صيفا (او على الاقل في غير فصل الشتاء) . الصورة مأخوذة من رسم ملون يعود الى القرن السادس عشر .

اسباب التأخر

ثمة اسباب متعددة أدت الى هذه النتائج . فهناك اولا اكتشاف طريق جنوب افريقيا الى جنوب شرق آسيا ، الأمر الذي أدى الى تحول التجارة عن منطقة المشرق العربي وطرقه . وهناك ثانيا الحروب الطويلة بين الاتراك والفرس التي استمرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وبعض الثامن عشر ، وكان العراق مسرحها . هذه أدت الى تهدم ما لم تهدمه الحروب المغولية من اقنية للري ، ونشرت الفوضى ، فانعدم الامن . وثالث هذه الاسباب هو التدهور الذي اصاب السلطة العثمانية المركزية وادارتها منذ القرن السابع عشر ، فعجزت عن ضبط الامور في العراق وبلاد الشام ، وأدى ذلك الى ان فرض البدو سلطانهم على المناطق الزراعية في الشام والعراق ، وملكوها مشاعا فتعطلت الزراعة الموسمية فيها وتحولت الى مراع للابل

٥



٦



(٥) ـ هذا القمح الذي آن حصاده يمثل ارضا خصبة في العراق ، وهاتان المرأتان تعملان في جمع ما يتركه الحصادون خلفهم . وهما ـ مثل آلاف النساء الفلاحات في العراق وغيره ـ تفيدان من هذا الذي تجمعان . فاما ان يباع القش (الطويل) الى من يصنع منه اطباقا ملونة ، واما ان يضاف القش (القصير) الى التراب المجبول ليجعل اللبنة اقوى ، واما ان يكون طريقه الى الحرق . هذه الصورة لا تختلف عن صورة نساء القرن الثامن عشر .

---

(٦) ـ ذكر الرحالون الذين زاروا بلاد الشام في القرن السابع عشر ان القطن كان يزرع في مرج ابن عامر (شمال فلسطين) ، ولو ان ذلك كان بكميات صغيرة . لكن القطن أخذ يغزو المنطقة تدريجيا بحيث أنه يعتبر الآن مصدر ثروة رئيسي في مصر والسودان ، ومصدر ثروة هام في سوريا . أهم منتجي القطن اليوم في العالم هم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين والهند والبرازيل والمكسيك ومصر وباكستان وتركيا ، والسودان . لكن القطن المصري من الصنف الأول هو الأفخم . وهو يصدر الى بلدان عديدة ، ويساعد بمقدار كبير على ضبط الميزان التجاري للدولة المصرية .

والماشية . وان كانت مصر ظلت فيها بقية من النظام ، على سوئه ، فيرجع ذلك الى ان المماليك استمروا ، بعد الفتح العثماني ، يسيطرون الى درجة كبيرة على مقدرات البلاد . ولكن خلافاتهم ونزاعاتهم وخصوماتهم كانت تؤدي الى كثير من الفوضى . وثمة امر رابع وهو انه نتيجة لاضطرار اولي الامر للدفاع عن العراق وبلاد الشام منذ بدأت الهجمات الصليبية والمغولية ، ولأن هؤلاء الحكام لم يتمكنوا من دفع رواتب الجند ، فقد اقطعوا القادة وبعض الجنود الاراضي ، فنشأت في الريفين ، العراقي والشامي ، مجتمعات اقطاعية - عسكرية لا تعنى بالارض الزراعية مباشرة ، بل تلزّمها او تضمّنها لمن يستغلها . وهذا أدى الى اهمال كبير في امور العناية بالارض ووسائل الزرع وطرق الانتاج وما الى ذلك .

الحياة الزراعية

في منطقة المشرق العربي التي نعنى بها هنا ، تتوزع الحياة الزراعية على ثلاثة انواع : فهناك الاراضي التي كانت تعتمد الري ، مثل وادي النيل وارض الرافدين ؛ والمناطق التي تعتمد على مياه الامطار ، واهمها بلاد الشام واليمن (٢) وعمان ؛ والاجزاء التي لا يسقط فيها مطر قط ، او يسقط فيها القليل منه ، وهي الصحارى والبوادي التي يتجمع السكان فيها في واحات صغيرة أو كبيرة .

في وادي النيل ظل النيل يفيض على ارضه منذ ان كانت مصر وكان النيل . ولذلك فان الاراضي المصاقبة له ظل ينالها حظها من الماء والطمي الذي يجدد شباب التربة . ولأن المماليك (في أيام العثمانيين) على ظلمهم ، حافظوا على بعض النظام ، فقد استمرت مصر تنتج المنتوجات الزراعية المألوفة واهمها الأرز وقصب السكر والحبوب . وكان القطن ، حتى اواخر القرن الثامن عشر ، لا يزال في بدء زراعته في مصر .

أما الري في العراق ، فكان يعتمد دوما على قنوات تحفر لتنقل مياه دجلة والفرات الى الاراضي المجاورة . واذ تعطلت القنوات ، تعطل الري وتعطلت معه الزراعة . ومن ثم فقد اقتصرت الاعمال الزراعية في جنوب العراق على جزء صغير من الارض الصالحة للاستغلال ، وانحصرت هذه في ربوع البصرة وحوض نهر ديالي ، حيث استمر العمل بالقنوات القديمة . الا ان توالي الغزو البدوي على بعض المناطق كان يعطل العمل في مواسم كثيرة . بالرغم من ذلك ظل الارز في هذه الاجزاء في جنوب العراق من المواد الزراعية المتوفرة .

أما المناطق التي كانت تعتمد على مياه الامطار ، فسهولها كانت حقولا للقمح (٥) وغيره من الحبوب . فأرض حوران (في جنوب شرق سوريا) وسهول حمص وحماة كانت تنتج من القمح ما يكفي لحاجات السكان ، وتصدير كميات الى الخارج . ففي اوائل القرن السابع عشر وصل قمح حوران (عن طريق صيدا) الى هولاندا . والمناطق الجبلية من بلاد الشام كانت تنتج جميع انواع الاشجار المثمرة وفي مقدمتها الكرمة والزيتون . أما الزيتونة ، الشجرة المباركة ، فاثمارها كانت تزود بلاد الشام ومصر بحاجاتها من الزيت والزيتون وتقدم لمصانع الصابون حاجاتها . وازدادت زراعة البن في اليمن بسبب انتشار شرب القهوة .

اقتصاديات المشرق العربي (٢) الى حوالي ١٨٠٠

كان من الطبيعي ان يؤدي اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (جنوب افريقيا) الى الهند وما وراءها الى تحويل التجارة عن المشرق العربي (مصر وبلاد الشام والعراق والخليج العربي) . الا ان التجار الاوروبيين لم يلبثوا ان اكتشفوا ان الطريق القديمة (البرية ـ البحرية) التي تجتاز هذه المنطقة هي انفع لهم من الطريق الجديدة (البحرية) الطويلة . ورغم اضطراب الامور ، جرت محاولات ، في القرن الثامن عشر ، لاحياء الطرق الشرقية القديمة .

الصناعة والتجارة في العراق وبلاد الشام

تأخرت الصناعة نوعا وكمّا في جميع





(١) ـ يرى القارىء على هذه الخارطة المدن والموانىء الرئيسية للتجارة الشرقية عبر المنطقة العربية ، مثل العقبة وعدن ومسقط والكويت والبصرة ، والقاهرة ومكة وصنعاء .

---

(٢) ـ ظلت الملاحة التجارية العربية في القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ تحاول الاحتفاظ بمكانها في المحيط الهندي ضد الاساطيل الغربية رغم انها كانت أكثر قوة منها وكانت المراكب العمانية خاصة واليمانية تجوب المحيط وتربط بالتجارة ما بين الهند وشرقي افريقيا . وكانت قوتها اساس الامبراطورية البحرية التي اقامها سلاطين بوسعيد بين عمان وشرقي افريقيا في القرنين ١٧ و ١٨ . وكانت للمراكب العمانية انواع كثيرة ؛ منها البغلة او الشويعي وهي أكثرها استعمالا ومنها « القنجة » (الصورة) وهي نوع من انواع مركب البغلة متأثر بالاسلوب الهندي وأشرعتها مثلثة ومنها اليوم وهو اصغر وأكثر حركة . ومنها كذلك السنبوق وفيه الصغير والكبير وكان يستخدم لصيد اللؤلؤ مع مركب الجالبوت .

---

(٣) ـ مطرزة من القرن السادس عشر صنعت لتاجر حلبي . يمكن ان تكون من صنع تركيا او ايران ، لأن حلب كانت مركزا تجاريا هاما ترد اليه البضائع من كل مكان . وقد تكون من صنع حلب نفسها ، لأن صناعة النسيج والتطريز كانت مزدهرة فيها . كذلك كانت حلب في تلك الفترة ملتقى لطرق الحرير الواصلة اليها من تبريز في ايران ومن بورصا في تركيا . يعود تقهقر ازدهار حلب بعد ذلك اولا الى فتح قناة السويس للملاحة عام ١٨٦٩ ، ثم الى اغتصاب تركيا لسنجق الاسكندرون ١٩٣٩ . غير انها عادت الى الانتعاش اقتصاديا بفضل المشاريع الزراعية الكبرى التي نفذت في شمال سوريا وبفضل تحديث مرفأ اللاذقية الذي حل محل

انحاء العراق وبلاد الشام ، باستثناء بغداد التي حافظت على بعض صناعتها كمّا مع تدنٍّ في النوع .

ونقص عدد السكان ، فبغداد كان بها بين ٥٠ و ١٠٠ ألف نسمة ، والبصرة والحلّة والموصل كان عدد سكان كل منها نحو ٥٠٠٠٠ نسمة ، وذلك في القرن الثامن عشر .

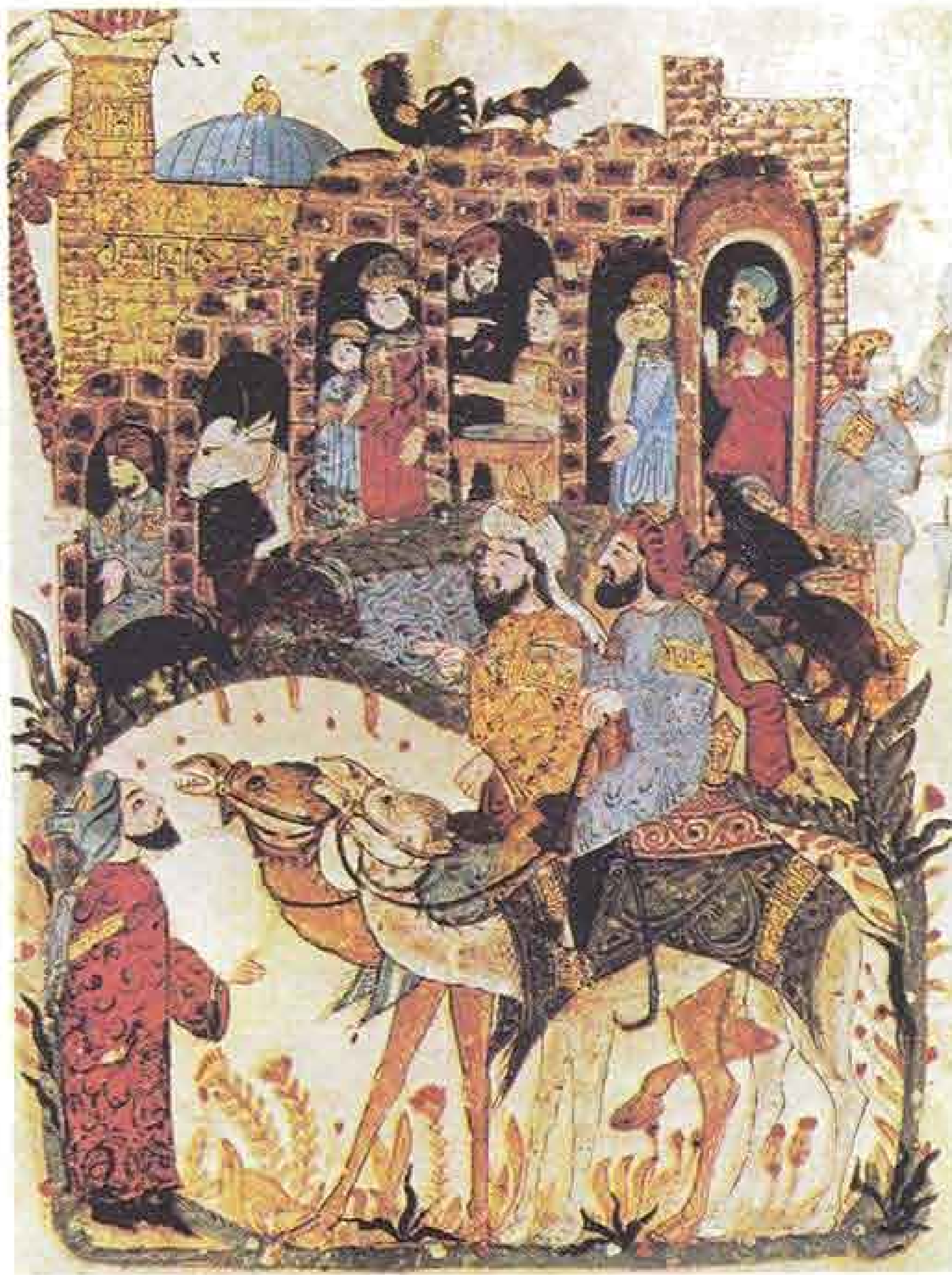
وبسبب اهتمام التجار الاوروبيين باستغلال طرق المشرق (من الخليج العربي الى البحر المتوسط) ، ظلت لبغداد قيمتها كمركز رئيسي للقوافل . الا ان اضطراب حبل الامن في البادية السورية أدّى الى تحول طرق القوافل عن بغداد الى ارضروم .

كانت القوافل تحمل معها بعض المنتوجات المحلية مثل الحبوب والصوف والجلود والتمر (وهذا من منطقة البصرة) . اما التجارة الخارجية (الخليج العربي ، العراق ، بلاد الشام ، البحر المتوسط) فكانت

٣



٤



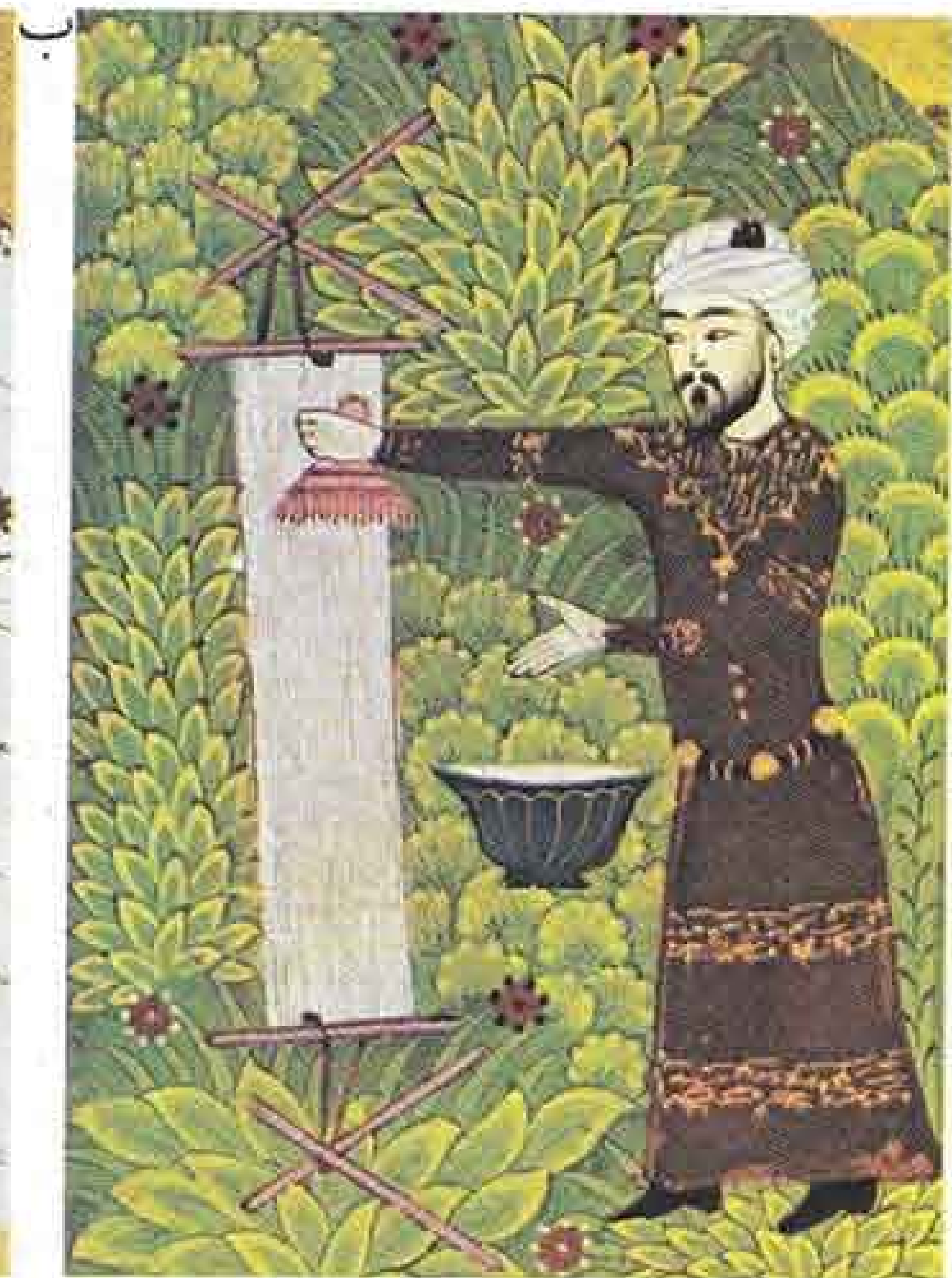
اسكندرون في تجارة حلب الخارجية .

(٤) - تجار يصلون القرية الى الخان وصاحب الخان يستقبلهم . كانت الخانات تتألف من طابقين او عدة طوابق يخصص الطابق الاسفل منها لايواء الحيوانات الناقلة والطابق الاعلى لاقامة المسافرين . وكانت المسافة بين خان وآخر تحددها قدرة الدواب على السير . تذكرنا هذه الخانات بخانات سلجوقيي الروم في القرن الثالث عشر التي اشتهرت بتحصينها وضخامتها وفخامتها .

تحمل قوافلها من اوروبا الاقمشة الصوفية والحريرية والمصنوعات المعدنية ، كما كانت تحمل من ايران الحرير الخام والصوف والسجاد . اما من الهند ، فكانت تنقل النيلة والتوابل والاقمشة الدقيقة الصنع .

خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، قامت حروب بحرية في حوض المتوسط ، اشتركت فيها اسبانيا وفرنسا وروسيا وتركيا وحتى بريطانيا ، وقد شلت هذه الاحداث التجارة لدرجة كبيرة . ومع ذلك فاننا نرى نشاطا اقتصاديا اوروبيا في بلاد الشام ومصر . فقد انشئت ، في اواخر القرن الثامن عشر ، بيوت تجارية فرنسية في حلب (٣) واسكندرون واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا والرملة . وكان للبريطانيين بيوت تجارية في حلب وبغداد والبصرة (وهذه كانت تعود اصلا الى شركة الهند التجارية التي انشئت في مطلع القرن السادس

ه أ

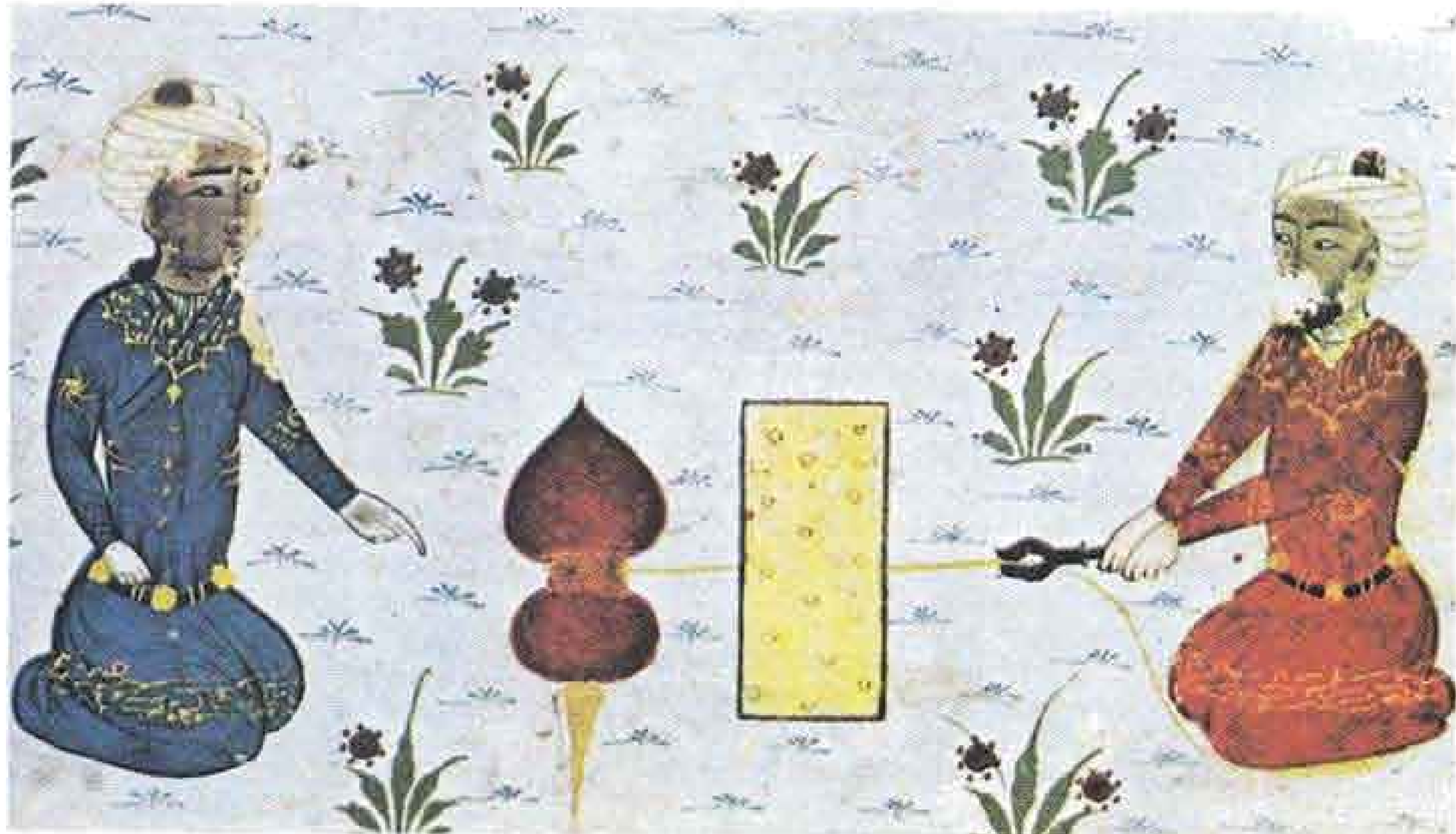


ب



(٥) ـ تمرّ صناعة النسيج في مرحلتين : الصورة الى اليسار (ب) تبين طرق وغزل الخيوط . والصورة الى اليمين (أ) تبين صبغ الخيوط . مما يميز طريقة الصبغ القديمة عن الطريقة الحديثة ويجعلها متفوقة جدا عليها انها كانت تستعمل الاصباغ الطبيعية المستخرجة من النباتات . كانت هناك نباتات لبعض الاصباغ حفظ سرّها وفقد ، فلم يعد بالامكان انتاج الاصباغ التي كانت تستخرج منها ، بل اصبح من الضروري تركيبها كيميائيا . تظهر اهمية هذا الفارق في صناعة السجاد .

٦



(٦) ـ ظلت صناعة المعادن ذات مكانة في السوق الشرقي عبر الفترة العثمانية . كان هناك تأخر في بعض النواحي الفنية . لكن اهتمام الناس بالحلي ظل حيا ، كما كانت الحاجة الى الحلل للطبخ ملحة . اخذت الصورة عن مصوَّر يعود الى القرن السادس عشر ، وهو تفسير لقاموس يتعلق بالصناعات . ويرى الصانع يشد سلكا دقيقا من الذهب والآخر يشير اليه .

عشر) . وقد بلغ ما تم التعامل به ، عن طريق البيوت التجارية الفرنسية في بلاد الشام في اواخر القرن الثامن عشر نحوا من ربع مليون جنيه استرليني .

الجزيرة العربية ومصر

تأخرت صناعة اليمن وزراعته كثيرا ، ولكن انتاج البن ازداد بسبب شيوعه ، فكان له سوق رائجة في اوروبا بالاضافة الى البلاد الشرقية ، الى ان وصل البن البرازيلي بعد حروب نابوليون ، فأثر ذلك في تجارة البن اليمني (او العدني كما كان يسمى بسبب تصديره من هناك) .

ظلت الجزيرة تنتج الخيول والابل والصوف والجلود في كثير من اجزائها ، كما استمر الناس في الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي ، واصطياد المرجان في البحر الاحمر . ولكن شبه الجزيرة كانت ، خصوصا في القرن الثامن عشر ، بحاجة الى منتوجات اوروبا والهند . فكانت صادراتها من الخيول والابل والصوف والجلود لا تغطي ما تستورده . لكن الميزان التجاري عامة كان يعدّله تصدير اللؤلؤ والمرجان ، ونفقات الحجاج ، وواردات الاوقاف . وكان عرب الخليج بخاصة يتقنون صناعة السفن (٢) (الاخشاب من الهند وشرق افريقيا) وبيع هذه الى جهات مختلفة . وقد قدرت تجارة الخليج العربي مع الهند سنة ١٨٠٠ بنحو ١٦٠٠٠٠٠ جنيه استرليني .

وظلت لمصر أهمية تجارية . ففي القرن الثامن عشر كانت الاسكندرية (عدد سكانها نحو عشرة آلاف) مركز الاتجار مع سوريا وشمال افريقيا وتركيا واوروبا (وكانت السيطرة التجارية للاوروبيين) . اما دمياط ، فكانت تتاجر مع سوريا (بمعنى بلاد الشام) فتبعث اليها بالأرز وتستورد منها التبغ والصابون وبعض الاقمشة . وكانت رشيد (عدد السكان نحو عشرة آلاف) تتاجر كذلك مع بلاد الشام وتركيا .

وكانت تجارة مصر البحرية مع اوروبا ، كما قلنا ، تحت السيطرة الاوروبية وخصوصا الفرنسية . فكانت مصر تصدر الى اوروبا (واكثر ذلك عن طريق فرنسا) المنتوجات النباتية والحيوانية والمعادن الخام والارز والصوف وخيوط القطن ومنتوجات افريقيا الشرقية ، وتستورد منها المصنوعات المعدنية والاقمشة والورق والبضائع الاستهلاكية وبخاصة الترفيّة .

وكان المصدر الرئيسي في التجارة المصرية تجارة الترانزيت (العبور) . فكانت تجارة الترانزيت (البن والتوابل ومنتوجات افريقيا) تبلغ نحو ٦٠ ٪ من الصادرات من مصر الى اوروبا . وكانت لمصر تجارة برية مهمة مع بلاد الشام وشمال افريقيا .

الاقتصاد السوداني

كان الاقتصاد السوداني في القرن الثامن عشر يعتمد تجارة القوافل مع المغرب العربي ومصر . وكانت المراكز الرئيسية لهذه التجارة في القرن ١٨ سنّار (سكانها ١٠٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠ نسمة) وهي اكبر مدن السودان وشندي في الجنوب (السكان نحو ٦٠٠٠ نسمة) والقبة في دارفور (السكان نحو ٦٠٠٠ نسمة) . يضاف الى ذلك قيام مدن ـ اسواق صغيرة على ضفاف النيل . وكانت سواكن مركز التجارة البحرية الرئيسي . اما الحرف ، فكانت قليلة وبدائية .

اقتصاديات المغرب العربي[1] حتى مطالع القرن ١٨

كان احتلال العثمانيين للجزائر وتونس وطرابلس ، في القرن السادس عشر ، نقطة انطلاق لتنظيمات ادارية وسياسية جديدة لتلك الايالات ، كما كان قيام الدولة السعدية في المغرب بدء عهد جديد هناك . ومع ان الايالات الثلاث لم تلبث ان قامت فيها اسر وتنظيمات محلية خاصة ، فانها ظلت ، ولو اسميا ، جزءا من الامبراطورية العثمانية . وفي الفترة التي انتهت حول سنة ١٨٠٠ ، كان لتلك المنطقة باجمعها نشاطات اقتصادية خاصة بها ، اساسها الاعتماد على البحر كمصدر لثروة الايالات ، اما عن طريق عمليات الجهاد البحرية ، او عن طريق تنمية التجارة مع اوروبا . يضاف الى هذا ان الحملة

١


(١) - هذا الفلاح التونسي هو ايضا يحرث الارض ويبذر الحب وينتظر الغوث من الرب ، مثله مثل الفلاح المغربي والمشرقي . وهذه الرفقة في العمل بين الانسان وحيوانه عميقة الجذور في الحياة البشرية في الوطن العربي .

٢


(٢) - سوق اسبوعية قبلية في آيت حديدو في الاطلس الجنوبي . هكذا هي الاسواق اليوم ، وهكذا كانت من قبل . لم يتغير شيء أساسي .

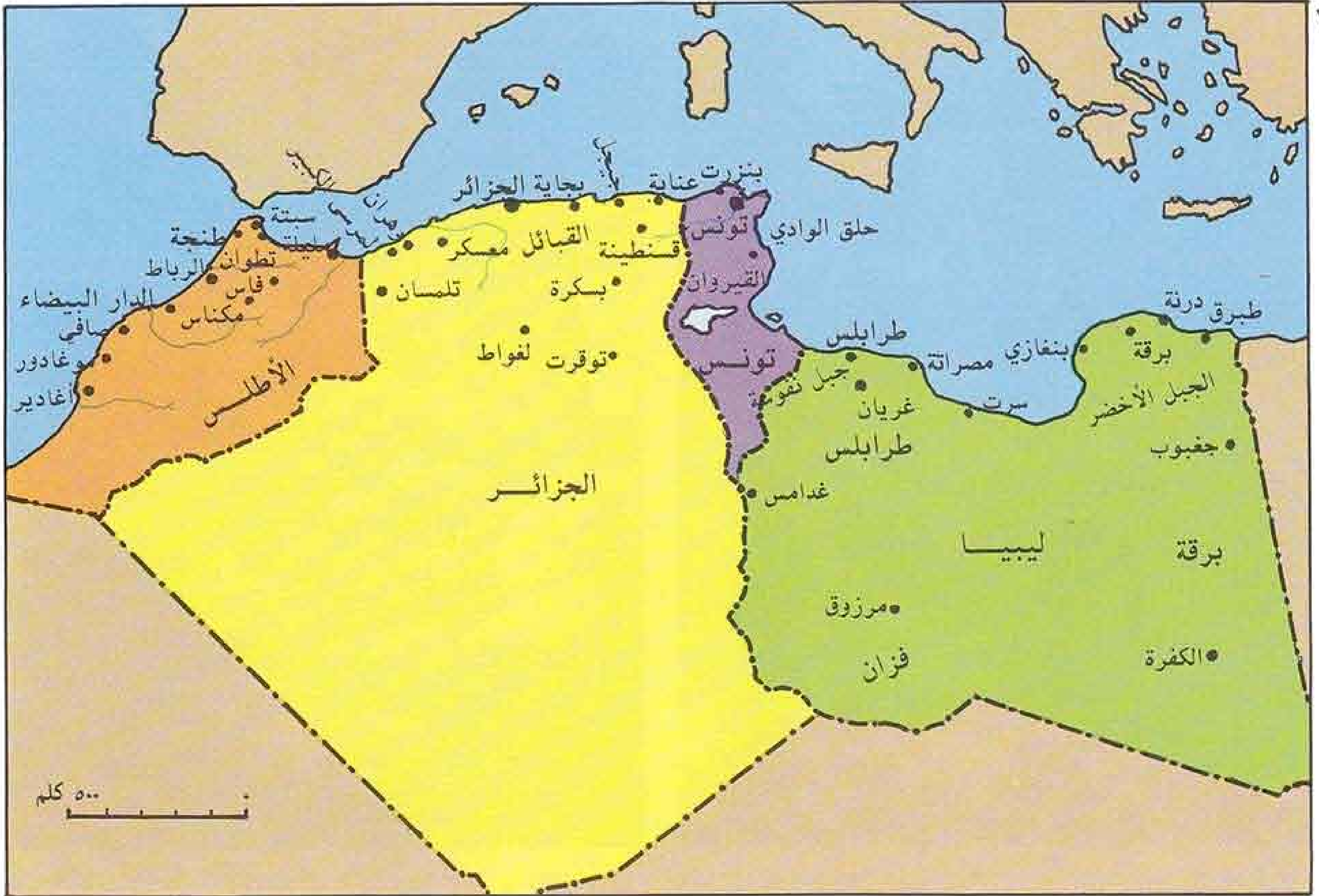
(٣) - خارطة للمغرب العربي تبين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . هذه الخارطة تساعد على تعرف المراكز التجارية والصناعية الرئيسية والمناطق الزراعية الواردة في النص . كانت هذه البلدان ، ما عدا المغرب الذي لم يصل اليه العثمانيون ، تابعة للدولة العثمانية اسميا وواقعة تحت اشرافها الرسمي . لكنها كانت عمليا شبه مستقلة في شؤونها الداخلية ، وذلك لبعدها عن العاصمة العثمانية من جهة ،

المغربية على السودان الغربي كان لها اثر في تطوير العلاقات التجارية مع منطقة غرب افريقيا .

اهمية البحر في الاقتصاد

تتمثل اهمية البحر في تمكين حكومات المغرب العربي من الحصول على الموارد المالية اللازمة لادارة عمليات الحرب البحرية . فقد كانت السفن تخرج من موانىء سلا والجزائر وتونس وطرابلس وغيرها من الموانىء الاصغر ، فتلقي القبض على السفن الاوروبية التجارية وتقودها الى تلك الموانىء . على ان بعض هذه السفن ، وبالأخص سفن طرابلس ، كانت تغير على الموانىء الاوروبية بالذات ، لا سيما تلك الواقعة في جنوب اسبانيا وفرنسا وايطاليا وصقلية ، وتعود منها بما يقع تحت يدها من البضائع ، وقد تقود سفنا اوروبية الى موانئها .

٣



٤



(٤) ـ بنى سلطان المغرب محمد السادس عشر ميناء الصويرة على الشاطىء الاطلسي عام ١٧٦٠ بعد ان كانت محط رحال القوافل . لتكون ميناء للاتجار مع الجنوب (السودان الغربي وغرب افريقيا) . اسمها الاقدم على ايام البرتغاليين هو موغادور . اشتهرت بصناعة حفظ الاسماك والدباغة وتكرير السكر والصناعات القائمة على الياف النخيل .

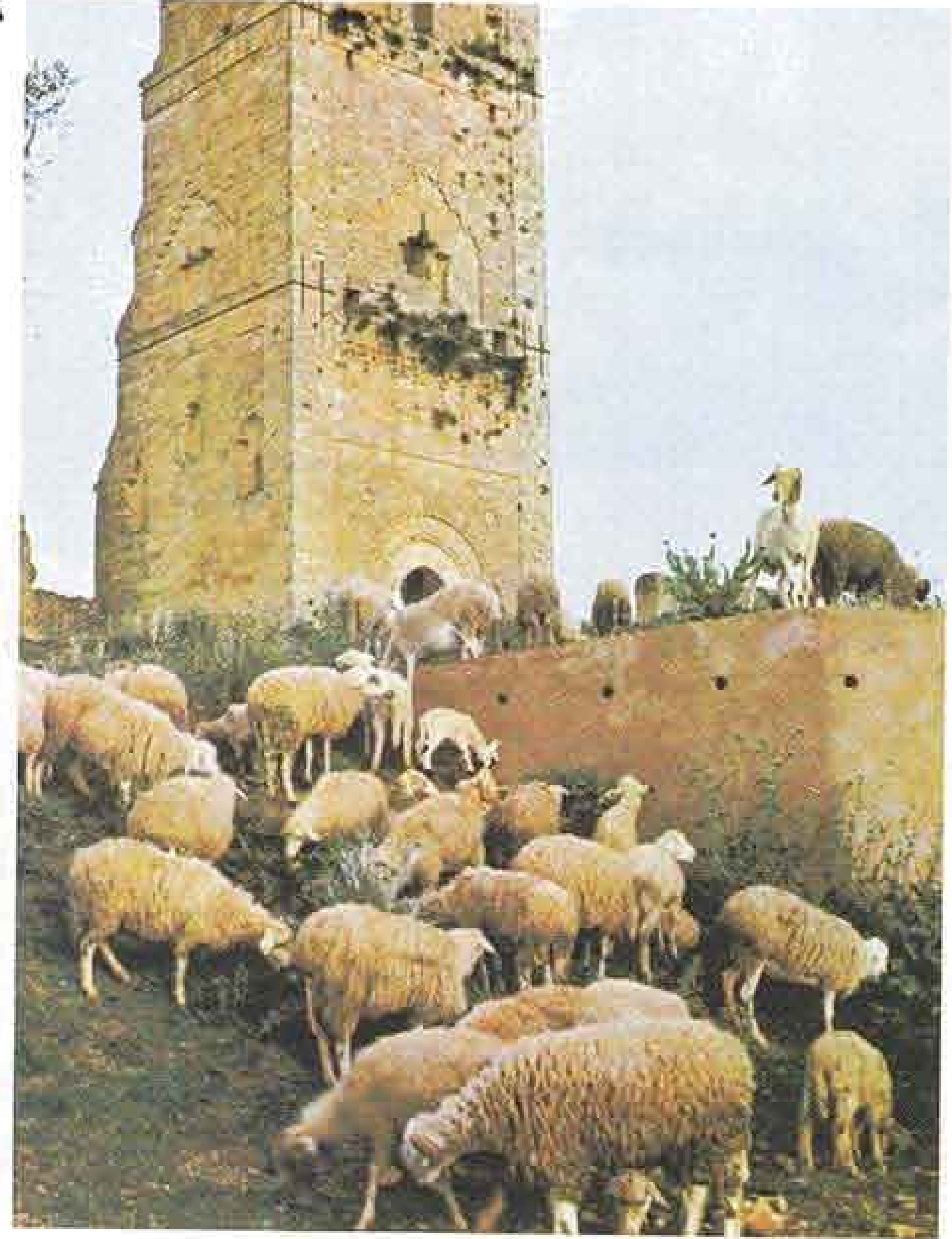
ولضعف الدولة العثمانية من جهة اخرى في تلك الحقبة . لذلك كانت الحياة الاقتصادية فيها عرضة لتقلبات كثيرة .

وقد شجع السفن المغربية على القيام بذلك ضعف الاساطيل الأوروبية ورد الفعل على الغزو الأوروبي الصليبي .

الموارد المصادرة

أما ما كانت تحصل عليه سفن المحاربين ، في غاراتها المتنوعة ، فيدخل في عداده الذهب (وكان الذهب اصبح يأتي الى اوروبا من العالم الجديد) ، وأنواع المتاجر التي تحملها السفن وأهمها الأقمشة والزجاج ، والأسرى . وهؤلاء كانوا مصدرا رئيسيا للثروة ، اذ ان مؤسسات مختلفة كانت تفتدي هؤلاء الأسرى بكميات كبيرة من النقود (وكان عدد الاسرى في القرن السابع عشر يصل الى نحو ٣٠٠٠٠ سنويا) ، على ان حكومات المغرب العربي كانت تحتفظ بعدد من الاسرى لتستخدمهم في اقامة الابنية والصناعات القليلة التي كانت في بلادها . وكان كثير من هؤلاء الأسرى يُستخدمون

٥



٦



(٥) - المغرب العربي مشهور بخرافه (وغيرها من الحيوان). هذه صورة خراف ترعى في ظل صومعة (مئذنة) جامع المنصورة قرب تلمسان . الى جانب الخراف هناك ايضا الماعز والبقر والخيول والحمير والجمال . كانت الحمير والبغال تلعب دورا اساسيا في نقل البضائع داخل البلاد بسبب وعورة الطرقات في تلك العهود التي لم تكن قد تعرفت بعد الى السيارات والطرقات المعبدة . كذلك كان الجمل آلة نقل لا غنى عنها في الصحارى ، خصوصا للاتجار مع بلدان افريقيا الواقعة الى الجنوب . وكان البقر ضروريا للفلاحة ، والاحصنة تستخدم في الاسفار وفي الحروب والغزوات . اما الخراف فكانت تربى من اجل لحمها الفاخر وصوفها الكثيف الذي كان يشكل المادة الرئيسية لصناعة النسيج .

---

(٦) - هذه النخلة في واحة توزر في الجنوب التونسي تعطي فكرة عن غابات النخيل الواسعة المنتشرة في بقاع الشمال الافريقي والتي تشكل احد مصادر ثروته الزراعية . هناك ايضا غابات البلوط الفليني الذي يجعل من المغرب المنتج الثالث للفلين في العالم . وغابات الصنوبر والارز وبساتين الليمون والحامض واللوز والزيتون وكروم العنب والتين التي تنتج ثمارا للاستهلاك المحلي وللتصدير أيضا .

بحارة في سفن الحكومات وسفن المحاربين . وقد ظهر أثر الثروة المتحصلة من العمليات البحرية في مدينة الجزائر بشكل خاص . فقد اقيمت في هذه المدينة (خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر) ابنية ضخمة جميلة ومساجد انيقة وبيوت للسكن فخمة . ومثل ذلك يقال عن تونس وطرابلس . وقد كان للأسرى الاوروبيين اثر في تجديد اسطول تونس في أواخر القرن السادس عشر .

المصادر البديلة

على ان هذه المصادر تضاءلت في اواخر القرن السابع عشر بسبب موقف الدول الاوروبية وتقوية اساطيلها ، الأمر الذي سيظهر اثره في القرن الثامن عشر . ومن ثم فقد عمدت بعض حكومات المغرب العربي الى الاهتمام بالمتاجرة المباشرة مع بعض الدول الاوروبية . فعقد المغرب مثلا معاهدة تجارية مع بريطانيا (١٥٥١) لتبادل القماش الانجليزي بالسكر والجلود المغربية ، وبالذهب (الذي كان يأتي من السودان الغربي) . وقد انشئت شركة شمال افريقيا البريطانية (١٥٨٥) للقيام بالاعمال التجارية مع اقطار المغرب العربي . ولكنها لم تدم سوى اثنتي عشرة سنة . وانشأت فرنسا (في اواخر القرن السابع عشر) الشركة الافريقية للقيام بمثل ذلك . كما ان الجزائر منحت فرنسيا من مرسيليا اسمه سنسون نابلّون امتيازا (١٦٢٨) للاتجار بالمرجان المستخرج من الشواطىء الجزائرية (وكان بالاضافة يقوم بتجارة غير مشروعة بالقمح) .

وكان في تونس عدد لا يستهان به من التجار الاجانب ، وكان بينهم موظفون تعينهم حكوماتهم للاشراف على التبادل التجاري . وقد بني في تونس (١٦٥٩) فندق للتجار الاجانب بحيث يقيمون ويحتفظون بمتاجرهم عند الحاجة . وقد منحت تونس شركة فرنسية امتيازا (١٦٦٦) للاتجار بالمرجان والحبوب (بعد ان كانت ثمة تجارة غير مشروعة في النصف الاول لبعض الوقت) .

وقد استقر تجار فرنسيون في طرابلس في القرن السابع عشر ، وقام كبيرهم بدور القنصل المشرف دون ان تعينه حكومته لذلك .

وكان المغرب قد اخذ بتطوير زراعة قصب السكر والحبوب ، وكان الاول يُستعمل في صناعة السكر منذ اواخر القرن السادس عشر ، واستمر الامر على ذلك الى القرن التاسع عشر . والسكر المصنوع والحبوب كانت المتاجر التي تُحمل من المغرب مقابل حاجته من الاقمشة والمصنوعات الأخرى .

وقد أفادت تونس من مهاجري الاندلس الذين هبطوها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فبعضهم استقر في وادي مجردة والساحل التونسي بحيث انتعشت المنتوجات الزراعية ، وبعضهم الآخر استقر في تونس الحاضرة والمدن الاخرى فانعش الصناعات القديمة وانشأ صناعات جديدة . وكانت تونس تصدر خيوط الحرير والاقمشة الصوفية والبسط (الزرابي) والقيشاني (الزلاج) والطرابيش الى بعض اقطار اوروبا والى بلاد المشرق .

فضلا عن ذلك فتحت حملة المغرب على السودان طريق التجارة بالذهب .

إقتصاديات المغرب العربي(٢) في القرن الثامن عشر

عرف المغرب فترة ادارة حازمة في مطلع القرن ١٨ على يد المولى اسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) . ومع ان فترة فوضى قد عقبت وفاته ، فان نوعا من الاستقرار عاد الى البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . اما الجزائر ، فما يميز الحياة السياسية فيها هو ان السلطة الفعلية (سلطة الداي والمجلس) والسلطة الاسمية (العثمانية) لم تتجاوزا السواحل ، فظل للداخل استقلاله . وكان عصر الحسينيين الاول في تونس (١٧٠٥ - ١٨٣٧) مضطربا سياسيا ، وكانت الحروب بين تونس من جهة والجزائر وطرابلس من جهة ثانية متعددة . اما ليبيا ، فالقرن الثامن عشر فيها هو عصر القرمنليين (١٧١١ - ١٨٣٥) الذي كان

أ



ب



ت



(١) - تصنع سجادة الصلاة الصغيرة على نول صغير (أ) ، وهذا امر مألوف في اماكن صغيرة متعددة في المشرق والمغرب العربيين . لأن صناعة السجاد الكبير لا تكون عادة الا في بعض المراكز الكبرى المتخصصة لها . كذلك هي صناعة نسيج الاقمشة ، فانها من الصناعات الشعبية التقليدية

فترة اضطراب وحروب وثورات ونزاع . وجدير بالذكر ان اوروبا شُغلت بحروب نابوليون (١٧٨٩ ـ ١٨١٥) ، الأمر الذي أفاد منه حكام الشمال الافريقي تجاريا .

المغرب

كان المغرب قد استعاد الموانىء الهامة الواقعة تحت سلطة البرتغاليين ، وهي المعمورة (١٦٨١) وطنجة (١٦٨٤) واصيلا (١٦٩١) والعرائش (١٦٨٩) ، وبذلك قويت سيطرة الدولة المغربية على تجارتها الخارجية . وقد عقدت الحكومة المغربية معاهدات تجارية مع فرنسا (١٧٦٧) واسبانيا (١٧٧٥) وجددت المعاهدة القديمة مع بريطانيا . وظل السكر والحبوب المتجرين الرئيسين للتصدير ، كما ظلت الاقمشة أهم مستوردات المغرب .

بما أن الدول الاوروبية كانت لا تزال

٢



التي يتعاطاها عدد كبير من النساجين في امكنة عديدة صغيرة وكبيرة . هذا النساج التونسي (ب) تخرج من تحت يديه ومن نوله اقمشة جميلة وزرابي (بسط) في غاية الاتقان . لا يزال النول ، رغم التقدم الصناعي الذي حققته معظم البلدان العربية ، الآلة المألوفة لصناعة النسيج التقليدية . لم يشتهر المغرب العربي بسجاده كما اشتهر السجاد العجمي . لكن ما اشتهر به هو البسط والاغطية (ت) التي كاد يكون متخصصا فيها . وهي تتميز ليس بطريقة حياكتها فقط ، بل برسومها الهندسية الخاصة وبالوانها الزاهية التي قد تأتي متضاربة احيانا لكنها تعطي منظرا ترتاح اليه العين .

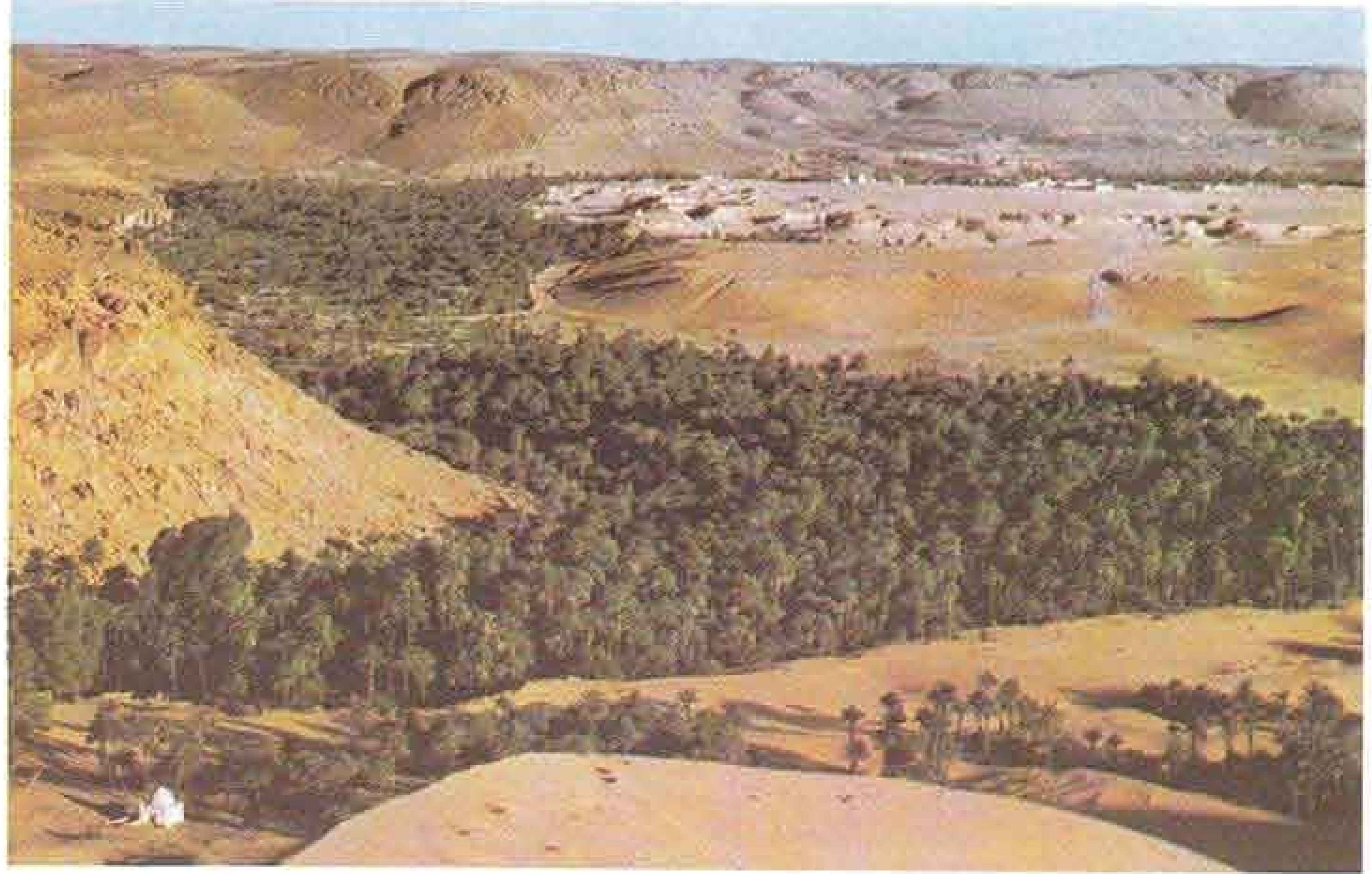
---

(٢) ـ صناعتا النساجة وصباغة الاقمشة من الصناعات التقليدية في العالم العربي الشرقي والغربي . وكانتا دوما مزدهرتين . مما أمّن لهما شروط الظهور والتقدم في بلدان المغرب العربي ازدهار تربية المواشي وخصوصا الخراف التي تعطي الصوف الممتاز لصنع السجاد والالبسة الفخمة . وقد اشتهرت الاصباغ المستعملة في هذه البلدان لأنها مستمدة من نباتات طبيعية ولها الوان زاهية وثابتة لا يؤثر فيها لا كثرة الاستعمال ولا الرطوبة ولا اشعة الشمس ولا مرور الزمن . عرفت فاس وتاجوراء وقفصة ومراكش باصبغتها . وهذه الاجاجين المكتظة التي توضع فيها الاصباغ وتنقع فيها الخيوط المطلوب صبغها هي من فاس . بعد جزّ الصوف عن ظهور الخراف وغزله على انامل النساء وصبغ الخيوط في الاجاجين تعلق الخيوط في الشمس والهواء الطلق لتنشف وتصبح جاهزة للحياكة اما سجادا او زرابي او اقمشة حسبما تكون غليظة او رفيعة . هكذا كانت صناعة النسيج وصنع الاقمشة في القرن الثامن عشر في بلدان المغرب العربي . الا ان الآلات والاصبغة الكيميائية اخذت منذ مدة تحل محل الكثير منها .

متفرقة الكلمة ، فقد فضلت ان تدفع مبالغ سنوية معينة (مع هدايا عند تعيين المشرفين او تبديلهم) لايالة الجزائر منعا للمجاهدين الجزائريين من التعرض للسفن الاوروبية . وقد بدا وكأن الجزائر قد انتظمت امورها اداريا في اوائل القرن الثامن عشر ، وحررت المناطق من الاحتلال الاجنبي . ولكن الاضطراب عاد الى البلاد في النصف الثاني من القرن المذكور ، ونقصت واردات العمليات البحرية ، وتلكأت الدول الاوروبية في دفع الجعالات ، وتناقص عدد السكان بحيث اصبح لا يزيد عن ثلاثة ملايين نسمة في اواخر القرن ، منهم تسعة اعشار يعيشون في الريف حيث الغلات الزراعية محدودة المنتوج نوعا وكمية ، وحيث الماعز والأغنام عماد الثروة الحيوانية .

واحتاجت الدولة الى اموال للمصاريف العامة ، فلجأت الى احتكار التجارة

٣



٤



(٣) ـ الواحة هي نقطة تجمع الحياة في الصحارى . ينطبق هذا على بوادي الجزيرة العربية وعلى الصحراء الكبرى . وبقدر ما تكثر مياه الواحة ، تتسع ارضها للزرع ، واماكنها للسكن . هذه واحة صغيرة (تاجنت) في مشارف الصحراء الكبرى .

(٤) ـ القافلة بجمالها ودوابها الاخرى وقيادة الرجال العارفين بالطريق كانت المظهر الاساسي والسبيل الرئيسي للتنقل وحمل المتاجر في المناطق الشبيهة بالصحراوية . هذه قافلة تسير في جنوب الجزائر ، ووادي بسكرة يكون خلفية الصورة . مما جاء على لسان الرحالة الالماني فريدريك هورنمان في كتابه « رحلة في افريقيا الشمالية من القاهرة حتى مرزق » (١٨٠٣) عن القوافل ما يلي : « في الفترة الممتدة بين اكتوبر وفبراير تصبح مرزق سوقا كبيرة وقبلة للقوافل من القاهرة وبنغازي وطرابلس وغدامس ولواتة ، والقوافل الصغيرة من تشاد ... ويقوم تجار اوجلة بنقل بضائع القاهرة . اما منتجات طرابلس ، فينقلها تجار سوكنة وبعض سكان طرابلس او فزان . ويشتغل الطوارق بالتجارة مع السودان الغربي . اما قبائل التيبو ، فتعمل بالتجارة مع اقليم كانم وبورنو . وتحمل القوافل الآتية من الجنوب او الغرب الى جانب البضائع العبيد من الجنسين وريش النعام وجلد النمور وتراب الذهب الذي تصنع منه الاقراط وحلى النساء المختلفة » .

(الخارجية) ، فكانت الصادرات ، وهي حبوب وزيوت ومواش، والواردات ، وفيها الاقمشة والمواد الغذائية وبخاصة السكر والقهوة ، تحتكر الدولة الاتجار بها ، وما لم يكن حكرا للدولة كان التجار الاجانب يفيدون من العمل به .

اما في مجال الصناعة ، فقد كانت الاعمال تقتصر على انتاج المواد الغذائية والادوات المنزلية وبعض انواع الاقمشة البسيطة ، وكانت هذه جميعها لا تكاد تكفي السوق المحلية . وحري بالذكر ان المواصلات كانت صعبة بسبب انعدام الامن في الاجزاء الداخلية .

الجزائر وتونس

ثمة ظاهرة هامة في حياة الجزائر مرتبطة بالتطور الاجتماعي ، وهي قيام طرق صوفيّة ، منها الطيبيّة (أوائل القرن الثامن عشر) والدرقاويّة (وهذه تفرعت من الشاذلية التي يعود قيامها الى القرن الثالث عشر) والرحمانية (أواخر القرن ذاته) .

وعندنا تقديرات لسكان المدن الرئيسية الثلاث في تلك البلاد تعود الى اواخر القرن الثامن عشر : فالجزائر العاصمة كان فيها نحو ٣٠٠٠٠ نسمة ، وقسنطينة ١٢٠٠٠ ، ووهران ٩٠٠٠ . وكان في كل من هذه المدن اعداد اكبر في القرن السابع عشر .

اما تونس ، فقد عرفت ازدهارا اقتصاديا نسبيا في القرن الثامن عشر اذ استقرت القبائل بعض الشيء في السهوب ، وقامت قرى جديدة في الساحل التونسي ووادي مجردة ، وارتفع انتاج الزيتون والحبوب وزادت المواشي . فكانت تونس تصدر هذه الى اوروبا (مع العلم ان التجارة الخارجية كان أساس التعامل فيها الاحتكار الرسمي) . وكانت تونس تصدر الى الجزائر والمشرق الأقمشة والبسط (١ ، ٢) (الزرابي) والمصنوعات الجلدية والطرابيش ، وهي المتاجر نفسها التي كانت تصدر في القرن السابق .

ليبيا

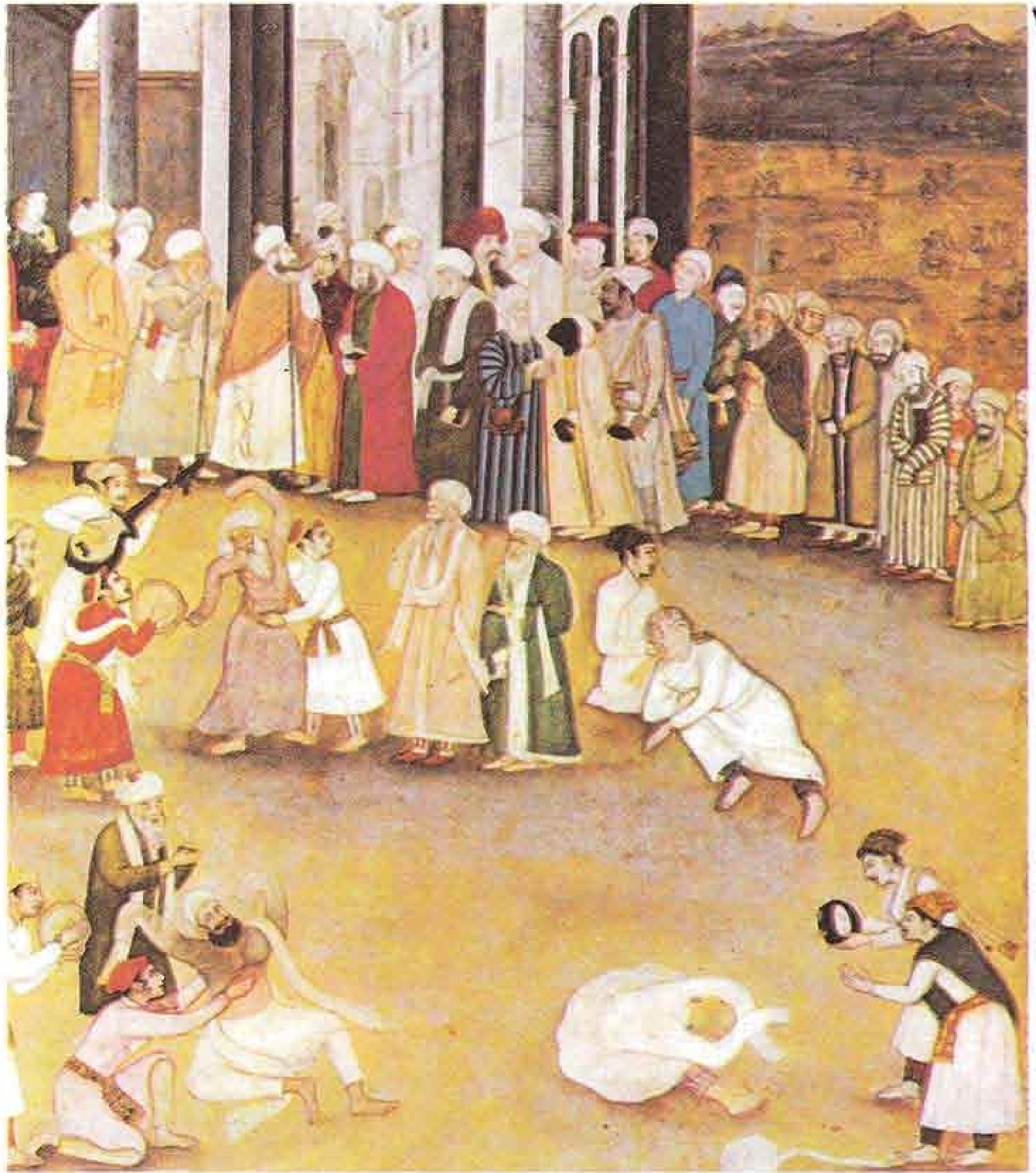
أما في ليبيا ، فقد بدأ العهد القرمنلي (١٧١١) بداية حسنة ، وكانت ليبيا تفرض على السفن الاوروبية جعالة . لكن تناحر القرمنليين فيما بينهم ، والثورات العديدة التي زلزلت أركان الحكم ، اضعفت الدولة ، فخلت الخزينة ، وتبدل موقف الدول الاوروبية من حكام الايالة الطرابلسية في اواخر القرن . فبعد ان كان ما يقبضه الباشا يزيد عن ١٠٠٠٠٠ قرش سنويا (وهو مبلغ لا يستهان به يومها) نقص ذلك ، فلجأ يوسف باشا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢) الى تلزيم جمارك طرابلس ، وشدد الخناق على السكان لتحصيل ضرائب اضافية . وعجز السكان عن الدفع ، لذلك جلا عدد كبير من الفلاحين عن البلاد الى تونس وغيرها من اقطار الشمال الافريقي وحتى الى المشرق ، والى مصر بشكل خاص .

في أواخر القرن الثامن عشر زار فردريك هورنمان منطقة فزان ، وقد كتب وصفا مسهبا للبلاد ـ حكاما وسكانا وعادات وتجارة . وها نحن نقتبس عنه فقرة عن التجارة في فزان اذ قال : « التجارة في فزان مزدهرة الى حد بعيد ، ولكنها تعتمد على ما يُحمل اليها من الخارج ، من القاهرة وبنغازي وطرابلس وغدامس ولواته ومن السودان وتيبو ـ تشاد » .

الحياة الفكرية العربية في القرن ١٨ (١)
المنطلقات

كان القرن الثامن عشر ، بالنسبة للوطن العربي ، مرحلة انتقال بين عصرين . فمنذ اواسطه ، بدأت التقاليد المملوكية السابقة في الفكر والحياة ، تهتز وتذبل . كما بدأت طلائع العصر الحديث المتأثر بالغرب ، وبالهزائم أمام الغرب ، تطل في عدد من نواحي الحياة ، ومن رجال الفكر .

على أن العصرين ظلا متداخلين ، ولمدة طويلة بعد ذلك . كما اختلفت البلاد العربية ، فيما بينها ، في مدى ذلك التأثر ، وفي ظهور آثاره فيها . ورجال عصر النهضة المعروفين في القرن ١٩ لم يظهروا في فراغ . وكان رجال القرن ١٨ هم الذين مهدوا لهم ، ولتلك النهضة ، وان كانت اعمالهم الفكرية



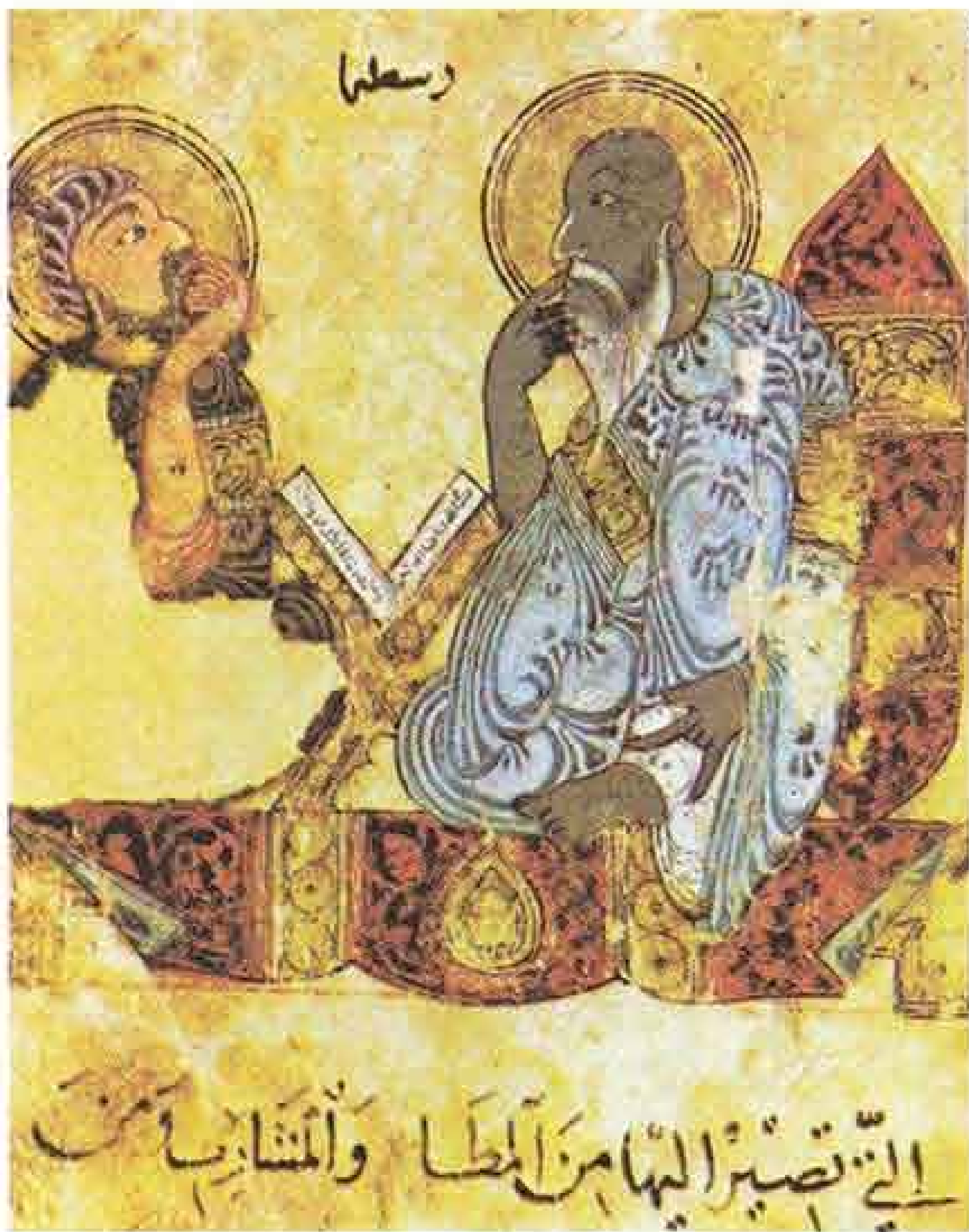
(١) ـ كان الاقبال الشعبي المتزايد على الدخول في الفرق الصوفية ، منذ القرن ١٣ ، نوعا من الهرب من البؤس الاجتماعي الى الفردوس الروحي . باركت ذلك السلطات السياسية واستغلته . تعددت الطرق جدا . تفنن مشائخ الطرق الصوفية في ابتكار الطقوس التي يستعينون بها في ممارساتهم الروحية ، للوصول الى حالات « الوجد » ، و « الكشف » و « الاشراق » و « الفناء » في الذات الالهية . أدخلوا الموسيقى والاناشيد على مجالسهم (الصورة - من القرن ١٧) وأدخلوا الرقص الدائري (طريقة جلال الدين الرومي المولوية) ، او التسبيح ، او اذلال الذات ، وادعى بعض رجال الطرق اجتراح العجائب (الطعن بالسيوف دون ان تسيل الدماء او السير على النار ، وأكلها او السيطرة على الثعابين والحيوان) . صار لهذه الطرق تنظيمات ذات شيوخ رسميين ، ودرجات ، ومواسم دورية للاحتفالات . كما دخل في مفهوم الناس وجود سلاطين روحيين (مقابل السلاطين الحكام) هم أقطاب الوقت . وصار لشيوخ الطرق سناجقهم وطبولهم التي تقابل الوية الباشوات وفرقهم الموسيقية . على ان التألق الروحي الصوفي ، في القرون ١٦ - ١٨ ، ضعف كثيرا لحساب الكسل والجشع المادي .

التجديدية من قبيل رد الفعل ضد الغزو العدواني الاوروبي وقوته العلمية المتزايدة .

مراكز التعليم

كانت حركة العلم والفكر في العهد العثماني عامة تتسم بطابع المحافظة والتقليد . عني العثمانيون بالثقافة العربية الاسلامية وكانوا يعتبرونها أساس الوحدة الاسلامية . وكان التعليم دينيا يجري في المدارس ، التي تنافس السلاطين والوزراء في اقامتها في العاصمة والولايات . والتعليم فيها ثلاث مراحل : الطلبة (صوفته) وكانوا يزيدون في بعض الاحصاءات على ١٠٠ ألف ، والمعيدون (دانشمند = متعلم) ، ثم المدرسون (ويدرسون سبع سنوات) للتخرج . وقد ساعد على تنشيط هذا التعليم المرسوم التنظيمي الذي أصدره محمد الفاتح وجعل المناصب الدينية ، عشر طبقات في قمتها شيخ

٣







(٢) ـ ظلت الصيدلية في الشرق العربي حتى أواسط القرن التاسع عشر تستند الى تذكرة داوود الانطاكي (المتوفي سنة ١٦٩٧) . وتعتبر من أكمل الموسوعات في تركيب الأدوية لأنها لخصت كل تراث الصيدلة وطرائقها التقليدية (التي تمثلها الصورة (أ) من القرن الثاني عشر) . لهذا اشتهرت وصارت قانون الصيادلة (العطارين) الذين نظموا موادهم الأساسية (ب) بالاستناد عليها .

(٣) ـ عرف عدد من علماء العرب في القرن ١٨ بجانب الطب والفلك ، بدراسة الفلسفة والمنطق ولكنهم ظلوا يدرسونها في الكتب القديمة وظل ارسطو لديهم هو المعلم الأول .

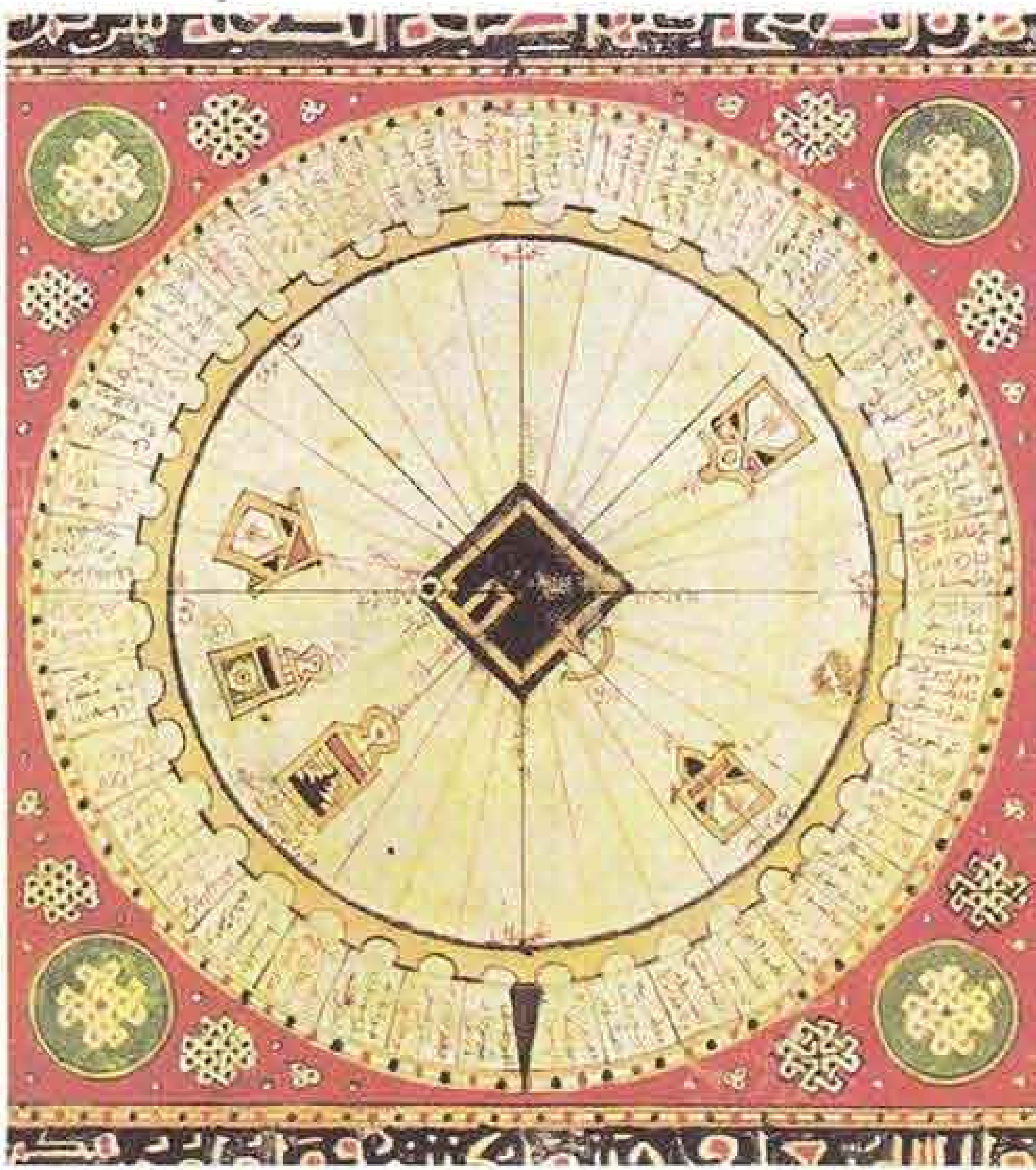
الاسلام ، هذا التنظيم كان يشمل البلاد العربية ايضا ، وان تميزت فيها ثلاثة مراكز علمية : الأزهر والقيروان والزيتونة .

الاهتمامات الفكرية العامة

كانت طرق الصوفية التي انتشرت ، منذ المماليك والمرابطين ، والتي كانت رد فعل اجتماعي على الوان الظلم والبؤس ، هي المسيطرة على الحياة الدينية . لكنها تعقدت وتعددت طقوسها في العهد العثماني . ومن أشهرها : البكطاشية والمولوية (اللتان أيدهما العثمانيون) (١) والكيلانية والرفاعية والنقشبندية والدانشمندية والشاذلية والقلندرية.

لم يقطع الفتح العثماني مسيرة الحركة العلمية في البلاد العربية ، فكان علماء وأدباء القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ استمرارا لعلماء القرون السابقة وتتمة لهم في الدراسات الدينية والأدب والشعر والتاريخ وفي الفلك والطب





٤ أ ب

(٤) - كانت المواسم الدينية تأخذ الكثير من اهتمام ونشاط المجتمع العربي في العهد العثماني . الحج كان يشغل الناس ما لا يقل عن ٦ أشهر . كان الحجاج يخرجون سنويا في قوافل محروسة . أشهرها تلك التي تخرج من دمشق ومن القاهرة . امارة القافلة كانت شرفا يتنافس عليه الباشوات . يبدأ توافد الحجاج الى دمشق والقاهرة قبل خمسة أشهر من الحج . بعد عيد الفطر تبدأ الاحتفالات الشعبية . تخرج قافلة الحج في موكب رسمي في مقدمتها المحمل . كهذا المحمل المصري (أ) - هودج من المخمل الاخضر المطرز بالآيات القرآنية بالذهب . تتكرر الاحتفالات نفسها بسلامة العودة . الحج بجانب معناه الديني ، كان موسما اقتصاديا وملتقى فكريا دوريا لعلماء العالم الاسلامي ورجاله للدراسة وتبادل الأفكار . ومنها الاصلاح والنهضة السياسية التي انتشرت أواخر القرن ١٨ . كانت مكة عند المسلم مركز الكون . لذلك كان بعضهم ينظم الكون هندسيا من حولها كما في الصورة (ب) التي نقلها اطلس إلشر في القرن ١٦ . فمدن الدنيا في دائرة حول الكعبة . صنعاء والزنج في الاعلى ، وبغداد ودمشق في الأسفل .

والرياضيات والجغرافية وعلوم البحر. لكن حركة العلم والفكر اتسمت بأمور ثلاثة:

الأول: أن الدولة العثمانية كانت ثنائية اللغة. يتكلم قسمها الاناضولي وبعض الاوروبي اللغة التركية، وهي اللغة الرسمية. بينما يتكلم باقيها اللغة العربية وهي لغة الدين، وبينما كانت الثقافة العثمانية التركية متأثرة بوضوح بالثقافة الفارسية. ظل الاعتزاز بالعربية وعلومها وتراثها واضحا في البلاد العربية. وكان القرآن الكريم والاسلام يدعمان موقفها.

الثاني: ان اتجاه التأليف والفكر في العهد العثماني، كان الى الشروح والحواشي والتأليف تلخيصا أو جمعا، (تذكرة، كشكول، رحلة ...) بينما كان العصر المملوكي السابق عصر التأليف الموسوعي والمجاميع الشاملة. وانحط الاسلوب الانشائي حتى كاد يصبح عاميا. وقل الابتكار الأدبي لحساب اللعب اللفظي والألغاز. وظلت الفلسفة تقليدية (٣).

الثالث: ان الاتصال مع علوم العصر ونهضته النامية في الغرب كان ضعيفا. الحياة الفكرية العربية والاسلامية كانت تعيش على ماضيها. وعلى تأكيد الحياة الدينية (٤). انقطاع التجارة عن بلاد العرب، بعد الاكتشافات، كان له أثره. كما كان للادارة العثمانية نفسها، ولقناعة العلماء المسلمين بكفاية الاسلام وحده، أثرهما ايضا في ذلك الموقف الانغلاقي.

مطلع النهضة الفكرية

على ان هذا كله اصيب، في القرن ١٨، وبخاصة منذ اواسطه بهزة عنيفة. من اسبابها:

أ - ظهور الضعف في الامبراطورية العثمانية بفساد ادارتها، وتدهور قوتها العسكرية (الانكشارية) من جهة، وهزائمها من جهة أخرى، أمام القوى الاوروبية (وبخاصة روسيا والنمسا). ولاسيما حين اضطرت الى توقيع سلسلة من المعاهدات المذلة التي اقتطعت بعض أجزائها مثل قاينارجي (١٧٧٤) وياسي (١٧٩٢).

ب - عودة الانتعاش الى طرق التجارة والقوافل عبر البلاد العربية في القرن ١٨، مع زيادة سيطرة الاستعمار في الهند وجنوب شرق آسيا.

جـ - تزايد اطلاع هذه البلاد على الغرب الحديث، عن طريق الوكالات التجارية والقناصل والتجار والرحالين والبعثات التبشيرية التي توضعت في مدن المشرق.

وكان المغرب، في هذه الفترة، اكثر معرفة بالغرب، بسبب قربه منه وتعامله تجاريا معه، وبسبب قواه الهجومية البحرية التي كانت تفرض الجزية على الاساطيل الغربية في البحر المتوسط. على ان الاتصال مع الغرب بلغ حد الصدمة الفاجعة، حين وصلت حملة نابليون الى الشرق واحتلت مصر سنة ١٧٩٨. بنتيجة ذلك كله، ظهر في البلاد العربية المشرقية رد فعل سياسي وفكري، تجلى سياسيا في يقظة الوعي الوطني، وفي عدد من التحركات الاقليمية التي تراوحت بين اعلان الاستقلال، وبين محاولة اقامة حكم محلي، ضمن الاطار العثماني. كما تجلى دينيا، من جانب آخر، في محاولات التجديد في الفكر الديني والعلمي، وفي الحياة.

الحياة الفكرية العربيّة في القرن ١٨ (٢)
رجال العلم والفكر

منذ أواسط القرن ١٨ ، كانت ملامح من التغير قد بدأت تظهر في العلم والتأليف والفكر ، في البلاد العربية المشرقية خاصة . وليس يعني ذلك ان الاجواء الفكرية كانت في خمول وافلاس ، من قبل . ولكن يعني انها بدأت تغير الطريق والمنهج والاهتمامات . وكانت الخطوة الأولى ، في هذا السبيل ، هي مراجعة الذات والتراث ، والنظر في المشكلات الفكرية . وثمة من الدلائل ما يكفي للتأكيد بأن الفترة السابقة لعصر النهضة كانت فترة احترام كبير لمقام العلم النقلي والعقلي على السواء ، كما كانت أيضا فترة انتاج علمي وعمل أدبي واسعين . وان يكن ذلك على الطريقة التقليدية

أ

ب

(١) ـ منذ نشر العرب صناعة الورق في العالم ، في القرن الثامن حتى اواخر القرن ١٨ ، كانت الوراقة ، أي العمل في بيع الورق ونسخ الكتب ، مهنة رائجة ، في العالم الاسلامي كله . النساخ الذي نراه في صورة (ب) في رسائل اخوان الصفا من القرن ١٢ ، كان هو المطبعة . كثير من العلماء عاشوا على نقل الكتب بخطوطهم ، وان كان بعضها يقع في عشرات المجلدات . لهذا كانت المخطوطات غالية ونادرة . انقرضت هذه المهنة بسرعة منذ مطالع القرن التاسع عشر ، مع دخول المطبعة . كان سعيد بيكرمي سفير تركيا في باريس هو الذي أدخل أول مطبعة الى استانبول سنة ١٧١٦

وظهر أول كتاب عربي فيها سنة ١٧٢٨ . أغلقت سنة ١٧٤٤ ثم اعيد فتحها سنة ١٧٨٣ وطبعت بعض كتب التصوف والتاريخ . مع مطبعة استامبول دخلت مطبعة اخرى الى حلب أغلقت سنة ١٧٢٤ (ثم اعيد فتحها فيما بعد) . ثم دخلت مطبعة الشوير ومطبعة قزحيا الى لبنان . في أواخر القرن ١٨ ظهرت ايضا مطابع اسكدار وقمبر خانه في استامبول . ودخلت اول مطبعة عربية الى مصر مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . صارت فيما بعد مطبعة بولاق . لم يصل عدد الكتب العربية المطبوعة ، في نهاية القرن ١٨ ، الى الخمسين . وكانت في غلائها وندرتها كالمخطوطات . والكتب العربية التي طبعت في اوروبا كانت بدورها قليلة الوجود ونادرة وغالية . اهتمامات الناس جعلت كتب الدين والتصوف من اوائل الكتب المطبوعة . مثل (أ) كتاب الفتوحات المكية لابن عربي . ويلي ذلك كتب التاريخ ودواوين الشعر وكتب اللغة كالقاموس المحيط للفيروزابادي . مطبعة

القديمة . وكانت فعلا مطلع النهضة .

بدء الطباعة

ولنلاحظ أولا ان المطابع لم تكن في القرن ١٨ قد دخلت بعد العالم العثماني بشكل واسع . أول مطبعة دخلت اسطنبول سنة ١٧١٦ ودخلت الشام في الوقت نفسه مطبعة حلب ومطبعتان في لبنان ، ولم تدخل اول مطبعة الى مصر الا مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . وهكذا كانت الكتب المطبوعة حتى في نهاية القرن لا تزيد على بضعة وأربعين كتابا ، وكانت مسيرة الفكر ما تزال تقوم على النسخ وعلى الكتب المخطوطة (١) التي كان الكثير منها يوقف وقفا في المكتبات المسجدية والمدرسية لطلاب العلم .

رجال الثقافة والفكر

بالرغم من ذلك ، ظهر العديد من رجال

٢



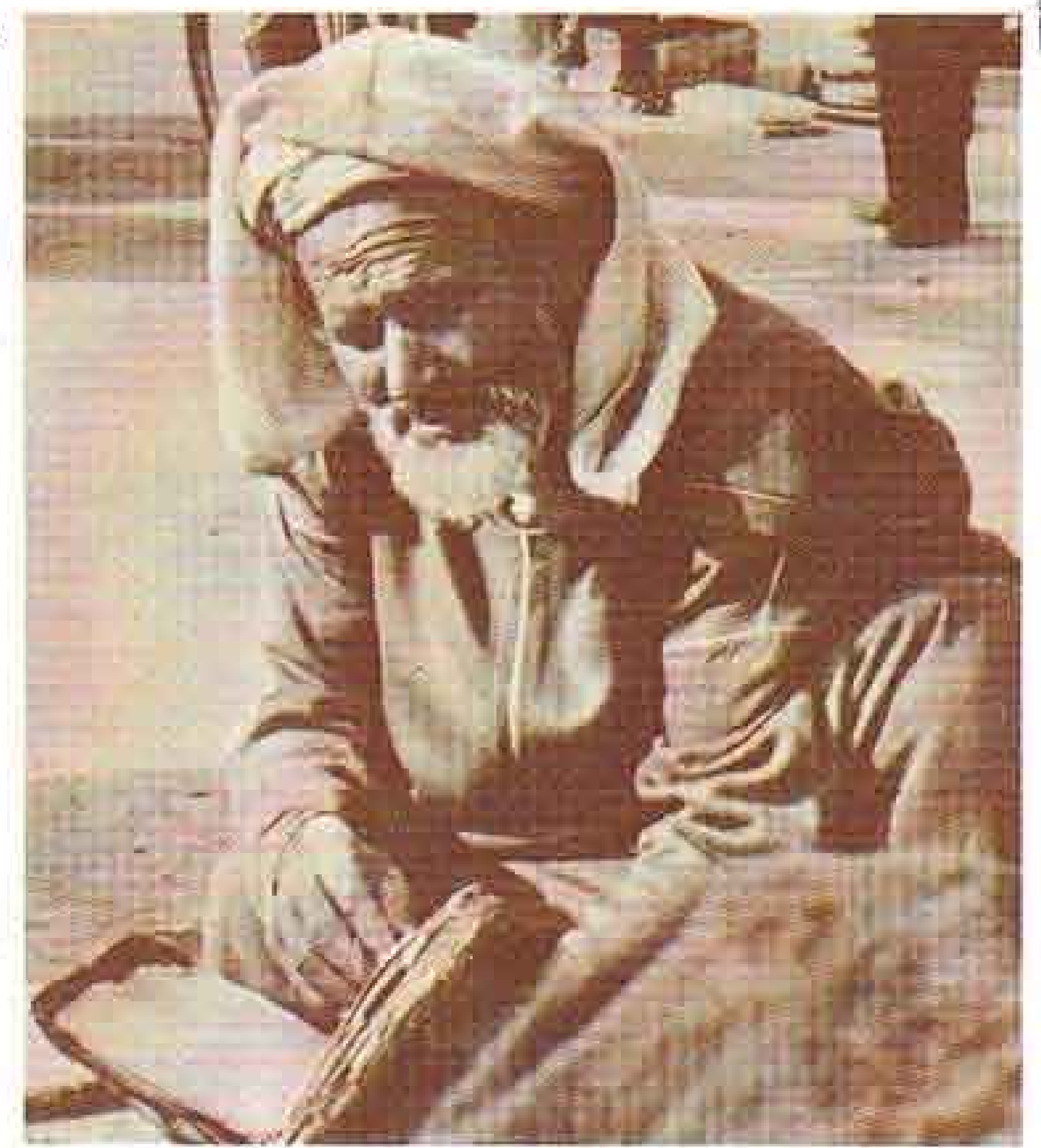
بولاق أيام محمد علي طبعت كتب الطب والعلوم العسكرية المترجمة . وكانت بعد ذلك من أنشط المطابع في طبع كتب التراث . على ان هذا التراث ظل محفوظا الى اليوم ، تضمه مكتبات السلاطين في استامبول وكلها مخطوطة (نصف مليون) . ويشكل مع المخطوطات العربية بمكتبات العالم ثروة الفكر العربي .

---

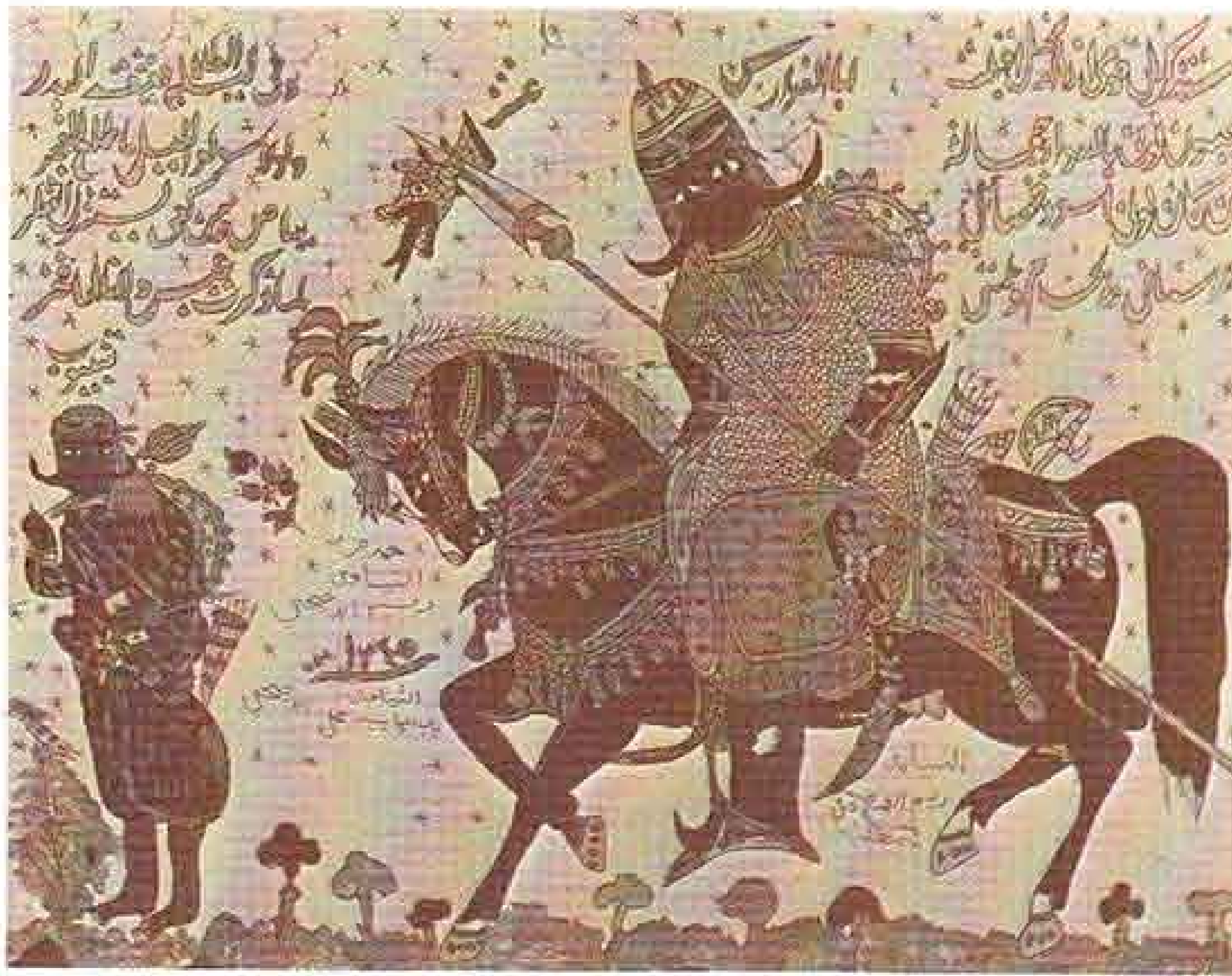
(٢) ـ كان للأدب الصوفي شأن كبير في العالم العربي (وفي ايران وخاصة بعد القرن الثالث عشر) . ومن الصوفية الذي اعجب الناس بهم وانتشر أدبهم فريد الدين العطار (قتل على أيدي المغول سنة ١٢٣٠ على الأرجح) . وقد نظم قصيدة رمزية عنوانها منطق الطير في ٤٦٠٠ بيت شعر ، تصور فيها اعتزام الطيور ان تنتقل الى بلاط السيمرغ . ويستطيع ثلاثون طيرا منها ان تتغلب على الرحلة الطويلة ومشاقها ، وعندما تصل تكتشف انها هي السيمرغ بالذات (كلمة سيمرغ تعني ثلاثين) . والرمز هنا : في الطيور الى السالكين طريق الصوفية ، وفي السيمرغ (اي العنقاء ، الطائر الذي لا يطال) الى الحق الذي هو الله . وقد حظيت قصيدة العطار بالعناية الكبرى في زخرفتها ابتداء من القرن الخامس عشر . وهذه الصورة مأخوذة عن زخرفة لها تعود الى القرن السادس عشر على الراجح . كان لهذا الادب الصوفي تأثير في تطور الادب عند العثمانيين ، اولا في الادب الشعبي « فالدراويش » نفخوا في الاغاني الشعبية روحا صوفية قوية ، كما نرى في قصائد « يونس أمره » التي كانت تنشد في حلقات المتصوفين . وفي القرن الرابع عشر اصطنع نسيمي شاعر الطريقة الحروفية لهجة الاناضول الشرقي ، كما اصطنع اللهجة ذاتها في القرن السادس عشر « فضولي » البغدادي المولد . لكن المثقفين كانوا يعتبرون الفرس أئمة لهم في الشعر الصوفي . فقد احتفظوا لفترة طويلة باللغة الفارسية نفسها وبعض قوالبها الشعرية في انتاجهم الشعري . حتى ان السلطان سليم الاول نظم ديوانا كبيرا بلغة الفرس كما انهم راحوا يقلدون « مثنوي » جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣) الذي يقع في ٦ مجلدات تضم ٢٦٦٠٠ بيت . و « مثنوي » كل من جامي ونظامي وقد رافق الأناشيد التي دخلت التصوف ، ظهور احتفالات خاصة كحفلات « الذكر » والاحتفال بالمولد النبوي . بدأ في شمالي العراق حوالى سنة ١٢٠٠ ثم انتشر في العالم الاسلامي .

الفكر والتأليف ، في مختلف العلوم النقلية والعقلية والآداب . فقد بذل جهد كبير في العلوم الجغرافية من جانب العلماء مثل حاجي خليفة (الذي وضع كتاب جهان نامة مع أطلس للخرائط في القرن ١٧) ، ومن جانب عشرات الرحالين الذين سجلوا رحلاتهم مثل الصوفي عبد الغني النابلسي (١٧٣١) وله ٢٠٠ مؤلف أيضا معظمها في التصوف ، ورحلة غزال الفاسي (١٧٦٥) . وظهر عدد من كبار الاطباء ومنهم عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (اواسط القرن ١٨) آخر ممثل للطب العربي . وشهاب الدين القليوبي (١٦٠٩) صاحب كتب الطب المعتمدة حتى عصر النهضة . وبرز في الصيدلة داوود الانطاكي (١٦٩٧) صاحب « التذكرة » ، ومن العلماء الموسوعيين (حوالى ١٧٥٠) صاحب كشاف اصطلاحات الفنون ، والشيخ حسن العطار المغربي المصري (١٨٣٨) الذي ألف

٣ أ



ب



(٣) ـ خلال العهد العثماني كان في الشرق العربي عدد من وسائل الترفيه والتثقيف . منها الحربي كاللعب بالسيف والترس . ومنها ما هو للتسلية كمسرح خيال الظل (قره كوز) ومنها أخيرا ما هو للتثقيف كالقصص الشعبي . هناك ، عدا الف ليلة وليلة ، عدد واسع منه تراكم منذ ما قبل العصر الفاطمي واستمر يتضخم لأنه يحمل قيم المجتمع وآلامه واسقاطاته على الظلم السياسي والاجتماعي . معظم هذا القصص كان يستند الى هيكل تاريخي لعبت به الأخيلة كما تشاء ، كقصص عنترة ، والملك الظاهر ، والملك سيف ، وتغريبة بني هلال ، والأميرة ذات الهمة ، وعلي الزيبق ، وفيروز شاه .. ولما كانت الأمية منتشرة ، والقصص مخطوطة ، صار « الحكواتي » (أ) الذي يتلوها أجزاء على الناس في أمسيات المقهى ، شخصية واضحة في المجتمع الشعبي . الرسامون الشعبيون عملوا بدورهم على تصوير المشاهد التي يسمعونها مع ابطالها ، الصورة (ب) هي تقليد معاصر لتلك الرسوم السابقة .

---

(٤) ـ كانت تنشأ مشكلة اجتماعية فقهية عند دخول أي عادة جديدة الى المجتمع العثماني ، مما كان يقتضي اصدار فتوى شرعية لقبولها . هذا ما حدث حينما تعرف العثمانيون الى القهوة في اوائل القرن السادس عشر . فقد بدأ السلاطين باصدار الاوامر بحرمانها (بين ١٥١١ و ١٥٤٦) . لكن ما لبثت ان انتشرت في حلقات الصوفية بعد ان سمح بها الفقهاء . كذلك مرّ الدخان اولا في مرحلة الحرمان ثم كثر الجدل فيه وأخيرا انتشر في النارجيلة تحت التأثير الفارسي ثم في الغليون الطويل الذي أخذ في تدخينه حتى الشيوخ المتزمتون .

٤



في النحو والفقه والطب والفلك والاسطرلاب وعمل المزاول . واشتهر في الحساب بهاء الدين العاملي (١٦٢١) وفي الفلك والرياضيات رضوان الرزاز المصري (١٧١١) . وفي الحرب ابراهيم الرياش الاندلسي (أواسط القرن ١٧) الذي كتب عن « المدافع » ، وفي الموسيقى احمد بن عبد الرحمن « ١٧٣٧ » وفي الزراعة ابن كنان « ١٧٤٠ » وفي البصريات محمد بن العنز اليماني ، ابتكر الناظور ، وفي التصوف محي الدين البكري الخلوتي « ١٧٤٩ » وقطب الدين الدمياطي النقشبندي « ١٨١٨ » . وفي الأدب والشعر والنحو الشيخ عبد الله الشرقاوي (١٨١٢) شيخ الأزهر وعلي الغراب الصفاقسي (١٧٦٨) في تونس ومحمد عبد الكريم النائب (١٨١٧) من طرابلس الغرب . وعبد الله الحلبي شاعر الشام أواخر القرن ١٨ . وعرف بالفلسفة والهندسة والهيئة محمد الدسوقي (١٨١٥) وفي الأدب القصصي ، على طريقة ألف ليلة ، محمد الحنفي (١٨١٥) شيخ الازهر . وقد شملت حركة التأليف والعلم والأدب اطراف الوطن العربي البعيدة . فكان ثمة حركة علمية وادبية نشيطة في حضرموت واليمن ومثلها في المغرب الأقصى .

أما العلم الذي نال أكبر قسط من اهتمام أهل القلم فهو التاريخ . ولعل ذلك لأنه المجال الابداعي الوحيد ، ويعكس الرغبة باستمرار الفكر الاسلامي . ونستطيع أن نعد في القرن ١٨ وحده ما يزيد على ستين مؤرخا جيد التأليف . منهم السويدي (١٧٨٦). وابن غنام (١٨٠٦) . والشوكاني (١٨٣٤) . والمرادي (١٧٩١) . والشهابي (١٨٣٥) . والجبرتي (١٨٢٢) . والحلفاوي (١٨٠٩) . وابن غلبون المصراتي (أواسط ١٨) . والسراج الأندلسي (١٧٥٥) . والزياني (بعد ١٨١٣) .

المشاكل الفكرية

ضمن هذه الجماعات الواسعة ، تبلورت حركة النهضة العربية ، في شكلها الاول ، بطرح المشاكل الفكرية الاساسية التي تشغل المجتمع . كان طرحها رد فعل على الهزائم والمساوىء ، ونتيجة وعي العصر :

أ ـ مشكلة الاجتهاد . عمل عليها الشيخ محمد الشوكاني (١٧٦٠ ـ ١٨٢٢) الذي أنحى باللائمة على المقلدين . ودعا الى الاجتهاد ورفض اقفال بابه .

ب ـ مشكلة التوفيق بين السنة والشيعة . تصدى لها عبد الله السويدي (١٦٩٢ ـ ١٧٦٠) .

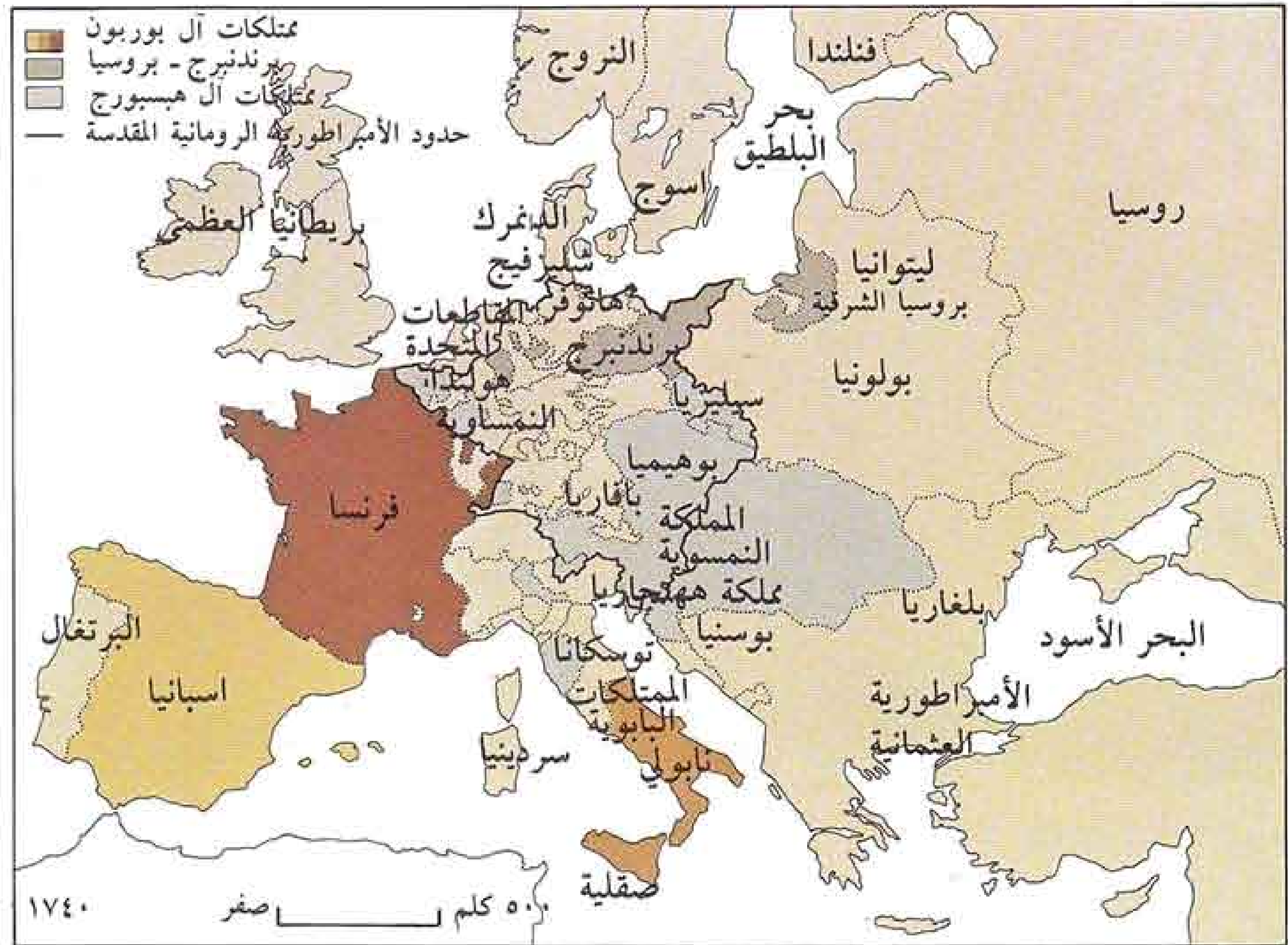
جـ ـ مشكلة اللغة العربية ، وهي عماد النهضة . تصدى لاحيائها المرتضى الزبيدي اليمني نزيل القاهرة (١٧٢٢ ـ ١٧٩١) . فوضع معجم (تاج العروس) الموسوعي .

د ـ مشكلة التجديد الديني : وكانت هي المشكلة المركزية فبعض العلماء شغلتهم محاربة البدع (٤) (مثل التدخين والقهوة والسماع) . وبعضهم رأى اصلاح الحال في اقامة الشريعة (كالجبرتي) . وبدأ ، في الوقت نفسه ، انحسار التصوف مع جفاف موارده الروحية (٢) ، وتحوله الى طقوس شكلية ، الا ان القضية الكبرى التي هزت القرن ١٨ هي حركة محمد بن عبد الوهاب (١٧٩١) الاصلاحية في نجد ، الذي طالب بعودة الدين الى صفائه السلفي الأول ، ورفض كل البدع التي علقت به . وكان لدعوته صداها المباشر في المغرب الأقصى ، وشبه القارة الهندية ، وأندونيسيا على السواء .

أوروبا : الاقتصاد والمجتمع ١٧٠٠-١٨٠٠

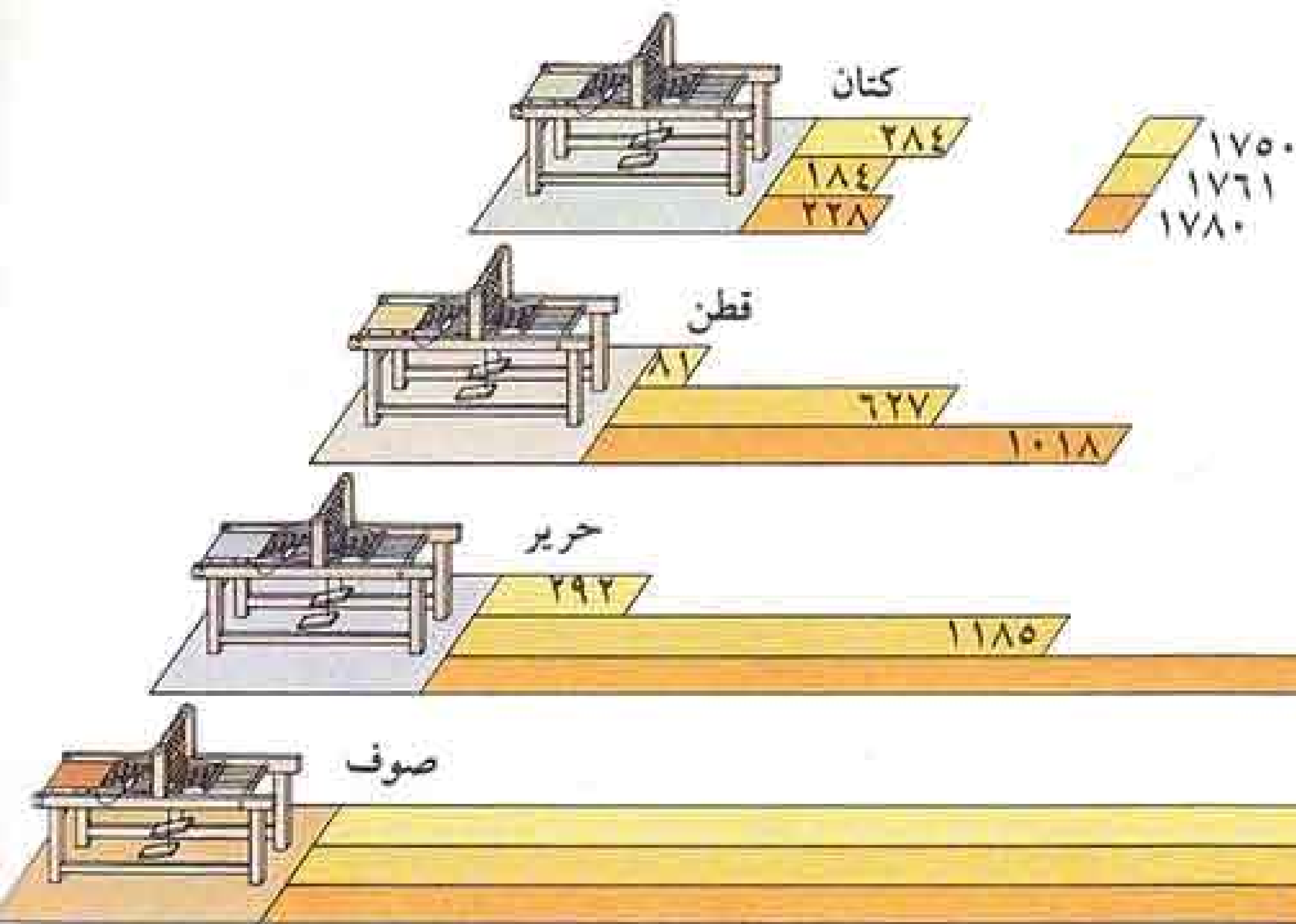
ان أهم التطورات الاقتصادية التي ظهرت خلال القرن الثامن عشر جرت في بريطانيا وهولندا وبعض أنحاء المانيا . أما أوروبا الشرقية والجنوبية ، فكان تقدمها بطيئا . في الطرف الأول ، وقفت بريطانيا في أواخر القرن وقد قطعت شوطا بعيدا نحو التحول الى الدولة الصناعية الأولى ، وهو تطور استمد دعما نظريا من نتاج اقتصاديين كبار كآدم سميت (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) . بينما وقفت في الطرف الآخر بلدان مثل روسيا وايطاليا احتفظت بأنظمة اقتصادية لا تختلف كثيرا عن أنظمة العصور الوسطى . اجتماعيا ايضا ، جرت أبرز التطورات في البلدان الواقعة على الساحل الأطلسي .

١



(١) ـ كان الاستقرار السياسي من سمات اوروبا في القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ . شهد القرن السابق توطيد أسس عدد من الدول القومية القوية التي تحكمها ملكيات ثابتة الدعائم كبريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا . وعلى الرغم من تغيير السلالات فيها والنزاعات حول الوراثة ، فقد كانت السلطة السياسية قد توطدت في هذه البلدان منذ مدة طويلة . مع ذلك ، كان القسم الأكبر من المانيا وايطاليا لا يزال خليطا من الدول والممالك الصغيرة المنفصلة حتى منتصف القرن التالي . كذلك كانت بولونيا دولة غير مستقرة ومعرضة للغزو والتقسيم على يد دول أخرى . وكانت تقوم ، على تخوم أوروبا السياسية في الجنوب الشرقي الامبراطورية العثمانية ، الآخذة في التقهقر ، والمسيطرة مع ذلك على بلدان البلقان .

٢



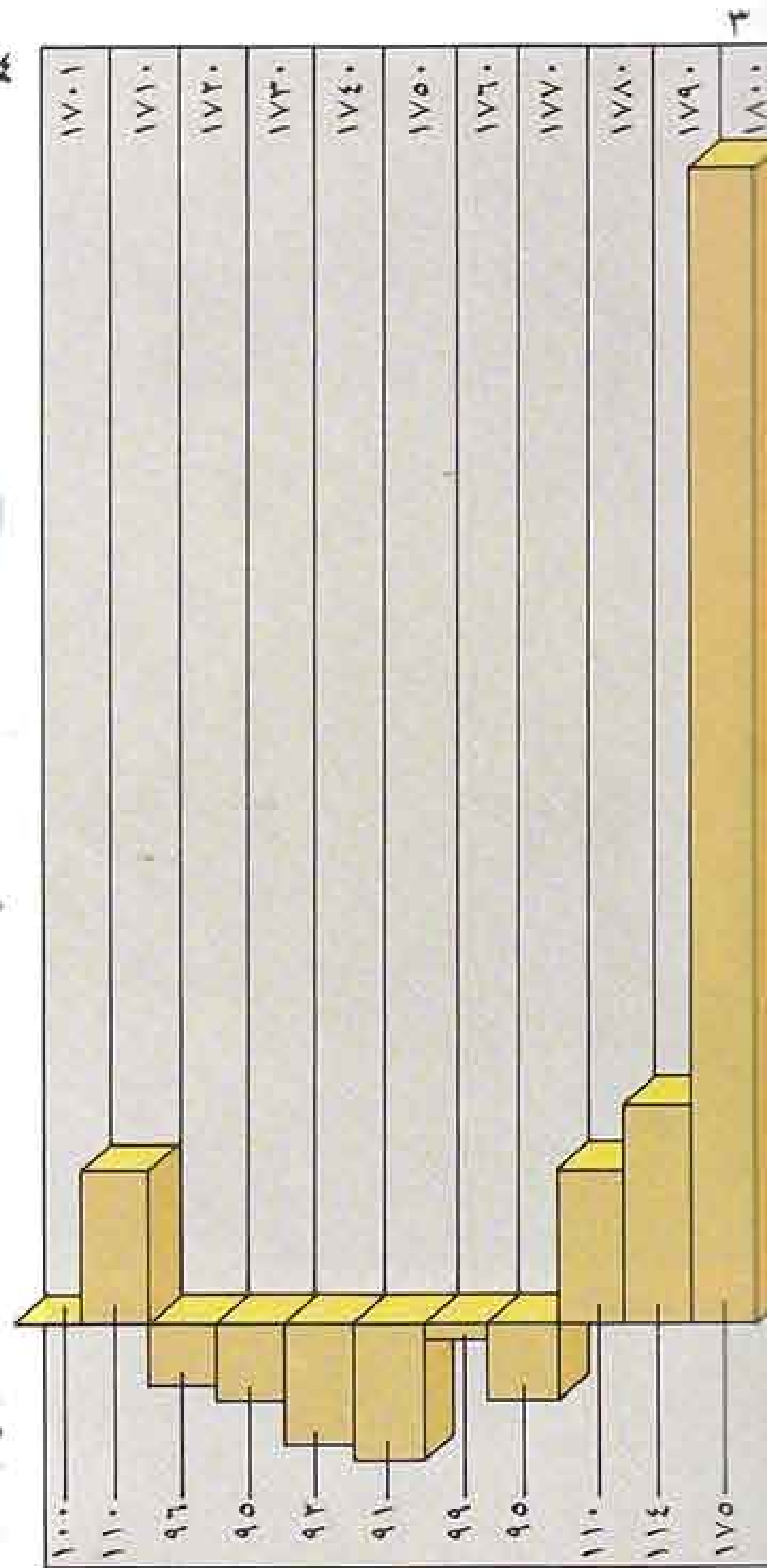
(٢) ـ نمت صناعة المنسوجات في بريطانيا في القرن الثامن عشر . زاد عدد الأنوال (الظاهرة في الصورة) العاملة في صناعات المنسوجات ، في حين لم يكن الانتاج المنزلي قد استبدل بعد بأساليب المصانع الآلية . أدت صناعات الحرير والقطن الجديدة الى تراجع الصوف ، النسيج الرئيسي منذ العصور الوسطى .

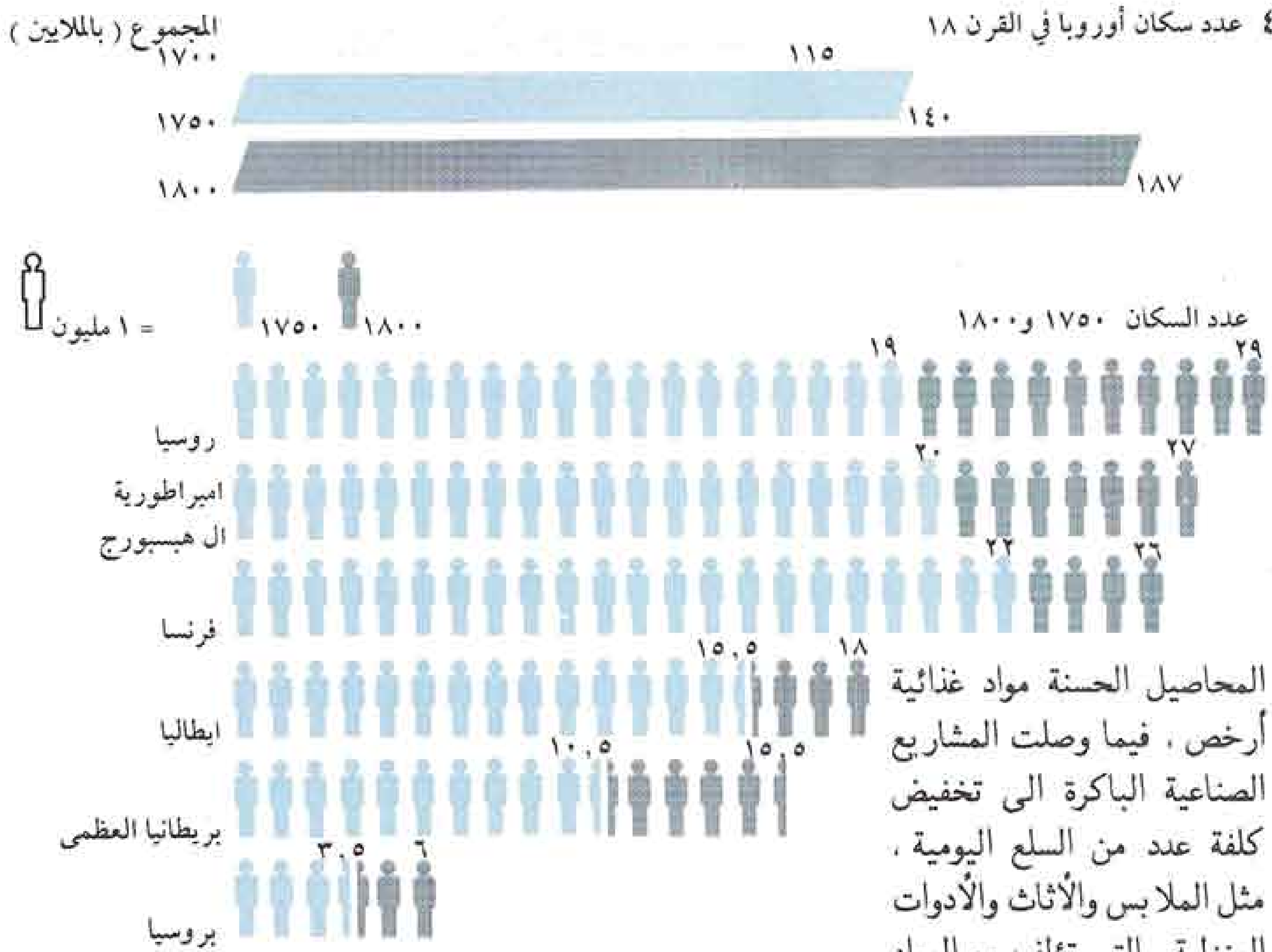
(٣) ـ توحي مؤشرات أسعار عدد من السلع في بريطانيا في

تزايد السكان وتحسن المحاصيل

من التطورات التي شملت سائر أوروبا في هذه الحقبة تزايد عدد السكان ، الذي نجم عن تدني معدل الوفيات (٤) ، كما نجم ، في البلدان المتقدمة ، عن زيادة الطلب على اليد العاملة من جراء التوسع الاقتصادي ، مما مكن العمال من اعالة عدد أكبر من الأولاد ، وشجع الاحداث على الزواج الباكر .

أسهم التحسين الزراعي أيضا في الاسراع في نمو عدد السكان . فقد استصلحت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية ، واستخدمت تقنات ومحاصيل جديدة لسد الحاجة الى المواد الغذائية التي تطلبها ازدياد السكان ، فارتفعت معدلات الانتاج وأوزان الحيوانات ابان هذا القرن ، لاسيما في شمالي أوروبا الغربية . في أصقاع أخرى ، بقيت الزراعة متخلفة في أغلب الأحيان ولا تعدو القيام بالأود ، كما استمرت المجاعة تفتك





القرن الثامن عشر بأن تكاليف المعيشة هبطت حتى الجزء الأخير من القرن . كانت الظروف الاقتصادية المؤاتية والبيئة الاجتماعية النامية سبب الاستقرار السياسي . أعطت المحاصيل الحسنة مواد غذائية أرخص ، فيما وصلت المشاريع الصناعية الباكرة الى تخفيض كلفة عدد من السلع اليومية ، مثل الملابس والأثاث والأدوات المنزلية ، التي تؤلف مع المواد الغذائية المتوافرة بكثرة معظم هذه القائمة . كان من نتائج استقرار الأسعار العام تغذية أفضل أدت الى ارتفاع معدل الولادات وتدني معدل وفيات الأطفال ، فضلا عن زيادة مدى الأعمار . لكن في العقد الأخير من القرن ، أدى الضغط على الموارد الغذائية الذي استفحل نتيجة للحرب في فرنسا والذي رافقته سلسلة من المحاصيل السيئة ، الى ارتفاع كبير في الأسعار أثر بالدرجة الأولى على الطبقات الصناعية الجديدة .

---

(٤) - كان العامل الأكبر في تزايد عدد السكان هبوط معدل الوفيات . ساعد على انخفاض عدد الوفيات تغذية أفضل وتلاشي بعض الأمراض الكبرى وتزايد في النظافة الشخصية (التي سهّلها توافر الصابون الرخيص والملابس القطنية التي يمكن غسلها) . ربما لعب دورا ما في ذلك ظهور التلقيح ضد الجدري ووسائل التوليد المتطورة . وهكذا أدى طول العمر المتزايد في أوروبا الغربية الى تزايد عدد السكان الذي كانت الأوباء والمجاعة قد حالت دونه في السابق . وحتى في أوروبا الشرقية وروسيا ، حيث كان للتحسينات تأثير أخف ، فقد كان تزايد السكان ملحوظاً أيضاً .

بعدد من المجتمعات في اوروبا الجنوبية والشرقية حتى القرن التاسع عشر .

كانت العمليات الزراعية تختلف اختلافا كبيرا حسب اختلاف أنظمة الاستغلال والاستملاك في شتى أنحاء أوربا . ففي روسيا ومعظم أنحاء أوروبا الوسطى والشرقية مثلا ، كان نظام القنانة أو عبودية الارض لا يزال سائدا ، بينما ظهرت في مناطق أخرى طبقة من الزراعيين الملاكين .

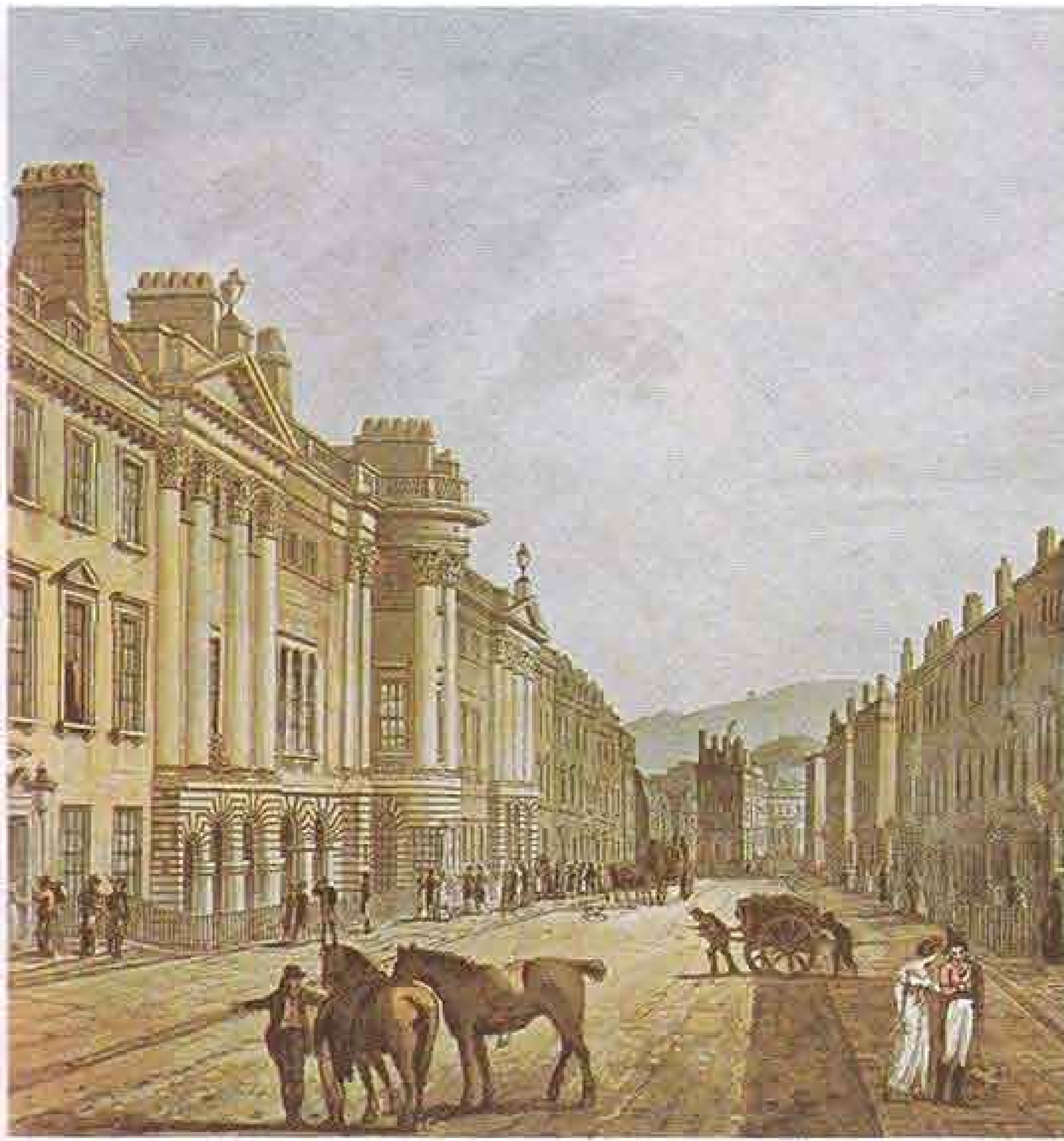
لعبت التجارة الدولية دورا حيويا في اقتصاد عدد من البلدان . فقد تطورت التجارة في القرن الثامن عشر ، لاسيما في البلدان الأطلسية ، من جراء سهولة مواصلاتها مع الأسواق الهندية الغربية والأمريكية والافريقية والآسيوية . وخطت كلا بريطانيا وفرنسا خطوات واسعة في حقل التجارة ، مما وضع الأسس لرخاء طبقة التجار الوسطى في بعض المدن ، كبريستول وليفربول و بوردو ونانت .

٥



(٥) ـ كانت الجيوش تتألف في القرن الثامن عشر من متطوعين لمدة طويلة . كان نظامها الخشن ورواتبها الهزيلة وأحوالها السيئة تجذب الفقراء والمجرمين للانخراط فيها ، بينما كان الضباط المنتمون الى طبقة الأشراف يستغلون نفوذهم للحصول على المناصب الكبرى فيها . كان القادة يلبسون الألبسة الأنيقة ، وكان القتال يخضع لقوانين صارمة ، وكانت الأسلحة البعيدة المدى غير دقيقة .

٦



(٦) ـ أدى التحسن في مستويات المعيشة في أوساط الطبقات العليا والوسطى الى بناء منازل فخمة في عدد من المدن الأوروبية . أمنت مدن « القارة » التجارية ، مثل امستردام وبوردو ، والمراكز الحكومية الكبرى ، مثل فرساي ، القاعدة لمجتمع مدني ثري . وفّرت الحمامات والمنتجعات الفخمة ، مثل باث (الظاهر في الصورة) ودريسدن ، الترفيه للأغنياء ، الذين أخذوا يطالبون بالسلع الكمالية وأسباب اللهو الثقافي .

٧



(٧) ـ كانت الخشونة وشظف العيش من نصيب الفقراء ، حتى في عصر « التنور » . أصبحت الكحول الرخيصة متوافرة بسهولة ، بفضل التقطير على نطاق واسع ، مما سبب حالات من السكر المدمن . كان التلاعب بالمأكولات والمشروبات من قبل التجار الغشاشين شائعا ، فأسهم ذلك في زيادة الأمراض والوفيات .

التجارة والصناعة

ازدهـرت التجـارة الداخليـة أيضـــا ، وسـاعدتها التحسـينات في النقـل النهـري والبـري . فـي عـدد مـن البلدان ، كان النتــاج الزراعـي ، لاسيما الحبوب ، أهم السلع التجارية ، الا ان الخشب والفحم والمعادن الخام والحجارة وسواها من المنتوجات الأخرى أصبحت تباع وتشترى بكميات متزايدة .

حفز تزايد السكان وتكاثر الثروة في البلدان الأوروبية على طلب عدد أكبر من السلع المصنوعة . الا أن هذا الانتاج المتزايد ظل مرتكزا الى اساليب غير صناعية (٢) . فقد بقي النظام المنزلي والشغل اليدوي الطريقة الرئيسية لانتاج المنسوجات والحديد والفخار فضلا عن عدد كبير من السلع الأخرى .

رفاهية وبؤس

ظل المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر تقليديا بالدرجة الأولى . فقد كان معظم السكان يعيشون في مجتمع ريفي هرمي قائم على الزراعة ، وبقيت القرية أو البلدة الصغيرة ، بالنسبة لمعظم الناس ، مسيطرة على البيئة الاجتماعية والثقافية . في هذه المناطق ، كان الدين ما يزال يلعب دورا هاما في الحياة اليومية ويساعد على توثيق العلاقات الاجتماعية . ظلت الرعية والمزرعة والنقابة الأشكال المألوفة للتنظيم الاجتماعي ، وفي معظم أنحاء أوروبا لم تتأثر البنية الاجتماعية بالتغيرات الاقتصادية . ومع أن نظام القنانة قد تعرض للنقد في بعض الدول « المتنوّرة » ، وألغي في ممتلكات آل هابسبورج على يد جوزيف الثاني (١٧٤١ - ١٧٩٠) ، فقد كان آخذا في التفاقم في روسيا . قبل الثورة الفرنسية ، لم يكن لثورات الفلاحين والاضطرابات الدورية في سبيل قضايا مختلفة أي أثر يذكر في زعزعة هذه البنية الاجتماعية .

فـي مقـابل ذلك ، بقيـت المـدن الرئيسية ، مثل لندن وباريس وفيينا وسان بطرسبورج تتسع مساحة ، فأضيف اليها عدد من المباني الرائعة وأصبحت مراكز حكومية وأسواقا رئيسية . نمت المدن التجارية ، مثل ليفربول وبوردو بسرعة أيضا ، حاملة مقاييس جديدة للرفاهية الى الطبقات العليا والوسطى (٦) . بالنسبة الى هذه الطبقات ، أدت التربية والرخاء الى ظهور ثقافة مدنية متحذلقة ، تجلت في الاقبال على الأدب والفن وفي التمتع بوسائل الاعلام الواسعة كالجرائد والمجلات . أما بالنسبة الى الطبقات الفقيرة من سكان المدن ، فقد كانت ظروف المعيشة أقسى بكثير ، من جراء المساكن السيئة والأحوال الصحية البائسة والمداخيل المتدنية (٧) . كان الأجرام متفشيا في معظم البلدان والمدن ، وكان يقاوم عادة بعقوبات وحشية ، بما فيها التعذيب والقتل ، من أجل مخالفات تافهة أحيانا .

من أهم سمات أوربا في القرن الثامن عشر امكانية النقل والانتقال بوسائل متقدمة . لعبت وسائل النقل هذه ، عبر الطرق والأنهار والأقنية ، دورا كبيرا في تشجيع التجارة والتطورات الصناعية الأولى ، كما وضعت وسائل الانتقال لدى الأغنياء أساسا لثقافة أوروبية شاملة .

الثورة الزراعية

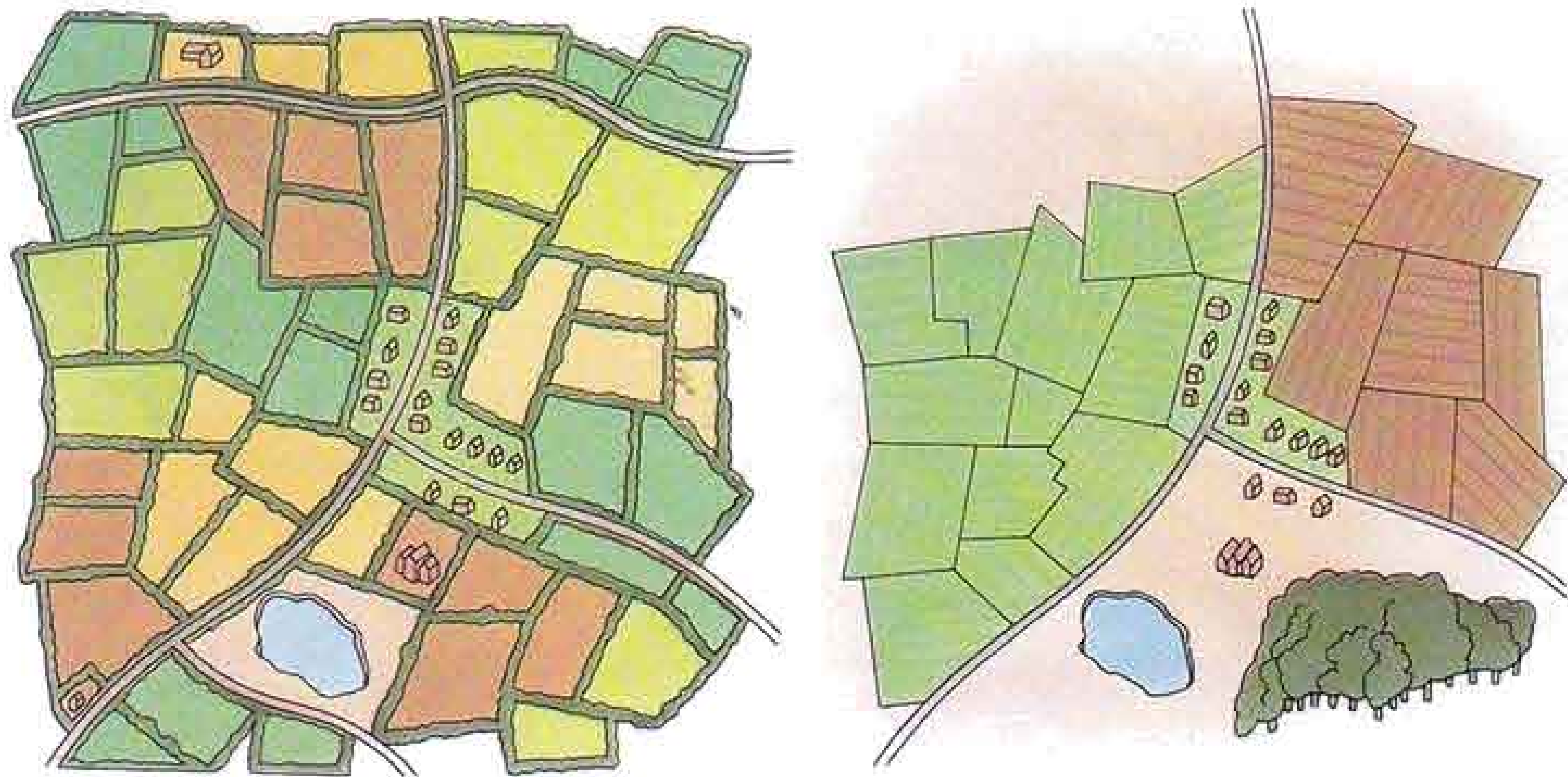
كثيرا ما وصف المؤرخون التغيرات التي حدثت في حقل الزراعة البريطانية في غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر « بثورة » زراعية . صاغ هذه العبارة في القرن التاسع عشر اولئك الذين شهدوا تغيرات في طرائق الانتاج والعلاقات الاجتماعية في المناطق الزراعية شبيهة بما كان يجري في حقل الصناعة . لكن التحقيقات الحديثة تميل الى التأكيد ان التطور الزراعي استغرق وقتا اطول من ذلك وانه اتخذ اشكالا متنوعة في مختلف انحاء البلاد . فأولى الكتب الخاصة بتقنيات الزراعة ظهرت في اوائل القرن السادس عشر ، وكان « التسوير » قد بدأ في القرن الثالث عشر .

١

١٦٩٧ - ١٧٠٦ ٧٤١٠٠	
١٧٠٧ - ١٧١٦ ١١٨٧٠٠	
١٧١٧ - ١٧٢٦ ١٣٣٧٠٠	
١٧٢٧ - ١٧٣٦ ١٦٨٢٠٠	
١٧٣٧ - ١٧٤٦ ٢٨٠٠٠٠	
١٧٤٧ - ١٧٥٦ ٤٤٨٧٠٠	

١٠٠٠٠ ربع
(٦٥١ رطلا انجليزيا)

٢



(١) ـ تضاعف الانتاج الزراعي أبان القرن الثامن عشر ، نتيجة لادخال طرق جديدة من الزراعة . بسبب تزايد السكان السريع تزايد الطلب في الداخل ، وتضاعف التصدير ايضا . هنا يبدو معدل تصدير الحبوب السنوي لكل فترة عشر سنوات . بلغت الاسعار المحلية اوجها اثناء فترة الحروب النابليونية ، ولكنها هبطت بعض الشيء بعد ١٨١٥ .

(٢) ـ يمكن مشاهدة تأثير التسوير على ملكية الاراضي من خرائط قرية عادية واحدة . فقبل التسوير ، كان لعدة قرى تصميم واحد يرقى الى العصور الوسطى ، ويشمل حقولا مكشوفة واسعة ، ووفقا للعرف يملك فيه كل ساكن بعض القطع الصغيرة . كانت الغاية من ذلك النظام اعطاء كل امرىء حصة من كلّ من الارض الطيبة والارض الرديئة . الا ان ذلك كان يعني ايضا ان الاراضي الواقعة بين القطعة والقطعة كانت تذهب هدرا ، كما كان يقضي بالتنقل بدون موجب بين الحقول المختلفة . كذلك لم يكن من الممكن في ذلك النظام تجربة تقنيات جديدة ، كما كان معظم الناس يمارسون فيه طريقة بسيطة من التنويع تقضي بابقاء احد الحقول بورا لسنة واحدة كل سنتين . لكن التسوير جعل الملكية مركزية ، ومكن من تحسين الزراعة . أيده المزارعون التقدميون ، وقدم اصحاب الأملاك الواسعة غالبا بعض التسهيلات للحصول على مستأجرين افضل بايجارات اعلى . بعد ان تمت عمليات

نتائج التنميات الجديدة

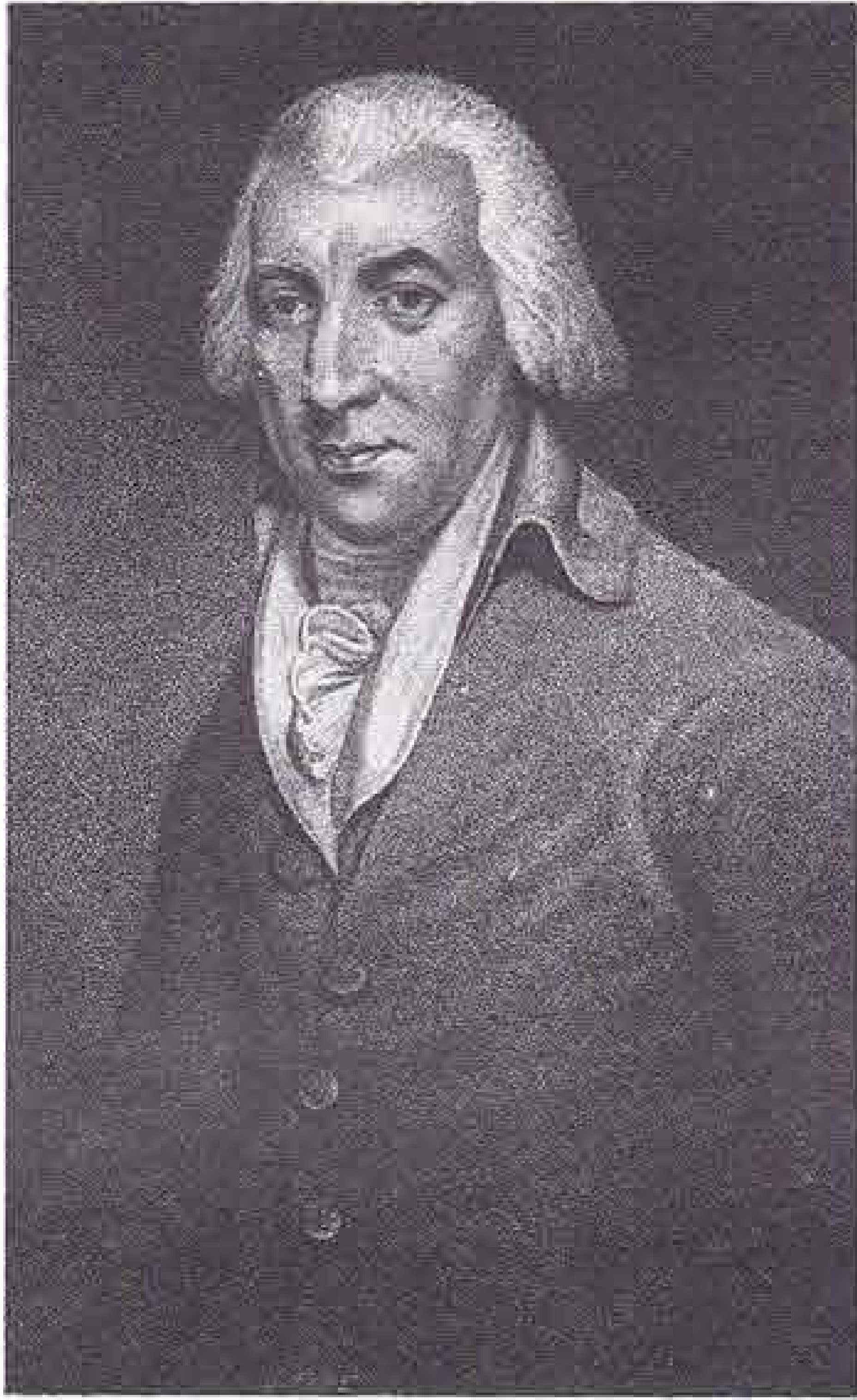
سواء كانت عبارة « الثورة الزراعية » صحيحة أم لا ، فقد كانت التغيرات التي طرأت على الزراعة البريطانية بين ١٧٠٠ و ١٨٧٠ حقيقية وواسعة النطاق . وكان يقابل الانتاج المتحسن جدا والمحاصيل الجديدة والتقنيات المتطورة عدد من التطورات الاجتماعية المهمة .

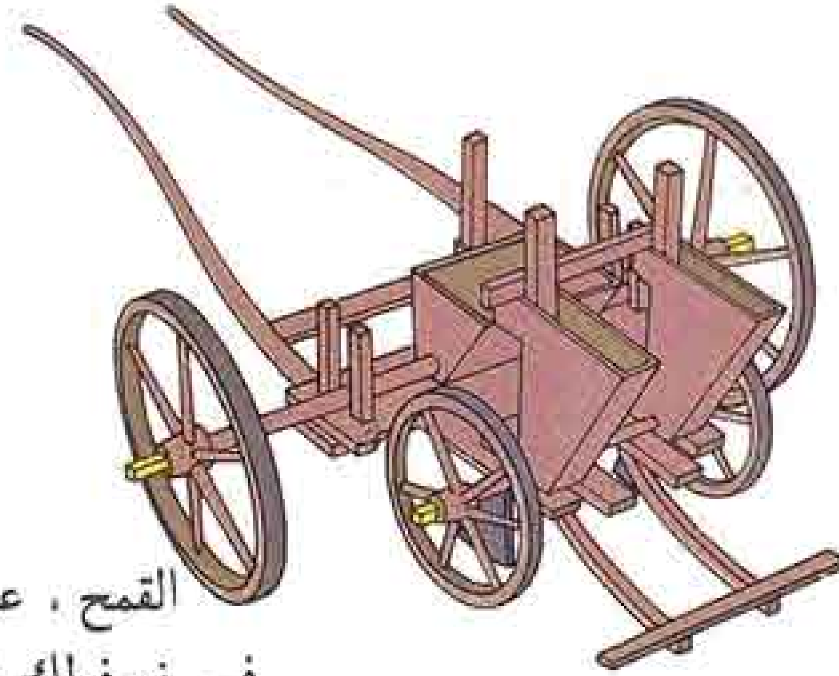
لعب الكثير من الافكار السائدة منذ القدم على نطاق واسع في عدد من التغيرات التي طرأت على النشاط الزراعي ، فتنويع المحاصيل دوريا ، ولاسيما استعمال الدرنيات ، كاللفت مثلا ، كجزء من عملية التنويع وكمصدر لعلف الحيوانات في الشتاء ، كان أمرا معروفا في القرن السابع عشر . كذلك كان الاستيلاد الموجّه للمواشي مألوفا في القرون السالفة ، وان لم يكن يتناسب مع نظام الحقول السائبة ، حيث كانت المواشي

٣

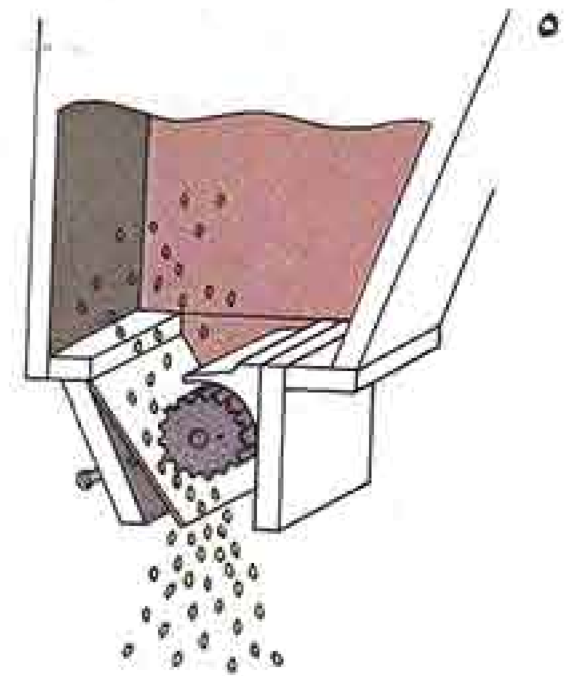


٤





٥



التسوير ، كانت جميع الاراضي قد تقسمت ، وكانت السياجات تزرع حولها لاظهار حدود الحقول الجديدة ، وهذا ما يعطي المشهد المألوف اليوم للحقول الانجليزية .

(٣) ـ كانت « اجتماعات هولكهام » هي الاسم الذي اطلق على سلسلة من المعارض الزراعية التي نظمها توماس كوك (١٧٥٢ ـ ١٨٤٢) . كان كوك من رواد التحسينات الزراعية ، وعلى غرار عدد من معاصريه ، كان داعية للأساليب الجديدة . أجرى تجارب على المحاصيل الدرنية لاسيما اللفت السويدي ، وساعد على تحسين نسل المواشي والغنم والخنازير ، وكان اول من زرع القمح ، عوضا عن الشيلم ، في نورفولك الغربية .

(٤) ـ كان أرتور يونغ (١٧٤١ ـ ١٨٢٠) داعية شهيرا لتقنيات التحسين الزراعي في بريطانيا . ذهب في كتبه ومقالاته الى ان الزراعة على نطاق واسع ، القائمة على التسوير واحدث التقنيات وعلى الرأسمال الوافر ، من شأنها مضاعفة الانتاج . تشكل مؤلفاته مصدرا زاخرا بالمعلومات الخاصة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في القرن الثامن عشر .

(٥) ـ كانت حفارة البذار لجيترو تول التي تجرها الاحصنة والتي استعملت للمرة الاولى سنة ١٧٠١ بداية مكننة الزراعة . قبل هذا الاختراع ، كان البذار ينثر باليد بصورة متعبة متلافة

تزرب معا في الحقل الواحد .

وصف المؤرخون الزراعيون المائة سنة التي سبقت عام ١٧٥٠ كفترة كساد في الطلب على المنتجات الزراعية ناجم عن وفرة الانتاج واستقرار عدد السكان عموما . لكن ما حدث منذ ١٧٥٠ من تزايد كبير في عدد السكان ومن تراجع عام في المحاصيل ، كان حافزا قويا على العمل على تطوير الزراعة وتطبيق تقنيات جديدة في سبيل مضاعفة الانتاج .

روّج التقنيات الجديدة عدد من الرائدين ، مثل جيترو تول (١٦٧٤ - ١٧٤١) وشارل تورنيب تاونزهند (١٦٧٤ - ١٧٣٨) وروبرت بيكويل (١٧٢٥ - ١٧٩٥) . لعل أهم هذه التقنيات كان ما يتعلق بطريقة تنويع المحاصيل واستيلاد المواشي عمليا واستعمال نباتات مثل اللفت والبرسيم كعلف للمواشي . أدت هذه التحسينات الى ظهور مواشي أثقل وزنا وأصح جسما (ففي خلال القرن ارتفع

٦



(٦) - كان التسوير يجري عادة دون مخاصمات تذكر . كان الحصول على قرار برلماني يستدعي وقتا طويلا ويتطلب موافقة عدد من الملاكين المحليين . كذلك كان ينبغي مسح الارض بدقة واثبات حقوق الملكية . كان توزيع الاراضي عادلا في الغالب ، وكان كل قرار تسوير يقضي بتعيين مفوضين لتوزيع الاراضي .

(٧) - قيّد قانون الطرائد حق الملاكين في اقتناء الطرائد . ففي عام ١٦٧١ ، حظر على الملاكين الذين يملكون ما قيمته أقل من ١٠٠ ليرة انجليزية من الارض والمستأجرين الذين تقل قيمة اراضيهم عن ١٥٠ ليرة ان يقتنوا الغزلان او الارانب البرية او الداجنة او التدرج او الحجل . مع تقدم عملية التسوير ، راحت المساحات التي كان بامكان العمال وصغار الملاكين تربية الطرائد فيها تقل ، فوضعت قوانين خاصة بالطرائد أشد صرامة ، منها السجن والابعاد ، وحتى الموت في حال ابداء المقاومة لحارس الطرائد . استعملت مصائد بشرية (مثل المصيدة البادية في الصورة) وبواريد نشابة لصد المتطفلين ، وأعطي حراس الطرائد سلطات واسعة . الا ان القرن التاسع عشر خفف من صرامة هذه القوانين .

٧



(٨) - كان « خنزير بنجبورن » خنزيرا ضخما للغاية نشأ في مزرعة خاصة بعد ان جاء ثمرة استيلاد علمي منظم . كانت ثمة ايضا أنسال جديدة من الحيوانات الاخرى المستولدة بصورة موجهة او انتقائية .

٨



(٩) - لم تعتمد التحسينات الزراعية على الآلات الجديدة كثيرا ، باستثناء حفارة البذار التي اخترعها تول . الا ان عددا قليلا من التحسينات تحقق بواسطة الآلات التي كانت شائعة من قبل . ففي عام ١٧٣٢ انتج مثلا محراث متطور ذو سكة معدنية ، فصارت المحاريث الخشبية تستبدل تدريجيا به .

٩



معدل وزن الخراف التي كانت تباع في لندن الى ثلاثة اضعاف) ، وجعلت من الممكن تغذية المواشي في الشتاء بالعلف المخزون . كذلك ساهمت في تحسين المحاصيل (٥) الأدوات الجديدة ، مثل المحاريث المتطورة (٩) .

تأثيرات التسوير

لم يكن تطبيق عدد من هذه التقنيات ممكنا دون اعادة تنظيم امتلاك الاراضي . كان تسوير الاراضي (٦ ، ٢) في وحدات متكاملة يجري باستمرار طيلة قرون . فبحلول ١٦٠٠ كان قد تم تسوير أكثر من ثلث اراضي انجلترا ، وذلك عادة بموافقة ملاكي الاراضي المحليين . لكن منذ منتصف القرن الثامن عشر ، اخذ يتم التسوير في كثير من الاراضي عن طريق قرارات برلمانية خاصة . كان التسوير يقضي باقتطاع ممتلكات مستقلة من اصل الحقول الشائعة « والمفتوحة » . ومن حسناته انه في ، كل حقل من الحقول ، قضى على القطع الزراعية الصغيرة غير النافعة ، وابطل النظام المتلاف القائم على ترك حقل من الحقول بورا كل سنة ، كما مكن الفلاحين من تجربة تقنيات جديدة على قطعة موحدة من الارض . صدر حوالى ٣٠٠٠ قرار خاص بالتسوير بين ١٧٥١ و ١٨١٠ ، وكان اكبر عدد قد صدر في غضون الحروب النابوليونية (١٨٠٣ ـ ١٨١٥) ، وذلك عندما رفع تزعزع التجارة (١) أسعار المواد الغذائية الى ارفع مستوى لها .

الفقر والرخاء

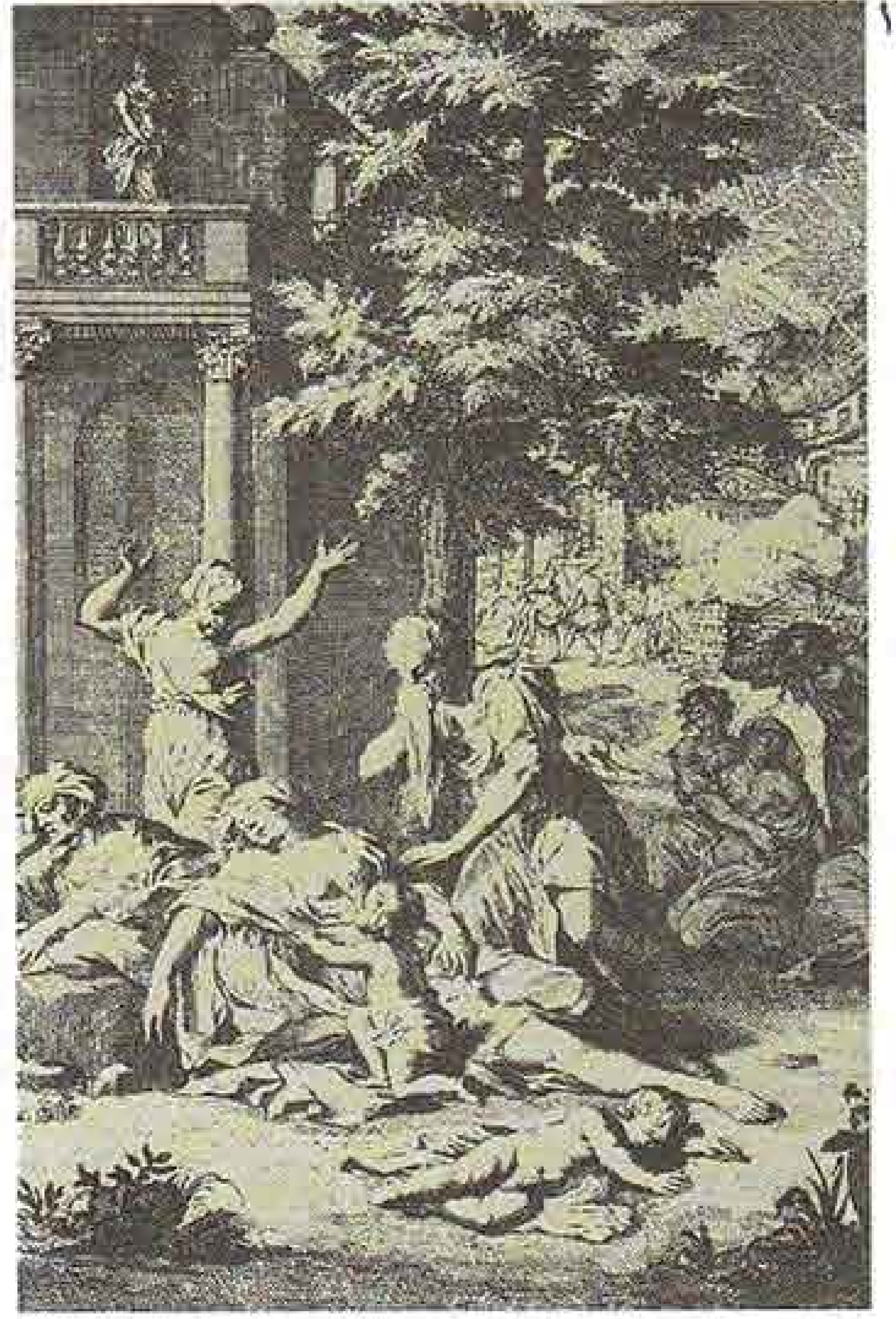
كان يظن قديما ان التسويرات التي تمت في هذه الحقبة ادت الى افقار عمال الزراعة بحرمانهم من حقوق رعاية مواشيهم في الاراضي المشاعة ، وجعل ممتلكاتهم الصغيرة غير اقتصادية . لكن هذا الرأي قد تغير اليوم . فقد بقي هناك عدد من صغار الملاكين ، وارتفع بين ١٧٥٠ و ١٨٣١ عدد العائلات التي كانت تعمل في الارض . صحيح انه حدثت بعض الهجرة عن الارض واكره عدد من صغار الملاكين على الانضمام الى صفوف العمال المأجورين ، الا أن ذلك كان نتيجة لتزايد السكان وليس للتسوير . اما افقار عمال الزراعة ، فسببه كان البطالة الريفية المزمنة وما رافق ذلك من هبوط في مستويات الأجور .

من الجهة المقابلة ، أثرى ملاكو المزارع الكبيرة . فقد كان لدى طبقة الملاكين في القرن الثامن عشر ثروات ضخمة تمكّنهم من بناء المنازل الفخمة واقتناء المجموعات النادرة والسفر الى الخارج . وكان ايضا بوسع المستأجرين الأكثر يسرا والمزارعين المحترفين ان يبنوا لهم بيوتا ريفية كبيرة . فقد كتب وليم كوبيت (١٧٦٢ ـ ١٨٣٥) ، المراقب الدائب للحياة الريفية ، أن مكانة المزارعين الاجتماعية كانت قد تحسنت كثيرا بحلول ١٨٢٠ ، ولكن ذلك ابعدهم عن مستخدميهم . كذلك انتقد كتاب معاصرون كثيرون ادعاءات المزارعين وعائلاتهم الاجتماعي في اوائل القرن التاسع عشر . ولكن مرّ عدد كبير من العقود قبل ظهور النموذج الفكتوري المألوف للمجتمع الريفي ، الذي كان عبارة عن كبار الملاكين والمزارعين المستأجرين من جهة ، والعمال الذين لا أرض لهم من جهة أخرى .

عصر التنوّر

شهد القرن السابع عشر بزوغ الاعتقاد لدى الفلاسفة والكتاب الأوروبيين ، ان الحقيقة عن طبيعة الانسان والكون يمكن ان تكتشف بالعقل . أدى كتاب رينه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) « في البحث عن الحقيقة في باب العلوم » المعنون بعنوان « مقال في المنهج » (١٦٣٧) الى اثارة الشكوك في ميداني التنجيم والتاريخ . وفي الوقت نفسه ، أدى التفسير النقدي للكتب المقدسة والاهتمام بمقارنة الاديان الى اضعاف هيبة العقيدة الدينية الرسمية . في انجلترا ، القى اعدام شارل الأول ظلا من التشكيك على الاعتقاد بحق الملوك الالهي ، وأرست ثورة ١٦٨٨ قواعد دستور ليبرالي كان بمثابة نموذج

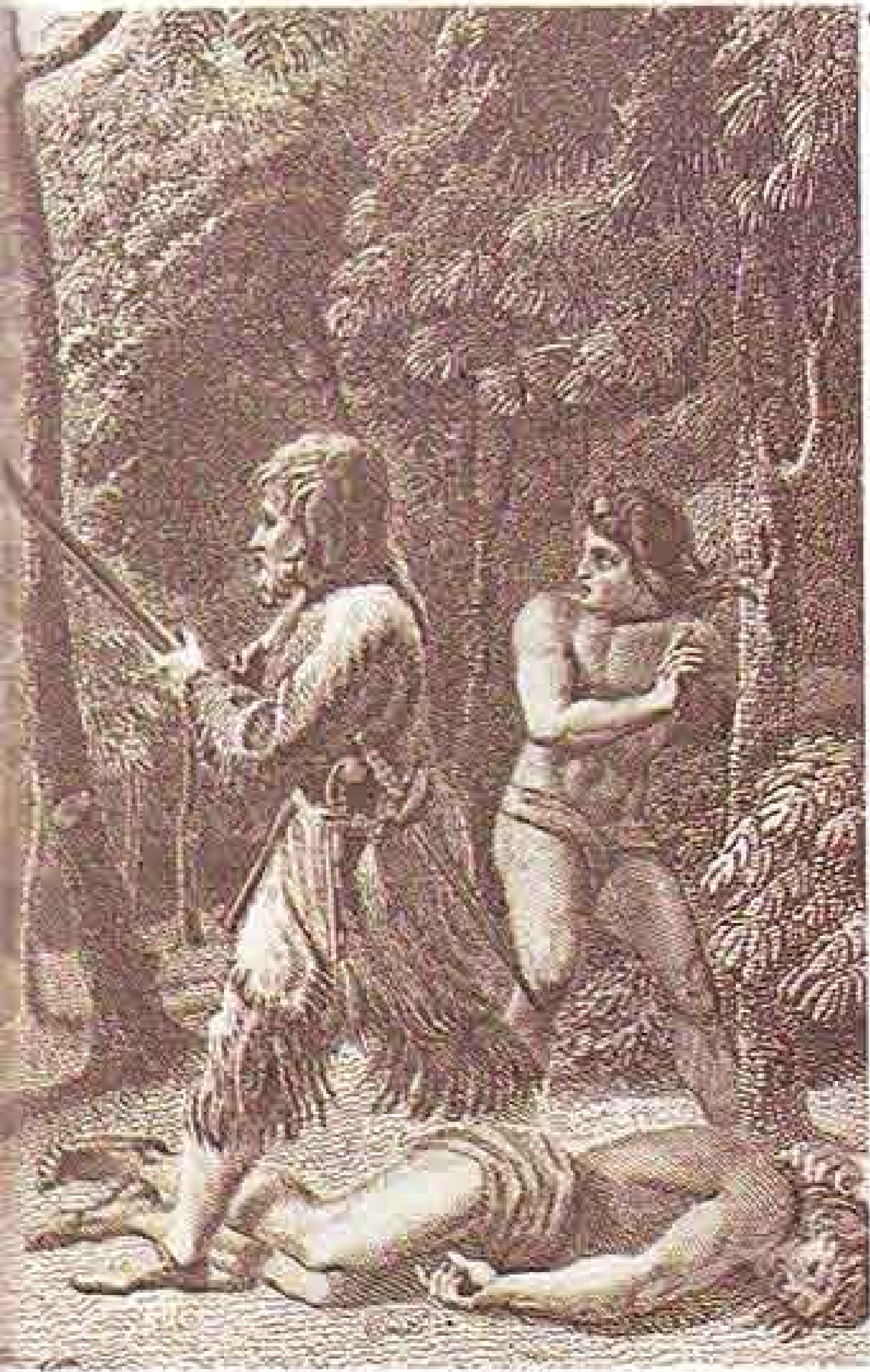
١



٢



٣



(١) ـ كان كتاب لوكريسيوس « في طبيعة الأشياء » مؤلفا رائجا في أوساط كتّاب عصر « التنور » . هاجم لوكريسيوس وثنية الرومان وفضل التعليل العقلي في محاربة المخاوف الوهمية الناجمة عن الكوارث الطبيعية ، كالبراكين او الزلازل أو الطاعون الظاهر هنا في طبعة للكتاب بتاريخ ١٧٢٥ .

(٢) ـ كان بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠) ، الظاهر هنا في صورة رمزية ، مفكرا جامعا يجسد روح « التنور » بكاملها . عمل حرفيا ، وأجيرا ، ومتدربا ، وصحافيا ومؤلفا ، ومؤسسا لجمعية فلسفية ، وأخيرا لأكاديمية أحرزت فيما بعد منزلة الجامعة . كما كان أيضا عالما تجريبيا ورحالة ، وسياسيا ذا شهرة عالمية .

(٣) ـ كتاب « روبنسون كروزو » هو رواية خيالية لدانيال ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) مبنية على حادثة حقيقية ونشرت سنة ١٧١٩ . يبرز في هذا الكتاب شغف القرن الثامن عشر بالاكتشاف . ان لهجته الأخلاقية النبيلة واهتمامه « بالهمجي النبيل » جعلا منه احدى روايات عصر « التنور » الرئيسية .

(٤) ـ تبنت « الثورة الفرنسية » جان جاك روسو ، كأبيها الروحي ، مع أن كتابه الرئيسي « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) لم تصبح قراءته شائعة الا بعد ١٧٨٩ . في هذه الصورة الرمزية ، يظهر روسو متصدرا عين الحقيقة فوق شجرة الحرية ، كما تظهر فيها أيضا رموز الثورة الأخرى .

(٥) ـ زينت «الانسيكلوبيديا»

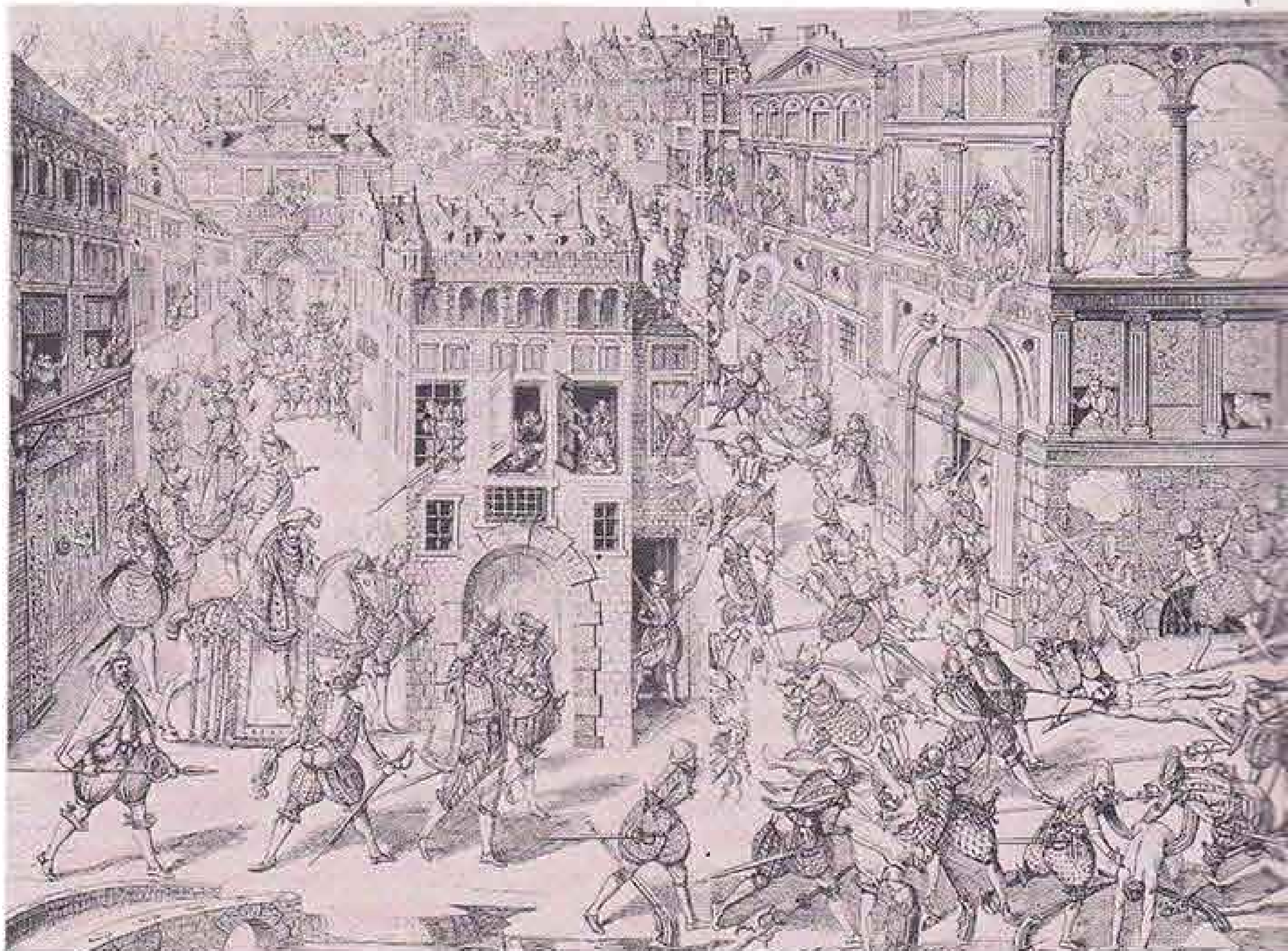
اقتبسته أوروبا برمتها طيلة قرن كامل . أطلق على هذا التحول في الرأي والموقف اسم التنور ، ودعي العصر عصر التنور أو عصر الأنوار .

مدى انتشار هذه الحركة

كان « التنور » حركة أدبية وفلسفية موجهة ضد الخرافات والجهل والمعارف التقليدية والحكمة المتعارفة ، امتدت ، سياسيا ، من جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) الى الثورة الفرنسية (١٧٨٩) . كان لسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) وجوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) ممثليها في المانيا ، وفرانكلين (٢) وجفرسون (١٧٤٣ ـ ١٨٢٦) في أمريكا ، وألجاروتي (١٧١٢ ـ ١٧٦٤) والفييري (١٧٤٩ ـ ١٨٠٣) وبتشاريا (١٧٣٨ ـ ١٧٩٤) في ايطاليا . لم تكن معروفة على نطاق واسع في اسبانيا وبلدان أوروبا الشرقية ، الا ان







التي نشرت بين ١٧٥١ ـ ١٧٧٢ ، بهذه الصورة بريشة كوشان ، ثم بيعت منفردة . فيها تبرز الحمية شبه الشاعرية ، والدينية تقريبا ، التي عمرت صدور الفلاسفة في سعيهم وراء « التنور » . في مؤخرة الصورة ، تخترق ومضة من النور ظلمة العصور القديمة . وفي الوسط ، يبدو العقل منقوشا ضمن اطار مهيب ، وعند قدميه تقدم العلوم والفنون النافعة شعائر احترامها وتقديرها . لم تهمل الفنون الجميلة في هذه اللوحة ، ففي المقدمة اليسرى للصورة يحمل صاغة الفضة والذهب هدية فاخرة من الصحون الانيقة الصنع . تذكرنا الصفة العاطفية الشاملة للصورة بزخرفة الكنائس على طريقة « الروكوكو » .

---

(٦) ـ ندد فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) « بمجزرة سان بارتلميو » في كتابه « الهنريادة » ، كمثل فظيع على التعصب الديني . مدحت هذه الملحمة ، التي نشرت سرا سنة ١٧٢٣ ، هنري الرابع لكونه ملكا متنورا ولاصداره « مرسوم نانت » . أخذ هذا التسامح الديني يتقلص تدريجيا ، ولم يلبث المرسوم أن ألغي سنة ١٦٨٥ . جاءت هجرة اللاجئين الفرنسيين الى هولندا وبريطانيا والدول الالمانية مثالا على امكانية تحقيق الروح العالمية في عصر « التنور » .

محاولات جعل روسيا غربية في عهد بطرس الكبير (١٦٧٢ - ١٧٢٥) وكاترين الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) كانت مستوحاة من حركة « التنور » الفرنسية والألمانية .

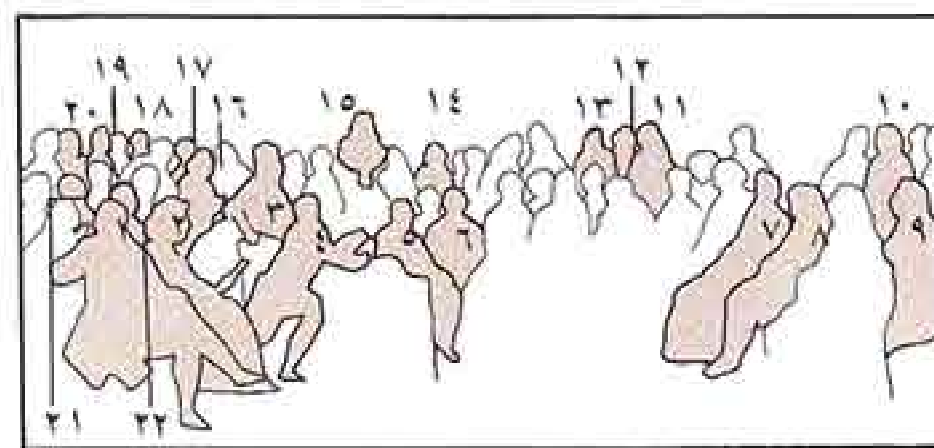
البحث العلمي والأدبي

مع ان هذه الحركة لم تنشأ عنها مدارس معينة ، فقد كان يجمع بين زعمائها الأخذ بروح البحث العلمي ، والتسليم بمبدأ طبيعيات نيوتن القائل بخضوع العالم لقوانين يمكن اكتشافها ، والاعتقاد ان المعرفة يجب أن تعمم ، بحيث يستطيع جميع الناس ممارسة هبة العقل الالهية ، والرغبة في محاربة أضاليل القدماء التي أدت الى الخرافات وأصبحت ذريعة للاضطهاد (٦) .

تركز أدب التنور حول المواضيع الانسانية المعاصرة ، لكن ثمة ميل نحو الروح العالمية واتجاه للاستفادة من البيئات غير الأوروبية ،

٧ أ

ب



(٧) - كان صالون مدام جوفران (أ ، ب) يجمع في باريس ، في أواسط السبعينات من القرن الثامن عشر ، عددا من الفنانين « والفلاسفة » في تلك الحقبة ، فضلا عن زوّار بارزين مثل جيبسون ، وهيوم ، وهوراس والبول . كانت ماري تيريز جوفران (١٦٩٩ - ١٧٧٧) الظاهرة (٧) في هذه اللوحة ، سيدة بورجوازية غنية ونصيرة للأدباء . يخطب لوكان (٤) في جماعة تشمل بوفون (١) ، الآنسة دي لسبيناس (٢) ، الآنسة كليرون (٣) ، دالمبير (٥) ، هلفتيوس (٦) ، فونتنيل (٨) ، مونتسكيو (٩) ، ميران (١٠) ، تورجو (١١) ، ديدرو (١٢) ، كويسني (١٣) ، سان لامبير (١٤) ، روسو (١٦) ، رينال (١٧) ، توماس (١٨) ، مارمونتيل (١٩) ، ماريفو (٢٠) ، كوندياك (٢١) ، ريامو (٢٢) . ويتصدر الحفل هذا تمثال نصفي لفولتير (١٥) ، الذي عبّر في رسالة الى مسيو لوفيفر بتاريخ ١٧٣٢ عن رأيه في أن هذه الصالونات تبث روح التكتل الضيق .

كما نرى في « روبنسون كروزو » (٣) لديفو ، « والرسائل الفارسية » (١٧٢١) لمونتسيكو . وأصبح الاسلوب الهجائي ، سواء في النثر أو الشعر ، الشكل الأدبي الرئيسي للانتقاد ، وحمل معه دعوة قوية للتسامح ولحرية الضمير والمعتقد .

في باب الدين ، انعكست روح العصر العلمية في انكار المعجزات والوحي الالهي ، وكذلك في مقاومة الاندفاع العاطفي الحماسي . ومن خصائص تفكير « الكتاب المتنورين » الذين كانوا يلقبون بالفلاسفة ، انهم ، وان لم يكونوا عادة ملحدين ، كانوا مثلا يعتبرون ، على أسس انسانية صرف ، انه من غير المعقول أن يفرض المرء عقيدته الدينية على فرد آخر أو أمة أخرى . فالاختلافات في المعتقد تنشأ ، في نظر فولتير في كتابه « زايير » (١٧٣٢) وليسنج في كتابه « ناثان الحكيم » (١٧٧٩) عن اختلاف المولد والتربية . وقد حولت أخبار الرحلات الاهتمام نحو العامل المشترك في جميع الأديان ، وهو الاعتقاد بالله كمصدر لكل وجود . من هنا نشأت فكرة الوثني النبيل ، وفكرة الايمان الطبيعي بالله التي كانت تنطوي على القول بأن الله ما أن خلق الدنيا حتى تركها تجري وشأنها ، أو « على غرار الساعة » كما قال الكسندر بوب في « مقالته في الانسان » (١٧٣٣) . عرض روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) في كتاب « اميل » (١٧٦٢) شكلا أكثر عاطفية للأيمان الطبيعي بالله ، بينما أصبح آخرون ملحدين صراحة .

انطوت « موسوعة » (٥) ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) ودالمبير (١٧١٧ - ١٧٨٣) على فكرة « التنور » الرئيسية القائلة ان العلم قوة . كانت هذه الموسوعة الضخمة رمزا نهائيا للمجهود البشري الفكري قبل زمن التخصص ، فركزت الانتباه بصورة رئيسية على مهارة الصانع الحرفي في تلك الفترة بالذات التي كان الأدب أيضا يعالج فيها أمور عامة الناس كالحرفي والتاجر . ثم جاءت دعوة جيريمي بنتام النفعية الى « السعادة الكبرى للعدد الأكبر » تعبيرا عن هذا الاهتمام ، في حين كانت حركة « الفيزيوقراطيين » في فرنسا وكتاب « ثروة الشعوب » (١٧٧٦) لآدم سميث يمثلان أيضا « التنور » في بحثه عن حلول عقلية للمشاكل الاقتصادية . كانت دعوة هؤلاء الى الحرية التجارية تقابل دعوة الفلاسفة الى حرية الاعتقاد .

الفنون والسياسة

في حقل الفنون ، ظهر اتجاه يرمي الى الابتعاد عن العواطف والانفعالات والى استهداف النظام والشكل المنضبط . كانت العمارة المدنية ، مثل « المدينة الجديدة » في أدنبره أو المسرح في بوردو أو القاعة الكبرى في جامعة جوتنجن ، تمثل بوضوح مثل « التنور » الاعلى . كذلك تظهر في كتابات « الصالونات » لديدرو (١٧٥٩ - ١٧٧٩) وكتاب « لاوكون » (١٧٦٦) بقلم لسينج الأهمية الجديدة التي علقت على النقد الفني .

ان القول بأن الثورة الفرنسية كانت النتيجة المباشرة لحركة التنور انما هو تبسيط بالغ . فأقطاب « التنور » (٧) لم يكونوا ثوارا ، بل مصلحين متفائلين يعارضون جميع أشكال التسلط بالرأي ويؤمنون بالتقدم التدريجي نحو عالم أفضل .

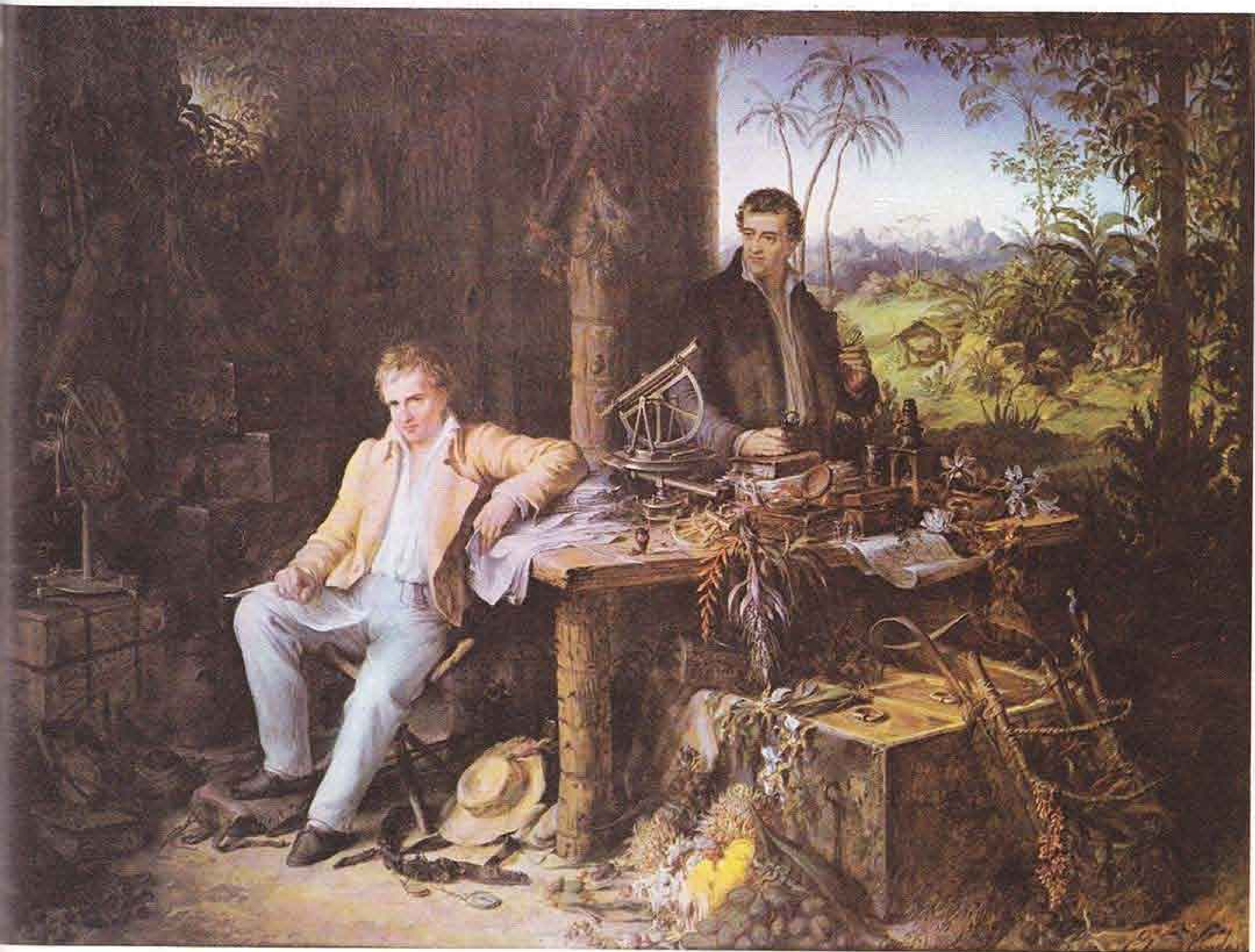
الاستكشاف العلمي ١٧٥٠ - ١٨٥٠

قام التقدم الذي تحقق في حقلي الاستكشاف والعلم في القرن الثامن عشر على الحركة العلمية وتوسع أوروبا الى ما وراء البحار قبل ١٧٠٠ . فقد أخذ العلماء والمستكشفون يستوعبون ويوسعون الانجازات العلمية الرائدة لعمالقة القرن السابع عشر، مثل رينه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) واسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) . كذلك أثارت المعرفة المتزايدة لأجزاء العالم غير الاوروبية الاهتمام بنباتاتها وحيواناتها الشديدة التنوع وبجغرافيتها .

نمو المعرفة التقنية

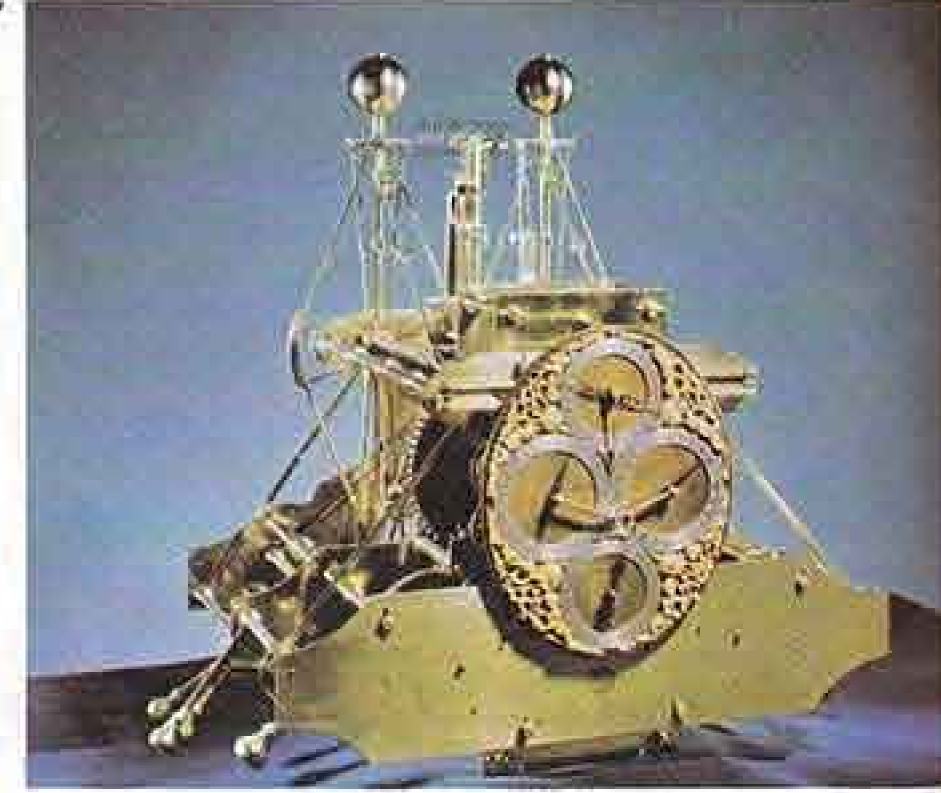
كان نمو المعرفة متوقفا الى حد ما على

١



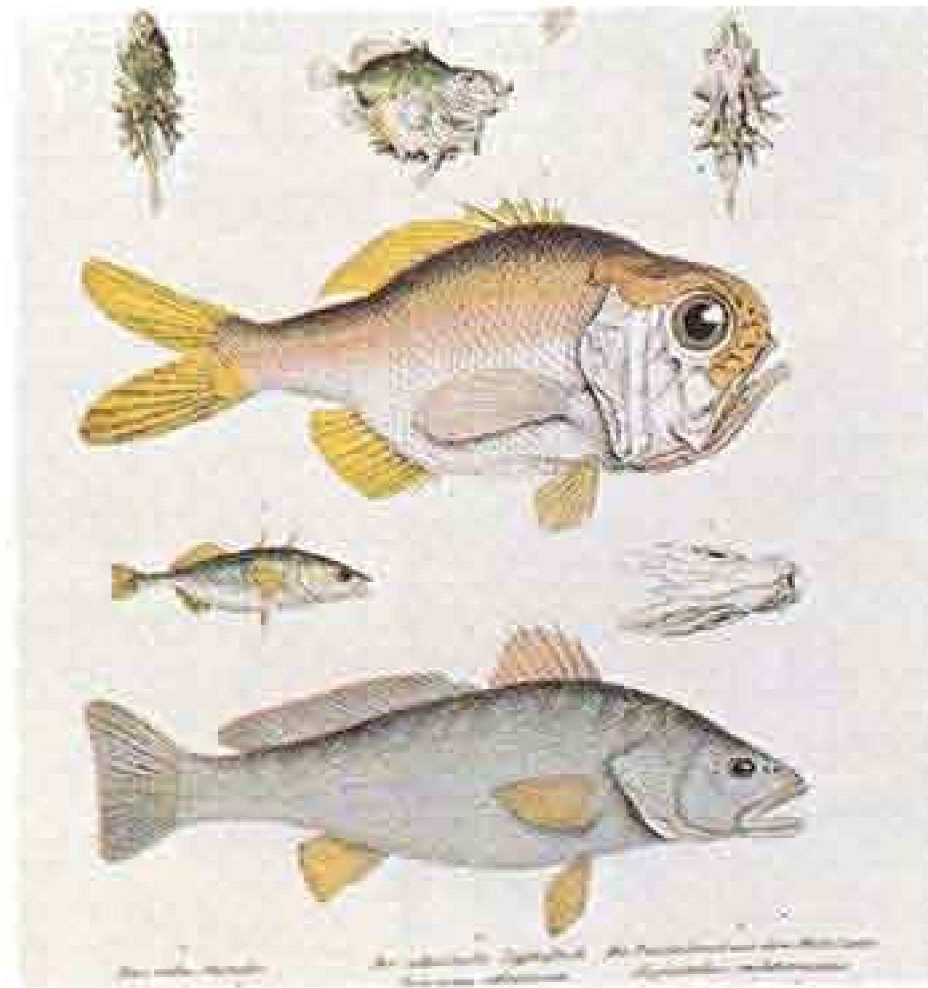
(١) - ذاع صيت الكسندر فون هومبولت (١٧٦٩ - ١٨٥٩) كرحالة الى عدة أنحاء من العالم ، وكعالم جغرافي ، وعالم في التاريخ الطبيعي وفي الجغرافية الأثنية (العرقية) وعالم بالمحيطات . كان أهم آثاره كتاب « الكون » (١٨٤٥ - ١٨٦٢) المتعدد الاختصاصات الذي حاول أن يؤلف فيه بين جميع معارفنا عن الكون . يظهر في الصورة مع صديقه الحميم إيمي بونبلان الفرنسي (١٧٧٣ - ١٨٥٨) الى يمينه . قام بدراسة الحيوانات البرية على جبل تشيمبورازو في سلسلة

الابتكارات التقنية . فالتحسينات التي أدخلت على الأدوات الملاحية ، مثل آلة السدس والكرونوميتر البحري (٢) ، سهلت عملية الاستكشاف العلمي في البحار . فعندما قام الربان جيمس كوك (١٧٢٨ - ١٧٧٩) بثلاث رحلات استكشافية بين ١٧٦٨ و ١٧٧٦ منفذا خلالها عمليات ملاحية دقيقة ، فقد تمّ له ذلك بفضل هذه التقنيات الجديدة . ففي هذه الرحلات ، وضع كوك خرائط لمساحات واسعة من المحيط الهادىء ، بما فيها نيوزيلندا ، وأضاف جزيرتي تاهيتي وساموا الى الخرائط القائمة ، كما ساهم كثيرا في تعريفنا الى حضارات جديدة وانواع مجهولة من كائنات الطبيعة . كذلك اكتشف وليم هيرشيل (١٧٣٨ - ١٨٢٢) الكوكب أورانوس سنة ١٧٨١ باستعماله مرقبا متطورا جدا . من جهة أخرى ، ساهمت موازين أشد حساسية في اكتشافات كيميائية قضت على نظرية









الأنديس ، ووصل الى ارتفاع قياسي في تسلقه لتلك الجبال . في هذه الفترة ، كانت مساحات شاسعة من العالم ما تزال مجهولة . ومع أن وجود جميع القارات كان معروفا بحلول ١٨٠٠ ، كانت مساحات شاسعة من الأراضي لم تستكشف بعد الى أبعد من خطوطها الساحلية . كان الاستيطان يملأ باستمرار الفراغ في الأمريكتين ، الا أن مساحات كبرى من المحيط الهادىء وسواه كانت ما تزال بكرا .

(٢) - أحدث الكرونوميتر البحري ، الذي ابتكره جون هاريسون (١٦٩٣ - ١٧٧٦) ثورة في الملاحة البحرية في القرن الثامن عشر. كان من السهل طيلة قرون عديدة تحديد خطوط العرض، ولكن الكرونوميتر مكّن للمرة الاولى من تحديد خطوط الطول الى حد يقارب النصف درجة أكسب هذا الاختراع صاحبه جائزة حكومية تعادل ٢٠٠٠٠ ليرة (انجليزية) .

(٣) - جاءت رسمات الحيوانات بريشة جورج ستابس (١٧٢٤ - ١٨٠٦) دليلا على اهتمام عميق بعلم التشريح والمام كبير به . كان هذا الفنان صديقا للعلماء الطبيعيين البارزين ، فنشر لهم سلسلة من الدراسات التشريحية التي تناول بعضها كيفية اعادة تركيب بعض هياكل الحيوانات من بقايا كان جوزيف بانكس قد جلبها معه من المحيط الهادىء .

(٤) - كانت الملاحظة الدقيقة للنباتات والحيوانات وسيلة من أهم وسائل البحث العلمي الباكر . فقد اجتذب التاريخ الطبيعي اصحاب «المجموعات» من المحترفين والهواة على حد سواء ، فتكاثرت الدراسات المصورة بدقة . هذه الصورة لنبات نادر (أ) مأخوذة من مجموعة تدعى « نباتات الهندستان » . أما السمكة (ب) ، فقد كانت جزءا من مجموعة ظهرت في نشرة المانية (١٨٣٦) .

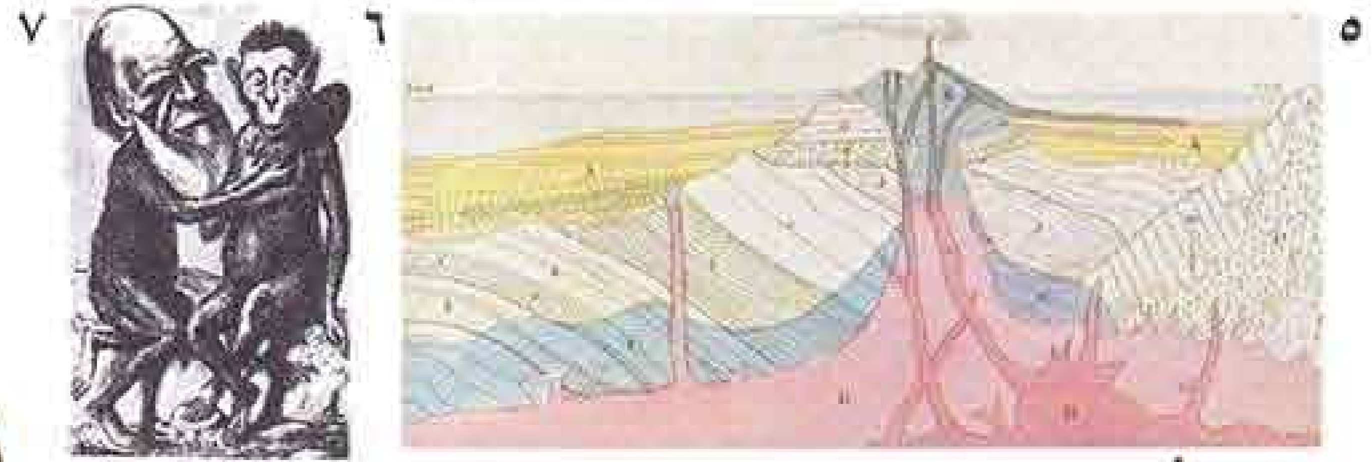
نشرت خلال القرن التاسع عشر أيضا دراسات مبتكرة عن افريقيا وامريكا الجنوبية وبلاد العرب .

عنصر اللاهوب في الاحتراق . وفي الرياضيات ، دفع بعلم المثلثات والتفاضل والتكامل قدما رجال من أمثال يوهان برنويي (١٧٦٧ - ١٧٤٨) وجوزيف لاجرنج (١٧٣٦ - ١٨١٣) . أما في الطبيعيات ، فقد تقصّى خواص الحرارة جوزيف بلاك (١٧٢٨ - ١٧٩٩) في جلاسكو ، حيث تعرف الى جيمس واط ، مخترع أول محرك بخاري فعّال .

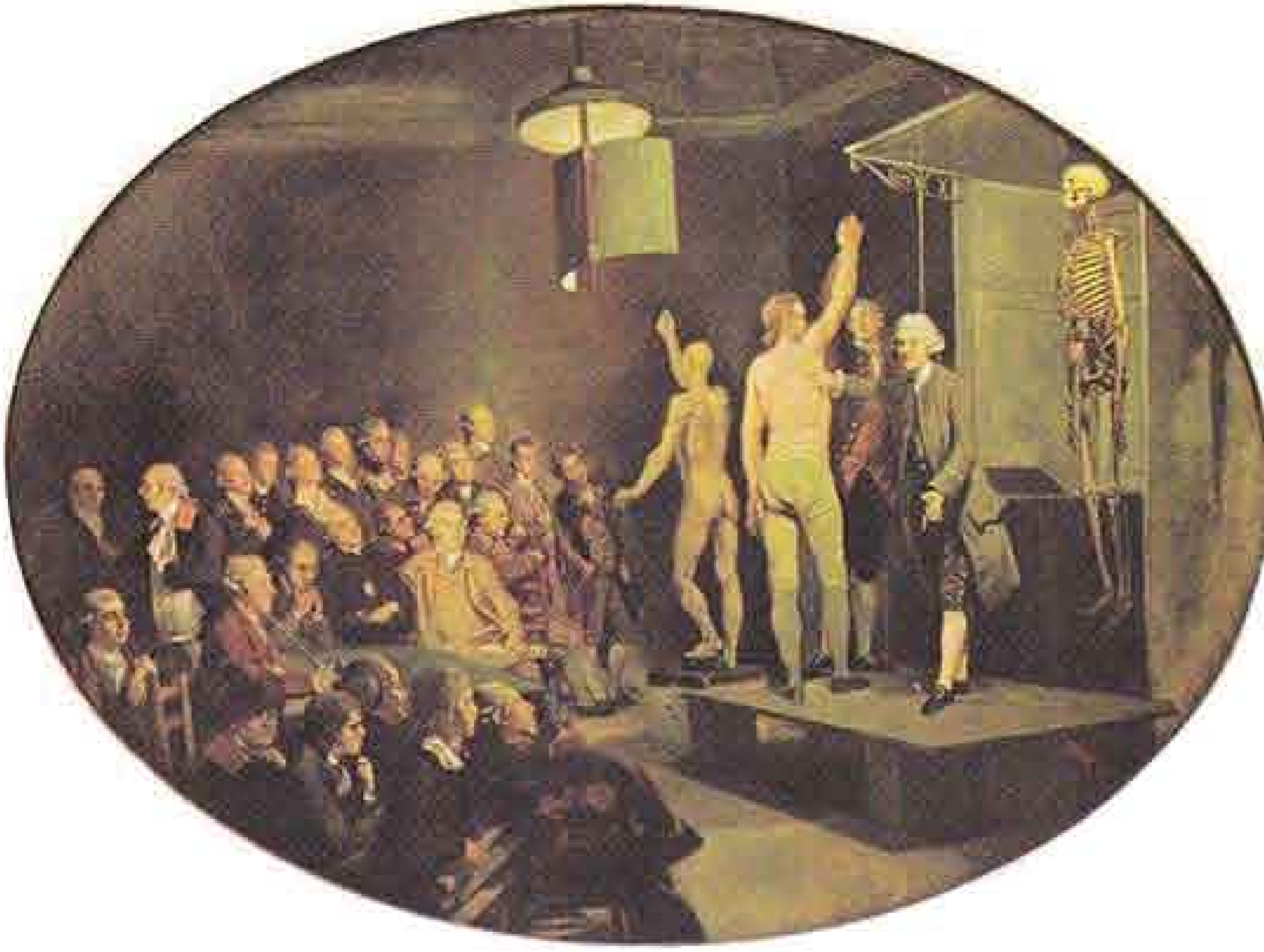
تأثير الكهرباء والكيمياء

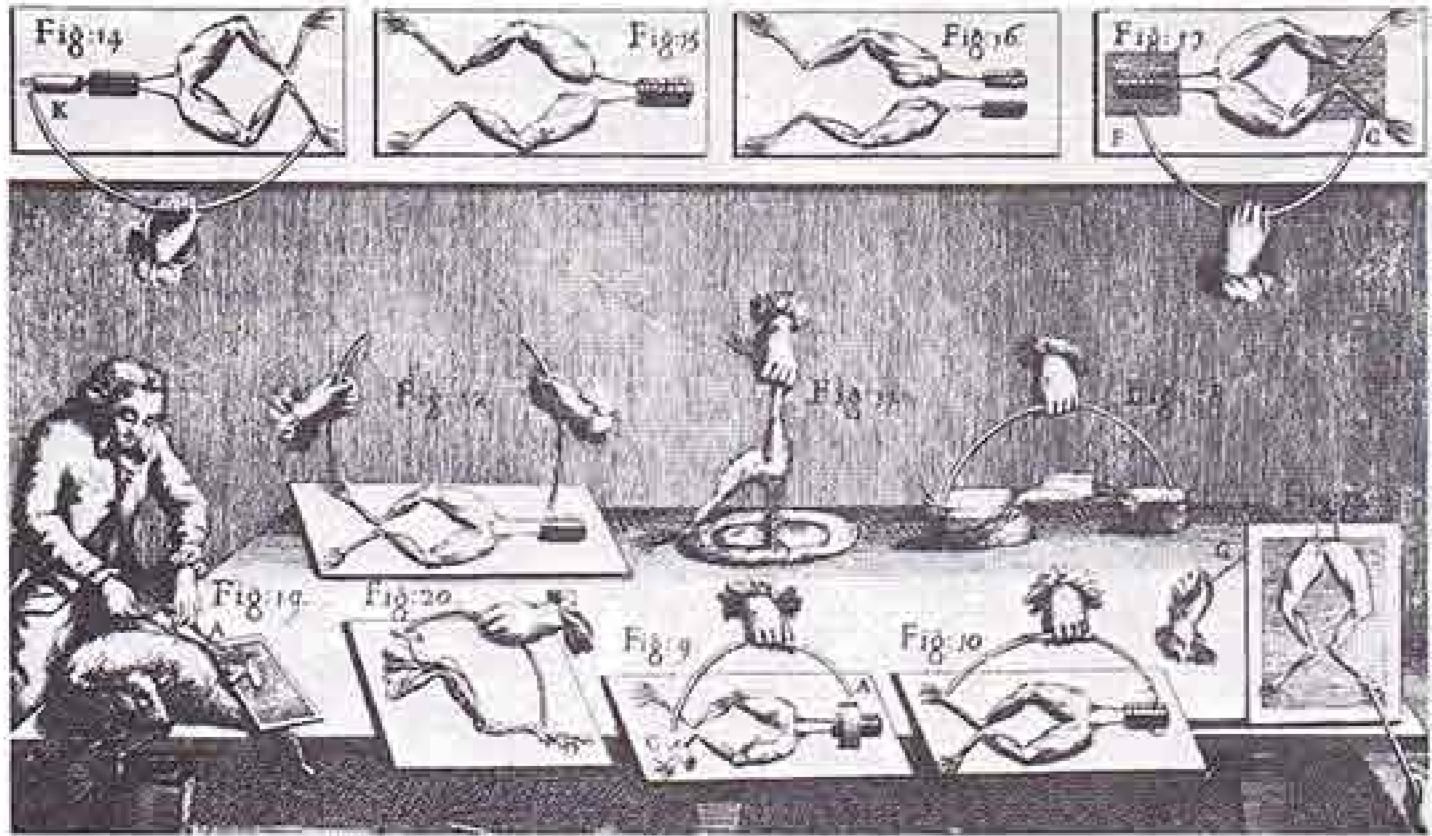
كانت الكهرباء من الحقول الرئيسية التي جرى تطويرها في العلوم الطبيعية . فقد اكتشف لويجي جلفاني (٨) الكهرباء « الجلفانية » ، أي التيارية ، واستولدها ألسندرو فولتا من « حاشدته الفولتائية » أو البطارية التي ما لبثت أن جعلت التحليل الكهربائي ممكنا .

في الكيمياء ، تمّ افراز عدد من العناصر



٥ ٦ ٧





٨

(٥) - أرسيت في القرن الثامن عشر أسس الجيولوجيا الحديثة على أثر دراسة طبقات الصخور والمحاولات المبذولة لتحديد تواريخها . تظهر في الصورة الصفحة الأولى المصورة من كتاب ألفه ليال في « مبادىء الجيولوجيا » (١٨٣٠ - ١٨٣٣) الذي جاء بنظرية تطورية للأرض تخالف الكتّاب السابقين الذين حاولوا ، لأسباب لاهوتية ، التوفيق بين بيّنات الجيولوجيا والأحافير وبين التفسيرات الحرفية للعهد القديم .

(٦) - أثار شارل داروين ، الذي وصف بالقرد مع غيره من العلماء ، نقمة المجتمع عليه ، عندما جاءت اكتشافاته وحججه تنقض التفاسير التقليدية القديمة حول خلق الانسان . كذلك أدت دراسة الثقافات والحضارات الأخرى في العالم والنظرة العلمية الجديدة الى عالم الطبيعة الى جعل المعتقدات التقليدية موضعا للتساؤل عن مفترضاتها وعن المبادىء الأخيرة القائمة عليها . نتيجة لذلك ، عومل داروين وسواه من مؤيدي نظريته بروح عدائية من قبل معاصريهم الذين كانوا يأخذون بآراء أقرب الى المعتقدات التقليدية .

(٧) - أصبحت الدراسة الاكاديمية لعلم التشريح رائجة بحلول القرن الثامن عشر . دفع بتعليمها الى الأمام نشاط هرمان بورهاف (١٦٦٨ - ١٧٣٨) وجون هانتر (١٧٢٨ - ١٧٩٣) وأخيه وليم (١٧١٨ - ١٧٨٣) الذي يبدو هنا وهو يلقي محاضرة أمام الأكاديمية الملكية بلندن .

(٨) - في العلوم الطبيعية ، كانت الكهرباء من أهم العلوم التي تطورت في القرن الثامن عشر . يظهر هنا لويجي جلفاني (١٧٣٧ - ١٧٨٠) من مدينة بولونيا (ايطاليا) يبيّن تأثير النبضات الكهربائية على أعصاب ضفدعة . وذلك سنة ١٧٨٦ . أجرى تجارب على الكهرباء أيضا بنيامين فرنكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠) وفولتا (١٧٤٥ - ١٨٢٧) وأمبير (١٧٧٥ - ١٨٣٦) وأوم (١٧٨٧ - ١٨٥٤) .

الطبيعية للمرة الأولى. فجوزيف بريستلي (١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) هو الذي اكتشف الأكسجين على الأرجح، فيما وضع انطوان لافوازيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) الأسس للمعالجة الحديثة للتفاعلات الكيميائية. في علم النبات، ابتكر التصنيف الشائع للنباتات عالم النبات الأسوجي كارولوس لينايوس (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨)، فيما ذهب العالم الطبيعي الفرنسي جورج بوفون (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) في كتابه « التاريخ الطبيعي » الى أن الارض مرت بمراحل من التطور في زمان أطول من الستة آلاف سنة المذكورة في التاريخ الديني. من الرواد الآخرين شارل ليال (١٧٩٧ ـ ١٨٧٥)، الذي شدد في كتابه « مبادىء الجيولوجيا » (٥) على النظرية القائلة ان عمليات التغيّر الجيولوجية كانت طويلة وبطيئة على وتيرة واحدة، وان ذلك يصدق على الماضي السحيق كما يصدق على الحاضر. ثم ظهر عدد من علماء الطبيعة الأكفياء المنصرفين بالأكثر الى النظريات المجردة كداروين (١٧٣١ ـ ١٨٠٢) وجان باتيست لامارك (١٧٤٤ ـ ١٨٢٩)، فأخذوا يحاولون فهم التطور العضوي، أي تطوّر الأجناس الحيوانية والنباتية الحالية، عن أشكال سابقة مختلفة عنها.

في عصر الأنوار، لم تلبث البحوث العلمية أن امتدت الى حقول أخرى كان لها صلة أوثق بالسياسة. فسرعان ما انضم الى علماء القرن الثامن عشر العقليين الذين اكتشفوا قوانين العالم الطبيعي كتّاب ومفكرون استشفوا قوانين مماثلة في السياسة. وهكذا أدت الحركة العلمية الى ظهور « قوانين » الاقتصاد السياسي. كذلك جاءت « مقالة في السكان » (١٧٩٨) لتوماس مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) بنظرية ميكانيكية « لجغرافية الشعوب » تشبه تلك التي كان يقول بها عالما الاقتصاد الكلاسيكيان آدم سميث (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) ودافيد ريكاردو (١٧٧٢ ـ ١٨٢٣). ثم جاء من يقول بان قوانين ثابتة تتحكم بالحياة السياسية كان بينهم المفكرون النفعيون جيريمي بنتام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) وجيمس ميل (١٧٧٣ ـ ١٨٣٦). كذلك امتدت الحركة العلمية الى دراسة الانسان. وبأوائل القرن التاسع عشر، وضعت أولى المؤلفات في علم الاجتماع والقانون المقارن.

العلم والدين

مما لا ريب فيه أن أهم أثر للحركة العلمية كان ذلك الأثر الذي احدثته في المعتقدات الدينية التقليدية. فقد أخذ العلماء يترددون في أخذ قصة الخليقة الواردة في العهد القديم على حرفيتها، متسائلين هل لا يكون العالم أقدم مما ذكر في الكتاب المقدس. فقد وجدوا في الأحافير دليلا على وجود الحياة على الأرض في فترات سحيقة من الماضي. أضف الى ذلك ان البينات المستمدة من الجيولوجيا والأحافير كانت تتعارض عند البعض مع فكرة نشوء جميع الكائنات الحية دفعة واحدة في آن واحد. ومع أن هذه الأفكار اصطدمت بمقاومة كبيرة ونبذت في بادىء الأمر، الا انها أثارت فيما بعد تساؤلات حول التفاسير التقليدية للعالم، وأدى كتاب شارل داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) « في نشأة الأنواع بحسب الانتقاء الطبيعي » (١٨٥٩) الى تفجير أفكار كانت آخذة في التراكم طيلة أواخر القرن الثامن عشر.

الأدب الأوروبي في القرن الثامن عشر

قد يبدو ظهور الرواية في القرن الثامن عشر من المفارقات الغريبة في ذلك العصر المتسم بروح العلم. لكن الطبقة المتوسطة المثقفة حديثا في ذلك الوقت والآخذة بالتوسع قد تعلمت، بفضل مواقفها «المتنورة»، ان تتقبل اولا الخيال متنكرا بزي الواقع، ثم الرواية المحللة للشخصيات والمآزق، فرواية المغامرات، فالاعمال التي تدور على العاطفة والاحساس، وأخيرا، عند نهاية القرن، فظائع الرواية القوطية.

تطور الرواية الباكر

كان دانييل ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) هو الذي اعطى الرواية الانجليزية بداية قوية من

١


٣


٢


«التيتلر» (١٧٠٩ ـ ١٧١١) و «السبكتيتر» (١٧١١ ـ ١٧١٢) «والجارديان» (١٧١٣)، كان كلاهما من بين ٤٨ فكاهيا وسياسيا واديبا من اعضاء نادي «الكيت كات». أتت مجلة «السبكتيتر» تجسد اهتمام اعضاء النادي باللياقات والمناقب الحميدة والخلق القويم.

(١) ـ حددت الشراكة الادبية بين ريتشارد ستيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٩) وجوزيف اديسون (١٦٧٢ ـ ١٧١٩) اللهجة المتمدنة للعصر الاغسطي في منشوراتهما

(٢) ـ بقيت «رحلات جاليفر» رائجة حتى بعد زوال اهدافها السياسية والاجتماعية الاصلية. أصبح هذا الكتاب الذي ألفه جوناثان سويفت (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥) نقطة تحول في تاريخ الرواية الانجليزية. يطوف جاليفر، وهو الشخصية الواحدة من لحم ودم، في عالم من الأوهام لا يمت بأي صلة الى الرواية المتعارفة. فيتقاذفه عالم من العمالقة وعالم من الاقزام، ويتعرف الى النبل والدناءة، حتى يعود آخر الأمر الى حضن الجنس البشري الذي يعتبره سويفت عاجزا عن بلوغ الكمال.

(٣) ـ أعطت جولات نيقولا

خلال رواياته « روبنسون كروزو » (١٧١٩) « ومول فلاندرز » (١٧٢٢) « وكولونيل جاك » (١٧٢٢) « وروكسانا » (١٧٢٤) . كان قصاصا واقعيا يحبه الجمهور الساذج . الا ان الرواية كانت تتطلب ايضا عناصر الملاحظة الاجتماعية واسلوب السرد ، وقام بتقديم هذه العناصر ريتشارد ستيل وجوزيف اديسون (١) ، اللذان خلقا في محاولاتهما ولوحاتهما الادبية شخصيات حية وشددا على الطابع الخلقي الذي يجب ان يطبع اي نظام اجتماعي عقلاني . اما الخطوة الاخيرة نحو الرواية الاصيلة ، فقد كانت في اضافة العقدة المتماسكة المعالجة لتفاعل العلاقات البشرية الى عنصر السرد الروائي . وهذا ما جاء يحققه صموئيل ريتشاردسون (١٦٨٩ - ١٧٦١) في روايته « باميلا » (٥) ، التي شجعت بدورها الرواية الهزلية النقدية مثل « جوزيف اندروز » (١٧٤٢) و « توم جونز » (١٧٤٩)

٤



٥



رستيف (١٧٣٤ - ١٨٠٦) الليلية في العوالم السفلى لباريس نتاجا ضخما من الروايات والمقالات الوعظية في عدة مجلدات كتبت بين ١٧٦٧ و ١٨٠٢ . اعطت اثاره ، المبنية على الواقع من جهة والخيال من جهة اخرى ، والمشوبة في كثير من الاحيان بطابع الاستثارة الجنسية (كما نرى في الرسم(، صورة فريدة من نوعها ولكن مفصلة عن حياة المدينة .

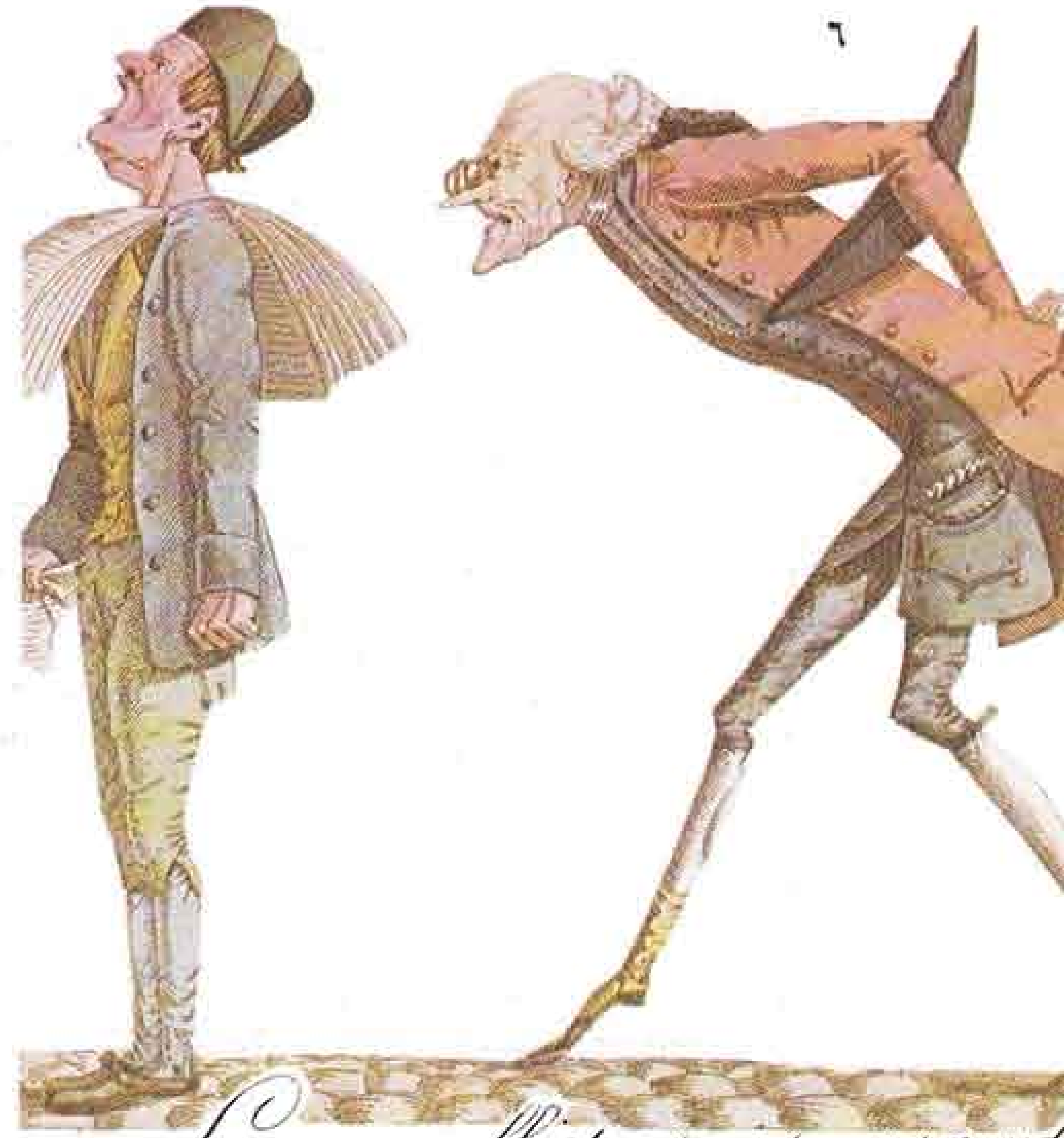
(٤) - كان فولتير كاتبا خصيب الانتاج (ويبدو هنا يملي فيما يرتدي ثيابه) . جاءت روايته « كانديد » صندوق عجائب للمغامرات والمصائب التي قاساها كانديد والدكتور بانجلوس . تتخلل هذه القصة الرقيقة سخرية رزينة واتزان فرح ، ولكن تحت السطح تبدو الشخصيات وكأنها تنطق باسم فولتير . تبدد احداث الكتاب بصورة ساخرة شعار كانديد القائل : « كل شيء هو الاحسن في احسن العوالم الممكنة » ، ويستعصي الكون الذي لا يمكن قهره على المحاولات البشرية الرامية الى فرض العقل عليه .

(٥) - دغدغت « باميلا » ، وهي أول اثر لناشر لندني ، مشاعر القراء سنة ١٧٠٤ . كان المؤلف ، صاموئيل ريتشاردسون ، رجلا متزمتا لا يحب المغامرة ، لكنه عرف كيف يكشف عن اسرار قلب الانثى . « باميلا » هي قصة اخلاقية ، بطلتها خادمة ، تبدو هنا وهي تلتمس بركة معلمها ، تعرضت لمآرب ابن الاسرة . جاء الحوار فيها حيا ، ومسكوبا في سلسلة من الرسائل . شجعت الشهرة التي نالتها هذه الرواية ريتشاردسون على تأليف « كلاريسا » ، وهي رواية أخرى على شكل رسائل . اصدر هنري فيلدينج ، روايات اقوى ، مثل « جوناثان وايلد » (١٧٤٣) « وتوم جونز » .

لهنري فيلدينج (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) .

من المرجح ان الرائعة الهزلية « دون كيشوت » لسيرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) كان لها اعظم الاثر على الرواية الاوروبية . ففي فرنسا ، أصدر ألان لوساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧) « جيل بلاس » (١٧١٥ ـ ١٧٣٥) ، وهي رواية تدور على مغامرات الاحتيال والتشرد ، واستطاع مترجمه الاسكتلندي توبياس صموليت (١٧٢١ ـ ١٧٧١) ان يكتب الرواية القائمة على الشخصيات والاحداث المتنوعة ويجعلها فظة او واقعية او زاخرة بالأحداث الطارئة . لكن رواياته ، « رودريك راندوم » (١٧٤٨) « وبيريجرين بيكل » (١٧٥١) « وهمفري كلينكر » (١٧٧١) كانت تفتقر الى العمق والسخرية اللذين تميزت بهما روايتا لورنس ستيرن « تريسترام شاندي » (١٧٦٠ ـ ١٧٦٧) « ورحلة عاطفية » (١٧٦٨) . كانت روايات ستيرن (١٧١٣ ـ ١٧٦٨) قصصا خيالية

٦



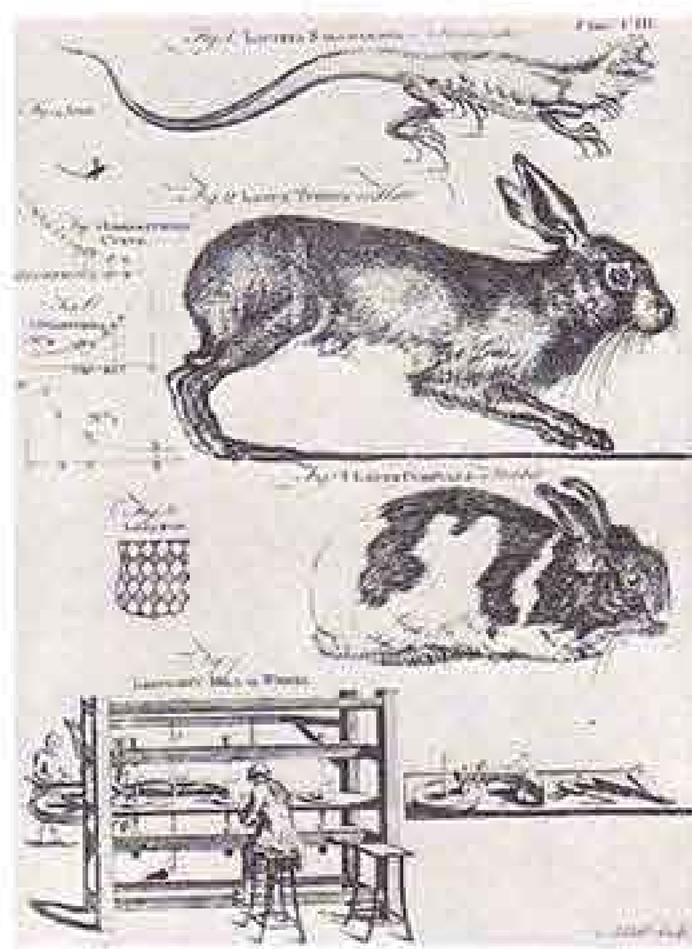
(٦) ـ صدر عدد من الصحف الانتهازية الرخيصة والمجلات الاجتماعية في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر . يبين هذا الرسم الكاريكاتوري صحافيا فارغ الجيب يلتقط الأخبار بصورة مجانية مما يدل الى أي حد كانت الصحافة عملا غير حرفي .

٧



(٧) ـ كان باعة الكتب في القرن الثامن عشر رجال اعمال يشترون حقوق النشر ، ويستكتبون المؤلفين ويتعاملون مع اصحاب المطابع ويبيعون الكتب مباشرة . كان صموئيل جونسون يعتبرهم لبراليين نشيطين ، ولكن النظرة الشعبية اليهم كانت تعدهم محتكرين ، يحتقرون العبقرية ، ويتملقون لأحط النزوات ويستخدمون اسوأ المأجورين .

٨



(٨) ـ كان « المعجم » (١٧٥٥) لصموئيل جونسون (١٧٠٩ ـ ٨٤) ، الذي تعهد باصداره سبعة من ناشري الكتب بكلفة ١٥٧٥ ليرة استرلينية ، انجازا علميا عظيما بقلم مؤلف واحد . فاق جونسون ، في اشتقاقاته الخاصة وتعاريفه ومقتبساته ، « الاكاديمية الفرنسية » الناشئة التي كانت ماضية في مشروع مشابه . اما « الموسوعة البريطانية » ، فقد كانت معجما اسكتلنديا ، أصدر بعض اجزائه وليم سميلي من ١٧٦٨ الى ١٧٧١ .

سوريالية متموجة تقع خارج خط تطور الرواية الرئيسي ، لكن نجاحه كان كبيرا جدا مما حدا بالكثيرين الى تقليده ، كما فعل خصوصا ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) في « جاك الاتكالي » (١٧٩٦) . من الروايات الرئيسية الى حد اكبر رواية « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ، لأوليفر جولدسميث (١٧٣٠ ؟ ـ ١٧٧٤) ، وهو كاتب رقيق الاسلوب عالج بالدرجة الاولى محن الفضيلة والحياة المنزلية .

التغييرات في الرواية بعد ١٧٦٠

عند هذه المرحلة ، التي شهدت من حين لآخر انفجارات من التصور والخيال ـ كما في رواية « قلعة اوترانتو » لهوراس والبول أو « نيلز كليم » النقدية للودفيك هولبرج الدنمركي (١٦٨٤ ـ ١٧٤١) ـ تحولت الرواية كليا تقريبا الى العاطفة والرعب القوطيين . فحظيت رواية ماثيو لويس (١٧٧٥ ـ ١٨١٨) « الراهب » (١٧٩٦) و « اسرار اودلفو » (١٧٩٤) للسيدة رادكليف بشهرة واسعة ، وفتحتا المجال في آن واحد لبعض الروايات الجيدة ولسيل من الروايات التافهة . مع ذلك ، بدأت جين اوستن (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) ، في العقد الأخيرة من القرن الثامن عشر ، كتابة رواية « الحس والحساسية » ، فضلا عن سلسلة من الروايات الاخرى التي احتوت رؤى متزنة جاءت تحد من الاندفاع نحو النزعة الاستئثارية .

لم يحجب تفوق الرواية الانجليزية ألمعية الروائيين الفرنسيين . فقد اصاب الاب بريفو (١٦٩٧ ـ ١٧٦٣) نجاحا في « مانون ليسكو » ، وهو المجلد السابع « لمذكرات رجل رفيع الشأن » (١٧٢٨ ـ ١٧٣١) المملة ، كما ترجم جميع مؤلفات ريتشاردسون الى الفرنسية . كذلك اصدر شودرلو دو لاكلو (١٧٤١ ـ ١٨٠٣) « العلاقات الخطرة » سنة ١٧٨٢ ، وهي رواية تحلل الفساد ، على غرار « مانون » التي تصف الانحطاط الذي تفضي اليه الشهوة . لم تكن الرواية في نظر فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) (٤) سوى مجرد اداة لنشر الافكار . فاستخدم « كانديد » المتشائمة (١٧٥٩) و« زاديك » المتفائلة (١٧٤٧) مرورا بروايتي « الماهر » (١٧٦٧) « وأميرة بابل » (١٧٦٨) للاعراب عن آرائه التحررية وعقلانيته .

تطور الصحافة

يقف دانييل ديفو عند رأس النبع العظيم الثاني لتطور النثر في القرن الثامن عشر ، اي الصحافة . فقد خلقت مجلته « ريفيو » (١٧٠٤ ـ ١٧١٣) طبقة جديدة من القراء راحت تطالع أيضا مجلتي « التيتلر » و « السبكتيتر» فضلا عن مجلة « اكزامينر » المحافظة .

وضع « قانون المطبوعات » لسنة ١٧١٢ حدا لهذا العصر الذهبي للصحافة القصير الامد ، ولكنه أدى الى شكل جديد من الصحيفة الاسبوعية التي عرفت بفضل حجمها كيف تتهرب من المسؤولية المفروضة وضمنت ، في الوقت ذاته ، تحالف الادب مع الصحافة .

عندما أخذت الصحف تعتبر نفسها صوت الرأي العام ونصيره ، بدأ الصراع من اجل حرية القول . نشبت عدة مناوشات مريرة ، قبل ان تحل المشادة حول جون ويلكز (١٧٢٧ ـ ٩٧) ومجلته الاسبوعية المناوئة للحكومة ، « البريطاني الشمالي » .

الروكوكو

لعل الروكوكو هو أول نمط في تاريخ الفن يسعى الى توفير المتعة فقط . لم يكن له رسالة أو هدف تعليمي ، ولم يكن شكلا من اشكال الصلاة ، كما لم يكن صالحا لحكاية القصص او لاعطاء صورة شاملة عن العالم . كان غرضه الوحيد هو الاستمتاع .

روح الروكوكو

مع ذلك كان الروكوكو اداة صالحة للتعبير عن الشعور الجدي ، كما تشهد على ذلك لوحات انطوان واتو (١٦٨١ ـ ١٧٢١) (مع انها بالفعل كانت استثنائية) ، كما انه لم يكن معزولا عن الواقع ، او بعيدا عن الطبيعة . فقد كان فنانو الروكوكو مفتونين

١


(١) ـ كانت الشهوانية خاصية فنية محببة في بلاط الملك الفرنسي المتحذلق والمحب للمتعة لويس الخامس عشر. كان أبلغ من عبّر عنها فرنسوا بوشيه ، الذي كانت لوحته « كوبيد في الاسر» (جزء تفصيلي) ، حلقة من سلسلة رسمها سنة ١٧٥٤ لمخدع أشهر خليلة للويس ، مدام دي بومبادور . كانت النتيجة مجموعة زخرفية ، غير متناظرة الاشكال ، تشبه من حيث الايحاء رسما على الخزف او زخرفة طاولة فضية على طريقة الروكوكو في تلك الحقبة .

٢


(٢) ـ « حجرة الساعة الدقاقة » (١٧٣٨) هي جزء من الأجنحة الخاصة التي انشأها لويس الخامس عشر في فرساي . صممت هذه الاجنحة بتعمد لتكون أكثرخفةوالفة من الاجنحة الرسمية التي

٣


بالطبيعة ، ولاسيما بالنباتات والحيوانات الصغيرة والطيور ، وكان بينهم رسام واحد على الأقل ، هو جان باتيست سيميون شاردان (١٦٩٩ - ١٧٧٩) ، يمكن اعتباره مراقبا بارعا للطبيعة . ولكن اذا استثنينا هذه الأمور ، لا يبقى لنا مناص من القول ان الروكوكو كان خصوصا فن دعابة وزخرفة وفكاهة ينشد التذوق كغاية قائمة بذاتها . ولهذا لم يكن نمطا يروق لجمهور كبير او يصلح للمباني العامة ، بل كان يزدهر في الشقق الخاصة وحدائق المتعة بين افراد صغيرة متحذلقة من المتذوقين .

لهذه الاسباب جميعا ، ظهر الروكوكو في الفنون التطبيقية مثل الاثاث والخزف والفضيات والزخرفة الداخلية ، بمقدار ما ظهر في الفنون الجميلة كالرسم والنحت والعمارة ، مع العلم انه لا يجوز اطلاق لفظة الروكوكو على فن العمارة الا من حيث الزخرفة

٤



صنعت من اجل لويس الرابع عشر . وهي احسن مثال على الروكوكو الفرنسي .

(٣) - من أعجب الأقسام الداخلية التي صممت باسلوب الركوكو « قاعة المرايا » في فيلا أمالينبورج التي بناها ، على مقربة من ميونيخ ، فرنسوا دي كوفيلييه سنة ١٧٣٤ - ١٧٣٩ مع ان الاسلوب ينم عن تأثير فرنسي ، فالتصميم قد انجز بحرية ومرونة كبيرتين تميزت بهما المانيا .

(٤) - كانت كنيسة دير اوتو بويرن ، في بافاريا (١٧٣٧ - ١٧٦٧) ، على غرار عدد من الآثار الالمانية التي ترقى الى القرن الثامن عشر ، من صنع عدة فنانين ويختلط فيها اكثر من اسلوب . انجز الجانب المعماري منها ، وهو من اسلوب الباروك الاخير الذي جمعت فيه الاعمدة والافاريز الثقيلة بصورة منتظمة ، يوهان ميخائيل فيشر (١٦٩٢ - ١٧٦٦) ، وانجز الزخرفة الروكوكية المتصفة بالدعابة والابتكار الكلاّس يوهان ميخائيل فويختماير (١٧٠٩ - ١٧٧٢) .

الخارجية فقط ، اذ انه لم يكن له أي دور في تصميم الهياكل او البنى . على عكس ذلك ، كانت الفنون التطبيقية حقله المفضل .

تاريخيا ، انبثق الروكوكو عن الباروك الذي سبقه والذي جاء الروكوكو ، بمعنى ما ، يتمّمه ، مع انه كان في الوقت ذاته عبارة عن رد فعل ضد رصانة الباروك وضخامته . بلغ الروكوكو ذروته في النصف الاول من القرن الثامن عشر تقريبا . وظهر بالدرجة الاولى في فرنسا والولا يات الالمانية (وجاء الى هذه الاخيرة تحت التأثير الفرنسي) ، لكنه امتد الى حد ما الى بريطانيا وايطاليا وبلدان أخرى واقعة في اطراف اوروبا الغربية . اشتقت لفظة « روكوكو » على الأرجح من لفظة فرنسية تعني قطع الصدف والحجارة الصغيرة المستعملة في زخرفة القرن السادس عشر ، وهي تسمية موفقة ، لأن عددا من خواص هذا النمط ، مثل الأقواس على شكل

٥


(٥) ـ صمم واتو ، مبدع الروكوكو الفرنسي ، موضوعا جديدا ، هو « العيد الانيق » ، حيث يقوم بشر حقيقيون يرتدون ثيابا غريبة بلعب نوع من العاب الغرام الرومنسي . في اشهر لوحاته « الرحيل الى جزيرة قيثارا » (١٧١٧) التي يظهر قسم منها هنا ، يبدو العاشقان يهمّان بمغادرة الجزيرة ، التي كان اليونان يعرفونها بمسقط رأس أفروديت .

٦


(٦) ـ ابدع جان باتيست سيميون شاردان ، مستعينا ببراءة الطفولة وبموضوع الحب الذي يربط الام باولادها ، لوحة تلفت النظر في خلوها من العاطفة هي لوحة « تلاوة صلاة الشكر » (١٧٤٠) . يعتمد هذا الفنان على بنية هرمية بسيطة ، متوازنة ، ولكن ضعيفة التناظر . وهو يسخّر مهارته في رسم « الطبيعة الصامتة » لتفاصيل ثانوية مثل الطبلة الدمية والوعاء في المؤخرة والاشياء الظاهرة على الطاولة .

الحرف اللاتيني (s) والاشواك المتعرجة وعدم التناظر ، توجد مجتمعة في نوع معيّن من الأصداف .

الروكوكو داخل الدور والقصور

ظهر الروكوكو في داخل الدور للمرة الاولى حوالى ١٧٠٠ في معقل الباروك الفرنسي ، قصر فرساي (٢) ، والقصور الملكية المرتبطة به . ففي الاجنحة المختلفة لتلك القصور ، حلت محل الاحجام الضخمة ، سلسلة من الألواح الخشبية الطويلة المدهونة باللون الابيض العاجي والمغطاة بالنتوءات المحفورة والموشاة بالذهب . كانت المرايا تؤلف جزءا هاما من الزخرفة .

لم يلبث هذا النمط ان انطلق من فرساي وامتد الى بيوت باريس الانيقة ، حيث استعمل باسراف ، ومن ثم انتقل الى البلاطات الالمانية « المتفرنسة » . أما المصممون ، فقد كانوا يأتون ، في غالب الاحيان ، من اقاليم شمال اوروبا المعروفة بتقاليدها الحرفية العريقة ويتدربون في باريس ثم يختارون اما البقاء فيها او مغادرتها الى مراكز رعاية الفنون في فرنسا او المانيا . من الفنانين الذين سلكوا الطريق الأخير فرنسوا دو كوفيليه (١٦٩٥ - ١٧٦٨) المولود في الفلاندر ، والذي اصبح ، بعد فترة من التدريب في باريس ، المهندس المعماري لبلاط ناخب بافاريا . كانت قاعة المرايا التي صممها في أمالينبورج ، تلك الفيلا المزخرفة في احدى حدائق قصر نيمفومبورج على مقربة من ميونيخ ، تبز في غرابة تصميمها أي أثر مماثل في فرنسا ، ولعلها أفضل نموذج للزخرفة الروكوكية في أي مكان على الاطلاق (٣) .

بالاضافة الى الروكوكو المستوحى من فرنسا ، ظهر في المانيا شكل محلي من هذا النمط ، وخصوصا في الكنائس . خلافا للروكوكو الفرنسي ، انبثق هذا الشكل طبيعيا من اسلوب الباروك ، الذي بقي مزدهرا في المانيا في القرن الثامن عشر . في أحيان كثيرة ، كانت بعض الكنائس ككنيسة اوتوبويرن (٤) التي اتبع فيها اسلوب « الباروك » تحتوي ايضا على زخرفة من نوع الروكوكو في الداخل .

واتو وبوشيه

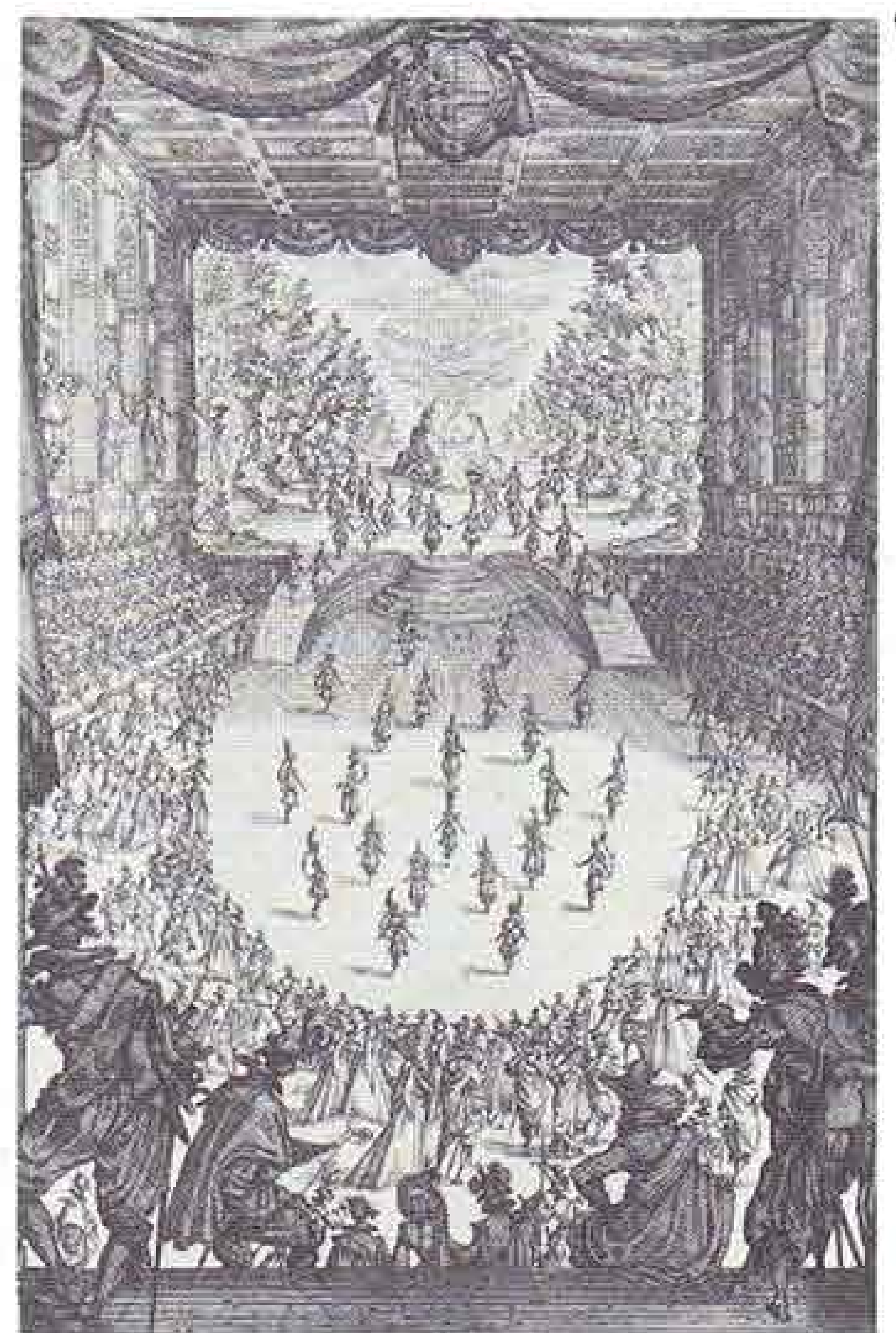
من جهة ثانية ، كان فن رسم الروكوكو من ابداع فنان عبقري واحد ، هو انطوان واتو . بنى واتو اسلوبه على اسلوب الرسام « الباروكي » الفلمنجي بيتر بول روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) ، فابتكر موضوعا فنيا جديدا ، هو موضوع « العيد الأنيق » ، الذي كانت تستبدل فيه غراميات الاصنام الكلاسيكية بالغراميات الخيالية للكائنات البشرية ، على غرار ما كانت عليه الحال في الباليه والاوبرا (٥) . كتب الناقدان الاخوان جونكور في القرن التاسع عشر عن واتو قائلين : « لقد جدد واتو مفهوم الحسن والدلال » . كان اصدق خليفة له شاردان ، الذي جاءت مواضيعه المأخوذة من « الطبيعة الصامتة » ومن مشاهد الحياة المنزلية البورجوازية (٦) واقعية وغير مثالية . الا ان واتو كان ايضا المعين الذي استوحى منه الرسام الزخرفي فرنسوا بوشيه (١٧٠٣) ، وهو اشد فناني ذلك العصر شهوانية وأكثرهم نجاحا (١) .

أوائل الباليه

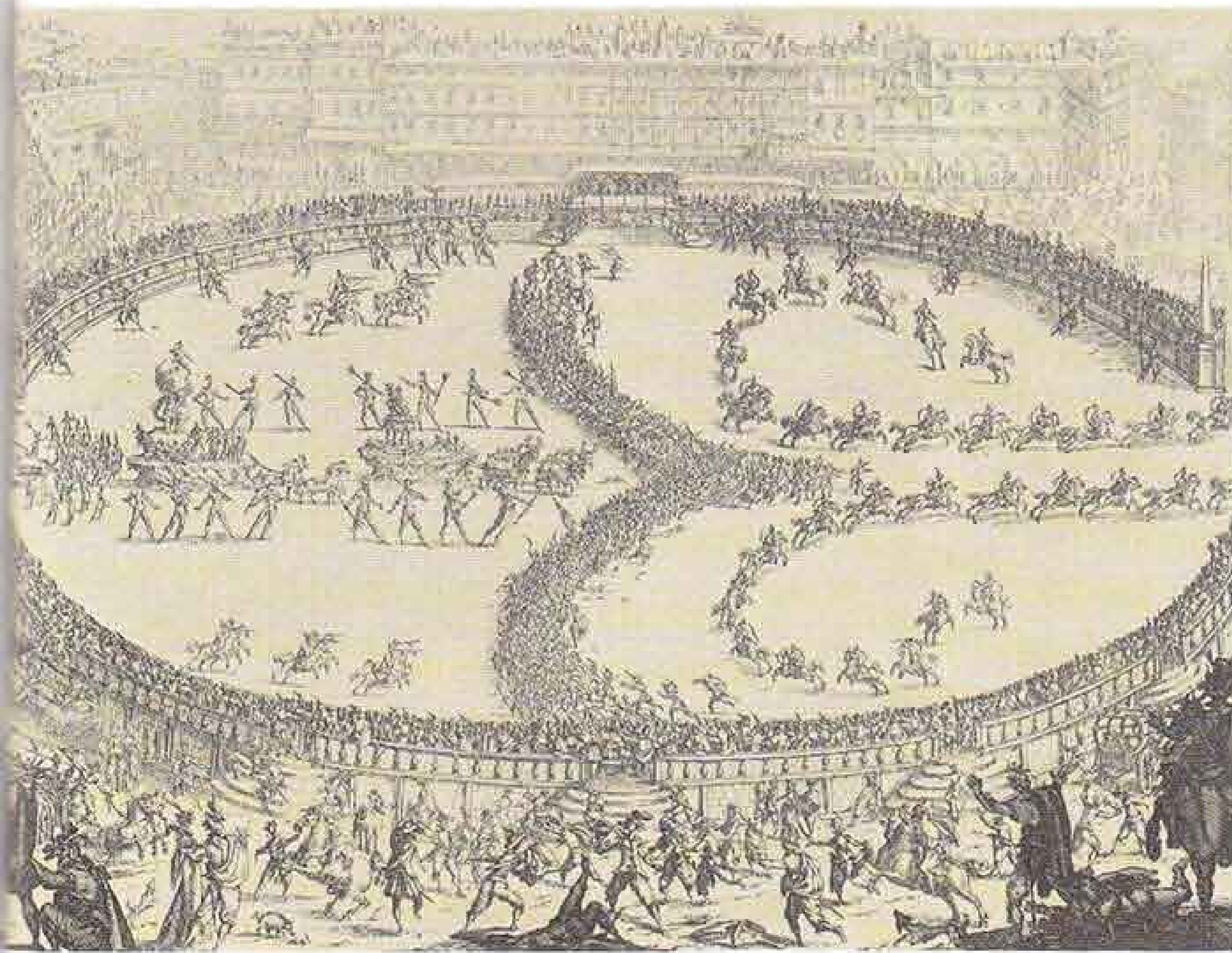
كان فن الباليه ما يزال في طفولته في مطلع القرن السابع عشر، وقد جاءت به الى البلاط الفرنسي من ايطاليا كاترين دي مديتشي (١٥١٩ - ١٥٨٩) . كانت رقصة الباليه تتألف آنذاك من عدد من « الطلعات » التي يقوم بها راقصون مقنعون يرتدون البسة متقنة ، وكانت الخاتمة رقصة باليه كبرى يشترك فيها عادة الملك والملكة . كانت « طلعات » الباليه بحضرة لويس الثاني عشر (١٦٠١ - ١٦٤٣) تتصل بموضوع ما ، يصار الى شرحه بواسطة خطاب أو اغنية .

باليه البلاط في ايطاليا وفرنسا

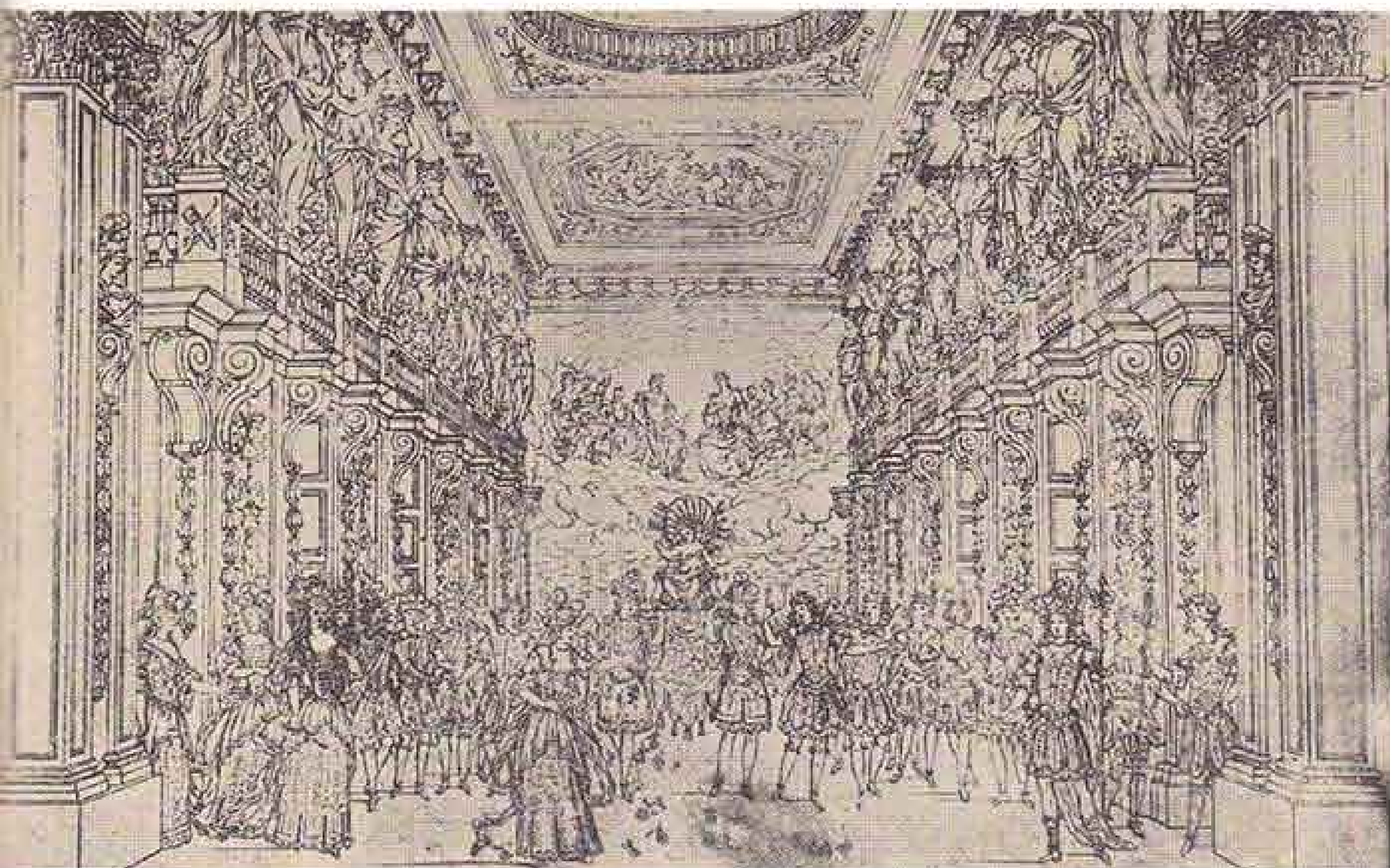
من اشهر قطع الباليه البلاطية قطعة



١



٢



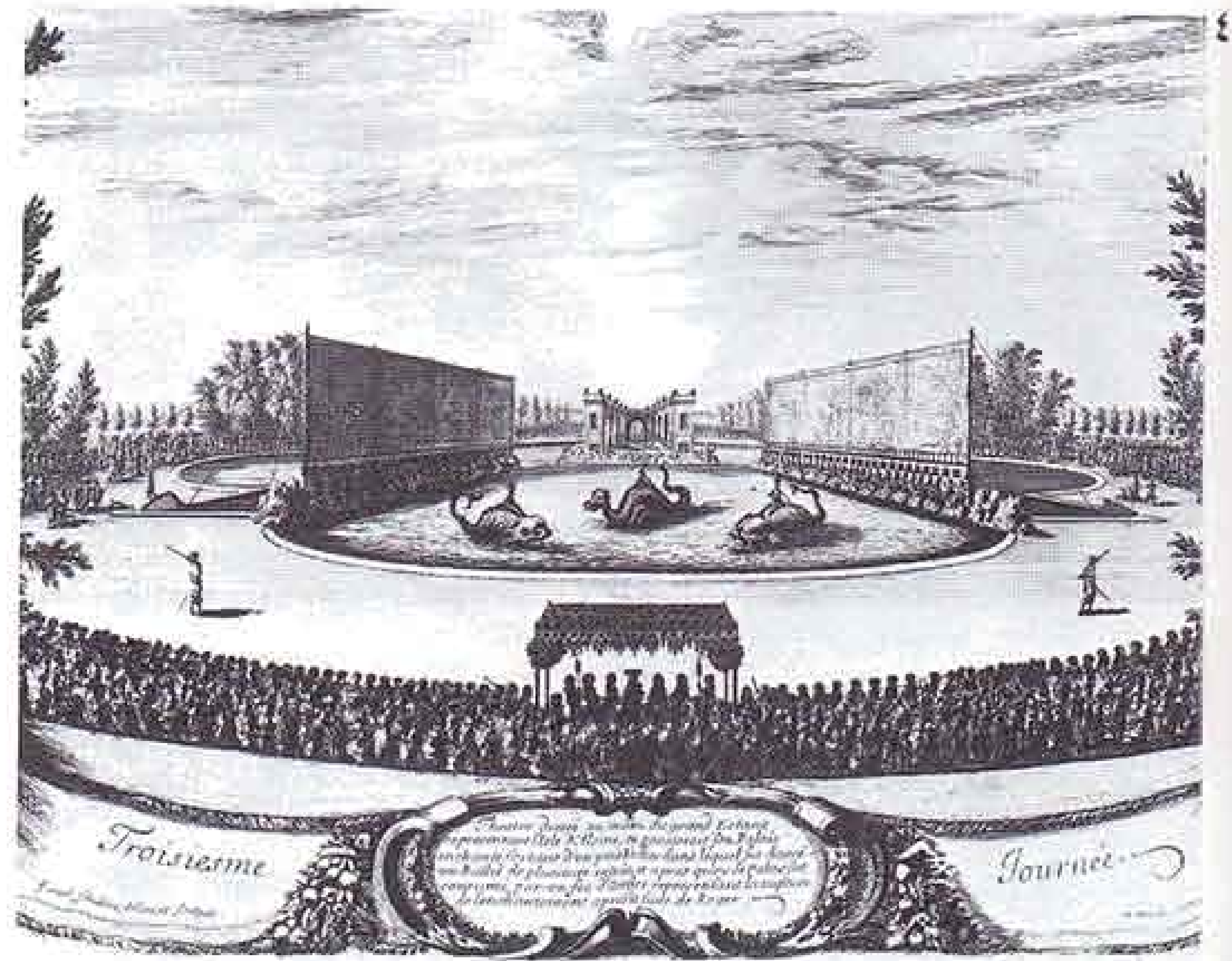
٣

(١) - قدمت باليه « تحرير تيرينيو » على مسرح قصر اوفيزي بفلورنسا سنة ١٦١٦ ، احتفاء بزواج دوق مانتوا وكاترين دي مديتشي . كان النظارة يجلسون على منصات مرتفعة على الجانبين ، بينما كان الضيف الملكي يجلس في المقدمة . كانت الالهة تهبط على آلة ضبابية ، وينزل الراقصون من على المسرح لينضموا الى « الباليه الكبرى » .

(٢) - جرى تمثيل باليه الخيل في الهواء الطلق بفلورنسا ، احتفاء بزيارة دوق اوربينو . اشترك ٤٢ فارسا و ٣٠٠ رجلا في تمثيل احدى المعارك .

« تحرير تيرينيو » (١) التي مثلت في ايطاليا سنة ١٦١٦ ، وقطعة « انقاذ رينو » ، التي مثلت في البلاط الفرنسي بعد ذلك بسنة واحدة . كان لكثير من قطع الباليه مغزى سياسي ، وقد تجلّى ذلك خصوصا في باليه « انقاذ رينو » التي تمّ بواسطتها تطمين السفيرين الاسباني والنمساوي بأن لويس الثالث عشر كان لا يزال مولعا بملكته . عند تقديم هذه الباليه ، وضعت المقاعد في صفوف على طول قاعة اللوفر الكبرى ، ونصب العرش الملكي عند أحد اطرافها المواجه للمسرح الذي يحجبه ستار ملون مسدل على كلا جانبي القاعة ،واختفى عازفو الموسيقى وراء مجموعة من الاشجار . بعد نشيد افتتاحي قصير للجوقة ، يرتفع الستار ليكشف عن مغارة في مؤخرة المسرح ، وقد استلقى فيها على العشب السيد دي لوين ، الراقص الذي كان يمثل رينو . كان ملك و ١٢ من حاشيته

٤



٥



(٣) ـ جرى تمثيل « انتصار الحب » ، وهي من وضع جان باتيست لولي ، في سان جرمان سنة ١٦٨١ باشتراك سيدات من البلاط . عندما جرى تمثيل هذه الباليه ، بعد ذلك بقليل ، في اكاديمية الموسيقى امام الجمهور في باريس ، اسند الى راقص محترف دور المريخ الذي قد رقصه اصلا بيير بوشان استاذ الملك في الرقص . وقامت الآنسة لافونتين ، أول « راقصة اولى » ، بالرقص على رأس راقصات اخريات . صمم الملابس جان بيران ، الذي جعل الرجال يبدون بازياء رومانية ، بينما ارتدت النساء ملابس بلاطية كيفت لتتمشى مع المسرح .

---

(٤) ـ ظهرت « ألسينا » في قطعة « قصر ألسينا » التي مثلت بفرساي في مايو ١٦٦٤ في اليوم الثالث لسلسلة من حفلات التسلية . تبدو ألسينا ممتطية تنينا ، بينما جثمت الحوريات حولها على ظهور الدلافين . تقوم على كلا الجانبين جزر صخرية طويلة كانت تجلس الاوركسترا عليها . في جزيرة أخرى في خلفية المشهد ، يقع قصر ألسينا المسحور ، الذي دمر في عرض ضخم من الأسهم النارية .

---

(٥) ـ قام نيقولا لانكري برسم ماري آن دو كوبي دي كامارجو (١٧١٠ ـ ١٧٧٠) ، أول راقصة باليه شهيرة ، في هذا الاطار الريفي المثالي . أثارت هذه الراقصة سنة ١٧٣٠ ضجة كبيرة عندما قصرت تنورتها عدة سنتيمترات لتتمكن من تنفيذ خطوة « القفزة المتداخلة » (أي تشابك الرجلين وانفلاتهما في قفزة أفقية واحدة) . اشتهرت كامارجو بمهارتها التقنية وحيويتها ، بينما كانت ماري ساليه افضل تعبيرا واكثر نعومة . ظهرت ساليه في بيجماليون التي اخرجتها بنفسها ، وهي ترتدي فستانا من الموسلين ملفوفا حولها كرداء يوناني . كانت ايزادورا رانكان ، بعد ذلك بـ ٢٠٠ سنة ، الراقصة الثانية التي ارتدت هذا الزي الثوري .

يمثلون شياطين تركهم شخص آخر ، هو ارميد ، ليسهروا على سلامة رينو . عند ذلك ينزل لويس دي لوين وشريفان آخران الى باحة القاعة للقيام « بالطلعة » الأولى .

في أعقاب « طلعات » اخرى ، يحدث تحول سحري على المسرح ، فيدور جبل ليكشف عن حديقة فيها ثلاثة ينابيع ، وتخرج حورية ، كان يمثلها صبي ، من الماء وتأخذ في الغناء ، ثم تظهر ستة تنانين تهاجم فارسين قبل ان تفر . عندها تدخل القاعة عربة ضخمة عليها مغنون وغابة صغيرة ، وتأخذ جوقة مؤلفة من ٩٢ مغنيا تنشد انتصار رينو . واخيرا ، ينزل الملك ومرافقوه الى القاعة الكبرى ليمثلوا « الباليه الكبرى » .

ابان عهد لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) (٨) ، بلغ فن الباليه بهاء لا نظير له ، بفضل رقصات نظمها بيير بوشان ، وموسيقى وضعها جان باتيست لولي (١٦٣٢ -



(٦) - ظهر شارل ديدلو والآنسة ثيودور في باليه « امفيون وتاليا » على مسرح البانتيون في لندن سنة ١٧٩١ . لا تكتفي لوحة توماس رولندسون باظهار الراقصين ، بل تظهر ايضا الموسيقيين والقاعة المزدحمة لمسرح نموذجي من مسارح تلك الحقبة . كانت الثورة الفرنسية قبل ذلك بسنتين قد سببت تغييرات في الازياء ما لبثت ان اصبحت من ازياء مسرح الباليه . اصبحت الفساتين ، وقد فصلت آنذاك على غرار القمصان المزنرة في اثينا وروما القديمتين ، أكثر خفة ، والى حد ما ، أكثر شفافية . أدى الفستان القصير المصنوع من مادة شفافة الى تبني اللباس اللاصق او المايو . كان ديدلو يرتدي اللواصق الزهرية اللون ، وهو الذي ادخل ايضا المزنر الشفاف في « كوريساندرا » سنة ١٧٩١ .



(٧) - كانت البزة الاساسية للراقص في منتصف القرن الثامن عشر عبارة عن الخوذة المريّشة والقميص المزنّر ، اضافة الى تنورة قصيرة على شكل طوق (عرفت بالبرميل الصغير) . كانت هذه البزة تعدل لابراز الشخصية بتنويع الزخرفة وتغيير المعطف . يفترض في البزة الظاهرة هنا ان تمثل حيوانا ، وربما كانت من تصميم ب . ليور ، وهي ملفوفة ومزركشة لتوحي بجلد حيوان تزينه أوراق دوال في الشعر والمرافق والقميص المزنر ومزمار متدل بين الأوراق على « البرميل الصغير » . يلبس الراقص نعلا يلف رجليه .



(٨) - ظهر لويس الرابع عشر على شكل « الملك الشمس » في قطعة « باليه الليل » التي قدمت سنة ١٦٥٣ . كانت طلعات تلك القطعة البالغ عددها ٤٣ طلعة تستغرق رمزيا ١٢ ساعة ، بحيث يظهر الملك في القسمين الرابع والاخير ، الممتدين بين ٣ بعد نصف الليل وشروق الشمس . كان لويس البالغ من العمر ١٤ عاما يرتدي بزة الذكور الشائعة في تلك الحقبة والمؤلفة من تنورة قصيرة مروحية الشكل ، وغطاء للرأس من الريش ، تزينه الشمس وأشعتها . في الباليهات ابان عهد لويس ، كان الملك يمثل شخصيات رفيعة مثل أبولون ونبتون وجوبيتر . ظهر في باليه لآخر مرة سنة ١٦٦٩ . اخترع استاذه في الباليه ، بوشان ، لاظهار الراقصين في وضعة أكثر أناقة ، الوقفات الخمس المعهودة حتى اليوم .

١٦٨٧) وكلام ألّفه موليير (١٦٢٢ - ١٦٧٣) وأزياء صممها جان بيران . كانت حفلات الباليه تجري احيانا في الهواء الطلق . كانت « كاروسيل لويس الرابع عشر » قطعة باليه شهيرة للخيل ، جرى تمثيلها أمام اللوفر سنة ١٦٦٢ . بعد ذلك بسنتين ، جرى تمثيل « قصر ألسينا » (٤) ، في حدائق فرساي ، واستعملت البحيرات كجزء من المسرح .

الاكاديمية الملكية للموسيقى

اسست الاكاديمية الملكية للموسيقى (هي الآن اوبرا باريس) سنة ١٦٦٩ ، وبعد ثلاث سنوات من ذلك ، سمح لويس الرابع عشر للولي بأن يضيف اليها مدرسة لتدريب الطلاب على الرقص والغناء والعزف على الكمان وعلى آلات أخرى . لكن كان من شأن انشاء هذه الاكاديمية انه جعل الباليه في البلاط تتقهقر . فبانسحاب الملك من الرقص ، أخذ الراقص المحترف يحل تدريجيا محل الراقص الهاوي ، وفي سنة ١٦٨١ نرى أول فرقة رقص نسائية محترفة تظهر على المسرح .

عند منعطف القرن ، كانت الباليه ما تزال تجمع بين الرقص والموسيقى والغناء ، أي انها كانت عبارة عن اوبرا خاصة سخّر الرقص فيها للغناء . ولم يأخذ الراقصون لوحدهم يعبرون عن المعاني من خلال الحركات الا في سنة ١٧١٧ ، وذلك في باليه جون ديفر ، « غراميات المريخ والزهرة » ،

الراقصون : اساتذة وتلاميذ

شهد القرن الثامن عشر ظهور عدد من الراقصات الشهيرات مثل ماري كامارجو (٥) وماري ساليه ومادلين جيمار ، كما شهد عددا من الراقصين امثال فيستري الأب والابن وبيير جارديل . ظهر كل من جيتانو واوجست فيستري في قطع باليه من وضع جان جورج نوفير (١٧٢٧ - ١٨١٠) ، وهو من أهم الرجال أثرا في تاريخ الباليه . طبق نوفير نظرياته في كتاب « رسائل حول الرقص والباليه » الذي نشر عام ١٧٦٠ . من الاصلاحات التي اقترحها الغاء القناع (كان مكسيميليان جارديل هو الذي نفذ ذلك) واستبدال سلسلة الرقصات المتعارفة التي كانت تؤلف آنذاك عصب الباليه بباليه الحركة الذي يتحد فيه الرقص بالقصة .

دفع تلميذ نوفير ، جان دوبرفال ، بالباليه خطوة أخرى الى الأمام سنة ١٧٨٩ في اول باليه هزلية هي « الفتاة السيئة التربية » التي حل فيها اناس عاديون محل المجموعة التقليدية من الرعيان والراعيات .

جمع شارل ديدلو (٦) ، الذي تدرب على أيدي دوبرفال ونوفير واوجست فيستري ، مساهمات اساتذته الثلاثة في عمله . فقد أخذ عن دوبرفال الأفكار الخاصة بالباليه الهزلية ، وعن نوفير « باليه الحركة » ، وعن فيستري الرقص الصرف . لم تكتف باليه ديدلو ، « فلور وزفير » ، التي مثلت على مسرح الملك بهايماركت سنة ١٧٩٦ ، بوضع هذه الأفكار موضع التنفيذ ، بل ادخلت ايضا الرقص على رأس الاصابع (باستعمال احذية خشبية) . مما جعل ذلك ممكنا على الأرجح هو ابتكار آلة طيران أفضل . كان بوسع الراقصين بواسطتها ان يطيروا من طرف المسرح الى الطرف الآخر أو أن يدوروا حوله . اذ كان على الراقصة ان تنتصب على رؤوس قدميها قبل ان تأخذ في الطيران .

موسيقى الباروك والموسيقى الكلاسيكية

بدأت حقبة الباروك في الموسيقى الاوروبية في ايطاليا في مطلع القرن السابع عشر عندما استعمل في أولى محاولات الاوبرا نمط جديد من الغناء قوي التعبير يحاكي الكلام الطبيعي. استطاعت عبقرية كلوديو مونتيفردي، الذي كان استاذا للموسيقى في سان مارك بالبندقية طيلة ثلاثين سنة بدأت عام ١٦١٣، الجمع بين النمطين القديم والحديث في « صلاة المساء » (١٦١٠). فثراء موسيقاه الدينية والدنيوية (ولاسيما قطع الاوبرا) ينبع الى حد بعيد من جمعه الموفق بين هذين التقليدين. وهكذا، عوضا عن تعددية النغم القديمة وذات الطابع غير الدنيوي، أخذت النزعة نحو التعبير عن

١


٢


٣


(١) ـ كان فرانز جوزيف هايدن (١٧٣٢ ـ ١٨٠٩) المؤلف الموسيقي الرئيسي في الفترة الكلاسيكية الباكرة، وكان هو الذي أضفى صفات التماسك البنيوي والتنظيم الهيكلي على السوناتا في السمفونيا ورباعية الأوتار، حتى ليمكن القول ان الاشكال المعروفة من هذه التآليف ترقى الى زمانه. كانت اسرة استرهازي الهنجارية ربة نعمته، ولكنه زار لندن مرتين ايضا فاستقبل فيها باعجاب.

(٢) ـ كان انطونيو فيفالدي (١٦٧٥ ؟ ـ ١٧٤١) مؤلفا خصيبا من البندقية وعلما من اعلام الكونسرتو، ذلك الشكل الموسيقي الذي ظهر في ايطاليا في عصر الباروك. كان عازفا بارعا على الكمان، وقد شملت اعماله (وهي تزيد على ٤٠٠) اعمالا اعدت للكمان المنفرد او لمجموعة من الكمانات برفقة الاوركسترا. عمل مديرا لمؤسسة في البندقية كانت تجمع بين مدرسة موسيقية وميتم (١٧٠٣ ـ ١٧٤٠) وألف عددا من القطع من أجل تلامذته.

(٣) ـ كانت « الكلية الموسيقية »، وهي جمعية موسيقية للهواة، ركنا هاما من اركان الموسيقى في المانيا في القرن السابع عشر. كانت هذه المؤسسات تعكس ازدياد رخاء الطبقة المتوسطة، وكانت، في كثير من الاحيان، تابعة للجامعات. امتدت الى البلدان المجاورة، وفيما بعد الى امريكا. كان عدد من الجمعيات يقوم باحياء حفلات موسيقية عامة. أسس كلية ليبزيج الشهيرة جورج فيليب تيليمان سنة ١٧٠١.

٤


(٤) ـ رفع يوحنا سباستيان باخ (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠) اشكال الموسيقى الباروكية الطباقية الكبرى الى ذروتها، وذلك في تلخيصه المجيد للتطور الموسيقي على مدى عدة قرون. كان باخ ينتمي الى اسرة عريقة من الموسيقيين

المشاعر تهيمن على موسيقى عصر الباروك ، وهي تلك النزعة ذاتها التي أدت الى التزويق المفرط الشائع في بعض انواع فن العمارة في تلك الحقبة .

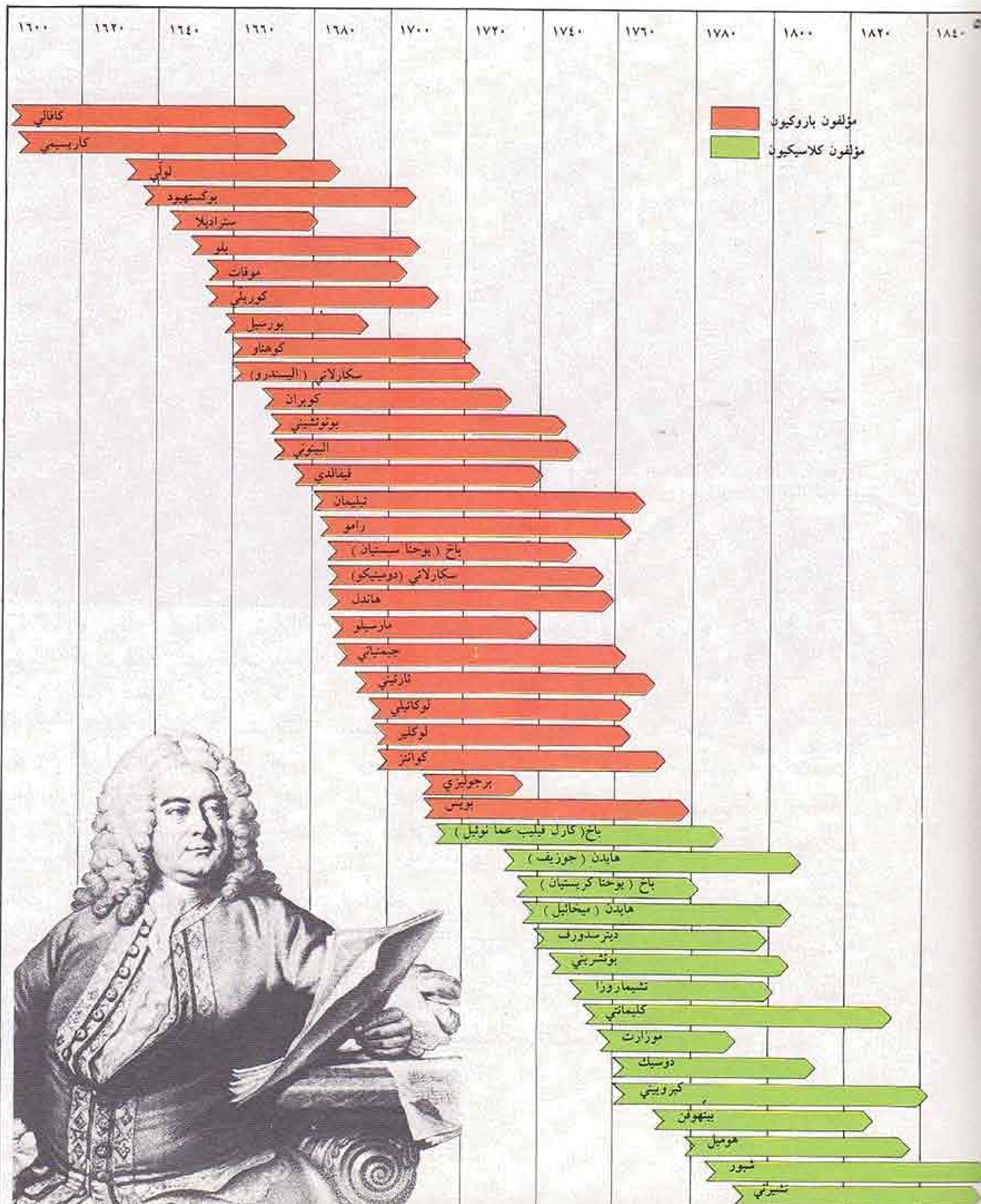
ظهور التأليف الآلاتي

في سعيها لمناوئة حركة « الاصلاح الديني » ، لم تتباطأ الكنيسة الكاثوليكية في تكريس هذا النمط الجديد الجذاب من الموسيقى . فأصبحت كنيسة فيليب نيري بروما مسرحا لتمثيليات دينية من تأليف جياكومو كاريسمي . ثم أسهم اليسندرو سكارلاتي في نابولي ببراعة في انشاء نمط الاوبرا النابوليتاني ، ووضع اسس « السمفونيا السابقة للاوبرا » ، وهي افتتاحية الاوبرا الايطالية ، التي مهدت لحركات السمفونيا الكلاسيكية في شكلها السريع فالبطيء فالسريع . كذلك أثر العرف الاوبراتي

المعروفين ، وقضى معظم حياته في مقاطعة ثورنجيا الالمانية الشرقية ، وكان يعمل بالدرجة الاولى في بلاط فايمار (١٧٠٨ - ١٨١٧) حيث ألف معظم موسيقاه الارغنية ، وفي كوتين (١٧١٧ - ١٧٢٣) حيث كان انتاجه التأليفي خصبا كما تشهد على ذلك مجموعته المعروفة بكونسترتو براندنبورج .

---

(٥) - يؤرخ لبداية الحقبة الباروكية عادة بحوالى ١٦٠٠ بسبب ظهور الاوبرا الايطالية في ذلك التاريخ . انتهت هذه الفترة فعلا سنة ١٧٥٠ ، لدى وفاة ي . س . باخ الذي اعترف بتأثير الأسلوب الكلاسيكي في معاصريه الشبان . يبدو هندل الى اليسار باعتباره المؤلف الباروكي الرئيسي .



الجديد ، القاضي بالتشديد على صوت مفرد فوق خط الباسو ، في تطوير الموسيقى الآلاتية ، فغدت المجموعات الصغيرة من الآلات المنفردة تنفصل عن بعضها بعضا في مطلع الكونسرتو ، كما يجري في الاوركسترات المقسمة لاليسندرو ستراديلا . كان جيوسيبي توريلي واركنجيلو كوريلي وتوماسو البينوني وانطونيو فيفالدي (٢) روادا في تطوير الكونسرتو الآلاتي الكبير (وهو مجموعة آلات صغيرة تقف احيانا في مقابل مجموعة اكبر وتشترك معها احيانا أخرى) والكونسرتو المنفرد . وأخيرا كان للتحسينات التي ادخلتها على صناعة الكمان اسر كريمونا الكبيرة ، اماتي وستراديفاري وجوارنيري ، شأن كبير في مساعدة المؤلفين مساعدة كبرى في سعيهم لجعل الاوركسترا تعبيرية .

في المجموعات الصغيرة « لموسيقى الغرفة » (٣) ، كان النمط الجديد يتطلب

٦



٧



(٦) - كان فريدريك الكبير ، ملك بروسيا ، (ملك ١٧٤٠ - ١٧٨٦) ، مناصرا ملكيا من النوع المألوف في زمانه . كان حاكما حديديا متحدرا من الطبقة العسكرية القديمة ، لكنه كان ايضا عازفا هاويا على الناي . وفر بلاطه في برلين ومقره الصيفي في بوستدام العمل لمجموعة من كبار الموسيقيين الذين كان من بينهم س .ب .أ . باخ ويوحنا يواكيم كوانتز الذي كان عازفا بارعا على الناي . كانت رعاية الكنيسة والطبقة الارستقراطية التي ستبذل على اوسع نطاق في اواخر القرن الثامن عشر دعامة الموسيقى حتى ذلك التاريخ . كثيرا ما اقترن اسم الموسيقار باسم نصيره وغدا ذلك مشهورا مثل لويس الرابع عشر ولولي وكوبيران ، جيمس الثاني ووليم وماري وبورسيل ، جورج الأول وهندل .

(٧) - صنع صانع الارغن الشهير غوتفريد سيلبرمان في ليبزيغ (١٧٣٤) ارغنا ايجابيا مثّل أحسن تمثيل حقبة الباروك العليا بشغفها بالزخرفة الفخمة . أدخلت تحسينات جوهرية في القرن السابع عشر على آلات الأرغن . وكان لها دور هام في الباسو المتواصل او الباسو الداعم في موسيقى الباروك .

---

(٨) - كان لودفيج فان بيتهوفين (١٧٧٠ - ١٨٢٧) الشخصية الانتقالية الرئيسية بين الاسلوبين الكلاسيكي والرومنسي في الموسيقى الاوروبية ، أي بين وقار القرن الثامن عشر والتعبير المتحرر في القرن التاسع عشر . في آثاره الباكرة ، يلمس المرء تأثيرات نابعة من هايدن وموزارت ، ولكنه يتجلى الى جانب ذلك ابداع واضح .

٨

« حشوة » ايقاعية . وهو ما أدى الى العرف الباروكي المعروف « بالمتواصل الخفيف » (٧) الذي يقوم فيه عازف هاربسيكورد بقيادة الجوقة من على الدستان فيما يقوم في الوقت ذاته بتقديم الحشوة الايقاعية وفقا للنسخة المختزلة لجزء الباسو . كانت الموسيقى الخاصة بهذه المجموعات الصغيرة نواة السوناتا الثلاثية الشعبية .

انتشار الاسلوب في اوروبا

في نهاية المطاف ، انتشر نفوذ ايطاليا الضخم في حقل الاساليب الاوبراتية والآلاتية في انحاء اوروبا . ففي المانيا كان هينريش شوتز - الذي أثرت تآليفه الخاصة بآلام المسيح في يوهان سباستيان باخ - وميخائيل بريتوريوس ويوهان يعقوب فروبرجر (١٦١٦ - ١٦٦٧) من أبرز الذين أخذوا بهذه الاساليب . وفي فرنسا ، كان مؤلف الاوبرا والباليه الايطالي المولد ، جان باتيست لولي ، يخدم بلاط لويس الرابع عشر الذي أملى قواعد الذوق على اوروبا طيلة قرن كامل تقريبا .

في انجلترا ، وبعد عودة الملكية سنة ١٦٦٠ ، ابتكر هنري بورسل موسيقى انجليزية لم تتمكن من مضاهاتها فيما بعد سوى موسيقى هندل . وفي سنة عظيمة ، هي سنة ١٦٨٥ ، ولد كل من هاندل ويوحنا سبستيان باخ (٤) ودومينيكو سكارلاتي . من بين الثلاثة ، كان تأثير سكارلاتي هو الأقل ، ولكنه في المئات من مؤلفاته الخاصة بالهاربسيكورد ، يتيح للمرء سماع اصداء سوناتا الدستان الكلاسيكية .

كان هندل وباخ ، عملاقا حقبة الباروك العليا ، يتمم واحدهما الآخر . سلكا طريقين متميزين ، ولكن غير متعارضين . كان هندل رجلا متفتحا على العالم ودنيويا ، يعشق مغامرات دار الاوبرا ، ويتمتع بالاخراج القوي لأوراتورياته الانكليزية مثل « المسيح » و « يهوذا المكابي » . أما باخ ، فقد كان مؤلفا بلاطيا ومدنيا نشيطا اضطرته الظروف ان يكافح دوما من أجل المحافظة على المواهب الموسيقية القليلة الواقعة تحت تصرفه . يرى البعض انه كان ملخصا أكثر مما كان مجددا .

انبثاق الحقبة الكلاسيكية

قامت الموسيقى الكلاسيكية على اسس حركة « التنوير » ، كرد فعل على النمط المفرط في نموه وفي تزويقه الذي تميزت به موسيقى الباروك العالي والروكوكو . فوجدت لها علمين بارزين في جوزيف هايدن (١) وفولفجانج أماديوس موزارت . امتاز اسلوبهما الكلاسيكي عن النسيج الباروكي المتعدد الاصوات بوضوحه وبساطة معالجته للموضوع ومصاحبته للصوت . استمد هايدن المؤلف الخصب من أصله الفلاحي الحيوية التي حافظ عليها دوما في موسيقاه ، وكانت ابتكاراته في الشكل وفي استعمال العلاقات بين المقامات الموسيقية ذات أثر عظيم . تأثر موزارت بهايدن وبالاساليب الايطالية ، ولكنه اعتمد عبقريته الخاصة ايضا . فكان ممثلا لامعا لجميع الاشكال التي انحدرت من الباروك والموسيقى الكلاسيكية الباكرة . لم يكن له نظير سوى بيتهوفن (٨) الذي طبع الاسلوبين الكلاسيكي والرومنسي بطابع عبقريته .

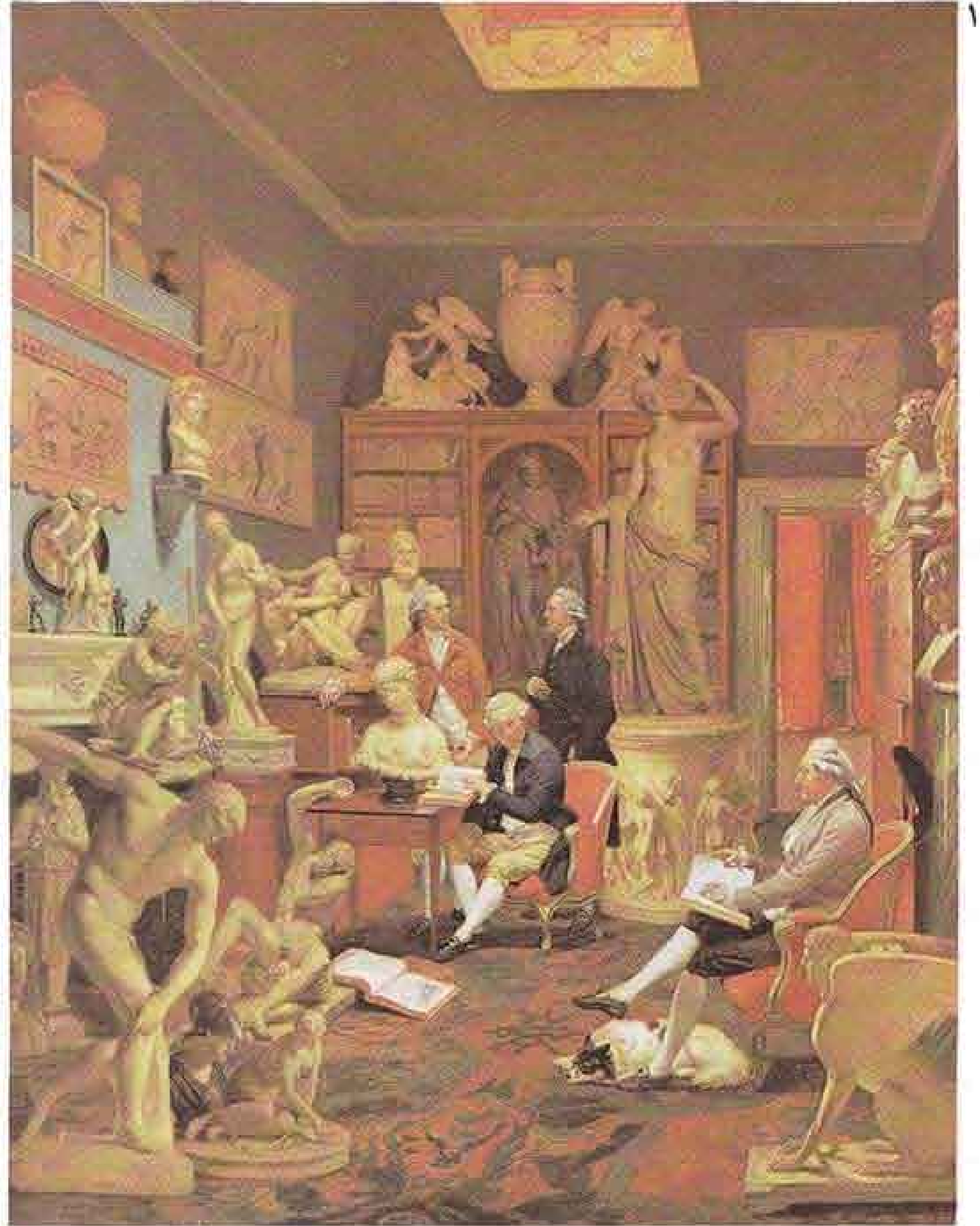
الكلاسيكية الجديدة

كانت الكلاسيكية الجديدة ، وهي حركة ترجع الى أواخر القرن الثامن عشر ، ردة فعل على تجاوزات « الباروك » و « الروكوكو » . والمهم انها كانت ثمرة عصر جديد من البحث في الفنين الاغريقي والروماني .

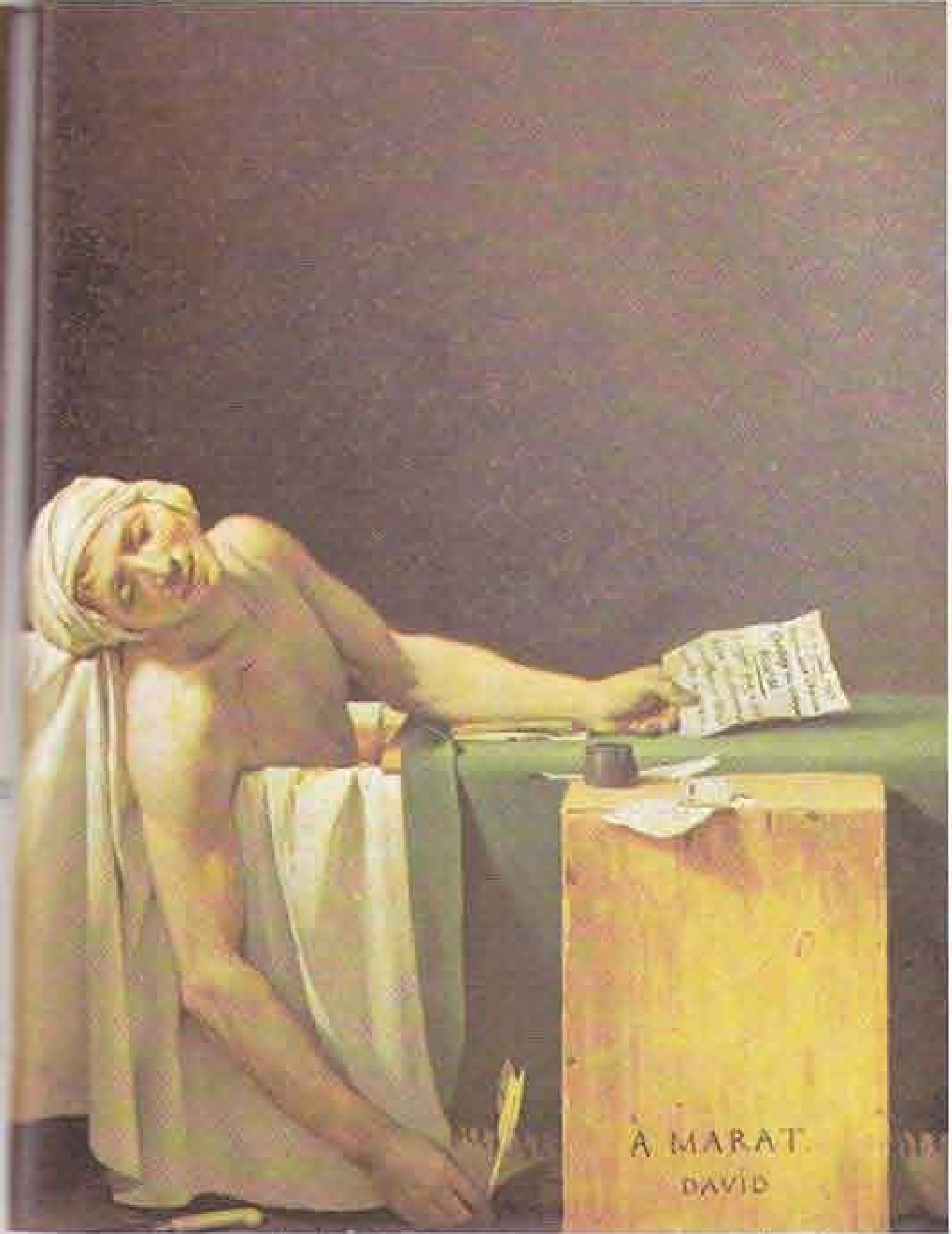
التعرف الى العصور القديمة

كانت بعض الأبنية الكلاسيكية ، لاسيما في روما ، معروفة دوما ، لأنها كانت فوق سطح الأرض . لكن مع الاهتمام العظيم بالقديم الذي ألهم عصر النهضة ، استخرجت من تحت الارض في ايطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قطع مهمة من النحت الكلاسيكي . الا ان الحيوية والحرية اللتين سادتا فن « النهضة » انما نجمتا الى حد

١



٢



(١) ـ اصبح جمع القطع القديمة جزءا رئيسيا من الحركة الكلاسيكية الجديدة ، وقد بلغ ذلك حدودا غير معقولة في بعض الأحيان ، كما نرى من أمر شارل تاونلي ومجموعته الرخامية (١٧٨٢) التي رسمها يوهان تزوفاني (١٧٣٤ ـ ١٨١٠).

(٢) ـ لوحة جان لويس دافيد ، « وفاة مارا » (١٧٩٣) هي عبارة عن ضريح تذكاري . لكن كل شيء فيه متركز على الفرد . يصور دافيد هذا الكاتب العقلاني والخطيب الغوغائي الفرنسي ، جان بول مارا ، الذي طعنته شرلوت كوردي وهو يكتب في الحمام فقضى كثائر شهيد . ترجع اللمسات الكلاسيكية الجديدة المتجلية في معالجة تصوير الموتى صدى موت الفيلسوفين الكلاسيكيين سقراط وسينيكا ، كما تنطوي على الوضوح والاقتصاد في تصميم الرسم .

(٣) ـ يتجلى احياء الشعر اليوناني كموضوع فني في لوحة « بريام يتضرع الى آخيل من اجل جسد هكتور » (حوالى ١٧٧٠) لجافن هملتون (١٧٢٣ ـ ١٧٩٨) .

ما عن جهل مصادر تلك القطع وأصولها . فقد الهبت النماذج القليلة المعروفة آنذاك الخيال الى حد لم تستطع الوف القطع التي توافرت فيما بعد أن تبلغه . أضف الى ذلك ، ان الناس لم يكونوا يميزون بعد بين الفن اليوناني والفن الروماني أو بين الحقب المختلفة لكل منهما . ومع ان اهمية الانجازات اليونانية كانت معروفة نظريا من خلال النصوص ، ولاسيما النصوص المتعلقة بفن الرسم (التي لم يصلنا منها أي نماذج تقريبا) ، فلم يعرف النحت اليوناني الكلاسيكي العائد الى القرنين الخامس والرابع ق . م الا من نسخ رومانية فقط .

أخذ هذا الوضع يتغير تدريجيا في القرن السابع عشر فقط ، اذ غدت الأبحاث تبنى الآن على اسس علمية أفضل . أما التغير الحاسم ، فقد حدث في القرن الثامن عشر ، حيث أدى البحث والتقصي الى استخراج عدد

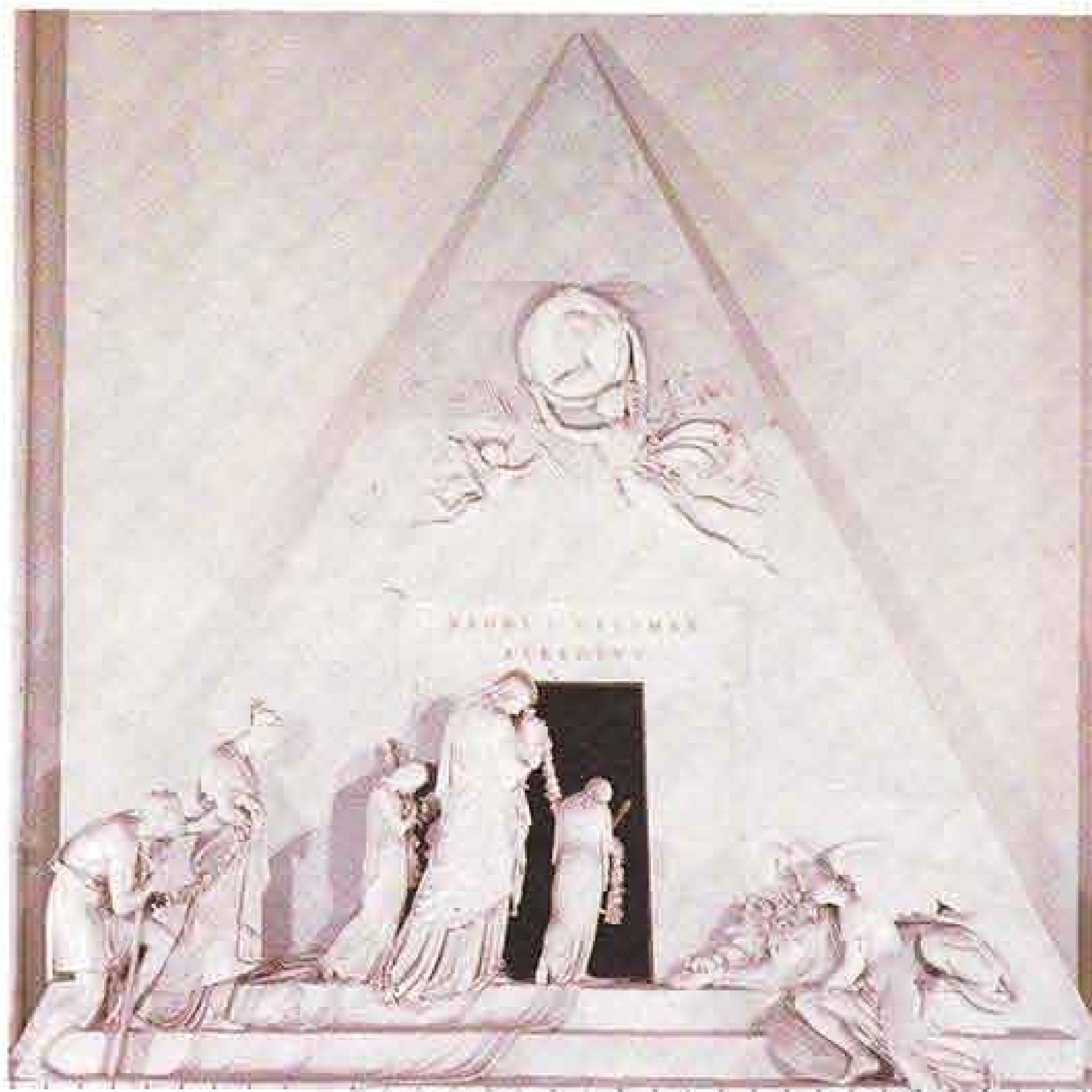


(٤) - جاء جان اوغيست دومينيك انغر أقل خشونة وأقل واقعية من دافيد ، وقد عبر عن الكلاسيكية الجديدة بالدرجة الأولى في طريقة رسمه للخطوط . خلق عالما مثاليا جليلا من الخطوط الكفافية الصامتة والألوان النقية دون أن يكون خاليا من الشعور . يتمثل كل ذلك الفن بوضوح في لوحته « المستحمة » (١٨٠٨) . كان أبا للفن الأكاديمي في اوروبا في القرن التاسع عشر .

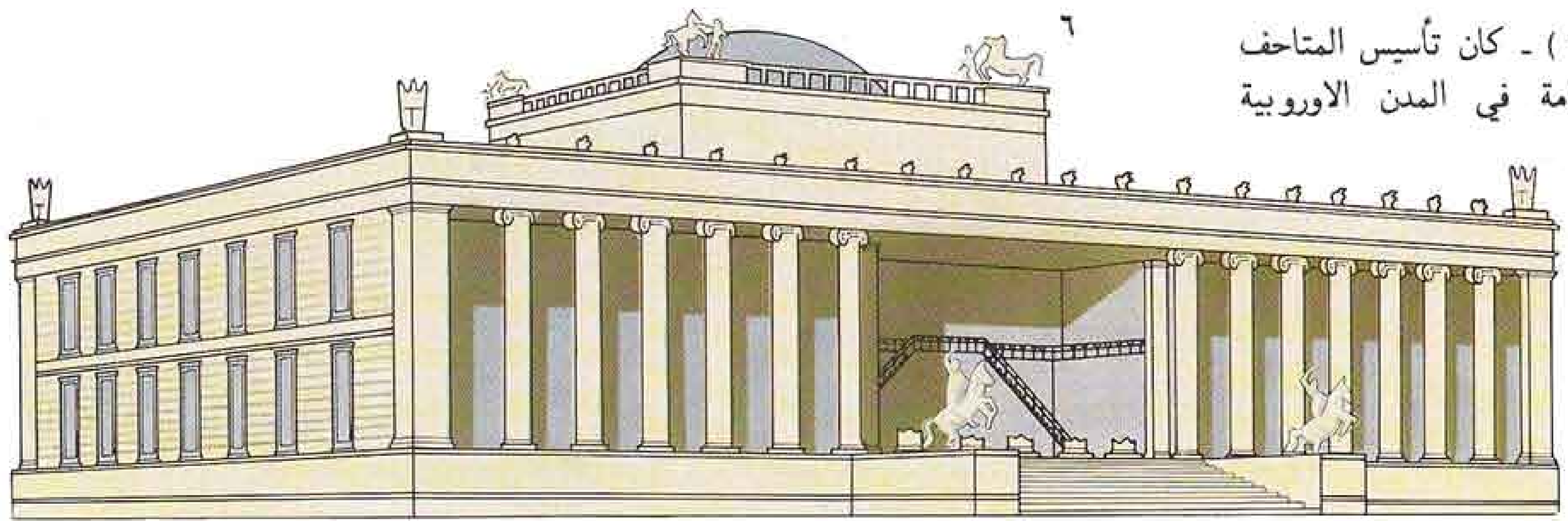
(٥) - تمتزج ايهامية مدهشة مع الانضباط الكلاسيكي الجديد في « ضريح ماريا كريستينا » (١٧٩٩ - ١٨٠٥) لأنطونيو كانوفا . تمثل هذه المنحوتة مجموعة من الأشخاص الرمزيين في حالة الحداد ، تقودهم « التقوى » (حاملة الاناء) نحو قبر يظهر بابه مفتوحا . كانت الدفينة دوقة نمساوية ، الا ان مفهوم القبر يتجاوز هنا وفاة شخص معين ، ليطرح اسئلة حول سر الموت بصورة عامة .

٥





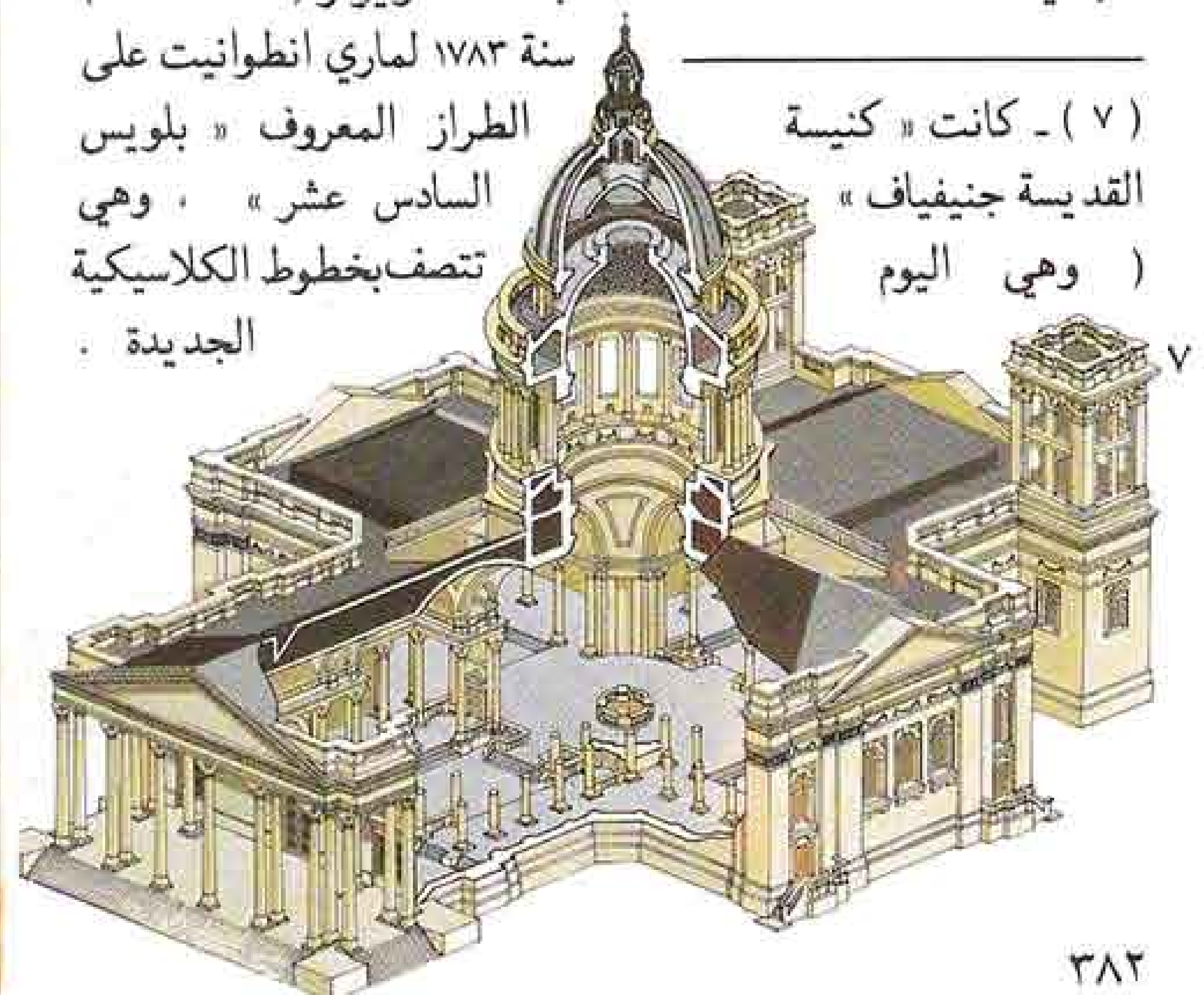
كبير من التماثيل الكلاسيكية والى انشاء متحف خاص بها في « الكابيتول » بروما ، كما أدى أيضا الى اكتشاف فنون قديمة مجهولة كليا ، كالرسوم اليونانية في هركولانيوم وبومبي بالقرب من نابولي ، والأواني اليونانية في جنوبي ايطاليا التي ظن آنذاك بانها اترسكية . الخلاصة ان علما جديدا ظهر الى الوجود ، هو علم الآثار . لكن ما كان أهم من كل ذلك هو ان ارض اليونان نفسها غدت موضوعا للتنقيب المباشر ، وذلك على يد المهندسين المعماريين البريطانيين جيمس ستوارت (١٧١٣ ـ ١٧٨٨) ونيقولاس ريفيت (١٧٢٠ ـ ١٨٠٤) ، ولم ينته القرن حتى كان الاحساس الحقيقي بالفروق بين العمارتين اليونانية والرومانية قد تجلّى . ثم حصل كشف آخر ، عندما وصلت منحوتات البارثنون الى لندن ، التي استوردها من اثينا اللورد الجين (١٧٦٦ ـ ١٨٤١) في أوائل القرن



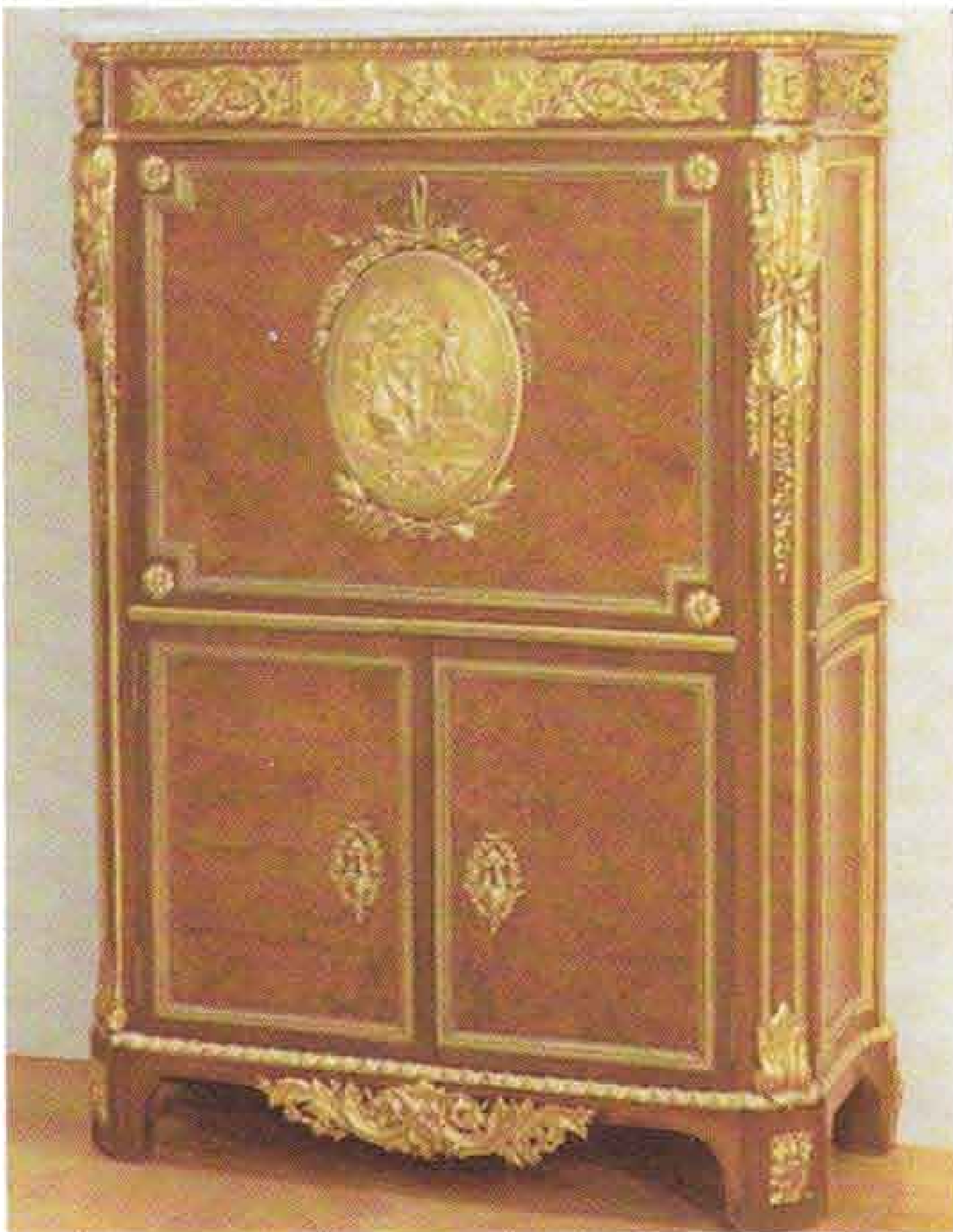
٦

(٦) ـ كان تأسيس المتاحف العامة في المدن الاوروبية الكبرى نتيجة من نتائج الكلاسيكية الجديدة . « فالمتحف القديم » في برلين (١٨٢٣ ـ ١٨٣٠) الذي بناه فريدريك شينكل (١٧٨١ ـ ١٨٤١) (ليضم المجموعة الفنية للدولة البروسية) هو شاهد هام على العمارة الكلاسيكية الجديدة .

(٧) ـ كانت « كنيسة القديسة جنيفياف » (وهي اليوم البانتيون) بباريس ، لجاك جيرمان سوفلو (بنيت ١٧٥٧ ـ ١٧٩٢) ، أول مبنى كلاسيكي جديد ضخم . وقد تأثرت ايضا بقبة كنيسة سانت بول ، بلندن .



٧



٨

(٨) ـ صنع هذه الخزانة ج . هـ . ريزنر (١٧٣٤ ـ ١٨٠٦) سنة ١٧٨٣ لماري انطوانيت على الطراز المعروف « بلويس السادس عشر » ، وهي تتصف بخطوط الكلاسيكية الجديدة .

التاسع عشر . فقد اثبتت هذه المنحوتات ان فن أعظم نحات يوناني ، وهو فيدياس ، لم يكن متماشيا مع « المثال الكلاسيكي » كما كان يفهم آنذاك . بل قام على شيء آخر أقرب الى البدائية والى الطبيعة .

المفهوم الجديد للقديم

انبثق عن ذلك مفهوم جديد « للقديم » قامت على اسسه الكلاسيكية الجديدة . لقد اصبح « القديم » الآن ما هو خشن وبسيط وساكن وذو خطوط خارجية صارمة وما يكاد يخلو ، في بابي النحت والرسم ، من الظلال والاجتزاء .

بقيت نقطة اخرى من اللغز موضع تساؤل ، وهي الجانب الخلقي . كان الاهتمام الشديد بهذا الجانب هو ما ألّب الكلاسيكيين الجدد في فرنسا ضد الروكوكو . فقد كان المصلحون الدينيون الفرنسيون شديدي الاعجاب بمثل الفضيلة المدنية عند الرومان والتجربة اليونانية في حقل الديمقراطية ، وعلى ضوء ذلك أخذ الروكوكو يبدو اسلوبا منحطا وعابثا مختصا بمجتمع منحط وعابث . فحصل تحرك قوي نحو الاستقامة البورجوازية وطغت موجة من المثالية الخلقية على الفن دامت حتى « الثورة الفرنسية » .

الكلاسيكية الجديدة في فرنسا

نتيجة لذلك ، وابتداء بحوالى ١٧٦٠ ، ظهرت في فرنسا ردة فعل ، تميل الى الخطوط البسيطة والزخرفة الصارمة المستمدة من النماذج الكلاسيكية ، وعلى وجه التخصيص اليونانية منها أحيانا ، وذلك في جميع الفنون ، فن العمارة والفنون التطبيقية اولا ، وربما بدرجة أقل فني الرسم والنحت .

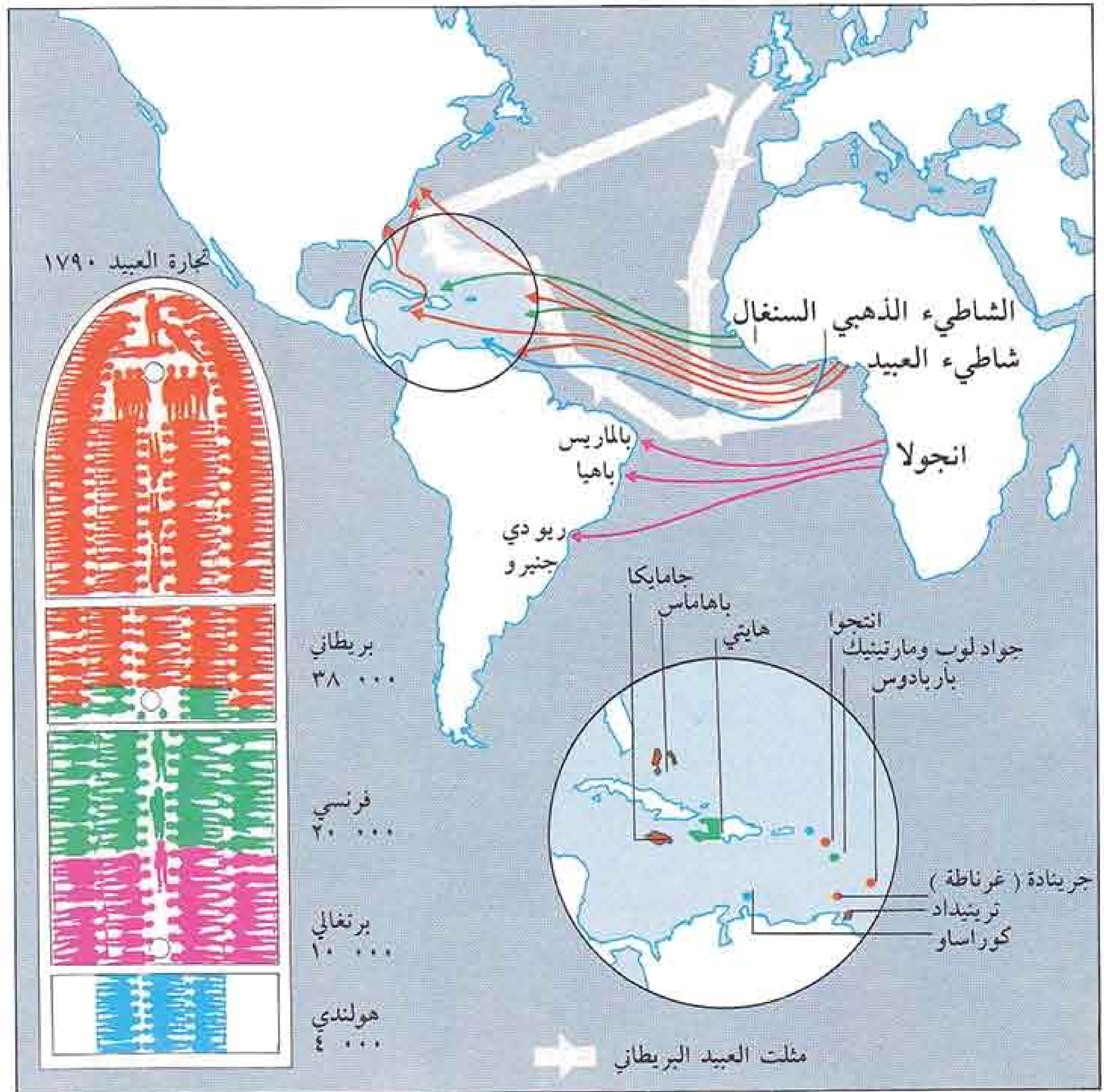
كان أول مبنى فرنسي هام يتجلى فيه هذا الاتجاه هو البانتيون بباريس ، الذي كان رومانيا أكثر منه يونانيا ، والذي صممه جاك جيرمان سوفلو (١٧١٣ - ١٧٨٠) في فترة باكرة ترجع الى ١٧٥٥ - ١٧٥٦ (٧) . ثم جاء كلود نيقولا ليدو (١٧٣٦ - ١٨٠٦) ، فطوّر بعد ذلك بعدد من السنين وفي حقل العمارة ، صنفا من الكلاسيكية الجديدة كان أكثر اصالة وأقرب الى الخيال . اما في حقل الرسم ، فلم يكن من السهل الاعتماد على السوابق الكلاسيكية ، اذ لم يبق منها الا عدد ضئيل . فجاء الحل في جعل الوسيط بين الحاضر والماضي أعظم جهابذة القرن السابع عشر الكلاسيكيين بوسان (١٥٩٤ - ١٦٦٥) ، الذي أثرت أعماله تأثيرا شديدا في جان لويس دافيد (١٧٤٨ - ١٨٢٥) الذي كان أول رسام كلاسيكي جديد ذي شأن والذي عرف كيف يمثل معا في لوحاته روح « الثورة » البطولية (٢) وعبقرية نابليون الجبارة . ثم جاء خلفه جان اوغيست دومينيك انجر (١٧٨٠ - ١٨٦٧) فطوّر شكلا من الكلاسيكية الجديدة .

مع ان اروع اللوحات والمباني الكلاسيكية الجديدة كانت فرنسية ، فقد كانت تلك الحركة عالمية ، بدليل ان اعظم نحات كلاسيكي جديد كان الايطالي انطونيو كانوفا (١٧٥٧ - ١٨٢٢) (٥) ، كما ان المعماريين الألمان طوّروا أهم التعابير المدروسة لهذا الأسلوب في أوائل القرن التاسع عشر . لم تكن الكلاسيكية الجديدة مجرد تطلع الى الوراء أو طور جمود وتحجر في تاريخ الفن ، بل كانت حركة تعكس التساؤل حول القيم السائدة في حقبة ثورية .

الاقتصاد الدولي ١٧٠٠ - ١٨٠٠

في غضون القرن الثامن عشر قويت العلاقات التجارية بين اوروبا وسائر أنحاء العالم بحيث غدت حيوية لرخاء عدد من الدول الاوروبية وتجارها وعمالها. تسنّمت بريطانيا العظمى مكانة بارزة في التجارة، فتفوقت على الهولنديين والاسبان والفرنسيين في الاتصالات والمعاملات التجارية مع الامريكتين وآسيا (٣). رافق ذلك في الوقت نفسه توسع تجاري عام، لاسيما في الأطلسي، ساهمت فيه بلاد أخرى وخصوصا فرنسا. حمل ذلك التوسع التجاري في ثناياه التخصص في النقل البحري والاعمال المالية، وكان حافزا لتزايد انتاج السلع المصنوعة في اوروبا.

١



(١) - سميت «بالطريق المثلثة» الطريق البحرية التي كانت تسلكها سفن العبيد، لأن تلك السفن كانت تقلع من الموانىء الاوروبية، مثل ليفربول وبريستول وبوردو، مبحرة الى افريقيا لجمع العبيد، ثم تعبر الاطلنطي لبيعهم، ثم تعود بشحنات التقايض بهم. كان القسم الاكبر من تجارة الرقيق يقع في اواخر القرن الثامن عشر على عاتق بريطانيا، لأنها كانت تمد المزارع في جزر الهند الغربية والامريكتين بالعبيد.

(٢) - نمت ثروة بريست على ساحل فرنسا الاطلسي وسواها من الموانىء الاطلسية، كبريستول وبوردو وليفربول، نموا عظيما، بفضل الارباح التي كانت تجنى من تجارة الرقيق والتجارة مع المستعمرات.

(٣) - اتسعت آفاق التجارة في القرن الثامن عشر، عندما اصبحت الاتصالات الاوروبية ببلدان كانت تعتبر غريبة عجيبة حتى ذلك التاريخ اكثر انتظاما. جرى تطوير مزارع الشاي في الصين لتلبية الولع بالشاي في بريطانيا، كما نشأت تجارة واسعة بالحرير والخزف والبهارات.

(٤) - كان النموّ الاقتصادي في جزر الهند الغربية يتوقف على مد متواصل من اليد العاملة السوداء الوافدة من افريقيا. ازداد عدد السكان من العبيد كما ازداد انتاج السكر لسد حاجة الاوروبيين اليه.

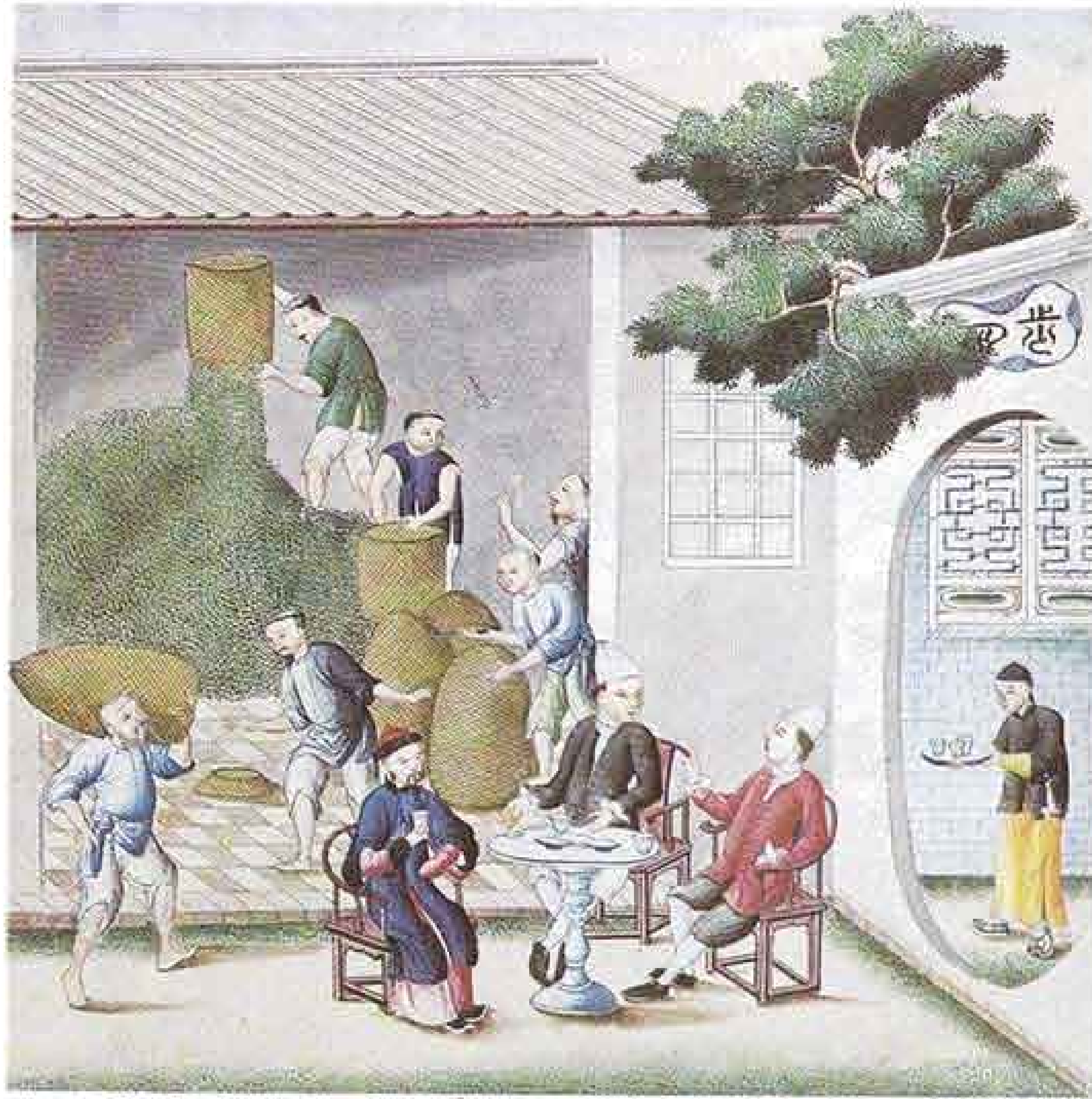
(٥) - تمّ توسع التجارة الاوروبية في انحاء العالم أبّان القرن الثامن عشر بفضل السفن الشبيهة بهذه السفينة المدججة بالسلاح التابعة لشركة الهند الشرقية.

الحوافز على التوسع التجاري

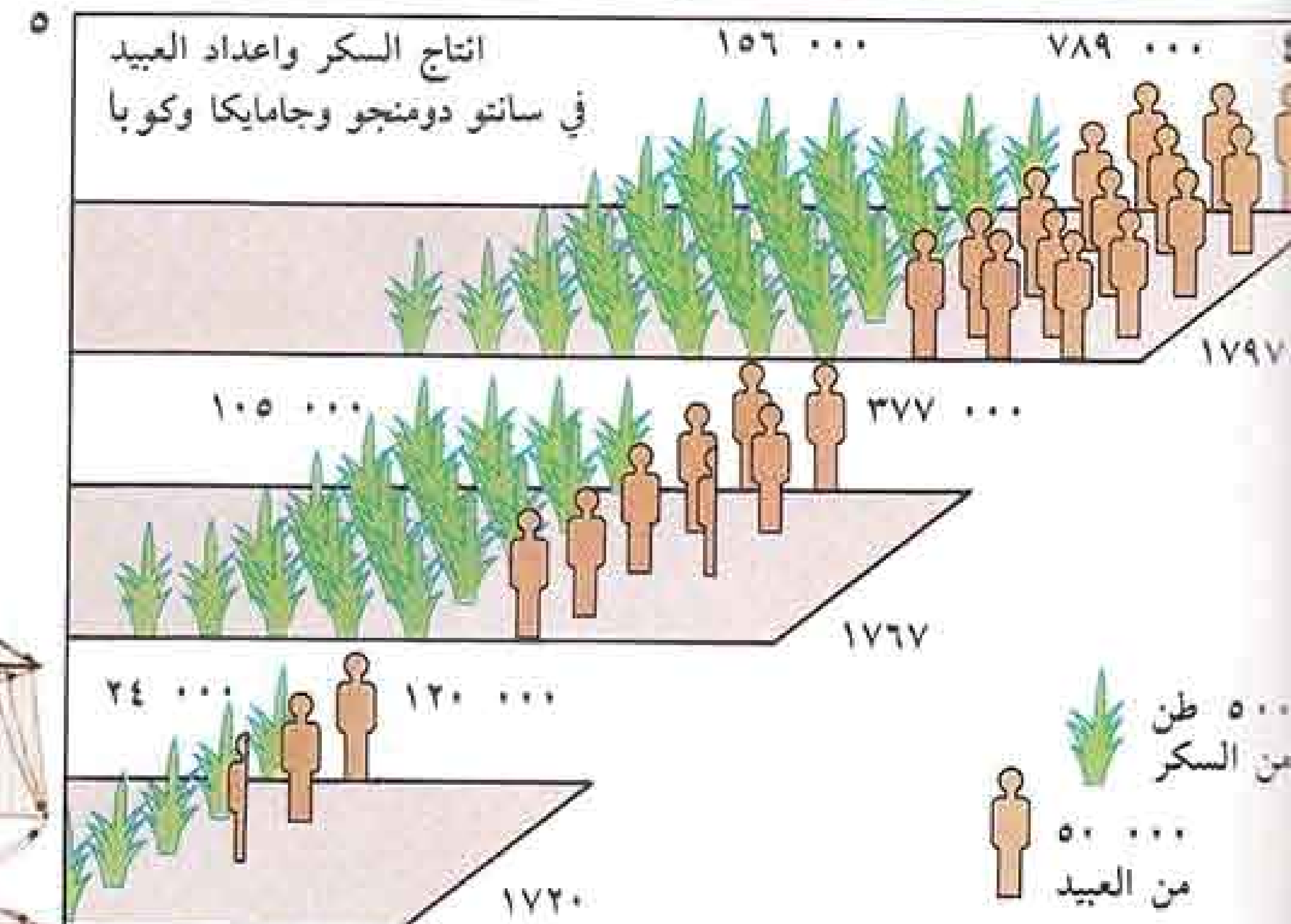
كان من نتائج اتساع النفوذ الاوروبي في السنوات التي سبقت ١٧٠٠ ان دخلت الى اوروبا طائفة كبرى من المنتوجات الثمينة والاستوائية التي كانت تشكل السلع الاساسية للتجارة خارج اوروبا . فسبائك الذهب والفضة كانت احدى مقومات التجارة الرئيسية للامبراطورية الاسبانية المتداعية ، ولكن هذه التجارة شملت ايضا البهارات والتبغ والقهوة والسكر والكاكاو . وكان من شأن الطلب المتزايد للمنتوجات الاستوائية في اوروبا انه حفز التجار على ركوب أخطار الرحلات البعيدة الى ما وراء البحار ، فبذل تجار بريطانيا وفرنسا مثلا ، اللتين دخلتا السوق الاستعمارية متأخرتين ، مجهودا اكبر في غضون القرن الثامن عشر للحصول على قسم من التجارة التي كانت تتحكم بها الامبراطوريات الاستعمارية القديمة .

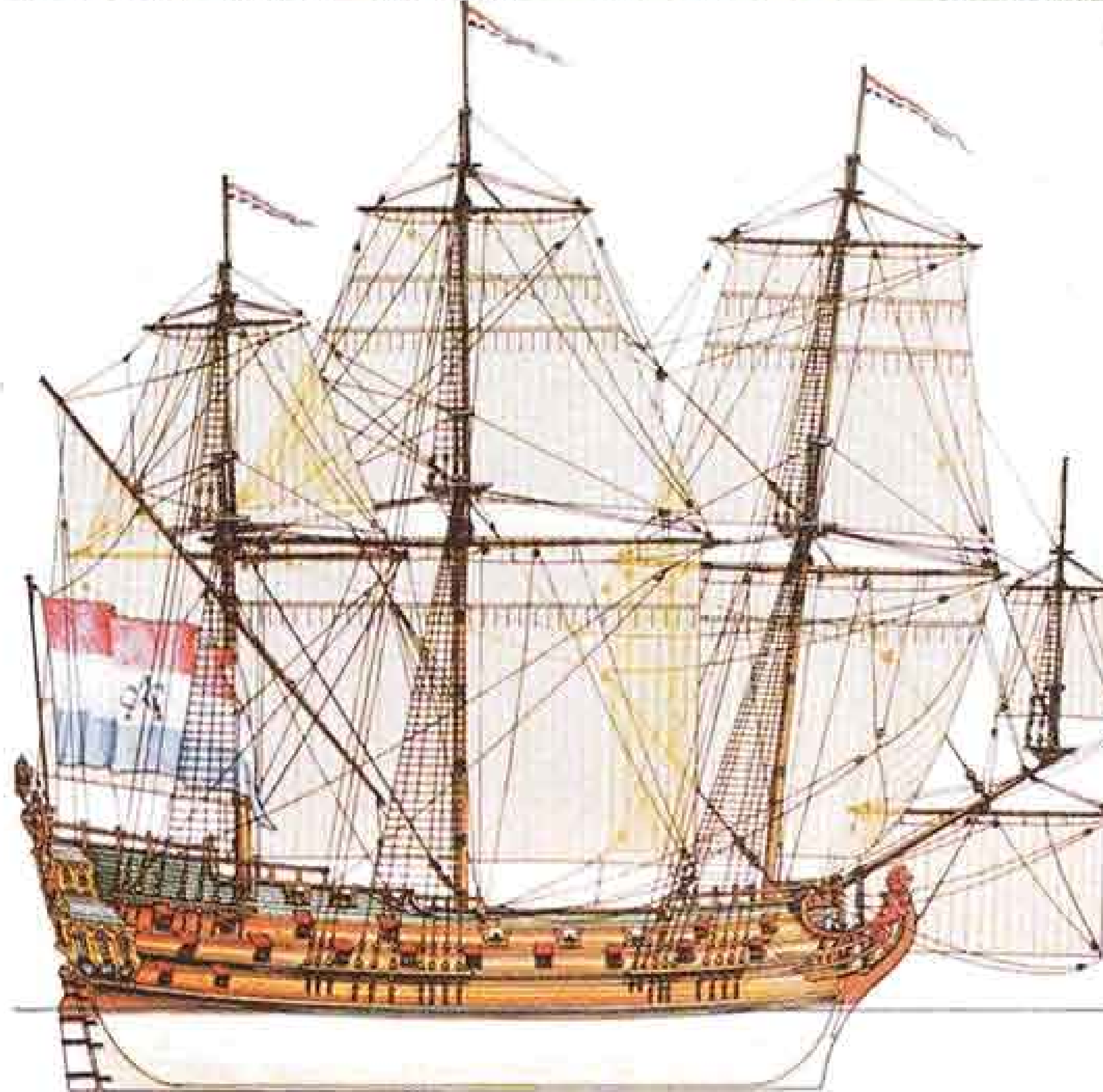
٣





٥





كذلك خاضت الدول الاوروبية الاخرى غمار حروب تجارية عدة لفتح اسواق الامبراطورية الاسبانية المتداعية امام تجارتها. وفي سنة ١٧١٥، حصل التجار البريطانيون، بفضل معاهدة ازينتو، على رخصة لتسليم ٤٨٠٠ عبد للمستعمرات الاسبانية سنويا، كما سمح لسفينة واحدة من سفنهم سنويا بالمتاجرة مع باناما. في جميع الميادين الأخرى، حاولت اسبانيا الابقاء على تجارتها مع المستعمرات مقفلة أمام الاجانب. ولكن لما كانت اسبانيا عاجزة عن تأمين جميع حاجات مستعمراتها، كثرت المتاجرة غير الشرعية، لاسيما بالعبيد والسلع المصنوعة. لكن بعد «حرب السنوات السبع» (١٧٥٦ - ١٧٦٣)، خفت حدة هذه الرقابة الصارمة، فاستولت بريطانيا وفرنسا على جزء كبير من التجارة الاسبانية الامريكية.

على غرار ذلك، استولت السفن

٦


(٦) - كان التهريب في القرن الثامن عشر طريقة شائعة لتجنب دفع الضرائب الباهظة المفروضة على بعض السلع، كالكحول والخمور والتبغ. شن رجال الجباية حربا سجالا على المهربين في عدة أنحاء من اوروبا، لاسيما في المناطق النائية.

٧


(٧) - صوّر المضاربة والجشع والغش هزليا الناقد الاجتماعي وليم هوجارت (١٦٩٧ - ١٧٦٤) سنة ١٧٢٠، عندما أدّى تغيير الحكومة الى انهيار «شركة البحر الجنوبي» تحت عبء المنافسة القوية. كانت اوضاع المؤسسات المالية والمصارف في القرن الثامن عشر غير مستقرة في الغالب، وذلك من جهة لأن الحكومات كانت تميل الى الاستدانة منها، ومن جهة ثانية لأن أصحاب الودائع كانوا عرضة للارتعاب بسرعة.

٨


(٨) - ساهمت المؤسسات المالية الاسبانية، التي تأسست في القرن السادس عشر، في التوسع العظيم الذي طرأ على التجارة الاوروبية في القرن الثامن عشر. هذا الصك الذي يحمل تاريخ ١٧٥٩ صادر عن «الشركة الملكية للتجارة»

البريطانية والهولندية على حصة متزايدة من التجارة البرتغالية . كان الهولنديون في الشرق قد وضعوا يدهم ، فيما قبل ، على قسم كبير من الامبراطورية البرتغالية القديمة ، ومن مواقعهم في سيلان والبنجال ومالا بار وباتافيا امتد نفوذهم حتى اليابان . نظموا شؤونهم بواسطة شركة الهند الشرقية الهولندية ، التي كانت قاعدتها في باتافيا بجاوة ، وتاجروا تجارة رابحة بالبهارات والقهوة والحرائر .

النفوذ الفرنسي والبريطاني

كان لفرنسا مستعمرات في امريكا الشمالية تشمل كويبك ولويزيانا ، وفي جزر الهند الغربية تشمل غوادلوب ومارتينيك . وكانت فرنسا تحكم ايضا السنغال في افريقيا ، ومدغشقر وجزر الموريس في المحيط الهندي ، كما احتفظت لها في الهند بمواقع تجارية مهمة ، في بونديشري وشاندرتاجور . انطلاقا من هذه المستعمرات والمراكز ، نمت التجارة الفرنسية بسرعة في أواخر القرن الثامن عشر ، لاسيما مع جزر الهند الغربية . لكن بعد « حرب السنوات السبع » . خسرت فرنسا كويبك ، وقسما كبيرا من نفوذها في الهند . بالرغم من ذلك ، حملتها تجارتها الواسعة مع باقي مستعمراتها الى توسيع موانئها الكبرى ، كبوردو ونانت وبريست (٢) ، كما ازدهرت مارسيليا نتيجة لتجارتها مع الشرق الادنى .

أما الدولة التي بزت سواها في حقل التجارة العالمية في منتصف القرن ، فكانت بريطانيا العظمى ، التي كانت تنقل كل تجارة مستعمراتها في سفن مسجلة ببريطانيا. وعلى الرغم من خسارة مستعمراتها الامريكية الشمالية ، فقد استمرت تجارتها على تقدم مع كلا الامريكتين ، ان من خلال الشركات المسجلة ، كشركة هدسون ، او من خلال المتاجرة الحرة . كذلك ازدهرت تجارة الرقيق اللاانسانية ولكن الضخمة الارباح برعاية البريطانيين بالدرجة الاولى في اواخر القرن ، ودرّت « الطريق المثلثة » (١) بين بريطانيا وافريقيا والامريكتين ارباحا طائلة سببت ازدهار المدن التجارية الكبرى كلندن وليفربول وبريستول . كان يلي تجارة الرقيق من حيث الأهمية تجارة السكر (٤) ، الذي كان يعاد تصديره ، مع منتوجات استوائية اخرى ، الى القارة الاوروبية .

الحافز على التصنيع

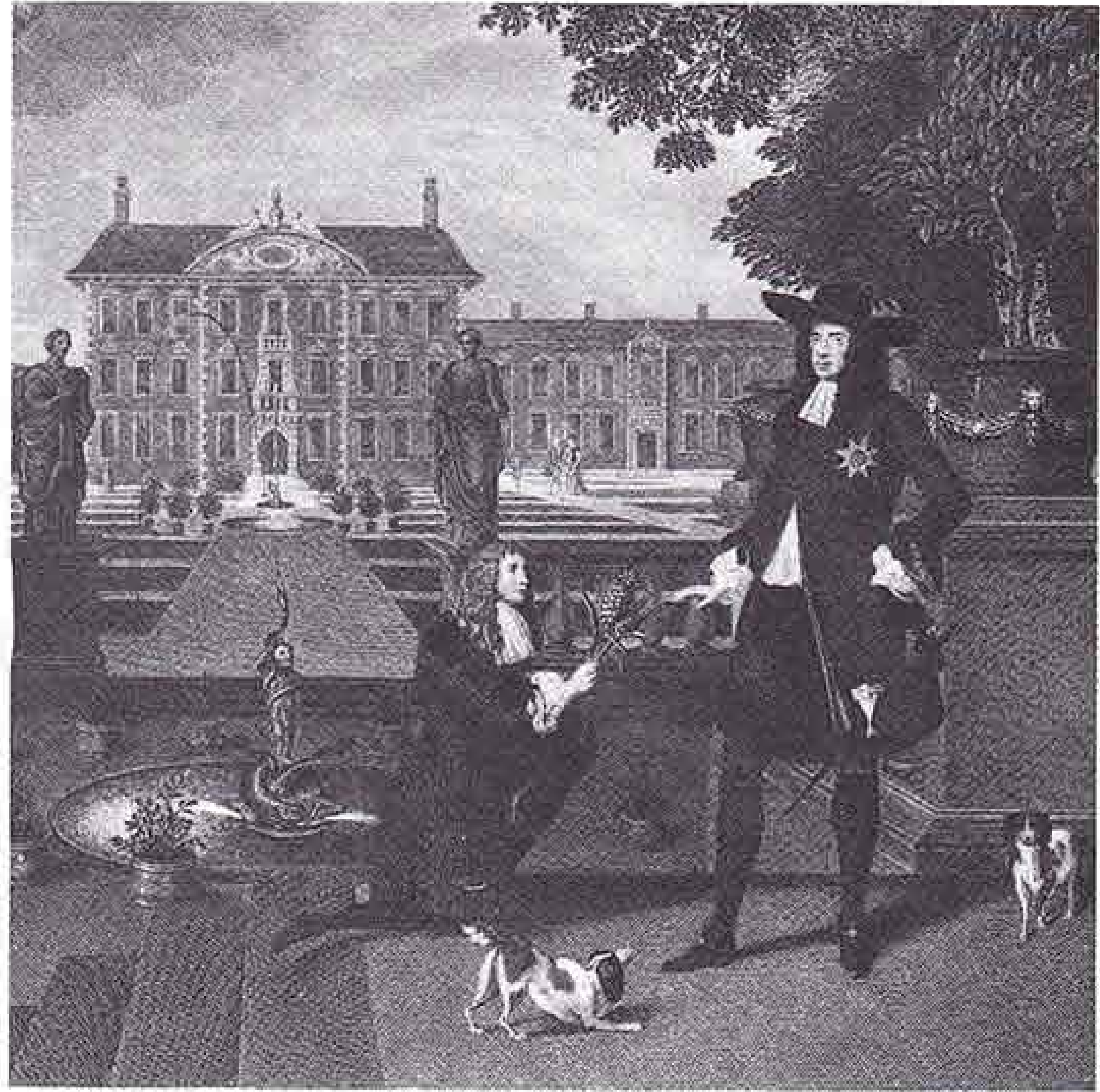
أدى التوسع في التجارة الى تصاعد النقل التجاري البحري والى نشوء مؤسسات مالية ومصارف أكثر تنوعا وأشد مرونة . في لندن ، بدأت شركات التأمين البحري ، مثل لويد ، تحل محل الهولنديين . وأدى نمو التجارة المستمر الى زعزعة الافكار المركنتيلية القديمة المتعلقة بالشركات الاحتكارية .

نتيجة لذلك الازدهار التجاري ، نمت صناعات في عدد من البلدان لتحسين المنتجات الاستوائية او تصنيعها واعادة تصديرها كسلع مصنعة ، اما الى بلدان اوروبية اخرى ، او الى المستعمرات ذاتها . فظهرت صناعات تكرير السكر والدباغة والتقطير ، فضلا عن نشاطات صناعية كثيرة اخرى . لكن أبرز تطور تمّ في أواخر القرن الثامن عشر كان التزايد الكبير في تصدير القطن الخام من بلدان امريكا الجنوبية الى مراكز صناعة المنسوجات في بريطانيا .

السياسة البريطانية الاستعمارية في القرن الثامن عشر

بدأ الاشتكشاف البريطاني الجدي في ما وراء البحار في القرن السادس عشر ، وأرسيت قواعد « المستعمرات الثلاث عشرة » في امريكا الشمالية في عهد شارل الثاني (١٦٦٠ - ١٦٨٥) (١) . مع ذلك ، يحدد عادة تاريخ الامبراطورية البريطانية الحديثة ابتداء بمعاهدة اوتريخت (١٧١٣) . فقد اعطت هذه المعاهدة بريطانيا بعض المكاسب البسيطة في البحر الكاريبي ، وتنازلت فرنسا الى انجلترا عن مطالبتها بنيوفاوندلند ونوفاسكوتيا، وتخلت اسبانيا عن جبل طارق ومينوركا لبريطانيا ، وأهم من ذلك ، حولت اليها « الازينتو » ، اي الحق في تزويد المستعمرات الاسبانية بالعبيد ، مع الحق في

١



٢

٣

(١) - تقديم اول جوزة اناناس زرعت في انجلترا الى شارل الثاني يعطينا دليلا طريفا على التغير الذي حدث في عادات البريطانيين في تناول الطعام بعد استعمار العالم الجديد . فقد ادخل الى بريطانيا في اواخر القرن السادس عشر ، الذرة التي يبلغ محصولها عشرة اضعاف محصول القمح ؛ البطاطا التي تنمو بغزارة في تربة سيئة والتي ساهمت في احداث الانفجار السكاني في ايرلندا ، اللوبياء واليقطين . مع ذلك ، لم تؤد زراعة هذه الأنواع على نطاق واسع الى تحسين يذكر في طعام الفلاحين قبل حلول القرن الثامن عشر . ففي هذه الفترة الباكرة ، كان الهدف من المستعمرات تأمين منفعة الوطن الأم ، لا جعلها بلدانا مستقلة اقتصاديا .

(٢) - سنة ١٧٣٩ هاجم اسطول انجليزي بورتو بلو ، وهو ميناء اسباني واقع في شبه جزيرة كولون بباناما . كانت اسبانيا في منتصف القرن السابع عشر آخذة في التقهقر كدولة استعمارية ، وكانت بريطانيا حريصة على جعل فرنسا ، المنافسة الرئيسية على الممتلكات الاسبانية ، عاجزة عن السيطرة على أهم المستعمرات الاسبانية . في تلك الاثناء ، كان استيراد السبائك من العالم الجديد قد

الحروب بينها وبين فرنسا انتهت بانتصار ولنجتون في واترلو (١٨١٥) . في القرن الثامن عشر ، كان من المعروف ان التجارة مصدر القوة ، فنشبت الحروب الانجليزية الفرنسية للسيطرة على التجارة العالمية ، لاسيما المتاجرة بالعبيد والسكر .

ارسال سفينة واحدة سنويا للمتاجرة مع تلك المستعمرات .

التنافس الانجليزي الفرنسي

قبل قرن من ذلك ، كانت سلطة اسبانيا آخذة في الزوال ، فلم يبق بعد ١٧١٣ من كبار المتنافسين سوى فرنسا وبريطانيا . وخلال القرن التالي اصبحت بريطانيا اعظم دولة استعمارية في العالم بفضل سلسلة من

قامت الامبراطورية البريطانية في القرن الثامن عشر على « التجارة المثلثة » . فقد كانت السفن البريطانية تحمل السلع

توقف الى حد كبير، وكان السكر هو المحصول النفيس الذي من أجله كانت الدول الاوروبية تتصارع على البحر الكاريبي .

(٣) - جمع بعض البريطانيين ثروات طائلة نتيجة لعملهم في خدمة « شركة الهند الشرقية » . كان هؤلاء يعيشون عيشة الفخفخة في الهند ، ويشترون المقاعد في البرلمان طلبا للنفوذ السياسي .



(٤) - اسقط سكان نيويورك تمثال جورج الثالث ، تدليلا على ثورتهم على بريطانيا . لكن خسارة المستعمرات الامريكية لم تكن تعني بالحقيقة سوى اعادة اتجاه الامبراطورية البريطانية شطر الهند ثانية . مع ذلك ، لم تلبث تجارة بريطانيا مع الولايات المتحدة الامريكية نفسها ان تصاعدت .



(٥) - احتل جبل طارق للمرة الاولى سنة ١٧٠٤ ، واصبح مستعمرة بريطانية بموجب معاهدة اوتريخت (١٧١٣) . انضمت اسبانيا الى فرنسا والولايات المتحدة الامريكية في الحرب ضد انجلترا سنة ١٧٧٩ ، وحاصرت تلك المستعمرة طيلة أربع سنوات . حاول جورج الثالث ان يقايض جبل طارق بمستعمرات اسبانية في امريكا ، ولكن « صلح باريس » (١٧٨٣) جعل بريطانيا تتخلى عن فلوريدا الشرقية والغربية لاسبانيا وتحتفظ بجبل طارق .

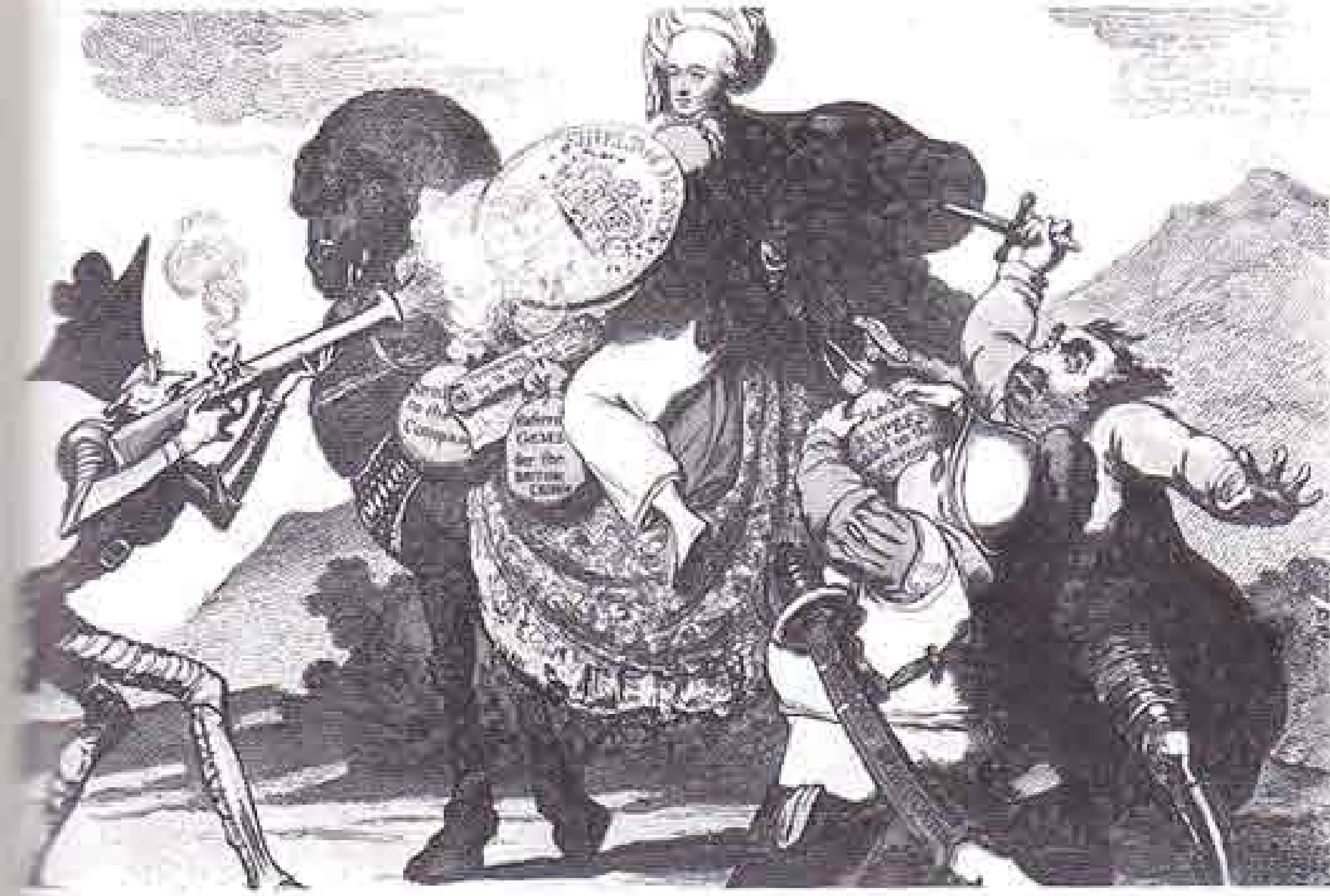
المصنوعة الى افريقيا ، فتستبدل بها العبيد (٨) ثم كانت تبحر بهم الى جزر الهند الغربية والمستعمرات الامريكية الجنوبية حيث كانت تبيعهم لتعود الى قواعدها محملة شحنات من السكر والتبغ والقطن الخام . وبحلول ١٧٥٠ ، لم يكن ثمة مدينة تجارية او صناعية واحدة بانجلترا الا ولها صلة بتلك التجارة . وقد نقل ، بين ١٦٧٠ و ١٧٨٦ ، ما يربو على مليوني عبد من افريقيا الى المستعمرات البريطانية .

كان الاقتصاد الاستعماري يدار على اساس المبدأ القائل بان المستعمرات تقدم المواد الخام الى البلد الأم وتتلقى منها بالمقابل سلعا مصنوعة . طبق هذا النظام بدقة بفضل قرار الملاحة الصادر سنة ١٦٦٠ والقاضي بأن تنقل البضائع بين بريطانيا والمستعمرات في سفن بريطانية الصنع يديرها ملاحون بريطانيون . وكان على

٦



٧



٨



(٦) ـ ازدهر ميناء بريستول نتيجة لاحتكاره الكامل تقريبا لتجارة الرقيق مع جزر الهند الغربية ، اثناء وزارة والبول . لما كان عدد سكانها يبلغ حوالى ٥٠٠٠٠ ، فقد كانت بعد لندن ثاني اكبر مدينة في بريطانيا في القرن الثامن عشر .

(٧) ـ بدأت سنة ١٧٨٨ محاكمة وارين هاستينج بتهمة الفساد واساءة معاملة السكان الاصليين عندما كان حاكما على البنغال (١٧٧٢ ـ ١٧٨٥) . استمرت المحاكمة سبع سنوات ، وانتهت بتبرئة هاستينج .

(٨) ـ أقيمت مستوطنات تأديبية في المستعمرات الجديدة في استراليا في اواخر القرن الثامن عشر . فأرسل اوائل المساجين من بريطانيا الى ويلز الجديدة سنة ١٧٨٨ والى « أرض فان ديمان » (تاسمانيا) ، الظاهرة في الصورة سنة ١٨٠٣ . كان السجين ينقل عادة للاقامة مدى الحياة في استراليا ، ويسمح له في احيان كثيرة ان يستقر في المستعمرة . في تلك الحقبة ، كان ثمة أكثر من مائة جريمة بانجلترا من شأنها أن تستدعي عقوبة الاعدام .

المنتوجات المتجهة نحو البلدان الاجنبية ان تمر بميناء بريطاني . ثم ان هذه التجارة مع الاسواق المحمية في المستعمرات الامريكية كانت ايضا بالغة الأهمية للصناعة البريطانية التي كان عليها ان تجد لها اسواقا جديدة على أثر فوز تلك المستعمرات باستقلالها . كانت بريطانيا قد حالت دون نمو الصناعة في المستعمرات ، فدفعت بذلك شعوب تلك المستعمرات الى المطالبة بالاستقلال .

هزيمة الفرنسيين

قبل أن تبدأ « الثورة الامريكية » ، أحرزت بريطانيا ، بزعامة وليم بيت (١٧٠٨ ـ ١٧٧٨) ، الذي عرف فيما بعد بايرل تشاتام ، انتصارا ساحقا في فرنسا في حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) . خاضت بريطانيا هذه الحرب لبلوغ هدفين : السيطرة على البحار والاستيلاء على المواقع التجارية الفرنسية . لكن الحرب لم تلبث ان امتدت الى اوروبا والهند وجزر الهند الغربية وكندا . ضمن انتصار ولف في كوبيك (١٧٥٩) لبريطانيا (٢) سمك كندا وفراءها وخشبها . وأدت انتصارات ايركوت (١٧٢٦ ـ ١٧٨٣) وروبرت كلايف (١٧٢٥ ـ ١٧٧٤) في الهند الى اخضاع البنغال لحكم شركة الهند الشرقية.

بريطانيا والهند

سنة ١٧٧٦ ، وهي السنة ذاتها التي ولدت فيها الأمة الامريكية ، اشتدت السيطرة البريطانية على الهند . في مطلع ذلك القرن ، لم يكن في الهند بكاملها أكثر من ١٥٠٠ تاجر انجليزي كانوا محتشدين مع عائلاتهم في موانىء مدراس وكلكوتا وسورات وبومباي . كانوا منصرفين فقط الى كسب المال ، ولم يبالوا بالتوغل الى داخل البلاد او بمصير بريطانيا كحاكمة لشعب البلاد الاصلي . الا ان صراعا نشأ بينهم وبين الفرنسيين الذين كانوا قد وطدوا اقدامهم في مينائي بونديشري وشاندرناغور وبقي مستعرا طيلة النصف الاول من القرن .

في نهاية « حرب السنوات السبع » ، كانت بريطانيا قد فازت بالسيطرة على الهند . الا ان تلك المنطقة كانت ما تزال خاضعة لادارة « شركة الهند الشرقية » التي كانت تحاول باستمرار ان تحكم قبضتها على البنغال بممارسة جباية المكوس وتولي القضاء . لكن الثروة التي جمعتها من الفلاحين الهنود (٣) وقسوة ادارتها القضائية أثارتا الانتقاد في الوطن الأم ، وأدتا الى تلك الفضيحة السياسية الكبرى في ذلك القرن ، وهي محاكمة وارين هاستينج (١٧٣٢ ـ ١٨١٨) (٧) ، كما كانتا من اسباب صدور قانون الهند لعام ١٧٨٤ . بحلول ذلك التاريخ ، كانت سيطرة شركة الهند الشرقية على البنغال قد امتدت الى معظم انحاء شبه القارة ، وذلك في عهد الحاكمين شارل كورنواليز (١٧٣٨ ـ ١٨٠٥) وريتشارد وليزلي (١٧٦٠ ـ ١٨٤٢) . لكن في هذه الظروف بالذات ، بدأ الحد من سلطة الشركة باسناد ادارة جميع الاراضي الهندية اليها ، اذ عهد اليها بادارة الهند شرط الاشتراك مع دائرة ملكية ، هي مجلس الرقابة .

قامت فرنسا بمحاولة بطولية أخيرة بقيادة نابليون لاستعادة مركزها بوصفها الدولة العالمية الكبرى ، ولكن ذلك انتهى بانتصار ولنجتون في واترلو سنة ١٨١٥ .

الهند من عهد المغول الى ١٨٠٠

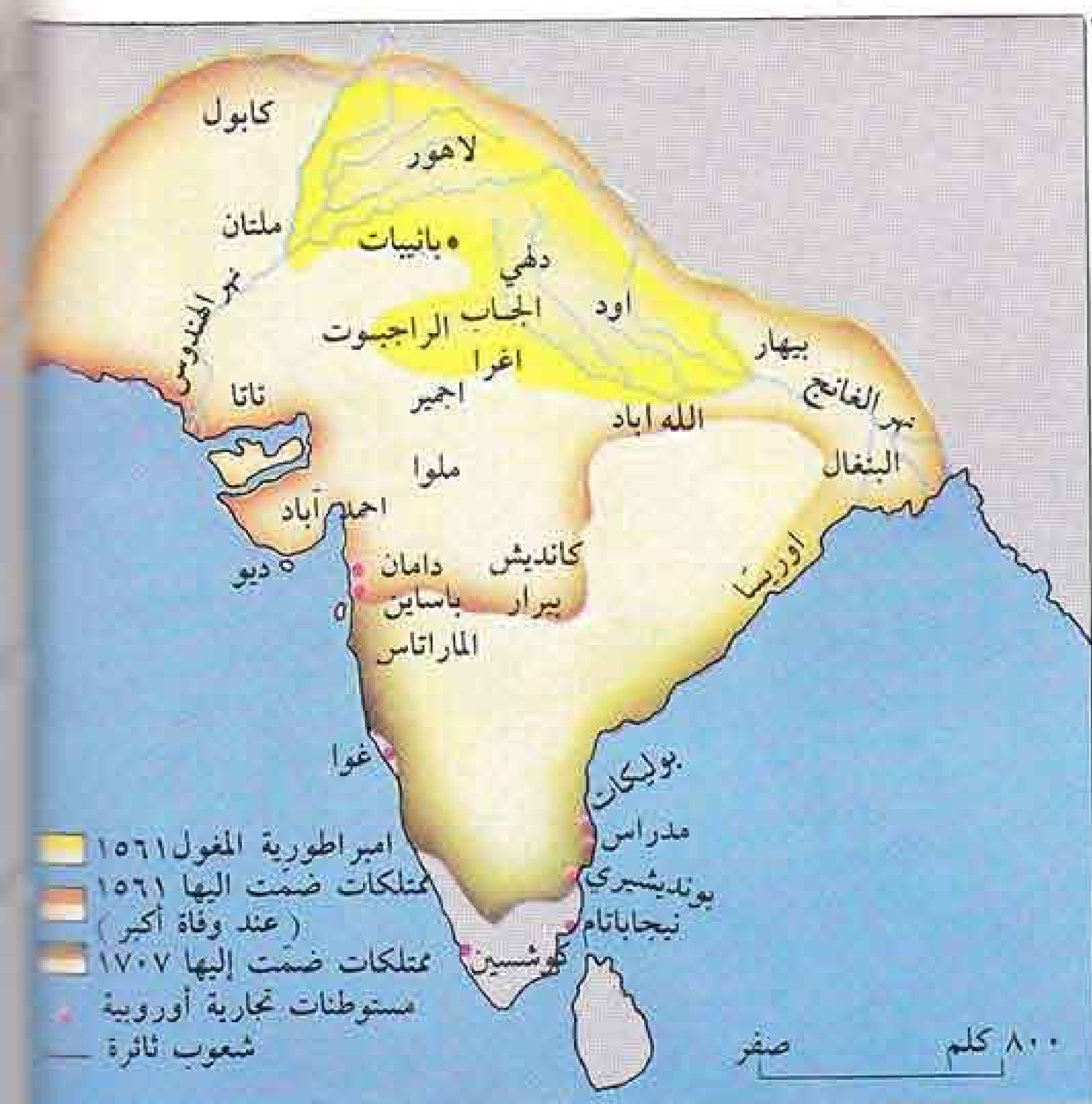
سنة ١١٩٢ ، قضى محمد الغوري على امراء راجبوت في تارين . وفي السنوات العشر اللاحقة اجتاح المسلمون سهول الغانج واسسوا سلطنة دلهي (١٢٠٦) ، وكان ذلك ايذانا ببداية سيطرة اسلامية على الهندستان (الهند الشمالية) دامت حتى أوائل ١٧٠٠ .

شهدت القرون الثلاثة اللاحقة ظهور وزوال عدد من سلالات الافغان الترك ، والخلجيين والتغلقيين والأسياد واللوديين ، التي امتدت في ظلها كلها امبراطورية دلهي حتى الدكن والجنوب (كما جرى في عهد علاء الدين الخلجي المصاب بداء العظمة أو في عهد محمد بن تغلق ، أعظم هؤلاء السلاطين) ، او تقلصت أحيانا حتى الأقاليم

١



٢



(١) - تبدو على الخريطة سلطنة دلهي لدى وفاة ايلتتمش (١٢٣٦) ، وبعد ذلك بمائة سنة في عهد محمد بن تغلق (١٣٢٥ ؟ - ١٣٥١) حين بلغت اوسع مدى لها . من هنا يتبين لنا ان السلالات الاسلامية كانت تهيمن على الهند الشمالية طيلة قرون قبل المغول ، وانها حاولت ، على ما يبدو ، ان تسيطر ايضا على الدكن وجنوب الهند ، ولكن نجاحها هذا كان مؤقتا .

(٢) - تظهر هذه الخارطة نشأة الامبراطورية المغولية والدلائل الباكرة على انهيارها . بحلول ١٥٦١ ، كان اكبر قد بنى امبراطورية مغولية موحدة في شمالي الهند ، وبحلول ١٧٠٧ ، لدى وفاة اورونجزيب ، كانت الامبراطورية المغولية قد بلغت حدودها القصوى . الا ان فئات الراجبوت والجات والماراثا كانت قد ثارت ، كما ان الدول الاوروبية البحرية ، التي كانت مقبلة على وراثة المغول ، كانت قد بلغت السواحل الهندية واحتلت بعضها .

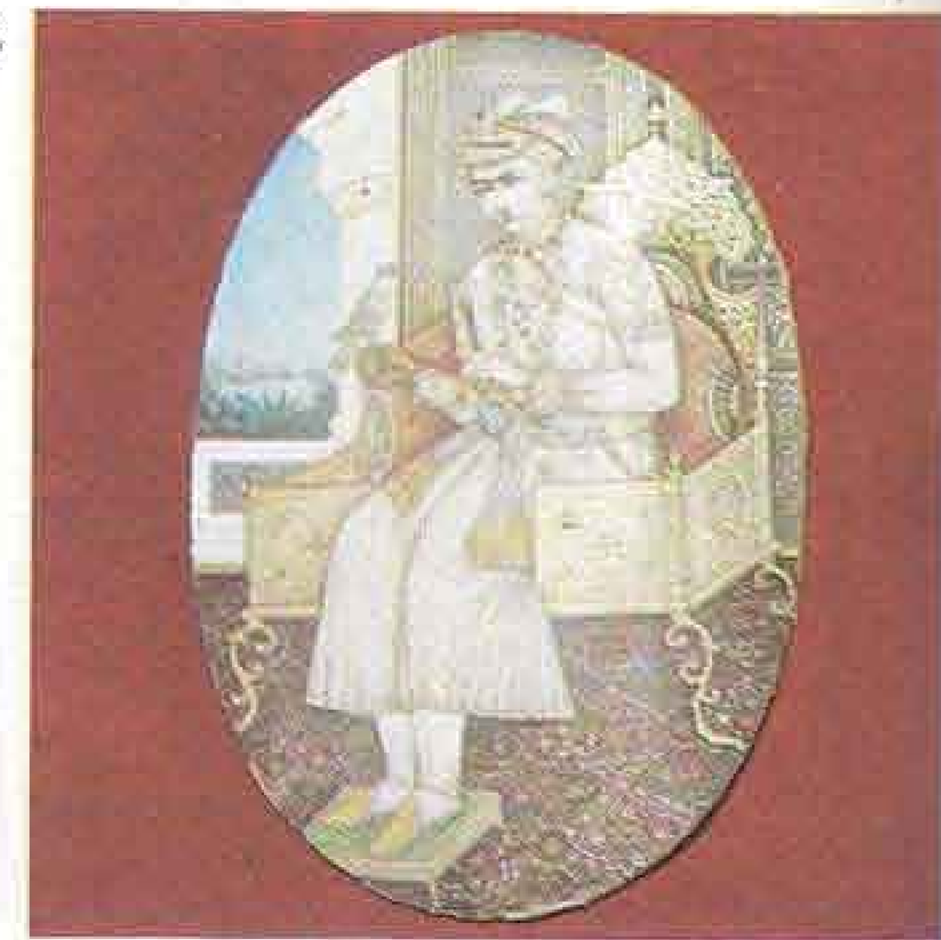
(٣) - كان اكبر (ملك ١٥٥٦ - ١٦٠٥) ، وهو أشهر امبراطور مغولي ، معاصرا تقريبا للملكة اليصابات الاولى . وسع رقعة الممتلكات المغولية كثيرا ، وأقام فيها نظاما فعالا من الحكم ، وسعى الى ايجاد مصادر جديدة للعمل . حاول هذا الامبراطور ، في حرصه على مسالمة رعاياه البراهمة والحد من التحمس الاسلامي ، ان يستحدث في الهند دينا جديدا يوفق بين المعتقدات المختلفة ، فلم يكتب له النجاح .

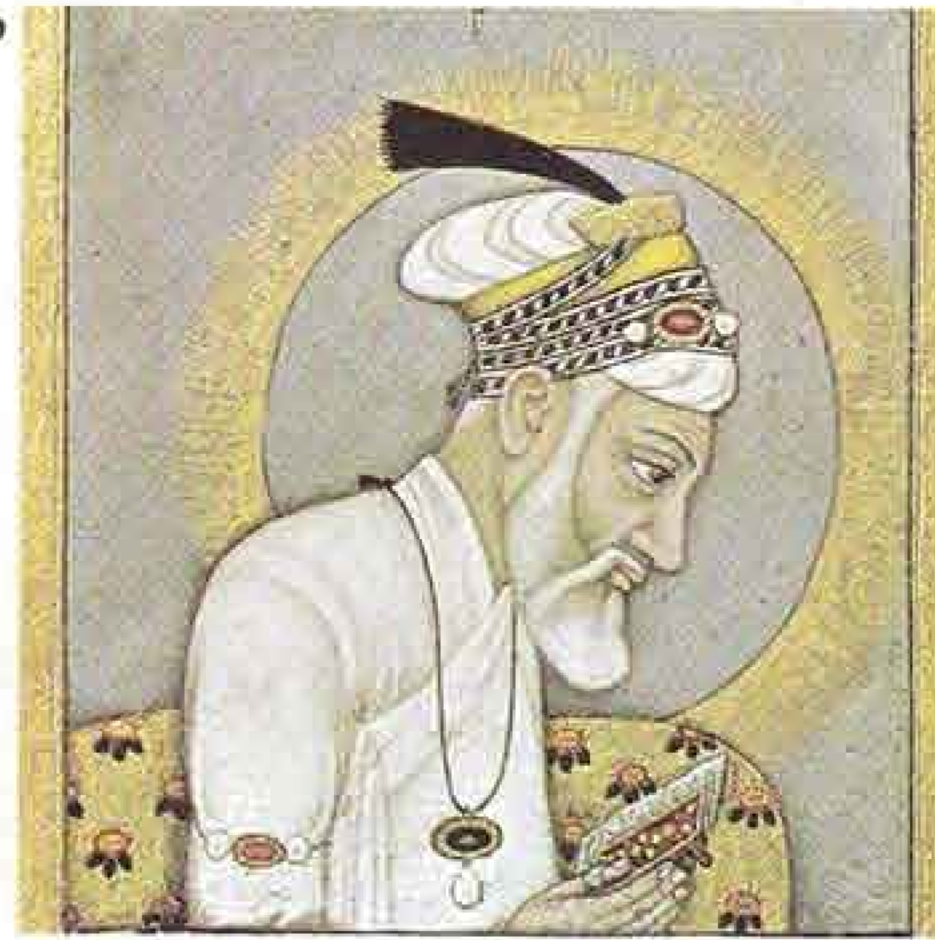
(٤) - بلغت الامبراطورية المغولية ، في عهد اورونجزيب (ملك ١٦٥٨ - ١٧٠٧ ؟) أوسع رقعة لها ، من كابول حتى كوفري . الا ان الامبراطورية التي خلفها لم تدم طويلا بعد السنوات الخمس لحكم ابنه .

الضيقة المحيطة بدلهي واجرا (كما جرى في عهد اللودبين) (١) .

استمرت الاقاليم تتحدى العاصمة . فكانت الحملات تتوالى من الشمال (وكان اعنف شاهد عليها تدمير تيمور لدلهي سنة ١٣٩٨) وتهدد الامبراطورية ، وبقيت دلهي عاجزة عن السيطرة على مناطق الدكن .

لكن قيض لقوتين اثنتين جديدتين ان تغيرا الاوضاع القديمة : الحكم المغولي والتوسع الاوروبي . ففي عام ١٥٢٦ ، سحق بابر (١٤٨٣ - ١٥٣٠) ، المطرود من معقله الجبلي في فرغانة ، اللوديين في بانيبات ووطد حكم المغول في دلهي . وقبل ذلك بمدة ، أي في عام ١٤٩٨ ، كان المستكشف البرتغالي فاسكو دي غاما قد نزل في ميناء كلكوتا ، فكان طليعة عدد من الدول الاخرى التي قدمت بحرا من اوروبا واصبحت مع مرور الزمن وريثة للمغول .









فقد غذى هذا ، بتعصبه الديني ، بذور الشقاق التي لم تكن معدومة قط ، واغضب جماعة راجبوت التي كانت الدعامة العسكرية للامبراطورية ، وفتح الدكن بكلفة باهظة دون ان يتمكن من توحيدها ، وأهمل هندستان ، وحارب الماراثا في الجنوب .

(٥) - كانت ثروة « شركة الهند الشرقية » في اواخر القرن السابع عشر والثامن عشر مبنية على تصدير القطن الذي كانت تحيكه بالنول اليدوي بينما كانت خيطانه تحاك في جميع انحاء الهند على دولاب الحياكة الذي يبدو في الصورة . شهد القرن التاسع عشر تدهور الحياكة والنسيج القرويين ، فأصبحت الهند اضخم سوق لمنسوجات لانكشير القطنية . في القرن العشرين أعاد غاندي احياء النول اليدوي .

(٦) - سنة ١٧٦٥ ، منح شاه عالم الثاني حق جباية الخراج على الاراضي (الديواني) لكلايف الذي كان قد اصبح السيد الحقيقي للبنغال الا ان « المغول » بقي ، حتى بعد ان اصبح عاجزا سياسيا في هذه الحقبة ، مصدرا للشرعية في التصديق على سلطة الشركة في البنغال ، وهو ما يدل على روح المحافظة في السياسة الهندية .

الامبراطورية المغولية

بسط حكام المغول العظام ، بابر وهمايون وشيرشاه ، ولاسيما أكبر (٣) واورونجزيب (٤) ، سلطتهم على مساحة من الهند في امبراطورية واحدة كانت اوسع مما استطاع اي حاكم آخر منذ عهد اشوكا في القرن الثالث قبل الميلاد ان يفعله ، وانشأوا فيها ادارة أشد تعقيدا مما كان قائما من قبل . الا ان المغولي الكبير ، الذي كان يجلس على عرشه الطاووسي ، وقد احاطت به حاشية كبرى من رجال البلاط والجواري والعبيد والاعداد الضخمة من الفيلة والجمال ، وتدعمه قوة من الخيالة البالغة ٢٠٠٠٠٠ رجل ، كان مع ذلك قد بنى امبراطوريته على أساس واه ، فقد كان الحكم المغولي حكما اجنبيا ، وكان باهظ التكاليف ، كما كان قد بني على الانتصار العسكري ، ولم يكن بالتالي من السهل المحافظة عليه بالقوة وحدها . لذلك

٨

٧



٩



(٨) ـ كانت المستوطنة الانجليزية في قلعة القديس جورج بمدراس من اوائل المستوطنات في الهند ، وقد انشئت سنة ١٦٣٩ . تركز حول الجنوب الصراع مع الفرنسيين على السيادة . كانت القلعة ذات اهمية حيوية للطرفين .

(٩) ـ لا تزال خرائب قلعة ومدينة تغلق آباد ، بالقرب من دلهي ، شاهدا على سوء الطريقة التي كان الحكام يبنون بها ويهدمون المدن الهندية في سعيهم الى تخليد ذكرهم ببناء عواصم جديدة لهم . بنيت تغلق آباد بين ١٣٢١ و ١٣٢٣ ، لكنها لم تلبث ان هجرها محمد تغلق .

(٧) ـ على أثر دحر الأفغان لقوات الماراثا في بانيبات عام ١٧٦١ ، أقام جندي مغامر ، ولكنه ذو ثقافة ، امبراطورية ضخمة في الهندستان . كان اسمه ماهاداجي سنديا ، وكان يعمل شكليا كجندي من جنود الملك (البشوا) ، الا انه كان بالحقيقة سيد الحاكم المغولي شاه عالم ، و « الملك الفعلي للهندستان وقاهر امراء راجبوتانا وقائد الجيش » . ومع انه حدّث الجيوش الماراثية بتجهيزها بالمدفعية وبتجنيد الجنود من المسلمين والجاثيين وبانتقاء الضباط من الاوروبيين (الذين يبدو أحدهم في الصورة في أحد استقبالاته) ، فقد كانت سلطته ضعيفة ، لأن ممتلكاته كانت تفتقر الى الموارد اللازمة لتمويل الجيش .

اضطر المغول الى التفاهم مع رعاياهم الهنود باعطاء زعمائهم اصحاب السلطة الفعلية في البلاد حدا معقولا من الحرية ، وبالتسامح مع البرهمية ، وفوق ذلك كله بتجنب التدخل المفرط في الشؤون الداخلية . على ضوء هذه الحقائق يجب فهم الامبراطورية المغولية التي كانت تعني هيمنة واشرافا أكثر مما كانت تعني حكما امبراطوريا حقيقيا ، وهذا ، يفسر تقهقر الامبراطورية المغولية (٢) .

مشكلة الجباية

كانت المشكلة الاساسية التي واجهها حكام المغول هي المشكلة ذاتها التي واجهت جميع الامبراطوريات القائمة على التوسع الجغرافي فيما قبل العصور الحديثة ، اي مشكلة جباية الضرائب من مصادر محدودة ، مع المحافظة على ولاء الوجهاء الاقليميين (الزوموندار) . كانت احدى الذرائع البديهية لتأمين المدخول الكافي للدولة توسيع رقعة الامبراطورية ، ولكن كما اكتشف اورونجزيب كان المزيد من الفتح يعني المزيد من النفقات . الذريعة الأخرى كانت محاولة ابتزاز المزيد من الخراج من الرعايا ، لكن نتج عن ذلك ان المغول فقدوا في آخر الأمر تعاون الوجهاء المحليين .

ظهور شركة الهند الشرقية

بتقلص حكم المغول ، انقسمت الهند الى عدد من الدول « الريفية » ، كدولة بنغال واود تحت حكم الـ « الناواب » ، وميسور تحت حكم سلالة احد المغامرين الاسلامية ، وحيدر اباد تحت حكم النظام ، وتحالف الماراثا الذي راح يغزو انحاء الهند المختلفة انطلاقا من قاعدته الغربية .

تلك هي الخلفية للانبعاث الاقليمي « لشركة الهند الشرقية » البريطانية الملكية . فالشركة ذهبت اصلا الى الهند للتجارة لا للفتح . وطيلة القرن الثامن عشر كان مديروها يصرحون ان التجارة ، لا السيطرة ، هي هدفهم . ولكن بحلول منتصف القرن الثامن عشر ، كان للبريطانيين ، بعد استتباب الامر لهم طويلا في مصانعهم بكلكوتا ومادراس وبومباي ، تجارة كبيرة تقوم بالدرجة الاولى على المنسوجات القطنية الهندية وتستحق الحماية من جهة من منافسة الشركة الفرنسية الأصغر منها ، ومن جهة أخرى من أخطار التصدع الهندي الداخلي (٧) .

عندما تحاربت بريطانيا وفرنسا في اوروبا ، لم يكن بوسع الشركات العاملة في الهند ان تقف على الحياد . فعندما لاحظ جوزيف فرنسوا دوبلكس (١٦٩٧ - ١٧٦٣) مدير مجلس الهند الشرقية الفرنسي ان الشركة الانجليزية كانت اقوى من شركته ، راح يستخدم ، اثناء « حرب الخلافة النمساوية » ، حلفاءه الهنود ضد منافسه الاوروبي .

وسرعان ما اقتبس الانجليز التكتيك الفرنسي . فاستخدمه روبرت كلايف (١٧٢٥ - ١٧٧٤) لكسب معركة بلاسي (١٧٥٧) وبالتالي للاستيلاء على البنغال . أدى تبني خطة دوبلكس القاضية باستعمال الموارد الهندية من اجل التوسع الاوروبي في الهند الى اعطاء بريطانيا أغنى مقاطعة في الهند وفتح امامها الطريق الى السيادة على الهند بكاملها (٦) .

الفن الهنـدي في العصر المغولي

أحدثت الفتوحات الاسلامية في الهند في القرن الثاني عشر تغيرا جذريا في فن شبه القارة ، فقد فرض الفاتحون نمطا فنيا (اجنبيا فارسيا) على البلاد ، وعملت الرعاية الملكية الجديدة على ابقاء الفن الدنيوي ، وقامت بحملة منظمة ضد الفن الديني . قبل الفتوحات ، كان البلاط الملكي يناصر الفن المنبثق عن المؤسسات الدينية . اما بعدها ، فقد ازدهر الفن الدنيوي .

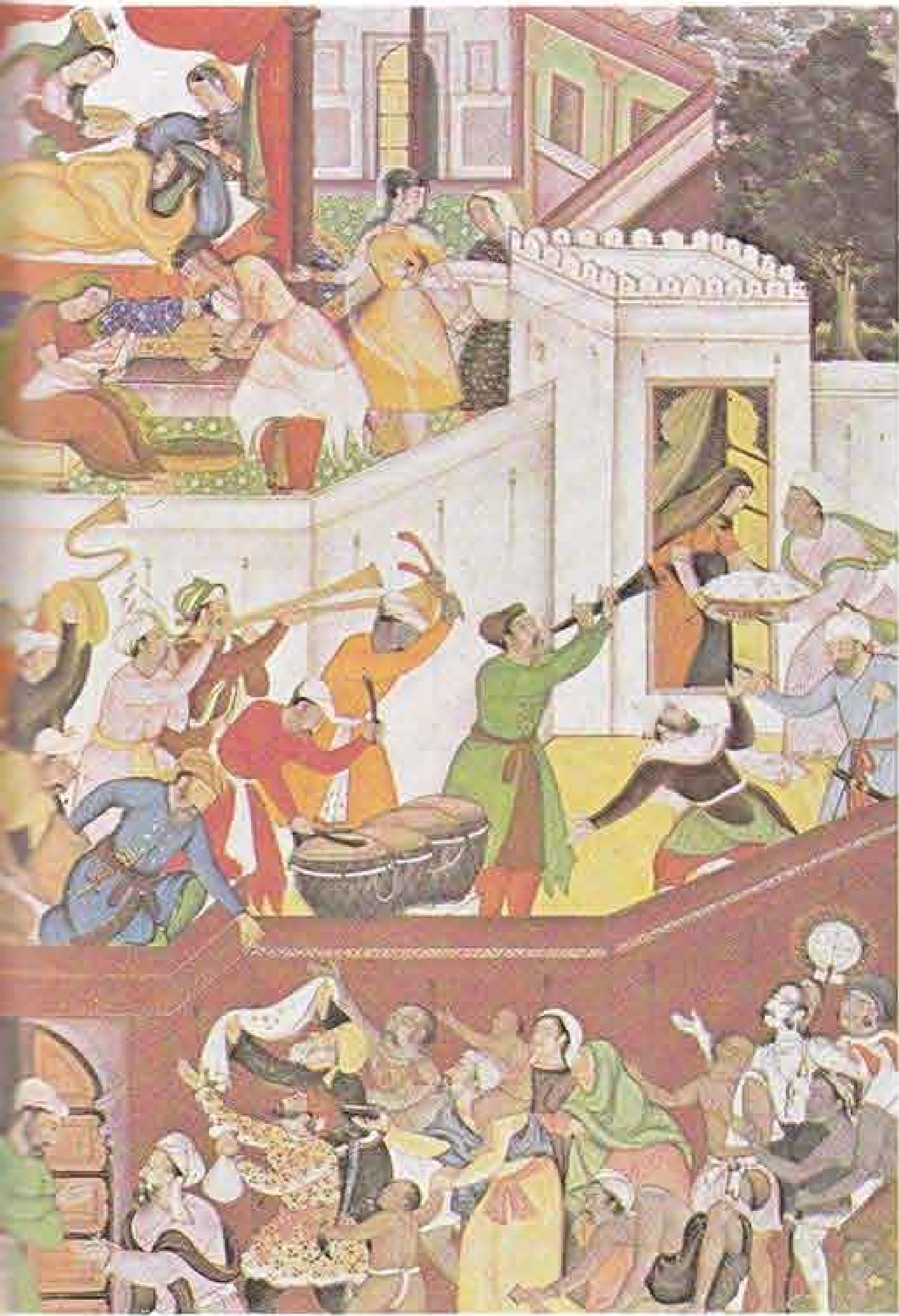
المقارنة مع الفن الاسلامي

يصعب تصور تباين أشد من التباين بين النصب الدينية للبراهمة والبوذيين واتباع الجاينا باشكالها الضخمة ونحتها التشكيلي

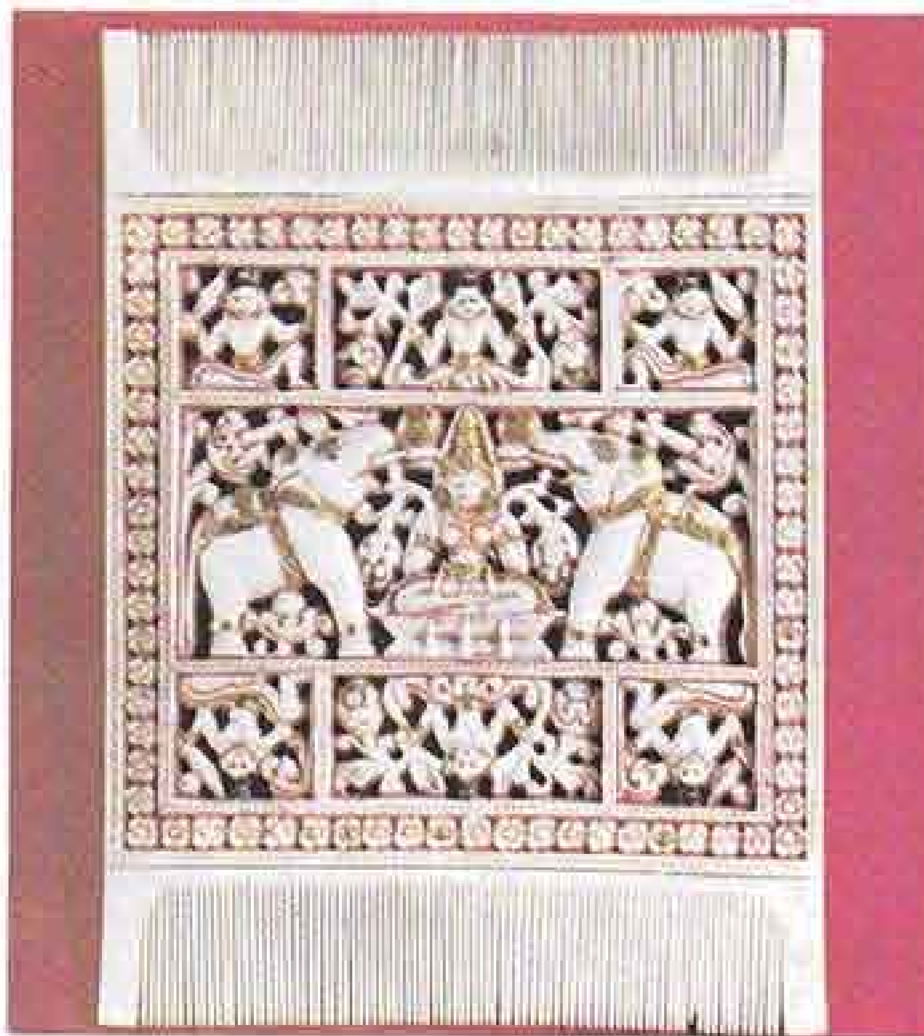
١



٢



٣



(١) هذه اللوحة الدينية الجاينية (يانترا) ، التي يظهر منها جزء مفصل هنا ، رسمت في كوجارات بغربي الهند سنة ١٤٤٧ . ليس فيها اية محاولة لتحقيق الواقعية ، لأن غايتها لم تكن بالدرجة الاولى فنية . فقد كانت الاعتبارات الفنية تسخّر لاثارة المشاعر الدينية من خلال الاشكال الفنية التقليدية . اتخذت اللوحات الجاينية في الغالب شكل توشية المخطوطات التي كانت ترسم على سعف النخيل ، حتى بعد ظهور الورق في أواخر القرن الرابع عشر .

(٢) ـ تصور « سيرة أكبر » (اكبر نامة) (حوالى ١٦٠٠) الاحتفالات التي رافقت ولادة الأمير سليم في فتح بور سكري سنة ١٥٦٩ . في عهد أكبر ، اقتبس التصوير الهندي الاسلوب الفارسي مع بقائه هنديا دون ريب . كان يتصف بالاهتمام بالتفاصيل ، وكانت

الزاخر بالحيوية ، وبين المساجد الاسلامية بجوها الطلق والمنوّر واعمدتها وقببها وابراجها النحيفة (٦) . لم تكن في هذه المساجد اشكال منحوتة ، بل كانت مزينة بأشكال زخرفية منضبطة من الزهور والرسوم الهندسية المسطحة او النافرة والمطلية بالوان زاهية . كانت ارضها مكسوة في الغالب بالسجاد ، مما شجع على نمو صناعة السجاد الهندية التي ظهرت الى الوجود في ظل تأثير فارسي ملحوظ ، كما حدث لعدد من الحرف الأخرى ، ولكنها ما لبثت ان اهتدت الى نمط وطني خاص . وقد استعملت الاشكال المعمارية المستعملة في المساجد في تشييد المباني الاخرى . وكان أحد الاساليب الهامة في زخرفة السطوح بالأحجار الملونة (٧) شبيها باسلوب ايطالي يعرف بالحجر الصلب ، ولعله استورد من الغرب .

ظهر استقلال بعض الثقافات الواقعة ضمن

٤



٥



الوانه الزاهية وتأليفه المتقلب تعطي رسوما شبيهة بالفسيفساء ، ولكنها تبدو وكأنها تتحرك دوما .

---

(٣) - لحفر العاج تاريخ طويل في الهند . بلغ ذروة تطوره على الأرجح في الجنوب ، كما يتبين بصورة رائعة من هذا المشط الآتي من ميسور والذي يصور غاجا لاكشمي ، صنم الحظ واليسار . يرقى هذا المشط الى القرن الثامن عشر .

---

(٤) - تمزج هذه الرسوم القطنية (شنتز) الظاهرة على هذا الغطاء العائد الى القرن الثامن عشر التقنات الهندية مع الاشكال الاوروبية الشبيهة بنقوش المواضيع الزخرفية . كانت ترسم باليد في البدء ، ولكنها اصبحت فيما بعد تطبع بواسطة الواح .

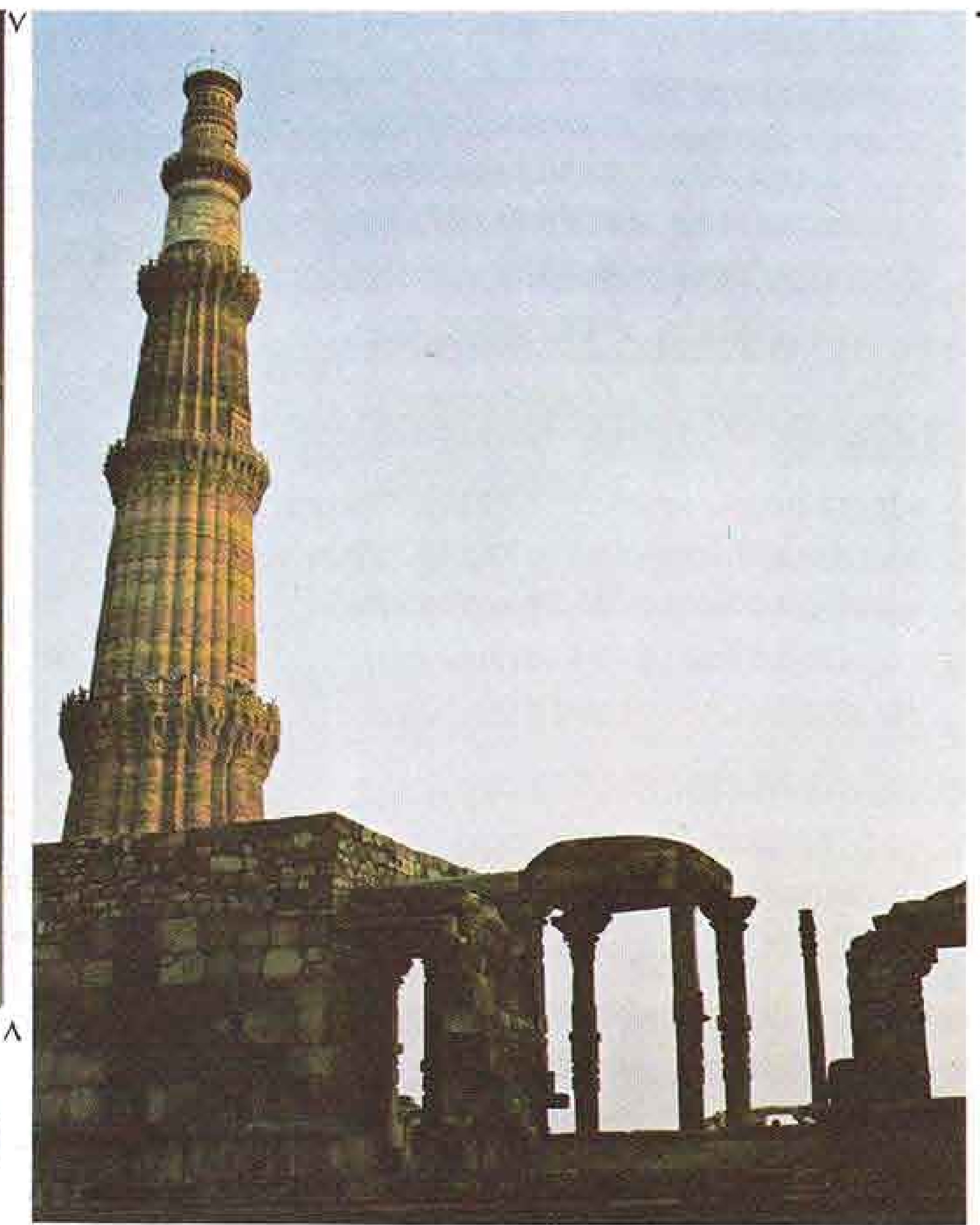
(٥) - يتأمل الامبراطور المغولي شاه جيهان قطعة مجوهرات في هذه الصورة (حوالى ١٦١٨) التي تتجلى فيها معظم ملامح الفن الهندي فيما بعد الفتح الاسلامي . كان هذا الفن غنيا ورقيقا ومتأنقا ويمجد الفرد . يظهر ايضا في الصورة اسم الفنان (ابو الحسن) الذي لا بد انه كان مجهولا قبلها . اما الخلفية المزهرة التي عولجت فيها النباتات بطريقة طبيعية ، وان بدت كانها جواهر ، فانها تعكس الاهتمام الشديد برسم الازهار الذي كان شائعا طيلة هذه الحقبة . تبدو الزهور هنا طبيعية وغير مؤسلبة ، وهو خروج على التقليد التصويري الاسلامي الصرف الذي يقضي « باستبعاد الواقع » في تصوير الحياة ، اخذ يظهر بفعل الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها السلطان اكبر .

نطاق التأثير الاسلامي في الرسم الجانبي ، الذي كان عبارة عن نوع خاص من انواع توشية المخطوطات (١) .

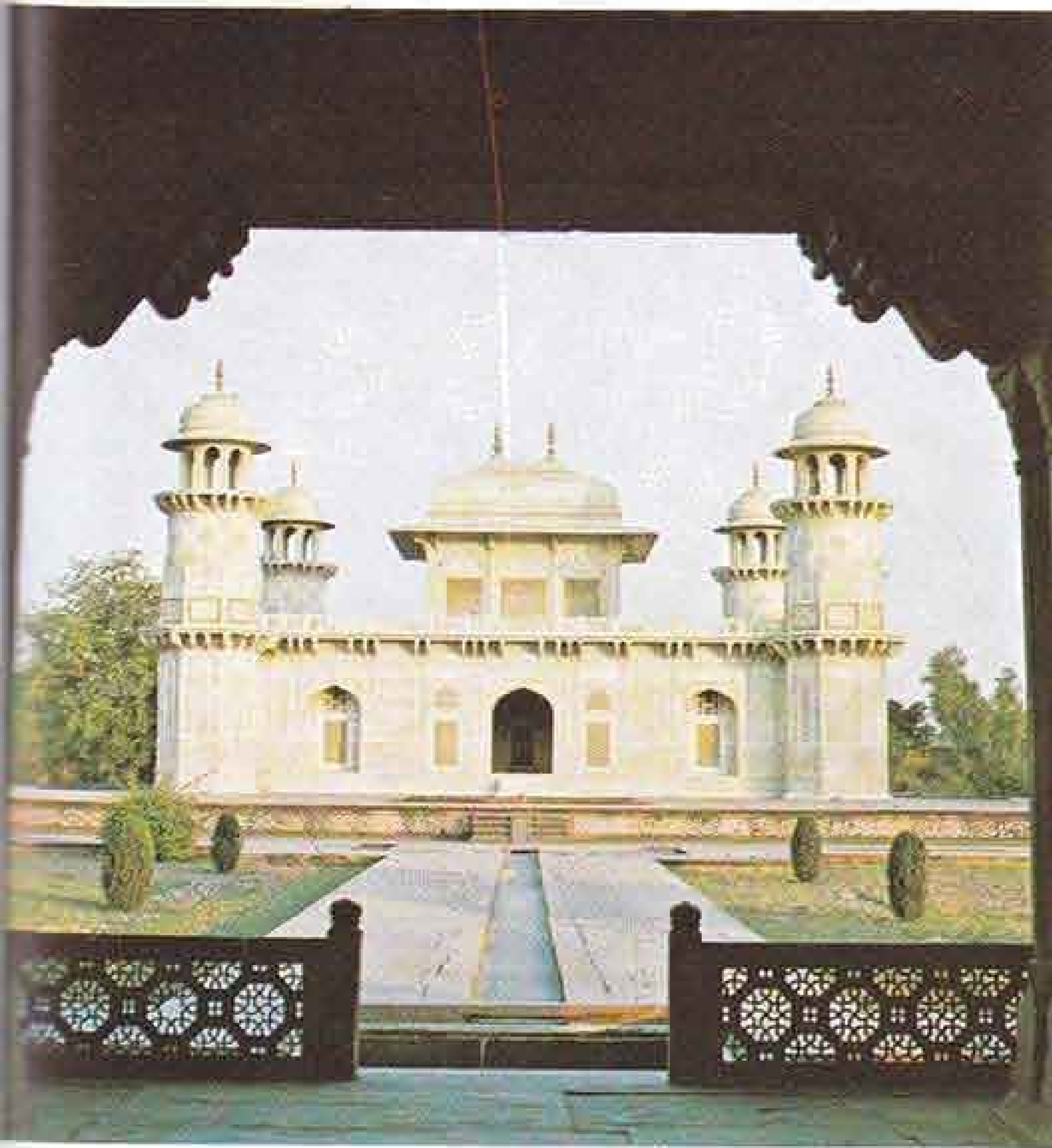
اقامة نظام المرسم في التصوير

خلق تأسيس السلالة المغولية في الهند الشمالية الظروف الملائمة لازدهار الفن الاسلامي . فقد دعم الامبراطور اكبر (١٥٤٢ - ١٦٠٥) الذي كان ملكا مثقفا ، نظام المرسم الذي ادخله ابوه ودفعه قدما ، وهو ذلك النظام الذي كان يعمل فيه الرسامون الهنود تحت اشراف اثنين من الرسامين الفارسيين . كان من نتائج هذا النظام اشاعة الذوق الفارسي واحداث تأثير فارسي قوي في فن الرسم داخل البلاط المغولي . ولكن سرعان ما نشأ في ظل رعاية أكبر نمط هندي صرف ، تتجلى فيه نزعة طبيعية رقيقة تستعين بالألوان الزاهية للتعبير عن الحركة

٦



٧



٨



(٦) - بني « قطب منار » في لالكوت بدلهي حوالى ١٢٣٠ ، ثم اضيفت اليه زيادات فيما بعد . فضلا عن كونه مئذنة ، كان يستخدم كبرج مراقبة ونصب حربي . انه شاهد على العمارة الاسلامية الباكرة في الهند ، اذ ان المئذنة هي من أجزاء المسجد البارزة .

(٧) - بني هذا الضريح في اجرا سنة ١٦٢٨ من الرخام المرصع بالأحجار الملونة . وهو يمثل الاهتمام المغولي بالزخرفة السطحية والحركة المستقيمة .

(٨) - على هذه الكأس المصنوعة من اليشب على شكل يقطينة كتابة تدل على انها صنعت للامبراطور المغولي شاه جيهان سنة ١٦٥٧ ، الذي بلغت الفخفخة المغولية في عهده ذروتها ، كما تتمثل في « تاج محل » « والعرش الطاووسي » . الطبيعة الظاهرة في الكأس هندية كليا ، وهي تدل على تحرر الفن المغولي من الفن الفارسي

النشيطة (٢) .

في مطلع القرن السابع عشر ، اضيفت الى الاهتمام بالمواضيع البطولية والاسطورية عناية برسم الاشخاص والاشياء الطبيعية (ربما تحت تأثير غربي) ، وحل حس التأمل الهادىء محل الحركة العنيفة ، ورافق كل ذلك حس تأليفي ابسط وأدق واستبصار سيكولوجي اعمق . بقي هذا الاتجاه مستمرا على عهد شاه جيهان (١٦٢٩ - ١٦٥٨) (٥ ، ٨) ، غير انه نظرا لبقاء مستوى التقنية الرفيع على حاله ، حدث جمود في التنفيذ قضى على العفوية المرنة السابقة . وعندما جاء عهد اورونجزيب (١٦١٨ - ١٧٠٧) ، كان الفن المغولي آخذا في الانحطاط .

في مقاطعة الدكـن ، وخلال القرن الثامن عشر ، استمر نمط شبيه بالنمط الشائع في الشمال ، وان كان قد تعدل بعض الشيء بفعل العناصر السابقة للاسلام ، وانتج ، من جملة المواضيع التي انتجها ، رسوما مقابلة للصيغ الموسيقية (السلالم) . كذلك نشأ ، في الشمال الغربي ، في راجاستان ، عدد كبير من المدارس برعاية بلاطات محلية اشتهرت منها خصوصا بلاطات ميوار ، بوندي ، كوتاه ، بيكانر ، جايبور . تميز اسلوب هذه المدارس في القرن السابع عشر بحرارة العاطفة ، وفي القرن الثامن عشر بالاستعمال المستعر للألوان الزاهية وبحس درامي حاد . في ظل رعاية مماثلة ، ولكن عند سفح الهملايا وفي دول البنجاب الجبلية ، مثل كانجرا وجولير ، قامت عدة مدارس كان لاسلوبها طابع فردي قوي . كانت لوحاتها التي عرفت بلوحات الباهاري (ومعناها الجبلية) تستمد مواضيعها من المواضيع العاطفية التي كانت تعالجها القصائد الهندية والسنسكريتية مثل « الجيتا جوفندا » لجايا ديفا . تروي هذه الملحمة التي ترجع الى القرن الثاني عشر مغامرات كريشنا الغرامية ، كحبه لرادا ، بائعة الحليب . رسمت هذه المغامرات رسما رائعا في المصغرات الباهارية التي عرفت كيف تعبر في القصيدة عن عواطف الولع خير تعبير باستغلال مفعول الخطوط والالوان الناعمة .

الفنون الزخرفية

في ظل المغول ، ازدهرت ايضا فنون الزخرفة كمظهر من مظاهر الفخفخة الخارقة في البلاط ولدى صغار الحكام . فكان الصاغة يصنعون حلى رائعة من الذهب والفضة ، فضلا عن المجوهرات (للرجال والنساء) المرصعة بالالماس واللؤلؤ والياقوت وسواها من الحجارة الكريمة . وكانت الآنية ، وسواها من الاشياء ، كالخواتم ومقابض الخناجر ، تحفر من البلور الصخري واليشب (٨) ، وترصع أيضا أحيانا بالذهب والحجار الكريمة . وكان هناك ايضا التطريز البارع على الاقمشة ، وحياكة المنسوجات الفاخرة كالمخمل والقصب والاقمشة الحريرية .

أما في جنوبي الهند ، فقد صمدت التقاليد البرهمية في فنون الزخرفة عموما في وجه التأثير الاسلامي القادم من الشمال ، ولكنها لم تبق بعيدة كليا عن ذلك التأثير ، فنجم عن ذلك اسلوب خاص كان أفضل شاهد عليه بعض المحفورات العاجية الرائعة (٣) التي استعملت مواضيع عضوية متقنة ، تتخللها اشكال بشرية كانت تظهر في مشاهد شهوانية أحيانا .

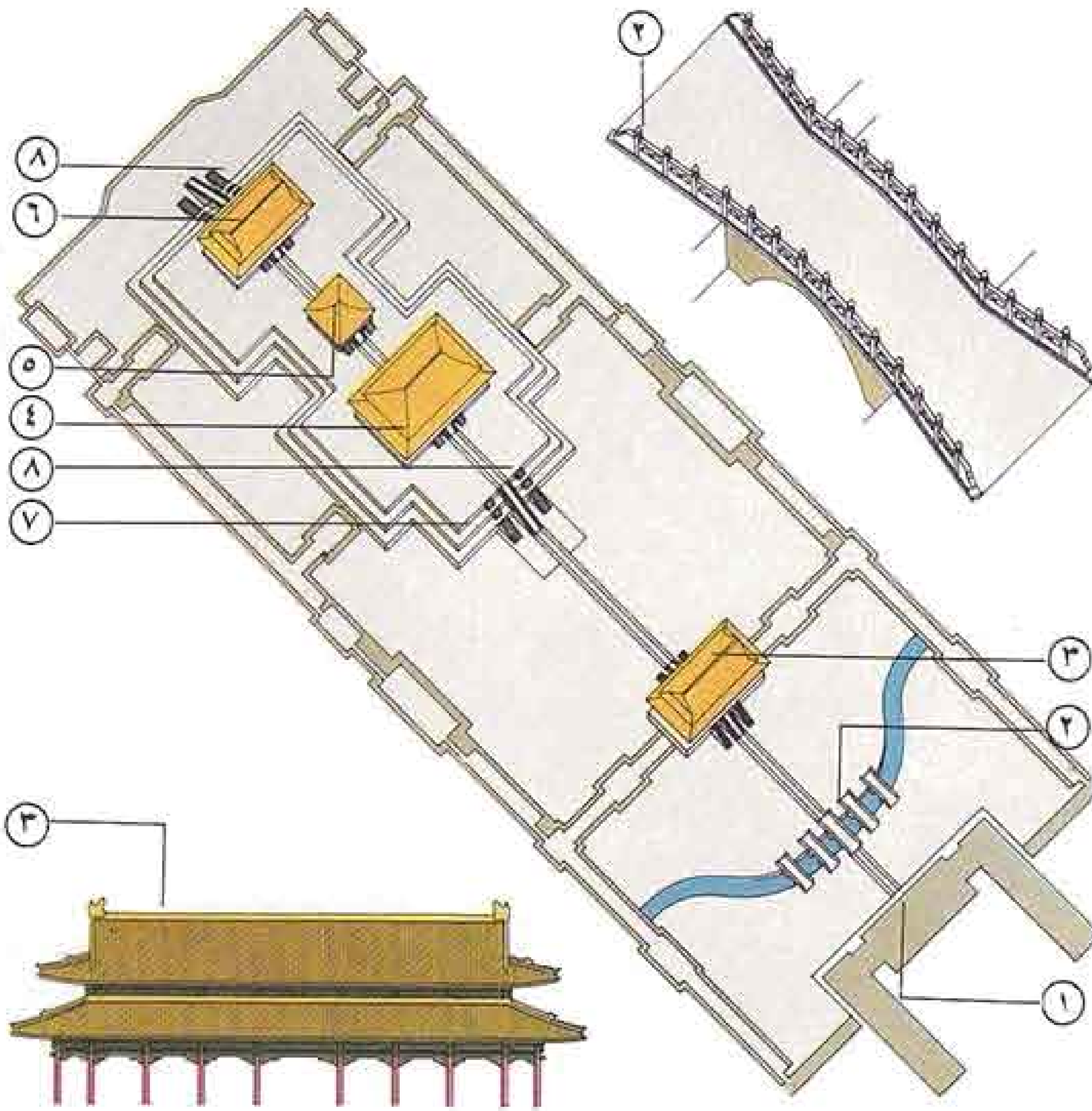
الصين من ١٣٦٨ الى حوالى ١٨٠٠

كان مؤسس سلالة المينج « الباهرة » (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) فلاحا بوذيا تزعّم عصابات الثوار الذين خلعوا الحكم المغولي . أقام عاصمته في نانكنج ، واتخذ لقب نونج وو (ملك ١٣٦٨ ـ ١٣٩٨) . في كنف الامبراطور الجديد ، عاد الحكم الى نظام التانج الكنفوشي ، وخفضت الضرائب ، وشجع الفلاحون على العمل بمزيد من الكد بالسماح لهم ان يحتفظوا بالأراضي التي كانوا يستصلحونها ، وادخلت تحت حماية الدولة دول تابعة شملت انام وسيام . كذلك أخذت الدولة تتوسع بحرا أيضا . فشنّت اساطيل مؤلفة من سفن صينية ضخمة جدا ، بقيادة الاميرال الفذ تشنج هو ، سبع حملات

١



٢



(١) ـ كان علماء الفلك الصينيون اشد الراصدين للأجرام السماوية مثابرة وأدقهم ملاحظة في أي مكان من العالم قبل « عصر النهضة » الاوروبية . مما جعل علم الفلك ذا شأن كبير في حياة الصينيين الأهمية التي كان يعلقها مجتمعهم الزراعي على التقويم ، وعناية الدولة بالتنجيم . خلافا لأوروبا ، لم يكن للنشاط العلمي شأن خاص ، بل كان علماء الفلك يعملون في « المرصد الامبراطوري » ببكين . كانت ارصادهم ، على غرار أعمال العلماء في حقول شتى أخرى ، تجمع في موسوعات ضخمة ، وكانت تصنف وتنشر بتشجيع الدولة وعلى حسابها الخاص .

(٢) ـ غدا القصر الامبراطوري في بكين مقام ٢٢ امبراطورا من المينج والتشينج . بعد أن اصبحت بكين العاصمة سنة ١٤٢١ . بوشر ببناء هذا القصر سنة ١٤٠٦ ، وهو يمتد اليوم على مساحة ٧٢٠٠٠٠ متر مربع . انه عبارة عن مجموعة من المباني الامبراطورية ، أهمها تلك التي تشمل قاعات المراسم والاحتفالات البادية في الصورة . يمر المدخل الرئيسي بحجرة البواب (١) المؤدية الى « نهر الماء الذهبي » ، بجسوره المرمرية الخمسة (٢) . بعد اجتياز حجرة البواب الثانية (٣) يصل المرء الى القاعة الكبرى الأولى (٤) التي يقوم فيها العرش الامبراطوري . تقوم القاعتان الاخريان (٥ ، ٦) على « رصيف التنين المرمري » ذي الطبقات الثلاث (٧) والسلالم المثلثة (٨) .

(٣) ـ كانت امبراطورية المانشو في الصين تمتد سنة

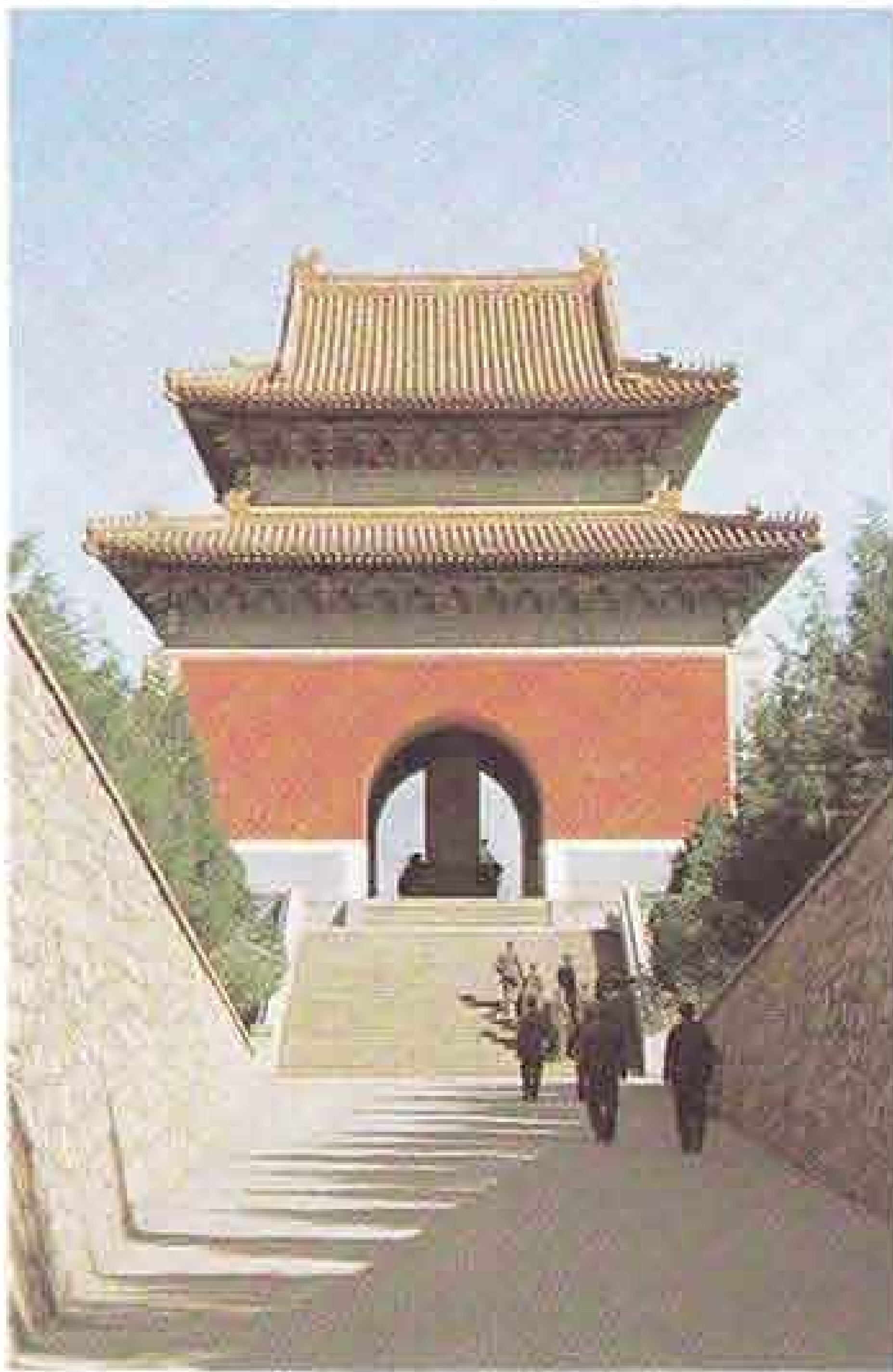
بين ١٤٠٥ و ١٤٣٣ على أماكن نائية ، مثل سري لانكا والخليج العربي واجزاء من افريقيا . كانت السفن تحمل البضائع ، واستطاع تشنج هو أن يقيم علاقات تجارية مع حوالى ٣٠ ميناء .

حماية الوطن

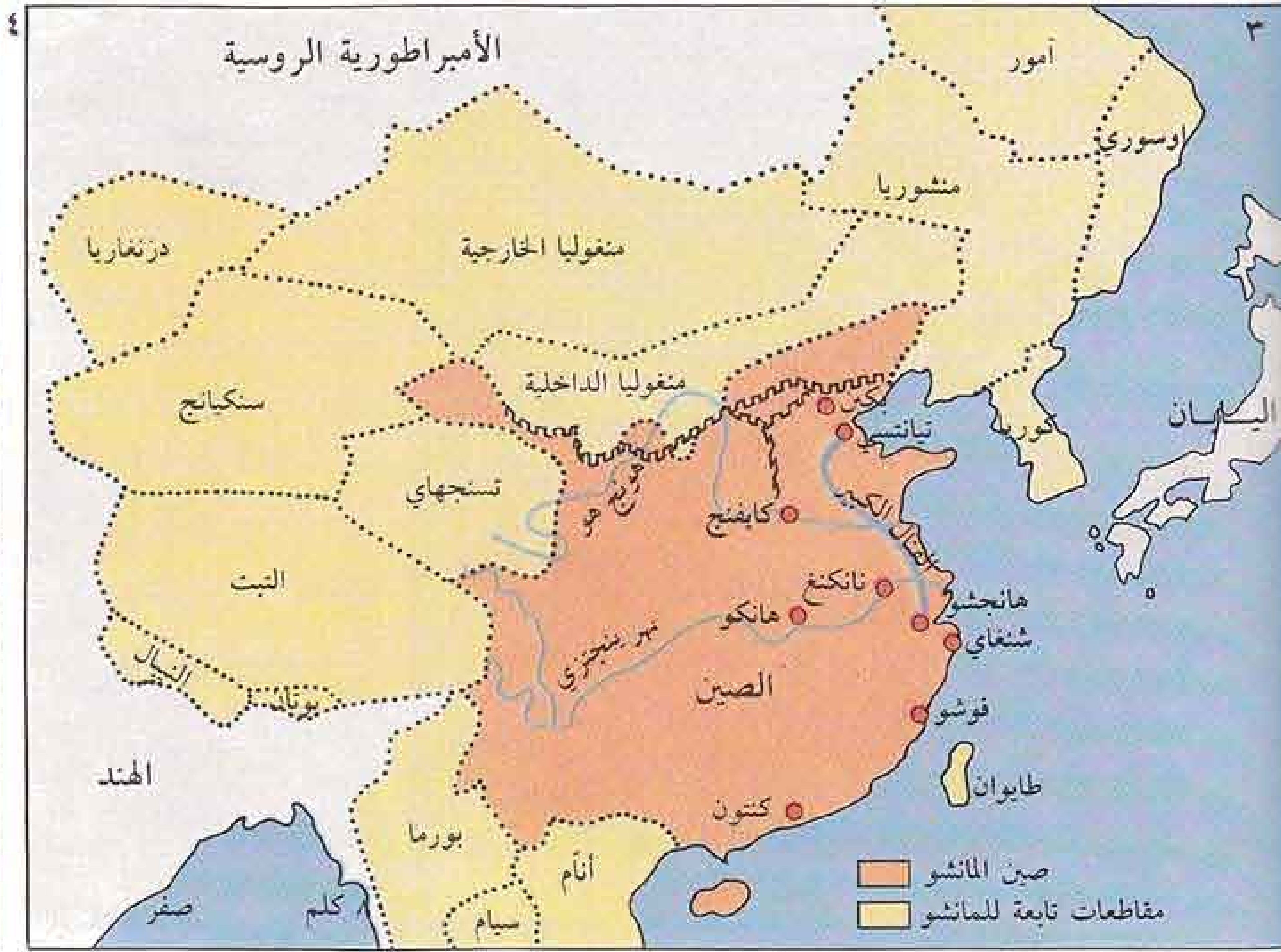
في الداخل كانت الحكومة عازمة على صد الغزوات الجديدة الزاحفة من الشمال. فرممت « السور الكبير » وحصّنت عددا من المدن ، وأحاطت نانكنج بسور طوله ٣٢ كلم وعلوه ١٨ مترا . كانت سياسة « الباب المقفل » هذه ، التي اتبعتها سلالة المينج ، شبيهة بسياسة حقبة السونج الأولى ، التي وطدت ايضا الحكم الصيني على « المملكة الوسطى » بعد مدة من التدخل الأجنبي .

على الرغم من هذا الموقف ، قيض للمينج ان يشهدوا وصول الاوروبيين من الجنوب .

٤



٣



٥



١٨٠٠ على مساحة شاسعة من آسيا الوسطى والجنوبية الشرقية . ولكن التوسع الاوروبي والروسي ، سعيا وراء التجارة ، أخذ يهدد هذه المجموعة الواهية .

(٤) ـ يقع ضريح امبراطور المينج وان لي (١٥٧٣ ـ ١٦٢٠) عند سفح جبال وعرة الى الشمال الغربي من بكين . يصل المرء الى المجموعة عن طريق شارع على جانبيه صف من المنحوتات الحجرية الهامة لحيوانات حراسة وجنود وموظفين . بدأ العمل في الضريح سنة ١٥٨٤ واستغرق اربع سنوات .

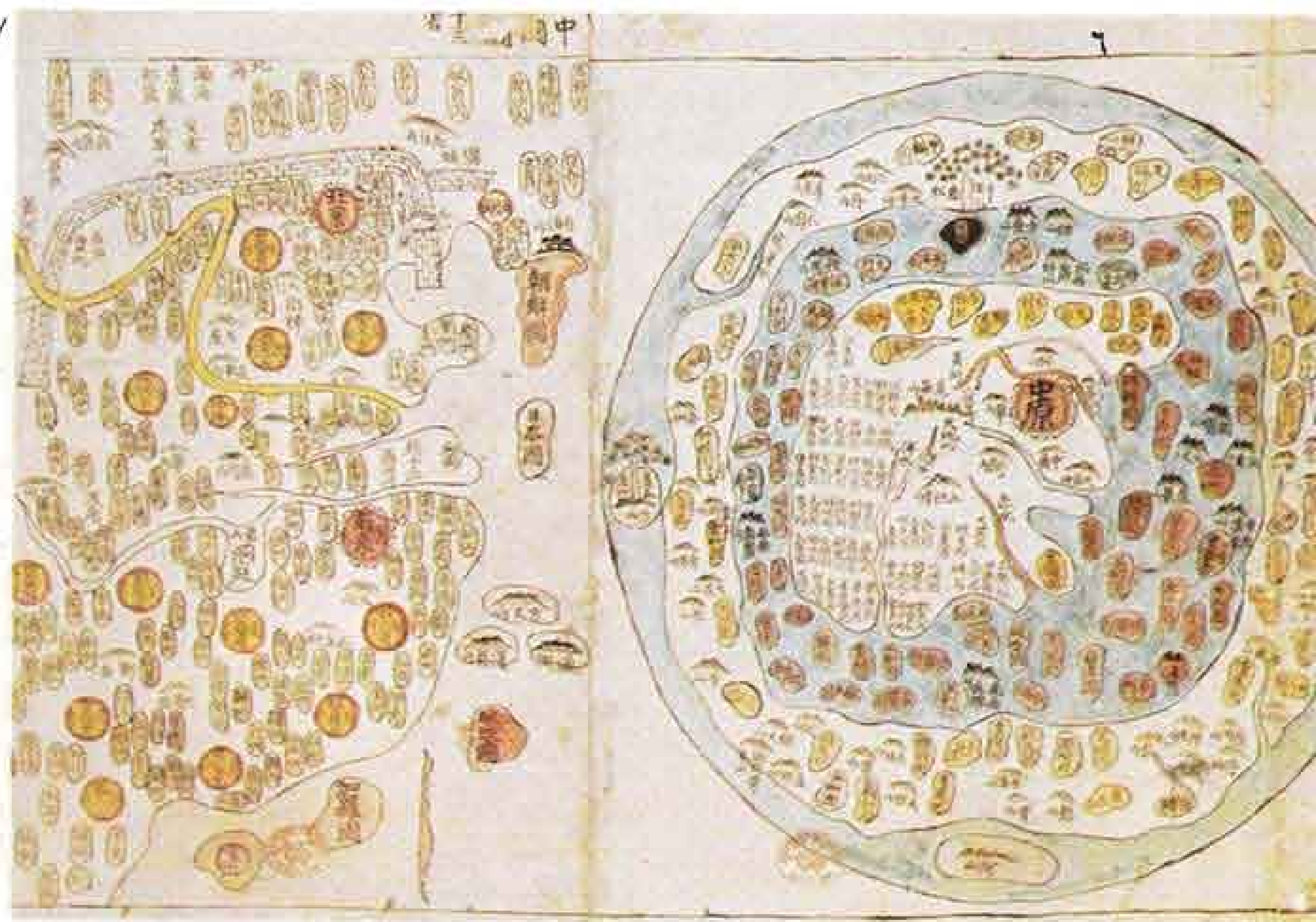
(٥) ـ كانت السفن الراسية في ميناء كانتون في القرن الثامن عشر تعكس رغبة الغرب في المتاجرة مع الصين . كان التجار الغربيون ينظرون الى تجارة الصين كفرصة سانحة للربح الضخم، ولكن الصين رفضت السماح لهم بالتجارة . منذ ١٥٥٧ ، احتكر البرتغاليون التجارة مع الصين .

فقد أسس البرتغاليون مستوطنة في ماكاو ثم تبعهم المبشرون .

بنى المينج عددا من القصور والأضرحة الرائعة ، أشهرها القصر الامبراطوري في بكين (٢) واضرحة الأباطرة الى الشمال من المدينة (٤) . في عام ١٩٥٨ ، كشف عن ضريح الامبراطور وان لي ، فظهرت فيه ثلاثة توابيت مصقولة تحتوي على جثمان الامبراطور واثنتين من نسائه .

نهاية سلالة المينج

على الرغم من جميع الاحتياطات المعقدة للحفاظ على الأمن ، دقت ساعة نهاية السلالة « الباهرة » بدخول البرابرة الشماليين (وكانوا من المانشو) شمالي الصين . جاءوا أصلا تلبية لدعوة القائد المينجي الذي استنجد بهم لازاحة أحد الثوار ، لي تسو تشنج ، الذي كان قد نصب نفسه امبراطورا على بكين . لكن تفاديا للذل ، أقدم آخر اباطرة المينج



٦



٧



٨

(٦) ـ هذه الخارطة « الصينية المركز » (حوالى ١٨٠٠) تظهر الصين في مركز العالم ، ثقافيا وجغرافيا ، « كمملكة متوسطة » يحيط بها البرابرة . كانت الصين بصورة عامة مكتفية بذاتها وملتزمة بسياسة عزلة عدوانية قائمة على الاعتقاد بانه لا فائدة ترجى من الاحتكاك بالشعوب الأخرى .

(٧) ـ يشهد هذا التاج الامبراطوري المينجي ، الذي يزينه طائر العنقاء ، على ثروة المينج ومناصرتهم للفنون .

(٨) ـ قاد أول بعثة بريطانية رسمية الى الصين سنة ١٧٩٢ اللورد ماكارتني (١٧٣٧ ـ ١٨٠٦) . جاءت هذه البعثة في فترة اشتدت فيها المطالبة بزيادة الحقوق التجارية للاوروبيين الذين كانوا يبذلون جهدهم كالبريطانيين وسواهم من الدول الأجنبية للحصول على موطىء قدم لهم في الصين . كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تحتكر تجارة الشاي . الا ان امبراطور تشينج لونج عاملها كبعثة دبلوماسية بحتة .

على شنق نفسه ، فخلع المانشو الامبراطور الثائر ، ونادى زعيمهم فولين (١٦٣٨ - ١٦٦١) بنفسه امبراطورا ، وانشأ سلالة التشينج او « السلالة الطاهرة » .

حكم المانشو طيلة قرن ونصف بحنكة وبحكمة ، فمنحوا البلاد الرخاء بالداخل ، ودفعوا بحدودها الى ما وراء جميع التخوم السابقة . حكم الأباطرة كفاتحين ، وحصنوا انفسهم بحذق ضد الثورة باقامة نظام من الألوية . كانت هذه الألوية عبارة عن فرق ادارية وعسكرية تقوم فيها السلطات ، بطريقة نظامية ، بتسجيل الأهلين وفرض الضرائب عليهم وتجنيدهم .

لم يكن المانشو ملمين بالقراءة أو الكتابة ، فقبلوا بطريقة المينج في اختيار الموظفين الاداريين القائمة على الامتحانات . لكنهم كانوا حريصين على منع الصينيين من تولي وظائف في مقاطعاتهم الأصلية ، كما وزعوا المسؤولية بطريقة كانت تقضي بمراقبة كل موظف لأقرانه . كان المانشو أبرع من المغول ، وأثبتوا انهم ليسوا برابرة أو مخربين ، بل كانوا قادرين مع الزمن على تذوق الحضارة الصينية والاعجاب بها . وكانت احدى خطواتهم الاولى دعوة عدد من العلماء الى تأليف تاريخ سلالة المينج ، تلته موسوعة من ٣٦٠٠٠ مجلد .

تأثير المانشو

في الخارج ، امتدت سلطة المانشو حتى بلغت منشوريا ومنغوليا والتيبت والتركستان . وفي غضون حقبة تشين لونج ، دخلت جيوشهم بورما ونيبال وانام (٣) . ولما أخذت الامبراطورية في النمو وازدادت ثروتها ، ضاعف الأجانب ضغطهم لكي يتاجروا مع هذه البلاد الشاسعة البكر . فلحق باليسوعيين ، الذين كانت سلالة المينج قد رحبت بهم ، رهبنات كاثوليكية اخرى قادمة من اوروبا .

لم يتوغل التجار الاوربيون في انحاء الصين بالسرعة نفسها التي توغل بها المبشرون ، ولكنهم ثابروا على بذل الجهود في سبيل ذلك ، فلم تلبث التسهيلات التجارية المحدودة ان توافرت للفرنسيين والبريطانيين والهولنديين والبرتغاليين . وفي سنة ١٧٨٤ ، وصلت اولى السفن الامريكية من الولايات المتحدة . وبحلول منتصف القرن الثامن عشر ، تغلبت التجارة البريطانية التي احتكرتها « شركة الهند الشرقية البريطانية » على جميع المنافسين (٥) .

كان الحرير والشاي والقطن والبورسلين الصيني موضع طلب دائم في اوروبا . الا ان التجارة كانت محصورة بمجموعة مختارة من التجار الصينيين هم الكوهونج . لم يكن ثمة ضرائب جمركية ثابتة ، وهي سياسة ضاعفت الفساد في اوساط الموظفين . كان محظورا على الصينيين تعليم الأجانب لغتهم ، وكان على الأجانب التقيد بالقوانين الصينية في المحاكم الصينية ، وكان الصينيون بحكم تمسكهم بمبدأ المسؤولية الجماعية ، يحمّلون الجاليات الاجنبية مسؤولية سوء تصرف أي فرد من أفرادها .

لم تلبث هذه الأوضاع ان اصبحت لا تطاق . لذا أرسلت البلدان الغربية التجارية بعثاتها الى بكين (٨) وبدأت بعملية طويلة ترمي الى اخراج الصين عن عزلتها الدبلوماسية والثقافية والاقتصادية .

اليابان ١١٨٥ - ١٨٦٨

في سنة ١١٨٥ ، بعد خمس سنوات من الحرب الأهلية ، كان ميناموتو يوريتومو يحكم قسما كبيرا من اليابان من قاعدته في كاماكورا . في ذلك الوقت ، كان الامبراطور يملك في كيوتو ، لكن السلطة الفعلية كانت بيد اسرة ميناموتو ، التي كانت قد هزمت الاسرة الحاكمة السابقة ، أسرة فوجيوارا .

حكام اليابان الجدد

وفي سنة ١١٩٢ ، اعترف الامبراطور بهذا الواقع الجديد . فأعطى يوريتومو لقب « شوجون » (أي جنرال) ، جاعلا منه رئيسا للطبقة العسكرية ، وكافأ اتباعه بمنحهم حقوقا اضافية بعد تجريد اعدائهم المهزومين منها ،

١


(١) ـ سنة ١٢٧٤ قذف قبلاي خان بقوة تناهز ٣٠٠٠٠ جندي ضد اليابان الغربي ، الا ان العواصف العاتية ردت سفنه على اعقابها . بعد ذلك بسبع سنوات ، رست حملة ثانية (تظهر في الصورة) في كيوتو ، فتضافرت المقاومة المنظمة والتحصينات الحجرية والعواصف على صد الغزاة . بقي الخوف من هجوم آخر يساور النفوس ، لكن قبلاي خان توفي في عام ١٢٩٤ وزالت معه عملياته العسكرية .

---

(٢) ـ كان توكوجاوا اياسو (١٥٤٣ ـ ١٦١٦) ابنا لشريف من المرتبة الوسطى ظل يتدرج حتى اصبح سيد اليابان السياسي . بعد ان خدم كقائد ناجح في عهد نوبوناجا وهيديوشي ، قضى على منافسيه في معركة سكيجاهارا . سنة ١٦٠٣ ، أصبح شوجونا ، فاثبت انه سياسي محنك وصلب ، وحد من سلطة الامبراطور ، واستمر حكمه حتى ١٨٦٨ .

---

(٣) ـ ساعد اشيكاجا تاكوجي (١٣٠٥ ـ ١٣٥٨) الامبراطور دايجو الثاني في تدمير حكومة كاماكورا العسكرية . بعد ذلك طرد الامبراطور نفسه من العاصمة ، واعلن نفسه شوجونا سنة ١٣٣٨ .

٢


فأصبح بعضهم حكاما عسكريين على مقاطعات نائية ، بينما اصبح البعض الآخر مراقبين لجباية الضرائب في ممتلكات أفراد الحاشية الامبراطورية . على هذه الاسس ، أقام يوريتومو ادارة عملية وفعالة اضعفت بصورة تدريجية لكن حتمية قاعدة السلطة الامبراطورية .

أدت هذه السلطة الجديدة الى قيام روح جديدة وثقافة جديدة . فأخذ المحاربون (الساموراي) ينبذون مراسيم الفرق البوذية ، متجهين شطر اشكال ابسط وأخشن من التدين . كذلك بنيت هياكل « زن » في كاماكورا ، وراحت تنشر بوذية جديدة ، وترجمت الاسفار المقدسة الى اللغة اليابانية .

سنة ١٢٢١ ، هزمت هذه الحكومة النشيطة ثورة امبراطورية ضد سلطتها . وبعد ذلك بخمسين سنة ، انتصرت على تحد اعظم جاءها من آسيا . ففي سنة ١٢٧٤ و ١٢٨١ ،

٣



٤



٥



(٤) - بعد سنة ١٦٤١ ، وفي ظل التوكوجاوا ، حشر جميع الهولنديين الذين كانوا يتاجرون مع اليابان في جزيرة ديشيما (البادية هنا) ، واجبرت نساؤهم واولادهم على مغادرة البلاد . وعلى مر قرون ، بقي هذا الفريق الصغير صلة اليابان الوحيدة مع الغرب ، وكان يقدّم للغرب الكثير من المعلومات الحيوية عن تلك البلاد . درس العلماء اليابانيون العلوم في الكتب الهولندية .

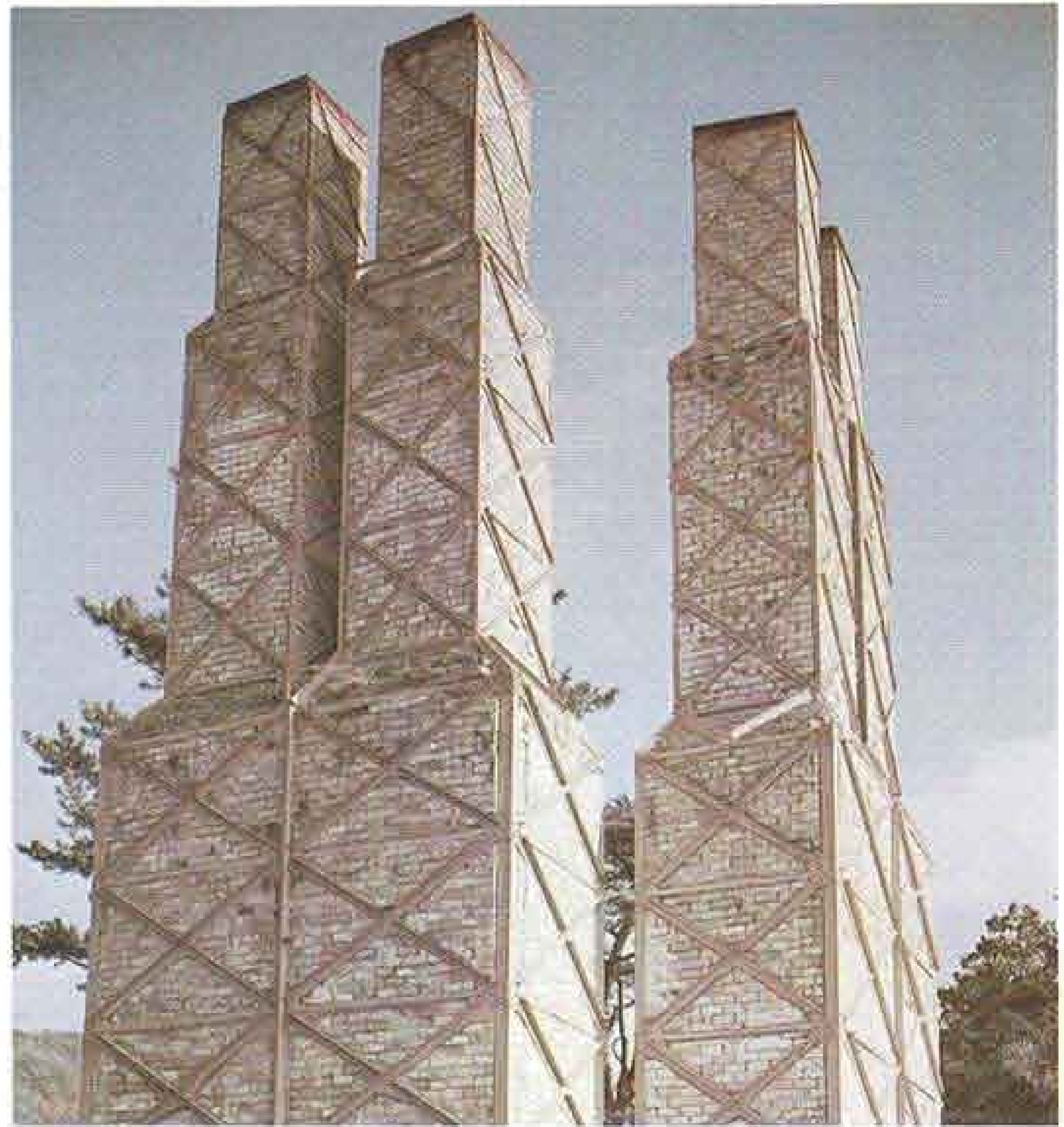
(٥) - في يوليو ١٨٥٣ ، وصلت كتيبة بيري البحرية الى مشارف اليابان لتطالب بوضع حد للعزلة . لم تقترن هذه المحادثات بنجاح ، ولكن سنة ١٨٥٤ ، عاد بيري ليوقع معاهدة اليابان الحديثة الاولى .

هاجمت جيوش قبلاي خان (١) المغولية الضخمة اليابان ، الا ان التحصينات الدفاعية الفعالة وقوة « الريح الالهية » (كاميكازي) صدت هذه الحملات .

على مر السنين ، اشتدت الغيرة والكره للهوجو ، وفي سنة ١٣٣٣ انضم اشيكاجا تاكوجي الى الامبراطور دايجو الثاني للقضاء على سلطتهم (٣) . عندها حاول الامبراطور اعادة توطيد سلطته ، ولكن الاشيكاجا استنكر جزاءه الضئيل ، فأقدم سنة ١٣٣٦ على طرد دايجو الثاني من كيوتو ، وأحلّ محله امبراطورا دمية ، وبعد ذلك بسنتين ، اعطى نفسه لقب « شوجون » .

الحرب الأهلية الطويلة

بحلول ١٤٦٧ ، كانت القوة الاقتصادية والعسكرية المتصاعدة للأسر الاقليمية الكبرى قد تزايدت كثيرا . ولما ضعفت سلطة



٦

(٦) ـ على أثر انفتاح اليابان القسري للعالم سنة ١٨٥٤ ، خافت حكومة التوكوجاوا من هجوم غربي ، وأمرت ببناء أتون في نيرا ياما لانتاج مدفعية من الطراز الاوروبي ، فكان ذلك أحد المظاهر الاولى للتحديث العسكري في اليابان .



(٧) ـ على اثر الانتصار في معركة سكيجاهارا (١٦٠٠) ، أعاد أياسو رسم خارطة اليابان السياسية . ليخفف من الاخطار الممكنة على سلطته ، فجرد سبعة وثمانين اسرة من جميع اراضيها ، واتسعت بالتالي رقعة ممتلكات اياسو وحلفائه .



٨

(٨) ـ كان الامبراطور موتسوهيتو (١٨٥٢ـ١٩١٢) ، لا يتجاوز سن السادسة عشرة عندما اعيد المايجي الى الحكم (١٨٦٨) ، وقد لعب دورا هاما في تكريس شرعية حكمهم . وفي السنوات اللاحقة ، كان محورا للوحدة الوطنية ، وأيد سياسات التحديث . نقل بلاطه الى ايدو التي سماها طوكيو .

« الشوجونات » ، اندلعت الحرب الاهلية ، واستمرت طيلة مائة سنة . في غمرة هذا الاضطراب ، بلغ الاوروبيون اليابان ، واخذوا يؤثرون في سياساتها الداخلية .

عندما باشر اودا نوبوناجا (١٥٣٤ ـ ١٥٨٢) مهمته التوحيدية ، اعترضت سبيله قوى دينية ومدنية . لكنه أقدم في سنة ١٥٧١ على تدمير معابد الجيوش الرهبانية ، وبعد ذلك بسنتين قضى نهائيا على سلطة السلالة الاشيكاجية . الا انه اغتيل في كيوتو سنة ١٥٨٢ ، فواصل الحرب قائده الاكبر تويوتومي هيديوشي (١٥٣٧ ـ ١٥٩٨) حتى سيطر بسرعة على اليابان ، وقذف بجيوشه ضد كوريا . الا ان وفاته وضعت حدا لهذه المغامرات ، فآلت السلطة العليا في الداخل الى توكوجاوا اياسو الذي اصبح رسميا شوجونا سنة ١٦٠٣ . فعمل على توطيد السلام في جميع انحاء اليابان (٧) . على غرار اسلافه ، اعاد اياسو مسح الاراضي وتنظيم الضرائب . فضلا عن ذلك ، قام بما يلي : أبعد اعداءه الى المقاطعات النائية وحشر حلفاءه في اواسط البلاد ؛ أمر بمراقبة التحصينات ، واستخدام الجواسيس ؛ أجبر الأشراف او اسرهم على الاقامة في عاصمته الجديدة ايدو (فيما بعد طوكيو) ؛ جعل من الكنفوشية الايديولوجيا الرسمية لليابان . توخى من كل ذلك نشر فلسفة اجتماعية شاملة مستمدة من شرعة السلوك الساموارئية (بوشيدو) ، واقامة مثال زراعي اعلى للمجتمع الياباني . كان المحاربون في هذا المجتمع الذي أراده ، نخبة ذات امتيازات ، يليهم المزارعون ، وكان الحرفيون والتجار في الدرك الادنى . سار خلفاء اياسو على سياسته هذه وتوسعوا فيها (٤) .

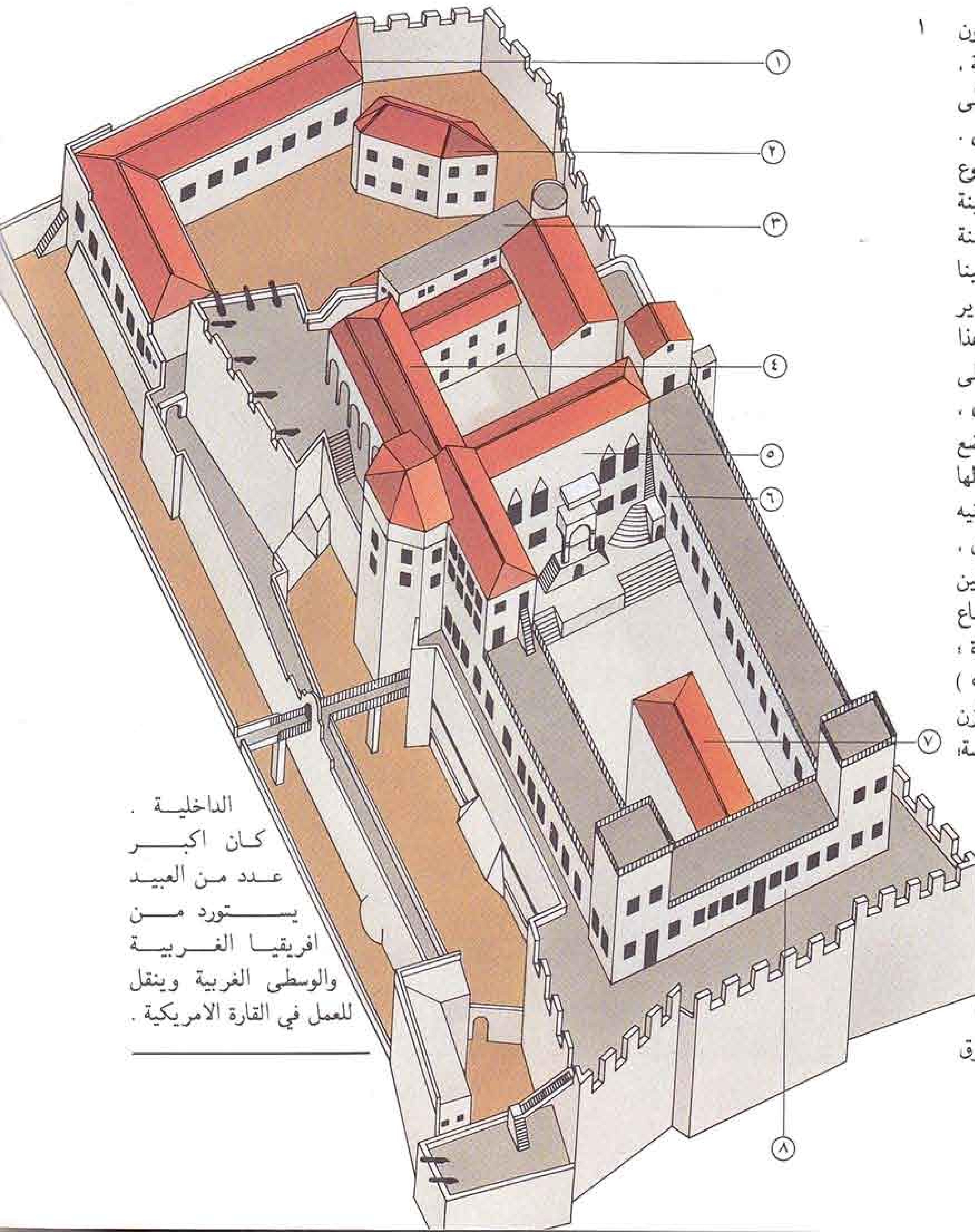
القرن التاسع عشر

كانت احدى نتائج السلام الذي شيده توكوجاوا ازدهار التجارة الذي زعزع سلطة الساموراي فراحت حكومة « الشوجون » ، في عدة مناسبات بعد ١٧٠٠ ، تحاول حل هذه المشكلة بالعودة الى مبادىء اياسو . فشجعت حياة التقشف وصرفت عددا من الموظفين . كذلك زرعت المزيد من الاراضي ، وحثت سكان المدن على العودة الى قراهم ، وأجبرت التجار على منح قروض للمحاربين وازدادت الرقابة . لكن لم يكتب لأي من هذه التدابير النجاح لمدة طويلة .

ابتداء من ١٨٥٩ ، راحت الدول الغربية تتعاطى التجارة في يوكوهاما وهاكودات وناجازاكي ، وازدادت الاتصالات الدبلوماسية ، وعقد التوكوجاوا اتفاقيات اخرى مع الدول الاجنبية . الا ان عددا من اليابانيين خشوا الاستعمار ، فأخذو يفتكون بالأجانب ، وراحت البوارج الحربية الاجنبية ترد على ذلك بأعمال انتقامية مدمرة ، فخيم على اليابان الشعور بأزمة وطنية عامة . عند ذاك اقدم التوكوجاوا على بناء البوارج الحربية والمدافع وباشر بعملية التحديث (٦) . الا ان تدابيره بدت غير كافية للمحافظة على الوطن . كان الاباطرة ، طيلة اجيال ، يحكمون كحكام شكليين في بلاطهم في كيوتو ، أما الآن ، فقد أخذ العديد من الناس ينطلقون الى الامبراطور ليستمدوا الوحي منه . وفي يناير ١٨٦٨ ، أعاد بعض المحاربين القادمين من المقاطعات الغربية سلطته (٨) ، فكان ذلك ايذانا بنهاية عهد التوكوجاوا ، وبدء عصر امبراطوري حديث .

افريقيا السوداء ١٥٠٠ - ١٨٠٠

منذ أواخر القرن التاسع الميلادي ، كان شمال افريقيا يتاجر مع السودان الغربي عبر الصحراء . وبسبب هذه التجارة الواسعة في الذهب والعاج والرقيق من الجنوب ، والنحاس والملح والمصنوعات من الشمال ، انتشر الاسلام بين جماعات كبيرة في تلك المنطقة . كذلك كان للعرب تجارة واسعة مع شرق افريقيا منذ الازمنة القديمة ، اذ كانت هذه التجارة جزءا من الشبكة التجارية التي تشمل المحيط الهندي . لكن منذ اواسط القرن الخامس عشر ، أخذت الصورة تتبدل . فقد وصل البرتغاليون يومها الى غرب افريقيا ، وتبعهم الهولانديون (القرن السادس عشر) ، ثم البريطانيون والفرنسيون وغيرهم بعد قرن



١

(١) ـ كان الاوروبيون يبنون المراكز التجارية المحصنة ، وكانوا يسمونها المصانع ، على الساحل الافريقي الغربي . كان اول مصنع من هذا النوع برتغاليا ، وقد بني في مدينة المينا في ساحل الذهب سنة ١٤٨١ ، التي يذكر اسمها ، المينا (المنجم) ، بمادة التصدير الأولى ، الذهب . لكن هذا المصنع اصبح مع الزمن ، على غرار أكثر المصانع الاخرى ، قاعدة لتجارة الرقيق . وضع تخطيطه لكي يكون بلدة لها تحصينات قلعة . وكانت مبانيه الرئيسية : (١) المخازن ، وفسحات المنامة . ودكاكين الحدادة ؛ (٢) أماكن الصناع ومشغلهم ؛ (٣) محل النجارة ؛ (٤) ايوان الحاكم ؛ (٥) منزل الحاكم ؛ (٦) مخازن واماكن المنامة ؛ (٧) الكنيسة ؛ (٨) المستشفى .

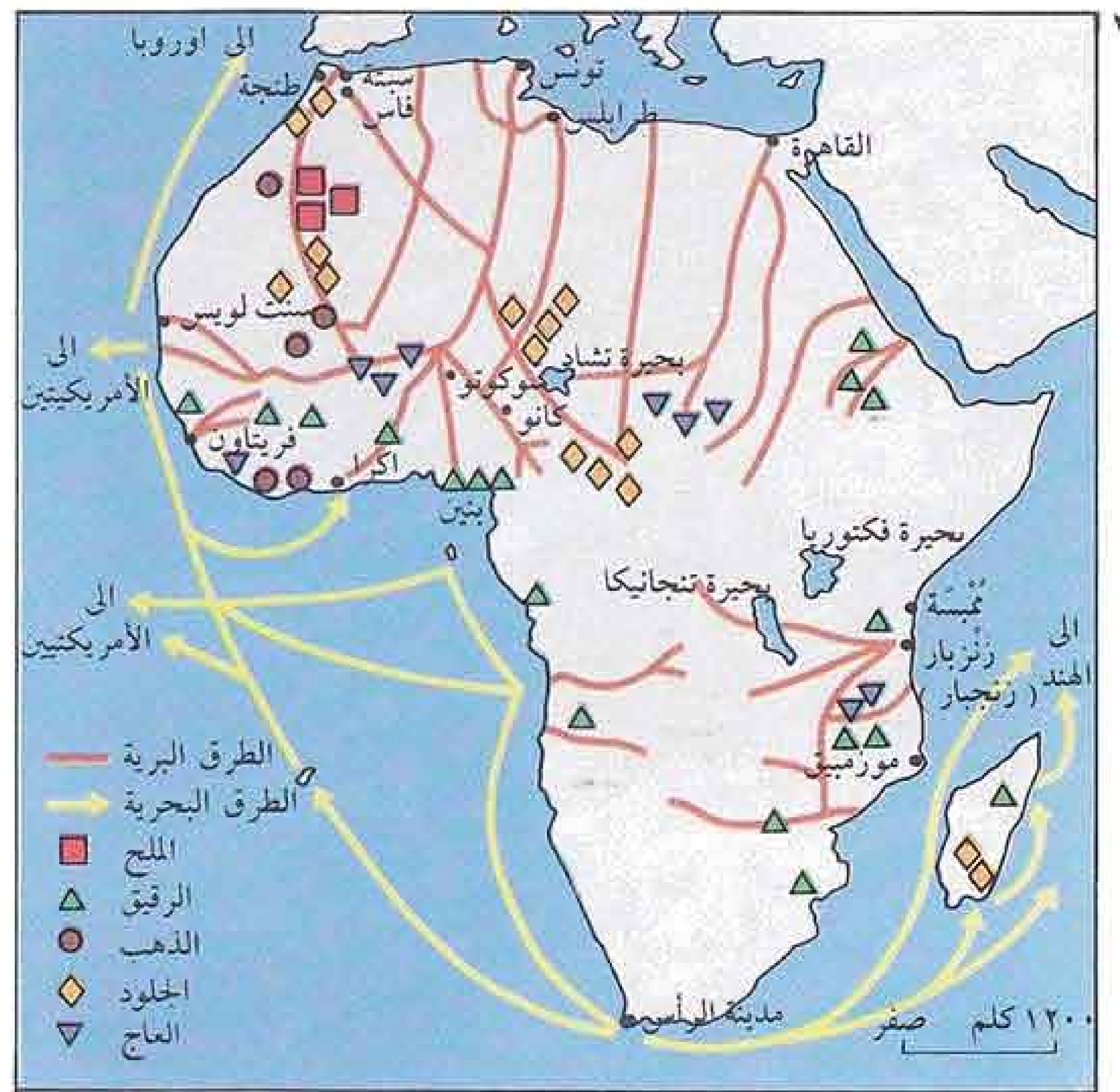
(٢) ـ مع ان افريقيا كانت موردا لعدد من السلع المتنوعة الا ان تجارة الرقيق كانت صلة الوصل الرئيسية مع العالم الخارجي ، كما انها كانت الحافز لانشاء الطرق الداخلية . كان اكبر عدد من العبيد يستورد من افريقيا الغربية والوسطى الغربية وينقل للعمل في القارة الامريكية .

من الزمن ، فكان ذلك بدء أزمنة وعلاقات عاصفة .

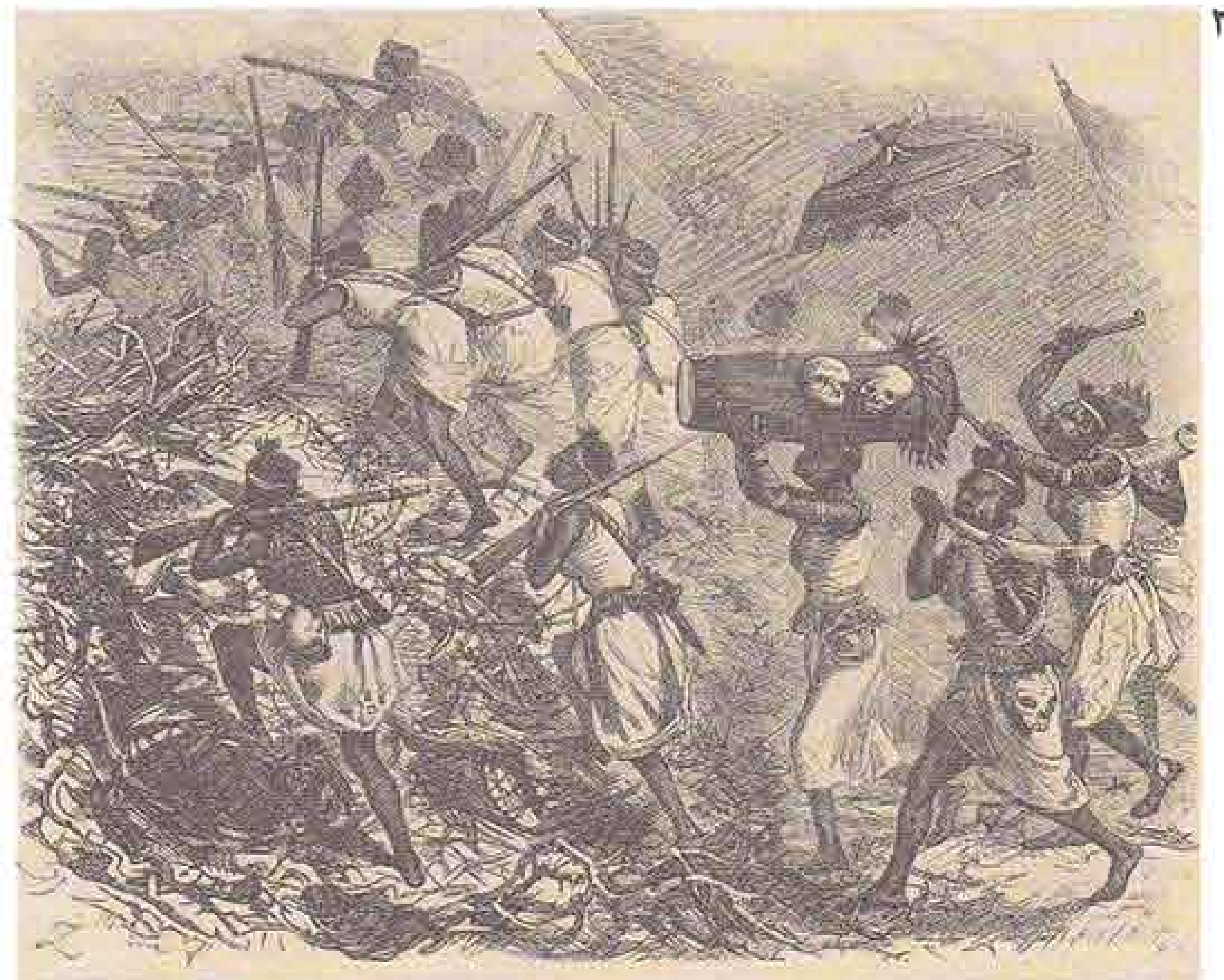
السكان الأفارقة واتجاهاتهم

بسبب ما أشرنا اليه من اتصالات ، ولأن الطرق الصحراوية كانت تبعد عن الموانىء التي أقامها البرتغاليون (مثل المينا ١٤٨١ على ساحل الذهب) ، لم يقم اي صدام بين نظامي الاتجار الصحراوي والبحري ، وان كان الثاني انتزع بعض التجارة من الاول . ويمكن القول اجمالا بأن الجماعات المسلمة في غرب افريقيا ظل اتجاهها ، تجارة وعلما وعقائد ، نحو الشمال الافريقي العربي المسلم . كما ان الجماعات المسلمة في شرق افريقيا كانت دوما متجهة نحو الجزيرة العربية (عمان وحضرموت والحجاز) . أما سكان مناطق المراعي المعروفة باسم (السافانا) في الغرب ومناطق الغابات

٢



٣



(٣) ـ كان الملك اغادجا ، عاهل مملكة فون في الداهومي ، التي يرجع اصلها الى اواسط القرن السابع عشر ، على رأس دولة قوية . كان بامكانه تسخير عدد كبير من الناس لخدمته ، بما فيهم وحدات النساء المقاتلات الشهيرة ، لحماية الدولة من اعدائها .

٤

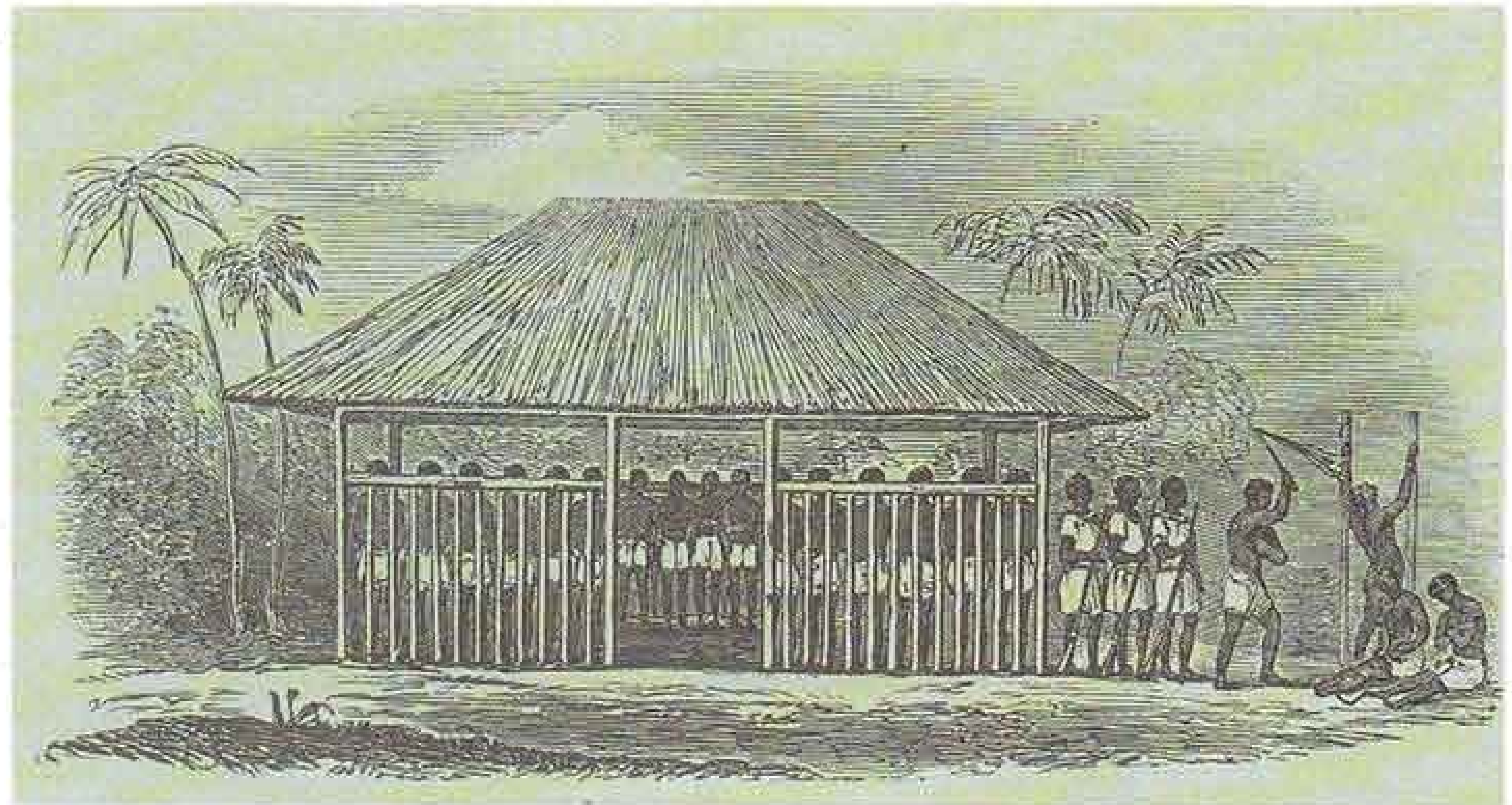


(٤) ـ التأثيرات الاسلامية من افريقيا الشمالية والاوروبية من وراء البحار هي من مميزات التاريخ الافريقي في القرنين السادس عشر والسابع عشر. كانت المجتمعات الافريقية تتقبلها بمرونة لكن بحذر ، وظهر ذلك في فنها . لمملكة بنين ، التي تعرف اليها البرتغاليون في القرن الخامس عشر ، تقليد فني غني لا سيما في نحت البرونز ، كما يبدو هنا . يرتكز نحت البرونز البنيني على تقليد يرجع الى ما قبل الف سنة من نشوء المملكة ذاتها ؛ مع ذلك تمكن الفنانون البنينيون من استيعاب بعض التأثيرات الثقافية الآتية من الغرب دون التخلي عن تقاليدهم العريقة.

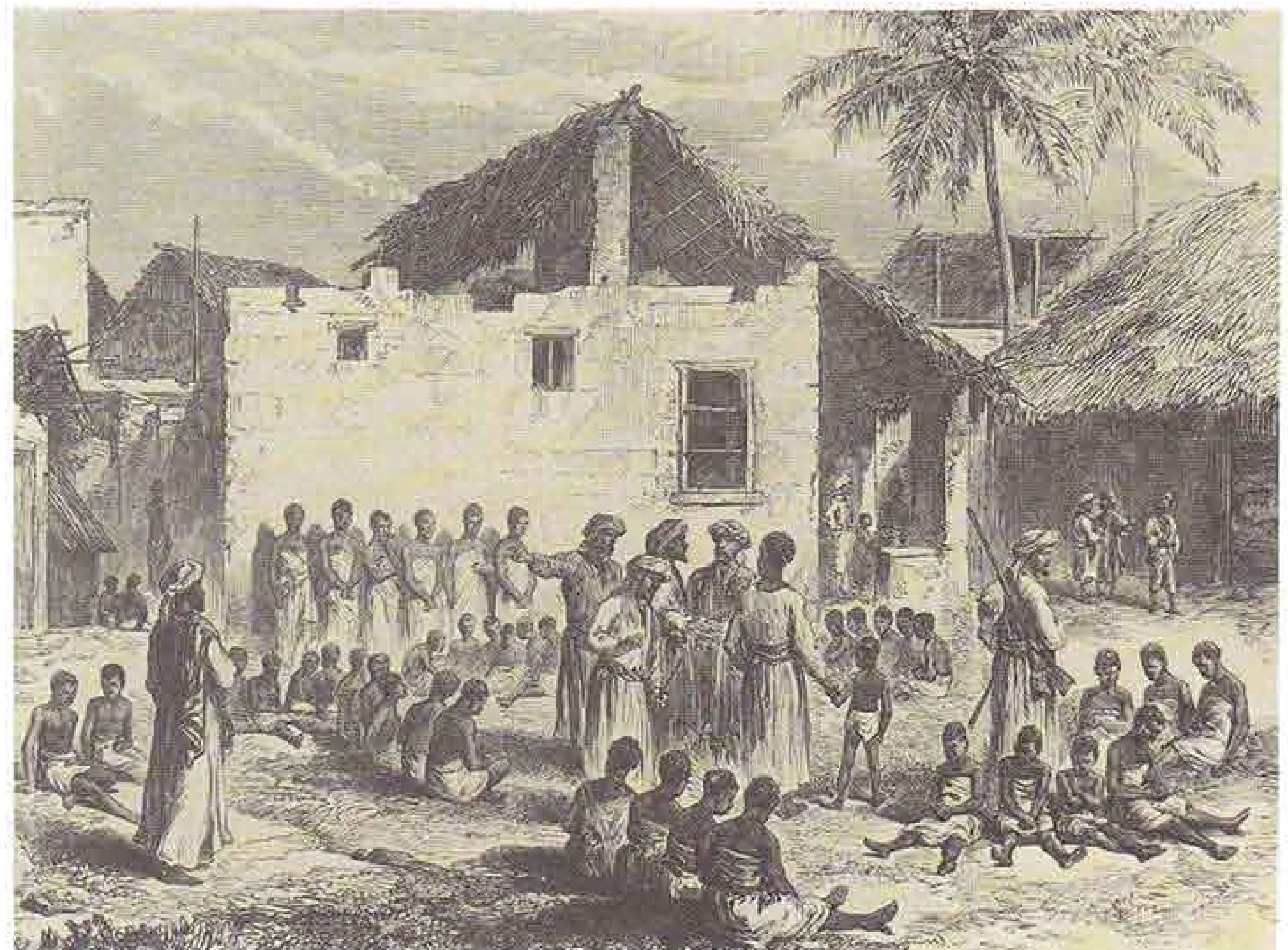
المدارية والاستوائية ، فقد أخذوا يتجهون نحو الجماعات المسيحية الاوروبية لتوطيد علاقاتهم بالخارج . وقد كان للعلاقات بين السودان الغربي وشمال افريقيا أثر كبير في السودانيين ، اذ ان الاسلام فيه قد تقوّى ، وقامت دولة اسلامية صغرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر في بلاد الحوصا (شمال نيجيريا) . وكان من نتيجة ذلك قيام عثمان دان فوديو بانشاء مملكة سوكوتو (١٨٠٧ م) واعلان الجهاد في تلك المنطقة . أما الاوروبيون ، فلم يؤثروا كثيرا في المناطق التي تمركزوا فيها في السواحل الغربية لافريقيا في هذه الفترة الاولى (١٥٠٠ ـ ١٨٠٠) ، سوى انهم نشروا المسيحية بين فئات من السكان هناك .

التجار الغربيون

لما وصل البرتغاليون الى غرب افريقيا

٥


٦

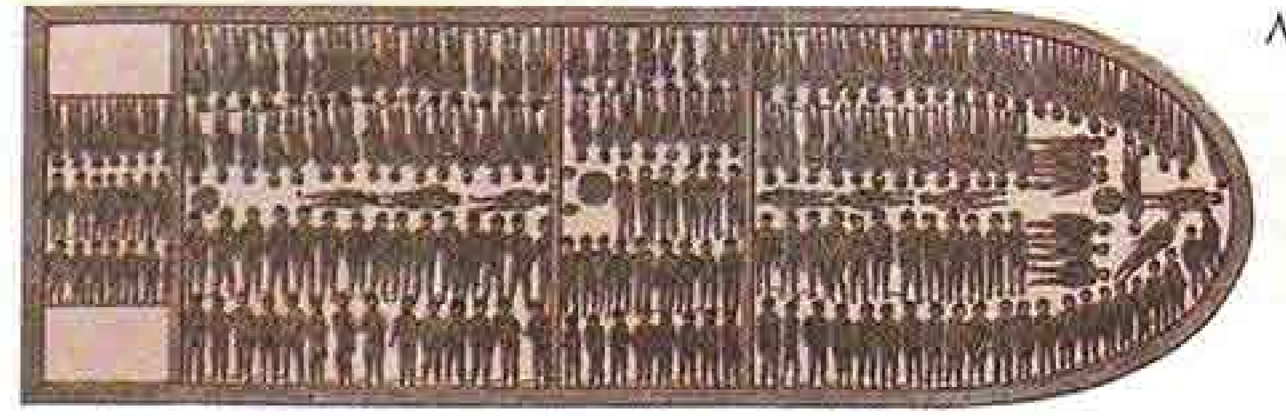

٧


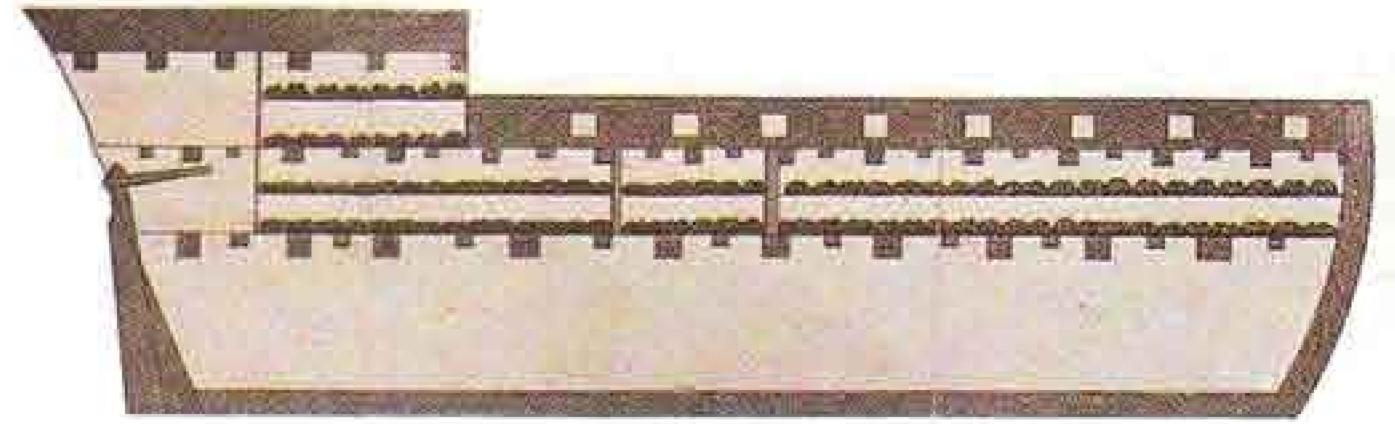
(٥) ـ قبل نقلهم بحرا الى القارة الامريكية . كان العبيد يُزجّون في محاجر حيث كانوا يعاملون كأية سلعة . وكانت تجارة الرقيق تدرّ من الربح اليسير على التجار الغربيين بحيث ان اولئك لم يفكرّوا بتطوير تجارات أخرى على نطاق واسع لغاية القرن التاسع عشر .

(٦) ـ بلدة كانو في شمال نيجيريا بلغت الغاية في نفوذها التجاري في القرن الثامن عشر ، ووافق ذلك قيام حركة اصلاحية احيائية اسلامية . فقد انشأ عثمان دان

اولا ، انصبّ اهتمامهم ، مثل المغامرين الاوروبيين في العالم الجديد ، على الذهب والمنتوجات المدارية مثل التوابل وجوز الكولا ، كما كانوا يعنون ايضا ببيع مصنوعاتهم للسكان . لكنهم لم يلبثوا ، شأنهم في ذلك شأن من تبعهم من الهولانديين والبريطانيين والفرنسيين وغيرهم ، ان تحققوا بانفسهم ان المتجر الذي يعود عليهم بالربح الوفير انما هو الاتجار بالبشر (٢ ، ٥) . لقد

٨





فوديو ، الذي كان زعيما لاحدى القبائل النيجيرية الرئيسية وهي قبيلة الفولاني ، مملكة سوكوتو سنة ١٨٠٧ . وبعد سنتين من ذلك استولى على كانو .

(٧) - بقيت سوق زنجبار مركز تجارة الرقيق على ساحل افريقيا الشرقي بعد انسحاب البرتغاليين منه في آخر القرن السابع عشر . هنا كان التجار يبتاعون العبيد من الحكام المحليين الذين كانوا يهاجمون جيرانهم الضعفاء ويسترقونهم ، ثم يقايضون بهم القماش والبنادق والمدافع .

(٨) - يكشف تصميم السفينة بروكس (احدى سفن الاتجار بالرقيق في القرن ١٨) عن المعاملة اللاانسانية التي كانت تتعرض لها « الشحنة » من الناس من جراء طريقة حشر افرادها في السفينة . فقد كان اجتياز بعض خطوط الاطلسي المشهورة بصعوباتها يؤدي ، بسبب تلك الطريقة وذلك التصميم ، الى موت الكثيرين ، الأمر الذي جعل شحنة الرقيق الى العالم الجديد تدر ربحا اقل من شحنة السكر والتبغ والقطن المنقولة الى اوروبا في طريق العودة .

كانت التجارة بالرقيق الافريقي معروفة من قبل ، لكن بلاد العالم الجديد في امريكا الجنوبية والوسطى وجزر البحر الكاريبي وجنوب امريكا الشمالية كانت الآن بحاجة الى قوى بشرية كبيرة : لاستغلال مناجم الفضة ، وللعمل في المزارع المدارية لانتاج السكر والبن والقطن .

أربح تجارة

فبين سنة ١٤٥١ ، وهي السنة التي شحنت فيها اول جماعة في هذه التجارة الهمجية عبر المحيط الاطلسي ، وبين السبعينات من القرن التاسع عشر ، نقل من افريقيا الى الامريكتين ما يقدر بعشرة ملايين من السكان ، وهذا أكبر تهجير (تجاري) عرفه التاريخ ، وذلك بعد اكبر عملية فناء عرفها البشر ايضا وهي ابادة سكان امريكا الاصليين . وقد كانت القمة في هذا العمل التجاري بين سنتي ١٧٦٠ و ١٨٠٠ . ففي هذه السنين الخمسين انتزع ما يزيد عن اربعة ملايين افريقي من بيوتهم وحملوا الى العالم الجديد . وقد جاء القسم الاكبر من الرقيق الافريقي من المناطق الداخلية الممتدة من السنغال الى انغولا . وقد جنى الوسطاء الافريقيون ايضا ارباحا طائلة .

كان البرتغاليون ووكلاؤهم أكثر مغامرة من غيرهم في منطقة مصب نهر زائير (الكونغو) وفي انغولا للحصول على الرقيق . وقد توقفت التجارة بالرقيق من غرب افريقيا عندما ألغت بعض الدول تجارة الرقيق . الا ان شبكة من تجار الرقيق استمرت في العمل في شرق افريقيا في القرن التاسع عشر ، وذلك لتزويد سوقي البرازيل وكوبا بحاجتهما من هذه السلعة البشرية .

الفن الأفريقي

ليس لدينا حتى الآن المام شامل بولادة الفن الافريقي وتطوّره ، ومن الصعب أحيانا المقارنة بين أساليب تنتمي الى منطقة جغرافية واحدة ؛ مثال على ذلك ان برونزيات شعب ايبو في نيجيريا لا تتّسم بقرابة اسلوبية مع برونزيات شعبي ايف وبنين ، بالرغم من التقارب بين الحضارتين .

نشأة الفن البنيني

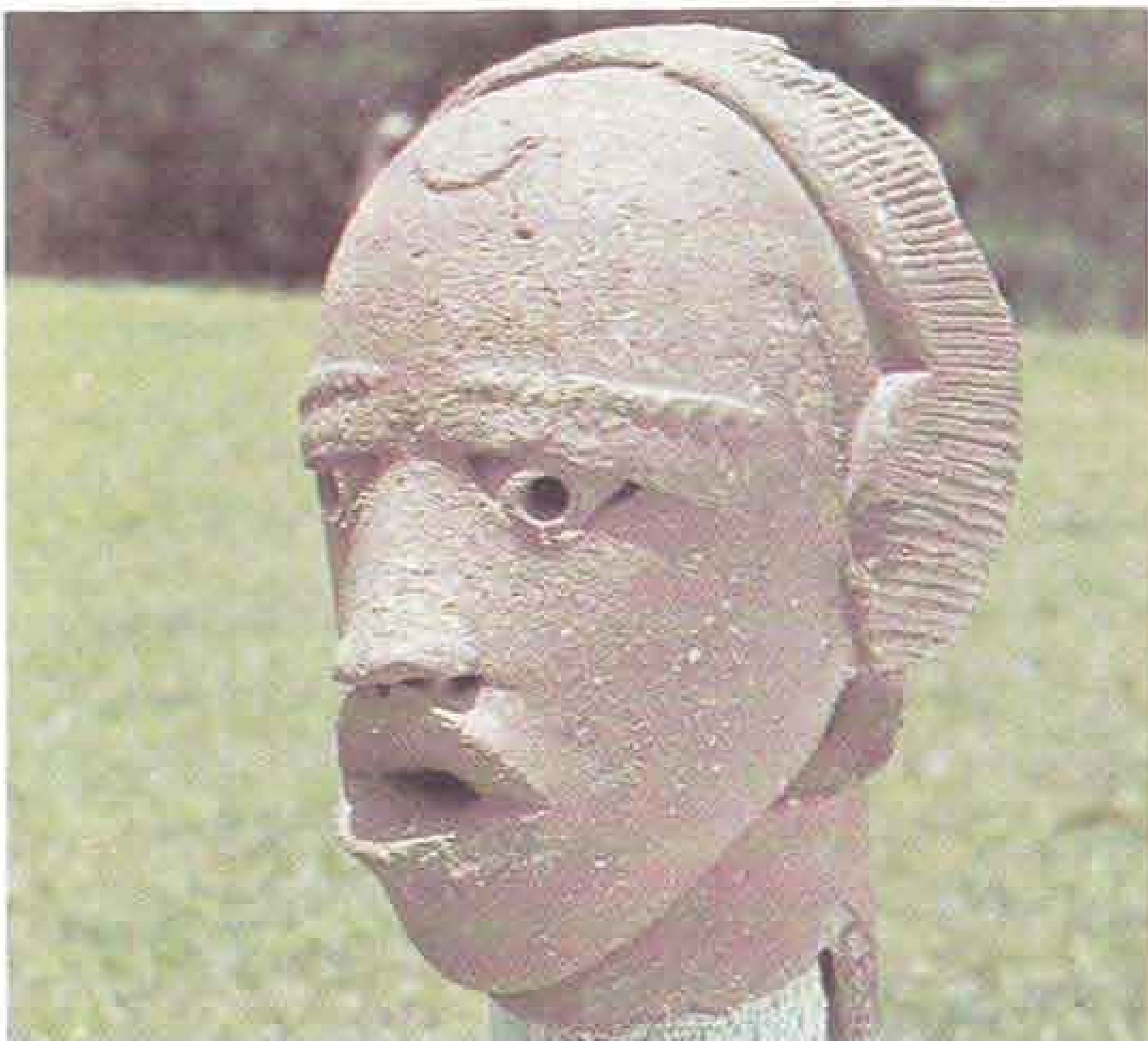
يتميّز الفن البنيني في دلتا النيجر بأنه يتيح المجال للبحاثة بالاطلاع على العديد من القطع النحاسية والخزفية والحديدية والخشبية فضلا عن التقاليد المكتوبة او المتوارثة عرفا ، كما يثبت ذلك في الطقوس

١


(١) ـ شعب نوتا ، في جنوب السودان الشرقي ، هو واحد من عدد من الشعوب التي كانت لها طرق معقدة لتلوين الأجسام . كانت بعض النماذج تزيينية صرفا . وكانت مواضيعها تُنتقى لغايات جمالية . لكن كانت هنالك نماذج بدون طابع تزييني ، على ما يبدو في الصورة . على انه في كل الحالات ، كان التلوين يتوقف على جمال جسم الشخص ومنزلته الاجتماعية . كان لكل قبيلة نوعها الخاص من اللون الأحمر او اللون الاصفر ، ومع ان الفروق كانت ضئيلة ، كان افراد الجماعة يرونها بوضوح .

٢


(٢) ـ الرسوم والنقوش الصخرية كالتي عثر عليها في تسّيلي هي اقدم آثار الفن الافريقي . تطوّرت على مدى ٥٠٠٠ سنة في اربع حقبات متتالية . في المرحلة الاولى تعكس الحيوانات المتوحشة، على ما يبدو ، حياة الصيادين . أدخلت فيما بعد الماشية والخيل والجمال . عثر ايضا على رسوم جدرانية في مناطق متعددة من افريقيا لاسيما الجنوبية منها . والرسم الجداري موجود على وجه العموم في أكثر معابد القبائل الافريقية .

٣


المحلية والبنيات السياسية والملاحظات التي دونها الاوروبيون منذ نهاية القرن الخامس عشر. هذه المصادر مجتمعة تشكّل سبيلا للتأريخ النسبي او المطلق للتغيّرات الاسلوبية عبر القرون الخمسة الأخيرة. وللبرتغاليين، وهم أول الاوروبيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع البنين، تأثير واضح على الفن البنيني، على ان تقنات سبك النحاس كانت سابقة لقدومهم كما يشهد على ذلك فن الايف (٧). ظهر هذا التأثير في الاسلوب لا في المضمون الفني، فالبرتغاليون الأوائل لم يعلموا الناس صب النحاس لكنهم حملوا اليهم للتجارة كميات من النحاس بشكل أساور مقابل تزودهم بالبهارات والعاج ... والعبيد. ولعل الفنان البنيني تعلم من الاشياء الغريبة التي حملها اليه البرتغاليون من الشرق واوروبا ان يرسم اشكالا جديدة لمواضيع قديمة.

٤



٥



(٣) ـ أقدم نماذج النحت المعروفة في افريقيا جنوب الصحراء هي الأجسام والرؤوس الفخارية التي خلفتها حضارة نوك (٥٠٠ ق. م ـ ٢٠٠ م) في شمال نيجيريا. وقد عثر على تماثيل بشرية وحيوانية. بعض الرؤوس التي عثر عليها بالحجم الطبيعي تقريبا، ويبدو انها فصلت عن أجسام كبيرة متناسبة معها. تدل عملية شيّ الفخاريات الصخرية والمعقدة التركيب على ان المستوى التقني كان رفيعا. وهذا المستوى هو ما وصلت الى مثله مدينة ايف (من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر للميلاد). وهي مدينة قديمة في يوروبا. تزودنا حضارة نوك ايضا بأقدم شواهد على صناعة الحديد في غرب افريقيا في تلك الحقبة.

(٤) ـ كان يصنع لكل ملك من شعب باكوبا من شعوب زائير تمثال من الخشب اثناء اجراء طقوس تنصيبه، لكي تجد روحه الثانية مكانا تقيم فيه. جاء بهذا التقليد حول سنة ١٦٥٠ م شمبا بولونجونجو، وهو الملك الثالث والتسعون من ملوك باكوبا، وهذا التمثال هو تمثاله. كان شمبا عظيما في نزعته الى التجديد، فهو الذي أدخل صناعة الحياكة والنسيج الى بلاده، كما دشن فن الحفر على الخشب.

---

(٥) ـ ان شعب دوجون (مالي) يرمز الى فكرة الكون بصورة دائرتين تمثل احداهما السماء والأخرى الارض وتصل بينهما شجرة. هذا ما يمثله المقعد الظاهر هنا. الشخصان الجالسان عليه والاشخاص المحيطون بقاعدته يرمزون الى الارواح الاولية التي نزلت من السماء الى الارض. قبل نزولهم يُضحى بأحدهم لأجل السماء ولدى وصولهم يُضحى بآخر لأجل الأرض. النحت الدوجوني قائم بأكثره على الطقوس.

يظهر الفن الافريقي اليوم ، كما كان من قبل ، عملا يقوم به الفنانون افرادا . والعمل في المعادن سكبا وصبا وسبكا ، يقتضي التفرغ ، بينما الحفر في الخشب لا يتطلب سوى تفرغ جزئي . والاعتراف بالفنان ، أيما كان نتاجه ، يوسع دائرة اعماله ويشجعه كثيرا . كان الحفر في الخشب والمعادن عملا يقوم به الرجال ، فيما كانت تقوم النساء بصنع الفخار (باستثناء منطقة بنين وربما ايف فهو هناك من عمل النحاسين) . ويحافظ الأفارقة على هذا التقسيم في العمل . ففي نيجيريا ينسج الرجال على نوع من النول ، أما النساء فينسجن على نوع آخر من النول .

العابر وغير المنتهي

فضلا عن المنحوتات الخشبية او المعدنية والفخاريات كانت هنالك بعض الفنون التي

٦

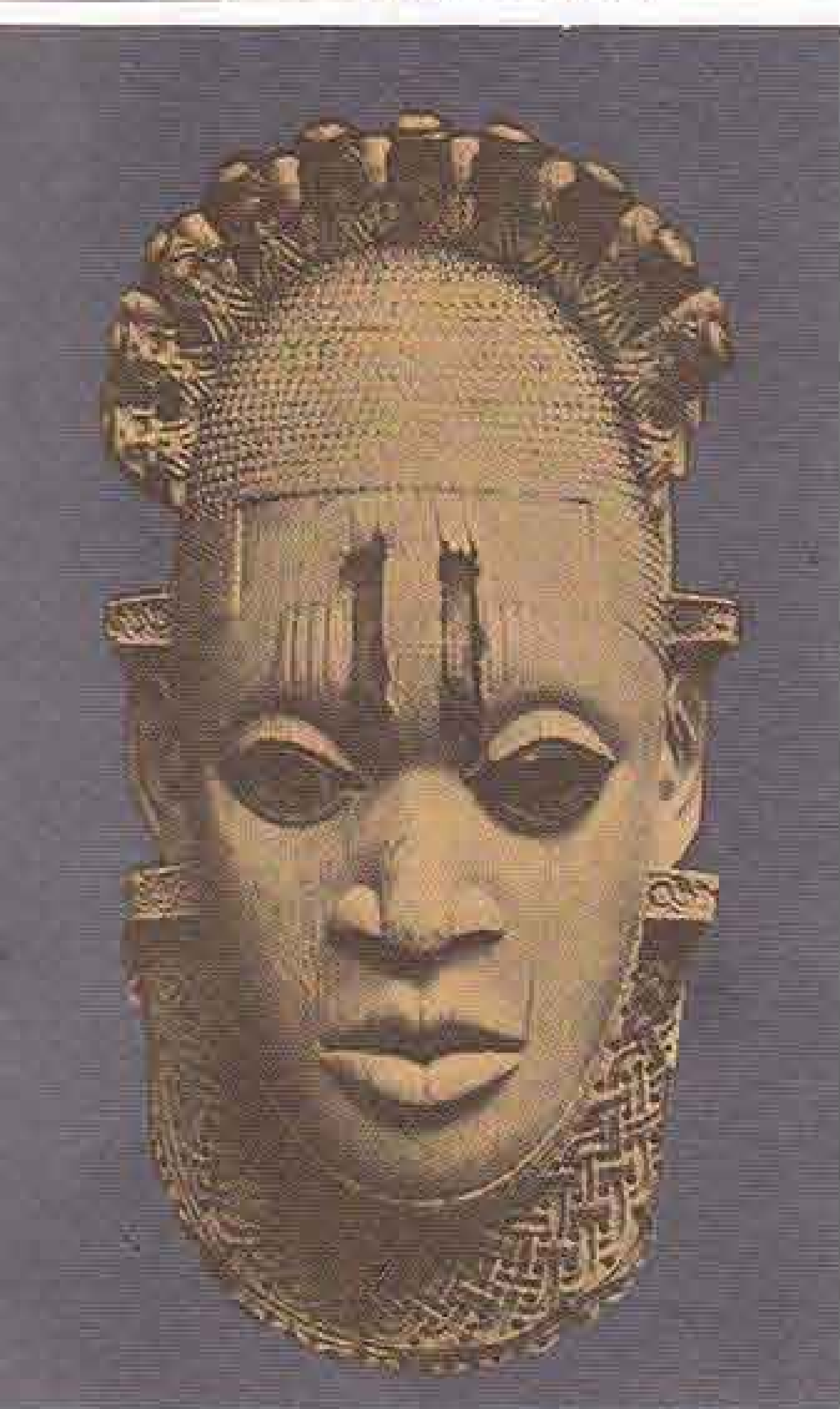

(٦) - تم نحت هذا الباب المزدوج سنة ١٩١٥ لقصر الملك ايكبري - ايكيتي . انه من اعمال النحات الكبير اولوي ديز وهو يمثّل الملك مستقبلا أول حاكم بريطاني في مطلع القرن . الأعمال الفنية على الخشب لا تعمّر طويلا في افريقيا ولئن كانت أجمل النحوت المعروفة لا ترجع الى اكثر من قرن فان أسلوبها الفني قديم جدا .

٧


(٧) - صنع هذا التمثال النحاسي في ايف القديمة ، مع العلم انه عثر عليه في منطقة بعيدة الى الشمال في قرية على نهر النيجر . وقد عثر المنقبون على عدد من الرؤوس والاجسام المصنوعة من الفخار أو النحاس ، والتي تمثل اسلوبا طبيعيا ، الى جانب مصنوعات أخرى من الحجر والزجاج .

٨


(٨) - عثر على هذا الرأس الخزفي في تلّة لوزيرا ، على الضفة الشمالية من بحيرة فكتوريا بأوغندا . ولا نعرف شيئا عن أصله أو تاريخ صنعه . الا ان النحوت الخزفية موجودة في جميع أنحاء افريقيا . الحضارات القديمة التي ازدهر لديها هذا الفن بصورة خاصة كانت حضارتا نوك وايف في نيجيريا وحضارة ساو في منطقة بحيرة التشاد في افريقيا الوسطى .

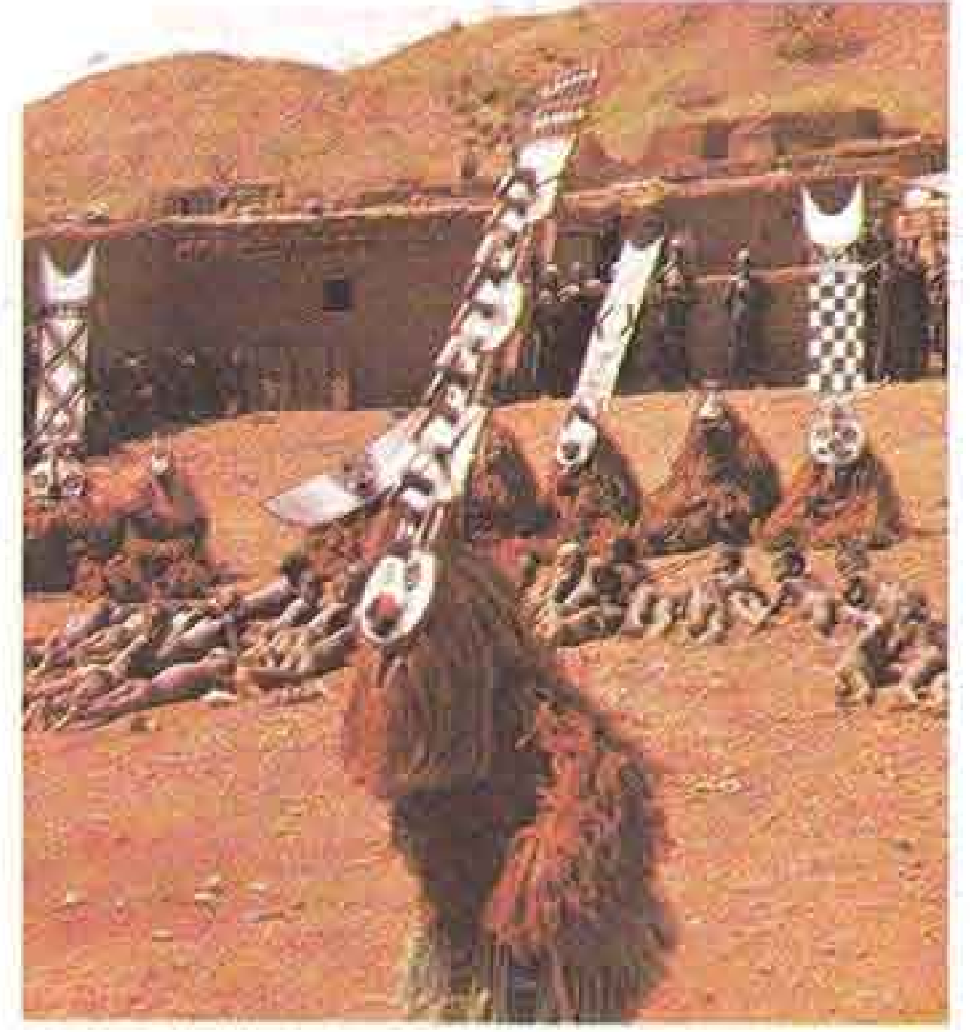
٩


لم تعمّر طويلا كالزجاجيات وصناعة السلال والأعمال الجلديّة وصنع الحليّ (١٠) وفنون البناء (٦) وتعتبر اعمالا عابرة . حتى المنحوتات الخشبية فقد كان بالامكان اكمال تزيينها من قبل الذين تؤول اليهم باضافة الزخارف اليها سواء باللؤلؤ أو بالأقمشة وقطع الزجاج والرسوم ...

قيل خطأ ان « الفن للفن » غير موجود في افريقيا . يمكن فعلا ان يكون تمثال ما لملك (٧) أو أحد الجدود أو معبود او عابد او لقوّة سحرية حارسة (٨) ؛ لكن هنالك اعمال فنية صنعت لغايات جمالية صرف أو تزيينية . ولربما كانت الاقنعة (٩) تساعد الذين يلبسونها على تجسيد روح او فكرة ما ، ومنها ما كان مشحونا بطاقة قوية وبمدلولات طقسية عميقة ... لكن بعضها كان يستعمل للزينة فقط او كلباس لبهجة صاحبه .

تكاد أعمال الحفر والنحت الافريقية بالاجمال ، تنحصر في حوض النيجر في غرب افريقيا وحوض زائير (الكونغو) في وسطها . ويعود ذلك الى وجود المواد الرئيسية والى الاستقرار الاقتصادي الذي تيسره الأرض الطيبة . غير ان المنحوتات ، وان لم تتخذ دائما طريق المتاحف فلا شك ان منها اعمالا غنية وعريقة أتى عليها الزمن .

١٠



(٩) ـ كان القصد الوحيد من الفن البنيني بنيجيريا هو تمجيد الملك . فقد كانت الصيغ الرئيسية للمسبوكات النحاسية رؤوسا تذكارية أعدت لتوضع على مذابح الموتى ولوحات مستطيلة كانت ترفع ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، على اعمدة خشبية قائمة في القصر . هذا القناع مصنوع من العاج يلبسه الملك كجزء من ثوبه الاحتفالي ، ويعلوه تاج تزيّنه رؤوس برتغالية . تمت أول زيارة للبرتغاليين لبنين في سنة ١٤٨٦ . والادعاء بان سبك النحاس جاء شعب بنين مع البرتغاليين يدحضه تحدر التقليد الفني في بنين من فن ايف القديم ، اذ كان فن ايف موجودا قبل وصول البرتغاليين الى افريقيا .

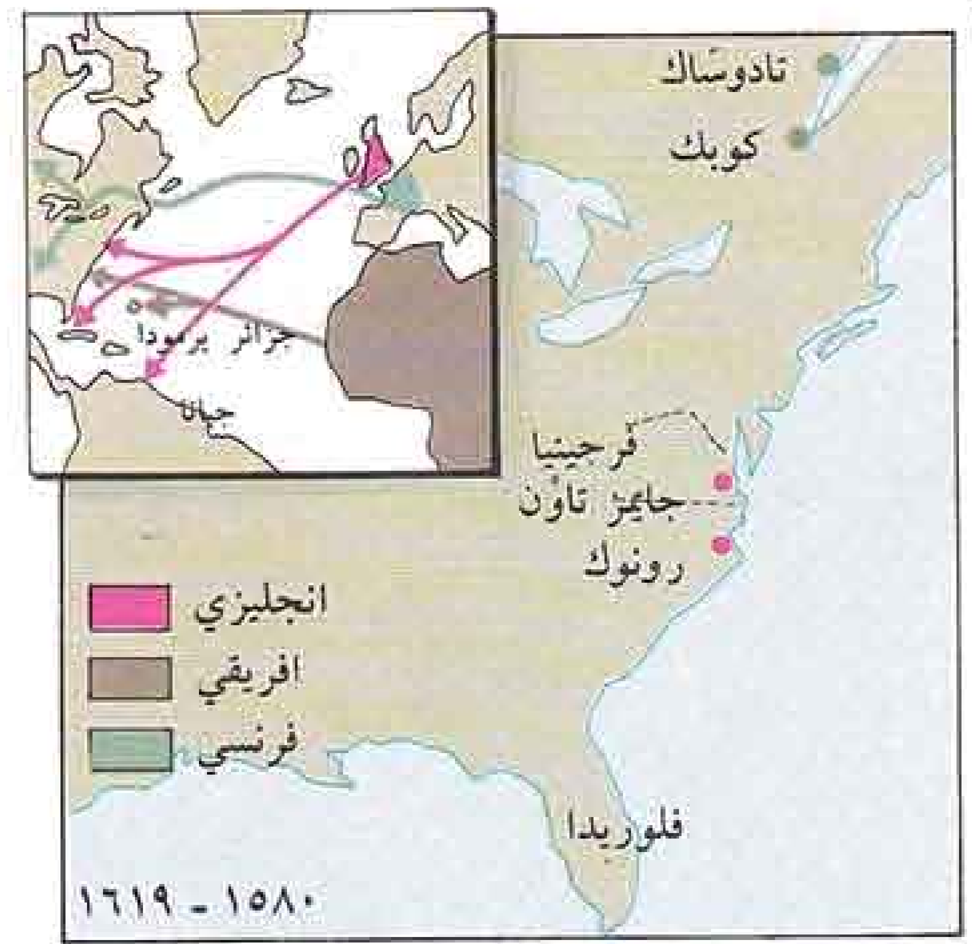
(١٠) ـ تُلبس هذه الاقنعة اثناء احتفالات تلقين الاسرار لدى شعب بوا أو بوبوأولي في فولتا العليا . انها تمثل حيوانات وطيوراً وأرواحاً معيّنة يعطي اشتراكها الرمزي بعض الدلائل على مدلول الطقوس وقيمتها . تتضمن احتفالات التلقين رقصات طقسية وتضحيات وصلوات وأغاني لكل منها دورها .

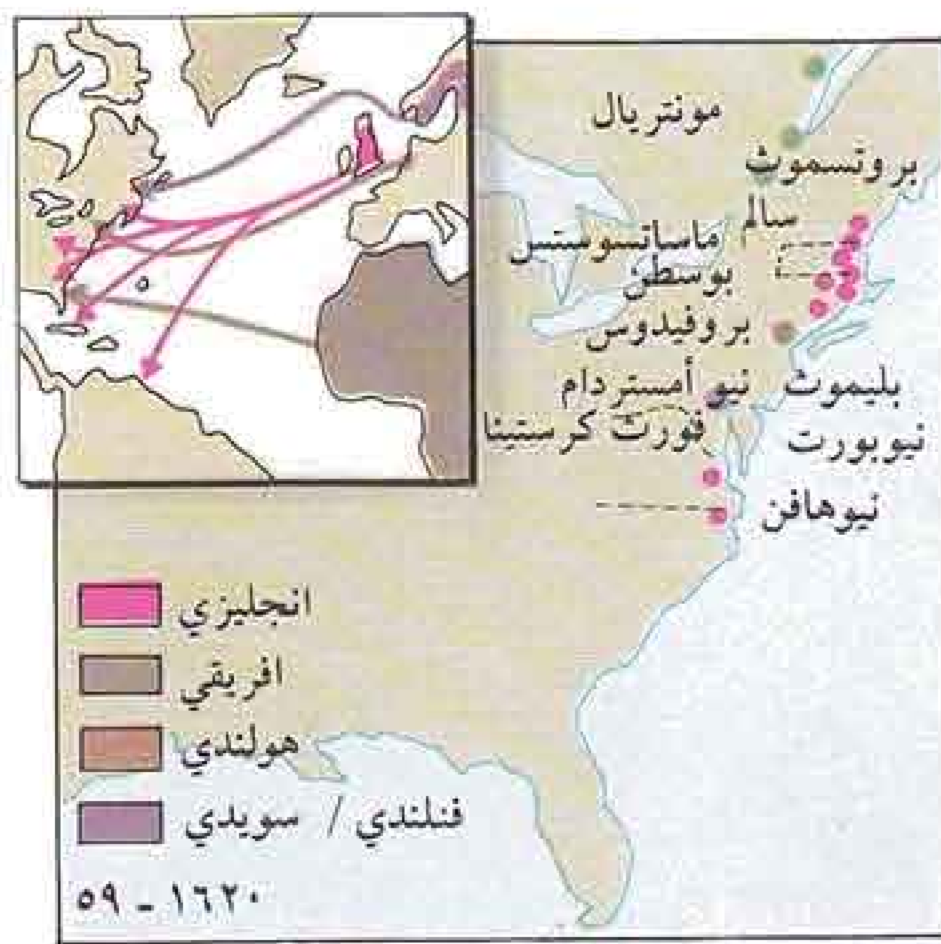
التعدد في الوحدة

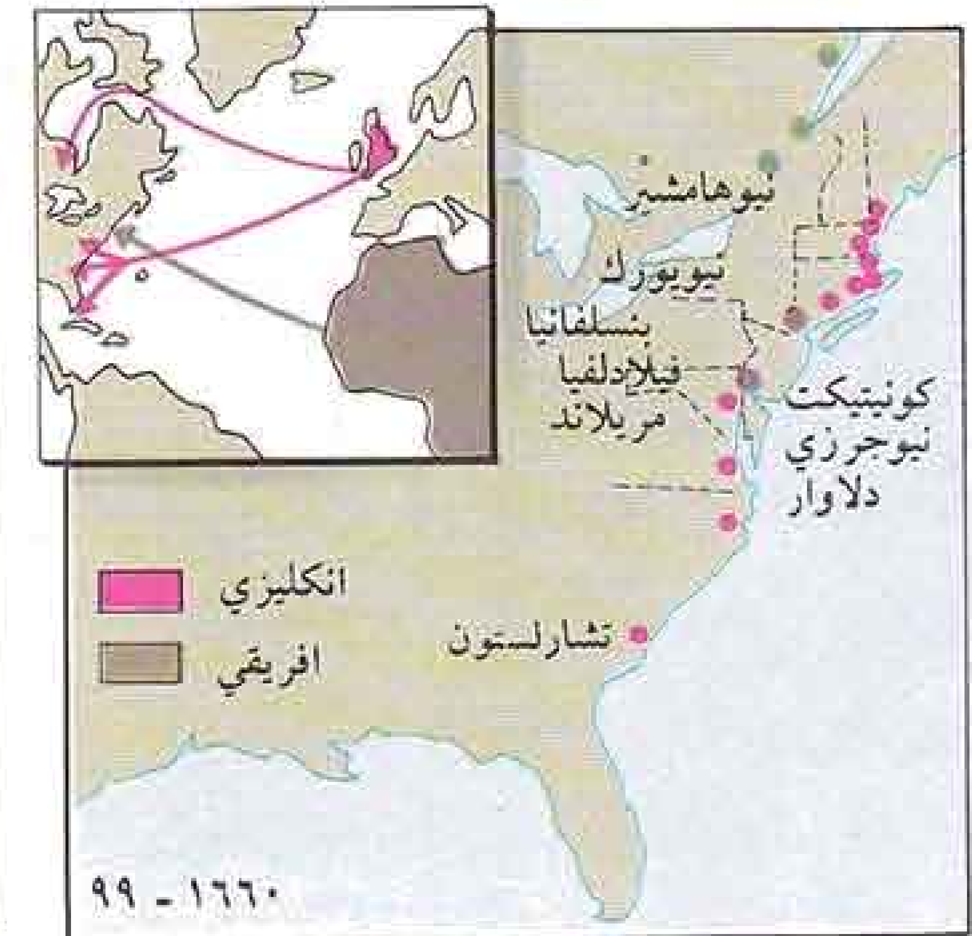
من الخطأ الاعتقاد بان شعبا لا نحت لديه هو شعب لا فن لديه . لم يكن النحت والحفر في افريقيا الا وجها من وجوه الفن المتعددة في تلك القارة ، كالعمارة والرسم الجداري والرسم على الأقمشة والخزف والأعمال الجلديّة والتطريز وصنع السلال .. والفن العالمي بالدرجة الاولى وهو تزيين الجسم البشري بالوشم والتلوين . الى جانب هذه الفنون البصرية الغنية المتنوعة ، لدى شعوب افريقيا انماط أخرى من الفنون العريقة كالموسيقى والغناء والرقص الرائع الذي لا يُضاهى . أضف الى ذلك الشعر والاشكال الأخرى من الأدب غير المكتوب (وبعضها مهدد بالزوال) التي تتناقلها الأجيال وتشكل جزءا من تراث عظيم .

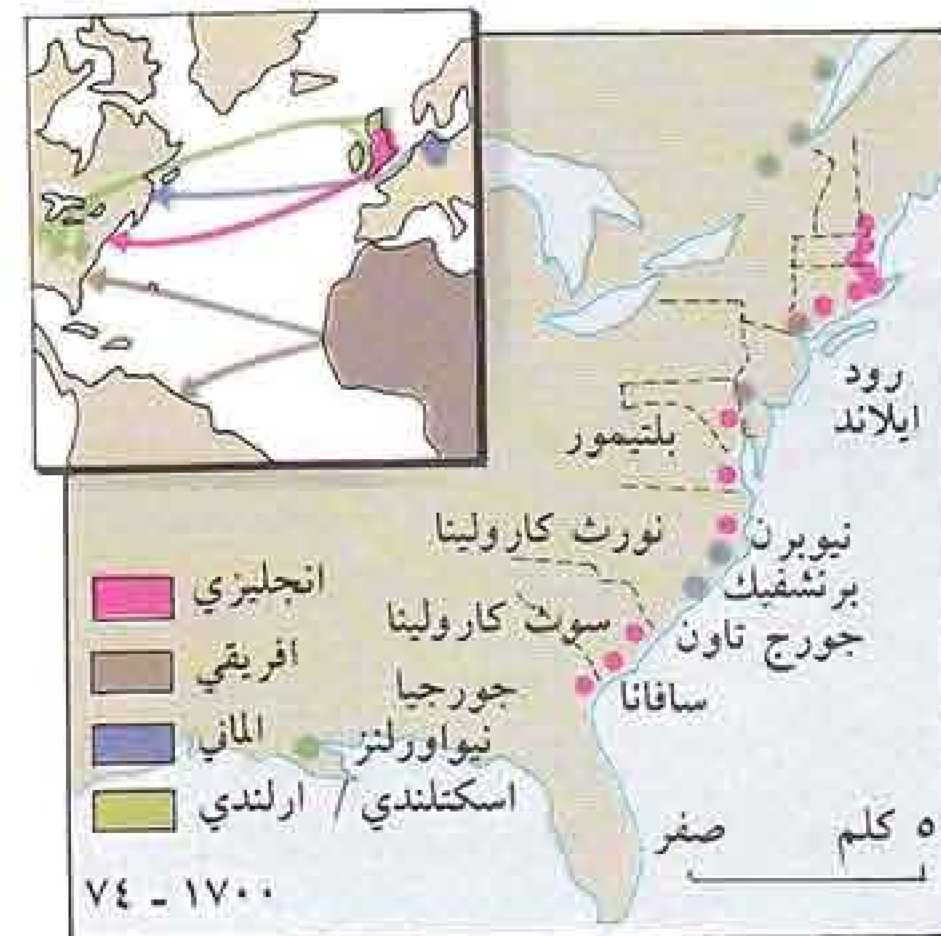
الاستيطان في أمريكا الشمالية والثورة الأمريكية

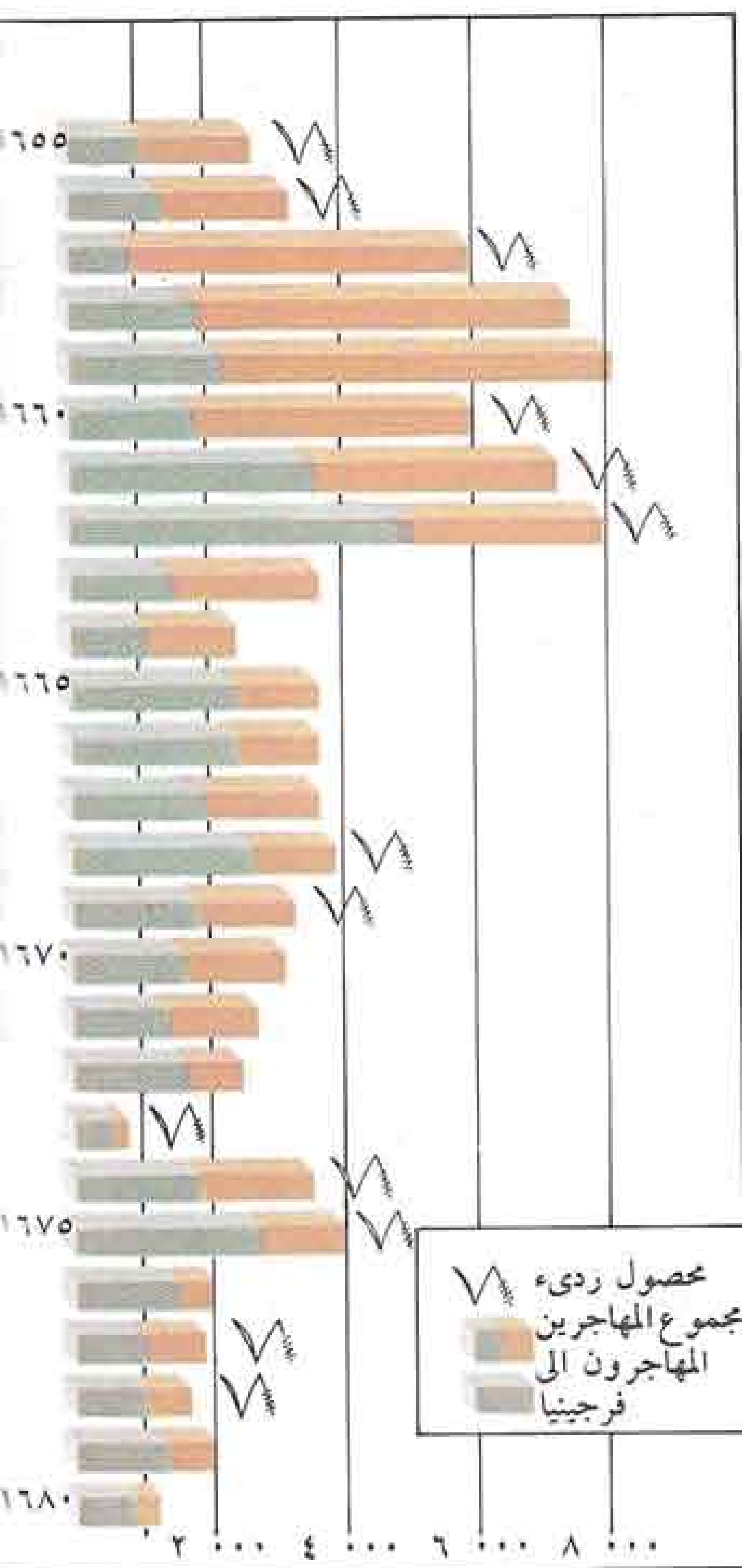
كان نجاح الاقتصاد الانجليزي في العصور الوسطى مرتبطا بتفوق الانجليز في السيطرة على البحار. فما بين سنتي ١٤٠٠ و ١٦٠٠ جاب بحارتهم سواحل قارة امريكا الشمالية من لبرادور شمالا الى الولايات المتحدة (حاليا) في الجنوب. كان همهم الأول في تلك الفترة البحث عن الاسماك. أما في مجال الاستكشاف الجغرافي، فقد كان عملهم متأرجحا، فكانوا في الطليعة أحيانا، وأحيانا كان الاسبان والبرتغاليون والفرنسيون يسبقونهم. في نهاية المطاف، اصبح القسم الأكبر من امريكا الشمالية حصة الانجليز، فيما استقر الاسبان في امريكا الوسطى والجنوبية. عندما وطد البريطانيون اقدامهم











(١) - تبيّن هذه الخرائط التبدّل في نمط الهجرة الى امريكا الشمالية بين سنتي ١٥٨٠ و ١٧٧٤ فبين سنتي ١٥٨٠ و ١٦١٩ استقرت انجلترا في الساحل الشرقي، فيما اقامت فرنسا مستوطناتها في كندا وعلى طول المسيسبي الى الجنوب. ثم شهدت السنوات الثلاثون التي تلت تلك الفترة تدفق الرقيق الافريقي، كما شهدت قيام مستوطنات نيو انجلاند والمستوطنات الاسكندنافية والهولاندية. ثم وطدت انجلترا وجودها، كما تابع الارلنديون والاسكتلنديون والالمان السير غربا.

(٢) - كان عدد المهاجرين الى المستعمرات يتوقف على ارتفاع اسعار الحاجيات وندرة المواد الغذائية (في الوطن الاصلي) في مقابل النقص في الايدي العاملة والارباح الطائلة التي

في امريكا الشمالية ، اعتزموا استغلال مستعمراتهم فيها الى أقصى حد ، الى ان انتهى الأمر بقيام الثورة الامريكية واعلان المستعمرات البريطانية استقلالها عن الوطن الأم سنة ١٧٧٦ .

المستوطنات الاوربية في أمريكا الشمالية

بدأ الاستيطان في امريكا الشمالية في القرن السادس عشر ، وكانت أول مدينة استوطنت هي سنت اوغسطين (فلوريدا) التي أنشأها الاسبان سنة ١٥٦٥ (كان الاسبان قد أقاموا لهم دولة واسعة في اراضي امبراطوريتي المكسيك والبيرو) . وفي القرن السابع عشر ، دخل الانجليز والفرنسيون جزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية . وكان السير والتر رالي (١٥٥٢ - ١٦١٨) أول من قام بمحاولة جادة لانشاء مستوطنة انجليزية على تجنى في المستعمرات . فقد ازدادت الهجرة بشكل ملحوظ بعد سنوات متتالية من الجفاف في غرب انجلترا في أواخر خمسينات القرن السابع عشر . وفيما كان القرن السابع عشر يقترب من نهايته ، هبطت اسعار التبغ ، ونقصت مساحة الارض الصالحة للاستغلال ، فتناقص عدد المهاجرين تبعا لذلك .

٣ أ - مجموع الضرائب البريطانية من المستعمرات الثلاث عشرة في ١٧٦٣ و ١٧٦٤ - ٢٠٠٠ جنيه استرليني سنويا .
ب - نفقات الأحتفاظ بالجيش في المستعمرات (تدفعها بريطانيا) لسنة ١٧٦٤ - ٣٥٠٠٠٠ جنيه استرليني .
ت - المبلغ المنتظر تحصيله من ضريبة السكر ٢٥٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً .
ث - المبلغ المنتظر تحصيله من ورق الطوابع ١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً .
ج - مجموع ما حصلت عليه بريطانيا من ضرائب من المستعمرات بين ١٧٦٤ - ١٧٦٨ - ٣٠٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً .

(٣) - كان للمستعمرات البريطانية في امريكا الشمالية الحق ، في القرن السابع عشر ، ان تفرض على نفسها الضرائب ، وذلك بموجب البراءات التي حصلت عليها . وقد اوقفت المستعمرات الحكومة البريطانية اكثر من مرة عند حدها لما حاولت هذه الحصول على ضرائب اضافية من المستعمرات . لكن عندما وجدت بريطانيا نفسها سنة ١٧٦٣ مثقلة بالديون ، ومضطرة الى الاحتفاظ بجيش احتياطي في امريكا الشمالية ، رأت ان تخفف العبء عن نفسها بفرض سلسلة من الضرائب على المستعمرات ، دون أن تستشيرها . ومع ان هذه الضرائب كانت دون ما أملته بريطانيا منها ، فانها اثارت المستعمرين للدفاع عن حقوقهم المكتسبة ، واصبح شعار « فرض الضرائب بدون تمثيل هو الطغيان » هو شارة القتال لدى الثائرين . الشكل يبين الضرائب التي كانت تجمع من المستعمرات في السنوات السابقة للثورة الامريكية .

٤ السلطة التشريعية
السلطة القضائية
القوى الناخبة
السلطة التنفيذية
سلطة الولاية

(٤) - هذا المخطط يبين العلاقة بين السلطات الفدرالية وسلطات الولاية في الولايات المتحدة . كانت الغاية الرئيسية التي توخاها الدستور هي اقامة توازن بين السلطة التنفيذية (الرئيس) والسلطة التشريعية (مجلس الأمة) والسلطة القضائية (المحكمة العليا) ، وذلك للحيلولة دون قيام الطغيان او الاستبداد . وقد احتفظ بالكثير من السلطة السياسية للولايات ، وهي التي يمثلها اعضاء مجلس الشيوخ في مجلس الأمة الذين ينتخبون من ابناء كل ولاية بمعدل اثنين عن الولاية بقطع النظر عن عدد سكانها .

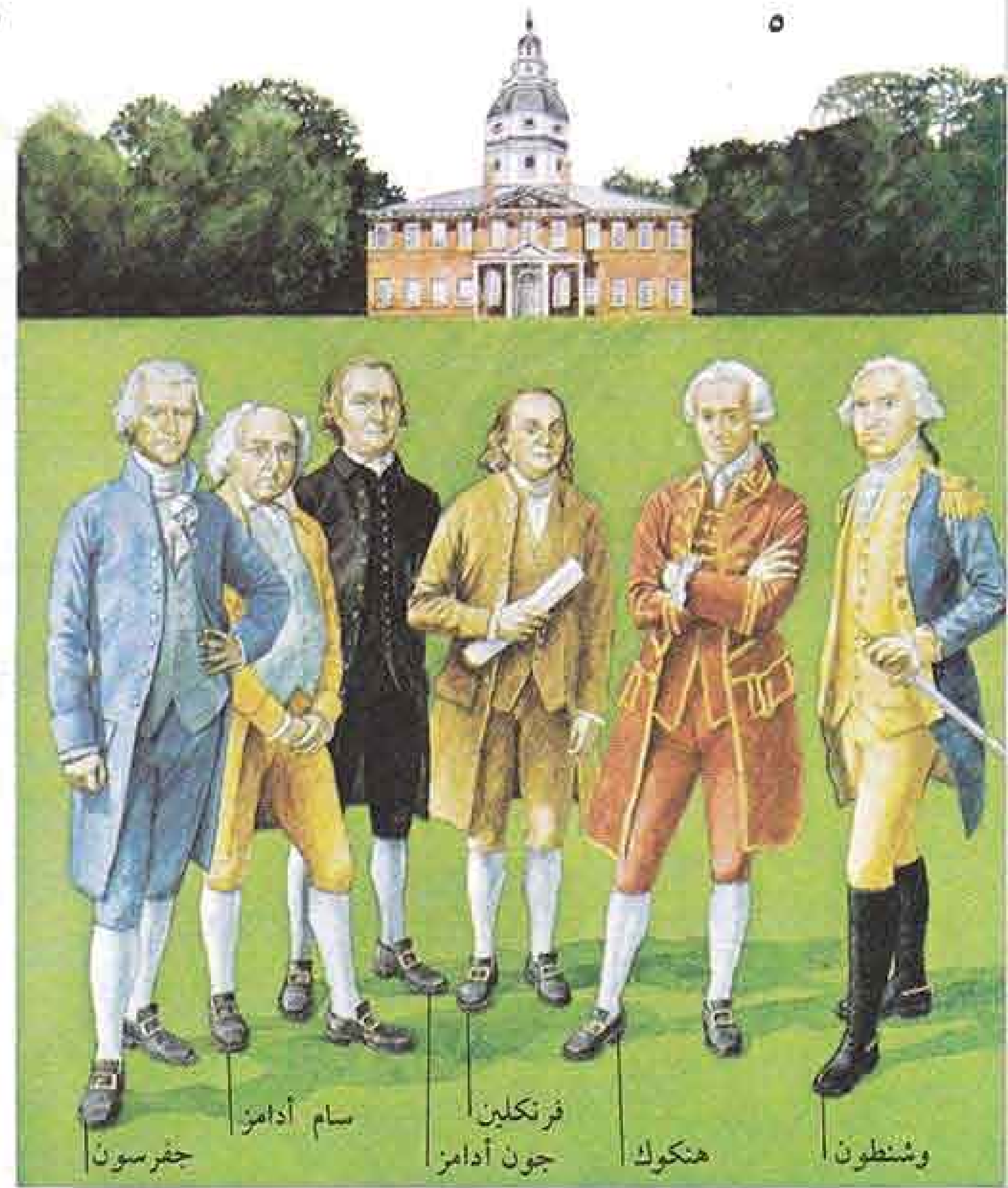
جزيرة (روانوك) مقابل ساحل فرجينيا سنة ١٥٨٤ . كانت محاولة رالي استراتيجية ابان الحرب التي كانت قائمة بين انجلترا واسبانيا . الا ان هذه المستوطنة اختفت من الوجود تماما ، ولم يعرف مصير سكانها البتّة . في سنة ١٦٠٧ ، انشأت شركة فرجينيا مستوطنة جيمز تاون في المنطقة نفسها . لكن هذه المحاولة كانت أصلا محاولة تجارية .

لما كانت بعض الفرق المسيحية تتعرض لضغط ديني كبير على أيدي ديوان التفتيش في اسبانيا ومحكمة المندوبين العليا في انجلترا ، أخذ الكثيرون يغامرون بالهجرة الى امريكا الشمالية ، فأنشئت ، في الخمسين سنة التي تلت انشاء جيمز تاون ، مستعمرات متعددة ، جاء أكثرها على أيدي الانجليز :

في هذه المستوطنات التي اقيمت ، كانت التجارة تختلط بالدين . فمع ان الغرض

٦

٥



(٥) - كان المؤتمر القاري الذي عقد في فيلادلفيا في ٥ سبتمبر ١٧٧٤ اجتماعا حضره خمسون ممثلا لاثنتي عشرة ولاية (لم تبعث جورجيا بالمندوبين الا في السنة التالية) ، وكانت غايته اعداد اعلان استنكار للتصرفات البريطانية . لم يرد ذكر الاستقلال في هذا المؤتمر الا نادرا ، لكن الحكومة البريطانية ردت على ذلك بعنف ، واعتبرت عمل المؤتمر عصيانا . فلما انعقد المؤتمر الثاني ، بعد ذلك بسنة ، كانت الحرب قد اندلعت ، ولم يلبث المؤتمر أن قبله الثوار على أنه الهيئة الحاكمة . ومع ان المؤتمر لم تكن لديه السلطة المشروعة ، فقد تمكن من الحفاظ على دوره القيادي . هذا المؤتمر هو الذي اتخذ الخطوات الأساسية لاعلان الاستقلال والسير نحو وضع دستور اتحادي .

---

(٦) - في ١٩ اكتوبر سنة ١٧٨١ استسلم اللورد كورنواليس لجورج واشنطن في يورك تاون . فقد وقعت قواته في شرك بين قوات امريكية تتفوق على قواته في البر ، واسطول فرنسي من جهة البحر . كان انكسار هذه القوات هو الذي قصم ظهر البعير بالنسبة لبريطانيا ، ففاوضت في سبيل معاهدة .

من انشاء جيمز تاون كان تجاريا ، فقد نصت براءة شركة فرجينيا نفسها ليس على تدريب البحارة لحماية الاملاك الانجليزية في امريكا وحسب ، بل نصت ايضا على وجوب نشر كلمة الانجيل والعمل على انشاء مستوطنات بروتستانتية .

كان اهتمام الفرنسيين الأول في امريكا الشمالية يقوم على نشاطات تجارية ، اساسها صيد الاسماك والحصول على الفراء الجيد . فانشئت لذلك مراكز تجارية في حوض سنت لورنس ، وانشأ صموئيل دو شامبلين (١٥٦٧ - ١٦٣٥) كوبك سنة ١٦٠٨ ، وفي أقل من ثلاثين عاما وصل الفرنسيون الى غرب الولايات المتحدة الشمالي . ولم تحل سنة ١٦٦٠ حتى كان للفرنسيين طريق تجاري من شرق كندا الحالية الى اواسطها .

المستعمرات البريطانية

لما اعتلى جورج الثالث (١٧٣٨ - ١٨٢٠) عرش انجلترا سنة ١٧٦٠ ، كانت فرنسا تسيطر على شرق كندا ومنطقة البحيرات ، وكانت املاك اسبانيا تمتد من باناما حتى تكاد تصل الى حدود كندا غربي نهر المسيسبي ، وكانت حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) مشتعلة بين فرنسا واسبانيا ، ولما وضعت الحرب اوزارها ووقعت معاهدة باريس (١٧٦٣) ، تقدمت انجلترا كي تملأ الفراغ الذي تركته الدولتان المتحاربتان . فقد تخلت فرنسا عن جميع املاكها في امريكا الشمالية ، باستثناء مجموعة جزر صغيرة ، كما تخلت اسبانيا عن فلوريدا . وهكذا أصبحت بريطانيا تسيطر على اراض جديدة في كندا ، وحتى نهر المسيسبي غربا . وكانت الممتلكات البريطانية تتكون من ثلاث عشرة مستعمرة .

الثورة الأمريكية

في سنة ١٧٦٧ ، سنّت بريطانيا قوانين اخضعت بموجبها الزجاج والرصاص والورق والشاي لضرائب خاصة . فقام صخب في المستعمرات انتهى الى صدام بالسلاح قتل فيه عدد من المواطنين في مذبحة بوسطن (١٧٧٠) . ومع ان معظم هذه التشريعات الغيت ، فقد وضعت ضريبة جديدة على الشاي (١٧٧٣) منحت بموجبها معاملة فضلى لشركة الهند الشرقية . عارض المستعمرون هذه الضريبة ، وقام سكان بوسطن بالقاء حمولة من الشاي في البحر .

اجتمع ممثلو المستعمرات (باستثناء جورجيا) في سنة ١٧٧٤ في المؤتمر القارّي الأول في فيلادلفيا (٥) (١٧٧٤) ، وقدموا عريضة طالبوا فيها ان لا تفرض عليهم الضرائب بدون ان تكون المستعمرات ممثلة في البرلمان البريطاني . وأنشأ الممثلون اتحادا للمستعمرات لتنظيم شؤون تجارتها بواسطته . كان جواب الحكومة البريطانية بأن اعلنت حالة الطوارىء . واستعد الفريقان للحرب .

دارت بين الفريقين عدة معارك ، كمعركة « بنكر هل » (١٧٧٥) ، ثم التأم المؤتمر القاري الثاني ، ونظم جيشا للمستعمرات بقيادة جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩) . ولما انهارت الادارة الملكية في المستعمرات تولى المؤتمر شؤون الحكم .

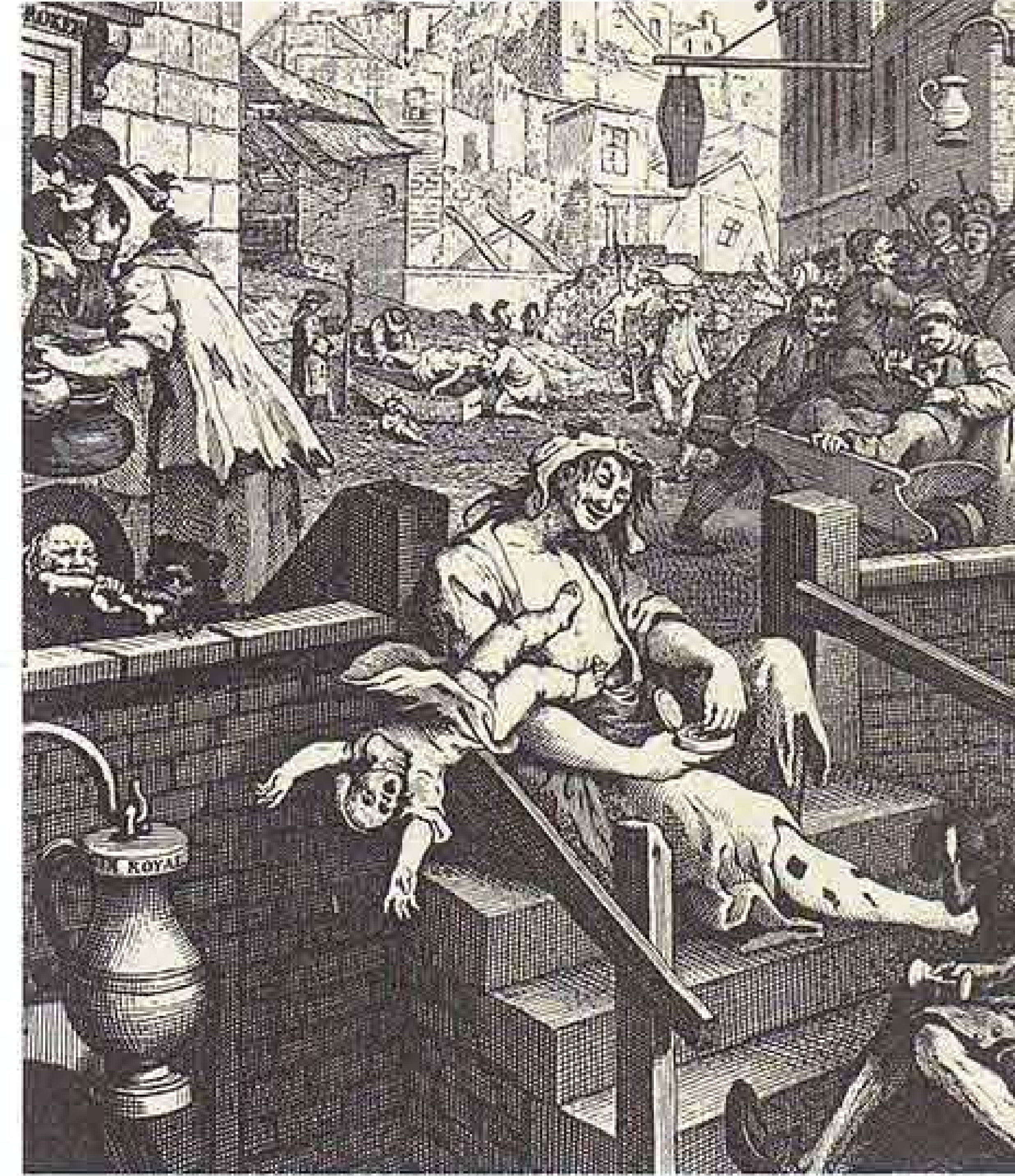
في ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ ، اعلن المؤتمر استقلال الولايات عن بريطانيا .

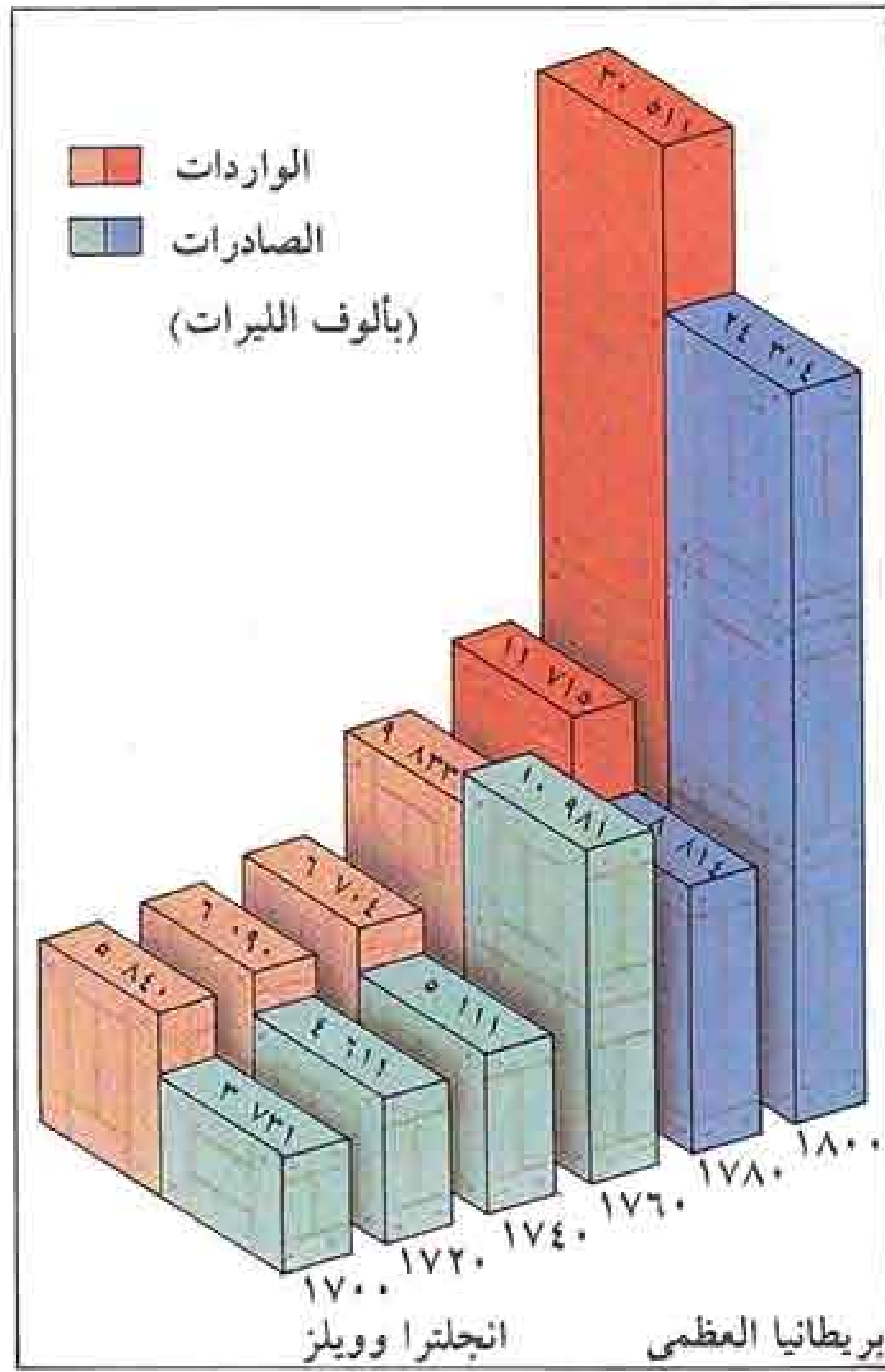
بدايات الثورة الصناعية

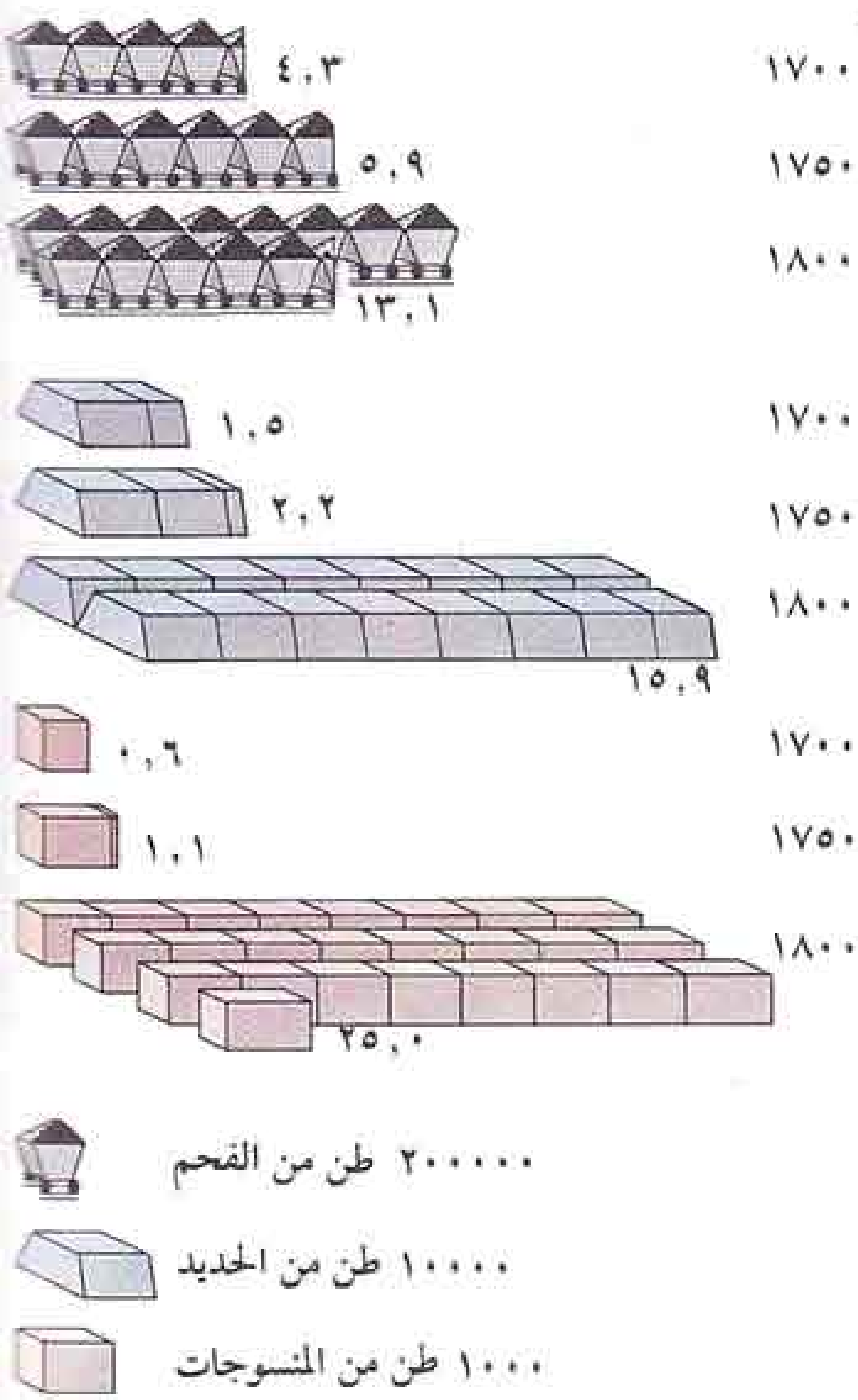
كانت بريطانيا أول دولة صناعية في العالم. فمنذ منتصف القرن الثامن عشر، جعلت عدة عوامل خاصة ببريطانيا النمو الاقتصادي يظهر فيها ابتداء من أول عقد من القرن التاسع عشر. غير أن بذور « الثورة الصناعية » في بريطانيا ترجع الى الحقبة التي سبقتها. فمنذ منتصف القرن الثامن عشر، أخذ الاقتصاد التجاري ينشط، وعدد السكان يتزايد، والزراعة تنمو والتجارة تتقدم في الداخل والخارج.

تزايد السكان

لم ينتج تزايد السكان في بريطانيا منذ منتصف القرن الثامن عشر عن التصنيع، مع

١


٢


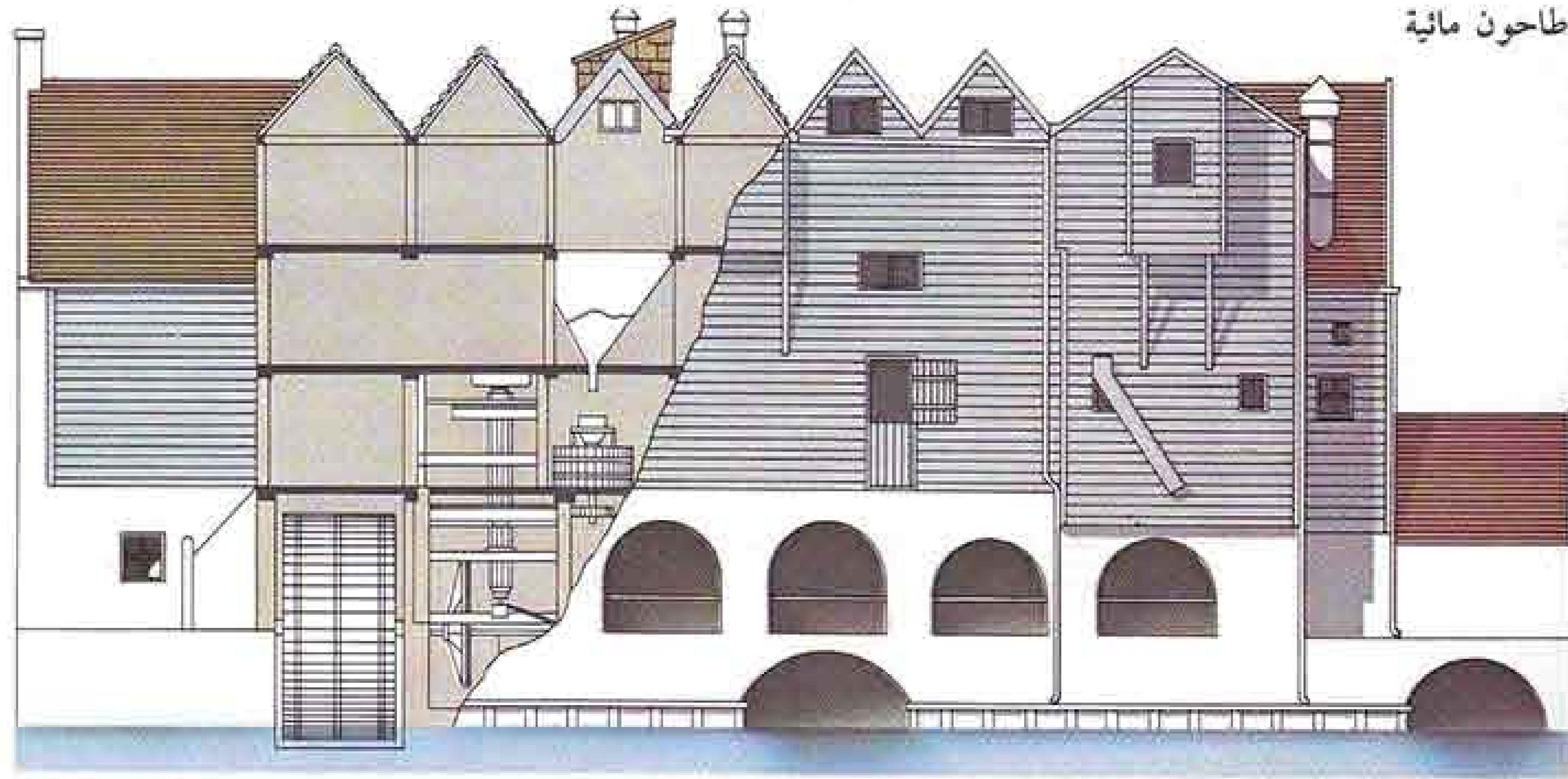
٣


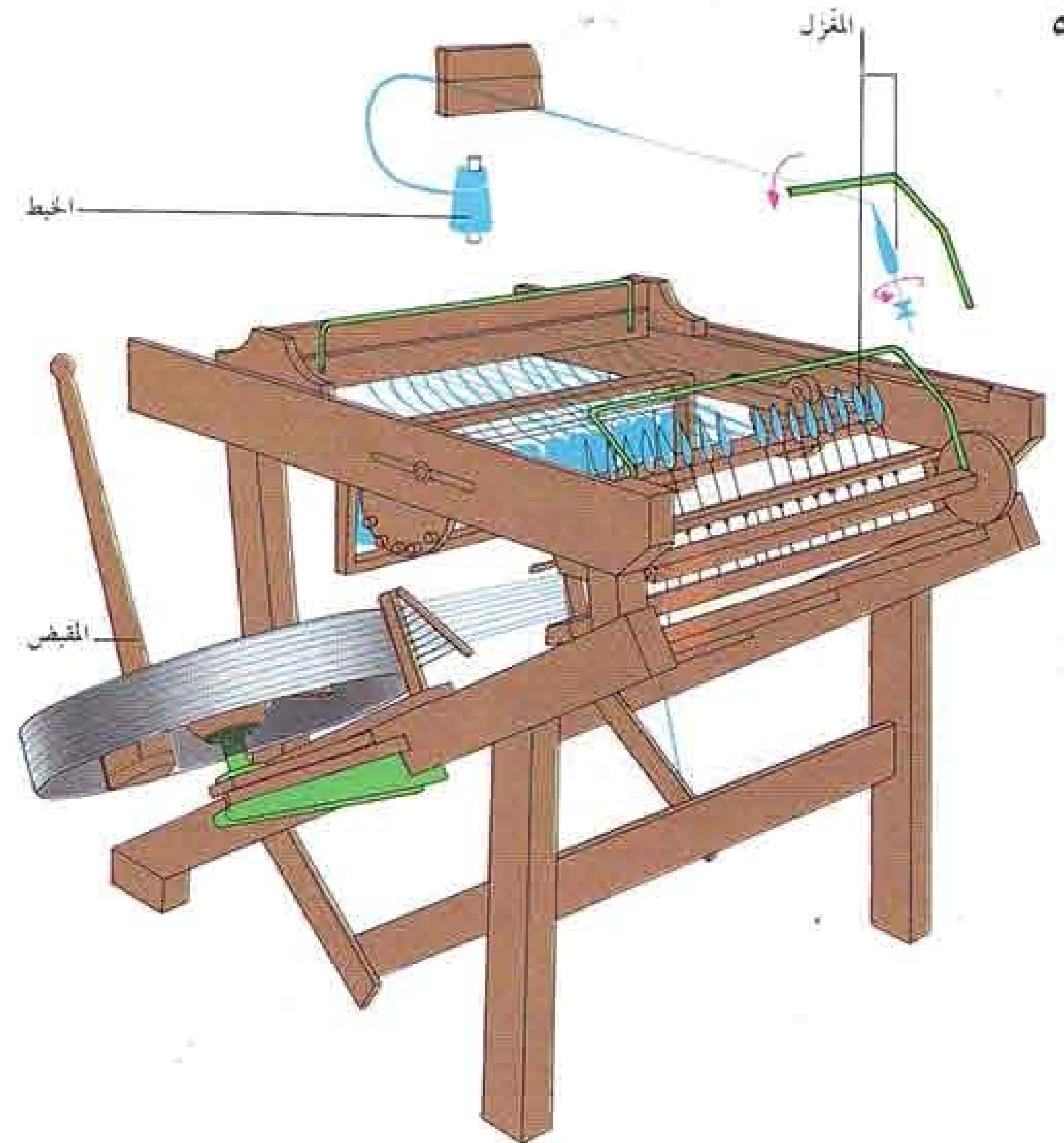
(١) ـ تزايد سكان أوروبا منذ ١٧٥٠. فعلى الرغم من الظروف السيئة في المدن (تبدو هنا في طرف الصورة في أحدى لوحات وليم هوجارت) ، فقد تدنت معدلات الوفيات. لم يكن سبب ذلك واضحا جدا. لكنه قد يكون عائدا الى تبدد أوبئة الطاعون بعد ١٧٠٠، والى التحسينات التي أدخلت على العناية الصحية بعد ١٨٠٠، مثل توافر الصابون الرخيص والثياب القطنية السهلة الغسل والموارد المائية النظيفة. وفر تزايد السكان الناجم عن الزواج الباكر والأسر الكبيرة سوقا أوسع للمنتوجات الصناعية الزهيدة الثمن. كما أمن ذلك أيضا عددا جديدا من الأيدي العاملة.

(٢) ـ دفع بالصناعة قدما تزايد الطلب في الداخل والخارج معا. فقد عرفت التجارة الخارجية منذ ١٦٨٠ نموا سريعا فتح مجالات جديدة للأسواق التجارية وأمّن الرأسمال اللازم لاستخدام تقنات جديدة. وقد كان للأسواق الاستعمارية التي حصلت عليها انجلترا بعد « حرب السنوات السبع » نفع كبير، اذ سمحت لبريطانيا بتعاطي التجارة المثلثة. فقد كانت تصدر السلع الصناعية الى افريقيا وجزر الهند الغربية، وتنقل العبيد عبر الاطلسي، وتستورد نتاج المستعمرات في طريق العودة الى أوروبا. كانت أضخم سلعة تصدرها بريطانيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر المنسوجات الصوفية. الا أن هذه السلعة لم تلبث أن سبقتها سلعة أخرى هي القطن.

(٣) ـ تجلت أبلغ التطورات في الصناعة في القرن الثامن عشر في انتاج الفحم والمنسوجات والحديد :

أن توافر الأيدي العاملة بكثرة كان عاملا ضروريا لتطوير الصناعة . فسلسلة متواصلة من المواسم الجيدة في النصف الأول من القرن ، مع تدنٍ في أسعار الأغذية ، وأحوال مناخية مناسبة ، وتراجع مرض الطاعون ، وعدد من التحسينات الطفيفة في مجال العناية الصحية ، كل ذلك أسهم في تخفيض معدلات الوفيات ورفع عدد السكان (١) . بنهاية القرن الثامن عشر ، أخذت ايضا معدلات الولادة ترتفع ، نظرا لقدرة الناس في المدن الصناعية على الزواج الباكر واعالة عدد أكبر من الأولاد . وخلافا لإرلندا ، حيث أدى تزايد السكان الى الفقر ، وفي النهاية الى المجاعة ، جعل رخاء بريطانيا التجاري والزراعي العدد المتصاعد من السكان يسبب زيادة الطلب على المنتوجات من جميع الأصناف . وكان هذا الاستهلاك المتزايد حافزا على التجديد الصناعي واستعمال





فاستخراج الفحم الحجري قد توسع نتيجة لظهور الطاقة البخارية وتزايد عدد السكان والتحسينات التي طرأت على المواصلات وازداد انتاج الصوف تلبية للطلب الخارجي والداخلي ، ولكن باستعمال الوسائل التقليدية بالدرجة الاولى ؛ وتضاعف انتاج القطن بصورة بارزة نتيجة لاستعمال الآلة والطاقة البخارية حتى انه اصبح سلعة التصدير الرئيسية في بريطانيا . أما انتاج الحديد ، فقد تزايد بسرعة أيضا ، نتيجة لادخال الصهر بالفحم الخالص . كل هذا كان دليلا على توسع عام في التقنات .

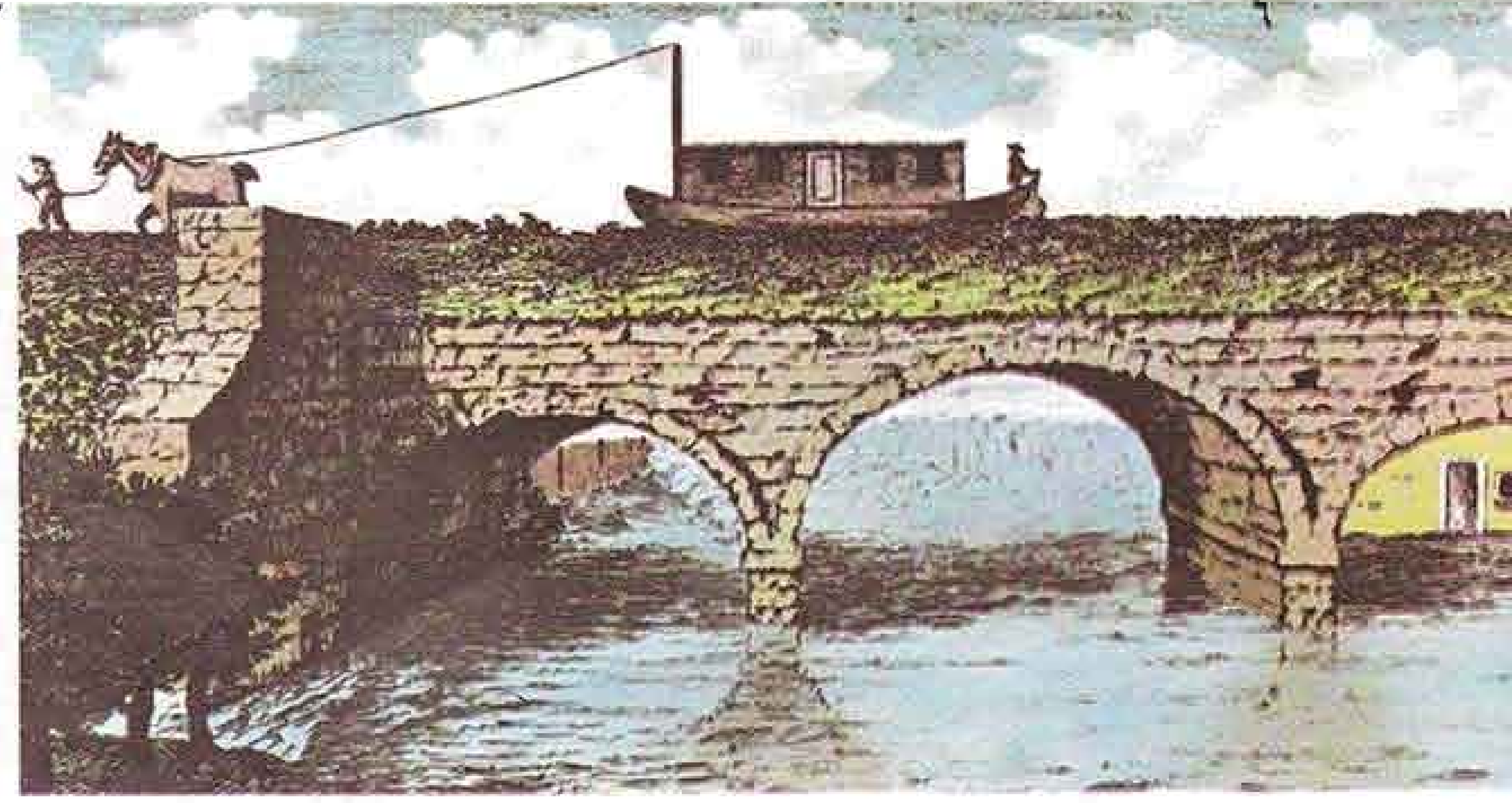
(٤) ـ كانت الطواحين المائية القوة المحركة لعدد من العمليات الصناعية قبل الثورة الصناعية ، بما في ذلك طحن الدقيق وغزل القطن . ازدهرت في البدء صناعة الصوف في المناطق التي كانت الطاقة المائية متوافرة فيها ، فكانت الطاقة المائية تشغل عددا من الآلات الباكرة ، وهكذا كانت المرحلة الاولى من التصنيع معتمدة كليا تقريبا على استعمال الآلات التي يحركها الماء . لذلك ترى كلا الصناعة القطنية والصوفية تنشأ على منحدرات جبال بناين حيث كانت الطاقة المائية غزيرة . لكن مع تطور الطاقة البخارية الفعالة بعد ١٧٧٦ ، أخذت الصناعة تتحول نحو حقول الفحم ، اذ لم تعد مضطرة الى الاعتماد على المناطق الجبلية . كذلك مكن استعمال الفحم واختراع الصهر بواسطة الفحم الخالص الصناعة من التوسع والتحرر من مشاكل النقص الحاد في الحطب والمحروقات . الا ان التحول الى البخار كان تدريجيا .

(٥) ـ أدى استعمال الآلة خلال هذه الحقبة الى زيادة كبرى في انتاج السلع . فقد ضاعف دولاب جيمس هارجريفز للغزل (١٧٦٤) انتاج القطن المغزول .

الوسائل الانتاجية الفضلى .

في الزمان الغابر ، كانت فترات التقدم الزراعي عرضة للتوقف بسبب تردّي المواسم أو انخفاض مستوى عدد السكان او تدهور الاقتصاد . لكن ما أن انتصف القرن الثامن عشر حتى مكّنت أرباح التجارة الخارجية المزدهرة ملاكي الأراضي من استدانة المال اللازم لزيادة انتاجهم الزراعي . ولما ازداد الطلب على المواد الغذائية وارتفعت الاسعار ، بدأ التوسع الزراعي . من جهة أخرى ، أدت حركة التسوير الى حصر الحقول والأراضي المشاع القديمة والمكشوفة في وحدات فردية أشد فعالية ، ويسهل فيها تطبيق تقنات أوفر انتاجا ، كتقنات تربية المواشي المتطورة والمحاصيل الجذرية الجديدة ، واستعمال أولى الآلات الزراعية . في ١٨٤٥ ، كان التسوير ، الذي تمّ بقرارات برلمانية ، قد شمل حوالى ٢٠ بالمائة من

٦



٧

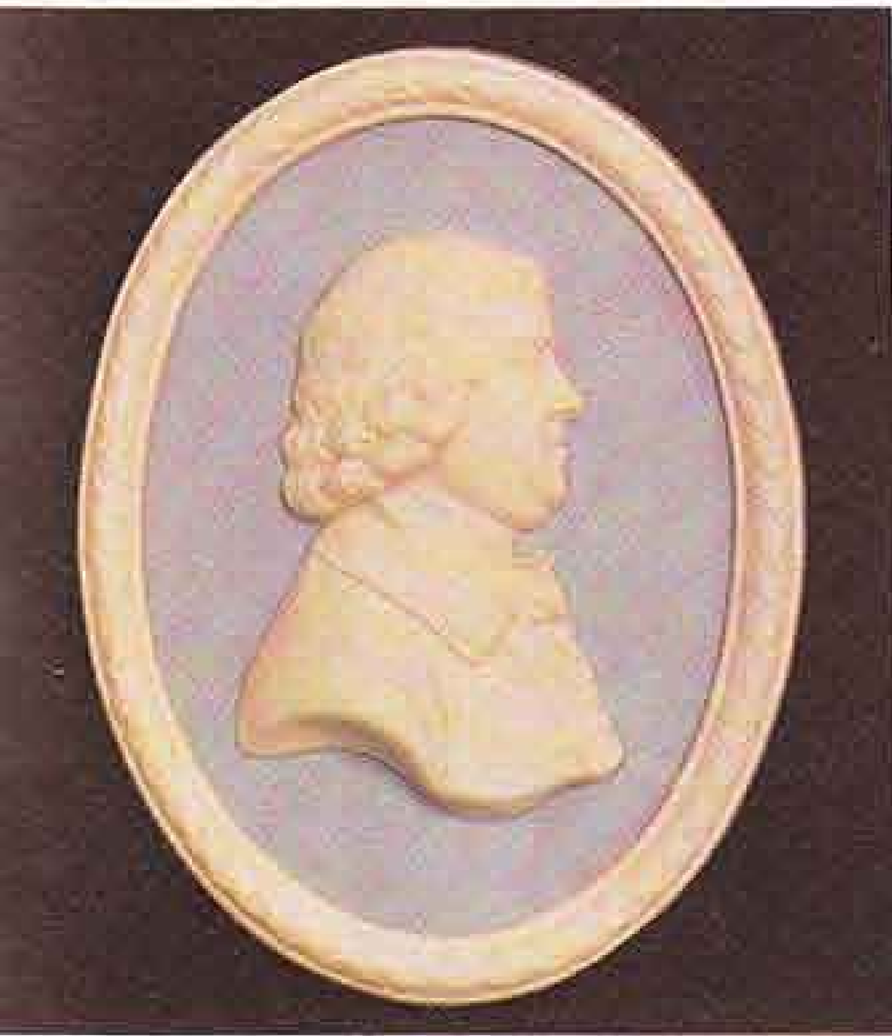


(٦) - لعبت التطورات في المواصلات دورا حيويا في الثورة الصناعية ، وذلك بتوسيعها للأسواق وسماحها بجمع المنتوجات في مكان واحد بدون كلفة كبيرة . كذلك زادت الطرق الرئيسية والتحسن الذي طرأ على سطوح الطرقات في انتقال المسافرين برا . الا أن أهم تطور بالنسبة الى الصناعة كان بناء الأقنية . فقد بنيت قناة بريدجووتر بين ورسلي ومانشستر لدوق بريدجووتر على يد جيمس برندلي (١٧١٦ - ١٧٧٢) ، وهو مهندس بقي يجهل القراءة والكتابة حتى وفاته . خفضت هذه القناة التي افتتحت سنة ١٧٦١ بنسبة النصف سعر الفحم في مانشستر ، وذلك نتيجة لتدني تكاليف النقل . في غمرة « جنون الأقنية » الذي عقب ذلك ، بنيت شبكة واسعة من الأقنية ، فاستخدمتها عدة صناعات باكرة للوصول الى المواد الخام والأسواق .

---

(٧) - كانت ظروف العمل سيئة في المراحل الأولى من « الثورة الصناعية » . كان تشغيل الأولاد شائعا ، لاسيما في صناعة النسيج ، ومقترنا بساعات عمل طويلة وأجور متدنية وحوادث كثيرة . اشتغلت النساء أيضا في مصانع النسيج ، حيث كنّ يشكلن نصف اليد العاملة . مع ان النساء والأولاد كانوا يعملون قبل ذلك في الأراضي ، أثارت هذه الظروف الصناعية الجديدة سلسلة من الاسئلة في البرلمان البريطاني ، وفي منتصف القرن التاسع عشر صدرت « قرارات المصانع » التي حدّدت ساعات العمل وحظرت تشغيل النساء والأولاد في بعض مجالات العمل ، مثل العمل تحت الأرض . وبحلول سنة ١٩٠٠ ، كانت معظم الدول الصناعية الاخرى قد أدخلت شكلا ما من أشكال التشريع الصناعي .

٨



(٨) - بدا جوشيا ويدجوود (١٧٣٠ - ١٧٩٥) انتاج الفخار على نطاق واسع في مصنعه بأتروريا ، على مقربة من ستوك أو ترانت . كان أحد الذين صنعوا « الثورة الصناعية» .

مساحة أراضي انجلترا . وقد اقتضى تنفيذه على أحسن وجه كثيرا من المال .

تزايد الطلب

وفرت الأرباح التي ما انفكت تتدفق على البلاد من التجارة الخارجية (٢) ، لاسيما مع نموّ المستعمرات وازديادها ، الرأسمال اللازم لمضاعفة الانتاج ، تلبية للطلب في الداخل والخارج . من أوائل الصناعات التي تأثرت بهذا الطلب المتزايد صناعة استخراج الفحم الحجري ، وذلك بسبب الحاجة للمزيد من المحروقات في المنازل وفي دور الصناعة . وقد ارتفع الانتاج الى ٤٠٠ بالمائة في غضون القرن الثامن عشر ، على أثر استعمال المضخات البخارية لمنع فيضان المناجم . كان الفحم مادة خاما كبيرة الأهمية لعدد من العمليات الصناعية ، فضلا عن كونه مصدرا للطاقة البخارية . أرسى الفحم والحديد معا أسس تطور الصناعة (٣) . كانت صناعة الحديد في أوائل القرن الثامن عشر تعتمد على الفحم في عملية الصهر ، وكان انتاجها ضئيلا نسبيا . لكن اكتشاف ابراهام داربي للصهر بالفحم الخالص في الثلاثينات أحدث ثورة في انتاج الحديد الزهيد الثمن .

رافق هذه التطورات تقدم رئيسي في الطاقة التقنية ، وذلك بعد عام ١٧٧٤ ، وهو التاريخ الذي سجل فيه بولتون وواط محركيهما البخاريين المتقدمين اللذين كانا يستهلكان قدرا أقل من المحروقات بالنسبة الى النماذج السابقة . بالاضافة الى القيام بعملية الضخ ، كان محرك واط البخاري لسنة ١٧٦٩ قد أعد ايضا لدفع الآلات .

الآلات الموفرة لليد العاملة

كانت أهم الاختراعات بعد الطاقة البخارية الاختراعات التي سمحت بالاستغناء عن اليد العاملة . جرى ذلك على أجلى وجه في الصناعات القطنية ، التي شهدت تقدما تقنيا هاما في الحياكة (اختراع مكوك كاي الطيار سنة ١٧٣٣) ، ثم في الغزل (٥) ، وتدريجيا في عمليات أخرى . وقد أدى استخدام الطاقة البخارية لتشغيل الآلات في الصناعة القطنية الى ظهور اول المصانع التي تكون العمليات الانتاجية فيها مجموعة في مكان واحد تحت سقف واحد . ومع أن عددا من المصانع استمر يعتمد على الطاقة المائية (٣) ، فقد أعطى نظام انتاج القطن في المصنع فكرة مسبقة عن فعالية المصانع ، كما أدى الى تعميم استعمال البخار .

لكن تجمع الانتاج في « المصنع » كان يحتاج الى رأسمال كبير ووسائل نقل رخيصة . وقد توافر رأس المال من الأرباح الناجمة عن التحسينات التي ادخلت على الزراعة وعن التجارة الخارجية . وكذلك أمنت البنوك الريفية ، مع انها كانت عرضة للهزات والافلاسات ، كمية وافية من القروض من أجل التحسين الصناعي والزراعي . فبحلول سنة ١٨٠٠ ، كان ثمة ٧٠ بنكا لندنيا وحوالى ٤٠٠ بنك ريفي تصدر سنداتها الخاصة . تأسست البورصة في عام ١٧٧٣ .

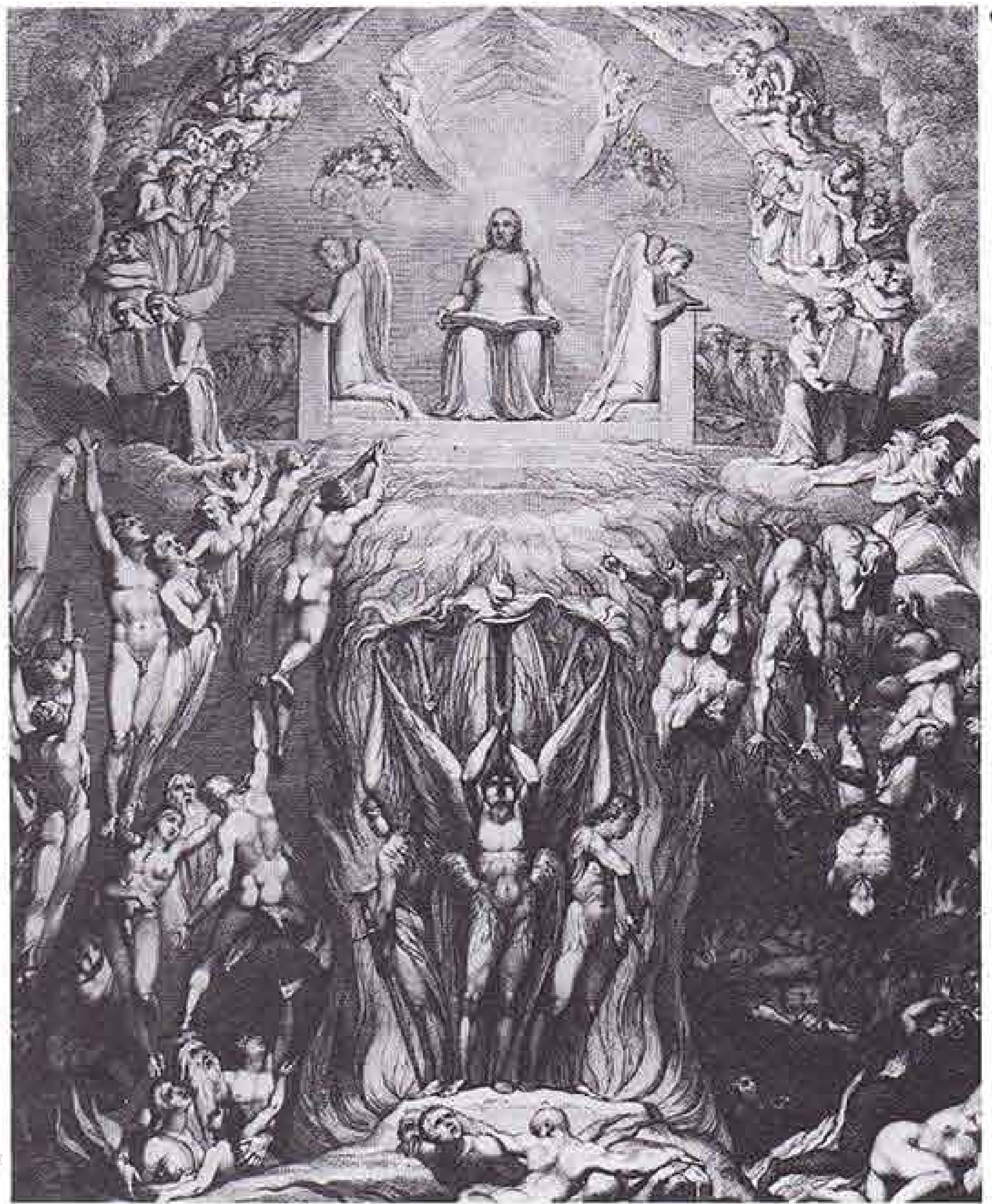
على الرغم من تطور الطرق الرئيسية ، ظل النقل البرّي بطيئا وباهظا بالنسبة الى المنتوجات الضخمة الحجم . لكن النقل النهري كان أقل كلفة ، ولم يصبح نقل المصنوعات الضخمة رخيصا الا بعد تطوير شبكة الأقنية (٦) .

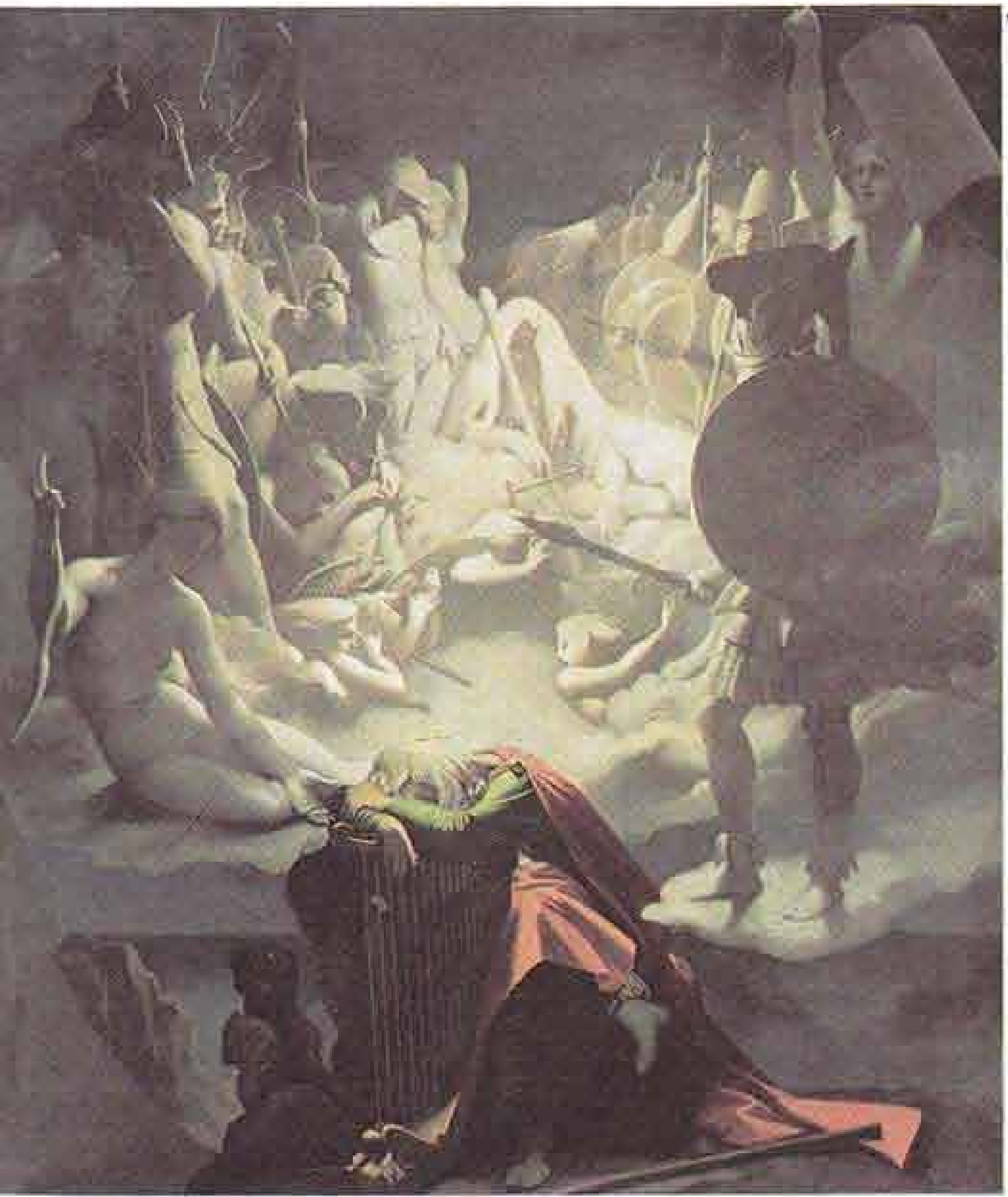
اصول الرومنطيقية

بدأ رد الفعل على حركة « التنوير » في مطلع القرن الثامن عشر ، وكان أثر ذلك جليا في عدد من الاساليب المبعثرة التي اندمجت فيما بينها في حقبة ١٧٧٠ - ١٧٩٨ الكبرى السابقة للرومنطيقية . كانت حركة « التنوير » قد شدّدت على طاقات الفرد وقيمته ، فوضعت الأسس الفلسفية بذلك للفردية ، الا ان الرومنطيقيين حولوا هذه الفردية الى ذاتية ، بعد أن نبذوا المذهب العقلاني الذي بدا لهم عقيما وأخذوا يمجدون العاطفة معتبرين انها مصدر لكل حقيقة .

تأثير اساطير بلاد ويلز

من المواضيع التي تهيمن على منتصف

١


٢


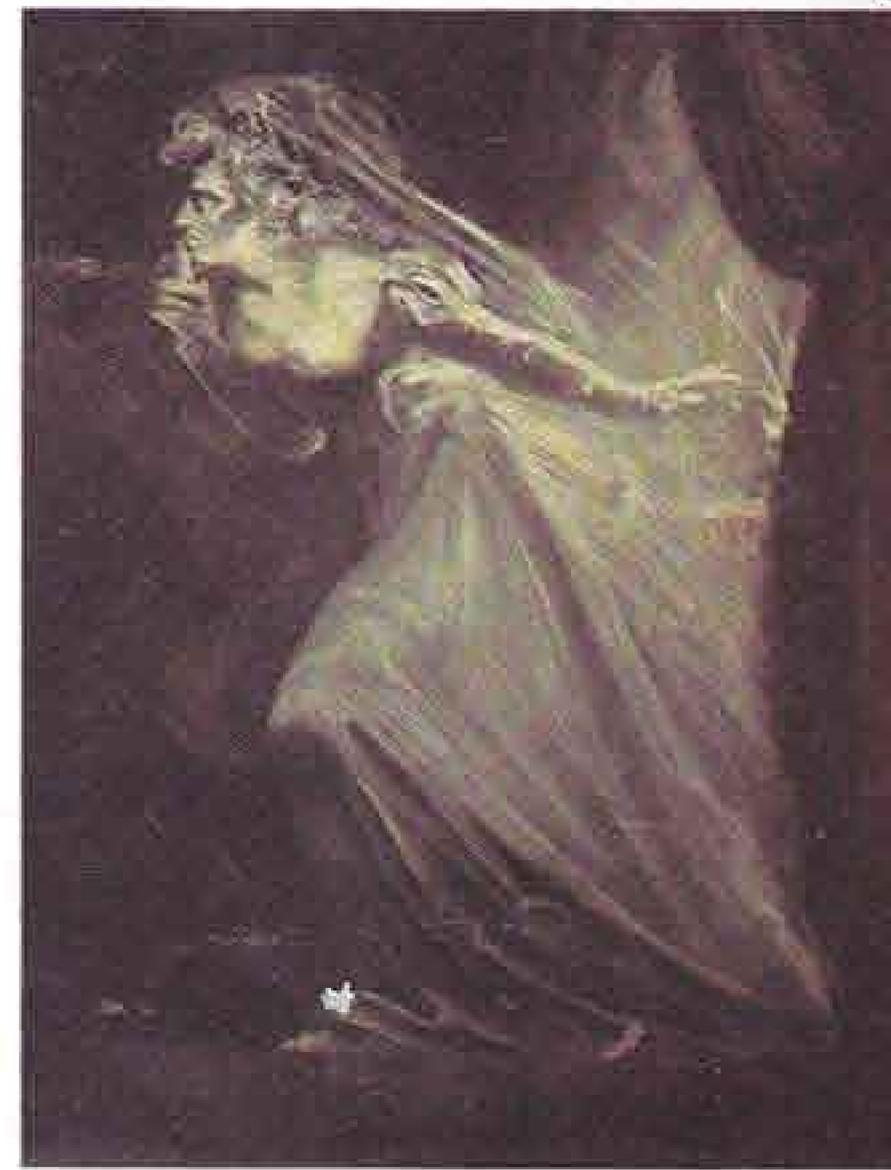
٣


(١) - دشن توماس بارنيل المدرسة الكئيبة والروكوكية المعروفة باسم « مدرسة المقبرة » بقصيدته « قطعة ليلية عن الموت » (١٧٢١) . رسم الفنان وليم بلايك سنة ١٨٠٨ لوحة تمثل قصيدة « القبر » (١٧٤٣) لروبرت بلير ، المنظومة على الطريقة السابقة للرومنطيقية .

(٢) - كان عالم اوسّيان الضبابي السلتي عنصرا قويا وكبير الأثر في الرومنطيقية الاوروبية . كان اوسّيان شاعرا ومحاربا ارلنديا شبه اسطوري

القرن الثامن عشر بوضوح الاساطير والقصص القديمة للبلاد السكندنافية وبلاد ويلز . اهتم الكثيرون بالكشف عن مصادر هذه الأساطير ، كان بينهم توماس بيرسي (١٧٢٩ ـ ١٨١١) الذي ترجم الشعر الروني من اللغة الاسلندية سنة ١٧٦٣ ، وتوماس جراي (١٧١٦ ـ ١٧٧١) الذي استلهم المصادر السكنديناڤية في بعض مؤلفاته مثل « نزول اودين » (١٧٦١) . لكن هذه المحاولات غدت شيئا لا يذكر أمام جهود جيمس مكفيرسون (١٧٣٦ ـ ١٧٩٦) . الذي اقتبس مؤلفه « شذرات من الشعر القديم » (١٧٦٠) من الحكايات الارلندية التي وجدت سبيلها الى اسكتلندا ، ثم دفع نجاح ذلك الكتاب مكفيرسون الى نشر « فينجال » (١٧٦١) والظاهرة الاوسيّة (٢) التي كانت ابتكارا رفيع المستوى من الأدب السلتي الذي ألهم الحركة الرومنطيقية الاوروبية .

٤



في القرن الثالث (يبدو هنا وهو يحلم فوق قيثارته أحد أحلامه المألوفة) . دشن مكفيرسون ، « بترجمته » لآثار اوسّيان سنة ١٧٦٢ . نوعا من التعبد انتشر في انحاء أوروبا . على الرغم من بعض النقد الأكاديمي العنيف الذي لاقاه مكفيرسون ، لم يدر الا القليلون يومذاك انه كان بالواقع ينتحل بحرية تامة ، غير آبه بالقصص الشعبية الاصلية الا قليلا .

(٣) ـ سيجفريد ، بطل

٥

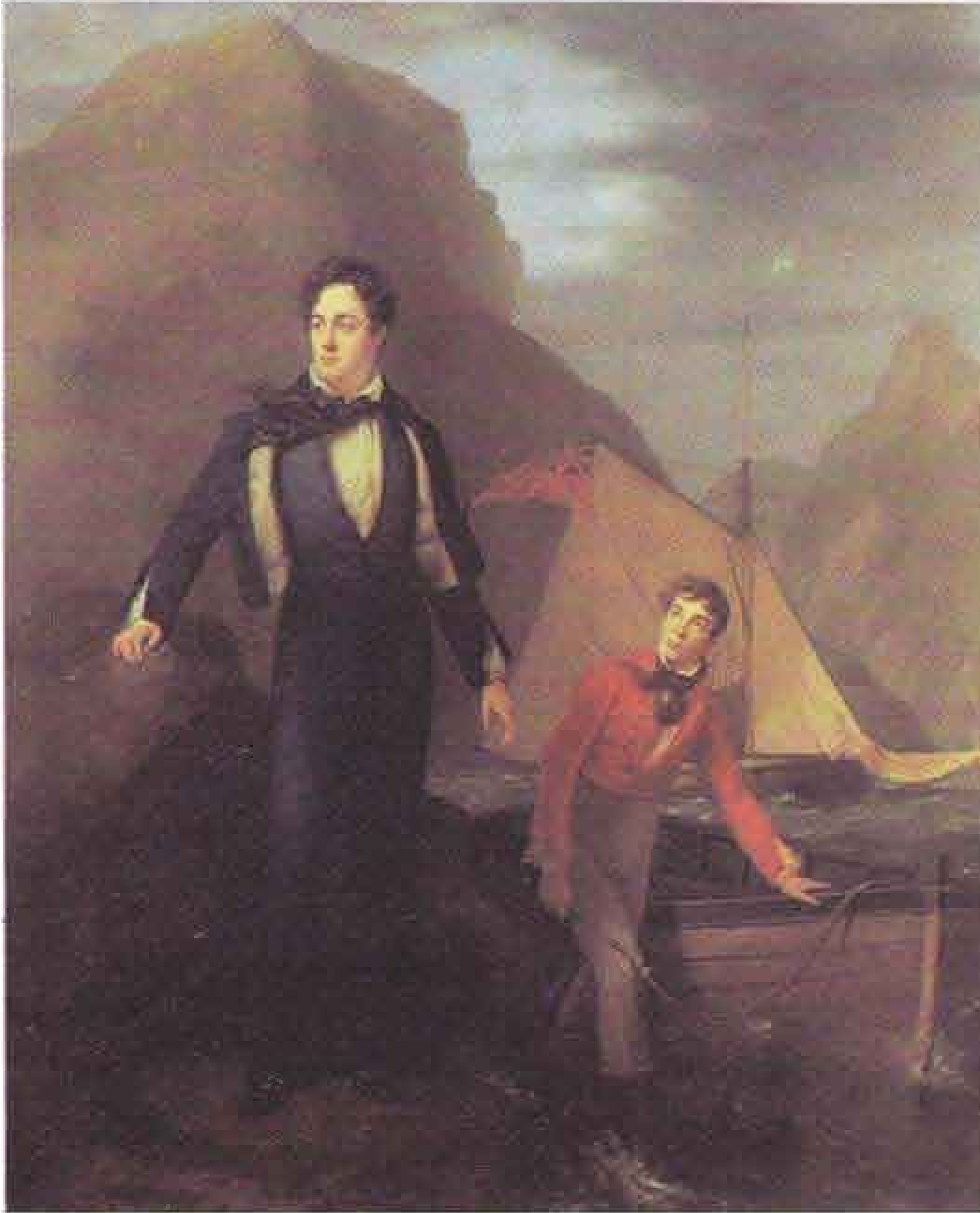


الاساطير الالمانية والشمالية ، شخصية رئيسية في اغنية « نيبلونجن » . استرعت أساطير اراضي الراين الكثير من اهتمام الكتاب والرسامين الرومنطيقيين الأول الذين سعوا لوضع الأسس لتقليد الماني صوفي .

(٤) ـ يعود الاهتمام الجديد بشكسبير ، الى حد بعيد ، الى هيردر الذي اشاد به في مقالة عنه (١٧٧٣) قال فيها بأنه نابغة لاعقلاني وفيلسوف للشعر الشعبي . هذه الصورة التي تمثل ليدي ماكبث هي من رسم هنري فوزيلي (١٧٤١ ـ ١٨٢٥) .

(٥) ـ يعتبر يوهان هيردر أعظم رائد للحركة الرومنطيقية في المانيا . كان انجازه الحقيقي في تغيير منحى جوته الذي بتأثير منه استبدل آراءه الروكوكية بمفاهيم العفوية والابتكار ، وتعرف الى الشعر الشعبي والى اوسّيان وشكسبير . اما اسهامه في حركة « العاصفة والاندفاع » فكان في المقالتين اللتين كتبهما سنة ١٧٧٣ . حاول بصورة خاصة أن يجعل الاغنية الشعبية الشكل الوحيد للشعر .

٦



(٦) ـ كان لورد بايرون أول رومنطيقي حقيقي « يخسر بلاده الاصلية ويربح اوروبا » . اتخذ من اسبانيا وايطاليا والشرق واليونان خلفية لفرديته الارستقراطية . كان نصيرا متحمسا لليونانيين ، فقضى نحبه وهو يدعم كفاحهم من أجل الاستقلال .

سرعان ما امتدت الرومنطيقية الى الرسم والموسيقى ، مع انها كانت في نشأتها وتعابيرها الأولى أدبية بالدرجة الأولى - المانية وانجليزية - . ففي عام ١٧٦٥ ، أدخلت « بقايا الشعر الانجليزي القديم » لبيرسي قوة القصة الشعرية ونضارتها الى الميدان الأدبي . في الوقت ذاته تقريبا ، دار « نقاش هام » حول توماس شاترتون (١٧٥٢ - ١٧٧٠) ، الذي انتحل اعمالا ادعى انها ترجمة لأعمال رولي ، أحد مؤلفي القرن الخامس عشر . أصبح شاترتون ، بانتحاره الباكر ، رمزا للحالم المضطهد .

البحث الأصيل

بينما كان شاترتون ماضيا في خدعته البريئة ، كان باحثون حقيقيون ينبشون الماضي لاحياء القصة العاطفية الخيالية ، وقد أثرت في ذلك كثيرا « رسائل الفروسية



٧



٨

(٧) - كان فشل جوته نفسه في الحب اساس قصة « آلام الشاب فيرتر » (١٧٧٤) . دفع عنف مشاعر هذا البطل وحركاته الدرامية (كما في هذه الصورة) عددا من الناس على الحذو حذوه . وعندما حمل ايضا انتحاره في سبيل الحب الكثيرين على الانتحار مثله ، أدى ذلك الى جعل جوته شهيرا .

(٨) - جاءت رائعة جوته الشعرية « فاوست » في سني الشاعر المتأخرة (الجزء الأول ١٨٠٨ والجزء الثاني ١٨٣٢) نتيجة لحياة كاملة من التأمل . جعل جوته من تحوّل السيميائي في العصور الوسطى الى المثقف الرومنطيقي المضطرب رمزا للانسان الباحث تجريبيا عن خلاصه .



٩

(٩) - قام هوراس والبول (١٧١٧ - ١٧٩٧) بتحويل احدى مزارعه الى « قلعة قوطية صغيرة » ، وأضاف اليها ، على مدى ٤٠ سنة ، تفاصيل معمارية ودروعا وزجاجا ملونا ، مستمدا كل ذلك تقريبا من الكنائس والكاتدرائيات القوطية في اوروبا . كانت لجنة « ستروبري هيل » ، المؤلفة من بانتلي عالم الآثار ووالبول هذا وسواهما ، هي اول من باشر فعلا باحياء الفن القوطي . اصبح والبول ، بولعه بالآثار القديمة ، وبحكم مركزه الاجتماعي النافذ ، وبدون وعي منه ، أداة لرومنطيقية كئيبة الى اقامة عدد كبير من المنازل الريفية الشبيهة بالأديرة .

والغراميات » (١٧٦٢) لريتشارد هورد (١٧٢٠ ـ ١٨٠٨)، و « قصص كنتربري » لتشوسر التي نشرها توماس تيرويت .

لم يقتصر الفضول الرومنطيقي على البحث الاكاديمي . فقد استحوذ على الناس شعور جديد من الانشغاف بالمشاهد الطبيعية ، كان من شأنه انه دفع الكثيرين الى القيام برحلات الى جزر الهبريد المقفرة ، وتسلق قمم الجبال المجهولة ، بحثا عن « المخيف والرفيع » في الطبيعة في بادىء الأمر ، ثم عن الجميل والرومنطيقي فيما بعد .

سنة ١٧٧٠ ، نشر هنري ماكنزي (١٧٤٥ ـ ١٨٣١) كتابا بعنوان « رجل حساس » ، وهو رواية عاطفية لا قيمة كبرى لها ، ولكنها تدل على تأثير جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) رجل الطبيعة والشعور الأمثل ، الذي كان مع يوهان هيردر (٥) (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) الرائد النظري العظيم للرومنطيقية الاوروبية . تحوّل تعاون روسو المبكر مع الموسوعيين الى صراع بين العقل والقلب ، وسيطرت سيادة القلب على « هلوويز الجديدة » (١٧٦١) .

تلا هذا الكتاب في نجاحه العظيم كتاب روسو المهم الآخر « اميل » (١٧٦٢) ، وهو رواية احدثت ثورة في مفهوم التربية . فقد دعا روسو فيها الى تنشئة الطفل في ظل التأثير الخلقي للنواميس الطبيعية وان يصار الى وقايته من التلقين الجاهز ، وهي نظرية ما زال يتردد صداها في الفكر المعاصر . أثّر روسو ، ذلك العبقري القلق ، تأثيرا عميقا في الادب الانجليزي وفي الحركة الرومنطيقية الفرنسية . اذ ان حساسيته وتعاطفه مع الطبيعة وشاعريته وايمانه بخلود النفس البشرية قد انصهرت بسهولة في العقيدة السائدة حينذاك والقائلة بتفوق الالهام على الفكر العقلاني .

تأثير المانيا

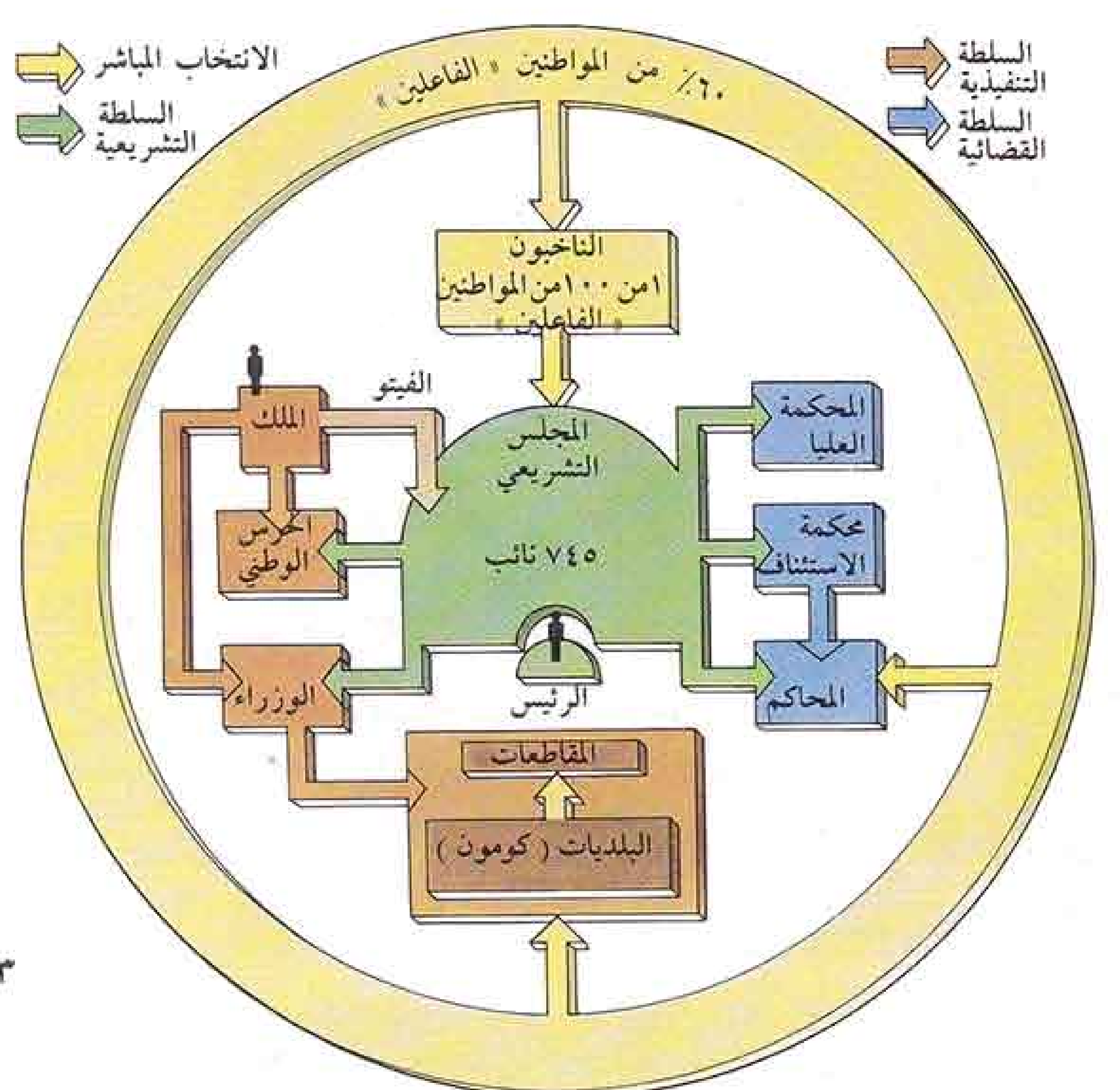
يمكن اعتبار المانيا ، مع ذلك ، مسقط رأس الرومنطيقية والبلد الذي اتخذت فيه الرومنطيقية اشكالها المميزة . أحدث جوتهولد لسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) ، أحد كبار منظّري هذه المدرسة ، تأثيرا كبيرا في توطيد دعائمها . فقد نبذت مقالاته ، في المجلات الأدبية الدورية ، الأشكال الكلاسيكية القديمة ، وأطرت شكسبير كمثال أعلى ، ولفتت الانتباه الى ثروة المانيا في الاغاني الشعبية .أما شكسبير بالذات (٤) ،فكان أول من ترجمه الى الالمانية كريستوف مارتن فيلاند (١٧٣٣ ـ ١٨١٣) ، فأدت هذه الخطوة الى تحقيق المزيد من التقدم في الحركة المعروفة باسم « العاصفة والاندفاع » (٥) التي كانت تشمل عددا من الشعراء والشباب ، منهم جوته ، والتي شددت تشديدا قاطعا على الشعور والعاطفة .

كان زميل روسو في المانيا ، الناقد هيردر ، يمهد الطريق ايضا أمام الرومنطيقية الالمانية . فأثرت دعوته الى العودة الى الطبيعة (وقد كان شكسبير في نظره ظاهرة طبيعية) ، وشعوره المسبق « باحساس فاوست بالتعاطف مع كل شيء » تأثيرا عميقا في نفسية فولفجانج فون جوته الشاب (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) (٧) في ستراسبورج فدفعت به الى استبدال طريق الكلاسيكية بطريق الاستلهام . ان نشاطات جوته المتنوعة ، وانجازاته الادبية ، ودمجه للعناصر العقلانية والرومنطيقية ، جعلته شخصية رومنطيقية مثلى في الأدب الاوروبي .

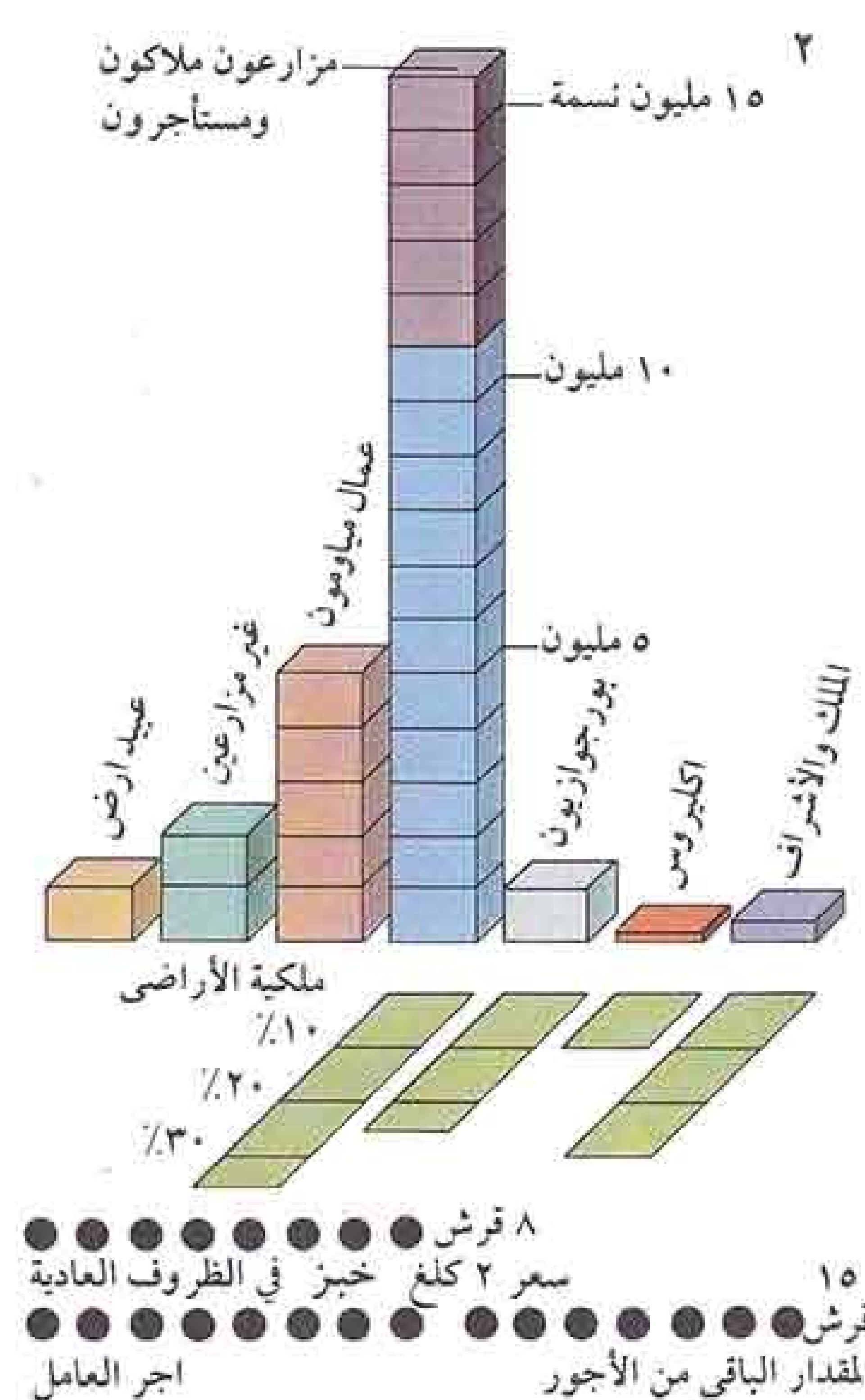
الثورة الفرنسية

كانت تكمن ، تحت الهيبة والمنعة المجللتين للملكية المطلقة التي بناها لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) ، أوجه ضعف رئيسية أصبحت ذات شأن كبير في عهد خلفائه . فقد كان المجتمع الفرنسي منقسما الى ارستقراطية صغيرة تدافع بحرص عن امتيازاتها الناجمة عن الثروة وعن اعفائها الجزئي من الضرائب (٢) ، وطبقة وسطى تزداد عددا يوما بعد يوم ومستاءة من حرمانها من السلطة السياسية ومن عدم كفاءة الحكومة الملكية ، وطبقة الفلاحين الذين كانوا لا يملكون قدرا كافيا من الأراضي يحميهم من المواسم السيئة ، ويتأففون من الرسوم الاقطاعية التي كان عليهم دفعها

١



٢



٣

٨ قرش
سعر ٢ كلغ خبز في الظروف العادية
١٥ قرش
المقدار الباقي من الأجور
اجر العامل

يوليو		١٧٨٨
اغسطس		
سبتمبر		
اكتوبر		
نوفمبر		
ديسمبر		
يناير		١٧٨٩
فبراير		
مارس		
أبريل	أعمال شغب ليلة رأس السنة	
مايو		
يونيو		
يوليو	اقتحام الباستيل	
اغسطس		

(١) - كان تعهد « مجلس الطبقة الثالثة » المنعقد بمثابة جمعية وطنية في ١٧ يونيو ١٧٨٩ ، بانهاء الامتيازات الاقطاعية بداية الثورة السياسية . نص الدستور الذي وضعه على نوع من نظام ملكية محدودة يمارس السلطة فيه « مجلس تشريعي » ينتخبه المواطنون الذين يدفعون ضرائب مباشرة تساوي على الأقل أجر عامل لثلاثة ايام بالسنة . أما دستور ١٧٩١ ، فقد قسم فرنسا الى المقاطعات الحكومية التي ما زالت قائمة حتى اليوم .

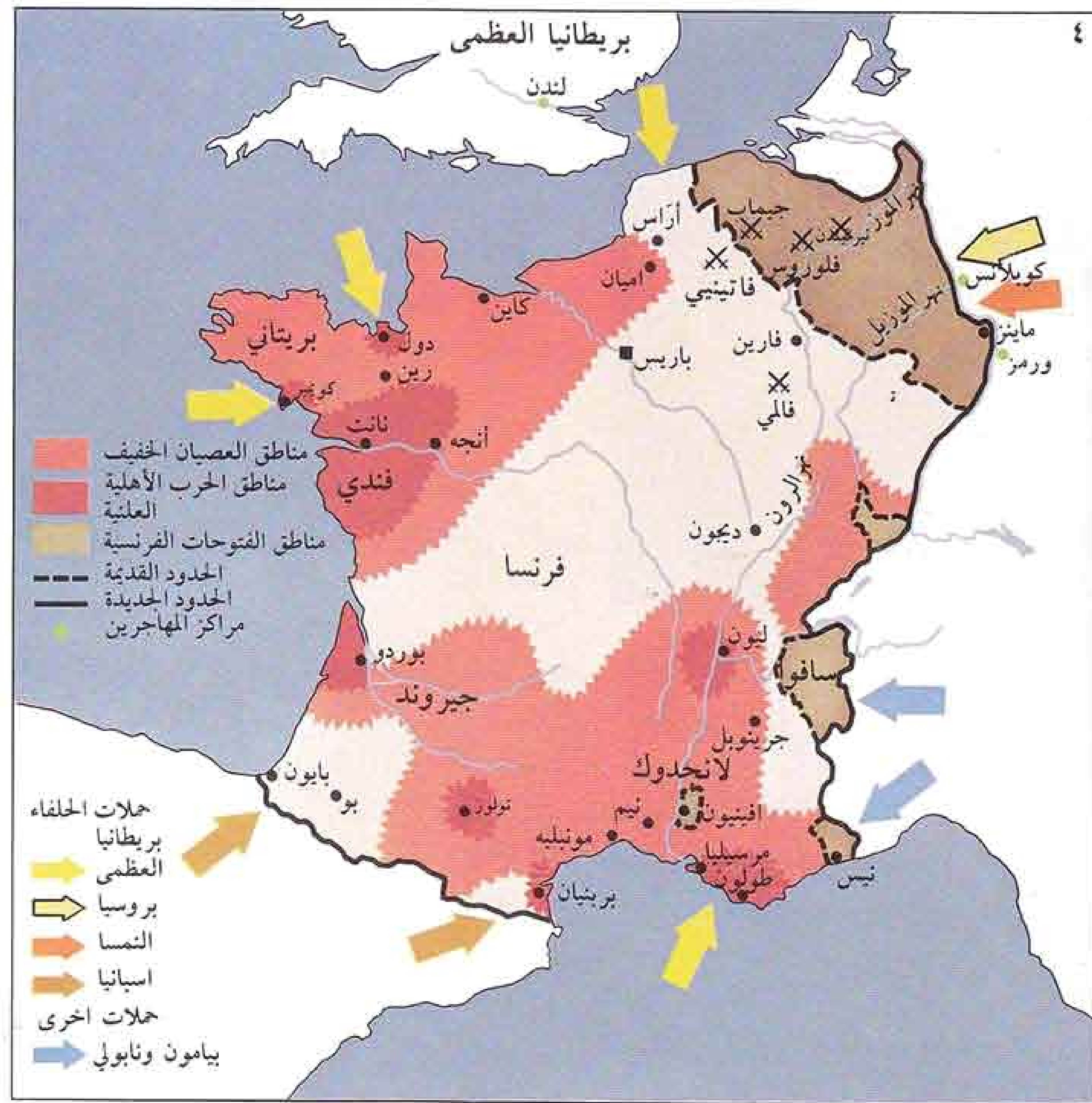
(٢) - كانت ملكية الأراضي غير المتكافئة (كان أكثر من ٤٠ ٪ ملكا لأقل من ٣ ٪ من السكان) ظلامة رئيسية ومشكلة اساسية للمجتمع الفرنسي. ولما كان الأشراف والاكليروس معفوين من الضرائب ، كان العبء واقعا على البورجوازية والفئة الموسرة من المزارعين.

للارستقراطيين . وكان هذا انقساما آخذا في التفاقم .

« مجلس الطبقات العام »

خلال حكم لويس الخامس عشر (١٧١٠ ـ ١٧٧٤) ، شوهت هيبة الملكية سلسلة من الحروب مع بريطانيا أرهقت ميزانية الدولة واوقعتها تحت عبء ديون فادحة على الرغم من الازدهار العام في التجارة والصناعة .

كذلك أدى نجاح المستوطنين الجدد في امريكا ، في مطلع حكم لويس السادس عشر سنة ١٧٧٤ ، الى ابراز الفرق الشديد بين مثل الحرية والديموقراطية الامريكية وسياسة القمع والامتيازات في فرنسا . وعندما بدأت النكسة الاقتصادية تظهر في اوائل ١٧٨٠ ، وساءت حالة الخزينة الملكية الى حد كبير ، قامت الحكومة بمحاولة لفرض الضرائب حتى على الطبقات الارستقراطية نفسها . لكن هذه



(٣) ـ كانت الاسعار ترتفع باستمرار ، خلال القرن الثامن عشر ، نتيجة لتزايد السكان وانخفاض الموارد المالية والتوسع البطيء نسبيا في الانتاج الصناعي والزراعي . شجع كل ذلك الطبقات العليا على التمسك بامتيازاتها بمزيد من الحرص ، بينما كانت معيشة الفلاحين والعمال الصناعيين آخذة في التدهور . في الظروف العادية كان رغيف الخبز يكلف العامل حوالى نصف أجره اليومي ، الا ان المواسم السيئة في ١٧٨٨ و ١٧٨٩ رفعت اسعار الخبز بحيث باتت تعادل الأجر كله تقريبا . فأدى ذلك الى تصعيد التوتر والاضطراب السياسيين .

(٤) ـ اثارت حشود قوات الثورة عداء جيران فرنسا . كان « المهاجرون » الفرنسيون الارستقراطيون قد الفوا نواة مقاومة في الخارج وتلقوا الدعم من النمسا وبروسيا . ردت أولى هجماتهم في معركة فالمي ، وعندها قامت جيوش الجمهورية بهجوم معاكس ، فاحتلت نيس والسافوا وبلجيكا وذلك على أثر انتصارها في معركة جيماب (نوفمبر ١٧٩٢) . وهاجمت دول الراينلند وهددت هولندا . في أعقاب اعدام الملك ، اعلنت فرنسا الحرب على اسبانيا وهولندا وبريطانيا ، الا ان النكسات العسكرية ما لبثت ان تتالت عليها ، فنشبت فتنة رئيسية في الفاندي ، فضلا عن هجمات قام بها الاعداء في جنوب فرنسا وبلجيكا والالزاس وبريتاني . اتخذ من تدابير الطوارىء ما لم يسبق له مثيل لوضع حد للفتن الداخلية ، وصدت الهجمات الخارجية ، واعيد احتلال بلجيكا وهولندا . وفي نهاية ١٧٩٥ ، كانت فرنسا قد عقدت صلحا مع جميع اعدائها باستثناء النمسا وبريطانيا العظمى .

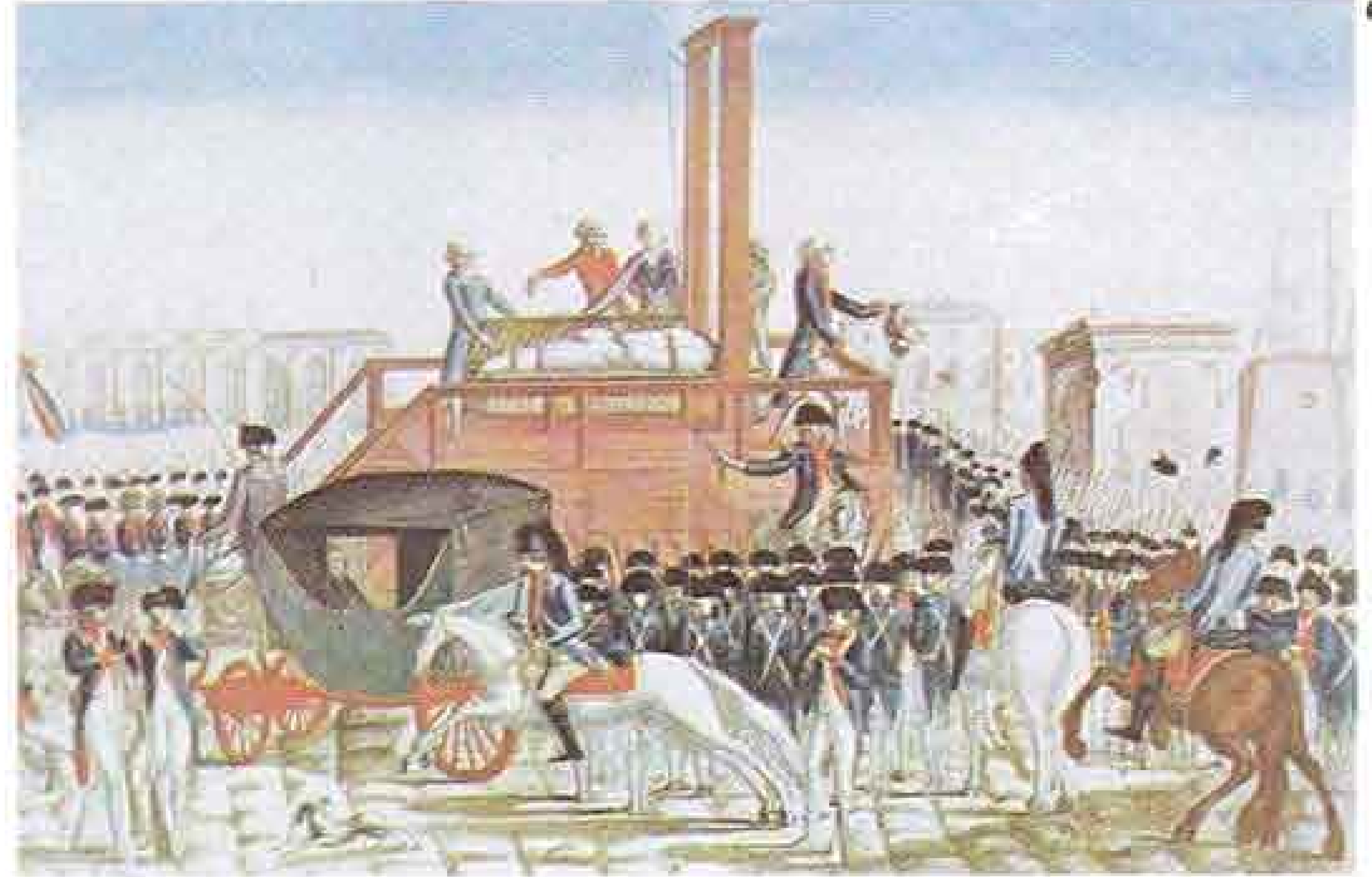
رفضت الدفع ، فاضطر الملك للمرة الأولى منذ ١٦١٤ الى استدعاء « مجلس الطبقات العام » . لكن ، عندما التأم هذا المجلس سنة ١٧٨٩ ، كانت البورجوازية او الطبقة الوسطى قد ضاقت ذرعا بتصرفات الارستقراطية والاكليروس ، فجعلت من نفسها جمعية وطنية .

وفيما كانت هذه الأزمة السياسية آخذة بالتفاقم ، جاء الموسم السيء لسنة ١٧٨٨ يدفع بعدد من الفلاحين والعمال الصناعيين ، الذين كانوا قد وصلوا حافة المجاعة (٣) ، الى اثارة الاضطرابات في عدد من انحاء فرنسا . وعندما عزل لويس السادس عشر (١٧٥٤ - ١٧٩٣) في ١١ يوليو ١٧٨٩ وزيره الشعبي جاك نيكير (١٧٣٢ - ١٨٠٤) ، انفجر احتجاج الشعب على نطاق واسع .

نمو الشعور المعادي للملك

في ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، اقتحم سكان باريس

٥



٦



٧



(٥) - جاء اعدام لويس السادس عشر في ٢١ يناير ١٧٩٣ على أثر تهديد « المهاجرين » الملكيين بشن هجوم . كان الرأي العام قد انقلب كليا ضد الملك . فاستطاع « اليعقوبيون» الاستيلاء على السلطة والمناداة بفرنسا كجمهورية في ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ . ثم منحهم الانتصار على القوات الملكية في معركة فالمي الثقة بالنفس اللازمة لمحاكمة الملك ، وكان اعدامه رمزا لقطع كل علاقة مع النظام القديم .

(٦) - ادت اقامة « مجلس الدولة » في ٢٤ ديسمبر ١٧٩٩ الى جعل بونابارت « قنصلا أولا » . بفضل تألق انتصاراته في ايطاليا ووقع حملته المصرية ، اصبح هذا القائد اقوى رجل على المسرح السياسي المضطرب في أواخر القرن . لكن فشل « الادارة » في حل المشاكل الداخلية جردها من كل تأييد شعبي ، فعقد نابليون الأمل على ان شعبيته الواسعة النطاق ستقنع الجمعية بتسليمه السلطة دون أي ضجة . ولكنها رفضت ذلك ، فاضطر الى استعمال الجنود لطرد اعضائها وتمكين نواة صغيرة من مؤيديه للاقتراع على الدستور . اعطى هذه الدستور السلطة للقنصل الاول الذي كان يعاونه زميلان ومجلس شيوخ يعينه القناصل الثلاثة . عندها لجأ نابليون الى ذريعة جديدة ، هي الاستفتاء ، للحصول على التأييد الشعبي . ثم اعلن ان ثلاثة ملايين من الاصوات أيدت الدستور .

(٧) - اعتبر اقتحام الباستيل في ١٤ يوليو ١٧٨٩ بداية الثورة الفرنسية الحقيقية في نظر المعاصرين والأجيال اللاحقة ، مع ان الازمة السياسية كانت قد بدأت قبل ذلك بسنة . لكن انتفاضة الجمهور الباريسي ضد هذا السجن القديم ، رمز الحكم المطلق ، كانت ذات أهمية كبرى . فهذه الانتفاضة أكرهت الجمعية الوطنية ، التي كانت تمثل الطبقة الوسطى بالدرجة الأولى ، على التحالف مع الشعب للحيلولة دون هجوم ملكي معاكس ، كما أثارت انتفاضات في المقاطعات استولي خلالها على ممتلكات الارستقراطيين واتلفت سندات الملكية على الاراضي واقيل موظفون حكوميون . كذلك مهد اقتحام الباستيل لسقوط الاقطاعية ، ونقل السلطة السياسية من الملك الى هيئة تشريعية .

الباستيل عنوة (٧) ، وانهار النظام الاجتماعي بصورة عامة في شتى انحاء فرنسا ، فتعرضت أملاك الطبقة الارستقراطية للنهب او المصادرة ، ثم جردت « الجمعية العامة » الطبقة الارستقراطية والاكليروس من الامتيازات ، واضطر الملك الى مغادرة فرساي

استمر الاضطراب السياسي طيلة السنتين التاليتين ، في حين تفاقم الشعور المعادي للملك . في تلك الأثناء اعطت مصادرة الاراضي الارستقراطية والاكليريكية الحكومة الجديدة الدعم المالي التي كانت تفتقر اليه ، الا ان اصدار العملة الورقية المعروفة بالاسينية سرعان ما أدى الى تجدد التضخم . في يونيو ١٧٩١ ، حاول الملك الفرار الى الخارج ، ولكن قبض عليه في قرية فارين . ثم ازدادت النقمة الشعبية عليه عندما اعلن امبراطور النمسا وملك بروسيا ان حقوق لويس القديمة سوف ترد اليه دون ابطاء . في سبتمبر ، وضع دستور جديد (١) يقضي بانشاء جمعية تشريعية واعطاء الملك دورا محددا جدا .

في ابريل ١٧٩٢ ، اعلنت الحرب على النمسا . ولما احتشدت جيوش الملك الفرنسي على حدود فرنسا (٤) تدعمها النمسا وبروسيا ، طالبت الجماهير الجمعية الوطنية باتخاذ تدابير ضد الملك . في سبتمبر ، اجتاحت الجيوش البروسية فرنسا ، مما حمل الجماهير على ذبح الارستقراطيين الذين كانوا قد وقعوا في الأسر . لكن الانتصار غير المتوقع الذي احرزته الجيوش الفرنسية على الغزاة في ٢٢ سبتمبر في معركة فالمي خفف من حدة التوتر .

مثل الملك أمام القضاء واعدم (٥) في يناير ١٧٩٣ . لكن ما حدث في الاشهر التالية ، من هزائم اوقعتها جيوش « المهاجرين » بجيش الثورة الفرنسي ، والانتفاضات الملكية في مقاطعة فاندي والجنوب ، واستمرار المشاكل الاقتصادية ، كل ذلك حمل الجمعية الوطنية على تعيين « لجنة للأمن العام » كي تتولى السلطات الاستثنائية وتأمر بالتعبئة العامة . فبدأ عهد من الارهاب ارسل خلاله اكثر من ٤٠،٠٠٠ من « اعداء الثورة » الى المقصلة .

بحلول ربيع ١٧٩٤ ، استعادت الجيوش الجمهورية انفاسها ، فهزمت في يونيو ١٧٩٤ الجيوش المناوئة للثورة هزيمة نكراء في « فلوريس » ، وفي يوليو خلع الزعيم « اليعقوبي » مكسيميليان روبسبيير (١٧٥٨ - ١٧٩٤) .

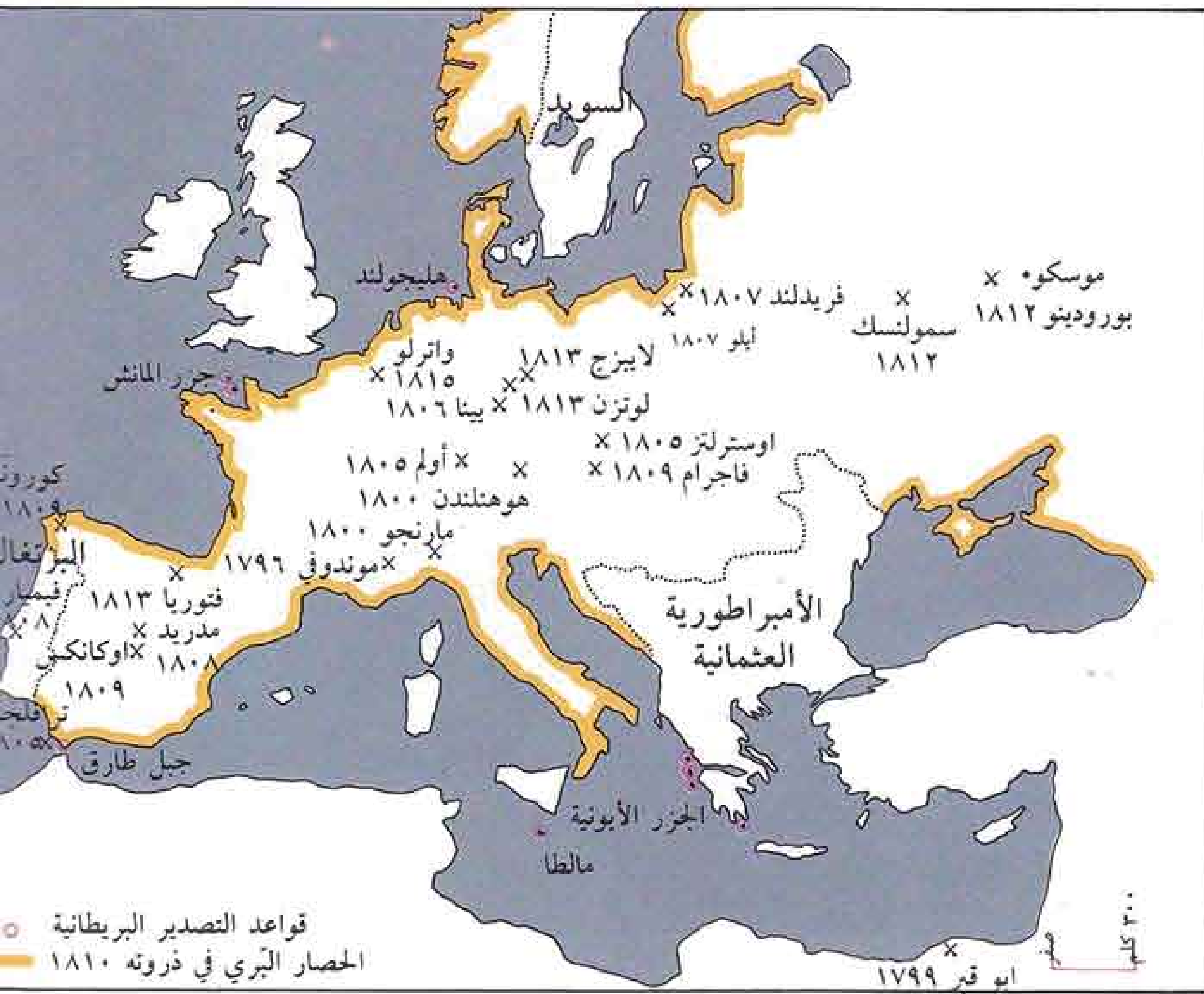
ظهور نابليون

وقعت « الادارة » صلحا مع بروسيا وهولندا ، ولكنها شنت هجوما رئيسيا على النمسا ، مرسلة جنرالا شابا يدعى نابليون بونابارت (١٧٦٩ - ١٨٢١) الى الحرب في ايطاليا (٧) . أحرز هذا الشاب نجاحا باهرا خلال ١٧٩٦ ، وأرغم النمسا على الانسحاب من الحرب . عندها قاد حملة على مصر ليقطع خطوط مواصلات بريطانيا مع امبراطوريتها الهندية ، ولكنه اجبر آخر الأمر على التوقف عن القتال عندما دمر هوارسيو نلسون (١٧٥٨ - ١٨٠٥) اسطوله في معركة أبي قير سنة ١٧٩٨ . في هذه الأثناء ، كانت « الادارة » قد فقدت شعبيتها في جميع اوساط الشعب ، ولما عاد نابليون في نوفمبر ١٧٨٩ ، دبّر انقلابا اسند على اثره السلطة الى ثلاثة « قناصل » (٦) ، جعل من نفسه الأول بينهم .

أوروبا النابوليونية

في سنة ١٨٠٠ ، أصبح نابليون بونا برت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) « قنصلا » أولا على فرنسا ، التي كانت ما تزال عرضة لتهديد دول معادية . جاء الدستور الجديد الذي وضعه موطّداً للسياسة المحافظة التي كانت تنتهجها « الادارة » ، وحاصراً السلطة الداخلية في يد القنصل الأول . عمد نابليون فور توليه السلطة ، الى احلال السلام في اوروبا بسرعة . فاجتاز فجأة جبال الألب ، وحطم القوة النمساوية في ايطاليا في معركة مارنجو في ٤ يونيو ١٨٠٠ ، وعقد صلحا معها في معاهدة لونيفيل . وفي عهد القيصر بولس (١٧٥٤ ـ ١٨٠١) الموالي لفرنسا ، أوقفت روسيا عملياتها ايضا ضد نابليون ، وانضمت في







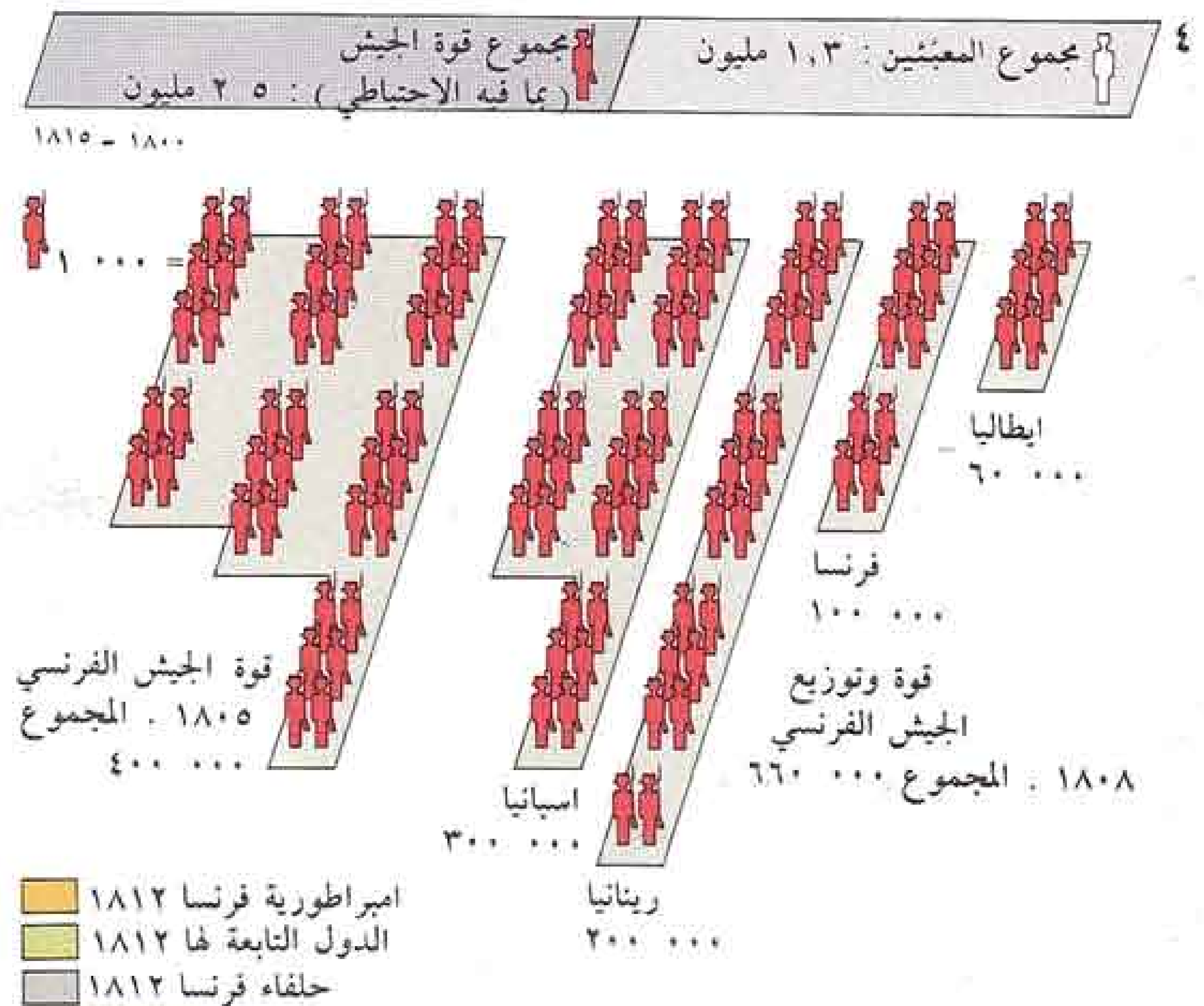
(١) ـ استخدم نابليون ، بوصفه امبراطورا على الفرنسيين ، بهرج المجد الامبراطوري ليوطد دعائم سلالته الجديدة . تجاوب معظم الفرنسيين معه ، ولكن البعض شعروا انه تنكّر بذلك لمبدأ المساواة الذي نادت به الثورة.

(٢) ـ كان من شأن الانتصارات الباهرة التي احرزها نابليون في سلسلة تكاد تكون متواصلة من المعارك انها جعلت من فرنسا لفترة من الزمن الدولة الرئيسية في أوروبا . فقد نجح نجاحا كاملا تقريبا ، بفضل مزيج من

ديسمبر ١٨٠٠ مع بروسيا والدنمرك والسويد الى حلف « الحياد المسلح » الذي أوحت به فرنسا ، من أجل إضعاف عدو نابليون الباقي الأوحد ، بريطانيا ، بقطع العلاقات التجارية بينها وبين سائر بلدان أوروبا .

الحرب والسلم

مع ان بولس لم يلبث أن قتل غيلة وخلفه الاسكندر (١٧٧٧ - ١٨٢٥) الموالي للانجليز ، فقد عقدت بريطانيا صلحا مع فرنسا في معاهدة آميان في مارس ١٨٠٢ ، وافقت فيها على اعادة جميع مكاسبها فيما وراء البحار باستثناء سيلان وترينيداد ، كما وافق نابليون على الجلاء عن هولندا ونابولي . الا ان نابليون لم يلبث أن أثار شكوك بريطانيا حين أخذ يبحث عن مستعمرات جديدة ورفض اخلاء هولندا ، ووسع رقعة نفوذ فرنسا في المانيا . وعندما أدرك





الحرب والدبلوماسية ، في السيطرة على دول النمسا وبروسيا وروسيا . الا ان الحاجة الى توسيع نطاق « النظام القاري » وتوطيده حملته على التورط في حرب العصابات في اسبانيا وعلى شن حملته الفاشلة على روسيا .

(٣) - كان تدمير نلسون للاسطولين الفرنسي والاسباني معا الحدث الحاسم في الحرب البحرية الطويلة ، اذ اقنع نابليون بأن الهجوم المباشر على بريطانيا مستحيل . بعد ان نجت بريطانيا من الغزو ، وحاصرت باسطولها القوي سواحل اوروبا ، واستخدمت ثروتها لتنظيم المقاومة ضد فرنسا ، اضطر نابليون الى توسيع نطاق سيطرته على الدول المجاورة لخنق التجارة البريطانية . فأدت نقمة الشعوب المحكومة الناجمة عن ذلك الى سقوط امبراطوريته آخر الأمر .

(٤) - تمكّن نابليون ، بفضل نظام التجنيد الاجباري ، الذي فرضه على نطاق لم يسبق له مثيل ، من تشكيل الجيوش التي جعلته يسيطر على اوروبا . فمن ١٨٠٠ الى ١٨١٣ ، كان يجند ما معدله ٨٥٠٠٠ رجل من فرنسا كل سنة . لكن نفقات الجنود تزايدت ، لاسيما سنة ١٨١٢ ، نتيجة للحملة المكلفة على روسيا . بلغ مجموع الذين لاقوا حتفهم خلال الحروب النابليونية حوالى مليون ، كان منهم ٤٠٠٠٠٠ من الفرنسيين .

(٥) - كان معظم أوروبا تقريبا سنة ١٨١٢ تحت حكم نابليون المباشر او افراد عائلته ، او البعض من حلفائه . مما ساعد نابليون في البدء هو ذلك التأييد الواسع الانتشار في اوروبا للمثل الثورية القاضية بقلب النظام القديم . فاستغل رغبة الدول المجاورة في الحرية لبسط سلطته الخاصة . فنظم عدة دول ايطالية والمانية صغيرة في جمهوريات اتبعها له ، وانشأ تحالف الراين الذي وضع به حدا فعليا للامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تسيطر عليها النمسا .

البريطانيون ان الأسواق الفرنسية ستبقى مغلقة في وجه سلعهم، وان نابليون كان يعمل على جعل انتورب منافسا تجاريا لهم، رفضوا إخلاء مالطة. فاندلعت الحرب ثانية في مايو ١٨٠٣.

أثناء سنوات السلام النسبي بين ١٨٠٠ و ١٨٠٣، أخذ نابليون يعيد بناء فرنسا داخليا، وكان ذلك من أهم انجازاته. فتأسس بنك فرنسا سنة ١٨٠٠، واخضعت جباية الضرائب لادارة مركزية، واعيدت صياغة القانون وتنسيقه، كما أقيمت سلسلة من المدارس الثانوية المركزية. من جهة أخرى، ساعدت الاتفاقية (الكونكوردا) مع البابا على توسيع سلطة نابليون، اذ تخلت الكنيسة الكاثوليكية عن مطالبتها بأملاك الكنيسة المؤممة، لقاء تأييد الدولة لها. وفي سنة ١٨٠٢، أصبح بونابرت قنصلا أولا مدى الحياة، ومنح صلاحية تعيين خلف له.

٦



(٦) - أبرز انتصار نابليون في اوسترلتيز والحملة التي أدت الى ذلك الانتصار جميع الصفات العسكرية التي جعلت نابليون واحدا من أعظم القواد الذين عرفهم العالم. فبعد أن زحف بسرعة على رأس «الجيش الكبير» من المانش حتى الدانوب، دمّر الجيش النمساوي في أولم، ثم ارغم فرقة روسية على التراجع حتى لحقت بالجيش الروسي الرئيسي في اوسترلتيز. في المعركة التي تلت، استعمل نابليون مزيجا من قذائف المدفعية الكاسحة ومن هجمات المشاة المكثفة، ليطرد الروس ويرغمهم على التضعضع والانسحاب.

٧



(٧) - هُزم نابليون آخر الأمر في واترلو، بالقرب من بروكسل، على يد الجيوش البريطانية والبروسية بقيادة دوق ولنجتون ومارشال بلوخير. قبل ذلك، كان الحلف المؤلف من الدول الاوروبية الكبرى والبلدان المحكومة قد أكره نابليون على التخلي عن العرش، ولكنه اعتبر نفيه في جزيرة البا فترة انتقالية. وعندما أدى حكم آل بوربون الى اثارة كراهية معظم الفرنسيين لهم، زحف على باريس بتأييد شعبي. الا ان تكتيك الضربة الصاعقة الذي استخدمه «الجيش الكبير» لقي ما يقابله في واترلو.

جاء تجدد الحرب مع بريطانيا يبرزها كأعند وأخطر خصم لنابليون ، فحاول بادىء الأمر أن يكسرها بواسطة الغزو . الا ان الاسطول الملكي حاصر سواحل فرنسا واسبانيا طيلة ما ينيف على سنتين ، ثم دمر بقيادة نائب الأميرال هوراسيو نلسون الاسطولين الفرنسي والاسباني في معركة الطرف الأغر في ٢١ اكتوبر ١٨٠٥ (٣) .

الستراتيجية العسكرية والاقتصادية

قبل ذلك بسنة تقريبا ، كان نابليون ، الذي أعلن نفسه امبراطورا (١) سنة ١٨٠٤ ، قد اضطر الى اعادة توزيع « الجيش الكبير » ليتمكن من مواجهة تهديد جديد من النمسا وروسيا اللتين انضمت اليهما الآن بريطانيا في « حلف ثالث » . في هجوم صاعق ، سحق نابليون الجيش النمساوي في أولم في ٢٠ اكتوبر ١٨٠٥ ، واحتل فيينا ، ودحر الروس في أوسترليتز (٦) في ٢٦ ديسمبر .

أخذ نابليون الآن يحاول أن يكسر بريطانيا اقتصاديا ، لمنعها بالقوة من تعاطي التجارة مع أي جزء من أجزاء أوروبا . فقد كانت بريطانيا ، على الرغم من القوة التي اكتسبها نابليون بفضل انتصاراته في أوروبا ، تجد دوما سبلا لتهريب بضائعها اليها ، فاضطر نابليون الى العمل على توسيع « نظامه القاري » أكثر فأكثر . غير ان الاحتلال العسكري (٤) والمصاعب الاقتصادية الناجمة عن حكم نابليون كانت آخذة في اثارة كراهية متزايدة لهذا الحكم في أوساط الأمم المحكومة .

سنة ١٨٠٨ ، أرغم نابليون شارل الرابع (١٧٨٤ ـ ١٨١٩) ملك اسبانيا وابنه فرديناند على التخلي عن العرش لمصلحة شقيق نابليون جوزيف . فثار الاسبان وأرسل البريطانيون جيشا لمساندتهم . كلّفت الحملة الاسبانية نابليون أكثر من ٥٠٠٠٠ رجل ، وأدّت الى هزيمته الأولى على اليابسة . سنة ١٨١٠ ، أحكم نابليون قبضته على « النظام القاري » بضم هولندا والساحل الالماني ، فألقى ذلك اوروبا في غمرة أزمة اقتصادية حملت القيصر على انهاء تحالفه مع نابليون في ديسمبر ١٨١٠ .

التراجع عن موسكو

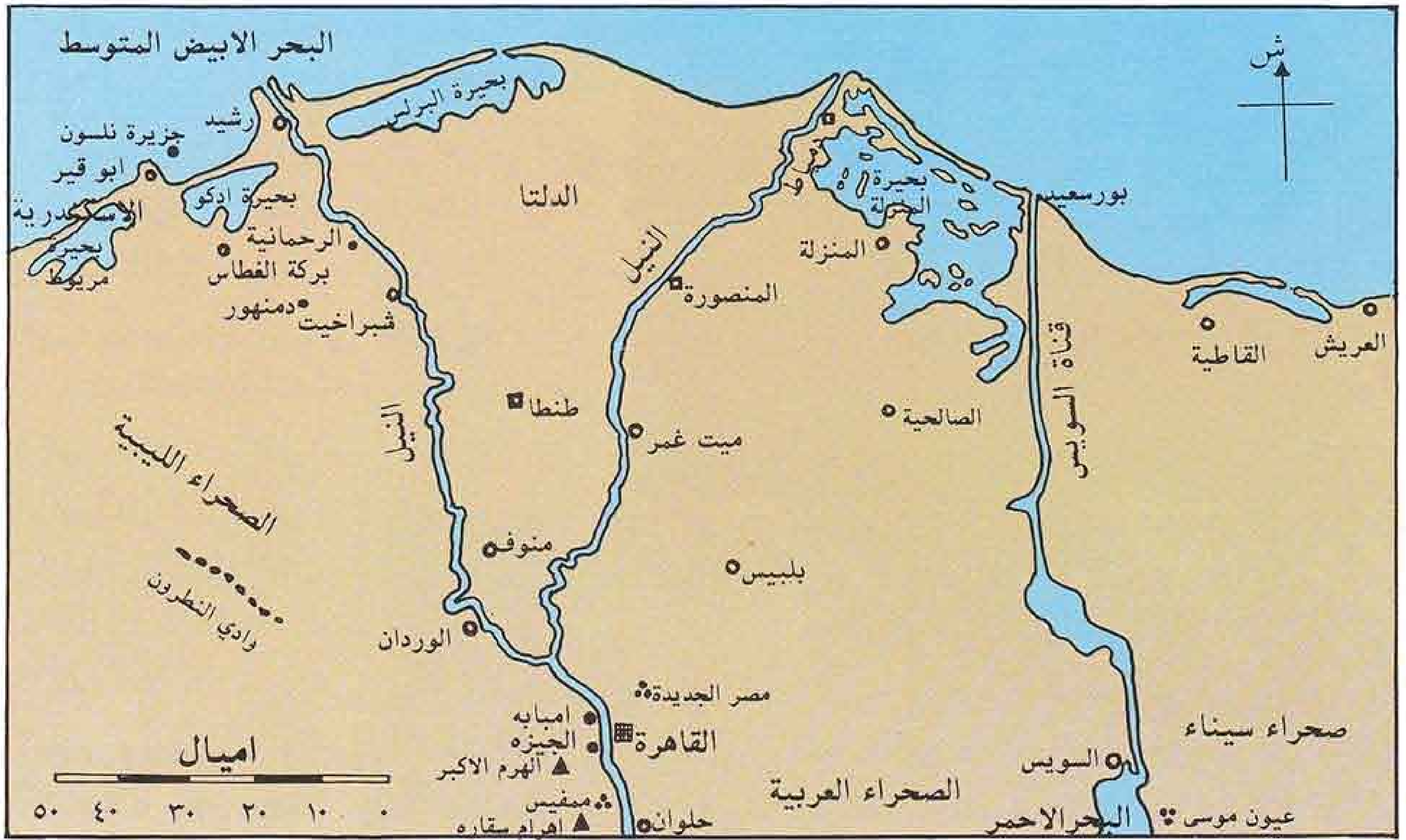
في حزيران ١٨١٢ ، شن نابليون حملة ضخمة على روسيا على رأس ٦١١٠٠٠ رجل . بلغت جيوشه موسكو ، الا ان انقطاع المؤن والنكسات العسكرية أرغمت تلك الجيوش على تراجع شتوي فوضوي لم يبق منها سوى ١٠,٠٠٠ رجل فقط قادرين على القتال . في فبراير ١٨١٣ ، أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا والنمسا ، وحذا حذوها عدد من الدول المحتلة ، فهزم نابليون في ليبزغ في اكتوبر ، وزحف الحلفاء على شمالي فرنسا ، بينما هاجم البريطانيون جنوبيها عبر جبال البيرينه . سقطت باريس في ٣٠ مارس ١٨١٤ ، وتخلى نابليون عن العرش في ١١ ابريل ، ونفي الى جزيرة ألبا .

في أول مارس ١٨١٥ ، انتهز نابليون فرصة الخلاف بين الحلفاء وعدم شعبية آل بوربون الذين كانوا قد عادوا الى عرش فرنسا ، ليعيد توطيد سلطته . الا ان هزيمته على يد دوق ولنجتون (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢) في واترلو (٧) في ١٨ يونيو ١٨١٥ أدت الى نفيه الى جزيرة سانت هيلانة ، حيث توفي سنة ١٨٢١ .

نابوليون في المشرق

كان من نتيجة الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ان نشبت في اوروبا سلسلة من الحروب ، اشتبكت فيها المصالح والمحالفات ، دامت حتى سنة ١٨١٥ ، حين انتصرت الجيوش البريطانية والحليفة على نابوليون في معركة واترلو . كان النزاع بين فرنسا وبريطانيا العقدة الرئيسية في الحروب المذكورة . وكان على فرنسا ان تهاجم بريطانيا في عقر دارها . فخططت فرنسا (١٧٩٧) للقيام بحملة ضد بريطانيا . الا ان نابوليون الذي استُدعي لقيادة الحملة ، ارتأى أن توجه الحملة ضد مصر ، لأن الانتصار الفرنسي هناك يشل حركة بريطانيا التجارية مع الهند التي كانت المصدر الأساسي

أ



(١) - اقلعت الحملة النابوليونية على مصر (أ) من طولون (فرنسا) في شهر مايو ١٧٩٨ ، واستولت في ١٠ يونيو على جزيرة مالطا التي كان يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا ، ووصلت الى الاسكندرية واحتلتها في ٢ يوليو . ثم اتجهت نحو القاهرة فاشتبكت مع المماليك في معركة الأهرام وهزمتهم رغم مقاومتهم الباسلة ، وفي ٢٣ يوليو دخلت القاهرة التي استسلمت . بعد مرور اسبوع فقط ، دمّر الاسطول الانجليزي الاسطول الفرنسي في ١ نوفمبر . بعد ثمانية اشهر تقريبا اتجه نابوليون بجيشه نحو الشمال الشرقي (ب) لمحاربة الاتراك . فاحتل العريش ثم يافا ووصل الى عكا وحاصرها في ١٩ مارس ١٨٩٩ ، لكنه اضطر الى رفع الحصار عنها في ٢ مايو والى العودة الى مصر التي لم يلبث ان غادرها الى باريس ، تاركا قيادة قواته للجنرال كليبر الذي عقد اتفاقية مع الاتراك للانسحاب من مصر بسلام .

---

(٢) - المعهد المصري (الفرنسي) في الازبكية . في هذا المعهد أعدت الدراسات المفصلة ، مع ما جمع في الميادين المختلفة ، والتي نشرت فيما بعد باسم وصف مصر . ليس هناك ، في العصور التاريخية ، عمل ألقى من الضوء على قطر مثل الذي ألقاه هذا الكتاب على مصر في الظروف المعروفة .

للثروة البريطانية .

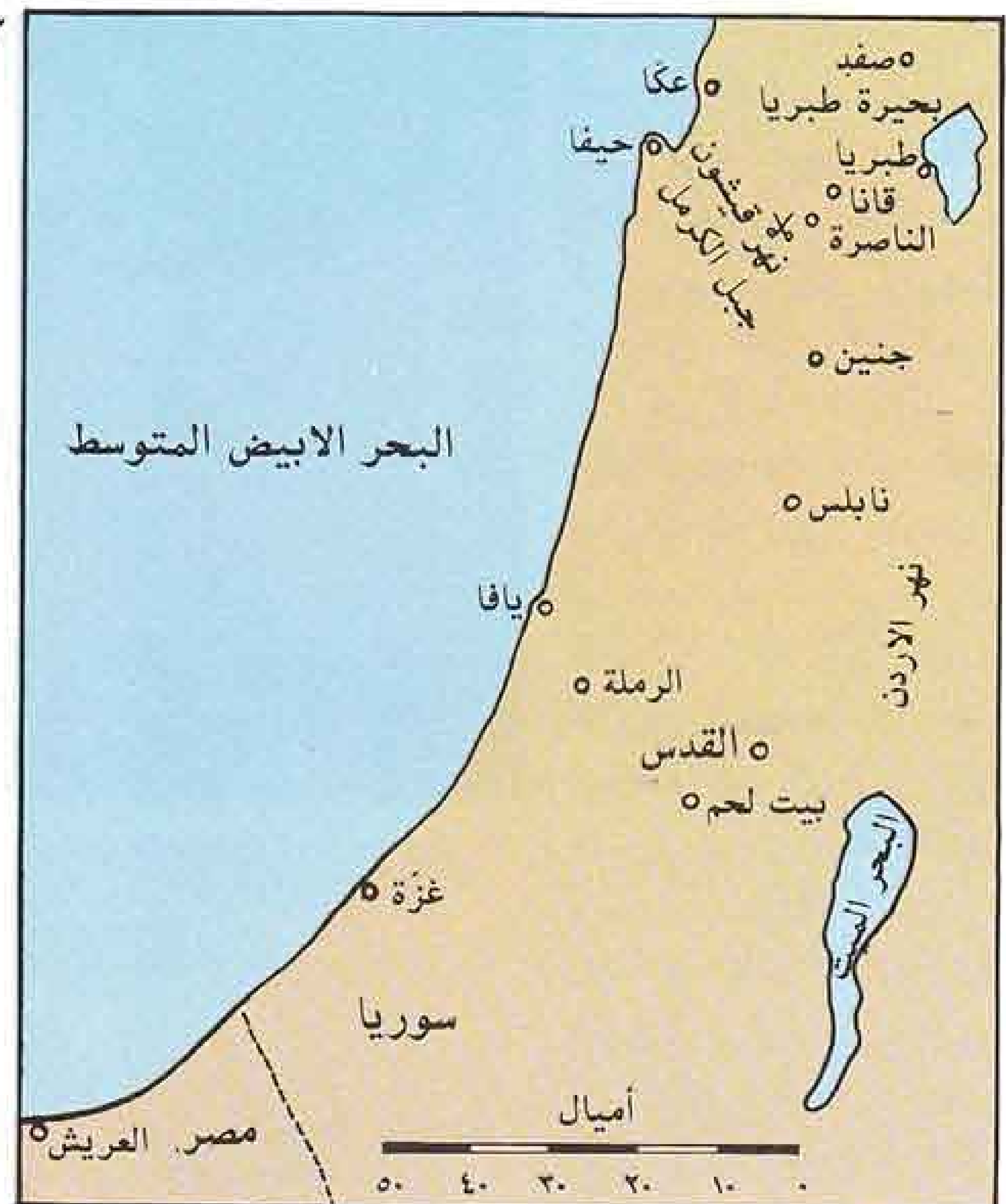
الا ان الخطة كانت ترمي بالحقيقة الى احتلال دائم لمصر للافادة من ثروتها الزراعية وموقعها التجاري الهام في الشرق .

الحملة الفرنسية

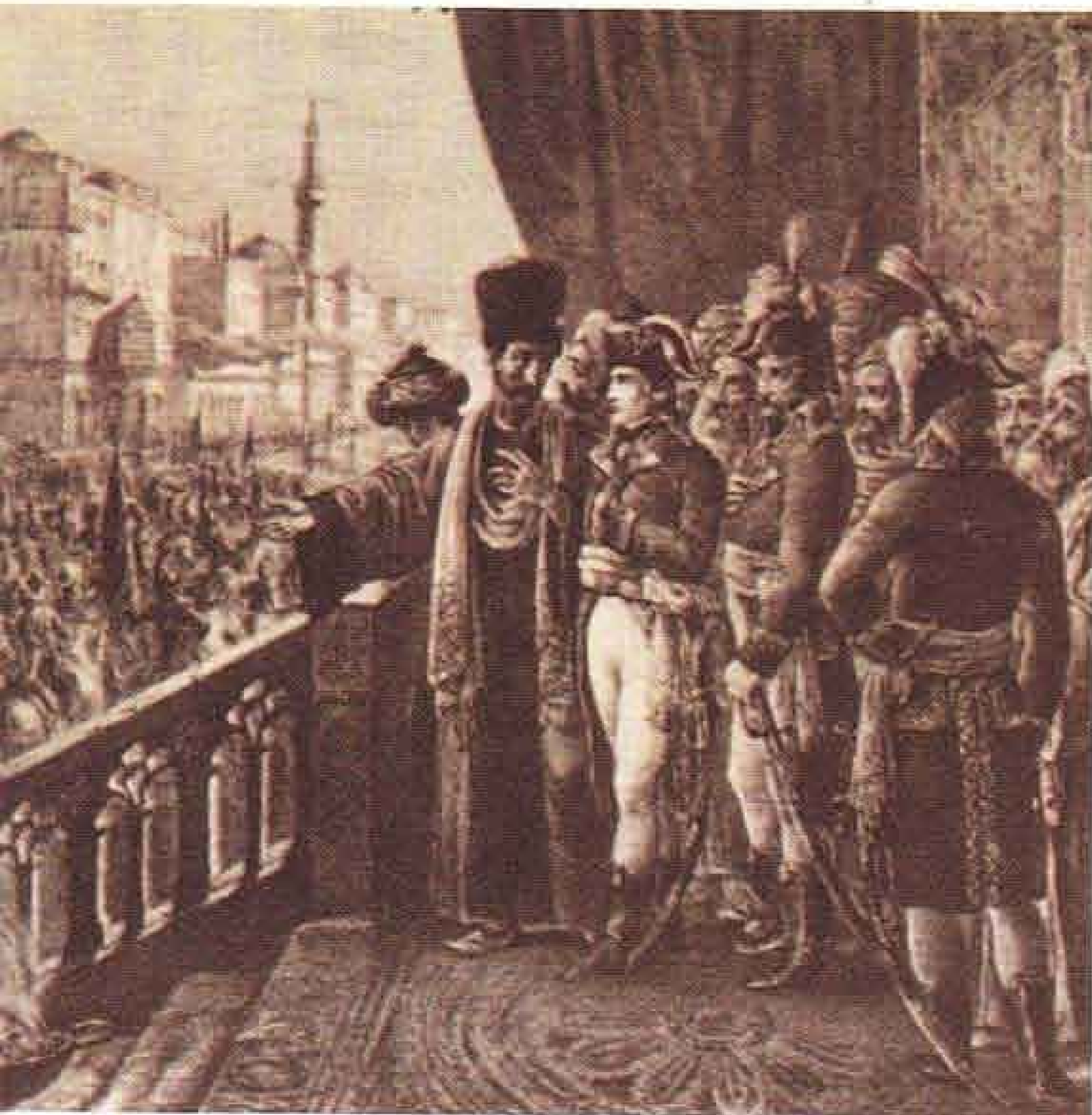
خرجت الحملة من ميناء طولون (مايو ١٧٩٨) في اتجاه مصر . وبالاضافة الى الجنود والعدة والاسلحة ، كان مع الحملة بعثة علمية كبيرة العدد كان في عداد اعضائها علماء في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والزراعة وطبقات الأرض (الجيولوجيا) والجغرافيا والآثار وخبراء في المساحة ورسم الخرائط . ويتضح من هذا ان الغاية من الحملة كانت ، بالاضافة الى الاحتلال ، دراسة مصر دراسة دقيقة تمهيدا للافادة من جميع موارد الثروة فيها .

وصلت الحملة الى الاسكندرية (١)

ب



٣



(٣) ـ حاول نابوليون ان يتقرب من المصريين بمختلف الوسائل ، منها منح الشيوخ أوسمة واوشحة ، ومشاركة المسلمين في اعيادهم الدينية كما يظهر من هذا الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف ، وسعيه لاقناعهم ان فرنسا هي حليفة الاسلام والمسلمين كما يتبين من المنشور الذي وزعه عليهم بالعربية ساعة نزوله الاسكندرية والذي قال فيه : « اذا قيل لكم اني آت لأعبث بدينكم فلا تصدقوا بل اجيبوا باني ما جئت الا لأعيد اليكم حقوقكم واقتص لكم من مغتصبيها (المماليك) واني احترم الله ونبيه وقرآنه أكثر مما يحترمه المماليك .. فنحن الاصدقاء الحقيقيون للمسلمين . ألم نخرج على البابا لأنه كان يدعو الى محاربة المسلمين ؟ » .

٢

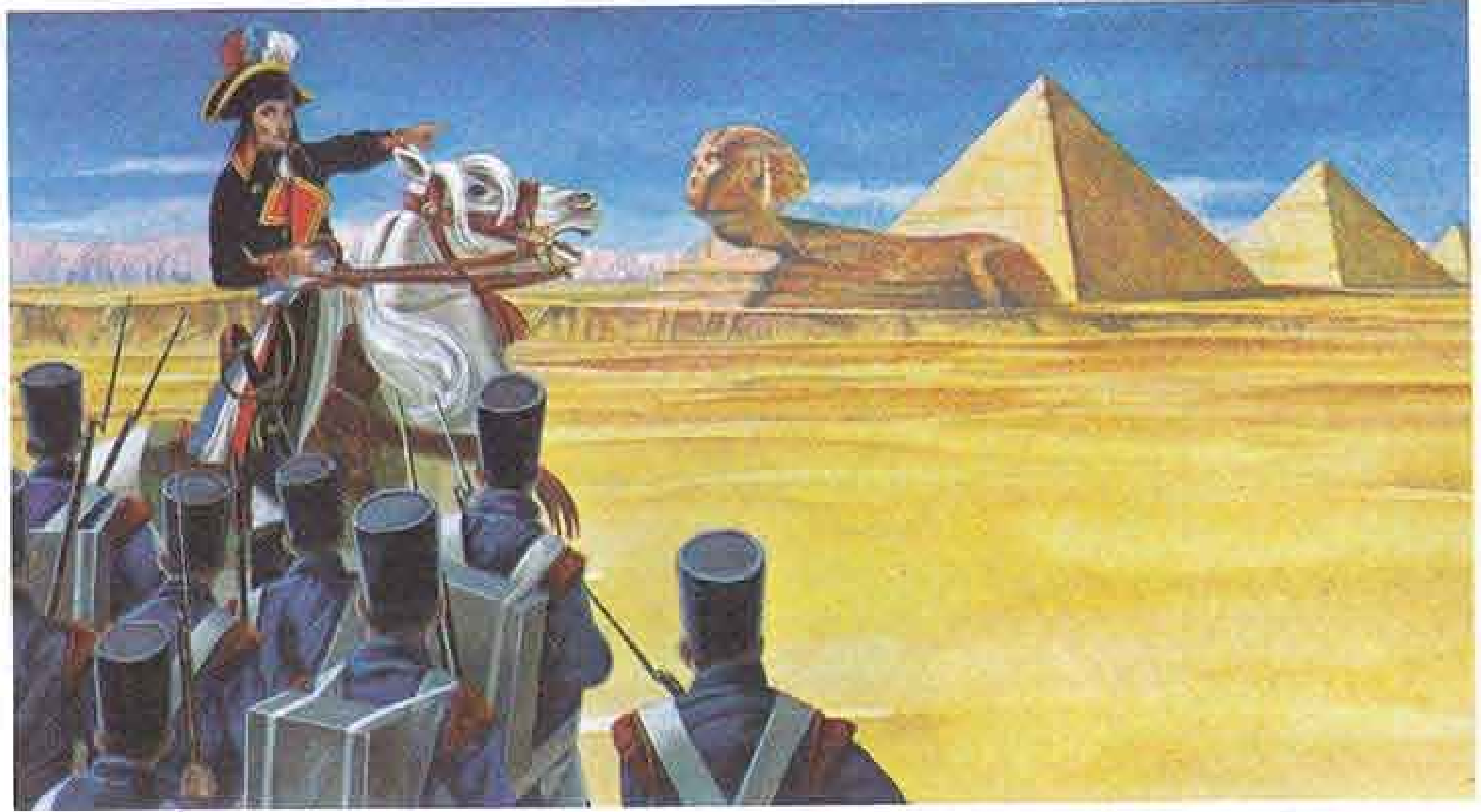


واستولت عليها (١ يوليو ١٧٩٨) ، وسـار نابوليون منها نحو القاهرة . كانت مصر تحت سلطان الدولة العثمانية اسما ، لكن امورها كان يديرها المماليك . وكانت الزعامة بين هؤلاء قد انتهت الى ابراهيم بك ومراد بك . ومع ما كان بين الرجلين واتباعهما من الخصومة ، فقد خرجت القوات المملوكية متحدة لمواجهة الفرنسيين . الا ان هؤلاء انتصروا في معركة الأهرام (٢٣ يوليو ١٩٧٨).

فهرب ابراهيم بك الى الشرق ومراد بك (٢) الى الجنوب . ودخل الفرنسيون القاهرة بعد يومين .

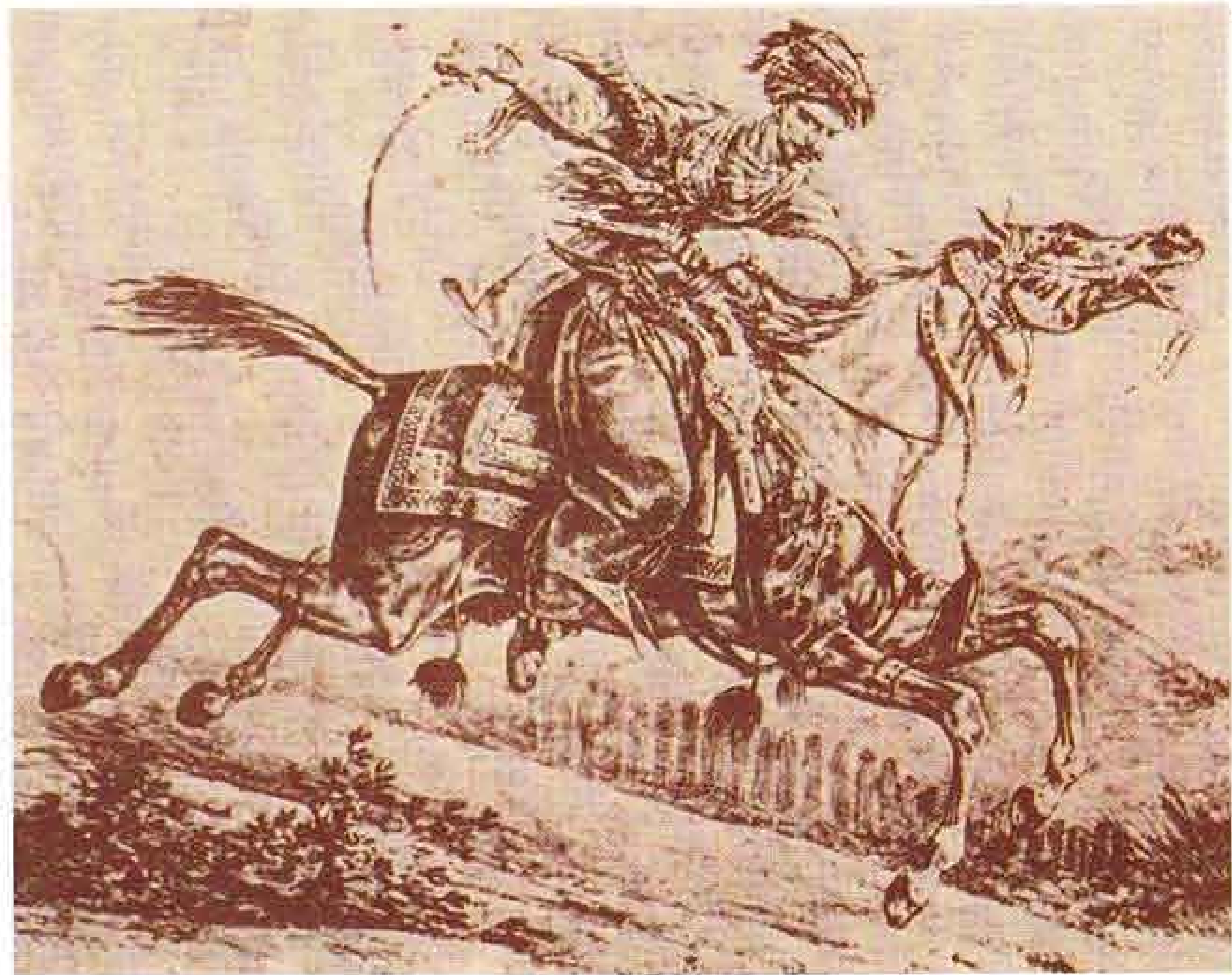
أخذ نابوليون يضع ادارة لمصر . وكانت ادارة عسكرية دقيقة منتظمة . حاول ان يشرك فيها المصريين . الا ان المصريين كانوا ينظرون الى الحكم الفرنسي نظرة عداء على اعتباره احتلالا اجنبيا غريبا عنهم في كل شيء . ولما قضى البريطانيون على

٤



(٤) ـ استهل نابوليون هذه المعركة بكلمة مشهورة وجهها الى جنوده لرفع معنوياتهم واثارة حماسهم للقتال ضد فرسان المماليك البواسل المخيفين . فقال : « أيها الجنود ان اربعين قرنا تنظر اليكم من اعالي هذه الاهرام » . في الواقع لقد ابلى الفرنسيون بلاء حسنا في هذه المعركة وخرجوا منها منتصرين . الا ان العامل الرئيسي لانتصارهم كان تلك المدفعية الحديثة التي كانوا يصبون نيرانها الحامية على فرسان المماليك المغيرين . وهذا ما يفسّر لماذا خسر المماليك في هذه المعركة ٢٠٠٠ من رجالهم ، بينما لم يخسر الفرنسيون ، على ما تقول كتبهم ، سوى ٤٠ قتيلا و ٢٦٠ جريحا .

٥



(٥) ـ قد يكون هذا الفارس المملوكي احد اولئك الذين حاربوا الفرنسيين قرب الأهرام وخسروا المعركة رغم البسالة الخارقة التي اظهروها فيها لأنهم اعتمدوا على صفاتهم القتالية الشخصية وبراعتهم في الحرب من على ظهر الجياد ، بينما اعتمد الفرنسيون على مدفعيتهم.

الاسطول الفرنسي في معركة ابو قير البحرية (اغسطس ١٧٩٨) وانقطع المدد عن نابوليون ، زادت حاجته الى المال ، فثقل عبء الضرائب على الشعب مع الدقة في جمعها ، وافرط الحكم في اعدام المجرمين او المذنبين ، وتصرف الجنود الفرنسيون بشكل علني في امور كان الشعب المصري يأباها مثل شرب الخمور والظهور مع النساء علانية ، فانفجرت الثورة عارمة (اكتوبر ١٧٩٨) واشترك فيها السكان . وقمع الفرنسيون الثورة بعنف ، فضربوا الأزهر بالمدافع ، وسلطوها على الأحياء والسكان .

الحملة على سوريا

قرر نابوليون (١ ـ ب) أن يهاجم سوريا ويحتلها . فخرج بجيشه من مصر (فبراير ١٧٩٩) ، فاحتل العريش ويافا (حيث قتل ٢٠٠٠ جندي من حاميتها كانوا قد استسلموا له بعد ان امنهم) . وارسل فرقة من جيشه الى القدس . ثم وصل الى عكا وبدأ بمحاصرتها (١٩ مارس ١٧٩٩) . وكان حاكمها أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ ـ ١٨٠٤) قد حصنها واحكم تحصينها ، كما كانت قطع من الاسطول البريطاني بقيادة سدني سميث تحميها من البحر . وبعد محاولات متعددة ، فشل نابوليون في احتلال المدينة (وكانت الملاريا قد انتشرت بين جنده) ، فرفع الحصار عنها (٢٠ مايو ١٧٩٩) وعاد ادراجه الى القاهرة . وبعد فترة قصيرة غادر نابوليون مصر الى فرنسا تاركا الجنرال كليبر على رأس الادارة . واغتيل كليبر (على يد سليمان الحلبي) ، فتأخر مشروع الانسحاب الفرنسي من مصر . وخلفه مينو الذي واجه في النهاية الحملة البريطانية البحرية والجيش العثماني ، فسلم البلاد وانسحب نهائيا (صيف ١٨٠١) .

أثر الحملة الفرنسية

كانت الحملة الفرنسية اول تدخل عسكري في ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية ، ففتح بها الباب على مصراعيه لمثل هذا التدخل . كانت الجزائر الضحية الاولى بعد ذلك (١٨٣٠) ، ثم جاءت الاحتلالات والمعاهدات .

أما آثار الحملة الفرنسية في شؤون مصر الداخلية ، فيبدو واضحا في القضاء على النظام الذي كانت مصر تحكم بموجبه ، وهو نظام كانت تتقاسم السلطة فيه قوى ثلاث : الوالي العثماني وزعماء المماليك وشيخ البلد .

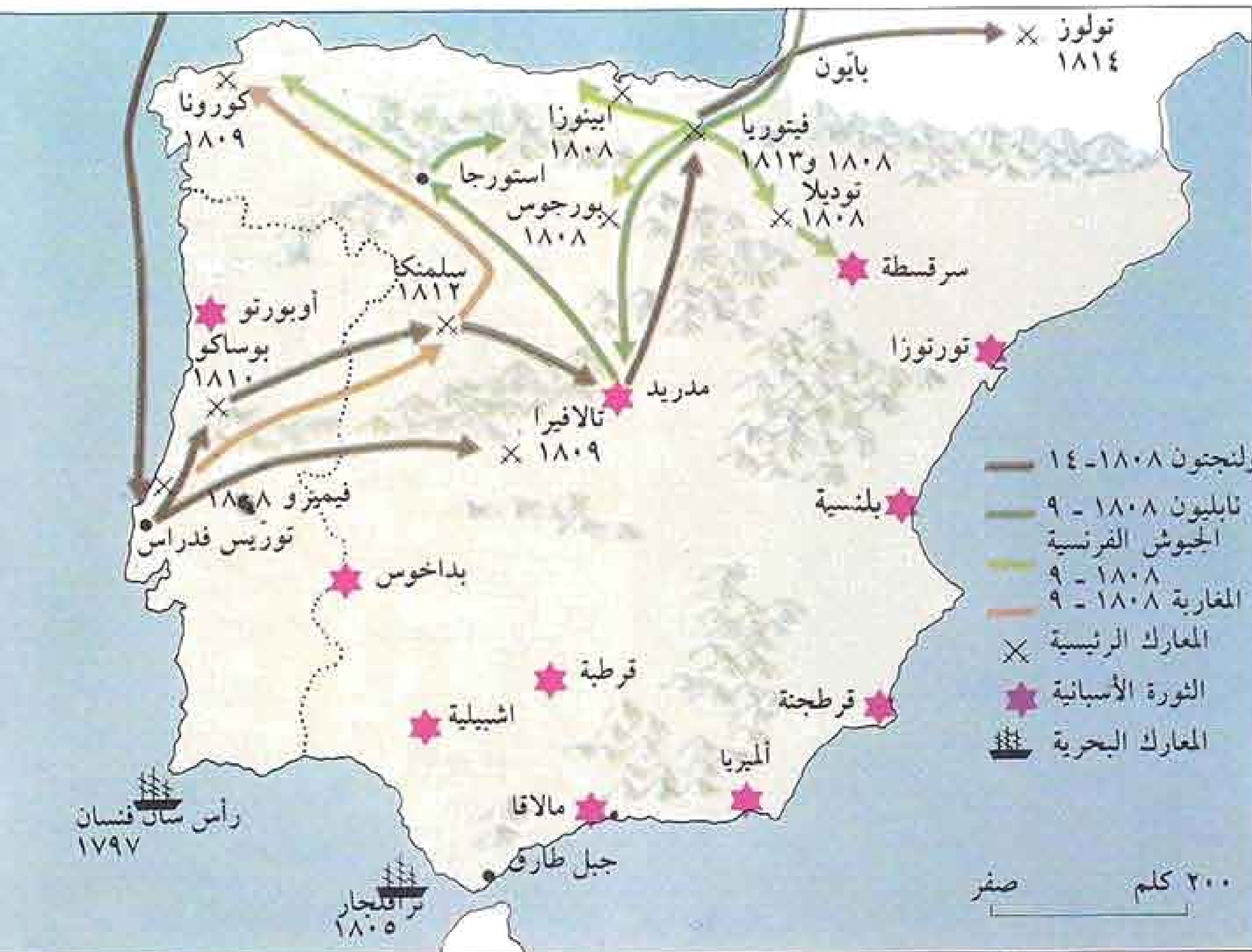
على انه كان للحملة الفرنسية آثار أخرى بالنسبة الى مصر . فقد حمل الفرنسيون معهم الى مصر مطبعتين ، وبذلك دخلت المطبعة في الحياة المصرية ، وقد طوّر محمد علي ، لما تولى السلطة ، المطبعة بحيث قامت مطبعة بولاق الشهيرة وغيرها .

ولعل أكبر أثر للحملة الفرنسية كان في الدراسة الدقيقة التي قام بها اعضاء البعثة العلمية لشؤون مصر ـ ثروة وامكانات في جميع الميادين . وهذه الدراسة ظهرت في الكتاب الضخم المسمى وصف مصر (٢) (نشر بالفرنسية في باريس ١٨٠٩ ـ ١٨٢٨) . وكان بعض علماء الحملة قد بدأوا بوضع البرامج والخطط لتطوير مصر على اساس ان الفرنسيين باقون هناك الى الأبد . وقد افاد من وصف مصر والبرامج والخطط المرسومة فيه محمد علي في فترة حكمه لمصر (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩) .

نلسون وولنجتون

طيلة قرون عدة ، بقيت بريطانيا تقاوم كل دولة أوروبية تهددها بالسيطرة على القارة الأوروبية ، ومن ١٧٩٣ حتى ١٨١٤ ، باستثناء فترة قصيرة سنة ١٨٠١ ـ ١٨٠٢ ، قاتلت للحد من اتساع سلطة فرنسا الثورية . لما كانت بريطانيا تفتقر الى جيش كبير ، اضطرت الى الاعتماد على الستراتيجية التقليدية القاضية بتنظيم أحلاف من الدول الأوروبية الأخرى ، فيما كانت تستعين بسيادتها البحرية لكسر شوكة فرنسا بواسطة الحصار البحري . كذلك كانت ترسل جنودها ، كلما سنحت الفرصة ، لمساعدة القوى المناوئة لفرنسا . الا ان أكبر مساهمة بريطانية في الهزيمة النهائية لفرنسا نجمت

١


٢


(١) ـ كانت السفينة الملكية (النصر) ، حاملة علم نلسون في ترافلجار ، من نوع سفن القتال المألوفة التي كانت تشكل الاسطول الحربي الرئيسي . كانت هذه السفن البطيئة الصعبة القيادة كناية عن منصات مدفعية عائمة تحمل بين ٦٠ و ١٢٠ مدفعا تطلق النار جانبيا ، وكانت قادرة على البقاء في عرض البحر طيلة سنوات . بنيت « النصر » في شاتهام ودشنت سنة ١٧٦٥ ، وكانت تبلغ ٦٩,٥ مترا طولا ولها سارية تبلغ ١٥,٥ مترا . كان لها أكثر من ١٠٠ مدفع ، أكبرها اثنان من عيار ٦٨ رطلا وثلاثون من ٣٢ رطلا وثمانية وعشرون من ٢٤ رطلا .

(٢) ـ استولى الفرنسيون على اسبانيا بسرعة وأكرهوا البريطانيين على مغادرتها ، بعد سقوط اوبورتو (١٨٠٧) ، استنجدت البرتغال ببريطانيا ، فأقلع ولنجتون لنجدتها على رأس قوة مؤلفة من ١٧٠٠٠ رجل . أمر نابليون رجاله بقذف البريطانيين في البحر ، الا ان الفرنسيين انفسهم طُردوا من شبه الجزيرة الايبرية وراحوا يهرولون عبر حدودهم ، وولنجتون ماضٍ في مطاردتهم . قال نابليون فيما بعد ان « القرحة الاسبانية » بما اقترن بها من نشاط العصابات والمظاهرات المتواصلة هي التي قوّضت امبراطوريته .

(٣) ـ في ترافلجار كان الاسطول البريطاني في المعركة منقسما الى صفّين . فبعد أن أدرك نلسون ان العدو يفوقه عددا بنسبة ٣٣ الى ٢٧ ، تخلى عن التكتيك التقليدي القاضي بصف حربي واحد ، فحقق بذلك نجاحا باهرا ، اذ انه استولى على ١٩ سفينة .

عن تصميمها على مواصلة القتال ، بمفردها اذا اقتضى الأمر ، حتى العثور على حلفاء جدد ، وعلى استعمال قدرتها القديمة العهد فوق سطح البحار .

أسلحة بريطانيا

عرف « الاسطول الملكي » طيلة أجيال بأنه درع الأمن البريطاني ، لكنه لم يكن من السهل أن يصبح كذلك بالفعل . فقد كان من الصعب تجنيد الأعداد المطلوبة لتجهيز الاسطول في أيام الحرب ، الا عن طريق التسخير الاجباري أو استخدام المجرمين . ومما كان لا يغري للالتحاق العفوي بالاسطول انه لم يكن مسموحا لمن دخل في خدمته أن ينسحب منها الا في النادر .

خلافا لجيوش أوروبا المجندة اجباريا ، كان الجيش البريطاني البري في تلك الفترة

٣



(٥) ـ بهذه الكلمات « جزمة ولنجتون ، أو رأس الجيش » عنونت هذه الصورة الهزلية التي يظهر فيها « الدوق الحديدي » ولباس الرجل الخاص به . كان ولنجتون رجلا سكوتا ومعتزلا للناس . يتظاهر بازدراء رجاله الذين كان ينعتهم بحثالة الأرض ، وان كان يقيم تكتيكه على صمودهم تحت النار . كان يفضل المواقع الدفاعية ويعتمد على انضباط رجاله في رد هجمات فرق المشاة والخيالة الفرنسية الكثيفة التي كانت قد حطمت معظم الأعداء الآخرين . كان يخفي طبيعة عاطفية وراء تصرف جليدي ، وكان يهتم بمصلحة رجاله ورفاهيتهم ، فبادلوه ذلك بالاحترام وبانزال الهزائم بخيرة فرق « الجيش الكبير » .

٤



(٤) ـ أحاطت وفاة نلسون انتصار ترافلجار بغمامة سوداء . أصيب في كتفه برصاصة قناص ، فأنزل الى اسفل السفينة ، حيث توفي بعد ذلك بأربع ساعات . كان يؤمن بالانضباط الصارم ، كما كان قائدا موهوبا ، وقد أظهر في غمرة المعركة شجاعة واقداما فائقين ، فضلا عن عبقرية تكتيكية وبصيرة ثاقبة .

٥



قوة متطوعة تعد بعشرات الألوف فقط لا بمئاتها. فضلا عن ذلك، كان بوسع الضباط أن يشتروا مناصبهم دون أن يتلقوا أي تدريب لكن بذلت الجهود لاخضاع خدمات التموين والتطبيب لقواعد نظامية.

انتصارات نلسون الباهرة

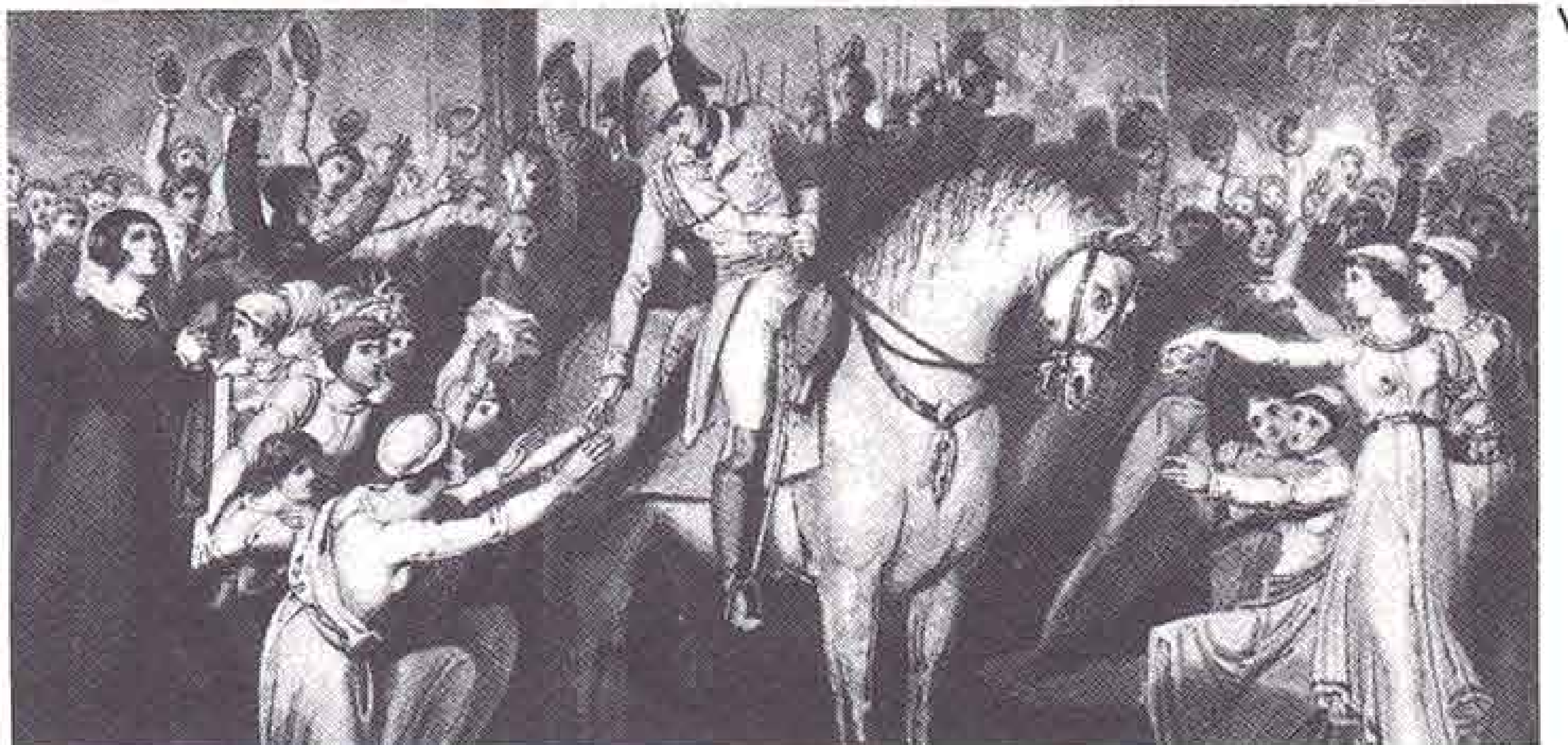
عند اندلاع الحرب، كان نلسون يقود سفينة عادية في البحر المتوسط، لكنه اكتسب فيها شهرة كضابط نشيط ومقتدر. وخلال معركة سانت فينسانت في ١٤ فبراير ١٧٩٧، توصل، بمبادرته في اختراق خط القتال، الى الاستيلاء على أربع سفن عدوة. وتقديرا لإحرازه هذا النصر، عيِّن فارسا ورقي الى رتبة أميرال. جرح في عدة مناوشات، وخسر عينا وذراعا، الا أن قواه العقلية بقيت كاملة. كان أهم انتصار له تصديه لنابليون سنة ١٧٩٨، عندما حاول مهاجمة مصر لقطع

٦



(٦) - جعلت معركة واترلو (١٨١٥) من ولنجتون بطلا قوميا. كان نابليون قد دخل بلجكا في ١٥ يونيو ودحر الجيش البروسي في لينيي دون أن يهزمه نهائيا؛ وفي صبيحة الأحد في ١٨ يونيو، انتقل الى مهاجمة ولنجتون في واترلو. كان لدى ولنجتون ٦٧٠٠٠ رجل و ١٥٠ مدفعا، بينما كان لدى نابليون ٧٢٠٠٠ رجل و ٢٥٠ مدفعا. لم تلبث المعركة أن انقلبت الى مبارزة مدفعية، تتخللها بعض المناورات. الا أن وصول البروسيين في المساء الباكر حمل معه نصرا سريعا وتاما.

٧



(٧) - لقي ولنجتون ترحابا عظيما عندما دخل تولوز على ظهر حصانه في ١٢ ابريل ١٨١٤. كانت المعركة، كما قال «قاسية جدا»، وبلغ مجموع القتلى من الطرفين ٧٧٠٠ رجل. مع ذلك شعر باكتمال النصر عندما سمع في أواخر ذلك اليوم ان نابليون قد تنازل عن العرش.

صلات بريطانيا بالهند وبممتلكاتها الشرقية الأخرى ، وتحطيم اسطوله في خليج أبو قير .
تولى ظافر النيل ، الذي حظي بعدها بلقب نلسون بارون النيل قيادة اسطول البحر المتوسط سنة ١٨٠٣ . خلال السنتين التاليتين ، توصل نلسون قبالة طولون ، والاميرال وليم كورنواليس (١٧٤٤ - ١٨١٩) قبالة بريست ، الى تجميد الاسطول الفرنسي بفضل اللجوء الى اساليب خارقة من الملاحة . وفي سنة ١٨٠٥ ، استطاعت تشكيلة من السفن الفرنسية في طولون أن تتسلل الى عرض البحر وتتجه نحو جزر الهند الغربية بقصد العودة والالتقاء بقوات فرنسية أخرى واقامة قيادة مؤقتة للسيطرة على المانش تمكينا لنابليون من مهاجمة بريطانيا . الا أن نلسون أرغم الفرنسيين على الالتجاء الى قادس ، فيما رابط لهم باسطوله خارجها تجاه رأس الطرف الأغر (ترافالغار) . وعندما خرج الاسطولان الفرنسي والاسباني معا لفك الحصار ، دمرهما اسطول نلسون كليا في معركة ترافلجار الشهيرة في ٢١ اكتوبر ١٨٠٥ (١ ، ٣ ، ٤) .

الطريق الى واترلو

قضى انتصار نلسون على الآمال التي كانت تراود نابليون بمهاجمة بريطانيا . لذا وجد الامبراطور الفرنسي نفسه مضطرا ، للتمكن من تحطيم قوة بريطانيا الى اقفال أوروبا في وجه التجارة البريطانية . عندما رفضت البرتغال واسبانيا الانضمام الى الحصار المطلوب ، شن الفرنسيون هجوما عليهما ، فاعطيا بذلك لبريطانيا فرصة للتدخل العسكري . أرسلت بريطانيا حملة الى اسبانيا بقيادة جون مور (١٧٦١ - ١٨٠٩) ، لكنها اضطرت الى التراجع ، ثم أوفدت حملة ثانية ، في آب ١٨٠٨ ، بقيادة السير أرثور ويلزلي (١٧٦٩ - ١٨٥٢) (٥) ، ودوق ولنجتون فيما بعد ، فحالفها التوفيق وتمكنت من النزول في البرتغال .
كان ولنجتون ارستقراطيا من اصل انجليزي ارلندي اكتسب مهاراته العسكرية في الهند من ١٧٩٦ حتى ١٨٠٥ . بعد ان اشترك في حملات فاشلة في أوروبا الشمالية الغربية سنة ١٨٠٦ و ١٨٠٧ ، عيِّن قائدا في شبه الجزيرة الايبرية . برهن آنذاك ، طيلة السنوات الثلاث التالية ، عن مهارة فائقة في تكبيل أيدي القوات الفرنسية المتفوقة جدا (٢) . كان دائما على استعداد للتراجع الى وراء خطوط الدفاع عند الضرورة ، ولكنه كان يخرج فجأة لتوجيه سلسلة من الضربات الى الفرنسيين . أخيرا سنة ١٨١١ ، شنّ هجوما رئيسيا أدى بانتصاراته الكبرى في سلامانكا وديتوريا ، الى تنظيف شبه الجزيرة منهم ، ثم هاجم جنوب فرنسا الغربي سنة ١٨١٤ (٧) .
تخلّى نابليون عن العرش والتحق بمنفاه في جزيرة ألبا ، ولكنه عاد الى فرنسا بعد نحو سنة محاولا استرجاع عرشه . للرد على هذا التهديد الجديد ، عيّنت بريطانيا ولنجتون ، مع حلفائها النمسا وبروسيا وروسيا ، ليقود جيشا مشتركا احتشد في بلجيكا . على الرغم من المفاجأة الناجمة عن سرعة مناورات نابليون الافتتاحية ، بقي ولنجتون على مقربة من قرية واترلو (٦) صامدا في وجه القوات الفرنسية المتفوقة ، حتى تمكن جيش بروسي بقيادة المارشال جبهارد فون بلوخير من نجدته ومساعدته على اكمال النصر الحاسم .

الفن الرومنطيقي : الرسم

في أواخر القرن الثامن عشر ، أخذ العالم الكلاسيكي يتعرض للهجمات في ميدان تلو الآخر . كان أبرز خصم للكلاسيكية هو من نعتبره اليوم أبا الحركة الرومنطيقية ، الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) .

ذهب روسو الى ان الشعور ، وليس العقل ، هو ما يجب أن يكون اساس المعتقدات والسلوك ، مؤكدا ، خلافا للنظرية الكلاسيكية ، ان الفن ليس خادما للاخلاق . بالاضافة الى ذلك ، اعتبر كتاب بريطانيون والمان ، مثل وليم بلايك (١٧٥٧ - ١٨٢٧) ويوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ، ان اللاوعي هو مصدر الفن والشعر ، جاعلين صدق الشعور مقياسا للقيمة الفنية .

١



(١) - كانت الحركة العنيفة والجو الشعري الذي تثيره احد المواضيع الرومنطيقية الرئيسية. كان هذا يعني ان نتائج الانتصار والمعركة وتكبد المخاطر لم تكن مرغوبة لفوائدها وحسب ، بل لأنها تجارب مثيرة بحد ذاتها (على ضوء هذا التصور كانت الهزيمة شعرية بمقدار الانتصار) . في لوحة « نابليون في ايلو » (١٨٠٨) ، يبدو الامبراطور معبرا عن انسانيته نحو الجنود الروس المهزومين .

(٢) - عالج وليم بلايك موضوعا خلقيا وشعريا في رسمه لاحدى الرؤى المأخوذة من « جحيم دانتي » ، وهي رؤيا « هلاك باولو وفرنشيسكا الأبدي » (١٨٢٤ ؟) .

(٣) - رسم جويا بصورة عنيفة ، في لوحته المعنونة « الثالث من مايو ١٨٠٨ » ، اعدام مجموعة من الاسبان في مدريد على اثر انتفاضتهم الفاشلة ضد قوات الاحتلال الفرنسية ، وهي لوحة رسمها سنة ١٨١٤ .

٢



(٤) - كان تعرض العقل لهجمات القوى اللاعقلية والخارقة للطبيعة ، وعزلة الفرد في مسيرته الدنيوية ، موضوعين رئيسيين من مواضيع الرومنطيقية . ينعكس هذان

الرومنطيقية في الرسم الفرنسي

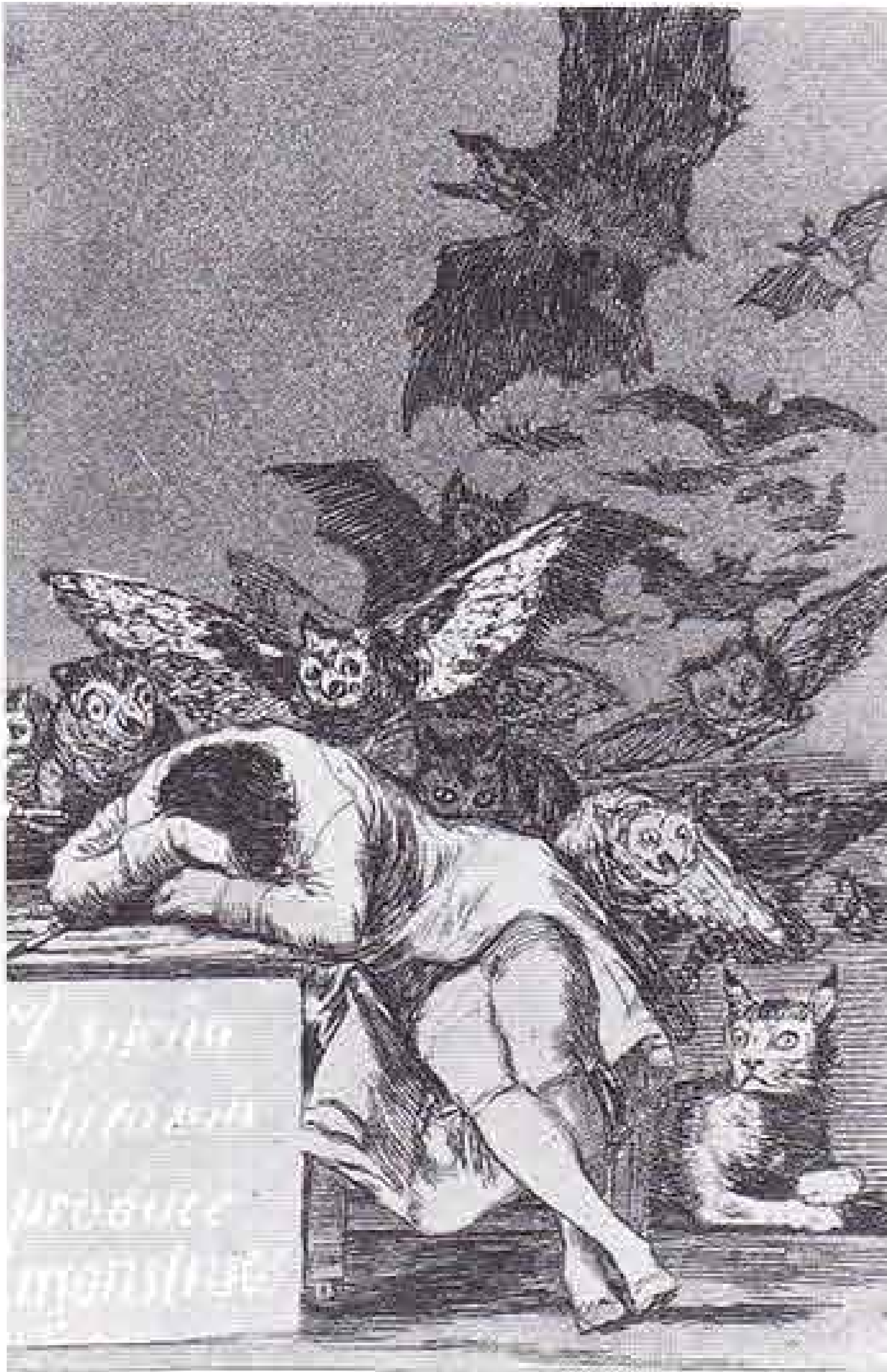
يمكن تتبع تطور الرومنطيقية في الفنون البصرية على ابسط وجه في الرسم الفرنسي . السبب في ذلك ان رعاية الدولة للموضوعات التاريخية العظيمة الشأن كانت قد اصبحت تقليدا مستمرا في فرنسا وحدها في ذلك الحين ، ولأنه من اليسير فضلا عن ذلك ان نتتبع التقدم التدريجي الذي حصل في معالجة هذه الموضوعات انطلاقا من كلاسيكية جديدة تكاد تكون خالصة ، ومرورا بفترة تقويض متواصل للمبادىء الكلاسيكية ، وانتهاء برومنطيقية شبه كاملة وان كانت عرضة للأخذ والرد .

بدأ تقويض الكلاسيكية في فن جان لويس دافيد (١٧٤٨ - ١٨٢٥) الذي تعتبر اعماله صرحا للكلاسيكية الجديدة ، ولاسيما آثاره التي انجزت حوالى زمن الثورة الفرنسية وفي عهد نابليون وبأمر منه . ليس السبب

٣



٤



الموضوعـان في الصفحـة الأولـى المبتكـرة لسلسـلة جـويا « الأهـواء » (١٧٩٩)، وهي مجموعة من الانتقـادات المبطنـة للتصـرفات الاجتماعيـة المعاصرة . لا تكشف الصورة والشرح المرافق لها « نوم العقل يولد الهولات » الا جزئيا عن مقصد الفنان . يقول جويا في احدى ملاحظاته الخاصة ان الخيال يولد الهولات عندما يتخلى عنه العقل .

٥



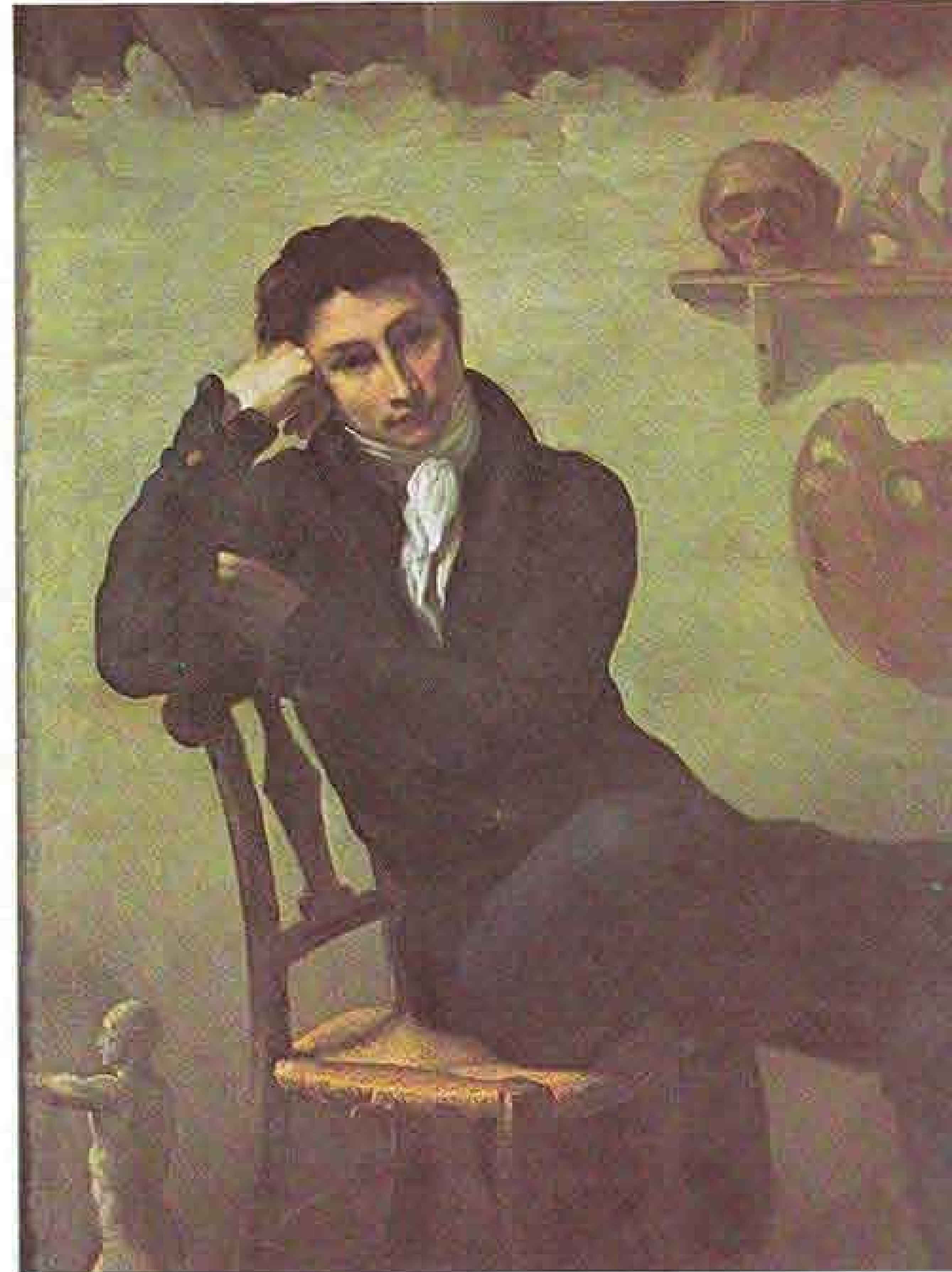
(٥) - كـانت لوحـة « ساردا نابالوس » بريشة دي لاكروا ، وهي عرض ضخم وواسع للجنس والعنف ، ذروة الرسم الرومنطيقي الفرنسي .

في ذلك تخليه عن خواص الاسلوب الكلاسيكي - الوضوح والدقة والاقتصاد والرجوع الى القديم والى نيقولا بوسان فحسب ، بل لأن بعض لوحاته ، مثل لوحة « موت مارا » (١٧٩٣) ، تثير في القلب ، رغم الهدوء الشكلي ، بعض المشاعر كالتي اطلقها روسو: الاحساس بفناء الحياة والمؤسسات البشرية ، والشعور بقوة التعصب وتحكم الصدفة ، والافتتان الشاذ بالعنف .

الجو الشعري لأهوال الحرب

بعد دافيد ، ازداد الاندفاع نحو العاطفية ، فأخذ قالب الشكل الكلاسيكي يتفكك ، لكن دون ان ينكسر بعد . فقد عبر انطوان جروس (١٧٧١ - ١٨٣٥) (١) عن الجو الشعري الذي كانت تعبق به ، في مخيلة المعاصرين ، الحروب النابليونية ، والذي كانت قوته الايحائية تزداد بازدياد فظاعة تلك الحروب واهوالها . ثم خطا ثيودور جيريكو (١٧٩١ -

٦



(٦) - الاعتقاد الرومنطيقي بان الخلق الفني ينتج عن الالم والاضطراب يظهر بشكل واقعي في لوحة « الفنان » (١٨١٨ ؟) لجيريكو .

---

(٧) - لا بد أن يبدو « كابوس » هنري فوزيلي (١٧٨٢) مجرد مشهد مثير ، اذا قورن برسوم جويا البعيدة الغور في الفظائع التي قد تراود العقل وهو نائم . تثير هذه اللوحة الارتعاش لدى الناظر اليها ، لأنها تستلهم أساطير السحر (الروح الشريرة) من جهة ، وتثير التخيلات الجنسية من جهة أخرى . مع ذلك ، كان مجهود فوزيلي رائدا ليس في موضوعه وحسب (اذ يبدو انه كان اول من حاول رسم الكابوس) ، بل في اعتماده ايضا على ما كان يعتبر حينئذ علم النفس الحديث .

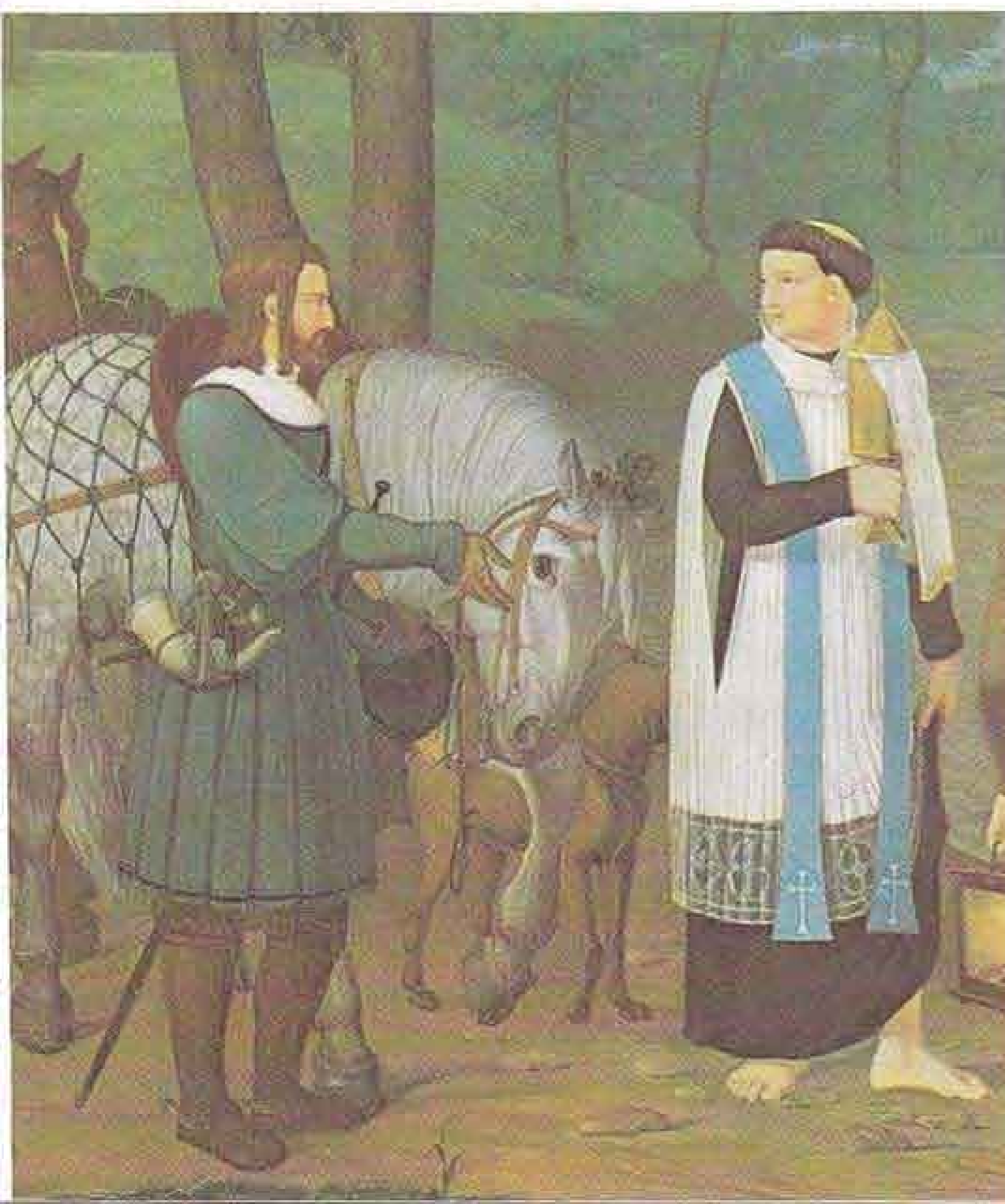
٧



---

(٨) - « النصارى » جماعة من الفنانين الالمان « قبل الرافائيليين » وكانت أول جماعة تحيي اساليب العصور الوسطى ، كما يدل على ذلك هذا الجزء من لوحة « رودلف ها بسبورج والكاهن » لفرانز بفور .

٨



١٨٢٤) بالفن خطوة أخرى ، اعطت للون الاسود قوة تعبيرية ، وجعلت الظلال السوداء تجتاح الخطوط الكلاسيكية . في نظر جيريكو ، لم يعد المعتوه او المنكود الحظ الممتطي حصانا جامحا هو الوحيد فحسب ، بل اصبح الفنان اليائس ايضا يمثل الوحدة والوحشة والانعزال .

أخيرا جاء اوجين دي لاكروا (١٧٩٨ ـ ١٨٦٣) (٥) الذي نشبت حول نتاجه معركة بين الكلاسيكيين والرومنطيقيين . مع انه لم يتنكر للمبادىء الكلاسيكية كليا (اذ لم يكن بوسع اي فرنسي ان يفعل ذلك) ، فقد رأى مؤيدوه ان نتاجه يتعارض مباشرة مع نتاج معاصره الاكبر سنا ، الفنان الكلاسيكي الجديد انجر (١٧٨٠ ـ ١٨٦٧) (الذي لم يكن ايضا محصنا ضد الشعور الرومنطيقي) . نشبت « معركة الاساليب » هذه حوالى ١٨٣٠ ، وقد أطلقت لفظة رومنطيقي آنذاك على فن الرسم للمرة الاولى . كانت الرومنطيقية في الرسم ، كما يمثلها فن دي لاكروا ، عبارة عن اللون والحركة واتساع المعالجة وتصوير العنف بلا هوادة .

ليس من السهل التحدث عن الرسم التصويري الرومنطيقي في البلدان الأخرى التي لم يكن لها تقليد متواصل في رعاية الفنون ولا نظرة عريقة الى الفن . ففي بريطانيا ، تزايد الاهتمام باللامعقول الذي اخذ يعبر عنه مثلا فوزيلي (١٧٤١ ـ ١٨٢٥) (٧) وبلايك (٢) ، وبلغ ذلك الاهتمام ذروته قبل ١٨٠٠ ، أي قبل أن يحدث اي تطور مماثل في الرسم في اي مكان آخر . لكن لم تدم هذه الظاهرة طويلا . فاذا تذكرنا اننا لا نزال في اواخر القرن الثامن عشر ، لا بد ان تبرز امامنا في اسلوب فوزيلي وبلايك العلاقة القوية التي احتفظا بها مع الكلاسيكية الجديدة ، سواء في استخدامهما للأشكال المستمدة من القديم ومن ميكل انجلو ، أو في اعتمادهما للخط الخارجي . من ناحية اخرى ، تبدو هذه الاشكال وكأنها « سحبت الى الخارج » واعطيت طابعا من الخفة والرقة ، استخدمه فوزيلي لوصف حالات الرعب والكابوس النفسية ، وبلايك للتعبير عن رؤياه للأبدية .

أما الرسم الالماني الرومنطيقي ، فقد سلك طريقا مختلفة ، اذ عاد الى اساليب ومواضيع العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة . كان اصحاب هذا النهج جماعة اسسها يوهان فريدريك اوفيريك وفرانز بفور اللذان استقرا في روما سنة ١٨١٠ واطلقا على فرقتهما تسمية « النصارى » (٨) (نسبة للناصرة او للناصري) .

تصوير العنف

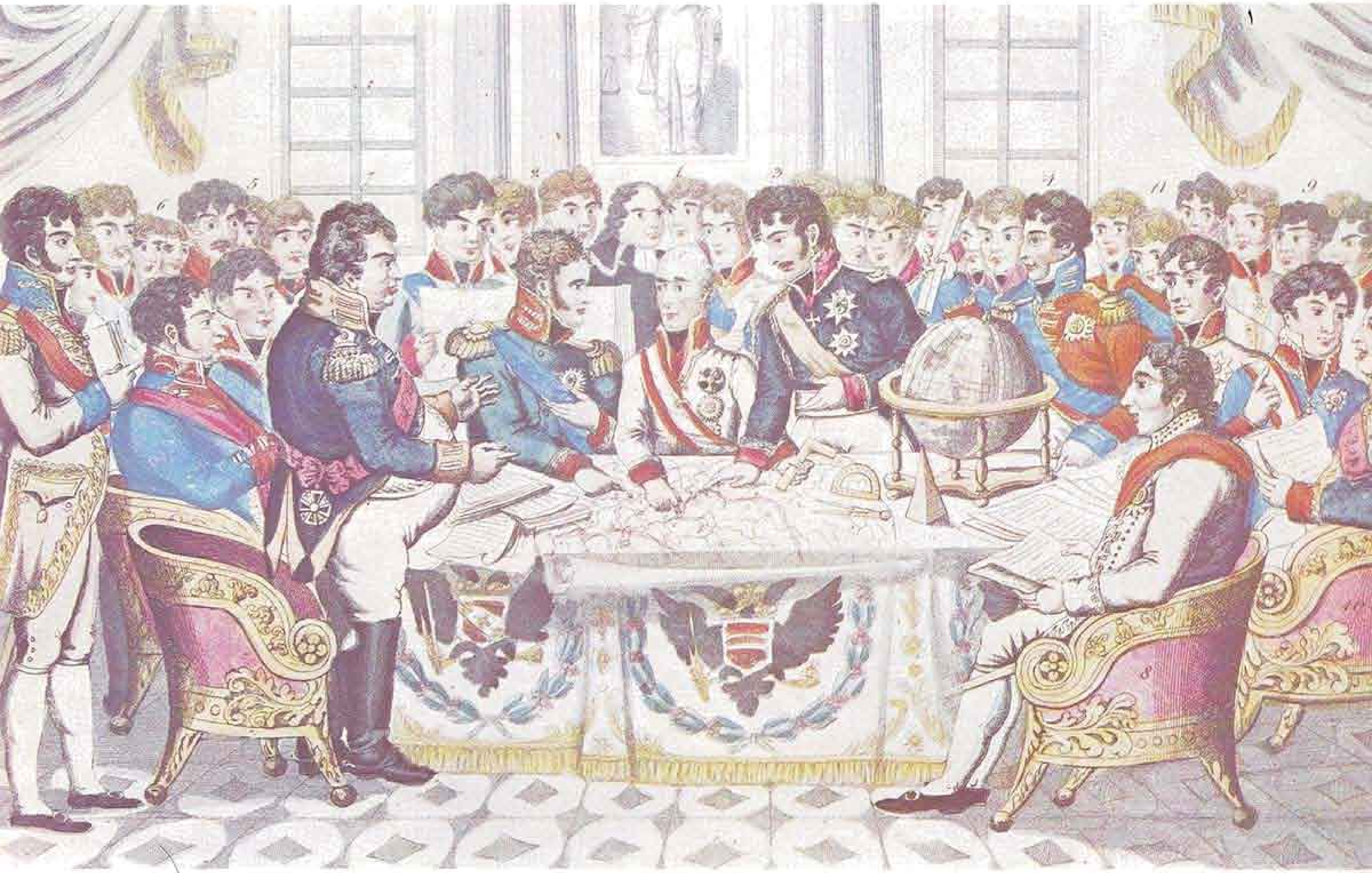
لم تعرف ايطاليا في هذه الحقبة فن رسم يذكر ، وذلك الى حد ما لانعدام رعاية الفنون فيها . ولكن كان في اسبانيا فنان هام جدا ، هو فرنشيسكو دي جويا (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨) (٤ و ٣) الذي يكاد يكون تصنيفه في مدرسة معينة مستحيلا . فمن الناحية الشكلية ، لا يمكن اعتباره من الكلاسيكيين الجدد ، وان كان من الممكن تأويل رسمه « نوم العقل يولّد الهولات » كتنبيه الى ما يحدث عندما ينهار النظام العقلي ، اي الكلاسيكي ؛ كما لا يمكن اعتباره داعيا ثوريا للعنف ، وان لم يتورع عن تصوير العنف ، دون اي قيود خلقية تقليدية ، في أرهب اشكاله وأكثرها دموية .

مؤتمر ڤيينا

طرح الأمير ميترنيخ النمساوي (١٧٧٣ - ١٨٥٩) فكرة مؤتمر دولي يرمي الى اعادة النظام في اوروبا . افتتح هذا المؤتمر ، وأخذت الوفود ، منذ شهر سبتمبر ١٨١٤ ، تصل الى فيينا من جميع أنحاء اوروبا (٦) . كان الغرض المباشر منه تصديق قرارات معاهدة باريس . كان المهيمن على المؤتمر منذ افتتاحه الدول العظمى الاربع ، النمسا وبريطانيا وبروسيا وروسيا ، غير ان الامير تاليران (١٧٥٤ - ١٨٣٨) لم يلبث بفضل مهارته ان ظفر لفرنسا بصوت مساو لاصواتها .

توزيع المغانم

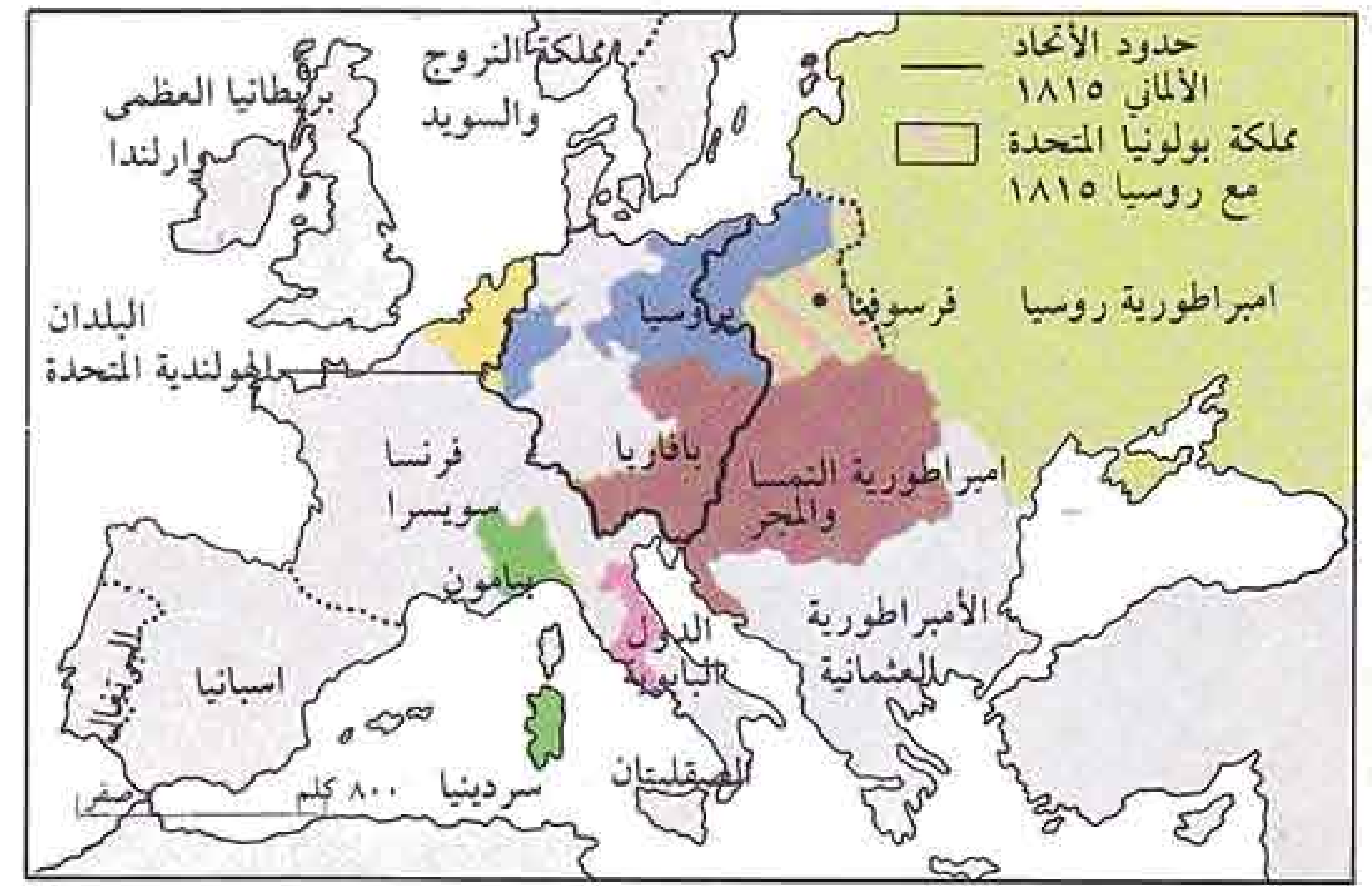
كان من المأمول الحؤول دون حصول اي



(١) - توصل الدبلوماسيون في فيينا الى تسويات حول مطامعهم الاقليمية ، ولكن لم يكن ثمة مجال للمساومة مع القوى الجديدة للتحرر والقومية . ففي غضون ١٥ سنة ، ابرزت الانتفاضات في اسبانيا والبرتغال وايطاليا والمانيا وفرنسا رغبة الشعوب المتزايدة في وضع قيود دستورية على سلطة الملوك الذين اعيدوا الى عروشهم . أخفق المناضلون القوميون في الثورة البولونية لسنة ١٨٣٠ ، ولكنهم ظفروا بالاستقلال في بلجكا (١٨٣٠) واليونان (حيث بدأت الحرب مع الاتراك سنة ١٨٢١) . كانت هذه التهديدات لتسوية فيينا المواضيع الرئيسية التي جرى بحثها في المؤتمرات الاربعة

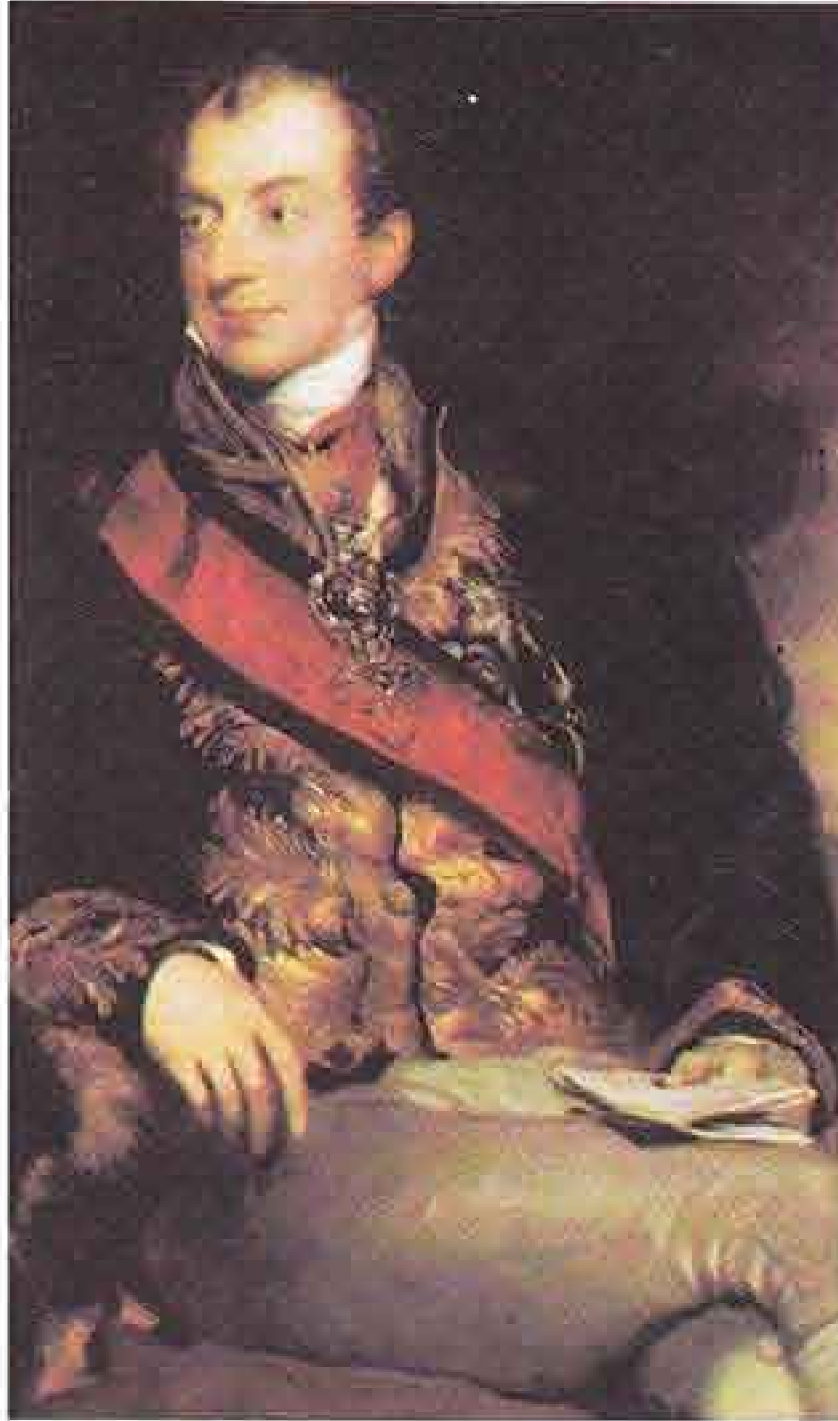
دولة بمفردها على اكثر من حصتها العادلة من الغنائم ، مع اقامة توازن بين المصالح الاقليمية . لكن روسيا حصلت في الواقع على حصة الاسد ، واقامت لها موطىء قدم خطر في اوروبا ، بحيث اصبح الخوف من روسيا ، منذ ذلك التاريخ حتى حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) ، موضوعا رئيسيا من مواضيع الدبلوماسية الاوروبية .

لكن الخوف المباشر الذي سيطر على مؤتمر فيينا نفسه ، كان ان تسبب فرنسا حربا اوروبية جديدة . فانشئت ثلاث دول متاخمة لها للحؤول دون توسعها شرقا (٢) ، كما قويت مملكة البيامون في ايطاليا ، وضمّت بلجكا (التي كانت تعرف قبلا بهولندا النمساوية) الى هولندا ، واصبحت الامبراطورية الرومانية المقدسة (التي كان نابليون قد وحدها تحت اسم تحالف الراين) « التحالف الالماني » ، وهو عبارة عن ٣٩ دولة

٢


اللاحقة : ايكس لاشابيل (١٨١٨) ، تروبو (١٨٢٠) ، لايباخ (١٨٢١) ، فيرونا (١٨٢٢) . كان استقلال اليونان ضربة لتركيا اضعفت صمودها أمام المطالب القومية التي أخذت تنادي بها الدول البلقانية الأخرى .

(٢) - كان لا بد من اعادة رسم خارطة اوروبا بعد تسوية فيينا لسنة ١٨١٥ ؛ فقد حصلت امبراطورية آل هابسبورج على المقاطعات الاليرية ومقاطعتي لومبارديا والبندقية الايطاليتين مقابل تنازلها عن « هولندا النمساوية » (بلجكا) ، وحصلت السويد على النرويج التي كانت تابعة للدنمرك قبلا ، واحتفظت روسيا بغنيمتها فنلندا وسيطرت على مملكة بولونيا الجديدة ؛ واحتفظت بروسيا ببوزن البولونية وحصلت على نصف مملكة سكسوني تقريبا وعلى قطعة من الراينلند الغنية ووطدت بريطانيا اسس امبراطوريتها فيما وراء البحار ، ومسالكها البحرية المؤدية الى رأس الرجاء الصالح ، وسلطتها في مالطا والجزر الايونية وسيلان ومريتيوس وتوباجو وسانتا لوتشيا وهليجولند . لكن بسبب هذه الممتلكات الى حد ما أخذت بريطانيا تبتعد نسبيا عن السياسة الاوروبية في القرن التاسع عشر .

٣


(٣) - كان الأمير كلمينس فون ميترنخ وزير خارجية الامبراطورية الهبسبورجية من ١٨٠٩ حتى ثورة ١٨٤٨ . كان يبدو للكثيرين كبطل الاستبداد والرجعية والدولة البوليسية .

٤


(٤) - كان الفايكونت كاسيلري (١٧٦٩ - ١٨٢٢) ، وزير خارجية بريطانيا منذ ١٨١٢ ، يعتبر رجعيا في بريطانيا نفسها ، ولكنه أثبت بمواقفه في مؤتمر فيينا ، انه مغرق في التحرر ، اذ كان يرجو ان يكون المؤتمر بمثابة ساحة دبلوماسية للتغيير السلمي .

تجمعها « رابطة » واهية ويسيطر عليها رئيس نمساوي .

مع ذلك ، عوملت فرنسا بسخاء في معاهدتي باريس عام ١٨١٤ و ١٨١٥ ، فأعيدت لها حدود ١٧٩٠ كما كانت في الماضي ، وقرر ان لا يبقى في فرنسا جيش احتلال بعد ان تدفع غرامة ٧٠٠ مليون من الفرنكات للحلفاء ، وهو شرط انجز بحلول ١٨١٨ . لكن الزم لويس الثامن عشر (١٧٥٥ - ١٨٢٤) ، الذي عادت الملكية الى فرنسا في شخصه ، ان يحكم بموجب ميثاق ١٨١٤ .

تسوية سياسية جديدة

بالاضافة الى التغييرات الاقليمية الواجب احداثها ، اعتبر المؤتمر التسوية السياسية ضرورية ايضا من اجل السلام . فحمل الثورة الفرنسية عبء مسؤولية الثورات والحروب التي اندلعت في الجيل السابق ، واعتبر ان



٥ (٥) - قمعت معظم الثورات التحررية والقومية المتكررة التي كانت تهدد تسوية مؤتمر فيينا . لكن الفنان يوجين دي لاكروا (١٧٩٨ - ١٨٦٣) فاز بوسام « جوقة الشرف » من أجل لوحته ، « الحرية تقود الشعب » ، على أثر نجاح الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٠ .

٦



(٦) - عندما استقر نابليون في جزيرة القديسة هيلانة سنة ١٨١٥ ، استحوذت رقصة « الفالز » على مشاعر المجتمع الراقي في أوروبا . لقد رقص ملوك اوروبا احتفالا باستعادة سلطتهم السياسية ، وبتعهد جميع الدول بتقديم الدعم العسكري لهم . وصل الى فيينا خمسة ملوك ورؤساء ٢١٦ أسرة من الأمراء ، للاشتراك في مفاوضات السلام والاحتفالات . لكن خوفهم من الثورة وحرصهم على اعادة الوضع السياسي الذي كان سائدا في القرن الثامن عشر أديا الى عدم المساس بفرنسا .

افضل سبيل للاستقرار هو اعادة الملوك الشرعيين المخلوعين الى عروشهم . وفي محاولة للحؤول دون وقوع اضطرابات في المستقبل في اوروبا الوسطى ، اصدر المؤتمر توصيات الى رؤوس دول « التحالف الالماني » بمنح رعاياهم دساتير خاصة ، لكن معظمهم تجاهلوا هذه التوصيات فيما بعد .

أخيرا ، كان من الضروري المحافظة على تسوية فيينا نفسها . لهذا الغرض ، جددت الدول العسكرية الكبرى الاربع ، وهي النمسا وروسيا وبروسيا وبريطانيا ، « تحالفها الرباعي » ، وتعهدت بدعم تسوية فيينا بالقوة اذا لزم الامر ، وذلك على مدى عشرين سنة . وقد كان اول من اعتبر هذا التحالف ضروريا للمحافظة على توازن القوى في اوروبا الفايكونت كاسلري (٤) ، وزير الخارجية البريطاني ، مما حمل الدول الاربع على الاتفاق على عقد مؤتمرات دورية ابان السلم لحل الخلافات والمشاكل التي قد تنشأ .

الا ان التعاون وانسجام الآراء النسبيين اللذين ظهرا في فيينا لم يستمرا في المؤتمرات الاربعة اللاحقة التي عقدت بين ١٨١٨ و ١٨٢٢ . فقد كانت النمسا وبروسيا وروسيا قد عقدت فيما بينها « التحالف المقدس » في سبتمبر ١٨١٥ ، وسرعان ما تبنت الرأي القائل بان على الدول ان تتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاوروبية عندما يصبح الاستقرار مهددا ، وهو مبدأ رفضته بريطانيا .

النتائج بالنسبة الى اوروبا

كونت التسوية التي توصل اليها مؤتمر فيينا التفكير السياسي للجيل اللاحق في اوروبا . فقد التزمت دول بر اوروبا بالمحافظة على الوضع الراهن الذي كانت قد اقامته ، وفسرت هذا الالتزام تفسيرا ضيقا لدرجة ان التسوية انقلبت الى مواقف متصلبة . فنهضت تلك الدول معا لمقاومة جميع الثورات التحررية الهادفة الى الحد دستوريا من سلطات الملوك الذين استعادوا عروشهم وتوفقت في اخماد جميع تلك الثورات بدون استثناء تقريبا ، ما عدا الثورات التي اندلعت سنة ١٨٣٠ في فرنسا وسويسرا وبلجكا ، والتي لم يكن من المناسب ولا من مصلحة جميع تلك الدول ان تتدخل فيها (١) . كذلك تجاهلت التسوية ، عند توزيع المغانم واقامة الدول الحدودية ، المشاعر القومية ، فاندلعت الفتن في بلجكا وبولونيا ، وتعاظم الاضطراب في ايطاليا والمانيا .

لكن الثورة اليونانية سنة ١٨٢١ حلت ككارثة على تركيا . فقد شجع نجاحها بعض الدول البلقانية الاخرى على المطالبة بالاستقلال ، مما اضعف قدرة تركيا « رجل اوروبا المريض » على المقاومة . كان آل هابسبورغ قد أضافوا قومية أوكرانية وأخرى ايطالية الى القوميات المتعددة التي كانوا يحكمونها ، واعتبروا من واجبهم معالجة القومية الطامحة الى التحرر والاستقلال كانها وباء من شأنه ان يتفشى ويدمر امبراطوريتهم . لذلك استخدم ميترنيخ (٣) مهارته في مؤتمر فيينا ، ونفوذه في اوساط المؤتمر ، وسلطته داخل « التحالف الالماني » وفي ايطاليا كلها ، لازالة جميع مظاهر القومية في اي مكان ، فامتد نظامه من البلطيق الى صقلية . لكن مؤتمر فيينا نجح شكليا في توطيد السلام الاوروبي .

Stothard; Peter Sumpter; Rod Sutterby; Allan Suttie; Tony Swift; Michael Terry; John Thirsk; Eric Thomas; George Thompson; Kenneth Thompson; David Thorpe; Harry Titcombe; Peter Town; Michael Trangenza; Joyce Tuhill; Glenn Tutssel; Carol Vaucher; Edward Wade; Geoffrey Wadsley; Mary Waldron; Michael Walker; Dick Ward; Brian Watson; David Watson; Peter Weavers; David Wilkinson; Ted Williams; John Wilson; Roy Wiltshire; Terrence Wingworth; Anne Winterbotham; Albany Wiseman; Vanessa Wiseman; John Wood; Michael Woods; Owen Woods; Sidney Woods; Raymond Woodward; Harold Wright; Julia Wright

Studios
Add Make-up; Alard Design; Anyart; Arka Graphics; Artec; Art Liaison; Art Workshop; Bateson Graphics; Broadway Artists; Dateline Graphics; David Cox Associates; David Levin Photographic; Eric Jewel Associates; George Miller Associates; Gilcrist Studios; Hatton Studio; Jackson Day; Lock Pettersen Ltd; Mitchell Beazley Studio; Negs Photographic; Paul Hemus Associates; Product Support Graphics; Q.E.D. [Campbell Kindsley]; Stobart and Sutterby; Studio Briggs; Technical Graphics; The Diagram Group; Tri Art; Typographics; Venner Artists

Agents
Artist Partners; Freelance Presentations; Garden Studio; Linden Artists; N.E. Middletons; Portman Artists; Saxon Artists; Thompson Artists

The map on page 215 is based on information in *British History Atlas*, by Martin Gilbert, published by Weidenfeld and Nicolson. The maps on page 185 are based on information in *An Historical Atlas of Wales*, by William Rees, published by Faber and Faber. The map on page 192 is based on information in *The English Medieval Town*, by Colin Platt, published by Secker and Warburg Ltd. The quotation from Karl Popper's *The Open Society and Its Enemies*, 1977 (11th edition), on page 327 is by permission of the publishers, Routledge and Kegan Paul Ltd. The map on page 312 is based on information in *British History Atlas*, by Martin Gilbert, published by Weidenfeld and Nicolson.

Library; [5] National Portrait Gallery; [6] Fotomas Index; [7] Angelo Hornak; [8] J. Bethell/National Trust. **72–3** [Key] The British Library; [1] Angelo Hornak; [2] Bavaria Verlag; [3] John R. Freeman; [4] Trustees of the Tate Gallery/John Webb; [5] Trustees of the British Museum/John R. Freeman; [6] Giraudon; [7] Archiv für Kunst und Geschichte, Berlin; [8] Mansell Collection: [9] Crown Copyright Reserved. **74–5** [Key] Giraudon; [4] Roger Viollet; [5] Giraudon/B. N. Estempes, Paris; [7] Giraudon/Chateau Versailles; [8] Réunion des Musées Nationales. **76–7** [Key] Roger Viollet; [2] Cooper Bridgeman/Coram Foundation; [3] Giraudon/Chateau Versailles; [5] Garanger Giraudon/Musée de l'Armée, Prague; [7] Angelo Hornak/V & A; [8] National Army Museum. **78–9** [Key] Picturepoint; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Robert Harding Associates; [5] Weidenfeld & Nicolson Archives/National Maritime Museum; [6] Fotomas Index; [7] Radio Times Hulton Picture Library; [8] Eileen Tweedy. **80–1** [Key] Trustees of the British Museum; [1] Courtesy of the Detroit Institute of Arts, Gift of Mr & Mrs Bert L. Smokler & Mr & Mrs Lawrence A. Fleischman; [2] Courtesy of Birmingham City Museum & Art Gallery; [3] Museo del Prado; [4] Kunst Dias Blauel/Stadelsches Kunstinstitut; [5] Telarci Giraudon/Louvre; [6] Lauros Giraudon/Louvre; [7] Telarci Giraudon/Louvre. **82–3** [Key] John R. Freeman; [2] Museen der Stadt, Vienna; [3] Crown Copyright Reserved; [4] Museen der Stadt, Vienna; [5] Trustees of the National Portrait Gallery; [6] Lauros Giraudon/Louvre.

الرسوم :

Art Editors
Angela Downing; George Glaze; James Marks; Mel Peterson; Ruth Prentice; Bob Scott

Visualizers
David Aston; Javed Badar; Allison Blythe; Angela Braithwaite; Alan Brown; Michael Burke; Alistair Campbell; Terry Collins; Mary Ellis; Judith Escreet; Albert Jackson; Barry Jackson; Ted Kindsey; Kevin Maddison; Erika Mathlow; Paul Mundon; Peter Nielson; Patrick O'Callaghan; John Ridgeway; Peter Saag; Malcolme Smythe; John Stanyon; John Stewart; Justin Todd; Linda Wheeler

Artists
Stephen Adams; Geoffrey Alger; Terry Allen; Jeremy Alsford; Frederick Andenson; John Arnold; Peter Arnold; David Ashby; Michael Badrock; William Baker; John Barber; Norman Barber; Arthur Barvoso; John Batchelor; John Bavosi; David Baxter; Stephen Bernette; John Blagovitch; Michael Blore; Christopher Blow; Roger Bourne; Alistair Bowtell; Robert Brett; Gordon Briggs; Linda Broad; Lee Brooks; Rupert Brown; Marilyn Bruce; Anthony Bryant; Paul Buckle; Sergio Burelli; Dino Bussetti; Patricia Casey; Giovanni Casselli; Nigel Chapman; Chensie Chen; David Chisholm; David Cockcroft; Michael Codd; Michael Cole; Terry Collins; Peter Connelly; Roy Coombs; David Cox; Patrick Cox; Brian Cracker; Gordon Cramp; Gino D'Achille; Terrence Daley; John Davies; Gordon C. Davis; David Day; Graham Dean; Brian Delf; Kevin Diaper; Madeleine Dinkel; Hugh Dixon; Paul Draper; David Dupe; Howard Dyke; Jennifer Eachus; Bill Easter; Peter Edwards; Michael Ellis; Jennifer Embleton; Ronald Embleton; Ian Evans; Ann Evens; Lyn Evens; Peter Fitzjohn; Eugene Flurey; Alexander Forbes; David Carl Forbes; Chris Fosey; John Francis; Linda Francis; Sally Frend; Brian Froud; Gay Galfworthy; Ian Garrard; Jean George; Victoria Goaman; David Godfrey; Miriam Golochoy; Anthea Gray; Harold Green; Penelope Greensmith; Vanna Haggerty; Nicholas Hall; Horgrave Hans; David Hardy; Douglas Harker; Richard Hartwell; Jill Havergale; Peter Hayman; Ron Haywood; Peter Henville; Trevor Hill; Garry Hinks; Peter Hutton; Faith Jacques; Robin Jacques; Lancelot Jones; Anthony Joyce; Pierre Junod; Patrick Kaley; Sarah Kensington; Don Kidman; Harold King; Martin Lambourne; Ivan Lapper; Gordon Lawson; Malcolm Lee-Andrews; Peter Levaffeur; Richard Lewington; Brian Lewis; Ken Lewis; Richard Lewis; Kenneth Lilly; Michael Little; David Lock; Garry Long; John Vernon Lord; Vanessa Luff; John Mac; Lesley MacIntyre; Thomas McArthur; Michael McGuinness; Ed McKenzie; Alan Male; Ben Manchipp; Neville Mardell; Olive Marony; Bob Martin; Gordon Miles; Sean Milne; Peter Mortar; Robert Morton; Trevor Muse; Anthony Nelthorpe; Michael Neugebauer; William Nickless; Eric Norman; Peter North; Michael O'Rourke; Richard Orr; Nigel Osborne; Patrick Oxenham; John Painter; David Palmer; Geoffrey Parr; Allan Penny; David Penny; Charles Pickard; John Pinder; Maurice Pledger; Judith Legh Pope; Michael Pope; Andrew Popkiewicz; Brian Price-Thomas; Josephine Rankin; Collin Rattray; Charles Raymond; Alan Rees; Ellsie Rigley; John Ringnall; Christine Robbins; Ellie Robertson; James Robins; John Ronayne; Collin Rose; Peter Sarson; Michael Saunders; Ann Savage; Dennis Scott; Edward Scott-Jones; Rodney Shackell; Chris Simmonds; Gwendolyn Simson; Cathleen Smith; Les Smith; Stanley Smith; Michael Soundels; Wolf Spoel; Ronald Steiner; Ralph Stobart; Celia

Tourist Board; [1] Mary Evans Picture Library; [2] Mansell Collection; [4] Eileen Tweedy/BM; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] MB photograph; [7] Mary Evans Picture Library; [8] Studio Swain, Glasgow/Mitchell Library, Glasgow; [9] Mansell Collection. **30–1** [Key] National Portrait Gallery; [1] C. M. Dixon; [2] National Museum of Antiquities of Scotland; [3] Woodmansterne; [4] Scottish Tourist Board; [5] Woodmansterne; [6] Studio Swain, Glasgow; [7] Tom Scott/Scottish National Portrait Gallery; [8] Woodmansterne/© National Trust for Scotland; [9] Picturepoint. **32–3** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [1] National Maritime Museum; [2] By kind permission of the President & Council of the Royal College of Surgeons of England; [3] Rijksmuseum van Naturlijke Historie; [4] Akademie der Wissenschaften der DDR/George Rainbird Ltd; [5] Trustees of the British Museum/Ray Gardner; [6A] India Office Library; [6B] Trustees of the British Museum/Ray Gardner; [7] Source unknown; [8] By permission of the Royal College of Physicians of London; [9] Radio Times Hulton Picture Library. **34–5** [Key] Crown Copyright Reserved; [1] Snark International; [2] By permission of Mrs Barbara Edwards/Carter Nash Cameron; [3] By courtesy of the Feoffes of Chetham's Library, Manchester; [4] Snark International; [5A] British Library/Ray Gardner; [5B] British Library/Ray Gardner; [6] Mansell Collection; [7] Trustees of the Tate Gallery/John Webb. **36–7** [Key] F. Lugt Collection, Holland; [1] Lauros Giraudon/Chateau de Versailles; [2] Giraudon/Louvre; [3] Michael Holford; [4] Bavaria Verlag; [5] Reproduced by permission of the Trustees of the Wallace Collection/John R. Freeman; [6] Telarci Giraudon/Louvre. **38–9** [Key] Giraudon; [1] British Museum/John R. Freeman; [2] British Museum/John R. Freeman; [3] Victoria & Albert Museum; [4] Mansell Collection; [5] Reproduced by permission of the Trustees of the Wallace Collection/John R. Freeman; [6] Angelo Hornak/V & A; [7] Victoria & Albert Museum; [8] British Museum/John R. Freeman. **40–1** [Key] Mansell Collection; [1] Scala; [2] Germanisches Nationalmuseum; [3] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Berlin; [4] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Berlin; [5] Ullstein Bilderdienst. **42–3** [Key] Royal Academy of Arts; [1] Reproduced by permission of the Trustees of the Wallace Collection/John R. Freeman; [2] Cooper Bridgeman/Towneley Hall Museum & Art Gallery, Burnley; [4] Trustees of the Tate Gallery/John Webb; [5] Photo Meyer, Wien; [6] Giraudon/Musées Royaux des Beaux-Arts; [7] Lauros Giraudon/Louvre. **44–5** [2] Lauros Giraudon/Musée de la Marine, Paris; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Angelo Hornak/V & A; [6] Trustees of the British Museum/John R. Freeman; [7] Ampliaciones y Reproducciones Mas, Barcelona; [8] Mansell Collection. **46–7** [Key] Bristol City Art Gallery; [1] Fotomas Index; [2] Picturepoint; [3] National Maritime Museum; [4] Picturepoint; [5] Eileen Tweedy/India Office Library; [6] Mansell Collection; [7] National Maritime Museum; [8] Mansell Collection; [9] Josiah Wedgwood & Sons Ltd. **48–9** [Key] India Office Library & Records; [1] Ann and Bury Peerless; [3] Ann and Bury Peerless; [4] Ann and Bury Peerless; [5] India Office Library & Records; [7] India Office Library & Records; [8] India Office Library & Records; [9] India Office Library & Records; [10] India Office Library & Records. **50–1** [Key] Michael Holford/V & A; [1] Ann and Bury Peerless; [2] Victoria & Albert Museum; [3] By kind permission of Air India; [4] Michael Holford; [5] India Office Library & Records/Ann and Bury Peerless; [6] By kind permission of Air India; [7] Michael Holford/V & A; [8] Victoria & Albert Museum. **52–3** [Key] William MacQuitty; [2] Trustees of the British Museum; [3] William MacQuitty; [4] William MacQuitty; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Trustees of the British Museum; [8] Cooper Bridgeman/National Maritime Museum. **54–5** [Key] Museum of Fine Arts, Boston; [1] Percival David Foundation; [2] Courtesy of the Smithsonian Institution, Freer Gallery of Art, Washington DC; [3] Nelson Gallery-Atkins Museum, Kansas City, Missouri (Nelson Fund); [4] National Palace Museum, Taiwan; [5] Trustees of the British Museum; [6] William MacQuitty; [7] Aubrey Singer, BBC/Robert Harding Associates; [8] Trustees of the British Museum; [9] Trustees of the British Museum. **56–7** [Key] International Society for Educational Information, Tokyo; [1] Bradley Smith; [2] Bradley Smith; [3] International Society for Educational Information, Tokyo; [4] Bradley Smith; [5] Bradley Smith; [6] Weidenfeld & Nicolson; [7] International Society of Educational Information, Tokyo; [8] Orion Press. **58–9** [Key] Werner Forman Archive; [2] Mansell Collection; [3] Mansell Collection; [4] Mansell Collection; [6] Mary Evans Picture Library; [7] Mansell Collection. **60–1** [Key] Trustees of the British Museum; [1] D. E. F. Russell/Robert Harding Associates; [2] John Picton; [3] Prof. Thurston-Shaw; [4] John Picton; [5] Trustees of the British Museum/Museum of Mankind/Angelo Hornak; [6] Trustees of the British Museum/Museum of Mankind; [7] Trustees of the British Museum/Museum of Mankind; [8] Photograph copyright 1976 By the Barnes Foundation; [9] Archivo e Studio; [10] From *Nuba Personal Art* by James C. Faris/Duckworth, 1972. **62–3** [6] By kind permission of the City of Bristol Archives/David Strickland; [7] Mansell Collection; [8] Bettmann Archive; [9] Bettmann Archive/Smithsonian Institution. **64–5** [3] Mary Evans Picture Library; [4] Metropolitan Museum of Art, New York, Gift of Mrs Russell Sage, 1910; [6] Copyright Yale University Art Gallery; [7] Mansell Collection. **66–7** [2] Ronan Picture Library; [5] A. F. Kersting; [6] Ronan Picture Library; [7] Derby Borough Councils & Art Gallery; [8] Josiah Wedgwood & Co; [9] Cooper Bridgeman/Lord Mountbatten. **68–9** [Key] Mansell Collection; [1] National Portrait Gallery; [2] National Portrait Gallery; [3] National Portrait Gallery; [4] Museum of London; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Eileen Tweedy; [7] Fotomas Index; [8] Radio Times Hulton Picture Library. **70–1** [Key] Trustees of the Croome Estate/Photo by Don J. Adams; [1] Iveagh Bequest, London; [2] National Gallery; [3] Aerofilms; [4] Cooper Bridgeman

[3] Bavaria Verlag; [4] A. F. Kersting; [5] A. F. Kersting; [6] Trustees of the National Gallery. **306–7** [Key] Mansell Collection; [1] Museo del Prado; [2] G. A. Mather/Robert Harding Associates; [3] Copyright The Frick Collection, New York; [4] Scala; [5] Mauro Pucciarelli; [6] Giraudon/Louvre; [7] E. Kornreich/Robert Harding Associates. **308–9** [Key] Courtauld Institute; [1] Lauros Giraudon; [2] Lauros Giraudon/Louvre; [3] Trustees of the National Gallery; [4] Giraudon/Louvre; [5] Michael Holford; [6] P. Trela/Joseph P. Ziolo. **310–11** [Key] Trustees of the British Museum/John R. Freeman; [1] Frans Hals Museum, Haarlem; [2] Trustees of the National Gallery; [3] Reproduced by permission of the Trustees of the Wallace Collection/John R. Freeman; [4] Crown Copyright Reserved; [5] The Cleveland Museum of Art, Purchase John L. Severance Fund; [7] By courtesy of the Provost, Worcester College, Oxford; [8] Rijksmuseum, Amsterdam. **312–13** [Key] Aerofilms; [1] Fotomas Index; [2] Fotomas Index; [3] Picturepoint; [5] Governor & Company of the Bank of England; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Eileen Tweedy; [8] Michael Holford. **314–15** [1] Giraudon/Louvre. [3] Snark International. **316–17** [Key] Snark International; [1] Giraudon; [2] Snark International; [3A] Snark International; [3B] Giraudon; [4] Mansell Collection; [5] Snark International; [6] Giraudon; [7] Giraudon; [8] British Library/Ray Gardner; [9] Lauros Giraudon/Château de Versailles. **318–19** [Key] Tiroler Landesmuseum Ferdinandeum/Anton Demanega; [2] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [4] Permission of the Glyndebourne Festival Opera/Guy Gravett; [6] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [7] Giraudon/Musée Condé, Chantilly; [8] Trustees of the National Portrait Gallery; [9] By kind permission of Viscount Fitzharris/Hamlyn Picture Library; [10] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [11] Bärenreiter-Verlag. **320–1** [3] Novosti Press Agency; [5] Historical Research Unit; [7] Novosti Press Agency; [8] Novosti Press Agency; [9] Michael Holford. **322–3** [Key] Novosti Press Agency; [4] Victor Kennett; [6] Novosti Press Agency; [9] Victor Kennett; [10] Historical Research Unit. **324–5** [Key] Ullstein Bilderdienst; [3] National Army Museum; [4] Archiv für Kunst und Geschichte; [5] Bavaria Verlag; [6] Ampliaciones y Reproducciones Mas/Madrid Museo Municipal.

Time Chart

328–9 Photoresources; Werner Forman Archive; Aerofilms; Werner Forman Archive/Cairo Museum; Michael Holford/British Museum; Picturepoint/Iraq Museum; A. F. Kersting. **330–1** Ronald Sheridan; C. M. Dixon; Werner Forman Archive; Barnaby's Picture Library; Werner Forman Archive. **332–3** Michael Holford; Michael Holford/British Museum; Anne Ross; Sonia Halliday/Hittite Museum, Ankara; Mansell Collection; Photoresources/British Museum. **334–5** Ronald Sheridan; Metropolitan Museum of Art, New York. Rogers Fund 1914; Camera Press; Photoresources/The Hermitage, Leningrad; Ronald Sheridan; Photoresources. **336–7** Mansell Collection; Photoresources; Michael Holford; Mansell Collection; Ronald Sheridan; Ann and Bury Peerless. **338–9** Michael Holford; Michael Holford; Roger Wood; Werner Forman Archive. **340–1** Ray Gardner/Trustees of British Museum; Ray Gardner/Trustees of British Museum; Mansell Collection; Robert Harding Associates; Michael Holford; K. Ogana/J. Ziolo. **342–3** Werner Forman Archive; Mansell Collection; Ray Gardner/Trustees of British Museum; Ronan Picture Library. **344–5** Michael Holford; Christopher Wilson; Radio Times Hulton Picture Library. **346–7** Bodleian Library, Oxford; Mansell Collection; Scala; Mansell Collection; Mansell Collection; Mary Evans Picture Library; Mansell Collection; Ray Gardner/Trustees of British Museum. **348–9** Mansell Collection; Mary Evans Picture Library; Michael Holford/V & A; Mansell Collection; Mansell Collection; Mansell Collection. **350–1** Mansell Collection; Sonia Halliday/Topkapi Palace Museum, Istanbul; Mary Evans Picture Library; Mansell Collection; Michael Holford; Mansell Collection. **352–3** Mary Evans Picture Library; Mansell Collection; Cooper Bridgeman/ Rijksmuseum, Amsterdam; Cooper Bridgeman; A. F. Kersting. **354–5** Giraudon; Mansell Collection; Michael Holford/Science Museum; Mansell Collection; Michael Holford; Camera Press; Mansell Collection; Mansell Collection.

16–17 [Key] Cooper Bridgeman; [4] Mansell Collection; [6] Henry E. Huntington Library & Art Gallery; [7] Cooper Bridgeman/Victoria Art Gallery, Bath. **18–19** [Key] Mansell Collection; [1] Cooper Bridgeman Library; [2] Sun Alliance & London Insurance Group; [3] Mansell Collection; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Eileen Tweedy; [6] Mansell Collection; [7] Fotomas Index; [8] Mansell Collection; [9] Fotomas Index. **20–1** [Key] County Records Office, Bedford; [1] Museum of English Rural Life, University of Reading; [3] Museum of English Rural Life, University of Reading; [5] Museum of English Rural Life, University of Reading; [6] Museum of English Rural Life, University of Reading; [7] Museum of English Rural Life, University of Reading; [8] Mansell Collection; [9] John Webb/by kind permission of the Earl of Leicester. **22–3** [Key] Source unknown; [1] Source unknown; [2] Trustees of the National Portrait Gallery; [3] Bibliothèque Nationale, Paris; [4] Mansell Collection; [5] Germanisches National Museum, Nuremburg; [6] Mansell Collection; [7] Lauros Giraudon; [8A] J. E. Bulloz. **24–5** [Key] National Gallery of Ireland; [1] Master & Fellows, Pembroke College, Cambridge; [2] Cooper Bridgeman Library; [3] C. M. Dixon; [4] Public Records Office of Northern Ireland; [5] Fotomas Index; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [8] National Gallery of Ireland; [9] Mansell Collection; [10] Eileen Tweedy. **26–7** [Key] [1] C. M. Dixon; [2] Trinity College Library, Dublin; [3] National Museum of Ireland; [4] Commissioners of Public Works in Ireland; [5] C. M. Dixon; [6] National Portrait Gallery; [7] National Museum of Ireland; [8] National Museum of Ireland; [9] National Portrait Gallery; [10] National Portrait Gallery; [11] Dr. Peter Harbison. **28–9** [Key] Scottish

Kunstsammlungen, Dresden/Gerhard Reinhold, Leipzig-Moelkau; [6] The Isabella Stewart Gardner Museum, Boston; [7] Scala; [8] Scala. **260–1** [Key] Trustees of the British Museum; [1] Verlag Joachim Blauel/Alte Pinakothek, Munich; [2] Erwin Bohm; [3] Crown Copyright Reserved; [4] Cooper Bridgeman/Colmar; [5] The Metropolitan Museum of Art, Rogers Fund 1912; [6] Cooper Bridgeman/Prado Museum, Madrid; [7] ZEFA; [8] Bavaria Verlag. **262–3** [Key] Photographie Bulloz/Louvre; [1] Musée Jacquemart-André; [2] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz; [3] Giraudon/Brussels, Musées Royaux des Beaux-Arts; [4] Jean Roubier; [5] Michael Holford; [7] Giraudon. **264–5** [Key] Scala; [1] Giraudon/Fontaineblau Château; [2] Mauro Pucciarelli; [3] Scala; [4] Scala; [5] Scala; [6] Der Museumsabteilung Der Bayer. Verwaltung der slaatl. Schlösser, Gärten u. Seen; [7] Photo Meyer, Vienna; [8] Photo Meyer, Vienna. **266–7** [Key] National Portrait Gallery; [1] British Museum; [2] Copyright Reserved; [4] John R. Freeman; [5] Weidenfeld & Nicolson Archives/BM [6] National Portrait Gallery; [7] National Portrait Gallery; [8] Aerofilms; [9] British Museum. **268–9** [Key] Lauros Giraudon/Heidelberg Kurpfalzisches Museum; [1] Mary Evans Picture Library; [2] Stadt und Universitätsbibliothek, Bern; [3] Trustees of the British Museum/Ray Gardner; [4] Mary Evans Picture Library; [6] Lauros Giraudon/Munich Alte Pinakothek; [7] Spectrum Colour Library; [8] Hereford Cathedral Library/Clive Friend; [8] Trustees of the British Museum/John R. Freeman. **270–1** [Key] Fotomas Index; [1] National Portrait Gallery; [2] Fotomas Index/British Library; [3] Mansell Collection; [4] National Portrait Gallery; [5] Fotomas Index; [6] Weidenfeld & Nicolson Archives; [8] Mansell Collection; [9] Fotomas Index; [10] National Portrait Gallery. **272–3** [Key] Michael Holford/Prado Museum, Madrid; [2] Mary Evans Picture Library; [3] C. M. Dixon; [4] Musée Cantonel des Beaux Arts/André Held; [6] J. E. Bulloz; [7A] Michael Holford; [8] Mary Evans Picture Library; [9] Trustees of the National Gallery. **274–5** [Key] Mr. Simon Wingfield Digby, Sherborne Castle; [1] By kind permission of the Marquess of Tavistock; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Country Life; [5] National Portrait Gallery; [6] Fotomas Index; [8] Mary Evans Picture Library; [9] National Portrait Gallery. **276–7** [Key] Fotomas Index; [1] Mansell Collection; [2] Mansell Collection; [3] National Army Museum; [4] Weidenfeld & Nicolson Archives/National Maritime Museum; [5] Mansell Collection; [7] Fotomas Index; [8] Michael Holford/National Maritime Museum. **278–9** [Key] Mary Evans Picture Library; [1] Picturepoint; [2] Weidenfeld & Nicolson Archives; [3] Weidenfeld & Nicolson Archives/Bibliothèque Nationale; [5] Picturepoint; [6] Mansell Collection; [7] Fotomas Index; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Maggs Bros. Ltd/Geoff Goode. **280–1** [Key] Gascoyne Cecil Estates, Hatfield; [1] Michael Holford/National Gallery; [2] Victoria & Albert Museum; [3] Fotomas Index; [4] Society of Antiquaries, London; [5] A. F. Kersting; [6] Edwin Smith; [7] National Trust; [8] David Strickland; [9] Picturepoint. **282–3** [1] G. Mandel/Ziolo; [2] Trustees of the British Museum; [3] Trustees of the British Museum; [5] Mary Evans Picture Library; [6] Devonshire Collection, Chatsworth. Reproduced by Permission of the Trustees of the Chatsworth Settlement/Courtauld Institute; [7] ZEFA; [8] Trustees of the British Museum. **284–5** [Key] S. E. Williams; [1] National Portrait Gallery; [3] Weidenfeld & Nicolson Archives/National Film Archive; [4] Kenneth Scowen/George Rainbird Ltd./Robert Harding Associates; [5] Dulwich College Picture Gallery; [6] Mansell Collection; [7] Mansell Collection; [8] The National Theatre. **286–7** [Key] Society of Antiquaries, London; [1] Weidenfeld & Nicolson Archives/BM; [2] Fotomas Index; [3] Weidenfeld & Nicolson Archives/BM; [4] National Portrait Gallery; [5] Mary Evans Picture Library; [6] National Portrait Gallery; [7] Courtauld Institute of Art/Courtesy of the Chatsworth Settlement; [8] Mansell Collection; [9] Mansell Collection. **288–9** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [1] British Library; [3] Trustees of the National Gallery; [4] John R. Freeman; [6] Mary Evans Picture Library; [9] Cooper Bridgeman. **290–1** [Key] National Portrait Gallery; [1] Mary Evans Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Mansell Collection; [5] Mansell Collection; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [8] Fotomas Index; [9] Fotomas Index. **292–3** [Key] Weidenfeld & Nicolson Archives/BM; [1] Michael Holford/BM; [2] Weidenfeld & Nicolson Archives/V & A; [3] Mansell Collection; [4] Fotomas Index; [5] Fotomas Index; [6] National Portrait Gallery; [7] National Portrait Gallery; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Mansell Collection. **294–5** [Key] Fotomas Index; [1] Fotomas Index/BM; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Mary Evans Picture Library; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Eileen Tweedy/The London Museum; [6] National Maritime Museum; [8] A. F. Kersting. **296–7** [Key] Angelo Hornak; [1] Angelo Hornak; [2] Woodmansterne; [3] Metropolitan Museum of Art, N.Y., Gift of Henry G. Marquand, 1929; [4] National Portrait Gallery; [5] Country Life; [6] Michael Holford; [7] Copyright Reserved; [8] Copyright Reserved; [9] Michael Holford. **298–9** [Key] Freemans; [1] Freemans; [2] Picturepoint; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Fotomas Index; [5] Scottish National Portrait Gallery; [6] National Portrait Gallery; [7] Freemans; [8] Art Gallery & Museum, Glasgow; [9] Freemans. **300–301** [Key] Trustees of the British Museum; [3] John R. Freeman; [4] Cooper Bridgeman/Kunsthistorisches Museum, Vienna; [7] Rijksmuseum, Amsterdam; [10] Mansell Collection; [11] Governor & Co of the Bank of England. **302–3** [Key] Ronan Picture Library; [1] Ronan Picture Library/E. P. Goldsmith & Co Ltd; [2] National Maritime Museum; [3] Ronan Picture Library; [5] Mansell Collection; [6] Ronan Picture Library; [7] Ronan Picture Library/E. P. Goldsmith & Co Ltd; [9] Ronan Picture Library. **304–5** [Key] Fratelli Alinari; [1] Scala; [2] Scala;

هيئة تحرير بهجة المعرفة تتوجه بالشكر إلى :

Nicolas Bentley
Bill Borchard
Adrianne Bowles
Yves Boisseau
Irv Braun
Theo Bremer
the late Dr Jacob Bronowski
Sir Humphrey Browne
Barry and Helen Cayne
Peter Chubb
William Clark
Sanford and Dorothy Cobb
Alex and Jane Comfort
Jack and Sharlie Davison
Manfred Denneler
Stephen Elliott
Stephen Feldman
Orsola Fenghi
Professor Richard Gregory
Dr Leo van Grunsven
Jan van Gulden
Graham Hearn
the late Raimund von Hofmansthal
Dr Antonio Houaiss
the late Sir Julian Huxley
Alan Isaacs
Julie Lansdowne
Professor Peter Lasko
Andrew Leithead
Richard Levin
Oscar Lewenstein
The Rt Hon Selwyn Lloyd
Warren Lynch
Simon macLachlan
George Manina
Stuart Marks
Bruce Marshall
Francis Mildner
Bill and Christine Mitchell
Janice Mitchell
Patrick Moore
Mari Pijnenborg
the late Donna Dorita de Sa Putch
Tony Ruth
Dr Jonas Salk
Stanley Schindler
Guy Schoeller
Tony Schulte
Dr E. F. Schumacher
Christopher Scott
Anthony Storr
Hannu Tarmio
Ludovico Terzi
Ion Trewin
Egil Tveteras
Russ Voisin
Nat Wartels
Hiroshi Watanabe
Adrian Webster
Jeremy Westwood
Harry Williams
the dedicated staff of MB Encyclopaedias who created this *Library* and of MB Multimedia who made the IVR Artwork Bank.

الصور :

222-3 [Key] Mary Evans Picture Library; [1] Royal Geographical Society; [2] Bodleian Library, Oxford; [4] Mansell Collection; [5] Mansell Collection; [7] Cooper Bridgeman Library; [8] National Maritime Museum. **224–5** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Source unknown; [5] Edinburgh University Library; [6] Trustees of the British Museum; [7] Sybil Sassoon/Robert Harding Associates; [8] Edinburgh University Library. **226–7** [Key] Source unknown; [2] Anthony Hutt/Robert Harding Associates; [4] Sybil Sassoon/Robert Harding Associates; [5] Source unknown; [6] Spectrum Colour Library; [7] A. Christie. **228–9** [Key] Michael Holford/British Museum/Museum of Mankind; [3] Bibliothèque Nationale; [4] Werner Forman Archive; [5] Source unknown. **230–1** [Key] Instituto Nacionale de Antropologia e Historia, Mexico; [1] Norman Hammond; [3] Norman Hammond; [4] Norman Hammond; [5] Norman Hammond; [6] Norman Hammond; [7] Norman Hammond. **232–3** [Key] Marion Morrison; [1] Roger Perry; [2] Norman Hammond; [4] Tony Morrison; [5] Tony Morrison; [6] Tony Morrison; [7] Tony Morrison; [8] Tony Morrison; [9] Tony Morrison; [10] Faculty of Archaeology & Anthropology, Cambridge. **234–5** [Key] Mansell Collection; [1] Royal Geographical Society; [2] Pierpont Morgan Library; [3] Mansell Collection; [5] Royal Geographical Society; [7] Bruno Barbey/John Hillelson Agency; [8] Royal Geographical Society. **236–7** [Key] C. M. Dixon; [2] Ampliacones Y Reproducciones Mas; [4] Mansell Collection; [5] Ronald Sheridan; [7] John Judkyn Memorial/Photo Derek Balmer/Orbis; [8] Foto Salmer. **238–9** [Key] Source unknown; [2] Trustees of the British Museum/John R. Freeman; [3] Lincoln Central Library, Local Collection reproduced by permission of the Lincolnshire Library Service; [4] Michael Holford; [5] Snark International/Louvre; [6] Scala; [7] Bayerische Staatsgemäldesammlungen, Munich/Kunst Dias Blauel; [8] Mansell Collection; [9] Reproduced by courtesy of Professor Charles Wilson, author of *The Dutch Republic*/Weidenfeld and Nicolson Archives. **240–1** [3] Mansell Collection; [4] Crown Copyright Reserved; [6] by permission of the Governors of Christ Church College, Oxford; [7] Mary Evans Picture Library; [8] Historia Foto. **242–3** [Key] Picturepoint; [2] Picturepoint; [3] National Monuments Record; [4] Mary Evans Picture Library; [5] Mansell Collection; [7] Weidenfeld & Nicolson Archives; [8] Weidenfeld & Nicolson Archives/Centralbibliothek, Ghent; [9] National Portrait Gallery; [10] Weidenfeld & Nicolson Archives/Centralbibliothek, Ghent. **244–5** [Key] British Library; [3] Mary Evans Picture Library; [4] Mary Evans Picture Library; [5] National Gallery of Scotland; [6] National Gallery of Scotland/by kind permission of the Marquess of Bute; [7] Picturepoint; [8] Michael Holford. **246–7** [Key] Mansell Collection; [1] Source unknown; [3] Scala; [5] Metropolitan Museum of Fine Art, New York/Maria De Witt Jesup Fund, 1964; [6A] British Library/Ray Gardner; [6B] Cooper Bridgeman/Louvre; [8] Trustees of the British Museum/John R. Freeman. **248–9** [Key] Bettmann Archive; [1] Picturepoint; [3] Larousse Archives; [4] Fotomas Index [J. R. Freeman]; [6] Bayerische Staatsbibliothek. **250–1**[Key] Mansell Collection; [1] Michael Holford; [2] Scala; [3] Scala; [4] André Held/Joseph P. Ziolo; [5] Scala; [7] Scala; [8] Scala; [9] Scala. **252–3** [Key] Trustees of the British Museum; [1] Lauros Giraudon; [2] Giraudon; [3] Trustees of the National Gallery; [4] Germanisches National Museum; [5] Giraudon/Louvre; [6] Koninklijk Museum Voor Schone Kunsten/Musée Royal des Beaux-Arts; [7] A. F. Kersting. **254–5** [Key] Mansell Collection; [1] Scala/Museo Del Bargelle; [2] Scala; [3] Scala; [4] Scala; [5] Scala; [7] Mansell Collection; [8] Scala. **256–7** [1] Scala; [2] Scala/Uffizi; [3] Scala; [4] C. M. Dixon; [5] Cooper Bridgeman/Louvre; [6] Victoria and Albert Museum; [7] Scala; [8] Museum of Fine Arts, Budapest. **258–9** [Key] Mansell Collection; [1] Scala/Prado Museum, Madrid; [2] Scala; [4] Scala; [5] Staatliche

BSc(Econ, London); Gordon Daniels BSc(Econ, London), DPhil(Oxon); George Darby BA; G.J. Darwin; Dr David Delvin; Robin Denselow BA; Professor Bernard L. Diamond; John Dickson; Paul Dinnage MA; M.L. Dockrill BSc(Econ), MA, PhD; Patricia Dodd BA; James Dowdall; Anne Dowson MA(Cantab); Peter M. Driver BSc, PhD, MIBiol; Rev Professor C.W. Dugmore DD; Herbert L. Edlin BSc, Dip in Forestry; Pamela Egan MA(Oxon); Major S.R. Elliot CD, BComm; Professor H.J. Eysenck PhD, DSc; Dr Peter Fenwick BA, MB, BChir, DPM, MRCPsych; Jim Flegg BSc, PhD, ARCS, MBOU; Andrew M. Fleming MA; Professor Antony Flew MA(Oxon), DLitt(Keele); Wyn K. Ford FRHistS; Paul Freeman DSc(London); G.E. Fussell DLitt, FRHistS; Kenneth W. Gatland FRAS, FBIS; Norman Gelb BA; John Gilbert BA(Hons, London); Professor A.C. Gimson; John Glaves-Smith BA; David Glen; Professor S.J. Goldsack BSc, PhD, FINSTP, FBCS; Richard Gombrich MA, DPhil; A.F. Gomm; Professor A. Goodwin MA; William Gould BA(Wales); Professor J.R. Gray; Christopher Green PhD; Bill Gunston; Professor A. Rupert Hall LittD; Richard Halsey BA(Hons, UEA); Lynette K. Hamblin BSc; Norman Hammond; Professor Thomas G. Harding PhD; Richard Harris; Dr Randall P. Harrison; Cyril Hart MA, PhD, FRICS, FIFor; Anthony P. Harvey; Nigel Hawkes BA(Oxon); F.P. Heath; Peter Hebblethwaite MA(Oxon), LicTheol; Frances Mary Heidensohn BA; Dr Alan Hill MC, FRCP; Robert Hillenbrand MA, DPhil; Professor F.H. Hinsley; Dr Richard Hitchcock; Dorothy Hollingsworth OBE, BSc, FRIC, FIBiol, FIFST, SRD; H.P. Hope BSc (Hons, Agric); Antony Hopkins CBE, FRCM, LRAM, FRSA; Brian Hook; Peter Howell BPhil, MA(Oxon); Brigadier K. Hunt; Peter Hurst BDS, FDS, LDS, RSCEd, MSc(London); Anthony Hyman MA, PhD; Professor R.S. Illingworth MD, FRCP, DPH, DCH; Oliver Impey MA, DPhil; D.E.G. Irvine PhD; L.M. Irvine BSc; Anne Jamieson cand mag(Copenhagen), MSc(London); Michael A. Janson BSc; Professor P.A. Jewell BSc(Agric), MA, PhD, FIBiol; Hugh Johnson; Commander I.E. Johnston RN; I.P. Jolliffe BSc, MSc, PhD, CompICE, FGS; Dr D.E.H. Jones ARCS, FCS; R.H. Jones PhD, BSc, CEng, MICE, FGS, MASCE; Hugh Kay; Dr Janet Kear; Sam Keen; D.R.C. Kempe BSc, DPhil, FGS; Alan Kendall MA(Cantab); Michael Kenward; John R. King BSc(Eng), DIC, CEng, MIProdE; D.G. King-Hele FRS; Professor J.F. Kirkaldy DSc; Malcolm Kitch; Michael Kitson MA; B.C. Lamb BSc, PhD; Nick Landon; Major J.C. Larminie QDG, Retd; Diana Leat BSc(Econ), PhD; Roger Lewin BSc, PhD; Harold K. Lipset; Norman Longmate MA(Oxon); John Lowry; Kenneth E. Lowther MA; Diana Lucas BA(Hons); Keith Lye BA, FRGS; Dr Peter Lyon; Dr Martin McCauley; Sean McConville BSc; D.F.M. McGregor BSc, PhD(Edin); Jean Macqueen PhD; William Baird MacQuitty MA(Hons), FRGS, FRPS; Jonathan Martin MA; Rev Canon E.L. Mascall DD; Christopher Maynard MSc, DTh; Professor A.J. Meadows; J.S.G. Miller MA, DPhil, BM, BCh; Alaric Millington BSc, DipEd, FIMA; Peter L. Moldon; Patrick Moore OBE; Robin Mowat MA, DPhil; J. Michael Mullin BSc; Alistair Munroe BSc, ARCS; Professor Jacob Needleman; Professor Donald M. Nicol MA, PhD; Gerald Norris; Caroline E. Oakman BA(Hons, Chinese); S. O'Connell MA(Cantab), MInstP; Michael Overman; Di Owen BSc; A.R.D. Pagden MA, FRHistS; Professor E.J. Pagel PhD; Carol Parker BA(Econ), MA(Internat. Aff.); Derek Parker; Julia Parker DFAstrolS; Dr Stanley Parker; Dr Colin Murray Parkes MD, FRC(Psych), DPM; Professor Geoffrey Parrinder MA, PhD, DD(London), DLitt(Lancaster); Moira Paterson; Walter C. Patterson MSc; Sir John H. Peel KCVO, MA, DM, FRCP, FRCS, FRCOG; D.J. Penn; Basil Peters MA, MInstP, FBIS; D.L. Phillips FRCR, MRCOG; B.T. Pickering PhD, DSc; John Picton; Susan Pinkus; Dr C.S. Pitcher MA, DM, FRCPath; Alfred Plaut FRCPsych; A.S. Playfair MRCS, LRCP, DObstRCOG; Dr Antony Polonsky; Joyce Pope BA; B.L. Potter NDA, MRAC, CertEd; Paulette Pratt; Antony Preston; Frank J. Pycroft; Margaret Quass; Dr John Reckless; Trevor Reese BA, PhD, FRHistS; Derek A. Reid BSc, PhD; Clyde Reynolds BSc; John Rivers; Peter Roberts; Colin A. Ronan MSc, FRAS; Professor Richard Rose BA(Johns Hopkins), DPhil(Oxon); Harold Rosenthal; T.G. Rosenthal MA(Cantab); Anne Ross MA, MA(Hons, Celtic Studies), PhD(Archaeol and Celtic Studies, Edin); Georgina Russell MA; Dr Charles Rycroft BA(Cantab), MB(London), FRCPsych; Susan Saunders MSc(Econ); Robert Schell PhD; Anil Seal MA, PhD(Cantab); Michael Sedgwick MA(Oxon); Martin Seymour-Smith BA(Oxon), MA(Oxon); Professor John Shearman; Dr Martin Sherwood; A.C. Simpson BSc; Nigel Sitwell; Dr Alan Sked; Julie and Kenneth Slavin FRGS, FRAI; Alec Xavier Snobel BSc(Econ); Terry Snow BA, ATCL; Rodney Steel; Charles S. Steinger MA, PhD; Geoffrey Stern BSc(Econ); Maryanne Stevens BA(Cantab), MA(London); John Stevenson DPhil, MA; J. Stidworthy MA; D. Michael Stoddart BSc, PhD; Bernard Stonehouse DPhil, MA, BSc, MInstBiol; Anthony Storr FRCP, FRCPsych; Richard Storry; Professor John Taylor; John W.R. Taylor FRHistS, MRAeS, FSLAET; R.B. Taylor BSc(Hons, Microbiol); J. David Thomas MA, PhD; Harvey Tilker PhD; Don Tills PhD, MPhil, MIBiol, FIMLS; Jon Tinker; M. Tregear MA; R.W. Trender; David Trump MA, PhD, FSA; M.F. Tuke PhD; Christopher Tunney MA; Laurence Urdang Associates (authentication and fact check); Sally Walters BSc; Christopher Wardle; Dr D. Washbrook; David Watkins; George Watkins MSc; J.W.N. Watkins; Anthony J. Watts; Dr Geoff Watts; Melvyn Westlake; Anthony White MA(Oxon), MAPhil(Columbia); P.J.S. Whitmore MBE, PhD; Professor G.R. Wilkinson; Rev H.A. Williams CR; Christopher Wilson BA; Professor David M. Wilson; John B. Wilson BSc, PhD, FGS, FLS; Philip Windsor BA, DPhil(Oxon); Professor M.J. Wise; Roy Wolfe BSc(Econ), MSc; Dr David Woodings MA, MRCP, MRCPath; Bernard Yallop PhD, BSc, ARCS, FRAS Professor John Yudkin MA, MD, PhD(Cantab), FRIC, FIBiol, FRCP.

هيئة تحرير بهجة المعرفة :

Editorial Director	**Frank Wallis**
Creative Director	**Ed Day**
Project Director	**Harold Bull**
Volume editors	
Science and The Universe	John Clark Lawrence Clarke
The Natural World	Ruth Binney
The Physical Earth	Erik Abranson Dougal Dixon
Man and Society	Max Monsarrat
History and Culture 1 & 2	John Tusa Roger Hearn
Time Chart	Jane Kenrick
Man and Machines	John Clark
Fact Index	Stephen Elliott Stanley Schindler John Clark
Art Director	Rod Stribley
Production Editor	Helen Yeomans
Assistant to the Project Director	Graham Darlow
Associate Art Director	Anthony Cobb
Art Buyer	Ted McCausland
Co-editions Manager	Averil Macintyre
Printing Manager	Bob Towell
Information Consultant	Jeremy Weston
Sub-Editors	Don Binney Arthur Butterfield Charyn Jones Jenny Mulherin Shiva Naipaul David Sharpe Jack Tresidder
Proof-Readers	Jeff Groman Anthony Livesey
Researchers	Peter Furtado Malcolm Hart Peter Kilkenny Ann Kramer Lloyd Lindo Heather Maisner Valerie Nicholson Elizabeth Peadon John Smallwood Jim Somerville
Senior Designer	Sally Smallwood
Designers	Rosamund Briggs Mike Brown Lynn Cawley Nigel Chapman Pauline Faulks Nicole Fothergill Juanita Grout Ingrid Jacob Carole Johnson Chrissie Lloyd Aean Pinheiro Andrew Sutterby
Senior Picture Researchers	Jenny Golden Kate Parish
Picture Researchers	Phyllida Holbeach Philippa Lewis Caroline Lucas Ann Usborne
Assistant to the Editorial Director	Judy Garlick
Assistant to the Section Editors	Sandra Creese
Editorial Assistants	Joyce Evison Miranda Grinling
Production Controllers	Jeremy Albutt John Olive Anthony Bonsels
Production Assistants	Nick Rochez John Swan

ساهم في إعداد بهجة المعرفة :

Fabian Acker CEng, MIEE, MIMarE; Professor H.C. Allen MC; Leonard Amey OBE; Neil Ardley BSc; Professor H.R.V. Arnstein DSc, PhD, FIBiol; Russell Ash BA(Dunelm), FRAI; Norman Ashford PhD, CEng, MICE, MASCE, MCIT; Professor Robert Ashton; B.W. Atkinson BSc, PhD; Anthony Atmore BA; Professor Philip S. Bagwell BSc(Econ), PhD; Peter Ball MA; Edwin Banks MIOP; Professor Michael Banton; Dulan Barber; Harry Barrett; Professor J.P. Barron MA, DPhil, FSA; Professor W.G. Beasley FBA; Alan Bender PhD, MSc, DIC, ARCS; Lionel Bender BSc; Israel Berkovitch PhD, FRIC, MIChemE; David Berry MA; M.L. Bierbrier PhD; A.T.E. Binsted FBBI (Dipl); David Black; Maurice E.F. Block BA, PhD(Cantab); Richard H. Bomback BSc (London), FRPS; Basil Booth BSc(Hons), PhD, FGS, FRGS; J. Harry Bowen MA(Cantab), PhD(London); Mary Briggs MPS, FLS; John Brodrick BSc (Econ); J.M. Bruce ISO, MA, FRHistS, MRAeS; Professor D.A. Bullough MA, FSA, FRHistS; Tony Buzan BA(Hons) UBC; Dr Alan R. Cane; Dr J.G. de Casparis; Dr Jeremy Catto MA; Denis Chamberlain; E.W. Chanter MA; Professor Colin Cherry DSc(Eng), MIEE; A.H. Christie MA, FRAI, FRAS; Dr Anthony W. Clare MPhil(London), MB, BCh, MRCPI, MRCPsych; Sonia Cole; John R. Collis MA, PhD; Professor Gordon Connell-Smith BA, PhD, FRHistS; Dr A.H. Cook FRS; Professor A.H. Cook FRS; J.A.L. Cooke MA, DPhil; R.W. Cooke BSc, CEng, MICE; B.K. Cooper; Penelope J. Corfield MA; Robin Cormack MA, PhD, FSA; Nona Coxhead; Patricia Crone BA, PhD; Geoffrey P. Crow BSc(Eng), MICE, MIMunE, MInstHE, DIPTE; J.G. Crowther; Professor R.B. Cundall FRIC; Noel Currer-Briggs MA, FSG; Christopher Cviic BA(Zagreb),

الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
طرابلس

PRINTED IN ITALY
10/5/1982

هذه الموسوعة

لأول مرة في لغتنا العربيّة.
لأول مرة في تاريخنا بأسره.
تصدر لدينا موسوعة مصورة ومعدّة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي.

لم يكن بوسعنا ان نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا العربيّة. ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في اكثر لغات العالم تقدمًا.

وقد أنفقنا بعض الوقت ونحن نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم "الحل الوسط"، لكن البحث نفسه لم يعلمنا شيئاً سوى انه ليس ثمة حل وسط لأداء أي عمل جدّي.

فماذا فعلنا؟

سؤال بديهي حقًا، لكن اجابته الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة وحدها أو هذا الكتاب كله، انها تقع في عشرة مجلدات تضم حوالى أربعة آلاف صفحة وأكثر من عشرة آلاف صورة، وجهد خمسمائة محرر ورسّام طوال أربع سنوات كاملة.

الصادق النيهوم

المجموعة الثانية

